

رَحَالُ قَدَرٍ نَاهِيَةٍ

ترجم نشر في مجلة «مضارة الإسلام» مع إضافات

محمدا ورتبها وقدم لها وعلو عليها

مكي



أبْحَرْءُ الْأَوَّلِ



دار ابن حزم

رَحَالُفُتْنَا هِمْزِي

تراجم نشر في مجلة «عضارة الإسلام» مع إضافات

جمعها وربها وقدم لها وعلو عليها

مكي

الجزء الأول

دار ابن حزم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ
الطَّبْعَةُ الْأُولَى
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

ISBN 978-614-416-250-7

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم

بيروت - لبنان - ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 - 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تقديم كتاب «رجال فقدناهم»

الحمد لله حقَّ حمده، والصَّلَاة والسلام على من لا نبيَّ بعده،
ورضي الله على آلِه وصحبِه، وبعد:

«فالأمة الناهضة تُقدِّر رجالها أحياء وأمواتاً، فلا تُهمل تراجمهم بعد وفاتهم، عرفاناً بجميلهم، وإسداءً إليهم ما يستحقونه من حسن الأحدثوة على أعمالهم، وحضاً للأحياء على اتِّخاذ هؤلاء أسوة حسنة في خدمة الأمة من شتى النواحي.

بل إنَّ دراسة تراجم رجال كل أمة في كل عصر، حقُّ الدراسة هي المرأة الصادقة في تحديد مركز تلك الأمة في ذلك العصر نهوضاً، وخموداً، وتدهوراً.

ففي تراجم الرجال تتمثَّل حضارة الأمة وثقافتها وتقدُّمها وتأخرها، فإذاً هي معيار صادق العيار، يرجو الصادقون في خدمة الأمة إنصافها لهم، ويخاف المقصِّرون حكمها عليهم. فإذا لم يُترجم لهؤلاء^(١) وهؤلاء^(٢) تضيع مواضع الأسوة الحسنة وسوء الأحدثوة من التاريخ، فيصبح الخادم والهادم

(١) أي: الصادقون.

(٢) أي: المقصِّرون.

على حدّ سواء»^(١).

وسعيّاً منّي لتقدير هؤلاء الرجال، ونُشراً لمآثرهم، وتعريفاً بجهودهم، قمتُ بجمع هذه التراجم التي نُشرت في مجلة «حضارة الإسلام» الدمشقية، في ركن «رجل فقدناه»؛ لئلا تبقى حبيسة صفحات مجلة لم يعد من الميسور الوصول إليها، والاطلاع عليها.

وسيجد القارئ بعد هذه المقدمة تعريفاً بمجلة «حضارة الإسلام»^(٢)، وبركن: «رجل فقدناه».

عملي في هذا الكتاب:

١ - قدّمت مقدمة وافية تُعرّف بمجلة «حضارة الإسلام»، وتُلقي الضوء على أهم أركانها، وتُعرّف بهذا الركن «رجل فقدناه» الذي جمعت منه هذه التراجم^(٣).

٢ - استَقْصَيْتُ في جمع التراجم الواردة في ركن «رجل فقدناه»،

(١) تقديم العلامة الكوثري لكتاب: «الأعلام الشرقية» ١ : ٥ للأستاذ زكي مجاهد.

(٢) هذه الكلمات التي ستأتي حول المجلة، هي لمحات عنها، وأما الحديث التفصيلي عن المجلة وأركانها وكتابها، وجولاتها الفكرية، وميادينها التربوية، ودورها الإعلامي فإنه يحتاج إلى دراسة مفصلة تقدّم فيها رسالة جامعية. وما سأكتبه حول المجلة، إنما هي كلمات وقفتُ عليها خلال جمعي للمادة العلمية لهذا الكتاب، وليست المجلة بين يدي لأستقرئ الكثير من الجوانب التي تحتاج إلى بحثٍ وتفصيل.

(٣) قد يجد القارئ حديثاً مسهباً عن مجلة «حضارة الإسلام» في الصفحات التالية، وكنت أود أن أكتب كلمات حول موضوع القدوة في سير الرجال وأخبارهم، وكيف أنها تعلّم علو الهمة وتحقق النموذج المرَبّي والقدوة الصالحة. لاسيما أن المترجمين من أبناء القرن الرابع والخامس عشر الهجري، وزمنهم قريب منا، ونحن عندما نتحدّث عن السلف في القرون الأولى يرى بعض الناس أنهم أمة قد خلت؛ وأن اللحاق بهم شأن بعيد المنال لا يمكن تحقيقه. وعندما نقدم نماذج قريبة العهد فإنما نقدّم أنموذجاً يمكن تطبيقه في واقعنا وحياتنا.

وأضفتُ إليه من تقدّمت وفاتهم ممّن نشرت تراجمهم وهم ستة أعلام^(١)، كما استقصيت تراجم كثيرة واردة في المجلة في غير الركن المذكور.

٣ - رُتبت التراجم حسب تسلسلها الزمّني في المجلة (١٣٨٠ - ١٤٠٠هـ)، وأضفتُ إلى التراجم الواردة في خلال هذه المرحلة الزمّنيّة اثنتي عشرة ترجمة^(٢).

٤ - أضفتُ عدداً من التراجم على الكتاب، ويبدأ من بعد سنة ١٤٠٠ إلى سنة ١٤٣٠، وبلغ عددهم أربعاً وعشرين ترجمة^(٣).

٥ - عُنيّت بتصحيح الكتاب وترقيمه وخدمته.

٦ - كتبتُ عناوين جانبية تُضيء أمام القارئ، وتكون بمثابة علامات إرشادية، وخرّجت الأحاديث الواردة، وأضفتُ فوائد متنوعة على التراجم الواردة فيه.

٧ - حرصتُ على نشر صُور المُترجمين الذين نُشرت صورهم في مجلة «حضارة الإسلام»، وبذلت الجهد في إخراج الصُورة بوضوح ونقاء، وأضفتُ صوراً متعدّدة نادرة، كما حرصتُ على إعادة الخطوط التي كُتبت بها أسماء المُترجمين ولاسيما أنّ بعضها بخط الخطاط الشهير بدوي الديراني، وبعضها بخط الخطاط عثمان طه.

وبعد، فهذا عملي الذي قمتُ به، والذي حرصتُ فيه على الإتقان والإحسان، أسأل المولى سبحانه أن يتقبّله مني بقبول حسن، وأن يُسبغ واسع رحمته وجزيل إحسانه على هؤلاء الرجال الذين خدموا العلم والدين وأمة الإسلام، وأرجو أن يجد فيه القراء الفائدة والنفع كما أسأله سبحانه أن

(١) وهم حسب وفياتهم: محمد بدر الدين الحسيني، وعز الدين القسام، وعبد الحميد بن باديس، وقاسم القيسي، وعبد القادر المغربي، ومحمد الخضر حسين.

(٢) تنظر أسماؤهم ص ٤٠ - ٤٢.

(٣) تنظر أسماؤهم ص ٤٣ - ٤٦.

يبارك لي في الوقت والصحة والعلم والعمل لأنشر في وقت قريب التراجم التي نُشرت في موقع «الإسلام في سورية» وما تجمّع لديّ من تراجم نادرة.

اللهمّ إني أسألك علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، ورزقاً طيباً.

اللهمّ اجعل ثوابَ هذا العمل في صحيفة والديّ اللذين أحسنا إليّ، وتعهّداني بتربيتهما ورعايتهما، ربّ اغفر لي ولوالدي ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وكتبه:



١٤٣٠/٥/١٥

٢٠٠٩/٥/٩





كلمات حول مجلة «حضارة الإسلام»^(١)

مجلة «حضارة الإسلام» ودَوْرُ مُؤَسَّسِهَا فِي الصَّحَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ:

هذه المجلة الفكرية الجامعة، أنشأها الأستاذ المجاهد الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى، وقد صدر العدد الأول منها في شَهْرِي المحرم وصفر من عام ١٣٨٠هـ، الموافق تموز وآب ١٩٦٠م، واستمرت بعد ذلك في الصدور حتى عام ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

والأستاذ السباعي كان من الدعاة الأفاضل الذين بُوركت أعمارهم، وتنوّعت اهتماماتهم، وقد أدرك أهمية الإعلام والتواصل مع الجماهير، فأعطى الصحافة الكثير من وقته وجهده في الذود عن حمى الإسلام، في فترة مبكرة منذ سنة ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م، إذ كتب في مجلة «الفتح» التي كان يصدرها الأديب الأستاذ محب الدين الخطيب، ثم تابع معركة الذود عن الإسلام فأصدر جريدة «المنار» الدمشقية اليومية عام ١٩٤٧م «لساناً للدعوة الحق والقوة والحرية»، وكان يطالع الجماهير المسلمة كل صباح بافتتاحيته اليومية فيها حتى عام ١٩٤٩م. ثم أسّس جريدة «الشهاب» الأسبوعية عام ١٩٥٥م، لتكون لسان حال الدعوة الإسلامية في سورية، تُترجم عن

(١) سيجد القارئ الكريم - كما تقدم - إطالة في التعريف بالمجلة وأبوابها؛ لأن أكثر التراجم الواردة في هذا الكتاب مأخوذة من تلك المجلة. ولم أقف على دراسة تُعرّف بها وتذكر أثرها الإعلامي، ودورها التربوي والدعوي فمعدرة للإطالة والاقتباسات المطوّلة.

مواقفها، وتنشر آراءها وأفكارها. وفي عام ١٩٥٥م حصل السباعي على امتياز بإصدار مجلة: «المسلمون» الشهرية، التي كان يصدرها الداعية الإسلامي سعيد رمضان في مصر ثم احتجبت^(١)، وظلت المجلة تصدر بإدارته حتى عام ١٩٥٨م، وكانت مجلة ثقافية علمية تلتقي فيها أعلام أعلام الفكر من أمثال سيد قطب، ومحمد أبو زهرة، ومحمود شاكر، وأبي الأعلى المودودي، وأبي الحسن الندوي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، وعلي الطنطاوي، رحمهم الله جميعاً.

وآخر ما أصدره - في عمره القصير المبارك - مجلة «الحضارة» التي أعطاها من جهده وفكره ما جعلها تشق طريقها مدرسة للفكر الإسلامي المعاصر، توضح معالمه، وتعكس حقيقته ناصعة مشرقة.

«لقد كانت الصحافة الإسلامية التي أسسها مصطفى السباعي متكاملة في أداء دورها، قائمة على المنهج الإسلامي في تنوعه وسعته.

فإذا كانت «المنار» و«الشهاب» مثلاً قد غلب عليهما الطابع السياسي للدعوة الإسلامية المعاصرة، فقد كانت مجلتا «المسلمون» و«حضارة الإسلام» خالصتين لنشر الفكر الإسلامي ومعالجة قضاياها في موضوعات

(١) قال الأستاذ سعيد رمضان رحمه الله تعالى في تقديم العدد الأول من المجلد التاسع من مجلة «المسلمون»: (ربيع الأول ١٣٨٤هـ = تموز ١٩٥٤م) بعنوان: «بين عامين»: «لقد صدر العدد الأول من هذه المجلة مع غرة ربيع الأول سنة ١٣٧٢هـ = تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٩٥١م، حين كانت إدارتها في منيل الروضة (بالقاهرة)، وظلت تصدر من هنالك ثلاثة أعوام، ثم انتقل مقر إصدارها إلى (دمشق)، حيث استمر صدورها ثلاثة أعوام آخر، ثم كانت بعد ذلك هجرتها إلى (جنيف)، حيث صدرت أعداد عاميها الأخيرين، وتميزت في عنوانها منذ هاجرت هجرتها الأخيرة بأنها غدت مجلة (المركز الإسلامي) الناطقة باسمه والحاملة لرسالته إلى الشرق والغرب، وإنما كان هذا (المركز) ثمرة الطاقة الإسلامية الميمونة التي أثمرت (المسلمون) بادي الرأي، فلا غرو أن جمعتهما أصالة النبع ووحدة الفكرة والطريق»، ثم تكلم الأستاذ سعيد رمضان عن خطة المجلة وسمتها وروحها، وذكر ثلاثة أمور: أولها: أنها مجلة «دعوة»، وثانيها: أنها مجلة «رسالة هادفة»، وثالثها: أنها مجلة «ثابتة الملامح»، وأفاض في الحديث عن هذه الأمور الثلاثة ص ٢ - ٩.

يكتبها علماء مختصون، وفقهاء وأدباء في أناة وروية، تنسجم مع إصدارها الشهري»^(١).

ومن أبرز كتّابها في سنواتها الأولى: محمد أبو زهرة، ومصطفى الزرقا، وعلي الطنطاوي، ومعروف الدواليبي، ومحمد المبارك، ومحمد زكي عبدالبر، ومالك بن نبي، ومحب الدين الخطيب، وعمر عودة الخطيب، وعمر الحكيم، ومحمد المنتصر الكتاني، وعبدالقادر السبسي، وعبدالفتاح أبو غدة، ومحمد صالح الأشر، ومحمد عبدالله العربي، عميد كلية الحقوق، بجامعة القاهرة، وعلي الخفيف، وعلي عبدالواحد وافي، ويوسف العش، وصبحي الصالح، ومحمد سعيد رمضان البوطي، وعدنان زرزور، وعبداللطيف الصباغ، ومن شعراء الشباب آنذاك: محمد الحسناوي، ومحمد منلا غزيل.

كلمة الأستاذ السباعي في افتتاحية العدد الأول من «حضارة الإسلام» وقد كتب الأستاذ السباعي في افتتاحية العدد الأول^(٢) تحت عنوان:

المجلة في عامها الجديد

«تعيش أمتنا في عهد جديد تتطلع فيه إلى آفاق حضارية جديدة، تسم بالذاتية والاستقلال والكرامة، وإذا كانت تسمات الحرية قد هبت على جميع شعوب الشرق فأيقظتها من غفلتها، وبعثت فيها حنيناً إلى حياة الاستقلال والنهوض، فإن أمتنا لا تمتلكها هذه الروح من جديد لأول مرة في تاريخها الطويل، ولا تحاول أن تجاري الأمم الناهضة في تطلّعها إلى الحرية،

(١) مصطفى السباعي: رائد أمة... وقائد دعوة. للدكتور محمد عادل الهاشمي ص ٣٩٥.

(٢) قمت بجمع جميع مقدمات «حضارة الإسلام»، للدكتور السباعي، وقدمتها لابنه الصديق الفاضل الأستاذ محمد السباعي، ونشرها في كتاب بعنوان: «مقدمات حضارة الإسلام»، كما قدّمت له جميع مقالات الأستاذ السباعي في مجلة «الفتح»، ونشرها بعنوان: «آلام وآمال». ولكن إعادة طبع هذه الافتتاحيات والمقالات يستلزم التعليق عليها أو التقديم لها بما يضعها في ظروفها ومناسبتها وإطارها الزمني.

وعملها في سبيلها، بل إن لها تاريخاً حافلاً لعبت فيه دوراً حضارياً خالداً، ولها أياد بيضاء في تحرير الشعوب والسير بها نحو الحياة السعيدة الرغدة، بخطى واسعة، فلا عجب إذا انبعثت فيها من جديد "روح الحضارة" تحث خطاها نحو البناء، وتدفعها حثيثاً نحو النور.

نحن أمة لها ماضٍ، وعندها تراث، وبين يديها بناء، وفي عقولها فلسفة ورسالة، وهي عيونها سناء ونور، وفي قلوبها إيمانٌ ويقين، وفي أخلاقها نبل وشرف، وفي نفوسها تقى وصلاح، فلنا من بين هذه الأمم الناهضة كلها سائر غير تسابها، ومن ثمة كانت علينا واجبات أكبر من واجباتها.

والأمم العيبة لا نستحدي بل نعطى، والأمم البصيرة لا تُقاد بل تقود، والأمم القويّة لا تُدفع بل تدفع، والأمم المفكرة لا تهدم بل تبني.

والقوى المرحبة تعمل ولا تفر، وحملة الرسائل يُوجهون ولا يُوجهون، ورافعو المشاعل يضيئون ولا يطفئون الأنوار!...

وإذا كنا أمةً حضارية قد أسهمنا في بناء الصرح الحضاري بأنظف يد، وأكمل عقل، وأسلم قلب، وأكرم خلق، وأقوى مادة، فإن تراثنا الحضاري، لا يزال حياً يحتاج إليه هذه الإنسانية التي تعيش اليوم قلقاً مُعذّبة: تطعم وهي تشكو الجوع، وتشرب وهي تعاني الظمأ، وتدلل على السعادة وهي تيه في الشقاء، وتعرف إلى الصحة وهي تن من وطأة المرض!...

وتراثنا الحضاري الحي مُتنوع فيه اللذة والغناء، والقوة والصفاء، ولكنه يشكو الإهمال والإعراض، وينتظر من ينصفه من أبنائه كما بدأ ينصفه بعض أعدائه، وأجدر وقت بإحيائه وإنصافه هو هذا الوقت الذي تثب فيه أمتنا في خطوة ما لم تكن تثبه قبل قليل بعشرات الخطى، وتبني في ساعة ما كانت لا تقيم صرحه بعشرات السنين، وأجدر الأجيال بحمل هذا التراث وحمل أعبائه الجسام هو هذا الجيل، الذي أدرك قيمة ذاته، وحمل من أعباء المجد ما لم يحمل غيره من عشرات الأجيال، والذي أجبر العالم على أن ينظر إليه نظر الاحترام بعد أن ظل مئات السنين لا ينظر إليه إلا نظر الازدراء والإهمال!...

تسمية المجلة «حضارة الإسلام» بدلاً من «المسلمون»:

من أجل هذا كله، قرّرت مجلتنا أن نُسهِم في بناء مجلّتنا الحضاري الحديث، بعرض الصورة الحيّة المثيرة المفيدة من تراثنا الحضاري وتفكيرنا العلمي، وأن يكون اسمها بعد الآن: «حضارة الإسلام» بدلاً من «المسلمون»^(١)، وأن تكون مُنوعة المادة، غزيرة الفائدة، كغزارة الفكرة التي تحملها، والبناء الذي تُسهِم فيه، وأن تستكتب من أقطاب العلم، وأساطين الفكر، وأعلام الأدب، ما يتفق مع عظمة الرسالة التي تحملها والغاية التي تهدف إليها.

وهذا الجزء الأول من عامنا الجديد، لن يكون مثلاً لما نريد من تجديد في المادة وتنوّع في الأبحاث وتعدّد في الثقافة، فقد اضطررنا ظروف قاهرة إلى إخراجه بهذا الشكل الموجز، على أن نبدأ منذ العدد القادم بحول الله بإخراج المجلة كما نحب ويتفق مع منهجها الجديد.

مهمة المجلة الرئيسية:

ونريد أن نوّكد لقرّاننا الأعزاء أننا لا نزال نعتبر مهمة المجلة الرئيسية هي التوجيه الصادق السليم، نحو بناء ثقافي مستقيم، ثابت غير منحرف، جميل غير مُشوّه، قوي غير مُضطرب، نستلهمه من عقيدة هذه الأمة وتراثها الغني العظيم، ورسالتها التي كانت رحمة للعالمين.

وهذا عهد نريد أن نُجدّده لقرّاننا في مستهل العام الجديد لمجلّتهم التي منحوها حبّهم وتأييدهم، وهي تنتظر منهم في ثوبها الجديد، المزيد من ذلك الحبّ والتأييد.

(١) يقول الدكتور عدنان زرزور في كتابه «مصطفى السباعي الداعية المجاهد...» ص ٤٢٤: «إنّ تحويل اسم المجلة من (المسلمون) إلى (حضارة الإسلام) ليس عملاً عابراً في هذا السياق لأننا ما نزال نقف على أهميته وفلسفته عاماً بعد عام... حتى وصلنا اليوم إلى عصر (نهاية التاريخ) وصدّام الحضارات الذي يتحدث عنه الآخرون».

ومن الله نستمدُّ العون والهداية، وعلى هدي رسوله محمد ﷺ نسير،
والى خير أمتنا نسعى، وفي سبيل الله نحيا، ولرضاه وثوابه نعمل، وهو
أرحم الراحمين» انتهى.

وقد استمرَّ إشراف الأستاذ السباعي على تحرير هذه المجلة
ورئاستها، حتى آخر يوم من حياته^(١)، أي: مدة تقرب من خمسة
أعوام. «وقد كتب فيها عشرات الافتتاحيات - ما يقرب من أربعين -
وكانت الافتتاحية تتراوح بين ثلاث وخمس صفحات، وتتناول أهم
أحداث الساعة فكرياً وثقافياً وسياسياً، وتمتاز هذه الافتتاحيات بقوة
الرُّبْط وعمق التحليل... إلى جانب الرؤية الحضارية الشاملة الأمر الذي
يجعل جمعها وإعادة طبعها من جديد عملاً علمياً دعواً مهماً»^(٢)، ولم
تكن هذه الافتتاحيات كل مشاركته في تحرير المجلة، فقد كانت له
بعض المقالات، والكثير من الردود والمناقشات والتعليقات، إلى جانب
التعريف العلمي ببعض الكتب والإصدارات، وكتابة تراجم بعض العلماء
والشخصيات الذين كان يفتقد لهم الوطن أو الأمة، وتمتاز هذه التراجم
بالإحاطة والنفاذ»^(٣).

وها هو يقول في افتتاحية العدد الأول من السنة الرابعة: (ربيع الأول
١٣٨٣، الموافق آب ١٩٦٣) تحت عنوان:

(١) وكانت افتتاحيته الأخيرة في مجلة «حضارة الإسلام» بعنوان: «الطريق الصحيح لحل
مشكلاتنا»، ذكر فيها ملاحظاته على مؤتمر القمة العربي الثاني، ومقالته الأخيرة
بعنوان: «رحلة إلى الله ورسوله» في العدد الثالث من السنة الخامسة: جمادى الأولى
١٣٨٤هـ، الموافق أيلول (سبتمبر) ١٩٦٤م، وتوفي الأستاذ السباعي ظهر يوم السبت
الواقع في السابع والعشرين من جمادى الأولى ١٣٨٤هـ، الموافق للثالث من تشرين
الأول (أكتوبر) ١٩٦٤م، رحمه الله تعالى.

(٢) مصطفى السباعي، الداعية المجاهد والفقيه المجتهد، للدكتور عدنان زرزور ص ٤٢٣ -
٤٢٤.

(٣) المصدر السابق ص ٤٣١.

نحن وكلمة الحق في عامنا الجديد

«باسم الله تفتتح هذه المجلة عامها الرابع، وإن لها في ذكرى كل من الهجرة والمولد أبرع استهلال، وعلى هدى من الله تعود هذه الصفحات إلى بث كلمة الحق ونشر دعوة الإسلام، وإن لها في سيرة رسول الحق خير قَبَسٍ ينير السبيل ويُحدّد معالم الطريق.

باسم الله نعود إلى قرائنا في مستهل عام جديد، لنعاهدهم على التثقف بكلمة الإسلام ما دامت في أفواهنا ألسنة تنكلم، وعلى كتابة الحق الضراح ما دامت في أيدينا أقلام تخط... ننطق ويكتب ضمن صراط من الحكمة والرفق، وعلى صعيد من الإخاء والتواضع والنصح.

دعوة الحق ووظيفة كل مسلم:

نعدُّ قُرَّاءنا بهذا ونحن نعلم أنَّ دعوة الحق هي وظيفة كل مسلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سرُّ حياة كل مؤمن، على هذا تمَّ العقد بيس الله عزَّ وجل وعباده المؤمنين في كل عصر وحالة وتاريخ... وبهذا شهد ملكوت الله من ملائكة وسماوات وأرضين، وبموجب هذا نطق بيان الله في كتابه العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْلِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْلِلُونَ وَيَقْلِلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ﴾ التوبة: ١١١.

إنه لعهدٌ عظيمٌ وخطيرٌ!...

عهد لا يخصُّ طبقة دون أخرى، ولا رجلاً دون امرأة، ولا شاباً دون شيخ، إنما هو عهد الله على جميع عباده الذين وقعوا تحت نصِّ هذا البيان، أولئك هم الذين شهدوا بوحدانية الله ونبوَّة رسوله، وأيقنوا أنَّ يوم الفضل ميقات لا ريب فيه يقوم فيه الناس لرب العالمين.

الجهاد بالكلمة الصادقة:

ذلك هو عهد الجهاد بالكلمة الصادقة، والقلم الجريء، والدعوة المخلصة.

عهد قطعناه على أنفسنا يوم آمنا بالله. ومن الخيانة أن نبذه وراء ظهورنا يوم أن قام بيننا وبينه دعة النعيم وزخرف الحياة الدنيا.

لقد أكد الصحابة على أنفسهم حقَّ هذا العهد يوم أن مدوا أيديهم إلى يد رسول الله ﷺ عند العقبة وتحت الشجرة - وهم لا يشكُّون أنهم إنما يمدون أيديهم إلى الله - ثم راحوا يبايعونه في إصرار خاشع على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمشط والمكره، والغضب والرضا.

ثم أكد التابعون من بعدهم تمسُّكهم بهذا العهد يوم أن بايعوا الصحابة على ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، ثم تفرَّقوا بين سمع الدنيا وبصرها يُجاهدون بنشر العلم وبث الدعوة وخمَل السلاح وضيحة الحق.

ويؤكد المسلمون اليوم من بعدهم نفس هذا العهد والحق كلما احتشد منهم حشدٌ عند العقبة أو حول ذرى عرفات، حيث بايع رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً أول جيل من دعاة الإسلام على الإصرار في حفظ جُمى الإسلام والجهاد في نشر مبادئه وأحكامه، هنالك يجدد المسلمون هذا العهد على أنفسهم في كل عام... وهنالك تتعاقب أجيال المسلمين على مد يد البيعة إلى رسول الله ﷺ أن يكونوا أمناء على الحق الذي تركه بين أيديهم، وعلى آخر وصية وجهها عبر التاريخ والأجيال إلى سمع الزمن كله متمثلاً في هذه الأجيال المتعاقبة لهذه الأمة.

ولقد وفى الرعيل الأول بما عاهد الله عليه، فوفى لهم بالنصر الذي وعدهم إياه، والسعادة التي مثَّاهم بها، لم يبالوا في سبيل الله بمال يذهب ولا بحياة تزول، لأنَّ المال لم يعد مالهم والحياة لم تعد حياتهم بعد أن اشتروا بهما جنة الله ومرضاته، لم يضطنَّعوا الدعوة إلى الحق للتجارة بالمال أو الشهرة، ولم ينافقوا أمام الشر للمقامرة ابتغاء غرض أو قصد، لأنهم لم يكذبوا على الله في جهر ولا سر، ولم يدخلوا الإسلام لاقتناص الجاه

الزائل أو المنفعة العارضة، فكان جزاؤهم أن ظل التاريخ ساجداً لهم إلى هذا اليوم، يُرتل مآثرهم على سماع الدنيا وعبر الأزمنة والقرون.

ولقد مضى أولئك القوم وإن أعينهم تتطلع من خلال الزمن إلى من وراءهم من المسلمين: ما الذي سيكون من شأنهم تجاه بيعة الإسلام في أعناقهم وعهد الله في ذمهم؟

غير أنه خُلف من بعدهم خُلف - وأسفاه - وُجد فيهم من يقذف بكلمة الحق كما يقذف الصياد شبكته إلى البحر ليستجر بها صيدا يتاجر به أو يملأ منه بطنه... ووُجد فيهم من أيقن بهذه البيعة كلاماً وكفر بها عملاً ودعوةً وجهاداً... ووُجد فيهم من يزعم أن عهد الدعوة الإسلامية إنما أخذه الله على من يستتر بهم (رجال الدين) كأنما صنف الله المسلمين إلى فريقين وآخر يهدم، فلا هذا بلام على هدمه وإفساده، ولا ذاك يُعان على أمره وجهاده!...

غير أن الحق سيظل غلاباً في كل عصر وعلى أي حال، وإن غلب على أمر بعض دعائه في بعض الأحيان، ذلك لأن الله لم يُجند له عباده من أجل حاجة به إلى ألسنتهم وجهادهم، بل من أجل اختبارهم وابتلائهم فيما خلقهم من أجله وأوجدهم لسيبه.

فإن وفوا بالحق الذي أمروا به، نالوا على ذلك مَرْضَاة الله وإحسانه، وإن خانوا الأمانة والعهد استحقوا بذلك عقوبته وعذابه، والحق في كلا الحالين غني عنهم بحفظ الله العلي القدير.

ومهما نكب الإسلام ببعض دعائه، أو تسر بقوته بعض الضعفاء ممن لا يهمهم أمره، فسوف لا يزال طائفة من أمة محمد ﷺ ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يقوم أمر الله وهم غالبون» انتهى.

الدفاع عن قضايا العالم الإسلامي الكبير:

لقد أراد السباعي رحمه الله تعالى كما يقول الأستاذ محمد بسام الأسطواني، مدير تحرير المجلة: «أن يجعل من «حضارة الإسلام» منبراً للدفاع عن كل قضية من قضايا العالم الإسلامي الكبير، ولقد خصّ أهم

قضايا الوطن العربي والإسلامي باهتمام زائد، فأفرد للقضية الفلسطينية باباً باسم «الدرة المقتضبة» لمتابعة تطوراتها ومراحلها، وآخر باسم «أرض البطولات» لمتابعة تطورات القضية الجزائرية وثورتها حين كانت قائمة، وألغى هذا الباب بعد أن أدى واجبه، واستنفد أغراضه إثر انتصار الثورة الجزائرية، في «أرض البطولات» كما أحدث باباً جديداً لمتابعة القضية العُمانية والانتصار لها وتوعية القراء بأهدافها وحقيقتها وسمّاه: «ثورات إسلامية - عمان الثائرة في طريق التحرر». ولم يكتف بذلك، بل عمل رحمه الله تعالى على إصدار عدد ممتاز عن الجزائر وثورتها وجهادها. وذلك من السنة الأولى للمجلة. وفي السنة الثانية خصّ القضية الفلسطينية بعدد خاص ممتاز.

وكلّ من هذين العديدين يُعتبر مرجعاً هاماً للقضيتين من أهم المراجع التاريخية العلمية لِمَا احترياه من وثائق وحقائق وأرقام ووقائع لم يجمعها مصدر آخر^(١).

من أبواب المجلة:

ومن أهم أركان المجلة: ركن فراند الفوائد، للأستاذ السباعي، ومكتبة المجلة، وعالم الكتب (نقد وتعريف)، وشؤون العالم الإسلامي، واعرف وطنك أيها المسلم، وباب الأدب والنقد الذي كان يشرف عليه الأستاذ عصام العطار، وسؤال وفتوى^(٢).

وجاء في العدد العاشر من السنة الأولى: (شوال ١٣٨٠هـ = نيسان ١٩٦١) تحت عنوان: بيننا وبين القراء:

- (١) حضارة الإسلام العدد الممتاز: «تاريخ دعوة في حياة رجل» ص ٥٠٥ - ٥٠٦.
- (٢) وقد كانت أكثر الفتاوى يحزرها الأستاذ الزرقا، وكان جمع فتاويه من هذه المجلة، نواة لجمع فتاويه الأخرى التي صدرت بعنايتي في مجلد كبير بعنوان: «فتاوى مصطفى الزرقا»، وطبع ثلاث طبعات، وسيصدر الجزء الثاني من «الفتاوى» في وقت قريب بعون الله وتوفيقه.

«أخي القارئ: بهذا العدد الذي نطالعه نختم المجلة سنتها الأولى، بعد أن حرصت غاية جهدها أن تجعل من هذه المجلة مرآة صادقة يتجلى فيها البحث الإسلامي العميق، والموضوع الفكري الدقيق، إلى طائفة من الأبواب فيها الفوائد الفريدة، والأدب الأصيل، والصور الحية لعظماء حضارتنا ووقائعها الرائعة...»

في ميدان الأخبار:

وفي ميدان الأخبار حرصت على أن تقدم في كل عدد أهم الأنباء وأكثرها صلة بكناح الأمة العربية والإسلامية وثقافتها الأصيلة، كما أوردت لقضية فلسطين (درتنا المفتصة)، ولقضية الحرائر (أرض بطولاتنا) بابين حاصين بالإضافة إلى عدد مستار عن قضية الحرائر بمناسبة الذكرى السابعة لهذه الثورة المجيدة، وكان الهدف من ذلك أن يكون القارئ على اتصال دائم بهاتين القضيتين اللتين يعترهما كل عربي ومسلم حديث يومه، ومناظ آماله لما في حلّهما الحل العادل من إعادة الحق إلى نصابه، وتحظيم بير الاستعمار البغيض، ورفع راية الحرية والاستقلال...

والمحالة لا تدعي أنها أوفت على الغاية، ووصلت إلى ما تهدف إليه من تقدم. لأنها إن رضيت بما وصلت إليه فقد جمدت، والجمود في ميدان البناء الفكري السليم موت بطيء... وهي شديدة الحرص على الحياة... حماة الفكر الإسلامي النير، والحصارة الإسلامية الحالدة...

وبمثل هذا الحب والتأييد والتعاون الصادق المتمر الذي منحه لها قراؤها سببر - إن شاء الله - حظى أكبر "نحو بناء ثقافي مستقيم، ثابت غير منحرف، حمل غير مشوه، قوي غير مضطرب، يستلهم من عقيدة هذه الأمة وبرائها الغني العظيم، ورسالتها التي كانت رحمة للعالمين..."

كلمة مدير تحرير المجلة في ختام السنة الرابعة:

وقد كتب الأستاذ محمد بسام الأسطواني أيضاً في العدد العاشر من السنة الرابعة: (ذي الحجة ١٣٨٣ = ١٩٦٤) رسالة إلى قراء المجلة وأصدقائها تحت عنوان: «كلمتنا مع ختام السنة الرابعة»: بين فيها أهداف المجلة، وما

أخذت على عاتقها من عرض الفكرة الإسلامية، ومعالجة مشكلات العالم الإسلامي، والانتصار لقضاياها، وفي هذه الرسالة إجابة عن الغاية من بعض الأبواب الدائمة في المجلة: ولاسيما بابي (وقائع الحضارة الإسلامية) و(من وقائع الحضارة الغربية). وهذه كلمته الضافية تحت هذا العنوان:

كلمتنا مع ختام السنة الرابعة

"يطيب لي مع صدور هذا العدد الذي تختتم به المجلة سنتها الرابعة، أن أبعث باسم رئيس أسرة تحرير المجلة إلى الإخوة المشتركين والقراء الذين هم أسرة المجلة الكبيرة المنتشرة في جميع بلدان العالم، أطيب التحيات وأصدق الشكر على ما لفته المجلة في عامها الرابع والأعوام السابقة من تشجيعهم نستمر بإقبالهم عليها إقبالاً متزايداً، ونجاوبهم معها تجاوباً ملحوظاً. مما كان له أكبر الأثر في قدرتنا على الوفاء ببعض عهودنا ووعودنا التي ألزمتنا بها أنفسنا منذ العام الأول للمجلة بأن نعمل وسعنا، وأن نبذل جهدنا للسير بنا قدماً نحو المستوى الرفيع اللائق الذي ننشده لها، لتكون الممار الهادي للأحيال الإسلامية الصاعدة، تُنير لهم طريق النجاة القويم، وتأخذ بأيديهم برفق وعزم لتدلهم على الثبع الصافي المعطاء الذي يروي ظمأهم الروحي والفكري والنفسي، والذي يروي شجرة المعرفة الطيبة التي باركها الله فثنت أصلها في الأرض الجضبة بالحق، ومدً فرعها على السماء حيث يستلهم الحق... وألقى ظلالها الوارفة على المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها، ليفيتوا إليها من الجهالة والخرافة والضلالة، والتخبط والاضطراب، وأينع ثمارها الطيبة الزكية لتتغذى بها العقول والأرواح والنفوس..."

من أهداف المجلة:

وإن مجلة «حضارة الإسلام» ترجو أن تكون كهذه الشجرة الطيبة تمدُّ بأغصانها الثمار اللبنة إلى قرائها في كافة أنحاء المعمورة لتربطهم بالأصل،

وتصلهم بالنبع، فتوحد تفكيرهم، وثقافتهم، وتحقق الوحدة والانسجام والتماسك بين العاملين للفكرة الإسلامية التي ما ضرها أمر كتعدد طرق التوعية والتوجيه، واختلاف مناهج التفكير وأساليب الدعوة^(١).

ونحن عندما نسعى لذلك لا نزع لمطريقتنا العصمة والكمال، وخسبنا أن نبذل الجهد لبلوغ الكمال الممكن مستفيدين من نصائح الناصحين المخلصين، واقتراحات وملاحظات الإخوة القراء التي لها عندنا المقام الأول، وحسبنا قبل كل شيء وبعد كل شيء صدق النية وإخلاص القصد وبذل الجهد.

وإن المحلة يذن الله وعونه مستمرة في عطائها ما دامت تجد في قرائها التجاوب والعرب والتسجيع، وهي بإذن الله وعونه ماضية في طريقها بعزم وثبات، مستعينة بالله على الصعوبات والعقبات لتحقيق أهدافها وغاياتها في نشر الثقافة الإسلامية وتوحيد النهج الفكري لها.

عرض الفكرة الإسلامية:

من أجل ذلك أخذت المجلة على عاتقها مهمة عرض الفكرة الإسلامية عرضاً سليماً واضحاً مشرقاً لا جمود فيه ولا تعسف، هادفة إلى تكوين مدرسة فكرية إسلامية، توضح معالم الطريق، وتزود الشباب الإسلامي بالفكرة والثقافة والوعي المؤخذ، وتجنبهم التخبُّط والانحراف، وتحصنهم ضد الغزو الفكري والأخلاقي الذي تهب رياحه من الشرق ومن الغرب المتآمرين على الإسلام ودعائه.

معالجة مشكلات العالم الإسلامي:

والى جانب ذلك أخذت المجلة على عاتقها معالجة مشكلات العالم

(١) في كلام الأستاذ الأسطواني نظر، فتعدد طرق التوعية واختلاف مناهج التفكير وأساليب الدعوة يثري العمل الإسلامي، ما دام الاختلاف تنوع لا تضاد، وما روعيت في طرق الدعوة ومناهج التفكير ومسائل العلم والدين آداب الاختلاف.

الإسلامي، والانتصار لقضاياه، وتأييد شعوبه في معاركه ضد الاستعمار والظلم والطغيان، وفي معاركه أيضاً ضد التخلف والانحلال، والمبادئ الهدامة والمؤامرات الاستعمارية والصهيونية والسيوعية المتحالفة كلها لحرب الإسلام وتشويه حقائقه وإضعاف قوته متوسلة لذلك بشتى الأساليب والوسائل الخبيثة، هادفة القضاء على أصالة أمتنا وتحويلها عن طريق المجد والعزة والكرامة إلى طريق التبعية الدليل...

والمجلة في معالجتها لهذا الجانب، واضطلاعها بهذا الواجب، تعترف بأنها ما تزال مُقَصَّرة، وما ذلك إلا لضعف وسائلها في تقصي أخبار العالم الإسلامي، والإحاطة بجميع مشكلاته، وإبها لتأمل أن تجد في قرائنها في كل بلد إسلامي العون الذي يساعدها على سد هذا النقص، ويساعدها على أداء هذا الواجب. وذلك لأن يرودوها بما يصل إليهم من أخبار ومعلومات تتصل بشؤون العالم الإسلامي بالتعريف ببلادهم ومشكلاتها وأحوالها، وبالنشاط الإسلامي فيها ليكون كل مسلم على اطلاع كاف على أحوال إخوانه في كل مكان، فيتسع بذلك نطاق التعاون، ويحقق قول الله تبارك وتعالى فينا: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء].

وإن المجلة لتفتح صدرها بكل رحابة وترحيب لمثل هذا التعاون، وهي تؤكد أنها لجميع المسلمين، وأنها منهم وإليهم، تزودهم بالثقافة الأصيلة، وتهتم بمشكلاتهم، وتحارب أعداءهم، ولا تخشى في الله لومة لائم، رائدها الحق، وغايتها رضا الله، وخدمة الفكرة الإسلامية...

«من وقائع الحضارة الإسلامية» و«من وقائع الحضارة الغربية»:

وفي معرض الإجابة على سؤال يتعلق ببابي: «من وقائع الحضارة الإسلامية» و«من وقائع الحضارة الغربية».

أقول: إن الغاية من الباب الأول: تعريف القارئ بالحقائق الرائعة التي تجسدت بالواقع التاريخي للإسلام مما يجهله كثير من الناس لبعدهم عن المصادر التاريخية الصحيحة للإسلام، أو بالأصح لإبعادهم عنها وفق الخطة الاستعمارية الصهيونية التي نسجت خيوطها في أعقاب الغزوات الصليبية على

الشرق الإسلامي، وبدأ بتنفيذها بالغزوات التبشيرية في بلادنا وجميع البلدان الإسلامية هادفة تحويل أجيالنا عن الإسلام بتشويه حقائقه، والافتراء على تاريخه، وتزوير وقائعه، ولقد أثمرت هذه السياسة أيام الانتداب الفرنسي في بلادنا، والتسلط الاستعماري في جميع بلدان العالم الإسلامي، ونشأت أجيال في ظلاله لا تعرف عن الإسلام إلا ما لقنتهم إياه مدارس التبشير والاستعمار من شُبهات وأضاليل حوله، كما عملت على إشباعهم الإعجاب بالحضارة الغربية إلى حدّ الفتنة بها، وصوّرت لهم أنّ هذه الحضارة هي المنبع الوحيد للعلوم والرقى والتقدم والخير... كما تمكنت بوسائلها الإغرائية التضليلية أن تجعل من بعض أبنائنا من يزدرى حضارتنا وأمجادنا وديننا، بل ينكر أن تكون لنا في الأصل حضارة وأمجاد... ومن هنا يتضح هَوُل الجريمة التي صنعتها هذه السياسة التي وإن أفلحت في التأثير على كثير من أبنائنا، إلا أنها لم تستطع أن تؤثر على الجميع بالرغم من قواها ووسائلها وجهودها. ذلك لأنّ قوة الإسلام الداتية كانت أقوى بكثير من كل محاولة من هذه المحاولات... فقام في الشرق الإسلامي أفراد وجماعات ممن فهموا الإسلام على حقيقته الناصعة وعزّ عليهم أن يُحارب الإسلام في عقر داره، ولا ينبري أحد لردّ العدوان الظالم عنه، فأخذوا على عاتقهم هذه المهمة الكبيرة، وقاموا بنشاط عظيم لبيان حقيقة الإسلام المُفترى عليه، وردّ الشبهات الكثيرة التي أثارها أعداؤه التقليديون عليه، وهم الاستعمار والصهيونية والشيوعية الذين بهتوا، للنجاح العظيم الذي أحرزه دعاة الإسلام بالرغم من ضعف وسائلهم في الدفاع عن دينهم.

مزايا الحضارة الإسلامية ومساوئ الحضارة الغربية:

وجاءت مجلة «حضارة الإسلام» كقوة جديدة للدفاع عن الإسلام، فساهمت في هذا الميدان، وجعلت من أهدافها الرئيسية: بيان مزايا الحضارة الإسلامية، والكشف عن مساوئ الحضارة الغربية بذكر وقائع الحضارتين في صفحتين متقابلتين، تقارن بينهما بالوقائع، كل من مصادرها الأصلية، وعلى لسان أصحابها وضّاعها، لأن المقارنة بالوقائع الملموسة هي أقوى وسائل

البرهنة التي تدمغ المكابرين والمعاندين وتفضح المزورين... ولقد دعمنا هذين البابين، ببابين آخرين هما: «أزمة الحضارة الغربية» و«المرأة في الحضارة الغربية».

الجانب العلمي من الحضارة الغربية:

ونحن عندما نُسجّل على الحضارة الغربية مساوئها الاجتماعية والأخلاقية لا يفوتنا أن نفرّق بين جانبيين لهذه الحضارة: الأول: علمي، والثاني: اجتماعي. أما الجانب العلمي فلا شك أنه قد تقدّم تقدّماً مذهشاً رائعاً، لا ينكره أحد، ولا نستكف عن الاستفادة من خيراته، بل إنّ ديننا وعقيدتنا ليدعونا إلى الاستفادة من الثمار العلمية لهذه الحضارة، على أنه ليس للعرب أن يَمُنّ ويستعلي ويباهي بهذه النتائج على الشرق لأن بذور نهضته العلمية إنما هي من ثمار حضارتنا الإسلامية، وما نأخذه اليوم من الغرب هو نظير ما أسلفناه فيما مضى... والحضارة العلمية على كل حال ليست صبيح أمة أو جيل، وإنما هي ثمرة جهود البشرية عبر عصور طويلة بغضّ النظر عن اختلاف الأجناس والأزمان والأديان، فالحضارة العلمية الغربية أخذت عن الإسلامية التي أخذت هي أيضاً عمّن سبقها.

قيمة الحضارة الإسلامية:

وبهذا أكون وضحت للسائل أن الهدف من هذه الأبواب في المجلة ليس الطعن بالحضارة الغربية إطلاقاً كما ظن وإنما بالجانب الاجتماعي والأخلاقي منها فقط، وقيمة الحضارة في النظر الصائب فيما تقدّمه لأبنائها وللإنسانية من أمن روحي وسلام نفسي واجتماعي، وقيم ومثل أخلاقية، تربط المجتمعات ربطاً أساسه الحب والتعاون، وهذا ما امتازت وتفرّدت به الحضارة الإسلامية دون سواها إلى جانب التقدّم العلمي والفكري والعمراني. أما الحضارة الغربية فهي في هذا الجانب قد فشلت كل الفشل في تحقيق شيء من ذلك لأبنائها فضلاً عن غيرهم.

الحضارة الغربية في جانبها الاجتماعي والأخلاقي:

ونحن نحترم وندعو لحضارة العلم والمعرفة والعمران، أياً كان مصدرها، ونحارب ونزدري حضارة الانحلال الخلقي وإنهيار الأسرة، وازدياد حوادث الطلاق، وارتفاع نسبة الأطفال غير الشرعيين ارتفاعاً رهيباً عجبياً، وتكاثر جرائم الأحداث والمُشرّدين تكاثراً حير رجال القانون والقضاء والاجتماع!! حضارة الإباحية والفجور والمخدرات والرقيق الأبيض والشذوذ الجنسي، والمضائح الأخلاقية السياسية من نمط (بروفوميو وكريستين)!! حضارة التمييز العنصري، والتعصب الديني، والاستعمار الوحشي!! حضارة الربا والاحتكار والاستغلال والصوصية على أحدث الطرق الفنية!! حضارة المادة الظالمة، والأنانية الفردية، والأمراض النفسية، حضارة الوجودية والفوضوية والعدمية ونوادي العراة وتبادل الزوجات!!! حضارة القلق النفسي، والانتحار والتفكك الاجتماعي!!...

هذه هي الحضارة الغربية في جانبها الاجتماعي والأخلاقي كما تنشر وقائعها صحف الغرب ومجلاته وكتبه وأفلامه، وهذه هي الحضارة التي نعيها ونحاربها ونخشى من عدواها، نذكرها بوقائعها، من مصادرها، وعلى لسان أصحابها وأبنائها الذين ضاقوا بها ذرعاً، وأكثروا نقدها وتجريحها، وبدأوا يتلمسون طريقاً للنجاة من الهاوية التي تقودهم حضارتهم إليها... طريقاً يجدون فيه الأمن والسلام لأرواحهم ونفوسهم وأسرهم ومجتمعاتهم، وإن الطريق الذي يبحثون عنه موجود، معروف، مُعَبَّد مفروش يُشعُّ بالنور، إنه طريق الإسلام وحده، ولكن أين المُبصرون؟! إنَّ الغشاوة التي أعمت عيون الغربيين والشرقيين على حدٍّ سواء كثيفة لا جلاء لها إلا أن يدخل نور الإسلام إلى القلوب ليُبَدِّد فيها حالك الظلام ويهديها إلى سواء السبيل.

وبعد؛ فهذا عرض سريع لأهداف المجلة وجهودها في سبيل هذه الأهداف، نحتتم به العام الرابع للمجلة، شاكرين الله تبارك وتعالى على ما أولانا به من رعاية وعناية وتوفيق، مستمدين منه تعالى القوة والعون لمتابعة الطريق الذي بدأناه لتحقيق ما نرجوه من تقدُّم مستمر لخدمة الفكر الإسلامي

والأجيال الإسلامية، معترفين بحقيقة قصورها عن بلوغ الغاية التي كنا نرجوها ونعمل لها، وحسنا أننا لم نقصر في بذل الجهد وإخلاص القصد.

ولا يسعنا في الختام إلا أن نتوجه بالشكر إلى جميع الإخوة القراء الذين أرسلوا برساناتهم الكثيرة التي تحمل من الثناء والتقدير والإعجاب بالمجلة ما يشجعنا على المُصَيِّ في طريقنا وبدل المزيد من الجهد لتطوير المجلة ودفعها إلى الأمام دفعاً مستمرا نحو الكمال المنشود لنقدم حديداً في كل عام وفي كل عدد إذا أمكن، مستفيدين من كل اقتراح أو نصيحة أو جهد". انتهى.

كلمة مدير تحرير المجلة في أول العام الخامس:

وفي أول العام الخامس (١٣٨٤هـ = ١٩٦٤) من عمر المجلة، كتب أيضاً مدير تحريرها الأستاذ محمد بسام الأسطواني كلمةً وتحيةً وجهها إلى قراء المحلة وأصدقائها، وفيها بيان ما قدّمت المجلة من أبواب جديدة (مع العلماء الأولياء)، و(قالوا في الحضارة الإسلامية)، و(قالوا في الحضارة الغربية)، و(ضيف الحضارة)، و(صوت الصحافة في الشرق والغرب)، وأنقل هذه الكلمة أيضاً لأنها تعرّف بتلك الأبواب الجديدة المتنوعة، وما قدّمت فيها من مادة جديدة نافعة.

قال الأستاذ محمد بسام الأسطواني تحت عنوان:

تحية العام الجديد

"ها نحن أولاء نعود إلى قرائنا الأعزاء بعد انتهاء عطلة المجلة السنوية لنجدد معهم الصلة على نفس الأسس الواضحة التي أقمناها عليها في السنوات الأربع الماضية، نعود لتتابع سيرنا على نفس الطريق القويم الذي انتهجناه، ونمضي في أداء رسالتنا لبث الوعي الإسلامي الصحيح، وتزويد الشباب الإسلامي بالثقافة الأصيلة، والتوجيه السليم، والمعرفة النافعة، نعود لمضي في تحقيق الأهداف والغايات التي أوضحناها في كلمتنا مع ختام

السنة الرابعة بعزيمة أمضى، ونصمم أقوى، واستعداد أكمل، نتجاوز في سبيلها العقبات مهما عظمت، نستمدّين العون والقوة والتأييد من الله العليّ القدير.

ولا يسعنا في مطلع العام الخامس للمجلة إلا أن نتوجه إلى الإخوة القراء والأصدقاء بتحية الإسلام الذي جمعنا على طريقته الواضح القويم، لتتابع معهم السيرة فيه برعاية الله نحو الأهداف النبيلة التي ننشدها..

وأول هذه الأهداف وآخرها رضا الله جل وعلا، كما نسجل للإخوة القراء بقلم الشكر تجاوبهم معنا، وتشجيعهم لخطتنا، بإقبالهم على مجلتنا إقبالاً متزايداً مما كان له أكبر الأثر في قدرتنا على الانطلاق في طريقنا انطلاقاً محموداً، والتتأدّ بجهودنا تقدماً مستمراً، وإننا بعون الله ماضون في مضاعفة الجهد ما دما بانى منهم هذا التجاوب والتشجيع، ومن الله الرعاية والتأييد.

أبواب جديدة متنوعة:

وبعد فقد رأينا أن ندعم أهداف المجلة بأبواب جديدة متنوعة، نُقدّم فيها مادة جديدة نافعة، فلنظف مع هذه الأبواب موضحين الغاية منها:

مع العلماء الأولياء:

أما الباب الأول، فهو: «مع العلماء الأولياء»، وهم النخبة الممتازة من سلفنا الصالح لنعيش معهم في مواقفهم الجريئة الرائعة في وجه الباطل والظلم والطغيان والانحراف، فنرى كيف كانوا يقولون كلمة الحق لوجه الحق، ولا يحشون في الله لومة لائم، ولا يحسبون لغير الله حساباً، نذكر هذه المواقف الخالدة لنشحن عزائنا منها بشحنة جديدة من قوة الروح التي دفعت أولئك الرواد من رجال الإسلام في طريق الحق، وليكونوا قدوة لنا في كفاحنا ضد الباطل.

وبذلك يتضح أن مادة هذا الباب الجديد تختلف عن مادة الباب القديم «هكذا يعلم الربانيون» الذي رأينا إبقاءه مع الباب الجديد، ليتمم

الثاني الأول، ففي الأول نُقدّم أقوالاً وبصائح ومواعظ قالها أولئك الثَّجبة من سلفنا الصالح ممّن أطلقوا عليهم اسم «الربانيّين» لأنهم تخلّقوا بالأخلاق الربّانية ومثّلوها تمثلاً صادقا، وفي الثاني نُقدّم مواقفهم التي هي الترجمة العملية المجسّدة لتلك الأقوال والعقائد، نُقدّم هذه وتلك لتربية الروح وتقويتها لأنّ الروح القويّة الصّالحة أساس الرجل القوي الصّالح.

قالوا في الحضارة الإسلامية، وقالوا في الحضارة الغربيّة:

أما الباب الثاني. فبهر «قالوا في الحضارة الإسلامية». وقالوا في الحضارة الغربيّة» نُقدّم في صفحتين متقابلتين، نُسجل في الأولى أقوال مفكّري وعلماء العرب في حضارتنا الإسلامية، فنُسلّل بذلك شهادة الإعجاب على لسان الخصوم. ونُقرّى الشهادة ما شهد به الخصم لأنه لا يمكن أن يُنتهم بالتعصّب لحضارة ليست بحضارته، ولمبادئ ليست بمبادئه، ودين ليس بدينه. فتكون شهادته حائصة لوجه الحق، وإعجاء عن فهم ودراسة وتمحيص. ونُسجل في الثانية أقوال مفكّري وعلماء الغرب أيضاً في حضارتهم الغربيّة، فهم أباءها وضّاعها، وهم الذين بلّوها واختبروها وحصدوا ثمارها، ولأنّ أن نسمع رأيهم فيها، بعد أن سمعنا آرائهم منها، هذا بالإضافة إلى أنّ بعضاً من فتنهم حضارة الغرب ببريقها الذي أحفى عنهم زيفها، لا يمكن أن يقتنعوا إلا بهذا الأسلوب الذي يدمغ المكابرين مهما عتوا في عنادهم ونُحّروا في جدالهم، وبهذا الأسلوب وحده يصعّ حذاً لحيرة المتردّدين وشكوكهم، كما نصعّ حذاً لادّعاء الجهلاء والمُروّرين والمصلّين... ويعلى الحقّ وندمغ الباطل، ونقول بملء أفواهنا وعلى منمع الدنيا: هذه هي حضارتنا نباهي بها، وهذه هي حضارتهم ينثّون منها بعد أن طهر ريقها وداقوا مرّها.

وبذلك ينصح أيضاً أن مادة هذا الباب الجديد تختلف عن مادة الباب التّقديم «من وقائع الحضارة الإسلامية»، و«من وقائع الحضارة الغربيّة» الذي رأينا إبقاءه أيضاً لينتمّ الثاني الأول، فنذكر في الأول الوقائع والحوادث التي هي تسار الحضارة الغربيّة، في جاسها الاجتماعي والأخلاقي فقط كما بيّنا

ذلك في كلمتنا مع ختام السة الرابعة، ونذكر في الثاني الأقوال والأحكام التي أصدرها علماء الغرب ومفكروه بعد التجربة والاختبار...

نجاح الحضارة الإسلامية:

وهدفنا من كل ذلك أن نؤكد حقيقة لا يتجاهلها إلا أحمق، وهي أن الحضارة الإسلامية نجحت في خلق المجتمع الفاضل الذي أقامته على أساس من الحب والإخاء، وشيئته على أسس أخلاقية وقيم ومثل غلبا هي قوام المجتمع الإنساني الفاضل المشهود، كما نجحت في تحقيق السعادة والرفاء والأمن والسلام لبني الإنسان... أما الحضارة الغربية فقد فشلت في ذلك الجانب الاجتماعي والأخلاقي، فكانت حضارة مادة بلا روح. أما حضارتنا فقد كانت حضارة المادة والروح معاً.

ضيف الحضارة:

أما الباب الثالث، فهو «ضيف الحضارة»، حيث نقدّم لقارئنا في كل عدد إن أمكن أحد رجال الفكر والأدب والدعوة في الإسلام، لنزيد من معرفة القراء بهؤلاء الرجال.

صوت الصحافة في الشرق والغرب:

أما الباب الرابع: «صوت الصحافة في الشرق والغرب» فهو باب شاع تقديمه في أغلب المجلات الأدبية والفكرية والثقافية، وقد رأينا أن لا يُحرم قراء (الحضارة) من الاستفادة والاطلاع على جهد المجلات الإسلامية الأخرى العاملة في خدمة الإسلام، فنختار منها مقتطفات مما يتناسب مع أهداف المجلة، لنُعرف القارئ بها، ولكننا لا نقتصر في مختاراتنا على المجلات الإسلامية وحدها، بل نتوسّع بقدر الإمكان لنعرض أهم ما يكتب في صحافة الشرق والغرب عن الإسلام وما يتصل بقضايا العالم الإسلامي.

أما الأبواب الأخرى فهي واضحة الهدف ولا تحتاج إلى بيان،

ومراميتها لا تخفى على قارئنا اللبيب، والذي نرجوه أن نكون قد وفينا ببعض عهودنا بالتجديد الذي وعدنا به، كما نرجو أن يجد قرائنا مادة نافعة مفيدة في هذه الأبواب قديمها وحديثها، وإننا نتقبل بكل سرور وامتنان كل نقد ونصح واقتراح حول هذه الأبواب وغيرها، فالمجلة لقرانها، منهم وإليهم، وبهم تستمر وبهم تتقدم، ولهم تعمل، والله من وراء القصد" انتهى كلام مدير التحرير الأسطواني.

الدكتور محمد أديب الصالح رئيس تحرير المجلة:

وبعد وفاة الدكتور السباعي (١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م) رحمه الله تعالى تولى الدكتور محمد أديب الصالح رئاسة تحرير المجلة، وكتب في العدد الخاص برثاء السباعي، الأعداد (٤ - ٥ - ٦) من السنة الخامسة: (جمادى الآخرة ورجب وشعبان ١٣٨٤، الموافق تشرين الأول والثاني وكانون الأول ١٩٦٤) تحت عنوان:

عهد ووفاء

«على مثل جُمُر الغُضَى يُمسكني القدر المحتوم لأخط هذه السطور المتواضعة في مفتاح العدد الحزين الباكي من مجلة «حضارة الإسلام».

وتأتي تلکم الكلمات بعد معذرة وعلى استحياء لتشعر بمسؤولية الوفاء بمتابعة الطريق، طريق الأستاذ الرائد، والعالم الصابر المجاهد، الدكتور مصطفى السباعي صاحب هذه المجلة.

فلقد كانت الأعداد الماضية - وليتها لم تنقطع عن الأمة أسبابها - يُزِينها - وهي في حرارتها ومضائها - فكره المؤمن المستنير، وقلمه الصادق المعبر، وأسلوبه البارع الموجه.

أما هذا العدد فيوشحه سَوَادُ الألم، وتُبَلِّله دموع اللوعة، وتُحرِّكه خفقات القلوب، القلوب التي هزتها يد الفاجعة، فحرَّكت كوامنها واعتصرتها حتى الثمالة.

ومَنْ ذا الذي يزعم لنفسه أنَّ الفراغ الذي تركه مصطفى السباعي في هذه الساحة يمكن أن تملأه كلمات تُكتب كل شهر، وقول يدفع إلى المطبعة بين الحين والحين.

ولعل خير ما يذكر أمام هذه الحقيقة قول رسولنا الكريم ﷺ: «إنما الناس كالإبل لا يوجد فيها راحلة»^(١).

ولكنه الحرص الصادق على أن تستمر هذه المجلة فلا تتوقف، وأن يتصل حبلها بأسرتها الكبيرة من القراء فلا ينقطع، أداء لرسالة الإسلام والمعرفة، ووقوفاً عند أمر الله في أن يؤدي العالم الأمانة ولا يكتفم ما أنزل الله.

ولقد كنتُ ربما رئتُ أعتقد أنَّ هذه الطريق التي رسم معالمها مصطفى السباعي، وغذاها -روحاً وأعصابه، وأثمن ما لديه من مواهب وطاقات تفتقر - بعد الاستعانة بالله - إلى تعاون القلوب المؤمنة، والعقول الواعية، والنفوس المذركة، وإنَّ عناية الله معنا إذا كنا أمناء على متابعة السير بوعي صادق وإدراك سليم.

لقد علمتنا عقيدة الإسلام أنَّ البقاء لله عزَّ وجل، وأنَّ كلَّ مَنْ عليها فان، وإنَّ كتاب الله ليعبدُ بحُسن الصبر عمَّن نفقد حُسنَ العوض منه، وإنَّا لنستنجز الله وعده أن يهبنا - ونحن الضعفاء - قوةً من عنده ورحمةً من لدنه.

أعلام الأمة المنار الهادي:

ألا وإنَّ أعلام الأمة امتحانٌ لأبناء الأمة، وحُجَّة الله على عباده في مقدار استمساكهم بحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكل واحد من هؤلاء الأعلام بشر من البشر، ولكنه تَغَالَى على حطام الدنيا، وارتفع فوق ترابها وشهواتها فكان المنار الهادي والقُدوة الأمين.

وما أبو حسان - طيَّب الله ثراه - إلا واحداً من هؤلاء الأفاضل، فقد

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٨) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

حمل راية العلم والجهاد صادقاً مخلصاً، وصبر على البلاء وصابر حتى اختار الله له ما عنده، وقبضه إلى رحمته.

وإذا كانت هذه المجلة في المقام الأول من الاهتمام عند الفقيد، يوم كان بيننا، فهو بها حفيٌّ أكثر من المال والولد، فإنَّ الوفاء يقتضينا أن نُجدد العهد على أن تُتابع المجلة طريقها بالفكرة الواعية والكلمة الطيبة على هدي المعالم التي رسمها الأستاذ السباعي رحمه الله تعالى لخدمة دعوة الإسلام في رسالته الإنسانية المثلى.

فاللهمَّ أمطر فقيدنا العظيم وابل رحمتك ورضوانك، وأنزل السكينة في قلوبنا حتى نبصر المعالم فلا نتعثر، ونهبنا من فضلك وعنايتك حتى تقوى سواعدنا على حمل لأمانة. واررقا إخلاصاً في العمل، وصبراً على وعورة الطريق، واجعلنا في مرصاتك على كلِّ حال، والحمد لله رب العالمين" انتهى.

كلمة مدير تحرير المجلة في ختام السنة الخامسة:

وفي ختام السنة الخامسة (١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م) كتب مساعد رئيس التحرير ومدير المجلة الأستاذ محمد بسام الأسطواني كلمته التالية:

أخي القارئ الكريم:

بوصول هذا العدد إليك، تتّم مجلتك «حضارة الإسلام» عامها الخامس الذي عانت فيه بعض الأزمات والمتاعب التي لم تنل على كل حال من مستواها الفكري الذي حمده القراء خلال هذه الأعوام الخمسة، والذي نبذل من أجل الارتفاع المستمر به كل عزم وجهد مُتطلّعين دوماً إلى المزيد من التقدّم والارتفاع، غير قانعين بما وصلنا إليه رغم إطراء القراء وثنائهم لما حقّقته المجلة من تقدّم، لأنّ القناعة تعني الجمود، والجمود في ميدان البناء الفكري السليم موتٌ بطيء، ونحن حريصون على الحياة، حياة الفكر الإسلامي النير، وحياة «حضارة الإسلام» الزاهرة.

الأمانة الغالية:

وأخيراً نُجَدِّد العهد على حمل الأمانة الغالية التي تركها لنا أستاذنا الكبير عليه رضوان الله، والاستمرار بها خدمةً للفكر الإسلامي، والأجيال المؤمنة مهما كانت العقبات وغلت التضحيات، مستعينين على ذلك بالله عز وجل، فاللهم سدّد خطانا، وقوّ عزائمنا، واجعل عملنا خالصاً لوجهك الكريم وتقبّله منا بالقبول الحسن، وإلى اللقاء مع العام الجديد وكل عام وأنتم بخير".

واستمرت المجلة في صدورها وعطائها وأداء رسالتها بأمانة ووعى.

ومع بداية السنة الثامنة عشرة للمجلة (١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م) كتبت تلك الكلمة:

كلمة المجلة في بداية السنة الثامنة عشرة

«أخي القارئ الكريم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

في عام المجلة الثامن عشر نُحيّيك بتحيّة الإسلام، ونرجو الله أن يمدّنا بعونه، كي نتمكن من التقدّم أشواطاً جديدة، في رفع سويّة المجلة، وجعلها كما أردنا مدرسةً فكريةً إسلاميةً، جامعةً، تُقدّم فيها خير زاد الروح والفكر والأدب بأسلوب علمي مُحبّب، يُنمي في القارئ ثقافةً إسلاميةً رفيعةً متنوّعة، ويُطلّعه على آفاق رُخبة في ميادين الفقه والفكر والتاريخ والأدب، والاجتماع والتوجيه والإرشاد.

واعلم يا أخي: أنّ هذه المجلة هي مجلة كلّ مسلم فانشط في توسيع انتشارها وإيصالها إلى كلّ يد لتعمّ الفائدة، فهي أحد أصوات الدعوة الإسلامية المتنّقلة، فاحرص على أن يصل هذا الصوت إلى كلّ أذن، ونُحبّ أن يكون معلوماً أنه بقدر نشاط قُرّاء المجلة وانتشارها وزيادة عدد مشتركيها

بقدر ما نُساهم في تقدّمها المستمر لتؤدي رسالتها على خير وجه.

وأخيراً: نُجدّد العهد على حمّل الأمانة الغالية التي تركناها لنا مؤسّس هذه المجلة الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى والاستمرار بها خدمة للفكر الإسلامي، والأجيال المؤمنة مهما كانت العقبات، وغلت التضحيات، مستعينين على ذلك بالله عزّ وجل، فإلّهمّ سدّد خطانا، وقرّ عزائمنا، واجعل عملنا خالصاً لوجهك الكريم، وتقبّله منا بالقبول الحسن. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته اهـ.

ومع بداية السنة التاسعة عشرة للمجلة تكرّرت الكلمة نفسها.

واستمرت المجلة في الصدور إلى أن توقّفت في بداية أحداث سنة ١٤٠١هـ، الموافق لسنة ١٩٨١م.

وأنقل بعد هذا الحديث عن مجلة «الحضارة»، والتعريف بأهم أبوابها، للحديث عن باب «رجل فقدناه».



ركن «رجل فقدها»

هذا الركن «رجل فقدها» من أركان مجلة «حضارة الإسلام»، وقد بلغ عدد المترحم لهم فيه ثمانية وخمسين رجلاً خلال عشرين عاماً (١٣٨٠ - ١٤٠٠هـ)، ابتداءً من العدد الرابع من السنة الأولى: (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م) في المجلة، وقد افتتح هذا الركن بترجمة الأستاذ أنيس الملوحي (١٩٠٠ - ١٩٦٠م) بقلم: نهاد القاسم، وانتهاءً بترجمة الشيخ خيرو ياسين المتوفى سنة ١٤٠٠هـ بقلم: محمد عيد البغا رحمهما الله تعالى.

عناية الأستاذ السباعي بهذا الركن من المجلة:

وقد أولى الأستاذ السباعي هذا الركن عنايته واهتمامه، وقد ترجم فيه لبعض العلماء والشخصيات الذين كان يفتقد لهم الوطن أو الأمة، ومنهم: الرئيس هاشم الأتاسي (١٢٩٢ - ١٣٨٠هـ)، والده الشيخ حسني السباعي (١٣٠٦ - ١٣٨١هـ)، والشيخ أحمد الحارون (١٣١٥ - ١٣٨٢هـ)، وشيخ المُعمرين في بلاد الشام العلامة الشيخ عبدالمحسن الأسطواني (١٢٧٥ - ١٣٨٣هـ) رحمهم الله تعالى.

تراجم علماء سورية:

ويغلب على التراجم الواردة في هذا الركن: تراجم علماء سورية، ومنهم الدمشقيون، وهم حسب وفياتهم: أبو الخير الميداني (١٢٩٠ - ١٣٨٠هـ)، وأحمد الحارون (١٣١٥ - ١٣٨٢هـ)، ومحمد الحموي

(..... - ١٣٨٣هـ)، وعبدالمحسن الأسطواني (١٢٧٥ - ١٣٨٣هـ)،
 ومحمد خير جلاد (١٣٣١ - ١٣٨٥هـ)، وعبدالرحمن الزعبي (١٣٢٠ -
 ١٣٨٩هـ)، وعبدالوهاب الحافظ (دبس وزيت) (١٣١١ - ١٣٨٩هـ)،
 وصالح العقاد (١٣١٠ - ١٣٩٠هـ)، ومحمد السيد (١٣١٨ - ١٣٩٠هـ)،
 وعبدالكريم الرفاعي (١٣٢٢ - ١٣٩٣هـ)، وخالد الرفاعي (١٣٥١ -
 ١٣٩٣هـ)، والسيد محمد المكي الكتاني (١٣١٢ - ١٣٩٣هـ)، وإبراهيم
 أبا زيد (١٣٦٣ - ١٣٩٤هـ)، ومحمد سعدي الياسين (١٣١٩ -
 ١٣٩٦هـ)، ومحمد نهجة البيطار (١٣١١ - ١٣٩٦هـ)، وأحمد الدقر
 (١٣٢٥ - ١٣٩٧هـ)، وزين العائدين التوسي ثم الدمشقي (١٣٠٦ -
 ١٣٩٧هـ)، وحسن حكمة السبائي (١٣٢٦ - ١٣٩٨هـ)، وخيرو ياسين
 (١٣٣٤ - ١٤٠٠هـ)

ومنهم الحليون، ومن يلحق بهم: محمد معذل (١٣٢٤ - ١٣٨٢هـ)،
 ونجيب باقي (١٢٩٦ - ١٣٨٣هـ)، ومحمد حريري (١٣٣٠ - ١٣٨٤هـ)،
 ويونس عبدالعبي (١٣٢١ - ١٣٨٦هـ)، ومحمد نجيب خياطة (١٣٢١ -
 ١٣٨٧هـ)، وعبدالقادر السبسي (١٣٠٤ - ١٣٩٣هـ)، وعبدالباسط عباس
 (١٣٥٢ - ١٣٩٤هـ)، وجمال حسون (١٣٤٨ - ١٣٩٥هـ)، وأحمد عز الدين
 البيانوني (١٣٢٩ - ١٣٩٥هـ)، ومحمد سعيد مسعود (١٣٢٦ - ١٣٩٧هـ)،
 ويكري رجب (١٣٣١ - ١٣٩٩هـ).

ومنهم الحمصيون: أنيس الملوحي (١٣١٧ - ١٣٨٠هـ)، وهاشم
 الأتاسي (١٢٩٢ - ١٣٨٠هـ)، وخسني السباعي (١٣٠٦ - ١٣٨١هـ)،
 ومصطفى السباعي (١٣٣٤ - ١٣٨٤هـ)، وعمر الحكيم (١٣٣٦ - ١٣٩٣هـ)،
 ومحمد علي الدعاس (..... - ١٣٩٥هـ)، وعبدالعزیز عيون السود
 (١٣٣٥ - ١٣٩٩هـ).

ومنهم الحمويون: الشيخ محمد الحامد (١٣٢٨ - ١٣٨٩هـ)، والدكتور
 عبدالكريم عثمان (١٣٤٧ - ١٣٩٢هـ)، ومحمد غسان المراد (١٣٦٥ -
 ١٣٩٧هـ)، ومحمد سيادي المراد (١٣٢٨ - ١٣٩٧هـ).

ومنهم من علماء الساحل وجنسر الشفور: مصطفى الأعسر (١٣٥٠ - ١٣٨٨هـ)، والقاضي محمد أديب الأهدي (١٣١٢ - ١٣٩٢هـ).

ومنهم من علماء الدير والميادين: صالح زركان (..... - ١٣٨٥هـ)، وتيسير رمضان الحصاد (١٣٦٥ - ١٣٩٧هـ).

ومن علماء فلسطين: عبدالله التل (١٣٣٧ - ١٣٩٣هـ)، ومحمد أمين الحسيني (١٣١١ - ١٣٩٤هـ).

ومن علماء مصر: عباس محمود العقاد (١٣٠٦ - ١٣٨٣هـ)، وعبدالحليم نجار (..... - ١٣٨٣هـ)، ومحمد أبو زهرة (١٣١٦ - ١٣٩٤هـ).

ومن علماء العراق: محمد فؤاد الآلوسي (١٣٢١ - ١٣٨٢هـ)^(١)، بقلم تلميذه العالم الشهيد عبدالعزيز البدري.

ومن علماء المغرب وتونس والجزائر: محمد عبدالكريم الخطابي (١٢٩٩ - ١٣٨٢هـ)، ومحمد البشير الإبراهيمي (١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ)، ومالك بن نبي (١٣٢٣ - ١٣٩٣هـ).

ومن علماء الحجاز: الشيخ محمد إبراهيم الختني (١٣١٤ - ١٣٨٩هـ).

ومن علماء نجد: الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٣١١ - ١٣٨٩هـ).

ومن علماء الهند وباكستان: السيد عبدالعلي الحسنيني (١٣١١ - ١٣٨٠هـ)، وعبدالقادر الرائي بوري (..... - ١٣٨٢هـ)، وحفظ الرحمن السيوهاروي (١٣١٨ - ١٣٨٢هـ)، وإبراهيم أحمد المظاهري (١٣٣٢ - ١٣٨٠هـ).

(١) وألحقت بعلماء العراق ترجمة الشيخ قاسم القيسي، المتوفى سنة ١٣٧٥هـ، بقلم اللواء: محمود شيت خطاب، المنشورة في مجلة (الحضارة) في العدد الثامن السنة السابعة: (١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م).

١٣٨٣هـ)، والشاعر محمد وحيد الدين الحيدر آبادي^(١)، وأبو الأعلى المودودي (١٣٢١ - ١٣٩٩هـ).

المترجمون أكثر من مرة:

وهناك بعض التراجم التي كُتِبَ فيها عددٌ من العلماء مثل ترجمة عباس محمود العقاد، ومحمد البشير الإبراهيمي، وصالح الزرّكان، وصالح العقاد، وعبدالكريم الرفاعي، وعمر الحكيم، وعبدالقادر السبسي، ومالك بن نبي، ومحمد بهجة البيطار، وحسن حبنكة الميداني. فقد أوردت هذه التراجم المكررة لما في كل مقالة من مزية ليست في الأخرى.

ترجمة الدكتور مصطفى السباعي:

وقد أفرد عددٌ خاصٌ في المجلة بمناسبة وفاة الدكتور السباعي (١٣٢٤ - ١٣٨٤هـ) رحمه الله تعالى، وكتب فيه عددٌ كبير من إخوانه ومحبيه^(٢)، كما تكرّرت ترجمته بمناسبة ذكرى وفاته في السنوات التالية، وتردّدت في ذكر ترجمته من بين هذا الحشد الهائل من المقالات والتي جمعت في كتاب، ثم رأيت أن لا أغفل الكتاب من ترجمته، وقد اخترت من العدد الخاص كلمة الأستاذ محمد بسام الأسطواني لعمومها وشمولها.

كما اخترت من الأعداد الأخرى - سوى العدد الخاص - كلمة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي بعنوان: «خصائص في حياة السباعي».

ترجمة العلامة الشيخ محمد الحامد:

كما أفرد عدد خاصٌ بمناسبة وفاة العلامة الشيخ محمد الحامد، وكتب

(١) لم ترد ترجمته في ركن «رجل فقدناه»، وتقدّمت وفاته عن سياق أقرانه، إذ توفي سنة ١٣٢٢هـ، واستحسنْتُ إيراد ترجمته لورودها في هذه المجلة، ولتدريتها وأهميتها.

(٢) قام نجل الأستاذ السباعي الأخ الكريم محمد بجمع هذه المقالات مع إضافات أخرى عليها وصور متنوعة، ونشرها في كتاب حافل بعنوان «مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه»، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، الرياض (٢٠٠٠).

فيه عدد من إخوانه وأحبابه، وقد اخترت من العدد الخاص كلمتي الدكتور محمد أديب الصالح: الأولى: «حين تعرف الأمة رجالها»، والثانية: «مع الرجل العظيم الداعية الشيخ محمد الحامد»، ومقالة شقيقه عبدالغني بعنوان: «أخي كما عرفته»، كما اخترت كلمة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي بعنوان: «حماة وعالمها الراحل». لما تتميز به من موضوعية وصدق نحو هذا العالم الجليل، ولأن الدكتور لم ينشر هذه الترجمة في كتابه «شخصيات استوقفتني». كما استحسن أن أورد الحوار الذي أجرته مجلة الحضارة مع العلامة الحامد في ركن «ضيف الحضارة» ففيه إبراز لجوانب مهمة من حياته العلمية والدعوية رحمه الله تعالى^(١).

التراجم التي أضفتها إلى الكتاب:

وأما التراجم التي أضفتها إلى الكتاب، فهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: تراجم وردت في مجلة «حضارة الإسلام» قبل النطاق الزمني الذي صدرت فيه المجلة؛ أي: قبل سنة (١٣٨٠)، وفي غير الركن السابق ذكره (رجل فقدناه)، وقد أوردتهم حسب وفائتهم، وفي مقدمتهم: ترجمة العلامة محدث الديار الشامية الأكبر محمد بدر الدين الحسني (١٢٦٧ - ١٣٥٤هـ) رحمه الله تعالى التي كتبها تلميذه الأستاذ محمد المبارك في العدد السادس والثامن من السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م).

وافتحت بهذه الترجمة الكتاب لما للشيخ بدر الدين من أثر علمي وتربوي ومكانة كبيرة في بلاد الشام، ولما لكاتب هذه الترجمة الأستاذ المبارك من منزلة وصلة بالشيخ بدر الدين، ولما نشر في ترجمته لشيخه من الفوائد العلمية والتوجيهات التربوية.

(١) لتلميذ العلامة المجاهد محمد الحامد الأستاذ الفاضل الشيخ عبدالحميد طهماز - رحمه الله - كتاب حافل في ترجمته، ونشر في سلسلة «أعلام المسلمين»، وقد قام ابنه الكبير الأستاذ الشيخ محمود الحامد بكتابة ترجمة نافعة مختصرة بعنوان: «أبي كما عرفته»، وصدرت الطبعة الأولى عن دار السلام بالقاهرة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

ثم أوردت ترجمة الشهيد عز الدين المنجد (١٣٠٠ - ١٣٥٤هـ) المنشورة في العدد العاشر من السنة التاسعة: (١٣٨٨هـ = ١٩٦٩م).

ثم سُفِّتُ ثالثاً ترجمة الشيخ عبدالحميد بن باديس (١٣٠٦ - ١٣٥٩هـ) المنشورة في العدد الأول من السنة الخامسة: (١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م).

ثم ذكرتُ رابعاً ترجمة الشيخ قاسم القيسي (١٢٩٣ - ١٣٧٥هـ) المنشورة في العدد الثامن من السنة السابعة: (١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م).

وأوردت خامساً ترجمة العلامة اللغوي عبدالقادر المغربي (١٢٨٤ - ١٣٧٥هـ) المنشورة في العدد الخامس والتاسع من السنة الأولى: (١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م).

ثم ختمتُ هذه التراجم المتقدمة وفئاتهم على ركن "رجال فقدناهم" بترجمة العلامة الشيخ محمد الخضر حسين (١٢٩٣ - ١٣٧٧هـ) المنشورة في العدد الرابع من السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م).

ثانياً: تراجم في النطاق الزمني الذي صدرت فيه مجلة حضرة الإسلام» (١٣٨٠ - ١٤٠٠هـ).

وهذا القسم ينقسم إلى نوعين:

الأول: تراجم مكررة أضفْتُها على ما سبق نشره من تراجم بعض العلماء في مجلة «الحضارة» لما لهؤلاء العلماء من أثر علمي أو دعوي كبير في محيطهم زماناً ومكاناً، وقد أخذتُ هذه التراجم من مجلات مُتنوعة، ومصادر مُتعددة، لأنني رأيت تلك التراجم أكثر استيفاءً في بعض المواطن، وهي في مصادر يصعب الوصول إليها، كما أنَّ فيها إضافات مهمة تتعلق أحياناً بكتاب الترجمة وصلته بالمرجم.

والتراجم التي أضفتها لمن وُردت لهم ترجمة من قبل في مجلة «الحضارة» هم:

١ - ترجمة محمد حفظ الرحمن السيوهاروي (١٣١٩ - ١٣٨٢هـ)، من زعماء المسلمين بالهند، بقلم الأستاذ عبدالمنعم النمر.

٢ - و ترجمة العلامة المحدث محمد إبراهيم الختني (١٣١٤ - ١٣٨٩هـ)، من كبار علماء المدينة المنورة، بقلم محمد سعيد الدفتردار.

٣ - و ترجمة العلامة محمد الفاضل بن عاشور (١٣٢٧ - ١٣٩٠هـ)، للدكتور محمد الدسوقي.

٤ - و رثاء الناصي محمد أديب الأهدي (١٣١٢ - ١٣٩٢هـ)، للأستاذ الشاعر الأديب محمد الحسناوي رحمهما الله تعالى.

٥ - و ترجمة العلامة الفقيه محمد أبو زهرة (١٣١٦ - ١٣٩٤هـ)، للدكتور وهبة الزحيلي.

٦ - و ترجمة العالم الشيخ بكري رجب (١٣٢٨ - ١٣٩٩هـ)، للأخ الأستاذ فياض عيسو.

والنوع الثاني: تراجم جديدة ضمن النطاق الزمني الذي صدرت فيه المجلة. فقد استحسننا إضافة بعض التراجم لبعض العلماء الذين لم ترد ترجمتهم في تلك الفترة الزمنية.

وهذه أسماء هؤلاء العلماء الذين أضفناهم في نطاق تلك المرحلة: (١٣٨٠ - ١٤٠٠هـ).

١ - الشيخ عبدالله هارون (١٣٤١ - ١٣٨٩هـ) شهيد جنوب أفريقيا، بقلم الأستاذ علي الخطيب، و ترجمة أخرى له بقلم ابنه، خصّني بها الأخ الأستاذ شعيب أحمد.

٢ - الشيخ نعيم النعيمي الجزائري (١٣٢٧ - ١٣٩٣هـ) بقلم: بلقاسم النعيمي.

٣ - الأستاذ محب الدين الخطيب (١٣٠٣ - ١٣٨٩هـ) بقلم: الأستاذ أبي الوفا المراغي.

٤ - وعلا الفاسي (١٣٢٦ - ١٣٩٤هـ)، بقلم: الشاعر عمر بهاء الدين الأميري.

٥ - والدكتور محمد أمين المصري (١٣٣٣ - ١٣٩٧هـ)، بقلم: .

٦ - ومحمد يوسف البُوري وجهوده العلمية (١٣٢٦ - ١٣٩٨هـ)، للأستاذ عبدالعزيز عبدالجليل، وترجمة أخرى له كتبها الأخ الدكتور محمد يحيى بلال منيار.

ولم يكن في منهج المجلة أن تستقصي تراجم العلماء - حتى ضمن بلاد الشام - وكانت تنشر ما يرسل إليها، ممَّن ينهض لكتابة الترجمة لعالم أو داعية... ولكن الكثير من التلاميذ يُقَصِّرون في الكتابة عن شيوخهم، فتضيع تراجمهم، ولا يمكن الوصول إليها ولا معرفة تاريخ وفاة صاحبها إلا بشق الأنفس.

ومن تتبَّع تراجم علماء دمشق - على سبيل المثال - في تلك المرحلة، نرى غياب تراجم عدد من العلماء في ذلك النطاق، وأذكر منهم على سبيل المثال:

العالم المجاهد محمد الأشمر (١٣١٠ - ١٣٨٠هـ)، والعلامة المُعَمَّر الفقيه محمد الكافي (١٢٧٨ - ١٣٨٠هـ)، والعالم المُربِّي محمد الهاشمي (١٢٩٨ - ١٣٨١هـ)، والقاضي حسن الشطِّي مدير الكلية الشرعية، (١٢٩٧ - ١٣٨٢هـ)، وشيخ القراء العالم الفقيه أحمد الحلواني (١٣٢١ - ١٣٨٤هـ)، والعالم الفقيه القارئ ياسين الجويجاتي (١٣٠١ - ١٣٨٤هـ)، والفقيه القارئ الجامع محمود فائز الديرعطاني (١٣١٢ - ١٣٨٥هـ)، والعالم الفقيه الأصولي المرتبي محمد سعيد البرهاني (١٣١١ - ١٣٨٦هـ)، ومفتي الشام المرشد

الخطيب عبدالرزاق الحمصي (١٣٢٢ - ١٣٨٨هـ)، وشيخ القراء الطبيب محمد سعيد الحلواني (١٣٣٠ - ١٣٨٩هـ)، والعالم المجاهد صلاح الدين الزعيم (١٣٠٠ - ١٣٩٠هـ).

ومن علماء حلب أيضاً الذين لم يترجم لهم:

العالم الفقيه الشيخ محمد مهدي الكردي (١٣٣٤ - ١٣٨٥هـ)، والعالم الداعية الأديب الشاعر الشيخ محمد جميل عقاد (١٣١٦ - ١٣٨٧هـ)، والعالم النحوي الشيخ عبدالله حمّاد (١٣٠٨ - ١٣٨٩هـ)، ومفتي الشافعية الشيخ محمد أسعد عسحي (١٣٠٥ - ١٣٩٣هـ)، والعالم الداعية الخطيب الجريء محمد أبو الخير زين العابدين (١٣٣٥ - ١٣٩٣هـ)، والشيخ المرئي المرشد محمد النيفان (١٣١٨ - ١٣٩٤هـ)، ونجد أمثال هؤلاء ممن لم يترجم لهم في حمص وحماة وبقية المدن السورية^(١).

تتمة تراجم «حضارة الإسلام»:

وأما القسم الثالث فهو تكملة لتراجم «حضارة الإسلام»، ويبدأ من بعد سنة ١٤٠٠ إلى تاريخ تقديم الكتاب للطباعة، وكتابة هذه المقدمة.

وأكثر هذه التراجم المضافة بقلمي، وأغلبها نُشِرَ في بعض المجلات، وفي موقع «الإسلام في سورية» الذي أشرف عليه.

وهذه أسماء التراجم الذين اخترت إضافتهم إلى هذا الكتاب:

١ - الأستاذ العالم المفكر محمد المبارك (١٣٣١ - ١٤١٣هـ)، بقلم الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا.

(١) وقد استوفيت أكثر هذه التراجم وأمثالها في ركن التراجم في الموقع الذي أشرف عليه: الإسلام في سورية: www.islamsyria.com، الناطق باسم رابطة العلماء السوريين، وستصدر - بعون الله تعالى - بعنايتي في كتاب يتلو هذا الكتاب.

- ٢ - والعلامة الشيخ محمد صالح الفرفور (١٣١٨ - ١٤٠٧هـ) بقلمى.
- ٣ - والعالم المؤرخ النشابة محمد أبو الفرج الخطيب الحسني (١٣٣٧ - ١٤٠٧هـ) بقلمى.
- ٤ - والعالم الداعية المرنبى الشيخ عبدالله علوان (١٣٤٧ - ١٤٠٨هـ) بقلمى.
- ٥ - والداعية الشاعر الكبير الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري (١٣٣٧ - ١٤١٣هـ)، للأستاذ باسل الرفاعي.
- ٦ - والعلامة شيخ عبدالفتاح أبو غدة (١٣٣٦ - ١٤١٧هـ) بقلمى، وترجمة أخرى للأخ الكريم العالم الداعية الشيخ حسن قاطرجى.
- ٧ - والعالم الداعية المرنبى الشاعر عبدالرحمن الصوفي (١٣٤٤ - ١٤١٩هـ) بقلم الدكتور سيل طويل، وأخرى بقلم الأخ الكريم الداعية الدكتور عبداللطيف بن محمد علي الهاشمى.
- ٨ - والعلامة الفقيه الأديب الشيخ علي الطنطاوي (١٣٢٧ - ١٤٢٠هـ) بقلمى.
- ٩ - والعلامة الفقيه الشيخ مصطفى الزرقا (١٣٢٤ - ١٤٢٠هـ) بقلم تلميذه العلامة الفقيه الدكتور أحمد الحجى الكردي، وترجمة أخرى بقلمى.
- ١٠ - والعلامة المفسر الفقيه الواعظ الشيخ عطية سالم (١٣٤٦ - ١٤٢٠هـ) بقلمى.
- ١١ - والعلامة الداعية الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي (١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ) بقلم الأخ الكريم العالم الداعية الشيخ حسن قاطرجى.
- ١٢ - والعالم الداعية المجاهد محمد مجاهد شعبان (١٣٦٨ - ١٤٢١هـ) بقلم زوجته السيدة عائشة بنت الشيخ عمر خياطة.

- ١٣ - والعلامة الرباني المُرَبِّي الشيخ عبدالله سراج الدين (١٣٤٢ - ١٤٢٢هـ) بقلم تلميذه العلامة المحدث المحقق الشيخ محمد عوامة، وأخرى بقلم الدكتور بكري شيخ أمين.
- ١٤ - والعلامة النُّحوي الأديب عبدالغني الدقر (١٣٣٥ - ١٤٢٣هـ) بقلم.
- ١٥ - والعلامة الفقيه الكبير أحمد فهمي أبو سنة (١٣٢٧ - ١٤٢٤هـ) ترجمة ذاتية له، وأخرى بقلم الأستاذة وفاء سعداوي.
- ١٦ - والعلامة المفكر المفسّر الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني (١٣٤٥ - ١٤٢٥هـ) بقلم.
- ١٧ - والعالم الفقيه الشيخ ناجي عجم (١٣٦٠ - ١٤٢٧هـ) بقلم.
- ١٨ - والعلامة الأصولي الفقيه الشيخ مصطفى الخن (١٣٤١ - ١٤٢٨هـ) بقلم.
- ١٩ - والعالم العامل العابد الزاهد الشيخ محمد الحجار (١٣٣٨ - ١٤٢٨هـ) بقلم.
- ٢٠ - والشاعر الإسلامي الأديب المفسّر الأستاذ محمد الحسناوي (١٣٥٧ - ١٤٢٨هـ) بقلم.
- ٢١ - والعلامة الشيخ صادق حبنكة الميداني (١٣٣٨ - ١٤٢٨هـ) بقلم.
- ٢٢ - والعلامة الفقيه النحوي الشيخ أحمد قلاش (١٣٢٨ - ١٤٢٩هـ) بقلم.
- ٢٣ - والبحاثة الداعية الأديب هاني الطابع (١٣٥٥ - ١٤٣٠هـ) بقلم. وأخرى بقلم الدكتور عدنان زرزور.

٢٤ - والعالم الصالح المقرئ الشيخ عبدالغفار الدروبي (١٣٣٨ - ١٤٣٠هـ) بقلمي، وأخرى بقلم الأخ الكريم الدكتور الشيخ محمد ياسر المسدي.

وهذه المرحلة الزمنية المشتملة على ثلث قرن (١٤٠٠ - ١٤٣٠هـ) حفلت بالعديد من الوفيات والرجال الذين فقدناهم.

وليس من منهجي في هذا الكتاب استيعابهم، وإنما هي اختيارات لبعض التراجم التي كتبت أكثرها بقلمي، واخترت بعضاً مما رأيته مستظماً مع نهج التراجم المنشورة سابقاً في ركن "رجل فقدناه" من مجلة "حضارة الإسلام".

وقد حفلت هذه الفترة بعدد من الكتب المفردة بالتراجم أذكر منها: "إتمام الأعلام للزركلي"، للأستاذين رياض المالح، ونزار أباطة. و"تتمة الأعلام" للأستاذ محمد خير رمضان يوسف، و"ذيل الأعلام" للأستاذ أحمد العلاونة، ومنها كتاب الأستاذ الداعية الفاضل عبدالله عقيل: "من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة" . . . وغيرها من الكتب والمقالات^(١).

صدي تراجم «حضارة الإسلام»:

لقد كانت الكثير من التراجم المنشورة في مجلة «حضارة الإسلام» هي المرجع لصياغة بعض تراجم كتاب «الأعلام» للزركلي، وأذكر من تلك

(١) لدي أعمال أخرى تُتم هذا العمل في تراجم أعيان القرن الرابع عشر الهجري والثلث الأول من الخامس عشر الهجري، ومنها: التراجم الواردة في مجلة «الإسلام» القاهرية، والتراجم الواردة في مجلة «الشبان المسلمين»، والتراجم الواردة في مجلة «الأهرام» وغيرها من الدوريات والمجلات، وكذلك التراجم التي نشرتها في موقع «الإسلام في سورية» وتضم أكثر من ٢٠٠ ترجمة، ولعلّ الله سبحانه يُيسّر لي إصدارها في وقت قريب. ومما يتصل بذلك كتاب «أعلام وعلماء» الذي ضمّ التراجم المفردة التي كتبها الأستاذ محمد أبو زهرة، لبعض الأعلام المتقدمين والعلماء المعاصرين، وقد صدر سنة ١٤٣٠ عن دار الفتح بعمان.

التراجم التي رجع فيها إلى مجلة «الحضارة» ترجمة الدكتور مصطفى السباعي (١٣٣٤ - ١٣٨٤هـ)، فقد اعتمد على العدد الخاص (جمادى الآخرة، رجب، شعبان) من السنة الخامسة (١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م)، ينظر: الأعلام ٧: ٢٣٢.

وترجمة القاضي محمد أديب الأهدي (١٣١٢ - ١٣٩٢هـ) ٦: ٢٨، وترجمة الدكتور عبدالكريم عثمان (١٣٤٧ - ١٣٩٢هـ) ٤: ٥٣، وترجمة الأستاذ عمر الحكيم (١٣٣٦ - ١٣٩٣هـ)، وترجمة الأستاذ عبدالقادر السبسي (١٣٠٤ - ١٣٩٣هـ)، وترجمة العلامة الشيخ محمد أبو زهرة (١٣١٦ - ١٣٩٤هـ) ٦: ٢٦، وأكثر هذه التراجم كان مصدره الوحيد فيها مجلة «حضارة الإسلام».

كما اعتمد الأستاذان محمد مطيع الحافظ ومحمد نزار أباطة، في كتاب «علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري» على تلك التراجم المشورة في المحلة. وأحالوا إليها في مصادرهم، وأذكر على سبيل المثال: ترجمة الشيخ محمد نادر الدين الحسني (١٢٦٧ - ١٣٥٤هـ) ١: ٤٧٣ - ٤٩٣، والشيخ محمد أبو الخير الميداني (١٢٩٣ - ١٣٨٠هـ) ٢: ٧٢٠ - ٧٣٢، والشيخ أحمد الحارون (١٣١٥ - ١٣٨٢هـ)، ٢: ٧٥٣ - ٧٦٢، والشيخ عبدالمحسن الأسطواني (١٢٧٥ - ١٣٨٣هـ) ٢: ٧٧٠ - ٧٧٦، والشيخ عبدالرحمن الزعبي (١٣٢٠ - ١٣٨٩هـ) ٢: ٨٢٢ - ٨٢٨، والشيخ محمد إبراهيم الختني^(١) (١٣١٤ - ١٣٨٩هـ) ٢: ٨٦٣ - ٨٦٦، والشيخ محمد صالح العقاد (١٣١٠ - ١٣٩٠هـ) ٢: ٨٩٤ - ٨٩٦، والشيخ عبدالعزيز عيون السود^(٢) (١٣٣٥ - ١٣٩٩هـ)، ٢: ٩٤٢ - ٩٤٥.

ومن العلماء الذين وردت تراجمهم في «حضارة الإسلام» ولم يشر في

(١) ترجموا له باعتبار زيارته للشام، وصلته القوية، بعلمائها: كما أن الكثيرين من العلماء في سورية تلقوا عنه.

(٢) ترجموا له باعتباره تلقى العلم في دمشق وأكثر التردد إليها، ولاتصاله الوثيق بعلمائها، ورغبته في الانتقال إليها آخر حياته رحمه الله تعالى.

مصادر الترجمة إليها: الشيخ عبدالوهاب ديس وزيت، ومحمد بهجة البيطار، وأحمد الدقر، وزين العابدين التونسي، وخيرو ياسين.

كما استفاد الأخ الكريم الأستاذ محمد عدنان كاتبي في كتابه "علماء من حلب في القرن الرابع عشر" من تراجم "حضارة الإسلام"، وعزا إليها في بعض التراجم التي أوردها. وأذكر منها: الشيخ محمد المعدل (١٣٣١ - ١٣٨٣هـ) ص ٢٧١ - ٢٧٤، والشيخ بكري رجب (١٣٣١ - ١٣٩٩هـ) ص ٣٦٦ - ٣٧١.

وفي ختام كلامي عن هذا الركن من مجلة "حضارة الإسلام" الذي يضم تراجم نخبة من علماء الأمة وقادتها الحقيقيين الصادقين، أحببت أن أورد كلمة كتبها الدكتور محمد أديب الصالح بعنوان: "إذا مات العالم"، يجدها القارئ في الصفحت الآتية.





إذا مات العالم^(١)

بقلم الدكتور: محمد أديب الصالح

كلّما قرأت قول الرسول الكريم ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»^(٢) تفأقمت إدراكي لخطر النكبة التي أصابت أمتنا بفقد الأستاذ الراحل مصطفى السباعي.

ففي هذا الهدى النبوي الكريم، ملامح لمنزلة العالم في كيان الأمة المسلمة، وتحديد لرسالته في صنع تاريخها العظيم، وذلك من حيث البيان والتبليغ، ثم من حيث أداء الأمانة في الحفاظ على معالم النور التي رسمتها يد النبوة.

فالعالم أولاً: مثل صادق معبر عن المكان الطبيعي للمعرفة في بناء الفكر الإسلامي.

وهو ثانياً: الحارس الأمين للمبادئ الخيرة التي نادى بها الوحي قرآناً عربياً، ثم تناولها بالبيان من قلّده الله أمانة البيان محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه.

(١) حصار الإسلام العدد السابع من السنة الخامسة - (رمضان ١٣٨٤ - كانون الثاني ١٩٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وما من شك في أنَّ الدلالة على العلم في بناء الفكر الإسلامي، والحراسة الأمانة لهذا الفكر جهاداً وعملاً، إنما تقدرهما حقَّ قدرهما الأمة الواعية التي تُدرك ذاتها، وتعلم أين مكانها من السَّير الحضاري للتاريخ، وأين موطنها من مواقع الهداية الإنسانية عبر القرون.

كما تدرك أي رسالة حملتها يوم تابعت الطريق على وقع الخطأ لأولئك الأبطال الأولين الذين بايعوا محمداً على الإسلام.

والعلم في حدوده وأبعاده الإسلامية يشمل كل ما له علاقة بشؤون العقيدة وخدمتها والتوفُّر على ترسيخها وتعميق جذورها في القلب، ويشمل كذلك كل ماله علاقة بالتشريع والأحكام التي تنتظم حياة الفرد والجماعة والأمة كما يمتد رواؤه بعد ذلك كله إلى سائر المعارف الإنسانية التي تعودُ على الأمة بالخير في دُنياها وعاقبة أمرها.

وإنَّ أمتنا بما لها من تطلُّع دائم إلى النقطة التي انطلقت منها، وهي الإيمان والعمل، الأمر الذي كان من آثاره مراقبة الله عزَّ وجل، وإيضاح الطريق ليستبين الحلال من الحرام، جعلت من العلم ما هو فرض عين لا يُغذر مكلف بتركه، كالذي يلاحظ في أمور الدين الأساسية والقدر الذي يخدمها من العربية، وما هو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين وإذا لم يقم به أحد فالكل آثمون كالذي يرى في أيِّ نوع من أنواع المعرفة التي تعود على الجماعة بالخير المادي أو المعنوي في حفظ كيانها وفكرها ووطنها وما يتعلق بذلك من شؤون.

في هذه الرُّحاب المتسعة من آفاق الفكر يقف العالم المسلم ليؤدِّي حقَّ الله في المعرفة والقيام على حراستها والذود عن حياضها بأمانة وإخلاص متطلعين إلى منافذ الحياة ذاكراً ما لأمته في عنقه من حقَّ أكيد، مراقباً ربَّه عزَّ وجل في كل ما يأخذ وفي كل ما يدَّع.

وإذا كان الأمر كذلك: فليس عجيباً أن يتقدَّس مداد العلماء فيوزن يوم

القيامة بدم الشهداء^(١)، وإنه إذا جاء الموت طالب العلم وهو على حاله مات شهيداً.

هذا مداد العالم وذاك دم الشهيد كلاهما يضيء الطريق، وينير الحوالك، ويرقى بالأمة إلى حيث الجدارة بأن تكون خير أمة أخرجت للناس.

ولم يكن أمراً عادياً أن يثني الله على العلماء بأنهم أهل الخشية منه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. أو أن العالم في خشيته لله تعالى وصدق إخلاصه وحسن اتجاهه يُمثل القدوة الرائعة لمن وراءه، ويُعطي المثل الطيب لأولئك الذين أخذ العهد عليهم أن لا يكتموا ما أنزل الله من البيان والهدى، وأن يكونوا أمناء على دينه الذي جاء به المرسلون.

ولقد يكون من الخير أن نسمح لأنفسنا بشيء من التطواف في مرابعنا الخيرة الباقية على الزمن لنذكر أن النصيب الأوفى في تحديد موطن أمتنا على طريق القيادة في العالمين عقيدة وفكراً وجهاداً في سبيل الإنسانية والحق إنما دل عليه وحمل الكثير من عبثه العلماء.

ولولا مواقف لسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وأحمد بن حنبل، والعز بن عبد السلام، وأمثالهم من العلماء العاملين لتغيّرت ملامح كثير من قضايانا الكبرى على دروب التاريخ.

وما أحسبني مغالياً حين أقرّر هذه الحقيقة: ما دام العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لا يورثون درهماً ولا ديناراً، ولكن يورثون العلم والحكمة والهداية إلى الخير.

(١) يشير إلى الأثر المروي عن أنس: «إذا كان يوم القيامة يوزن دماء الشهداء بمداد العلماء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»، عزاه المناوي في «فيض القدير» ٦٦٦: ٦ للشيرازي في الألقاب. وقال الزين العراقي: سنده ضعيف، والراجح أنه من كلام الحسن البصري. وينظر: المقاصد الحسنة.

أو لم يكف الذين يعملون تحت هذه الراية أن الله طوّقهم كرامة حراستها، وأقام منهم مدافعين عن شرف الكلمة ونقاء الغرض وسلامة الاتجاه، ولكن أخشى ما يخشاه المؤمن أن يدركنا ذلك اليوم الذي يصدق علينا فيه قولُ النبي ﷺ: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبضه بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»^(١) ألا إنها النبوة لو كانت هنالك نبوة، فسلامٌ على أنبياء الله أجمعين، وسلامٌ على العلماء العاملين ورثة الأنبياء في الخالدين انتهى.



(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، من حديث عبدالله بن عمرو.



شَيْخنا العَظِيم
محمد بدر الدين الحَسَنِي
مَحَدَّث الدِّيَار الشَّامِيَّة الأَكْبَر^(١)
(١٢٦٧ - ١٣٥٦ هـ) (١٨٥٠ - ١٩٣٤ م)

لِلأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ الْبَارِكِ
عُضْرِ الْجَمْعِ الْمَغْرِبِ بِشَيْخِهِ

هذه صفحة من الماضي الفريب فيها جواب من حياة رجل عظيم بلغ بعلمه وصلاحه وسلوكه المثالي منزلة لم ينلها أحد في عصره فكان أكبر حاكم في البلاد منذ أيام الأتراك حتى عام وفاته ١٩٣٤ وأشهدهم خبروتاً وطغياناً يأتي إليه ويجثو أمامه على ركبتيه، والشيخ في ركن زاويته المتواضعة في هبة دونها هيبة الملوك، وكان هو لا يزور الحكام، بل يرسل إليهم رسولاً في كل أمر يهم المسلمين، ولكنه كان يزور الفقراء والبسطاء، بل السجناء ويأنس بلقاء المساكين، ذلك هو الشيخ محمد بدر الدين البيباني المغربي الحسني الذي كان لي شرف ملازمته والقراءة عليه سنوات من حياتي كان لها أعظم الأثر في نفسي. هذه صفحات من حياته كتبها إثر وفاته عام ١٩٣٤ ولم تُنشر، وأحببت أن أنشرها اليوم كما هي دون تغيير على أن أحاول أن أكتب عنه من جديد جوانب أخرى عظيمة من حياته، لتكون عبرة وعظة للجيل الجديد، يَرَوْنَ فيها أن في الجيل الماضي المنصرم مثلاً علياً مقتبسة من ذلك المثل الإنساني الأعلى رسول الله الذي أرسل رحمة للعالمين صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) حضارة الإسلام، العدد السادس، السنة الرابعة، (١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م).



المغفور له العلامة الشيخ محمد بدر الدين الحسني

ثقافته العلميّة:

كان الشيخ رحمه الله عظيماً في نواح كثيرة، تُغنينا عن تصفّح كثير من أخبار رجالات المسلمين في الأعصر الغابرة، وهو عدا ذلك نمودج قريب العهد بنا أدركناه حياً وعرفناه وسمعنا منه.

فلعلّي أستطيع الآن أن أوضح ناحية من نواحي الشيخ، ولعل هذه الناحية أطرف نواحي هذا العظيم وأبرزها لعظمته، وأبعدها عن معرفة عامة الناس، فسأوضح على قدر استطاعتي في كلمتي هذه ناحية من نواحي ثقافته العلمية، وأذكر فيها بعض خصائصه ومميزاته العلميّة، وطرفاً من معلوماته في الرياضيات والطبيعيّات وطرائقه المختلفة في التدريس مُستنداً فيما أقوله على اطلاعي الشخصي وخبرتي الخاصّة.

محافظة على نظام عمله وترتيب أوقاته:

لقد انكث الشيخ على المطالعة وأولع بها كثيراً منذ كان صغيراً جداً. وساعده على ذلك: تجنّبه كثرة الاختلاط بالناس، وابتعاده عن فضول الأمور، فكان لا يتكلّم إلا بما لا بدّ منه من الكلام، وربما اكتفى بشطر كلمة، واستعان على مُرادِه بالإشارة، وكانت زيارته إذا زار أحداً لا تستغرق أكثر من بضع دقائق، وربما دخل وخرج ولم يجلس، وكان لا يغادر المدينة إلا نادراً، صائم الدهر لا يفطر، يحافظ على نظام عمله وترتيب أوقاته لا يغيّر منها شيئاً ولا يقدّم فيها ولا يؤخّر، فكان من الممكن معرفة الوقت الذي يمرّ به من الطريق الفلاني، والوقت الذي ينزل فيه من غرفته في أثناء النهار، وهكذا سائر أوقاته.

اختلاؤه عن الناس في بداية طلبه للعلم:

ومما ساعده أيضاً على حياته العلميّة المُشَبَّعة: اختلاؤه نحو تسع سنين ما بين الثالثة عشرة والعشرين من سنّه في غرفته في مدرسة دار الحديث، لا يخرج منها مطلقاً لأيّ أمر من الأمور، فكانت تلك الخلوة خير مِغْوَان له

على هدفه ومقصده، وساعدته على التماس من كثير من آثار البيئة التي هو فيها، والعصر الذي عاش فيه، وفي هذه الخلوة على ما يظهر كتب آثاره ومؤلفاته، فكان - على ما أظن - إذا انتهى من دراسة كتاب من الكتب المهمة أو علم من العلوم دُونَ بعض ما خطر له في ذلك العلم أو وضع لذلك الكتاب شرحاً أو علق عليه تعليقات جمعها وأفردها في كتاب، وقد رأيت نحو خمسة من آثاره هذه، ونظرت فيها وتصفحتها، أحدها: حاشيته على تفسير الجلالين رأيت منه المجلد الأول، وكتباً أخرى في التوحيد والفرائض، وهي مؤرّخة بتاريخ مختلفة، ترجع كلها إلى ما قبل العشرين من عمره، فهذه الخلوة الطويلة التي احتلها، وتلك الأمور الأخرى التي ذكرتها مع ما يضاف إليها من ذكاء فطري، وقوة في التفكير أعانت الشيخ كثيراً على متابعة دراسته ومكنته من أن يجمع من العلوم والمعارف ما ندر أن يجمعه رجل واحد.

ولوعه بجمع الكتب واقتنائها:

وقد أورثه شغفه في البحث وتطلّعه إلى معرفة ما دُونَ الأوائل ولوعاً في جمع الكتب على اختلاف أنواعها ومواضيعها، ومغالة في شرائها واقتنائها حتى إنه كان يدفع في الكتب النادرة أثماناً عالية، وقد بلغنا أنه اشترى كتاباً مخطوطاً بخمسمائة دينار ذهبي، ولم يكن ولوعه هذا ليجمع الكتب ويجعل منها مكتبة نفيسة كما يصنع كثير من الناس، ولكن ليدرسها وليقرأها ويستخرج ما فيها، فخرج الشيخ من ذلك كله بمجموعة عظيمة من العلوم والمعارف منقطعة النظير، فلم يترك علماً من العلوم المعروفة في المدنية الإسلامية إلا درسه وتوغل فيه.

تدريسه للعلوم الرياضية:

ولكن الأمر الذي ربما يجد فيه الناس غرابة وطرافة هو أن هذا المحدث الكبير كان يدرس في دار الحديث العلوم الرياضية على اختلاف فروعها، فكنت تجده يدرس عمليات الحساب، ونظريات الهندسة،

ومعادلات الجبر، كما كان يدرس الحديث والتفسير وغيرهما، وكنت ترى أمامه إلى جانب تلك الأسفار الضخمة المختلفة أشكال الهندسة من كرة وأسطوانة ومخروط وهرم وموشور.

وقد قرأت عليه قسماً كبيراً من نظريات الحساب مقرونة بإثباتاتها وتعليقاتها في كتاب «خلاصة الحساب» لبهاء الدين العاملي، وهو كتاب من أنفس الكتب في موضوعه، وله شروح كثيرة جيدة، ويحتوي على ثلاثة أقسام: الأول: في الحساب العملي والنظري، والثاني: في المساحة وتخطيط الأراضي، والثالث: في الجبر وقواعده ومعادلاته.

ودرست عليه جزءاً كبيراً من نظريات الهندسة المسطحة والمجسمة مما لا يختلف عما يدرس اليوم في المدارس الثانوية في شيء سواء في شكل النظريات أو في إثباتها، وذلك في كتاب «إقليدس» المشهور الذي يُطلق عليه الفرنجة Yes éléueus Cgueliole، والذي حرّره وهذّبه نصير الدين الطوسي أحد كبار الرياضيين الذين أنجبته المدنية الإسلامية في عصورها الزاهية، ويحتوي الكتاب على (٤٦٨) نظرية في الهندسة المسطحة والنسبية والفراغية (المجسمة) والحساب النظري.

طريقته في تدريس العلوم الرياضية:

فكان الشيخ يتلو علينا النظرية أولاً فنرسم شكلها على الورق، ثم يتسرع في سرد إثباتها، ونحن في أثناء ذلك نطبّق الإثبات على الشكل، ونناقش الشيخ أحياناً في بعض الأمور التي تعرض لنا، فيناقشنا فيها، وربما يتردّد في قبول ما جاء في الكتاب، فيحاكم المسألة طويلاً إلى أن يصل إلى شيء يستقر عليه رأيه.

وكذلك كان شأننا في دراسة الجبر، فقد درسنا عليه حل المعادلات الجبرية من الدرجة الأولى والثانية مع براهينها، وقواعد الجبر في الجذر والرفع وغيرها من الأعمال على الطريقة العربية القديمة التي تختلف في هذا الموضوع عن الطريقة الحديثة في رموزها وإشاراتها.

وربما اختبر الشيخ فهمنا في بعض الأيام بأن يلقي علينا مسائل في الحساب أو الجبر من كتب خطية قديمة لديه فنحلها ونُدلي إليه الجواب، فإذا أخطأنا فيه سألنا: كيف حللنا المسألة، وأرجعنا إلى الصواب فيها.

مرونته العلمية وسعة إدراكه وجودة تحقيقه:

وكنا ندخل أحياناً على شيخنا رحمه الله، فنجده قد أعذ لنا بعض مباحث في الكيمياء وتجارب الطبيعة من بعض الكتب القديمة، فيتلوها علينا، وربما أدلينا برأينا فيها، وكنت أجد في الشيخ مرونة علمية غريبة في هذا الموضوع، فقد كنت أحياناً أذكر له بعض النظريات الحديثة في الكيمياء والطبيعة، فكان يُضفي إلي ويستوضحني عن بعض ما أذكره له، ويتحقق من أمور تدل على سعة إدراكه العلمي، وجودة تحقيقه ومحاكمته.

فمن ذلك: أني ذكرت له مرة أن مما هو ثابت اليوم أن الماء جسم من الأجسام المركبة وليس بسيطاً كما كان يظن الأقدمون، فهو مركب من عنصرين لهما خواص مختلفة، وأعقبت ذلك بذكر الأسس التي تبنى عليها الكيمياء الحديثة. فسألني: كيف ثبت أن الماء مركب، وهل يمكن تحليله إلى عنصريه، وهل يمكن رؤيتهما، وكيف يمكن التحقق من اختلافهما؟! وبعد أن أجبت عن تلك المسائل قال لي: وهل رأيت أنت مثل هذا التحليل، وكيف كان ذلك؟ فأجبت عن ذلك أيضاً. فأطرق قليلاً وهو يفكر، وكان يتلقى أجوبتي بهدوء وسكون ممزوجين بالتأمل والتفكير.

نفائس الكتب المخطوطة والمطبوعة في العلوم الرياضية:

ولديه من نفائس الكتب المخطوطة والمطبوعة في الحساب والهندسة والجبر ما نذر أن يوجد مثله في مكتبة من المكاتب. ولا أعرف أنه اقتنى كتاباً حديثة أو اتصل بكتب مترجمة عن اللغات الأجنبية في غير المواضيع الرياضية، أما في هذه المواضيع فقد رأيت عنده كتباً مترجمة عن الفرنسية مما تُرجم في أوائل النهضة المصرية على ما يظهر. أذكر منها «هندسة

لوجاندار» ترجمة محمد أفندي عصمت، وكتاب «كشف السر المصون في تطبيق الهندسة على الفنون» تعريب عيسوي أفندي زهران.

أما ما كان من تدريس الشيخ رحمه الله لبعض مباحث الكيمياء والطبيعة فأترك بحثه لصديق لي قرأ عليه في هذا الموضوع أكثر مما قرأت، فإني لم أقرأ عليه في هذا العلم سوى تجربة في كثافة الأجسام كنت نشرتها بنصها وشرحها في مجلة الرسالة في العدد (٤٢) وشيء من مقدمات الكيمياء القديمة.

وعلى كلِّ فإنَّ من الغرابة بمكان أن ينصرف إلى هذه المباحث من هو مشغول في علم الحديث والتفسير وأصول الفقه والتوحيد والعربية وغيرها، ولا يغرب عن هذا أن الشيخ كان في هذا الموضوع أستاذ نفسه كما كان رحمه الله في أكثر علومه.

طريقة تدريسه:

ولننتقل بعد هذا إلى البحث عن طريقة تدريسه وبعض خصائصه العلمية.

أما طريقته في التدريس: فكانت على ثلاثة أشكال مختلفة، لكلِّ منها موضع خاص بها.

درسه الخاص في دار الحديث:

فأما الشكل الأول: فهو الذي يتبعه في تدريسه الخاص في غرفته في دار الحديث التي كان يؤمُّها من يقصد دراسة كتاب خاص أو علم خاص على الشيخ من طلاب العلم على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم، فكان يجتمع في الدرس الطالب والطالبان إلى العشرة، ولا تخرج جماعة إلا وتدخل جماعة أخرى غيرها من بعد طلوع الشمس إلى ما بعد العصر، وكانت طريقته في هذه الدروس أن يقرأ الطالب في الكتاب الذي يدرسه، وربما قرأ الشيخ نفسه على قلة، وكلما انتهى من قراءة مسألة من المسائل أو قضية من القضايا أعاد الشيخ تقريرها ووضَّحها وحلَّ مشكلاتها، وربما توسَّع

في شرحها، وأفاض أو اختصر وأوجز، وقد يسأل الطالب بعد ذلك عما فهمه، ويطلب إليه تقريرها إذا ظهر له أنه لم يفهمها وسكت استحياء.

ويكون الشيخ قد أعد قبل أن تأتي كل جماعة من تلك الجماعات الكتب التي لها علاقة بما يدرسونه حتى إذا ما وجد نقصاً أو قصوراً في الكتاب الذي يقرؤونه تبسّط في الشروح التي تكون بين يديه، وهكذا يستمرون في قراءة وشرح وتقرير ومناقشة إلى أن يقرب وقت انتهاء الدرس فيشير إليهم الشيخ بانتهاء الوقت فيخرجون.

درسه في مسجد بني أمية تحت قبة النسر:

وأما الشكل الثاني من تدريسه: فهو درسه في مسجد بني أمية تحت قبة النسر كل يوم جمعة من بعد صلاة الجمعة إلى العصر، وقد كان هذا الدرس آية الآيات، ومِرْصع الإعجاب في تنوع مواضيعه وتشعب أغراضه، وتسلسل أحاديثه، وغزارة مادته، وجليل فوائده.

كان الشيخ يستمتحه بحديث من الأحاديث النبوية ينبيء عن الموضوع العام للدرس، وربما يكون سلسلة من موضوعات الدروس السابقة، وبعد أن ينتهي من سرد الحديث بلفظه وسنده، يأخذ في شرحه وبيان مَرَمَاه وهدفه، وما يُسْتَنْبَط منه من الأحكام، وما يتصل به من شئى المواضيع مُسْتَنْدأ في كل ما يُورده من المعاني والأحكام إلى الأحاديث التي يعزوها إلى مراجعها مع ذكر سندها ورواتها، وهو في كل ذلك لا يستند إلى ورقة أو كتاب مع فصاحة لهجة وحُسن بيان.

ودرسه هذا مع تشعب مواضيعه وكثرة استطراداته مرتبط بالأجزاء، متسلسل الأفكار، تربطه وحدة في الموضوع، بحيث لو كُتِب وُجِع لخرجت منه أبحاث طليّة متسلسلة في مختلف المواضيع، وقد عني بعضهم بجمع قسم من هذه الدروس وجمع منها بضعة مجلدات^(١).

(١) وهو الأستاذ الشيخ محمد سهيل الخطيب المتوفى سنة ١٤٠٢ رحمه الله تعالى.

قوة ذاكرته:

من أظهر خصائص الشيخ في هذا الدرس وأعظمها: قوة ذاكرته فقد كان ينتقل من بحث إلى بحث، مُبتعداً عن الموضوع الأصلي، ثم لا يزال في استطراده حتى يعود إلى موضوعه الأول، مع حسن انتقال وسلاسة واستمرار في الحديث، كانحدار السَّيل بلا تَلَكُّؤ ولا تَلَجُّح ولا انقطاع، لا يقاطعه في أثناء ذلك أحد، ولا يسأله، وكان ينتخب موضوع الدرس مما له علاقة بحالة الناس في ذلك الوقت، ويستطرد فيما يرى أنه تهمة الناس معرفته، أو يرى وجوب تنبيههم إليه.

تفرُّسه في وجوه الحاضرين:

وكان الشيخ في أثناء إلقائه يتفرس وجوه الحاضرين جميعاً، ويلتفت بحركة لطيفة إلى يمينه ويساره وخلفه، حتى يجعل موضوع درسه مناسباً لأولئك الحاضرين، بحسب ما تُوحيه إليه فراسته ويلهمه ذكاؤه ونظره، وهذا الدرس يرتفع عن طبقة العوام وإن كان أغلبه مفهوماً لديهم، ويستطيع أن يستفيد منه العوام والخواص بأن واحد.

وبالجملة فقد كانت هذه المحاضرة الجمعية آية باهرة، وطُرفة نفيسة رائعة، تظهر فيها قوة الشيخ رحمه الله وبلاغته وحُسن تصرفه وغازاة علمه وسعة إدراكه ودقة انتباهه.

دروسه في داره بعد صلاة المغرب:

وأما الشكل الثالث من طريقة تدريسه: فهو الذي يتبعه في دروسه في داره التي تفتح للوافدين من بعد صلاة المغرب، يدخلها مَنْ شاء، ويجلس أنى شاء، فإذا حان وقت ابتداء الدرس دلف الشيخ إلى الجماعة وسَلَّمَ، وجلس إلى جانب الباب من غير أن يقوم له أحد ويُحييه بغير رد السلام فيشرع المعيد في القراءة، ويظل مستمراً حتى يومئ له الشيخ بالوقوف، أو تعرض له مسألة تُشكل عليه أو على أحد من الناس، فيقف منتظراً جواب الشيخ، ويجيب الشيخ على ذلك إما موجزاً وإما مُتبسطاً، وربما أخذ في

الشرح وأفاض في الكلام برهة طويلة، وقد تتوارد عليه الأسئلة حينئذ، وينتهز الناس على اختلاف درجاتهم فرصة انشراحه إلى الكلام فيوجه إليه كل واحد منهم بما يخطر على باله من الأسئلة التي لها علاقة ولو يسيرة بالموضوع الذي يدور حوله البحث، ويجيب الشيخ على تلك الأسئلة، وربما أعرض عن بعضها ولم يُجب، وربما أجاب بقوله: لا علم لي، وهذه من أعظم ميزاته وأدل الأشياء على صراحته وتواضعه.

سبب إعراضه عن الإجابة على بعض الأسئلة:

وهنا تعرض لنا قضية من أهم القضايا في البحث عن الشيخ رحمه الله، وهي عدم إجابته على بعض الأسئلة أحياناً وإعراضه عنها، فيذهب الناس في تأويل ذلك وتعليله مذاهب شتى، فيذهب بعضهم إلى أنه يكره الأسئلة ولا يحتملها، وبذهب غيرهم إلى أنه ينهج في ذلك منهج بعض السلف في التورع من الإفتاء. والحقيقة غير ذلك، فمن لازم الشيخ في حياته مدة من الزمن، ودقق في أحواله، وعرف مزاجه وطبعه، وانتبه إلى المواطن التي لا يجيب فيها وجدها لا تعدو في الغالب الأحوال الآتية:

١ - إذا كان السؤال خارجاً عن صدد الموضوع الذي يكون البحث فيه وتكون الإجابة حينئذ على ذلك السؤال خروجاً عن البحث وقطعاً لسلسلة الكلام.

٢ - إذا كان السؤال يعلو عن طبقة السائل فلا يستطيع إذا أعطى الجواب أن يفهمه أو يستفيد منه شيئاً، وربما أضرب به سوء فهمه له وأوقعه في مشاكل لا يستطيع التخلص منها وأبحاث نظرية لا يطبق الخوض فيها.

٣ - إذا ظهرت على السائل إمارات تدل على أنه يقصد اختبار الشيخ وامتحانه. وهنا تبدو على الشيخ علائم الإعراض، وربما أجاب بعدم العلم مع أن القضية من أبسط القضايا ومما يكثر ترداده على لسانه في كلامه ودروسه.

٤ - إذا كان إيراد السؤال بصورة تدلّ على أنّ السائل قصد بسؤاله بيان علم نفسه والإدلال على معرفته، وعلو كعبه وسعة اطلاعه ولم يقصد أخذ الجواب والاستفادة.

هذا وإن بعض الأسئلة الفقهية الخاصة قد لا يُجيب الشيخ عليها فيحيلها على بعض المتفّقّين من تلامذته أو غير تلامذته.

وبالجملة فإذا كان السؤال في موضعه وقُصِدَ به مجرد الفائدة والتعلم، فإنّ الشيخ لا يتأخّر عن الإجابة عنه.

وقد كنت أسأله في كثير من الأحيان بعد انتهاء الدرس أسئلة خاصة لا علاقة لها بموضوع الدرس فكان يجيبني ويفيدني.

جوابه عن حكم نشر الدعاية الإسلامية في البلاد الأوروبية:

أذكر أنني سألته في صيف العام الماضي عن حكم نشر الدعاية الإسلامية في البلاد الأوروبية؟ فقال لي بلهجة المستغرب لهذا السؤال كأن الجواب عليه بديهي ظاهر: هذا فرض على المسلمين، وإنما شرع الجهاد لهذا الغرض.

جوابه عن حكم تعلم اللغات الأجنبية:

وستل مرة من بعض المراجع الرسمية عن حكم تعلم اللغات الأجنبية فأجاب بقوله: «تعلم اللغات الأجنبية يكون فرضاً لأجل الترجمة ونصيحة العباد بتعليمهم ما ينفعهم»، ثم أعقب ذلك بما يؤيد هذا الكلام من الحديث النبوي من صحيح البخاري وغيره، وذكر بعد ذلك لزوم الترجمان في القضاء إذا لم يعرف الحاكم لسان أحد الخصمَيْن وحكم أئمة المذاهب الأربعة في الاكتفاء بترجمان واحد لأجل الترجمة أو لزوم ترجمانين اثنين لذلك باعتباره شاهداً. ولا يزال نصّ هذا الجواب عندي نقلته من خطه وقد كان أمرني بنقله.

طبائعه وأوضاعه الخاصّة:

هذا وإن للشيخ رحمه الله في جميع أحواله ونواحي حياته طبائع وأوضاعاً خاصّة يجب على من كان يؤدّي الاستفادة منه والأخذ عنه أن يراعيها ويُقدّرهما فلم يكن مثلاً يحب كثرة الكلام ولا الثرثرة والتشّدق ولا إضاعة الوقت فيما لا فائدة فيه، ولا يحبّ التكلّف والتصنع في أمر من الأمور، ولا قصر القصص الفارغة وسرد الأخبار التافهة والحوادث اليومية التي تجري مع الناس إذا لم يكر في ذلك فائدة تُرتجى أو غاية حقيقية نافعة يرمى إليها.

وكان يُحبّ الدكي السريع الفهم، ويضيقُ دُرعاً بالبليد ولا يتحمّله وليس معنى هذا أنه لا يحالس العوام وبسطاء الناس فكثيراً ما كان يُحدث بسطاء الناس ويسدح الملاحين الذين يفدون عليه من قراهم النائية ويؤنسهم بكلامه ويسرحهم بحزاح لطيف فيه شيء كثير من المباشطة.

صورة من صور العهد الماضي:

هذه صفحة من صفحات الشيخ بدر الدين، بل صفحة منظوية من صفحات العهد الماضي تمثّل لنا شيئاً كثيراً من صور الماضي الجميلة لا بدّ لنا من إثباتها وتدوينها ليكون لنا في شيخنا العظيم رحمه الله أسوة حسنة في الحرص على نفع المجتمع والإعراض عن صرف الأوقات فيما لا فائدة فيه ولا جدوى، واستغلال ساعات العمر، واستثمار لحظات الحياة، وتنظيم الأعمال وترتيبها، وتقسيم الأوقات وتخصيصها، ومراقبة هواجس النفس وخواطرها، وملاحظة كل خطوة نخطوها، وكل كلمة نفوه بها، وكل سطر نخطّه حتى تُشرق النفوس، وتمتلأ الحياة تأملاً وتفكيراً، فقد كان الشيخ قدوةً ومثلاً عالياً في كلّ هذه الأمور رحمه الله وأجزل ثوابه.





شَيْخنا العَظِيم مَحَدَّث الدِّيار الشَّامِيَّة الأَكْبَر^(١)

- ٢ -

لِلأَسْتاذ مُحَمَّد المَبَارَك
عَضو لَجَمع النُّفوس بِرَش

رَغِب إلَيَّ بَعْضُ الأَصْدِقاء حِينَ قَرؤُوا مَقالي القَدِيم عَن أَسْتاذنا الكَبير
الْعَلامَة الشَّيخ مُحَمَّد بَدْر الدِّين رَحِمَهُ اللهُ الَّذي نُشِرَ في العَدَد الماضِي مِن
المَجَلَة في الكُتابَة عَنه وَالاسْتِزادَة مِن أَخبارِهِ وَأَحْوالِهِ إِحياءَ لِشَخْصِيَّة كانَ لَها
في عَصْرِها مَنزَلَة عَاليَة وَتَقدير عَظِيم في النُفوس، كانَت تَتجاوِز حُدود
تَلامِيذِهِ وَمُريدِيهِ وَأَهل مَدِينَتِهِ وَبِلَدِهِ، بَل كانَت لا تَخْتَصِر بِالمُسلمين
وَحدِهِم، بَل تَعُمُّ المَواطِنين مِن جَميع الأديان لَمّا عُرِفَ بِهِ مِن حُسنِ
المَعامَلَة وَالبر بِالناس أَجمَعين.

ابْتِداء صَلَة الأَسْتاذ المَبَارَك بِالشَّيخ:

كانَت صَلَتي بِالشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ وَقَد قاربَ الثَّمانينَ مِن عَمَرِهِ، وَبَلَغَ
أَوَج الشَّهرَة وَالْمَجْد، وَهُوَ عَظِيم في تَواضَعِهِ وَعُبودِيَّتِهِ لَهِ، وَبِساطَة حَياتِهِ،

(١) حَضارَة الإسلام، العَدَد الثَّامِن، السَّنَة الرَّابِعَة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

وشدة يقظته في ضبط سلوكه في كل حركة من حركاته، وابتدأت يومئذ وأنا في نحو الثالثة عشرة من عمري بحضور دروسه العامة التي كان يلقيها كل يوم في داره مساء من بعد المغرب إلى ما بعد العشاء بقليل في قاعة كبيرة تتسع لما يزيد على المئة كانت مُخصّصة لذلك.

دروسه الخاصّة:

واستمرّت صلتي كذلك سنوات، ثم أُتيح لي كذلك خلال عدة سنوات حضور دروسه الخاصّة التي كان يلقيها في مدرسة دار الحديث، ويحضرها الخاصّة دون العامة، ويتراوح عدد الحضور فيها من اثنين أو ثلاثة حتى العشرة في غرفته الخاصّة التي كانت تتسع لأكثر من هذا العدد، وأما موضوعات هذه الدروس الخاصّة فقد كانت متنوعة في النحو والصرف والبلاغة والحديث والمصطلح وأصول الفقه وعلم الكلام والفرائض والحساب والجبر والهندسة والفلك.

الكتب التي كان يُدرّسها في حلقاته الخاصّة:

وأذكر فيما أذكر من الكتب التي كانت تدرس في هذه الحلقات وحضرت قسماً منها، وتابعت بعضها الآخر متابعة كاملة: شرح «جمع الجوامع» في أصول الفقه، و«شرح المواقف» في الفلسفة والكلام، و«شرح السراجية» في الفرائض، و«شرح نخبة الفكر» في مصطلح الحديث، و«شرح التلخيص» للتفتازاني في البلاغة، و«شرح الكافية» لابن الحاجب في النحو، و«شرح خلاصة الحساب» في الحساب والجبر لبهاء الدين العاملي، و«أصول إقليدس» في الهندسة من تحرير نصير الدين الطوسي.

وكان موعد هذه الدروس ما بين الضحى والظهر، وما بين الظهر والعصر، وكان بعض الدارسين في هذه الحلقات من علماء البلد المعروفين، ومن كبار الشيوخ كما كان يحضر بعضها كذلك شبّان من طلبة العلم ورواد المعرفة.

ينابيع الثقافة الإسلامية:

ولقد كانت هذه الفترة من حياتي عظيمة الأثر غزيرة الفائدة، وهي التي وصلتني بينابيع الثقافة الإسلامية في مصادرها الأصلية، وأطلعتني على ما في تراثنا العظيم من كنوز المعرفة وآفاق العلم، وعلى معالم الإسلام إلى جانب دراستي التي كنت أتابعها في المدارس الرسمية، ومن أجل هذا كان فضل الشيخ رحمه الله عليّ كبيراً لم أنسه ولن أنساه أبداً.

سلوك الشيخ وحياته الخاصة:

ولم يكن تأثير الشيخ فيمن حوّلته وما له من هُيبة ومنزلة في النفوس عامة بسبب علمه الغرير وثقافته الواسعة فحسب، وإنما كان بوجه خاص بسبب سلوكه وسيرته. ذلك أنّ للشيخ رحمه الله نظاماً خاصاً في حياته كان فيه بالنسبة لأهل عصره نسيج وحده.

عبادته:

فقد كانت ساعات ليله ونهاره مقسمة تقسيماً دقيقاً لا يتغيّر ولا يتبدّل على العبادة والعلم، فقد كان يستيقظ قبل الفجر بوقت طويل، ويقضي وقته هذا حتى الفجر بين التهجد والصلاة والمطالعة في غرفته الخاصة في داره، ثم يتسخر سحوراً خفيفاً استعداداً للصوم لأنه كان صائماً دائماً، ولا أدري لعله يقطع هذا الصوم بإفطار بعض الأيام دون أن يشعر بإفطاره خروجاً من النهي الوارد عن صوم الدهر أم أن له رأياً آخر في الموضوع. ثم يتهيأ لصلاة الفجر في المسجد الأموي مع الإمام، وكانت داره قريبة من المسجد، فإذا ما صلى وتلا أوأرده وأذكاره خرج من المسجد متوجّهاً إلى غرفته في دار الحديث، والمسافة بينهما قريبة كذلك، وكان يرافقه في هذا السير واحد أو اثنان من تلاميذه.

غرفته في دار الحديث:

وكانت غرفته في دار الحديث في الطابق الأول في أقصى الجهة الشمالية الشرقية، وهي غرفة صغيرة ملاءى بالكتب في أرضها وجدرانها، وله فيها مكان يجلس عليه فوق وسادة أو جلد، وأمامه منضدة مستطيلة، يصنف عليها الكتب ويركعها فوقها.

مطالعة ودروسه:

وكان يقضي وقته هذا بعد صلاة المحر بالمطالعة الشخصية فلا ينام ولا يقابل أو يجالس أحداً، فإذا ما طلعت الشمس وارتفعت ابتدأت الدروس الخاصة وتوالت، وقد يعفو الشيخ في هذا الوقت قبل الدروس إغفاءة قليلة لا تتجاوز على الأكثر مقدار نصف ساعة، ثم تتوالى الدروس طول النهار لا تقطعهما إلا صلاة الظهر إذ يستعد الشيخ لأداء الصلاة مع إمام المسجد، ويعود بعد فترة قليلة إلى ما كان فيه، فإذا أدى صلاة العصر عاد إلى داره واستعد لصلاة المغرب، ويبقى باب الدار مفتوحاً للراغبين في الصلاة معه، ويؤمّه أحد الحاضرين، ذلك أنه لا يصلي إلا مُقتدياً ولم ير مرة إماماً لجماعة، ولعل ذلك كان عن مبالغة في الورع أو التواضع، ثم يخرج الشيخ للإفطار ويبقى الباب مفتوحاً ويتوافد الراغبون في حضور الدرس الذي يلقيه الشيخ على الجمهور بعد صلاة المغرب في قاعة كبيرة في القسم الخارجي (البراني) من داره.

درسه العام في داره الواسعة:

وكانت له دار واسعة كبيرة لها قسمان: براني وجواني، ولكل منهما باب مستقل فإذا انقضى على صلاة المغرب نحو ثلاثة أرباع الساعة، نزل الشيخ من غرفته، ودخل على الجماعة المنتظرين لحضوره والمتطلعين إليه، والمتشوقين لسماع كلماته ومواعظه، فإذا دخل وألقى السلام على الجماعة ردّوا عليه دون أن يقوم أحد منهم من مكانه لأنه كان يكره ذلك، ثم يجلس في مكان مُعدّ له إلى جانب الباب لا يقبل أن يُبدّله مع أن ذلك كان يؤذيه

في أيام الشتاء، فلا يقبل أن يتخذ له مكان في صدر القاعة، وكان يجلس على الأرض، ويضع تحته طنفسة في الصيف أو وسادة محشوة في الشتاء، ويجلس الناس على الأرض وعلى المقاعد الموضوعة في أركان القاعة الأربعة، وكان للدرس معيد يقرأ في كتاب ويستوقفه الشيخ بين حين وآخر ليبسط ما يرى بسطه للناس، وكان معيد الدرس يومئذ الأستاذ الشيخ عارف الجوبجاتي^(١) حفظه الله، كما تولّى هذا العمل أيضاً الأستاذان الشيخ راشد القوتلي^(٢)، والشيخ عارف الدوجي^(٣) رحمهما الله، وكان الدرس ينتهي بعد العشاء بنحو نصف ساعة أو تزيد قليلاً.

امتناعه عن الكلام ولقاء الناس بعد صلاة العشاء:

إذا أدى تسبيح صلاة العشاء مع الجماعة امتنع من الكلام ولقاء الناس حتى تشرق الشمس. وكان يصادف فيما أعلم أن يرسل إليه الحكام يرجون مقابلته في ذلك الوقت. فيعتمر عن المقابلة، وكان ينام من الليل عدداً قليلاً من الساعات.

هذه كانت سيرته اليومية الرتيبة في الصيف والشتاء، تنقضي كلها في العبادة والعلم، لا يقطعها إلا ما يتخللها أحياناً من بعض الزيارات الخفيفة لبعض الأشخاص أو لبعض المؤسسات العامة.

زيارات الشيخ:

كان الشيخ يتفقّد أحياناً بعض أصدقائه ومعارفه القدامى ممّن لا يعرف الناس صلته بهم أو بعض أرحامه، وأكثر ما يزور من الناس البسطاء، وقد يزور غيرهم كما كان يتفقّد بزياراته بعض أهل الملل الأخرى، وقد اشتهرت زيارته لحيّ النصاري في أيام الثورة في وقت شاعت فيه شائعة خبيثة،

(١) الشيخ محمد عارف بن محمد وحيد الجوبجاتي، المتوفى سنة ١٣٩٥ رحمه الله تعالى.

(٢) الشيخ محمد راشد بن محمد رشيد القوتلي، المتوفى سنة ١٣٧١ رحمه الله تعالى.

(٣) عارف بن رشيد الدوجي، المتوفى سنة ١٣٧١ رحمه الله تعالى.

رؤجها دعاء السوء وأبواق الفرنسيين، وهي أن الثوار يريدون الاعتداء على الحي، فكان لزيارته معنى رائع عظيم، وهو التضامن بين المسلمين والمسيحيين في محاربة الفرنسيين المستعمرين.

وكان الشيخ يزور أحياناً بعض المدارس الرسمية والخاصة، وأذكر أنه زار مرة مدرسة التجهيز (الثانوية) ولم يكن يومئذ في دمشق مدرسة ثانوية غيرها. وكنت طالباً فيها، ودخل قاعات الدرس، فكان يسأل الأستاذ عن موضوع الدرس، ويستمع إلى الأستاذ، ويسأل بعض القضايا المتعلقة بذلك، ويطرح بعض الأسئلة.

وكان يزور كذلك السجن ويتفقد المسجونين، ويتحدث معهم. ويسألهم عن سبب سجنهم.

وهكذا كان لزيارات الشيخ رحمه الله معانٍ وأهداف اجتماعية إلى جانب الزيارات ذات الصفة الشخصية.

لباسه:

كان الشيخ رحمه الله جارياً على عادات أهل زمانه كما كان متحرراً من كثير منها، فقد كان يلبس من الثياب الجيد النظيف، ولا يلبس الرفيع الذي يتميز به على غيره.

كان يلبس ثوباً من القطن، كان يُعرف بالديما أو الصاية من الديما، ويشدُّ عليه نطاقاً من الشال الخفيف العادي، ولا يزرره عند رقبته، بل يتركه سائباً ليفسح المجال ليضع في صدره بين ثني الثوب منديلاً، وعلى الثوب جبة من الجوخ الأسود الجيد، وكلاهما لا يتجاوز أنصاف ساقه في الطول اتباعاً للسنة خلافاً لما جرت عليه العادة من إطالة الجبة والثوب، وخروجاً من النهي الوارد في الحديث.

وكان يضع على رأسه عمامة كبيرة صفراء مُطرَّزة من النوع المعروف في بلاد الشام، يكوّرها فوق طربوش تكويراً عادياً لا تصنع فيه، وكانت

ثيابه مثلاً للنظافة البالغة، وكان يلبس جوربين سميكين لونهما أبيض، ويتخذ بابوياً أصفر.

تحرّره من عادات الناس اليومية:

كان الشيخ مُتحرّراً من عادات الناس اليومية، فلم يُعرف عنه أنه شرب الشاي أو القهوة أو جلس يستمع إلى أحاديث الناس العادية أو يتحدث بمثلها، ويمكنك أن تحصي عليه كلماته التي يقولها في يومه وليلته فلم يكن له فيما عدا كلامه في العلم وذكره لربه الذي كان لا يَقْتر عنه لسانه من الكلام إلا ما اضطرته إليه الحاجة، وعلى غاية من الإيجاز ومع الاستعانة بالإشارة أو ما كانت تدعو إليه الحال حين لقاء إنسان بَعْد العهد ببلقائه كسؤاله عن أهله وولده أو أهل بلده، وأما ما سوى ذلك من أنواع الكلام المباح فكان يمنع جلساءه من الخوض فيه فضلاً عن أن يخوض فيه.

لقد كان كلامه العادي قابلاً للعد والإحصاء، أما ذكره لله وصلاته على النبي ﷺ فلا يُحصى لأنه لم يكن يَقْتر عن ذكر الله.

لقد كان قليل المشاركة جداً في الولائم والدعوات، وإذا اتفق أن قبل الدعوة وحضرها، وكانت دعوة إفطار في المساء، تناول من الطعام قليلاً ثم أمسك. وهو - كما سبق أن بيّنت - صائم أبداً إلا في الأيام التي يحرم فيها الصوم، ولكنه مع ذلك ما كان يغيّر فيها ما اعتاده في سائر الأيام. أما طعامه في بيته فكان يتناول أجود الطعام مع الإقلال.

سعة رزقه وصدقاته:

إن هذه الخطة القاسية التي أخذ بها الشيخ نفسه لم تكن عن ضيق ذات اليد، وإنما كانت عن اختبار وعزيمة، فقد كان الشيخ رضي الله عنه ميسور الحال، فقد ترك له والده ثروة حسنة، فكان يملك داراً كبيرة واسعة في حي القيمرية، وكان يملك بضع عقارات في سوق الحميدية، وكان يشارك أحياناً بعض الناس في تجارة الأغنام، وكان له راتب تدريس. ولو شاء أن يعيش معيشة ناعمة مُترفة لكان له ذلك، ولكنه كان يعيش في عالم آخر.

وكان للشيخ رحمه الله صدقات خفية لا يعلمها إلا نفر قليل ممن حوله. فكثيراً ما كان يُرسل المؤونة إلى أسر مخصوصة، ولا يعلم ذلك إلا مَنْ يُكلِّفه بإيصالها إليهم.

هيئته العظيمة:

إنَّ استغراق الشيخ في العبادة وذكر الله، وفي العلم دراسةً وتدرّساً، والتزامه هذه الطريقة الشديدة المتقشفة المنظمة الدقيقة وتحزُّره من كثير من عادات الناس بعيداً عن متع الحياة وملذاتها، والتزامه للشرع وحدوده، والسنة وآدابها سنين ضويدة جداً، وجرأته على الحكام وترفعه عنهم كما سيتبين بعد قليل، إن ذلك كله ألسر الشيخ رحمه الله ثوباً من الهيبة في أعين الناس لا تماثلها هيبة، بل لا يُضاهيه فيها أحد من العلماء أو الزهَّاد أو العباد أو غيرهم.

لقد كان للشيخ رحمه الله هيبة عظيمة ما عُرفت لغيره فكان إذا مرَّ في طريق أشار الناس إليه وتهامسوا وأطلَّ الناس من النوافذ للنظر إليه وقالوا: هذا هو الشيخ بدر الدين، وإذا مرَّ في سوق من أسواق المدينة ولمحه الناس من بعيد رأيتهم يستعدُّون للقيام له - رغم كراهته لذلك - والسلام عليه سواء في ذلك المسلمون والنصارى، وربما تراكضوا حوله وخفُّوا للسلام عليه حباً له وتقديراً وإعجاباً وتبركاً بلاقائه أو السلام عليه، وكان يقف للصبي الصغير والمرأة والفقير السائل ولمن يتعرَّضون له ويستوقفونه.

وكان إذا دَخَلَ المجلس أو قاعة الدرس في داره أو أقبل على الحلقة الكبيرة في مسجد بني أمية يوم الجمعة ليُلقي درسه الأسبوعي، وانفرجت له الصفوف، وجدت أعين الناس تتطلَّع إليه، وتتمتع بمرآه البهي ومنظره المهيِّب لا تغادره ولا تتزحزح عنه حتى يستقر في مكانه، ومع أن هذا المشهد كان يتكرَّر عليهم كل يوم أو كل أسبوع فإنَّ شعورهم هذا يتجدَّد ولا يتطرَّق إليه الابتذال بالاعتیاد والتكرار.

تواضعه والتزامه للسنّة وموقفه من تقبيل اليد والقيام:

وكان مما تميّز به الشيخ رضي الله عنه أنه ما كان يمكن أحداً من تقبيل يده، وربما أدى ذلك إلى أن يجذب يده جذباً شديداً ممّن يحاول تقبيلها، وربما كان الدافع إلى ذلك التواضع من جهة، والتزام ما كان عليه الرسول ﷺ مع أصحابه، فلم يُعرف أنهم كانوا يقبلون يده كلما التقوا به أو أنهم اتخذوا ذلك عادة. فأين ما كان عليه شيخ المُحدثين وعلامة الديار الشامية رحمه الله ممّا يفعله بعض من نصبوا أنفسهم للوعظ والإرشاد والتعليم من مذّيديهم سُلماً للمُسلم عليهم، كأنهم بذلك يريدون إلزامه بتقبيلها، وربما قَرَّب من وجهه وفمه، لينالوا بذلك تعظيم العامة لهم؟!^(١).

كراهته لقيام الناس له:

وكان الشيخ رحمه الله يكره أن يقوم الناس له في مجلسهم، وينهاهم عن ذلك نهياً شديداً، ويغضب إذا خالفوا رأيه في ذلك، وقاموا له، فكان إذا دخل غرفته وفيها بعض تلاميذه أو دخل قاعة الدرس في داره، وفيها الكثير من الحاضرين، لا يقوم له أحد منهم إلا إذا كان حديث العهد بحضور مجلس الشيخ فينبهه من حوله إلى ذلك لئلا يغضب الشيخ، ولا يقوم هو كذلك للداخلين عليه، وإذا جاءه زوار غرباء من الأجانب أو الحكام أدخلهم تلاميذه إلى غرفة استقبال خاصّة، ثم يدخل الشيخ، لئلا تحدث المشكلة إذا دخلوا ولم يقم الشيخ لهم فيظنون أن الشيخ أراد انتقاصهم وهم لا يعرفون عادة الشيخ هذه والمجال غير مُتسع لشرحها. فأين هذا ممّن يقوم الناس لهم في بيوت الله فضلاً عن القيام لهم في غيرها، وربما كان أحدهم متوجّهاً إلى القبلة يذكر الله أو يستعدّ للصلاة، فينصرف عن الله بوجهه، ويقوم تعظيماً للشيخ. وهذا في رأينا من أعظم المنكرات

(١) تنظر. فتوى العلامة الشيخ محمد صالح العقاد في حكم تقبيل اليد في ترجمته الواردة في هذا الكتاب ص ٤٧٣ - ٤٧٤.

وأشدها وأشنعها ولا يكون السكوت عنها إلا عن غلبة الشيطان ومُجارة الهوى أو عن جهل بأسس الشريعة وقواعد الإسلام. على أن الشيخ أعلى الله في الجنة مقامه لم يكن يرى خُرمة القيام فقد كان يقوم في أحوالٍ نادرة فقد شهدته قام لرجلٍ من آل البيت له وَجَاهَةٌ ومكانة.

تباسطه في الكلام مع بسطاء الناس:

وكان رحمه الله يتباسط في الكلام مع بُسطاء الناس، فقد رأيتُه مرة وقد دخل عليه فلاح من حوران، وكان في غرفته في دار الحديث وعنده تلاميذه يقرؤون عليه فسَلَّمَ عليه وردَّ الشيخ السلام، ثم قال الرجل: عندي امرأة. فقال الشيخ: بارك الله لك فيها، فقال: لو أنك وضعت يدك المباركة عليها وقرأت لها شيئاً فإنها عندي منذ كذا من السنين، ولم تُنجب لي ولداً. فقال الشيخ مُداعباً: وهل تدعوننا إلى قريتكَ؟ فهشَّ الرجل وبش وقال: أهلاً بك ضيفاً عندي ثلاثة أيام فقال الشيخ ضاحكاً: ثلاثة أيام فقط. فقال الرجل: ابقِ عندنا المدة التي تريدها، ثم دخلت المرأة وقرأت لها الشيخ ثم خرجا وقلما كان الشيخ يرقى أحداً.

طريقته الإصلاحية ونظرته الاجتماعية:

وكان شيخنا رحمه الله يسلك طريق الحكمة في إصلاح النفوس، ويتجنب طريق العنف والقسوة، ويُعنى بالمهم من أمور الدين قبل العناية بالجزئيات والثانويات، فيكتفي ببيان الحكم العام في الأمر الذي يُريد النصح به، ولم يكن يشترط لحضور دروسه وملازمته شروطاً خاصّة، وإنما ينتهز الفرص والمناسبات، ويترك المجال للزمن ويرى أن إعطاء الأسوة من نفسه من أفضل طرق النصح، وأنَّ القدوة ولسان الحال من أحسن الوسائل للتأثير.

كان بعض العلماء المرشدين ممَّن عاصروه، وهم في منزلة تلاميذه لا يقبلون طالب العلم عندهم إلا إذا أعفى لحيته، وربما اشتدوا بقوارع الكلام على مَنْ يحضر دروسهم العامّة ممَّن يحلقون لحاهم. ولم يُعرف مثل هذا عن شيخنا رحمه الله وإنما كان يكتفي ببيان الحكم الشرعي في المناسبات

التي تعرض، فالتفّ حوله وداوم على دروسه عدد من الشبان وطلاب المدارس وغيرهم من مختلف الطبقات.

وكان كثير التشجيع للشبان الذين يتوسّم فيهم الاستعداد العلمي، يوسع لهم في المكان إذا دخلوا، ويشير إلى من حوله ليفسحوا لهم المجال، ويوصي بهم خيراً، ويشعرهم بعطفه وعنايته.

وقد يتفق أن يستأذن بعض الأجانب من غير المسلمين أو بعض المسيحيين من المواطنين في حضور درسه، فيأذن لهم ويرحب بهم، وربما التقى ببعض من يعرفهم منهم فسلم عليه وحيّاه، وقد يطلب منه الدعاء له. وقد سأله مرة أحد السامعين فقال: وكيف تطلب يا سيدي الدعاء من غير مسلم؟ فقال له: هل تدري بم يُختم له؟!

حادثة عجيبة:

ومن أغرب ما سمعت من تصرفه وطرائق إصلاحه، حادثة عجيبة سمعتها مئّن وقعت له مع الشيخ رحمه الله، ذلك أنه استدعى أحد أصحابه - وهو الذي حدثني بالقصة - وكان شيخاً في نحو الستين من عمره ذا لحية كبيرة وعمامة من هذه العمائم التي يتخذها عامّة الناس من أهل الشام من التجار وأهل الحرف، ثم قال له: تذهب إلى محل البغاء، وتسأل عن الكبيرة التي تدبر شؤون البغايا وتعطيها هذه الدنانير الذهبية العشرة، وتقول لها: إن الشيخ يطلب منك أن تأمري من عندك من البنات أن يغتسلن، ثم تُعطي كل واحدة منهنّ ديناراً ذهبياً، وتطلبي إليها أن تدعو للشيخ. فحار الرجل في أمره كيف يذهب بهيئته هذه إلى مثل هذا المحل، ثم لم يجد مناصاً بعد أن أمره الشيخ من تنفيذ ما أمره به. قال لي: وقد نفذت ما قال لي، ولم أخرج حتى سمعت بكاءهنّ ونحيبهنّ ولا أشك أن أكثرهنّ وربما كلهنّ قد تبين ممّا كنّ فيه وغيرن حياتهنّ، وعُدنّ إلى الحياة الشريفة المستقيمة.

دعوته إلى تعلّم الثقافة الحديثة:

وكان الشيخ بدعو إلى العلم والتعلّم في عهد كانت الثقافة الحديثة

والعلوم تأتينا من الغرب، وكان الشرق الإسلامي ينظر إلى كل ما يأتي من الغرب نظرة ريبة، ويرى فيها كفراً أو ضلالاً، فكان رحمه الله يرور المدارس الرسمية، ويحضر بعض دروسها في الطبيعيات والفلسفة وغيرها، ويسأل الطلاب ويناقش الأسانذة فكان في ذلك مُشجعاً لتعلم العلوم الحديثة.

وقد سأله مرة: عن حكم السفر إلى أوروبا للدراسة بقصد تعلم ما ينفع المسلمين أو بقصد نشر الإسلام؟ فأجابني بأنّ هذا السفر إذا كان لهذا القصد فهو واجب. وبعد انقضاء سنة على سماعي لجوابه هذا الذي أجابني به أتيح لي السفر إلى فرنسا للدراسة، وقد توفي رحمه الله قبل سفري فشيعته باكياً حزياً. ثم تهيّأت للسفر إلى باريس بعد أن ترك الشيخ رضي الله عنه في نفسي من الأثر العميق ما لم تل منه باريس بثقافتها التي سعيتُ للأخذ منها ومجتمعها الذي عشت فيه ثلاث سنين مختبراً ودارساً ومعتبراً.

موقفه من الحكام:

كان شيخنا رحمه الله لا يرور الحكام ولا يذهب إليهم، وإنما كانوا هم الذين يرورونه، وإذا أراد أن يبلغهم أمراً يتعلّق بمصلحة عامة أو بشفاعة خاصة أرسل بعض تلاميذه إليهم ليبلغهم رسالة الشيخ وكلامه، وكانوا يتلقون ذلك بالقبول والاحترام، وكانت له عندهم حرمة كبيرة وهيبة عظيمة حتى إن جمال باشا الطاغية المعروف كان حينما يزوره في غرفته يجلس على الأرض على ركبتيه مطرقاً برأسه، وكان يسمعه الشيخ مواعظه القوية ويُنبّهه إلى ما يجب على الحكام من العدل والبعد عن الظلم.

تحريضه على الجهاد وصلته برجال الثورة:

أما في زمن الفرنسيين فكان يُحدّث الناس في مسجد بني أمية في الدرس العام وفي درسه المسائي في داره عن وحبوب الجهاد على الناس جميعاً، وخاصة حينما قامت الثورة السورية، فكان يُبيّن فضل الجهاد ويحذّره على جميع الناس حتى النساء والصغار، وكان لكثير من رجال

الثورة صلة به، وشارك بعض تلاميذه في الثورة، وكانت حملاته على الكفار المستولين على بلاد الإسلام مستمرة أيام وجود الفرنسيين، وسمعته بقول يومئذ: إن أموال هؤلاء الأعداء والأموال التي استولوا عليها يحوز أحدهم منهم بأي طريقة كما سمعته يقول: إذا كانت البواخر التي تنقل الحجاج تابعة لهؤلاء الكفار، وهم يتقوون علينا بما يأخذونه من أموالنا ولا سبيل إلى الحج إلا عن طريقها فإنه تسقط فرضية الحج في هذه الحال.

مشاركة تلاميذه في الحركة الوطنية:

وحيثما تولّى ابنه الشيخ تاج الدين رئاسة الوزارة في المرة الأولى، جاء لزيارة أبيه فرحده غير راض لتوليّه الحكم؛ لأنه حكم غير إسلامي، ولا تُقام فيه حدود الشريعة، ثم لم يجتمع الشيخ بابنه، ولا زاره في أثناء وجوده في الحكم في المرتين الأولى والثانية، حتى إن فريقاً كبيراً من أتباع الشيخ رحمه الله، وهم الذين يمارسون النشاط السياسي، كان متنكراً لابنه تاج الدين، معارضاً له في سياسته، يشاركون في الحركة الوطنية التي كانت تقوم على قيادتها الكتلة الوطنية يومئذ، وكان الشيخ على صلة حسنة مع هذا الفريق من تلاميذه وأصحابه.

رفعة مكانته في أعين الناس:

إن موقف شيخنا رحمه الله من الحكام وترفعه عنهم ووقوفه منهم موقف الواعظ المرشد الناصح أو موقف المُحرّض على دفع ظلمهم زاد من رفعة مكانته في أعين الناس، حتى أصبح فوق الحكام لأنه يقول كلمة السّرع، ويبلغ رسالة الدين، ولا يخضع إلا لله. فأبى هذا الشيخ العظيم من أن يترددون على أبواب الحكام، ويتزلفون إليهم، ولا يتحدثون إلا بما يرضون عنه، ويقفون منهم موقف الطالب لا المطلوب، وبإلته موقف المطالب بحق عام، أو بتصحيح معوج، أو إزالة منكر، ولكنها المطالب الحاضرة والمصالح الدنيوية، فيضعهم الناس حيث وضعوا أنفسهم.

منزلته العظيمة:

رحم الله سبحانه العظيم، وأعلى في مراديس الحكام مقدمه، وأحسنه في الصالحين، فقد كان روحاً يمشي على الأرض، وإسماً ونكته حكم كتاب الله وسنة نبيه في عمله وتصرفاته، فتحت له الدنيا أرباباً فأعرض عنهم وتوجه إلى الله، لم يتحرك لسأله ولا قدمه إلا حيث تكون طاعة الله.

لقد تواضع غاية التواضع فرفعه الله في حياته وبعد موته.

لقد خضع لله وحده ولم يحف حاكماً أو ظالماً فأوقع هيبتهم في قلوب الناس وفي نفوس الحكام.

لم يتخذ من علية التواضع ولا من مقدمه في إرشاد الناس وتوجيههم وسيلة للاستعلاء عليهم أو كسب المال ونيل العى عن طريقهم، ولا لنيل الحظوة عند الحكام، فقد كان أعلى من ذلك كله وأرفع.

لقد كانت منزلته العظيمة في عوديته لله، وفي أداء الأمانة النبوية التي حملها بحق وارتأ محمدياً ومصلحاً إسلامياً فأداها أحسن الأداء، ثم انتقل بعد أن تحاور الخامسة والثمانين راضياً مرضياً رحمه الله رحمة واسعة، وأنزله منازل الصديقين، وجعلها وحن من محبيه والمعجبين بدينه وخلقه وسيرته، والمتفعين بعلمه ممن يلحقون به ويحشرون معه، وغفر لنا ذنوبنا الكثيرة بفصله العظيم ورحمته التي وسعت كل شيء إنه سميع مجيب.





الشيخ عز الدين القسام
إمام الشهداء وفخر المجاهدين^(١)
(١٣٠٠ - ١٣٥٤هـ)
(١٨٨٢ - ١٩٣٥م)



بطلٌ مجاهد من سورية، بيت به
الدار، وتعقبه المستعمرون الأشرار
للبطش به، لاشتراكه في الثورة
عليهم، ومطالبته باستقلال وطنه
وحريته، فخرج منها يترقب، واستهوته
القدس بروحانياتها وقداستها، وفلسطين
بجلال تاريخها وعظيم مآساتها فحطَّ
رُحلَه فيها إلى أجل مُسمًى، ولكلِّ
أجل كتاب، ثم جاد بدمه الزكي في
سبيلها، ولفظ أنفاسه الطاهرة في
ميادين جهادها.

قداسة فلسطين تستهوي القسام:

استهوته فلسطين ولا عجب، ففلسطين ما انفكت تستهوي المجاهدين

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة التاسعة (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م) نقلاً عن مقال
في مجلة "فلسطين" العدد (٩٤).

الأبرار، والمرابطين الأخبار، قديماً وحديثاً، بما اشتملت عليه من روعة القداسة، وطهارة الرسالة، وفيض النور الرباني على البلد المقدس الذي أسري إليه بمحمد الرسول الأمين، ومنه كان معراج التّريف إلى السموات العلى. البلد الذي جاءه السيد المسيح عليه السلام مرشداً ومعلماً، وداعياً إلى الخير والحق والسلام، والذي تقع مسيرة آميال ممدودات منه مدينة «الخليل» متوى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي يقم بوجهه شطر فلسطين مهاجراً إلى ربه بدينه وروحه.

وكما كنت تستقر مرطس الأنبياء والمرسلين، فهي مأوى الصديقين والمحامدين. رسرى شهادتهم عبر الميامين. فتحت كل حجر منها يثوي مرابط أو شهيد، رستل هذا سألها إلى أن يأذن الله بالفتح أو أمر من عنده، وإلى أن يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

مولده ونشأته:

ولد الشهيد الشيخ عز الدين الفسّام في مدينة «جبلة» من محافظة اللاذقية، ومنط فلسطين في شهر شباط من عام ١٩٢٢ مهاجراً إليها عندما صدر حكم عليه بالإعدام من سلطات الانتداب الفرنسي، في تهمة اشتراكه في الثورة التي سبب صدها في سورية، واستقر بمدينة حيفا، فلقي فيها وفي سائر فلسطين أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان. فما لبث حتى عُيّن مدرساً في المدرسة الإسلامية التي أسستها الجمعية الإسلامية في حيفا، وقد كانت مدرسة حاضرة غير تابعة لإدارة المعارف، التي كان مديرتها في عهد الانتداب البريطاني إكليري هو «بومان» الذي تدرب على الأساليب الاستعمارية على غرار زميله وأستاذه الأكبر «دنلوب» الذي وجه التعليم في مصر والسودان وجهة استعمارية محضة لصالح الحكم البريطاني.

وكانت عندئذ في فلسطين مدارس خاصة تُوجّه التعليم وجهة صحيحة مثل كلية الروضة المعارف بالقدس، وكلية السحاح ببغداد، وهذه الأخيرة من قبل فرنسا. لكن كلية الروضة احتلها الجيش البريطاني خلال ثورة

فلسطين عام ١٩٣٧، وشئت شمل أساتذتها وطلابها، لوقوعها داخل القدس القديمة في منطقة استفحلت فيها الثورة واتحد المحاهدون الفلسطينيون منها مكامن لهم لاقتصاص الجنود الإنكليز، ولوقوعها على ربوة مشرفة على الحرم القدسي الشريف بكامله وعلى معظم أقسام المدينة المقدسة.

على أن الفلسطينيين كثيراً ما كانوا يتمردون على سياسة التعليم البريطانية، كما كان كثير من الأساتذة يلقنون طلابهم المبادئ والأهداف الوطنية إلى جانب برامج التعليم المقررة.

مدرس وإمام ومأذون شرعي:

واتخذ الشهيد القسام من المدرسة الإسلامية حيفا داراً صالحة لبث المبادئ الإسلامية والآفاق الفاصلة في السانة الفلسطينية، ثم انضم إلى جمعية الشبان المسلمين. ولم يلبث أن عينه السيد محمد أمين الحسيني رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى الذي كان يتولى إدارة الأوقاف والمحاكم الشرعية الإسلامية بفلسطين، إماماً ومدرساً لجامع الاستقلال في حيفا ومأذوياً شرعياً وهكذا تم للقسام الاتصال بالطلاب والشبان ومختلف الأسر والجماعات في المدن والقرى واتسع مجال العمل أمامه في جميع النواحي.

جامع الاستقلال في حيفا مدرسة للوطنية:

وكانت خطب الشيخ عز الدين من مبر جامع الاستقلال، ودروسه التي يلقيها على المُنْفَقِهين في الدير، تعمل فعلها في نفوس المصلين والسامعين، وكذلك دروسه في المدرسة الإسلامية تتوحي نفس الغاية والهدف، فاستطاع أن يكون «مدرسة» صالحة قوامها المبادئ الوطنية والحلقة والتديد بالحكم الأجنبي القائم على أسس الاستعمار والاستغلال والظلم وحرمان أهل البلاد من حقوقهم المشروعة ومن حريتهم واستقلالهم.

الثورة على ظلم الانتداب البريطاني:

وتحت سيماء الوفار وملاحم الوداعه النادة على مطهر السبح المسامح. كانت تناخج بين جواسحه نار الثورة على الظلم والعدوان، ويعمر مسيره وأعماق نفسه روح الحرية وحب الوطن وبغض الأجبي. فالرحل الذي نار على ظلم المستعمرين الفرنسيين في سورية لن يستطيع الصبر طويلاً على ظلم المستعمرين البريطانيين في فلسطين، الذي هو أمر وأدمى، وأحضر وأنكى. وهو يرى فلسطين بأسرها وفيها أولى القلتين، وتأت الحرمين الشريفين، صائرة إلى أيدي الصهيونيين، وشداد الآفاق من يهود العالم يفدون بالآلاف على فلسطين، تغلبهم البواحر وهم من كل حدب ينسلون، وقد فتحت لهم السلطات البريطانية أبواب فلسطين على مصاريعها قائلة لهم: ادخلوها بسلام آمين... وما هم تزداد الآفاق وآفة القيم الدينية والأخلاق يهرعون إلى فلسطين تحت حماية الحراب البريطانية، فيكاترون العرب أهل البلاد من عهد عاد، ويشئون مستعمراتهم على أنقاص الشعب الفلسطيني، الذي تعمل السلطات البريطانية جاهدة على انتزاع أرضه وحلاء أهله، ويؤسسون المصانع والمعامل مستفيدين من الحماية الجمركية لما ينتجون ويصنعون، ويستولون على الوظائف الحكومية، وتمنح لهم أراضي الدولة الأميرية بالمجان، وتحميمهم القوانين والأحكام التي شرعتها وسنها السلطات البريطانية لهم خصيصاً بمقتضى صك الانتداب البريطاني على فلسطين لتساعد على جعل فلسطين وطناً قومياً للشعب اليهودي.

ثورات الشعب الفلسطيني:

ولم تكن لتخفى على القسام مرامي سياسة "وعد بلفور" الحائرة العادرة، وإن الوطن القومي اليهودي ليس إلا مرحلة من مراحل تهويد فلسطين وجعلها دولة يهودية لحماً ودماً، وقلباً وقالباً. وهو لا شك قرأ وسمع ما كان يعلنه زعماء الصهيونية، من وايرمر والفرد مود، إلى سوكولوف وكيش وايدر، وكوك، وأوسشكر، وبنطويش وغيرهم من ساسة اليهود وحاحاميه من أنهم يعنون بالوطن القومي اليهودي أن تكون فلسطين

يهودية كما أن إنكلترا إنكليزية وأميركا أميركية! ولذلك لم يكن بد من أن تشق المقاومة المسلحة طريقها في فلسطين لمنع هذا الخطر الصهيوني الجارف من أن يجد سبيله للسيطرة على فلسطين العربية سهلة مُمهدة، ولا سيما أن الفلسطينيين لم يكن ينقصهم الاستعداد للثورة على سياسة الظلم والعدوان.

وقد سبق لهم أن قاموا بثورات دامية على السياسة الاستعمارية الصهيونية، نسبت الأولى منها يوم ٤ نيسان ١٩٢٠ في القدس، واستمرت أربعة أيام، استشهد خلالها ١٤ عربياً كانوا طليعة شهداء فلسطين وأبطالهم وجرح كثيرون، وقُتل من اليهود والجنود الإنكليز ٩ وجرح ٢٥٠. (هذه الأرقام مأخوذة من تقرير سري رفعته في حينها الإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين إلى الحكومة البريطانية).

ونشبت الثورة الثانية يوم أول أيار - مايو - من عام ١٩٢١ في يافا، واستمرت نحو أسبوعين، امتدت خلالهما إلى القدس ومناطق فلسطينية أخرى، وكانت حصيلتها ١٥٧ شهيداً ونحو ٧٠٠ جريح عربي، سقط أكثرهم برصاص الجنود الإنكليز، وهلك من اليهود والقوات المسلحة للدولة المستعمرة ٤٧ وجرح ١٤٦.

وكانت الثالثة ثورة البراق الشهيرة عام ١٩٢٩، التي ابتدأت بالقدس يوم ٢٣ أغسطس من المسجد الأقصى، واستمرت أسبوعاً كاملاً، شملت خلاله سائر فلسطين، واضطرت السلطات البريطانية لإحضار نجيدات عسكرية إنكليزية بالطائرات من مصر وشرقي الأردن، وبلغت خسائر العرب فيها ٣٥١ شهيداً ونحو ١٥٠٠ جريح، وخسائر اليهود والقوات المسلحة ١٣٢ قتيلاً و٣٤١ جريحاً، ونشبت خلال ذلك ثورات وانتفاضات متعددة في مختلف المدن الفلسطينية، سقط فيها جرحى وقتلى من الطرفين، خلال المظاهرات احتجاجاً على وعد بلفور وعلى الهجرة اليهودية، وغير ذلك من الماساسات.

حركة القسام السريّة:

بدأ القسام حركته بالاتصال بجمهور الشعب عن طريق الخطابة والوعظ والتدريس في المسجد كما أسلفنا، ثم عن طريق التدريس في المدرسة الإسلامية والاختلاط بالناس على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم، فكان يقوم بالتوعية الدينية والوطنية، ثم يستخلص من مستمعيه وطلابه من يجد فيه الجدارة للنضال والاستعداد للقتال، واستطاع بعد صبر وجلد أن يؤسس حركة سريّة قوامها أولئك الذين اصطفاهم من الناس، للقيام بالعمل المسلح ضد السلطات البريطانية، وتمكّن بمساعدة إخوانه ورفاق جهاده من الحصول على بعض السلاح وبعض المال، لبدأ بهما المقاومة المسلحة. وقد كتم حركته فلم يعلم بها إلا عدد قليل من الناس.

استنكار السياسة البريطانية المتواطئة:

وكان الجو السياسي في فلسطين قد بلغ ذروة التوتر، والمظاهرات الصاخبة تجتاح البلاد بين حين وآخر، احتجاجاً على سياسة بريطانيا في تسهيل سبل الهجرة لعشرات الألوف من اليهود كل عام، واستنكاراً لوسائل القمع والإرهاب التي تمارسها حكومة الانتداب لإرغام الشعب الفلسطيني على الرضوخ والخضوع بطرق وحشية. وكثيراً ما كانت الاصطدامات تقع بين الثائرين العرب من جهة والقوات البريطانية والقوات الصهيونية المسلّحة من جهة أخرى.

القسام يخرج إلى الجهاد:

فوجد القسام الظرف ملائماً للشروع في حركته التي أعدّها لها العدة وهياً لها أفراداً اختارهم وبثّهم في نقاط معينة من البلاد.

وفي ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٥، أنذر القسام رفاقه بأنه قرّر الخروج إلى الجهاد في تلك الليلة، ثم خرج على رأس عشرة من المجاهدين إلى المنطقة الجبلية في قضاء جنين، ووزّع رجاله على بعض قرى تلك المنطقة،

وهي: يعبد وكفردان وفقوعة وقباطية وصندلة لتوعية أهلها، وشرح أهداف الحركة لهم، ولاتخاذ بعض المراكز الملائمة فيها.

رفاق القسام الأوائل:

وكان المجاهدون العشرة الذين اختارهم القسام لمرافقته عند خروجه إلى منطقة حراج يعبد هم: الشيخ محمد حنفي أحمد، والشيخ يوسف الزيباوي من الريب، والشيخ نمر السعدي من شفا عمرو، والشيخ حسن البابر من برقيس، وأحمد عبدالرحمن جابر من عبتا، والشيخ أسعد المنفلح من أم الفحم، وعربي البدوي من قبلان، ومحمد يوسف من سبسطية، والشيخ ناجي أبو زيد، ومحمد الحلحولي من يغبند.

استشهاد الشيخ القسام وبعض رفاقه:

وقد تسرع أحد المجاهدين الذين وزعهم القسام على القرى، وهو المرحوم محمود سالم، الذي كان يقوم بالحراسة قرب قرية فقوعة، فأطلق النار على دورية من البوليس كانت قادمة من مستعمرة عين حارود، فقتل عريقها اليهودي وفر زميله فأبلغ مركز البوليس بالحادث، وعلى الإثر قامت قوات كبيرة من الجند والبوليس بتطويق المنطقة، واشتبك بعض أفرادها في قرية السارد ببعض المجاهدين القساميين، فاستشهد المجاهد محمود الحلحولي وقتل اثنان من البوليس البريطاني. وهذا ما دعا السلطات البريطانية إلى زيادة عدد قواتها المحاصرة للمنطقة، ولم تلبث أن وافاها رجال مخابراتها بأن الشيخ القسام يقود ثورة مسلحة، وأنه متمركز في حراج يعبد، فأحكمت الطوق على المنطقة واشتبكت بالقسام ورفاقه في معركة ضارية غير متكافئة، استمرت بضع ساعات، وذلك صباح يوم ٢٢ تشرين الثاني، وانتهت باستشهاد الشيخ القسام واثنين من رفاقه هما الشيخ يوسف الزيباوي والشيخ محمد الحنفي أحمد، وجرح ثلاثة آخرون هم عربي البدوي، وأحمد جابر، ومحمد يوسف، ووقعوا في أسر القوات البريطانية، واستطاع الآخرون اختراق الطوق والنجاة بأنفسهم.

دفن الشهيد في حيفا:

كان لمصرع الشيخ القسام ورفاقه رحمهم الله صدى عظيم الأثر في البلاد الفلسطينية، ونقل جثمان الشهيد إلى مدينة حيفا حيث دفن فيها وسط مظاهر الحزن والتكريم، وتوافدت جموع غفيرة من الناس للاشتراك في تشييع جثمان الشهيد البطل. وفي يوم الأربعاء من وفاته أقيم احتفال عظيم شهدته الأحزاب والجماعات الفلسطينية، وشاركت فيه مئات المدن والقرى، ولم يلبث الموكب أن تفجّر غضباً على الإنكليز واليهود، فهاجمت الجموع بعض مراكز البوليس ودوائر الحكومة، وأعملت فيها يد التخريب، وقذفت بالحجارة كل من صادفها من الإنكليز واليهود.

أثر ثورة القسام:

لم تدم ثورة القسام طويلاً، وانتهت بمعركة واحدة، ولكنها تركت أثراً مدوياً في البلاد. ولم تلبث أن تلتها المعارك الفلسطينية الكبرى. وترك القسام وراءه كثيرين من محبيه ومريديه الذين كان لهم شأن كبير في تلك المعارك.

استشهاد القسام في التقرير السنوي البريطاني:

ومما يُعطي صورة واضحة عن الأثر الذي أحدثه استشهاد الشيخ القسام في البلاد ما جاء في التقرير السنوي لحكومة الانتداب البريطاني في فلسطين، إلى لجنة الانتداب في جنيف عن وقائع عام ١٩٣٥، وهذه ترجمته:

(انتشرت في الجو إشاعات عن عصابة للإرهاب، تألفت بوحي من عوامل سياسية ودينية. وفي يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٣٥ كان جاويش ونفر من البوليس يفتيان أثر سرقة في هضاب قضاء الناصرة، فأطلق مجهولان النار فقتلوا الشاويش... وسرعان ما أدى هذا الحادث إلى اكتشاف عصابة كانت في ذلك الجوار تحت قيادة عز الدين القسام، وهو لاجئ سياسي من

سوريا، وهو ذو مكانة ليست بالعليلة كرجل من رجال الدين، وقد اشتهر به اشتباه قوي قبل ذلك ببضع سنوات، وفيل إن له ضلعا في أعمال إرهابية.

لقد حضر جنازة الشيخ القسام في حيفا جمع غفير حدا من الحلن. وبالرغم من الجهود التي بذلها كبار المسلمين في توطيد النظام أثناء الجنازة، إلا أنه وقعت مظاهرات وقذف أحجار.

وبعثت وفاة القسام بموجة قوية من الشعور في الدوائر السياسية وغيرها في البلاد، واتمنت آراء الصحف العربية على تسميته بالشهيد فيما كتبه عنه من المقالات الوطنية).

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِفَتْنٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنْبًا مُؤْجَلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَخَرِ الشَّاكِرِينَ﴾.





رواد الإصلاح الإسلامي الحديث

عبد الحميد بن باديس^(١)

(١٣٠٦ - ١٣٥٩هـ)

(١٨٨٩ - ١٩٤٠م)



بقلم: حمزة بوكوشة

جديرٌ بنا أن نذكر عبد الحميد بن باديس كلما أظننا يوم ١٦ أفريل (نيسان) فلقد كان رحمه الله أمة وحده، عاملاً على نشر العربية والإسلام وجميع مقومات الشخصية الجزائرية، ولقي في سبيل ذلك جفاء الأقربين، وحرب الأبعدين، فما كل ولا مل ولا استسلم حتى فارق الحياة. لهذا أرى من واجب الوفاء تجديد ذكره وتقديم لمحات من حياته، للجيل الصاعد المعتر بالعروبة والإسلام، عساه أن يتخذ من حياة هذا الرجل العظيم مثالاً احتذاء، ومنار اقتداء.

ولادته ونشأته:

ولد في ١٨٨٩/١٢/٥ بقسنطينة في أسرة لها تالد من علم وفضل يشهد به تاريخ الجزائر من عهد المعز بن باديس الصنهاجي، إلى العهد العثماني،

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة الخامسة: (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م)، وجاء في الحاشية: نُقدّم هذا المقال القيم لقرائنا نقلاً عن مجلة (المعرفة) الجزائرية تعميماً للفائدة، ولما لهذا الرجل العظيم من مكانة هامة في تاريخنا الإسلامي الحديث (الحضارة).

حيث كان أبو العباس أحميدة بن باديس، من أشهر قضاة قسنطينة وأفاضل علمائها، غير أنَّ العصور المظلمة قضت على ما كانت تتمتع به هذه الأسرة وغيرها من الأسر الجزائرية من علم ومجد وبطولة ورجولة، وكمنت تلك الخصائص والمميزات إلى أن تجلت في عبد الحميد فكان همزة وصل ربط الأواخر بالآوائل، وجدّد أمجاد الجزائر، وأزال عنها غبار الخمول والنسيان.

تعلّمه:

حفظ القرآن على الشيخ محمد بن الماداسي، وتلقّى مبادئ العلوم على الشيخ حمدان الونيسي بجامع سيدي محمد بن النجار بقسنطينة، وقد أخذ عليه عهداً بأن لا يعمل عملاً للحكومة، ولا ينخرط في وظائفها، ووفّى عبد الحميد بهذا العهد، وأحذه على بعض تلامذته الذين توسّم فيهم خدمة الصالح العام.

هجرته في طلب العلم:

هاجر شيخه حمدان إلى الحجاز، فتأقت نفس عبد الحميد إلى جامع الزيتونة فذهب إليه سنة ١٩٠٨ فتلقّى العلم على علمائه حتى أحرز على شهادة التطويع في العلوم، وهي من أكبر الشهادات العلمية في ذلك العهد، وكان من شيوخه الذين لهم أثر في توجيهه العلمي: الشيخ محمد النخلي رحمه الله، والشيخ الطاهر بن عاشور حفظه الله.

سفره إلى الشرق:

ما كاد يستقر بقسنطينة بعد عودته من تونس سنة ١٩١٢ حتى تحرّكت في نفسه دواعي الشوق إلى البقاع المقدسة فحج واعتمر وجدّد العهد بشيخه حمدان وزوده هذا برسالة إلى الشيخ محمد بخيت المطيعي أحد علماء عصره في مصر، فأتصل به وبكبار الشيوخ، ورجع من هنالك بإجازات وأسانيد.

مباشرته للتدريس:

عاد إلى قسنطينة ورابط بمسجد سيدي قموش يقضي بياض يومه في تعليم الشبان مبادئ العلوم والإسلام الصحيح، ويؤجّهم التوجيه الحسن، وعند إقبال

الليل يلتفت إلى الكهول والشيوخ الملتفين حوله بالجامع الأخضر، يدعوهم إلى الله على بصيرة ويذكرهم بأيام الله. فكانت مجالس دروسه كثيرة الزحام، تخرّجت عليه طبقة من العلماء والأدباء امتازوا بعمق التفكير، وصدق التعبير فكانوا بحق رواد النهضة الجزائرية في العلم والأدب والوطنية.

اشتغاله بالصحافة:

كان من مؤسسي جريدة النجاح ثم تخلى عنها، وأسس سنة ١٩٢٥ جريدة المنتقد، وتولى رئاسة تحريرها، وأسند إدارتها للشهيد أحمد بوشمال، وكان من كتابها الشيخ مبارك الميللي، والشيخ الطيب العقبي رحمهما الله. وقد شرت في عددها السادس مقالاً للميللي تحت عنوان «العقل الجزائري في خطر» كما نشرت في عددها الثامن قصيدة للعقبي تحت عنوان: إلى الدين الحالص، ومثل هذه القصيدة وذلك المقال يعدّ جراءة كبرى في ذلك العهد، لتناولهما العادات المألوفة بالنقد والتجريح، وسارت على خطتها حتى عطلت بقرار بعدما برز منها ثمانية عشر عدداً. فأصدر بعد ذلك جريدة الشهاب على خطة المنتقد ومبادئه، فلاقت في سبيل ذلك ما لاقت من العناء والصعوبات، فلم تلن قناتها لغامز، وتحالفت قوى الرجعية وكل هامز لامز على عبدالحميد حتى أصبح مهدداً في حياته.

محاولة اغتياله:

ففي سنة ١٩٢٧ بينما هو متوجّه إلى سكنه بعد خروجه من درس التفسير ليلاً، إذا بأحد الجناة يحاول اغتياله، فاستغاث الشيخ، فألقى الناس القبض على الجاني قبل إتمام الجريمة. فهنا الشعراء الشيخ بالنجاة وما زلت أذكر، طالع قصيدة محمد العيد:

خَمْتُكَ يَدِ الْمَوْلَى وَكُنْتُ بِهَا أُولَى فَيَا لَكَ مِنْ شَيْخِ خَمْتُهُ يَدِ الْمَوْلَى

مكانة الشهاب:

للشهاب مكانة مرموقة في الشمال الأفريقي، فما زلت أذكر أن الشيخ مصطفى بن شعبان بتونس رحمه الله كان يكتب في جريدة الشهاب ويعمل

على نشرها، كما كان يكتب فيها من المغرب الأقصى ويعمل على نشرها الأستاذ علال الفاسي والفقيه غازي وغيرهم من شباب الأمازيغ وشيوخ البيوت، وأذكر أن مما نشرته «الشهاب» إذ ذاك للشباب السيد علال قصيدة طالعها:

أبعد مرور الخمس عشرة ألب

وذلك في سنة ١٩٢٧، وقد استنحالت الشهاب من جريدة أسبوعية إلى مجلة شهرية فكانت سحلاً لتاريخ الحرائر العلمي والسياسي في عصر الانبعاث أو في الفترة التي كانت بين الحرب الكبرى والحرب الأخيرة، وكان يحزر فيها فصل (في المجتمع الجزائري) أحمد توفيق المدني غالباً، ويحزر فصل (الشهر السياسي) دالماً، ويحزر عبد الحميد القسم الديني والقسم العلمي من المحلة وأهمها: مجالس التذكير التي تسعى وزارة الأوقاف حالياً في جمعها ونشرها كما تولت طبع ونشر مجموعة دروسه في علم التوحيد على الطريقة السلفية.

عبد الحميد ونادي الترقّي:

في سنة ١٩٢٧ أسس السادة: الحاج ممد المنصالي، محمود بن ونيس، عمر الموهوب، أحمد توفيق المدني، وبعض الإخوان، نادي الترقّي فكان هذا النادي ملتقى النخبة المفكرة سواء من كان منهم مقيماً بالعاصمة، أو من كان وافداً عليها من الخارج. وكانت تلقى فيه المحاضرات والمسامرات، وتقام فيه الحفلات، فكان عبد الحميد كلما جاء إلى الجزائر يحاصر فيه أو يسامر أو يجتمع فيه بالشباب الناهض المتوثب من طلبة العلم والمفكرين. فكان النادي بذرة صالحة للنهضة الجزائرية.

ولقد تكونت لجنة تحضيرية فيه انبثقت عنها جمعية العلماء المسلمين الحرائريين، وكان كاتب اللجنة الشيخ أحمد توفيق المدني، ورئيسها السيد عمر إسماعيل رحمه الله.

عبد الحميد رئيس جمعية العلماء:

تأسست جمعية العلماء بعد الاحتفال بمضي قرن على احتلال الجزائر فكان ذلك رداً عملياً على المحتفلين الذين كانت أصواتهم تردد الجرار فرنسية، وكان شعار العلماء المصلحين: الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا. وقد ظهر هذا الشعار أول ما ظهر مكتوباً على كتاب الجزائر للشيخ أحمد توفيق، ثم تناولته الألسنة والأقلام، ولقن للتلامذة في المدارس. وذلك سنة ١٩٣١.

وفي ٥ ماي من هذه السنة اجتمع علماء القطر الجزائري بنادي الترقى فأسسوا جمعية العلماء، واسندوا رئاستها إلى عبد الحميد بن باديس بإجماع. وكان غائباً حيث لم يحضر معهم في اليوم الأول ولا في اليوم الثاني. وفي اليوم الثالث جاء إلى الاجتماع وألقى كلمة جاء فيها:

"إخواني إني قد نحلّمت عن جمعكم العظيم اليوم الأول والثاني فخرمت خيراً كثيراً، ونحلّمت انماً كبيراً. ولعلكم تعذرونني لما لحقت في اليوم الثالث، وأذكر لحضراتكم ما تعلمونه من قصة أبي خيثمة الأنصاري لما تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك ثم لحقه فقال الناس: هذا راكب يرفعه الإبل ويضعه، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فقالوا: هو أبو خيثمة فاعتذر إلى النبي ﷺ فقبل عذره ودعا له بخير، ومثلكم من كان له في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة». هكذا كان يستلهم أقواله وأفعاله من السنة النبوية.

وألقى خطاباً آخر في ذلك الاجتماع عندما باشر مهام الرئاسة هذا بضه:

"الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومنّ وآله إخواني: إني ما كنت أعد نفسي أهلاً للرئاسة لو كنت حاضراً يوم الاجتماع الأول فكيف تخطر لي بالبال وأنا غائب لكنكم بتواضعكم وسلامة صدوركم وسمو أنظاركم جتتم بخلاف اعتقادي في الأمرين فانتخبتموني للرئاسة.

إخواني. كنت أعد نفسي ملكاً للجزائر أما اليوم فقد زدتم في عنقي ملكية أخرى فإله أسأل أن يقدرني على القيام بالحق الواجب.

إخواني: إنني أراكم في علمكم واستقامة تفكيركم لم تستحسروني لشخصي، وإنما أردتم أن تشيروا بانتحابي إلى وصفين عرف بهما أحوكم الضعيف هذا: الأول: أنني قصرت وقتي على التعليم فلا شغل لي سواه فأردتم أن ترمزوا إلى تكريم التعليم إظهاراً لمقصد من أعظم مقاصد الجمعية وحثاً لجميع الأعضاء على العناية به كل بجهد، الثاني: أن هذا العدد لفكرة معروفة، وهو لن يحيد عنها ولكنه يبلغها بالتي هي أحسن، فمن قبلها فهو أخ في الله، ومن رذها فهو أخ في الله. فالأخوة في الله فوق ما يتصل وما يرد فأردتم أن ترمزوا بانتحابي إلى هذا الأصل وهو أن الاختلاف في الشيء الخاص لا يمس روح الأخوة في الأمر العام.

هذا مبدأ عبد الحميد في الحياة، فالرجل قرأني ورتاني استمد هذا من قول الله تعالى: ﴿دَعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَرَ﴾ [نحل ١٢٥]. وهذه الطريقة كان يسلكها مع جميع الناس سواء أكانوا من تلامذته ومريديه، أم من خصوم فكرته ومساوئيه، ورغم هذا فلم تمض سنة على تأسيس جمعية العلماء حتى دخلت في معارك حامية مع أذئاب الاستعمار ومع أصحاب البدع والخرافات، وأخذت تؤسس المدارس الابتدائية لتعليم الدين واللغة، وترسل وفود الوعاظ يجولون المدن والقرى، وكان عبد الحميد أسس بقسنطينة مدرسة التربية والتعليم، وجعل لها فروعاً في القطاع القسطيني، وكاد التعليم يعم المداشر والقرى، فأوجست الحكومة الفرنسية خيفةً في نفسها، فعطلت غالبية المدارس، وزجت ببعض المعلمين في السجون وحاكمتهم محاكمة المجرمين، فكان عبد الحميد يشجع أبناءه المعلمين على المقاومة ويشير حماس الجماهير، ويحتج على هذه المعاملة.

طريقته في الاحتجاج على الحكومة:

له في الاحتجاج طريقتان: الأولى: باسمه رئيس جمعية العلماء، وهي الاحتجاجات التي لا تخرج عن دائرة القانون. الثانية: باسمه الخاص، وهي الاحتجاجات اللاذعة التي يصف فيها الاستعمار بكل نقیصة، ويفضح فيها مكائده ويكشف محازيه، وسألناه مرة: لماذا هذه التفرقة في الاحتجاجات؟ فقال: الاحتجاجات التي أمضيها باسم جمعية العلماء أحافظ فيها على

الجمعية، والاحتجاجات التي أمضيها باسمي لا أحافظ فيها على شخصي. ولمح إلى هذا في خطاب ألقاه في ٢٧ سبتمبر ١٩٣٦ إثر اجتماع الجمعية العامة حيث قال:

«إن هذا العبد الضعيف يقدم بلسان العجز الشكر لأعضاء الإدارة إخوانه أن قدموه للرئاسة وجذبوا له ثقتهم به هذا مع علمه بعبء الرئاسة الثقيل وما يلزم لها من التضحية التي هي أول شروط الرئاسة. ولقد قال الهذلي:

فإن رئاسة الأقسام فاعلم لها سعداء مطلعها طويل

وإن هذا العبد الضعيف لتفتنه في الله وقوته بالله واعتزازه بقومه واعتماده بعد الله على إخوانه لمستعد لهذه الصعداء وإن طال مطلعها وطال».

ثم قال: «إن ميدان العمل في هذه الجمعية لميدان واسع، وهنالك للعمل ميادين أخرى لا أدخلها باسمها. ولكن (إن كان فيها منفعة) أدخلها باسمي إن كان عند قومي قيمة لاسمي. وأرجو أن يعينني الله عليها.

أيها الإخوان!

إن علي كل رئيس حقاً. وقد قال الأحنف بن قيس:

إن على كل رئيس حقاً أن يخضب الصعدة أو تندقا

والصعدة هي الرمح يُريد أنها تخضب بالدماء أو تنكسر وتندق في يده أثناء محاربته الأعداء. ولكن سعدتنا نحن التي نخضبها هي القلم (وخضابه الحبر)، ولكنه لا يندق هذا القلم حتى تندق أمامه جبال من الباطل.

وإن من الحق أن نتأذب بالأدب النبوي، ومنه: أن لا نتمنى لقاء العدو فإذا لقيناهم فلنصبر والله معنا».

عبد الحميد بن باديس والمؤتمر الإسلامي:

تهاتف كثير من رجال السياسة على الاندماج، ورأوا أنه الطريقة الوحيدة التي تصل بها الجزائر إلى حقوقها المسلوبة، ومن بين هؤلاء نواب

يرون أن لا حق لأحد أن يتكلم في السياسة الجزائرية سواهم، وأن لهم البث في مصير الأمة، والأمة غائبة عن الميدان. فنشر عبد الحميد آراء له في السياسة الجزائرية في جريدة (لادفاتس) الدفاع التي كان يصدرها الأستاذ العمودي رحمه الله باللسان الفرنسي، وذلك في عدد ٢ جانفي ١٩٣٦، وكان من تلك الآراء عقد مؤتمر إسلامي جزائري، لأن المرجع في مسائل الأمة هو الأمة، والواسطة لذلك هي المؤتمرات، فبقيت الفكرة تتردد في النوادي حتى فازت الجبهة الشعبية بفرنسا في الانتخابات، فتأسس المؤتمر الإسلامي الجزائري يوم ٧ جوان سنة ١٩٣٦، وكان غالبية من به من دعة الاندماج وأنصار مشروع بلوم فيوليت. وقرّر العلماء أن يشارك فيه الشيوخ عبد الحميد بن باديس، الطيب العقبي، البشير الإبراهيمي، محمد خير الدين، وغيرهم من العلماء باسمهم الخاص، وقد كان لمشاركة هؤلاء العلماء أثر فعال في تعطيل الاندماج وإبراز الذاتية الإسلامية العربية الجزائرية، حيث جاء في مطالب المؤتمر ما يلي:

- المحافظة على الحالة الشخصية الإسلامية مع إصلاح هيئة المحاكم الشرعية بصفة حقيقية ومطابقة لروح القانون الإسلامي.

- فصل الدين عن الدولة بصفة تامة وتنفيذ هذا القانون حسب مفهومه ومنطوقه^(١).

(١) جاء في التعليق على هذا المطلب من مطالب المؤتمر في ندوة القراء بمجلة "حضارة الإسلام": التبس على بعض القراء ما ورد في المقال المنشور في العدد الأول من هذه السنة عن الشيخ عبد الحميد بن باديس، وقد وقع هذا الالتباس بسبب أحد مطالب المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد سنة ١٩٣٦ لمحاربة مشروع اندماج الجزائر بفرنسا، فقد ورد في جملة هذه المطالب - فصل الدين عن الدولة... -.

وواضح كل الوضح من سياق الحوادث المعروضة في المقال أن فرنسا كانت تحاول إدماج الجزائر في المجموعة الفرنسية إدماجاً تاماً، وكانت فرنسا المستعمرة تسيطر في ذلك الوقت على أوقاف المسلمين ومساجدهم وتتدخل في شؤونهم الدينية، فطالب العلماء يومئذ وفي ذلك الجو بفصل الدين عن إدارة الدولة المستعمرة الكافرة التي =

- إرجاع سائر المعاهد الدينية إلى الجماعة الإسلامية تتصرف فيها بواسطة جمعيات دينية مؤسسة تأسيساً صحيحاً.

- إرجاع أموال الأوقاف لجماعة المسلمين ليتمكن بواسطة القيام بأمور المساجد والمعاهد الدينية والذين يقومون بها.

- إلغاء كل ما اتخذ ضد اللغة العربية من وسائل استثنائية وإلغاء اعتبارها لغة أجنبية.

- الحرية التامة في تعلم اللغة العربية، وبهذا أخفق المؤتمر الإسلامي، ومرجع إخفاقه إلى مشاركة العلماء فيه، فلجنة قسنطينة طلبت من عبد الحميد أن يضع لها من المطالب ما لا ينافي الإسلام فوضع مطالب منها: «المساواة في الحقوق السياسية، مع المحافظة على جميع الذاتية»، وهذا الذي أقره المؤتمر بإجماع، وبه سقطت جميع المشاريع «الأبروجيات» كما قال عبد الحميد رحمه الله.

حينئذ علم دعاة الاندماج أنهم أخذوا على غرة، وأن هذه المطالب التي قدمها العلماء وأيدها الشعب قد أفسدت عليهم تدبيرهم. وقالوا: العلماء يجهلون السياسة فما معنى مشاركتهم فيها إنهم لرجعيون وو... فأجابهم الأستاذ الإبراهيمي - حفظه الله - إذ ذاك على صفحات الشهاب، وكان مما قاله لهم:

«فويحكم... إن العلماء الذين تعنونهم من الأمة في الواقع والحقيقة في حال أنكم لا تعدون منها إلا على الزعم والدعوى، وإن العلماء يمثلون الوصف الذي ما كانت الأمة أمة إلا به، وهو الإسلام ولسانه.

= كانت تعرض تدخلها بروح صليبية محاولة تشويه حقائق الدين الإسلامي والإساءة للمسلمين فيما يتعلق بشؤونهم الدينية.

وهدف هذا المطلب تحقيق استقلال المسلمين بشؤونهم الدينية عندما كانت فرنسا تُدير شؤون الحزائر إدارة مباشرة، فالدولة هي فرنسا والدين هو الإسلام فكان الطلب فصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية المستعمرة التي كانت تتدخل في شؤونه دون حق، وهذا هو المقصود بما وُرد في المقال ولا مجال للالتباس.

وإن مطالب الأمة التي رفعت صوتها بها في المؤتمر ترجع إلى أصول أربعة: الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد، وإن لكل مطلب من هذه المطالب فروعاً متشابكة، وإن كل أصل من هذه الأصول يحتاج إلى بحوث ودراسات تفتقر إلى كماليات واختصاصات، وإذا كان في نواب الأمة ومفكرها من فيه الكفاءة والمؤهلات لدراسة المطالب السياسية ووضّل مقدماتها بنتائجها، وإعطاء رأي ناضج فيها، أو كان في فلاحينا وتجارنا من نعتمد عليه وعلى رأيه في المطالب الاقتصادية مثلاً، فمن للمطالب الدينية وما يتبعها من اللغة العربية غير العلماء؟».

وفد المؤتمر إلى باريس:

شكل المؤتمر وبدأ إلى فرنسا لتقديم المطالب إلى الحكومة الفرنسية، وكان عبد الحميد من أعضاء الوفد، ذهب الوفد يوم ١٨ جوليت ١٩٣٦ وشرح القضية في النوادي السياسية واتصل بالوزراء ورؤساء الأحزاب، وصارحه م. دالادي وزير الحربية إذ ذاك أنه لا يمكنه أن يوافق على إعطاء المسلمين الحرائير النيابة في البرلمان مع محافظتهم على الشريعة الإسلامية في الحقوق الشخصية، وقال لهم: إن فرنسا معها مدافع، فقال له عبد الحميد: والجزائر معها الله، فقبل الوفد إلى الجزائر وهو بين اليأس والرجاء، بل هو إلى اليأس أقرب. وكتب عبد الحميد مقالاً في الشهاب وصف فيه تلك المقابلات ختمه بقول الشاعر:

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقل
ويركب حد السيف من أن تضيمه إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

شبح الحرب الأخيرة، وأثره في نفس عبد الحميد:

في سنة ١٩٣٧ تكاثفت السحب في سماء السياسة العالمية فظن الناس أنهم من الحرب قاب قوسين أو أدنى. فبعثت جماعة الميعاد الخيري «هيئة متكوّنة من الأغوات والقياد»، وبعثت جماعة اتحاد الزوايا وغيرهما من الهيئات برقية ولاء وتأييد للحكومة الفرنسية، وشدّت جمعية العلماء عن

ذلك فكير ذاك على الإفرنسيين، فأوعزوا إلى من يعد العلماء ويمنيهم ويرغب منهم إرسال برقية ولاء ليظهر المسلمون الجزائريون مظهر اتحاد ووافق في موالة فرنسا، وخاطبوا في ذلك الشيخ الطيب العقبي رحمه الله فعرض القضية على الشيخ عبدالحميد فقال: سينعقد الاجتماع العام للجمعية في هذه الأيام، وطبعاً يتقدم ذلك اجتماع المجلس الإداري، وسأضع هذا الاقتراح في اجتماعه ليقول الأعضاء الإداريون كلمتهم.

وفي الاجتماع الإداري طرح عبدالحميد القضية بهدوء، وطلب من الأعضاء إبداء آرائهم فكانت غالبية الآراء ضد كتابة البرقية، واستصوب العقبي إرسالها، وقال: الحرب على الأبواب وإرسال البرقية يُخَفِّف من حدة الفرنسيين فتسلم لنا مدارسنا ونوادينا ومشاريعنا الخيرية، ونبقى على اتصال بأمتنا ولو في زمن الحرب، وأخذ يدافع عن نظريته، فعارضه كثير من الأعضاء. وعبدالحميد معتصم بالسكوت. ولما طالت المناقشة طلب عبدالحميد من الأعضاء التصويت برفع الأيدي، فكانت النتيجة أربعة أصوات منهم العقبي يقولون بإرسالها. واثنى عشر يقولون بعدم إرسالها، واحتفظ عبدالحميد بصوته، ولما انتهت المناقشة، حمد الله وأثنى عليه، وكان مما قاله:

«لو كانت أغليبتكم تؤيد إرسال البرقية ما كنتم ترونني في مجلسكم هذا بعد اليوم».

وانتقلت القضية من الاجتماع الإداري الخاص بالأعضاء الإداريين إلى الاجتماع العام الذي تحضره الجماهير، فقال عبدالحميد على رؤوس الملاء: «أقول صراحة - واجتماعنا هذا لا يخلو من جواسيس رسميين أو غير رسميين - أني لن أمضي البرقية ولن أرسلها ولو قطعوا رأسي، وماذا تستطيع فرنسا أن تعمله؟ إن لنا حياتين حياة مادية وحياة أدبية روحية فتستطيع القضاء على حياتنا المادية بقتلنا ونفيينا وسجننا وتشريدنا، ولن تستطيع القضاء على عقيدتنا وسمعتنا وشرفنا فتحشرنا في زمرة المتملقين، إننا قررنا السكوت».

نتج عن هذه الحادثة استعفاء الشيخ الطيب العقبي من العضوية الإدارية لجمعية العلماء. وقال المسؤولون من الفرنسيين: ما معنى السكوت؟

السكوت دعوة صارخة إلى عدم التأيد. وقال الخصوم: هل أصبح العلماء دولة فهم محايدون؟ وغير ذلك من عبارات التهكم والتحريش.

فاشتدت معاكستهم للجمعية وحربهم لها حتى اندلعت نار الحرب الثانية، وبعد أسبوعين من اندلاعها فرضت الإدارة الإقامة الجبرية على عبد الحميد في (قسنطينة) ومنعوه من مغادرتها.

تفكيره في الثورة:

أيام اشتعال الحرب، اجتمعت به لآخر مرة بنادي الترقّي وكان حاضر الاجتماع تلميذه الشيخ محمد بن الصادق الملياني ليس غير. وبعدما تحدثنا معه في مواضيع خاصة وعامة انتفض رحمه الله وقال: هل لكم أن تعاهدوني؟ فقال له الشيخ محمد الملياني: لا أستطيع قبل أن أعرف، ثم توجه إليّ وقال: وأنت؟ فقلت: إذا كان على شيء أنت فيه معي فإنني أعاهدك، قال: طبعاً أنا لا أكلف غيري بما لا أكلف به نفسي. فمددت يدي وصافحته، وقلت: إني أعاهدك ولكن على ماذا؟ قال: إني سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها إيطاليا الحرب. ثم افترقنا ولم يعد بعدها إلى الجزائر، وهكذا كانت نيته. ولست أدري كيف تكون الحالة لو عاش فينا إلى ذلك الحين.

طريقته في العمل:

كان يطوف ببعض أنحاء الجزائر للوعظ والتذكير وتفقد الرفقاء وتوجيههم كل أسبوع. والنظام الذي كان يسير عليه هو: أن دروسه تبتدئ صباح السبت وتنتهي مساء الأربعاء، وفي ذلك المساء يغادر (قسنطينة) وما يعود إليها إلا صباح السبت حيث يستأنف التدريس، فتارة يقضي يومي عطلة الأسبوع بالجزائر، وتارة بتلمسان وتارة بيسكرة أو غيرها من البلدان. فكانت أيام الأسبوع بالنسبة إليه أيام عمل لا تخلو من مفيد أو جديد، بالإضافة إلى

ما يقوم به من مشاركة أعضاء جمعية العلماء في تحرير الجريدة التي تصدرها الجمعية بلسانها.

صموده وثباته إلى أن مات:

حاول الفرنسيون أيام الحرب أخذ مدرسة التربية والتعليم وإحلال اللغة الفرنسية فيها محل اللغة العربية فقال لهم: لا أسمح بهذا حتى أموت دونه فحاولوا الحصول منه على كلمة يشم منها رائحة تأييد في حربهم مع الألمان فما استطاعوا. حتى أسلم الروح لباريها يوم ١٦ أبريل ١٩٤٠ إثر مرض لازم فيه الفراش أياماً معدودات، وحامت الأقاويل حول موته. فمن قاتل: مات مسموماً، ومن قاتل: إنه مات موته طبيعية - ولا يعلم الحقيقة إلا الله - وذلك شأن الناس عند موت كل عظيم.





(١٢٩٣ - ١٣٧٥ هـ) (١٨٧٦ - ١٩٥٥ م)

أبواب الركن: محمود شيث خطاب
عضو لجان إمامي العراقي

١ - مولده ونشأته ودراسته وشيوخه:

ولد المغفور له الشيخ قاسم القيسي سنة (ألف ومائتين وثلاث وسعين) للهجرة، الموافق سنة (ألف وثمانمائة وست وسعين) السيلادية.

ولما بلغ (السابعة) من عمره، سلمه والده إلى مدرسة أهلية لقراءة كتاب الله السعيد، ولتعلم الكتابة العربية، فحتم القرآن الكريم وتعلم الكتابة العربية بسرعة، وذلك بتقريب والده ورعاه له مع معلمه، حتى برع في الكتابة وحسن الخط..

وانتقل بعد ذلك إلى مدرسة أهلية أخرى ليدرس فيها اللغة التركية والفارسية، وذلك عند (منيف أفندي) أحد أرباب الفلم المشهورين في شارع

(١) حصار الإسلام، العدد الثامن من السنة السابعة (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م). وتظر ترجمته في: «تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري» ص ٥٤٤ - ٥٤٥.

الميدان من بغداد، وبقي في هذه المدرسة بصع سين كان يدرس في الخارج بعض المقدمات العربية.

وفي سنة (ألف وثلاثمائة وثلاث) هجرية، تجرد لطلب العلم على علماء بغداد المشهورين، فدرس الخط والنصيب على الشيخ (عبدالمحسن الطائي) مدرس الحيدرية، فتوجه إليه شيخه بكليته، ولم يأل جهداً في تربيته، فكان يخرج إليه لتدريسه قبل الفجر بساعة في البرد الشديد من ليالي الشتاء لما توسم فيه من الخير المقبل، وكان درس الأستاذ يستغرق ثلاث ساعات، فلا ينتهي الدرس إلا والشمس مرتفعة.

وكان ممّا قرأه على الشيخ المومى إليه: علم (الصرف) بأجمعه من المتون والشروح، وعلم (المنطق) متونه وشروحه وحواشيه، وقسماً من علم (النحو)، وعلم (الكلام) و(التصوف).

ثم شرع في القراءة على الشيخ المغفور له (عبدالوهاب النائب)، رئيس محكمة التمييز الشرعي في العراق، فابتدأ بكتاب (مغني اللبيب)، وبالرسائل المتعلقة بـ(الجادة) من علم (الوضع والبيان)، وعلم (المناظرة) وعلم (المعاني) بمختصر (المطوّل)، و(المطوّل) وحواشيه. وقرأ عليه أيضاً (الدرّ) و(الدرّ المختار)، ومن أصول الفقه قرأ شرح (ابن ملك على المنار) و(التلويح والتوضيح)، و(جمع الجوامع)، و(مختصر المنتهى).

ومن شيوخه: العلامة (غلام رسول)، فقد قرأ عليه: (خلاصة الحساب)، و(أشكال التأسيس)، و(إقليدس) في الهندسة، وشرح (النسفية) مع حاشية (الخيالي) و(عبدالحكيم)، و(المواقف) من علم الكلام، و(تشریح الأفلاك) و(الحفني) من علم الهيئة.

وقرأ على غير هؤلاء الشيوخ، ممّا يطول ذكره.

وقد حفظ المتون من سائر الفنون، فكان القارئ عليه في أي علم يجد فيه الكفاية والتحقيق للغاية لما فيه من الاختصاص. ومنذ قراءته على مشايخه حتى مفارقتها الحياة الدنيا، تجده مقصد الطلاب، فاتحاً أبوابه لهم، شقيقاً على طلبة العلم، عاكفاً على مطالعة الأسفار، لا يسأم من الدرس والتدريس.

وقد أُجيز الشيخ القيسي من شيخه الأستاذ عبدالوهاب النائب بإجازة خاصة في الحديث وعامة. وكذلك أجازهُ مدرّس الحضرة القادرية له الشيخ عبدالسلام الشواف بإجازة خاصة وعامة، وله إجازات أخرى من مشايخ آخرين في العلوم العقلية والنقلية.

٢ - مناصبه:

عُيّن الشيخ القيسي في سنة (١٣١٧) للهجرة مدرّساً لقضاء (خانقين)، بعد أن نجح بتفوق على إخوانه في الامتحان، فبقي في ذلك القضاء نحو سنة مدرّساً وواعظاً ومرشداً ومفتياً في البلدة المذكورة ولمن حولها من المدن والقرى.

وعاد بعد ذلك إلى بغداد، وأخذ يُدرّس تلاميذه مبادئ العلوم، وكان من تلاميذه حينذاك: الشيخ عطاء الله الخطيب، والشيخ حسن النائب، والشيخ علاء الدين النائب.

وفي سنة (١٣١٩) للهجرة، عُيّن لقضاء (الصويرة). وفي سنة ١٣٢٦ للهجرة، طلبه والي بغداد برقياً للقدوم إلى بغداد أيام تنسيق الحكام، وكلّفه لجنة التنسيق بقبول (نيابة الباب) في بغداد، فلم يقبل ذلك معتذراً، غير أن لجنة التنسيق رجّته مرة ثانية بأن يقبل هذا المنصب، فقبل ذلك كرهاً لمدة مؤقتة، لأنه كان لا يميل إلى القضاء، ولكنه ما زال يسأل إعفائه من ذلك المنصب، إلى أن عُيّن غيره في مكانه.

وفي سنة (١٣٢٧) للهجرة، عُيّن عضواً في (مجلس المعارف) في بغداد، فبقي مدة قليلة، وطلب إعفائه من هذه الوظيفة أيضاً، لاشتغاله بما هو أولى وأهم من ذلك: التدريس، وبث العلم، وقد عُيّن (للمجلس العلمي) في الأوقاف، وذلك في زمن مديرية المفتي المغفور له (سعيد الزهاوي) وبترغيب منه، مع رفقة أمجاد، كالمغفور له الشيخ إبراهيم الراوي، والشيخ شمس الدين الألوسي، فبقي في هذه الوظيفة عدة سنين.

ثم عُيّن مدرّساً لتدريس (الولاية) في بغداد، وعُيّن أيضاً بالحاج وترغيب شيخه النائب والعلامة شكري الألوسي والحاج علي الألوسي مدرّساً

لدار المعلمين، ولكنه طلب إعفائه من هذا المنصب بعد أن بقي فيه تسعة أشهر، فأجيب إلى طلبه.

ثم عُيِّن عضواً في (مجلس التمييز الشرعي) فلم يرق له هذا التعيين، حيث طلبوا منه الاستقالة من عضوية المجلس العلمي، فاختر البقاء في المجلس العلمي في الأوقاف.

وفي سنة ١٩٢٢م طلب منه مرة ثانية قبول عضوية مجلس التمييز الشرعي، فقبل ذلك، وبقي مواطناً على وظيفته حتى سنة ١٩٢٨م، مع بثه الإرشاد بين الناس، وتدرسه لطلبة العلوم التي هي ديدنه وسيرته.

وحين توفاه الله كان الشيخ القيسي مفتياً لبغداد، وخطيباً للحضرة الكيلانية، ورئيساً لجمعية الهداية الإسلامية.

٣ - تحصيله العلوم:

كان المغفور له حريصاً على العلم، وكان في بدء أمره يجتهد عند أهله في البيت، فكان والده يأمره باليوم ولا يحب له السهر الكثير شفقة عليه، فكان الشيخ القيسي يأبى إلا السهر الطويل المتواصل مجتهداً باحثاً، فعاتبه أبوه ولامه، لذلك انحاز الشيخ القيسي إلى جامع الفضل اختياراً للتفرغ الكامل للعلم وحده، وحرصاً على الاستزادة من العلم دون تقيد.

وكان في أيام تحصيله العلوم يدأب على حفظ المتون ويؤلف بعض الكتب ويدرس الطلاب، فكان له طلاب كثيرون بمقدار طلاب شيوخه، يميلون للدرس عليه لشفقته وسعة صدره وحسن تربيته، وصبره الجميل، وربما قضى في تدريس الدرس الواحد من بعد صلاة العصر إلى المغرب، وكان لا ينام غالباً إلا إذا أنهكه السهر، وربما وقع الكتاب من يده وهو في إغفاءة قصيرة.

كان الشيخ القيسي يذهب إلى دار شيخه النائب بأمر منه في زمن الشتاء، حتى يخرج به إلى مدرسة (منورة خاتون) وقت السحر، ويقرأ عليه

الدرس ويتمه ويرجع لصلاة الفجر في جامع (محمد الفضل)، وهذا علامة النشاط من الشيخ وتلميذه.

وكان شيخه يعتمد عليه كثيراً، وكانت له عند شيخه منزلة كبيرة لعلمه وحسن أخلاقه، حتى إن شيخه أودع جميع أنجاله إليه لتدريسهم.

وقد وعظ الشيخ القيسي سنتين في حياة المرحوم الشيخ محمد سعيد النائب في جامع (الفضل) امتثالاً لطلب الشيخ محمد سعيد ورغبة في براءه، فكان المغفور لهما عبدالوهاب النائب وشقيقه محمد سعيد النائب يجلسان لاستماع موعظته، كما أنهما رعا إليه للخطابة في (التيكة الخالدية) ليصغيا لخطبته، ولما سئل أحد مشايخه سؤالاً علمياً فأحال الجواب إليه.

وقد اعتنى والده المرحوم أحمد الفرضي بما ينشطه في السعي والاجتهاد وطلب العلم، فحلب له الكتب النفيسة من أقصى البلاد البعيدة عن بغداد: من الشام ومصر والهند والآستانة، كما مهّد له موجبات التفرغ للعلم وحده من النفقة واللباس، كما أن والده درّسه الفقه والحديث والتفسير، وحفظه الأربعين النووية، و متن الرحبية في الفرائض والسراجية، فصار إماماً في الفرائض والحساب، حتى إذا حدثت قضية فرضية ووقع الاختلاف فيها، بعث إليه الشيخ علي المدرس وأمين الفتوى في بغداد يستفتيه عن المسألة ليرى الرأي القاطع فيها، وفي بعض الأحيان بعد السؤال منه يستفتي من المشيخة الإسلامية في الآستانة، فيرجع الجواب بعين ما أجاب.

وكثيراً ما كان يرسل إليه المغفور له الشيخ عبدالوهاب النائب من المحكمة الشرعية لبعض الدعاوى المهمة ليرى رأيه فيها، مع أن الشيخ النائب كان شيخ أهل العلم، وما ذاك إلا اعتماداً على الشيخ القيسي لما له من مزيد الاختصاص في هذا العلم، حتى صار مشهوراً في بغداد وخارجها، وكان يُقصد من سائر النواحي والجهات لأخذ رأيه في قسمة التركات.

وكانت له قابلية فذة في فهم وتفهم أخفى المسائل العلمية.

٤ - نثره وشعره:

لعل خير ما يُمثل نثر الشيخ القيسي، كتبه التي تبلور فيها أسلوبه النثري، فأصبح واضحاً سهلاً ممتنعاً بعيداً عن التكلف والمُحسنات اللفظية التي كانت شائعة في أيامه.

أما شعره، فمن الأمثلة عليه، ما نظمه مخاطباً شيخه عبدالوهاب النائب، فقال:

أيا علامة الآفاق يا مَنْ	جلا بعلومه أخفى المسائل
ويا رَوْض الأمانى دون ريب	ويا بحر المعاني دون ساحل
ويا من كان للعافير عيْثا	يسخُّ عليهم درر المسائل
يسرا عك إن جرى يوماً بفن	أرى السحر الحلال بأرض بابل
فما قسُ بن ساعدة الأيادي	وما قيس وما سحبان وائل

وكتب إليه الرصافي ذاكراً عهداً خلت مع الشيخ القيسي، فقال:

إذا قاسم القيسي مرّ بخاطري	تذكّرت عهداً في الصبا مرّ كالحلم
تذكّرت إذ قد كنت للعلم طالباً	بفكر وسعي مجهد النفس والجسم
فقد كنت أحياناً أزور فناءه	وأنتابه للرشف من منهل العلم
وكم زرت في جامع الفضل راجياً	شفاء لما في مدنف الفهم من سقم
إذا جئته يوماً نثلت كنائني	فثقّف منها كل ما اعوج من سهم
وعدتُ صحيح الفهم منه قد انجلت	بلقياه عني غمة الغرم بالغنم
هو العالم الحَبْر الذي مَنْ يَلْد به	يكن فائزاً بالعلم والأدب الجَم
بما شاء في التوضيح من واقد الذكا	وما شاء في التقرير من صادق الحكم
وما شاء من نصح بليغ ومن هدى	وما شاء من خلق نزيه ومن حكم
بقية أعلام مضوا وكفى به	من العلم طوداً فوق أطواده الشَم
له نظر في غامض العلم نافذ	ورأي سديد لا يحوم على الوهم

إذا ما نحى في العلم قتل عويصة رماها بسهم من فطانتهم مصم
نماه أبوه الشهم أحمد للعلی فبورك في الآباء من والد شهم
وكان بتقسيم الموارد بارعاً ينيف بها رأياً على ثاقب النجم

فأجابه الشيخ القيسي من ذلك البحر والروي بقوله:

لقد طرفت سمعي على حين غفلة ألوكة نظم زلزلت جحفل الفم
وكنت عليل الفكر منتهك القوى فصرت بها جذلان لم أشك من سقم
لأفصح أهل الشعر حقاً ومن غدت له الشهرة العظمى لدى العرب والعجم
ومن قد حوى من كل مجد لباه وفاق على من فاق في النثر والنظم

وهي في ثماني عشرة بيتاً.

وله قصائد كثيرة أكثرها من شعر المناسبات.

٥ - مؤلفاته ورسائله وتعليقاته:

ألف الشيخ القيسي عدداً من الكتب العلمية الثمينة، وقد طبع منها أثناء حياته الكتب التالية:

١ - الحديقة الندية في المواضيع التفسيرية.

٢ - رسالة في مصطلح الحديث.

٣ - النزهة البهية في شرح الأربعين النووية.

٤ - الزهر اللطيف في مسالك التأليف.

٥ - تحفة الأدباء في الخط والإملاء.

أما الكتب والرسائل التي لم تطبع بعد فهي:

١ - السراج المنير في أصول التفسير (تجاوز ٦٠٠ صحيفة).

٢ - تاريخ التفسير الذي قرّر المجمع العراقي طبعه وعهد إلي الإشراف على إخراجه للناس.

٣ - الأقوال الشارحة لسورة الفاتحة (تجاوز ١٤٠ صحيفة).

٤ - إتحاف الألباء في قضايا الإفتاء.

٥ - الروض النضر في مناقب سيدي أبي العباس الخضر (عليه السلام).

٦ - رسالة في آية الوضوء.

٧ - القول المبرم في عيسى ابن مريم.

٨ - الغيث النافع في حقيقة التابع.

٩ - الإتحاف في مواد الأوقاف.

١٠ - رسالة في معرفة الخصوم.

١١ - رسالة في تناقض الدعوى.

١٢ - رسالة في الاعتدال في مسائل الاستبدال.

١٣ - رسالة في المخرجين للأحاديث.

١٤ - مرشد الإخوان إلى تربية الصبيان.

١٥ - يانع الغصن في تفسير سورة ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ (سورة البينة).

١٦ - الشراب السلسل في نحل العسل.

١٧ - رسالة في صوم رمضان.

١٨ - رسالة في الحج ومتعلقاته.

١٩ - رسالة في الزكاة وأبحاثها.

٢٠ - رسالة في صدقة الفطر.

٢١ - رسالة في تفسير: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُشْرٌ ۝٢﴾.

- ٢٢ - رسالة في تفسير: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ۖ﴾ و(الأضحية).
- ٢٣ - رسالة في تفسير: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾.
- ٢٤ - رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، بحث في الاستقامة.
- ٢٥ - رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّنَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ (الأمّة المحمدية).
- ٢٦ - رسالة في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ۖ﴾^(١).
- ٢٧ - رسالة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأمر بالمعروف).
- ٢٨ - رسالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.
- ٢٩ - رسالة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾.
- ٣٠ - رسالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (في الأمانة والعدل ورد الظلم).
- ٣١ - رسالة في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النَّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالضَّالِّحَتُ قَتِيزَتٌ حَفِظَتٌ﴾ (الوصية بالنساء).
- ٣٢ - رسالة في تفسير الحديث الشريف: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً».
- ٣٣ - رسالة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ٢٨ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

٣٤ - رسالة في الماهية البسيطة والمركبة.

٣٥ - رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

٣٦ - رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ ﴿١﴾ ...﴾
السورة.

٣٧ - رسالة في ضبط الكلمات والحروف.

٣٨ - رسالة (الاحتساء في رُضد سورة النساء)، تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ...﴾ الآية.

٣٩ - رسالة (نشر الزهر في معرفة الفجر).

٤٠ - رسالة في وفاة النبي ﷺ.

٦ - وفاته وتشيع جثمانه:

توفي الشيخ القيسي في الساعات الأولى من صبيحة يوم الأحد ١١ أيلول ١٩٥٥م، الموافق ٢٣ محرم الحرام ١٣٧٥هـ، فكان لنعيه رنة حُزن وأسى ليس في العراق فحسب بل في كل بلاد العرب وديار الإسلام.

وكان يوم تشيع جثمانه الطاهر في بغداد يوماً مشهوداً، فقد استفاقت العاصمة يوم الأحد ١٩٥٥/٩/١١ على نعي الشيخ القيسي مُذاعاً من محطة إذاعة بغداد، فطفقت الجموع تتحاشد على دار الفقيد في الأعظمية، وتوقفت دار الإذاعة عن إذاعة برامجها، واقتصرت على إذاعة القرآن الكريم والتواشيح الدينية والأحاديث.

وما أن علمت الجماهير بأن موعد تشيع الجثمان سيكون في الساعة الخامسة مساءً من يوم الأحد ١٩٥٥/٩/١١، حتى سارعت إلى داره، من مسؤولين ووفود المحلات، وهي تحمل الأعلام والرايات والدفوف مهللة مكبرة مجهشة بالدمع. وما أن حانت ساعة تشيعه، حتى تلقفت الجماهير

النعش وأبت أن ينقل إلا على الأعناق. ومع شدة الحر وطول المسافة بين بيت الفقيد في الأعظمية ومقره الأخير في الحضرة الكيلانية، إلا أن الجماهير أصرت على نقله مشياً على الأقدام، فكان للجماهير ما أرادت.

وسارت بالنعش يتقدمها رجال الدين مخترقة شارع الإمام الأعظم، حتى وصلوا إلى جامع الإمام الأعظم، حيث صلت الجماهير على الفقيد، ثم سارت صوب باب المعظم، وظلت الجماهير تتكاثر كلما قطع المشيعةون قسماً من أقسام الشوارع التي تصل الأعظمية ببغداد. وما إن وصل المشيعةون إلى باب المعظم حتى اشتركت معهم الجموع الحاشدة التي كانت تنتظر النعش هناك، فأغلقت المقاهي والحوانيت، وقطع الناس أعمالهم للاشتراك في هذا التشييع. أما وسائط النقل فقد حال ازدحام الشارع بجماهير المشيعةين دون تدفقها، وكانت الجماهير تردد في سيرها شتى الترانيم والأهازيج الدينية، وقد استغرق الموكب من الأعظمية إلى الشارع المؤدي إلى الحضرة الكيلانية أكثر من ثلاث ساعات.

وفي الحضرة الكيلانية تتابع قادة الفكر لتأبينه، ثم نُقل النعش إلى المقبرة حيث وُوري في التراب بين الحسرات والدموع.

وأقيمت الفواتح عليه في مختلف الأماكن^(١)، كما أقامت جمعية الهداية الإسلامية حفلة تأبينية كبرى بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته. كما أتبته كثير من الشعراء والأدباء شعراً ونثراً.

لقد كان موت الشيخ القيسي خسارة كبيرة لا تعوض للعلم والعلماء، وقد عبّر الشعب عن لوعته في تشييعه إلى مقره الأخير بشكل لم يسبق له

(١) من تلك الفواتح. فاتحة جمعية الهداية الإسلامية، وجمعية رابطة العلماء، وجامع الوشاش، وجمعية الآداب الإسلامية، وشباب باب الشيخ، وجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الآداب الإسلامية فرع قمبر علي، وجامع ملا حمادي، وجامع الإمام أبي يوسف، ومحلة الرحمانية، وجامع الشاندر بمدينة بعقوبة، والجامع الكبير في المقدادية، وجامع أهالي العزيزية، وجامع محمد الفضل في بغداد، ... الخ (الخطاب).

مثيل حتى لذي الجاه والسلطان، كما عبّر عن لوعته بلسان شعرائه وكتّابه وصحافته، لأن الرجل كان ذا مكانة مرموقة بين الناس استحقها بما بذله من جهد مشكور وسعي حميد في سبيل العلم، ولما كان يتحلى به من خلق كريم وتدين وورع.

لقد كان بارعاً في علم الفرائض والأصول، بكل ما يتعلق بأصول الفقه، معنياً كل العناية بالحديث والتفسير وبالأدب واللغة والشعر.

وبالرغم من انصرافه إلى التدريس والإرشاد، فإنه لم يتوان عن خدمة الدبس الحنيف بالمشاركة في تأسيس عدد من الجمعيات الدينية وبخاصة جمعية الهداية الإسلامية الذي كان يتولّى رئاستها بأسلوبه الحكيم وإرادته المتينة.

وإذا كان الشيخ القيسي قد فارق الحياة، فإن مؤلفاته ستبقى حيّة إلى الأبد مفيدة للعلماء والطلاب، موجهة للخير، مقومة للأخلاق، داعية إلى الله.





للدكتور عدنان الخطيب

كلمة مجلة «حضارة الإسلام»:

دعا رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق (المجمع العلمي العربي) جمهرة كبيرة من العلماء والأدباء لحضور الجلسة التي عقدها المجمع لاستقبال العضو الجديد الدكتور عدنان الخطيب، وذلك مساء يوم الخميس في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ١ كانون الأول ١٩٦٠ م.

وكان الدكتور الخطيب انتخب في حلقة المجمع المنعقدة بتاريخ ٢ ذي الحجة سنة ١٣٧٩ هـ الموافق لـ ٢٨ أيار ١٩٦٠ م عضواً عاماً في المجمع العلمي العربي خلفاً للعضو الراحل الشيخ عبد القادر المغربي نائب رئيس المجمع.

افتتح حلقة الاستقبال الأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع، وأعلن أن الكلمة لأمير سر المجمع الأمير جعفر الحسني الذي ألقى خطاب الترحيب بالعضو الجديد مُعزِّداً مراتبه مُستشهداً لها ببعض أقوال شاعر العربية المرحوم الأستاذ محمد البزم. ثم أعطيت الكلمة للعضو الجديد، فألقى الخطاب المجمعّي التقليدي متحدثاً فيه عن حياة سلفه الشيخ المغربي وأثاره ورحن نشره بنصه بعد شكر أعضاء المجمع ورئيسه:

(١) حضارة الإسلام، العددان (٨ و ٩)، السنة الأولى: (١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م).

- ١ -

تأسيس المجمع العلمي العربي:

سادتي: في الثامن من شهر حزيران سنة تسع عشرة وتسعمائة وألف للميلاد، أنشئ في دمشق، عاصمة الدولة العربية في بلاد الشام، المجمع العلمي العربي، وكان من أعضائه، شيخ في العقد الخامس من عمره، يكور عمامته تكويراً يميّزها عن عمائم أهل دمشق.

صفات المغربي الخلقة والخلقة:

كان الشيخ ربعة في الرجال، حسن السمّت، جميل الطلعة، حلو المَحِيّا، وجهه كصباح الربيع، غَضُّ رطيب، أبيض مُشْرَبٌ بِحُمْرَة، تزيّنه لحية اقتصد في إرسالها، وخطها الشيب، فاستكانت إلى الشيب خليطاً غير قَنِع.

وكان عالي الهمة، دؤوباً على العمل، تبدو الحيوة في كل حركة من حركاته كما يبدو النشاط في كل خطوة من خطواته، يُحِبُّ المشي رياضة يومية، يغدو إلى عمله ويروح ماشياً، ويترك البيت كلما ضاق بما في البيت من كتب مرصوصة، وأوراق مكدّسة، ليجد السلوى في المشي بين بساتين الصالحة والربوة، يستمتع بجمال مسالكها ودفء الشمس ينسلُّ من أشجارها الظليلة، يستنشق عبير الآس في جنباتها، وأرج الرياحان في مغانيها، وحيداً حيناً، ومع بعض مَنْ يضطفيهم من الخلآن والأصدقاء حيناً آخر، وهو دائماً يمشي خطاه الثابتة، غير متوانٍ ولا متخاذل.

كان الشيخ حاضر البديهة، بحديث كأنه قطع الروض، يحمل في طياته النكتة البارعة، والشاهد البليغ، كأنما وعى عيون الأخبار وروائع الآثار. يحب معاشرة الناس، عظيم الوفاء لمن صادق منهم، كأنما حبه دين. لئن العريكة، لطيف الشمائل مع صبر شديد على تحمّل المكاره، على أنه مع ذلك كان عصبي المزاج، يُسرّع الغضب إليه، فيطير الشرر من عينيه، وتتوالب الكلمات من شذقيه، ولكنه يظل خفيف الظل، مُهَذَّب اللفظ، سهل الاسترضاء.

لغة الشيخ:

كانت لغة الشيخ فصيحة في كلماتها، سهلة في تراكيبها، واضحة في مقاصدها تعتمد حروفه، إذا نطق، على مخارج يبين جرسها عن حقيقته، فهو ليس من أبناء دمشق ولا فيها ولد، ولو مرّ في حيّ من أحيائها القديمة، وكان هنالك مَنْ يتهامس به، ويقول عنه: «صاحب العِمامة هذا، يُسَفِّه آراء الشيوخ..» ويدعو إلى السفور». لكّانت هذه القالة مثيرة للرعب، باعثة على الفرع، خوفاً على الشيخ من تجمّع الناس، وهم ينكرون ما سمعوا عنه وما قيل فيه. ولكن الشيخ ما يكاد يلقي على الناس من حوله السلام، حتى يهدأ الروح، وتطمئن النفس، لأن أهل دمشق قد ارتضوا من أخلاق الشيخ البدء بالتحية، فإذا هم يردون عليه بأحسن منها.

نزوله دمشق وحبّه لها:

كان الشيخ قد نزل دمشق، منذ سنوات (نزولاً حسب لهاماً، فإذا هو قد استتلى شهوراً وأعواماً). وإذا بفؤاده يخفق بحبها، فألقى فيها عصا الترحال، وسكن ما بين الثّيربين من مرابعها الخضر، مسحوراً بجمال أزهارها، مفتوناً بنسيم ربيعها، يطرب لخرير الماء يجري في مقمرات صيفها ولحفيف أوراق الحور، ينثرها الخريف ذهباً على أرضها، يعشق رائحة التراب، أصابه طلّ يبشّر بشتائها، ويأنس بالديمة السمحة السكوب تسقي رياضها، وتروي جناتها.

أحبّ الشيخُ دمشق، وأخلص في حُبّه لها، فأقام فيها عمره، واستودعها أهله وفلذات كبده، واختار ترابها لمثواه، وكأنه من أبنائها كائناً عن كابر.

ولادته ونشأته:

سادتي: هذه نهاية قصة الشيخ، أما بدأتها، فقد كانت في الرابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٤ للهجرة، وهي سنة عاصرت سنة ١٨٦٧ للميلاد. في ذلك اليوم وُلِدَ في بيت من بيوت اللاذقية طفل، أبوه موظف

في القضاء، مغربي الأرومة، كان جده الأعلى هاجر، في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة أي في النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد، من بلاد تونس الخضراء، في المغرب العربي، واستوطن مدينة طرابلس من ساحل بلاد الشام، وفي هذه المدينة وُلِدَ أبو الطفل، وفيها تعلم اللغة والفقه والحديث، وفيها تزوّج، ثم رحل عنها طلباً للرزق والمعاش، حتى إذا ما عَادَ إليها بعد سنوات من التنقل بين مختلف البلاد، كان معه غلام صغير. ولد له في مدينة اللاذقية.

اتّصاله بالأفغانيّ ومحمد عبده:

ذَرَج الغلام في بيت أبيه وجده، وهو بيت علم ودين، بيت عريق في القضاء والفتيا، فشت زهر يملك ذخراً كبيراً من المعارف، حفظ المتون في الفقه واللغة والأدب، ثم أخذت مداركه بالاتّساع، وثقافته بالنمو، لتلقيه العلم عن بعض المفكرين من شيوخ عصره، كما بدأت آفاق الرأي فيه تتفتح، عندما اتّصل ببعض العلماء المجذّدين، والمصلحين الثائرين كالسيد جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، فتفاعلت في نفسه الثقافتان الدينية واللغوية. مع نزعات الإصلاح والتجديد، والثورة على القديم البالي، فجعلت منه شيخاً يدعو إلى ضرورة التطور، واقتباس كل مفيد، وتبذ كل فاسد من الأعراف والتقاليد، وكان له من ذخره الكبير في العربية والأدب والتاريخ، السند القوي في امتلاك ناصية البيان، والأخذ من الدعوة بالزمام، فأخذ يكتب وينتقد، ويغمز ويلمز من سوء الإدارة وفساد المجتمع، فضاعت بالشيخ بلدٌ شيوخها له كارهون، وحكامها لا يرتضون النقد من أيّ وعاء خرج، فترك الشيخ بلده يثُنُّ من ضُولة الحاكم المستبد، ويرزح تحت سلطان الجمود الموروث، ويرين عليه الجهل والفساد.

انتقاله إلى مصر وعمله في الصحافة:

وهبط الشيخ مصر سنة ١٩٠٥ للميلاد، يفتش عن متنفس لضيق صدره، وميدان يعلن فيه آراءه وما يجول في نفسه، فإذا بالصحافة تفتح له

صدرها، وتدعوه إلى ميدانها للمشاركة فيه، فكتب المقالات المدوية، ودبج الفصول الممتعة، وكون لنفسه من وراء ذلك هالة، جعلت منه بعد زمن قصير كاتباً اجتماعياً معروفاً، ينادي بالإصلاح الديني والسياسي، وكاتباً لغوياً متمكناً، ينادي بالحفاظ على العربية، لغة حية يتسع أفقها، في شروط وقيود تصون سلامتها من الضياع، وقواعدها من الانهيار، وأساليبها الفصحى من الانحطاط.

عودته إلى دمشق وعمله في تحرير جريدة (الشرق) وعضويته في المجمع:

فلما أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ للميلاد، ونعمت البلاد بشيء من الحرية، عاد الشيخ إلى بلده كاتباً مرموقاً، يُحرّر وينتقد، ويدعو إلى نهضة جندعية شاملة، على صفحات الجرائد، وفي مختلف المجالات. حتى إذا ما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ للميلاد، طلبت إليه الدولة أن يشترك في تأسيس بعض المعاهد العلمية، ثم لم تلبث أن عهدت إليه بتحرير جريدة عازمت على إصدارها في دمشق.

وهكذا عرفت دمشق، الشيخ عبدالقادر المغربي سنة ست عشرة وتسعمائة وألف للميلاد، مُحرراً في «جريدة الشرق» يتولى الشؤون الاجتماعية فيها، ويدعو الناس إلى النهوض ونبذ الأباطيل، ثم عرفته سنة ١٩١٩ للميلاد عضواً من أعضاء المجمع العلمي العربي البارزين.

محاضرة المغربي عن وليمة ابن واسانة في قرية جمرايا:

سادتي: إذا كان الأصمعي مات وفي قلبه حسرة من «حتى» فإن الشيخ طاهراً الجزائري، أحد مؤسسي هذا المجمع، مات وفي قلبه حسرة من «جمرايا» كما زعم الشيخ عبدالقادر المغربي، في إحدى المحاضرات التي ألقاها في ردهة المجمع هذه، و«جمرايا» قرية من قرى دمشق سكنها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، شاعر يسمى «أبا القاسم

الحسين بن واسانة» نعتة الثعالبي، صاحب «يتيمة الدهر» بقوله: «هو أعجوبة الزمان ونادرتة، وفريد عصره وباقعته، وهو أحد الفضلاء المُجيدِين في الهجاء، وكان في زمانه، كابن الرومي في أوانه»، وفي أحد أيام الربيع استقبل الواساني في بيته بجمرايا، ضيوفاً من دمشق، وكانت وليمة خلد ذكرها في التاريخ، إذ وصفها صاحبها بقصيدة دَوَّنَهَا الثعالبي في «يتيمته»، وياقوت في «معجمه»، وشرح ألفاظها وعلق عليها الشيخ المغربي في «محاضراته».

لقد كان لجمرايا، يوم أقيمت فيها وليمة ابن واسانة، شأن عظيم، ثم عدت عليها صروف الزمن، فضاع اسمها، وصُحِّفَ في بعض كتب اللغة والأدب، وكان أدباء دمشق، يقرؤون وصف الوليمة في كتاب «اليتيمة»، وهم لا يعرفون «جمرايا» ولا موقعها، فتأخذهم الحيرة في ما كان من أمرها ومصيرها، وظلَّ الأدباء في حيرتهم هذه، حتى ألقى الشيخ عبدالقادر المغربي، في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٢٨ للميلاد، محاضرتَه عن وليمة ابن واسانة، وقال: (لما طالعت اليتيمة في شهر مايس - أيار - سنة ست وعشرين وتسعمائة وألف للميلاد، وقرأت وصف الوليمة الواسانية شاركت الإخوان في حيرتهم، وأخذت أتساءل عن قرية «جمرايا» وأراجع عنها في المظان، وكنت كلما أوغلت في المراجعة ارتطمت في الشبهة والشكوك).

امتلاك عبدالقادر الخطيب قطعة أرض في «جمرايا»:

(ثم اتفق في أثناء الحرب العامة، أن الأستاذ الشيخ عبدالقادر الخطيب خطيب الجامع الأموي، ملك قطعة أرض في مزرعة... فعلم من أكاربها أن اسم مزرعتهم «جمرايا»... وقد بنى الأستاذ ثمة داراً حسنة، وجعل يحدث إخوانه عن «جمرايا» وجمال موقعها، وطيب هوائها، ويدعوهم إلى زيارته، وبهذه الصورة، نشرت قرية «جمرايا» من مطمورة العدم، وعادت فُولدت من جديد باسمها الحقيقي، وظهر أن محلها وادي بردى، على قيد خطوات من قرية الهامة متنزه أهل دمشق المشهورة)، حتى قال: (... ثم

درى الأستاذ الخطيب، إني أهيبء محاضرة في هذا الموضوع، أريد إلقاءها في ردهة المجمع، فقال لي:

أما وقد عزمت على إحياء ذكر «جمرايا» فإني، أنا أيضاً أريد أن أحيي ذكر وليمة ابن واسانة).

إحياء الأستاذ عبدالقادر الخطيب ذكرى وليمة ابن واسانة:

سادني: في يوم من أيام الخريف، كان فتى لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره، يقف إلى جانب أبيه، في شرفة بيت ريفي جميل، أقيم على شفا واد من أودية تنتهي إلى نهر بردى، فتؤلف مع مجراه، الوادي الأخضر الكبير يجري فيه الماء إلى دمشق فيحمل إليها الحياة، ويكسبها الثمنة والجمال.

كانت السماء يومئذ صافية، ترضعها خطوط متقطعة من الغيوم، تناثرت هنا وهناك، وكأنها طلائع الشتاء المبشرة بالخير العميم، كانت الجبال تحب بالبيت من كل جانب، كأنها الأطواد، شامخة بصخورها الجرداء، زاهية بلونها الضارب إلى حمرة، وعشبها قد آذن وصوح، وإذا كان نحرها عريان، فساقها كاسية حالية بوشاح من أشجار الزيتون، زاد اخضرارها دكنة، ما علق بها من ثمار نضجت وحن قطافها، أما هذا الوشاح الحلو، فتشدّه إلى قمم الجبال أخاديد خضراء، تريده روعة وجمالاً، وكانت أشجار المشمش توشي أطراف الوشاح، بأوراق الخريف الذهبية، وأشجار الحور، تقف في مستقر الوادي، مستعلية برشاقتها، وكأنها عرائس تختال على ما حولها من دلب ودردار، وبردى يتلوى بين أقدامها تلوي الثعبان، يظهر في مكان ويختفي في مكان.

كان الفتى وأبوه في انتظار ضيوف كرام، والأب يحدث ابنه عن من لا يعرفه منهم، فيهيح عنده الرغبة في لقائهم والترحيب بهم، والفتى دائم الحركة لا يستقر في مكان، وكأنه عين لا تغمض، تراقب طريق دمشق يحترف ملتوي الجبل من بعيد، هابطاً نحو النهر كالظمى، ليندفع من الجهة

الأخرى من النهر ضِعْداً إذا ما ارتوى، فلما لاحت للفتى مقدمة سيارة، تهلل وجهه طرباً، ولم تمض دقائق معدودات، حتى كان الفتى من وراء أبيه يستقبل الضيوف، يتقدمهم رئيس المجمع العلمي العربي، وإلى جانبه الشيخ الذي كان الأب يحدث فتاه عنه ويقص عليه شيئاً من القصص، يحبب الاجتماع به، والاستماع إليه.

تحلّق الضيوف حول بركة ماء يُزَيِّنُها ما يتصعّد منه نحو السماء، فإذا ارتدّ دونها، انتثر كاللؤلؤ على سطح البركة، ليعود بعد ذلك سيرته الأولى.

وأخذ القوم يتحدثون عن جمال الطبيعة في «جمرايا» وعن (موقع دار الخطيب، وما تشرف عليه من مشهد عجيب).

جولة الأستاذ عدنان الخطيب مع العلامة المغربي في قرية جمرايا:

وكان الشيخ عبدالقادر المغربي، واسطة عِقد القوم، لا يلقي النكتة بتيمة، ولا ينهي حديثاً إلا ليبدأ قصة، ولا يروي بيتاً من الشعر، إلا ليعلق عليه حتى إذا بلغ سُؤله، رغب في زيارة القرية، لمعرفة معالمها القائمة، وما بقي من آثار مجدها الغابر، وماضيها المجهول، فأسرع الفتى إلى رفقه دليلاً يحسن الحديث عما يعرفه من آثار شارك في اكتشاف بعضها، ويحسن الاستماع للشيخ يتم حديثه عن ابن واسانة، شاعر «جمرايا» الذي لم تبق الأيام من ذكر له فيها، إلا عين ماء تعرف بعين الشاعر.

طالت جولة الشيخ والفتى بضع ساعات، كانا يصعدان جبلاً، ويهبطان وادياً، يجتازان شعاباً ويطلعان ثنايا، يتحاشيان ما استطاعا الوعر والأشواك ويقفزان إذا ما اعترضتهما عيون جارية، وكان الفتى قد ألف اجتياز العقبات، وتمرّس بعراقيب الجبال، فأخذ بين الفينة والفينة، يستحثّ الشيخ على التقدّم والإسراع، والشيخ يتمهله والابتسامة تعلو ثغره، حتى بلغت الجولة منتهاها، وإذا بالفتى يشعر بالتعب يدبّ في أطرافه، والنصب يستنفد ما عنده

من نشاط، ولكنه استحيا من الشيخ فتجلد، وأخذ في الإياب يُغذ السير
للحاق به والبقاء إلى جانبه، فلما وصلا البيت، وخاف الرفقة أن يكون
الفتى الدليل، قد أتعب الشيخ في تجواله، صاح هذا الفتى، والله إن الشيخ
هو الذي أتعبني.

سادني: هذا أول لقاء أتيح لي بالشيخ، ولم أكن أدري أن الأيام
تدور وتدور، لأقف في يوم، أتحدث عن هذا اللقاء الحبيب.

- ٢ -

استعمال المغربي في مقالاته الصحفية للمعرب والدخيل:

سادني: حدثتكم كيف هبط الشيخ مصر سنة ١٩٠٥ للميلاد،
وجدير بي أن أقف قليلاً لأحدثكم عن ثمرة طيبة من ثمرات هذه الفترة
من حياته، فقد نزل إلى ميدان الصحافة، وكانت جريدة «المؤيد» في
طليعة الجرائد التي خاض معاركه الإصلاحية فيها، وقد اضطر وهو يكتب
للعمامة من الناس، إلى استعمال كلمات كثيرة، من المعرب والدخيل،
فعتب عليه كثيرون من فحبي العربي، الراغبين في الحفاظ على سلامتها،
ونقده آخرون، فإذا بالجدل ينشط بينه وبينهم (حتى تخطى الجدل القول
إلى الكتابة في الصحف، وكان يكتب في المؤيد، ردوداً يحتج بها
لنفسه)، وكان لا يرى على حد تعبيره، رأي الناقلين له (في أن القليل
من كلمات المعرب والدخيل، يفسد المقال الطويل، بعد أن تتوفر فيه
سائر صفات الحسن).

كتاب: «الاشتقاق والتعريب»:

وطال الجدل، وكثر ما كتبه الشيخ دفاعاً عن نفسه، فإذا بصاحب
المؤيد، يشير عليه، أن يجمع ما كتبه في هذا الشأن في كتاب مستقل فطلع
الشيخ على الناس، سنة ١٩٠٨ للميلاد بكتاب «الاشتقاق والتعريب» ردّ فيه
على (الأغراب عن العربية، البعيدين عن معرفة أسرارها، والذين يرمونها

بضيق العطن)، وعلى العاتيين من أنصار العربية (الذين يرفعون أصواتهم بالانتصار للغة، والإعجاب بخصائصها ومزاياها، ثم لا يعملون على إحياؤها، بالإفادة من قوَّتي الاشتقاق والتعريب، وتمهيد السبل للانتفاع بهما. . كي يتم إمداد اللغة بالحياة الدائمة والنمو المتواصل) فتصبح لغة حية تصلح لتلقين العلوم والفنون على اختلاف أنواعها.

وكان جلُّ همِّ الشيخ في كتابه، أن يثبت (أنَّ المعرَّب عربي فاستعماله في الكلام الفصيح، لا يحط من قدر فصاحته، ولا يخرج البليغ في بلاغته) على أن الشيخ، وهو في حوِّمة الجدل، كان يندفع أحياناً، في تأييد ما يدعو إليه اندفاعاً فيه شيء من التنكُّر لأصل بعض الكلمات العربية، أو فيه التساهل بتعريب الكلمات الأجنبية، فهو إذ يقول: (والتعريب تحويل طبيعي، أو تغيير تدريجي، يطرأ على اللغة، ويجري بها في ناموس مطرد، وقد خضعت له اللغة العربية بمجموعها، ومن أول نشأتها، كما تخضع له الآن وبعد الآن وأعني بذلك أن اللغة بمجموعها معرَّبة ومحوَّلة عن لغة أعجمية) لا يرى عيباً في استعمال كلمات «قومسيونجية» بدلاً من «وسطاء»، و«بالون» بدلاً من «منطاد»، و«بوسطة» بدلاً من «بريد»، لا بل إنه دعا في الفترة الأولى من دفاعه عن الاشتقاق والتعريب، إلى أخذ لفظة «أتومبيل» كما أخذ أسلافنا لفظة «منجنيق» وإلى اشتقاق اسم من لفظه لمن يسوقه، فنقول له: «آتم» أو «تامل» كما سمَّى العرب صاحب المنجنيق «ناجق».

كما أنَّ الشيخ، في الفترة المذكورة، لا يبدي أي اعتراض على استعمال كثير من الكلمات الشائعة على ألسنة الناس، مثل: «تلغراف» و«تلفون»، و«فونوغراف»، و«ملاريا»، و«ميكروب» ونحوها مما جاء به نقلة العلوم العصرية ومترجموها ولم يروا مندوحة من تعريبه.

مشاركته في ترجمة بعض المصطلحات:

وأصبح الشيخ رحمه الله فيما بعد، من أركان المجامع اللغوية في البلاد العربية، فشارك بنصيب وافر، في ترجمة المصطلحات أو وضعها أو إقرارها، مصطلحات لكثير من الكلمات الأعجمية، التي كان لا يعترض على

استعمالها لشيوعها على ألسنة الناس، كما في كلمات «برقية» و«هاتف»، «حاكي»، و«برداء»، و«جرثومة». وكما هو الحال في الرتب العسكرية، التي كان أكثر الجيوش العربية تستخدم ألفاظاً أعجمية للدلالة عليها.

الوعي اللغوي في الأمة العربية:

ثم كان هذا الوعي اللغوي في الأمة العربية، الوعي الذي جاوز آراء الشيخ، وغلب الناس معه استعمال «السيارة» و«المنطاد» و«البريد» على أتومبيل وبالون وبوسطة، فارتاح الشيخ بادی ذي بدء، إلى ما رأى وما سمع، ثم أصبح لا يرضى عن التعريب، إلا بالشرائط التي تحفظ للغة سلامتها ورونقها، ولم يعد يكتفي بإطلاق لفظة «سيارة» على المركبة التي تندفع بقوتها الآلية، بل طمع في أن يعرف الناس من السيارة شكلها «قاصرة» كانت أو «مقطورة» أو «صهريجاً»، كما طمع في أن يعرفوا «طرازها» وقوة «محركها» وعدد «أسطواناتها» ومقياس إطار عجالاتها، ومدى صوت مُنبهها «ونوع» مكابحها، «وموقع» العادم فيها ينفث فضلات ما تحرقه من وقود. لا بل طمع في رؤية سائق أي سيارة تستعمل «المشيخة» كلما رغب في تبديل وجهة سيره، وينتبه إلى كل شاحصة، نصبت في الطريق للتقيّد بما تحمله من تعليمات شرطة السير، كما طمع في أن لا تترك السيارة إلا في المرآب، ليرأب صاحبه ما فيها من خلل.

وچار الشيخ في أمر «الباص» فلم يدر ما يستبدل به، فارتضاه بهذه الصيغة الأعجمية، وتركه يرد كذلك في نصّ القانون الذي شارك في صياغته، على حين نثرت في مواده كل الكلمات السابقة، في يسر وسهولة.

وإني لأذكر غيرة الشيخ وجرأته في الدفاع عن العربية، يوم أراد صاحب سلطان عارض، تسانده صحافة قوية وكتاب كثيرون، الاعتداء على تاء «سورية» فصاح الشيخ بملء فيه: إن العرب أعطوا «سورية» حقاً في تاء تلحق بها، فلا يعتدين أحدٌ عليها.

لقد مات الشيخ رحمه الله، ولو مدّ الله في أجله، فرأى عَلم الوحدة المباركة، يخفق في سماء مصر والشام، نواة للوحدة الكبرى، أحلى أمانيه.

لطار فرحاً، ولبلغ به هذا الفرح مبلغه حين يرى «الشرطة» تفوز على «البوليس» في المباراة، ويرى «الأمناء العامين» يأترون بكل «سكرتير عام» أو يرى «المقدم والرائد» يحلان محل «البكباشي والصاغ»، و«الملجان الطبية» تستبدل بـ «القومسيونات».

دعوته إلى إنشاء مجمع لغوي:

سأدتي: عندما يذكر أيُّ مجمع من المجامع العربية، يذكر معه الفقيد الشيخ عبدالقادر المغربي، لا لأنه كان من أعضائه المؤسسين فحسب، بل لأن للشيخ فضل السبق في الدعوة إلى إنشاء المجامع اللغوية، قبل نيف وعشر سنوات، من إنشاء أول مجمع لغوي، مجمع دمشق العلمي، فقد كان ييدي التلهف في كثير مما كتبه قبل سنة ١٩٠٨ للميلاد، لرؤية مجمع لغوي ينظر في الكلمات الدخيلة والأعجمية ويدونها، مشيداً بـ (النهضة العربية العباسية، وخاصة المأمونية، حينما عُقدت المجامع وأنشئت دور الحكمة، فصار يؤمها كبار العلماء، لأجل النظر في ما ينقله المترجمون، من الكلمات الأعجمية ونقدها وتدوينها) قائلاً: (وهذا ما نصبو إليه، في هذه الأيام، ونحسبه من أكبر دواعي تقدُّمنا واتِّساع نطاق لغتنا، وانتشار العلوم على أنواعها في ما بيننا).

وكان الشيخ رحمه الله تارة يذكر، والألم يحزُّ في نفسه، الزمن الذي كان يعيش فيه يوم (انتشرت اللغات الأعجمية، ومرنت على النطق بكلماتها الألسنة ولا توجد مجامع لغوية تعنى بنقد الكلمات، وردها إلى أبنية عربية) وتارة كان يضيق ذرعاً بـ (الكلمات الأعجمية الكثيرة، التي تنهال على لغتنا أيما انهيار، وليس من العناية وإنشاء المجامع، ما يقوم بشرط تعريبها، أو إلحاقها بالأوزان العربية).

صعوبة التمييز بين المُولَّد والعامي:

وعلى الرغم، من طول باع الشيخ في علوم اللغة، وجَلَّده على البحث والدرس كان يستصعب التمييز بين المُولَّد والعامي، لأن هذه

المهمة، على حدّ تعبيره (تحتاج إلى بحث وتنقيب، وقلما يمكن للفرد أن يستقل بهذا العمل، وتيسر له الإحاطة به، وإنما يتيسر للمجامع العلمية واللغوية، التي تخدم اللغة وآدابها. وتبحث في موادها وجميع مفرداتها، أصيلة أو دخيلة).

وكثيراً ما كان الشيخ يقول، وفي كلامه ابتهاج ورجاء: (كم نحن إذن في حاجة إلى مجمع لغوي، يضون لغتنا المحبوبة عن هذا الخطر الذي يتهدها، وينتشلها من هذه الهوة التي نخشى أن تواقعها) أو كان يعتذر عن البتّ في رأيٍ جريء تعرض له، فيقول: (ليس لمثلي، أن يبتّ بالرأي فيه، لا سيما وهو يتعلق بحياة اللغة وبثباتها، في هذا الموقف الهائل، الذي تزدهم فيه اللغات الحية. وإنما أكلُ الحكم فيه إلى المجامع اللغوية، التي تتمخض عنها البلاد ويتحفز إلى إنشائها، من فضلائنا أفراد).

تحقق أمنيته بتأسيس المَجْمَعَيْن اللغويين في دمشق والقاهرة:

كان الشيخ رحمه الله يقول مثل هذه الأقوال، يوم لم تكن العربية دولة، ويوم كان الحديث عن دولة للعربية، تقصر عنه الأحلام، وتجنب أن تخوض فيه الأقلام، فلما رأى الشيخ المجمع العلمي العربي، ينشأ في دمشق سنة ١٩١٩ للميلاد، ثم رأى مجمع اللغة العربية ينشأ في القاهرة سنة ١٩٣٤م صاح بملء فيه والرضا يملأ جوانحه، والإيمان يغمر قلبه (أن الحمد لله، لقد تحققت أمنيّتي).

ومما يذكر للشيخ تغمده الله برحمته، أنه عندما كان مندفعاً في الدعوة إلى الإفادة مما كان يسميه «قوتي الاشتقاق والتعريب» احتاط مرة في اندفاعه، وقال: (قد ظهر لك مما تقدّم، أنّ الاشتقاق قوة لنموّ اللغة، وتكاثر كلمها، وتشعب صيغها، لكنه سماعي مقيّد بأزمان خاصة، وأشخاص معينين، وليس من مقدورنا نحن، أن نعمل تلك القوة الآن في اللغة فنشتق من مصادرها، ونحول موادها اشتقاقاً، وتحويلاً لم يعرفهما أهل اللغة أنفسهم، اللهم إلا إذا طرأ على عمراننا وعقولنا وعلومنا، التي نسميها نقليّة

ما يفكها من قيودها القديمة، ويجاوز بها سننها المتبعة. وليس هذا الدور البعيد مما يحسن أن نتكلم عنه الآن).

الاشتقاق من أسماء الأعيان:

فلما أجاز مجمع اللغة العربية في مصر سنة ١٩٣٤م، الاشتقاق من أسماء الأعيان، أي من الاسم الجامد، لنقول: منحس من الثحاس، ومُبَلَّر من البلُّور، ومُكَهْرَب من الكهرباء، واسْتَمَاء البخار، أي: استحال إلى ماء، واستبقر الجاموس، أي: عمل عمل البقر، كما قال العرب في القديم: مُذْهَب اشتقاقاً من الذهب، واستخجر الطين اشتقاقاً من الحجر، واستثوق الجمل واستنسر البغاث اشتقاقاً من الناقة والنسر، صاح الشيخ فرحاً مسروراً: (لقد صدق حدسي وتحقق ما توقعته بعد ست وعشرين سنة).

تفسير «جزء تبارك»:

سادني: من الآثار الخالدة، التي صنعها الشيخ الفقيه بعد نزوله دمشق تفسيره: «جزء تبارك» من القرآن الكريم، توخى فيه طريقة أستاذه الإمام محمد عبده، في تفسيره «جزء عم» من حيث (الصحة في التعبير، والاقتصار على المفيد من القول... وعدم التنطع بالمُشاغبات، وإيراد الخلافات والخرافات) إلا أنه، رغم حُبّه لأستاذه الإمام وعظيم وفائه لذكراه، لم يستطع متابعتها في أسلوبه، أو التقيد بمنهجه، فترك لنفسه هواها، في حُبّ العربية وعلومها، فإذا به (يتوسّع في التعليق والتفسير، والاستشهاد والتنظير - ولا سيما في المباحث اللغوية - بأكثر مما فعله الأستاذ الإمام).

نموذج من تفسيره:

لنستمع إلى الشيخ رحمه الله يفسر قول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]، يقول الفقيه: (غوراً: مصدر غار الماء: نُضِبَ وذهب في الأرض)، وكان الظاهر أن يقول: إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَائِراً لكنه وصف بالمصدر للمبالغة... و«ماء معين» أي: جار على وجه الأرض، منظور بالعين، ووزنه «مفعول» من عانه

إذا نظره بعينه، أو «فعيل» من مَعَن الماء في جريه، إذا اطرَد وتسلسل فكان أعون على نقائه وطهارته، وتخليصه من الشوائب).

بل لنستمع إليه كيف ينسج من خيوط اللغة والعلم والأدب، تفسير قول المبدع الكريم: ﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۖ﴾ (٢٥) ﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ (٢٦) [المرسلات: ٢٥، ٢٦]، قال: (كِفَاتًا: مصدر كَفَت الشيء إلى نفسه: ضَمَّه، وهو الذي نصب «أحياء وأمواتاً» على المفعولية، أما من جعل كِفَاتًا، اسماً بمعنى الموضع الذي يُكفَت فيه الشيء، ويضم كالوعاء والضوان، فإن «كِفَاتًا» حينئذ لا تنصب «أحياء وأمواتاً»، بل ناصبهما فعل محذوف دل عليه «كِفَاتًا» كأنه قال: تكفت أحياء وأمواتاً...).

(ويصح أن تكون «أحياء وأمواتاً» منصوبة على الحال، فإنه قال: تكفتكم حالة كونكم أحياء وأمواتاً، أما كون الأرض تضم الأموات إلى صدرها، وتكون كِفَاتًا لهم، فأمره ظاهر، ولكن ما معنى أنها تضم الأحياء إليها؟ وكيف تكون كِفَاتًا لهم، وهم منتشرون فوق ظهرها متلفتون إلى كل جانب من جوانبها، ولا حواجز تصدّهم، ولا سدود تقوم في وجوههم؟ قيل في الجواب: إن المراد يكون الأرض كِفَاتًا للأحياء، إن منازلها ومساكنها كِفَات لهم، تضمهم بين جدرانها للبيتوتة والراحة والسكن، كما أن المقابر كِفَات للأموات تضمهم بين جوانبها).

وهنا يتابع مفيدنا العظيم، تفسيره برأي أصيل يدل على ثقافة عامة، وتفهم للعلوم العصرية، فيقول: (وأرى أن اكتشاف ناموس الجاذبية العام، الذي بموجبه تجذب الأرض إليها ما على ظهرها من البشر والدواب وسائر الأشياء، والذي لولاه لطاروا وتبدّدوا شَذَرَ مَذَرَ في الفضاء، بسبب حركة الأرض اليومية على نفسها، وحركتها السنوية حول الشمس، بسرعة فائقة الحد، هذا الاكتشاف يُفسّر لنا معنى ما قرّره الكتاب الإلهي، من أن الأرض كِفَات للأحياء، مذ يكونون على ظهرها، فإنها تجذبهم إليها، وتضمهم إلى صدرها، كما تفعل الأم الحنون، فلا تدعهم يتفلّتون، وهم بذلك لا يشعرون).

مقال للمغربي في جريدة المؤيد بعنوان: «الإصلاح العملي»:

سادتي: سبق أن عرفنا، كيف لجأ الشيخ المغربي إلى مصر، وكيف عاد إلى بلده، بعد الانقلاب العثماني، وإعلان دستور يكفل للمواطنين الحقوق والحريات الأساسية، وجميل بنا أن نطلع على العدد الصادر يوم العاشر من شباط سنة ١٩٠٨ للميلاد من جريدة «المؤيد» لأنه كان يحمل مقالاً عنوانه: «الإصلاح العملي»: ذهب دور القول وجاء دور العمل" كتبه الشيخ عبدالقادر المغربي.

أهم الأسس الإصلاحية التي دعا إليها:

كان الشيخ في مقاله ثائراً يدعو إلى الإصلاح، ومُصلحاً يدعو إلى إقامة مجتمع جديد. وكأنه باصطلاح العصر الذي نعيش فيه «رجل تخطيط» يضع الخطوط الكبرى. ويرسم الشبل التي يجب سلوكها، للوصول إلى الهدف المنشود، لقد كانت أهم الأسس الإصلاحية التي خطتها، هي:

أ - إصلاح اجتماعي، يشمل الحكومة، بمرافقها العامة، وإداراتها وأنظمتها كما يشمل الأسرة، وخَصَّ الشيخ «المرأة» بنصيب كبير من الدعوة إلى تعليمها ورفع الحجر الاجتماعي منها.

ب - إصلاح ديني، يشمل معاهد العلم، وأساليب التعليم، يعود الدين معه إلى يُسره وصفائه.

ج - إصلاح لغوي، يتلاءم مع مقتضيات الزمن، ويجعل من اللغة العربية لغة سياسة وعلم وفن.

وفاته وآثاره:

وظلَّ الشيخ رضوان الله عليه بعد وضعه هذا المخطَّط، وفياً له، يدعو إلى العمل به بقلمه ولسانه، ويجاهد ما استطاع، لتحقيقه وتنفيذه، متفرغاً في أخريات حياته إلى الإصلاح اللغوي وخدمة العربية، حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، صباح يوم السابع والعشرين من شوال سنة ١٣٧٥ للهجرة

وفق السابع من حزيران سنة ١٩٥٦ للميلاد، فقدت العربية بموته، ركناً من أركان الدفاع عن سلامتها لغة دين وأدب، ورائداً من رواد الدعوة إلى إحيائها لغة تسير نهضة العلوم والفنون الحديثة، وخسر المجتمع بموته مصلحاً يدعو إلى إقامة مجتمع تسوده الأخلاق الفاضلة، ويعرف كل فرد فيه واجباته وحقوقه، وودعت الصحافة فيه، علماً من أعلامها الأول، جاهد على صفحاتها بقلمه وفكره، يدعو الناس بقوة وإيمان إلى الخروج من ظلمات الجهل والأعراف البالية، إلى نور المعرفة والارتقاء.

لقد مات المغربي، وترك تروية خالدة، من الأفكار التي دونها، والآراء التي اعتنقها، عرف الناس الكثير منها، قراءة في صحيفة أو مجلة أو كتاب، أو سماعاً في درس أو محاضرة أو حديث، وبعضها ما زال محفوظاً، ينتظر من ينشره على الناس.

مكان الشيخ سيطل شاعراً:

سيدي رئيس المجمع، سادتي الأجلاء: لقد أتعبني الشيخ عبدالقادر المغربي، أول يوم عرفته يوم وليمة «جمرايا»، حين كنت أجهد لألحق به، أما اليوم، وقد شتم أن أتبوا مقعده في صفوفكم، فقد كُلفت أمراً إذاً، لأن مكان الشيخ بيننا سيطل شاعراً، ولن يسد مسدّه أحد، فقد جاد الدهر به يوم ولد، والدهر كأم الضقر مقلات نرور.

لقد جاد الدهر بالشيخ عبدالقادر المغربي، فكان ملء السمع، ملء البصر، فسلام عليه يوم ولد، وسلام عليه يوم نزل دمشق فأحبها وأحبته، وسلام عليه يوم خنت على رفته مخلدة ذكره ومآثره.





مع العلامة

محمد الخضر حُسين في جهاده^(١)

(١٢٩٣ - ١٣٧٧هـ)

(١٨٧٢ - ١٩٥٨م)

للقاضي سعدي أبو حبيب



صفوة الصفوة من أهل العلم:

من علماء أمتي من سفح على القرطاس
عمره، وعاش في كهف العلم، حتى غدت
الكلمة لا تخرج منه إلا على محفة من الكتب،
في موكب من الأعلام...

ومنهم من آتاه الله بِنسطة في القلب
والفكر، فعاش مع العلم، وعاش حياة الأمة،

ومناعبها، وآلامها... حتى غدت لا تبرح ضميره، ولا تفارق فكره... فهو
يقلب طرفه في سماء المجد، والسؤدد، والصلاح يبحث عن أقصر سبيل
يوصل أمته إلى كل ذلك..

(١) حصارة الإسلام، العدد الرابع، السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

هؤلاء هم صفوة الصفوة من أهل العلم، بل هم العلماء الحق في قول علامتنا الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين عليه رحمة الله ورضوانه... «من وظيفة العالم مراقبة سير الأمة، حتى إذا اعترضها خلل أرشد إلى إصلاحه، أو ضلّت عن حقّ قادها إلى مكانه... ومن تصدّى لتقويم الخاطئين، ورد جماح المبطلين يلاقي بالطبيعة أذى، ويجد في طريقه عقبات لا يقتحمها إلا ذو عزم ثابت، وإقدام لا يتزلزل. وكم من عالم يفوقه أقرانه علماً وألمعية، ولكن ينهض لإحياء سنة، أو إماتة باطل، ويلاقي في جهاده شدائد فيجتازها بنفس مطمئنة، ولا يلبث أن يرجح وزنه، ويبعد في حلبة السباق شأوه. ولو كشف لنا الغطاء عن حياة العلماء الذين أودوا في سبيل الدعوة إلى الخير، ولم ينحرفوا عن خطتهم فتيلاً لرأينا كيف ارتفعت منزلتهم، وتجلّى وقارهم في عين مَنْ كان يسومهم سوء الأذية، أو يشفي غليل صدره أن يصرعوا في مصارع الاضطهاد...»

الرجال الذين أحرزوا هذه المزايا، واستحقّوا لقب العالم المصلح ليسوا بكثير. فلو قلبت نظرك في السنين الماضية، وصعدت به إلى عهد قريب، رأيت المعاهد العلمية إنما تنبت في العصر الواحد الرجل أو الرجلين...»^(١).

هل ترى إمامنا الأكبر من هذه الثخبة المختارة التي قلما يوجد بمثلها الزمان؟..

سنسير معه في درب الحياة، خطوة خطوة، علّنا نهتدي إلى الجواب... .

مولده ونشأته:

أدرك علامتنا النور في يوم خير من سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٣م) في بلدة نفطة، واحة النخيل في جنوب تونس، البلدة التي أنبتت عدداً مباركاً من العلماء، حتى وصفوها بالكوفة الصغرى... .

(١) الدعوة إلى الإصلاح، ص ١٤٦ (سعدى).

ولقد رضع علومه الأولى من بيته، من فكر أمه السيدة حليلة السعدية بنت العلامة الكبير مصطفى بن عزوز رحمة الله عليه التي قامت بتدريسه، مع إخوته العلوم الدينية واللغوية، حتى أنه أخذ عنها كتاب الكفراوي في النحو، وكتاب السفطي في الفقه المالكي...

هكذا الأم، وإلا فلا...!

وحين أشرف هذا الألمعي على المراهقة، انتقلت أسرته إلى مدينة تونس العاصمة، واستقرت بها...

في الزيتونة:

وفي جامعة تونس العتيقة، الزيتونة، الدوحة المباركة بالعلم وأهله، التي لا ينضب نورها الدافق من الإسلام، ترعرع علامتنا الكبير، وزكا فكراً وأدباً، حتى حاز الشهادة العالمية في العلوم الدينية والعربية.

ولما أصبح في واحة العلم نخلةً باسقةً ضمته الزيتونة أستاذاً ومربياً، وفي أيلول من عام ١٩١٢م، غادر تونس وزيتونتها، وفي نفسه حرقة وفي ضميره ثورة، وفي العين عبرة...

الرحيل:

لماذا يرحل هذا الطود الشامخ من العلم؟
أمله الأهل والأحبة؟ أم ملّ هو من الأهل والأحبة...؟
لا... كل هذا لم يكن...

لقد لوّثت أقدام الغزاة الفرنجة التراب التونسي العبق في يوم حزن من عام ١٨٨١م، كما فعلوا قبل خمسة عقود من السنين في القطر الجزائري الحبيب.

هَبْ عالِمنَا الكبير للجهاد لا بالسلاح، ولا بالدم، فالاستعمار قد أناخ بكلكله السمج على بلاده الجريحة، وإنما بالقلم والفكر يبعث الروح، والأمل المتشوف إلى فجر مشرق لا بدّ أن يأتي بعد الليل المدلهم...

ولذلك فقد أصدر مجلة «السعادة العظمى» وأسّس بنيانها على العلم، والعقل، وجعل رسالتها الدعوة إلى الدين الحنيف، بتمسير آيات التنزيل العزيز، وشرح الحديث الشريف، وترسيخ العقيدة الصحيحة لردّ كيد الضالين المضللين، وإرساء قواعد التشريع العظيم في الحياة بكل أبعادها، ونشر الأخلاق والفضيلة،.. كل ذلك بلسان عربي مبين^(١)...

كانت هذه المجلة صرخة عنيفة في ضمير الأمة كي تنهض من كبوتها؛ وتذكر التخلف الذي أدى بها إلى أن تقع مهينة العزة تحت الاحتلال..

وكانت وخزة مرّة في جنب العدو المستعمر تنخر في حياته، ولا بد أن تأتي عليه..

وزاد في أثر هذه المجلة الغراء أن بيت صاحبها غدا ثورة للفكر والأدب والثقافة والوعي الاجتماعي...

لكل هذا وذاك عمد المحتل الغاشم إلى المجلة فأغلقها بعد أقل من عام من صدورها، وكان العدد الأخير يحمل الرقم الحادي والعشرين، وقد صدر في ذي القعدة ١٣٢٢هـ.

فهل يسكن الثائر المجاهد، ويستكين؟..

ها هو ذا بعد سنتين من وأد المجلة يقف بِشَمَم وإباء في عام ١٣٢٤هـ يلقي محاضرة في تونس بدعوة من جمعية «قدماء تلامذة الصادقية» بعنوان: «الحرية في الإسلام»^(٢) قبض فيها قبضة من أثر الدين الخالد، ونشرها على الحاضرين، بل على مجتمعه بأسره؛ جواهر تصف الحرية،

(١) مقدمة العدد الأول من المحلة الذي صدر في ١٦ محرم ١٣٢٢هـ. تحدد رسالة المحلة ومهجعها.. وعندي أن هذه المجلة، ومجلة «العروة الوثقى» التي أصدرها في باريس جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده قد أحدثتا ثورة فكرية، على فِصْر حياتهما، لم تعرفها الصحافة العربية (سعدى).

(٢) محاضرات إسلامية (سعدى).

ومعناها، والمشورة ومبناها، والمساواة بين السيد والمسود، والأمير والمأمور، وتحدث عن حرمة الدماء والأعراض والأموال..

في مستهل كلمته حمل على المستعمر، ووصف الأمم التي تبيع لنفسها استعباد الأمم الأخرى، فقال: «الأمم المتوحشة يستهوي بها الاستئثار بالمنافع والنفيس من الفوائد أن ينسل أولو القوة منها نحو أموال الذين استضعفوا، ويضولوا عليها صيال الوحوش الضارية، ثم ينصرفوا بها إلى مساكنهم غير متحرّجين من أوزارها، كأنما انصرفوا بتراث آبائهم وأمهاتهم، أو خصّهم الله بما خلق في الأرض جميعاً»..

وأخيراً طفق الحقد من قلب المستعمر، وكُلُّ إناء بالذي فيه ينضح، فأحكم التضييق على علامتنا الكبير حتى حمله على الرحيل عن الوطن، وأهداه بعد حير وسام العز الرفيع، حكم الإعدام، الذي يزين عنق المجاهدين..

أعلمتم إذن سبب الرحيل..؟

فإلى أين سيتجه يا ترى..؟

في دمشق:

إنه في دمشق، عاصمة المجد الإسلامي الخالد، لا يعرف أحداً، ولا يعرفه أحد.. ولكن هل تخفى الشمس؟..

وفي عصاميّة عجيبه، انطلق وراء رزقه، ورزق عياله، يعمل في مدارسها، حتى اندفعت إليه نخبة مختارة من كرام أبناء هذه المدينة العتيقة، تنهل من ندير علمه العذب، ومن شخصيته الفذة، ومنهم أستاذي الكبير علامة الشام محمد بهجة البيطار عليه رحمة الله ورضوانه.. ومن حديث شيوخه وقعت في نفسي الهمة الشماء، والعصامية الأبية التي كان يتحلى بها الشيخ الكبير..

ومرّت الأيام.. حتى كان يوم نحس من عام ١٩٢٠م حين دخل

الفرنسيون دمشق على جماجم أبطالنا في ميسلون، إنهم نفس الغزاة، حملة رائحة الاستعمار والاستعباد التي تلوّث جو الكون، الذين احتلوا المغرب العربي وشرطاً من أرض الشام..

فإلى أين يذهب العلامة المجاهد..؟ إلى أين..؟

في مصر:

إلى القاهرة يَتم وجهه، وذلك في عام ١٩٢٢م، كما فعل العديد من كرام رجال الوطن السوري..

وهنا ندخل في طور جديد، وسعيد في حياة الجهاد التي عاشها علامتنا الجليل...

في دنيا العلم أحرز قُصْب السَّبْق، ها هو في الأزهر الشريف يدرس الفقه في كلية أصول الدين، ثم يقدّم رسالة علمية رائعة «القياس في اللغة العربية» ينال بها عضوية هيئة كبار العلماء..

اختياره شيخاً للأزهر:

وفي عام ١٩٥٢م تمّ اختياره شيخاً للأزهر، ولقي وَجْهَ رَبِّه سنة ١٩٥٨م.

أما في دنيا الجهاد، التي عنها نتحدّث، فهل خَبَثَ جذوته في نفسه الكبيرة؟.. وفي القاهرة ما فيها من علوم وعلماء، ومن دراسات وأبحاث، ولا سيما بعد أن أصبح عضواً في المجمع اللغوي فيها، وفي المجمع العربي بدمشق؟

لا.. لن يكلّ السيف المُشرع تحت راية الجهاد الحق حتى تتحرر بلاده، أو يهلك دون ذلك..

هو في القاهرة، وقلبه يحمل وطنه، وما يُعاني... أتريد أن تلمس

وهج حبّ تونس في هذا الفؤاد العامر؟ ترثم معي إذن بهذه الأبيات التي انتقيتها لك من شعره^(١):

وطني علمتني الحب الذي يدع القلب لدى البين عليلاً
لا تلمني إن نأى بي قدر وغدا الشرق من الغرب بديلاً
عزمة قد أبرمتها همّة وجدت للمجد في الظعن سبيلاً
أنا لا أنسى على طول النوى وطناً طاب مبيتاً ومقيلاً..

بل هو يعجب من شعراء عكفوا على اللهو والمجون، ووطنهم يعاني ما يعاني..

وأفنع الشعر ما هاج الحماسة في شعب يقاسي اضطهاد الجائر الأشر
من ذا يقيم على أرض يظللها ضئيم ويحسن وصف الدل والخور

وتعاوده ذكريات صباه في تونس، فيجد شيئاً من حُلوها، إلا أنه ينقلب علقماً في نفسه حين يرتدّ إليه طرفه مشمئزاً من صورة جيش الاحتلال، فيقول:

ليالٍ قضيناها بتونس ليتها تعود وجيش الغاصبين طريد
.. نعم.. لقد عاد لتونس أريج الحرية، بفضل الله سبحانه، لأنه أقدرك - يا سيدي العلامة - على النضال الذي كنت تُغذي به رجال السياسة والعلم والأدب، حين كانوا يتوافدون إلى دارك العامرة، وإلى رابطة «تعاون جاليات أفريقيا الشمالية» التي أسست، والتي قامت بعقد المؤتمرات والندوات لشرح قضية المغرب العربي للعرب، وللمسلمين، وللعالم^(٢) وإلى «جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية» التي لعبت دوراً رائعاً في وحدة النضال عند شباب المغرب العربي الأحرار..

(١) ديوان «خواطر الحياة» (سعدي).

(٢) رفع علامتنا الكبير مذكرة إلى دول العالم شرح فيها مساوئ الاحتلال الفرنسي، وقد نشرت في كتاب: «تونس وجامع الزيتونة»، ص ١٢٨ (سعدي).

كيف ينسى تونس الخضراء، وهو الذي ألقى المحاضرات، وكتب الدراسات المستفيضة عن الحالة العلمية في ذلك الوطن، وقدم بأدب وفخر واعتزاز للمجتمع المصري أعلاماً من تونس لم يكن لاسمهم. ولسيرتهم من ذكر في مصر^(١) فأني تعبير عن حب الوطن، والوفاء له، أصدق من ذلك..

هو في القاهرة، بين إخوته، فعليه إذن أن يؤدي شرف الأمانة الذي يحمل، وأن يُقدّم لهم كل ما يُمليه عليه ضميره من واجب النصح، والعمل البناء.. الهادف..

ولذلك كان المعلم الأمين.. وكان المرشد الصالح، والفرابي الصدوق..

وجَد في مدارس الدولة تقصيراً في التعليم الديني، فوجّه المذكرات للسلطة لإصلاح ذلك^(٢).

وسمع بانحراف بعض أساتذة الجامعة عن أصالة الفكر العربي، فحذّر من ذلك وزارة المعارف، ونبه على الخطر الذي ينزل بالأمة بسبب التهاون، والتغاضي عن ذلك.. وصدق.. لأن النار من مُستَضْعَر الشرر.



تأسيس جمعية الشبان المسلمين والهداية الإسلامي:

هو في القاهرة، وما يشغله حبّ وطنه، ولا خدمة المجتمع الذي يعيش فيه عن خدمة دينه وشريعته..

ولذلك فقد اشترك في تأسيس (جمعية الشبان المسلمين) التي كانت في طليعة الجمعيات الهادفة إلى تربية الشباب المسلم تربية صالحة قويمة..

(١) تونس وجامع الزيتونة (سعدي).

(٢) الدعوة إلى الإصلاح، ص ١٤٨، ١٥٩ (سعدي).

ومن فكره البناء ولدت (جمعية الهداية الإسلامية)، وكان هدفها «أن تعرض حقائق الدين الحنيف وحكمة تشريعه في صورتها الخالصة النقية، وأن تبحث في تاريخ رجال الإسلام من العرب وغير العرب، وأن تنبه على ما كان لهم من عبقرية في العلم، أو فضل في البيان، أو شرف في الأخلاق، أو رُشد في السياسة...»، وأن تعمل على رفع التجافي بين الفرق الإسلامية، ولعلها تستطيع بتأييد الله وبوسيلة مجلتها^(١) الضاربة في الشرق يميناً وشمالاً، أن تضع مكان التجافي إلفة وسلاماً، وإذ عزَّ على زعماء هذه الفرق الوصول إلى تقليل مواقع الاختلاف في الآراء، فلا يعزَّ عليهم أن يخففوا وقعه في القلوب ويكفوه عن أن يشيع فيها فاحشة التقاطع والقصد إلى الأذى...».

نقض كتاب «في الشعر الجاهلي»:

وحين طلع على العرب طه حسين بآراء في الشعر الجاهلي؛ استقاها من مدرسة الاستشراق، من مرجليوث واستيلانا على وجه الخصوص، وفيها ما فيها من ثيل يمسُّ الإسلام في كتابه الكريم، هَبَّ علامتنا الكبير للرد على ذلك بعنف، وصدق لهجة، وكذلك فعل أديب العروبة والإسلام مصطفى صادق الرافعي في كتابه الرائع: «تحت راية القرآن» وأكرم بها من راية..

نقض كتاب «الإسلام وأصول الحكم»:

وحين طلع مصطفى عبدالرازق على العرب بكتاب: «الإسلام وأصول الحكم» وفيه يجعل ديننا الذي اختاره الله سبحانه ليكون نوراً للبشرية في مسيرة حياتها، مجرد عبادات وأذكار فحسب، نهَّد أستاذنا الكبير، وهو فارس هذا الميدان، للرد على ذلك، وإظهار ما في هذا الدين الخالد من نظام شامل لشؤون الحياة في السياسة وأصول الحكم،

(١) مجلة الهداية الإسلامية (سعدي).

وفي الفقه والمعاملات، وفي تنظيم أمور المجتمع على أقوم نظام،
وأعدل تشريع.

وبعد:

إنها سيرة مجاهد، لتحرير الوطن من العبودية، ولتحرير فكر الأمة من
الجهل، والتخلف، ولإعمار ضميرها بالعقيدة الصحيحة، والخلق التويم،
والرجولة، والشهامة، ولجعل لسانها عربياً مبيناً لا عوج فيه، ولا أمتاً..

إنها مسيرة عالم عاش في ضمير أمته، وعاشت أمته في ضميره..

أليس كذلك؟





بقلم: نهاد القاسم

كلمة مجلة الحضارة:

"ولد رحمه الله في مدينة حمص من أسرة علمية تحمل رسالة الشريعة إمامة وتديراً. وابتدأ حياته العلمية معلماً في مدرسة ابتدائية، ولما شبت نار الثورة السورية ضد المستعمرين الفرنسيين كاد من بين مجموعته من الشباب الأبطال الذين أسهموا في الثورة وكان من نصيبه السحب فترة طويلة، ولما انتهت الثورة طُل مُقَصَّباً عن الوظائف عقوبة له على وظيفته. ثم التحق بالقضاء وما زال به خلفه واستقامته برفقاً به حتى وصل إلى أرفع مكان فيه حتى احتراره المجلس النيابي السوري عام ١٩٥٠م، عَصُوا في المحكمة العليا وهي أعلى محكمة في الدولة يومئذ، ولما وقع انقلاب الشينكلي المعروف ضد الأوضاع الدستورية في البلاد كان أحد الأعضاء الثلاثة الذين أنوا أن يكتفوا بأبائهم التي أفسدوها يوم تزلوا عليهم في المحكمة العليا وهي احترام دستور البلاد وفوايتها، فاستقالوا عبر عانين تهديد ولا وعيد، ولما عادت الأوضاع الدستورية بعد زوال عهد الشينكلي أحضر أعضاء البرلمان على إعادته وإخوانه إلى المحكمة العليا، ولما قامت الجمهورية العربية المتحدة أخيراً وكيلاً لمجلس الدولة، وظل فيه حتى توفاه الله مرضياً عن حلقه واستقامته وبقاء صباه وتقواه وصلاته في الحق وبراهته، فعاش عمره كله قلل ذات البد لم يجسج ثروة ولا مالاً، وإنما حلف أولاداً رباهم على عيده، فكانوا مثلاً لاستقامة الشباب وخس تربيتهم وأحلافهم.

وقد أقيم له حملة نأبينية كبرى في مدينة حمص تحت رعاية سيادة وزير العدل التنقيدي، تبارى فيها الأدباء ورجال القضاء في تعداد مفايده، وبيان الحسارة بفقهه رحمه الله، وشتر فيما يلي الكلمة الليفة الرائعة التي ألقاها الأستاذ نهاد القاسم وزير العدل في الإقليم السوري".

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة الأولى (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م). وهذه أول ترجمة وردت في ركن: "رجال فقدناهم" في مجلة "حضارة الإسلام".

كلمة الأستاذ نهاد القاسم وزير العدل

كان - رحمه الله وعطر ذكره - رجلاً، وما أقل الرجال في مثل هذه الأمم التي خرجت إلى الدنيا تجرُّ أثقال الحديد، وتحمل على كتفها أعباء الاستعمار، وتتحسس في يديها مواقع القيد، ويعيش في أسماعها قصف المدافع، وفي عينيها بريق النار، وأطلال المدن المهدامة والقصور المنهوبة، ويدخل اليأس في قلوبها حتى الشغاف، ولا يبين لها من معالم الطريق إلا أضواء خافتة على الأفق البعيد هي إلى السراب أدنى منها إلى النور، وإلى الإنذار بالموت أقرب منها إلى التبشير بالحياة.

رجولة مبكرة:

أجل، كان - يرحمه الله ويُندَى مَنَواه - رجلاً، استوت له رجولته مبكرة، لم يولد وفي فمه ملعقة ذهب، ولكنما ولد وفي قلبه شعلة من طهر، وصعد سلّم الحياة من أدنى درجاته، فكان معلماً في مدرسة ابتدائية، ثم كاتباً في محكمة... وقدر له أن يبدأ خطّ حياته مستقيماً، وما كان له أن يلتوي بعد ذلك، على عنف الأقدار ومرارة الأكدار وقساوة المراحل، وظلّ يذرع العمر، عينٌ في الأرض تجملاً وحياءً، وعينٌ في السماء تطلعاً وطموحاً، حتى استطاع أن يغادر كاتب الضبط هذا مكتبه في الديوان إلى منصّة القضاء، ليكون هو الذي يُملي الضبط، ولتعيش على شفّته صولة الحق، ويهدر صوته بمحاربة الباطل، فإذا شفّته تشرفان أبداً بأنهما لم تنطقا إلا الحق الذي اعتقده، وإذا هذا الشرف بريق في عينيه، وخيلاء على جبهته، وإباء في أنفه. وإذا الباطل يخافه ويخشاه فلا يقع له في طريق.

في القضاء:

وفي القضاء كان يرحمه الله قاضي الجنة. كان قاضي الجنة صلابه

وعزماً، وكان قاضي الجنة رافة ورحمة، وكان قاضي الجنة الذي لا تعرف إليه الشبهات سبيلاً.

واستطاع الشاب المَعَمَّم الأسمر لا أن يكون قاضياً نزيهاً فحسب، وإنما استطاع أن يكون كذلك قاضياً صاحب رأي، يحكم هذا الرأي وبرمه ثم يصوغه ويصقله، ثم يقف من دونه مدافعاً عنه، ويشهد الله، ما كان دفاعه عن واحد من أبنائه في مثل دفاعه عن واحد من آرائه... وما أشد ما جرَّ عليه هذا الوقوف دون الرأي في مراحل حياته كلها من أسى وشدة، ولكنه كان يفجر في صميم هذه الشدة ألواناً من الفرح، ويحيل الأسى بكيمياء عجيبة، هي كيمياء الضمير الذي لا يزول ولا يذل، مباهج وأفراحاً، ولقد عاش في هذه المباهج والأفراح الخفية التي لا يقع عليها إلا الأقلون طول حياته، وإنك لتعيش فيها - يا أبا سعيد - كذلك اليوم في أنوار الله مع الأتقياء الأنقياء الخالدين.

طرفان متنازعان:

وفي الحياة - أيها السادة - دائماً هذان الطرفان المتناقضان المتنازعان: قد تختلف أسماؤهما، ولكن العلاقة بينهما تظل دائماً هذا النزاع الذي لا يعرف خموداً ولا هدوءاً... إنه في بعض مستوياته نزاع بين الخير والشر، وفي بعض أسمائه نزاع بين الحق والباطل، إنه في نطاق الدين نزاع بين الإيمان والكفر، وفي دنيا القضاء نزاع ما بين الضعيف والقوي، والظالم والمظلوم، وفي الحياة نزاع ما بين اللقمة الحلال واللقمة الحرام، والبطن المنتفخ والبطن الضامر، وتفش ما شئت في أسمائه، فسّمه النزاع بين اليد الدنيا واليد العليا، بين المعدة والضمير، بين العين المبصرة التي تُغضي حياءً، والعين العشواء التي تحملق وقحة... ومن منا لم يشهد هذا الصراع؟ أينما الذي لم يخضع له، ولم تزحف به قدماه ذات مرة في الطريق أو في بعض الطريق إليه؟ أينما الذي لم يسمع الشيطان في ألف صوت من هذه الأصوات المحجبة

المقنعة التي تبدو وكأنها ألوان لا حصر لها؟ أينما لم يره في ألف صورة من الصور التي نعهدها في الحياة والتي لا نعهدها؟

وقد كان أنيس - كأني واحد منا - هدفاً لهذا الصراع، ولكنه استطاع برحمه الله، أن يجوز التجربة في نجاح، وأن يخوض المعركة في ظفر... ما أكثر ما مرّت به السنوات العجاف من غير أن يدخر لهنّ من سبع سمان قبلها، فما عرف السبع السمان في الدنيا وإنما أرجأها إلى الآخرة... ما أقسى ما كان فيه من غير أن يدري به أحد من الأرض إلا خلّص إخوانه، أما السماء فكانت تبني له قصره في الجنة الذي يعيش فيه، وتأتيكم ذكرياتكم الساعة حوله مضمخة بعبيره وريحانه.

أجل، لقد كان أنيس - أنس الله وحشتك يا أبا سعيد بما قدمت من عمل صالح - من هؤلاء الذين آثروا جانب الحرمان، والتزموا في مواقف النزاع الإنساني هذه الجهة الأخرى، التي تنظر وتعف، وترى ولا تمد اليد، وتحرقها الحاجة فتَهْزَأ من الحاجة، وتحرقها هي بنار الصبر، وتجهها الأيام فلا تزيدها الأيام إلا عزمًا، وتمرُّ بالصراط الذي يفصل بين هذين الطرفين المتناقضين المتنازعين في الدنيا، الصراط الضيق كأشد ما يكون الضيق، فيخيل إليك أنها تمضي في الطريق اللاحب الواسع، وكأنما تنبت لها أعمالها الصالحة أجنتها التي تعدو بها في طلاقة ويُسر.

ولم يكن القضاء في مراتبه الأولى هو الذي استطاع أن يجلو أنيس الملوحي، وأن يكشف عن جوهره، وأن يتيح لإلفه أن يملأ قلوبنا إجلالاً وأعينا تقديرًا، وإنما كان القضاء في مراتبه البعيدة محكًا للجوانب الأخرى للشيخ أنيس.

عضويته في المحكمة العليا:

والمراتب العليا، أيها السادة، قد تُغري بالمهادنة بعض الذين يبلغونها من أقصر طرقها، وقد تُغري بالكسل بعض الذين تستنزف المراحل الأولى

ما عندهم من قوة وجهد... أما فقيدنا فقد كانت عضويته في المحكمة العليا امتحاناً آخر، وكأنما جمعت له الدنيا أقصى ما عندها من إغراء وما لديها من خداع، وازينت له، ولكنه اعتصم بالله منها واستعان عليها، وقال لأولئك الذين قاموا بالانقلاب: إنكم خرقتم الدستور... ومضى، ولكنه لم يقلها في صوت مهموس، ولم يلق بها إلى واحد من خلّائه بعد أن التفت عشر مرات يَمْنَةً وَيُسْرَةً، مخافة أن يكون قد ركب للحائط أذنان... ولم يبدّها خجولة مُتَعَثِّرَةً على خجله الحلو، ولا حيية على حياته الكثير. ولم ينظر إلى الكرسي من تحته، ولا إلى رئيسه من حوله، ولا إلى صاحب السلطان من فوقه... وإنما ارتفع بصره إلى أعلى من ذلك... إلى الله، ولم يضع يده في يد زميل أو صديق، ولم يتحسّس جيبه ما فيه وما عنده، وإنما وضع يده على ضميره، ثم قدم مع زميله - رحم الله مَنْ مَضَى وَمَدَّ في عمر من بقي - استقالته، وليس في جيبه وفر، ولا في حسابه رصيد، ولا بين أولاده كبير، ولا في أسرته غني، وإنما مضى، بين بُرْدِيهِ عَزَّتْهُ، وفي رأسه رأيه، وفي قلبه حلاوة الاطمئنان إلى أن يكون للرأي مكانة في مواقف الحياة.

ألسنة الخلق أقلام الحق:

وألسنة الخلق - أيها السادة - أقلام الحق، وكأنما كانت أقلام الحق في هذه المرة في صفحة أنيس، إجماع النواب على إعادته إلى مكانه بعد أن استعادت الحياة الدستورية سيرتها، وإجماع النواب أو كثرتهم الكاثرة على تأكيد الثقة به، وتجديد التقدير لمكانه من الرأي الحر والعقيدة الواضحة.

ويشاء الله لأنيس أن تكتحل عيناه بأروع أحداث تاريخ العرب المعاصر، بالوحدة بين سورية ومصر، هذه الوحدة التي ستكون أبعد الأشياء أثراً في مستقبل كل هؤلاء الذين ينتشرون على هذه البقعة الواسعة من الأرض التي تسود فيها العربية، وتوَجَّت الوحدة جهاد أنيس، فجعلت منه مستشاراً، ثم وكيلاً لمجلس الدولة.

أما ما بعد ذلك - أيها السادة - فاعفوني من ذكره... يا ظهر السرير الذي سمع وحده أنات الألم المكبوتة مدى سنتين، وشهد أنيس يتململ ولا يستطيع، ويتحرك ولا يملك، وضم الرجل المتعد الذي عجزت أن تقعه الأحداث كلها عن أن يقول كلمته، ولكن المرض أقعده... وكأنما كان ذلك الابتلاء الأخير الذي ابتلى الله عبده الصالح ليجعل طريقته إلى الجنة أجنحة الملائكة وتحيات الصديقين.

في الحياة - أيها السادة - ناس تلقاهم مرة أو مرات، فتحس كأنك عشت معهم العمر كله، وتجد في نفسك وكأنما نبتت بينك وبينهم وشانج. أصلها في السماء، ومداها في أعماق النفس، وشعبها أجواء الحياة كلها.

وفي الحياة من تلقاهم كل يوم ولكنك تجد الحاجة إلى أن تزيح ظلالهم لو أمكن أن يزاح الظل من طريقك حتى تفسح لغيرهم المكان.

ولقد كانت معرفتي بالمغفور له أنيس من هذه المعرفة الأولى، اتصالاً، ثم فصلت بيننا مراكز العمل، ولكننا كنا نشعر أنه دائماً في نفوسنا.

أقول: كنا نشعر، ومعاذ الله من قولة (كنا) هذه - أيها السادة - إننا نشعر الآن - وسنظل - أن أنيساً معنا... ألسنت أنت أيها الروح الذي يرفرف بيننا... سلام عليك ورحمة الله وبركاته يا أبا سعيد، سلام عليك في الخالدين ومع الشهداء الصالحين^(١).



(١) أوردت المجلة بعد هذه الكلمة قصيدتين في رثائه: الأولى لشاعر حمص الأستاذ رضا الصافي، والثانية لشاعر العاصي الأستاذ بدر الدين الحامد.

الفقيد في سطور

- * ولد سنة ١٩٠٠م، بمدينة حمص.
- * عام ١٩٢١م، تولى رئاسة صندوق الأيتام بدمشق.
- * عام ١٩٢٥م، قبض عليه الفرنسيون مع عدد من كرام المجاهدين من بينهم رشيد الملوحي.
- * في أيلول ١٩٢٦م، أفرج عنه وعن إخوانه.
- * في عام ١٩٢٩م، تخرج في كلية الحقوق وعين قاضياً في دوما.
- * في عام ١٩٤٨م، عين عضواً في محكمة التمييز.
- * في عام ١٩٥٠م، عين عضواً في المحكمة العليا.
- * في عام ١٩٥٢م، استقال منها على إثر انقلاب الشيشكلي.
- * في عام ١٩٥٤م، أعيد انتخابه للمحكمة العليا.
- * عُيّن بعد الوحدة مستشاراً في مجلس الدولة ثم وكيلاً له إلى أن اختاره الله إلى جواره.



هاشم الأتاسي (١)

(١٢٩٢ - ١٣٨٠ هـ)

(١٨٦٩ - ١٩٦٠ م)

بقلم

مصطفى السباعي



انطفأت شعلة من شغل الجهاد العنيد النبيل الذي أضاء للعرب عامة ولأبناء الإقليم السوري خاصة، طريقهم إلى الحرية قرابة سبعين عاماً منذ تولى العمل الحكومي بعد تخرجه من حقوق استانبول عام ١٨٩٤م، إلى أن لقي ربه في الشهر الأخير من عام ١٩٦٠م.

تاريخ أمة، وأمجاد شعب، وعنوان كفاح، ورمز استقامة، ومثل نزاهة... ذلك هو الفقيه العظيم «هاشم الأتاسي».

(١) حضارة الإسلام، العدد السابع، السنة الأولى: (١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م).

كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي:

قاد هاشم الأناسي معركة الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي في سورية مع عدد من إخوانه في مقدمتهم إبراهيم هنانو، وسعد الله الجابري رحمهما الله، وشكري القوتلي مد الله في حياته^(١)، في وقت كان فيه الاستعمار يرمي بأثقاله على البلاد، والأمة تغلي غليان المحموم من وطأة الطغاة المستعمرين وأذنانهم، فوجدت فيه القائد الأمين، والربان الماهر، والرعاية الحكيمة التي لا تضطرب عند اضطراع الأهواء، ولا تجبن عند اشتداد الأنواء.

رئاسته الجمعية التأسيسية ثم رئاسة الجمهورية:

وسلمت إليه برئاسة الجمعية التأسيسية عام ١٩٢٨م، ثم برئاسة الجمهورية عام ١٩٣٦م، فاستند إيمانها بقيادته وزعامته للقضية الوطنية والحكم الوطني، من حيث ترعزت ثقتها في كثيرين ممن كانوا يتعاونون معه في الكفاح السلبي، ثم في دور البناء الإيجابي، وما كاد يغادر مضّة رئاسة الجمهورية طاعاً محتاراً عام ١٩٣٩م، بعدما بدا من سوء نوايا الفرنسيين وتصميمهم على جعل استقلال سورية أمراً شكلياً يخفي وراءه أبشع مطامع الاستعمار الفرنسي وأخسها، حتى أصبح هاشم الأناسي زعيم الأمة الأمين غير مُنازع، وبطل القضية الوطنية غير مثّم ولا مغموز في سيرته وإخلاصه..

رئاسته الثانية للجمهورية السورية:

ثم احتاجت إليه البلاد مرة أخرى بعد انقلاب الحناوي على حسني الزعيم، فسلمته رئاسة الدولة برئاسة الجمهورية مرة أخرى عام ١٩٤٩م، يُشرف على توجيه الحكم، ويرعى أمانة الدستور، ويذود عن حقوق الأمة. فلما حصل انقلاب الشيشكلي غادر رئاسة الجمهورية مرة أخرى،

(١) توفي سنة ١٣٨٧هـ الموافق ١٩٦٧م عن ٧٦ عاماً رحمه الله تعالى.

مرفوع الرأس، موفور الكرامة، غير ناكث بيمينه الذي أقسمه على حماية الدستور وكفالة الحريات، ولا وجل من طغيان صاحب الانقلاب وبطشه، وما كان الشيشكلي بالذي يجرو أن يقترن من هذا الطود الشامخ فيوهي قزنيه، ولا بالذي يستطيع أن يُسخره لأهوائه وشهواته كما استطاع أن يفعل مع بعض مُحترفي السياسة يومئذ، ممن انكشفوا عن وصوليين أنانيين لا يرعون لهذا الوطن إلا ولا ذمة.

أخلاقه وشمائله:

لقد قُدِّر لي أن أعرف الفقيد العظيم، وما تنطوي عليه نفسه الكبيرة من شَمَم ونقاء خلال السنوات التي انقضت بين وضع الدستور السوري في الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩م، وبين انتهاء رئاسته الثانية للجمهورية عام ١٩٥٦م، وشهد الله ما رأيت أنبل منه نفساً، ولا أصفى منه وطنية، ولا أبعد منه بصيرة، ولا أعفّ منه يداً ولساناً.

ولقد كان حين تشند الأزمات في الحكم أو في الجمعية التأسيسية أو في المجلس النيابي، يستطلع رأي كل كبير وصغير، وكان وهو يستمع إلى ما تُبدي من آراء وما تُقدّم من حلول، يُصغي إلينا - ونحن في سنٍّ أصغر أبنائه حديثو عهد بالسياسة ومزالقها - كما يُصغي الأخ إلى أخيه، لا يُدلّ علينا بماض من جهاد أو رئاسة، ولا يُستعلي علينا بفارق من سنٍّ أو تجربة، وإنما كان يوازن بين الآراء، ويقارن بين المقدمات والنتائج، ثم يستخير الله في الأمر يبدو له، فإذا شرح الله صدره أقدم عليه غير متنكر لمن خالفه، ولا مئان على من وافقه..

التزامه حدود الدستور:

ومن أبرز ما كان يتّصف به من خلق مكن له في قلوب الأمة، أنه لم يكن يتجاوز حدود الدستور، ولا كان يُداري في الحقّ عظيماً ولا كبيراً، ولا ينحاز في تولية الوظائف، والأعمال العامة إلى قريب أو صديق، ولقد

كان من عائلة كريمة كبيرة في حمص، ولكن أحداً لا يستطيع أن يزعم أنه خلال رئاسته الأولى والثانية، قَرَّب من أقربائه مَنْ لا يستحقون التقريب، أو أبعد من غيرهم من لا يستحقون الإبعاد، بل كان كلُّ همِّه أن يُقَرَّب الصالح للأمر ولو كان من أعدائه، ويبعد الفاسد ولو كان من أقربائه أو أصدقائه، ومع ما كان يبدو عليه في أواخر أيام رئاسته الثانية من ضيق صدر في معالجة بعض الأمور مما يراه غير ملتئم مع المصلحة العامة، فقد كان الجميع يتقبلون منه «جِدَّتَه» وغضبه أحياناً بالرضى والهدوء، كما يتقبل الابن مثل ذلك من أبيه، غير شاكٍ في إخلاصه وحبه ونصحه.

مَثَلٌ حَيٌّ لِمَا يَرْجُوهُ الشَّعْبُ فِي قَائِدِهِ:

كان هاشم الأتاسي في حياته مثلاً حياً لكلِّ ما يرجوه الشعب في قائده من أمانة واستقامة وحكمة ونزاهة، وكان مما أعانه على ذلك أمران: دين يحمله على أداء شعائره، ويُلجئه عند الشدائد إلى ربِّه وخالقه، ومُنْبَتٌ عريق في الثُّبُل والسماحة ينزع به إلى أخلاق آبائه وأجداده، وما اجتمع هذان الأمران في زعيم إلا أكرماه باستقامة الطريق، ونقاوة الذمة، وبقظة الضمير، وترفعاً به عن الإسفاف إلى مراتع الأهواء والشهوات.

رحمك الله يا «أبا سري»، وأغدق عليك سحائب رضوانه وأنت - إن شاء الله - في جنات الخلود، فلقد علّمت أجيالاً من شباب هذه الأمة كيف يعيشون في الحياة نبلاء، ويمشون إلى الموت شرفاء، ولقد سجّلت في تاريخنا الحديث صفحات من شرف القيادة، ونبل الزعامة، تكاد تلحق بمثيلاتها في تاريخنا القديم.. وإنا لله وإنا إليه راجعون..



حياة الفقيه العظيم في سطور

- * ولد في حمص عام ١٨٦٩م، وهو نجل المرحوم خالد الأتاسي مفتي حمص سابقاً وشارح المجلة.
- * متزوج، وله أولاد وأحفاد، يتقن العربية والتركية، ويلم بالفرنسية.
- * تلقى علومه الابتدائية في حمص والثانوية والعالية في الآستانة من المكتب الملكي.
- * بدأ حياته كمأمور بمعية والي بيروت عام ١٨٩٤م، ثم عين قائم مقام في عكا عام ١٨٩٧م، فمتصرفاً في مدينة بيروت عام ١٩١٣م.
- * كان عضواً في المؤتمر السوري الأول عام ١٩١٩م، وانتخب رئيساً لهذا المؤتمر عام ١٩٢٠م.
- * شكل الوزارة السورية الأولى عام ١٩٢٠م، وهي الوزارة التي حاربت دخول فرنسا إلى سورية.
- * انتخب نائباً عن حمص في الجمعية التأسيسية عام ١٩٢٨م، ثم رئيساً لهذه الجمعية التي قامت بوضع الدستور السوري.
- * وفي عام ١٩٣٦م، جُدد انتخابه نائباً عن حمص، وترأس الوفد السوري الذي سافر إلى باريس للمفاوضة من أجل عقد اتفاقية الاستقلال.
- * وفي عام ١٩٣٦م، انتخب رئيساً للجمهورية السورية، وظل بهذا المنصب حتى عام ١٩٣٩م.
- * دعي لتأليف الحكومة السورية الانتخابية التي جاءت إلى الحكم عقب الانقلاب الذي قاده سامي الحناوي ضد طغيان حسني الزعيم.

- * عقب الانتخابات التي جرت عام ١٩٤٩م، انتخب مرة ثانية رئيساً للجمهورية عام ١٩٤٩م، وظل فيها حتى عام ١٩٥٢م. عندما عطل أديب الشيشكلي الحياة الدستورية في البلاد، فاعتزل الأتاسي الرئاسة ونزل إلى صفوف الشعب يقاوم الطغيان.
- * وفي عام ١٩٥٤م، عاد إلى الرئاسة التي قضت على عهد الشيشكلي، وظل فيها حتى مطلع عام ١٩٥٦م، عندما أُعيد انتخاب فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيساً للجمهورية.



الشيخ أبو نخير المبداني^(١)

(١٢٩٠ - ١٣٨٠ هـ)

(١٨٧٥ - ١٩٦١ م)

بقلم: عمر عودة الخطيب

في يوم السبت السابع عشر من
رمضان المبارك عام ١٣٨٠، شيعت
دمشق المسلمة بقلوب خاشعة، وعيون
دامعة، عالماً جليلاً، ومُصلحاً كبيراً،
جاهد في سبيل الله شاباً وكهلاً، وعمل
لرفع راية الإسلام وإعلاء كلمة الله شيخاً
كبيراً...



ودمشق المؤمنة سخيّة في شعورها

الضادق، تعرف قدر الرجال المصلحين، والعلماء العاملين. تُجلّهم في
حياتهم، فتسمع إن أرشدوا، وتُجيب إذا نادوا...

تسير من خلفهم لنصرة الحق إذا ساروا، وتغضب لغضبهم - إن ساد
الباطل - إذا ثاروا...

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الأولى: (١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م).

تُسَلَس قِيَاذَهَا لِمَنْ ابْتَلَتْهُ فِي الشَّدَانِدِ فَإِذَا هُوَ قَوِيٌّ مَنِينٌ، وَتُسَلَم زَمَامُهَا لِمَنْ اسْتَهْدَفَ فِي مَسْعَاهُ رِضْوَانُ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ مُخْلَصٌ أَمِينٌ . .

هَكَذَا كَانَ شَأْنُ دِمَشْقَ مَعَ فَقِيدِهَا الْعَظِيمِ الشَّيْخِ أَبِي الْخَيْرِ الْمِيدَانِيِّ فِي حَيَاتِهِ وَيَوْمَ وَفَاتِهِ . . .

وَكَيْفَ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ وَالشَّيْخَ - طَيِّبَ اللَّهِ ثَرَاهُ - كَانَ سِيرَةَ عَطَرَةٍ، يَتَذَكَّرُهَا النَّاسُ فَيَتَعَطَّوْنَ، وَيَتَحَدَّثُ بِهَا الْعُلَمَاءُ فَيَسْتَرْشِدُونَ وَيُرْشِدُونَ، وَهُوَ سَجِلٌ حَيٌّ لَمَّا يَحِبُّ النَّاسُ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَكْرَمَاتِ، وَالْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ، وَالْوَرَعِ وَالزَّهْدِ، وَالْجَرَأَةِ فِي الْحَقِّ، وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ . . .

ولادته ونشأته:

نشأ أبو الخير في حي العقيبة - أحد أحياء دمشق الأصيلة - فقيراً، بعد أن رأت عيناه الدنيا سنة ١٨٧٥م، في ذلك البيت الذي أعمض فيه عينيه وودع هذه الحياة منذ أيام من عامنا هذا عام ١٩٦١م، وكان طبيعياً أن يختلف الفتى إلى المدارس كما يختلف إليها أترابه، ولكنه لم يكن كسواه من الطلاب الذين يتعلمون ويلهون ويُبَطِّرُهم الغنى ويُقَعِّدُهم الكسل . . بل كان أكثر زملائه جدّاً، لم يعرف أنه قَصُرَ يوماً في درس، أو توانى عن واجب . . وهو - برغم فقره - ينال في كل امتحان الدرجة الأولى، ويتفوق على غيره في كل علم وفن، حتى نال أعلى الشهادات وأرقى الدرجات . . وأترابه كلهم يُصَفِّونَه الود الخالص لما يتمتع به من لطف وإيناس، وخلق رفيع نادر المثال . .

متابعة دراسته في إستانبول:

وكانت (إستانبول) في مطلع هذا القرن الميلادي عاصمة الخلافة، ومقر الملك، فيها المدارس العالية، والمعاهد الكبرى . . فكان على مثل ذلك الشاب النابه أبي الخير أن يَشُدَّ الرُّحَالَ إِلَيْهَا، لينهل من معين العلم فيها، ويعود - من بعد - إلى دمشق وقد تحقّق أمله في أن يكون عالمها الفذ، وأديبها الفريد، ومعلمها الكبير . . .

واستقبلت (إستانبول) الفتى الذكي، ورعته خير رعاية، وأعجب به مُعلّموه، وغذوه بالعلم والمعرفة، وعقدوا عليه - لما رأوا منه - كبير الآمال.. ولكن رسالة صغيرة، كتبت بالدموع جعلت الفتى يجمع متاعه، ويودّع معاهد شبابه ومعقد آماله، ويعود لهيف الصدر إلى دمشق.. إنها رسالة الأم الباكية التي استبدّ بها الحنين وهزّها الشوق، فكتبت إليه تدعوه بدموعها، فأسرع يجفف بقبالاته هذه الدموع..

دراسته وتحصيله:

أكبّ الرجل هنا في دمشق على الدرس والتحصيل، وأقبل على العلم يطلبه، يصل في سبيله الليل بالنهار، في جدّ دأته، وعزيمة صادقة، فلا يدع حلقة درس تفوته، ولا يترك شيخاً إلا أفاد منه... وتمرّ الأيام بخلوها ومُرّها والرجل في رياض العلم يطوف، ومن تمرّها الطيب يجني.. ثم إذا هو بصفاء روحه ونقاء سريرته يسير في درب العلماء العاملين، ويتقدم حيثاً في مدارج السالكين.. ويصبح حديث الشام، يغدو إليه طلاب العلم من كل مكان، وفي زاوية صغيرة في حي الشيخ (العقيبة) تسمى زاوية (الآجري) كان يجتمع كل يوم من حول الشيخ طلاب العلم فيعلمهم العربية والفقه والقرآن والحديث والأصول والتوحيد، وكل علم فيه نفع في دنيا ودين...

دروسه في جامع التوبة وزاوية الآجري:

وكانت دروسه - في التوبة والآجري - حديث المجالس والندوات، لأنه - رحمه الله - كان يتخير دائماً الموعظة الصالحة، والحكمة الناصحة، يعالج بذلك ما بالناس من أدواء، ويصلح ما يسود المجتمع من انحراف، في أسلوب لطيف مؤثر، يهزّ القلب، ويهذب النفس.. ويرق ويلين حتى يلمس أوتار الشعور، ويستدر عبرة الخشوع..

الصورة الصادقة للمسلم الزاهد:

لم يكن الشيخ يتحدث بلسانه فحسب، بل كان مؤمناً حاضراً القلب،

يُرشدك حاله قبل مقاله، فلا تملك ألا تتأسى به، وتنهج نهجاً.. ذلك أنه - رحمه الله - إن دعا إلى خير كان أسبق الناس إليه، وإن أمر بمعروف كان أشد الناس عملاً به، وإن نهى عن منكر كان أبعد الناس عنه، لا تجد في مجلسه إلا أمراً بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، وإذا ذكر الله وجل قلبه، وإذا سمع آيات الله زادته إيماناً.. يوجه الناس إلى عدم التعلق بالدنيا وزخارفها فلا تجده إلا منصرفاً عنها، معرضاً عن مغرياتها.. وإذا به حقاً الصورة الصادقة للمسلم الراهد، في عصر سيطرت فيه المادة حتى طغت وتملكت قلوب الناس، ولم ينج من شرها إلا من عصم الله، وسما عن تراب هذه الأرض، ينعم هنالك في أجواء الملائكة الأعلى بلذة الخلد ونعيم الأبد..

المرشد الصادق:

كان يجلس إليه العلماء في الشام جلوسهم إلى المرشد الصادق، يقبسون من علمه وهم علماء، ويفيدون من حكمته وهم شيوخ، ويتعظون بكلماته البسيطة اليسيرة وهم خطباء، ويتعلمون منه وهو ابن التسعين عزيمة المؤمن التي تقصر دونها عزائم الشباب..

دار الشيخ:

كان إذا خرب الناس في الشام أمر، أو اعتدى على دينهم فاجراً، أو نال من أخلاقهم فاسقاً، هرع علماءهم وأهل الرأي فيهم إلى دار الشيخ.. وهناك على المقاعد المتواضعة في الغرفة البسيطة يُعقد مؤتمر صغير تقول فيه دمشق كلماتها، وتعلن رأيها، فإذا الكلمات القليلة التي ينطق بها الشيخ في أناة وهدوء، فتتناقلها الألسنة وتتلقفها القلوب، صواعق ترتجف لها نفوس الأشرار، وتنهار بها عزائم المفسدين... فيتوارى الباطل وجلاً، وينحسر الشر خزيًا.. لأن الحق الذي ينطق به الشيخ باسم الإسلام نور الله الخالد فلا ينطفئ، وأمر الله الغالب فلا يقهر...

إيه دمشق!

ليس عليك أن تبكي أبا الخير الميداني شيخك العظيم، ومصلحك
الكبير، ورئيس رابطة العلماء.. فلقد كان - طيب الله ثراه - أكبر من كل
هذا.. فهو بقية السلف، وشيخ الزاهدين، وقدوة الناسكين.. ومن ورثة
الأنبياء الصادقين..

رحمه الله.. وأعلى مقامه في عليين...





الدكتور السيد عبدالعلي الحسني

مدير ندوة العلماء^(١)

١٣١١ - ١٣٨٠هـ

للأستاذ السيد أبي الحسن الحسني الندوي

في اليوم الحادي والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٨٠هـ السابع من شهر أيار (مايو) سنة ١٩٦١م، فقدنا علماً من أعلام العالم الإسلامي، ونادرة من نوادر الأيام في الجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ومحاسن القديم والجديد، هو أخي الكبير الدكتور السيد عبدالعلي الحسني ابن مؤلف الهند الكبير العلامة السيد عبدالحي الحسني، مدير ندوة العلماء الأسبق، وصاحب «نزهة الخواطر»، و«الثقافة الإسلامية في الهند».

ولادته ونشأته:

ولد في سنة ١٣١١هـ، وهي السنة التي وُلدت فيها حركة ندوة العلماء صاحبة المؤسسة الإسلامية الكبيرة - دار العلوم في لكهنؤ (الهند)، ومن الحركات الإسلامية الفكرية الكبيرة في العصر الحاضر، فكان الفقيد تزيلاً لندوة العلماء، وكاناً في سنٍّ واحدة، وقد كان وفياً لتربه العظيم، فقد عاش

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الثانية: (١٣٨١هـ - ١٩٦١م). ونشرت هذه المقالة في كتاب: «شخصيات وكتب» ص ٦٣ - ٧١ للأستاذ الندوي.

متّصلاً به، مساعداً له مديراً لإدارته لأطول مدّة تمتّع بها مدير في تاريخ الندوة يعني من سنة ١٩٣١م، إلى أن لفظ نفسه الأخير في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٩٦١م.

نشأ في حضانة جده المؤلف العظيم الشيخ فخر الدين، ووالده الكبير السيد عبدالحّي. وجوّد الخط وتعلّم اللغة الفارسية - على عادة أبناء الأسر الشريفة في ذلك العهد - وكان لا يزال يتكلّم بها بطلاقة وسهولة، وقرأ العلوم الدينية وآداب اللغة العربية على أساتذة دار العلوم التابعة لندوة العلماء البارعين.

وتعلّم المنطق والفلسفة والهيئة والإقليدس والنحو والأدب العربي والفقه وأصول الفقه في جدّ واجتهاد وفهم وإتقان. وكان مُتّسماً من صباه بطول الصّمت والاشتغال بذات النفس، والجد في كلّ شيء، والبُعد عن الهزل وسفاسف الأمور.

التحاقه بدار العلوم «ديوبند»:

ثم التحق بالجامعة الإسلامية الدينية المعروفة بدار العلوم «ديوبند»، وانتسب إلى صفّها النهائي المختص بدراسة الحديث الشريف. وكانت دار العلوم «ديوبند»، تعتبر أعظم مركز لتدريس الحديث، وكان رئيس أساتذتها العالم الربّاني المشهور مولانا محمود حسن المعروف بشيخ الهند، ومكث عاماً يدرس الحديث ويتخصّص فيه، وكان من أساتذته الكبار العلامة الكبير الشيخ أنور شاه الكشميري، وكان مُعجباً بجودة فهمه وحُسن تقييده للدروس.

دراسته الطب العربي القديم:

وتخرّج في ديوبند في امتياز، ثم رجع إلى لكهنؤ مقر والده، وعكف على دراسة الطب العربي القديم، وقرأ على والده الذي كان من كبار الأطباء، وأتمّ دراسته، ثم سافر إلى دهلي، ولازم الحكيم (أجمل خان) أشهر أطباء الهند، ومن كبار زعماء حركة التحرير، ومن أصدقاء الزعيم غاندي، وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق، واستفاد منه ومن مجالس

الدكتور (مختار أحمد الأنصاري) رئيس المؤتمر الوطني الأسبق، ومن الأطباء البارعين في الطب الجديد، وكان مدة إقامته في دهلي أثيراً عند الحكيم (أجل خان) وموضع ثقته.

دراسته اللغة الإنجليزية والعلوم العصرية:

وبعدما تخرّج في العلوم الدينية وأتمّ دراسة الطب، بدأ يدرس اللغة الإنجليزية والعلوم الجديدة، وهو شاب، ولم يشعر بذلك والده حتى حصلت له مشاركة فيها، والتحق بالمدارس الحكومية، ثم دخل في كلية لكهنو Canning college مركز الثقافة المدنية في العاصمة، وحضر امتحان ليسانس (B.S.C) سنة ١٩١٩م في علوم الطبيعة، وتخصّص في علم النبات Botony وبرز في الامتحان وفدّ أقرانه، وكان المُجَلَّى^(١) في هذه الكلية، والمُصَلَّى^(٢) في جامعة إله آباد الكبيرة، ونال وسامين، ثم التحق بكلية الطب الجديد في لكهنو، وقضى فيها خمس سنوات، وأخذ الشهادة النهائية، وقد تُوفي والده أثناء دراسته، وترك أسرة كان الفقيد كافلها والحامل لأعبائها، وأتمّ دراسته في كلية الطب، وأخذ الشهادة من جامعة لكهنو، ثم بدأ حياته المستقلة كطبيب ليكفل أسرته.

وكان زاهداً في الوظائف الحكومية، قانعاً متقشفاً في حياته الخاصة، واسع الذراع، رحيب الصدر لأخوته الصغار، وقد أنساهم بزه ورقة عاطفته ألم اليتيم وخسارة فقد الوالد.

إدارته لندوة العلماء:

وانتخب عضواً في لجنة ندوة العلماء التنفيذية عام ١٩٢٣م، وانتخب نائب المدير عام ١٩٢٨م، ومديراً عام ١٩٣١م، وقد قطعت ندوة العلماء ودار العلوم أشواطاً بعيدة زمن إدارته وإشرافه، وفاق عصره جميع العصور، وأصبحت مؤسسة عالمية لها شهرتها ومكانتها في العالم الإسلامي.

(١) أي: كان ترتيبه الأول.

(٢) أي: جاء ترتيبه الثاني.

وكان عضواً في لجنة دار العلوم ديوبند أيضاً، ولما عقدت جمعية العلماء حملتها السنوية سنة ١٩٤٩م تحت رئاسة العالم الجليل والرعيم الإسلامي مولانا (حسين أحمد المدني) كان رئيس لجنة الاستقبال، وألقى خطبة فيها وجيزة المباني غزيرة المادة عميقة التفكير.

ممارسته حرفة الطب:

عاش حياته مقطّعة إلى حرفته التي خدم بها الناس في إخلاص وأمانة ونصح وإيثار، وكان همّه دائماً براء المريض وراحته دون الفائدة المادية. وكان أميناً ناصحاً في آرائه لا يتعصب لطب أو طبيب ولا يُصرّ على خطأ، ولا يُستحي من قوله: "ما فهمت" إذا لم يتبين له الصواب، وجمع إلى ذلك إدارة ندوة العلماء التي كان يقوم بها متطوعاً محتسباً.

أخلاقه وسجاياه:

وكان حريصاً على إيصال النفع إلى الناس، والمواساة وصلّة الأرحاء، مشغولاً بذات نفسه معزلاً في بيته، قليل الحديث إلا فيما ينفع وينفع الناس، زاهداً في الجاه والشهرة والظهور.

مرضه ووفاته:

ولم يزل على ذلك حتى انحرفت صحته في الزمن الأخير، وأصيب بضغط الدم وأمراض القلب، حتى وافاه الأجل المحتوم في ٢١ من ذي القعدة ١٣٨٠هـ (١٧ من مايو ١٩٦١م)، وخلف وراءه ولده الوحيد الأستاذ محمد الحسني منشيء مجلة «البعث الإسلامي» بآرك الله في حياته^(١) وأخاً

(١) استأثرت به رحمه الله تعالى في ١٧ من رجب ١٣٩٩هـ، الموافق (١٢/٦/١٩٧٩م) وهو في الرابعة والأربعين من عمره، وقد نغ واشتهر ككاتب إسلامي مرموق بالعربية، وأنشأ مجلة «البعث الإسلامي» ورأسها مدة حياته، وننظر ترجمته الوافية في مقدمة «الإسلام الممتحن» للأستاذ محمد الحسني بقلم عمّه السيد أبي الحسن الندوي.

أصغر هو كاتب هذه السطور^(١)، وأختين وخمس بنات، وصلى عليه جمعٌ حاشد يبلغ الآلاف. ونُقل جثمانه إلى وطنه "رائي بريلي"، حيث دُفن بجوار أبيه العظيم وأجداده المشايخ الكبار، والعلماء الأبرار، ورثته الجرائد والمجلات والأوساط الدينية والعلمية، وانهالت رسائل التعازي إلى آحيه الأصغر من جميع أنحاء الهند ومن الخارج، وكلها إعجاب وإعتراف بشخصيته الفذة الجامعة وثناءً على ديانته وإخلاصه واستقامته^(٢).

مثالٌ نادرٌ للمصلحين:

لقد كان الفقيد رحمه الله مثلاً نادراً لما تخيله المصلحون في الشرق وما تمنوه، وما قامت عليه دعوة ندوة العلماء من الجمع بين القديم والجديد والدين والدنيا، ورسوخ في العقيدة، واستقامة في الدين، وتضلع من العلوم القديمة والحديثة، وسعة في آفاق العلم والثقافة، وتصلب في المبادئ والغايات، وتوسّع في الوسائل والآلات، واقتباس العلوم النافعة وأخذ بالحديث الأحدث من المعلومات والاكتشافات.

وقد اجتمع فيه حبُّ الواقعية وعدمُ التعصّب الذي اتّسمت به العلوم التجريبية الحديثة، والإتقان والتعمّق اللذان امتاز بهما نظام التعليم القديم.

انتقل إليه من الجيل القديم ومن آبائه وشيوخه حبُّ اتباع السنة، والاستقامة في الحياة، ومن العصر الجديد الذي نشأ فيه روح البحث والاستطلاع، وحب الاختبار والتجربة.

(١) توفي الأستاذ الداعية الحكيم الشيخ أبو الحسن الندوي بعد فجر يوم الجمعة ٢٣ رمضان ١٤٢٠ رحمه الله تعالى.

(٢) حضارة الإسلام التي تُقدّر في الفقيد العظيم مناقبه الفاضلة وعلمه وإخلاصه تتقدم للأستاذ الكبير السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي - وهو من تعتزّ المجلة أن يكون أحد أركان أسرتها الكبيرة - بخالص العزاء سائلة الله تعالى أن يُعظم له الأجر وأن يُسبغ على الفقيد الرحمة والرضوان (الحضارة).

وأشهد أنني لم أر فيمن رأيت وعرفت من الشخصيات الكبيرة مثله في التوسط بين الجمود والتجدد، والاقتصاد والسداد، بين القديم والحديد.

ولقد رزقه الله سبحانه وتعالى فطرة سليمة بعيدة عن الإفراط والتفريط، وعن التطرف والتزمت، وقد كان مُتَقَشِّفاً في حياته الشخصية، زاهداً إلى حدٍ يستدعي العجب، ولكنه كان واسع النظر، رخب الصدر في العلم، والدراسة، وفي الثقافة وفي أفكاره الإصلاحية والتعليمية.

كان عجباً في بساطة معيشته، واتباع السنة في أحواله الشخصية، والبُعد عن الإسراف، وعن تقليد العادات الهندية في المعاشرة والاحتماج وتزويج البنين والسات، وبالعكس من ذلك كان مُستعداً لأن يقبل كل جديد مفيد، وكل رأي سديد في العلم والأدب، وفي نظام التعليم ومناهج الدراسة، وفي الأجتماع والسياسة، ولم تكن أفكاره ونظرياته آراءً ساذجة ونظريات مرتجلة تخضع للحوادث المحلية والموقفة، لذلك لم يضطر إلى تغييرها ونسخها شأن كبير من معاصريه، ولم يكن ليتوب عما اتحلّه من الآراء ودان به من مذاهب وأفكار، كما يفعل كثير من «المفكرين» المتهورين المتحمسين.

صلته بالشيخ حسين أحمد المدني:

وقد كان جاداً في كل أعماله، مُتَقَنّاً لكل ما درسه من القديم والحديد، إماماً في مسجد الحي، عالماً فقيه النفس، قد بايع العالم الرباني الجليل مولانا حسين أحمد المدني واختص به، وكان بيته مقراً للشيخ كلما مرّ بلكهنؤ، أو أقام بها مدة، وقد كان من خاصّة أصحابه، يحبه الشيخ ويستأثر به.

وكان يتمتع بثقافة واسعة واحترام عام، وكانت شخصيته غير منازع فيها، فإذا انعقدت حفلة ذات خطر، وأراد القائمون عليها أن يتفادوا الخلاف احتاروه رئيساً لها، ووافق على ذلك الحاضرون من غير اختلاف.

صلته بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي:

وكان محبباً كبير المنزلة عند المشايخ الكبار المخلصين من عباد الله، وكانت له صلة خاصة بالداعية الكبير مولانا محمد زكريا الكاندهلوي منشى جماعة التبليغ المشهورة، يحبه ويثني عليه ويحتفي به.

وكان متنوع الثقافة، مُتَخَرِّجاً في أرقى الجامعات الدينية والمدنية، طبيباً في القديم وفي أحدث النظم الطبية العصرية، فكان بذلك كله مُجْمَعاً علمياً دينياً في شخصه وثقافته.

وكان من أبرز مزاياه وسماته: حميته الإسلامية، واهتمامه بأمر المسلمين، وشدة التعلق بالعالم الإسلامي، كأنه كان عاملاً بالحديث النبوي المعروف: «مَنْ لَمْ يَهْتَمْ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ»^(١).

وكان شديد العطف على قضايا العالم الإسلامي كلها، ومُقدِّراً للجهاد أينما كان، حريصاً على المساهمة فيه، شارك في جهاد فلسطين بتبرعاته وتبرعات أسرته. وكذلك في جهاد الجزائر، فقد جَمَعَ التبرعات من أعضاء أسرته وأولاده وأرسلها إلى مُمَثِّل حكومتها الموقته في الهند.

تعلقه بالحجاز وشدة تعظيمه للنبي ﷺ وأصحابه وأهل بيته:

وكان شديد التعلق بجزيرة العرب والحجاز والحرمين الشريفين بصفة خاصة، عميق الحب، شديد التعظيم للنبي ﷺ وأصحابه وأهل بيته.

حبه للعرب:

وكان شديد الحب للعرب، يسوؤه ويؤلمه ذمهم وانتقاص حقهم وفضلهم، وقد كان مرهف الحس في ذلك، وكنا نعرف ذلك في وجهه، مُحباً للشعوب الإسلامية كلها، شديد الكراهة لدولة إسرائيل، وكان لا يُخفي

(١) رواه الحاكم في "المستدرک" في الرقائق من حديث حذيفة (٧٨٨٩)، ومن حديث ابن مسعود (٧٩٠٢). وهو حديث ضعيف جداً.

استبائه وامتناعه من ذلك، قدم له أحد أعضاء الاسرة محله "اسرائيل" الإنجليزية، لحبه الاطلاع على شؤون العالم، فتغنى لونه، وظهرت الكرامة في وجهه وقال: ما لي ولهذه المجلة؟

اطّلاعه على شؤون العالم الإسلامي:

كان واسع الاطلاع على شؤون العالم الإسلامي، يُعتبر دائره معارف في هذا الموضوع، وكان مرجعاً لنا جميعاً في هذا الشأن، حبيراً بجغرافية جزيرة العرب، ألف كتاباً بالعربية في هذا الموضوع في شبابه، وكان يترقب الفرص لإتمامه والزيادة فيه، ولم تُمهله أشغاله ومسؤولياته.

وقد كان مُتتبعاً لما يحدث في العالم العربي، وقد بدأ يطالع الصحف العربية والجراند التي تصدر من عواصم العالم العربي في الزمن الذي لم يكن هذا شائعاً في الهند، فكان من قراء صحيفة "الفتح" للأستاذ محب الدين الخطيب، و"فتى العرب" الدمشقية، و"الجامعة الإسلامية" الفلسطينية. في أيام لم يكن يعرفها كثير من علماء الهند، ولم يزل متصلاً بالعالم العربي، مُطلعاً على صحفه وجرانده إلى آخر أيام حياته، يقرأ ما يصدر من المراكز الثقافية في الشرق العربي من المجلات الإسلامية الرفيعة، والضُخف السيارة، ولم ينقطع عن الركب الثقافي مع اعتزاله وشدة استعاله بشؤون الحياة.

عنايته بالحديث النبوي الشريف:

وكان كبير الاعتناء، عظيم التقدير للحديث النبوي الشريف، يرى أنه يملأ فراغاً في الحياة الدينية لا يملؤه غيره، وأن من عاش بعيداً عنه عاش في إفراط وتفريط، وأخطأ فهم الدين.

وكان له شغف واهتمام بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، ونلميذه الحليل العلامة ابن قيم الجوربة، وكان كثير المطالعة لـ "زاد المعاد"، حسن الاعتقاد، شديد الإجلال لمُصلحي الهند المُجددين، كالإمام الربائي الشيخ احمد السرهندي، وشيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم ولي الله الدهلوي،

والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وخاصة الأخير الذي كان له معه صلة القرابة والنسب، وكان شديد الإعجاب به، يعتقد أن شخصيته ودعوته من أشبه الشخصيات والدعوات بالمنهاج النبوي في القرون الأخيرة، وهو الذي حثني على تأليف سيرته وترجمة حياته، ووفقني الله لذلك.

عنايته باللغة العربية ونشرها وتعليمها:

وكان شديد العناية باللغة العربية ونشرها وتعليمها في الهند، وكان له سعي مشكور في تغيير منهاج دراستها في دار العلوم، والاستفادة من الأساتذة العرب، وتهيئة الأسباب لأستاذنا العلامة تقي الدين الهاللي المراكشي، وشقيقه الأستاذ محمد العربي، وغيره من الأساتذة الذين تذوقوا اللغة، وتشجيعهم في تعليمهم اللغة العربية على الطريقة الصحيحة الموافقة للطبيعة.

أثره في أخيه السيد أبي الحسن:

أما فيما يخصني ويصل بي، فقد نشأت في حضنته وتحت إشرافه، فقد مات والدي رحمه الله وأنا في التاسعة من عمري، وقد كفلني كفالة الآباء للأبناء، قد كان - رحمه الله وكافاه أفضل مكافأة - عطوفاً رؤوفاً مريباً حكيماً من أفضل من عرفت من المربين، وهو الذي رسم لي خطة التعليم والثقافة، اتبعتها طول حياتي، وطبعني على حب الاقتصاد والسداد والاتزان والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وعلى حب السلف وإجلال السنة، وعدم الإفراط والتفريط، وهو الذي هياً الله لي عن طريقه وسائل التعلم والدراسة، وما كتب لي من خدمة العلم والدين والانقطاع إليهما والتفرغ من الهموم وتكاليف الحياة.

أثر مجالسه الرزينة وتوجيهاته الحكيمة:

وقد كانت مجالسه الرزينة، وتوجيهاته الحكيمة، وتعليقاته الهادئة أنفع لي من مائة كتاب، وقد كان لها فضل في فهم فضل تعاليم الإسلام

والحضارة التي تؤسّسها هذه التعاليم، والاطلاع على مواضع الضعف في الحضارة الغربية وزَيِّغ أساسها.

وإذا كان في ثقافتي وما وفّقني الله له من الدراسة والتأليف والدعوة والتوجيه شيء يستحق الذكر، فالفضل في كلّ ذلك يرجع إليه بحول الله، وبذلك تعظم خسارتي بموته، وحزني على فقده، وألمي بمصابه، ومع ذلك نحتسبه عند الله، ونعتزّ بهذه الحياة السعيدة التي انقضت في خدمة العلم والدين وصالح المسلمين، ونرجو له من الله المغفرة والرضوان، ولنا الأجر والمثوبة، ومن الإخوان والمحبين في الله صالح الدعوات له ولأسرته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



حسني السباعي^(١)

٦ من جمادى الأولى ١٣٠٦ - ٤ من جمادى الآخرة ١٣٨١ هـ

بقلم ابنه: مصطفى السباعي

ليس في رثاء الابن لأبيه شيء جديد، فقد يما رثى الأبناء آباءهم، وتحدثوا عن فضائلهم بعد أن أصبحوا في ذمة الله، وأصبحت سيرتهم في يد التاريخ، ومن منا لا يذكر رثاء عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لأبيها الصديق رضي الله عنه إثر وفاته، ذلك الرثاء الذي يمثل الوفاء الحزين في حرارة الإيمان وإشراق البيان وصدق اللسان.



ومن حق أبي يرحمه الله وقد فارق الدنيا أن أتحدث عن بعض ما أعرف عنه، مما يضيف إلى مآثر التربية الإسلامية مآثر جديدة، عسى أن ينتفع بها أب مسؤول أو ابن مأمول.

(١) حضارة الإسلام، العددان السادس والسابع، السنة الثانية: (١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م).

عرفت في أبي رحمه الله خصالاً كثيرة، كان لها أكبر الأثر في حياتي واتجاهي الفكري والاجتماعي، اقتصر منها الآن على أربع:

سليل بيت علمي:

١ - فقد كان يرحمه الله سليل بيت علمي منذ مئات السنين، وكان أبوه وأجداده يتولّون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلاً بعد جيل، وكانت له مع لفيف من فقهاء حمص مجالس علمية، أذكر منهم السيّد الأساتذة: طاهر الرئيس، سعيد الملوحي، فائق الأتاسي، راغب الوفاني، محمد البني، ولم يتبق منهم الآن على قيد الحياة - يرحمهم الله - إلا أستاذنا الجليل الشيخ طاهر الرئيس، بارك الله في حياته وجزاه عن العلم والدين خير الجزاء^(١)، كانوا يندرسون الفقه، ويتناقشون في أدلة مسائله، وكان فيهم الحنفي وفيهم الشافعي، وكان أبي رحمه الله يحضرني معه هذه الحلقات على صغر سني ممّا حبّب إليّ هذه الأجواء، حتى إذا تهيأت للدراسة العلمية وجهني إلى دراسة علوم الشريعة، وبخاصّة دراسة المقام المقارن ومسالك الأئمة في اجتهادهم.

قوة شكيمته ومساندته للحركات الوطنية:

٢ - وكان - يرحمه الله - قويّ الشكيمة مع أعداء البلاد، مسارعاً إلى الجهاد حين يدعو الداعي وتُمكنه الفتوة والشباب من ذلك، مؤيداً للحركات الوطنية قولاً وعملاً، ولا أزال أذكر وأنا ابن ست سنين كيف رأيته مع أكثر علماء حمص وهو أصغرهم سناً، يطوفون في شوارع المدينة وأسواقها، وقد تمنطقوا بأحزمة الرصاص، وبأيديهم البنادق، يمشون على مهل صفوفاً منتظمة مكبرين مهلّلين، داعين الشعب إلى مقاومة الفرنسيين حين اقتربوا من حمص عند احتلالهم لسورية، وقد تقدّمهم الشيخ عبدالغفار عيون السود،

(١) هو العلامة محمد طاهر بن عثمان الرئيس الشافعي، المولود سنة ١٣٥٥. والمتوفى

ولا تزال ذاكرتي تحفظ منهم: الشيخ أحمد صافي، والشيخ عبدالقادر الخوجة، والشيخ نجم الدين الأتاسي، وخال والدي الشيخ بدوي الساعي، والشيخ جمال الدين الجمالي، رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح حاته، فاستجاب الناس إلى دعوتهم للجهاد، واشتروا السلاح والذخيرة، واستعدوا لمقاتلة الجيش الفرنسي الذي كان قادماً من طريق طرابلس، ولا أزال أذكر تلك الليلة التي غاب فيها أبي عن البيت ليخرج مع المجاهدين، وكنت سهرنا الليل كله مع أخي نسمع أزيز الرصاص وطلقات المدافع، وأمي تضمّني وأخي إلى صدرها وهي تدعو الله أن ينصر المجاهدين.

تعاونه مع المجاهدين في الثورة السورية بحمص:

ولما نشبت الثورة السورية في حمص عام ١٩٢٧م، كان والدي رحمه الله يجتمع بكثير من الثوار سرّاً في بعض البيوت ليسلمهم ما جمع لهم من إعانات مع بعض إخوانه، وكان يرسل معي إلى بعضهم جريدة «المقطم» التي كانت تنشر أسماء معارك الثورة بالتفصيل، وكان الفرنسيون قد سعوا دخولها، ولما قتل الثوار محافظ حمص حينذاك اشتدت حملة الفرنسيين عليهم، فلجأوا إلى البساتين المنتشرة على جانبي نهر العاصي بالقرب من حمص، وأذكر أنه صلّى بهم مرة صلاة المغرب، وكان من بينهم المحاهدان البطالان: نظير النشيواتي رحمه الله، ومحمد خيرو الشهلا مثّعه الله بالصحة والقوة.

امتناعه عن حضور صلاة عيد الفطر تضامناً مع الثوار:

ولما قرّر أهل حمص الإضراب عن صلاة عيد الفطر في الجامع الكبير تضامناً مع الثوار الأبطال - وقد كان من عادة الفرنسيين أن يحضروا الصلاة والخطبة في الجامع الكبير بموكب رسمي - وكان أبي هو الخطيب في ذلك العيد، فصمّم على ألا يحضر يومئذ للخطبة والصلاة برغم نصيح الناصحين له بأن يحضر خوفاً من إيذاء الفرنسيين له، وقد كانت حمص كلها منطقة عسكرية، فرضت عليها الأحكام العرفية، وامتألت سجونها بالشباب

الأحرار، وأتى المستشار الفرنسي وأعوانه بموكبهم الرسمي، فوجدوا الجامع مغلقاً ليس فيه أحد، وكانت مفاجأة مذهلة وصفعة أليمة لهم، إذ لم يعلموا بها لقلة الجواسيس في عهدهم بحيث كان الناس يعرفونهم بأسمائهم وأعيانهم ويحاذرون الاجتماع بهم، فلم يصل إلى الفرنسيين نبأ قرار الإضراب عن حضور صلاة العيد في الجامع، ثم سأل المستشار عن أبي صفته خطيب العيد؟ فقبل له: إنه لم يحضر، فاستشاط المستشار غضباً، وهمم بالقبض على أبي وسجنه، ولكن بعض وجهاء حمص ثنوه عن ذلك لما يثيره في الناس من إردباد نعمة الشعب على الفرنسيين، فاكتمى بتأليف لجنة للتحقيق معه، ورفعت تقريرها للمستشار فأمر بإيقافه عن الخطابة في الجامع الكبير سنة كاملة، وهكذا كانت كل مواقفه الوطنية رحمه الله.

محبته للخير وإسهامه في تأسيس الجمعيات الخيرية:

٣ - وكان محباً للخير والإسهام في تأسيس الجمعيات الخيرية، فهو أحد مؤسسي الجمعية الخيرية الإسلامية التي أنشأت بعد ذلك الميتم الإسلامي بحمص، وكان يقف هو وعدد من إخوانه على باب الجامع الكبير بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع ليجمعوا من المصلين تبرعاتهم للميتم الإسلامي.

وقد اضطرحتني معه مرة في جولة إلى قرى حمص إبان الموسم الزراعي الصيفي مع بعض من إخوانه أذكر منهم المرحومين: الشيخ عبدالفتاح الدروبي والحاج محمود الطرشة، فكانوا ينتقلون من قرية إلى قرية يطلبون من أصحاب الأراضي التبرع للميتم الإسلامي بشيء من محصولهم، ويطلبون إليهم إرسال ما يتبرعون به إلى الميتم الإسلامي رأساً، وأذكر أنهم سحلوا من التبرعات في يوم واحد ما يزيد على مائة وعشرين قنطاراً من الحنطة (٣٦٠٠ كيلو غرام تقريباً).

ولما حصل الإضراب العام ضد الفرنسيين في سورية عام ١٩٣٦م، واستمر ستر أو سبعين يوماً، أصابت العمال منها ضائقة شديدة، فألف لجنة من إخوانه لجمع التبرعات لهم، وأذكر من أعضاء هذه اللجنة: الشيخ

عبدالفتاح الجمالي، والحاج صادق السني، والحاج عبدالكريم مراد، رحمهم الله، ومنهم السيد الحاج حُوري شمسي باشا بارك الله فيه، وقد طافوا على التجار في الأسواق فجمعوا من الأقمشة آلاف الأمتار، ومن الرز والسمر مفادير كبيرة وُرعت كلها على العمال المتضررين.

محبه لدعوة الإصلاح:

٤ - وكان رحمه الله يُحث دعوة الإصلاح، ويُشجّع عليها، وإني لا أذكر في حياتي لني قمت فيها بدعوة الإصلاح - وقد بدأت ذلك في سرّ مسكرة - انه شهري مرة رتسي عن طريقي، ولقد كان يستقبل سجنني واعتقالي بهدوء

حدثني أخي الشيخ محمد الحامد - بارك الله في حياته - أنه قابل أبي بعد اعتقالي في مصر في أرنال الحرب العالمية الثانية ونقلني إلى معسكر صرمد في فلسطين - وكان أبي لم يعلم بالخبر بعد - أنه أخبر والدي بأمر اعتقالي فتبشم وقال: لا بأس فالسجن للرجال.

منهجه في محاربة بدعة (خميس المشايخ):

ولما قمت بالدعوة إلى إلقاء (خميس المشايخ)^(١) في حمص، وكنت لا أزال في عنوان الشباب لم أجزب الحياة ولا عرفت نفسيات الجماهير، وتألست علي العامة، حتى كان بعضهم يبحث عني ليسفك دمي تقرباً - في رعمه - إلى الله بخجة أني كافر أريد القضاء على أمجاد الإسلام وهيبته!..

رأى أي أني لم أتبع سبيل الحكمة في محاربة هذه البدعة الضارة فقال لي: يا نسي! إلك على حق فيما تدعو إليه، ولكنك كنت عنيفاً في

(١) هو موسم فزع في سائر كل عام، كانت تخرج فيه مواكب مشايخ الطريق بطولهم وإعلامهم، ويقع فيه من المسكرات والشعوذة باسم الدين ما يخجل منه كل مسلم، وكان الفرنسيون يلفظون بهذا الموسم أفلاماً عرضوها في أوروبا لتشويه سعة الشعب السوري عامة والمسلمين خاصة (السباعي).

محاربة هذه البدعة، أنظر أن بدعة مضى عليها أكثر من خمسة قرون تستطيع أن تقضي عليها نهائياً في بضع خطب ومحاضرات تلقىها؟ أتفق على نفسك وحسبك أنك نبهت الأذهان إلى أضرارها، ولا بد من أن يحدث ذلك أثره في المستقبل القريب.. وكذلك كان..

موقفه من مشاركة ابنه في الجهاد في فلسطين:

ولما قامت معركة فلسطين بعد قرار التقسيم عام ١٩٤٨م، وهبت سورية مع البلاد العربية للتطوع في الحرب إلى جانب إخواننا أبناء فلسطين، كنت قد مررت بحمص عائداً من محافظات الشمال مع نمر من شباب الإخوان المسممين بأسلحتهم وذخيرتهم، ونحن في طريقنا إلى دمشق فلم أحبرني بعربي على الجهاد في فلسطين مع هؤلاء الشباب المزمين لخوفي من أن يحاول صرغي عن الجهاد معهم لما يعلم في مرض (ارتفاع ضغط الدم) قد يؤدي دهابي إلى فلسطين للقتال فيها إلى تفاقمه وحظره على حياتي، واتفق أن أصر أحد أخوتي الصغار على التطوع في هذه القافلة فلم يستطع والدي إقناعه بأنه صغير لا يصلح لذلك، وتابعنا سيرنا إلى دمشق، وفي اليوم الثاني قرأ والدي في بعض صحف دمشق أنني سأذهب على رأس تلك القافلة إلى فلسطين، فحضر إلى دمشق من حمص، وسألني عن صحة الخبر فأجبت أنه صحيح، فمكر قليلاً ثم قال: ألا ترى أن سفرك يعرض حياتك للخطر دون أن تقاوم فكيف إذا قاتلت؟ قلت له: أنت تعلم يا أبي إن الآجال بيد الله، ولأن يموت الإنسان شهيداً خير من أن يموت مريضاً، فقال: إنني لا أحاول أن أنسبك عن الجهاد، فوالله لو كنت مستطيعاً القتال لكنت أول من يقاوم معكم، ولكنك تعلم أن أخاك صغير، وأمك لا تتحمل أن تذهب أنت وأخوك معاً إلى فلسطين لقتالا، فهلاً نصحت أخاك بالعدول عن السفر معكم؟ قلت له: فعلت فلم يستمع، فما تمالك أن فاضت من عينيه دمعتان، ثم قال لي: سلمنكما إلى الله، والله يحفظك وإخوانك المجاهدين، أيدكم الله وأعانكم، ثم عاد إلى حمص.

يا أبي!

لقد أمر الله الأبناء أن يبرؤوا آباءهم في حياتهم وبعد مماتهم، وها أنا قد سلّمت للتاريخ صفحة مطوية من حياتك لم أوفك فيها حقك، ولا أديتك فيها ذنّبك، وأنا أشهد أنّ المرض والهزم أسرعاً إليك بسببي، ولكني أعلم أنك لم تعمل ما عملت إلا تقرباً إلى الله وخدمة للدين وأداء لواجب الأمانة، فماذا يبلغ ثنائي عليك من ثناء الله ورضوانه؟ وماذا ينفعك أدائي لبعض حقك بجانب ما أرجو أن يُكرمك الله به من نعيم مقيم في جنات الخلد مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

يا أبي!

لقد شهدت فجر حياتي، وشهدت غروب حياتك، وشتان ما بين المشهدين؟ أنت استقبلت بولادتي ثواباً لا ينقطع إن شاء الله، وأنا ودعت بوفاتك برأ كنت أستجيب به لأمر الله ما استطعت، وبركة - بدعائك ورضاك - كنت أستدفع بها المكاره، وأستجلب بها لطف الله في قضائه وقدره، فأين فرحتك بي من حزني عليك؟ وأين ما انقطع عني من خير مما دام لك من أجر؟ وهل نافعي بعد اليوم أن أذكر فضلك عليّ إذا لم يجمعني الله معك ومع رسوله ﷺ ومع أحبائه وأصفيائه في جنات النعيم؟

يرحمك الله، ويغفر لك، ويرضى عنك، فقد كنت في حياتك على عبوسها وتجهمها راضياً عنه صابراً: ﴿يَتَابَنَهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ (٢٧) أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ۖ (٢٨) فَأَدْخِلْ فِي عَبْدِي ۖ (٢٩) وَأَدْخِلْ جَنِّي ۖ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].



الشيخ عبدالقادر الرائي پوري^(١)

١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م

للأستاذ سعيد الأعظمي الندوي

فاجعتان عظيمتان:

فُجِعَت بلاد الهند وباكستان على السواء بحادثتين عظيمتين كان لهما أبلغ الأثر في نفس الشعب المسلم، ألا وهما حادثة وفاة المجاهد الكبير مولانا حفظ الرحمن - رحمه الله - سكرتير جمعية العلماء العام وعضو البرلمان الهندي، ثم فاجعة وفاة العالم الرباني الكبير والعارف بالله الشيخ عبدالقادر الرائي پوري رحمة الله عليه، الذي كان عَلماً من أعلام الهند وباكستان، ونادرة من نوادر العالم الإسلامي كله في علم التصوف والمعرفة، والذي أفاد منه عدد جَمٌّ من المسلمين في فنّ التصوف والتزكية والإرشاد، وتاب على يده عالم لا يحصى، وباعوه على الإسلام والإيمان.

توفي يوم الخميس ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٨٢هـ، الموافق ١٩ آب ١٩٦٢م، بعد أن عانى مرضاً في قلبه مدة ٥ سنوات.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

ليست خساره هذا الشيخ العبقري حسارة بلاد أو دولة فقط، وإنما هي خسارة العالم الإسلامي بأجمعه، فقد كان الفريد من أقطاب الفكر والمعرفة، وفي منزلة عليا من الإحسان والإرشاد.

لقد كان للمغفور له أياد بيض نقيّة - لا تُنسى على مرّ العصور - على آلاف من المسلمين في الهند وباكستان الذين استقروا من يسرعه الترحيل، واغتربوا من بحر معرفته علم الإحسان، واكتسبوا منه علماً غزيراً في هذا المجال الواسع، والحائب الحيوي الذي لا يستعني عنه إنسان يريد أن يعيش في الدنيا عيشة العر والكرامة، وينال في الآخرة قسطاً وافراً من الراحة وورخاء البال.

أفاد منه الناس مدة طويلة تقارب خمسين عاماً مد استتعاله في الإفادة والتزكية والإرشاد، وذلك بعد وفاة مرشده الكبير العالم الرباني الشهير المغفور له الشيخ عبدالرحيم الرائي پوري الذي عرف بعلمه الغزير، وبظرفه العميق في الإحسان والإرشاد، فكان له أتباع ومريدون في أنحاء هذه القارة العظيمة، وكان فقيدها الشيخ المعروف بالرائي پوري خليفته بعد وفاته، فأدى حق الخلافة، وأثبت أنه كان هو القمين بهذا المنصب العالي والمنزلة الخطيرة.

زاويته العامرة:

كانت له زاوية عامرة في قرية رائي پور من أعمال سهارنپور، يؤمها كثير من كبار العلماء والمثقفين والزعماء، ويقضون وقتاً طيباً في حوارهم، ويرجعون بصفقة رابحة من عنده... أما اليوم فقد تولى الاشراف عليها حليفه الشيخ عبدالعزيز، ونرجو الله تعالى أن يجعل جهوده تثمر ويؤتي أكلها كل حين، وهكذا ستبقى تلك المأثرة العظيمة التي حلقها الشيخ الفريد رحمه الله وراءه، ويستمر نفعها في المسلمين إن شاء الله تعالى.

ومما يجدر بالذكر أن أستاذنا الكبير السيد أبا الحسن علي الحسني
الندوي وصديقه الشيخ الكبير مولانا محمد منظور النعماني كليهما من كبار
تلاميذ الشيخ وخلفائه^(١).



(١) أسره "حصارة الإسلام" إذ ننهل إلى الله تعالى أن يتعمده بعمرانه ويسكه فسيح حانه
توخه كلمة التعرية إلى هذين الشيخين الكبيرين وجميع حلقائه ومريديه، وتخص رفع
هذه الكلمة شقيقه وابنه، وتدعو الله سبحانه أن يلهمنا وإياهم الصبر والسلوان.

وفاة مولانا حفظ الرحمن السيوهاروي^(١)

(١٣١٩ - ١٣٨٢هـ)

(١٩٠١ - ١٩٦٢م)

للاستاذ رئيس أحمد

إنَّ الأسبوع الأول من شهر أغسطس كان أعزَّ الأيام من هذه السنة في أمر المسلمين، فإن الاضطرابات الدموية التي لقي المسلمون فيها خسراناً كبيراً من الأموال والنفوس ربما تكون أقل أهمية من وطأة الفاجعة الكبيرة بوفاة مولانا حفظ الرحمن السيوهاروي.

مجاهد سياسي:

فأين نجد مفخرة الهند والشخصية الفذة التي لا تزال تفخر بها عبر القرون كمجاهد سياسي لتحرير البلاد من سيادة العدو الغاشم، وكعامل مجتهد في بناء صرح الوطن وتشبيدها، وكمحام مدافع صادق عن الأمة الإسلامية الهندية؟.

وكيف نجد الآن ذلك المجاهد الذي خاض بنفسه في النار والدم حينما كانت «دلهي» بلدة الوحوش والسباع المفترسة سنة ١٩٤٧م، وصار الدم الإنساني أرخص من الماء، وأصبحت حياته أقل قيمة من حياة نملة..

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

إنه لم يبال بنفسه وخرج كمجاهد باسل لا يريد إلا الشهادة يسعى ويحاول لإنقاذ المسلمين من أيدي السباع والنمور، ويبدل كل جهده لقتل المسلمين من أمكنة ذات خطر إلى بيوت مأمونة محفوظة.

كفاحه السياسي:

أحياناً يقابل «غاندي» ويعرض أمامه أحوال المسلمين. وما كانوا فيه من بلايا وصعوبات، وحيناً يقابل «أبو الكلام آزاد» ويذكر أمامه رزايا المسلمين... والأمر الحدير بالذكر هنا أن «غاندي» لم يكن يحق لأي رجل أن يخبره عن تلك الأحوال إلا مولانا حفظ الرحمن.

هذا كفاحه في أول الأمر حين تحررت البلاد... ومضت سنوات وأصبح المسلمون يتعلمون عن ركب الحياة وفي مبادئ العلم والصناعة والتجارة، وصار أكثرهم يعيشون عيشاً لا رغد فيه، ولم يبق لهم مستوى يليق بحياتهم التي عهدوها من قبل، وأصبحت أحزاب متعصبة من مواطنيهم لا تسوغها إقامة المسلمين بتلك البلاد التي ورثوها، وقد بنوا فيها تاريخاً مجيداً وتركوا فيها كنوزاً من مفاخر ومآثر.

دفاعه عن حقوق المسلمين:

في تلك الظروف القاسية كان يرفع صوته ويزار كثرير الأسد دفاعاً عن المسلمين وإعطاء لحقوقهم، فأحياناً يخطب في البرلمان، ولا يخاف من حزب الحكومة الذي يسيطر على البرلمان في مطالبة حقوق المسلمين منها ويأتي في خطبته بأحوال المسلمين، ويستعرض استعراضاً صحيحاً ما بلغوا من الهوان والمشكلات، ثم يطالب بالصراحة والجهر بتلك الحقوق فلا يذهب ذلك الصوت سدى ويأتي بأثر عميق نافع لمستقبل المسلمين في الهند.

مطالبته بجعل لغة (أردو) إحدى لغات الهند الأساسية:

ومما يجدر بالذكر، بل هو كما أظن صفحة رائعة لتاريخ حياته، وصورة شامحة للطولة والكفاح والحماسة لزعيم أي أمة وقاندها، إن لغة

«أردو» التي هي ليست خاضعة بالمسلمين. ولكن فيها أضخم ثرواتهم الدسسية وكنوز علومهم وآدابهم، لذلك يعزّون بها، ويسعون لرقبها وتقدمها، فقد أصبح يحسّ بعض الناس الذين ليست عندهم صدور رغبة، ولا عقلية واسعة إنها تختصّ بالمسلمين فقط، فبدؤوا يشعّون لإلغائها، ويأتون بعوائق في سبيل رقبها وتقدمها.

والمنشور الذي أذاعته وزارة المعارف للولاية الشمالية، عيّنت فيه ثلاثة لغات للدراسة والتعليم في الجامعات والكليات الرسمية، وكان المنشور منهم لا تتضح به مكانة لغة «أردو» بين تلك اللغات الثلاث.

فلما علم مولانا حفظ الرحمن أن لغة أردو لم تعتن بها وزارة المعارف والمنشور لا يبين مكانتها واصحة، كتب رسالة إلى رئيس الوزراء للولاية الشمالية، وأحرى إلى «جواهر لال نهرو»، وطالب بصراحة وصراحة أن يمنحوا حقها، ولا يعدلوا في هذا الأمر عن الطريق السوي، مع أنه كان في مرضه الذي توفي فيه كانت حالته الصحية سيئة جداً في إحدى المستشفيات بأميركا، ولم تذهب هذه المطالبة شدي، بل ظهر أثرها كما صرح عنها «جواهر لال نهرو» وجعلها إحدى اللغات الثلاث يستطيع أي طالب أن يختارها مع اللغة الهندية والإنجليزية أو غيرها من لغات الأقطار الأخرى.

إن هذه المكانة الرفيعة التي بلغ بها مولانا حفظ الرحمن في قلوب المسلمين جعلتهم يعتمدون عليه ويثقون به، فكل ما كان يُطالب الحكومة ويحجر صوته به كان تعبيراً عما يريد المسلمون، فكانت تعني به الحكومة وتفكر فيه بقلب مثلوج.

جهاده ضد الإنكليز:

وكل ذلك لم يكن حصل له إلا لأنه كان مثلاً رائعاً للكفاح في تحرير البلاد والماضلة ضد الإنجليز، فكان يقول بكل إيمان وثقة: «إن الإنجليز سيضطرون إلى رفع السيطرة عن الهند، وسيفوز الجهاد في سبيل الحرية

والوطن، فالمسلمون إن لم يساهموا في الجهاد فكيف لهم أن يطالبوا بحقوقهم غداً بكل صراحة وصراحة حينما تستقل البلاد؟^{١٩}

مآثره السياسيّة:

وكان قد اختار لنفسه هذا النمط، وسلك عليه منذ صباه، فكان يشتغل مُذْ كان طالباً في الأمور السياسيّة والأعمال العامة، وبعد أن ظهرت حركتا «الخلافة» و«مناديل الحرير»... وهي أن تكتب الرسائل السريّة على مناديل من حرير أحمر لا تظهر حروفها يتبادلون بها آراءهم، وتكون هي العلامة بينهم، أدى فيهما أعمالاً حليّة مع كبار زعماء الهند - ثم انتسب إلى حزب «كانكريس» مع جمعية «علماء»، وسعى لتحرير البلاد - وله مآثر سياسيّة لم تنس إذ فُرض بيان رئيس لحزب «كانكريس» في الولاية الشماليّة، وعيّن عضواً لدار النواب، ثم انتخب عضو البرلمان وألقي عليه عبء الأمانة العامة لجمعية العلماء فواصبه، وأدى ما كان يفرض عليه بكل جدّ واجتهاد.

تأسيسه ندوة المصنّفين بالهند:

إنّ الكلام الذي حنت به في هذا المقام لاستعراض شخصيته يقدمه أمامكم كرجل السياسة فحسب مع أن الأمر لم يكن كذلك فإنه يتميز ويتفوّق عن أقرانه بعلومه وما خلف من آثار، فالمجمع العلمي المسمّى بـ«ندوة المصنّفين» بدلهي الذي نشر كتباً قيّمة وله مكانة موقرة بين أصحاب العلم والمعرفة في الهند كل ذلك نتيجة لما بذل له جهده في سبيل تأسيسه ورقيّه وتقدّمه، وكتابه النفيس «قصص القرآن» سيظل نوراً للسايرين، يستفيد به الطلاب والأساتذة من علوم القرآن ولا ينسون فضله.

شخصيّة جامعة:

كانت لمولانا حفظ الرحمن شخصيّة جامعة، فقد كان رجلاً سياسياً في جانب، وعالماً محققاً، ورجلاً متديّناً بجانب آخر.

ولادته ووفاته:

ولد ذلك الرجل العظيم بقرية صغيرة اسمها "سيوهاره" في أعمال "بجنور" بالمقاطعة الشمالية في العاشر من يناير سنة ١٩٠١م، وتوفي إلى رحمة الله في الثاني من أغسطس سنة ١٩٦٢م، ودُفن بدلهي بجانب ضريح شاه ولي الله الدهلوي.

مرضه وسفره للتداوي:

وكان أصيب قبل وفاته بعدة شهور بالسرطان الرئوي، اضطره أن يسافر إلى أمريكا للتداوي. وعاد إلى الهند قبل أسبوع من وفاته، ولم يبق فيه إلا أثر الضعف، حتى فُرحنا بخبر وفاته، فإن أسماعنا التي تلقت خبر عودته وسلامته من مرصه بنهجة وسرور كان يقرعها صباح أغسطس الثاني نبأ وفاته فحنن قرحى القلوب، جرحى العواطف، طيب الله ثراه، وجعل الجنة مثواه، وجزاه بأحسن ما يجزي عباده الصالحين^(١).



من زعماء المسلمين بالهند مولانا محمد حفظ الرحمن^(١)

للاستاذ عبدالمنعم النمر

كان آخر لقاء لي معه في دار جمعية العلماء بدلهلي وهو يحمل معه ملفاً ويتأهب للذهاب إلى البرلمان، وسألته: إلى أين وصلت قضية اللغة الأوردية وتقريرها لغة رسمية ثانية؟ فقال: إنني ذاهب الآن إلى اجتماع لنكمل البحث في هذا الموضوع، وودعته وأنا أتمنى له النجاح في مهمته وفي كل المهام العظيمة التي يُحمّله المسلمون عبئها.

ودّعته ولم تغب عني صورته بجسمه الذي يُغالب المرض، وتبدو عليه ملامح الإرهاق من كثرة العمل، وبشيبته المرسلة وقامته المنصوبة تتحدى المرض والضعف والإرهاق، وكنت كلما تذكرته أشفقت عليه وأشفقت على مصالح المسلمين التي يتحمّلها وينوء بحملها ولا يرحم نفسه في سبيل العمل على تحقيقها بعد أن تجمّعت عليه آمال المسلمين، واتّجهت أنظارهم إليه بعد وفاة شيخ الإسلام مولانا حسين أحمد مدني، ومولانا أبي الكلام آزاد، وكان ركناً عظيماً للمسلمين في الوزارة الهندية.

(١) مجلة الأزهر، العدد الرابع، السنة الرابعة والثلاثون: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م).

ولادته ودراسته وجهاده:

ولد مولانا حنط الرحمن سنة ١٩٠١م. في بلدة (سهنورا) بشمال الهند وتلقى علومه في دار العلوم (ديوبند) أكبر مدرسة دينية عربية في الهند وتخرج فيها. . وبإداه الوطن ليشارك مع المجاهدين من أجل تحريره فلبى نداءه وتحمل نصيبه في عبء الجهاد حتى وصل إلى الصفوف الأولى للمجاهدين، حيث صار عضواً لحزب المؤتمر الهندي سنة ١٩٣٦. وسبق إلى السجون عدة مرات، كان آخرها أثناء الحرب العالمية الثانية مع مولانا آزاد ونهرو وغيرهما من رعماء الهند الذين زجت بهم حكومة الهند في السجن من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٤٤م. حيث أطلق سراحهم وبدأ الإنجليز يفاوضونهم للجلاء عن الهند.

السكرتير العام لجمعية علماء الهند:

وكان مولانا حنط الرحمن يشغل منصب السكرتير العام لجمعية علماء الهند، ويمثل العنصر الحيوي المتحرك في كل نشاط لها. . عرفه أهل الهند جميعاً - المسلمون والهندوس والسيخ - بجهاده وإخلاصه لقضية حرية الهند ووحدتها فأحله الجميع وهابوه، حتى كان يلقي بنفسه وسط المعارك الدامية التي كان يشنها الهندوس والسيخ على المسلمين عند التقسيم، ويعملون فيهم التفتيل والتدبيح فلا يجرؤ هندوسي أو سيخي على أن يمسه بسوء. . ويكون لمواقفه الجريئة هذه أثرها في تخفيف حدة هذه الاعتداءات المتوالية على المسلمين.

حرصه على بقاء المسلمين في الهند:

كان رأيه - كراي جمعية علماء الهند - ضد التقسيم وضد قيام باكستان، كان يرى أن تبقى الهند كلها دولة واحدة تضم المسلمين والهندوس وغيرهما، ويعمل مع ذلك على تقرير حقوق المسلمين كاملة في الوطن الهندي الكبير، فلما تم التقسيم عمل على أن يبقى المسلمون في الهند في دورهم ومتاجرهم ومرارعتهم ومناصبهم فلا يتركوها إلى باكستان

حتى يظل المسلمون عدداً كبيراً وأقلية كبيرة لها صوتها، وحتى يظلوا حراساً لمساجدهم ومدارسهم وآثارهم الإسلامية التي تملأ الهند وتعدُّ مثار فخر لها بين العالمين.. وحتى يحوّلوا دون تحويل هذه المساجد المحمية إلى معابد هندوسية، واندثار هذه المدارس الدينية وزوال الثقافة الإسلامية من ربوع الهند.

عضويته في البرلمان المركزي:

انتُخب عضواً في البرلمان المركزي منذ إنشائه عن دائرة "مراد آباد" وكان حزب المؤتمر يترك له دائرته فلا يرشح فيها أحداً تقديراً لخدماته ومواقفه الوطنية، ومع ذلك كان ينازله بعض الهندوس والمسلمين في دائرته فيتغلب عليهم آلاف الأصوات بالرغم من أن أكثرية الدائرة من الهندوس...

معركة التجديد في مناهج دار العلوم:

كان يمتار بعقلية إسلامية متنوّرة متحرّرة من التقليد والحرص على القديم لأنه قديم كما يفعل كثير من علماء الهند..

حينما وصلت إلى دار العلوم - ديوبند.. ووقفت على مناهجها وطرق التدريس فيها أحسست أن فيها نقصاً كبيراً وتحتاج إلى تعديل وإدخال بعض المواد الجديدة التي لا غنى عنها لطالب العلم في هذا الزمان.. وبدأت أتحنس آراء القائمين على الدار والمدرسين فيها، فوجدت في الكثير منهم جموداً على هذا المنهج الذي ظلت الدار عليه نحو ستين سنة وأكثر، وتفتدي بها كل المدارس الدينية في الهند، فلجأت إلى مولانا حفظ الرحمن وكان عضواً بارزاً في المجلس الأعلى للدار، وحدثته في هذا الأمر، فوجدت عنده تجاوباً كاملاً، وكان هو والأستاذ أبو الحسن الندوي عضو المجلس كذلك.. يقودان معي حركة التجديد في البرامج. وإن شئت فقل: معركة التجديد؛ لأنها كانت معركة فعلاً بين القديم والجديد. حتى قال لي الأستاذ أبو الحسن: إذا نحت في هذه الحركة فسيكون لها أثرها القوي في

اتّجاه التعليم في المدارس الدينية في كل أنحاء الهند، وسيكون تطوراً لم تشهده هذه المدارس منذ ستين أو سبعين عاماً، واستطعنا بعد جهاد سنتين أن نظفر بالتعديل، وطلبت الدار الكتب الخاصة بالمواد الجديدة من الأزهر والمؤتمر الإسلامي وللأسف لم تصل لها هذه الكتب للآن...

حماسه لمصالح المسلمين وقضاياهم:

كان خطيباً من الطراز الأول باللغة الأوردية، يشترك في كل اجتماع أو حفل إسلامي في أي بلد من بلاد الهند على سعتها، ولذلك لم تكن دهملي - مقره - تحظى بوجوده كثيراً فيها.

كان برغم تقدّم سنه يطغى عليه الحماس لمصالح المسلمين وقضاياهم داخل الهند وخارجها..

أقامت جمعية العلماء مؤتمرها الإسلامي السنوي في أكتوبر سنة ١٩٥٦ في مدينة «سورت» شمالي بومباي، وكنت أمثل الأزهر في هذا الاجتماع، وحضره الأستاذ أمين الخولي، والدكتور محمد عبدالله العربي مندوبين عن المؤتمر الإسلامي.. وأثناء إلقاء كلمتي أخذ الحماس جموع الحاضرين، وأخذوا يهتفون من كل ناحية لمصر والهند ولناصر ونهرو، فتقدّم هو من الميكروفون في حماس ظاهر وقاد، وحينما ألقى كلمته كانت تفيض بالحماس لمصر ولتأميم القناة وتنفجر بالنقمة على المستعمرين.

وبعد أن وقع العدوان على مصر تحدثت معه فيما يحسن بمسلمي الهند أن يفعلوه تجاه الضحايا من إخوانهم في بور سعيد، فاستجاب سريعاً وعمل على أن يصدر مدير الجمعية وشيخ الإسلام مولانا حسين مدني نداء لأهل الهند مسلمين وغيرهم يهيب بهم أن يناصروا إخوانهم في مصر، ويمدوا لهم يد المعونة في محنتهم. وقامت فروع الجمعية في كل مكان بجمع التبرعات التي تولى السفير المصري الدكتور مصطفى كامل في ذلك الوقت من إرسالها للقاهرة...

قضاء مصالح الناس:

وكنيت كلما ذهبت لدار جمعية العلماء ووجدت مولانا حفظ الرحمن وجدت حوله كثيراً من أصحاب المصالح من المسلمين والهندوس يطلبون منه أن يتوسط لقضاء مصالحهم ورعايتهم، وكان لا يرد أحداً بل يمنح الجميع من بره وعطفه ومساعدته ما يستطيع بل وفوق ما يستطيع حسنة الضعيف.

مؤلفاته باللغة الأوردية وإتقانه للغة الإنجليزية:

وبالرغم من كل هذه المشاغل التي كانت تُحيط به فإنه لم ينس واجبه العلمي الديني إذ كان يقطع من وقته ما يفرغ فيه للكتب، ويعكف على التأليف، فأخرج عدة مؤلفات قيمة باللغة الأوردية منها: «قصص القرآن»، «الأخلاق وفلسفتها»، «النظام الاقتصادي في الإسلام». وكان مع ثقافته الدينية متقناً كذلك للغة الإنجليزية على غير عادة العلماء في الهند.

لقد كان أمةً في جهاده وعلمه وبرّه بدينه ووطنه وإخوانه، حتى خلع عليه مواطنوه لقب «مجاهد الملة».

مرضه ووفاته وجنازته:

ذلكم هو مولانا محمد حفظ الرحمن الذي كتب إليّ صديقي الأستاذ محيي الدين الألواني ينعاه إليّ وإلى المسلمين في كلمة مؤثرة تفيض تقديراً ووفاء للراحل الكريم الذي ظلّ يغالب المرض سنين، وسافر إلى أمريكا في محاولة للقضاء عليه، وعاد وقلوب الذين عرفوه وقَدَّروه تحيط به وترجو له تمام الشفاء ليظل في مكانه حارساً أميناً، وخادماً مخلصاً للإسلام والمسلمين، ولكنه كان على موعد مع قضاء الله الذي وافاه في الثاني من ربيع الأول سنة ١٣٨٢هـ - الثاني من أغسطس سنة ١٩٦٢م، وبكته الملايين الذين عرفوه وقَدَّروا له إخلاصه وجهاده الطويل في سبيل دينه ووطنه.

ومشى خلف جنازته أكثر من خمسين ألفاً، في مقدمتهم «نهبو»
وجميع رجال الدولة، جاؤوا من جميع أنحاء الهند ليودعوا الرجل الذي ظل
طول حياته رمز الإخلاص والجهاد، ويواروه التراب بجانب ضريح المعنور
له شيخ الإسلام مولانا شاه ولي الله الدهلوي صاحب الكتب والمؤلفات
العديدة التي نعرف منها هنا «حجة الله البالغة».

ولقد رثاه «نهبو» في كلمات مؤثرة، وكان قد زاره الزيارة الأخيرة له
قبيل وفاته بساعات قليلة.. وقال عنه: «إنه كان زعيماً ممتازاً من رعماء
الحركة الوطنية الذين أخلصوا لبلادهم ولحريتها إخلاصاً لا يرقى إليه شك».
وقال رئيس وزراء مقاطعة «أوتربرديتس» بالهند: إن الفقيد قدم لرضه
ومواطنيه أعمالاً محبذة، ولا سيما في سبيل الوحدة الوطنية، وسيظل التاريخ
والوطن يحفظها له بالفضل والشكر.

إنني هنا أتصور المسلمين هناك يتلفتون حولهم ليجدوا من يملأ فراغ
هذا الراحل العظيم فيطول تلفتتهم، وعيونهم تفيض من الدمع حزناً وقلوبهم
تنفطر أسى وحسرة.

رحم الله الفقيد، وجزاه خير ما يجزي به المجاهدين المخلصين،
ولطف بإخواننا المسلمين في الهند، وهياً لهم من أمرهم رشداً.



الشيخ أحمد الحارون^(١)

(١٣١٥ - ١٣٨٢هـ)

(١٨٩٧ - ١٩٦٣م)

للدكتور مصطفى الباز

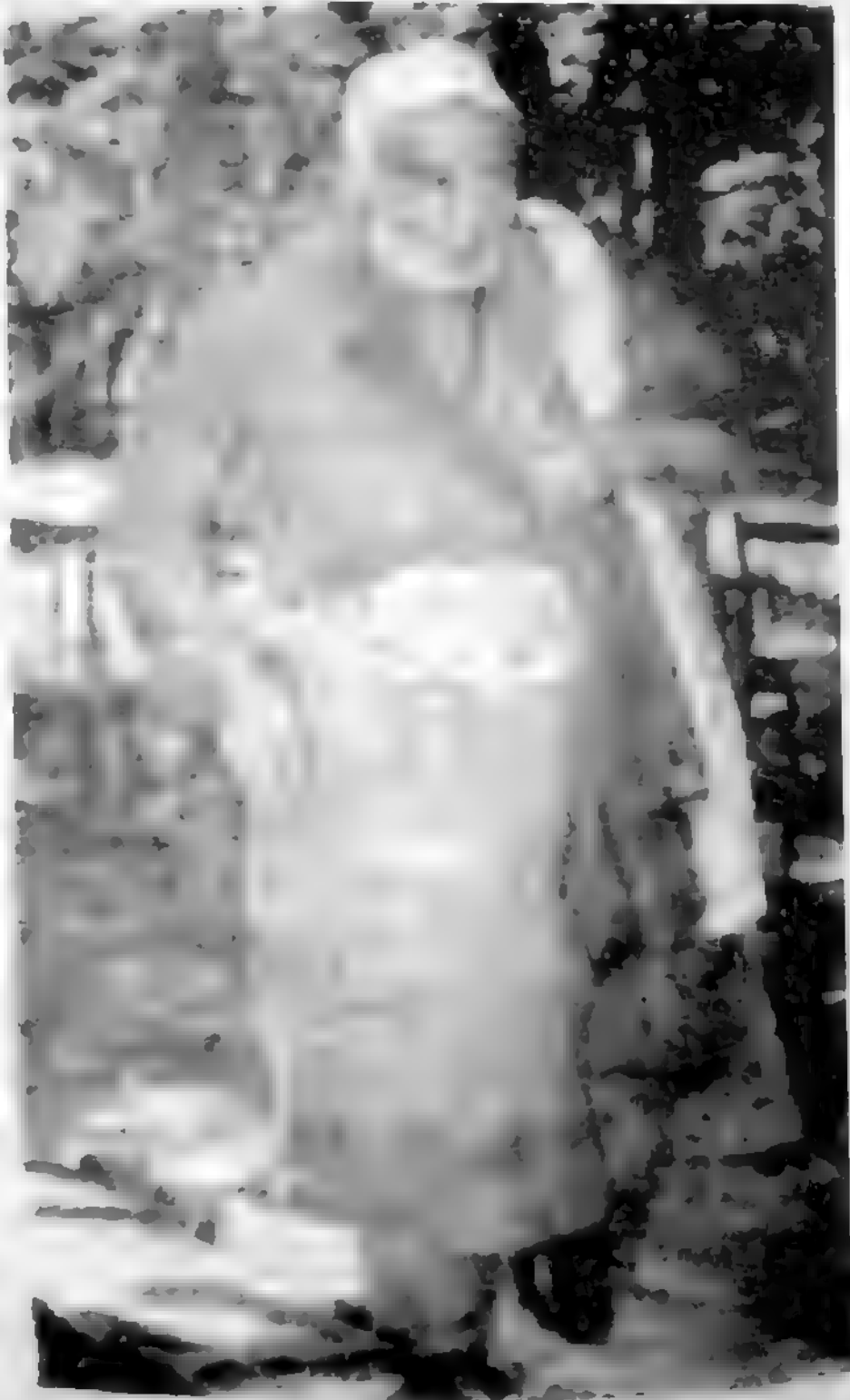
الإسلام نظام وخلق، ويوم كان المسلمون الأولون يحرصون على تنفيذ نظام الشريعة والتخلق بأدابها كانوا من أرقى المجتمعات نظاماً، وأكمل الناس أخلاقاً، ومن أهم أخلاق الإسلام: المحبة، والتسامح، والمراقبة لله، ومحاسبة النفس، والزهد في الدنيا مع العمل لها والتمتع بطيباتها.

ولم يكن السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيه، يفرقون بين شطري الإسلام، بل كانوا يحرصون على العلم والعمل، وإقامة نظام الإسلام، والتخلق بأدابه، ولم يكن للقسم الأخلاقي والتهذيبي فيه اسم خاص عندهم، ولا أناس متخصصون فيه، لا يدلون إلى العلم بسبب، ولا يقيمون وزناً لشرائع الإسلام وأحكامه.

ولما اتسعت الحضارة الإسلامية، وآتت ثمارها، أوشكت القلوب أن تشغلها الحضارة وعلومها عن أخلاق الإسلام، فتصدى نفر من أجلة علمائه يومئذ كالحسن البصري رحمه الله للوعظ والتذكير بالله ومراقبته والترغيب في جنته والترهيب من ناره. ثم أطلق بعد ذلك على هذا النوع من التذكير والموعظة اسم التصوف، ولم يكن في إطلاقه على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وآدابها صرر ما، ونشأ

(١) حضارة الإسلام، العدد الخامس، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

في المسلمين أجلة عظماء يجمعون بين العلم وبين الزهد والتصوف، كالجنيد رحمه الله، فلم يكونوا في زهدهم وتصوفهم خارجين عن حدود الشريعة ولا متجاوزين لأحكامها، ولم يكن التصوف يومئذ يعدو أن يكون تهدياً للنفس،



العارف بالله الشيخ أحمد الحارون رحمه الله تعالى.

وتنشيطاً للروح، ودعوة إلى مراقبة الله وحسن المعاملة بين الناس، وكان في هذه الحدود وبهذا المعنى أداة صالحة لتخفيف انغماس الناس في طلب الدنيا وإقبالهم على طيباتها وزينتها، ولتهذيب الأخلاق بما يتفق مع شرائع الإسلام وآدابه.

آفات ثلاث أفسدت صفاء التصوف:

ثم عرض للتصوف آفات ثلاث أفسدت صفاءه، وجعلته أداة من أدوات الهدم للمجتمع الإسلامي وللحضارة الإسلامية:

أولها: الأخذ بمفاهيم أعجمية للأخلاق الإسلامية لم يكن يدعو إليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ولا كان يعرفها أصحابه والتابعون. فانقلب الزهد إلى تركٍ للدنيا في الظاهر وتعلقٍ بها في الباطن، بعد أن كان صدوقاً عن تعلق القلب بمفاتن الدنيا مع الأخذ منها بنصيب وافر، وانقلب التوكل من سعي في الحياة مع الاعتماد في نتيجة هذا السعي على الله جل جلاله إلى أن أصبح كسلاً وتواكلاً وفراراً من العمل والعلم إلى حياة التسوّل و«الشحاذة». وهكذا فسدت المفاهيم الإسلامية بدخول المفاهيم الأعجمية واعتماد الصوفية عليها.

ثانيها: اعتماد الصوفية على القسم الأخلاقي في الإسلام وإعراضهم عن القسم التشريعي، فغدوا بذلك من أجهل الناس بأحكام الإسلام، وكان كثير منهم يرى أن العناية بهذه الأحكام - وقد سموها علم الظاهر - يصدّهم عن علم «الباطن»، فاستغلّ هذا أسوأ استغلال من قبل الزنادقة والشعوبيين وأعداء الإسلام، حيث نشروا بين جماهير الصوفية عقائد باطلة يصل بعضها إلى حد الكفر، كالقول بوحدة الوجود، وإسقاط التكاليف الشرعية عمّن بلغ درجة معينة عندهم.

ونشأ عن ذلك أن جعلوا للتصوف حدوداً ورسوماً وتنظيمات أشبه ما تكون بالتنظيمات الكنسية، وجعلوا الشيخ بمثابة النبي، وأحياناً الإله بالنسبة إلى المريّد (التلميذ)، حيث حرّموا عليه أن يشكّ في كل تصرّف للشيخ، ولو كان مخالفاً للشريعة، وأصبح من قواعدهم: إذا رأيت الشيخ

متلبساً بالمعصية فكذب نظرك، ونره شيخاك عن أني خاطر من حواطر السوء نحوه.

وهذه كهنوتية لا يعرفها الإسلام، ولا يعرفها الصحابة بالسنة لدرسون المعصوم، فقد كانوا يسألونه ويناقشونه، وكان الصحابة يكر بعضهم على بعض، ويرد بعضهم على بعض.

ثالثها: استغلال التصوف للدنيا، واستغلال بعض المشايخ المتصدين للوعظ والإرشاد باسم التصوف، لجهل مريديهم أو ثقتهم بهم، فأكلوا أموالهم، وأكلوا من أموال الناس والخلفاء والسلاطين، وهم يتظاهرون بالورع ويدعون إلى الرهد، ويتعلل مشايحهم لذلك، بأن ما يأخذونه من الناس أقل مما يعطونه لهم، فهم يعطونهم هداية وإرشاداً يوصلون بها إلى الجنة فيما يأخذون منهم مالا يغني، وعرضاً يرول، وقد انطلت هذه الحيلة على كثير من السذج والبسطاء والجاهلين بأحكام الدين.

هذه الآفات الثلاث كانت وحدها كافية لتضل الناس عن دين الله كما جاء به رسول ﷺ، ولتعطيل ملكات الفهم والنقد بينهم، حتى أصبح من السهل على مريدي أولئك المشايخ المستغلين أتهام أي مريد ذكي يتساءل عن أفعال الشيخ، بالكفر والمروق والزندقة، وأقل ما كانوا يقولون عنه: إنه محجوب عن أنوار الحق، غير جدير بالدخول معهم في حظيرة الأنس التي يوصلهم إليها الشيخ بروحانيته وبركاته.

تخلف المجتمع الإسلامي عن ركب الحضارة:

ونبعاً لذلك، ولانتشار التصوف بأفاته الثلاثة في العصور المتأخرة، انهار المجتمع الإسلامي، وتخلف عن مسيرة ركب الحضارة، فوقع في أنياب المستعمرين الذين كثيراً ما استغلوا أولئك المشايخ الدجالين لتخدير الجماهير وإقناعهم بالرضوخ للاستعمار، كما يعلم ذلك من تاريخ البلاد الإسلامية في القرنين الأخيرين.

المرشدون الهداة:

ولكن رحمة الله بعباده تأبى أن ينتشر الضلال والتدجيل باسمه واسم دينه، فكان في كل عصر يصنع على عينيه رجالاً عظماء يرجعون الناس إلى شريعة الله، ويعملون على تهذيب النفوس محلصين لوجه الله لا يريدون جزاء ولا شكوراً، وبذلك أصبحوا في مجتمعهم جنة وارفة الضلال في صحراء مُجذبة مهلكة، وأعادوا الناس إلى حظيرة الحق والخير بعد أن كادوا يأسون من وجود من يرشدهم إليها.

ولقد أدركنا في صغرنا بعضاً من هؤلاء الهداة المرشدين، ولكن الله توفأهم إلى رحمته قبل أن نستفيد من إرشادهم وروحانيتهم المخلصة النقية.

العارف بالله فقيد الإسلام أحمد الحارون:

وممن أدركناهم واستفدنا منهم فائدة نشهد بها أمام الله هو: العارف بالله فقيد الإسلام الشيخ أحمد الحارون الحجار الذي اختاره الله لحواره في هذا الشهر^(١)، فكانت الفاجعة به أليمة، والخسارة فادحة لئدرة مثل هذا الطراز من الرجال الذين يُخيون القلوب، ويُنعشون الأرواح، ويلتزمون حدود الشريعة، ويتعدون عن استغلال التصوف لجمع المال والشهرة.

نشأته الأُمِّيَّة وعمله بقطع الحجارة:

كان شيخنا الحارون رضوان الله عليه في أول أمره أُمِّيًّا يشتغل بقطع الأحجار من الجبال ونحنها لتكون صالحة لبناء الدور، وكان أحياناً يعمل من هذه الأحجار أحواضاً للماء توضع في الحمامات في البيوت، وكان من طموح الهمة وذكاء البصيرة أن تعلم - وهو كبير السن - مبادئ القراءة والكتابة.

(١) توفي الشيخ الحارون ليلة الجمعة ١٩ حمادى الأولى ١٣٨٢، عن ٦٧ سنة رحمه الله تعالى، وولد سنة ١٣١٥.

منار المهتدين:

وكان من قوة الروح بحيث أصبح مناراً للمهتدين، وفرشداً للمضالين، وقد أنقذ بهدايته وروحانيته عدداً من أبناء البيوت المعروفة في دمشق ممن كانوا ينغمسون في الترف واللهو، فأصبحوا بعد ذلك من كرام الناس ديناً وأخلاقاً واستقامة، وبذلك أحبوه الحب الخالص لله، فلزموا مجالسه، واستفادوا من أخلاقه ومواعظه، واعتبروه الأب الروحي لهم حتى اختاره الله لجواره.

وقد كنتُ أتردد عليه قبل مرضي وبعده، وبدأت أمري معه مُختبراً ومراقباً، وانتهيتُ إلى أن أصبحت مُحباً ومُعجباً ومُريداً.

تواضعه وزهده وسخاؤه:

كان من أهم ما حبه إليّ تواضعه، وحُسن خلقه، وتهربته من الشهرة، وزهده في الدنيا مع إقبالها عليه، وسخاؤه الذي لا أعتقد أن له فيه مثيلاً أو قريباً منه، وفهمه للإسلام فهماً صحيحاً صافياً، وإدراكه لمشكلات الحياة التي يحياها المسلمون اليوم.

فهمه الصحيح للإسلام:

قلت له ذات مرة وأنا غارق في القضايا العامة من سياسية ودينية: إنني متألم لحرمانني من ساعات فراغ أتهجد فيها، أو أخلو فيها إلى نفسي، أو أقرأ القرآن قراءة تدبر وتفهم، فكيف السبيل إلى الجمع بين التعبّد وبين العمل السياسي والإصلاحي؟

فأجابني على الفور: وهل يقلُّ أجرُ العمل الذي تقوم به عن أجر العبادة والتهجد والخلوة؟ إنَّ ما أنت فيه عبادة من أكثر العبادات ثواباً، فلا تندم على ما أنت عليه.

لم أكن أنتظر من شيخ متصوف مبتعد عن الدنيا وعن الجاه والشهرة، أن يقول لي مثل هذا الجواب، فلما سمعته منه ازدادت يقيناً بأنني إزاء رجل

من الهداة الذين يفهمون الدين حقّ الفهم، ويفهمون خطورة العمل الذي تؤذيه حقّ الفهم، فازددتُ به إعجاباً، وازددت له حباً وتقديراً.

عطاؤه الروحي والعلمي:

وكنْتُ كلما شعرتُ بظماً روحي إلى كلام الربانيين وهدايتهم أذهب إليه، فأملأ روحي من هدي كلامه، وأملأ عقلي ممّا أفاض الله عليه في آخر عمره من فهم لمختلف العلوم، بحيث استطاع أن يُصنّف فيها عشرات المجلدات التي ستطُرُ أبداً ودائماً ناطقة بعظمة هذا الرجل وربّانيته واستعداده الروحي والعقلي، حتى كان كبار العلماء يعترفون له بذلك، وأذكر منهم على سبيل المثال: «مصلح الإسلام الكبير السيد أبا الحسن الحسيني الندوي»، فقد احتُمع به أكثر من مرة حين كان يزور دمشق، وأطلع على بعض مؤلفاته، ونقل منها آتياً، حتى إذا عاد إلى الهند نشر عنه ثلاث مقالات في مجلة «البعث الإسلامي» التي تُصدرها ندوة العلماء في لكهنؤ بالغة العربية.

ولما مرض شيخنا الحارون مرضه الذي أصبت بمثله قبله، كنْتُ أتردّد عليه برغم المشقة التي تنالني من ذلك، وكنْتُ أراه طريح الفراش يُعاني مثل ما أعاني إلا أنّ روحه القوية ما كانت تنأى به عن أحاديث العلم في مختلف فروعها، فكان - وهو طريح الفراش - يناقش ويتكلم ويحضر بعض كتبه لنرى رأينا فيها، مع استمراره على عادته في البشاشة والدعابة التي عُرف بها.

وانقطعت عنه في الفترة الأخيرة لشدة المرض عليّ، وكنْتُ أشعر بأن ابتعادي عنه يحرمني كثيراً من الخير، وكثيراً من العزاء، حتى فوجئت بنعيه إثر مرض جديد أنشَبَ أظفاره فيه رحمه الله.

إنني لأكتب هذه الكلمة وقد كتبت قبلها كلمتين عنه في الصحف اليومية، وأشعر أنني في كلّ ما كتبت لم أوفيه حقّه، ولم أعبر عما في نفسي من لوعة لفقده، بعد أن كانت تمتلئ حباً له وإعجاباً وإكباراً.

المثل الصادق لروح الإسلام:

يا شيخ الصالحين الصادقين، ويا مرشد النفوس والأرواح، ويا من كان في حياته مثلاً صادقاً لروح الإسلام، واستمراً لمؤثر عظيم لخلق الرسول عليه الصلاة والسلام، يا من فقدته دمشق وبلاد الشام في وقت هي أشد ما تكون حاجة إليه وإلى هديه وإرشاده.

أيها المُرَبِّي الحكيم، والعالم النفسي الروحاني الكبير، لقد أصبحت - إن شاء الله - في جنة الخلد ترتع فيها مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هنيئاً لك بما تركت وراءك من خير، وبما لقيت أمدك من ثواب، وعزاء لنا بما فقدنا فيك من أثر مبارك من آثار النبوة الذي كان بيت الهدى والخير والنور فيما حوله ومن حوله.

يرحمك الله ويسخ عليك رضوانه، ويجريك عما تركت في نفوس من عرفوك من طمأنينة تملأ النفوس، ومن هداية تدل على الطريق، ومن موعظة تستولي على العقول، فكنت بسيرتك وحياتك مثلاً صادقاً للهداة والمرشدين الذين عز وجودهم مع تطلع الناس إليهم..

يا بركة الشام، وروحها الصافية، ونورها المشرق، ومرشدها الصادق الصالح.. رضي الله عنك، لقد أتعبت من وراءك ممن يحاولون أن يسلكوا طريق الهداة والمرشدين..

هيهات! هيهات! إلا أن يكونوا مثلك زهداً وورعاً وعزوفاً عن الدنيا، ورغبة فيما عند الله.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.





محمد فؤاد الألوسي^(١)

(١٣٢١ - ١٣٨٢هـ)

(١٩٠٢ - ١٩٦٣م)

بقلم الأستاذ: عبدالعزيز البدري^(٢)

لقد صدق رسول الله ﷺ حينما قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(٣).

العلماء العاملون:

ومن نعم الله تعالى على الناس: العلماء العاملون، لأنهم القادة المصلحون، والأنمة الهادون، بهم تُنحَق الضلالة من الأفكار والعقول، وتنقش غيوم الشك من القلوب والنفوس، فيهتدي التائه الضال، إلى النور

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

(٢) هو العالم المجاهد الجريء عبدالعزيز بن عبداللطيف البدري، ولد سنة ١٩٣٠، وتوفي شهيداً ١٩٦٩/٦/٢٥، ودفن ببغداد، ينظر «تاريخ علماء بغداد في القرن الرابع عشر الهجري» ص ٣٩٤.

(٣) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، والترمذي (٢٦٥٢)، وابن ماجه (٥٢) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

والى الصراط المستقيم، عرف قدرهم الأولون، وأدرك منزلتهم الأقدمون، لأنهم كانوا حريصين على الإسلام، وتزاحم على أبوابهم الأمراء والحكام لأنهم آمنوا بقول الرسول الأعظم ﷺ: «إن العلماء ورثة الأنبياء»^(١).

لقد خسرت الأمة الإسلامية شخصية علمية فذة لها منزلتها السامية، ومكانتها العالية، في نفوس المؤمنين بالإسلام. وفقد المسلمون عالماً عاملاً جليلاً، تمثلت به صفات الرجولة الحقّة، في عقليتها المُستنيرة، وفكرتها العميقة، ونفسيّتها الطاهرة، وسلوكها الطيب المستقيم.

فكانت الخسارة الفادحة والفقد العزيز بموت سماحة شيخنا الجليل العلامة الآلوسي عليه رحمة الله تعالى ورضوان رب العالمين، وإنا على أثره لسائرون: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وتلك خسارة لا تُعوّض، ورزء جَلَلٌ أصاب المسلمين، ولكن المسلم وقّاف عند حدود الله تعالى لا يتخطّاها أبداً، يصبر في شدّة النكبة ولا يجزع من هول الصدمة، ولا يقول إلا كما علمه الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فموته - رحمه الله - مصيبة ألّمت النفوس، وأحزنت القلوب، وأدمعت العيون. ولكن المؤمن لا يقول فيها إلا بما يرضي الرب، كما قال سيدنا محمد ﷺ يوم فقد ابنه إبراهيم.

إنّ قبض العالم العامل، رزية العالم والناس، بل «إنّ موت قبيلة أيسر من موت عالم»^(٢) - كما جاء في الحديث - لا سيما في عصرنا هذا، الذي

(١) رواه أحمد (٥: ١٩٦)، وأبو داود (٣٦٤١، ٣٦٤٢)، والترمذي (٢٦٨٢) كلاهما في العلم، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٠) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وذكر البخاري بعضه معلقاً في العلم. وقال الحافظ في «الفتح» (١: ١٦٩): له شواهد يتقوى بها.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» ٢: ٢٦٣ (١٦٩٩)، وابن عساكر ٣٨: ٣١٨ من حديث أبي الدرداء. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١: ٤٧٣: أخرجه الطبراني في «الكبير»، وفيه عثمان بن أيمن، ولم أر من ذكره، وكذلك إسماعيل بن صالح.

أخذ العلماء فيه يتناقضون تناقضاً ملحوظاً، وبسرعة عجيبة، يعلم الله تعالى وحده حكمتها، بحيث لا نجد من يسدّ مكانهم ويشغل وظائفهم العلمية مجرد إشغال؟! .

وفاة عالمين في يوم واحد ببغداد:

وإذا علمنا أن بغداد شيعت في يوم واحد عالين جليلين هما صاحب السماحة: شيخنا الفقيد، والشيخ حامد الملا حويش خطيب الحضرة الكيلانية، ومدرس نائلة خاتون الدينية، وإمام جامع الحيدر خانة رحمهما الله تعالى. أدركنا جذب العصر منهم.. وشعرنا بفداحة المصاب بموت العالم العارف بالله، المدرك مهمته في الحياة، العامل للإسلام بعلمه، بصدق وإخلاص وجرأة غير خالط به غيره، ولا مشرك معه سواه، وإنّ فقيدنا الراحل إلى ربه من هذا النوع من العلماء.

حياة الشيخ الألوسي العلمية:

بدأ شيخنا الجليل رحمه الله حياته العلمية بالدراسة في المدارس النظامية، فتخرج من دار المعلمين معلماً، ولمّا يبلغ الثامنة عشرة من عمره، لذلك بقي معلماً شهرين في مدرسة باب الشيخ من دون أن يتقاضى راتباً، لأنه لم يبلغ السن القانونية وهي ثماني عشرة سنة.

وبقي معلماً فيها فترة قصيرة، وجد نفسه في نهايتها مضطراً إلى ترك التعليم النظامي، واتّجه إلى دراسة العلوم الشرعية، وكان من أسباب تبديل اتجاهه، هو أنه أصغر من تلاميذه، حيث لم تنبت شعرة في وجهه، فكان كما حدثني - رحمه الله - يطأطئ رأسه حياءً من تلاميذه الذين يكبرونه في السن، والعامل الأساسي في تبديل اتجاهه، هو حبه للدين وتعلقه به، إذ هو سليل أسرة علمية محترمة اشتهرت بالفقه والتفسير والحديث والصلاح والتقوى، أمّدت المسلمين بخمسة وأربعين عالماً، وبه رحمه الله كان مسك الختام، فمنهم والده السيد أحمد شاکر

الآلوسي من أشهر علماء عصره^(١) وإخوانه، ومنهم السيد محمد درويش الآلوسي (والد السيد هاسم الآلوسي)، والسيد حسن الآلوسي (والد الأستاذ المحامي محمد الآلوسي)، وحسبنا أن نذكر أنه حفيد للمفتي الأشهر أبي الثناء صاحب «روح المعاني» رحمهم الله جميعاً.

شيوخه:

وحيث أتجه إلى علم الشريعة، فتلقاه على علماء بغداد الأعلام. فدرس على الشيخ محمد سعيد الدُّوري حطّيب الحضرة الكيلانية. وعلى المرحوم الشيخ يوسف العطا مفتي بغداد. وعلى المرحوم الشيخ قاسم القيسي حطّيب الحضرة الكيلانية ومفتي العاصمة، وهو الذي أحازه كما ذكر فقيد في إجازته لي.

كما درس على سماحة الشيخ أمجد الزهاوي حفظه الله وأضال عمره^(٢)، وعلى سماحة الشيخ عبدالقادر الخطيب حطّيب جامع الإمام الأعظم حفظه الله تعالى^(٣). حتى بيع من بين طلاب عصره، فتعين مدرس في جامع الضاعة ببغداد. وهو يومئذ أصغر مدرّس للعلوم الشرعية في مدارس الجوامع.

تولّيه الإمامة والخطابة والتدريس:

وحيث تولّى الإمامة والخطابة والتدريس، نذر نفسه للتعليم والإرشاد ففتح أبواب مدرسته في جامع مرجان، وفي جامع السيد سلطان علي، للطلاب ورؤاد المعرفة، يدرس في الأولى من الصباح حتى الظهر، وفي الثانية من بعد العصر حتى الغروب، وما أن يؤدي صلاة المغرب إماماً في جامع مرجان، إلا وعاد ثانية إلى التدريس.

(١) وأعلامه. ومنهم عمه الواعظ الشهير العلامة نعمان الآلوسي. وأبناء أعمامه، ومنهم ابن عمه صاحب التصانيف الكثيرة العلامة محمود شكري الآلوسي (البديري).

(٢) توفي العلامة الشيخ أمجد الزهاوي يوم الجمعة ١٤ / شعبان ١٣٨٧.

(٣) توفي العلامة الشيخ عبدالقادر الخطيب يوم الاثنين ٢٦ / جمادى الآخرة ١٣٨٩.

شغفه بالتدريس:

لذلك لم أر مدرساً شَغِفَ بالتدريس، وتعلّق قلبه بالتعليم مثله. وبعد هذا فلا عجب أن قضى نحيبه، ولفظ أنفاسه الأخيرة، وهو في حلقة درسه في محراب جامع مرجان بعد أن أدى صلاة المغرب. وتلك حالة أقرب ما يكون العالم إلى ربه، وتلك مئة الصّديقين والعارفين بالله تعالى، حيث لم يشعر بالأم ولم يتوجّع من مرض.

برّه بتلاميذه:

كان رحمه الله تعالى، من أبرز المدرسين بتلاميذه، يتفقدهم ويواسيهم في أفراحهم وأتراحهم، يساعد ضعيفهم ومُعسرهم مادياً، ويُعين الجميع معنوياً، ويسارع إلى رفع المطالم عنهم، وتلك حقائق لها واقع موجود، إن أوجزتها اليوم فسأعود إليها بالتفصيل غداً إن شاء الله إن جعل الله تعالى في العمر بقية.

لقد عهدنا التلاميذ يرون عليهم واجب شكر مُدرّسيهم والدعاء لهم، ولكننا عهدناه يشكر تلاميذه على حضور الدرس، ويدعو لهم، ويتفقد أحدهم إن غاب عنه.

علمه الواسع وفهمه العميق:

لقد آتاه الله تعالى علماً واسعاً، وفهماً عميقاً لأحكام الإسلام، وكثيراً ما كانت مغاليق الجمل في أثناء الدرس تفتح على يديه، وكنا نشعر بهذه الفتح حين يرى وجهه يتلأأ بعد صمته منه لا تتعدى الدقيقة الواحدة. فهو من المُلهمين الذين ينظرون بنور الله.

تَقَلَّمُ الشيخ البدري عليه خمسة عشر عاماً:

ولقد منّ الله تعالى عليّ وتفضّل، أن جعلني من طلابه ومريديه، فقد صاحبتُه منذ عام ١٩٤٨م، تلميذاً حتى لقي الله بعد مغرب يوم ١٢ كانون الثاني ١٩٦٣م. وفي أواخر هذه المدة تخرّجت على يديه، ولكي لم أترك

الدراسة عليه في العطل الطويلة، وكان مريحني فيما ليس عليّ فهمه من أمور الشرع، وما شعرت في يوم من الأيام الخمسة عشر عاماً التي قضيتها بصحبته أنه أشعربي بأنه أستاذ وشيخ يحب أن أسمع قوله وأخذ رأيه من دون مناقشة، فكم كانت ملاطفته لي حينما كانت تعزيبني عصاة رافع صوتي على صوته من جراء إصراره على رأيه الذي لا أفهم حقيقته لأول وهلة فكان يتبع الملاطفة بدعاء أن يفتح الله قلبي للفهم...

وحين اعتذر منه يُجبنني بأن لا حاجة للاعتذار لأنك لم تفعل شيئاً. وتلك والله من شيم علماء الآخرة...

زهده وجرأته في الحق:

كان شيخنا المرحوم، من زهاد العلماء ومن أئمة الدين الورعين، ذا جرأة فائقة لا يخشى في الحق لومة لائم، يعرف ذلك كل من رافقه في ملاقاته المسؤولين، أو من سمع وعظه في مرجان وخطبته في الجامع العاقولي، لذا كان من العلماء الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر الذين يهتمون بأمر المسلمين، ويتتبعون أحوالهم، فكان يسمع الإذاعات الإحصائية من مذياع وضعه في غرفته الخاصة بالجامع، ويقرأ الجرائد اليومية، ويحتفظ بالخبر الهام، وكان الحزن يأخذ نصيبه منه، حين يسمع بما يجري في عالم المسلمين وما يقع فيه، من مصائب وويلات.

آراؤه السياسية الناضجة:

وله آراء سياسية ناضجة، وحكم صائب في الحوادث الواقعة، عرفها كل من جالسه وصاحبه، فكان من العلماء الذين يؤمنون بأن السياسة حكم شرعي، لأنها تعني رعاية شؤون الأمة والاهتمام بأمرها، أو تعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما دُعِيَ إلى عمل فيه نفع المسلمين إلا وسارع إليه، بل كان في أكثر الأحيان هو صاحب فكرة ذلك العمل، وقد أجمع علماء عصره ومن عرفه على وصفه بثلاث: عالم، جريء، ورع.

طريقته في الوعظ:

كان رحمه الله تعالى، واعظاً مشهوراً يعط المسلمون في شهر رمضان المبارك، وكان وعظه مركزاً يتسم بوحدة الموضوع. وكان يأخذ من الوقت ما لا يقل عن ساعتين، ورغم ذلك فلم يشعر سامعوه الكثيرون بالملل، وكنت تراهم يملؤون حرم الجامع ورواقه، السعيد من جاء مبكراً ووجد مكاناً قريباً من كرسي الوعظ، وكثيراً ما طالبه بعض السامعين بإطالة الوعظ حين يروونه يخرج ساعته لينظر الوقت. والسبب في ذلك أنه كان يعمل كل عامه دارساً وباحثاً لجمع المعلومات لدروس الوعظ وتصنيفها وتبويبها حتى تكون جاهزة في يومها المعلوم. فكان يفيد من آيات الله الكريمة، ويتخير من أحاديث رسول الله ﷺ، ويفيد من المثل السائر والشعر الرقيق والقصص الديني والعبرة السائرة، كما يفيد من سير الحوادث في أيامه سياسية كانت أم اجتماعية، ليحعل وعظه فكرياً وروحياً لذيذاً سائغاً للسامعين، ولم ينس في يوم من الأيام نصيحته للحكام التي يقولها مدوية صريحة تأخذ بمجامع القلوب والألباب، إنه كان يشعر بثقل المسؤولية واعظاً ومُرشداً، ويبدل كل طاقاته بإخلاص ليكون وقته الذي يقضيه في الوعظ مفيداً للمسلمين. وقد كان كذلك إذ كان يخرج كلامه من قلبه فيستقر في قلوب السامعين ويجد مكانه فيه.

تصوّفه النقي:

وكان صوفياً من الطراز الأول، يفهم التصوف على حقيقته من أنه عمل بالكتاب والسنة، وتصفية القلب من شوائب النفاق والرياء وحب الدنيا والتساقط في الحصول على متعها الزائلة، وتنقية النفس من مهلكاتها المدمرة كالعجب والغيبة.

لذلك كانت دروسه ووعظه (مبروكة) إذ يشعر الدارس والسامع بالروحانية التي تحفّه والسموّ الروحي الذي يضعّه إلى عالم آخر.

أمله بنصر الإسلام:

كان الفقيد - عليه رضوان الله تعالى - من أولئك الذين لا يفتنطون من رحمة الله، وكان يشعر شعوراً عميقاً بأن الله لن يترك دينه، وأن الإسلام سيخرج من معركته منتصراً في النهاية. وكأنه كان يعلم بأنه سيودع هذه الدنيا الفانية، وكان لا بدّ من تذكير وموعظة لجلisاته والمسلمين، فأجرى الله تعالى على لسانه تفسير جملة وردت في تقويم باللغة التركية قرأها عليه ابن أخيه السيد هاشم الألوسي في مجلسه يوم الجمعة ١١ كانون الثاني ١٩٦٣م، تلك التي تضمنت قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران ١٣٩]، حدثني بذلك السيد هاشم ونحن في مجلس الفاتحة.

نبأ نعيه وتشيع جنازته:

وبعد ذلك، فإنّ خبر نعيه لم يكذ ينتشر بين الناس حتى ضِعقُوا لفداحة المصاب، وهول الصدمة، فخرجوا آلافاً مؤلّفة من الكتل البشرية يشيعونه إلى مثواه الأخير من سائر طبقات الأمة، وفي مقدمتهم حمهرة علماء بغداد والكاظمية وسامراء وطلاب المدارس الدينية. وقد أبوا إلا أن يحمل الجثمان الطاهر على الرؤوس ومشياً على الأقدام، بيس تكبير وتهليل وبكاء على الرّغم من بُعد الشّقة بين داره في محلة الفضل بالرصافة ومقبرة الشيخ معروف في الكرخ. وكانت أعينهم تفيض من الدمع حزناً على فقده، لقد كان الناس يشعرون أنّ الشجرة التي تركها الفقيد بموته يعزّ على الزمان أن يسدها، فمثله في الرجال قليل ومثله في العلماء أندر.

المصيبة بموت العالم العامل:

وإني أشهد الله تعالى أنّ هذه الكلمة لم تُف بحق الفقيد العزيز، إذ هي أضواء على جوانب معينة من حياته كما أنها لم تعبّر عما في نفس طالب من طلابه، من لوعة الفقد وهول الكبة وشدة المصيبة، إنها والله

مصيبة - كما سَمَّاها الله تعالى في كتابه^(١) - إن مات مسلم وكيف إن مات عالم، وكيف لا تكون المصيبة عظيمة إن مات مثل تبيحا العلامة الألوسي وهو من العلماء الرجال؟!.

مات رحمه الله تعالى، وهو في بداية العقد السابع عن ٦١ عاماً، والمسلمون أحوج ما يكونون إلى تعلم علمه والاقتباس من هديه والآراء بصلاحه وتقواه.

رحم الله تعالى الفقيه، المُحدِّث، المُفسِّر، المُدرِّس، الواعظ، الصالح، التقي، النقي أنا شاكر السيد الحاج محمد فؤاد بن السيد أحمد شاكر الحسيني الألوسي. وعوّض المسلمين عن فقدته خير عوض، ولا حزن ولا قوة إلا بالله.



(١) في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْنَعْنَاكُمْ نُصِيبُ الْمَوْتَ﴾ [المائدة ١٠٦]

الأمير محمد عبد الكريم الخطابي^(١)

(١٢٩٩ - ١٣٨٢هـ)

(١٨٨٢ - ١٩٦٣م)

بقلم التحرير

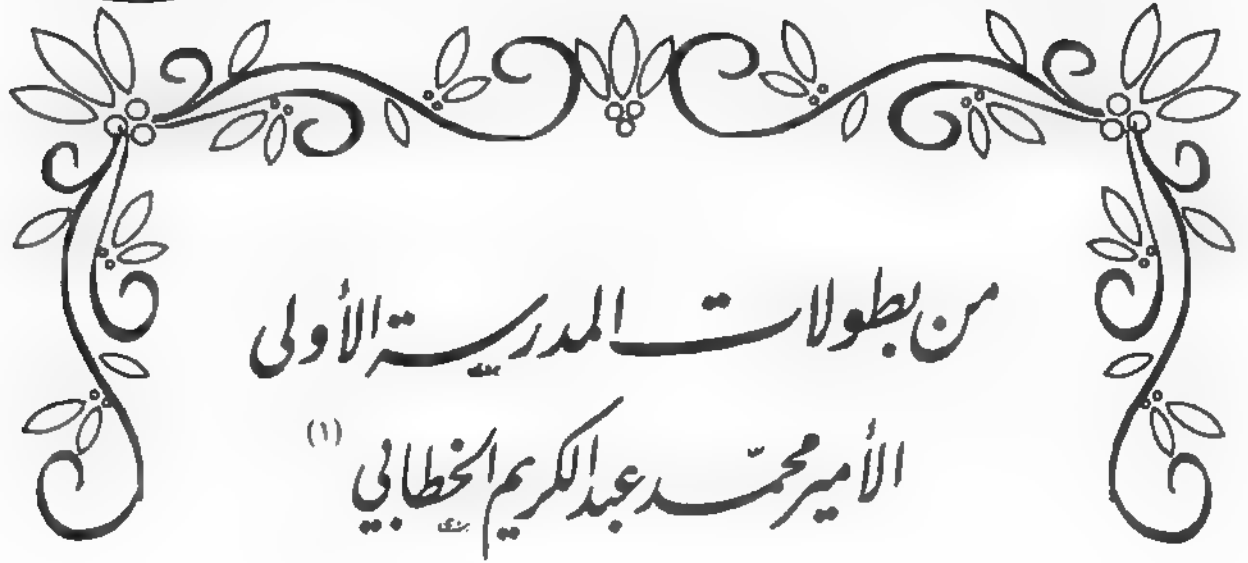
فوجئ العالم الإسلامي في نهاية العشر الأول من شهر رمضان المبارك بوفاة السيد المحاهد الأمير عبد الكريم الخطابي رحمه الله، الذي قارع الاستعمار الفرنسي والإسباني، وقاد ثورة الريف اللاهية ببطولة فذة وشجاعة نادرة، دفاعاً عن دينه ووطنه.



وقد عاش رحمه الله بعد انتهاء الثورة منفيًا خارج بلاده مدة تقرب من أربعين عاماً، اختار مصر في نصفها الثاني وطناً له، وقد كان الفقيد قرّ عزمه أخيراً على اللحاق بمسقط رأسه في الأيام القريبة، فحالت المنية بينه وبين تحقيق أمنيته... فاستقبله ثرى وطنه واحلاً، كما نزلت عليه دماؤه مجاهداً واستقرت، وقال: إنه ينصح أبناء الإسلام بقراءة القرآن أولاً وقبل كل شيء... لقد تضمن القرآن كل شيء، إن السعادة كل السعادة في كتاب الله المجيد.

رحمك الله يا زعيم المجاهدين المؤمنين... لقد خفت ربك فحافك أعداؤه، وتلوت كتاب الله، فخرجت تقاتل في سبيله... وستبقى حياتك نبزاً لشباب الإسلام المكافح في سبيل دينه وعقيدته.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).



للأستاذ: عدنان زرزور

حال المسلمين عَقِبَ وفاة النبي ﷺ وحالهم في مطلع هذا القرن:

وصفت عائشة رضي الله عنها حال المسلمين عقب وفاة النبي ﷺ، فكان مما قالت: «لَمَّا قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَجَمٌ»^(٢) النفاق، وارتدت العرب، وكان المسلمون كالغنم الشاردة في الليلة الماطرة...»

ولست أرى صورة وراء هذه الصورة التي ضلَّ فيها النجم، واسودَّت حواشي الأفق، وغاب فيها الكون في سكون عميق تتعثر خطاه على وقع المطر الشديد، يمكن أن تُصوِّر حال المسلمين في مطلع هذا القرن، وقد استيقظوا من ليل الجهل، على أصوات الحضارة الغربية وجَلَبَتِها وأضوائها، تبهر العيون وتقرع الأذان!..

تسلُّم الحضارة الغربية زمام الركب البشري:

لقد سارت الحضارة الغربية في طريقها تتسلَّم زمام الركب البشري

(١) حضارة الإسلام، العدد التاسع، السنة الثالثة: (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).

(٢) نجم: نشأ.

الضارب في صحراء الحياة، بعد أن صنع الركب خدائنه المسلمون، يوم فقدوا ذاتهم، وأغفوا على أحلام الخرافة والأوهام... والقافلة الإنسانية - ي ويحها - ماذا جئت حتى يتسلم قيادتها للصوص؟!...

من ثمار الحضارة الغربية:

لا أريد أن أتحدث عن هذه الحضارة الآثمة وخزاسها ونتاجها العريضة في الكون، فبحسبي أن أشير إلى ثمرة واحدة من ثمارها الفخمة التي عشت بها خلوق الإنسانية بالأمس، ولا تزال تملك آثارها المرة إلى اليوم... إنها الحرب! حريان عالميتان في ربع قرن من الزمان، لم يتجرع كأس سمها أصحاب هذه الحضارة وحدهم، بل أفرغ هذا الكأس في أفواه الشعوب كلها إفراغاً... وخصوصاً تلك الشعوب المسلمة التي كانت تقود القافلة الإنسانية بالأمس؛ لأن سبب وبيد قادة اليوم من العداوة، ما بين حراس القافلة ولصوصها.

اقتسام العالم الإسلامي:

وهكذا خيل لحضارة الغرب الصليبية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، أنه قد خلا لها وجه الحياة على الأرض، فسعت إلى اقتسام ما تبقى من أحرار العالم الإسلامي غنيمة سميئة باردة!، وكان من بين هذه الأجزاء: المغرب العربي الإسلامي، سعت إلى ذلك بخطوات ثقيلة متلاحقة... لكثرة ما حملت على عاتقها من الحديد، وما أتمخت به معدتها من أقوات الشعوب!!، وفكرها المخمور لا يصحو إلا على صورة الأندلس: الفردوس المفقود، تحفزهم وتحثهم على "استرجاع" المغرب الإسلامي اليوم، كما "غضبوا" أندلس الإسلام بالأمس.

هذه هي "الحقيقة" التي كانت ماثلة في أذهانهم، يومذاك، وكان كل ما حولهم يؤكد لهم أن النصر والعلبة ستكون في حابهم: القوة المادية بكل صيغها وعرور النصر وستونه في أعقاب الحرب، إلى جانب التحلف والفقير والضعف المادي في أرجاء المغرب الكبير.

بزوغ سيف الأمير الخطابي:

ليس من شك في أنَّ الجوّ كان مُكفَّهراً يُنذر بالخطر والسَّوء... ولكن كما يبرز فجر من وراء السحب الدكناء فيبدّد سوادها ويقصم بعموده القوي اللامع ظهر الليل، بزغ سيف الأمير عبدالكريم الخطابي يلمع في سماء المغرب، ليقصم أصلاب الفرنسيين والإسبان، ويعلم الدنيا أن غزوة بدر: مدرسة الجهاد الأولى في الإسلام، لها جندها في كل زمن وحين، وأنها المدرسة التي صمدت للأمواج المتلاطمة، والعواصف الهوج، فأمدّت العالم الإسلامي في كل فترات حياته بقيادة كبار، يجاهدون في سبيل الله، وعلى بركة الله، وكان من هؤلاء الأبطال في عصر قراعنا مع الاستعمار: عمر المختار، وعبدالقادر الجزائري، وعبدالكريم الخطابي.

العالم الإسلامي مزرعة الغرب:

منذ مطلع هذا القرن، والغربيون يعتبرون العالم "مزرعة" لهم، ومن يدري؟ فلعل هذا من قواعد حضارتهم؟! ففي عام ١٩٠٢ اتفقت إيطاليا وفرنسا على أن تطلق يد الأولى في طرابلس الغرب، مقابل حرية العمل في المغرب للثانية، وفي نيسان من عام ١٩٠٤ اتفقت فرنسا وإنكلترا على أن تتعهد الأولى بعدم عرقلة عمل الإنكليز في مصر، مقابل أن تعترف إنكلترا بحق فرنسا المطلق في المغرب، وفي نفس العام تم الاتفاق بعد ذلك بين فرنسا وإسبانيا على الموافقة على اتفاق نيسان، نظير أن يكون لإسبانيا نفوذ في بعض مناطق المغرب!!

وظن بعضهم بألمانيا خيراً حين نزل أمبراطورها عام ١٩٠٥ بمدينة طنجة وقال فيها: «إن زيارتي هذه لسلطان المغرب، الملك المستقل»!! ولكن ما أن اتفقت مصالح ألمانيا وفرنسا على اقتسام «الغنائم» الاستعمارية، حتى أطلقت ألمانيا يد فرنسا في المغرب، نظير ترك الكونغو الإفريقي لألمانيا. وكان ذلك عام ١٩١١، الذي لم يمض عليه أكثر من عام حتى وقع السلطان معاهدة الحماية على البلاد!!

وكان عمر الأمير عبدالكريم يناهز الثلاثين يوم وقعت بلاده تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الإسباني.

ولادة الأمير محمد عبدالكريم ونشأته ودراسته:

فقد ولد الأمير عام ١٣٠١هـ في بلدة «أجدير»، وهي خليج صغير على شاطئ المتوسط بين تطوان ومليلة، ونشأ على حفظ القرآن ودراسة الفقه والتمسك بقواعد الإسلام الحنيف ويتصل نسبه بالنبي ﷺ. تلقى الأمير عبدالكريم دروسه الابتدائية والثانوية في مليلة، ثم التحق بجامعة القرويين - أقدم جامعة في العالم - بفاس.

وظيفته وقبض الإسبان عليه:

ثم تخرج مدرساً بمليلة، وعمل مُحرراً في بعض الصحف اليومية ثم عين قاضياً بعد ذلك، حيث بدأ خطره يشتد على الإسبان، حتى أنهم قبضوا عليه في عام ١٩١٥ بتهمة الميل للعثمانيين والعمل على الدفاع عن الخلافة وإلهاب الشعور الإسلامي (ضد الصليبيين الجدد)، وقدموه للمحاكمة أمام مجلس حربي عسكري، ظهرت فيه شجاعة الأمير الفائقة وثقته المطلقة بهذا الدين الذي يعتنق.

حواره مع رئيس المجلس العسكري:

التفت إليه الجنرال (أي أسبورو) رئيس المجلس العسكري قائلاً: هل تعمل حقاً ضد الحلفاء؟ فقال: نعم، فسأله: وما هو سبب ذلك؟ يقول الأمير عبدالكريم: فقلت له: «لأن الدولة العثمانية دخلت الحرب باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية، وهي تقف بجانب ألمانيا وأستوريا (النمسا)، وأنا مسلم مراكشي والخليفة نادى بالجهاد ضد الحلفاء لتحرير بلادنا التي تحتلها فرنسا وإسبانيا».

فقال له الجنرال: وما هي علاقتك بالخلافة؟ فأجابه: إنها خلافة المسلمين كلهم في مشارق الأرض ومغاربها، ولذلك فأنا معهم لنحارب

الحلفاء... فضحك الجنرال ثم قال له: أنا أعلم أنك رجل نبيل ومن أسرة نبيلة معروفة، ولكن ألا تعلم أن دولة إسبانيا ملتزمة الحياد، وأنت قاضي القضاة في منطقة الحماية؟ فقال له الأمير عبدالكريم: هذا لا يمنعني من القيام بواجبي، وأنا أرى كثيراً من ضباطكم يتعاملون مع الألمان الموجودين هنا لتغذية الحرب ضد فرنسا، بجانب تركيا، ثم إذا كانت الوظيفة تمنعني من القيام بالواجب الوطني فأنا مستقيل من هذه الوظيفة منذ الآن، لأنفزع للقيام بالواجب المحتم علي... .

محاولة هروبه من السجن:

وُزَّجَ بالأمير عبدالكريم في السجن، وبدأ كفاحه الدامي ضد الإسبان الواغليين. الذين اعتبروا اعتقاله «رهينة» عن والده، الذي بدأ كفاحه ضد الإسبان في الريف المراكشي، وحاول البطل المجاهد الهروب من السجن، فقام في الساعة الحادية عشرة ليلاً بالقفز من أعلى برج في القلعة إلى الأرض بواسطة حبل معلق على طرف حديدي مربوط به فتدلى مع الحبل. ولكن الحبل لم يصل به إلى الأرض فبقي فترة من الزمن معلقاً في الفضاء، ثم رأى أن يقفز المسافة الباقية، وكانت الرياح شديدة عاتية، فسقط على رجله اليسرى نتيجة اختلال توازنه من شدة الرياح، فكسرت ساقه وشج رأسه وخرج مفصل يده عن موضعه.

محاولة الضغط على والده:

وأعيد هذه المرة إلى سجنين: سجن القيد وسجن المرض، وعلم والد الأمير عبدالكريم بالأمر في الوقت الذي كان يستعد لشن هجوم كبير على الإسبان، فكتب إلى القائد الإسباني يقول له: لا تعتقدوا أن اعتقال ولدي ووجوده عندكم في السجن يمنعني من العمل ضدكم، فهو وأنا وجميع أفراد العائلة مستعدون دائماً لمواجهة الظالمين بما يستحقون.

وعندما دخل بعض الضباط على الأمير السجين وطلب إليه أن يقنع والده بالكف عن محاربة الإسبان، وهدده بنقله إلى سجن (ملقة) وهو سجن

المجرمين، التفت إليه الأمير قائلاً: إنني لا أستطع أن أمر والدي بشيء! بل هو الذي يأمرني وأنا مطيع له في كل شيء، وأنا مسعد للذهاب إلى سجنكم في ملقة، ولا يهمني ذلك مطلقاً، ولتفعلوا بي ما تشاؤون من اليوم، وأنتم ظالمون على كل حال، ولا تنتظروا مني شيئاً غير هذا...

معارك أهل الريف والإسبان:

ولما فات على الإسبان الغرض من سجنه خلوا سبيله بعد ذلك. ودارت بين الإسبان وأهل الريف بقيادة والد الأمير عبدالكريم عدة معارك، وكان الجيش الإسباني يحتل شرق الريف وغربه، والفرنسيون يحتلون جنوب الريف، وتوفي والد الأمير قبل أن يسير الإسبان جيشاً كبيراً من الشرق، بمدفعه وطائراته، يزحف غرباً نحو أرض الريف، ولم يترك شبراً من الأرض إلا قام بتحصينه وبناء القلاع فيه، وتقدم الأمير عبدالكريم بألف من المجاهدين لمقابلة خمسة وعشرين ألف جندي مجهزين بالعتاد والذخيرة، ومن ورائهم مؤخرة وحاميات...

استرداد المجاهدين لمركز (أبسران):

وتقدم الجيش الإسباني بقيادة الجنرال سلفستري، فاحتل بلدة أنوال، ثم تقدمت فصيلة منه واحتلت المركز الحصين أبسران، وركز المجاهدون هجوماً معاكساً شديداً استردوا فيه المركز وأفنوا الحامية، وغنموا كل ما فيه، فأقسم الجنرال العليج لبيدئ جيش الحفاة العصاة، صيادي الأسماك!!..

إبادة الجيش الكبير:

واستظل المجاهدون للمعركة الفاصلة براية محمد ﷺ، وطافت في أذهانهم بطولات بدر... ألف مجاهد في مقابلة خمسة وعشرين ألف جندي في معركة استمرت خمسة أيام كاملة من عام ١٩٢١، تسفر عن إبادة الجيش الكبير على أيدي الفئة المؤمنة: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إننا نتطلع بشوق إلى اليوم الذي تأخذ فيه مذكرات الأمير الخطابي طريقها للنشر، لنعلم من تفاصيل هذه المعركة ما لم نعلم...

أما إسبانيا فقد سقطت حكومتها، وقامت محلها حكومة أخذت على عاتقها تجهيز مائة ألف جندي لتطبق بهم على «أجدير» بلدة الأمير عبدالكريم، من عدّة جهات... ولكن فات جميع دول الاستعمار في العالم أن الشرارة التي انقذت في النفس المسلمة الغافلة فأيقظتها لن تخبر بعد اليوم أبداً، وأن الذي انتصر عليهم اليوم ليسوا أولئك النفر القليل... ولكنه هذا الإسلام العظيم فلو أن هؤلاء استشهدوا اليوم فسيحمل الراية من بعدهم كثيرون غيرهم... حتى يكتب الله النصر للمؤمنين...

عناية الأمير بالريف:

وعمل الأمير عبدالكريم بعد ذلك على تنظيم الجيش وإزاحة العقبات التي تقف في طريق نموه، ولم تنسه الأعمال الحربية القيام بالإصلاحات التي تحتاجها البلاد، فنظم مالية البلاد التي لم تقع تحت قبضة المستعمر وأصلح فيها الإدارة ونظم التجارة والزراعة، وعنى بحالة الريف الصحية والتعليمية.

معارك لاهية متلاحقة:

وتوالى جهاده مع جنوده الذين لم يزدوا على ألف وستمائة مجاهد، مع إسبانيا في جهة الغرب، وكذلك مع الفرنسيين من الجنوب، في معارك لاهية متلاحقة، يصيب فيها من الأعداء، ويصيب الأعداء منه، يصيبون من أعدائهم بإيمانهم وسلاحهم، ويصيب منهم الأعداء ب... الغازات السامة التي استعملها الإسبان أكثر من مرة.

اتفاق القوتين الفرنسية والإسبانية على محاربته:

ولما استندت وطأة الأمير عبدالكريم على الإسبان بعد الهزيمة التي الحثها بهم في آب من عام ١٩٢٤، لم يسع الديكتاتور الإسباني

«بريمودي ريفيرا» إلا أن يتولى القيادة العسكرية بنفسه ليعمل على إنقاذ جيشه، وتفاوض مع الفرنسيين لكي يفوموا بنجدته، وأثمرت مفاوضاته معهم، فاتفقت القوتان الفرنسية والإسبانية على محاربة عبدالكريم، وكانت فرنسا أقوى دولة برية في العالم، والجيش الإسباني ثالث الحيوش الأوروبية.

هجوم الفرنسيين:

وفي ربيع عام ١٩٢٥ بدأ الفرنسيون هجومهم تحت ستار صد هجوم مفتعل، «وكان الفرنسيون يريدون بفتح الجبهة، التخفيف عن الإسبان ومساعدتهم، وكان فتح الجبهة مفاجئاً، ولم ينته المجاهدون بعد من القضاء على الإسبان، وكانوا شبه محصورين بين البحر في الشمال، وهو في يد الإسبان والفرنسيين، والإسبان من الشرق والغرب، ثم الفرنسيين من الجنوب».

وسار جيش عبدالكريم بقيادة أخيه لمقابلة الفرنسيين الذين توجهوا إلى فاس، وأخذت الحصور تسقط بأيدي الجيش المجاهد، غير عابئ بالغارات الوحشية التي تشن عليه من هنا وهناك، وبالرغم من أن المجاهدين قد فقدوا ميزتهم في حرب الجبال وهم في طريقهم إلى فاس إلا أن قوتهم تضاعفت بسبب ازدياد عدد القبائل المنضمة إليهم، والتقوا مع الإمداد الفرنسية الكبيرة في «مزيان» فهزم الفرنسيون هزيمة منكرة، وأصبح الطريق إلى العاصمة مفتوحاً، فأسرع رئيس وزراء فرنسا إلى ميدان المعركة وعزل القائد الفرنسي المدعو «لوتي» المعروف بالحنكة والبراعة وعين المارشال «بيتان» كبير العسكريين الفرنسيين، وطلبت فرنسا من إسبانيا أن تفتح جبهة رابعة، وعطت الطائرات سماء مراكش، وأخذت تضرب المدنيين على غير هدى، بل إنها تعمدت صرب الأسواق التجارية ودور العلم والمستشفيات، لتسبب الدعر والخوف، بل لتنفس عن شيء من حقدتها الصليبي، وتعمل على تطبيق بند من أهم بنود الحضارة الغربية!!

سقوط المقاومة في (البرانس) واعتقال الأمير:

وأسرع القائد الفرنسي الحديد وشن هجوماً انتزع به أهم معاقل المقاومة «البرانس» بينما كانت إسبانيا تستعد للزول بأجدير، فتم هذا الأمر في نيسان عام ١٩٢٥ بعد شهر من سقوط «البرانس»، وفي أيار من العام القادم كانت الجيوش الفرنسية والإسبانية تسير مجتمعة تحت قيادة «بيتان» تزحف من جميع الجهات على الأمير عبدالكريم والمجاهدين المغاربة، حين فاضته وطلبت إليه التسليم، فأبى ذلك عليه دينه ووفاءه، وفضل الاستشهاد في ساحة المعركة، ولم تلبث قوى الشر والعدوان أن أطبقت على الأمير وجماعته، وقادته أسيراً في ١٠ تشرين أول ١٩٢٦ إلى جزيرة «ريبيون» على المحيط الهندي، شرقي مدغشقر.

نفيه إلى جزيرة (رينيون) واعتكافه على العلم والعبادة:

وأمضى المجاهد الأسير مع شقيقه وعمه وأهله عشر سنوات كاملة وراء لجج المحيط يعاني مرارة النفي والوحدة والانقطاع عن العالم، ولكنه إن انقطعت صلاته بالأرض، فإنها موصولة بالسماء بحبل متين..

لقد عكف الأمير رحمه الله على قراءة كتب في التفسير والحديث والعقيدة كان قد اصطحبها معه إلى الجزيرة، وعكف على العبادة والتوجه إلى الله... فأصبح رقيق النفس، مرهف الشعور، يتوجه إلى الله بالدعاء وقد وخط الشيب عارضيه، ووراء سنوات من الجهاد في سبيل الله وحده.. جهاد في الشباب، وعبادة وعلم وورع في المشيب، وإخلاص لله في كل عمل، ووعد من الله بالجنة للشهداء.. كل ذلك طريق إلى دار الخلد مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ويمضي الأمير في الجزيرة النائية الموحشة أحد عشر عاماً آخر يسمح له فيها بالتنقل في أرجاء الجزيرة الصغيرة وقراءة بعض الصحف والمجلات الفرنسية.

إطلاق سراح بطل الريف:

وفي عام ١٩٤٧ أعلنت فرنسا على العالم نبأ إطلاق سراح بطل الريف الأمير عبدالكريم الخطابي وأقاربه جميعاً، بشرط الإقامة في أحد قصور باريس، الذي أعدته لهم فرنسا، ووصلت الباخرة المقلّة للأمير إلى بور سعيد في ٢٩ أيار ١٩٤٧، لتتابع طريقها إلى فرنسا.

اللجوء إلى مصر والإقامة فيها:

وتشاء إرادة الله أن يتمكن الأمير المجاهد من اللجوء إلى مصر. والبقاء فيها. متلاً رائعاً من أمثلة الكفاح والفداء والصبر والجهاد، وليعلم كل من يرى الأمير الخطابي أو يقرأ تاريخ حياته الطويل. أن الإسلام يصنع الرجال. وأن الرّوح يصنعون التاريخ، وأن مدرسة بدر الكبرى باقية ما دام في الدنيا لسان ينطق وشمس تشرق على الأرض.

شهادة عضو مجلس العموم البريطاني:

قال المستر كورتي عضو مجلس العموم البريطاني: «إن عبدالكريم رجل حرب وجلاد، وزعيم يعرف كيف يجعل الجماهير تنقاد إليه، حتى صار الناس في الهند وبغداد والقاهرة يرون فيه رجلاً يصح أن يكون أميراً للمؤمنين، وحاملاً لسيف الإسلام، فإذا أصبح والحالة هذه في مركز يدعو فيه إلى الجهاد في إفريقيا الشمالية وبلاد العرب والأناضول، فإن إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تتعرض لأخطار جسيمة، ولا يبعد أن تمس هذه الأخطار دولاً أخرى غير هذه أيضاً».

صدى الصوت الذي أطلقه الأمير محمد عبدالكريم:

ليطمئن سيادة عضو مجلس العموم البريطاني، فإن إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تعرضت وتعرض لأخطار جسيمة، من غير أن يبائع الأمير الخطابي رحمه الله بالخلافة أو إمارة المؤمنين، لأن الصوت الذي أطلقه الأمير الراحل، ما زال يتردد في نفوس شباب الإسلام، وهو يحثهم على طاعة الله

ودراسة القرآن، ولأن الجذوة التي اقتبس منها الأمير ما رالت حية
مشتعلة... لا يزيدها صرب الريح إلا اشتعالاً... إنها الإسلام الذي لا
تزيده المحن إلا كشفاً عن طبيعته الإلهية المتفردة... ولأن المدرسة التي
أنبتت خالداً وصلاح الدين، والخطابي والمختار، قائمة خالدة. منذ أن
حاربت الملائكة مع المسلمين في يوم بدر.

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج ٤٠].





الأستاذ محمد الحموي

(... - ١٣٨٣هـ)

الشيخ محمد الحموي، من أهالي قرية (الكسوة) الواقعة جنوب دمشق في طريق المسافر إلى حوران، بينها وبين دمشق قرابة (١٦ كم).

بدأ طلبه على الشيخ عبدالرزاق الحمصي، حين كان هذا الشيخ إماماً وخطيباً لجامع هذه القرية، ثم قدم به شيخه إلى مدرسة التوجيه الإسلامي في أواخر الثلاثينيات الميلادية، وانقطع للتعلم والدراسة، وجدّ واجتهد، وبنت عليه أمارات الذكاء فنبغ في الدراسة، وعقد حلقات لتدريس المُستجدين من صغار الطلبة.

ثم اختير مع من اختير من المتفوقين من طلاب الدفعة الثالثة لتدريس الحلقات التي نُظمت تنظيمًا مدرسيًا متدرجًا.

ثم سافر إلى الأزهر، والتحق بكلية الشريعة، وقُبِلَ في السنة الثالثة منها بعد أن اجتاز الاختبارات اللازمة لذلك؛ ونال شهادة هذه الكلية.

وعاد إلى دمشق، وتقدّم لمسابقة مدرس التربية الإسلامية، فنجح وعُيِّن مدرساً في حلب، وأبدى نشاطاً ملحوظاً وتأثيراً كبيراً.

ثم عُيِّن مديراً للثانوية الشرعية بحلب (الخسروية).

وبينما هو عائد إلى حلب في أحد أسفاره بصحبة الشيخ إبراهيم السلقيني وبسيارتهم، تعرّضت السيارة لحادث، فكان الشيخ محمد الحموي

هو الصحبة، وأنجى الله رفاقه وسلمهم، وخرج أعيان أهل حلب في سبيهم جنازته، تقديراً لجهوده، رحمه الله رحمة واسعة^(١).

رثاء الأستاذ محمد الحموي^(٢)

للأستاذ محمد ضياء الدين الصابوني

فما أدري العزاء وما أقول!
وليس له إلى السُّلوى سبيل
وبادي الحزن طاغٍ والدخيل
فدمع العين منهمر يسيل
أم اصبر والخطوب بنا تصول
وماذا ينفع الصبر الجميل؟
إذا ما لَفَّها حزن طويل
وأضرم في الحشا هَمٌّ ثَقِيل
وكان لنا به رَوحٌ عليل
له في كل معضلة حلول
إذا ما أعوز السيف الضَّعِيل
إذا ما أحوج الرأي الأَصِيل
له في كل مكرمة دليل
ويشهد فضلها جيل فجيل

مُصَابُك إنه رِزٌّ جليل
جراح في الفؤاد يثُنُّ منها
وألتمس العزاء وأين مني
نعي الناعي إلى الشَّهبا وفيأ
أَبكي والبكاء له قليل
وهل يُجدي البُكا فيردُّ خِلاً
فلا تلم القلوب تذوب حزناً
وقد نزح البكا من كل عين
كأنفاس الضُّبا ولَّى سريعاً
فقدنا فيه خراً ألمعياً
فقدنا فيه سيفاً يعربياً
فقدنا فيه خراً ألمعياً
فقدنا أمة ومناش شعب
سنبكي فيك أخلاقاً كراماً

(١) من كتاب: «الوالد الداعية المرثي الشيخ حسر حنكة الميداني» وقد أورد نجل المؤلف الشيخ عبدالرحمن حنكة أعيان تلاميذ والده، وعذ منهم الشيخ محمد الحموي في أعيان الدفعة الثالثة ص ١٢٩.

(٢) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

وقد برزت منابرُها تقول
 إذا ما قصرت في الفحول
 وفي البَيِّداء يفتقد الدليل
 لَبَّان الخير واتعظ الجهول
 وحبُّك لا يزول ولا يحول
 ويُذكر عندها الفضل الجزيل
 إلى التقوى وقلْ لكم مثيل
 جريئاً لا يهاب إذا يقول
 وقد عزَّ المصابُ فما يحول
 ويغمرها الكآبة والذهول
 جميل الخلق قدوته الرسول
 فقيد العلم والخلق النبيل
 ففيها الأمن والظلُّ الظليل
 فخير عزائنا: صبر جميل

سَلُّوا (الشرعيَّة) الشُّكلى عليه
 بهمَّته بلغت ذرا المعالي
 سلوا الشهباء عن رجل المعالي
 سلوا عنه الشباب وقد تغذوا
 بيانك في قلوبهم وفاء
 ستذكر أيدياً غراً كراماً
 عرفتكَ يا محمدٌ خيرَ داع
 عرفتكَ مخلصاً حراً أبيعاً
 وقفنا خاشعين اليوم خيرى
 وقفنا والقلوبُ تسيل دمعاً
 نودّع راحلاً شهماً عزيزاً
 سقى الرحمنُ قبراً ضمَّ فيه
 هنيئاً يا أخي بجنانِ عدنٍ
 وألهم أهله السلوان دوماً



الأستاذ الشيخ محمد معدل^(١)

(١٣٢٤ - ١٣٨٣هـ)

(١٩٠٦ - ١٩٦٣م)

للأستاذ أحمد علي زخور

ولد فضيلة الأستاذ الشيخ محمد معدل في قرية (كللي) التابعة لإدلب عام ١٩٠٦م^(٢)، وتلقّى علومه الأولى على يد والده المرحوم الشيخ قاسم المعدل، ثم دخل المدرسة الخسروية بحلب، وتخرج فيها، فعُيّن إماماً وخطيباً في جوامع مدينة حلب، وأتاح عمله هذا أمامه فرصة التوسّع في العلوم الشرعية، ولهذا اختير للتدريس في



معهد العلوم الشرعية بحلب عندما تمّ تأسيسه وافتتاحه، واستمرّ على تأدية رسالته التوجيهية والتعليمية، حتى وافته المنية فجأة بتاريخ ١٠ ربيع الأول ١٣٨٣هـ، الموافق لـ ٣١ تموز ١٩٦٣م، فدفن في مدينة حلب رحمه الله رحمة واسعة.

حزن يقيم ولوعة وتفجّع وأسى يدوم وحسرة وتوجّع ولواعج تضني وجسم متعب والقلب كاد لفقده يتقطّع

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

(٢) جاء تحديد ولادته في كتاب «علماء من حلب في القرن الرابع عشر» سنة ١٣٣١هـ الموافق لسنة ١٩١٢م.

في شهر تموز وآخر يومه
خَطَفَ المنونُ حبيبنا وعزيزنا
فلربَّ أوقات قضيناها معاً
في يوم عيد أو بوقت زيارة
لما رأيت القوم ساروا خلفه
والحزن بادٍ والعيون دوامع
ناديته هلاً مررت مُودِعاً
فارقتنا ورحلت عنا فجأة
أحزنتنا لما ذهبت بسرعة
مهلاً أبا يحيى فهل من عودة
إنني رغبت جوار ربي مؤمناً
فسألته: أين اللقاء؟ فقال لي:
وهناك تحت لواء أشرف مرسل
يا حاملَ العلم الشريف وعاملاً
الحلم طَبْعَكَ فِطْرَةَ وغريزة
في كل أسبوع تؤدي خطبة
تأمرُ بأمر الله لا مُتَزَلِّفاً
وبذلت كلَّ الجهد في تعليم من
فلك المآثرُ والمفاخرُ والتَّقى
فتحل مشكلة وتقضي حاجة
فجزاك ربي خير ما يجزى به
وسلامه يُهدى إليك ورحمة
إنني وإن كنت الحزين لفقده
إننا نؤيِّنه ونذكر فضله

كان الفراق ولم يكن يُتَوَقَّع
ولفقده انحدرت كسيل أدمع
كنا بخسن حديثه نستمتع
كل الأحبة هكذا تتجمّع
والنعش من فوق المناكب يرفع
ويقلِّبه الله كلَّ يخشع
إذ كل من ينوي الرحيل يودع
إنَّ الفراق لمحزون ومروّع
وتركتنا في حرقه نتوجع
فأجابني لا رجعة لا أرجع
بعطائه وأنا بفضل أطمع
عند الذي نأوي إليه ونرجع
من حوضه نُسقى وفينا يشفع
بالسنة السمحاء فيك المفعج
وأصالة وسجيّة لا تنزع
في مسجد فيها الصراحة تسطع
لجماعة وهماً تضر وتنفع
يبغي تلقى العلم كي لا يمنع
واليك كان ذور المشاكل يرجع
بتواضع ولسائل لا تصدع
من كان مثلك للمكارم يصنع
ما جنَّ ليل أو صباح يطلع
فكثير مَنْ مثلي به لمولع
ولنجليه يحيى عزاء نرفع



شيخ المَعْمَرين في بلاد الشام^(١)

(١٢٧٥ - ١٢٨٣هـ)

(١٨٥٩ - ١٩٦٣م)

للدكتور مصطفى السباعي

فَقَدَتِ البلاد الشَّامِيَّةُ في الأيام القَريبة المَاضِيَّةَ عَلمًا من أعلامها البارزين، وعالماً من أكبر علمائها اللامعين، وشيخاً مَعْمَراً من أكبر شيوخها المَعْمَرين المعاصرين، ذلك هو العلامة المَغفور له الشيخ عبدالمحسن الأسطواني الذي توفاه الله عن عمر يقرب من مائة سنة وثمان سنوات هجرية.

ولادته وأسرته:

وُلِدَ الففِيد عام ١٢٧٥هـ - ١٨٥٩م، في دمشق من أسرة من أكرم الأسر الدمشقية وأغناها بالعلم والعلماء، وترجع أرومتها إلى بعض الثَّجباء من أبناء فلسطين الذين انتقلوا إلى دمشق أيام إقامة شيخ الإسلام العلامة أحمد بن تيمية فيها، فَتَلَمَذُوا عليه وأخذوا عنه الفقه الحنبلي، حيث تَمَذَّهَبَت أسرته من بعده بالمذهب الحنبلي إلى قريب من مائة وخمسين عاماً

(١) حصار الإسلام، العدد الخامس، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م). وتطر ترجمته في "رجال من التاريخ" لعلي الطنطاوي، و"تاريخ علماء دمشق" ٧٧٠/٢ - ٧٧٦.

خلت، ثم تمذهبت بعد ذلك بالمذهب الحنفي، فنشأ فيها علماء أجلاء في
الفقه الحنفي كان منهم والد الفقيه العلامة الكبير الشيخ عبدالقادر الأسطواني
رحمه الله (١).



(١) ولد سنة ١٢٤٩، واشتغل بطلب العلم، وأخذ عن مشايخ كثيرين، منهم: الشيخ عبدالله
الحلبي، والشيخ حسن الشطي، والشيخ عمر الغزي. برع في العربية والحساب والفقه
والأصول، وتصدّر للتدريس بين العشاءين في الجامع الأموي. توفي في ٥ شوال سنة
١٣١٤ عن ٦٥ سنة رحمه الله تعالى. كما في ترجمته في تاريخ علماء دمشق ١: ٢، ١٣٩.

دراسته وشيوخه:

تلقى علومه الأولى على أبيه وعلى كبار علماء دمشق في ذلك الحين، ومنهم الشيخ سليم العطار، والشيخ سعيد الأسطواني، والشيخ محمود الحمزاوي، وغيرهم.

وظائفه العلمية والسياسية:

تقلب في الوظائف العلمية والسياسية منذ اكتمال شبابه حتى سنوات خلت، وكانت أول وظيفة عمل فيها هي أمانة الفتوى في دمشق، وعمره حينذاك لم يتجاوز الثلاثين من العمر، وبقي في هذه الوظيفة حتى قبيل الحرب العالمية الأولى، حيث نجح في الانتخابات، وعُين نائباً في مجلس المبعوثان العثماني عام ١٩١٣م، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، اختاره الملك فيصل من بين الشخصيات الباغية لإرساء قواعد حكمه، فاختاره في عام ١٩١٩م، عضواً في مجلس السوري الذي كانت مهمته تنظيم سياسة البلاد وإدارتها وتأليف حكومتها، ثم عُين رئيساً لهذا المجلس، واستمر في رئاسته حتى عام ١٩٢٤م، حيث حلّه الفرنسيون بعد أن ضاقوا درعاً بوقوفه في وجه سياستهم الغاشمة وقوانينهم الجائرة.

القاضي الشرعي ورئيس محكمة التمييز الشرعية:

ولما اندلعت الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي عام ١٩٢٦م، شددت السلطات الاستعمارية الرقابة عليه وعلى إخوانه من أعضاء مجلس السوري مما اضطره إلى الإقامة في بيروت، ثم عاد إلى دمشق عام ١٩٢٧م، بعد انتهاء الثورة، فعُين قاضياً شرعياً ممتازاً لدمشق، وبقي في هذا المنصب حتى عام ١٩٣٦م، حيث عُين رئيساً لمحكمة التمييز الشرعية مدى الحياة (استثناء من قانون التقاعد) نظراً لغزارة علمه وعظيم استقامته وكفاءته.

إحالاته إلى التقاعد وعكوفه على المطالعة ومجالس العلم:

ولما حصل انقلاب حسني الزعيم عام ١٩٤٩م، أصدر قراراً بإلغاء جميع الاستثناءات، فأحيل إلى التقاعد بعد أن خدم الدولة بما يزيد عن

سبعين عاماً، كان فيها مثال العالم الجريء العامل لخير أمته وبلاده، والذي لا يخشى في الله لومة لائم.

ومنذ ذلك الوقت لزم داره وعكف على مطالعة الكتب ومجالس العلم والأدب.

مجلس الشيوخ:

وكان له في أواخر حياته مجلس أسبوعي مع كبار الشخصيات السياسية والعلمية في دمشق، منهم الرئيسان الفقيدان: محمد علي العابد وهاشم الآتاسي، والعلامة فارس الخوري، وغيرهم من شيوخ العلم والسياسة والأدب، وقد عُرف مجلسهم هذا بـ «مجلس الشيوخ»، وكنا نتحدث عنه نحن الشباب آنذاً. ونتمنى حضور جلسة من جلساته الممتعة لولا ما كنا نتحلى فيه من «صغر السن»!...

أبرز ما في تاريخ حياته رحمه الله أربعة جوانب رئيسية:
أ - حياته العلمية:

عُرف الفقيه رحمه الله بالذكاء والنباهة منذ نعومة أظفاره، وهذا ما أهله لمنصب أمين الفتوى، وهو لما يتجاوز الثلاثين، كان حسن الفهم لما يقرأ أو يسمع، حسن الاستيعاب لهما، قوي الذاكرة، سريع البديهة مما جعله محل إعجاب شيوخه وكبار رجال عصره.

درسه في جامع السلطان بإستانبول:

اتفق أن ذهب أثناء الحرب العالمية الأولى مع الهيئة العلمية برئاسة الشيخ أبو الخير عابدين مفتي الديار الشامية آنذاك إلى إستانبول للاطلاع على أحوال الجنود العرب في الجيش التركي المرابط على (الدردنيل)، وهناك طُلب منه إلقاء درس في جامع السلطان بعد صلاة الجمعة على غير استعداد منه، فألقى درساً حضره كبار علماء الإسلام والمشايخ والأمرء والقضاة وكبار رجال الدولة، وعدد غفير من طلاب العلم وجماهير المصلين في المسجد، استحوذ على إعجابهم جميعاً، فما انتهى من درسه حتى أقبلوا عليه يقبلون يده. ويبدو له عن عظيم تقديرهم لعلمه وفضله، ثم بعد أيام أقام السلطان

رشاد حفلاً تكريمياً لوفد الهيئة العلمية، فخصّ فقيدنا الكبير بأكبر قسط من رعايته، وتقدّم إليه فقبّل يده أمام كبار رجال الدولة وعلمائها وأمرائها ووزرائها، وهذه أول مرة تقع من سلاطين بني عثمان الأواخر على ما نعلم.

ولما تولّى رئاسة محكمة التمييز الشرعية ظهرت آثار علمه الغرير وفهمه العميق، فكانت تصدر عنه الأحكام التي لا تزال مرجع الحكام والقضاة في دقتها وصوابها.

وقد شغل منصب أستاذ في معهد الحقوق (كلية الحقوق) منذ تأسيسه عام ١٩٢٣م، فدرّس مجلة الأحكام العدلية، وأحكام الأوقاف، وكان مثال العالم المحقّق الذي يدرس النص من خلال أهداف روح التشريع مما ترك أعمق الأثر في نفوس تلاميذه وزملائه أساتذة المعهد.

ب - حياته الوطنية:

رأينا كيف كان الفقيد ممن أدوا إلى بلادهم أجلّ الخدمات إبان العهد الفيصلي باختيار الرجال الأكفاء لإدارة الدولة وإصدار القوانين اللازمة لإسادة بناء الدولة الجديدة، وذلك خلال عضويته ورئاسته لمجلس الشورى، ثم كيف وقف في وجه أطماع الفرنسيين وقوانينهم الجائرة ممّا حملهم على حلّ مجلس الشورى والتخلص منهم.

وفي عهد الانتداب الفرنسي، جاءه بعض علماء دمشق، والطائرات الفرنسية تضرب دمشق، يطلبون إليه التوجّه إلى الجامع الأموي للدعاء على الفرنسيين، فانتهرهم قائلاً: «الدعاء على الأعداء في المساجد صنيع المقعدين، والعدوّ بحاجة إلى مقاومة، فالى السلاح».

وفي عهد الاستقلال عام ١٩٣٦م، زاره في بيته رئيس الجمهورية مع أقطاب الكتلة الوطنية اعترافاً بفضله، وطلباً لنصحه وإرشاده في فجر الاستقلال، فقال لهم:

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران ١١٨]،

(بقصد الشيخ بذلك التنبيه إلى خطر أولئك الذين كانوا أعوان المستعمر في بطشه وعدوانه)، ثم قال:

وروى البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتخصه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتخصه عليه، فالمعصوم من عصمه الله»^(١).

ثم أخذ الشيخ يُوجّه نصائحه إلى رجال الحكم في عهد الاستقلال فما أتم حديثه حتى أهوى الفقيد الكبير سعد الله الجابري (رئيس الوزراء) على يديه فقبلهما، وكذلك فعل الآخرون.

ج - حياته الأخلاقية:

عُرف الفقيد بدمامة الأخلاق، وصدق الحديث، ونزاهة الحكم، وجرأة الجنان، والعطف على المضطهدين والمظلومين في كل دعوى ترفع إليه، فكان يُنصفهم ويحكم بالحق على حصومهم مهما كانت منزلته عالية، واتفق أن عالماً كبيراً من علماء دمشق توفي، فطلب ابنه من الشيخ أن يحل محل أبيه في وظائفه الدينية، فأبى الشيخ وقال له: أنت لا تصلح لذلك، فغضب ذلك الرجل، وكان يحل منصباً عالياً في الدولة، وهدد الشيخ بعزله وقطع راتبه، وتم للشيخ ما أراد دون أن يعبا بتهديد أو وعيد.

نكته ودعابته:

وكان رحمه الله مع شدته في الحق صاحب نكتة ودعابة، لا تفارقه في أغلب أحواله، ومما يذكر عنه في ذلك أن أحد تلاميذه توفي، فقام ابنه بتوزيع شراب (العرقسوس) صدقة عن روحه في كل شهر، وأراد الولد أن يعرف رأي الشيخ في صنيعه هذا، فقال له: «رأيت والدك في المنام فأخبرني أن أهل الجنة قد غرقوا من العرقسوس فغادروها، وبقي أبوك وحده في الجنة، فهلاً رحمته فأرسلت إليه بعض الطعام ليأكل!...».

د - تعميره:

عاش الشيخ رحمه الله مائة سنة وثمانين سنوات ظل إلى آخر لحظة

(١) اخرج البخاري (٧١٩٨)، والنسائي (٤٢٠٢) من حديث أبي سعيد الحديري.

فيها محتفظاً بذاكرته العجسه ولم يحسن في البس إلا في السنين الأخرتين من عمره، وقد سُئل عن سر طول عمره؟ فاجاب بأنه طوى الفراش منذ الستين (كناية عن بعده عن الحياة الزوجية)، وأنه كان فليل الطعام يأكل كل يوم وجبتين خفيفتين في الصباح والمساء، وبأنه اعتاد أن ينام بعد صلاة العشاء مباشرة في الغالب، ويستيقظ قبل بزوغ الفجر، وأنه كان يقول لأهله لا تخبروني عن شيء من الأحبار البيّنة المزعجة... هكذا قال رحمه الله، والآجال بيد الله، ولكل شيء سبب.

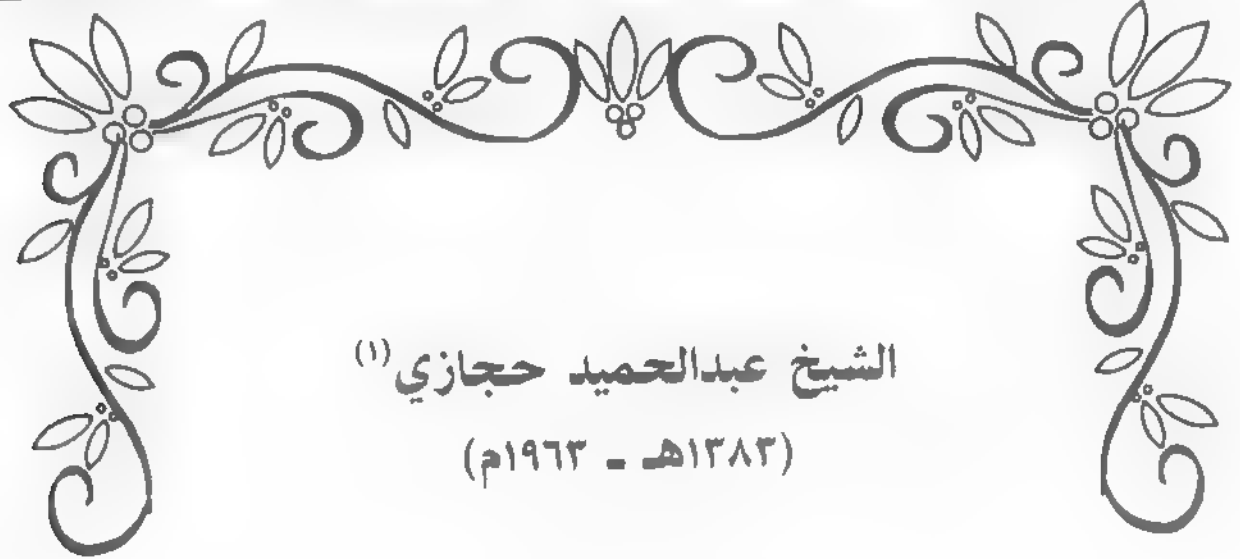
ومن المناسب أن نذكر هنا أن زوجته قد توفيت منذ سنتين، وهي تُشرف على التسعين، وأن له شقيقة لا تزال على قيد الحياة قد بلغت أكثر من خمس وتسعين سنة.

وبعد؛ فلقد فتدت دمشق والعالم الإسلامي بوفاة العلامة الكبير الشيخ عبدالمحسن الأسطواني روحها كريماً من أكرم وحوه علمائها شدة في الحق، ونزاهة في السيرة، وإخلاصاً للعلم، ولن كان الموت نهاية كل حي فإن جيلنا الذي يعيش أصعب فترات تاريخ أمتنا فناً ومشكلات، قد فقد بوفاة الشيخ الكبير تاريخاً حياً حافلاً بالأحداث، تاريخ قرن كامل شهدت فيه أمتنا من معطفات التاريخ ما حول سيرها وكيانها وحياتها الاجتماعية، فالفخسارة بالفقيد الكبير خسارة متعددة الجوانب، يرحمه الله ويحسن إليه، ويجعل سيرته في الخالدين.

مناجاة

من قصيدة للفقيد نظمها في أيامه الأخيرة

والرُّسُل والأُملاك والقرآن	أمنت بالله العظيم جلاله
والبعث يوم الحشر والميزان	وسائر الكتب التي قد أنزلت
مع شره من خالق الأكوان	أمنت بالقدر الإلهي خيريه
أنجو بها يا واسع الغفران	أرجوك يا مولاي نظرة رحمة
شابت بدين الحق والإيمان	عهدي بأنك لا تُعذب شيبة
والعبد أولى الناس بالإحسان	فلئن أسأت فإني عبدالمحسن
فلك البقاء وكل شيء فاني	فاحنم مدى أجلي بخسن سعادة



الشيخ عبدالحميد حجازي^(١)

(١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م)

انتقل إلى رحمة الله تعالى المغفور له الأستاذ الشيخ عبدالحميد حجازي مفتي قضاء الررع، وذلك في اليوم الثامن من هذا الشهر المبارك، وقد شقّ عليه على أهله وأصدقائه وتلاميذه الكثير، لما عُرف عنه رحمه الله من العلم والفصل ونبل الأخلاق والجرأة في قول الحق في كل مناسبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد عمل فترة طويلة في التدريس، وتخرج على يديه كثير من طلبة العلم، وكان يتنقل بين القرى والأرياف داعياً لله، شارحاً للناس حقائق الإسلام.

رحم الله المقيد رحمة واسعة، وجعل مثواه الجنة مع النبيين والصدّيقين والشهداء، وألهم ذويهم وإخوانه الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



(١) حصار الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

نجيب باقي^(١)

(١٢٩٦ - ١٣٨٣هـ)

(١٨٧٩ - ١٩٦٣م)

فقدت البلاد
السورية رجلاً من المع
رجالها العاملين في
الميادين الاجتماعية
والاقتصادية هو المرحوم
نجيب باقي الذي
توفاه الله في اليوم السابع
من تشرين الأول
١٩٦٣م، بعد أن قضى
عمرًا حافلًا بالأعمال
الجليلة والخدمات
الوطنية والاجتماعية
الكثيرة، ويدعونا داعي
الوفاء لأمثال هذا الفقيد



(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

الكريم أن نقدم للقراء الكرام نبذة عن حياته وسيرته وخدماته، عرفانا بالجميل، وتشجيعاً للاقتداء بالأعمال الصالحة التي قام بها الفقيد الراحل.

ولادته وأسرته ونشأته:

وُلد الفقيد عام ١٨٧٩م، في حلب من أسرة كريمة اشتهرت بالتجارة، وبالرغم من أن نشأته الأولى كانت في بيئة تجارية، فقد فضل الحياة العلمية والثقافية، حيث ظهرت ميوله العلمية ورغبته في تحصيل العلم في سن مبكرة، فالتحق في المدارس.

وظائفه وإنشائه المدرسة الفاروقية:

وبعد أن أتم تحصيله العلمي غيّن محاسباً، ثم مفتشاً في مديرية المعارف بحلب، ولقد أتاح له عمله هذا أن يتبين الخطر الذي يحيق بشباب ذلك العصر من عدم وجود مدارس وطنية عربية، لأن المدارس في ذلك الوقت على قلتها كانت حكومية أو أجنبية تهدف إلى نشر الثقافة الأجنبية وبث سمومها، وإلى محو الثقافة الإسلامية، وإبعاد الأجيال العربية عن مصدر ثقافتهم الإسلامية الأصيلة، مما حمل الفقيد رحمه الله بدافع من الشعور بالمسؤولية والواجب والغيرة على الثقافة الإسلامية والأجيال الناشئة إلى تأسيس مدرسة كانت الأولى من نوعها في حلب، تدرس فيها العلوم والآداب واللغات (العربية والتركية والفرنسية والإنكليزية) وقد تخرج فيها عدد كبير من رجالات البلد، وكانت مدرسة مثالية في نظامها وتوجيهها الإسلامي التربوي السليم، وكانت هذه المدرسة تحمل اسم (شمس المعارف)، ولقد أغلقت أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم أعيد فتحها بعد ذلك باسم جديد، وهو: (المدرسة الفاروقية)، فتنازل الفقيد عنها إلى أساتذتها، وهي لا تزال موجودة حتى الآن.

تأسيسه دار الأيتام الإسلامية بحلب:

وكان الفقيد رحمه الله مُحِبّاً لعمل الخير وخدمة مجتمعه، ومذ يد

العون للضعفاء والمحتاجين، ومن ذلك تأسيسه دار الأيتام الإسلامية بحلب عام ١٩١٩م، التي اتسعت فيما بعد بجهوده وجهود إخوانه المخلصين من أبناء حلب حتى استوعبت ٤٠٠ طفل يتيم، تقدم لهم الدار كل ما يحتاجونه من رعاية وعناية تعوضهم ما فقدوه من حنان الوالدين وعطفهما ورعايتهما، وما يساعدهم لتأمين مستقبل كريم لائق.

تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية:

ودعماً لهذا المشروع الإنساني النبيل دعا الفقيد عدداً من رجالات البلد لتأسيس جمعية خيرية باسم «الجمعية الخيرية الإسلامية»، ما تزال تعمل حتى الآن، ومهمة هذه الجمعية الإشراف على دار الأيتام الإسلامية والمعهد العربي الإسلامي، وقد تخرج في هذه المؤسسة ما ينوف على ٤٠٠٠ طالب، يعملون الآن في مختلف الحرف والمهن الشريفة..

تأسيس المعهد العربي الإسلامي:

وفي عام ١٩٤٣م، ساهم الفقيد بقسط وافر لتأسيس المعهد العربي الإسلامي بحلب الذي قدم في حقل التربية والتعليم خدمات جلّى لشباب البلد..

وفي عام ١٩٦٠م، أسس الفقيد دار الصناعة كُفّر لدار الأيتام الإسلامية لكي يتعلم فيها الأيتام الذين لم يتمكنوا من إكمال دراستهم بعض الصناعات والحرف.

رئيس اتحاد الجمعيات الخيرية بحلب:

وفي عام ١٩٦١م، انتُخب الفقيد أول رئيس لاتحاد الجمعيات الخيرية بحلب نظراً لما له من باع طويل في الخدمة الاجتماعية وأعمال البر والخير، ولما قدم لبلده من خدمات جليلة، فجزاه الله عن كل ذلك أحسن الجزاء...

في ميادين الجهاد:

ولم يقتصر نشاط المرحوم نجيب باقي على ميادين الخدمة الاجتماعية وأعمال البر والخير، وإنما كان له نشاط معروف في ميادين الوطنية والجهاد، وله مواقف معروفة أيام الانتداب الفرنسي وقفها ضد المستعمر مع الزعماء الوطنيين أمثال: إبراهيم هنانو، وسعد الله الجابري، وهاشم الأنسي، وشكري القوتلي؛ حيث اشترك معهم في الجهاد لنيل الاستقلال، وحضر معهم المؤتمرات الوطنية، وقاد كثيراً من المظاهرات ضد الحكم الفرنسي، وحُكِمَ عليه بالسجن عدة مرات، ونُفي إلى خارج البلاد حتى تحقق للبلاد استقلالها وحريتها.

في ميادين الاقتصاد:

فساهم في بناء بلاده ولا سيما في المجالات الاقتصادية، فمنذ عام ١٩١٢م، أنشأ مؤسسة تجارية ما زالت تنمو حتى أصبحت مؤسسة تجارية وصناعية كبرى لا تزال مستمرة في عملها في سورية ولبنان والأردن، وتضم عدداً كبيراً من المهندسين والخبراء والاختصاصيين، ولقد استطاع باستقامته وإخلاصه وجهده أن يكسب سمعة تجارية ممتازة في العالم شهدت بها أكبر الشركات العالمية، وقد مثل بلاده أحسن تمثيل لدى جميع المؤسسات الاقتصادية في العالم العربي وفي الخارج، ولقد ساهم الفقيد مساهمة فعالة في النهضة الاقتصادية والصناعية في سورية، فاشترك في تأسيس أكثر المصانع والشركات في سورية، كما قدمت مؤسساته خدمات كثيرة للاقتصاد العربي، ولقد منحته الحكومة السورية عام ١٩٦١ نجمة الاستحقاق السوري، تقديراً لخدماته وجهوده وتضحياته.

رحم الله الفقيد رحمة واسعة، وجزاه الله أحسن الجزاء، وأسكنه فسيح جنّاته.





الشيخ إبراهيم أحمد المظاهري^(١)

(١٣٢٢ - ١٣٨٣هـ)

(١٩١٤ - ١٩٦٤م)

للاستاذ أبي الحسن علي الحسن النّدوي
عضو المجمع اللغوي بدمشق

عالم بورما والزعيم الإسلامي:

كنت أسمع بالشيخ إبراهيم أحمد - عالم بورما والزعيم الإسلامي - من زمان، وتتفق لي أحياناً مطالعة صحيفة «دور جديد» (العصر الجديد) اليومية التي كان يصدرها من رانجون - عاصمة بورما - في اللغة الأردوية لغة مسلمي الهند التي كان يُجيدها كأبنائها، ومجلة «استقلال» الشهرية الأردوية كذلك، التي كان يشرف على تحريرها، وكان يعرفني عن طريق مؤلفاتي وكتاباتي، كما كنت أعرفه عن طريق الصحافة الإسلامية اليومية، وكان كل منا يبحث الآخر، ويتجاوب معه في كثير من أفكاره وأهدافه، ويشعر بانسجام فكري، وكل ذلك عن ظهر الغيب ومن وراء البحار، فلم ير بعضنا بعضاً ولم تتفق الزيارة والتلاقي.

(١) حصارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م)، وسُرت في المحلة بعنوان: «في رحاب الخالدين».

فلما زرت «رانحون» سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) سعدت بريارته الأولى في المطار أول ما نرلت وأقمت في العاصمة شهراً. وكان لا يمر يوم إلا ويزورني وأزوره.

أبرز ملامحه ومزاياه:

رأيت فيه رجلاً ملء العين والسمع، وكان من أبرز ملامحه ومزاياه الهدوء الفكري، والاثار، فكان في كل ما يعتقده ويقرره ويكتبه أو يدافع عنه هادئاً متراً الفكر، مقتصداً عميق النظر، وكان يُزينه الوقار والريانة في جميع تصرفاته ومظاهر نشاطه، رسيماً جسيماً، صاحب ذوق في ملبسه ومظهره، عذب النعمة في حديثه ومحاضراته، خفيف الروح فكها في مجالسه، واثقاً بنفسه، مستقيم السيرة والخلق، صاحب مبدأ وإيمان في سياسته وقيادته وصحافته، أعلى من أن يُساوم معه، وعن أن يُحوّل عن مركزه وعما يعتقده ويدين به فيما يحض نفسه أو يتصل بشعبه، عاملاً كثير النشاط والحيوية والإنتاج، دائم الاشتغال بما ينفع أمته ودينه، صريحاً في أفكاره وحواضره، شجاعاً لا يخاف السلطة الرسمية ولا سخط الشعب والرأي العام، صحافياً بارعاً يستحق أن يحتل مركزاً في صف الصحافيين الأول، تدل مقالاته الوجيزة التي كان يصدر بها عدد اليوم على قدرته الصحافية وبُعد النظر والإنشاء البليغ.

وكان واسع الاطلاع على ما يكتب وينشر في اللغة الأردوية في شبه القارة الهندية، ومسائراً للركب الثقافي الإسلامي، حريصاً على أن لا يتخلف عنه، له آراء سديدة ونظرات نافذة في الأدب الأردوي، شغوفاً بمطالعة الحديد المعبود من مؤلفات الكتاب الإسلاميين باللغة العربية، بتذوقه ويفيد منه، وكان مُتتبعاً لسير الحركة الإسلامية في أكثر الأقطار الإسلامية، يعرف فادتها وأبطالها وعقولها الموجهة، وقد كوّن عن أكثرهم فكرة صائبة بذكائه وألمعيته ودراساته، وعرف مواضع ضعفها إن كانت هنالك مواضع ضعف، واسرار قوتها وما تحتاج إليه.

رئيس جمعية العلماء في بورما:

وكان رئيس جمعية العلماء في بورما أطول مدة، وقد قدمه وأشرف عليها بكياسة ولباقة وجراءة، وبثبات واستقامة، حتى كان لها مركز مرموق وصوت مسموع في البلاد، وأصبحت تُخشى وتُزجى في سياسة البلاد وفي دوائر الحكومة، وقد قاوم رحمه الله كل موجة إلحادية تنطلق من الشعب أو موقف مُعَادٍ للشعب الإسلامي من الحكومة، وعاش نزيهاً قتيلاً لم يتهمه أعداؤه بانتهازية أو استغلال لمركزه أو انتفاع على حساب الإسلام والمسلمين، كما أنهم كثير من الزعماء السياسيين وعلماء الدين في كثير من الأقطار.

اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام ونشرها في غير المسلمين:

وعُني بصفة خاصة بالدعوة إلى الإسلام ونشرها في غير المسلمين وفي الجهات البعيدة، وأسرف على شؤون المسلمين وقضاياهم الدينية والتعليم الديني ومراكزه في البلاد، وبث الدعاة ونظم رحلاتهم، وكان يقوم بنفسه مع زميله العالم الجليل الشيخ محمود داود يوسف مفتي بورما الأكبر بجولات في البلاد، كان لها الأثر الطيب في إنعاش الروح الدينية وإثارة الغيرة الإسلامية، وكان رئيس جمعية العلماء إلى آخر يوم من أيام حياته لا يُنازع في ذلك.

تأييده للجماعات الإسلامية والمشاريع الخيرية:

وكان واسع الصدر، رخب الذراع في تأييد المؤسسات الإسلامية والمشاريع الخيرية، ساعد بعثة ندوة العلماء في سنة ١٣٨٠هـ مساعدة غالية، وكان من أكر المُستخعين، ومن كبار المؤيدين لحركة التبليغ العالمية التي مركزها نظام الدين في دهلي الهند، يحضر حفلاتها ويخطب فيها، لا يضيق صدره عن المساهمة في ما ينفع الإسلام والمسلمين أو الاعتراف بمجهود فرد آخر أو مؤسسة أخرى كما يضيق صدر كثير من العلماء والزعماء الذين يحتضنون فكرة أو يحملون دعوة خاصة.

قصة إسلامه:

وكان وجوده وعلمه من منح الله تبارك وتعالى، فقد رده الله إلى الإسلام ووجهه للمسلمين بعدما رُبِّي في جحر الكفر والجاهلية، وهي قصة عجيبة حكاها لي بنفسه، تدلُّ على قدرة الله ورحمته، وعلى صدق قوله: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ذكر لي رحمه الله أنَّ والده كان قد تزوج سيدة بورمية أسلمت، وبقي أهلها على الكفر (البوذية)، ولدت الشيخ إبراهيم، وتوفي والده على أثر ولادته، ثم ماتت أمه في طفولته، وكفله خاله البورمي البوذي، وكان قد نذر أن يهب أحد أولاده الصومعة البوذية لينشأ على الرهبانية على طريقة البوذيين، ويكون داعياً وراهباً بوذياً، ولم يولد له فاعتبر ابن أخته اليتيم ابنه الوحيد وأسلمه إلى صومعة، وقضى الطفل المسلم مدة في هذه الصومعة لا يعرف عن والده ودينه شيئاً، ونشأ على طقوسهم وشعائهم، ومن تقاليد الرهبان البوذيين أنهم يخرجون كل يوم في وقت مُعيَّن يمدون أيديهم إلى الناس، ويتكفّفون ما يسدُّ رمقهم ويقوتهم، وكذلك فعل هذا الولد الصغير، ولكن فطرته الإسلامية السليمة ثارت على هذا النظام، ومجّت الطريقة الرهبانية والديانة البوذية، وأبى إبراهيم الصغير أن يعيش في هذا الظلام، وأدركه لطف الله فاشتكى ووجعت رجله فأرسله الرهبان إلى بيت خاله ليتعالج ويعود سريعاً، ووصل إلى بيته، ورفض أن يعود إلى الصومعة مرة ثانية، وهدّد خاله بالفرار إن أصرَّ على ذلك.

رفع قضيته إلى المحكمة:

واتصل الخبر بالمسلم الوجيه الفاضل التاجر الكبير الحاج محمد يوسف من أعيان بورما المسلمين، ومن كبار الصالحين المخلصين، فرفع الدعوى إلى المحكمة، وطالب هذا الولد الذي هو ابن صديقه المسلم أحمد الكجراتي، بحُجّة أنه مسلم يريد أن يعيش مسلماً، وليس لخاله عليه حقٌّ شرعيٌّ، وتدرّجت القضية في المحاكم، وصدر الحكم النهائي بتسليمه إلى الشيخ الحاج محمد يوسف.

دراسته في مظاهر العلوم:

وسارع الحاج فأرسله إلى الهند ليدرس في مدرسة مظاهر العلوم في سهارنيو التي اشتهرت بصلاح أساتذتها وتأثيرهم العميق في نفوس الطلبة، وبالجو الديني الهادئ الذي يسودها، وكذلك كان، وقد بقي مولانا إبراهيم أحمد في مظاهر العلوم سنوات عديدة، ينهل من مناهلها الصافية، ويدرس العلوم الدينية، حتى تخرج فيها عالماً ضليعاً في سنة ١٩٣٩م، وتسلم القيادة الدينية والمركز المرموق الذي كان ينتظره في بلاده عن جدارة وإخلاص.

وفاته وتشيع جنازته:

واستقام على ذلك بحول الله حتى لقي ربه في يوم ٧ من مارس سنة ١٩٦٤م ولم يبلغ الـ ٥٠ من عمره وشيع جنازته جمعٌ حاشد يقدر بعشرة آلاف، ويقول المعمرّون في (رانجون): إنهم لم يشهدوا مثل هذه الجنازة وموكب التشيع الهائل ولا نصفه في هذا البلد التجاري المشغول في حياتهم الطويلة، وانهاالت برقيات التعازي ورسائل الاعتراف والتقدير، وعُقدت حفلات التأبين في جميع أنحاء البلاد.

كان الثناء عليه وعلى مجهوداته وإخلاصه كلمة إجماع، وقضية ليس فيها نزاع، وكل ذلك يدل على القبول الذي وضعه الله في قلوب من عرفوه أو سمعوا به.

رحم الله الراحل العظيم وأثابه ورفع درجاته في العاملين المخلصين، ووفق وقوى صديقه القديم وزميله الدائم الشيخ محمود داود يوسف مفتي بورما الأكبر الذي انتخب خليفة له، ورئيس جمعية العلماء والمشرّف الأعلى على الصحيفة الشّيارة «دور جديد»، وألهم أهله وأصدقاءه وأبناء شعبه الصبر والسلوان.

ومن آثاره الباقية وصدقاته الجارية: دار العَجْزة المسلمين في (رانجون) التي أسسها، وكان يسهر عليها، وكان كثير الاعتناء بها.

عبدالله محمود العقاد^(١)

(١٣٠٦ - ١٣٨٣هـ)

(١٨٨٩ - ١٩٦٤م)

للاستاذ محمد بسام الأسطواني

رَجِمَ الله العَقَّاد، المُفَكِّر
العُبْقَرِي، والأديب العملاق، والكاتب
الفذ، والشاعر الرّصين، والفيلسوف
الباحث، والعصامي الحر، والمؤمن
الضّادق الذي توفّاه الله ليلة الثاني
عشر من آذار ١٩٦٤م، في القاهرة
عن (٧٥) عاماً وأكثر من (٨٠) كتاباً
قيّماً، تشكل دائرة معارف من أوسع



وأغنى دوائر المعارف المعاصرة، أغنت المكتبة العربية بألوان من الثقافة
المتنوعة من دين وأدب وتاريخ وفلسفة واجتماع... من أنفس ما ألف
بالعربية، امتازت كلها بأصالة التفكير، وبراعة الأسلوب، ودقة التعبير، وقوة
البيان وإشراقه، وعمق البحث وطرافته.

(١) حضارة الإسلام، العدد التاسع، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

رثاء طه حسين للعقاد:

لذلك لم يكن كثيراً أن تجزع القلوب لوفاته، وتتغثر الأقلام قبل أن تهتدي لما يصلح للتعبير عن الأسى العميق لفقدانه، الذي كان له وقع المفاجأة التي أذهلت الجميع بالرغم من أن الموت حق على العباد لا مفر منه، ولعل أكثر ما يوضح حقيقة هذا الدهول الذي اعترى الكثيرين ما قاله الدكتور طه حسين في كلمته صبيحة وفاته يودّعه ولا يرثيه ويعتذر بقوله - بالرغم مما كان بينه وبين العقاد من حصومة أدبية وسياسية -: "ولكي أصبح فإذا النبأ يفجؤني، فيقع عليّ موقع الصاعقة، وأقسم لقد ذهلت له دهولاً أفقدني الشعور، ولقد احتحت إلى وقت غير قصير وعناية متصلة لأثوب إلى نفسي، أو لتتوب نفسي إليّ، ولقد لبثت ساعات لا أصدق هذا النبأ، ولا أطمئن إليه حتى بعد أن رأيته في كلّ صحف الصباح".

ويتابع طه حسين فيبيدي حيرته في كيفية رثاء العقاد وكأنها مشكلة يعجز عن حلها فيقول: "وما أدري عن أيّ جانب من جوانبك يمكن أن يتحدث عنك الذين يأخذون في رثائك، وفي الترجمة لك؟! عن نضالك السياسي الذي لم يعرف هوادة ولا ليناً، ولم تصرفك عنه الأحداث ولا الخطوب، ولم يثنيك عن المضي فيه رغب ولا رهب، أم عن تجديك في الأدب شعراً ونثراً ونقداً، أم عن تعمّقك للتاريخ الإسلامي وإتقانك تصوير أعلام الإسلام... أم...؟!!!"

ثم يحاول أن يتمالك نفسه ويستعيد رشده، فيقول: "أنا أعلم أنّ الموت حق، وأنّ كل نفس ذائقة الموت كما يقول الله عزّ وجل، ولكني لم أكن أنتظر أن تُسرّع إليه أو أن يُسرّع إليك على هذا النحو، ولكن أمثالك تموت أجسامهم لأن الموت حق على الأحياء جميعاً، ولكن ذكرهم لا يموت... لأنهم فرضوا أنفسهم على الزمان وعلى الناس فرضاً!".

رثاء أمين نخلة للعقاد:

ولم يكن حظ الآخرين من الدهول والحزن أقل مما أصاب طه حسين، وهذا أمين نخلة يشرق إلى المحمم العلمي في القاهرة بالكلمة

التالية: «وفاة العقاد خسارة كبرى على الأدب العربي، أما البحث في شعراء فشيء آخر»، وقال: «العقاد في الطبقات العلى، لا مثيل له في أوروبا أبداً، طه حسين أديب عالمي، ولكنه ليس أعلى من العقاد أبداً».

كلمة ميخائيل نعيمة عن العقاد:

كما أبرق ميخائيل نعيمة إلى المجمع العلمي بالكلمة التالية:

«قلم من أروع أقلام نهضتنا الأدبية، جف مداده بموت عباس محمود العقاد، ولكن ينابيع الطاقات البيانية التي ساعد في تفجيرها ما جفت ولن تجف، لقد أغنى العرب والعربية بآثاره، وسيبقى اسمه من ألمع الأسماء في تلك الكوكبة المباركة التي حركت ما ركذ في أعماقنا من الشوق إلى التجديد والإبداع، فأعادت الثقة بأنفسنا وبالأجيال الآتية بعدنا».

العقاد فرض نفسه على الناس بقوة فكره وغزارة علمه:

والحقيقة التي لا ريب فيها، أن العقاد قد فرض نفسه فرضاً على الناس بقوة فكره وقلمه، وغزارة علمه وأدبه، بعد أن أثبت جدارته وتفوقه بجهد الشخصى وعصاميته الفذة، وأن الإنسان يقاس بفكره وجهاده، ولا يقاس بشهاداته الدراسية التي لم يحصل هو منها إلا على الشهادة الابتدائية فقط..

تراجع العقاد أمام الرافعي:

فاستطاع أن ينتزع الإعجاب والاحترام والحب والتقدير حتى من خصومه الذين نالهم من سهامه ما هتك أستارهم خلال معاركه الكثيرة الأدبية والفكرية التي لم يرفع في واحدة منها الراية البيضاء ولا انسحب منها إلا منتصراً إلا ما كان بينه وبين أديب العربية الأكبر المرحوم مصطفى صادق الرافعي، فقد ألقى العقاد السلاح لأول مرة في تاريخه الفكرى أمامه دون غيره، وليس ذلك بعجيب ولا يعيب العقاد تراجعاً أمام الرافعي، لأن الرافعي كان حجة في اللغة والأدب، وقمة شاهقة شامخة تجاوزت في

شموخها جميع قمم الأدب واللغة، والرافعي هو الكاتب الوحيد الذي لم يستطع الأب أنستاس الكرمللي، وهو حجة في اللغة والأدب العربي أن يعثر في كتبه ومقالاته على كلمة واحدة أو تعبير يخالف اللغة وأسلوبها العربي الفصيح.

تصدّي العقاد لمفتريات أعداء الإسلام:

ولم تقتصر انتصارات العقاد على خصومه من كتاب العربية، بل تناولت أولئك المتربّصين بالإسلام ومن المستشرقين والمبشرين الغربيين الذين تصدّوا للإسلام العظيم بمفترياتهم وأباطيلهم هادفين النيل من حقائقه الناصعة لطمسها بدافع الحقد الموروث عن الصليبيين والصهاينة المجرمين، فتصدّى لهم العقاد بقلمه القوي فتلقّف مفترياتهم فدخضها وكشف زيفها، وتنبّع آثارهم في الترقق والعرب، فما سمع بكتاب أو مقال ينال من الإسلام إلا وتصدّى له وفضح زيفه وأغراضه، وتعقّب أصحابه يكشف عن نواياهم الاستعمارية الخبيثة ويفضح أهدافهم، ويبين جهلهم وكذبهم وتضليلهم، وكتابه الأخير: «ماذا يقال عن الإسلام؟» وقبله: «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» سيجلّ حافل يشهد للعقاد بما أدّاه للإسلام من خدمات وما ردّ عنه من هجوم وعدوان..

لقد وقف العقاد سداً منيعاً في وجه أعداء الإسلام من غربيين وشرقيين ومحليين، لا يترك مناسبة إلا ويتصدّى لهم ولا يدعهم إلا صرعى مخذولين..

دراسات العقاد الإسلامية:

على أن خدمته للفكر الإسلامي لم تقتصر على التصدّي لمفتريات أعدائه، بل تتجلّى في العدد الكبير من كتبه التي ألفها عن الإسلام وأبطاله وأعلامه فمن سلسلة: «العبقريات» إلى «الفلسفة القرآنية».. و«الله»، و«الإسلام في القرن العشرين».. إلى: «المرأة في القرآن الكريم».. و«الإنسان في القرآن الكريم» وغيرها كثير.

فترة النضج الفكري والأدبي:

ومن الحدير بالذكر أن اتجاه العقاد نحو الدراسات الإسلامية بدأ في فترة الصبح الفكري والأدبي من حياته، بعد أن أمضى فترة شبابه الأولى لا يلتفت إلى هذه الدراسات، مسعولاً عنها بالنعش في دراسة الأدب الكلاسيكي والثقافة الإحيائية، ومدفوعاً بالعمل السياسي والصحافي الذي جره إلى معاداة دعاة الفكرة الإسلامية في فترة من الزمن، ثم لم يلبث أن تبين له فداحة الخطأ الذي تركه العصر في إبعادهم عن دراسة التراث الإسلامي العظيم العبي روائع الشريعة والعتائد والأخلاق والفكر والأدب، لا سيما وأن هذا التراث هو السبيل لتعريف برائهم القومي ومصدر مفاخرهم وأمجادهم وحضارتهم التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً في روعتها وإنسانيتها وعندها بالماثر الحائلة، وكذا، "العر العرب في الحصار العربية" خير دليل على هذا المعنى، وخير توضيح لهذه الحقائق..

ضرباته القاتلة لأعداء اللغة العربية:

وإلى جانب ذلك - وما أكثر الجوانب التي أعجز عن تناولها والتحديث عنها مما يتعلق بالعقاد - فقد وجه العقاد ضربات قاتلة وسهاماً فتاكة إلى فئة الكتاب الذين يمثلون المرافقة الفكرية التي عرف بها شباب ومختنثون يحترفون التطاول على مقدسات اللغة العربية وأدائها، ويستعملون اللهجة العامية في فصصهم المائعة الداعرة، ومنهم أولئك الذين يرعمون التجديد في الشعر بما يكتبون من الشعر المشثور...

مراهقو الأدب والتفكير:

فهؤلاء وأولئك لم يتناولوا هذا التطاول إلا لتغطية عجزهم عن الاستعداد الثقافي والصوح الفكري، فجعل العقاد من تطاولهم عواء تعافه الأسماع، وهراء تدروه الرياح، وصراخ لا يتحاوب معه سوى الصبية الصغار في الآفقه والدروب، ولذلك لم يكن غريباً أن يسمع من أولئك النفر من مراهقو الأدب والفكر الهجوم المحموم والتطاول اللبد على العمالق

الكبير الأستاذ العقاد واتهامه بالرحعية والجمود متخذه من هذه الألفاظ الفارغة وسيلةً للتَّيْل منه، زاعمين لأنفسهم التقدمية والتجديد بكل حقد وعرور!!.

آثار العقاد دائرة معارف غنية:

وبعد؛ فإنَّ العقاد سيظل حياً بأثاره الخالدة ومؤلَّفاته الكثيرة المتنوعة التي تشكِّل دائرة معارف حبة غنية، تمدُّ الأجيال المتعاقبة براد طيب من الثقافة والفكر والأدب لا ينضب على الرَّمس، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولئن مات العقاد بجسمه فإنه حيٌّ بذكره وكتبه التي تتلمذ عليها وستلמד عليها الأجيال جيلاً بعد جيل.

رحم الله العقاد وغفر له وجعل مثواه الجنة، وعوِّض العالمين العربي والإسلامي والفكر الإنساني خيراً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



عبدالله محمود العقاد

رائد من رواد الفكر العربي والإسلامي^(١)

للأستاذ محمد المبارك
عضو المجمع اللغوي بدمشق



من أعلام الفكر والأدب:

طوت هذه الأيام علماً شامخاً من أعلام الفكر والأدب في العالم العربي، استطاع أن يحافظ على موقعه في الطليعة، ومنزلته في الصدارة، خلال مدة قاربت نصف قرن، مع مساهمة للإنتاج الفكري العالمي في تطوره وتجديده وغزارة في الإنتاج زادت لم تنقص، وتجديد لم ينقطع، وتنوع في الثقافة في ميادين الفكر واللغة والأدب والنقد والفن، وعمق في التفكير، وجمع بين فهم التراث العربي، وتمثل الثقافة الأجنبية في شتى وجوهها ومذاهبها.

أشهر كُتَاب العربية:

ولقد كان العقاد قبل عام ١٩٣٥م، من أشهر كُتَاب العربية، وكانت كتبه: (مطالعات في الكتب والحياة ١٩٢٤م)، و(ساعات بين الكتب

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

١٩٢٧م)، و(الفصول ١٩٢٢م)، و(مراجعات في الأدب والفنون ١٩٢٥م)، هي الزاد الثقافي الذي كان يجد فيه طلاب الأدب والثقافة من أبناء الجيل مادة دسمة يتثقفون بها، يجدون فيها كل جديد من مذاهب الفكر ونظرات الفن، ومعالجة لشئى موضوعات الحياة الاجتماعية والأدبية.

أثر المنفلوطي والرافعي وطه حسين في أبناء الجيل المثقف:

ولئن كانوا يجدون يومئذ في المنفلوطي كاتباً عُرف بسلاسة أسلوبه، وسهولة تعبيره، ويأخذون منه مفردات اللغة الفصيحة السهلة، والتعابير الجميلة، دون أن يكون وراء ذلك فكر عميق أو إبداع.

وكانوا يجدون في الرافعي الأدب العربي الأصيل الذي وصلهم بقرون العربية الزاهرة من ناحيتي الفكر واللغة، إذ حطم لهم أصنام قرون الانحطاط، وأزال عن الأدب العربي ما غشيه من أثواب مهلهلة، وراى عليه من فكر سقيم، فبدأ قوياً ناضجاً ينهل من مناهل العروبة وروحها.

ولئن كانوا وجدوا في طه حسين ثائراً على القديم، أراد أن ينقل من الغرب طريقة الشك في الأفكار والأحكام والقيم، ويطبقها في ميدان تاريخ الأدب من غير تمييز ولا تمحيص بين الحق والباطل والغلث والسمين في أسلوب مُحَبَّب إلى الجيل الناشئ يومئذ، فاستهواها بثورته هذه، واستغلَّ مُيل الشباب الطبيعي إلى النقد والمعارضة، وتطلَّع الناس عامة إلى التجديد والتخلُّص من آثار جمود العصر ورواسب عصور الانحطاط، فسار إلى أبعد من ذلك جازاً وراءه هذا الجيل المتطلع إلى الثورة والتجديد، إلى غايات أبعد، مستغلاً أسلوبه الذي كان له يومئذ سحره وبريقه.

أثر العقاد في الجيل المثقف:

لئن وجد الجيل المثقف الطالب للمعرفة يومئذ هذا كله في المنفلوطي والرافعي وطه حسين، فإنهم كانوا يجدون في العقاد خلاصة نتاج الفكر الغربي في صورته الإيجابية البناءة في شئى نواحي الحياة، كانوا يجدون فيه

مذاهب الفلسفة المختلفة، وألواناً من أدب الغرب، وبطرات جديدة رصينة في الأدب العربي القديم، ولم يكن يجمع هذا كله في الأدباء الآخرين، فكان يمثل الجانب الرصين من تطور الأدب والفكر في العالم العربي، وكان السافذة التي يطل منها أبناء الجيل على آثار الغرب في ألوان تفكيره. وفنون أدبه، قبل أن يترجم من تلك الآثار إلا التزُّر اليسير.

دراسة العقاد لابن الرومي نموذج للتحليل الأدبي:

ولقد كانت دراسة العقاد لابن الرومي في ذلك الكتاب الضخم الذي أخرجته للناس منذ أكثر من ربع قرن نموذجاً للتحليل الأدبي لشخصية الأديب ونتاجه الأدبي فيما تضمنته من التحليل النفسي والاجتماعي والنظرات الفنية. ولم تكن تقوم على أسلوب النفي والسلب والسك ومجرد التقويض والتهديم للإعلان والظهور. بل كانت دراسة نموذجية إيجابية اختطت للعقاد طريقاً حديداً، تلك كانت الصفحة الأولى من صفحات العقاد رحمه الله والمرحلة الأولى من مراحل حياته وإنتاجه كان فيها أستاذاً لجيل، وصاحب مذهب وطريقة.

الكشف عن تاريخ العرب وحضارة الإسلام:

تم كانت للعقاد صفحة أولى لا تقل عظمة ولا أثراً عن الأولى، وذلك حين سقّ طرفاً جديداً في الكشف عن تاريخ العرب وحضارة الإسلام، ولش كانت المرحلة الأولى تمثل في تاريخنا الحديث مرحلة النقل والاقتباس بطريقة واعية مبصرة متأنية رصينة لا يستخفها الطيش ولا الثورة السطحية، فإن المرحلة الثانية تمثل الشعور الذاتي، والكشف عن ذاتية الأمة وتراثها وشخصياتها التاريخية التي بلغت قمة الإنسانية ومعالم حضارتها وعقائدها، فقد ابتداء العقاد رحمه الله هذه السلسلة بـ (عبقريّة محمد ﷺ)، ثم كانت بقية حلقاتها: (عبقريّة الصديق)، و(عبقريّة عمر)، و(عبقريّة الإمام)، و(أبو الشهداء الحسين بن علي)، و(الصديقة بنت الصديق)، و(عبقريّة خالد)، و(بلال مؤذن الرسول)...

كشفه عن حقائق الإسلام:

ثم كان ذلك الإنتاج الضخم العميق الذي استطاع فيه العقاد أن يكشف عن حقائق الإسلام على مستوى من التفكير يضاهي أعلى ما يكتبه كتاب العالم في طريقة بحثه، ونمط تفكيره، وقام بالمهمة التي ناء بها كثير من المشتغلين بهذه الموضوعات.

وذلك لما أوتي من ثقافة واسعة في تاريخ الفلسفة، وتاريخ الأدب، وعلم النفس والاجتماع، فاستطاع أن يقرر ويوازن، وينقد ويناقش، وقد جاءت كتبه المتتابعة في ميدان الثقافة الإسلامية آية في القوة والعمق، وسعة الأفق، وحسن العرض على أعلى المستويات الفكرية.

كتبه المتتابعة في ميدان الثقافة الإسلامية:

وقد وفق توفيقاً كبيراً إلى عرض نظام الإسلام العام وفلسفته ونظراته ومبادئه في ستي آفاق الحياة، وذلك في كتابه: (الفلسفة القرآنية ١٩٤٧م) الذي اشتمل على مباحث أساسية في العقيدة والأخلاق والتصرف والعبادة والتشريع المتعلقة بالمرأة والرواج والميراث والعقوبات والعلاقات الدونية والعقوبات، وهذا الكتاب على إيجازه من خير ما أنتج العقاد رحمه الله، ثم أخرج كتاباً آخر عظيم القيمة في موضوعه وهو: (حقائق الإسلام وأباضيل خصومه ١٩٥٧م) وفيه مباحث شيقة، وتحليلات عميقة، ومقارنات علمية بين الأديان والمذاهب.

وأخرج رحمه الله عدداً من الكتب في هذا المجال منها: (الديمقراطية في الإسلام)، و(أبو الأنبياء إبراهيم الخليل) ويشتمل على تحقيق علمي يستند إلى المراجع اليهودية والمسيحية والوثنية والحفريات الأثرية بالإضافة إلى المراجع الإسلامية، ومنها: (مطلع النور) عن البعثة النبوية، و(المرأة في القرآن)، وآخر ما أخرج في مجال الدراسات الإسلامية (التفكير فريضة إسلامية)، وهذا الكتاب وأمثاله يدل على سعة اطلاع على تاريخ الفكر والحضارة، ومذاهب الفلسفة وتاريخ الأديان، كما يدل على اطلاع واسع على الصوص الإسلامية، وهو كتاب قيم في موضوعه دقيق في أفكاره.

دفاعه عن العربية الفصحى وتراثها:

وللعقاد رحمه الله اتجاه واضح ومواقف حازمة محدودة في الدفاع عن العرب وحضارتهم، وعن العربية الفصحى وتراثها، وقد أخرج في السنوات الأخيرة كتابه: (اللغة الشاعرة أو مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية)، وكتابه: (أشئآت مجتمعات)، وكلاهما يدل على تعمق في أبحاث فقه اللغة، وتمكن من أصول اللغة.

مراحل حياة العقاد الفكرية والأدبية:

وبالجملة: فإن تاريخ حياة العقاد الفكرية أو الأدبية خلال نصف قرن يمثل تاريخ المجتمع العربي خاصة والإسلامي عامة في هذه الحقبة الزمنية نفسها، فقد ابتدأ بمرحلة النقل والاقتباس، وعرض ما عند الغرب من فكر وحضارة، ولكنه نقل على مستوى عال، وهو كذلك نقل واع ليس بمقلد ولا أعمى، فكان رائد قومه في هذه المرحلة، ثم كان في المرحلة الثانية كاشفاً عن ذاتية أمته في خصائصها الأصيلة الفكرية والفنية، باحثاً منقياً في تاريخها، مُستخرجاً لخير ما عندها من تراث النبوات والحضارات، مفصلاً عما في دينها الخالد (الإسلام) من مبادئ إنسانية وتعاليم ربانية وأصول حضارية، باعثاً روح الاعتزاز بهذا الدين وما فيه من القيم الخالدة والمبادئ الصحيحة والعقائد القويمة، ولكنه اعتزاز يبنى على العلم والبحث والدليل المقنع لا على مجرد العاطفة والعصبية، وهو في ذلك كله قد بعث في أبناء الأمة العربية والناطقين بلغة العرب روح الدفاع عن حضارتهم وكيانهم ولغتهم ودينهم وتراثهم وأشعرهم بذاتيتهم وأصالتهم، واستطاع بما أوتي من بسطة العلم وقوة اللسان، وبما عرف من الثقافات الأجنبية أن يحررهم من التبعية الفكرية والنفوذ الثقافي الأجنبي، وكان في كل ذلك رائداً لهم وطلبة لمثقتهم، ومن أحل هذه الرسالة التي اضطلع بعينها في إبراز مقومات الحضارة العربية ومعالم الإسلام كان هدف حملات الشعوبيين والماديين من أعداء العرب والعربية، ومن أعداء الإسلام وأعداء الروح الدينية عامة من أولياء الاستعمار وأنصار المادية والمبطنين لمختلف النزعات الإلحادية والشعوبية.

عَلَّمَ شَامِخٌ مِنْ أَعْلَامِ هَذَا الْعَصْرِ:

رحم الله عباساً وأعلى في الحياة الأخرى مقامه، فلقد خدم الأمة، ودافع عن دينها، وذاد عن تراثها، وأدى الأمانة خير أداء، وكان علماً شامخاً من أعلام هذا العصر في دنيا العروبة والإسلام، جليل القدر، واسع العلم، عميق الفكر، بليغ اللسان.

وليست كلمتي هذه إلا كلمة سريعة اقتضتها المناسبة، مناسبة حكم الله في انتقال العقاد رحمه الله إلى العالم الآخر، بعد أن انقضت في هذه الحياة الدنيا أيامه، والكتابة عنه رحمه الله تقتضي وقتاً طويلاً، ودراسة واسعة، وثقافة متنوعة، فإنَّ له من الآثار ما قارب التسعين، ولو نشرت على أسلوب بعض الكتاب المشهورين بأسلوبهم المترسل من أبناء جيله لبلغت مئات عديدة من المجلدات. ولم يترك باباً من أبواب الأدب والشعر والتاريخ والفكر والدين إلا كتب فيه، ولا فناً من فنون الأدب إلا شارك فيه، فقد كان شاعراً له ديوان ضخم وكتب في القصة.

فلعلَّ عدداً من المفكرين والأدباء ينصرفون إلى دراسة آثاره والوفاء بذكراه وبما له في أعناقنا من حق، وفي ذممنا من دين، أفاض الله عليه وإبلاً من رحمته وفضله وإحسانه، وأعلى في الجنان مقامه، وغفر له وجعله مع الصالحين من عباده.





انطباعات عن العقاد^(١)

بقلم الدكتور عبدالرزاق محيي الدين

لست بسبيل دراسة للرجل، وإنما هي انطباعات كوَّنتها من حضور مجلسه وقراءة كتبه، ورَّصد شخصيته الاجتماعية والسياسية في الوسط المصري منذ عام ١٩٣٣م.

والآن والرجل في ذمة التاريخ عاد من حقه وواجبي أن أنشر انطباعاتي عنه:



تنوع فنون المعرفة:

١ - لا أعرف إنساناً عربياً أوسع لفنون المعرفة نظير ما أوسع لها العقاد، ولقد حفل التاريخ العربي الإسلامي بأعلام مارسوا فنون العلوم وكتبوا فيها، وظهرت لهم موسوعات أو رسائل اتَّسمت بالأصالة، ولكن حظوظهم كانت مختلفة بين كتاب وكتاب وفنّ وفنّ، ولكن العقاد بلغ من كل فن غاية ما بلغه منوعو الثقافات والدراسات.

صناعة التأليف:

٢ - لا أعرف إنساناً عربياً امتدّت به صناعة التأليف، واختلف عليها،

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

وحافظ من طلائع مؤلفاته إلى نهاياتها على مستوى موحد أو متقارب من حيث الدقة الجدية والاستيعاب بمثل ما اتفق لمؤلفات العقاد.

التزامه بالرأي وإصراره عليه:

٣ - لا أعرف كاتباً عربياً يرى الرأي ويقيم عليه في غير حيدة أو تحوير منذ شبابه حتى شيخوخته نظير ما أقام «العقاد» على رأيه التزاماً وإصراراً وقناعة.

الحرية الفردية في التفكير والعمل:

٤ - كان الرجل يؤمن بالحرية الفردية في التفكير وفي العمل حقاً للفرد ووسيلة لصيانة الجماعة، وكان يؤمن بالحریات الجماعية وبالتنظيم السياسي ما كان تنظيمياً مفتوحاً مصرأ، وما اتخذ وسيلة لاستشارة طاقات الفرد لخدمة الجماعة، لذلك حارب الشيوعية فلسفة ودولة قبل أن تقوم لها دولة لأنها لا تؤمن بالفرد. وحارب الدكتاتورية نازية وفاشستية لذلك، ولأنها تنظيم أعمى غير مبصر، وطل يطارد الثلاثة قبل وبعد أن تجرّدت لتعريتها الأقلام.

إيمانه العميق المدرك:

٥ - تغيير واحد طراً على (العقاد)، فعهدي به في الأربعينيات لم يكن على إيمان واثق بالآديان - كل الآديان -، ولكنه بعدها اقترب منها في يقين على ما يبدو من سيرته وآثاره.

وليس في ذلك كبير عجب، ففهم الدين لمن يأتيه عن إيمان مدرك يستدعي مزيداً من العلم والنضج والتوفيق، ربما لم يبلغه العقاد في أطواره الأولى.

شعر العقاد:

٦ - ورأيت في شعره أنه شعرٌ جيّد، أضاف إلى دواوين الشعر العربي نموذجاً جديداً في التفكير وفي التعبير، ولكنه شاعرٌ غير مطبوع ولا مصنوع. وهذا رأيي ربما احتاج إلى شرح.

مؤلفات العقاد

وإتماماً لفائدة القارئ وحده لمن يشاء أن تتف على مؤلفات الأستاذ العقاد نُدَوِّن له هذا الثبت^(١):

مؤلفات ذات موضوعات مختلفة:	
١ - خلاصة اليوم	١٩١٢ ٢ - السدود ١٩١٥
٣ - الفصول	١٩١٥ ٤ - مطالعات في الكتب والحياة ١٩٢٤
٥ - مراجعات في الآداب والفنون	١٩٢٥ ٦ - ساعات بين الكتب ١٩٢٧
٧ - يسألونك	١٩٤٧ ٨ - من الكتب والناس ١٩٥٢
٩ - على الأثير	١٩٥٣ ١٠ - مراجعات ١٩٥٦
الكتب ذات الموضوع الواحد:	
١١ - الإنسان الثاني	١٩١٢ ١٢ - مجمع الأحياء ١٩١٦
١٣ - الديوان في النقد	١٩٢١ ١٤ - الحجم المطلق في القرن العشرين ١٩٢٨
١٥ - البد القوي في مصر	١٩٢٨ ١٦ - ابن الرومي - حياته - من شعره ١٩٣١
١٧ - عبقرية جيني	١٩٣٢ ١٨ - رواية قمبيز ١٩٣٢
١٩ - سعد زعزلون	١٩٣٦ ٢٠ - شعراء مصر في الحقل السامي ١٩٣٧
٢١ - عالم السدود والفيود	١٩٣٧ ٢٢ - سارة ١٩٣٨
٢٣ - رجعة أبي العلاء	١٩٣٩ ٢٤ - هتلر في الميزان ١٩٤٠
٢٥ - البارحة والأدب	١٩٤٠ ٢٦ - عشرة - محمد ١٩٤٢
٢٧ - عشرة عمر	١٩٤٢ ٢٨ - ساعر العزل ١٩٤٣
٢٩ - الصديقة سب الصادق	١٩٤٣ ٣٠ - عمرو بن العاص ١٩٤٤
٣١ - جميل شينة	١٩٤٤ ٣٢ - هذه الشجرة ١٩٤٥
٣٣ - أبو الشهداء الحسين	١٩٤٥ ٣٤ - داعي السماء بلال ١٩٤٥

(١) نقلنا مقال الدكتور عبدالرازق محيي الدين المنقذ مع الفائقة باسماء كتب العقاد عن مجلة (الكتاب) العراقية تعميماً للفائدة (حضارة الإسلام).

١٩٤٥	٣٦ - عنبرية خالد	١٩٤٥	٣٥ - عرائس وشباطين
١٩٤٥	٣٨ - فرنسيس ناكور	١٩٤٥	٣٧ - في بيتي
١٩٤٦	٤٠ - الشيخ الرئيس ابن سينا	١٩٤٦	٣٩ - أثر العرب في الحضارة الأوربية
١٩٤٧	٤٢ - الفلسفة القرآنية	١٩٤٧	٤١ - الله
١٩٤٨	٤٤ - عقائد المبتكرين في القرن العشرين	١٩٤٨	٤٣ - روح عظيم (المهاتما غاندي)
١٩٥٠	٤٦ - برنارد شو	١٩٤٩	٤٥ - عبقرية الإمام
١٩٥١	٤٨ - عبقرية الصديق	١٩٥٠	٤٧ - فلاسفة الحكم في العصر الحديث
١٩٥٢	٥٠ - ١١ يوليو ضرب الإسكندرية	١٩٥٢	٤٩ - الديمقراطية في الإسلام
١٩٥٢	٥٢ - سن ياتسن	١٩٥٢	٥١ - القائد الأعظم محمد علي جناح
١٩٥٣	٥٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون	١٩٥٣	٥٣ - عبقرية المسيح
١٩٥٣	٥٦ - أبو الأنبياء	١٩٥٣	٥٥ - ابن رشد
١٩٥٤	٥٨ - ذو النورين عثمان	١٩٥٣	٥٧ - أبو حراس
١٩٥٥	٦٠ - مطلع النور طوابع البعثة المحمدية	١٩٥٤	٥٩ - ألوان في قصة في أدب الأمريكي
١٩٥٥	٦٢ - الإسلام في القرن العشرين	١٩٥٥	٦١ - الشيوعية والإنسانية
١٩٥٥	٦٤ - إبليس	١٩٥٥	٦٣ - الصهيونية العالمية
١٩٥٦	٦٦ - جحا الضاحك	١٩٥٦	٦٥ - معاوية في الميزان
١٩٥٦	٦٨ - سيامين فرانكلين	١٩٥٦	٦٧ - أفيون الشعوب
١٩٥٧	٧٠ - لا شيوعية ولا استعمار	١٩٥٧	٦٩ - حقائق الإسلام وأبطال حصونه
١٩٥٧	٧٢ - التفكير فريضة إسلامية	١٩٥٧	٧١ - الإسلام والاستعمار
١٩٥٩	٧٤ - القرن العشرين ما كان وما سيكون	١٩٥٨	٧٣ - التعريف بشكسبير
١٩٥٩	٧٦ - الرحالة كاف عبدالرحمن الكواكبي	١٩٥٩	٧٥ - المرأة في القرآن الكريم
١٩٦٠	٧٨ - الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	١٩٦٠	٧٧ - الثقافة العربية أسبق
١٩٦٠	٨٠ - شاعر أندلسي وحائزة عالمية	١٩٦٠	٧٩ - اللغة الشاعرة
١٩٦١	٨٢ - الشيخ محمد عبده	١٩٦١	٨١ - الأسرار في القرآن
١٩٦٣	٨٤ - رجال عرفتهم	١٩٦٢	٨٣ - مذهب ذوي العاهات

يضاف إليها عشرة دواوين، فيكون مجموع ما صدر له من مؤلفات حتى يوم وفاته (٩٥) كتاباً، وهناك ثلاثة كتب صدرت حديثاً هي:

٩٦ - اليوميات في أربعة أجزاء.

٩٧ - الغزالي.

٩٨ - ما يقال عن الإسلام.





للدكتور مازن المبارك

رئيس المركز الإسلامي بواشنطن:

نعت إداعة القاهرة في الشهر الماضي الأستاذ الكبير الدكتور عبدالحليم النجار، رئيس المركز الإسلامي بواشنطن، وقد توفي وهو على رأس عمله، فضلي عليه في مسجد واشنطن، ونقل جثمانه إلى القاهرة، وأقيم له المركز الإسلامي الذي كان يرأسه حفلاً تأبياً، تكلم فيه عدد من علماء الشرق والغرب.

مرضه ووفاته:

وكانت وفاته - رحمه الله - على أثر مرض لازمه في السنتين الأخيرتين من حياته حملته الكثير من الآلام، ولكنه رغم خطورته لم يقعه عن القيام بواجبه في التعليم والتوجيه حتى قضى بعيداً عن أهل والوطن في سبيل العمل الذي نذر له نفسه.

(١) حصار الإسلام، العدد العاشر، السنة الرابعة: (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).

في ميادين العمل العلمي والإسلامي:

وقد كان أستاذنا النجار - رحمه الله - واحداً من الرجال الخلائق الذين تضرُّ بأمثالهم الأيام والأجيال إيماناً وإخلاصاً، وخُلُقاً وفصلاً، وعِلْماً وعملاً.

عرفته الجامعات في مصر والعراق، وعرفته ميادين العمل العلمي والإسلامي في أوروبا وأمريكا فعرفت فيه خلق العالم المسلم.

عمله في كتاب «المحتسب» لابن جنِّي:

كان في العلوم الإسلامية واسع المعرفة، شديد الغيرة، كثير التدقيق. وكم من مرة دخلت عليه حين كان يعمل في كتاب (المحتسب) في توجيه القراءات الشاذة لابن جنِّي، فإذا هو غارق بين عشرات الكتب من تفاسير وقراءات ولغة وبحر، تمرُّ به المسألة فيطيل فيها فكره، ثم يجيل بصره حتى يأخذ كتاباً، ثم يدعه إلى غيره... وهكذا يتابع الآراء حتى يصل إلى اليقين الذي يطمئن إليه، فيبتسم ويطيل النفس، وتعلو وجهه بسمة الظفر والرضى.

رسوخه في علوم العربية:

وهو في علوم العربية ذو قدم راسخة وبصر نافذ وحافظة عجيبة، ملثم بالأصول والمتون إلى استيعاب عجيب للجزئيات المتفرقة والآراء المتباينة.

جمعه بين الثقافتين الإسلامية العربية والغربية الحديثة:

لقد استطاع - عليه رحمة الله - أن يجمع الثقافة الإسلامية العربية الأصيلة - يوم كانت ثقافة الأزهر كذلك - إلى الثقافة الغربية الحديثة جمعاً واعياً لم تعق الأولى فيه الثانية، ولم تحل دونها، ولم تطغ فيه الثقافة الغربية على شخصيته الإسلامية الأصيلة كما طغت على كثير من العرب (المستغربين) فأفقدتهم أصالتهم وأذابت شخصياتهم.

خلقه الكريم:

وبعد، فلعلّ أهم ما كان يميز أستاذنا النجار ما عرفه أصدقاؤه وطلابه من خلقه الكريم، فلقد كان إلى علمه الواسع ومجتمعه الذي كثر فيه الادعاء والدجل، كثير التواضع جَمّ الأدب. تراه بين العلماء جريء الرأي، مسموع الكلمة، وتراه بين طلابه فإذا هو صديق متواضع كثير التهذيب، وهو يبدي رأيه في الحالين بلطف ولباقة ووضوح، بل لقد رأيت غير مرة يحمّر وجهه خجلاً حين يهّم برّد طالب مخطيء إلى جاذّة الصواب... ولقد سمعته غير مرة يقول لبعض طلابه: لعلّ الأمر كذا... فابحث عنه. وهو يعلم أنّ ما يقوله عين الحقيقة، ولكنها أخلاق المرشد الفاضل.

إنّ أستاذنا النجار - رحمه الله - قد علمنا أخلاق العلماء، وأفاض علينا من نبله وخلقهم بقدر ما أفادنا من علمه وعقله.

مختاراته المترجمة:

ولعلّ الدين عرفوا الدكتور النجار في مختاراته المترجمة، عرفوا فضله وذوقه واتجاهه، فلقد ترجم عن اللغة الألمانية خير ما كتبه مستشرق عن اللغة العربية، وهو كتاب (العربية) ليوهان فك، وكانت ترجمته تدل على تمكنه رحمه الله من اللغتين العربية والألمانية إلى درجة جعلت اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية تعهد إليه بنقل كتاب بروكلمان الضخم «تاريخ آداب اللغة العربية» من الألمانية إلى العربية، وقد بذل في سبيل ذلك جهداً رائعاً جباراً.

ترجمته كتاب بروكلمان «تاريخ آداب اللغة العربية» وتعقيبه عليه:

ولست أنسى يوماً زرته فيه فإذا هو كثير الضيق، بادي الحرج، فاستوضحته الأمر فإذا هو حائر بين واجب علمي يقتضي منه أن يصحح أو يعلق على كتاب بروكلمان الذي ينقله إلى العربية، وبين مقتضيات رسمية توجب إخراج النص الأصلي بأقل ما يمكن من التعليق... ولم يخرج من

صيقه داك ولم نطمئن نفسه إلا بعد أن قرر إخراج جزء خاص يعتب فيه على ما ذكره بروكلمان في أجزاء كتابه وملحقاته.

إنَّ فقدان الأستاذ النجار خسارة لا تُعوّض. فرحمة الله عليه.

وإني لأسأل الله تعالى أن يُحسن إليه بقدر إحسانه إلى دينه وُعيته قرآنه. وأسأله أن يُحسن إليه بقدر إحسانه إلى طلابه. وأسأله تعالى أن تسعه رحمته كما وسعنا صدره الرّحب وجلّمه الواسع، فإلّطالما والله أرحمنا وضايقناه فما وجدنا لديه إلا بشاشة الوجه وسعة الخلق. اللهم ارحمنا تـ ارحمه، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله.



مصطفى السباعي

تاريخ دعوة في حياة رجل^(١)

(١٣٣٤ - ١٣٨٤ هـ)

(١٩١٥ - ١٩٦٤ م)

للاستاذ محمد بركات الأسطواني



ولادته ونشأته:

وُلد الفقيه عام ١٩١٥ م في مدينة حمص من أسرة علمية عريقة هي من أكرم الأسر الحمصية وأغناها بالعلم والعلماء منذ مئات السنين، وكان أبوه وأجداده يتولون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلاً بعد جيل، وقد تأثر في أول نشأته بأبيه العالم الفاضل والمجاهد الشائر والخطيب البليغ الشيخ

(١) حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، من السنة الخامسة: (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م) عدد

خاص بفقيه الإسلام الدكتور مصطفى السباعي.

حسني السباعي عليهما رحمة الله ورضوانه، فلقد كان لأبيه مواقف مشرفة مع أعداء البلاد، فكان في طليعة العاملين والمؤيدين للحركات الوطنية، وقد ساهم بقسط وافر في المقاومة المسلحة ضد الإفرنسيين، وقيادة المجاهدين الثائرين ضد الاستعمار والمستعمرين والطغاة والمستبدين.. كما كان رحمه الله من مُحِبِّي الخير مساهماً في تأسيس الجمعيات الخيرية والمشاريع الاجتماعية، مغنياً للملهوفين، مدافعاً عن المظلومين والبائسين.. فكان لذلك أثر كبير في نشأة فقيدنا الراحل، ولقد رافقت نشأته أيضاً ظروف قاسية كانت تمر بالبلاد فكان لذلك كله أثره في دفعه منذ حداثة في طريق الكفاح الوطني ضد أعداء البلاد من المستعمرين وعملائهم.. وفي طريق الجهاد الديني لإعلاء كلمة الله وحرب أعدائه.. إلا أن هذه الظروف لم تحل دون إقباله - رحمه الله - على العلم وحضور مجالسه، ولقد كان يصحب أباه إلى مجالس العلم التي كان يعقدها مع لفيف من فقهاء حمص وعلمائها الأخيار، نذكر منهم الشيوخ الأساتذة: طاهر الرئيس، سعيد الملوحي، فائق الأتاسي، راغب الوفاي، محمد البني، ولم يبق منهم على قيد الحياة - يرحمهم الله - إلا الشيخ طاهر الرئيس بارك الله في عمره... حيث كانوا يتدارسون الفقه، ويتناقشون في أدلة مسائله، وكان فيهم الحنفي، وفيهم الشافعي، وكان فقيدنا عليه رحمة الله - على صغر سنه - يحضر مع أبيه هذه المجالس مما حَبَّب إليه أجواءها، وكان لها أثرها في تكوينه العلمي، وقد دفعه أبوه بعد ذلك وشجَّعه لدراسة علوم الشريعة وبخاصة دراسة الفقه المقارن، ومسالك الأئمة في اجتهاداتهم، فصار رحمه الله كما أراد له أبوه عالماً فقيهاً من نوادر العلماء الفقهاء..

طلبه العلم:

بدأ بحفظ القرآن الكريم، وتلقَّى مبادئ العلوم الشرعية على أبيه حتى بلغ السنَّ التي تُخَوِّله دخول المدرسة الابتدائية، حيث التحق بالمدرسة المسعودية الابتدائية، وبعد أن أتمَّ فيها دراسته الابتدائية بتفوق ظاهر، التحق بالثانوية الشرعية، حيث أتمَّ فيها دراسته عام ١٩٣٠م بنجاح

باهر، لفت أنظار كبار أساتذته الذين كانوا يتوقعون له مستقبلاً علمياً باهراً لما كان يتمتع به من الذكاء المبكر والنباهة المتوقدة والبديهة الحاضرة، والنشاط المتوثب، فقد كان رحمه الله منذ صغره حركة دائبة لا تعرف الكلل ولا الملل ولا الفتور.. فكان لذلك محط إعجاب أساتذته وأقرانه وجميع معارفه.. ولم يقتصر في دراسته الشرعية على المناهج المدرسية وإنما كان إلى جانب ذلك يحضر - كما ذكرنا - مجالس العلم التي كان يعقدها والده مع كبار فقهاء وعلماء حمص، وبالإضافة إلى ذلك كان يتردد على غيرهم من علماء حمص يتلقى عنهم العلوم الإسلامية المختلفة أمثال العلماء السادة المشايخ طاهر الأتاسي مفتي حمص في ذلك الوقت، وزاهد الأتاسي، ومحمد الياسين عبدالسلام، وأنيس كاليب وغيرهم.

كما أنه كان مُولعاً بالمطالعة والبحث في كتب الأدب والثقافة المختلفة، وأثناء ذلك كان يلقي خطبة الجمعة في كثير من الأحيان في الجامع الكبير، نيابةً عن أبيه، وهو فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة، ممّا جعله يحتل مكانة مرموقة في بلده، وحاز إعجاب الجماهير التي كانت تتوقّ لسماع خطبه القوية الحماسية التي طالما ألهب فيها المشاعر، وأيقظ العقول والقلوب بجرأته النادرة وعرضه الجذاب وأسلوبه المثير وفكرته الواضحة..

متابعة دراسته الشرعية بمصر:

ورأى بعد ذلك أن يتابع دراسته الشرعية فسافر إلى مصر والتحق بالجامعة الأزهرية، وانتسب إلى قسم الفقه، وذلك في عام ١٩٣٣م، فأدهش أساتذته هناك لما أبداه من تفوق باهر، جعل اسمه على كل لسان بين جميع أساتذته وزملائه، ثم انتسب إلى كلية أصول الدين، ونال إجازتها بتفوق، والتحق بعدها بقسم «الدكتوراه» لنيل شهادتها في التشريع الإسلامي وتاريخه، وقد قدّم أطروحته العلمية وموضوعها «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» التي نالت درجة الامتياز بعد أن ناقشتها لجنة من كبار علماء الأزهر، وكان

ذلك عام ١٩٤٩، وقد أدهش اللجنة بدقته العلمية، واستيعابه للموضوع من كل جوانبه، وما أبداه من آراء ومناقشات، ودفاع دحض به شبهات المستشرقين وأعداء السنة النبوية بأدلة علمية دامغة، ولقد أصبح هذا الكتاب القيم من أهم المراجع العلمية في موضوعه، ومن أمضى الأسلحة في الدفاع عن السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لكل باحث وعالم، وطالب علم...

مباشرة التدريس والوظائف التي شغلها:

أحبَّ رحمه الله مهنة التدريس رغبةً منه في نشر العلم وتربية النشء على أخلاق الرجولة والتضيلة، وأدرك أهمية التدريس في تكوين هذا النشء وإعداد الأجيال إعداداً يناسب ما ينتظرها من مسؤوليات وأعباء لتحرير البلاد من الاستعمار وآثاره، واستعادة فلسطين التي كانت وكل قضية عربية وإسلامية شغله الشاغل، وليساهموا في بناء مجتمعهم على أسس متينة من العلم والأخلاق والشعور بالمسؤولية، لذلك انخرط في سلك التعليم فكان يدرس اللغة العربية والتربية الدينية في مدارس حمص الثانوية، ثم عندما انتقل إلى دمشق عمل مع فئة من إخوانه على إنشاء مدرسة تحقق ما يصبو إليه من أهداف في التربية والتعليم؛ لأنه لم يكن يرى في مناهج المدارس الحكومية ما يحقق الهدف المنشود، فضلاً عن فقدان عنصر التربية السليمة فيها، فأسس (المعهد العربي) في دمشق الذي انضمت إلى إدارته بعد ذلك جمعية التمدن الإسلامي رغبة في توسيع المشروع ودعمه، فأصبح اسم المعهد (المعهد العربي الإسلامي) الذي ما زال قائماً إلى الآن رغم أنه لم يعد لمؤسسيه أية علاقة به لظروف شتى... ولم يقتصرُوا على إنشاء هذا المعهد في دمشق، بل فتحوا له فروعاً في معظم المحافظات، وكان فقيدنا رحمه الله أول مدير لهذا المعهد الذي خرج في زمانه عدداً كبيراً من الطلاب ممن شغلوا فيما بعد وظائف تدريسية وغيرها من مختلف الوظائف والأعمال، وكانوا من خيرة ما أنتجته المدارس في بلدنا علماً وخلقاً وشعوراً بالمسؤولية...

تدريسه في كلية الحقوق بجامعة دمشق:

ولكن مؤهلاته الفطرية وإمكانياته العلمية، وطاقاته المبدعة، كانت تهيء له مهمة أكبر فوق عليه الاختيار ليكون أستاذاً في كلية الحقوق بجامعة دمشق، فعين فيها منذ عام ١٩٥٠م فكان من ألمع أساتذة الجامعة في فن التدريس وخضب الإنتاج العلمي.. ولكن هذا المنصب الجديد لم يكن ليستوعب إلا جزءاً من نشاطه وطاقاته المتوثبة المتوقدة.. كما أن طموحه العلمي وشعوره بالمسؤولية نحو دعوته وفكرته وبلاده كان أكبر من أن يقنعه بما وصل إليه، ففكر في إنشاء كلية خاصة مستقلة للشرعية الإسلامية تكون إحدى كليات الجامعة وتعمل على تخريج علماء في الشريعة الإسلامية على أرفع المستويات العلمية والفكرية.. وأراد أن يتبت بذلك جدارة التشريع الإسلامي لتحقيق الخير والتقدم والازدهار لأمتنا ولكل أمة، في عصرنا وفي كل عصر..

تأسيسه كلية الشريعة وتسلمه عمادتها:

ولقد نجحت مساعيه رغم العراقيل والصعوبات التي وضعت في طريقه لإخراج هذه الكلية إلى عالم الوجود فكان أن تم تأسيسها عام ١٩٥٥، وكان أول عميد لها إلى جانب قيامه بالتدريس في كلية الحقوق واضطلاعه بكافة المسؤوليات العامة الملقاة على عاتقه كداعية وصاحب فكرة.. ولقد عمل منذ تسلمه عمادة كلية الشريعة بالتعاون مع إخوانه من الأساتذة الجامعيين الذين يؤمنون بفكرته على إرساء دعائم هذه الكلية على أمتن الأسس العلمية والفكرية والأساليب الحديثة لتحقيق الهدف المنشود في تخريج أجيال من العلماء الدعاة والفقهاء والمدرسين الجديرين بحمل لواء الفقه الإسلامي ونشره والتمكين له..

والحق أن عملاً مثل هذا العمل لو قامت به جماعة من أصحاب المواهب والإمكانات لكفاها فخراً ومأثرة ومجداً وخلوداً.. ولكن السباعي رحمه الله كان طاقة حثارة لا تعرف الوقوف عند حد.. ولا تعرف القناعة

والاكتفاء بالعمل في ميدان واحد... والحق كذلك أن السباعي عليه رضوان الله كان أمة حية دائبة النشاط والحركة والتوثب والتطلع إلى أكبر الأهداف وأسمى الغايات...

إنشاء موسوعة الفقه الإسلامي:

فلم يكتف بالسعي لتأسيس كلية الشريعة، وإنما كان يهدف لإحياء التراث الفقهي الإسلامي العظيم، وبعثه بقلب جديد يلائم التطورات الاجتماعية والتشريعية الحديثة، فعمل بالتعاون مع إخوانه الذين شاركوه تأسيس كلية الشريعة على إنشاء موسوعة للفقه الإسلامي تهدف إلى إحيائه وصياغته صياغة جديدة وتبويبه وتصنيفه على أحدث الأساليب المتبعة في أرقى الموسوعات العلمية والقانونية في العالم لتكون مرجعاً لكل فقيه وعالم ولتلبّي حاجة التشريع عندما تنهيا الظروف لإقامة كافة تشريعات بلادنا على أساس الإسلام. وتحقيقاً لذلك ركب كل صعب حتى أخرج المشروع إلى حيز الوجود، وكان أول رئيس لهذه الموسوعة التي جمعت خيرة العناصر العلمية والفقهية والقانونية في الجامعة.

وكان رحمه الله بالإضافة إلى ذلك رئيساً لقسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق...

عنايته بمناهج كلية الشريعة:

وكان يرى أن مناهج كلية الشريعة لا يجوز أن تقتصر على تلقين العلوم الجافة، وأن غاية الكلية ليست تخريج العلماء والفقهاء فحسب، وإنما كان يريد أن يكون خريج الشريعة علماء ودعاة، وللدعوة فن وروح وإذا كان العلم يصنع العلماء فإن التربية والتوجيه يصنع الدعاة، ولذلك عني رحمه الله بمناهج التربية والتوجيه في الكلية.

درسه الأسبوعي «قاعة البحث»:

فبالإضافة إلى الروح التوجيهية التي كان يحرص على بثها في كافة

المناهج العلمية، عمل على توجيه الطلاب توجيهاً مباشراً فأحدث درساً أسبوعياً سماه: «قاعة البحث» وقد تولّى بنفسه إدارة هذه القاعة وإلقاء محاضراتها التوجيهية، وكان رحمه الله حريصاً على عدم الانقطاع عن قاعة البحث لأيّ عذر أو سبب ولو كان المرض الشديد والآلام المبرحة...

همّته العالية وعزيمته الماضية:

وكم كنت أعجب من همته وحيويته وإخلاصه واندفاعه لأداء الواجب رغم ما يعانيه من الآلام التي تنوء بها الجبال الراسيات... وإني لأذكر عندما كنت أتوسّل إليه وأرجوه بالحاج أن لا يحمّل نفسه ما لا تطيق، وكنت أحاول أن أثنيه عن عزمه في كثير من الأحيان كي لا يذهب إلى الجامعة لإلقاء محاضرات «قاعة البحث» إشفافاً عليه لما أعلمه من شدة الآلام التي لم تكن تفارقه لحظة واحدة في مرضه الأخير، ونظراً لما كانت هذه المحاضرات تكلفه من جهد وتعب وإرهاق لا سيما في أيام الشتاء الباردة... ولكنه رحمه الله لم يكن يَضْغِي لذلك، وكان يقول: «خير لي أن أموت وأنا أقوم بواجبي نحو الله من أن أموت على فراشي فالآجال بيد الله، وإنّ آلمي من حرمان الطلاب من دروس التوجيه أشد وأقسى من آلمي الجسدية، وحسبي الله وعليه الاتكال» وكنت حين أسمع منه هذا الكلام، وأرى منه هذه العزيمة الماضية، والهمة الخارقة، وهو مريض يعاني الآلام لا أتمالك نفسي من البكاء والخشوع أمام هذا الدرس البليغ في التضحية والإيثار فرحمة الله عليك يا أستاذنا الجليل، لقد كنت قمة شامخة هيهات هيهات لغيرك أن يدانيها إلا أن يكرم الله الأمة الإسلامية برجل مثلك يحمل ما حملت وينتج ما أنتجت...

مناصبه السياسيّة وثقة الأمة به وتكريمها له:

لم يكن السباعي رحمه الله ابن حمص وحدها، ولا ابن مدينة غيرها، ولكنه كان ابن العالم الإسلامي أو على الأصح ابن الإسلام أينما كان وفي كل مكان فلذلك لم يكن كثيراً أن تمحّضه دمشق ثقتها، وكان لم يمض

على إقامته فيها سوى بصع سنين، فانتخب نائباً عنها، بل نائباً عن الأمة بأسرها في الجمعية التأسيسية التي تحولت بعد وضع الدستور إلى برلمان ١٩٤٩ - ١٩٥٤م، فكان أهلاً لهذه الثقة، وسرعان ما لعم نجمته كرلماني شعبي متفوق، إذ كان الصدى الحقيقي المعبر لأمانى الشعب وآلامه، والصوت المدوي المجلجل لجماهيره يصدع بالحق ولا يداري، ويقارع الباطل والفساد ولا يهادن، ويرفع عن المكاسب والمغانم ولا يساوم... فأتجهت إليه الأنظار والتفت حوله القلوب داخل البرلمان وخارجه... فانتخب نائباً لرئيس المجلس، وأصبح عضواً بارزاً في لجنة الدستور العامة، وأحد الأعضاء التسعة الذين وضعوا مسودة الدستور وقدموها إلى اللجنة العامة لإقراره بعد أن ضمته مواد إسلامية رائعة.

إيثاره العمل الشعبي على المناصب:

وقد بدلت له العروض بالحاح مغر للدخول في الوزارات المتعاقبة فتأبى مؤثراً العمل الشعبي والبقاء بين الجماهير، يعيش مشكلاتها وقضاياها عن الانشغال عنها بالمناصب والمغانم... ولو أردنا الحديث عن أعماله وجولاته داخل البرلمان لاحتجنا إلى مجلد كبير يسع نشاطه البرلماني... وإذا أردنا أن نعرف كيف حصل فقيدنا الراحل عليه رضوان الله على هذه الثقة وهذا الحب فلنرجع إلى بداية كفاحه الوطني وجهاده في سبيل دعوته وبلاده وأمه يوم كان فتى صغيراً.

بداية الكفاح والانطلاق في العمل العام:

كما ذكرنا أن ظروفًا قاسية كانت تمر بالبلاد رافقت نشأة فقيدنا، من استعمار وفساد وتخلف وجهل وبؤس ومظالم اجتماعية وسياسية، فآثرت الظروف على الفنى الصغير، وعملت على تفتيح عينيه على الواقع السيئ الذي تعيشه البلاد.

وبالرغم من صغر سنه فقد كان متحمساً هذه المآسي والمظالم، وهذا

الواقع، مستشعراً مسؤوليته كمواطن يريد أن يرى بلاده حرة مستقلة قوية، تنعم بالحرية والرخاء والعدالة.. فهب متمرداً على هذا الواقع السيئ، وقام يجمع أصدقاءه للقيام بعمل لايقاظ المشاعر العامة وتعبئة القوى ضد أعداء البلاد وضد الانحراف المتفشي بكل ألوانه، فكان تمرده مبكراً وسابقاً لسنة، كما كانت أعماله أكبر من عمره، ولكنها لم تكن أكبر من مواهبه وإمكانياته وتفكيره وهمته، وقد ساعده على ذلك وعي مبكر للأمور ويقظة وفطنة وإباء ومروءة ورثها عن آبائه وأجداده..

مقاومة مدارس التبشير الأجنبية:

وكان أول عمل قام به تأليف جمعية سرية لمقاومة مدارس التبشير الأجنبية التي أنشئت بمساعدة وحماية السلطات الاستعمارية الفرنسية أيام الانتداب، هذه المدارس التي كانت تنفث سمومها الاستعمارية الخبيثة في أبناء (الطبقة الراقية).. وتُحَبِّب إلى طلابها الثقافة الغربية والأخلاق والعادات الإفرنجية، وتعمل على إبعادهم عن عقيدتهم وثقافتهم الدينية والعربية. فعمل على محاربتها، وأخذ يكتب المنشورات ويعمل على طبعها سراً، ويتولى مع رفاقه توزيعها على الناس داعياً فيها إلى محاربة الاستعمار ومدارسه ومضالمة وجرائمه.. وكان يعقد لذلك الاجتماعات السرية رغم شدة وطأة الأحكام العرفية التي كانت مفروضة على البلاد.

إعلانه الحرب على الاستعمار:

ولكن العمل السري لم يكن ليشفي غليله وهو الجريء الذي لا يعرف الخوف إلى قلبه المؤمن سبيلاً.. فقام يعلن الحرب على الاستعمار وجرائمه من فوق المنابر بخطب مثيرة قوية، ويدعو المصلين في كثير من الأحيان إلى التظاهر والمقاومة، وكان يسير على رأس هذه المظاهرات الصاخبة التي كان يقودها غير عابئ بالأحكام العرفية والإرهاب المفروض على البلاد مما أزعج السلطات الاستعمارية والحاكمة التي ضاقت به ذرعاً ولم تر سبيلاً للحلاص منه إلا باعتقاله وزخه بالسجن، فألقت عليه القبض لأول مرة عام

١٩٣١ بتهمة توزيع نشرات نارية ضد سياسة فرنسا في المغرب، ومن هذه المنشورات يتبين لنا أن السباعي رحمه الله لم يكن يقصر اهتمامه على محاربة المستعمرين في بلاده وحدها، وإنما كان يحاربهم في كل مكان، وفي كل جزء من أجزاء الوطن العربي والإسلامي، ذلك أنه سعيده الإسلاميه لم يكن يفرق بين جزء وجزء من أرض العروبة والإسلام، وإنما كان يرى الوطن العربي وطناً واحداً والعالم الإسلامي أمة واحدة ينتبع مشكلاتها في كل مكان، ولم يكن ليقبل ما فرضه الاستعمار على أمتنا الإسلامية من حدود وانقسام..

وقد اضطر الإفرتسيور للإفراج عنه تخفيفاً للهباج الشعبي الذي أعقب اعتقاله وهو ابن ستة عشر عاماً، ولكنه رحمه الله ما أن خرج من السجن حتى عاد أشد مما كان حرباً على الاستعمار وبغية وعدوانه، فعاد لاعتلاء المنابر وإلقاء الخطب الحماسية المثيرة مما ألجأ السلطات الإفرتسية لإعادة اعتقاله عام ١٩٣٢ وإلقائه في السجن، وذلك عقب خطاب مثير ألقاه في خطبة الجمعة بالجامع الكبير في حمص، ألهب فيه الشعور، وأسأل العبرات، وهاج الحماهيم، واستمر سجنه عدة شهور، وعندما أفرج عنه رأى أن يتابع دراسته وتحصيله العالي فسافر إلى مصر عام ١٩٣٣ والتحق بالأرهر...

متابعة كفاحه الوطني في مصر:

ولم يكر السفر من بلده راحة له من أعباء الكفاح والعمل الوطني، ولكنه انتقال من ميدان إلى ميدان، ولئن ترك في بلاده الاستعمار الفرنسي، فقد وجد في مصر الاستعمار البريطاني الجاثم فوق صدر المصريين، ولما كان الوطن العربي والعالم الإسلامي في عقيدته وحدة لا تتجزأ فقد نزعم طلاب الأرهر الذين سرعان ما التفوا حوله مع إخوانهم من طلاب المعاهد الأخرى فتاد مظاهراتهم ضد الاحتلال البريطاني ومظالمه مما دعا السلطات الاستعمارية الإنكليزية في مصر إلى إلقاء القبض عليه وإيداعه السجن، وذلك عام ١٩٣٤.

وفي عام ١٩٤٠ اتهمته القيادة البريطانية في مصر بتأليف جمعية سرية لتأييد ثورة رشيد عالي الكيلاني، ودعوة الشعب المصري إلى الثورة على الإنكليز، فأمرت بالقبض عليه ثانية، وبعد أن سجن شهرين سلم إلى السلطات الإنكليزية بفلسطين، ولم تفرج عنه إلا بعد أن قضى أربعة أشهر في السجن.

عودته إلى سورية واعتقال الفرنسيين له:

عاد بعدها إلى وطنه سورية، فما كاد يصل إليها في بداية عام ١٩٤١ حتى قبض عليه الفرنسيون خوفاً من أن يثير عليهم الجماهير من جديد، فزجوه في سجون حمص وبيروت، ثم في معتقل «المية ومية» وقلعة راشيا بלבnan مدة سنتين ونصف السنة، ذاق خلالها ألواناً من العذاب الوحشي والتجويع والأشغال انتقاماً لما أشعله في قلوب الجماهير من النقمة على الاستعمار وجرائمه في كل مكان...

كفاحه من أجل القضية الفلسطينية:

لم تكن قضية فلسطين، قضية عادية عند السباعي، ولا كانت على هامش اهتمامه، أو ملهاة يتسأل بالحديث عنها في المناسبات تكسباً للعواطف وتملقاً لأصحابها.. ومتاجرة باسمها.. وإنما كانت حيّة في قلبه يخفق بها.. منسربة في عروقه يفعل بحرارتها.. شاغلة لعقله يفكر فيها، كانت عنده قضية العقيدة ومقدساتها المهددة.. فكيف تهدأ نفسه، ويطمئن ناله، وكانت قضية الحق المغصوب، فكيف يهون أمره أو يفرط به؟! وقضية الوجود للأمة العربية الإسلامية، فكيف ينشغل عنها أو يسلوها.. بل كانت قضية الشرف والكرامة فكيف لا تفور الدماء في عروقه ويستطيب التضحية من أجلها؟!

إن قضية فلسطين كانت بالنسبة للسباعي قضية وجود وحياة أمة يشعر بالخطر محدقاً بها وقادتها لاهون فتثور ثائرتة، وينطلق يزار في الآذان

ليوقظها.. ويقذف بالنار واللهب كلمات على لسانه يحرق بها المتحاذلين والمتآمرين والعملاء المأجورين..

ولم يكن ليكتفي بالقول دون العمل فلقد شهدنا وشهدت الدنيا مصداق تحرقه للقضية الفلسطينية، وبذله من أجلها، وتضحيته في سبيلها.. فهو الزعيم القائد الذي قرن القول بالعمل.. أما القول: فكان في الخطب الحماسية النارية المثيرة التي طاف أنحاء البلاد من أقصاها إلى أقصاها يثير بها الجماهير المؤمنة في كل مكان.. ويفتح لها أبواب الجنة فيلهب حنينها للاستشهاد في سبيل الله.. ويأخذ عليها العهود والمواثيق بأن تبذل لفلسطين الإسلامية كل غال ورخيص.. وقد كان ذلك عقب الإفراج عنه سنة ١٩٤٣م بعد اعتقال دام أكثر من سنتين ونصف السنة في سجون «المية ومية» وقلعة راشيا في لبنان، ولقد ضاعفت قسوة التنكيل الذي عاناه من اندفاعه وحماسه وعزمه وتصميمه لمناصرة الجهاد والكفاح من أجل الإسلام وقضايا الحرية والكرامة «قضايا الأمة» التي رأت فيه زعيمها المخلص وقائدها الأمين..

ولقد نشرت صحف دمشق وغيرها من الصحف العربية يومئذ أنباء هذه الجولات والمظاهرات التي كان يقودها عقب كل خطاب في كل مدينة وقرية في أنحاء البلاد السورية.. كما نشرت هذه الصحف محاضراته وخطبه وأحاديثه.. ولم تستطع هذه الصحف إخفاء دهشتها وإكبارها لهذه الخطب والمظاهرات بالنظر لأن البلاد كانت يومذاك تعيش تحت نير الأحكام العرفية.. وكانت الاجتماعات والتجمعات ممنوعة محظورة تحت طائلة أشد العقوبات، ولكن السباعي الذي كان يرى الواجب فوق كل شيء لم يعبأ لهذه الأحكام ولا للتهديد الذي كان يوجه إليه من السلطات الاستعمارية والمتعاونين معها.. ولم يكن يشغله عن قضية فلسطين أي شاغل.. فكانت على لسانه في كل حديث، وفي كل مكان، وفي كل مناسبة، وحتى بدون مناسبة وتشهد بذلك مساجد سورية وأنديتها وبرلمانها وصحفها وكل مدينة وكل قرية فيها.. وهذا هو القول.. أما العمل فسيأتي عنه في موضعه من مراحل العرض.

قيادته للمقاومة المسلحة ضدّ الفرنسيين:

في عام ١٩٤٥ وفي شهر أيار، قامت القوات الاستعمارية الفرنسية بحملات العدوان والإرهاب والتدمير والتنكيل بالمواطنين والثوار، وحتم شبح الحرب على البلاد.. فهبّ السباعي يرحمه الله يقود المقاومة المسلحة ضدّ القوى الفرنسية في حمص، وأطلق الرصاصة الأولى بادئاً هذه المقاومة، وأظهر هو ورجاله بسالة نادرة وشجاعة أذهلت الأعداء الفرنسيين، وأدخلت الهلع على قلوبهم، وكبّدتهم الخسائر الفادحة في الأرواح والعتاد، وردّتهم خائبين..

البدء بالدعوة وبعث الفكرة الإسلامية:

لم يكن في المِلاد الشامية حتى مطلع القرن العشرين تيار إسلامي واضح المعالم، كما أنه لم يكن للإسلام دعاة وجنود من المثقفين الدين جمعوا إلى جانب الثقافة العصرية الحديثة، ثقافة إسلامية ناضجة، وإنما كانت هناك دعوات دينية وطرق صوفية وجمعيات تقتصر في دعوتها على بعض جوانب الإسلام، مكتفية بالدعوة إلى مكارم الأخلاق والتمسك بالعبادات دون اهتمام بالجوانب الأخرى مع الابتعاد عن معالجة مشكلات الجماهير والتحرّش بها.. ولم تكن تخلو بعض هذه الدعوات والطرق من بدع وخرافات وضلالات مدخولة ومدسوسة على الدين، وهذا ما جعل الإسلام ومن كان يحمل بعض رسالته، في عزلة عن الفئات المثقفة وعن جماهير الشعب ومشكلاته..

وإذا أضفنا إلى ذلك جهود الاستعمار التي بذلها - وقد كان مهيمناً على مقدرات الأمور في بلادنا في ذلك الحين - لإخماد الروح الإسلامية التي كانت تحرك القوى الشعبية ضده وتدفّعها للثورة عليه.. وما بذله أيضاً من جهود استخدم فيها سائر إمكانياته مدفوعاً بالحقّد الصليبي الموروث لتسويه حقائق الإسلام بالدرس والافتراء وتضليل الأفهام والعقول عن طريق تهوين شأنه وتراثه وأمجاده في نظر الناشئة المثقفة وتزيين الثقافة الغربية والأخلاق والعادات الأوروبية، وإيهامهم أن الدين جمود ورجعية، وأنه لا

سبيل للنهوض والانطلاق إلا بترك الدين واتباع الغرب وتقليده في مختلف شؤون الحياة!!..

وقد فعلت هذه السياسة الصهيونية الاستعمارية الصليبية فعلها فزادت في إبعاد الشباب المثقف عن الإسلام، وزادت من إحكام الحصار حوله ليبقى في عزلة عن أبنائه، ولكن هيهات هيهات أن يتم لأعداء الإسلام ما يريدون.. فقد كان الله جلّت قدرته لمكايدهم بالمرصاد فهياً للشعب المؤمن من يجدد له دينه، ويقود جماهيره نحو التحرر من سلطان الاستعمار وما خلفه من جهل وفقر وتخلف وانحلال وفرقة وانقسام.. ويعيد للإسلام مجده، ويصل بينه وبين أبنائه من جديد، ويرفع رايته ويعيد بناء ما قد هدمه الاستعمار والصهيوية والشيوعية.. ولا شك أن المهمة كبيرة والنهوض بها شاق عسير يتطلب نوعاً خاصاً فريداً من الرجال المؤمنين الذين يستلذون التضحية في سبيل الله مهما غلت، ويستسهلون الصعاب وركوب المخاطر لإعلاء كلمته.. وينسون أنفسهم وحظوظهم ليذكروا دينه ويجاهدوا للدفاع عنه وإعلاء رايته..

ولم يكن ذلك المجدد الذي أعده الله لحمل هذه الأعباء والقيام بهذه المهمة غير مصطفى السباعي الذي نهض بالعبء الثقيل الكبير «وإن العظامم كفوها العظماء».. وشعر السباعي رحمه الله بحاجة الإسلام إلى جماعة تؤمن به إيماناً صادقاً واعياً يدفعها للتضحية في سبيله وتحقيق أهدافه في إقامة ميزان الحق بدل ميزان القوة في الأرض.. فبدأ يدعو الناس إلى الإسلام، ويُبصّرهم بحقائقه ويُعرّفهم بأهدافه وغاياته، وسرعان ما استجابت الجماهير لدعوته والتفت حوله، ولكن ظروف البلاد في ذلك الوقت التي وضعته في خط الكفاح الأول ضد الاستعمار وعملائه وما لاقاه على أيديهم من اعتقال وسجن وملاحقة وإيذاء لم تدع له الفرصة الكافية لبناء الجماعة التي يشعر بضرورة وجودها.. الجماعة القادرة على إيجاد التيار الإسلامي القوي الذي يشق طريقه في زحمة التيارات الفكرية والاجتماعية المتصارعة، وتحقيق السبق والتفوق عليها..

فساهم في بداية الأمر في تأسيس وقيادة عدد من الجمعيات الإسلامية في حمص، وفي غيرها ومنها: «الرابطة الدينية بحمص، وشباب محمد ﷺ، والشبان المسلمين في دمشق»..

اتصاله بالإمام الشهيد حسن البنا:

وظل يعمل للإسلام عن طريقها إلى أن سافر إلى مصر سنة ١٩٣٣ لمتابعة دراسته العليا هناك، وما أن استقرَّ به المقام في القاهرة حتى بادر للاتصال بداعية الإسلام العظيم حسن البنا - الإمام الشهيد - وكان قد سمع به من قبل، وعرف جهاده في سبيل الإسلام، وكان الإمام البنا عليه رضوان الله، قد فرغ من بناء جماعته التي استطاعت بقيادته الفذة أن توجد في مصر، رغم كل العقبات التيار الإسلامي الذي أثبت وجوده، وأعاد لها وجهها الحقيقي المشرق، بعد أن مسح ما علق به من ضلالات وبدع الفرعونية والتغريب.



الفقيد العظيم مع الإمام الشهيد في مصر عند اللقاء الأول

ولقد أفرغ الإمام الشهيد الاستعمار وعملاءه والطغيان وأذنايه والانحراف وأتباعه، فتآمر الاستعمار مع الطغيان والانحراف، وأقدموا بخسة وبدالة على اغتياله عام ١٩٤٨م، وذلك عقب عودته وإخوانه من معارك

فلسطين بعد أن أثبت أنه وجماعته قوة ترهب المستعمرين والطفلة والمنحرفين، وتهدد وجودهم ومصالحهم.

ولم يقتصر الأمر على إمام الجماعة ومرشدها حسن البنا، ولكنه كان يستهدف الحركة التي أسسها فقامت السلطات بحملة واسعة من الاعتقالات استهدفت معظم أعضاء الجماعة وخاصة الأستاذ السباعي الذي لاحقته السلطات ملاحقة شديدة ولكنها لم تظفر به..

ولقد أعجب مقبدر السباعي بعمل الإمام الشهيد حسن البنا، ورأى فيه بغيته وصريقته. كما رأى - ما كان يشده ويفكر به من تنظيم جماعة تنهض بعبة رسالة الإسلام - قد تحقق على يدي الإمام البنا، فساهم خلال وجوده في مصر بدفع هذه الحركة وتوسيع نشاطها وتدعيم أسسها فاستفاد من تجربتها وأفادها من خبرته ونشاطه. ولمع نشاطه حداً أفرغ الاستعمار البريطاني وأتباعه في مصر أدباً فكرياً عنده نقص من قبل القيادة البريطانية في مصر بتهمة تحريض الشعب المصري على الثورة ضد الإنكليز وزج به في السجن، وبعد



المراقب العام للإخوان المسلمين

شهرين سلم إلى السلطات الإنكليزية بفلسطين فأودع معتقل «صرفند»، وبعد مضي أربعة أشهر أفرج عنه، لتعيد السلطات الفرنسية في سورية اعتقاله من جديد فور وصوله إليها وزجته في سجون لبنان أكثر من سنتين ونصف، وبعد أن أفرج عنه عاد إلى بلده حمص ثم انتقل إلى دمشق ليتابع نشاطه في الدعوة إلى الإسلام وقيادة الجماهير في طريق الحق والقوة والحرية.. ورأى فقيدنا الكبير أن الوقت قد حان لإخراج الحركة الإسلامية من نطاق العمل الشعبي العام إلى نطاق الحركة المنظمة، وبدأ باصطفاء العناصر

الطليعية، وانتهى إلى تأسيس الجماعة المنشودة مختاراً لها نفس اسم الحركة الإسلامية في مصر، لإخراج الحركة من النطاق المحلي إلى نطاق الوطن العربي الكبير، فأعلن رحمه الله قيام جماعة «الإخوان المسلمون»، وذلك في عام ١٩٤٥، وقد انتخبته الهيئة التأسيسية للجماعة فيما بعد مراقباً عاماً مدى الحياة وبابيعته الجماعة على ذلك، وقاد الجماعة قيادة الحكيم المقدام متجاوزاً بها أحلك الأيام وأشد العقبات حتى استطاع أن يجعل لدعوته صوتاً مسموعاً مهاباً، وحتى استطاع أن يوجد في سورية التيار الإسلامي الواعي الذي استقطب خيرة الشباب المثقف المؤمن..

واستمر السباعي القائد يمنح دعوته وجماعته من شبابه المتوقد، وحيويته النادرة، وعقله الحبار، وعبقريته الفذة وروحه القوية، وكل ذرة من جهده ووقته حتى سقط من الإرهاق الذي لو سُلط على جبل كبير لصدعه، ولكن السباعي القائد لم يستسلم للمرض، ولم تَفُتْرْ همته للألام المبرحة المضنية فبقي يمد الجماعة ودعوته بقوة معنوية من قلبه الكبير، وبتوجيه سديد رشيد من عقله الحكيم حتى آخر لحظة من حياته رحمه الله..

إلى ميدان الجهاد وخط النار:

في عام ١٩٤٨ ارتكبت منظمة الأمم المتحدة جريمتها النكراء بإقرارها مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وتدويل القدس.. فأعطت بذلك «إسرائيل» وضعاً شرعياً!! يرر - في زعمها - اغتصابها للقسم الأكبر والأغنى من فلسطين.. وأمام هذا التحدي لمبادئ الحق والعدالة وتجاهل إرادة الشعب العربي الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره ثارت الشعوب العربية والإسلامية، ودفعت الحكومات العربية لدخول المعركة ضد القوات اليهودية الغاصبة..

وهنا دعا السباعي رحمه الله الأمة إلى الذود عن كرامتها وحقوقها وحررتها، واطلق بجوب المدن والقرى السورية من حدود فلسطين في الجنوب إلى حدود تركيا في الشمال، ومن حدود العراق في الشرق إلى الساحل السوري في الغرب يدعو إلى التطوع لإنقاذ فلسطين، ويثير لهفة المؤمنين إلى حنة الرصوان التي فتحت أبوابها خلف نيران المعركة في الأرض المقدسة، واندفع في مقدمة الركب بقود كتائب الشباب المؤمن من جماعة الإخوان المسلمين ممن

رباهم على مبدأ: «والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».. فخاض بهم المعارك القاسية في الميدان الذي اختاره مركزاً لانطلاقه وحركاته، وكان في قلب مدينة القدس وأطرافها ليحمي بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وكان القتال يومذاك يدور فيها من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع، فضرب حينذاك وإخوانه أروع نماذج البطولة، وقد تساقط من حوله عشرات الشهداء من المجاهدين الأبرار من شباب الإخوان.. أودع أكثرهم الثرى بجوار المسجد الأقصى، ودفن بعضهم بدمشق^(١). وفي أرض المعركة تم لقاء كتائب إخوان سورية بكتائب إخوان مصر والتقى السباعي بالبنا عليهما رحمة الله وتعاون القائدان ووضعاً خطة مشتركة للمعركة وتوزعاً أماكن القتال، واستمر مجاهدو الإخوان يقاتلون ببسالة وشجاعة نادرتين بقيادة الدكتور السباعي إلى أن توقف القتال بتوقيع الهدنة التي فرضت على العرب بعد أن كاد يتم لهم النصر على اليهود، فكانت هذه الهدنة المشؤومة بداية القوة لإسرائيل وبداية التقهقر للقضية الفلسطينية... وأعد المجاهدون رغماً عنهم عن أرض المعركة إلى بلادهم..



(١) راجع مقال الدكتور السباعي بعنوان «الإخوان المسلمون في معارك فلسطين» المنشور في العدد الممتاز الحاص بفلسطين من السنة الثانية لمجلة «حصارة الإسلام».

وعاد السباعي إلى دمشق يحمل جراحات قلبه... عاد إلى شعبه وإلى جماهيره يروي لهم قصص المأساة الدامية والكارثة الأليمة والسكبة المفجعة... عاد يطوف المدن والقرى السورية من جديد يشرح للجماهير أسرار المعركة وأسباب الهزيمة المفتعلة التي ذُبرت بليل مشؤوم... ويبين الأخطار التي تتهدد الأمة العربية من جراء إعطاء اليهود فرصة للتقوى والاستعداد، ويدعو لاستئناف القتال قبل أن يتم لهم ذلك...

وعلى مر الأيام والسنين لم ينس السباعي الذي اكتوى بنار المعركة ونار المؤامرات التي سببت فشلها، القضية الفلسطينية التي أعطاها من اهتمامه الشيء الكثير، فاستمرّ يذكرها ويذكر بها في كل مناسبة، وأراد أن يجعلها قضية حية في ضمير الجماهير حتى لا تفتقر روح المقاومة والرغبة في الثأر والشعور بالمسؤولية الكبيرة، فدعا إلى تخصيص أسبوع من كل عام باسم «أسبوع الخطر الصهيوني» تقام فيه المهرجانات الشعبية في سائر أنحاء البلاد، وقد قرن القول بالعمل فبدأ في عام ١٩٥٥ هذا المشروع، ودعا قادة الحركة الإسلامية في الوطن العربي للاشتراك في هذا الأسبوع، وطاف معهم في شتى أنحاء البلاد يتحدثون عن الخطر الصهيوني ويقودون المظاهرات الشعبية لمطالبة الحكومات والمسؤولين بإعداد الشعب للمعركة واتخاذ كافة الاستعدادات لمعركة الثأر...

كما طالب وإخوانه في المجلس النيابي تدريس القضية الفلسطينية كمادة أساسية في مناهج التعليم، وقد أقر هذا الاقتراح ونفذ بالفعل... وفي عام ١٩٥٥ نفسه ألقى خطبة من مسجد جامعة دمشق بمناسبة أسبوع التسليح، ونقلت الإذاعة هذه الخطبة على جميع محطاتها، وقد علقت الصحف الدمشقية وغيرها في ذلك الوقت على ما كان لهذه الخطبة المثيرة الرائعة من أثر بليغ جعل الناس يقدمون التبرعات السخية التي بلغت بضعة ملايين من الليرات، واستمر كذلك يكتب المقالات في مجلته (حصارة الإسلام) يذكر بالقضية الفلسطينية ويدعو للاستعداد وأحدث لذلك باباً خاصاً في المجلة لمتابعة تطورات القضية ومراحلها هو «الدرة المغتصبة».

كفاحه في ميدان الصحافة:

لقد كان السباعي رحمه الله طاقة جبارة من النشاط المتوقد الذي لا

يعرف الملل ولا الفتور.. فليس عريبا أن يخوض الميادين المختلفة،
ويكافح في جبهات متعددة.. ثم ينجح ويتفوق في كل هذه الميادين..
ويتصر في كل الجولات..

إنشاء جريدة «المنار»:

ولقد أدرك رحمه الله أهمية الصحافة كسلاح فعال في يد الفكرة
الإسلامية تستخدمه في توجيه وقيادة الرأي العام وتوعية الجماهير بأهدافها
وقضاياها، فأنشأ لذلك جريدة «المنار» من ١٩٤٧ إلى ١٩٤٩ أي إلى قيام
انقلاب حسني الزعيم الذي أوقفها، وظلت كذلك إلى أن تملك امتيارها
الأستاذ بشير العوف الذي استأنف إصدارها باسمه كجريدة سياسية مستقلة.

ولقد بدل السباعي رحمه الله في فترة إشرافه على تحريرها من الجهود
الكبيرة ما جعلها في طليعة الصحف العربية يومذاك، وكان مما يضاعف إقبال
الجماهير على قراءتها تلك الافتتاحيات الرائعة المثيرة الجريئة التي كان
السباعي يكتبها كل يوم معالجاً فيها أهم مشكلات الأمة وقضاياها ببيان مشرق
وأسلوب مثير وصراحة وجرأة نادرتين وتحليل واقعي دقيق.. مما جعل
جماهير الشعب تنتظر بلهفة بالغة صدور أعداد الجريدة صباح كل يوم، وكثيراً
ما كانت تنفذ جميع نسخ الجريدة في ساعة مبكرة من الصباح، ويرتفع سعر
العدد في كثير من المناطق عند بعض الباعة إلى أضعاف أضعاف ثمنه.. ولا
غربة فقد كان السباعي يكتب بقلبه وأعصابه ودمه وفكره، ولقد كان ابن
التيب الذي عاش مشكلاته وعانها في جميع مراحل حياته وفي مختلف
الميادين فاستطاع أن يجسد في مقالاته الافتتاحية آلام هذا الشعب وآماله
أصدق تجسيد ويعبر عنها بأبلغ تعبير.. ثم يقدم الحلول الإيجابية العملية لحل
مشكلات الأمة وقضاياها.. فلم يكن سلبياً يكتفي بالنقد وتصوير الواقع
ومشكلاته فحسب.. وإنما كان يقدم لكل مشكلة الحل المناسب لها،
ويطالب الحكومات بتنفيذها، ويلاحقها بذلك بدأب وإلحاح..

إنشاء جريدة «الشهاب»:

وفي عام ١٩٥٥، وبعد أن عادت الأوضاع الشرعية والدستورية للبلاد،

عاد السباعي إلى ميدان الصحافة من جديد، فأسس مع إخوانه جريدة «الشهاب» السياسية الإسلامية الأسبوعية، وكان المشرف على تحريرها وسياستها العامة، وقد استمر صدورها حتى قيام الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨، وتوقفت بعدها عن الصدور بعد أن قامت بواجبها نحو قضايا الأمة العربية والإسلامية وقضايا الشعب خلال أكثر من ثلاث سنوات حير قيام، ولقد كان للسباعي فيها مقالات وبحوث روحية وفكرية واجتماعية وتاريخية وسياسية رائعة.

مجلة «حضارة الإسلام»:

وفي نفس العام ١٩٥٥، حصل الدكتور السباعي على امتياز بإصدار مجلة «المسلمون» بعد احتجاجها في مصر، وظل رئيساً لتحريرها إلى سنة ١٩٥٨، حيث رأى تغيير اسم المجلة وتجديدها، فاختار لها اسم «حضارة الإسلام» التي أعطاها من جهده وفكره ما جعلها تشق طريقها بقوة ومضاء. ولقد أراد أن يجعل من هذه المجلة مدرسة للفكر الإسلامي الأصيل، توضح معالم الطريق، وتوحد مناهج التفكير، وتعكس حقيقة الإسلام الناصعة في صورة مشرقة واضحة.. كل ذلك بأسلوب مرن جذاب بعيد عن تعصب المتعصبين وجمود الجامدين ودون خيطة عن طريق الحق وروح الشريعة الخالدة..

كما أراد رحمه الله أن يجعل من «حضارة الإسلام» منبراً للدفاع عن كل قضية إسلامية من قضايا العالم الإسلامي الكبير، ولقد خض أهم قضايا الوطن العربي والإسلامي باهتمام زائد فأفرد للقضية الفلسطينية باباً باسم «الدرة المغتصبة» لمتابعة تطوراتها ومراحلها، وآخر باسم «أرض البطولات» لمتابعة تطورات القضية الجزائرية وثورتها حين كانت قائمة، وألغى هذا الباب بعد أن أدى واجبه واستنفذ أغراضه إثر انتصار الثورة الجزائرية في «أرض البطولات» كما أحدث باباً جديداً لمتابعة القضية العمانية والانتصار لها وتوعية القراء بأهدافها وحقيقتها وسماه «ثورات إسلامية - عمان الثائرة في طريق التحرر».

ولم يكتف بذلك، بل عمل رحمه الله على إصدار عدد خاص ممتاز

عن الجزائر وثورتها وجهادها وذلك في السنة الأولى للمجلة، وفي السنة الثانية خص القضية الفلسطينية بعدد خاص ممتاز وكل من هدى العديدين يعتبر مرجعاً هاماً للقضيتين من أهم المراجع التاريخية العلمية لما احتواه من وثائق وحقائق وأرقام ووقائع لم يجمعها مصدر آخر..

ولقد كان السباعي عليه رضوان الله في كل ميادين كفاحه وعمله مخلصاً لله، مستقيماً على الحق، نظيفاً حراً كريماً، وهذا هو سر قوته ونفاذ كلمته عند الجماهير، وهو سر خوف الحكومات وأصحاب المصالح منه، وكذلك سر الحب العظيم الذي خصّته به الأمة..

من مواقف الرجولة والكرامة:

في عام ١٩٥٢ قامت معارك دامية في منطقة قناة السويس في مصر حيث كانت القاعدة البريطانية الكبرى قد فرضت سيطرتها على الشعب المصري وعلى حكامه، مما جعل فئة من الشباب المؤمن في مصر تثور ضد الاحتلال البريطاني وطغيانه فنظموا العصابات المسلحة من الشباب الجامعي المؤمن، وقاموا بالإغارة على المعسكرات البريطانية، وعملوا على نسف مراكزها العسكرية وجسورها وقطارات المؤونة التابعة لها.. فهب السباعي رحمه الله يدعو الأمة لموازة الشعب العربي المؤمن في مصر، وقدم إلى وزير مصر المفاوض كتاباً يعرض فيه تطوع آلاف من شباب الإخوان المسلمين للذهاب إلى القتال والمساهمة في معركتها.. ولكن السلطات السورية ألقت القبض عليه وزجته في سجن (المزة) قرابة أربعة أشهر..

وفي عام ١٩٥٦ وعندما وجهت دول الاستعمار الثلاثة: الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا إنذارها لمصر بعد تأميمها قناة السويس، قام السباعي بدعوة الشعب للوقوف إلى جانب إخوانه في مصر، وكان له فضل في تحويل الجامعة إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، فانخرط أساتذتها وطلابها في المقاومة الشعبية، وظل فقيدنا أثناء حوادث العدوان يلبس لباس المقاومة الشعبية، وكان يريد أن يجعل من هذا الزي زياً شعبياً لعموم أبناء الشعب.

وفي عهد أديب الشيشكلي أواخر عام ١٩٥٢، تعرّض الدكتور الساعي

لمضايقة السلطة الحاكمة التي فرضت عليه رقابة مزعجة تحصي عليه حركاته وسكناته.. ولم يكتف الشيشكلي بهذه المضايقات، ولكنه اشتط في ذلك، وطلب من أساتذة الجامعة، وكبار الموظفين أداء قسم الولاء لعهد، والدخول في الحركة التي أسسها باسم «حركة التحرير»، ولكن السباعي الذي تعشق الحرية وعاش يدافع عنها بلا هوادة رفض الانصياع للأوامر، وتمرد عليها، وأبى أداء القسم لعهد غير شرعي، فغضب الشيشكلي لهذا التمرد، وأصدر مرسوماً بتسريحه من الجامعة، وأبعده عن البلاد، فاحتار رحمه الله لبنان، وبقي فيه حتى أواخر عهد الشيشكلي، وهناك في لبنان التف حول له مئات من الشباب الجامعي المثقف، وأظهروا له استعدادهم لإنشاء حركة إسلامية في لبنان بقيادته، وفعلاً فقد أسس معهم هذه الحركة التي استمرت بعد ذلك حتى الآن تسير على النهج الذي رسمه لها السباعي رحمه الله.

محاولة اغتياله:

وفي مطلع عام ١٩٥٦م حاول أحد المجرمين المأجورين الإقدام على اغتياله، ولكن الله رذ كيد الأثمين، وفضح مخططهم، وسلم الفقيد من مؤامرتهم، وتمكنت سلطات الأمن من إلقاء القبض على المجرم، ولدى التحقيق تبين أنه أحد أفراد عصابة مأجورة لمصلحة دولة أجنبية، وأن المخطط كان يستهدف عدداً من الشخصيات الإسلامية والوطنية، وأن السبب هو وقوف الفقيد عليه رحمة الله في وجه الأحلاف الغربية، وجرأته في حربها، وكشف نواياها الاستعمارية، ودعوته الصريحة لنزد الغرب والإعراض عنه، والتعاون مع الاتحاد السوفياتي على أساس من احترام استقلالنا وسيادتنا وعقائدنا، والتزام لمفهوم الحياد الإيجابي. وقد نشرت الصحف المحلية في ذلك الوقت نبأ محاولة الاغتيال بعناوينها الرئيسية.

مؤتمرات ورحلات عالمية:

في عام ١٩٥١م رأس وفد سورية إلى المؤتمر الإسلامي العالمي في باكستان، فكان من أبرز شخصيات المؤتمر وأكثرها نشاطاً وإنتاجاً.

وفي عام ١٩٥٤ رأس وفد سورية إلى المؤتمر الإسلامي المسيحي المنعقد في بحدون، وألقى هناك خطابه المشهور عن «الإسلام والشيوعية» فذعرت له الدوائر الاستعمارية، وكان له وإخوانه فضل إحباط المناورات الاستعمارية الغربية التي كانت تتسّر وراء المؤتمر. إذ أن هذا المؤتمر تمّ بتنظيم من جمعية أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية، ودُعيت إليه وفود من جميع أنحاء البلاد العربية وباكستان وإيران وتركيا وغيرها من بلاد العالم الإسلامي، ولقد تردد الوفد السوري أول الأمر في قبول الدعوة، ثم رأى فقيدنا وبعض إخوانه قبول الدعوة لإحباط ما قد يكون وراء المؤتمر من مناورات سياسية! وهذا هو الذي وقع.. فقد كان جو المؤتمر، وانتقاء كثير من أعضاء الوفود دليلاً على أن القصد من الدعوة إليه هو إنشاء كتلة عالمية باسم الإسلام والمسيحية ضد الاتحاد السوفياتي، وقد كان يومئذ ينتصر لقضايانا في المحافل الدولية، ولم يكن من مصلحة العرب الانقياد وراء المناورات الغربية لإنشاء هذه الكتلة السياسية.

وكان من أبحاث المؤتمر المقررة مقدماً «جواب الإسلام على الشيوعية»، و«جواب المسيحية على الشيوعية» أما جواب المسيحية فقد أعطي لأستاذ من أساتذة الجامعات الأمريكية، وأما جواب الإسلام فقد أعطي لمن لم يحس مناقشة الموضوع إلا بالسباب والشتائم...

واستاءت الوفود العربية من هذا التصرف، فالموضوع جدير بالمناقشة العلمية من جهة، وبالحدز الشديد من أن تستغله الدعاية الغربية لمصلحتها السياسية من جهة أخرى، وقد رأت الوفود أن تلزم القائمين على المؤتمر بفسح المجال للإلقاء كلمة عن الشيوعية في نظر الإسلام غير الكلمة التي ألقى، وقد وقع اختيار الوفود العربية على فقيد الإسلام المغفور له الدكتور السباعي.. فكتب كلمته وترجمت إلى الإنكليزية في بضع ساعات، ثم ألقاها فضيلته فكان لها وقع القنبلة التي حوّلت المؤتمر إلى تظاهرة رائعة للانتصار لفلسطين واللأجئين والقضايا العربية والإسلامية، وقد أعرب جميع أعضاء الوفود العربية والإسلامية عن إعجابهم الشديد بهذا الخطاب الجامع الذي اتصف بالجرأة والدقة العلمية والتاريخية والسياسية والبلاغة والبيان

الرائع... أما بقية الوفود وخاصة الداعين للمؤتمر فقد تملكتهم الدهشة والارتباك أمام هذه المفاجأة التي فوتت عليهم أغراضهم وأضاعوا عليهم الفرصة المنشودة..

وقد نشر هذا الخطاب الرائع في الصحف والمجلات السورية يومئذ، كما نشر كاملاً في نشرة المؤتمر ضمن الأبحاث والكلمات التي أُلقيت فيه. والحق أن الخطاب المذكور يشكل وثيقة تاريخية رائعة تمثل إحدى مواقف فقيدنا الجريئة وتبرهن على أصالة وعمق الوعي السياسي لديه.

زيارة الجامعات الغربية:

وفي عام ١٩٥٦ أوفدته الجامعة السورية إلى ديار الغرب لزيارة الجامعات الغربية والاطلاع على مناهج الدراسات الإسلامية فيها، فزار تركيا وإيطاليا وبريطانيا وإيرلندا وبلجيكا وهولندا والدانمارك والنرويج وأسوج وفنلندا وألمانيا والنمسا وسويسرا وفرنسا.. واجتمع في هذه البلاد كلها بالمستشرقين من أساتذة الدراسات الإسلامية والشرقية.

وناقشهم في مؤلفاتهم عن الإسلام، وكشف لهم الأخطاء العلمية والتاريخية التي وقعوا فيها، وبين لهم حقائق الإسلام، بأسلوب علمي فأدهشهم بقوة حجته، وغزارة علمه، وحضور بديهته، وسعة آفاقه، ومرونة أسلوبه.. وقد عايناه فريق منهم على أن لا يكتبوا عن موضوع إسلامي إلا بعد أن يراجعوه في صحة المعلومات التي وصلت إليهم.. أما فريق المستشرقين غير المنصفين والذين تفرغوا للدراسة والكتابة عن الإسلام بأسلوب الدس والافتراء، وتشويه الحقائق.. أما هؤلاء فقد أخافهم السباعي عليه رحمة الله لأنهم رأوا فيه حجة دامغة، وعقبة صعبة التجاوز.. فلقد ناقشهم حتى أفحمهم، وجادلهم حتى أسكتهم، وتبع دسهم وافتراءاتهم حتى لم يبق عليهم ستر إلا وهتكه ولا شبهة إلا وكشفها وردھا..

كما أنه استفاد من وجوده هناك فألقى المحاضرات في المساجد وفي الجامعات وفي الندوات مدافعاً عن حقوق العرب في فلسطين والجزائر، وعن قضايا الشرق والإسلام، ومن أهم الخطب التي ألقاها في هذه

المواضيع: خطبة الجمعة في مسجد باريس، وصادفت المناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف، فتحدث عن رسالة الإسلام بشكل عام، ثم عن رحمته التي تجلت في فتوحاته وحروبه، ومن هنا انتقل إلى القضية الجزائرية، وندد بالأساليب الوحشية الهمجية التي ترتكبها فرنسا في الجزائر... وما أن انتهى من الخطبة والصلاة حتى أقبل عليه المصلون يحيونه بحرارة وحب وإعجاب، وكان ممن تعرف إليهم شاب روماني الأصل اسمه "مصطفى فالسان" كان قنصل رومانيا في باريس ثم اعتنق الإسلام وترك العمل الدبلوماسي وهو الآن يتزعم مجموعة من الشباب الفرنسيين الذين اعتنقوا الإسلام عن عقيدة وإخلاص... وقد زوده الدكتور السباعي رحمه الله بعدد من النصائح والتوجيهات.

سفره إلى موسكو:

وفي عام ١٩٥٧ سافر إلى موسكو مع إخوانه عمداء كليات الجامعة بدعوة من جامعة موسكو... زار خلالها معظم الجامعات الروسية في مختلف الأقاليم، والتقى بأساتذة الدراسات الشرقية والتاريخية والاجتماعية، وناقشهم في أقوالهم وآرائهم في الإسلام، كما ناقش غيرهم من الشخصيات السوفياتية فكشف لهم أخطاءهم ووضح لهم رأيه صريحاً في موقفه من الشيوعية في البلاد العربية كما شرح لهم مواقف الشيوعيين في بلادنا من القضايا الوطنية والاجتماعية وفضح أخلاقهم وأساليبهم، وكان مما قاله للمسؤولين السوفييت: نحن حريصون على صداقتنا للاتحاد السوفياتي كل الحرص، ولكن هذا لن يمنعنا من محاربة الشيوعية في بلادنا... لأن الشيوعية تريد أن تحرمننا من أقوى أسلحة النصر الفعالة لمقاومة الاستعمار والمظالم الاجتماعية والسياسية... ألا وهي الإيمان بالله وحب الشهادة في سبيله، وشرح لهم فكرة الإسلام الثائر على كل باطل وعلى كل ظلم واستعباد واستعمار وطغيان وفساد كما بين لهم شناعة الجريمة التي يرتكبها الشيوعيون المحليون في بلادنا عندما يحاربون الإسلام، ووضعهم في موقفهم هذا جنباً إلى جنب مع الاستعمار والصهيونية وعملائهما.

كفاحه في ميادين الخدمة الاجتماعية:

١ - نبني حركة العمال: لقد حمل الدكتور السباعي رحمه الله عبء الدفاع عن حقوق العمال والمطالبة برفع مستواهم المادي والاجتماعي والأخلاقي، كما تبني وإخوانه من نواب الإخوان مطالبهم في المجلس النيابي، وكان له فضل كبير في النص على حقوق العمال في الدستور السوري، كما عمل مع إخوانه على إنشاء مدارس للعمال لتعليمهم ورفع مستواهم الفكري وإخراجهم من نطاق الأمية، وتوجيههم إلى الخير وإفهامهم حقوقهم وواجباتهم. . ولم يقتصر على إنشاء هذه المدارس في دمشق وحدها، بل عمل مع إخوانه على إنشاء مدارس للعمال في جميع المحافظات ومعظم الأقضية والقرى، وقد بلغ عدد العمال الذين يتلقون العلم فيها أكثر من خمسة آلاف عامل يتعلمون بالمجان، وقدمتهم هذه المدارس إلى امتحانات الشهادات الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وتخرج بعضهم من الجامعة كما أتم بعضهم تحصيله العالي في أوروبا. .

٢ - رفع مستوى القرية: وقد وجه عنايته إلى القرية، فطاف القرى وعاش مع الفلاحين وآكلهم وشاربهم وخالطهم وعرف مشاكلهم، وله مواقف رائعة في المطالبة برفع مستواهم وإنصافهم، وتحقيق العدالة الاجتماعية في محيطهم، وقد رفع صوته بذلك معبراً عن مشاعرهم في المجلس النيابي حيث طالب بإيصال النور والكهرباء إلى جميع القرى النائية وتوفير المياه والمدارس والخدمات الصحية. .

ولم يقتصر على دعوة الحكومات للقيام بذلك، بل بادر إلى تأليف لجان من أعضاء الإخوان فيها أطباء وعلماء وموجهون يقومون برحلات أسبوعية إلى القرى، يزورون فيها الفلاحين ويقدمون لهم الخدمات الصحية والتعليمية، ويرشدونهم إلى طريق الخير. .

٣ - المدارس الابتدائية والثانوية: ومن أعماله أيضاً مساعيه مع نفر من إخوانه لتأسيس المعهد العربي بدمشق الذي شمل جميع مراحل التعليم من

الحضانة إلى الثانوي للذكور والإناث، وقد أسسوا مثل هذا المعهد في بقية مراكز المحافظات السورية.

٤ - الأندية الرياضية: وكان يشجع الشباب على ممارسة أنواع الرياضة والفتوة ليكون الشباب قوياً في أخلاقه وقوياً في جسمه وقوياً في روحه، فساهم في تأسيس عدد من الأندية الرياضية في مراكز الإحزان في جميع المحافظات، وأقوى هذه الأندية التي أسسها الفقيد الراحل مع إخوانه نادي فتيان بدر في دمشق لكرة السلة، والنادي الرياضي في باب الجابية، والنادي الرياضي في الميدان، ونادي القادسية في حمص، والنادي الرياضي في اللاذقية وغيرها..

كما عمل على تربية الشباب تربية عسكرية حسنة فأنشأ لهم نظام الفتوة، وقد انتظم الشباب في كتائب وفرق يتعودون فيها النظام والخشونة والرجولة ويتدربون على مختلف الألعاب الرياضية ويقومون برحلات وتقدم لهم معسكرات سنوية للتعارف وتوثيق صلات الأخوة فيما بينهم.. وقد كان رحمه الله القائد العام لفترة الإخوان المسلمين إلى أن حلّ الشيشكلي هذه المنظمات وصادر ممتلكاتها..

٥ - أعمال التعاون الخيري: وفي هذا المجال ساهم بتأسيس عديد من اللجان لجمع الإعانات والتبرعات من الناس وتوزيعها على المحتاجين من المرضى والعاجزين ومد بعض الأسر الفقيرة التي تتعفف عن السؤال والاستجداء كما عمل على تنظيم يوم سنوي باسم «يوم الفقير» تطوف فيه اللجان على التجار والأحياء لجمع الإعانات وتقديمها للفقراء في مواسم الشتاء والأعياد، وساهم في إنشاء عدد من المستوصفات الصحية لتقديم الخدمات الصحية المجانية للفقراء والمحتاجين.

رحلات الحج والعمرة:

كاست أول مرة روى فيها رحمه الله ظمأ قلبه وروحه إلى الأرض المباركة مهد الدعوة الأول ومرتع أبطالها، ومثوى الحبيب الأعظم محمد ﷺ سنة ١٣٦٤هـ حاجاً مؤدياً ما فرضه الله من شعائر الحج والعمرة بالإضافة

إلى زيارة القائد الأول لدعوة الإسلام عليه صلوات الله وسلامه.. ولكن هذا الظمأ القلبي والروحي بقي يهيج حنينه إلى تلك الديار رغم كثرة المشاغل والأعباء المرهقات حتى يسّر الله له الفرصة فزارها حاجاً للمرة الثانية في عام ١٣٧١هـ، أما الزيارة الثالثة فكانت في عام ١٣٧٥هـ مع بعثة من أساتذة كلية الشريعة وطلابها في جامعة دمشق.. ولزمه بعد ذلك الشوق والحنين إلى الديار المقدسة وإلى الرسول الحبيب ﷺ لا سيما بعد أن أصيب بمرضه ١٣٧٧هـ وعانى منه ما عانى مما لا يتحمله إلا رجال من أولي العزم والصبر الذي لا حد له..

وبالرغم من شدة المرض وقسوة الآلام التي لم تكن تفارقه لحظة من ليل أو نهار فإن حنينه إلى زيارة الرسول القائد ﷺ والبيت العتيق كان يهيج ويزداد حتى لم يبق للصبر مجال، فعزم الأمر وحزم الأمتعة وسافر إلى المدينة المنورة في «رحلة إلى الله ورسوله»، وذلك قبيل موسم الحج الأخير ١٣٨٤هـ ولم يمنعه المرض والألم من أداء شعائر الحج للمرة الثالثة، ولقد كانت هذه الرحلة «حجة الوداع» التي ودّع فيها الديار المقدسة وودّع فيها مثوى الرسول الأعظم قبل أن ترتفع روحه الطاهرة إلى الله في «رحلة إلى الله جل شأنه»^(١) فكانت رحلته الأولى مقدمة طيبة لرحلته الأخيرة، ولعل جميع القراء طالعوا أخبار «رحلته إلى الله ورسوله» في مقاله الأخير الذي كتبه قبيل وفاته رحمه الله يحكي فيه قصة هذه الرحلة وما كان فيها من إكرام الله له..

مغالبته لآلام المرض الطويل:

من كلماته الحكيمة رحمه الله كلمة قالها في كتابه «هكذا علمتني الحياة»:

«رأيت الناس بين مريض في جسمه، سليم في قلبه، وبين

(١) هذا هو العنوان الذي كان الفقيه قد اختاره لموضوعه الأخير المنشور في العدد الثالث وقد عدله قبل النشر إلى «رحلة إلى الله ورسوله» (الحضارة).

صحيح في جسمه مريض في قلبه، وقل أن رأيت صحيح الجسم والقلب معاً.

ولقد كان رضوان الله عليه يحمل جسمه وأعصابه من إرهاق العمل المتواصل في سبيل الله ما جعل هذا الجسم على ما يتمتع به من قوة وبأس وحيوية نادرة ينوء بالأثقال التي حملها وحده، وانطلق بها يسابق الزمن ليشيد خلال عمره القصير صرح الدعوة الإسلامية ويعبد الطريق لجنودها ولم يعبأ بنصح الأطباء ولا بأعراض المرض التي كانت تحمل النذير بانهايار هذا الجسم إن لم يرفق به صاحبه، ولكن الشعور بالواجب والمسؤولية كان يتغلب عليه ويصم آذانه عن سماع نصائح الأطباء ونذير الأعراض المرضية:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وقصة كفاحه مع المرض ليست حديثة، ومرضه الأخير لم يكن إلا نتيجة لمقدمات كثيرة، ونهاية لجهد طويل خلال سني شبابه ومراحل كفاحه.. لقد حاولت الأسقام والآلام والأمراض أن تنال من قوته وحيويته ودأبه ونشاطه وحركته التي لا تعرف الفتور، فلم تفلح.. ولكنها لم تدعه، واستمرت تلاحقه وكان في كل مرة يتغلب عليها، وينساها في زحمة النشاط والواجبات والأعباء حتى استحكمت به في نهاية الأمر وسقط المارد العملاق بعد طول تجلد ومجاهدة، وأصبح كالأسد الهصور وقد ألقى الشبك على عرينه..

فعندما قاد رحمه الله إخوانه في معارك فلسطين كان مصاباً قبلها بارتفاع ضغط الدم، وكان الأطباء قد أشاروا عليه بضرورة الإخلاء إلى الراحة والسكينة والهدوء وعدم الخطابة، وكأنَّ الأستاذ السباعي رحمه الله قد فهم من الأطباء عكس ما أشاروا عليه، فلم يعبأ بما قالوا، كما أنه تلمظ باعتذاره لأبيه رحمه الله عندما ذكره بنصائح الأطباء، وأن مجرد الخطابة تسكل على صحته خطراً، فكيف بالحرب وخوض المعارك.. كل ذلك لم يشبط من عريمته فمضى يثير الجماهير ويدعوها للتطوع.. ومضى يقود

الكتائب إلى المعركة دون أن يحسب حساباً لصحته وما يتهددها، ولقد سى مرضه خلال المعارك، ولما عاد من فلسطين استمر في كفاحه وجهاده لا يثنيه عن عزمه شيء.. فلم تلبث أن ظهرت عليه أعراض مرض السكر، فكان يعالج أمراضه، ويأخذ ما ينبغي لها من علاجات، ولكنه ما كان يحب الراحة ولا يفكر فيها، بل كان يستلذ الكفاح والعمل والنشاط. وكم مرة وقف خطيباً يتدفق بالحيوية والنشاط ويثير الحماسة ويلهب المشاعر ويفجر البراكين، وهو يعاني المرض والأوجاع دون أن يظهر شيء من أثر ذلك على محياه الطلق المشرق أو على كلامه العذب الجميل، أو على صوته الجمهوري العاصف الرنان..

وحمل المرض والأوجاع على كتفيه عبئاً من جملة الأعباء. ومضى يدفع الركب ويبني الصرح ويعبد الطريق ويقود الأجيال.. ولعمري إذا كان المرض سبب انطفاء شعلة بعض الناس وسبب تهاونهم وقعودهم، فقد أضاف المرض دليلاً من أقوى أدلة عظمة فقيدنا الكبير طيب الله ثراه، فلم يقعه ولم تفتقر به همته، ولم تخبو شعلة نشاطه أو تدفق حيويته.

وفي عام ١٩٥٧، وبعد عودته من رحلته العلمية إلى الاتحاد السوفياتي، هجم عليه المرض هجمة عنيفة فأخذ منه أكثر نصفه الأيسر، فشل حركته، وأثار فيه الآلام المضنية.. فأقعه بعد طول مجالدة، ولكنه رحمه الله كره القعود وكره الراحة والكسل ولو كان بسبب المرض الشديد فتمزد عليه وجالد الآلام، واستمر يتابع بنشاطه إلقاء دروسه الجامعية، ومحاضراته التوجيهية لطلاب كلية الشريعة في «قاعة البحث».

ولقد ألقى خلال مرضه هذا أهم محاضراته العلمية على مدرج جامعة دمشق، منها محاضراته عن «اشتراكية الإسلام» التي استمر إلقاؤها أكثر من ثلاث ساعات، وقد طبعت فيما بعد في كتاب كبير.. ومنها أيضاً محاضراته العلمية الرائعة عن «المرأة بين الفقه والقانون» التي استغرق إلقاؤها كذلك أكثر من ثلاث ساعات، وقد طبعت أيضاً في كتاب كبير فيما بعد.. هذا

بالإضافة إلى عديد من المحاضرات العلمية الرائعة التي ألقاها في عدد من النوادي الثقافية والفكرية في دمشق.. كما استمر يمد الفكر الإسلامي بكل جديد من فكره وعلمه، ويمد الشباب المسلم بالتحية والدعوى. ويعالج أهم مشكلات العالم الإسلامي كل ذلك على صفحات مجلته حصرة الإسلام.

فترة مرضه أخصب فترات حياته إنتاجاً:

ولقد كانت فترة مرضه الطويل الذي استمر تماني سنوات. حمل خلالها من الآلام ما لا يقدر على حمله رجال من أولي العزم إلا من كان له صبر الأنبياء، ورغم هذه الآلام المرححة المستمرة فقد كانت فترة مرضه هذه من أخصب فترات حياته إنتاجاً فكرياً وعلمياً واجتماعياً. فأنف القسم الاجتماعي من كتابه «هكذا علمتني الحياة» وهو في مستثنى المراسلة عام ١٩٦٢م، وكان يحتل القلم والقرطاس في عملة من أعين الأطباء الذين شددوا عليه في ضرورة الابتعاد عن التفكير والقراءة والإخلاد إلى الراحة التامة، فكان هذا الكتاب من أروع كتبه وأطرفها لما حواه من الحكمة والتجارب والإرشاد والتوجيه السديد والرأي الرشيد والبلاغة الرائعة.. وفي هذه الفترة أيضاً طبع كتابه: «القلائد عن فرائد الفوائد»، وهو مختارات من بطون أمهات كتب الأدب والعلم والفقه والتاريخ.. وكذلك طبع كتابه العلمي الكبير: «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»، وهو أثر علمي خالد في الدفاع عن السنة ومكانتها وفي الرد على خصومها من المستشرقين والمغرضين..

الصبر الجميل والرضا والتسليم:

ولقد ضرب أستاذنا السباعي - عليه رحمة الله - خلال مراحل مرضه أروع آيات الصبر الجميل مع ما فيه من الرضا والتسليم لقضاء الله، وتحاشي التسخط والتبرم والشكوى، فما كنا نسمع إلا الحمد لله يجري على لسانه كلما سألناه عن آلامه مهما اشتدت وازدادت..

وكان رحمه الله كلما برحت به الآلام وأرقت ليله وحرمته لذة النوم أسرع إلى القلم والقرطاس ليسجل ما تفيض به نفسه من معاني روحية سامية يناجي بها ربه في جوف الليل الطويل، ولا حاجة بي للاستشهاد هنا ببعض كلماته ومناجاته التي تؤكد هذا المعنى^(١).

وخلاصة القول أن الراحل الحبيب قد أثبت رجولته الفذة في حال صحته وفي حال مرضه، وكان رجلاً عظيماً في كل مراحل حياته عليه رضوان الله ورحمته..

وفاته:

وفي يوم السبت الثالث من تشرين الأول ١٩٦٤، انطفأت الشعلة المتوقدة، وهدأت الحركة الدائنة، وجفّ القلم السيال، وسكت الصوت العذب الرنان، وتوقف القلب الكبير، وطاش سهم الفجعية على غير هدى يصيب القلوب فيدميها، والألسنة فيعقدها، والعقول فيذهلها، وإذا بالآلوف يهرعون إلى بيت الفقيد لعلمهم يسمعون ما يكذب النبأ، ولكنه قضاء الله ولا راد لقضائه.. وهكذا كانت نهاية المطاف، رحلة طويلة أبدية إلى الله جل شأنه بعد أن ترك طيب الله ثراه للأجيال المؤمنة من بعده وعلى مدى الآجال تاريخاً زاخراً بالمآثر الخالدة وصفحات لا تطوى من الجهاد المتواصل من أجل العقيدة كتبها الفقيد الغالي بدمه وروحه وفكره وقلبه.. ستبقى ما بقي الوجود منارات هدى وعلامات طريق.. طريق الإسلام تتابع عليه الأجيال جيلاً بعد جيل تذكر السباعي نموذجاً رائعاً للداعية المجاهد، والمرشد المربي، والقائد الموجه، ونموذجاً فذاً للإيمان الصادق...

فيا فصيلة أستاذنا الراحل لئن تركتنا ونحن أشد ما نكون حاجة إلى

(١) وفي مكان آخر من هذا العدد نشرنا طائفة منها وهي من القسم الذي لم ينشر من كتابه «مكدا علمني الحياة»، كما أعدنا نشر بعض كلماته ومناجاته التي تدور حول هذه المعاني.. (الحضارة).

نصحك وإرشادك وقيادتك نستشعر من بعدك اليتيم وآلامه التي تتزايد مع الأيام وعند النكبات والملمات. فعزأونا - إن كان يغني العزاء - أنك مضيت إلى ربك بنفس راضية مطمئنة بعد أن عبّدت لنا الطريق، ورسمت لنا المنهج، وأديت واجبك كاملاً فعليك يا قائدنا ومرشدنا رضوان الله، وإلى الملتقى في جنات الخلد تحت لواء سيد المرسلين ﷺ. وإنا لله وإنا إليه راجعون.



الحب إلى الله

إن لله عبداً قطعوا علائق الشهوات ، وأسرجوا مراكب الجدة بصدق العزمات وامتطوا جساد الأمل ، واتجهوا إلى الله على وجل ، وتزودوا إليه بصالح العمل ، مع اخلاص النية وتوكلوا إليه بصفاء القلب وصدق الطوية ، فمروا بالخضرة الفاتنة مسحين ، وبالحطب اللاهب ستيعذين ، ولم يحبوا بالعقبات ، ولم يلتفتوا إلى المغريات ، قد صانوا وجوههم عن الابتذال ، وطروا أقدامهم من الأوحال ، استعانوا بالله على مشقة الطريق فذلل لهم صغابه ، وعلى بعد المدى فلم لهم رجايه ، فلما اجتازوا الصعاب ، سألوا الله ففتح لهم بابه ، فلما دخلوه استضافوه فقر بهم ورفع دوحهم حجابيه ، فلما استطابوا المقام بعد طول السرى قالوا : « الحمد الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنغم أجر العاطمين » أولئك أحب إلى الله ، صدقوه لعنه فقد قسم الوعداء ، ومحضوه المحبة فنغمهم القرب .

مصطفى إسماعيل

خَصَّ النَّفْسَ فِي حَيَاةِ السَّبْعِي^(١)

للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

المدرس في كلية الشريعة بجامعة دمشق



يا لَضَعْفَ القلم:

يا لَضَعْفَ القلم حينما يطلب منه وحده أن
يسجل كلمة الحق، وأن يتحدث عن نفائات
الصدور، وأن ينقلب إلى عين قريحة تبكي الحق
وأهله، وأن يتحوّل إلى شوكة ولسان ليجاهد
الباطل ويصول في ميدان الشرف، ثم أن ينبض
هو وحده بكل ما يحمله هذا القلب المُلتاع من الأحاسيس المُخرقة والآلام
المُضِضة والمشاعر الخائقة!..

إنني لأحمل الساعة هذا القلم بين أصابع ترتجف.. وفي القلب
طوفان من اللهب الذي لا يهدأ، وفي الصدر نحيب يختنق ولوعة لا تبين،
وفي الحلق غصة، وفي اللسان عقدة. فماذا عسى أن يحمل القلم من كل
ذلك، ومن أين له أن يترجم عذاب النفس كله على ما فيه من ضعف في
الإبانة وعلى ما حمل من قيود وأغلال؟!

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة السابعة: (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م).

وقع نبأ وفاة السباعي:

إذا أغمضت عيني عن كل ما حولي لأمضي بفكري إلى ماض قريب، تذكرت مثل هذه الأيام من السنة التي خلت، يوم كنت في القاهرة، وفاجأني النبأ الأليم بأن الداعية الإسلامي العظيم الأستاذ السباعي قد توفي.. قد انتقل إلى جوار ربه بعد أن غبر حياته كلها مجاهداً في سبيله.

لقد أصابني يومها دوار شديد، أعقبه تخطيط في النفس، وتصدعت المشاعر وراء صدري كما تصدعت صخرة أهويت عليها بمطرقة عاتية ثقيلة بعثرتها إلى حصى متفرقة، فما أملك وسيلة لجمع شتاتها في ذهني ولا سبيلاً للتعبير عنها بلساني.

ولقد كان لي العذر أن يكون وقع الخبر إذ ذاك بكل هذا العنف.

السباعي في صراعه مع المرض:

فقد عاقتني الظروف عن التعرف إلى الأستاذ السباعي رحمه الله إلا بعد أن وقع في قبضة المرض.. ذاك المرض الأليم الذي ظل يغالب كل ما فيه من عنف وآلام كي لا يقعد عن حمل أعباء الدعوة يوماً، ولا يلقي قلم الجهاد عن يده ساعة!

لقد تعرّفت إلى الأستاذ السباعي - عن خبرة وقرب - في غمرة صراعه هذا، ومن قبلها لا أعلم عنه شيئاً إلا كما يسمع عامة الناس باسمه دون أن يعلموا شيئاً عن ترجمته أو الجلي من أمره.

عمل دائب وجهاد مستمر:

ولقد وجدني يومها أبصر إنساناً، امتزجت آلام المرض في جسمه بلوعة الدعوة الإسلامية في قلبه، وربّت بين جوانحه محبة إلهية عارمة، فغدا بذلك مرضه الجسمي مؤثراً جديداً للوعته القلبية، وأخذت آلامه المبرحة تذكي محبته الإلهية العارمة. فلم يكن يعاني، في مجموع أمره، إلا آلاماً تنبعث من القلب، وإن كانت تتجمع فيه من أنحاء الجسم كله، وبالتالي فلم

يكن ليترجم هذه الآلام يوماً ما إلى شيء من التأوهات الجسمية، وإنما كان يعبر عنها كلها بمزيد من عمله الإسلامي الدائب وجهاده اللساني والكتابي المستمر. إي والله، وكأني أنظر إليه الساعة وهو يستقبل نوبات من الألم الحاد في جسمه، فلم يكن يتبدى ذلك إلا في تقبض يسير في وجهه ومزيد من الانشغال بما بين يديه من كتابة أو دراسة أو بحث.

كان في غمرة مرضه ذاك يحمل على عاتقه عبء إخراج هذه المجلة مستمرة دون تقطع. وكان يأبى إلى جانب ما يقوم به من كتابة افتتاحيتها إلا أن يكتب مقالاً رئيسياً آخر، ثم يأبى إلى هذا وذاك إلا أن يحرر بيده بعض الأبواب الدائمة للمجلة. ثم كان لا ينقطع خلال ذلك يوماً واحداً عن عمله في البحث والتأليف، ويسعى فوق ذلك إلى الجامعة ليلتقي بطلاب الشريعة وغيرها في محاضرات وحلقات بحث منتظمة دائمة. وهيهات أن تشعر - وهو يهدر بالتوجيه والإرشاد المُنبعثين من أعماق قلب متأجج، ويرد باطل المبطلين، ويكشف عن تلبس الملبسين بمنطق علمي غزير - هيهات أن تشعر أثناء ذلك أنك أمام رجل مريض يعاني تشنجاً هائلاً في نصفه الأيسر ويستقبل بشكل مستمر نوبات من الألم الممض العنيف. بل هي القوة المتدفقة تنبعث من جميع أعصابه ومشاعره في استرسال مستمر قد يزيد على الساعتين.

ثم إنك قد تجد عند بعض الناس مثل هذا التفاني مع مثل هذه الآلام، لغرض من أغراض الدنيا، أو لشهوة من شهوات النفس، فلا يكون ذلك غريباً أو عجيباً.

حياة السباعي في سبيل الله وحده:

ولكني والله قد بلوت الأستاذ رحمه الله تعالى، فما رأيت بين جنبيه إلا دافعاً وغرضاً واحداً، هو أن تكون حياته - في السلامة والمرض - في سبيل الله وحده، وربما يصيبه ما قد يصيب الإنسان من الخطأ في البحث والرأي، ولكنه على كل حال لم يكن يسعى إلا نحو هدف واحد فقط، هو إقامة مجتمع إسلامي سليم لا تسود فيه إلا الشريعة الإسلامية العظيمة.

سلامة صدره:

وما رأيته مرة يحقد أو يتألم من إنسان ردّ عليه رأيه أو خاصمه في بحث من بحوثه، وقد كنت كتبت في الرد على بعض آرائه، ولقد توقعت - بعد أن ضمّني إليه العمل في كلية الشريعة -، أن أجد لديه بعض التأثير أو التألم من بعض ما قد كتبت.. ويبدو أنه أدرك ما كنت أتصور وأتوقع، فقال لي مرة، وهو يتجرع آلام مرضه غصة وراء غصة:

يبدو أنك تظن أنني عاتب عليك. اسمع يا أخي: إنّ الإسلام لا مجاملة فيه، ونحن جميعاً جنود لهذا الدين وحده، فمن واجبك أن تكتب وتدعو إلى ما تراه الحق، وأنا أطالبك بالحق أن تظل على ما كنت عليه بنفس الطريقة والأسلوب ما دام أن القصد هو: وجه الله وحده.

وإنني لأذكر أنه استمر في حديثه في هذه الجلسة نفسها، إلى أن وصل عند كلمة دمعت عندها عيناه، حينما قال مشيراً إلى الكلية: إنني سعيد أن أرى هذا الغراس وقد أينع.. وهياً الله له حماة ودعاة أرجو أن يكون هدفهم الأول والأخير بذل كل ما يملكونه في سبيل هذا الدين وحده. من أجل هذا فإنني لا آسى على شيء في الحياة حينما أجدني أدنو رويداً رويداً إلى الموت!..

ما أسهل الخلاف في الرأي والغلط في البحث إذا كان القصد مرضاة الله:

لا أكنتم القارئ أنني ما ندمت على شيء تلك الساعة، ندمي على أنني لم أعرف الأستاذ السباعي على حقيقته إلا بعد أن صرعه هذا المرض الأليم. وما رجوت الله شيئاً تلك الساعة كرجائي أن يشفيه الله من ألمه، كي أوضح له وأثبت أن هذا الذي طالما كتب يناقش بعض أفكاره لن يعيقه أي عائق أن يسير معه على خط واحد من الدعوة الإسلامية وجهاد القلم واللسان. فما أسهل أمر الخلاف في الرأي، بل والغلط في البحث في بعض الأحيان، عندما لا يكون منشؤه غرضاً في النفس أو مصلحة من مصالح الدنيا، وإنما القصد إلى مرضاة الله وحده.

شفاؤه من أوصاب الدنيا:

وتعلقت الآمال بالرحمة الإلهية أن تتداركه بالشفاء.. ولكن الرحمة الإلهية أرادت له الشفاء من أوصاب هذه الدنيا كلها، ونقلته الأقدار إلى جوار خالقه الكريم في لحظة لم يكن مُتَشَبِّهاً من هذه الدنيا كلها إلا بقلم ينافح به عن الإسلام ومكتبة يستعين بها للكشف عن حقائقه وكنوز شريعته وهديه.

أعود بعد هذا لأفتح عيني على الدنيا التي من حولنا اليوم..

موت السباعي ترك فراغاً في التوجيه القويم والقيادة الرشيدة:

أعود لأرهف السمع لدقات الساعة التي تمر بعمر الزمن.. لقد فقدنا السباعي - رحمه الله - كما فقدنا الكثيرين من أمثاله. أما هم فقد انتقلوا - إن شاء الله تعالى - إلى فراديس الجنان في مقعد صدق عند مالك السموات والأرض. وأما نحن، فأشتات متفرقون - ويا للأسف - نعاني من فراغ هائل في التوجيه القويم، وفي القيادة الرشيدة، وفي التضحية المقدسة.

صفات ثلاثة للسباعي:

أما والله، ليس الذي فقدناه في السباعي - رحمه الله - شخصه الذي عرفناه، ولا الإنسان الذي ألفناه، إنما الذي فقدناه فيه، ثم لم نعوض عنه بغيره، هذه الأمور التالية:

العمل الإيجابي الدائب:

أولاً - العمل الدائب الإيجابي من أجل الإسلام. فقد كان واضحاً لكل من عاشره وعرفه أنه لم يكن يرى في لقمة الطعام التي يأكلها، ولا في بيته الذي يؤويه، ولا في الدنيا البسيطة التي تطولها يده، ولا في الصحب الذين يراهم من حوله، ولا في الأنفاس الصاعدة والنازلة وراء صدره - إلا أدوات تستعمل من أجل العمل الإسلامي وتحقيق مبادئه. وما كان يوماً ما ليجعل العمل الإسلامي أداة أو وسيلة لشيء من مظاهر الدنيا وأغراضها.

وما عرف عنه يوماً ما أنه كان يكتفي من العمل الإسلامي بأن يتكئ على أريكة، ثم يصرف الوقت كله في نقد الناس والبحث عن دخائل أعمالهم ومعائبها، بل لقد كان من صفاته المعروفة أنه يفرح الفرح الشديد، في براءة وطيب صدر، إذا ما قيل له عن عمل إسلامي قام به بعض الناس أياً كان نوع العمل، ومن أي كان أولئك الناس. وإن في ذهني لأمثلة كثيرة لذلك لا مجال لسردها الآن.

كفاءة قيادية رائعة:

ثانياً - كفاءة القيادة الإسلامية. وإنها لحقيقة صدقها التاريخ الحافل لحياته. وحسبك أن تعلم أنه لم يعتصر من عمله القيادي شراباً ينتشي به في ظلال الطمأنينة والرخاء، وإنما ترك القيادة نفسها هي التي تعتصر شبابه وحياته، تُورده المخاطر وتهون عليه المصائب، وأن جرأته أمام جيوش الباطل لم تكن حلاًماً يداعب خياله. بل عزيمة تملأ حياته، ولذلك فما كان ليترجمها يوماً إلى أقوال رنانة يسعد بتكريرها في المجالس أو على ذرى المنابر، وإنما كان يترجمها إلى عمل بناء يمخر به عباب المخاطر. وما كان ينتظر على كل ذلك أجراً من المال أو الجاه في دنياه، وهو الذي يقول في بعض كلماته: (لو عمل كل العاملين انتظاراً للجزاء في الدنيا لماتوا همّاً وكمداً) ولو أنه مدّ يد القبول للدنيا، وأغمض العين عن النظر إلى العقبى، لجمع من المال قدراً غير يسير، ولما ترك من خلفه صبية وأولاداً ليس لهم من نشب الدنيا ومتاعها إلا حسن الاتكال على الله وحده.

صحيح أنه لم يجمع إلى ذلك كله العصمة من الزلل. . فقد كان يخطئ، وربما حاول مرة أن ينتهي إلى غاية نبيلة صحيحة فسلك إلى ذلك سبيلاً غير صحيح، ولكن مثل هذه الخطيئة لا يمكن أن تبخس شيئاً من فضائله، ولا يعقل أن تنسخ بها بقية ما كان يتمتع به من عظيم خصائصه وأخلاقه.

لوعة قلبية ثائرة:

ثالثاً - لوعة القلب، تلك اللوعة التي كان يبحث عنها محمد إقبال في

صدور خريجي المدارس والمعاهد الجديدة دون جدوى، وأخيراً أدرك أن الأسرار العظيمة التي حجبها هذه المدارس عن الشبان لا يمكن أن تكشف إلا في خلوات الصُّحارى والجبال. هذه اللوعة كان منها في قلب الأستاذ السباعي رحمه الله قدر غير يسير.

كان أكثر ما يُحرّكه ويدفعه إلى العمل المتواصل المضني، هذه اللوعة التي تغمر قلبه. وتلك هي السنة الإلهية التي فطرت عليها طبيعة الإنسان في الحياة: له عقل في رأسه يفكر ويؤمن به، وله قلب بين جَنَبَيْهِ يحبُّ به ويبغض.. وما كان للفكر العقلاني وحده أن يهيج بصاحبه ويحمله على بذل شيء من الطاقة والجهد. ولم يسمع عاقل من الناس أن مسألة في الجبر أو قاعدة في الرياضيات حملت أحداً من الناس على عمل من أعمال التضحية والفداء.

والا فكم في الناس من مستشرقين ومدرّكين لكثير من حقائق الدين وأحكامه، ومع ذلك يظنون - من حيث أعمالهم السلوكية - سادّرين في ظلمات من الغي.

وكم في الناس من رجل مشرق العقل والتفكير، ولكنه مظلّم القلب والروح، فلا يستر الأول شيئاً من عوار الثاني.

وكم في المسلمين ودعاتهم من أناس لا يعجزهم أن يُحلّلوا معضلات الدين وأحكامه في عقلانية دقيقة واعية، ولكن أعينهم لا تعرف الدموع وأفئدتهم لا تذوق الخشوع، فلن ترى أي فائدة أو تأثير لعقلانيتهم الجامدة، ولن تجد في هؤلاء الناس من يتخلّص يوماً ما من رطابته الفكرية وأثقالها ليندفع في سبيل من سبل التضحية وتحمل الجهد والمشاق.

إنّ لوعة الحب وحدها هي السوط السائق، والتيار المحرك. والمحب هو وحده الذي يبذل الجهد شوقاً إلى المحبوب فيسهل بذلك عليه الصعب، ويقرب أمامه البعيد، وتفنّى القوى وتذوب الحياة ولا يرى أنه قد أوفى بعهد المحبة أو قام بواجب شكر النعمة.

لقد كانت هذه اللوعة هي الوقود الذي كنت أراه دائم الاشتعال وراء صدر السباعي عليه رحمة الله (منذ أن عرفته) فيحمله على العمل الدائب وتحمل الجهد المؤلم دون أن يحس بنضب أو مشقة، بل كان على العكس من ذلك: يرى فيه لذة وسعادة غامرة.

حالته القلبية مع الله في أيام مرضه:

ولا أنسى يوماً التقى فيه فضيلة الأستاذ والذي حفظه الله بالمرحوم السباعي، وراح الوالد يدعو له - متأثراً - بالشفاء من مرضه، فقال له المرحوم السباعي وقد اغرورقت عيناه بالدمع: يا سيدي: إذا كان شفاي من المرض يحرمني من حالتي القلبية مع ربي عز وجل، فأنا أشهدك أنني أفضل بقاء المرض على أن لا أحرم سعادة هذه الحال.

لقد كان الذي فقدناه بفقد السباعي رحمه الله: عملاً إيجابياً دائماً، وكفاءة قيادية رائعة، ولوعة قلبية ثائرة.

صفات ثلاث، يحق لنا أن نبكيها في ذكرى انقضاء عامين على وفاة السباعي رحمه الله. فقد اجتمعت هذه الخصائص الثلاث في حياته، وقلما اجتمعت في حياة إنسان في هذا العصر.



الشيخ محمد حريري^(١)

(١٣٣٠ - ١٣٨٤هـ)

(١٩١٢ - ١٩٦٤م)

للاستاذ عبدالله علوان

انتقل إلى رحمة الله يوم الثلاثاء في ٢ جمادى الأولى ١٣٨٤ . الموافق ٨ أيلول ١٩٦٤م .
الشيخ محمد حريري من أهالي حلب، ومن علمائها الأفاضل .



ولد رحمه الله في حلب سنة ١٩١٢، ولما بلغ سن الشباب تلقن العلم الشرعي في المدرسة الشرعية التي كانت تُسمى وقتئذ «الخسروية»، ثم لازم فصيلة العلامة الكبير الشيخ نقيب السراج رحمه الله ملازمة تامة في جميع دروسه الحاضرة والعامّة إلى أن اختاره الله لجواره .

ولا بأس أن نذكر شيئاً من مآثره الكريمة، وأعماله الجليلة حتى يتأشّى به، ويمشي على طريقته طلاب العلم، ودعاة الإسلام، وورثة النبوة وأصحاب الثروة والمال . لأنهم أحوج ما يكونون لمثل هذه المآثر، ولمثل هذه الأعمال، واللّه لا يُضيع أجر العاملين المخلصين .

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الخامسة: (١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م).

من أميز هذه المآثر، ومن أعظم هذه الأعمال التي كان يتحلى بها
الفقيد رحمه الله هي :

١ - الجرأة في الحق :

كان رحمه الله لا يخشى في الحق لومة لائم، لقد وقف وقفة صامدة
أمام فرنسا في عهد الانتداب، فكان يُندد بها، ويشير الجمهور عليها، ويقزّع
بها ويلعنها.. في خطبه الحماسية وكلماته الثورية، وظلّ على هذه الحال
حتى خرجت من بلادنا خاسئة مذمومة مدحورة. ووقف أمام الحكام مرات
ومرات يعظهم وينصحهم، ويأمرهم وينهاهم، ويُبَيِّن لهم خطأهم
واعوجاجهم غير هيّاب ولا وجل، فحسبه في ذلك رضوان الله والدار
الآخرة.

٢ - الإنفاق في سبيل الله :

لقد كان الفقيد من أهل الثراء والغنى، فلم يبخل يوماً في معروف،
ولم يقصّر في عطاء، وكان أسخى ما يكون في العشر الأواخر من رمضان،
فإذا مررت على بابه في هذه الأيام، رأيت العشرات من المحتاجين والفقراء
يعطيهم ما يكفي أودهم، وما يسد حاجتهم، وكان يعتني رحمه الله بترميم
المساجد وبنائها، وترميم أماكن المياه التي يستسقي منها المارة، ومن اعتنائه
البالغ مساعدة طلاب العلم الشرعي، وتأمين الملابس لهم، والإنفاق عليهم،
وما قصّده أحدٌ بعطاء فيه مصلحة وخير إلا بذل من حُرّ ماله ما فيه الكفاية.

٣ - التحرق على الإسلام :

كلُّ مَنْ رأى الفقيد يجده مهتماً مغتماً على ما أصاب المسلمين من
تفرّق وميوعة وفساد.. فكان يتحرّق لأوضاعهم، ويتألم لمصائبهم.. ويجتمع
بالعلماء ليتذاكر وإياهم في الخطة الرشيدة التي تجمعهم بعد تفرّق،
وتصلحهم بعد فساد، وترجعهم إلى الدين الحق والإسلام الحنيف، وأذكر
أنني زرته في مرضه الأخير، فوجدته يعاني من الفساد والانحلال الذي
أصاب بلاد الإسلام أكثر مما يعاني من مرضه، فكان يسألني: ماذا فعلتم؟

ومن قابلتم؟ وماذا نتج عن مراجعتكم؟ فكنت أجيبه عن كل ما تم من مقابلتنا للمسؤولين في شأن دروس الدين.

وأخيراً دعا ما ألهمه الله من دعاء، والدموع تنهمر من عينيه، وختم كلامه بهذه الكلمات: «اللهم من أراد للإسلام خيراً فوفقه لكل خير، ومن أراد للإسلام شراً فخذة أخذ عزيز مقتدر».. وبعد يومين أسلم الروح لبارئها.

رحم الله الفقيد، وأسكنه فسيح جنانه، وأكثر من العلماء من أمثاله، وألهم ذويهِ وإخوانه الصبر والسلوان، ولا يسعنا إلا أن نقول: «فإنَّ الله ما أخذ وله ما أعطى. وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلنصبر ولنحتسب ولا حول ولا قوة إلا بالله».





في ذكرى وفاة الشيخ الإبراهيمي
جمعية العلماء، ومكانها في تاريخ الجزائر الحديث^(١)

للاستاذ محمد المبارك
عضو الجمعية المغربية



دور جمعية العلماء المسلمين في نهضة الجزائر واستقلالها:

مات البشير الإبراهيمي رحمه الله شيخ الجزائر الأكبر، وآخر تلك الرؤوس الكبيرة التي بدأت من نحو أربعين سنة بإنهاض الجزائر نهضة واعية منبثقة عن روح الجزائر العربية المسلمة انتهت بالاستقلال الذي كان حلماً من الأحلام البعيدة حين بدأوا بهذه النهضة.

إن من لا يعرف «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» لا يعرف شيئاً عن الجزائر في عصرها الحاضر فهي تؤلف الجهاز الضخم في كيانها والفكرة المستقرة في ضميرها والمعبرة عن روحها التي ترجمت في أعمال بديت من نشر العلم والدين والوعي السياسي، وانتهت إلى ثورة مسلحة كانت الخاتمة والنتيجة الطبيعية لحركتها.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة السادسة: (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).

تعرف الأستاذ المبارك على جمعية العلماء الجزائرية:

لقد عرفت جمعية العلماء الجزائرية، واطلعت على حركتها منذ عام ١٩٣٠، وكنت طالباً في تجهيز دمشق أو مدرستها الثانوية الوحيدة يومئذ بواسطة بعض الجزائريين المهاجرين الذين كانوا يتلقون صحفها ومنشوراتها، وكنت يومئذ أنا ونفر مثلي من الشباب المسلم مشغوفين بتتبع أوضاع البلاد الإسلامية نقرأ ما يكتبه الأمير شكيب أرسلان في «حاضر العالم الإسلامي» وفي المجلات الإسلامية، وفي كتبه التي كان ينشرها والتي كانت هي ومجلة «الفتح» وما يشبهها تصل الطليعة المثقفة المؤمنة بمشكلات العالم الإسلامي، وتتمكنهم من أن يضعوا قضايا العرب والمجتمع العربي في إطارها الأكبر وفي مكانها من المخطط الاستعماري المرسوم للعالم الإسلامي كله، ومن جملة: العالم العربي فكانت نظرتهم إلى هذه المشكلات أوسع أفقاً وأعمق فهماً وأقرب إلى الصحة ممن كانوا ينظرون في حدود الإطار السوري - وهو جزء من الإطار العربي - أو في حدود الإطار العربي الذي هو جزء من الإطار الإسلامي في العالم في نظر الحقيقة، وفي نظر أهله وأصحابه، وفي حساب مخططات أعدائه الذين كانوا أدق فهماً وأوعى لمشكلات من يكيدون لهم ويرسمون لهم المخططات للسير في الخطة التي يريدون أن يوجهوهم إليها تمكيناً لاستعمارهم.

جريدتا «البصائر» و«الشهاب»:

كانت تصلنا جريدة «البصائر» ثم مجلة «الشهاب»، ونقرأها بلهفة شديدة متطلعين إلى أخبار قطر عربي مسلم كان المعروف المشتهر عنه أن اللغة العربية أصبحت مجهولة فيه بعيدة عن الاستعمال لدى الخاصة التي اتخذت الفرنسية، والعامة التي اتخذت لغة عامية هجينة هي مزيج من الفرنسية والعربية العامية المحلية.

أثر منشورات جمعية العلماء في المسلمين الجزائريين:

فكانت منشورات جمعية العلماء حَدَثًا هاماً يلفت النظر، ويشير الدهشة

وكان الأعظم من ذلك أن هذه المنشورات كانت تدل على وعي عميق شامل للمشكلة، إذ كانت نقطة الانطلاق في عمل جمعية العلماء ثورة فكرية سلفية، استهدفت تهينة الرأي العام، وتغيير تفكيره وعقليته والكثير من عاداته، ومحاربة الخرافات والأساطير والحشويات وسائر أنواع التخدير الفكري والعودة به إلى روح العمل والجهاد الإسلامي، وإلى النظرة الإسلامية الصحيحة، ولم تنجح حركة سلفية في بلد عربي أو إسلامي وتأخذ طريقها إلى الحياة العملية لتكون أساس النضال كما نجحت في الجزائر.

خطط الاستعمار الفرنسي في التكنيل بالجزائريين:

كان الجو الذي أنشئت فيه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو الجو الذي بلغ فيه الاستعمار الفرنسي ذروة شدته، فكان الفرنسيون المستعمرون قد سلبوا الأراضي من أصحابها وامتلكوها، وساروا على خطة التكنيل بالجزائريين المسلمين واحتقارهم واضطهادهم وتجهيلهم وإفقارهم وإقصائهم عن جميع مرافق الحياة حتى أنهم ما كانوا يعتبرونهم مواطنين بل رعية تابعين، وإنما المواطنون هم الفرنسيون وحدهم، واتخذوا كل الخطط لمنعهم من تعليم الدين والقرآن واللغة العربية، واستولوا استيلاء مباشراً على الأوقاف، فأخذوا أموالها، وعلى المساجد فاتخذوا بعضها كنائس، ولم يكن الفرنسيون يقبلون حتى بفرنسة الجزائريين واعتبارهم مواطنين فرنسيين لأن ذلك يعطيهم حقوق الفرنسيين ويوجب تثقيفهم بالثقافة الفرنسية وسياستهم إنما كانت في اتخاذهم خداماً وعبداً، ويستلزم ذلك إفقارهم وتجهيلهم.

ولذلك أنشئت في الجزائر نتيجة هذا الاضطهاد أحزاب وهيئات كان غاية ما تطالب به وتتمنى تحقيقه أن يكون الجزائريون مواطنين فرنسيين لهم حقوق الفرنسيين.

منهج حركة جمعية العلماء الجزائريين:

في مثل هذا الجو برزت حركة جمعية العلماء، واتخذت نهجاً جديداً

يختلف عن ذلك الذي سلكه غيرها من الأحزاب والهيئات، فهي أطول طريقاً وأبعد هدفاً وأكثر أصالة وأعمق جذوراً، وذلك بإعادة الجزائري إلى إطاره وكيانه الإسلامي، وإلى عربيته وتكوينه تكويناً جديداً يجعله غير قابل للاستعمار، ويؤمله للنضال والجهاد.

من أعلام الجمعية:

وكان من أعلام هذه الحركة: الشيخ عبد الحميد بن باديس ذلك الرجل العظيم الذي لا ينسى فضله أبداً على الجزائر الحديثة، وكان منهم الشيخ الطيب العقبي، والشيخ مبارك المليلي، وكان منهم فقيه الجزائر العظيم الشيخ البشير الإبراهيمي، والأستاذ أحمد توفيق المدني حفظه الله الذي أصدر منذ أكثر من ثلاثين سنة كتاباً عن الجزائر باللغة العربية لم يكتب مثله عن أي قطر عربي في ذلك الحين من الوجهة التاريخية والجغرافية والاجتماعية.

لقد أدرك هؤلاء جميعاً أن حل المشكلة، وقد وصلت إلى ما وصلت إليه لا يكون بالمطالبة بحقوق سياسية، وإنما يكون بحركة جذرية تنتهي بتحقيق المطالب السياسية، بل بالتححرر الكامل.

إحياء الإسلام في عقيدته ولغته:

لقد أدركوا أنه لا يحفظ كيان هذا القطر العربي المسلم كسائر الأقطار العربية التي كانت منهم على مرأى ومسمع إلا بإحياء الإسلام في عقيدته المحررة ونظامه وجهاده، وإحياء اللغة التي بها أدى الإسلام رسالته، وهي اللغة العربية، وإحلال هذه العقيدة الشاملة محل مخلفات عصور الانحطاط من حشويات وخرافات وانحرافات وإسفاف، ومحل تلك الثقافة الفرنسية السطحية المزيفة الغريبة عن روح هذا البلد العربي المسلم.

نشر الوعي الإسلامي عن طريق الشعب والجيل الناشئ:

فعمدت الجمعية إلى نشر هذا الوعي الإسلامي عن طريقين: طريق

الشعب في المساجد والنوادي والبيوت، وبوساطة الصحف والمجلات والكتب.

وطريق الجيل الناشئ في المدارس التي أخذوا يؤسسونها في كل بلد من بلاد الجزائر، وكانت حركة هائلة ومعركة اشتعلت بينهم وبين الاستعمار الذي كان يغلق هذه المدارس ويحاكم القائمين بها، وتفتحها الجمعية، وتزيد عليها مدارس أخرى جديدة. حتى استطاعوا خلال عشر سنين أو أقل من ذلك ما بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ أن يوجدوا وعياً عاماً وروحاً إصلاحية سلفية وشعوراً قوياً بتميز الجزائري بإسلامه وعربيته عن الفرنسي الرومي.

وبلغ مدّ هذه الحركة فرنسا نفسها، حيث كان يعيش عدد كبير من الجزائريين، فقد كان في باريس وحدها نحو مئة ألف جزائري عدا المدن الأخرى، فأسست النوادي في باريس ومرسيليا، وقد حضرت الكثير من اجتماعاتها في باريس حينما كنت طالباً في جامعها ما بين ١٩٣٥ و ١٩٣٨، وكان عدد هذه النوادي التي يتسع كل منها لآلاف المستمعين ثمانية، وكان الخطباء يتمتعون بحرية الكلام ومهاجمة الاستعمار وبث روح الاستقلال لا يتمتعون بمثلها في الجزائر، وكان من قادة هذه الحركة في باريس يومئذ المجاهدان الشيخ الفضيل الورتلاني رحمه الله، والشيخ سعيد الصالحى أمد الله في حياته، وهو ممن سجن مدة طويلة في أثناء ثورة التحرير، وبلغت قوة الحركة أن البائعين المتجولين في باريس من الجزائريين والعمال الأميين كانوا يحدثوننا بحماسة عن حركة الإصلاح هذه.

الوعي السياسي الشامل في جمهور الجزائر:

لقد كان الوعي السياسي الشامل في جمهور الشعب الجزائري نتيجة طبيعية لحركة جمعية العلماء في الجزائر، وكان هو المرحلة الثانية التي أعقبت الوعي الفكري والديني، ولم يكن ثوار الجزائر إلا أبناء هذا الجيل الذي ربّته مدارس جمعية العلماء ونواديها في الجزائر وفي فرنسا، ولم تكن الثورة التحريرية نفسها إلا جزءاً من الخطة العامة الواسعة التي رسمت خطوطها تلك العقول الكبيرة التي أسست هذه الجمعية، وليس أعظم ثوار

الجزائر بطولة إلا تلاميذ بررة لجمعية العلماء ومنفذين مخلصين لخطتها الحكيمة، وكانت العقيدة الإسلامية والعاطفة الدينية أقوى بواعث هذه الثورة وأمضى أسلحتها، ومن أعماقها كانت تستمد الثورة قوتها ولهيبتها.

ليست الوطنية ولا القومية في الجزائر إلا ضرباً من العواطف الإسلامية والمشاعر الدينية التي كانت تقف في وجه أوروبا الصليبية المتعصبة التي كانت تقرن دوماً الاستعمار بالتبشير والتبشير بالاستعمار لأن أوروبا لم تفهم الدين إلا من هذه الزاوية الضيقة، وبهذه النظرة المشوّهة المنحرفة.

إن جمعية العلماء قد أحييت الجزائر، وبعثت فيها عربيتها التي كادت تغيب، وإسلامها الذي كان يُقضى عليه، ولو أن حركات التحرر السياسي في الجزائر، سارت بطريق آخر، وعلى منهج بعض الهيئات التي أنشئت في جوّ التأثير بالثقافة الفرنسية لكانت الجزائر اليوم قطراً فرنسياً، ولو أنه مستقل استقلالاً ذاتياً، ولكنه استقلال يمحو ذاتيتها، ويزيل عنها إسلامها وعربيتها.

واجب الوفاء لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومؤسسيها:

إن من الوفاء للتاريخ ومن الوفاء لأصحاب الفضل والسابقة: أن نضع جمعية «العلماء المسلمين الجزائريين» في القمة من تاريخ الجزائر الحديث، وأن نضع رجالاتها الأبطال وفي مقدمتهم البطل المجدد المجاهد ابن باديس رحمه الله، والعلامة المجاهد الشيخ الإبراهيمي الذي انتقل إلى جوار ربه في أوائل شهر ذي الحجة المنصرم من هذا العام في سجل أبطال تاريخ الإسلام بوجه عام وتاريخ العرب بوجه خاص.

وإن من الوفاء لهم ولتاريخنا وأمتنا: أن تسير الجزائر على النهج الذي رسموه، وتكمل الخطة التي بدؤوها، وذلك بأن تكون نهضتها بعد تحررها قائمة على الإسلام وحده، تحمل لواء عقيدته أمام سائر العقائد الأخرى، وتقيم مجتمعا على أساس مبادئه، متحررة في عقيدتها وفي نظمها من سائر (الأيدولوجيات) العقائد الأخرى وسائر الأنظمة دون أن

يحول ذلك بينها وبين الاستفادة من تجارب الأمم فيما وراء المبادئ الأساسية والاتجاهات الكبرى، وحينئذ تقدم الجزائر لسائر البلاد العربية أصح تجربة اجتماعية سياسية في هذا العصر، وخير نموذج لشقيقاتها العربيات ولأخواتها الإسلاميات ولصديقاتها وغير صديقاتها من بلاد العالم جميعاً.

إحياء ذكرى ابن باديس والإبراهيمي:

وإنَّ إحياء ذكرى ابن باديس والإبراهيمي بإقامة الحفلات لذكراهم والمحاضرات عن حياتهم وتاريخهم وحركتهم، والإشادة بهم بإطلاق أسمائهم على المعاهد والمؤسسات والمدارس والثكنات هو من خير الوسائل لتحقيق هذا الوفاء، ومن خير البشائر الدالة على انتهاج الطريق القويم طريق الذين وعد الله أن يستخلفهم في الأرض، ويُمكن لهم فيها، طريق الذين يعملون على تحرير الإنسانية من أنواع العبوديات؛ عبودية الملوك والرؤساء والطبقات، وعبودية العصبية الضيقة لينقلها إلى رحاب الإنسانية الواسع المتصلة بالله وحده وعلى إقامة المجتمع الإنساني على أساس الحق والعدالة المنبثقة عن هذه العقيدة عقيدة التوحيد المحررة التي تبقى وحدها العقيدة الصحيحة، ويستبين زيف جميع العقائد المنتشرة اليوم في الأرض.

رَجِمَ اللَّهُ الشيخ الإبراهيمي وشيوخ الجزائر، وبُناة نهضتها الحديثة من قبله ابن باديس وصحبه، وأمدَّ الله في عمر الباقيين منهم، وحيَّ الله رجال الثورة الجزائرية الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه من تحرير بلدهم من الاستعمار ونهجه الجاهلي الكافر، وساروا على الدرب القويم القديم الذي سار عليه من قبلهم عقبة وطارق، بل أبو بكر وعمر وعلي وأبو عبيدة ذلك الدرب الذي شقَّه وأُناز سبيله سيد البشر ومنقذ الإنسانية وخاتم المرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الغر الميامين.





محمد البشير الإبراهيمي

علم من أعلام العرب في القرن العشرين^(١)

(١٣٠٦ - ١٣٨٥ هـ)

(١٨٨٩ - ١٩٦٥ م)

للأستاذ عمر الحكيم



زيارة الإبراهيمي للملك سعود:

في شتاء عام ١٩٥٤م، كان القصر الأحمر في بلدة الرياض، وهو قصر الملك، وأفخم قصر في البلاد العربية، يعج بعشرات الوفود، جاؤوا من البلاد العربية والإسلامية لزيارة المملكة السعودية، وكانت أسماء تلك الوفود تعلن مساء قبيل دخولها القاعة الكبرى لمقابلة الملك السابق سعود بن عبدالعزيز.

وفي إحدى حُجرات القصر الجانبية، كان يجلس شيخ وقور المظهر،

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني من السنة السادسة: (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).

حاد النظرات، صامتاً واجماً منكسراً على نفسه، شارد الفكر، يطوف بذهنه بعيداً عن القصر وعن الرياض وعن الجزيرة العربية كلها.

وفجأة أقبل أحد رجال القصر ونادى: الشيخ بشير الإبراهيمي، فنهض الشيخ بصعوبة، ومشى متحاملاً وراء المنادي، ودخل القاعة التي جلس فيها الملك.

وانفرد به يُحدّثه طوال ساعتين عن الجزائر، وعن تاريخها وعروبيتها ودورها في التاريخ الإسلامي، وقضيتها مع فرنسا وثورتها التي كانت آتت في أول عهدها، والتي قامت تُجابه فرنسا وحلف الأطلسي الذي يشدُّ أزرها كما بيّن للملك دوافع تلك الثورة العظيمة ومعناها بالنسبة للمسلمين وللعرب وكيف أنها تعدل الحروب الصليبية، واستشهد الشيخ الإبراهيمي بقول وزير خارجية فرنسا لأحد الصحفيين الفرنسيين، وقد سأله آتت عن فكرة التفاوض مع ثوار الجزائر، فأجابه الوزير: «لن ندع الهلال ينتصر على الصليب»، وذكر الشيخ الإبراهيمي الملك بواجبات الدولة السعودية حامية الحرمين الشريفين لنصرة المجاهدين الجزائريين، الذين يتحمّلون وحدهم مقارع الاستعمار ومطارق الصليبية اللدودة التي تمكّنت فرنسا من إطلاقها من عقالها في القرن العشرين كما أطلقتها من قبل في القرون الوسطى على أيدي ملوكها ونبلائها.

تصوير واقع الثورة الجزائرية:

واستمرَّ الشيخ الإبراهيمي في تصوير واقع الثورة الجزائرية والمجاهدين فيها، وكيف أنهم قاموا وقد نفخ الإسلام فيهم من روحه الخالدة، فنفضوا غبار الموت والاندثار عن شعب سقط تحت الاستعمار الأسود طوال قرن وربع القرن، فجرب فيه ذلك الاستعمار كل الوسائل لإذابته أو مَحْوِهِ من الوجود، وإحلال شعب آخر محله غريب عن العروبة عدوّ للإسلام، فما تمكن ذلك الاستعمار اللدود أن يخمد جذوة شعب الجزائر أو يقتل أصالته العربية أو يُجهز على روحه الإسلامية وارتباطه بالعروبة والإسلام رغم أنه نشر فيه الجوع والجهل والبؤس

والفقر والتشرد والإرهاب، وأقام المجازر العامة، وحارب لغته العربية ومنع تداولها وتعليمها لأنها كانت في نظر الاستعمار مركبة الإسلام، تحمل دين النبي محمد إلى قلوب أولئك الجزائريين الأشاوس في جبال الأطلس وفي حمادات الجنوب، ولكن هذه اللغة المحظورة في المعاملات والمدارس ظلت لغة العقيدة والعبادة وهما أقوى صلة بين البشر والخالق، لا سيما في ساعات المحنة واستفحال الخطب، وهكذا كانت العقيدة الإسلامية بالنسبة للجزائريين الأمل الركين الذي يتوجهون إليه، والنور المشرق الذي يضيء ذلك الظلام الحالك الذي يعيشون فيه، فما استكانوا لفرنسا، بل ظلوا يأملون بنصر الله الذي وعده عباده المؤمنين، وظلوا ينتظرون ساعة الخلاص طوال قرن وربع القرن إلى أن قامت ثورة الجزائر، فالتف حولها الشعب برمته بشيبه وشبانة، برجاله ونسائه، وكلهم يعلم جسامة الإقدام وعظمة الغاية وضخامة الفداء والتضحية التي تطلبها تلك الثورة، لا سيما وأنها أول ثورة في العالم العربي تتخذ صفة ثورة شعب لا ثورة أمير أو ثورة زعيم.

ثم شرح الشيخ الإبراهيمي للملك الذي لم يسمع من قبل بحديث كهذا مفصل وواسع عن بلد عربي إسلامي ينبعث من مرقده، وينتصب متحدياً الموت والفناء ليأخذ مكانه اللائق بين البلاد العربية والإسلامية كأنه لم يخضع ساعة واحدة لجبروت فرنسا واستعمارها الأسود طوال مئة وثلاثين عاماً.

حاجة الثورة إلى إمدادها بكل أنواع المساعدة:

لقد شرح الشيخ الإبراهيمي للملك: كيف اندفع رجالات الثورة الجزائرية إلى تنظيم تلك الثورة وإمدادها بكل ما تقتضيه من الرجال والأموال والدعاية والأنصار من العالم الإسلامي وغير الإسلامي، لأن حرباً كهذه يتوقف عليها مصير شعب بأكمله، ويتقرر فيها مستقبل أمة كانت تتطلب أقصى الجهد وكل جهد، ولا تحقر أية مساعدة مهما كانت ضئيلة، فالبحر الزاخر يتكوّن من اجتماع نقاط صغيرة، ولذلك اندفع رجالات الجزائر إلى

طُرق جميع الأبواب من الصين إلى مجاهل إفريقيا، وطلب المعونة والأنصار من كل حذب وضُوب.

وكان الشيخ الإبراهيمي من رجالات الجزائر الذين انتشروا في العالم للتعريف بمعنى ثورة الجزائر، وتجنيد الأنصار لها، وها هو يبسط قضية الجزائر للملك سعود الذي كان يُصغي ويفكر بما جُبل عليه من فطرة عربية صرفة وبداهة إسلامية صافية، وكانت علائم الأسى والتأثر الشديدين ظاهرة على ملامحه لما نزل بالجزائريين من ضروب الأذى والعدوان، ولم يعلق على حديث الشيخ الإبراهيمي إلا بقول واحد: «إنَّ كلَّ ما أصاب الجزائريين سببه أنهم مسلمون».

انتهاء مقابلة الإبراهيمي ومعاناته آلام المرض والشيخوخة:

وانتهت المقابلة، وخرج الشيخ الإبراهيمي مسرعاً، ولجأ إلى غرفة متواضعة في إحدى دور الرياض، وارتمى على سريره، ونادى أحد مرافقيه الجزائريين طالباً منه إحضار طبيب، ذلك أن الشيخ كان آتئذ في أوج المرض والضعف، يعاني عدة أمراض، يكفي واحد منها لإناخة أي رجل عادي في الحياة العادية، هذا عدا عن مرض الشيخوخة، ولكن صوت شعب الجزائر الذي تبيده جيوش فرنسا في كل مكان من الجزائر في المدن وفي الأرياف وفي معتقلات التجميع كان يُلعلع في ضمير الشيخ وفي مسامعه، فلم يدع للشيخ مجالاً لشكوى ولا ذكراً لنفسه وأدوائه وشيخوخته فانتصب يغالب كل ضعف، وتحامل على جسمه المحموم، وسافر إلى الرياض، وعانى الأمرين حتى تمكن من مقابلة الملك، وعرض قضية الجزائر عليه، وخرج اليوم من تلك المقابلة راضي النفس، عليل الجسم أكثر من أي وقت مضى، لأن جهد الإقناع في جلسة واحدة ولأول مرة ولا سيما إقناع الملوك والرؤساء بقضية أمة يتوقف عليها حياتها أو موتها ليس جهداً يسيراً ولا أمراً هيناً.

فالملوك والرؤساء في البلاد العربية في ذلك العهد كانوا يمتازون بثقافة متواضعة، تُؤهلهم للعيش دوماً على غير مستوى الأحداث، ولأن قضية

الجزائر لم تكن داخلية في الكتب المدرسية التي مزّوا عليها مرور الكرام إبان طفولتهم المَرَحَة السهلة، والتي عرجوا منها سريعاً إلى مدارج السلطة والحكم دونما مؤهلات العلم والثقافة الواسعة التي يتطلبها الحكم والسلطة.

بين الزاهدين في الحكم والمتطلّعين إليه:

واللوم لا يقع في ذلك على أولئك الملوك أو الرؤساء، فالشعب العربي بمجموعه فئتان: فئة زاهدة في الحكم والسلطة، وفئة تعتبر الحكم والسلطة أهون الأمور في الحياة وأرباحها، إليهما تنصاعد آمال الفاشلين في الحياة والعاجزين والكسالى، وإليهما تنصب نظرات طالبي الاغتناء المتسارع والجاه المفاجيء والرفعة المتفجرة، وإليهما ترنو نفوس الجهّال والطامحين الذين فاتهم قطار العلم والنجاح في الطريق المستقيم، فأمنوا إيماناً أعمى آن الحكم والسلطة هما أقصر من أيّ طريق مستقيم.

مهمة البشير الإبراهيمي رئيس رابطة العلماء الجزائريين:

كان رجالات الثورة الجزائرية يعلمون تمام العلم هذه الحال في الأمة العربية وفي ملوكها ورؤسائها، ولذلك اختاروا وفودهم إلى أولئك الملوك أو الرؤساء من بين أعلم رجالاتهم، وكانت المكانة الأولى في تلك المهام الخطيرة والصعبة تقع على الشيخ بشير الإبراهيمي، وهو آنئذ رئيس رابطة العلماء الجزائريين بكل جدارة واستحقاق لا بالتعيين والتزوير.

وكان الشيخ الإبراهيمي يعلم جَسَامَة المهمة المُلقاة عليه، لا سيما وأنه يدرك تماماً أنّ الحديث مع الملوك والرؤساء العرب عن الجزائر كان آنئذ أصعب من الحديث عن جزر «الواق - الواق» الواردة في ألف ليلة وليلة، لولا أن الإذاعات الأجنبية والعربية التي تُطوّق العالم العربي من كل حذب وصوب آناء الليل وأطراف النهار، وتصبُّ جام ثرثرتها وأحاديثها بالحاح دؤوب لا هوادة فيه، لولا أن تلك الإذاعات قد عرّفت العالم بالثورة الجزائرية وبالشعب الجزائري تعريفاً ناقصاً ومشوّهاً، ولكنه في الوقت ذاته تعريف مفيد لأنه أفهم العالم أن شعب الجزائر لم يندثر ولم يذب في بوتقة

فرنسا التي تصهره منذ مئة وثلاثين عاماً، بل ظل شعباً مسلماً عربياً لا فرنسياً ولا غريباً عن العروبة والإسلام كما كانت الدعايات الفرنسية والأجنبية تصوّره من قبل، وأن هذا الشعب الجزائري استفاق من رقادته، وشبّ عن الطوق وقد «عقد العزم أن تحيا الجزائر وعلى العالم أن يشهد ذلك».

من مرحلة المعرفة النظرية إلى مرحلة المعرفة العملية:

ولكن هذا التعريف بالجزائر لا يكفي، فعلى هيئة التحرير واجب استكمال التعريف لدى العالم العربي والإسلامي لإمداد الثورة بالعون والدعم، وأن تنقل العالم العربي والإسلامي من مرحلة المعرفة النظرية إلى مرحلة المعرفة العملية، وذلك بإمداد الثورة بالمال والسلاح، وهنا كانت المشكلة العظمى والطامة الكبرى.

فالعرب والمسلمون أتقنوا فنّ الكلام، ونبغوا في الفصاحة والبلاغة، ولكنهم مُقَصِّرون في واجبات الحياة، وخاصّة واجبات الجهاد والبذل والاستمرار فيهما لتحقيق غاية أو نصرّة مبدأ، وما أكثر الانقطاعات في تاريخ العرب والمسلمين.

من طُور الدعاء والفخر بالثورة إلى طور البذل المادي والعون السياسي:

ولم يكن الشيخ الإبراهيمي ليجهل كلّ هذه النواحي الضعيفة في بناء الأمة العربية والإسلامية، ولكن الثورة تطلب منه بذل أقصى الجهد لنقل الحكومات العربية من طُور الدعاء والابتهاال والفخر بالثورة الجزائرية إلى طُور البذل المادي والعون السياسي لها، وها هو يعود اليوم في مقابلة ملك أغنى دولة عربية، تبذل في يوم واحد ما يكفي لجيش الجزائر شهراً كاملاً، فمهمة الشيخ هي تحويل وجهة ذلك البذل، أي تحويل نهر الذهب الذي يضيع في جزيرة العرب - ولو يوماً واحداً - من كل شهر إلى جبال أوراس ونجود وهران وجبال الأطلس.

ولقد خرج الشيخ من مقابلة الملك، وهو قانع أنه تمكّن من هذا التحويل، وأن حديثه مع الملك لاقى أذناً صاغية ونفساً طيبة استجابت لنداء

الواجب المقدس، وهو نُصرة أمة تذبج وتباد في معتقلات الأسر وفي كل مكان من الجزائر.

وقضى الشيخ الإبراهيمي عدة أيام يُغالب الموت، فالطبيب لم يعلم ماذا يداوي فيه الشيخوخة أم الإرهاق أم بقية الأمراض، وظل الشيخ يتلوى عدة أيام على فراشه في حالة غيبوبة، فإذا عاودته صحوة تُتمم قائلاً: «ما هي أخبار الجزائر؟ وما استجد في موقف الحكومة السعودية من هيئة التحرير!!».

استجابة الملك سعود لنصرة مجاهدي الجزائر:

ولم تمض إلا أسابيع قليلة حتى كان معمل السلاح في بلدة «الخرج»^(١) في نجد يعمل ليل نهار، يُصدّر الذخيرة والعتاد إلى مجاهدي الجزائر، كما كانت هيئة التحرير الجزائري تتلقى مساعدات مالية ضخمة لشراء الأسلحة من شتى أنحاء العالم، وفي الوقت ذاته كانت الحكومة السعودية تُقدّم العون السياسي والأدبي لثورة الجزائر، وتقطع تدريباً علاقاتها مع فرنسا، ولم تتحسن صحة الشيخ الإبراهيمي، بل اشتدّ به المرض وازداد به الإرهاق، ولكن ثورة الجزائر كانت تطلب منه مزيداً من الجهد ومن نسيان النفس فتحامل على جسم هزيل تعصف به الحمى، وتهذه الشيخوخة، وتفتك به العلل، وانتقل إلى ليبيا وتونس، حيث كان الواجب ينتظره لخدمة الثورة^(٢).



(١) استمرّ هذا المعمل يقدم كل ما ينتج حتى عام ١٩٥٦م، حيث تمكّنت المخابرات الفرنسية من تدميره بواسطة ألغام عديدة وضعها العمال الأجانب الذين كانوا يعملون فيه، ولكن الحكومة السعودية عادت إلى إصلاحه، وعاد المعمل يزود ثوار الجزائر بالذخيرة والعتاد حتى آخر يوم من الثورة الجزائرية (الحكيم).

(٢) انتهت مقالة الأستاذ عمر الحكيم رحمه الله تعالى، وكتب في آخرها: (يتبع) ولم أجد في المجلة بقية لمقالته الممتعة المفيدة.



للأستاذ عبدالرحمن الغريب

وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدر:

احتفلت الجزائر بذكرى وفاة فقيه الإسلام والعروبة محمد البشير طالب الإبراهيمي. وقد عبّر الشعب في هذه الذكرى عن مشاعره المخلصة حيال رجل خدم الجزائر، ودافع عنها في عهد كان المخلصون قليلين.

لم تعرف الجزائر في أيام محنتها رجلاً، وتعرف مكانته بعد وفاته مثل الإبراهيمي - وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدر - لقد قَدَّمَ أعزَّ ما يملك: شبابه، وكهولته، وشيوخه، لم يصرفها في ربح العظيمة الزائفة، أو في جمع ما يعتبره الناس نفيساً، من المتاع الزائل... بل صرفه في خدمة الأمة وتوجيه نشئها. ولولا أمثال الإبراهيمي مَنَ تحمّلوا مشقة حمل الأمانة الروحية، لما ذكرت الجزائر، ولا رجعت لها شخصيتها العربية والإسلامية.

لقد كان الإبراهيمي يرى - حين كان الناس لا يؤمنون بالصبح المشرق - أن الجزائر لا بد أن تعود إلى حظيرة الإسلام، ويعود للعربية شأنها،

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة السابعة: (١٣٨٦ - ١٩٦٦).

وعمل كما عمل معه المؤمنون بالفكرة، على تسفيه أحلام العدو الذي كان يتبجح بأن أرض الجزائر ليست إلا مزرعة مهملة جعل المغيرون عليها أرضاً تُطعم سكانها، وتنبت ما يشبع بطون المساكين فيها من بشر وحيوان.

وأمدَّ الله عمر الإبراهيمي، فشاهد بلاده التي نافح وكافح من أجلها، تنعم بالخطوة الأولى من خطوات الحياة الحقة: الحرية. وتمنى لو أن شبابه عاد إليه ليعمل من جديد على تحقيق الأمانة العريضة، حتى يشهد الآمال مجسمة والأحلام أشياء ملموسة.

إلا أن هذا لا يمنع الإبراهيمي، ولو غادرنا إلى العالم الروحاني النوراني، أن يتمتع من العالم الثاني بابتسامة الرضا.

وقد غادر عالمنا ولسان حاله يردد:

من عاش بعد عدوه يوماً فقد بلغ المُنَا

عروبة الشمال الإفريقي:

ويكفي في هذه المناسبة أن نذكر بعض الفقرات، ممَّا كان الإبراهيمي يكتبه في وقت كانت حرية القول فيه جريمة.

لقد نادى بعروبة الشمال الإفريقي، ودحض مزاعم الأفاكين الذين كانوا ينشرون الشك، ويزرعون البلبلة في أذهان السواد الأعظم ليصدوه عن سبيل الله، ثم عن سبيل العروبة. وها هو رأي صريح لا التواء فيه، إنه يقول^(١): «عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية، كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء، والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد، وهي أثبت أساساً، وأقدم عهداً، وأصفى عنصراً من إنكليزية الإنكليز وألمانية الألمان.

فُضت العروبة بروحانيتها وقوتها وأدبها وسمو خصائصها، وامتداد

(١) البصائر، العدد (١٥٠)، ٣ رجب ١٣٧٠هـ.

عروقتها في الأكرمين الأول من نبات الصحارى وبُناة الحضارات فيها، على بربرية كانت منتشرة بهذا الشمال، وبقايا آرية كانت منتشرة فيه، وفعل الزمن الطويل فعله حتى نسي الناس، ونسي التاريخ الحديث أن هناك جنساً غير عربي، وضرب الإسلام بيسره ولطف مدخله، وملاءمة عقائده للفظر، وعبادته للأرواح، وآدابه للنفوس، وأحكامه للمصالح، على كل عرق ينبض بحنين إلى أصل، وعلى كل صوت يقصف بذكرى إلى ماضٍ بعيد، وزاد العروبة تشبهاً وتمكيناً هذه الأبجدية العربية الشائعة التي حفظت أصول الدين، وحافظت على مستوى اللغة، ودوّنت الآداب والشرائع، وكتب التاريخ وسجلت الأحكام والحقوق، وفتحت الباب إلى العلم، وكانت السبيل إلى الحضارة.



هذه العروبة الأصلية العريقة في هذا الوطن، هي التي صيّرت وطناً واحداً، لم تفرقه إلا السياسة، سياسة الخلاف في عصوره الوسطى، وسياسة الاستعمار في عهده الأخير، وهذه العروبة هي مسألته على كثرة المُفرقات، وهي ملاكه على وفرة العوامل الهادمة، وهي رباطه الذي لا ينقسم ببقية أجزاء العروبة في الشرق، وهي السبب في كل ما يأخذ من تلك الأجزاء وما يعطيها، فينصرها في الملمات، ويتقاضاها النصر في المهمات، فالعالم العربي بهذه العروبة المكيّة كالجسد الواحد إذا ألمّ بجزاء من أجزائه حادث، أو نزلت به مصيبة تداعت له سائر الأجزاء بالنصرة والغوث، أو بالتوجّع والامتناع.



ينكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول، ويعمل لمحوها بالفعل، وهو بجميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية، وقتل الموجود بالمعدوم، ليتم له ما يريد من محو واستئصال لهما معاً، وإنما يتعمد العربية بالحرب؛ لأنها عماد العروبة، ومُمسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة، ومع الكتابة العلم، وأدباء ومع الأدب التاريخ، ومع كل ذلك البقاء

والخلود، وكل ذلك مما يقض مضجعه، ويطير منامه، ويصيح مسمعه، ويقصر مقامه.



كل ذلك الجهد ومثله معه مصروف إلى غاية واحدة، وهي محو العربية وقتل العروبة، وكل ذلك الجهد مردف بجهد آخر في إحياء المعاني الميتة التي حاربها الإسلام من بدع وضلالات.

السياسي البارع:

والإبراهيمي سياسي بارع، يسخر من خصومه سخرية الخير. لقد كان يُصوّر البرلمان الذي صنّعه السلطات الاستعمارية للتضليل وإيهام العالم - المدعو بالعالم الحر - بأن الجزائر تتمتع بكل ما تتمتع به الأقطار الديمقراطية، من سلطة، وحرية رأي. صورة طبق الأصل حين يقول^(١):

«وماذا في الجزائر من ذاك؟»

يسمع البعيدون الذين من الله عليهم بالسلامة ممّا نحن فيه، أن في الجزائر نواباً ومجالس نيابة، وأن فيها من مواليد عهد التطورات مجلساً جزائرياً، يترأى في مظاهر برلمانية، تلوح عليه مخايل البرلمان وسماته، وتنفح من طياته روائح البرلمان ونسماته.

يسمعون ذلك عن الجزائر، فيحسبون أنّ الحرية صافحتها، وأنّ عوادي الدهر صافتها، وأنّ هذه المجالس النيابية خليفة أن تراقب الحكومة والحكام، وأنّ تناقش، وأنّ تُحاسِب، وأنّ تُحامي عن مصالح الأمة وحقوقها، كدأبها في كل بلد نيابي، وقد يغبطنا جيراننا الأقربون على هذه الحياة الشورية التي حرّمهم الاستعمار منها.

مَنْ يَسْمَعُ يَخُلُ، والبعيد يسمع الأصداء لا الأصوات، والحقيقة هي أنه ليس في الجزائر نيابة ولا نواب، ولا منتخبون ولا انتخاب. وأن حالتها

(١) البصائر، العدد (١٢٠)، ٥ شعبان ١٣٦٩هـ.

في هذا الباب بعد مائة وعشرين من استعمار فرنسا أم الدساتير، وأمام الشعوب النيابية في العالم، قد انتهت إلى حيث ابتدأ الباش آغا^(١)...

ليس في الجزائر نيابة ولا نواب، بالمعنى الذي تعرفه الأمم، وإنما هي صور بلا حقائق، وألفاظ مجردة من معانيها، وأجسام مُفَرَّغَة من أرواحها... إنما هي وظائف توزعها الحكومة على أعوانها، وتضع عليها هذه الأسماء، تمويهاً وتغليظاً، وتغطيها بأقلية ضئيلة من النواب الأحرار، تمهيداً للغدر، وتعويذاً من العين، ودفعاً للتهمة وقالة النقد، فإذا اجتمعت هذه المجالس النيابية ليوم الفصل في المشكلات، أو ليوم الرأي في المعضلات، لم تجد نواباً ولا رأياً، ولكنك تجد الحكومة تتحكم وتسيطر، وتوجه وتملي، ثم لا يكون إلا رأيها.

ويقارع الخصم فيقف في وجهه ليقول كلمته، ويجهر بها غير هيأب ولا وجل فيقول: "يقول الاستعمار - وقوله الباطل -: لا حقٌّ للأمة الجزائرية في الحياة، وما قالها إلا بعد أن فعلها... جرّدها من سلاح الحماية، فلا قانون يحميها، ولا نيابة تنطق باسمها، ولا صحافة تدافع عنها، ولا حاكم منها يعطف عليها... فَمَنْ ذا الذي يحمي عرضها من الثلب، ويحمي مالها من السلب، ويحمي دينها من القلب، ويحمي جسمها من الضرب؟ لا شيء...! لا شيء، ولا بعض الشيء.

وقعت حوادث ٥ أغسطس - وهي مكيدة مُدبّرة - فلم تحرك فرنسا ساكناً، وتركت المكيدة تجري لغايتها.

ووقعت حوادث ٨ أيار المروعة، فأعلنت فرنسا ثقتها بالمُدبّرين لها، ورضاها عما يصنعون، واهتزت الدنيا لهولها وفضاعتها، ولم تهتز فرنسا إلا هزّة الإعجاب ببطولة الهاتكين للأعراض الطاهرة، الفاتكين للمهج البريئة، المُثخنين في شعب أعزل، ورويت الضواري الوالغة من دماء هذه الأمة، وشفيت الصدور المغيظة عليها من الغليل، وأفاق المظلومون من غمرة

(١) لقب تخلعه الحكومة الفرنسية على كبار الموظفين.

الذهول على جَمَى مُستباح، ودماء مطلولة، فرفعوا أصواتهم يطلبون من فرنسا إرسال لجنة برلمانية للتحقيق الذي لا يردُّ فائتاً، ولا يحيي مائتاً، ولكنهم كانوا ينادون صخرة صمّاء».

المعلّم المربّي:

وقد تمكن الإبراهيمي بعبقريته الفذة أن يفهم المشكلات الجزائرية فهماً عميقاً، وكانت آراؤه في مجلس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين محل تقدير زملائه، حتى أن الأستاذ الإمام ابن باديس كان ينزل عند رأيه، ويرى في الرجل أنه أهل ليكون ربان سفينة الفكر الإسلامي في البلاد.

تنظيم التعليم العربي والإسلامي:

واستطاع بعد الحرب العالمية الثانية وخروجه من المعتقل، وارتحال باديس إلى الرفيق الأعلى ١٦/٤/١٩٤٠م، أن يلم شتات أعضاء الجمعية الإسلامية وأنصارها، لتسير قدماً في تنظيم التعليم العربي والإسلامي، وجمع حوله طائفة من جنود الإسلام، ليكون بهم معاقل تحفظ للجزائر المسلمة شخصيتها، وتدفع غائلة العدو المتكالب، وكان كل همّه أن يجعل من هؤلاء الجنود المثل الأعلى للمسلم الصحيح، اسمعوه يخاطبهم:

«أنتم جنود العلم، وكلمة «جندي» معنى يبعث الرّوعة، ويوحي بالاحترام، ويجلب الشرف، ويعلي القيمة، لأنه في غاية معناه حارس مجد، وحافظ أمانة، وقيم أمة، لذلك كان من واجبات الجندي الصبر على المكاره والّزبات^(١)، والثبات في الشدائد والأزمات، والسمع والطاعة فيما يغمض على الأذهان فهمه من العلل، ويعسر على العقول هضمه من الحكم، فإذا استرسل الجندي في الجزع والشكوى، أو خان الصبر فلاذ بالضّجر، خان النصر، وضاع الثغر، وإنما أنتم حراس دروب، ومرابطة ثغور، فاصبروا

(١) اللّزبة: السنة الشديدة. والجمع لزبات كأن القحط لَزَبَ، أي: ثبت فيها. كما في «معجم مقاييس اللغة». وفي «تاج العروس»: لزبات بالتسكين على أنها صفة، وبالتحريك على أنها اسم.

واثبتوا، وقد كفيناكم سَدَادَ الرأي، فهاتوا سَدَادَةَ الإرادة وسَدَادَ العمل.

وأنتم ممثلو جمعية العلماء في ناحية من أهم أعمالها، وهي التربية والتعليم، فكلُّ واحد منكم صورة مصغرة من الجمعية في نظر الأمة، وجمعية العلماء هي رمز الدين الصحيح، وهي حارس الفضيلة الإسلامية، وهي المثال المفسر للحكمة المحمدية بأحسن تفسيراتها، وهي المثل المضروب في مقاومة الباطل والمُبْطِلين، وهي مظهر القدوة الدينية اعتقاداً وعملاً، فهي لذلك كله - ملء سمع الأمة وبصرها، وهي الأريج المتصوِّع بسمعة الجزائر في العالم الإسلامي، فكونوا في مظهركم ومخبركم - أمثلة صحيحة منها، واعلموا أنَّ كل زلة منكم - وإن صغرت - محسوبة على جمعية العلماء منسوبة إليها.

أنتم حُرَّاس هذا الجيل الجديد، والمُؤْتَمِنون عليه، والقَوَّامون على بنائه، وأنتم بُنَاة عقوله ونفوسه، فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة، وابنوا نفوسه على هِزَّة^(١) من الفضائل الإنسانية، وأشربوه عرفان قيمتها، فإن مَنْ لم يعرف قيمة الثمين أضاعه، وقد غبنت هذه القيم في عصركم، فكان ما ترون من فوضى واختلاط.

رَبُّوهم على ما ينفعهم وينفع الوطن بهم، فهم أمانة الوطن عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم.

رَبُّوهم على التحابب في الخير، والتآخي في الحق، والتعاون على الإحسان، والصبر إلا على الضَّيْم، والإقدام إلا على الشر، والإيثار إلا بالشرف، والتسامح إلا بالكرامة.

امزجوا لهم العلم بالحياة، والحياة بالعلم، يأتي التركيب بعجبية، ولا تعمروا لهم أوقاتهم كلها بالقواعد، فإن العكوف على القواعد، هو الذي صيّر علماءنا مثل «القواعد»، وإنما القواعد أساس، وإذا أنفقت الأعمار في القواعد فمتى يتم البناء؟

(١) هزرت فلاناً للخير فاهتز، وأخذته له هِزَّة - أي: أريحته وخففة ..

ربوهم على أن يعيشوا بالروح في ذلك الجو المشرق بالإسلام وآدابه وتاريخه ورجاله، ذلك الجو الذي يستوي ماضيه ومستقبله في أنهما طرفا حق لا يشوبه الباطل، وحاشيتنا جديد لا يبليه الزمن، وعلى أن يعيشوا بالبدن في هذا الزمن الذي يدين بالقسوة، ويدل بالبأس، وعلى أن يلبسوا لبوس عصرهم الذي يبني الحياة على قاعدتين: «إن لم تكن آكلاً كنت مأكولاً»، و«كن عبداً للشيطان قوياً، ولا تكن عبداً لله ضعيفاً»^(١).

الناصح الصادق:

كان الإبراهيمي - رضي الله عنه - يقول كلمة الحق، ولا يخشى لومة لائم، يرفع عقيرته منذاً بالأخطاء، ويرفض الحلول المرتجلة، والمصالحات الكاذبة، فإذا حل بالإسلام والعرب خطب، قال كلمته، وكم رفض من دعوات للمهادنة، وكم صفع وجوه أولئك الذين باعوا ضمائرهم لقاء دراهم معدودة.. إنه يذكر واجب الصفوة المختارة، في مقال تحت عنوان: «أرحام تتعاطف»^(٢): طالما نعيننا على المسلمين خصوصاً والشرقيين عموماً، هذا التقاطع الذي شئت شملهم، وفرق جامعهم، وصيرهم لقمة سائغة للمستعمرين، وطالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل والتراحم والتقارب الكامنة في دينهم، وأقمنا لهم الأدلة، وضربنا لهم الأمثال، وسقنا المثالات، وجللنا العبر، وكانت نذر الشر تتوالى، فيتمازؤن بها، وصيحات الضحايا منهم تتعالى فيصمون عنها، والزمن سائر، والفلك دائر، وهم في غفلة ساهون.

منبع الشفاء ومبعث البلاء:

... وحذرناهم من هذه الأفاحيص الضيقة، والوطنيات المحدودة التي هي منبع شقائهم ومبعث بلائهم، وبيننا لهم أنها دسيمة استعمارية، زئنها لهم سماسرة الغرب وعلماءؤه وأدلاؤه، وغايتهم منها التفريق، ثم التمزيق، ثم

(١) البصائر، العدد (١٣٣)، ١١ محرم ١٣٧٠هـ.

(٢) البصائر، العدد (١٤٤)، ١٨ جمادى الثانية ١٣٧٠هـ.

القضم، ثم الهضم، وأن الاستعمار - بهذه الدسيسة وأشباهاها - يفسد فطرة الله فيهم، وينقض دين الله عندهم، ففطرة الله تلهم نصرة الأخ لأخيه، وحماية الجار لجاره، ودين الله يوجب حقوق الأخوة، ويدعو إلى إثارة الجار والإحسان إليه، وهو بهذا يُعمم التناصر، ويقيم في الأرض شرعة التعاون، فما من جار إلا له جار، والناس كلهم متجاورون جوار الدار للدار، القرية للقرية، فجوار المدينة للمدينة، فجوار الوطن للوطن، فإذا أخذوا بهذه الشرعية، وأقاموا حدودها عم التناصر والتعاون، وسدت المنافذ على المغيرين وعلى المفسدين في الأرض، ولكن الاستعمار - بهذه الدسيسة - بدّل شرعة الله بشرعة الشيطان، فهو يقول لك: اقصر اهتمامك على دارك، ولا تلتفت إلى دار جارك، ويوسوس للجار بمثل ذلك، حتى إذا أطمعاه خرب الدارين واستعبد الجارين.

أسلحة لا نحسن استعمالها:

إننا - على ضعفنا - ما زلنا نملك أسلحة لو أحسنا استعمالها مجتمعين، لأرهبنا صهيون وتيرون معاً، ولكن طالع الاستعمار ما زال بغفلتنا وتخاذلنا منتقلاً بين (سعد السعود) وبين (سعد بلع)، ولو عاملنا بغير هذه المعاملة لكان منزله (الدبران)، ولو أن المسلمين والشرقيين عموماً لقوا خصومهم في كل معترك سياسي بمثل هذا الإجماع في الرأي، والتواطؤ على الغضب لهتموا أنيابهم الحداد، وقلموا أظافرهم الجاسية، ولكنهم لانوا لخصمهم أولاً، فقسا عليهم أخيراً، وعودوه أن لا يلقوه جميعاً، فعودهم أن يلتهمهم جميعاً.

أينقم منا الاستعمار أن نتناصر بالكلام، وهو سلاح المغلوب؟ ونتعاون بالأقلام وهي بقية المتاع المسلوب؟ وتتعاطف منا الأرحام، وذلك أيسر مطلوب؟ إن صَحَّ ذلك منا فلا رضي ولا حظي، ولا زال غضبان حرداً.

إننا لا نلومه، إذا لمنا السباع الضارية على الافتراس، وإنما نلوم

أنفسنا أن لا نكون شوكة في لهواته، ونغصاً في شهواته، وسواداً في لونه،
وفساداً في كونه، وضياعاً في صوته، وخذلاناً في عونه.
ولو كنا ذلك لأنصفناه وانتصفنا لأنفسنا منه».

كذب فرنسا على التاريخ وتزويرها للأحداث:

ولما قامت فرنسا في وجه رجال جمعية العلماء، وسدت في وجوههم
المساجد لتمنعهم من الاتصال بالشعب، كوَّنت الجمعية نواديها ومساجدها
الحرّة، والتفّ الشعب حولها يناصرها، ويغضب معها لدينه. ثم حاولت
فرنسا بعد أن استفحل الخطب وأصبح الحديث يشغل بال الصحف الأجنبية
التي تسرّبت إليها أنباء الجدل - رغم رقابة السلطة الاستعمارية - قامت فرنسا
ودفعت مأجوريها للكذب على التاريخ، وتزوير الأحداث.

ودخلت المسألة في طور جديد جعل فرنسا تعمل في مختبراتها
(طبخت كيميائية) إلا أن الإبراهيمي كان يفهم نفسية السلطة، ويدرك
أغراضها، فرفع قلمه ليذكرها بالأرقام والأحداث المسجّلة، ويرد كيدها في
نحرها، وكان مما كتبه في هذا الصدد، قوله:

«احتلت فرنسا هذا الوطن بالقوة، وبينها وبينه بحر فاصل، وبينها وبينه
دينان متخالفان، وجنسان متضادّان، ولسانان متباينان، وبينهما - مع ذلك
كله - أخلاق متنافرة، واجتماعيات متغايرة، بل بينهما شرق وغرب بكل ما
بين الشرق والغرب من فروق، وإذا تباينت المقومات بين جنسين كل هذا
التباين، كان تسلّط أحدهما على الآخر غير مضمون الاستمرار، فإن استمر
فغير مضمون الاستقرار، لأنه يعتمد دائماً على القوة المادية وحدها، والقوة
المادية ليست سلاح كل وقت.

سُبُل المُتسلّطين لدوام السلطة:

سُبُل المُتسلّطين لدوام السلطة أحد أمرين: إما الإحسان الذي يملك
النفوس، والعدل الذي يحفظ الحقوق، والتساهل الذي يستهوي الأفتدة،
والرحمة التي تأسر العواطف.

وإما المحق لمقومات المغلوب الروحية والمادية مغافصة^(١) أو تدريجاً، وتحطيم عناصر المقاومة فيها جهرة أو اغتيالاً، فأَي السبيلين سلكت فرنسا في الجزائر؟

إنها آثرت الأمر الأخير من أول يوم، ووضعت له الأصول، ورتبت الوسائل، وآثرت من أنواعه التدريج المغطى بالكيد والاحتلال. وبدأت من المقومات بالدين، لأنها تعرف أثره في النفوس والإرادات، وتقدر ما فيه من قوة التحصن من الانحلال، وقوة المقاومة للمعاني الطارئة، فوضعت نصب عينيها، ومدّت يدها إليه بالتنقص، فالتهمت أوقافه المحبوسة على مصالحه، لتجرّده من القوة المادية التي هي قوامه، وتلصق برجاله الحاجة إليها، فتخضعهم لما تريده منهم، فتُصيرهم أدوات تأتمر بأمرها لا بأمر الدين، وتخضع لسلطانها لا لسلطان الدين، وما زالت بهم تُروّضهم على المهانة، وتسوسهم بالرغبة والرغبة، حتى نسوا الله ونسوا أنفسهم، ونسوا الفوارق بين رجل الدين الذي يدين بطاعة الله، وبين موظف الحكومة الذي يدين بطاعة الحكومة، وأصبحوا في العهد الأخير كالأسلاك الكهربائية المفرغة من الشحنة... ليس فيها سلب ولا إيجاب.

غاب عن فرنسا - وهي تحوّل هذا التدبير - ما يغيب عن كلّ مستكبر جبار، وهو درس القابليات في الأشياء، ولو درست لهداها الدرس إلى الحقيقة، وهي أنّ الإسلام والعروبة سَيان ليست فيهما قابلية الذوبان والانمحاء، لأن فيهما من أثر يد الله ما يعصمهما من ذلك.

والعقلية الغالبة في أيام احتلال الجزائر، هي الغالبة في أيام نضج المبادئ الجمهورية، وهي المُسيطرة عليه في هذه الأيام التي نسخ العلم فيها كل عهد، وفسخ الزمن بأحداثه كل عقد، وأصبحت فيه الحرية أنشودة كل لاغ، ونشيدة كل باغ، والتمس ما شئت مجالاً آخر لتطور هذه العقلية، فأما الإسلام... وأما في الجزائر... فلا... ومكلف هؤلاء القوم ضد

(١) أي: مفاجأة على غرة.

طباعهم، متطلب في الماء جذوة نار، كما يقول التهامي الشاعر، لذلك بقيت قضية فصل الإسلام عن حكومة الجزائر منظورة بالعين الاستعمارية، وموزونة بالميزان الصليبي، ومفهومة بالعقل المتحجر.

الإبراهيمي الأديب:

أما الإبراهيمي الأديب، فهو آية من آيات البيان العربي، جزالة الأسلوب، وعمق المعاني، حتى كان قراء كتاباته يعجبون من إحاطته بالأدب العربي ومعرفته للبيان العربي معرفةً مميّزة بين معاصريه. فكان القارئ لكتاباته يتصور وأنه عاد بالمخيلة إلى عهد الأدب العربي في أزهى عصوره.

شعره وسجعه:

وإنك إذا قرأت شعره، لا سيما أراجيزه، تبهر لبلاغة التعبير، وحلاوة التصوير.

أما السجع فكان فارسه، ومن يقرأ ما كتبه في سجع الكهان الذي كان صورة صادقة للسجع العربي في دولة البلاغة والبيان. يعجب لاطلاع الإبراهيمي، وفهمه لدقائق اللغة وحفظه الكثير للمترادفات، وإدراكه لأسرار الجناس والتورية.

هذه صورة خاطفة، أسجلها تذكيراً بالرجل في يوم ذكراه.

رَحِمَ الله الإبراهيمي، ورزق الإسلام والعروبة فحولاً من طرازه يحفظون التراث ويعملون على التجديد الذي يأمر به الدين. تجديد الروح، وتصفيتها مما يعلو بها من أتربة الزمن، وأوساخ التقليد الزائف.

وربك يحيي ويميت ويعيد.





للأستاذ محمد الطاهر فضلاء

الكلمة التي أُلقيت في حفل الذكرى الأولى للأستاذ الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بِناعة «ابن خلدون» عشية يوم السبت ٣٠ محرم ١٣٨٦هـ / ٢١ ماي ١٩٦٦م.

ما أعظمك وأجملك حياً وميتاً:

إنّ الأفوال العظيمة، كالأعمال العظيمة، لا تدرك معانيها الرائعة من مجرد ألفاظها البليغة البسيطة حين تتفتح عليها قرائح البلغاء والعباقرة، فتتفجر على ألسنتهم أو أقلامهم ينابيع من الحكمة وفُضْل الخطاب... وإنما الذي يَشْفُفُ هذه المعاني ويجلوها، هو التعمُّق والاستغراق في الأحاسيس التي كانت الدافع المباشر لكل قول يسمو إلى سماء الحكمة فيخلد، أو يبقى حيث هو في الأرض فتطغى عليه الحياة فتطمسه وتمحوه...

إنّ «الصديق» العظيم، قد اختصر المعنى العظيم الذي يختلج بين جنبه وتزاحم فيه الكلمات والجمال على لسانه يريد الإفصاح بها عما كان

(١) حضارة الإسلام، العدد السادس، السنة السابعة: (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م).

يدوي في أعماقه من شتى المشاعر والأحاساس فيقول: «ما أعظمك وأجملك حياً وميتاً».

وكذلك كانت أقوال «الفاروق» العظيم عظمة، عندما أخذ بالفاجعة، أخذاً حوّل صرامته إلى ثورة أذهلته عن نفسه، وأنسته مظاهر الاتزان، فراح يهدّد ويتوعدّد، وينذر كل من يرى رأيه في وفاة النبي ﷺ.

أثر فقد العلامة الإبراهيمي:

أما أنا، وحين أعلن إليّ الخطب في همس:

- إنّ الشيخ قد قضى، إنّ الإمام قد ختم.

أحسست كأنّ كارثة دوّت في أرجاء الغرفة الصغيرة، وزلزلت لها الأرض ومادت، واكفهر الجو وتلبّد، وكأنّ قتامة تعلن للعالم هذا الحدث المهور.

يا للكارثة... يا لكارثة المسلمين في إمامهم وقائدهم، ويا لنكبة العرب في لسانهم وبيانهم، ويا لفاجعة الجزائر في بطلها المغوار، وفي سيفها البتار، ورائدها وحاديها في قافلة الأبرار والأحرار.

ذهلت وأخذت، لا كما أخذ عمر. فعمر أعلى مقاماً، وأعدل رأياً حتى في ثورته على نفسه، التي أنسته نفسه العظيمة، فراح ينظر إلى الفتوح التي لم تتم، وإلى النصر الموعود الذي لم يكتمل، وإلى مَجْد الإسلام الذي لم تُرس أوتاده بعد. فثار ثورة عظيم، وزمجر زمجرة عزيز... أما أنا فقد ذهلت وأخذت لا لأن البطل رحل، والمصاب في فقدته قد حلّ، ولكنني أخذت في نفسي إشفاقاً على نفسي...

ثم وجدتني أجّر رجلي جراً، وأخرج من الغرفة على غير وعي، وتقودني خطواتي المتعثّرة إلى الطريق العام، فإذا بي أقف متهاكاً أكاد أهوي، وإذا بي أنسى مَنْ حولي وأنسى الفاجعة، وأذهل عن كل ما يحيط بي...

لقد عشت هذه اللحظة من الزمن، وكأنني عشت فيها دهرأ كاملاً، حيث بدأ فجر النهضة بالجزائر في صيف سنة ١٩٣٣م.

في صحف النهضة:

كنت طفلاً صغيراً - فطمت بالكتاب وبالقلم - وقرأت منذ ذلك الحين صحيفة صغيرة لم آلف بعد قراءة مثلها، وقرأت في هذه الصحيفة كلاماً سهلاً بسيطاً، ولكنني شعرت وكأنه يشدني إليه شداً عنيفاً، ويملاً نفسي بإحساس غريب، ويغمرنني بإشعاع من العظمة والعزة والزهو... وكيف لا. وقد كان هذا الكلام بالنسبة إليّ بداية التحول الغريب الذي سلكني في سلسلة ذرع حلقاتها الملاحقة: هذه السنون، الخمس والثلاثون...

كان مما قرأته في هذه الصحيفة، وخلتني وأنا أقرأه وأعيد قراءته، كأني أشدُّ إليه شداً عنيفاً، وما كنت أعلم أن ذلك الإحساس، إنما هو وجدان وإرهاص، وما كان هذا الكلام ليشد نفسي إليه آنذاك، لو لم يكن فيه من السر العظيم الشيء الكثير... كان مما قرأته:

«وإننا نبتهل إلى الله، أن يقيض «لها» في كلِّ دور من أدوارها، رجالاً مخلصين حكماء، يستلمونها بيضاء نقية، ويسلمونها لمن بعدهم أشد ما تكون بياضاً، وأشد ما تكون نقاء، ويتلقونها وهي أمانة وعهد، فيؤدونها لمن بعدهم وهي أمانة وعهد...».

محمد البشير الإبراهيمي

جريدة الشريعة ١٣٥٢هـ/١٩٣٢م

طالب وأستاذ:

وَكَلِّفْتُ بِالْعِظْمَةِ وشغفت بها منذ ذلك الحين، ثم سرحت في أرجائها وساحها، وتتبع الشوارد في آفاقها، والروابض في آجامها...

وأعترف بجذ لا هزال فيه، أنني كلما خلتني بلغت الحد من هذا الخضم، إلا وترامت أمامي آفاق أخرى أوسع رحاباً وأبعد غوراً، تبعثني عن الغاية، وتنذرني بطول المدى في سلسلة من المراحل متعددة الحلقات، متصل بعضها ببعض.

كنت طالباً بالجامع الأخضر، همّي فيه تصيّد هذه الشوارد. وكنت في هذا شديد التبرّم بجفاف القواعد، بقدر ما أنا شديد التمسك بحضور حلقاتها.

ووالله ما كنت أطلب في هذه الحلقات - مجرد التعرف على نصوص القواعد وشواهدا - ولكنني أريد الوقوف على أسرار هذه العظمة، التي كانت تشدنا شداً قوياً إلى ذلك الرجل العظيم الذي يجلس فيه على كرسيّ الدرس، يملّي درسه كما يملّي إرادته، ويسلك الأفهام والعقول في سلك المعلومات العلمية، كما يسلك الأبطال في عداد الكتائب المجنّدة...

وأتساءل آنذاك: ما هو هذا السر؟ وما هي الأسباب التي تقودنا إليه؟

أما السر، فهو الذي ستكشف عنه الأيام. وأما الأسباب، فقد تتأتى أحياناً بالصدف، ولكنها نتيجة المواظبة والبحث ما في ذلك شك، ولعل من الصدف هنا هذه الحقيقة الواقعة:

الشيخان الإبراهيمي وابن باديس:

في كل مساء يوم أربعاء من كل أسبوع، يتهامس الطلاب في قسنطينة: - ذهب الشيخ، ركب القطار إلى تلمسان...

واهتمام الطلبة بذهاب الشيخ، وركوبه القطار إلى تلمسان، معناه في البداية التخلص من بعض القيود التي فرضها الشيخ على كل طالب، أما أنا فقد تساءلت: لماذا يذهب الشيخ أسبوعياً إلى تلمسان؟

ويأتي الجواب بعد البحث والمواظبة: إن الشيخ «ابن باديس» يذهب إلى تلمسان، لإعداد العدة، وإحكام الخطة، مع رجل عظيم، وحيد في عظمته، فذ في جيله وعصره، حكيم في إخوانه وزملائه... والشيخ يعلم كل السر في عظمة هذا الرجل، ويعلم مع هذا أنه لا يمكنه الاستفادة منه للإفادة به إلا بهذا السفر الدائم المرهق، نحو هذا الرجل العظيم في تلمسان: محمد البشير الإبراهيمي.

سر.. وحلم:

ومنذ ذلك الحين، وأنا أبحث جاداً عن سرّ هذه العظمة في هذا الرجل العظيم. ويميّناً ما عرفت سرّ هذه العظمة حقّ معرفتها من هذا الرجل العظيم الذي عرفته حقّ المعرفة إلا بعد مرور ربع قرن من الزمن من صيف سنة ١٩٣٧م، إلى يوم ١٩ ماي ١٩٦٥م.

ففي هذا اليوم فقط أدركت السرّ العظيم والمعنى العظيم في قول الصديق للنبي ﷺ وهو مُسَجَّى في فراشه: «ما أعظمك وأجملك حياً وميتاً».

وفي هذا اليوم فقط، أدركت السرّ العظيم من عظمة هذا الرجل العظيم محمد البشير لإبراهيمي، وهو مُسَجَّى في أرضية الغرفة الضيقة، التي وسعت الناس المجتمعين..

لقد رأيت ورأى الناس في هذا اليوم، كيف كان الرجل عظيماً في موته كما كان عظيماً في حياته:

- شموخ، في أنفة، في عزّة، في سمو، في استعلاء...

كلّ هذا رأيته وراه الناس، ولكن الذي رأيته ولم يره غالب الناس، وسمعته ولم يسمعه الناس، هو ما عادت بي الذاكرة وبه، إلى ذلك الماضي البعيد... وهو الذي بقي سرا لم أكشف عنه منذ ذلك اليوم، ولم أكشف بعد أحداً حتى اليوم.

من عالم الغيب:

لقد رأيت هذا الرجل العظيم، يعلو وجهه المشرق جلال الموت، وتنطلق أسارير وجهه الشموخ استعلاء واستكباراً عن المادة وأوضاعها، تعتبر أصدق تعبير، بما يعجز لسان الحي عن الإفصاح به.

لقد توقف لسانه عن الكلام حقاً، وأطبقت شفّاته بختم عليه، ولكنه بالرغم من هذا، كان يقول وأنا أسمع:

إنني ما زلت رائدكم ولن أزال. وكل ما حدث بيني وبينكم، هو أنني قد انتقلت من حالٍ إلى حال، وإذا كان وجودي بينكم قد أزعج من الناس قصار النظر، وأقزام التفكير وتجار القيم، وإذا كان وجودي في حياتكم قد أوغر صدور الموتورين والحناقين، وأقض مضاجع الأنانيين والمغرورين، وأزق نوم وراحة المترددين والمتخاذلين، فإن وجودي هذا بينكم قد انتهى اليوم.

ولكن الذي لم ينته، ولن ينتهي في أجيال، هو أساس مبدأ الأمانة، التي هي عهدٌ من الله لأنبيائه، وعهدٌ من الله لأصفياه، وعهدٌ من الله لخلقه أجمعين. يستلمه خَلَفٌ عن سلف، ويرثه وارث عن مورث إلى أن يرث الله الجميع...

ثَقُلْ الأمانة:

إن الأمانة اليوم في أعناقكم ثقيلة، وبين أيديكم عهد وذمة، وقد عشنا بينكم رؤاد طلائع، لم ننم عن حقٍّ من حقوق الإسلام، ولغة الإسلام، وبلاد الإسلام، ولم نفرط في قلامة ظفر منها... فكونوا اليوم كما كان أسلافكم، فقديمًا قيل فيكم: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها... لقد كانت حياتي فيكم، حافزة للتفاؤل والأمل والعمل، فلا تجعلوا من موتي مدعاةً للتشاؤم والتخاذل والكسل...

إن زمنكم وعصركم - وإن كان على ما يبدو من الطلاقة والبشر، تعلوه أعلام النصر والفوز، وتكأل هامته أكاليل الغار، هو عصر مقطب الجبين، جهم التقاطيع، لا يصفو كدره ولا يعذب مذاقه، إلا إذا عرفتم كيف تديرون شؤونكم بأنفسكم، وكيف تصنعون من عدمكم وجودكم وبأيديكم.

تغريب الأمة:

لقد تضافرت وتواطأت في عصركم هذا جهود الأجنبي الحاقد الحائق على (تغريب) أمتكم بعد أن عجز عن تخريبها. فكونوا عينا يقظة، وحافظوا على «عينها» قبل أن يعجمها المعجمون، فيكون في إعجامها مسخ لكم، ومسوخ لأمتكم.

إنَّ هذا الأجنبي الحاقِد الحائق يريد لأمتكم أن تكون:

«هيكلاً لا تترباط أجزاءه، ولا تتماسك أعضاؤه، يوجّه وجهه إلى الغرب، ويمكن في أفكاره لأهواء الغرب، وفي لسانه رطانات الغرب... وهو يريد أن يقتلع جذور هذه الأمة من تربة، ويغرسها في تربة، فتأتي مضعوفة هزيلة، لا من هذه ولا من هذه»^(١).

وإنَّ هذا الأجنبي الحاقِد الحائق، يريد تعطيل لغتكم بينكم، بعدما عجز عن ترحيلها من بلادكم:

«إنَّ العربية هي لسان العروبة، الناطق بأمجادها، الناشر لمفاخرها وحكمها، فكلُّ مدّع للعروبة، فشاهده لسانه، وكلُّ مُعْتَرٍ بالعروبة فهو ذليل إلا أن تمده هذه المّضغة اللينة بالنصر والتأييد. فلينظر أدعياء العروبة الذين لا يديرون ألسنتهم على بيانها، ولا يديرون أفكارهم على حكمتها، في أية منزلة يضعون أنفسهم»^(٢).

وإنَّ هذا الأجنبي الحاقِد الحائق، يسخر الآن منكم بأساليبه الملتوية، فكونوا حيث تضعكم هذه الأمانة من اليقظة.

«إن منكم من يحتقر لغة الأمة، فلا يقيم لها وزناً، وفيكم من يحتقر دينها فلا يقرأ له حساباً، وفيكم من يحتقر بناتها فلا يتزوج منهن، وفيكم من يأنف من خؤولتها لأبنائه فيختار لهم أخوالاً غرباء... وإن بعض ذلك لقدح محسوس في أمتكم الحاضرة، وأن بعضه لسّم مدسوس في أعراق أمتكم المقبلة»^(٣).

وإنَّ هذا الأجنبي الحاقِد الحائق، يتذرّع اليوم لغاياته بشئى الذرائع، ليسري في أمتكم مَسْرَى الشيطان والسرطان، فقفوا منه موقف الحارس اليقظ، الذي «لا يُحاور ولا يفاوض»، وسدّوا في وجهه كلَّ مَنفذ منه إليكم

(١) من مقال الأستاذ الإبراهيمي العدد (١٢) من جريدة البصائر ١٩٤٧م.

(٢) من مقال الأستاذ الإبراهيمي العدد (٢) من جريدة البصائر ١٩٤٧م.

(٣) من مقال الأستاذ الإبراهيمي العدد (٤) من جريدة البصائر ١٩٤٧م.

والى مقومات وطنكم. إن الصراع اليوم بينكم وبينه شديد، وهو يكشف عن شرسته أولاً في هذا الجيل الصاعد من الشباب:

«إن شباب الأمة، هو الدم الجديد في حياتها، فمن الواجب أن يُصان هذا الدم عن أخلاط الفساد، ومن الواجب أن يتمثل فيهم: الطهر والفضيلة والخير، ومن الواجب أن تربى ألسنتهم على الصدق وقول الحق، لا على البذاء وعورات الكلام»^(١).

فاحفظوا لهذا الشباب مسالكه ومساربه، وحصنوا بالعلم والإيمان حياته بينكم، ومستقبله في أبنائكم وأحفادكم.

وإن هذا الأجنبي الحاقد الحانق، ليتأمر اليوم على أمتكم ليطمس معالمها، ويُسوّه مآثرها ومفاخرها، ليتمكن من جعلها مستعمرة جديدة لأفكاره وأخلاقه، بعد أن عجز عن تأييد استعمارها بجيوشه ومعداته. فقفوا كلكم في وجهه موقف المرباط في الثغر والمجاهد في الميدان، فلا تهنوا ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين...

بطل وشعب...

وخلتني أفقتُ من ذهولي واستغراقي في هذا البيان الذي يشدني إليه شداً عنيفاً، ويعنف هذه المرة ولا يرحم فيمزج الشد بالإيلام، وأفقت على همسة، لعلي سمعتها قبل من أخ كريم.

لكي لا يضطر الشعب في الآفاق إلى تجشّم مشاق السفر إلى الجنازة، ولكي لا يكون في الجنازة ذلك المظهر الذي نحن الآن أحوج ما نكون إلى تفاديه، يجب أن يدفن الشيخ ظهر الغد...

عجباً... أيقضي الشيخ حياته كلها في خدمة هذا الشعب، يبني له

(١) من مقال الأستاذ الإبراهيمي من حضارة الإسلام العدد (٤) من جريدة البصائر

المفاخر والمكارم، ويشيد له الآثار والمعالم حتى إذا تحرر من عبادة الأوثان، وحطم بإيمانه معقل الطغيان، وأخذ بكلتا يديه صولجان الحكم والسيادة تنكر للباني وما بنى، وللمشيد وما أعلی؟

ألا يكفي لإيثاره لشعبه ونكرانه لذاته، هذا الدليل القائم، من هذا الجحر الذي تضيق غرفه الثلاث بأعشاش العصافير والخطاطيف، لتسع هذا البحر الذي غمرت أنعامه وأفضاله الكثير من الناس.

ثم يقضي هذا البحر فيها كل ما تبقي من شيخوخته ومرضه، في وقت ينعم الناس فيه بالقصور ومقاصيرها، وبالزهور وريحانها، وبالشمس ودفئها، وبالهواء ومكيناته؟ ألا يكفي كل هذا في الضغط على هذا الإمام البحر الذي سعت إليه الدنيا فارور عنها، واكتفى منها بلقمة العيش في تقشف وزهد، حتى قضى محروماً مضيقاً عليه، وذهب إلى ربّه بسجل كل حسناته فيه مفاخر لهذا الشعب...؟ ألا يكفي كل هذا، وتريدون اليوم أن تحولوا بينه وبين الشعب حتى في توديعه لمقرّه الأخير؟

موت العظماء وخلود ذكركم:

وعدت مرة أخرى إلى الدهول والاستغراق، ووالله ما كنت ذاهلاً ولا مأخوذاً، ولكنني عشت في دوامة من المشاعر والأحاسيس، تجرّدت فيها من المحدود إلى اللامحدود، وتحزرت في هذه المادة من كل القيود. ووجدتني أسمع الشيخ مرة أخرى، وهو يقول:

«يموت العظماء، فلا يندثر منهم إلا العنصر الترابي الذي يرجع إلى أصله، وتبقى معانيهم الحية في الأرض: قوة تحرّك، ورابطة تجمع، ونوراً يهدي، وعطراً ينعش. وهذا هو معنى العظمة، وهذا هو كون العظمة خلوداً. فإن كل ما يخلف العظماء من ميراث، هو أعمال يحتذيها من بعدهم، وأفكار يهتدون بها في الحياة، وآثار مشهودة ينتفعون بها وأمجاد يعتزون بها ويفخرون...»

العظمة الحقّة:

والعظمة الحقّة عظمة الخير والجمال والمنفعة، مُستمدّة عناصرها الأولى من يتابع النبوة التي هي مثال لتصفية النفس: من كثافة المادة وكدورة الأثرة، فهي متصلة بالله، شعر البشر بذلك أم لم يشعروا، واعترفوا بالإلهية أو جحدوا. فكلُّ عظيم أفاد وهدى ونفع وأسعد، فهو سائر على قدم النبوة... أو هو حوارِي، لَمَسَتْ روحه شرارة من قَبَس النبوة... ومن وزن العظمة بهذا الميزان زاد عن حياضها أبالسة الشر من عظماء القوة والطغيان، الذين ظلموا العظمة، فافترضوها ثم فرضوها، وعظماء العصبِيَّات الجنسيّة المحدودة ندين صاقوا عن العظمة فضاقت بهم، فكل هؤلاء يشيل بهم ميزان الخير الدقيق. وإن رجح بهم ميزان الخبز والدقيق^(١).

... عظيم في حياته وعظيم في موته:

أجل! هذه هي العظمة في تعريفها الدقيق، وعظمة الشيخ الإبراهيمي ليست من ذلك النوع الممتنع المقرض، الذي تجهضه الظروف والأيام، أو تلمع به الدعايات والدعاوي، فتلك عظمة تلمع سريعاً وتخبو سريعاً مثلها مثل البرق الخلب.

أما عظمة الشيخ الإبراهيمي، فدوحة تكشّفت عن معدن، وتجلّت عن أصالة، وتعرّفت إلى الدنيا من على قمم العقيدة، ومن ميادين الجهاد المقدس...

إذن فلتمت الأشباح ما كتب عليها الموت، ولتتبخّر هذه المادة الأرضية في عالم الفناء فلن يضير الشيخ البشير الإبراهيمي هذا الموت، ولن يضره إن مات في هذا المكان أو ذاك، ولن يضره كذلك أن تشيع جنازته في مركب حافل أو خامل. فالشيخ البشير الإبراهيمي عاش حياته رائداً ومجاهداً، مقامه في القمم الشمّاء، وروحه في علياء السماء...

(١) من مقال الأستاذ الإبراهيمي العدد (١٥١) من جريدة البصائر ١٩٥١م.

ولكنّ الشعب العربي المسلم في الجزائر فنّد كل زعم في تشييع جنازة الشيخ البشير الإبراهيمي، وتحذّى كل المتأمّرين والأنانيين، وهو يدفع برجاله ونسائه وأطفاله لتشييع جنازته. فكان الشيخ الإبراهيمي عظيماً في موته كما كان عظيماً في حياته، لأنّ عظمته سائرة على قدم النبوة، مستنيرة في سيرها بأقباس النبوة، وهو المعنى الذي أشار إليه شاعرنا الكبير الأستاذ محمد العيد، في قوله على جثمان الشيخ الفقيد:

عشت فوق الثرى عظيماً فأحرى بك أن تسكن السماء عظيماً

١٩ ماي و ١٩ جوان:

لقد مات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يوم ١٩ ماي ١٩٦٥م، ونعاه العالم العربي والإسلامي، وخصصت أجهزة الإعلام جزءاً كبيراً من برامجها لنقل الكلمات البيّنات من بيانه وحكمه، وأقيمت حفلات للتأبين، أشادت بمناقب ومكارم هذا الرجل العظيم...

مطالب لتجديد ذكرى الإبراهيمي:

أما بعد: فلكي تكون هذه الذكرى الأولى لإمامنا الشيخ الإبراهيمي ذات معنى من معاني عظمة خلوده، نضع بين أيدي الواعين من رجال ثقافتنا الوطنية، هذه المطالب التي تتجاوب مع مناهجنا ومبادئنا، وتنبع من واقعنا ومقوماتنا:

١ - إن ما خلفه الشيخ البشير الإبراهيمي من التراث الأدبي الخالد في شتى المواضيع، إنما هو أمانة بين أيدينا، وعلينا واجب المحافظة عليه، ونقله إلى الأجيال من أبنائنا وأحفادنا.

٢ - ولكي يكون هذا النقل ذا فعالية في التكوين والتقييم معاً، يجب أن تشكل لجنة أو لجان يكون من مهمتها اختيار النماذج الحية، من كل ما كتبه الشيخ الإبراهيمي، ثم طبع كل موضوع على جِدة، مع ما يتطلبه من الشرح والتوضيح في كتيبات صغيرة، تخرج إخراجاً فنياً، وتكون في متناول الجميع.

٣ - العمل على ترجمة هذا التراث الخالد إلى اللغات الأجنبية، تعريفاً بهذه العبقريّة الفذة التي أنبتتها تربة وطننا.

٤ - العمل على اختيار وطبع نماذج من هذا التراث الأدبي، لدراسته في المستويين العالي، والثانوي.

٥ - تقرير جائزة سنوية للثقافة القومية تسمّى: جائزة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

وتمنح هذه الجائزة بالتساوي للمتفوقين من طلبتنا في التعليم العالي والمراحل النهائية من التعليم الثانوي، ثم للأساتذة والمعلمين الذين يظهرون نشاطاً ملحوظاً في ميادين التربية والتعليم.
وختاماً:

أدعو الله تعالى بسا دعاه به الشيخ محمد البشير الإبراهيمي منذ سنة وثلاثين عاماً، وقرأته وأنا طفل منذ ستة وثلاثين عاماً:

«إننا نبتهل إلى الله العليّ القدير، أن يقيض - لهذه الأمانة - في كل دور من أدوار - هذه الأمة، رجالاً مخلصين حكماء، يستلمونها بيضاء نقية ويسلمونها لمن بعدهم أشد ما تكون بياضاً، وأشد ما تكون نقاء، ويتلقونها وهي أمانة وعهد، فيؤدونها وهي أمانة وعهد».

وسلام على إمامنا الإبراهيمي في العلماء الخالدين، وسلام عليه مع إخوانه الأبرار في مقامهم الأعلى على سُرُرٍ متقابلين، وسلام عليه يوم يبعث أمة في الأبطال المجاهدين.



الاستاذ الربيعي محمد خير الجلود^(١)

(١٣٣١ - ١٣٨٥ هـ)

(١٩١٢ - ١٩٦٥ م)

بقلم الدكتور: محمد أديب الصالح



فصلى الله ان يحمل إلينا النعي نبأ
وفاة الأستاذ محمد خير الجلود في الوقت
الذي كنا ننتظر منه أن يكتب في ذكرى
وفاة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي
رحمهما الله.

ولقد علمنا إيماننا أن نرضى
بالقضاء، وأن نحمد الذي خلق الموت
والحياة على كل حال، فله الحمد
سبحانه على ما أخذ، وله الحمد على ما
أعطى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإذا كان الناس يُوزنون عند الله
بمقدار ما عملوا من الخير وقدموا من

(١) حضارة الإسلام، العددان (٣ و ٤)، السنة السادسة: (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).

المكرّمات، فإن الأستاذ محمد خير الجلاّد رحمه الله تعالى وغفر له غير حياته - فيما نعلم - مدرّساً للتربية الدنيّة في ثانويات دمشق، فمنذ ربع قرن تقريباً تولى تدريس هذه المادة، وكان فيها مثال المدرّس الواعي لمادّته، الفاهم لرسالته، المدرك للأهداف التي من أجلها كانت المعرفة.

وأشهد كما يشهد أكثر من عرفوه أنه أسهم في بناء جيل مؤمن يتمتع بحرقة صادقة على دين أمته وتاريخها ولغتها، ويتطلع إلى المستقبل بعزم وإيمان.

الأستاذ المُربّي الناجح:

ولعلّ لهناؤه نفس الفقيد، وما كان يزيّنه من إيمان صادق وسعة صدر، وأسلوب فطري أخاذ في التربية أثراً جعل منه ذلك الأستاذ المُربّي الناجح، الذي كان له من طلابه وإخوانه أكبر قدر من المحبة والاحترام.

ومن الخير أن نقرر أن الأستاذ الجلاّد لم يقتصر على التدريس في المدارس، بل كانت له حلقات من التوجيه والتعليم، ولقاءات يجتمع خلالها إلى العديد من الشباب الذين تهفو نفوسهم إلى الخير والمعرفة والحق فيزودهم بالكثير من تجاربه الغنيّة، وتوجيهاته الصادقة.

تواضعه وكراهته للظهور:

وكان هؤلاء وأولئك يرون في تواضعه وكراهيته للظهور ونفرته من بهرج العناوين والأضواء، مثلاً يحتذى وقدوة تتبع.

ولقد عرفت الأستاذ الجلاّد في سنة ١٩٤٤م، حين كان ناظراً في الكلية الشرعيّة (الثانوية الشرعيّة اليوم) وكنت إذ ذاك طالباً من طلاب السنة الرابعة فيها، ولقد ترك في نفسي أثراً طيبة أرجو أن أذكرها ما حييت.

ولست أنسى أبداً آخر لقاء معه حين غمّر الجالسين بفكاهته ودعابته على ما كان يعاني من آثار مرض أقعده الفراش مدة طويلة من الزمن.

ولقد دعوته حينذاك أن يكتب لقراء «حضارة الإسلام» عن الفقيد

الأستاذ مصطفى السباعي، ووافق مستعيناً بالله عز وجل، وشرط أن نذكره
لئلا ينسى... نعم لقد كان ذلك... وسارت الأيام وأردت أن أذكر أبا هشام
بالمقال، وإذا بالقدر يقول كلمته، فتفيض نفس إلى بارئها، وتنطفئ شعلة
طالما أضاءت الطريق.

وبدلاً من أن يكتب محمد خير الجلال عن السباعي أراني والأسى
يملاً نفسي، أكتب هذه الكلمات الوجيزة المتواضعة عن الأخ الأكبر
الغالي...

فلله الحمد أولاً وآخراً. وإنا لله وإنا إليه راجعون، سنة الله ولن تجد
لسنة الله تبديلاً.



الأستاذ الجلال في سطور

هو محمد خير بن عبدالقادر عزت الجلال، ولد عام ١٩١٢م.

منح شهادة الأزهر العالية مع الإجازة في القضاء الشرعي في ٦ شعبان
سنة ١٣٦٣هـ، الموافق ٢٦ يولييه ١٩٤٤م.

منح شهادة الأزهر شهادة الأهلية للغرباء بتاريخ ٢٠ ذي الحجة سنة
١٣٥٦ هجرية، ومنح الشهادة العالية لكلية الشريعة في جامع الأزهر في
المحرم ١٣٦٢ هجرية، الموافق يناير سنة ١٩٤٣م.

بدأ حياته في التدريس سنة ١٩٤٤م، في الكلية الشرعية.

ساهم بتأسيس المعهد العربي الإسلامي، والتدريس فيه كما ساهم في
مدارس تعليم الأميين التي أقامتها جمعية الشبان المسلمين في دمشق.

كان يقوم بجولات خلال العطل الصيفية للوعظ والإرشاد في قرى
لبنان واللاذقية، وكان عضواً مؤسساً في أول جمعية تعاونية لبناء المساكن،
تأسست في سورية عام ١٩٤٩م، وقد بقي رئيسها لهذا العام أي آخر
حياته.

دمعة في ذكرى الأخ صالح زركان

فقيه كلية الشريعة^(١)

(١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م)

كلمة مجلة «الحضارة»

في الشهر الماضي أقامت كلية الشريعة في جامعة دمشق حفل تأبين إحياء لذكرى وفاة فقيدها المعيد الموفد الأستاذ محمد صالح زركان الذي قضى - رحمه الله - وهو يحضر الدكتوراة في العقيدة والفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وذلك بعد أن نال درجة الماجستير بدرجة امتياز في موضوع الإمام «فخر الدين الرازي» رحمه الله تعالى.

وقد تكلم في الحفل الأستاذ محمد المبارك، والدكتور وهبة الزحيلي، والدكتور محمد أديب الصالح، والأستاذ خالد الرفاعي، كما ألقى قصيدة باسم الأستاذ عبد المنعم الرحبي، وتكلم عن أسرة الفقيه شقيقه الأستاذ محمد علي زركان.

ونكتفي الآن بتقديم كلمة الأستاذ محمد المبارك رئيس قسم العقيدة، وكلمة الأستاذ الرفاعي، وقصيدة الأستاذ عبد المنعم الرحبي، المنشورة كل منهما في مكان آخر من هذا العدد، أملين أن تتاح لنا الفرصة لنشر بقية ما كان من كلمات، سائلين المولى عز وجل أن يتغمد أخانا الغالي فقيه العلم والمعرفة بوابل رضوانه ومغفرته، وأن يهنيئ للإسلام شباباً يحملون رسالته عن دراية وفهم وإخلاص، والله الأمر من قبل ومن بعد، وله الحمد على كل حال.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة السادسة: (١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م).

كلمة الأستاذ محمد مبارك

بذرة صالحة طيبة:

رحمك الله يا صالح، لقد كنت ثمرة من هذه الثمار التي أنضجتها هذه الكلية، بذرة صالحة طيبة سقتها الكلية بماء العلم وغذتها بلباب الشريعة، فلما أينعت وحن قطافها قضت حكمة الله ألا يكون القاطفون لها من أهل هذه الدنيا.

لقد كان صالح زركان - رحمه الله - من هؤلاء الطلاب النابهين النابغين الذين ساروا في هذه الكلية سنة فسنة في جد لا يعترية غرور، وفي فهم لا يصحبه تبجح، وفي هدوء وصمت حتى كان أساتذته الذين يدرسونهم جنبات هذه الثقافة المتنوعة الألوان والمتعددة الآفاق التي تمتاز بها كلية الشريعة بجامعة دمشق.

لا أزال أذكر جلساته مستمعاً في غرفة الدرس، ووقوفه معنا لمناقشة مسألة أو البحث في موضوع، لا أزال أذكره وكأنه الساعة أمامي. كان في نظراته أدب واستحياء، وفي نبراته اعتداد وثقة.

إيفاده للدراسات العليا في دار العلوم بالقاهرة:

لقد اختارته كلية الشريعة، وكان الأول بين المتخرجين في عام تخرجه لتوفده للدراسات العليا لتحصيل درجة الدكتوراه في العقيدة والفلسفة الإسلامية.

وقضى في كلية دار العلوم في القاهرة أربع سنين دائباً يواصل الليل والنهار في بحث موضوع اختاره ليكون موضوع رسالة الماجستير، وهو الإمام الفخر الرازي وآثاره، ذلك الإمام الكبير صاحب التفسير والمؤلفات العظيمة في علم الكلام والفلسفة الإسلامية.

وكان الأستاذ المشرف على عمله هو أحد كبار الأساتذة المشتغلين بهذه البحوث، وهو الدكتور محمود قاسم رئيس قسم الفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم.

صلاحه وصبره على طلب العلم:

أخبرني رفاقه الذين صاحبوه في القاهرة أنهم رأوا منه عجباً، فقد رافقوه في الدراسة بدمشق، ولكنهم لم يعرفوه حق المعرفة، وإذا به يتكشف لهم في القاهرة على حقيقته؛ شاب صالح لا يعرف اللهو - على ما في القاهرة من أسبابه وألوانه - سبيلاً إلى حياته، قوي في إيمانه، متعبد لربه، لا يشغله عن عبادته شاغل، ولا يصرفه صارف، منكب على عمله العلمي الذي أوفد من أجله انكباً لا يُبارى فيه حتى كان موضع التقدير والاحترام من أساتذته، وكان البحث الذي اختاره لنفسه واختاره له المشرفون على بحثه شاقاً عسيراً، ذلك أنه يتصل بالفلسفة اتصالاً وثيقاً، ويتصل بالعقيدة الإسلامية كذلك اتصالاً عميقاً، فكان لا بد من أن يكون بحثه مرضياً مقنعاً لباحثي الفلسفة، وأن يكون كذلك بالنسبة للمشتغلين بعلم الكلام والعقيدة الإسلامية.

دراسة نفيسة عن الإمام الرازي وآرائه الكلامية والفلسفية:

وقد لقي في طريقه هذا مصاعب كثيرة أجهد نفسه في تذليلها، وتحمل في سبيل النهوض بعبء البحث مشاق شديدة أتعبت فكره، وأنهكت جسمه حتى طلع علينا بعد أربع سنوات بدراسة فريدة لم يسبقه إليها أحد من الباحثين، فقد استطاع - كما اعترف له أساتذته الذين ناقشوا رسالته - أن يقف موقف الناقد لأبحاث عدد من كبار المؤلفين في هذا الموضوع من المشتغلين بهذه المباحث في هذا العصر، وأن يخرج (أول كتاب متجانس عن حياة الرازي وآرائه الكلامية والفلسفية على أساس علمي سليم)، فقد جلا هذه الشخصية الإسلامية العظيمة، وقدم لنا في دراسته صورة جامعة واضحة المعالم عن إمام من أئمة أهل السنة، ومفكر عظيم من مفكري

الإسلام الذين جمعوا بين الفلسفة والكلام وبين التفكير العقلي العميق والإيمان الديني المُستقى من نصوص الكتاب والسنة.

الجيل الجديد الذي يحمل رسالة الإسلام:

لقد قرأت هذا الكتاب العظيم الذي ألفه السيد صالح زركان رحمه الله، فوجدته كتاباً يستفيد منه العلماء والاختصاصيون، وجدت فيه ثمرة من ثمار هؤلاء الشبان (الصالحين) الذين تسعى أساتذة كلية الشريعة لتخريبهم لا على أساس أن يكونوا مقلّدين تابعين أو نسخاً ثانية لأساتذتهم، بل ليكونوا فاتحين لآفاق جديدة، وليكملوا عمل أساتذتهم، ويسيروا خطوات أخرى إلى الأمام، وليكونوا الجيل الجديد الذي يحمل رسالة الإسلام متحررة من الخرافة ومن السطحية ومن التدجيل والانتهازية، منزّهة عن أغراض الدنيا، يبتغون بها وجه الله ونفع عباده، ويعمل على بعث الإسلام من جديد على أسس فكرية سليمة وبدوافع إيمانية خالصة.

وهكذا كان صالح رحمه الله فقد انطوى على علم لا يخالطه كبر، وعلى تقوى لا يخالطها ادعاء، وعلى دين يصاحبه عقل، وعلى ورع لا يُدلّ به على الناس، يُعرف بالمعاملة ولا يبدو في المظاهر.

يا صالح...

لقد كانت آخر نظرة نظرتها إليك يوم خرجت من المستشفى الذي دخلته إثر عودتك من القاهرة لعملية جراحية فكنت منهك القوى، ساهمَ النظرة، وكأنك تستقبل الآخرة بوجهك، وتودّع الدنيا. سلّمت عليك، وسلّمت عليّ بوداعتك المألوفة، ورصانتك المعهودة، وتفارقنا على أن نلتقي بعد أن تستعيد بعض قوتك، ولكن قضى الله أن يكون ذلك آخر لقائنا في الدنيا، فعسى الله أن يجمعنا في مستقرّ رحمته، وفي ظلّ اللواء الأكبر لواء إمام النبيين وسيد الخلق أجمعين صلوات الله عليه وسلامه، وأن يحشرنا مع الناجين في ذلك اليوم الرهيب، ويحتسب عملنا خالصاً في سبيله، ويغفر لنا ذنوبنا، ويكفّر عنا سيئاتنا.

رحمك الله يا صالح رحمة واسعة، وأثابك على ما تركت لنا من أثر
أجزل الثواب، وكَتَبَكَ مع المجاهدين في سبيل إعزاز دينه ونشر رسالته،
وعوّض كلية الشريعة التي فقدت بفقدك عضداً كبيراً كانت ترقبه وتنتظره يشد
أزرها، مَنْ يَخلفك من مُتخَرِّجِها ليسهم بحمل رسالتها.

وعوّض أهلك - طاب منبتهم - الذين فقدوا فيك غرساً نما وأزهر
واستحصد خيراً كثيراً، وجعلك الله لهم في الآخرة ذخراً، وفي الدنيا ذكراً،
وهياً لله للإسلام والمسلمين من الجيل الجديد أمثالاً لك يحملون هذه
الرسالة، ويسيرونها في طريق الهدى على فقه من دينهم وبصيرة من ربهم.

تغمّدك الله بوابل من رحمته وغفرانه ورضوانه.





للأستاذ، خالد الرفاعي



ذكرى الفضيلة والرجولة والوعي:

ما كنت أظنني أقف في هذا المكان
مثل هذا الموقف لأشترك في إحياء ذكرى
الأخ الحبيب الأستاذ محمد صالح الزركان،
وأشيد بمآثره، وهو الذي كنت أرجو منه
أن يُحيي لنا ذكرى الفضيلة التي خف
إشراقها، والرجولة التي مات فرسانها،
والوعي الذي ولى وترك وراءه قطيعاً من
البشر تانهين.

كنت أرجو منه أن يُحيي لنا ذكرى أبطال العلم والتجديد في الإسلام،
ذكرى البصري، والغزالي، وابن تيمية، وابن الجوزي، والأشعري،
والماتريدي، وذكرى فقيه الجهاد أستاذ السباعي، عليهم رحمة الله
ورضوانه.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة السادسة: (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م).

كنت آمل فيه أن يرفع راية محمد ناصعة الإشراق لا تطاولها أيدي العابثين، ولا ترنو إليها بسفه أعين المخذوعين.

وكان رحمه الله جديراً بمثل هذه المكرمات لأنني عرفت فيه ما لم يعرفه غيري، فلقد قضيتُ معه ستة عشر عاماً كان فيها سميري في السمر، وأخي في الله، وصاحبي في مقعد الدرس.

(صالح) الإنسان الذي نبحت عنه:

عرفت فيه الإنسان الكامل، والمؤمن الثائر، والعالم المخلص، عرفت فيه دواء هذه الأمة المفقود، حيث عزّ الدواء، ورجلها المجاهد حيث نذر المجاهدون، وإنسانها الشاعر، حيث جمّدت المادية قلوب الناس.

عرفت فيه ذلك الإنسان الذي كان يفتش عنه (ديوجين)، والذي حدثنا عنه الإمام جلال الدين الرومي بقوله:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى	له في كل ناحية مجال
يقول مللت أنعاماً وبُهِمًا	وإنساناً أريد فلا أنال
فقلت لقد طلبت بذا محالاً	فقال ومُنِيتي ذاك المحال

نعم أيها الأخوة: لقد رأيتُ في صالح الإنسان الذي كنا نبحت عنه، ولكننا لم نكد نراه حتى فقدناه، فقدناه شاباً طرئ العود لم يزهر، محترق الفؤاد، ولما يسعرها حرباً شعواء على الضلال والانحراف، مجاهداً رفع السيف بعزم المؤمنين، وعالماً حَمَلَ العلم وأقدم، ولكنه قضى قبل أن يخوض الغمار.



الشيخ يونس عبد الغني^(١)

(١٣٢١ - ١٤٨٦هـ)

للأستاذ عبدالله محمود الطنطاوي

وُلِدَ الشيخ الثَّقِيُّ الورع
العالم العامل أبو عبدالله يونس
عبد الغني المارعي في قرية
مارع، من أعمال حلب - في
حدود عام ١٣٢١هـ، وتوفي
فيها ليلة الجمعة في السابع
والعشرين من شعبان عام
١٣٨٦هـ، ولقد تحلَّى بشمائل
نادرة، قلَّ من اتَّصف بها من
مشيخة اليوم، ولعلَّ الحديث
يطول بنا كثيراً إذا نحن
استعرضناها إجمالاً، فكيف



بالتفصيل؟ ولكن.. لا بدُّ لنا - في هذه العجالة - من بلال صاِدٍ وعلالة
هيمن..

(١) حضارة الإسلام، العددان الأول والثاني، السنة الثامنة: (١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م).

ملامح شخصيته المميزة:

لقد كانت شخصية الشيخ تقوم على عنصر الإيمان الذي تفرّعت عنه كبرياء وجرأة في الحق، وحساسية لم يكن الناس ليعهدوها في غير قلة قليلة من ناس دنيانا.

جرأته وصدعه بالحق:

ولعل أول ما يخطر على البال، تلك الجرأة الجريئة التي تعيد إلى الأذهان ذكريات حبيبة عن السلف الصالح، وما كانوا عليه من صدع بالحق، وثبات على المبدأ، رفع من قيمتهم في الحياة الدنيا، ونالوا به حُسن ثواب الآخرة، فلقد كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في كل مقام، لا تهّمه شخصية من يأمره وينهاه، سواء لديه الحاكم والمحكوم، سري القوم وضعيفهم، كل ذلك في حكمة الشيخ، ورؤية الفاهم لكتاب الله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، و﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولا يزال الناس يتندرون بطرائف تنم عن رجولة فذة، وإيمان عميق، من مثل أخذه بتلابيب شرطي اعتدى على "مُسَحَّر" ضعيف، ومن خمل هراوته في وجه فئة ضالة حاولت إشاعة البغي والفساد والإلحاد في قريته، ومن صيحاته في وجوه مشايخ عزاز الذين كانوا يحلّلون الحرام لقاء ليرات يملؤون بها فراغ جيوبهم، يبتزونها من أبناء الريف الذين يأتونهم مُستفتين.

شغفه الشديد بالعلم:

ولقد كان له شغف بالعلم شديد، حتى صار المرجع في الفقه الشافعي في الريف الشمالي من حلب، ولا بدع في هذا، فقد كان سليل أُمّاجد من أمثال العلماء العاملين الأتقياء: الشيخ عيسى البيانوني، والشيخ محمد عقيل، والشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ أبو النصر خَلَف الحمصي، والشيخ

شهيد - رحمهم الله جميعاً - تلقى العلم على أيديهم في مدارس حلب الشرعية (الخشروية والشعبانية والدليواتية والعثمانية).

ولقد كان الشيخ باراً بأساتذته يكثر من ذكرهم، ويرجع إليهم كل فضل فيما وهبه الله من علم، يُردّد ما طبعوه على قلبه من شعار: "اطلب العلم من المهد إلى اللحد"، ولذا كنت تراه مكباً على العلم، دائماً على تحصيل ما ينفعه في دينه، ويقربه من ربه، ليجلس بعد ذلك إلى بنيه الذين نشأهم تنشئة إسلامية خالصة، وإلى زوّاره الكثر، مُقْتَفِي فضله وعلمه، ليفقّهم في دينهم، ويناقشهم في بعض المشكلات الحياتية التي تعترض طريقهم... غير أن اهتمامه الأكبر كان منصباً على الشبان، يثقفهم الثقافة الإسلامية الصحيحة. لا يألو جهداً في حل كل مشكل يُشكل عليهم، ولربما ناقشه بعضهم فصيّر على نقاشه، وكأنه ندّ له يضارعه علماً.

ولقد كان للفتنة الشافعي والنحو والقرآن الكريم خاصة نصيبٌ وأمرٌ من حياته، يُوصي بحُسن ترتيله وحفظه والعمل به.

وفي مرض وفاته كان يكثر من تلاوته، ويطلب من عُوّاده أن يقرؤوه عليه، ولربما تعمد الغلط بعضهم ليرى مدى انتباه الشيخ ووعيه، فيشير إليه بيده - وهو لا يستطيع الكلام لأنه يعاني من سكرات الموت - أن صحّح غلطك.

سعيه الحثيث في سبيل نشر الإسلام وتطبيق أحكامه:

أما عن سعيه الحثيث في سبيل نشر الإسلام، وتطبيق أحكامه، وتبشير الناس بعودته حاكماً، فحدّث ولا حرج، فقد كان يطوف القرى مبشراً ومنذراً، لم تقعه عاهة في رجله كانت خريّة أن تُحدّ من حركته، ولا رهبة من دجاجلة العصر، ممّن يتصدرون المجالس، يزعمون أنهم رجال الدين وحماته، فإذا ما رأوا من يدعو إلى الدين الذي يأكلون الخبز بوساطته، تجهّموا له وعبسوا وبسروا، وسلقوه بالسنة حداد...

عزته الإيمانية:

لم يلق عصا التطواف إلا في مرضه الأخير، ولقد كان تعودته عن ذلك ندوب أية ندوب في قلبه العامر بالإيمان، وفي قلوب الذين عرفوه فعرفوا فيه عزّة المؤمن وكبرياءه على الفسقة والمارقين، وتواضعه الجم للمؤمنين.. عرفوا فيه نمطاً جديداً بين أنماط أزرى بهم سنوكهم الذي أرداهم في حمأة آسنة.. عرفوا فيه عزوفه الأبني عن مؤانيد ذوي الجاه والسلطان والثراء، يؤثر عليهم مجالسة الشباب المثقف المحتشم إلى الله، لأنه لم يكن محباً للشهرة، ولا ساعياً لها سعيها، فغل الكثرة الكاثرة من شيوخ اليوم، ولو على حساب دينهم.. ولو على حساب كرامتهم.. كان من أولئك الرجال حقاً - لا أشباههم - الذين قال فيهم الشاعر:

رجالٌ دعاةٌ لا يفِلّ عزيمتهم تهكّم جبار ولا كئيد مكر

إسهامه في بناء المساجد:

ولئن كنا لا نستطيع إيفاء الرجل حقه في مجال الدعوة إلى الله، إلا أنه لا يليق بنا أن نغفل إسهامه في بناء المساجد في كل مكان حلّ فيه، ولقد دعي قبيل الوفاة بتسعة أيام للمساهمة في بناء مسجد صغير يقام في طرف بعيد من أطراف قريته الكبيرة، وليحث الناس على البذل، فخرج إلى مكان البناء متحاملاً على عصاه، وأسهم بمئة ليرة - جهد المقل - زبدت فيما بعد إلى مئتين، ثم حث الناس على البذل، بدأ بنفسه ثم دعا غيره، لأنه لم يكن من ذلك الصنف الذي قال فيه الشاعر:

لا يبذلون لأجل الخير خردلة إلا إذا قيل قبل الدفع: قد دفعوا!

ولأنه كان كثيراً ما يخأر بالشكوى إلى الله من البخل الذي سيطر على نفوس الناس: إلهي لماذا خلقت العقول بعصرٍ تفكر فيه الجيوب؟!...

ثم رغب الشيخ في صلاة ركعتين قبل أن يتم البناء، صلاهما في المحراب، وكأنه كان يخشى ألا يطول به أجله فيفوت على نفسه الأجر (إلا

أنها من تقوى القلوب) وعندما همَّ بالعودة إلى بيته، طلبت له سيارة، فأبى وقال قولة الصديق: «أفلا أغبر قدمي في سبيل الله؟».

ضمير القرية:

كما كان الشيخ إلى جانب هذا وذاك، بمنزلة الضمير من قريته، إذا حَزَبَهُمْ أمر عَجِلُوا إليه، ليتترس له، وليستخدم ثقة الناس في فضْ المنازعات في ريفنا - وما أكثرها وما أقبحها - . . .

كان بيته مثابة للناس، يأتونه ليجدوا الطعام الشهي، والزاد الفكري، والنادرة الحلوة، والبديهة المعجبة، والدمائة المُحِبَّة، والمرح الوقور، والمواعظ المنداة بالدموع، ولعل الكثيرين لا يزالون يحفظون ترديده لقول ابن عامر عبدالله بن الزبير: «إِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَبْنِ شَيْئاً قَطُّ إِلَّا رَجَعَتْ عَلَى مَا بَنَتْ فَهَدَمَتْهُ، وَإِنَّ الدِّينَ لَمْ يَبْنِ شَيْئاً قَطُّ وَهَدَمَهُ». وقوله: «كونوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجد بيوتاً، وأكثروا من التفكير والبكاء، تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتؤملون ما لا تدركون»، ولوصيته لبنيه عندما حضرته الوفاة، فجمعهم وأوصاهم بتقوى الله ولزوم طاعته، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

سبب تعلق الناس به:

وإذا سألت عن سبب تعلق الناس به؟ أجابوك: هذا من الرجال الصالحين، لم يأكل دنياه بدينه، كان يعطي ولا يأخذ، يكسب من عمل يده، ولم يُلَوِّث جيبه بقرش يأخذه من الدولة أو ما يسمونه (الأوقاف) يعمل لوجه الله، لا يبغى من جراء ذلك أجراً من إنسان قط، لا يبيع علمه الذي أباحه للناس جميعاً كما أباح طعامه وشرابه. إن أصرَّ إنسان على دفع أجرة لِفُتْيَا نَالَهَا منه، وجَّه بالأجرة إلى عمل مبرور، دون أن يقبض عليها. . .

الحزن على وفاته:

لقد كان لوفاة الفقيد رنة حزن حزين في حلب وضواحيها التي احتسبته
عند الله، ولقد بكاه كل من عرفه أو سمع عنه، وقد أزعج وفاته الشاعر
الشيخ صالح أحمد الحلبي بقوله:

وَقَيْتَ عَهْدَكَ بِالْعُلُومِ مُحَدَّثاً	عَنْ أَحْمَدٍ وَبِمُقْتَضَى الْآيَاتِ
وَسَلَكْتَ فِي سُبُلِ الشَّرِيعَةِ دَاعِياً	لِلَّهِ تَضَخُّبُ أَخْلَصِ النِّيَّاتِ
خَسَدَ النُّجُومُ ثَرَاكَ حِينَ نَزَلَتْهُ	وَكَاثُوكَ الْمَصْبَاحُ فِي الْمَشْكَاةِ
لَكَ مَنْزِلٌ فِي الْخُلْدِ تَارِيخاً زَهَا	رَقِياً وَزَمْسُكَ مَهِيْطُ الرِّحْمَاتِ

رَجِمَ اللهُ الْفَقِيدَ، وَأَلْهَمَ ذَوِيهِ وَمُحِبِّيهِ وَتِلَامِيذَهُ الْكُثْرَ الصَّبْرَ وَالسَّلَاطَةَ.
وَعَوَّضَ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْراً، وَأَضْحَبَهُ أَحْبَابُهُ الشَّهَدَاءَ الَّذِينَ هُمْ:

نَجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا انْقَضَ كَوْكَبٌ بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ



الشيخ محمد نجيب خياطة^(١)

(١٣٢١ - ١٣٨٧هـ)

(١٩٠٥ - ١٩٦٧م)



بقلم ابنه: محمد ابو اليمن خياطة

وفاء للعلم وحق أهل العناية بكتاب الله عز وجل نقدّم فيما يلي نبذة عن حياة المرحوم فقيه العلماء والقراء فضيلة الأستاذ الفرضي شيخ القراء محمد نجيب خياطة، بقلم نجله الأستاذ محمد أبو اليمن خياطة.

اسمه ومولده:

في حيٍّ من أحياء حلب الشعبية، حي الجلود الصغرى. وفي يوم من أيام سنة ١٣٢١ هجرية، وسنة ١٩٠٥ ميلادية، ولد الطفل محمد نجيب بن محمد بن عمر خياطة، الذي أصبح علماً من أعلام الشهباء المباركة.

وقد ولد لأب قاسى من مرارة الحرمان والشظف الشيء الكثير، حيث عاش يتيماً وتربى في بيت أخواله الذين لم يستطيعوا أن يعوّضوه عن عطف الأب وحنانه رغم ما بذلوه من جهد في تربيته، وكان هذا الوالد مُحِباً للعلم

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة الثامنة: (١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م).

والعلماء، يحضر مجالسهم، ويستمع إلى دروسهم رغم أنه كان يعمل بناءً، مما أورث أولاده حب العلم والسير في ركابه.

وهكذا نشأ هذا الطفل في هذه البيئة المحبة للعلم والعلماء، فورث هذه المحبة وهو لمّا يزل طفلاً، بل إنّ هذه المحبة سرّت في نفسه كما تسري الروح في الجسد، وكان لها أكبر الأثر على حياته فيما بعد.

وما إن ترعرع هذا الطفل حتى دفعه والده إلى الكتاب - على عادة ذلك العصر - حيث تعلم قراءة القرآن الكريم وبعض المبادئ الأولية في الحساب والإملاء. وغير ذلك مما كان يعلمه الكتاب في ذلك الوقت، ثم حفظ القرآن غيباً.

طلبه للعلم وأساتذته:

ما إن أصبح الفتيد يافعاً حتى شعر بالمسؤولية تجاه البيت والأسرة التي يعيش بين أفرادها، فراح يعمل. وقد تنقل في أعمال عديدة حيث عمل نجاراً، ثم عطاراً عند أخواله.

ولكن حب العلم والعلماء المغروس في نفسه كان يدفعه إلى الارتشاف من منهله العذب، فكان لا يدع مجلساً من مجالسه إلا ويحضرها ولا يدع علماً من الأعلام إلا ويأخذ عنه، ثم تفرغ لطلبه، وكان من جملة الأساتذة الذين أخذ عنهم العلم علماء العصر وأفذاه:

- الأستاذ الكبير الشيخ إبراهيم السلقيني شيخ المدرسة الخسروية.
- الأستاذ الشيخ أحمد المكتبي شيخ المدرسة الدليواتية الجابرية.
- الأستاذ الفقيه المحقق الشيخ أحمد بن محمد الزرقا شيخ المدرسة الشعبانية.

- الأستاذ العالم الشيخ علي العالم الكيالي شيخ المدرسة الأحمدية.
- الأستاذ الشيخ بشير الغزي شيخ المدرسة العثمانية.
- والأساتذة العلماء: محمد الحنيفي، سعيد الإدلبي، أحمد الشماع، محمد الناشد، أحمد الكردي مفتي حلب.

ثم أخذ علم الفرائض، وتخصّص فيه وبرع حتى أصبح المرحع الوحيد له في حلب، على الشيخ عبدالله المعطي^(١) فريد عصره في هذا العلم.

ولما انتظمت الدراسة الشرعية في حلب، وأصبحت المدرسة (الخسروية) مجمعا للعلم والعلماء وتدرّس العلوم الشرعية، انتسب إليها سنة ١٣٤١هـ، وتخرج فيها حاملا الإجازة العلمية المؤرخة في ١٧ محرم سنة ١٣٤٧هـ. وكان من جملة الأساتذة الذين أخذ عنهم فيها بالإضافة إلى من ذكرنا مؤرخ حلب المشهور العلامة «محمد راغب الطباخ» صاحب تاريخ حلب المشهور^(٢).

نشره للعلم:

ما إن نال المرحوم الإجازة العلمية من المدرسة الخسروية حتى تفرغ لنشر العلم بين الناس، فكان - بالإضافة إلى تدريسه مادتي الفرائض والقرآن وتجويده في الثانوية الشرعية (الخسروية) ومعهد العلوم الشرعية - يقوم بتدريس الفقه والتجويد والقرآن وغير ذلك من العلوم الدينية في دروس خاصة في مسجد أبي يحيى الكواكبي الكائن في محلة الجلوم، ثم مسجد الثانوية الشرعية في أكثر من وقت واحد، فيفيد بذلك الناس العلم وقراءة القرآن مبتغيا وجه الله جل جلاله وكثيرا ما كان يقول: «إننا خلقنا لكي ننشر العلم في صفوف الناس فوقتنا ملك لهم وليس لنا».

أخذه لعلم القراءات:

لم يكتف المرحوم بتعلّم العلم من فقه وحديث وغير ذلك، وكان يعلم أن القرآن هو أساس كل علم ديني ومرجعه، فمضى في دراسته للقرآن الكريم، وقضى في ذلك شطرا كبيرا من حياته.

(١) العالم الفقيه الفرضي الشيخ عبدالله بن محمد عبدالمعطي المولود سنة ١٢٦٦، والمتوفى سنة ١٣٥٣ رحمه الله تعالى.

(٢) ومنهم أيضاً: الشيخ محمد أسعد العبجي، والشيخ عيسى البيانوني.

وكان له من همّته الكبيرة دافعاً للتعليم. فلم يكتف بحفظ القرآن وحده، بل راح يدرس علم القراءات، فأخذ القراءات السبع من طريق (الشاطبية)، ثم القراءات المتممة للعشر من طريق (الذرة) على الأستاذ الأجل الشيخ «أحمد المصري الأبوتيجي الريدي» المدني مولداً^(١)، المكي إقامة ووفاة^(٢)، وقد أجاز به خطه في القراءات السبع من طريق (الشاطبية) وبتصديقه من طريق (الذرة) المكمل للقراءات العشر.

ثم في سنة ١٣٥٦هـ، رحل المرحوم إلى دمشق، ومنها إلى عربيل «قرية من قرى غوطة دمشق» قاصداً شيخ القراءة المتقن الأستاذ الشيخ عبدالقادر قويدر رحمه الله، فأخذ عنه القراءات العشر من طريق طيبة النشر، وأجاز به، ثم صادق على إجازة الشيخ عبدالقادر له الشيخ عبدالله المنجد رحمه الله وأجزل مثوبته.

إجازاته:

أجيز المرحوم إجازات كثيرة في الحديث وغيره:

فأجيز من قبل علامة حلب الشيخ: محمد راغب الطباخ في كتابه: «مختصر الأثبات الحلبية».

وأجيز من الرجل الربّاني والمجاهد الكبير الشيخ محمد زين العابدين ابن السيد أحمد البالساني^(٣) في ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧هـ، إجازة عامة. كما أجيز من السيد الشيخ علوي المالكي في كتابه: «فتح القريب المجيب».

(١) وُلد في قرية أبي تيج بمصر في شهر ذي الحجة سنة ١٢٨٥، كما في ترجمته في «الدليل المشير» ص ٣١ بتحقيقي.

(٢) توفي رحمه الله تعالى بمكة المكرمة بداره بمحلة (جواد) ليلة الأربعاء ثاني شهر محرم سنة ١٣٦٨، وُضِّلِي عليه بالمسجد الحرام، ودُفِن بالمعلاة تغمّده الله برحمته ورضوانه.

(٣) الأنطاكي ثم الحلبي المتوفى سنة ١٣٧٠هـ، وهو والد الشيخين الجليلين عبدالرحمن ومحمد أبو الخير رحمهم الله تعالى.

أخلاقه وحياته مع طلابه:

كان رحمه الله يتمتع بأخلاق عالية ونفس متواضعة جداً مع طلابه، فكان كثيراً ما يستمع إلى أسئلتهم ويجيبهم عليها بكل تواضع، ويحثهم على طلب العلم والاشتغال به، وكان يُضحّي بكل غالٍ ورخيص في سبيل إفادتهم، وحياته مع المكفوفين في مدرسة الحفاظ وبذله الجهد في تعليمهم أصدق مثال على ذلك.

كما كان يغلب عليه حسن الظن بالناس ويعتقد فيهم الخير والبركة، ولا يريد أن يُذكر أو يُنقد أحد أمامه بمكروه.

مؤلفاته:

له كثير من المؤلفات منها المطبوع، ومنها الذي ما زال مخطوطاً، ومن هذه المؤلفات:

١ - كشف الحجاب، شرح هداية المُرتاب منظومة للسخاوي في متشابهات القرآن الكريم، وفي ذيلها جواب عن سؤال مهم وهو: هل يلزم المسلم بحفظ القرآن الكريم؟ (طبع ونفذ).

٢ - الدرر الحسان في تجويد القرآن، وهو كتاب غزير العلم جامع في علم التجويد للمهم (طبع مراراً ونفذ).

٣ - خلاصة الجهود في تحرير المدود (طبع ونفذ).

٤ - كفاية المريد من أحكام التجويد (مطبوع).

٥ - الرياض الزهية شرح السراجية جمع من جداول المسائل والمناسخات مع تمرينات لم توجد في كتاب (مطبوع).

٦ - الروضة البهية في شرح الرحية (مطبوع).

٧ - تنبيه ذوي الأحلام لما في يوم الجمعة من الفضائل والأحكام (مطبوع).

- ٨ - سفينة النجاة في مُهمّات من الصلاة (طبع مراراً).
 - ٩ - مرشد الإسلام إلى حج بيت الله الحرام (مطبوع).
 - ١٠ - غنية القراء البررة في القراءات العشر من طريقي الشاطبية والدرّة (مخطوط).
 - ١١ - التبيين والبيان على بدائع البرهان - تحريرات طريق الشاطبية (مخطوط).
 - ١٢ - هداية القراء إلى الطيبة الغراء في القراءات العشر من طريق طيبة النشر (مخطوط).
 - ١٣ - المنحة الإلهية في الفوائد الشرعية (مخطوط).
 - ١٤ - التذكرة العلية في المواضيع المختلفة البهية (مخطوط).
- كما حقّق متني السراجية والرحبية ونشرهما.

وفاته:

توفي رحمه الله صبيحة يوم السبت في ٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٧هـ^(١)، فخر المسلمون بموته عالماً عاملاً، وعلماً من أعلام الإسلام.

تغمّد الله الفقيد برحمته، وعوّض الإسلام والمسلمين عن فقدّه خيراً.



(١) الموافق للتاسع من شهر أيلول عام ١٩٦٧.

الأستاذ مصطفى الأعسر رحمه الله^(١)

(١٣٥٠ - ١٣٨٨هـ)

(١٩٣٢ - ١٩٦٨م)

ولادته ونشأته ودراسته وتدريسه:

ولد في بانياس سنة ١٩٣٢م، ونشأ في أسرة مسلمة برعاية رجل مُحبٍّ للإسلام ذي عاطفة طيبة هو والد الفقيد.

نال الشهادة الثانوية في بلده، ثم انتقل إلى كلية الشريعة في جامعة دمشق، وهناك التقى بالداعية الكبير القائد الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى. وتعلم على يديه، وأحبّه وأخلص له، واقتفى أثره ونهج نهجه في الدعوة.

عُيّن مدرّساً للتربية الإسلامية في اللاذقية عام ١٩٥٩م، ثم نقل منها إلى بانياس بلده، وبقي فيها حتى وفاته، رحمه الله تعالى.

إخلاصه وجدّه:

ولقد اشتهر الفقيد بالإخلاص والجد في تدريسه، خدم مهنته، وقام بها خير قيام، وكان حريصاً على تربية تلاميذه التربية الإسلامية الصحيحة ليكونوا بحق عماد هذه الأمة وحماة الوطن.

(١) حضارة الإسلام، العدد العاشر، السنة التاسعة: (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م).

خطبه وجراته:

ظهرت عليه منذ صغره موهبة الخطابة، وقد مارسها في المساجد وغيرها يدعو إلى الله عز وجل، لتحقيق منهجه في الحياة.. وقد كانت خطبه حماسية صادقة اللهجة، تتميز بالصراحة، وذلك لتمييز صاحبها بالشجاعة والجرأة الأدبية وقول الحق مهما كانت النتائج.

وفاته وتشيعه:

وقد وافته منيته بسبب حادث سيارة على طريق حماة السلمية، إذ كان قد قام بزيارة لإخوان له ومحبين في بلدة السلمية، فنقل على أثرها إلى مستشفى سلمية، ثم حماة، ثم (المواساة) في دمشق، حيث كانت وفاته الساعة العاشرة إلا ربعا من صباح الأربعاء الواقع في ٢٧ جمادى الأولى ١٣٨٨هـ، الموافق لـ ١٧/٨/١٩٦٨م.

ولقد شيعه الكثير من إخوانه إلى بلدة بانياس، خرجوا معه من دمشق وغيرها من المدن السورية.. ووصلوا مع غياب الشمس إلى بلده، ليجدوا بانياس وما حولها قد خرجت لاستقباله والاشتراك في تشيعه، حملت جنازته، وطاف المشيعون شوارع البلدة، ثم واروه مقره الأخير، رحمه الله تعالى.

لقد شهدت بانياس يوم تشيعه من الجموع المحتشدة الحزينة الباكية على ولدها البار مصطفى الأعسر ما لم تشهد في يوم من أيامها السابقة.

أسرته:

ترك الفقيد وراءه أسرة مؤلفة من سبعة أولاد، وزوجة صابرة حامل بالثامن.

كان لها الزوج الصادق الوفي، والمرتبى الناصح، فقد رباهما على الإسلام، وعلى تحمّل الخطوب والكوارث، وقد كان حريصاً على تربية أولاده التربية الإسلامية الواعية، وانتقى لكل واحد منهم اسم قائد أو عظيم

من علماء المسلمين . وكان يدرّبهم على الخطابة وقول الحق . .
ترك وراءه أيضاً أبوين مفجوعين مكلومي الفؤاد لفقده ، فأثمه ليس لها
ولد ذكر سواه ، وأبوه رجل كبير صابر محتسب عند الله أجره في صبره على
فقد ولده .

ولقد ظهر منه من الصبر والتجلّد ما لا يظهر إلا من الرجال
العظماء . . ألهمهم الله جميعاً الصبر والسلوان .
وترك الفقيد وراءه جيلاً مسلماً في بلدته عمل على تربيته وإرشاده إلى
الطريق السوي . . طريق الإسلام العظيم . . الذي سار عليه الأنبياء
والمرسلون وقادة هذه الأمة المخلصون الصادقون .

صفاته وخصائصه:

لقد اشتهر - رحمه الله تعالى - بالصّلابة في العقيدة ووضوحها
ومتانتها ، والثبات على الحق والخبرة في قوله . . وحرصه على المسلمين
وكرامتهم وعزّتهم ، وشدة اهتمامه بمصالحهم ، وإرشادهم إلى إسلامهم الذي
منه عزّتهم ومجدهم ، وفي الابتعاد عنه والانحراف عنه هلاكهم وشقوتهم
وذلمهم واستعبادهم .

ولقد عُرف عنه إلى جانب هذا كله البر بالوالدين ، والمعاملة الحسنة
والوفاء للزوجة ، والرحمة والرأفة بالأولاد .

كان رحمه الله عماد أسرته ، وجيل بلده ، ورجلاً من رجال
الدعوة .

لقد عرفه الكثير ، وأحبوه واحترموا ، ولكنهم فقدوه حيث هم في أشدّ
الحاجة له . وفي الليلة الظلماء يفقد البدر .

رحم الله أبا نواب ، وجعله من الذين أنعم الله عليهم مع النبيّين
والصّديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . وألهم آله الصبر ،
وجعل في أولاده خير خلف له . . .

وإننا لا نملك إلا أن نقول : إنّ القلب ليحزن ، وإنّ العين لتدمع . .
ولكن لا نقول إلا ما يرضي الله . . وإنا لله وإليه راجعون .



الشيخ عبدالرحمن الزغبى الطيبي

رَحِمَهُ اللهُ

(١٣٢٠ - ١٣٨٩ هـ)

(١٩٠٢ - ١٩٦٩ م)

بقلم: محمد بهجت البيطار

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.



رحمك الله يا شيخ عبدالرحمن، يا ذا الخلق الكريم، والطبع القويم، والدُّرس المستديم، رحمك الله يا من جمعت بين العلم والعمل، وتقوى الله عز وجل في السر والعلن، وكنت القدوة الصالحة لأبنائك وتلاميذك وإخوانك.

أيها الإخوة الكرام:

التربية الدينية عماد الفضائل، والمعلمون هم خلفاء الرسل عليهم

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة العاشرة: (١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م)، وجاء في مقدمة الترجمة: نص الكلمة التي ألهاها الأستاذ الشيخ محمد بهجت البيطار عضو مجمع اللغة العربية بدمشق في تأبين أستاذنا الشيخ عبدالرحمن الزغبى رحمه الله...

الصلاة والسلام في تعليمهم وأخلاقهم: «كاد المعلم أن يكون رسولاً» إذ هم القدوة الصالحة التي ينشدها الطلاب والمدارس، والمثل العليا تستملى من صفاتهم وأعمالهم، لا من الكتب التي يُدرسونها فحسب، إذ بهم يُقتدى وبهديهم يهتدى، ألا وإن هذه الدنيا سَحَابَةٌ صيف ما لها من دوام، والنفوس أغراض الليالي والأيام، فلتنزّود من الدنيا بالتقوى فإنها خير زاد، ورحم الله عبداً أحيا سنة ماثورة، وصحب حياته بالأعمال الصالحة المبرورة، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون.

رحمك الله يا أستاذ، يا شيخ عبدالرحمن الطيبي رحمة واسعة، وجعل أبناءك الكرام البررة خير خلف لك، وألهم الأهل والمحبين جميل الصبر، وأجزل للجميع المثوبة والأجر، وأفضل ما يقوله الصابرون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).



(١) تنظر ترجمته في كتاب «علماء دمشق في القرن الرابع عشر» ٨٢٢: ٢ - ٨٢٨.



مع الرجل العظيم،
الداعية الرباني الشيخ محمد الحارث رحمه الله^(١)

بقلم التحرير

لقد اختار الله إلى جواره خلال الأيام القريبة الماضية الشيخ محمد الحامد، أجزل الله له المثوبة، ويلاحظ - والله الفضل والمنة - أنه سبحانه قد أكرم هذا العلم من أعلام الإسلام، بأن جمع له بين العلم النافع، والعمل بهذا العلم، والاستقامة على العبادة والورع في الدين، فهو عالم عامل عابد زاهد، مجاهد، يخشى الله واليوم الآخر، وإذا كان فضل العالم على العابد كفضل رسول الله ﷺ على أدنى أصحابه، فما بالك بمن أكرمه الله بالعلم والعمل والعبادة والصّدق بالحق والزهد في الدنيا والخشية الصادقة لله عز وجل؟؟

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، ثم قال ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير». رواه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: حديث حسن عريب صحيح.

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة العاشرة: (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).

يُبعث أمةٌ وحده

إنا لا نتألى على الله عز وجل، ولكئنا بما عرفنا بيقين لا يعتوره شك، نحتسب أن يكون رحمه الله في عداد أولئك الذين عناهم قول النبي ﷺ فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: «ألا أخبركم عن الأجود الأجود، الله هو الأجود، وأنا أجود ولد آدم، وأجودكم من بعدي رجل علم علماً، فنشر علمه، يُبعث يوم القيامة أمةٌ وحده، ورجلٌ جادٌ بنفسه لله عز وجل حتى يقتل»^(١). أخرجه أبو يعلى والبيهقي.

مصاب الأمة ورفع العلم..

لقد دُعرت الأمة بوفاء هذا الرجل الذي قضى في سبيل الإسلام - وأعني هنا أولئك الذين يدركون معنى المصاب بموت العالم العامل الزاهد في الدنيا المجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله - لقد دُعرت الأمة وحقاً لها ذلك في وقت يعز فيه العاملون الزاهدون المستعلون على الحطام، الذين يخشون الله فيما يحملون من أمانة العلم، وتبليغها للناس عن بصيرة وتحقيق وتقوى لله عز وجل، أفلا يسوغُ لجيلنا الحاضر أن يخاف أن يصدق فيه ما بيّن رسول الله ﷺ من رفع العلم بقبض العلماء؟؟

(١) أخرجه أبو يعلى ١٧٦: ٥ (٢٧٩٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» ١: ١٦٦: «فيه سويد بن عبدالعزيز، وهو متروك الحديث». وقال البوصيري في «إتحاف المهرة» ٤٩: ١: «إسناده ضعيف أيوب بن ذكوان قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بشيء». وقال ابن حبان: منكر الحديث جداً. يجب التنكُّب عن حديثه وحديث أخيه. وقال الحاكم أبو عبدالله: يروي عن الحسن كل معضلة، وقال الذهبي: «واه». فالحديث إسناده مسلسل بالضعفاء.

فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً فَسْتَلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، والترمذي (٢٦٥٢).

نعم يحقُّ لنا أن نخاف.. وإن كان الشيخ - رحمه الله تعالى وجزاه عن المسلمين خير الجزاء - بما أدَّى من أمانة نشر العلم بأمانة وإخلاص يقل نظيرهما وبسلوكه الذي كان مثلاً كريماً يحتذى قد ترك - والحمد لله - من نأمل أن تفيد الأمة من علمهم وعملهم وخشيتهم لله بما ربَّاهم عليه من التحقيق والورع والعمل الجاد إن شاء الله.

أَحَبُّ لِقَاءِ اللَّهِ فَأَحَبُّ لِقَاءِهِ

إنَّ كلَّ الذين صحبوا الشيخ الحامد رحمه الله بصدق، يعلمون أنه كان في مرضه الذي عانى منه سنين حيث أرقه الجهد الدائب علماً وتعليماً وخطابة وتدریساً وتأليفاً ومنافحة عن الإسلام، فأخذ منه الإعياء مأخذاً، وحيث تفرَّحت كبده حرقة على المسلمين، وقلقاً على ما يصيب الأمة في دينها وبعدها عن شريعة الله، يعلمون أنه لم يكن يجزع من الموت وإنما كان يرى في المرض جسراً يوصله إلى لقاء الله عزَّ وجلَّ. فلقد أحبَّ لقاء الله فأحبَّ الله لقاءه.

جاء في الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ». فقالت عائشة رضي الله عنها: إنَّا لنكره الموت؟ قال: «ليس ذلك، ولكنَّ المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاء الله وأحبَّ الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشِّرَ بعذاب الله

وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»
أخرجه الخمسة إلا أبا داود^(١).

رحم الله الشيخ الكبير رحمة واسعة، وبوَّاه الفردوس الأعلى في دار
كرامته، وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ
وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء: ١٩]
﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤].



(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣)، والترمذي (١٠٦٦) و(٢٣٠٩)، والسنائي
(١٨٣٦) و(١٨٣٧)، وابن ماجه (٤٢٦٤).



بقلم: الدكتور محمد أديب صالح

واجب الوفاء:

على بركة الله نقدم هذا العدد الخاص عن حياة فقيه الإسلام والمعرفة الشيخ محمد الحامد رحمه الله.

وإنما كان ذلك - وهو قليل مما يُوجب الوفاء - لما أن من الأمانة لهذه الأمة - وهي تعاني ما تعاني - أن نكون على معرفة بأولئك العاملين فيها، الأمانة على عقيدتها، الأوفياء لشرعتها ومبادئها.

فما أروع أن تعرف الأمة رجالها، تقي بهم نفسها عوادي الزمن، وتصلح على إثرهم ما تتعثر به من زلات وأخطاء، لما يأخذون بيدها إلى ميادين الكرامة والأيد، وما يحفظون عليها من أمر دينها الذي هو قاعدة البناء.

وأجدر بهذه المعرفة أن تساعد في وضع الأمور مواضعها، من أجل تقويم المكان الطبيعي الذي يجب أن يأخذه كل واحد من أبنائها على طريقها

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة العاشرة (جمادى الأولى ١٣٨٩هـ = تموز وآب ١٩٦٩م).

الشائكة الطويلة، وفي ميادين العمل على تحقيق رسالتها في العالمين. وليس شيء أضرَّ على هذه الأمة في دينها ودنياها، من أن يلبس عليها أعداؤها، أو العاقون من ذوبها، فتعجز عن تصوُّر القيم التي على أساسها تبنى منزلة الرجال، وفي ضوئها يحسب حسابهم من الطاعة والاتباع. وفي بيان مشرق لأبعاد هذه الساحة التي نشير إليها بهذه الكلمات، أوحى الله إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فكان تعليمه ما لم يعلم هو الفضل الذي لا يغفل عن عظيم قدره إلا غافل، ولا يحدُّ سعة مدلوله إلا جاهل مسكين. أعلنها القرآن واضحة بعيدة عن التشبيه والتليس، لتكون في مرتبة التكامل مع مظهر من مظاهر الرسالة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

الهدير الإيماني المعبر:

لقد وقفت وما بي من حاجة إلى تلمُّس الحقيقة التي تكمن وراء هذا الهدير الذي يقرع القلوب في حياة فقيدنا الكبير الشيخ محمد الحامد رحمه الله.

فالرجل الذي يهب نفسه للعلم والمعرفة، ثم يجعل من سلوكه وعمله وجهاده بلسانه وقلمه صورة حيَّة صادقة لما يعتقد، هو رجل جدير بكلِّ هذا الهدير الإيماني المعبر، حري بأن يكون مثلاً يحتذى، وأسوة تتبع، ولا نتألى على الله فالعصمة للأنبيا عليهم الصلاة والسلام.

الميراث العلمي:

وليس من مكرور القول أن نذكر بأن أمتنا قد أعطت للفرد قيمة كبرى في ميدان النقل العلمي خصوصاً لما يكون من سنَّة رسول الله ﷺ، ومن هنا ومن أجل هذا الغرض كيما ينقل الحديث بالسند الصحيح كان علم الرجال، ووجد علم الجرح والتعديل الذي يقوم على الوضوح والأمانة دون محاباة أو مصانعة في الحق.

موضع الثقة في النقل والحُجَّة في العمل والقُدوة:

والشيخ الحامد أجزل الله مثوبته واحدٌ من أولئك العلماء العاملين الذين وضعهم التاريخ على قِمَّة المرتقى في تاريخ الأمة الحديث، فقد أكرمه الله بأن كان موضع الثقة في النقل، وموضع الحجة في العمل، وموضع القدوة للعلماء زهداً في الدنيا، وصدعاً بكلمة الحق، والتحلي بما من شأنه أن يحفظ على العالم - والعلماء ورثة الأنبياء - كرامته التي هي من كرامة الأمة.

ولن يعوزك البحث لتجد في كل واحد من تصرفاته ما ينبغي أن يكون عليه العالم رغباً ورهباً، من تحقير لشأن كل منصب يمكن أن يعوقه عن أداء رسالته في الحياة، ولو كان هذا المنصب قد ألبس لبوس الدين، في وقت تشابهت فيه الأمور، وساد في أرجائه الكثير من تمويه إبليس.

الزهد في الدنيا:

ولم يكن هيناً من الأمر أن يحمل الرجل نفسه في شؤون الدنيا على المركب الخشن، فقد كان هذا دليل علو الهمة والانتصار على النفس الأمارة بالسوء، لأن الزهادة في الدنيا أمر - بمفرده - سلاح يقاتل، ونور يضيء سبيل العالم إلى قوة التأثير والقدرة على فتح مغاليق القلوب.

تعدد جوانب شخصيته:

والشيخ محمد الحامد - على تعدد جوانب شخصيته التي ترى فيها الجِدَّ الجادَّ، والتحقيق العلمي، والغضب لله عزَّ وجلَّ، مع النكتة البارة، وموهبة الشعر التي لو تسنى لها أن تأخذ طريقها الطبيعي لرأينا العجب العجائب.

جَعَلَ علمه زُلْفَى إلى مرضاة الله وطريقاً إلى الجنة:

استطاع في هذه الفترة التي عاشها أن يكون فيصلاً بين العالم يتخذ

العلم صناعة تكسب الجاه والمال ومرضاة السلطان، وبين العالم، يجعل من علمه زلفى إلى مرضاة الله وطريقاً إلى الجنة.

الوعي الكبير لطبيعة العمل الإسلامي:

والرائع الرائع وراء ذلك كله، ما كان من الوعي الكبير لطبيعة العمل الإسلامي في العصر الحديث، ذلك الوعي الذي اتسمت به تحركاته - رحمه الله - منذ كان طالباً في الأزهر سنِّي شبابه الأولى.

فلقد شهد بقلبه وعقله المرحلة التي تمرُّ بها الدعوة الإسلامية، وكان على إدراك تام لما يجب أن تكون عليه الطريق التي ينبغي أن تسلك لتحمل أعباء الدعوة، في ظروف تستدعي الكثير من الإخلاص والمعرفة، والنظرة الجماعية إلى الموضوع.

ذلك أن الدعوة الإسلامية في هذا العصر قد ورثت تركةً ثقيلة بالكثير من العناء، نتيجة بُعد المسلمين عن دينهم في منابعه الأصيلة الصافية، ومُجافاتهم للمنهج الإسلامي الصحيح في مجال الفكر والحياة.

والعدو - وقد أمسك بزمام الحضارة المادية - يبتدع في محاربة الإسلام كل يوم سلاحاً جديداً، ويبني مؤامرة جديدة، وكثيراً ما يحاول الإتيان على البناء من الداخل، على أيدي من ينتسبون إلى الإسلام ويُسَمون بأسماء بني جلدتنا وقومنا في ساحة من البهتان والزور.

إعداد صادق:

كل هذا - وغيره كثير - أوجب العمل على تكوين قاعدة صلبة أمينة يقترب فيها الإيمان بالإعداد الصادق وحمل مسؤولية الجهاد، بحيث يكون الإسلام مع الفرد والجماعة التزاماً في كل خطوة وفي كل حركة، على إيجابية تباعد عن إلقاء الحبل على الغارب، وعن الاستغناء بالهدم عن البناء، ثم الاكتفاء بتجريح الآخرين عن إلزام النفس بما ألزمها به الإسلام.

ومن خلال القناعة بتكوين هذه القاعدة التي يكون في مقدورها

- مستعينة بالله - أن تحمل الإسلام عقيدة لا تشوبها شائبة، وفكراً نيراً لا ينقلب دون الانتصار العلمي، وجهاداً لا يقف دونه حب الذات وعبودية الشهوات...

أقول: من خلال القناعة بذلك وجدنا الفقيد رحمه الله يمارس العمل الإسلامي ويعيه وراء حدود الكتاب ومقررات الامتحان في الأزهر، حيث جمعه الإخلاص والوعي إلى أولئك الذين وهبوا أنفسهم لقضية الإسلام، على أساس أنها القضية الأولى التي يجب أن يحيا لها الرجال. رافق ذلك قناعة أن الكفر كله ملة واحدة، وأن الوثنية اليوم بشئ ألوانها ومظاهرها وعناوينها الخادعة وغير الخادعة تحاول جاهدة مجتمعة الكلمة موحدة الصف أن تجهز على الوعي الإسلامي، مهما كلفها الثمن... أتى وجد هذا الوعي أو لاحت بارقة تدل عليه.

الشمول في نظريته إلى ساحة العمل الإسلامي:

وإذا كان أمر الدعوة الإسلامية اليوم ليس كلمات يلهج بذكرها اللسان، ويتفكه بها في المجالس، ولكنه إخلاص وحسن تصوير، وخمل أعباء، ومعرفة بالأرض التي قسم الداعية أن يغرس فيها بذور الخير، وإحاطة بالواقع الذي تعيش الأمة في ظلاله، وإدراك لما عليه العالم اليوم في أفكاره وعلمه وتطوره الحضاري، إذا كان أمر الدعوة الإسلامية اليوم كذلك، فما أيسر أن تتحول الدعوة إلى دويلات صغيرة هنا وهناك، ولكن ما أعظم أن يكون الداعية على وعي وإخلاص يحملانه على الشمول في نظريته إلى الساحة التي يجب أن يكون عليها العمل في ظل دعوة لا تعرف الإقليمية والانحسار.

معالم توجيهه وإرشاده:

وكذلك كانت نظرة الشيخ الحامد رحمه الله، وكذلك كانت معالم توجيهه وإرشاده لمن ولاه الله أمر توجيههم وإرشادهم، فعبثاً تحاول أن تجد عند أولئك الشباب الذين سعدوا بالانتفاع بعلمه وعمله نزعة انطواء عن

الخط العام الذي يجب أن تلتقي عليه القلوب، بل العكس هو الذي يكون دائماً، صورة عن قناعة الشيخ رحمه الله، فقد كان همه أن يعدهم علماً وإخلاصاً وسلوكاً من أجل أن يكونوا للأمة، يسلكون لنصرتها الطريق الجماعية الواعية التي تتسم بالإحاطة والتكامل، ويخرجون إلى الناس نماذج حركية للشباب المسلم الذي يحمل من العقيدة، صفاء الفكر وسلامة الإدراك لخصائص التصور الإسلامي، وتتقد بين ضلوعهم روح العمل والجهاد.

رحم الله الشيخ الحامد فلقد كانت هذه الرائعة من خصاله أوضح ما تميّزت به شخصيته عند لداته وأقرانه وأقوى ما استعلى به في ميدان الرجولة والوفاء في زمن قلّ فيه الرجال وعزّ للدعوة الإسلامية الوفاء.

وكل ما ذكرنا من خلاله رحمه الله كانت روافد لهذه الرائعة العظيمة، ذلك أنّ وعيه للعمل الإسلامي وما كان من انعكاس ذلك على الأبعاد والمنطلقات في سلوكه وتصرفاته، جعل لكل من تلك المزايا والخلال معنى جديداً، حتى بدت كل خصلة وكأنها رجل جديد يعمل للإسلام علماً وعملاً وجهاداً.

رائد من رواد القافلة المؤمنة:

بل إن استقامة تصوره لطريق الدعوة كيف يجب أن يكون، جعل من كل واحدة من تلك الخلل سلاحاً يقاتل في معركة الإسلام التي تتحرك على صعيد عالمي. فليس الأمر أمر «محمد الحامد»، ولكنه أمر رائد من رواد القافلة المؤمنة التي تسربت على مر الزمن نسيجاً من النصال التي يتكسّر بعضها على بعض وباتت كل يوم تقدم شهيداً يزيد في وضوح الرؤية وتحديد معالم الطريق.

وسيطّل أمر المعركة كذلك ما دام العدو هو العدو، وما دام الدين الذي يُراد العمل لإعلاء كلمته هو مضمون قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ حتى يأذن الله بالنصر.

فما لم يكن ديناً يومذاك فليس - كما قال الإمام مالك - اليوم بدين.

إلا أن يكون شيئاً مبتدعاً مخترعاً من عند بعض النفوس لا صلة له بالإسلام والعباد بالله.

الغايات الكبار والنفوس الكبار:

ألا أنه ليس كثيراً على الغايات الكبار ما تجود به النفوس الكبار. وفي مرضاة الله تعالى تهون الصعاب... ويستعذب الموت، فقد أقعد الشيخ الحامد رحمه الله مرضه الذي كان نتيجة طبيعية للجهد المتواصل، وما يرهقه من حَمَلِ أعباء أُمته، وما يؤرقه من همومها ولياليها السود. حتى قضى على حال نحتسب عند الله أن يكتب فيها من شهداء العلماء، وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً.

وبعد: فسيظلُّ هذا الرجل حُجَّةً على كل أولئك الذين يَرهبون حَمْلَ الراية، ويَجْنَحون إلى السلامة تحت وَطْأة تسويلات وتأويلات، وعلى كل أولئك الذين يأكلون الدنيا بالدين، وَيُقَدِّمون للأمة ركاباً من الزيف والانحراف وسوء التأويل، يسمُّونه «سماحة الإسلام»، وينصرفون عن كلمة الحق باسم «الحكمة» والأمل في أن يَجْنُوا من القَتَار شيئاً غير الشوك. والله عاقبة الأمور. وما كان ربُّك نسياً.





اِسِيخْ كَمَا عَرَفْتِ^(١)

(١٣٢٨ - ١٣٨٩ هـ)

(١٩١٠ - ١٩٦٩ م)

لِلأَسْتَاذِ عَبْدِ الْغَنِيِّ الْحَامِدِ



ولادته ونشأته:

ولد الشيخ محمد الحامد رحمه الله في حماة سنة ١٩١٠، وتوفي فيها سنة ١٩٦٩.

وكان أبوه الشيخ محمود الحامد شيخ الطريقة النقشبندية في حماه، وأمه من بيت اشتهر بالعلم والشعر، فخاله الشيخ سعيد الجابي من العلماء الأعلام، وحنه لأمه الشيخ مصطفى الجابي عالم وشاعر. فنشأ ميالاً بطبيعته إلى التدبیر منذ نعومة أظفاره.

مات أبوه وهو طفل صغير، ولحققت به بعد سنة أمه، فعاش سنين طفولته يتيماً يتولى أمره أخوه بدر الدين، ولم يكن يومئذ ذا مال أو عمل، فعانى الشيخ محمد من ذلك في بيته وهو صغير أشد ما يعاني إنسان من

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة العاشرة: (١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م).

حالات الفقر والحرمان، ولما شبَّ اتَّجه إلى طلب العلم الشرعي، وواصل من بعد ذلك دراساته لأحكامه والتعمق في بواطنه حتى أصبح من كبار علماء المسلمين.

أسرته:

تزوج بابنة العالم الكبير الشيخ أحمد المراد أمين الفتوى في حماه، ورزق خمسة أولاد ذكور وابنتين. أكبر أولاده هو محمود الحامد المجاز من كلية الشريعة بدمشق، وخطيب ومدرس جامع السلطان بحماة بعد أبيه.

وللشيخ محمد الحامد من الإخوة: اثنان شقيقان، هما: بدر الدين الحامد شاعر العاصي المعروف، وعبدالغني الحامد مدرس اللغة العربية في إعداديات حماه. وله أخ ثالث من أمه هو نجيب الرئيس صاحب جريدة القبس الدمشقية سابقاً.

مواقفه الجريئة في الدفاع عن الإسلام:

اشتهر الشيخ محمد الحامد بمواقفه الجريئة في الدفاع عن الإسلام، وبمؤلفاته التي يوضح فيها حقائقه، وبكثرة الردود على الاستفتاءات التي كانت تأتيه من مختلف المدن والأقطار.

وتميَّز بالتقوى والورع إلى أبعد الحدود، وبالحرص على نشر أحكام الدين وهداية الناس إليها حتى أواخر حياته.

جنازته:

ولقد كان يوم وفاته يوماً مشهوداً، تناقلت فيه الإذاعات العربية نبأ وفاته، وعددت له مناقبه، ومشى فيه وراء نعشه آلاف الناس من أهالي حماة ومن وفود المدن السورية، يشيعونه باللوعة والدموع إلى مثواه الأخير.

ذكريات عن أخوي: محمد وبدر الدين:

كان أخواي محمد وبدر الدين رحمهما الله كل ما أعني من الحياة بعد موت أبوي وأنا طفل صغير.

كنت في الثالثة من عمري، ومحمد في السادسة، وبدر الدين في الرابعة عشرة، ونشأنا نحن الثلاثة في ظروف صعبة مشحونة بالشدائد، تحملها إلينا سنوات الحرب العالمية الأولى فتكاد تذهب بنا لولا معونة الله.

ولقد ألقى الله تعالى في قلوبنا محبة كل منا للآخر، وإثاره على نفسه بكل شيء حتى بالضروري من أسباب الحياة.

أما بدر الدين فقد حلّ محل الأم والأب. وأما أنا ومحمد فقد كنا كغصني شجرة لا يفترقان. نذهب ونؤوب ونطعم ونبيت معاً. يدانا متماسكتان وقلباننا متمازجان.

عاطفته وحنؤه وصدقه:

في هذه الظروف القاسية عشت أنا ومحمد أول ما تعرّفت إلى الحياة، وارتسم على قلبي منه منذ ذلك الحين كل شيء عرفته فيه من الصفات، فلم أجد شيئاً منه قد تبدّل فيما بعد عندما كبر وأصبح رجلاً إلا علمه الذي اكتمل، وجهاده الذي برز في خدمة الدين. هو محمد نفسه في السادسة من عمره كما هو بعد العاشرة أو بعد الثلاثين والخمسين، العاطفة الطيبة، والحنوّ العميق، والصدق في القول، كل ذلك استشعرته منه ونحن صغيران ولم يكن في تلك السن المبكرة يألف من الأمكنة إلا المساجد، يصلي خلف الأئمة، ويحضر دروس العلماء ويأخذ بحفظ القرآن الكريم.

نشأته الصالحة:

وكان أبعد ما يكون عن الشر، أشد ما يكون تحريماً للحلال ولو في أصغر الأشياء لم تمش به قدم إلى ملهى قط، والأطفال والفتيان من حوله يتحدثون يومئذ عن ذلك الشيء العجيب الذي يسمونه (السينما) والذي فوجئت به البلاد فأدهش العقول. التسلية عنده هي النزهة فحسب، ولقد أكسبته المناظر الطبيعية حساً شعرياً وذوقاً سليماً صافياً، بقي أثرهما في نفسه حتى عهد شبابه وكهولته.

هذه أمور أروىها عنه وهو صغير، كنت أحيائها معه كل يوم وأشهدها منه سلوكاً ثابتاً لا يتغير.

في مدرسة دار العلوم الشرعية بحماة:

وكان أخوه بدر الدين قد أدخله المدرسة الابتدائية، فلما انتهى منها أراد أخوه أن يُتِمَّ له دراسته في المدارس الثانوية، لكن نفسه انصرفت عنها انصرافاً عنيفاً، ومالت به إلى دخول مدرسة دار العلوم الشرعية التي افتتحت حديثاً في حماة، فأدخله أخوه فيها وتعيَّن بذلك مستقبله في طلب العلم الشرعي.

لقد وجد محمد في هذه المدرسة أمنيته، فأقبل على العلم الشرعي إقبالاً شديداً، وظهر تفرُّقه في الدروس تفوقاً ملحوظاً، ولم يكن يكتفي بدروس المدرسة وحدها، بل كان يضيف إليها ما يقوم به من دراسات أخرى شخصية يستكمل بها علمه، حتى تكوّنت فيه شخصية العالم المحقق، ثم انتقل منها بعد أن نال شهادتها بدرجة ممتازة.

في المدرسة الخسروية بحلب:

وظلَّ بعد ذلك ما يقرب من سنة غير منتسب إلى معهد علمي، يقوم بدراسة العلم الديني واستكمال مواده على أيدي علماء حلب الأعلام، فأفاد منهم علماً غزيراً وتحقيقاً دقيقاً^(١). وكان يرفض أن يشغل عن طلب العلم واستكمال به بآي عمل آخر غيره.

في كلية الشريعة بالأزهر:

ثم لما أن تيسَّر له أمر الذهاب إلى مصر^(٢)، شُخص إليها ودخل

(١) انتسب إلى الثانوية الشرعية، ودرس فيها ست سنوات، وتخرج فيها سنة ١٩٣٥، وكان الأول على مجموعته.

(٢) في سنة ١٩٣٧.

الجامعة الأزهرية فوجد فيه مدرّسوها عالماً موهوباً، يقرع الحُجّة بالحُجّة، ويناقش في مختلف الأحكام، حتى شهدوا له بالتفوق والنبوغ. وكان بعضهم يأخذ برأيه فيما يحقق من أحكام شرعية، ولو أنه كان يخالف بها ما يقرر في الدروس على الطلاب، إذعاناً للحق واعترافاً به^(١).

وبعد أن نال شهادة كلية الشريعة من الأزهر^(٢)، التحق بكلية القضاء فيه، فأمضى فيها سنتين حتى نال شهادتها بنجاح كبير^(٣).

إيثاره العودة إلى بلده:

وقد عُرض عليه بعد ذلك أن ينتسب لأحد فروع التخصص العالي لينال شهادة الدكتوراء، ولكنه أثر العودة إلى وطنه، ليقوم بنشر العلم والدعوة إلى الله تعالى ويدلّ الجهد في هداية المسلمين إلى أمور دينهم، مُرجّحاً ذلك على التخصص، وكانت البلاد آنذاك في حالة نضال ضد المستعمرين الأجانب. فراد ذلك من رغبته في العودة ليساهم في معركة النضال لتحرير الوطن.

الخطيب المدرّس:

وكان رحمه الله قد عُيّن قبل ذلك وهو ما يزال طالباً في الأزهر خطيباً في الجامع الأشقر بحماه، ثم نقل منه إلى جامع السلطان خطيباً ومدرّساً، فكان يمارس علمه في هاتين الوظيفتين، يعلي من فوق المنبر صوت الحق، ويفتح القلوب في الدروس العامة لهدي الإسلام.

دعوته إلى الجهاد:

وفي معركة التحرير عام ١٩٤٥ كان على المنبر يلهب النفوس حماسة

(١) وكان الشيخ مشهور الضامن مفتي نابلس المتوفى ١٩٩٨ رحمه الله تعالى يقول: أشهد أنّ الشيخ محمد الحامد جاءنا إلى الأزهر عالماً.

(٢) في سنة ١٩٤١.

(٣) في سنة ١٩٤٣.

إلى الجهاد، يخطب والطائرات فوقه تحوم لتضرب المدينة بالقذائف، فلا يخاف ولا يبالي، بل يمضي في خطابه مجاهداً ومُخَرَّضاً على الجهاد حتى كتب الله تعالى النصر للأمة، وتحررت من ربة الاستعمار.

في ثانوية ابن رشد:

وفي سنة ١٩٣٦^(١) عُيِّن مدرساً في ثانوية ابن رشد للتربية الإسلامية، فأتى له في هذا المجال أن يتصل بالشباب الصاعد، وأن يلامس بكلامه قلوبهم، وأن يُزيح عن كثير منهم كل ما يغشاهم من شكوك وأضاليل، وأن يردّهم إلى طريق الحق، طريق الله عز وجل.

جهوده في الدعوة إلى الله تعالى:

وظلّ محمد رحمه الله يعمل في مختلف المجالات، يبذل كل جهده في الدعوة إلى الله تعالى، ويبين بجلاء حقائق الإسلام، يغرف كلامه من قلبه، ويفرغ عليه من روحه، فيرد على الشبهات، ويدحض الأباطيل، حتى كان لعمله بتوفيق الله الأثر الحسن الذي وقف نفسه عليه، فاجتذب إليه النفوس، وتعلقت به القلوب، وتأثرت بإخلاصه الأرواح. فالتفّ حوله طلاب لا يفارقونه، تخلّقوا بأخلاقه، وأخذوا عنه تجرّده عن مطالب الدنيا وابتغائه وجه الحق. فرضيت نفسه بهم، وأيقن أنه قام بواجبه في خط المنهج الصحيح للسلوك المستقيم، وأنه قد أَرْضَى الله تعالى فيما أوجب عليه من بيان وتعليم.

مؤلفاته وفتاويه:

وألف كتباً ورسائل دينية كثيرة تداولتها أيدي الناس، كشف فيها عن كثير من مواطن الزيف، وقرّر كلمة الحق كما جاءت في تعاليم الإسلام، فوثق الناس به كل الوثوق، لما رأوا فيه من علم غزير، وإطلاع واسع،

(١) وذلك قبل ذهابه للدراسة في الأزهر سنة ١٩٣٧.

ودقة في تحرّي الأحكام، ونزاهة في كل ما يكتب أو يقول، فأجمعت على قبول ما يفتي به مدينته، وكذلك سائر المدن الأخرى من بلاد الشام أو من غيرها من أقطار العروبة والإسلام. وكانت تحل على يديه أعقد المشكلات فيوفقه الله تعالى فيها إلى أحسن الحلول، وكانت ترد عليه الأسئلة من كل صوب فيجيب عليها كتابة بكل أمانة، ولو كلفه ذلك جهداً كبيراً. وما زال كذلك حتى ثقل عليه العمل وأصبح يهدد جسمه بالضعف وبالمرض.

مرضه:

لكنه رحمه الله كان شديد الخوف من الله تعالى، شديد الشعور بالمسؤولية أمامه، فلم يتوقف عن عمله، في مختلف المجالات، مُبتغياً بذلك مرضاة الخالق مفادياً بنفسه في سبيله، حتى أقعده المرض، وألح عليه النزف، فحبسه في البيت مدة، كان أكثر ما يكون فيها تشوقاً إلى معاودة العمل في سبيل الله؛ لتحريك القلوب إليه سبحانه، وتحبيبها به، وتعريفها بأحكامه، حتى يكون اسمه تعالى فيها بمنزلة الضياء من العيون، فترسخ العقيدة، وتخلص النيات.

ولقد كان يقول لأطبائه: إن أنا شفيت على أيديكم وعادت العمل للإسلام فكل ما سأقوم به من عمل سيكون مكتوباً في صحائفكم عند الله.

رضاه عن الله عز وجل:

ولم نكن نسمع منه كلمة تذمر لا تحلّ شرعاً، بل كان في أشدّ ساعات مرضه يقول: إني راضٍ عن الله، وما كان يفتن لشيء إذا نزلت به غيبوبة، ثم صَحَا منها إلا للصلاة ولذكر الله.

وفاته:

وأجريت له عملية جراحية لإيقاف النزف، لكن كبده رحمه الله كان قد ثقل عليها المرض فاختاره الله تعالى إلى جواره في يوم الاثنين الواقع في الخامس من شهر أيار عام ١٩٦٩ في الساعة التاسعة مساءً.

رحم الله محمداً، فقد كان علماً في التقوى والورع، حُجَّة في العلم،
قدوة في النزاهة.. هو نفسه كما عرفته في السادسة من عمره، أواريه
التراب اليوم بدمعي، لم يتغير في خلقه شيء، ولم يتبدل من أعماله عمل.

بالأمس فقدت أخي بدر الدين الشاعر، واليوم أفقد أخي محمداً
العالم، وقد كانا لقلبي العينين اللتين أبصرت بهما نور الحياة منذ أن عرفت
بعيني نور الوجود، فما أشدَّ ظلمة الحياة من بعدهما، وأيُّ شيء بقي لي
فيها إلا ذكراهما، وإلا ما أفدت منهما من أدب وعلم.

رحم الله أخوتي رحمةً واسعة، وجمعني بهما في مستقر رحمة. وإنا لله
وإنا إليه راجعون.





حماء... وعالمها الرّاحل^(١)

للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

المدرس في كلية الشريعة من جامعة دمشق

صورة حماة المتميّزة الفريدة:

لمدينة حماة في نفسي صورةً عزيزة أحفظها لها منذ سنوات طويلة، صورة متميّزة فريدة تختلف عن صور ما قبلها وما بعدها من البلدان المنتشرة على طول ذلك الطريق المتّجه إلى الشمال.

وما مرةً خلّلتُ فيها بمدينة حماة زائراً، أو اجتّزت بها مسافراً، إلّا واستقبلتني هذه الصورة على مشارفها تنبّهني إلى أنني من هذه البلدة أمام طبيعة أخرى غير التي عرفتُها من طبائع الناس والبلاد.

وما مرةً وقع فيها بصري على نواعيرها الصاعدة الهادرة، إلّا ورأيت في وقار مظهرها وانبعاث صوتها حديثاً طويلاً تظلّ تخاطب به كل داخل ومسافر، فإذا ما رنّوتُ ببصري نحوها أتأمل حديثها أبصرتها تقول:

حديث النواعير الصاعدة الهادرة:

ههنا تربض كبرياء الشرف جنباً إلى جنب مع رقة الخلق الإسلامي

الرفيع، هُنا تلتقي قوة الثبات على الحق مع كرم المعشر ولطف الحديث. عند مداخل هذه المدينة تعود مرتدةً جميع تلك الرياح والعواصف الهُوج بما تحمله من نقيع التقاليد الآسنة، ووباء الميوعة والانحلال، فمهما جُلّت في ميادين هذه البلدة أو سرت في سككها وشوارعها فلن تستشق من حولك إلا نسيماً عذباً يتخطر.

لقد زعموا أن عجلة الدهر تُبذ كل قديم وراءها مهما كان نوعه لتستقبل كل جديد أمامها مهما كان نوعه.. أهى عجلة قطارٍ هائج أُفِلت من تحته قضبانهُ وضُرِع في داخله سائقه؟!... ربما... ولكن عجلة الدهر في هذه البلدة إنما تسير على هُدي من عقل في داخلها وخارطة مرسومة أمامها.

أما أنا فسأظل أدور هُنا حول نفسي في تطواف دائب لا ينقطع، لأغسل هذه البقعة مما قد يصيبها من وساوس هذا الفكر المتعفن.

ربما أبصرني المازِ هنا فتوهم أنها الطبيعة، أرادت أن يكون عملي هذا هو العمل المكرر المعاد: أنضح الماء من هنا إلى هناك، ولكن الحقيقة أن هذه المدينة إنما أرادت لي أن أكون رمزاً للثبات على محور المبدأ، ليس للإنسان أن يجعل حياته إلا مطافاً ثابتاً من حوله، يعيش من أجله ويموت في فلكه.



قلت لصاحبي ذات يوم، وقد وصلت بنا السيارة إلى مَشَارِف حماة، وتراءت لنا نواعيرها الذاهبة في جو السماء: ويحك، ألا تسمع إلى ما يقوله هدير هذه النواعير؟.. ألا ترى إلى الصورة المتميزة المنبسطة على عرض هذه المدينة وطولها؟.. ترى ما الذي جعلها تتميز عن غيرها بهذه الصورة، وما جعل نواعيرها تظلُ تنشد نشيد الكبرياء؟!..

مرشد حماة العظيم:

قال لي صاحبي: أو لم تعلم سرّ ذلك بعد؟.. أو لم تسمع بشيخ هذه البلدة ومرشدها العظيم الشيخ محمد الحامد؟.. قلت: لم أسمع باسمه

قط^(١). قال: فإن الله قد أقام هذا الرجل في هذه المدينة مقام ينبوع من الماء العذب وسط أرض ذات تربة نقية خضبة. فكان من ذلك ما ترى من تحوّل هذه البلدة إلى واحة وارفّة الأنس والظلال.

قلت: وإنّ في هذه المدينة مثل هذا الشيخ وأنا لا أعرفه بعد؟!... وأصررت على أني لن أبارح حماة إلّا بعد أن أزوره وأتعرّف عليه وأشدّ أصرتي به.

منزل متواضع:

وكانت السيارة قد خلفت معظم معالم المدينة وراءها، ولم يبق أمامنا منها إلّا حاشية يسيرة من بيوت متفرقة هنا وهناك. فعادت بنا أدراجها، وأخذنا نتنقل بين الأزقة حتى وقفنا أمام منزل متواضع وسط أحد تلك الأزقة الضيقة.

ولما دخلنا المنزل، أذنّ لنا إلى غرفة في أعلى الدار صعدنا إليها على درج ضيق متعرج.

رؤية الشيخ محمد الحامد لأول مرة:

وفي تلك الغرفة المتواضعة أبصرت لأول مرة الشيخ محمد الحامد، ورحت أسرح النظر فيه وفي هيئته باحثاً في شخصه عن مكان النبع الذي تحوّلت به هذه المدينة إلى دوحة فينانة وارفّة الظلال.

وأخذت أسائل نفسي - وأنا أمعنُ النظر والفكر في مظهره ولحيته الوافرة البيضاء المحيطة بوجهه -: كيف استطاع هذا الشيخ أن يتسلّل إلى أفئدة أهل هذه البلدة فيحوّلها ويقلبها من حال إلى حال؟!.. وهل هو في هذا إلّا كغيره من الشيوخ: لحية وجبة وقامة؟!..

(١) كان ذلك في عام ١٩٥٧م، وكنت لا أزال في دور الدراسة، أتنقل بين القاهرة ودمشق، ولم أكن قد عرفت الأستاذ الشيخ محمد الحامد بعد (البوطي).

تأثير الشيخ في مدينته:

لقد رأيت شيوخاً كثيرين لهم ما له من سيما المظهر والجلال، فلم يفعلوا بذلك أكثر من أنهم وضعوا بينهم وبين الناس حجاباً من مظاهرهم هذه، يقف أحدهم من سواد الناس ودهمائهم فوق برج مرتفع بعيد، حيث ينثر عليهم من هناك صيغ الوعظ والإرشاد، فليس بينه وبين أولئك الذين ينساحون بعيدين عنهم في الأرض إلا نسب هذه الكلمات وحدها، تهبط هي إليهم من عليائها هناك ويتلقونها هم بأذانهم في الأرض، ثم يعود كل شيء إلى ما كان عليه لا يتبدل أي خط ولا يقضي على أي انحراف.

وعدت أتأمل في حال الشيخ، وهيئات نفسي لسماع قطعة من الموعظة المحفوظة المكررة... ولكنني لم أسمع شيئاً من ذلك!..

حديثه من أغوار نفسه المؤرقة المتألمة:

لم يكن حديثه يهبط إلينا من علياء بعيدة، ولكنه كان يصعد من أغوار نفس مؤرقة متألمة!.. أخذ يكلمنا عن مشاكل المسلمين في حياتهم والعوائق التي تقف سداً دون رقيهم الاجتماعي، ثم تحدث عن المدارس والمعاهد والمناهج وما ينبغي أن تكون عليه أوضاع هذه المؤسسات، وأفاض بعد ذلك في الحديث عن دور الشباب والجيل الناشئ في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي المنشود، وعرض لنا تجاربه الشخصية في هذا الصدد.

فكر ناقد بصير:

ثم انتقلنا إلى بعض المسائل والأبحاث العلمية، فاندفع يشرح وينقد ويحلل... وفوجئت بما لم أكن أتصوره: إنه يقرأ كل جديد يقع تحت يده، ويطلع على كل فكرة تمر من تحت بصره. ثم هو لا يقرأ شيئاً من ذلك ابتغاء تسلية أو لمجرد اطلاع كما هو شأن معظم القراء والباحثين، ولكنه يتناول كل ذلك بفكر الناقد البصير، ويضعه تحت مجهر العقيدة التي يعيش لها، ثم ما هو إلا أن تثور به أعصابه تدفعه إلى ما ينبغي أن يقوم به المسلم

تجاه ذلك، من نقد أو تأييد أو تصحيح مهما كلفه ذلك من مشقة وجهد!...

ومضت دقائق، وأنا أتخيل تناقضاً يتلبس حال الشيخ..

إنَّ جلال مظهره ووقار سنه وهيئته، لا يتفقان وهذا الخوض في كل هذه الميادين.. ورأيت أن الصورة التي انطبعت طويلاً في ذهني تهمس إليّ بأنَّ العالم لا ينبغي أن يتجاوز محراب المسجد الذي هو فيه، إلا أن يتحول بوجهه عنه مستديراً إلى ما وراءه من صفوف العامة يعظهم ويرشدهم، ثم ما هو إلا أن ينقل عنهم بعد ذلك ليعود إلى تسيحه وشأنه.

في صفوف الطلاب:

وازدادت صورة هذا التناقض في مخيلتي وضوحاً، عندما همس إليّ صاحبي الذي كان إلى جانبي، بأن الشيخ مدرّس في المدارس الثانوية العامة، وأنه يمضي شطراً كبيراً من وقته بين صفوف الطلاب!...

وإني لأذكر الساعة جيداً كيف أخذتُ أحملق بعينيّ في مظهره وروعة لحيته ووقار شكله، دون أن يسعفني الخيال بالقدرة على تصوّر أن صاحب هذه الهيئة يُمضي شطراً كبيراً من وقته في صفوف المدارس حيث يحفُّ به التلاميذ وهو يوجههم ويعلمهم ويحدثهم!..

سرُّ انصياع حماة لشيخها العظيم:

ولمّا أخذت أتأمل بفكري هذه الظاهرة، أدركت أنها هي وحدها سرُّ انصياع هذه البلدة لشيخها العظيم!.. فلو كان الرجل في حياته مع الناس مثل بعض العلماء الآخرين: يجول معهم ضمن دائرة محدودة تحصرها وظيفة معينة تستهدف غاية واحدة لا تتبدل، لما كان له أي أثر في الناس أكثر من آثار أولئك الآخرين، ولما كان لسعيه أي فائدة فيهم، اللهم إلا فوائد جزئية متناثرة لا يمكن أن يتألف منها أي منهج قويم متكامل.

التكامل الرائع في حياته الإسلامية:

منذ ذلك اليوم، أصبح اسم الشيخ محمد الحامد ملء نفسي وكياني كله؛ لا من أجل مزيد علم وتحقيق قد يمتاز بهما عن غيره من العلماء، ولا من أجل مزيد من الصلاح والتقوى قد لا تجد منهما عند سواه، ولا من أجل لطف معشر أو رقة حديث قد يجذب بهما من حوله من الناس. ولكن من أجل هذه الظاهرة التي أثارت لدي الدهشة والتي لم أجدها عند كثير من العلماء الآخرين.

إن الذي لفت نظري من حياة الشيخ محمد الحامد رحمه الله وجعله بذلك ملء قلبي حباً وتعظيماً، هو هذا التكامل الرائع الذي تجلّى لي في حياته الإسلامية.

ولقد أخذت - من بعد هذا اللقاء الأول معه - لا أتأمل من ترجمته وشؤون حياته إلا هذه الظاهرة وحدها، وكان كلما امتدت بي الأيام، وازدادت معرفة بالشيخ وأحواله، ازدادت هذه الظاهرة لدي تألقاً ووضوحاً.

تأمل في حياته وأعماله العلمية، فتجده يذهب مذهباً يوليه كل اهتمامه وفكره، حتى ليخيل إليك أن الرجل قد تجاوز به الأمر إلى حد الإفراط والقسوة، وأنه إنما يعيش حياة عقلانية جافة مجردة. ولكنك تنظر بعد ذلك، فتراه - مع هذا كله - مُستغرقاً في حالة من العبادة والتبثّل وتقوى النفس، متحلياً بأسمى حقائق التصوف الإسلامي الصحيح، يتمثل في سلوكه الدائم قول الله عز وجل: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، حتى ليكاد يُخيل إليك أن الشيخ إنما ينظر إلى الإسلام من خلال زاوية أوراد ورياضات صوفية مجردة. ولكنك تتأمل، فتجده إلى جانب ذلك ثائراً على كل بدعة، منكراً لكل تزيد، مُحذراً من كل انحراف، مهتماً في وجه كل منكر ولو جاء مغلفاً بما يسمى بالحقائق أو الشطحات. ونظن أخيراً أن هذا هو كل ما عند الشيخ من مسلك وبحث وفهم. ولكنك تنظر وإذا به يصبّ هذه القيم العلمية والسلوكية كلها في طريق من الدعوة الإسلامية المركزة،

يؤمن بتنظيم الفكر والمنهج والسلوك، ولا يرى عند الكلمات الجوفاء وصيغ الوعظ والإرشاد المجردة أي جدوى لتحقيق أي حق.

الشباب الواعي مادة العمل الإسلامي:

يعتقد أن الشباب الواعي هو مادة العمل الإسلامي، وسرُّ بقائه ونموه، ولذلك فهو يخلط حياته بمشاعرهم، ويقيم دعوته على جانب كبير من إيمانهم وجهودهم.

وهيئات أن تراه ذات يوم وقد حصر نفسه في زاوية ضيقة من جوانب الإسلام ليقول لك - كما يقول بعضهم -: هذا ما حصرت عليه نفسي ولا شأن لي بما وراء ذلك. ولكنه يفهم كما يفهم كل عالم واع أخلص لله في علمه وإسلامه: أن الإسلام جوانب متكاملة إن هدم منه جانب سرت بذلك عوامل التصدُّع والزلزال إلى الجوانب الأخرى، ولذلك فما ينبغي للمسلم - إذا كان صادق الإسلام - إلا أن يكون قائماً بحق هذه الجوانب كلها، يرعاها بعقله ودمه وحياته، ولعل هذا المعنى هو الذي كان يجعله يُردِّد قوله المعروف: إنني لا أتمنى أن أكون حاكماً، ولكن الذي أتمناه هو أن أكون مستشاراً لحاكم مسلم.

هذا التكامل في العلم والفهم والسلوك الإسلامي، هو الغاية التي إن وصل إليها العالم المسلم في بلده، وقف بذلك في مرتبة ليس بينه وبين النبوة فيها إلا درجة الوحي. وما كان العالم خليفة ووارثاً للنبي إلا على هذا المعنى وبهذا القيد والشرط.

وما كان عمل النبي ﷺ مع صحبه، طيلة حياته النبوية التي عاشها، إلا نموذجاً رائداً لهذا التكامل.

بناء صرح الحقيقة الإسلامية:

أرأيت كيف كان يبني بيمين صبره وجهاده صرح الحقيقة الإسلامية شامخاً يملأ حياة المسلمين من كل جانب، يملؤها بالعقيدة الراسخة

الصحيحة حتى لا تبقى فيها ثغرة يدلف إليها أي وهم من الأوهام الباطلة، ويفيض عليها صبغة العبودية لله عز وجل حتى لا يبقى فيها منزع ذل أو خضوع لغيره سبحانه وتعالى، ويكسبها الواقع الاجتماعي والسياسي الصحيح حتى لا يتهددها شيء من فوضى السلوك والخلق والحياة، إن هذا البناء المتكامل القائم على هذه الجوانب كلها، هو الإسلام الذي بعث به محمد عليه الصلاة والسلام، ودعّا إليه في حياته، ثم وكل إلينا شأن رقبته والحفاظ عليه بعد وفاته.

العالم المسلم الحق:

ولا يكون المسلم مسلماً حقاً ولا العالم الإسلامي أميناً على ما استأمنه عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام، إلا إذا كان عمله الإسلامي متكاملًا على النحو الذي ذكرنا.

ليس المهم في العالم أن يكون علامة فيما يحفظ ويفهم من حقائق الشريعة الإسلامية وأحكامها الاجتهادية المختلفة، فربّ عالم متبحر لم يكن علمه إلا وبالأعلى على الإسلام وأهله.

وليس المهم فيه أن يكون مستغرقاً في الزهادة يملأ بياض أيامه وسواد ليليه بالأذكار والعبادة والأوراد، فربّ جماعات من هذا القبيل جرفهم سلوكهم هذا إلى حياة سلبية منطقية مؤلمة حجبته عن الإحساس بأي غيرة على الإسلام وشعائره وحكمه، قد يرى أحدهم معاول الهدم والتدمير تدك صرح الحقيقة الإسلامية دكاً، فلا يتحوّل مع ذلك عن سُبْحته وخلوته وأوراده!...

وليس المهم في العالم أيضاً أن يكون مُجرّد داع، وواعظ أو مرشد، يهيج الناس بخطبه المتأججة، ويحمّسهم بكلماته الهائلة، ويشيد في أخيلة الناس صرحاً عظيماً من الحكم أو المنهج الإسلامي القويم، فربّ دعاة من هذا القبيل أصبح كل شأنهم هو التعويض عن خسارة المسلمين التي حاقت بهم إذ تركوا إسلامهم، بأوهام تصول وتجول داخل رؤوسهم، وربّ دعاة

من هذا القبيل أسقط في أيديهم وهم في ذروة تهيجهم وتحميسهم للآخرين، عندما قيل لهم: لقد آمنا وصدقنا، فما السبيل؟ وما المنهج؟ وما الحكم؟..

التخدير من رجلين: خامل ومهيج:

ولا والله ما ضرَّ بالإسلام وأهله أكثر من رجلين اثنين: خامل يرى النار تلتهم شرعة الله وحكمه فلا يتحوّل عن محرابه إليها بأيّ جهد أو محاولة، ومهيج مهذار يبيع الناس كلاماً، ويملؤهم وعوداً وحماساً دون أن يتحرك من أرضه أو يحرك الناس إلى سبيل من الفكر والعمل والتدبير.

وأعود مرة أخرى فأقول: إن شعوري بهذه الحقيقة هو الذي جعل اسم الشيخ محمد الحامد ملء قلبي وكياني كله.

أثر الحامد المتكامل:

لقد كانت حياته كلها رداً على معنى التجزؤ والشّتات البارزين - مع الأسف - في حياة المسلمين اليوم. أجل فقد كانت حياته رداً قوياً صارخاً على معنى ما أسميه بالتوظف والتعصّب لجهة من جهات العمل الإسلامي مع الإعراض الكلّي عن الجهات الأخرى إن لم نقل: مع الحرب لها.

ومن أجل ذلك استطاع الشيخ محمد الحامد أن يقيم من ورائه هذا الأثر الكلي المتكامل في مدينته الصغيرة الرائعة.

ومن أجل ذلك لا تجد هناك أي ظاهرة مهمة تذكر، لداء التناقض المفرّق للصفوف، على نحو ما قد ترى في مدن وأماكن أخرى.

وعي تلاميذه وتكامل حياتهم وأفكارهم:

ومن أجل ذلك تنظر في مسلك تلاميذه وأخلاقهم وطبيعة وعيهم، فترى صورة هذا التكامل منعكسة على حياتهم وأفكارهم: يؤمنون بالعلم

وأهله، ويذهبون في تقديره مذهباً يجعلهم يعتقدون أنّ أيّ خطوة في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي لا ينبغي أن تكون إلاّ بهدي من العلم الراسخ الدقيق.

يتميّزون بالعبادة والورع والتقوى حتى ليخيل إليك أنهم يريدون سلّكهم شيخهم في طريق من التربية، ولكنهم يتحلّون مع ذلك بالوعي والتمسّك بأهداب السنة المطهرة لا يتحوّلون عنها إلى أي بدعة يعلمون أنها بدعة.

وهم بعد هذا كله شعلة تتقد في سبيل مستقيمة من الدعوة إلى الحق وأهله لا يبالون من أجل ذلك بحياة أو نعيم.

وفي يقيني أن هذا التكامل الإسلامي إذا ما توفّر بهذا الشكل الذي وصفت، فليس من ضير في أن يكون صاحبه غير معصوم عن الخطأ والسهو، كما هو شأن كل إنسان.

ومعنى هذا: أن الشيخ محمد الحامد رحمه الله لم يتبوأ هذه المكانة في الصدور، ولم يترك من ورائه هذا الأثر الإسلامي العظيم، من أجل أنه كان معصوماً في كلّ ما يعرضه من آراء، وما يعالجه من مسائل العلم والبحث..

ولذلك فلا قيمة بل ولا معنى لمحاولة نقده أو الثيل منه من هذا الجانب. وإنما كان ذلك كله من أجل أنه لم ينصرف بعمله الإسلامي إلى زاوية خاصّة من زواياه يحصر نفسه فيها ويتعصّب لها ولا يدعو إلا إليها، وإنما صرف حياته إلى جملة العمل الإسلامي كله، فجعل من اتجاهه إلى كل زاوية من زواياه سبيلاً يستعين به على التوجّه إلى الزاوية الأخرى. ومثل هذا السعي الرائع العظيم لا يضره عدم العصمة، ولا يؤثر فيه إمكان الوقوع في الخطأ. بل ولم تكن سنة الله عزّ وجل قاضية في يوم من الأيام أن يكون الخطأ في الرأي - بعد التمحيص وبذل الجهد - سبباً لأيّ إخفاق أو أصلاً لأيّ فساد.

الفراغ الخطير الذي خلفه الشيخ الحامد:

لقد ارتحل هذا العالم العظيم إلى جوار ربه، بعد أن سار طويلاً في هذا الدرب الذي وصفت، وبعد أن خلف وراءه أثراً عظيماً يتحدث بنفسه عن نفسه.

ولا ريب أن ارتحاله أعقب فراغاً خطيراً في ميدان العمل الإسلامي الصحيح.

وقد لا تكون خطورته من الناحية العلمية وحدها أو من ناحية الوعظ والتوجيه، أو من ناحية الإرشاد، ففي المسلمين عندنا اليوم من يقوم بشأن هذا الجانب أو ذاك..

ولكن الفراغ الخطير الذي خلفه الشيخ من ورائه، إنما هو حاجة المسلمين إلى ما قد أوضحت وبيّنت.. إلى تكامل العمل الإسلامي، والقيام بأعبائه من كل جانب.

إنّ هذا التكامل، هو وحده الدواء الذي يحتاجه المسلمون اليوم، وهو وحده السبيل إلى جمع صفوفهم ولمّ شعثهم، وهو وحده المرقاة إلى سالف مجدهم وعزهم.

صورة حماة الحيّة المشرقة:

وإنّ في القلب من هذا لغضة.. ولكن عزاءنا الوحيد وجود بقية صالحة من أهل العلم والفضل لا تزال بلادنا ترفع الرأس فخاراً بهم، وإني لعلّ يقين بأنهم يشعرون بالحاجة التي استشعرها، وإن كثيراً منهم ليسير بخطى ثابتة مطمئنة في نفس السبيل.. ومهما كانت ثمة سبل متعرجة ملتوية تزخر بخليط من الشذاذ والأقزام والمنتفعين، فإنّ الصراط النير المستقيم الذي اختطّه الله عزّ وجل واضح للأبصار كلها في طبيعته ومنتهاه، وإنه لصراط يلتقي عليه كل ذي وعي سليم وحرية صادقة، وإنهم ليزدادون مع الزمن، وإنه للحق الذي وعد الله به عباده الصادقين.

وأعود الآن إلى الصورة التي أحفظها في نفسي عن مدينة حماة..

إنها صورة ستبقى في نفسي مع الزمن . . وستزداد لديّ مع الأيام تألقاً ووضوحاً. صورة لها في نفسي مكان التقدير والإجلال، منذ أن عرفت الشيخ محمد الحامد في منزله المتواضع الصغير.

ولها في نفسي مكان الحب والوداد منذ أن تحرّك القلب إليها وعرفت الكثير من أهلها وذويها.

وسَيَظُلُّ القلب على ما هو عليه، وستبقى الصورة حيّة مشرقة مع الزمن . .

وإنّ في الخلق لَعَصَّة . . ومن وراء الصدر نفثات كاوية . . وما كان أسعدني ببثّها وشرحها، لو اتّسعت لذلك هذه الصفحات، ولكن فلتحبس النار في الأعماق، فربما اتّخذت منها قبساً ينير لي الطريق، أو أجد به على النار هُدى، ولكلّ آجلٍ كتاب.





فضيلة الشيخ محمد الحامد

سعدت مجلة «حضارة الإسلام» بقاء كريم مع العلامة المجاهد، فضيلة الشيخ محمد الحامد، ووجهت إليه بعض الأسئلة. وعلى تعب جسمه، وكثرة شواغله في التأليف، والتدريس، والخطابة، والتوجيه، أجاب - حفظه الله وشكر له - عن الأسئلة بما عهد عنه من أمانة ووضوح.

ولئن كان الشيخ محمد الحامد، غنياً عن التعريف: إن من الخير والوفاء، أن ننقل لقارئنا طرفاً من حياة رجل، وضعه الله في مكان القدوة والتأسي للعلماء وطلاب العلم، عملاً بما يعلم، وخشية من الله، وزهداً في الدنيا، وبعداً عن حطام المناصب، وزخرف الظهور. اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً.

التحرير

قال الأستاذ الحامد:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه. أجوبة لأسئلة توجهت بها إليّ مجلة حضارة الإسلام:

دراستي وتكويني العلمي:

س ١ - سئلت عن دراستي وتكويني العلمي؟

ج ١ - نشأت فقيراً يتيم الأبوين فكان المفروض في مثلي أن يتجه إلى عمل يعود عليه بما يقوم بأوده، لكن همّة المرحوم أحي الشاعر المشهور بدر الدين الحامد أبت عليه إلا أن يوجهني في طريق العلم والمعرفة على ما كان يعاني من فقر شديد وحاجة ملحة.

وبعد أن اجتزت مرحلة التعليم الابتدائي التحقت بالمسكن الشرعي فانتسبت إلى دار العلوم الشرعية في حماه.

المدرسة الخسروية الشرعية بحلب:

وبعد تخرجي منها رحلت إلى حلب فانتسبت فيها إلى المدرسة الخسروية الشرعية وإنها لأرقى من مدرسة حماه الشرعية، وفيها علماء أجلاء فطاحل محققون تشد الرحال إليهم ويؤخذ العلم عنهم ويؤتى بهم في الدين والخلق.

الأستاذ الشيخ أحمد الزرقا:

منهم الأستاذ الشيخ أحمد الزرقا الفقيه الجليل الذي لم أجس إلى أفقه منه حتى المشايخ الذين تلقيت عنهم في مصر من بعد، بل الله ثراه وأغدق عليه شأبيب رحمته، كان يتفخر علماً ويتفتح تحقيقاً ويجري معرفة كائواذي إذا سال، ولكأن الفقه كان أمامه يأخذ منه ما يشاء ويترك ما يشاء، وأشهد أنه كان وفافاً عند حدود الله في بياناته العلمية، فإن عرض له إشكال طلب إلينا أن نكتبه له ثم يضعه في ثنايا عمامته، وبأيتنا في الغد بالقول الفصل، وكان يقول: العلم أمانة. وهذا الأستاذ الكبير أحد الذين تأثرت بهم من الناحية العلمية.

هذا إلى تأديب لنا منه معشر طلابه وأخذه إيانا باحترام الأئمة والعلماء حتى من غير الحنفية، ولا أزال أذكر قوله في حلقة الدرس: إني أتصور الإمام الشافعي رحمه الله تعالى جبلاً من علم.

وقد كان رحمه الله تعالى ذا هيبة عظيمة وشيخوخة نيرة، ولكنك إذا

خالطته لمست فيه نفساً طيبة متواضعة يمزج تقريراته العلمية بمزج لطيف ومداعبات حلوة، ولم يكن من أهل الشطح والكبر الذين ينكرون فضل الفضلاء السابقين، بل كان يتهم نفسه ويقول: لقد استرحنا من حيث تعب الكرام. مع أنه كان في تلقيه عن والده الجليل الأستاذ الشيخ محمد الزرقا رحمه الله تعالى، تمرُّ به سنون لا ينام الليل، ويطلع نحواً من عشرين كتاباً علمياً فقهياً على الكتاب الذي كان يتلقاه عن والده، وكان يرجع إلى الكتب التي نقل عنها المحقق الشيخ ابن عابدين في حاشيته الشهيرة التي سماها (رد المحتار) - كان يرجع إليها فيجده واهماً في بعض النقول. أخبرنا بهذا عن نفسه.

شيوخ في المدرسة الخسروية:

وهناك غيره في المدرسة أفذاذ فضلاء، كالشيخ أحمد الكردي مفتي الحنفية في حلب، والشيخ عيسى البنانوني، والشيخ إبراهيم السلقيني العالم العامل والتقي الورع، والشيخ محمد الناشد، والشيخ راغب الطباخ، والشيخ أحمد الشماع، والشيخ عبدالمعطي الواسع المعرفة في فقه المواريث، والشيخ فيض الله الأيوبي الكردي المحقق العظيم في علمي التوحيد والمنطق، والشيخ محمد أسعد العبجي مفتي الشافعية حالياً في حلب، وهو والشيخ عبدالله حماد الباقيان في قيد الحياة من مشايخي، جزاهم الله خير الجزاء وبارك عليهم أحياء وأمواتاً.

وبعد أن أنهيت الدراسة في حلب عدت إلى بلدتي حماة، ولزمت فيها الدراسة العلمية مع زملاء لي، وكنت أحضر دروس بعض المشايخ الفقهاء فيها.

الالتحاق بالجامع الأزهر:

ثم التحقت بكلية الشريعة إحدى كليات الجامع الأزهر الشريف، ونلت منها الشهادة العالية، ثم انتسبت إلى قسم التخصص بالقضاء الشرعي منها. وبعد تمام الدراسة نلت شهادة العالمية مع الإجازة في القضاء، ولكن لم أشأ أن أكون قاضياً، وقد كان القضاء ميسوراً لي لو أردته لأنني رأيت البقاء في العمل العلمي أروح لروحي وأنفع للأمة فاخترت التدريس في وزارة التربية والتعليم على ما فيه من مشقة ملحوظة.

الدروس الخاصة والعامة:

وإني مع هذا دائب إلى الآن على التدريس الخاص لطلبة العلم الديني صباحاً، وفي المساء ألقى درساً عاماً في الناس كل ليلة إلا ليلة الجمعة، كما إني ألقى خطبة الجمعة.

إيثار العلم على لذائذ الدنيا:

وإني أحمد الله تعالى على توفيقه وتيسيره إياي للتوشع العلمي، ووضع الشغف به في قلبي حتى إني لأوثر العلم على اللذائذ المادية التي يقتتل الناس عليها، ولو إني خُيرت بين الملك والعلم لاخترت العلم على الملك والسلطان، وذا من فضل الله عليّ وعلى الناس.

ولم أكن فيما مضى من أيام دراستي مقتصرأ على كتب المناهج الرسمية، كلا، بل إني كنت أطلع عديد الكتب من قديم المصنّفات وجديدها ولن يسلس العلم قيادة لطالبه إلا بنحو هذا لأن المناهج الرسمية تعنى بتكوين الشخصية العلمية، أما ملء الذهن بالمعلومات فطريقة المطالعة الواسعة يحدوها الشوق ويقودها الشغف.

احترام خلاف الأئمة في الفروع الفقهية:

وهنا أحب أن يعرف الناس عني أنني غير شديد التعصّب لفقه الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وإن كنت متمذهباً بمذهبه، وقد يصفني بعض الناس بهذا جهلاً منهم بحقيقتي التي يعرفني بها المستمعون إلى بياناتي. إني أحترم خلاف الأئمة في الفروع الفقهية العملية وأقدسهم كلهم أجمعين، وقد ورثت هذا عن شيوخي رحمهم الله تعالى - لكنني أشدد في الاعتقاد فلا أسمح ببدعة تداخل القلب وتواكب السلوك فمذهب أهل الحق هو الذي ارتضيته وأدعو إليه، وهو الذي يطلبنا الإسلام بإصابته عيناً فمن تزحزح عنه فقد ضل، وهذا الضلال متفاوت النسبة قُرباً من الحق وبعُدأ عنه، وما لم يأخذ طالب النجاة من عذاب الله نفسه بهذا فليس من الفرقة الناجية المفلحة.

الشخصيات التي تأثرت بها في العصر الحاضر:

س ٢ - سئلت عن الشخصيات التي تأثرت بها ولها في نفسي مكان الصدارة في العصر الحاضر؟

- محمد سعيد الجابي وتوفيق الصباغ:

ج ٢ - تأثرت بكثير من أساتذتي وشيوخي الذين لهم الفضل الكبير علي كفضيلة خالي الكريم الأستاذ الشيخ محمد سعيد الجابي المدرس العام في حماه رحمه الله تعالى فهو الذي دفعني في سبيل العلم الديني وأمرني بحفظ القرآن الكريم وأقراني مبادئ العلوم الدينية.

ومنهم فضيلة أستاذي الفقيه الجليل شيخ الشافعية في حماه ورئيس جمعية العلماء فيها الشيخ محمد توفيق الصباغ أدام الله توفيقه وجزاه عني وعن زملائي طلابه خيراً. كان مديراً لدار العلوم الشرعية، وكان يبذل جهداً كبيراً في تثقيفنا وتعليمنا، ويحنو علينا حنوً الوالد الرحيم على صغاره. أسأل الله له طول البقاء في توفيق وصلاح.

- محمد سعيد النعساني:

ومنهم سماحة الأستاذ الجليل الشيخ محمد سعيد النعساني مفتي حماه ذو الباع الطويل في العلوم والمعارف، فقد كان له مع فضل التعليم فضل رفع الهمة إلى معالي الأمور والترفع عن سفاسفها وما يزال أسعده الله في قيد الحياة، وقد جاوز المائة من العمر، ونزل به مرض الشيخوخة ولزمته العلة. أسأل الله له العافية.

- أحمد المراد:

ومنهم فضيلة عمي والد زوجتي الأستاذ الفقيه الحنفي الحُجَّة العالم العامل، التقي الورع، الزاهد في الدنيا، شمس علماء حماه وبدر شيوخها الشيخ أحمد المراد رحمه الله وبارك عليه، إنه من شيوخي الذين لهم علي فضل التربية والتعليم، وقد أكرمني الله فجعلني صهرًا له على ابنته، وقد كان

هذا قبل أن يكون لي مورد رسمي ومنزل آوي إليه، ولكنه التوكل على الله سبحانه والإيمان به والوثوق بما عنده.

كانت الفتوى في حماه وقراها تدور عليه وترجع إليه فقد كان أمين الإفتاء ولم تصدر عنه فتوى غير صحيحة، وقد قال فيه سماحة العلامة الجليل مفتي الشام الأستاذ الشيخ محمد شكري الأسطواني رحمه الله تعالى - قال فيه: عنه تؤخذ الفتوى.

العارف بالله محمد أبو النصر الحمصي النقشبندي:

والذي له في نفسي مكان الصدارة الأولى على الإطلاق والعموم، وله فيها بالغ التأثير العميق والشديد معاً هو فضيلة سيدي العالم العامل، والمرشد الكامل، مربّي المريدين، ومرشد السالكين، العارف بالله تعالى الشيخ محمد أبو النصر الحمصي النقشبندي قدس سره. الذي أخذت عنه طريق السادة النقشبندية العلية.

إنه الذي أخرجني الله تعالى به من ظلمات الغفلة والقسوة والشroud إلى نور الذكر والرقّة والوقوف بباب الله سبحانه في ذلة وضراعة لهذا الرب الكريم، إنه الذي ملأني بتوجيهات قلبه الشريف، وكم طهرت فيوضاته من أسرار، وأزاحت من أكدار، وأعلت من همم، وأنجت من نقم. كم أنقذ من غرقى في بحار الطغيان، وكم جلا عن القلوب من ران العصيان. وكم أبكى من عيون الناس عيوناً، وكم ألقى في ضمائرهم سراً مكنوناً.

كان من الصّديقين الراسخين الذين لهم قوة إشعال جذوة الحال في مريدیه على القرب والبعد وقد سمعته يقول: القرب والبعد عندنا واحد. من لم ينفك بعده لم ينفك قربه.

وكراماته التي أكرمه الله بها من خوارق العادات كثيرة جداً جداً، وإن من نيتي جمعها في كتاب إن شاء الله تعالى وفاء بحقه وقياماً ببعض واجبه علي، ولئن كان مني نفع للأمة فهو في صحيفة شيخي مسجل إذ قد انتابني نائبة روحية أيام دراستي في مصر كادت تشل فكري عن العمل وترميني

بكارثة التعطل العقلي فكتبت إليه بما عناني، فرأيت فيما يرى النائم أنه مد يده الكريمة إلى قلبي وحركه بأصابعه الشريفة فاستيقظت وقد أبرأني الله من العلة بعد أن حار إخواني المصريون في أمري. ولولا أن الله سبحانه أغاثني بسيدي لكنت من نزلاء المشافي من الأمراض العقلية، فإن كان خير مني الآن للمسلمين فله من ثوابه قسط عظيم وحظ وافر.

توفاه الله تعالى إليه في سحر ليلة الجمعة خامسة ليالي رمضان المبارك سنة ١٣٦٨هـ وقد انكشف بعد سنة مرّت على وفاته حجر من فوقه في عملية حفر ففاحت رائحة زكية من قبره الشريف، ورؤي الشيخ قدس سره بحاله التي دفن عليها لم يتغيّر ولم ينتن. رحمه الله وبارك عليه وأعاد علي وعلى المسلمين من بركاته آمين. إني دائب على زيارته، ودائم على عهده أحفظه في ذريته، وأرعاه في أهل خرقته، وإن زيارته تملأ النفس حالاً صحيحة وبركة واضحة.

- الشيخ عيسى البنانوني:

وممن تأثرت بهم ونالني بركاتهم: سيدي الأستاذ العالم العامل الشيخ عيسى البنانوني الحلبي من حلفاء سيدي الشيخ محمد أبو النصر رحمهما الله تعالى. كان رحمه الله تعالى مدرساً لنا في المدرسة الخسروية الشرعية لعلم التصوف والأخلاق، وكان نفعه يسري إلى قلوبنا قلاً وحالاً فتظهر ضمائرنا في درسه وتصفو أرواحنا، وكان يضرب المثل الأعلى في التواضع النفسي والانمحاق الذاتي وتحمل الأذى. وكان من الأدب مع سيدنا قدس الله سره بالمنزلة التي ما كنا نستطيع مداناتها فضلاً عن منازلها، هذا مع كونه أسن من شيخنا - قدس الله سره - السنوات، وله القدم العالي في الطريقة الرفاعية وغيرها، لكن الله سبحانه كشف له عن سرّ الشيخ قدس سره فرضي بمتابعته وتلمذ له وأخذ عنه وازداد بهذا فضلاً إلى فضله ونوراً إلى نوره.

وكان صادق الحب لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وقد تراءى له في المنام مرات كثيرة جداً، وقد أخذ عليه الشغف به عليه وآله الصلاة والسلام مأخذه فسأل الله أن يموت في المدينة المنورة فأجاب الله

دعائه، فقبضه فيها بعد الحج ودفن في البقيع تحت أقدام سيدنا إبراهيم ابن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى على أبيه وعليه وعلى القرابة والصحابة. وهذي منقبة عظيمة لسيدي الشيخ عيسى قدس سره.

- الشيخ إبراهيم الغلاييني:

وممن تأثرت بهم ولهم مكان عال في نفسي: سيدي الأستاذ الشيخ إبراهيم الغلاييني النقشبندي قُدس سره. كانت بيننا صلة روحية، وإنه لمن أرباب القلوب وأهل المعرفة بالله سبحانه إلى كونه فقيهاً جليلاً يفتي في الحوادث إذ كان مفتياً لمدينة قطنا.

كان رحمه الله يتردد إلى حماه في بعض الأحيان وآخر مرة قدم إليها أكرمني الله بنزوله منزلي وحلوله ضيفاً كريماً عليّ. لكن العلة كانت قد بلغت به منتهاها أو كدت فلم تطل حياته بعد سفره إلى دمشق؛ إذ توفاه الله فيها مبكياً مأسوفاً على علمه وعرفانه وهمته العلية.

إني أحبه كثيراً لعلمه وحلمه وإيقاظه إياي مرة من سنة غفلة ولدتها الحدة الدينية والإنكار على من يمالئ الباطل من علماء العصر، فكان مني غضب شديد وزمجرة، وكان ذا في مجلس ضمّ عدداً من العلماء في دمشق، وما كان لي أن أزمجر هذه الزمجرة ولا أن أشتد في غضبي، بل كان الدعاء لهم بالصلاح والتوفيق خيراً وأبقى، لكنني كنت وقتئذ في مرام الشباب وميعته.

فما كان منه قُدس سره إلا أن تناولني من قلبي من حيث لا أشعر فألقى الله عليّ ندامة كادت تحرقني بنارها ثم لم يتركني رحمه الله أذهب وحدي بعد انفضاض المجلس فسرت معه وركبنا الترام، إلى حيث دعانا إنسان يعرفنا إلى المبيت عنده، وكانت الندامة تشتد معي حتى بلغت أوجها، فقال عندئذ: (ليس إلى هذا الحد يا مولانا)، فهدأت نفسي واستقرت، وكان لها سكون وراحة. رحمه الله تعالى وقُدس سره.

الإمام الشهيد حسن البنا:

والذي أثر في نفسي تأثيراً من نوع خاص وله يد في تكويني الشخصي سيدي وأخي في الله وأستاذي الإمام الشهيد الأستاذ حسن البنا رحمه الله وأغدق عليه غيوث الإحسان والكرم.

صحبه في مصر سنين، وحديثي عليه لو بسطته لكان طویل الذيل ولكانت كلماته قطعاً من قلبي، وأفلاًذاً من كبدي، وحرقاً من حرارة روحي، ودموعاً منهلة منسجمة تشكل سيلاً من فاجع الألم وعظيم اللوعة.

ولكنني أكتفي بالإيجاز من الأطناب، وبالاختصار من التطويل، وقد بكيته كثيراً بعد استشهاده على نأي الدار وشطّ المزار، ولا أزال أذكره حتى ألقاه في زمرة الصالحين الأبرار إن شاء الله تعالى وتبارك.

لي كلمة فيه رحمه الله تعالى، نشرتها مجلة الشهاب، وهي - لو استعيدت - تبعث الألم وتثير العاطفة في نفسي بما لا أتمالك معه البكاء بالدموع الحرّى السخينة.

إنه أخي قبل أخوتي في النسب، ولما وافاني نبأ اغتياله قلت: إن موت ولديّ، ولم يكن لي غيرهما حينئذ، أهون عليّ من وفاة الأستاذ المرشد.

وكنت رأيت فيما يرى النائم ليلة قتل ولا علم عندي بالذي حصل - رأيت أننا في معركة مع اليهود، وقد بدأ التقهقر في جندنا حتى أنني لأمشي منحنيّاً لئلا يصيبني رصاصهم، فاستيقظت واستعدت بالله من شرّ هذه الرؤيا. وفي النهار ألقى إلي بعض الناس الخبر، فكان وقعه أشد من شديد، وكان تأويل رؤيائي.

إنني أقولها كلمة حرة ولا بأس بروايتها عني - أقول: إنّ المسلمين لم يروا مثل حسن البنا منذ مئات السنين في مجموع الصفات التي تحلّى بها وخفقت أعلامها على رأسه الشريف.

لا أنكر إرشاد المرشدين، وعلم العالمين، ومعرفة العارفين، وبلاغة الخطباء والكاتبين، وقيادة القائدين، وتدبير المدبرين، وحنكة السائسين - لا أنكر هذا كله عليهم من سابقين ولا حقيقين، لكن هذا التجمّع لهذه المتفرقات

من الكمالات قلما ظفر به أحد كالإمام الشهيد رحمه الله تعالى .
لقد عرفه الناس وآمنوا بصدقه، وكنت واحداً من هؤلاء العارفين به،
والذي أقوله فيه قولاً جامعاً، هو أنه كان لله بكلية بروحه وجسده، بقالبه
وقلبه، بتصرفاته وتقلبه، كان لله فكان الله له، واجتباؤه وجعله من سادات
الشهداء الأبرار.

حدثني عالم في مصر كانت له به صلة قال لي: إن الإلحاد امتد إلى
مصر، وانتشر فيها وغمر كثيراً من أوساطها ولم يستطع الأزهر الشريف ولا
الجمعيات الدينية أن ترد سَيْلَه الجارف الهادم حتى جاء حسن البنا فدرأ
خطره وأنجى من شره.

قال هذا العالم هذا القول، وكنت أرى بعيني توفيق الله لأصحابه،
وقد كانوا من قبل في ظلمات فأخرجهم منها إلى نور.

إن سيدي وأخي الإمام الشهيد ذو وفاء في حياته وبعد وفاته، فقد
تراءى لي في المنام كثيراً في مدى سنين، وما أشوقني إلى الوقوف على
قبره الشريف أناجيه عن قرب كما كنت أناجيه في الحياة.

وهنا أمسك بعنان القلم عن الجري في ميدان القول، فإن الحديث عن
حبيبي طويل ممطول، وقد خسرناه فما أفدح خسارتنا به نحن معشر
المسلمين وإنا لله وإنا إليه راجعون. اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتننا بعده،
وألحقنا به شهداء صالحين. آمين.

وقد رأيت فيما يرى رؤيا أنني جالس معه في جملة من أصحابنا على
مائدة فيها أطباق خبز وأطباق زِيحان يؤكل لكنه ريحان من النوع الممتاز.
فاستيقظت وذكرت قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ
وَرِيحَانٌ وَجَنَّتٌ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾.

أبرز الأمور التي لها أثر في حياتي:

س ٣ - سئلت عن أبرز الأمور التي كان لها كبير الأثر في حياتي؟

ج ٣ - أبرزها على العموم وقوفي موقف المضاد للإلحاد الذي فُشَا في

الجيل الصاعد، وعملي على رد هؤلاء الشاردين عن الحقيقة إليها رحمةً بهم واستخلاصاً لهم من مهاوي الشقاء.

أما الثابتون منهم على الإسلام فما أزال دائماً في تغذيتهم بالعلم الواقعي والمعرفة الدارئة كي تقوى فيهم ملكة المناعة الإيمانية فلا يجد الزيف سبيلاً إلى قلوبهم ليفسدها.

وعندي أن تجلية محاسن الإسلام بعرضه عرضاً جميلاً، كافية لرد الشاردين وتثبيت المؤمنين: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

المواقف التي وقفتها في الذود عن حياض الإيمان أكثرت أوليائي وأعدائي جميعاً، فأنا أعيش في قلوب مُحِبِّينَ إليها، كما أن قلوباً أخرى تبغضني، لأنني كالحسكة في حلوق أصحابها: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

عملي وإنتاجي العلمي:

س٤ - سُئِلْتُ عن طبيعة عملي، وعن إنتاجي العلمي ما صدر من مؤلفاتي وما هو في طريق الصدور؟

ج٤ - عملي هو أنني أدرس الديانة الإسلامية في ثانوية ابن رشد في حمّاه، وألقي درساً عاماً في المسجد كل ليلة بعد الغروب إلا ليلة الجمعة، وقد وزعت المواضيع العلمية على الليالي فليلتان لتفسير القرآن الكريم، وليلة لفقه العبادات، وليلة لفقه المعاملات، وليلتان للحديث الشريف.

ولي درس خاص في غرفتي بالمسجد بعد الشروق من كل يوم إلا يوم الجمعة. فإني أنصرف فيه إلى التفكير في الخطبة التي أنا مطالب بها.

ومن عملي: الإجابة الخطية على أسئلة تردُّ عليَّ من غير حمّاه، بل منها أحياناً وإن كان الغالب على الحمويين أن يسألوني شفاهاً.

ومن عملي المتعب: كتابة ردود على ما ينشر من أباطيل وأخطاء أبعث بها إلى الصحيفة أو المجلة التي نشرت الخطأ.

أما إنتاجي العلمي فالمطبوع منه هو ما يلي:

١ - نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام.

- ٢ - حكم الإسلام في الغناء.
 - ٣ - رحمة الإسلام للنساء.
 - ٤ - آدم لم يؤمر باطناً بالأكل من الشجرة.
 - ٥ - القول في المسكرات وتحريمها من الناحية الفقهية.
 - ٦ - حكم اللحية في الإسلام.
 - ٧ - التدارك المعتبر، لبعض ما في كتاب القضاء والقدر.
 - ٨ - بدعة زيادة التنويرات في المساجد ليالي رمضان وغيرها.
 - ٩ - ردود على أباطيل.
- وهو كتاب ضخيم اخترت منه ما يمكن طبعه الآن كجزء أول منه، وهو مجموعة رسائل ومقالات بعضها طويل وبعضها متوسط، ومجموعة أسئلة فقهية وأجوبتها، وسأقدمه للطبع قريباً إن شاء الله تعالى.
- ١٠ - كتاب في تحريم نكاح المتعة في الإسلام.
- وقد أنجزته ثم وجدته في حاجة إلى توسعة، وسأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، ثم أنشره في الناس.

تنشئة الجيل المسلم:

- س ٥ - سُئلت عن تنشئة الجيل المسلم وكيف يجب أن تكون؟
- ج ٥ - ليس هناك إلا تقوية اليقين بالإسلام بالبرهنة على صدق الرسول سيدنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام. ومتى تم هذا للفتى آمن بكل ما جاء عنه بلا توقف، وسيان لديه عندئذ ظهور الحكمة في المشروعات وخفاؤها.
- وهذا لا يمنع من بيان أسرار التشريع وحكمته ليزداد إيماناً إلى إيمانه، لكن على الأول المعوّل، وهو الطريق السديد إلى القلوب فبه تستكين مؤمنة مسلمة منقادة مذعنة.
- وإن صحبة الأخيار من العلماء العاملين أصل أصيل في سريان الحال الصالحة إلى مُصاحبهم فمن جالس جانس. والقرآن الكريم ينادي بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩).

وحسن جداً إفهام الطلاب أن القرآن الكريم لا يتبدّل، والنظريات في تبدّل مستمر، فليكن منا أدب ديني يمنعنا من العبث به من أجلها بتحميله من التأويلات ما لا يحمل، وقد زلت أقدام، وزلقت إلى أعماق الضلال بهذه المحاولات البائرة.

طريقة إبلاغ الجمهور حقائق الإسلام:

س٦ - سُئِلت عن رأيي في طريقة إبلاغ الجمهور حقائق الإسلام وأحكام الشريعة؟

ج٦ - رأيي أن المنابر الدينية والدروس العامة والخاصة تكفي لهذا الإبلاغ على أتم وجه إذا كان الخطباء والمدرسون ممتلئين علماً ومعرفة وإخلاصاً لله سبحانه، وعملاً بما إليه يدعون. إنّ هؤلاء هم قوَاد القلوب وحادوها وسائقوها، وهم الأيدي المصلحة للفساد، والمقومة للعوج.

يضاف إلى هذا نشر العلم عن طريق الكتابة بلغة قريبة من الأفهام غير مستعصية عليها بدقة التركيب ووعورة التعبير ليسلك سبيله إلى الأذهان ولا يبقى مخبوءاً في بطون الكتب لا يطلع عليه إلا أخص الخاصة من المحصلين.

ولا بأس بالمجلات العلمية الدينية شريطة إشراف علماء أجلاء عليها لئلا يطيش السهم بشباب الكاتبين فيخبطوا ويخلطوا ويسيثوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وإن الواجب على علماء الدين ملاحظة شباب المسلمين في هذه الفتنة الزاخرة وقاية لهم من الزيغ والانحراف. كما أن الواجب على هؤلاء الاتصال بالعلماء والأخذ عنهم توقياً من الضلال المردّي في المهالك.

التربية في البيت:

س٧ - سُئِلت عن رأيي في تحقيق التربية في البيت، وكيف يمكن أن تكون؟

ج٧ - قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَقْلِبُوا نَازًا﴾ وفي الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع

ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته» إلى آخر الحديث الشريف.

فليقم الرجل بواجبه في التربية ولتقم المرأة بواجبها أيضاً، وليأخذوا الذرية بالطهارة النفسية والتزكية الروحية والأدب الجم والتوجيه الصحيح إذا كان ذلك كذلك كان البيت إسلامياً سليماً.

الصلاة الصلاة، وسوقهم إلى المساجد ليشهدوا الخير ودعوة المؤمنين وليستمعوا إلى القرآن الكريم والعلم، وقد أدركنا الناس على هذا قبل أن ينتشر الفساد هذا الانتشار المخيف.

سبل الخلاص:

س٨ - سئلت عن الطريق للخلاص من واقع المسلمين في انحرافهم عن الإسلام الذي أنتج ما نرى من فرقة الكلمة واختلاف الاتجاهات؟

ج٨ - الطريق هو الرجوع إلى الإسلام الأول العتيق فعلاً وقولاً كالذي نرى فقد كثرت الأقوال وقُلَّت الأفعال وعظمت الفتنة التي تحدث عنها الحديث الشريف بأنها «تدع الحليم حيران» كنتيجة لفسق الشبان وطغيان النساء وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورؤية المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

الإسلام العتيق الأول يأبى علينا هذا كله وخصوصاً تحريف الحقائق الدينية وتكييفها بما يروق للقلوب المريضة والعقول الزائفة، تكييفاً تأباه النصوص إذا أخذت بفهم صحيح من سبيل سليم، والله تعالى قال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾. متى نخلص من هذا السوء الذي قَلَبَ معالم الحق فعبث بالنصوص والأحكام باسم الإسلام.

القرآن الكريم حُجَّة الله على العالمين، وما يزال محفوظاً مقروءاً وفيه قوله تعالى: ﴿فَإِن نَّزَعْنَهُمْ فِي شِقْوَةِ قُرْدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

صَحِّحُوا الْأَفْهَامَ، وَعُودُوا أَدْرَاجَكُمْ إِلَى السَّلَامِ بِالْإِسْلَامِ. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.



الشيخ محمد إبراهيم الختني^(١)

(١٣١٤ - ١٣٨٩هـ)

تقديم بقلم الدكتور محمد أديب الصالح

كان ذلك من أربعة أعوام، يوم أسعدني الله بالحج وزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام، فإلى جانب ما لمست في الشيخ الختني رحمه الله من العلم والفضل والتقوى، أكرمني - أجزل الله منوبته - بما رضي من مصاحبتي له عند زيارة البقيع - رحم الله من في البقيع - وكانت جولة غنية بالمعرفة، عامرة بالصياء، مُشرقة بكل ما فيه غذاء القلب، حيث كان حديثه حديث التقوى، وكلامه - مع المعرفة - غاية الأدب مع أهل البقيع، وحيث لا يلبث يُعطي من نفسه وقلبه لضيعة ومن يتحدث إليه، ولوددت - يعلم الله - أن تلك الفترة من حياتي لم تنقطع.

ثم انصرفنا، وكأنَّ الزمان قد انطوت حدوده، وذهبنا إلى دار الشيخ رحمه الله، وخرجت من عنده بعد لقيمات تحسبها من طعام الجنة. ومن بعد ودعته ظهرًا في المسجد العظيم، أحمل في نفسي أثرًا أرجو أن يظلَّ معي ما حييت.

ثم كانت الصلة بيننا من طريق المجلة، وحين بلغني نبأ الوفاة برسالة حزينة رزينة من نجله الكريم، تأثرت - عَلِمَ الله - شديد التأثر، وتذكَّرت الكثير الكثير. رحم الله الفقيد وعوض أهله والمسلمين خير العوض، وشكر الله للأخ كاتب المقال، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



(١) حضارة الإسلام، العددان (٥ و٦)، السنة العاشرة: (١٣٨٩ - ١٩٦٩).

الفقيه الصالح الشيخ محمد إبراهيم الخثني

(١٣١٤ - ١٣٨٩هـ)

رحمه الله تعالى^(١)

بقلم الأستاذ الشيخ وهبي سليمان غاوجي الألباني

كُنْتُ تراه رجلاً جليلاً وقوراً، هادئ الطبع، رضي النفس، بخاري السحنة، أميل إلى القصر، ذا لحية أطلقها على السنة النبوية المطهرة، يسير الهويني، لا يلتفت في طريقه يمنة ولا يسرة، متواضعاً في نفسه ومظهره، كريماً سخياً بما في يده، وإذا وقفت له في الطريق وقف لك وهشاً في وجهك، وأخذ يسأل عن الصحة والأهل والعمل حتى يطمئن، وإذا سأله مسألة وجدته المعلم الأديب، والفقيه الصبور حتى تفهم ما سألت عنه، ما تسأله في مجالسه عن كتاب إلا أعطاك منه علماً، وعن مؤلفه خبراً، كان في التراجم والتاريخ آية من الآيات.

ذلك الرجل الجليل هو فضيلة الشيخ محمد إبراهيم بن سعد الله الفضلي الخثني المدني الحنفي رحمه الله تعالى، وأعلى في العليين درجته. توفاه الله تعالى بعد ظهر الأربعاء ٦ رجب الفرد/١٣٨٩هـ، دون أن يأخذ منه سمعاً ولا بصرأ، ولا فكراً ولا وعياً، إلا ما كان من صوته الذي ضَعُف

(١) حضارة الإسلام، العددان الخامس والسادس، السنة العاشرة: (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).

جداً قبل وفاته بأيام قليلة، رحمه الله تعالى.

لقد شغل الفقيد رحمه الله تعالى حياته بالعلم تدريساً وإفتاءً، تعريفاً بالكتب العلمية، وترتيباً لها، في مكاتب المدينة المنورة مثل المحمودية والمكتبة العامة، وكان هو الذي عاقه - كما ذكر لي رحمه الله تعالى في إحدى جلساتي إليه - عن الإكثار من التأليف ونشر المقالات، ومع ذلك فقد بكر في التأليف فألف وهو دون العشرين من عمره رسائل باللغة العربية.

وكلما طال عمره وزاد فضله وعلمه كثرت أشغاله، فهو مرجع الناس في فقه الحنفية خاصة وغير الفقه من العلوم، وهو يدرس كل يوم أكثر من درس، وقد كان هذا شأنه إلى قبيل مرضه الأخير الذي شغله عن كل شيء سوى ربه.

لقد طلب أحد أحبائه منه أن يترجم لنفسه في أعقاب رسالة ألفها في تراجم بعض العلماء ففعل ذلك، وقد أعطانيها ولده الأستاذ محمد يحيى لأنظر فيها، وأنا هنا أنقل منها ما يُعرف به القراء الكرام.

اسمه وولادته:

قال رحمه الله تعالى: «أنا محمد إبراهيم بن ملا سعد الله بن ملا عبدالرحيم بن عبدالعليم الفضلي الختني، ولدت في أواخر ١٣١٤هـ^(١)، وكتاني شيخي ثابت النمكاني بأبي الفضل.

قرأت على والدي وعلى تلاميذه بعده، مثل ملا محمد روزي الأنديجاني، ومحمد نياز، وابن عمتي الشيخ شورف الذي كان يخصني بعناية فائقة ويدربني على طرق كتابة الإفتاء، وأنا بعد تلميذ».

مؤلفاته:

قال: «وحيث كنت بختن ألفت بعض الرسائل مثل: تنقيح النحو، والفوائد، ومجموعة الفتاوى باللغة العربية، ورسالة الإعلاات الياركندية على الرسالة المعزية في الصرف باللغة الفارسية، وضرورة الحجاج في المناسك،

(١) ولد في بلدة «قرة فاش» من أعمال «ختن» بتركستان الشرقية.

وترجمة خلاصة الكيداني، والتماس الملتمين في مسائل الجمعة والعبيدين والجنابة باللغة التركية. وهذه كلها ممّا ألفتها قبل الهجرة إلى المدينة المنورة وبقيت في ختن.

وفي المدينة المنورة ألفت رسائل أخرى هي الرسالة الفضلية في ثبوت الطوافين للقارن بالأدلة القطعية، ووافق الأئمة الأعلام في جواز تفريق مَنْ رُؤِجت بغير الكفء من الأنام، وتحفة المستجيزين بأسانيد أعلام المجيزين (لم يتم) باللغة العربية، قَيَّضَ الله لها مَنْ ينشرها لينتشر فضلها في الناس، وفتح الرؤوف ذي المنن في تراجم علماء ختن.

سفره إلى بخارى في طلب العلم:

في ذي القعدة ١٣٣١هـ، سافر إلى بخارى في طلب العلم، وأقام ثمانية أشهر - في طريقه - بكاشغر، ثم انتقل إلى سمرقند في سنة ١٣٣٢، حتى إذا وصل إلى بخارى أكب على العلوم، وجوّد القرآن الكريم، وقرأ الشاطبية والجزرية في القراءات. وأثناء إقامته في بخارى حدثت فتن يشيب لهولها الولدان، ففي سنة ١٣٣٥هـ، ثارَ بعضُ الشبان المتطرفين في بخارى فقضي على ثورتهم، وفي سنة ١٣٣٨هـ، هُوجمت معسكرات بخارى بالأسلحة الحديثة والطائرات، ونُقِضت معاهدة الصلح نافذة المفعول، ودامت الحرب أربعة أيام، وبعدها انسحب الأمير - عالم خان أمين بخارى - إلى جهات حصار شادمان، ثم ذهب إلى كابل حيث مات بها واحتلت البلاد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال رحمه الله: «وكانت هذه السنوات الثلاث بكوارثها كأنها ثلاثة قرون كاملة، أو من سنوات القيامة».

وفي بخارى أتم حفظ كتاب الله تعالى أيام العطل الدراسية.

مجيئه إلى الحجاز:

وفي سنة ١٣٤٨هـ، خرج من بلاده لأداء فريضة الحج ماراً بطاشقند (الشاش)، وبحر قزوين وباطوم واستنبول حتى السويس، وحين وصلها كان

وقت الحج قد فات، فأقام بالسويس حتى جاءت باخرة أقلته إلى جدة التي وصلها في اليوم السادس عشر من ذي الحجة. وأقام في مكة المكرمة والطائف حوالي ستة أشهر، ثم جاء إلى المدينة المنورة وتلمذ فيها على الشيخ محمد عبد الباقي الأنصاري^(١) من أقرباء أبي الحسنات عبد الحكي اللكنوي صاحب المؤلفات الكثيرة التي تزيد على مائة ما بين رسالة وكتاب، وفي العام التالي ١٣٤٩هـ أدى فريضة الحج، وعاد إلى المدينة المنورة، وقد عزم على الإقامة فيها.

تدريسه في المدينة المنورة:

في سنة ١٣٥١هـ، عينه الشيخ الأنصاري مدرساً بمدرسته، وحين ألغيت هذه المدرسة سنة ١٣٥٤هـ أصبح مدرساً في مدرسة (تورة قل تركستاني)، ثم في مدرسة العلوم الشرعية.

وفي سنة ١٣٨٢هـ، عُيِّن في وظيفة مُعَرِّف للكتب النادرة والمخطوطات، و مترجماً للغات الفارسية والتركية والأوردية في المكتبات الأربع الواقعة حول الحرم النبوي الشريف، بالإضافة إلى تدريسه بالحرم الشريف، ومدرسة الشيخ عبدالقادر الشلبي الحسينية، ومدرسة توره قل، وفي بيته.

قال رحمه الله تعالى: «ولكني لا أزال أعتبر نفسي من طلاب العلم إلى الآن، فأفيد من العلماء الثقات من أهل السنة والجماعة على اختلاف أقطارهم ومذاهبهم بالقراءة أو المراسلة لذا يزيد عدد أساتذتي على مائة وخمسين أستاذاً».

(١) كما لازم علماء كثيرين، منهم الشيخ عبدالقادر الشلبي (ت ١٣٦٩هـ)، واستجاز جماعة آخرين من علماء الحرمين، منهم محدث الحرمين الشريفين: عمر حمدان المحرسي (ت ١٣٦٨هـ)، والشيخ أحمد الفيض آبادي (ت ١٣٥٨هـ) مؤسس مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة، والمفتي عمر باجنيد، والسيد عيدروس بن سالم البار، وغيرهم.

ثم قال رحمه الله تعالى في آخر ترجمة لنفسه: «فرغت من تسويد هذه الرسالة: «فتح الرؤوف ذي المنن» وفي آخرها ترجمته الشخصية في ضحى يوم الأربعاء ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٧هـ، في مدينة الرسول الأعظم ﷺ».

رحم الله شيخنا برحمته الواسعة، وفسح له في قبره، وأعلى في العليين درجته، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً وعوض المسلمين خيراً^(١).



(١) توفي الختني رحمه الله تعالى يوم الأربعاء السادس من شهر رجب عام ١٣٨٩ في المدينة المنورة، ودفن في بقيع الغرقد. وتنظر دراسة وافية عنه وعن مكتبته، في «مخطوطات مجموعة محمد إبراهيم الختني في مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة» للدكتور عبدالرحمن المزيني في مجلة «عالم المخطوطات» العدد الأول من المجلد الأول (١٤١٧ - ١٩٩٦) ص ٢٤ - ٤٣. وأفرد ترجمته نجله الأستاذ محمد يحيى المتوفى سنة ١٤٢١هـ في رسالة بعنوان: «الشيخ محمد إبراهيم الختني المدني» في ٦٠ صفحة. وقد ألحقت ترجمة وافية عنه بقلم الأستاذ محمد سعيد دفتدار.

فضيلة العلامة المحقق الشيخ محمد إبراهيم الفضيلي الختني ثم المدني^(١)

بقلم الأستاذ، محمد سعيد دفتردار

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد الشيخ محمد إبراهيم بن ملا سعد الله بن عبدالرحيم الفضيلي عام ١٣١٤هـ في بلدة (قره قاش) من أعمال (ختن) بتركستان، ونشأ في أسرة اشتهرت بالعلم والدين والفضل. وبدأ حياته الدراسية بحفظ القرآن المجيد على أستاذه وابن عمه (قاري روزي محمد الأندجاني)، ثم قرأ على والده مبادئ العلوم، وعلى ابن عمته الشيخ محمد شريف، وعلى ابن عمه القاضي محمد عيسى وتوسم فيه ذووه وأقاربه الذكاء والإقبال على الدراسة فخصّوه بشيء من العناية.

رحلته في طلب العلم:

ولما ظهرت نجابته واستوت ملكته طلب الرحلة لتلقي العلم من أكابر العلماء خارج بلدته، وكان يريد السفر إلى بلدة (لكنو) بالهند ليدرس على علامة عصره (الشيخ عبدالحكي الكنوي)، ولكن أساتذته حسّنوا له السفر إلى

(١) مجلة المنهل السعودية، ٢ صفر ١٣٩١هـ.

مدينة (كاشغر)، ونزل في مدرسة تاج حاكم بيك، ودرس على مدرستها الشيخ محمد يعقوب، وكان يوجد في تلك البلدة رجل من علماء طرابلس الشام، وهو الشيخ محمد سعيد العسلي الذي نفاه الروس فيما بعد إلى خوارزم... درس على ذلك الأستاذ الطرابلسي بعض كتب الحديث الشريف، وقرأ في تلك المدرسة عند الشيخ محمود بن عبد الباقي الأرتوجي «تلخيص المفتاح»، وبقي في كاشغر ثمانية أشهر يدرس ويستفيد من علمائها، ويُطالع مع زملائه العلوم.

ثم رحل من تلك البلدة إلى «سمرقند» عن طريق خوقند وترمد، ونزل في مدرسة الخليفة عمر بن عبدالعزيز عند إمام مسجد المدرسة الشيخ هادي بن فضل، وكان رجلاً كريماً، فأكرم وفادته، واستفاد منه بعض المعلومات.

ثم رحل إلى «بخارى»، وتلقَّى عن علمائها، منهم عمدة الفتوى الشيخ محمد أكرم، وقرأ الجزرية على الشيخ برهان الدين، ثم قرأ عليه الشاطبية في علم القراءات.

انتهائه من التحصيل وإجازاته:

وفي عام ١٣٣٩، انتهى من التحصيل، ونال إجازات أساتذته وأكثر هؤلاء العلماء الذين أجازوه بعد دراسته عليهم كانوا قد تحصَّلوا على إجازاتهم من علامة المدينة المنورة ومُحدِّثها الشيخ السيد محمد علي بن ظاهر الوتري الذي كان قد قضى مدة عام في مدرسة (بخارى).

متابعته الرحلة في طلب العلم:

وفي عام ١٣٤٠ ذهب إلى «أندجان»، وأسمع القرآن الكريم لشيخه المقرئ الحافظ محمد روزي مرة ثانية، وقرأ عليه الشاطبية مع شرحها، وأجاز له في القراءات.

ثم ذهب إلى «نمنكان»، ودرس عند العلامة الشيخ محمد ثابت بعض كتب الحديث.

رحلته إلى الحج:

وفي أوائل عام ١٣٤٨ رحل إلى الأستانة عن طريق بالو وباطوم، ومن إسطنبول إلى بور سعيد فالسويس، وفاته الحج ذلك العام، حيث وصل إلى مكة المكرمة يوم ١٣ ذي الحجة عام ١٣٤٨، ومنها إلى المدينة المنورة، وأدى فريضة الحج عام ١٣٤٩ هـ.

دراسته على الشيخ محمد عبد الباقي الأنصاري وتدريسه في مدرسته:

وتعرف بالمدينة المنورة على أستاذه الشيخ محمد عبد الباقي الأيوبي الأنصاري، وتلقى عنه مجموعة من العلوم العقلية والنقلية، وأجازه فيها، ثم عينه عنده في المدرسة النظامية مدرساً، وبقي يدرس بها إلى عام ١٣٥٤.

تدريسه في مدرسة العلوم الشرعية:

ولما أغلقت المدرسة لسبب مرض الشيخ الأنصاري، انتقل إلى مدرسة العلوم الشرعية بطلب من مؤسسها الفاضل السيد أحمد الفيض آبادي عليه رحمة الله، وكان يدرس بالقسم العالي بعض العلوم الدينية والعربية، ومكث في تلك المدرسة ما يزيد على خمس سنوات، وتخرج على يده مجموعة من طلاب تلك المدرسة من المجاورين ومن أهل المدينة المنورة.

عمله في مكاتب المدينة المنورة:

وفي عام ١٣٨٢، انتقل إلى وظيفة حكومية في مكاتب المدينة المنورة التابعة للمسجد النبوي، وأخيراً استقر في المكتبة العامة في وظيفة معرّف عن الكتب النادرة ومترجم عن بعض اللغات التي كان يجيدها مثل التركية والأوردية والفارسية والبخارية، حيث كان رحمه الله تعالى يجيد تلك اللغات إجابة تامة.

اطلاعه على المخطوطات النادرة:

ولقد كان رحمه الله له اطلاع على المخطوطات النادرة التي كانت توجد في مكاتب المدينة المنورة التابعة للأوقاف العامة.

وأخبرني مرة أنه يعدّ جدولاً بأسماء تلك الكتب وأماكنها في مكباتها وأرقام حفظها وليس ببعيد على مثله أن يكون مُلماً بمثل ذلك لأنه زاول ذلك العمل عدداً من السنوات، واطلع على موجودات تلك المكتبات مع العلم والفهم.

التدريس في المسجد النبوي:

وكان مع عمله في المكتبة يقوم بمهمة التدريس في المسجد النبوي الشريف ويداوم عليه. ومن الكتب التي درسها: (موطأ الإمام مالك) برواية محمد، ودرس أيضاً في النحو كتاب ابن عقيل شرح ألفية بن مالك، وشرح القطر، وتفسير الجلالين، والمتممة في النحو، وغير ذلك مثل رسالته في الإعالات الياكندية.

مؤلفاته:

وله رحمه الله مؤلفات كثيرة قيمة وبلغات شتى من مجموعة الفتاوى جمعه من فتاوى شيوخه، وله كتاب «تنقيح النحو»، وكتاب في مسائل الجمعة والعيدين والجنائز باللغة التركية.

ومن مؤلفاته كتابه: «تحفة المستجيزين بأسانيد أعلام المجيزين» في الحديث. ومنها: «فتح الرؤوف ذي المنن في تراجم علماء ختن»، و«الرسالة الفضلية في ثبوت الطوائف للقارن بالأدلة القطعية»، وكتاب في الكفاءة بين الزوجين والتفريق بينهما إذا لم توجد الكفاءة.

دروسه في بعض المدارس:

وللشيخ رحمه الله نشاطات أخرى في بعض المدارس فقد كانت له

حُصص من الدروس يلقيها في مدرسة خوش بيكي الموجودة في سوق القفاصين في المدينة المنورة، ودروس أخرى في مكتبة الشيخ عبدالقادر شلبي ومدرسته، في ذروان، وهذا غير تلك الدروس التي كان يدرسها في منزله لبعض خواص طلبته.

رحلاته:

أما رحلاته غير ما ذكرت آنفاً فهي متعددة، منها: رحلة إلى البلاد العربية مثل مصر وسورية ولبنان والعراق والأردن، وله رحلة إلى تركيا واتصل بعلماء تلك الأقطار.

ثم ارتحل رحلة أخرى عن طريق البر إلى الأردن وسورية ولبنان والعراق والكويت ونجد، ومنها إلى المدينة المنورة.

صفاته وأخلاقه وعاداته:

كان رحمه الله مربع القامة، قمحي اللون، غزير الشعر، واسع العينين، إلى القصر أقرب منه إلى الطول، هادئ المشية، خفيض الصوت، محافظاً على قراءة القرآن ومواصلة آداء الفرائض في المسجد النبوي. وأخبرني ابنه أنه حج ما يقرب من أربعين حجة، وكان سهلاً طيباً، تقي السريرة، متواضعاً محباً للغير يحبُّ صحبة الأفاضل، ويساعد الفقراء والمحتاجين، مقتصداً في مطعمه وملبسه.

مرضه ووفاته:

توفي بعدما مرض ما يقرب من ستة أشهر بمرض الحنجرة، وتوفي في المدينة المنورة في منزله بالعويرضية التابعة لزقاق الطيار، وذلك في السادس من شهر رجب عام تسعة وثمانين وثلاثمائة وألف، ودفن في البقيع.

وخلف من الأولاد ابنه الحافظ محمد يحيى، وهو صنو والده في الأدب والكمال، وله بنت واحدة لا تزال في رعاية أخيها المدرس في مدارس الحكومة عليه رحمة الله.



الشيخ عبدالله هارون^(١)

شهيد جنوب إفريقية

(١٣٤١ - ١٣٨٩هـ)

(١٩٢٣ - ١٩٦٩م)

بقلم الأستاذ علي الخطيب

لكلّ أجل كتاب، وقد بلغ الكتاب أجله في ١٦ من رجب عام ١٣٨٩
فلحق الشيخ عبدالله هارون بالرفيق الأعلى في شهر الإسراء، وخلص الله
- الرؤوف الرحيم - روح عبده من بين أنياب مفترسيه من رجال حكومة
جنوب إفريقية العنصريين، وفي حجرته بالمعتقل رقد جثمانه شهيداً على
استشهاده، يحمل بسمات عذابه في سبيل الله.

عرفه مسلمو جنوب إفريقية بالإمام، وسيعرفه التاريخ بالشهيد، كما
سبق أن عرفته مجامع المسلمين العلمية، وجهاده السياسي لتحرير الأرض
الإسلامية في كل دار عامة وفي أرض العروبة خاصة.

وبعد، فليس العمل من أجل الإسلام، وباسم الإسلام هيناً في بلد
يناصب الإسلام العداء، وكل دراسة عن الإسلام ترفع لحكومته تقرر صراحة

(١) مجلة الأزهر، العدد السادس، السنة الحادية والأربعون: (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).

أنه ضد العنصرية لا يفرق بين أبيض وأسود، والخلق فيه «سادة» أمام الحاكم «عبيد» أمام الله وحده.

هذه الحكومة التي بلغ بها الطغيان في أواخر العام الميلادي المنصرم ١٩٦٨ أن تسنّ قانوناً يقسم كل مدينة في بلادها إلى أربعة أقسام، وتمنع اختلاط كل قسم بالآخر، أو زواج أفراد قسم منه بأفراد قسم آخر.

معارضته السياسيّة للحكومة العنصريّة:

في هذه البلاد، ومن مدينة (كيب تاون) ترتفع أصوات المعارض باسم الله ينطق بها الشهيد وأتباعه، وتشري دعوة الله من بين لسانه - وهو يبشر بالإسلام - فيزداد عدد معتنقيه، فتزداد المعارضة لسياسة الحكومة العنصرية فتعتقله ثم تفرج عنه، ثم تعتقله ثم تفرج عنه، ثم لا تجد بداً من إحكام مؤامرة حوله فترصد عليه خطاه.

لقد سافر إلى الجمهورية العربية المتحدة أربع مرات، والتقى خلالها بزعماء المسلمين وعرف رجاله: المنظمات الفلسطينية، وذلك كله كاف لاعتقاله، فما عاد إلى بلاده حتى اعتقلته سلطاتها للمرة الرابعة والأخيرة ووجهت إليه تهمة مناقضة أوامر الحكومة والتشهير بها.

وجدير بالذكر أن هذا الزعيم الإسلامي هو ثاني زعيم يموت وتحيط به كل الظروف المُرِبة التي تشير إلى أعدائه، رحم الله «أحمد بللو» وأثاب الله «عبدالله هارون».

آثار الشيخ الشهيد عبدالله هارون:

ولم تمت آثار الشيخ الشهيد عبدالله هارون، فلا زال مجلس «القضاء العالي» الذي رأسه عدّة مرات، وكان فيه عضواً دائماً يتولى شؤون المسلمين في بلاده، ففي مدينة كيب تاون مقر هذا المجلس وكل أعضائه من العلماء المسلمين خريجي الأزهر الشريف، ويلتئم في عضويته جميع أئمة المساجد في مديرية (كيب تاون)؛ ولهذا المجلس عناية خاصّة بالأحوال الشخصية

للمسلمين في الزواج والطلاق والميراث. ويلجأ المسلمون إليه في حل هذه المشكلات ويتناولون أحكامه بالتنفيذ.

صحيفة الشهيد:

ولا تزال صحيفة الشهيد Muslim News التي يرأس تحريرها في بلدته Cape-Town، وتصدر بالإنجليزية، تؤذي واجبها في التعريف بالإسلام، ونشر أخبار الجماعات الإسلامية داخل البلاد وخارجها، وتفرد فصولاً لتحرير: تفسير كتاب الله العزيز، وشرح سيرة رسوله الكريم ﷺ، وترد على فتاوى الجماعات الإسلامية.

جماعة الصدق:

ثم هو عضو في «جماعة الصدق» التي تعمل في بلاده عملاً رئيسياً: هو ترجمة معاني القرآن الكريم إلى كافة لغات إفريقيا، وانتهت بالفعل من ترجمة معاني القرآن بلغة: «الزولو» و«الأفريكانز» كما أخرجت عدة كتب تعليمية لشرح مبادئ الإسلام وتطبيقها في الصلاة والزكاة والحج وغيرها فضلاً عما تقوم به الجماعة من نشاط في مستوى الحياة العلمية العالية: إذ يؤدي أعضاؤها محاضرات في الجامعات والمدارس للتعريف بالإسلام والمسلمين، ولا تنسى المستشفيات والسجون؛ فأثرها مبثوث في هذه الجوانب رحمة بالإنسانية.

رحم الله الشيخ عبدالله هارون، وجزاه عن دينه خير الجزاء، وألهم والديه وابنته صبراً من عنده، فلقد وصل بين المسلمين ما أراد الاستعمار أن يقطعه، وأعد لأبنائهم في بلاده كافة التسهيلات التي تؤهلهم لمزاولة العلوم الإسلامية في الداخل والخارج، وعمل للإسلام بكل ما استطاع، رحمه الله رحمة واسعة، وعوض الإسلام فيه خيراً.



نشاطه العلمي والدعوي:

شارك في حياة المسلمين الاجتماعية، وتأثر بأفكار جماعة الإخوان المسلمين.

أسس جمعية إسلامية في ١٩٥٨، وكان إماماً في إحدى المساجد في حي (كليرمونت) حيث كانت له حلقات العلم للرجال والنساء.

في ١٩٦٠ بدأ يدعو شخصيات أخرى لنصرة المسلمين، وتعرّف على الأفكار الموجودة على الساحة الإسلامية.

مقاومته الدعوة العنصرية:

ومن خلال الخطب التي ألقاها، عارض قوانين الحكومة الظالمة وأفكار العنصرية، وحثّ المسلمين على الوقوف بجانب السود، وبالتالي فقد نال احترامهم وتقديرهم.

وفي ١٩٦١ وصف التفريق العنصري بأنه نظامٌ ظالمٌ ومخالفٌ للشريعة الإسلامية، وأنه يريد تعبيد الشعب، فكوّن الشيخ علاقات مع شخصيات سياسية بارزة.

مغادرته البلاد:

في ١٩٦٥ اضطر إلى مغادرة بيته، فقد طرده النظام العنصري، كان يشتغل لإحدى شركات التي كانت تصنع الحلويات، وتجمّع لديه مبلغ من المال، وبنى به بيتاً خاصاً له ولأهله.

إقامته بمكة المكرمة:

وفي ١٩٦٨ سافر إلى مكة المكرمة ليفكر في علاقته مع المنظمات السياسية، وأن ينسق برنامج تربية وتعليم ابنته في لندن.

في هذه الزيارة لقي وزير التعليم في السعودية حسن بن عبدالله آل الشيخ، وكذلك التقى بالملك فيصل، ثم سافر إلى القاهرة.



الإمام عبدالله هارون (١٣٤١ - ١٣٨٩هـ)

بقلم: د. محمد عبدالله هارون



ولادته ودراسته:

وُلد في ١٩٢٣ في مدينة (كيب تاون)، وهو أصغر الأولاد، توفيت أمه وهو صغير، ثمَّ اعتنت به أخته.

تزوَّج في سنة ١٩٥٠.

درس المرحلة الابتدائية في مدرسة الفلاح إلى أن بلغ الحادية عشرة من عمره، ثم درس لمدة سنتين في مكة على يد الشيخ عبدالرحمن العلوي المالكي (ت ١٩٨٦)^(١).

بعد عودته إلى كيب تاون (رأس الرجاء الصالح) واصل دراسته على الشيخ عبدالله طه جمال الدين (ت ١٩٤٦)، والشيخ إسماعيل حنيف (ت ١٩٥٨م).

(١) هكذا ورد اسمه في الترجمة التي أملاها ابن الإمام عبدالله هارون على الأخ شبيب أحمد. ولعل الصواب: السيد علوي عباس المالكي، المتوفى سنة ١٣٩٣.

عرف الإمام عبدالله أن مخابرات جنوب إفريقيا تسعى للقبض عليه، ولكن والده كان مريضاً وكبير السن فلم يرض بالهجرة إلى دولة أخرى، وشاء أن رفضت سفارة كندا منحه تأشيرة.

اعتقاله واستشهاده:

في ٢٨ مايو ١٩٦٩ (نفس اليوم الذي كان المسلمون يحتفلون بمولد النبي ﷺ) اعتُقل لأربعة أشهر، وقد عُدب إلى أن تُوفي شهيداً في ٢٧ سبتمبر ١٩٦٩.

وقد نشر النظام العنصري كذباً بأنه تُوفي بعدما سقط من السلم. ومنذ سنة ١٩٧٦ كان رمز الحرية لشباب المسلمين، ورمز المقاومة ضد العنصرية. رحمه الله تعالى وجزاه عما قدم لدينه وأُمَّته كل خير وبر.

أعدها:

شعيب أحمد

المعهد الإسلامي

بريتوريا — جنوب إفريقية —





محب الدين الخطيب.. كما عرفته^(١)

(١٣٠٣ - ١٣٨٩هـ) = (١٨٨٦ - ١٩٦٩م)



لفضيلة الأستاذ أبو الوفا المراغي

تاريخ حافل بالجهاد في ميادين كثيرة:

إنا لله وإنا إليه راجعون. لقد جرى القضاء على (محب الدين) بما يجري على الناس، فمضى إلى جوار ربه راضياً مرضياً، وخلف وراءه تاريخاً حافلاً بالجهاد في دينه وعروبته وحريته، فبكاه الإسلام، وبكته العروبة، وبكته الحرية.

إنَّ تاريخ (محب الدين) تاريخٌ مُشرق بالمناقب والمآثر، وما كان له - وهو المسلم العربي الغيور، ذو العقل الحصيف والحس المرهف، والبيان المفحم، والقلم الخضب الرّصين - أن يقصر جهاده.. على ميدان خاص من ميادين النشاط فدخل في ميادين كثيرة، وتفاعل مع أحداث عصره، وكان فيها مناضلاً شجاعاً، يتحمّل في سبيل نضاله ما يتحمّله المكافحون المناضلون.

(١) مجلة الأزهر، الجزء العاشر، السنة الحادية والأربعون: (١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م).

ثقافته وذكاءه:

ولقد أعانته ثقافته وذكاءه ونشاطه وإخلاصه على أن يقوم برسالاته فيما ندب نفسه له، فقد ثقف ثقافة مدنية أولاً، فتعلم في المدارس الثانوية ببيروت، ثم بجامعة (استانبول)، حيث درس الحقوق والآداب، ثم أقبل على الدراسات الإسلامية الحرة، يعبُّ منها في نهم، واستطاع بتلك الدراسات أن يكون باحثاً إسلامياً واسع الثقافة والتحصيل، على غرار الباحثين الإسلاميين أمثال (فريد وجدي) و(العقاد) وغيرهم ممن كانت مدارسهم كتبهم ومواهبهم.

تنقلاته واستقراره بمصر:

ولعلَّ ظروف حياته غير المستقرّة كان لها أثر في تكوين شخصيته العلمية والاجتماعية والدينية، فقد أخرج من وطنه، ورحل إلى (تركيا)، وإلى (اليمن)، ثم إلى (مصر) حيث استقرَّ به المقام سنة ١٩٠٩، والتقى بأحمد تيمور باشا، والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ علي يوسف، وعمل محرراً بجريدة المؤيد.

جهوده في الصحافة والجماعات الإسلامية:

وفي (مصر) أخذ يتابع جهوده الدينية في الصحافة والمجتمعات الدينية بقلمه ولسانه، فلفت إليه الأنظار، واحتل مكانه بين الصفوة من الباحثين الإسلاميين، واستُدعي إلى الحجاز فأُسّس المطبعة الأميرية، وأصدر بها جريدتها الرسمية (القبلة) سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى سافر إلى دمشق، وهناك وكل إليه إدارة تحرير جريدة (العاصمة)، وبعد حوادث الاستعمار الفرنسي في (ميسلون) عاد إلى مصر وعُيّن في جريدة (الأهرام) خلفاً للسيد نجيب الأزمنازي، وظل بها خمس سنوات إلى أواخر سنة ١٩٢٥م.

مجلة الفتح:

وكان أول اتصالنا به عن طريق مجلة (الفتح) التي أصدرها في الثلاثينيات من ذلك القرن لخدمة الإسلام، وتجلية مبادئه ودفع الشبه عنه. مع صفوة من كتاب عصره، نذكر منهم المرحومين: الشيخ (عبد الباقي سرور)، و(الشيخ القاياتي)، وكانت صحيفته (الفتح) هي الصحيفة الدينية المتخصصة التي احتلت مكاناً بارزاً بين مجلات عصرها، وكنا ونحن طلاب بالأزهر - نترقب صدورها الأسبوعي بتطلع وشوق على أبواب الأزهر، ونتخطفها من الباعة لنهل من معينها الثقافي، ونتتبع الحركات الإسلامية. وكان قلمه في الإسلاميات صورة من نفسه، يلتهب حرارة وغيرة.

جولاته القلمية العنيفة:

وكان (محب الدين) سلمياً متشدداً، يكره الترخّص في المبادئ الإسلامية، وبرغم حبه لآل البيت كان يكره الإفراط في مشايعتهم، وله مع بعض الطوائف جولات قلمية عنيفة، وظلّ مجافياً لها طوال حياته.

محب الدين كان كاتباً لا أديباً:

وعن طريق الدفاع عن الإسلام برز (محب الدين) كاتباً إسلامياً ممتازاً سليم الفكرة، صحيح العبارة، يعالج موضوعاته في عمق وقوة، ولم يكن يميل إلى زخرفة الأسلوب والتشذق بالغريب، بل كان موضوعياً، قليل الحشو والاستطراد. فـ(محب الدين) كان كاتباً لا أديباً، فالكاتب همّه الأول موضوعه.. يوفيه حقّه من التجلية والإبانة، فإذا بلغ في ذلك الغاية.. فلا يعنيه التأثّق في الأسلوب والعبارة؛ أما الأديب فهّمّه الأول أسلوبه وعباراته، ثم الموضوع ثانياً..

وقد يعالج الأديب موضوعاً تافهاً، ولكن يحلّيه بوشي العبارة، ويجملّه بالنقش والزخرف، فيبدو موقفاً جذاباً.

وكان (محب الدين) من الطراز الأول كاتباً لا أديباً.

مجلة (الزهراء) ورئاسته تحرير مجلة (الأزهر):

وفي ميدان الصحافة والكتابة أصدر مجلة (الزهراء) سنة ١٩٢٤م، ثم تولى رئاسة تحرير (مجلة الأزهر) فلبث فيها أعواماً، وكان له بعد انصرافه عنها مقالات في مختلف مجلات (العالم الإسلامي).

المطبعة السلفية:

وكان يشغل فراغه بالقراءة أو بالتحقيق العلمي لبعض الكتب التي كان يقوم بنشرها وطبعها في مطبعته الخاصة، وعن طريق تلك المطبعة زود المكتبة الإسلامية بعشرات من كتب التراث، الذي كان له في اختياره دقة، وحسن تقدير.

من آثاره العلمية:

ولقد ترك من آثاره العلمية غير ما نُشر له بالفتح والزهراء وغيرهما من المجلات الإسلامية كتاب: (الحديقة)، و(الغارة على العالم الإسلامي)، و(مع الرعيل الأول).

ولقد كان (محب الدين) داعياً لأحداث العالم الإسلامي، قُدِّر له أن يتوفَّر على تسجيلها، فكان لنا منها مرجع تاريخي هام.. عن تلك الحقبة التي عاشها وهي حقبة طويلة من هذا القرن.

وفي هذا الميدان - أعني ميدان الثقافة - أنشأ مدرسة باليمن - كما يقول بعض المتحدثين عنه -.

سبيل الإصلاح:

وكان (محب الدين) مهتماً بالإصلاح الاجتماعي في العالم الإسلامي، ورأيه في ذلك: ألا سبيل لهذا الإصلاح إلا التمسُّك بالإسلام، وتطبيق منهجه في نواحي حياة المسلمين، وكان يُردِّد ذلك المعنى في كثير من كتاباته وأحاديثه.

جهاده في بعض المعارك:

ولم يكن جهاد «محب الدين» بلسانه وقلمه فحسب، ولكنه جاهد بنفسه وخاض بعض المعارك، حيث اشترك في موقعة «ميسلون» بسوريا، وشارك في تشكيل الجمعيات بتركيا، والثورة ضد السلطان «عبد الحميد»، وأشعل الثورة العربية ضد «تركيا»، ونادى بحياد العرب في الحرب العالمية الأولى.

غلبة اللون التاريخي على بحوثه:

وإذا أردنا أن ننصف التاريخ، وننصف السيد «محب الدين الخطيب» حين نتحدث عنه.. دون مبالغة في الحديث.. فإننا نقول: إنه كان باحثاً إسلامياً واسع المعرفة ذا بيان ناصع.. استطاع أن يعالج به ما كان يتصدى له من القضايا الإسلامية العامة، إلا أنه قد غلب عليه اللون التاريخي، لإعجابه بسير أسلافنا، وتقديره لهم.

صلابته في الرأي:

ولقد كان صليب الرأي فيما يرى، ولي معه في هذا الشأن تجربة شخصية، فقد حدث أنه لما توفي المرحوم «فريد وجدي»، وكان سلفه في رئاسة تحرير «مجلة الأزهر»، طلبت منه أن يكتب كلمة عن «فريد» وفاء بحقه على المجلة. فرفض في إصرار، لأن رأيه في «فريد» - كما فهمت من الحديث - أنه كان على ما لا يرضى الإسلام في بعض الأمور، إذ كان ينصرف عن أكل اللحوم إلى الاغتذاء بالنباتات، وقد قمت حينذاك بهذا الواجب، ونشرت لي «الأهرام» كلمة ضافية عنه، اقتبست منها مجلة «الحج» السعودية.

حياة محب الدين الاجتماعية:

أما حياة «محب الدين» الاجتماعية.. فإنه نظراً لطبيعته الانطوائية وظروفه المعاشية، وتقديراً لملاسات ضيافته في «مصر».. ظل طوال إقامته

بمصر قليل الظهور في المجتمعات العامة إلا ما كان منه في بعض المناسبات الدينية، رغم شخصيته وكفايته، التي كانت تضعه موضع الصدارة في كل مجتمع ناد، وقد جعل من مكتبته محراباً لا يفارقه حتى إنه لما ابتنى منزله بالروضة ألحقها به حتى لا يضيع وقته في التردد بين المنزل والمكتبة. وظل على هذا الأسلوب إلى أن لقي ربه في أواخر شوال سنة ١٣٨٩هـ وأوائل يناير سنة ١٩٧٠م.

وبعد، فهذه صورة سريعة بخطوطها العريضة.. رسمتها للسيد «محب الدين» بقدر ما سمحت لي صلتني به، ولا شك أن له أصدقاء وأحباء أشد به اتصالاً ووقوفاً على دقائق حياته.. وعلى عاتق هؤلاء تقع مسؤولية الحديث عنه.. حديثاً تفصيلياً، يُزود التاريخ بما ينبغي أن تعرفه عنه الأحيال المتنبلة.. كرجل من رجالات الإسلام.. وقف دونه مناضلاً ومدافعاً على مدى عمره الطويل الذي ناهز التسعين.

وسلام على (محب الدين) في الصّديقين والصّالحين.!!

أبو الوفا المراغي



علي أحمد باكثير^(١)

(١٣٢٨ - ١٣٨٩هـ)

(١٩١٠ - ١٩٦٩م)

للأستاذ: محمد الحسناوي

حياته:

ولد علي في أندونيسيا عام (١٩١٠) من أبوين عربيين، ثم أرسله والده إلى حضرموت ليعيش مع عمّه الذي كان من رجال العلم والدين والأدب، هناك تلقى ثقافته العربية والإسلامية، وأولع بالأدب والشعر الذي أخذ ينظمه منذ حداثة المبكرة.

ثم سافر إلى الحجاز، حيث أقام إلى أن قدم مصر في عام ١٩٣٣ ليلتحق بقسم اللغة الإنكليزية بكلية آداب القاهرة، ويتخرج فيها عام ١٩٣٩، ويحصل على دبلوم معهد التربية عام ١٩٤٠.

وفي تلك الفترة قرأ لشكسبير وتأثر به، وترجم عنه مسرحية (روميو وجوليت) بالشعر المرسل. واشتغل بعد ذلك بالتدريس إلى أن تركه أخيراً إلى مصلحة الفنون بوزارة الإرشاد القومي^(٢).

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة الحادية عشر: (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).
(٢) قضايا جديدة في أدبنا الحديث، محمد مندور، ص ١٤٦ - ١٤٧. ذهب مندور إلى أن أم باكثير أندونيسية، وهذا خلاف ما نصّ عليه كتاب «الثائر الأحمر» (الحسناوي).

اشترك باكثير في سبع مباريات أدبية فاز فيها جميعاً بجوائز القصة والمسرحية من وزارة الشؤون الاجتماعية.

وكان باكثير أول الأدباء المصريين الذين نالوا منحة التفرغ، نالها لمدة عامين ليكتب ملحمة مسرحية عن (عمر بن الخطاب) في تسعة عشر جزءاً، نشر منها اثني عشر جزءاً، وكان قد نال جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام ١٩٦٣^(١).

وفي شهر تشرين الثاني ١٩٦٩ وأوائل رمضان المبارك ١٣٨٩ - أفضى إلى ما قدم على أحمد باكثير مفاجئاً بذلك كل عارفه ومحبيه، فقد كان في مقتبل العمر، وفي قمة الصحة^(٢).

عمله:

لم يزد مقامه في الحياة على وظيفة متواضعة «تُغدق» عليه قروشاً معدودات، فقد اشتغل مُدرّساً في مدرسة «الدواوين» الثانوية بالقاهرة حتى عام ١٩٥٣. وكان ينوي - رحمه الله - أن يستقيل من عمله في القاهرة، ويذهب إلى الكويت ليشرّف على طبع كتبه للمرة الثانية^(٣).

رحلاته:

يقول الأستاذ شوقي السكري: «لقد قابلت الفقيه العزيز في الصيف الماضي في لندن، وكان قد فرغ لتوّه من وضع متاعه في غرفته بفندق «دريان هوتيل» بضاحية بادنجتون، ونزل إلى الشارع يستنشق الهواء العليل، وفي فمه غليونه المشهور، ووجهه الوديع السّمح الهادئ الذي ينمّ عن رضى عميق، ولم أكن أعرف أن السبب هو تمكنه من زيارة لندن لأول مرة في حياته، فقد كنت أظن أنه، وهو الذي تخرج في قسم اللغة الإنكليزية بجامعة القاهرة، لا بد قد زار بريطانيا من قبل. وفاجأني في حديثي معه أنه

(١) الآداب، ع ١٢، ١٩٦٩، ص ٦٣، سامي خشبة (الحسناوي).

(٢) أنور الجندي، الأديب، ع ١، ١٩٧٠، ص ٥٣ - ٥٤ (الحسناوي).

(٣) وديع فلسطين، المرجع السابق، ص ٥٦ (الحسناوي).

طوّف في الأرض ما طوف، وزار بلاداً كثيرة في آسيا وأفريقيا. وأوروبا الشرقية، ولكن لم يتح له زيارة البلاد التي كان يتابعها في دراسته الجامعية^(١).

طبعه وهواياته:

كان يحب الشعر، ويهوى تلاوته، ويتندر بالتأليف المرتجل فيه كلما واثته فرصة المداعبة والمزح. ولكن هواه دائماً كان مع المسرحية التي توفّر على كتابتها في الشطر الأخير من حياته، وتصدّي بها لتناول شتى الموضوعات بطريقة جديدة أو ساخرة. مستفيداً من التاريخ أو الأسطورة، ومُحلّلاً نفسياً أو اجتماعياً لظواهر مختلفة. وما تزال تعليقاته العميقة على المسرحيات التي شاهدها مع الأستاذ السكري في لندن ترنّ في أذن صديقه، وتملاً شعاب نفسه بالحسرة كلما تذكر آماله العريضة في خدمة الأدب^(٢).

لو كان باكثير من «بهلوانات» الأدب لفتحت عليه أبواب الخرائن، ولكنه رجل مبادئ، ضنين بقلمه أشدّ الضنّ، يرفض أن تمتد يد إلى آثاره بحذف أو تحوير، كاتبة ما كانت هذه اليد، ولهذا استكان وهو لا يستكين، وانزوى وهو في الصدارة من أدباء هذا الجيل، ومات بين الكتاب والمحبرة^(٣).

ويقول عنه أحد أصدقائه: لقد كان باكثير يثير حنقي بسكوته الهادئ على سالبه وناهبيه. جدّد في الشعر المسرحي تجديداً رائداً، فسلبوه هذه الريادة، وهو لا ينطق، غنت أم كلثوم شعره فنسبوه إلى غيره. والتهمت «الدواوين المكتبية» حياته، وهو بدخان غليونه يسخر منها... وأكثر ما لوعني من وفاة باكثير أنه مات حزيناً كاسف البال. فالأحاديث التي جرت بيننا في أخريات لقاءاتنا كانت عامرة بأسباب الضجر، حتى لقد فكر في أن يكفّ عن الكتابة بالعربية، ويتحول إلى الكتابة بالإنكليزية التي يتقنها، وفكر

(١) شوقي السكري، الأديب، ع ٣، ١٩٧٠، ص ٥٤ (الحسناوي).

(٢) المرجع السابق (الحسناوي).

في أن يختار لنفسه دار إقامة تنأى به عن الناس، بعد ما نعموا عليه منذ ما أخرج مسرحية «حبل الغسيل»، بل قبل ذلك، وبعد ذلك إلى يوم وفاته^(١).

بواكيره الأدبية:

قال - رحمه الله -: بدأت أنظم الشعر منذ بلغت الثالثة عشرة من عمري. وكان جل اهتمامي بالشعر، ومبلغ اجتهادي للتبريز فيه، فلم أدع ديواناً لشاعر من الأقدمين أو المحدثين وقع في يدي إلا قرأته التهاماً. وكان مثلي الأعلى في الأقدمين أبو الطيب المتنبي، وفي المحدثين أحمد شوقي... كان لاطلاعي على مسرحيات شوقي أثر كبير في نفسي فقد هزني من الأعماق وأراني لأول مرة في حياتي كيف يمكن للشعر أن يكون ذا مجال واسع في الحياة حين يخرج عن نطاق ذاتية قاتلة للشعر، وأن يكون ذا مجال واسع في التاريخ أو حدث من الأحداث... فكان أن كتبت مسرحية شعرية أسميتها «همام أو في عاصمة الأحقاف»، وذلك في مدينة الطائف. وقد كتبت هذه فكان أن كتبت مسرحية شعرية أسميتها المسرحية^(٢).

مواقفه:

كان باكثر - فيما كتبه - أصيلاً في عروبه وإسلامه، وغيرته على تراث أمته وقيمها، وكان لساناً حياً منافحاً عن القيم والمثل واللغة العربية، وكانت مواقفه الشريفة الصلبة مزعجة لخصوم هذه الأمة من دعاة التغريب والشعوبية، فلقي كثيراً من الضيق والانزعاج، وقد كان ملتزماً في أدبه، يعيش من داخل حياة الأمة، ويعالج قضاياها، وخاصة قضية فلسطين التي كتب عنها ١٩٤٤: (شيلوك الجديد) قبل النكبة، ثم كتب بعد النكبة: (شعب الله المختار) و(إله إسرائيل)، ثم كتب بعد النكبة: (التوراة الضائعة). يقول: «إن في التاريخ العربي مواقف عظيمة رائعة ينبغي أن يعيها

(١) وديع فلسطين، الأديب، ع ١، ١٩٧٠، ص ٥٦ (الحسناوي).

(٢) في المسرحية من خلال تجاربي الشخصية باكثر، ط ٢، ص ٥ - ٧ (الحسناوي).

الجيل العربي الحاضر حين تصور في صور درامية مؤثرة، والمعروف أن التاريخ يربط حاضر الأمة بماضيها، ولا حياة لأمة مبتورة الصلة بماضيها، ويرى أن الأسطورة هامة من ناحية استغلالها لمعالجة كثير من مشكلات العصر، يقول: ألجأ إلى الأسطورة كثيراً لأعالج من خلالها مشكلات عصرنا الحاضر، كمشكلة الطموح الإنساني والقلق لدى الإنسان المعاصر في (فاوست الجديد).

ويؤمن باكثير بأن اللغة الفصحى، هي اللغة المحايدة التي يستطيع الكاتب التقدير أن يتصرّف فيها، ويخلق منها ألواناً متنوعة من التعبير يتناسب مع الشخصيات المتنوعة التي ترسمها، وأن مثل اللغة الفصيحة مثل الماء الصافي الذي يمكن تلويحه بأي لون تريد، فيظهر هذا اللون على حقيقته، أما اللهجة العامية فمثلها كمثل الماء الملون لا يمكن أن يظهر أي لون جديد على حقيقته، وعندها أن اللغة كائن حي. ويرى باكثير أن أصلح الشعر للمسرحية الشعرية هو الشعر المرسل المستند إلى التفعيلة لا البيت وحدة نغمية^(١).

آخر ما كتبه:

لعل آخر ما خطّه قلم باكثير: ثلاثيته عن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت، التي لم ينشر منها إلا الحلقة الأولى: (الدودة والثعبان) في النصف الثاني من عام ١٩٦٧^(٢). والمسرحية الحلقة هذه - كما يرى كاتب مقدمتها الدكتور عز الدين إسماعيل - تتضمن ثلاثة أشكال من الصراع: الأول: بين المماليك وبين جيش الحملة على مشارف القاهرة، والثاني: بين المقاومة الشعبية التي يقودها عمر مكرم في القاهرة وبين الحملة، ولم يبرز باكثير هذين الشكلين من الصراع إلا ليؤكد قيمة الشكل الثالث، الذي كان يتزعمه الشيخ سليمان الجوسقي الضريير، وهو الصراع المسلح المنظم الخاضع للتخطيط والتدبير، ضد كل القوى الأجنبية. وهذا

(١) أنور الجندي، الأديب، ع ١، ١٩٧٠ (الحسناوي).

(٢) مجلة الكتاب العربي، ع ٤٠، كانون الثاني ١٩٦٨ (الحسناوي).

الشكل من الصراع هو الذي نجده يمتد في قوة وعنف حتى يبلغ ذروته في ثورة القاهرة الأولى. وقد استطاع باكثر أن يبرز لنا مواقف هذا الصراع على المستويين الفردي والجماعي^(١).

كان هدف الجو الموسيقي - الذي هو هدف المسرحية - تكوين جيش الشعب، عبر ما يشبه التنظيم السري، الذي يؤمن بفكرة المقاومة المسلحة للمماليك والأتراك والفرنسيين جميعاً. والجدير بالذكر أن عنوان المسرحية الحقيقي هو (جيش الشعب) الذي طُمس بعد أن طبع على الغلاف، كما يلحظ القارئ بسهولة، لأمر ذي علاقة بلغز باكثر الذي أشرنا إليه. لذلك لم يستطع الناقد كاتب المقدمة أن يجد مغزى للرمز (الدودة والثعبان) لأنه لا يوجد رمز ولا ما يحزنون، ولكن يوجد (لغز).

أما الحلقتان الأخريان من هذه الثلاثية - كما يستفاد من هوامش كتب المرحوم - فهما: (أحلام نابليون) و(مأساة زينب) اللتان لم تنشرا إلى اليوم، وإن كانتا - كما تذكر الهوامش - تحت الطبع.

محاضرته عن دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار:

هذا بالنسبة لكتابته المسرحية، أما في الأعمال الفكرية فمحاضرته (دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية) التي ألقاها في مؤتمر الأدباء السابع المنعقد في بغداد ١٩٦٩ - وفيها (حدد مهمة الأديب ودور الاستعمار والصهيونية، وأهمية المواجهة بالوحدة العربية، مع تقديم لبعض المقترحات الهامة البناءة في القسم الأول من المقال). وفي القسم الثاني يرى أن (أمام الأديب العربي مجالين للعمل: المجال العربي أو المحلي، والمجال العالمي، ولكل منهما أسلوبه). أما في القسم الثالث فيتحدث عن تكوين الأديب العربي، ويركز على النقطة الهامة (ألا وهي أن يتحلى بصفة تعلو على الصفات كلها وتفوقها في الخطر والأهمية: أعني الأصالة العربية) أي: التميز عن الآخرين، وعدم التبعية الفكرية أو السياسية أو الأدبية.

(١) مقدمة «الدودة والثعبان» (الحسناوي).

صدي وفاته:

أكثر النصوص والإشارات التي ضمناها هذا البحث، اقتبست من المراثي التي سطرها الكتاب بمناسبة وفاة الرجل، وهي التي ساعدتنا في الكشف عن عدد من الجوانب الغامضة من مأساة الراحل. وممن رثاه شعراً الأستاذ محمد عبدالغني حسن، والشاعرة روية القليني من القاهرة، والشاعر حسن عبدالله القرشي من السعودية، يقول القرشي:

فثّه كان على الباغي يدا	تصرع البغي وتجتث الظلاما
والبراع الصلب في قبضته	صارماً كان، وثأراً وانتقاما
كان فذاً، عربياً، شامخاً	ما حنى يوماً عن الذروة هاما
باسماً، والخطب داج حوله	زاهداً، والناس يغشون الحطاما
فاذكريه، كم شهيد، فكره	ينفض الرّؤس، ويستحيي العظاما ^(١)

دارسو أدبه:

درس باكثير - في حياته - دراسات متباينة، فهناك مقدمات مؤلفاته، مثل مقدمة (أخناتون ونفرتيتي) للمرحوم إبراهيم عبدالقادر المازني، وتصدير (همام) للأستاذ حسن كامل الصيرفي، ومقدمة (الدودة والثعبان) للدكتور عز الدين إسماعيل، ومقدمة (الزعيم الأوحّد) للأديب العراقي هلال ناجي.

وهناك دراسات جادة، مثل تحليل (شهرزاد) من الوجهة النفسية للدكتور عز الدين إسماعيل في كتابه (التفسير النفسي للأدب)، ومثل الرسالة الجامعية التي تقدّم بها محمود سيد يوسف عن مسرح الأستاذ باكثير للحصول على دبلوم النقد والبحوث الفنية من معهد التمثيل العالي بالقاهرة، ومثل الأطروحة التي تكتب في باريس^(٢)، ومثل المقال الذي كتبه الأستاذ

(١) المجلة، ١٥٩، ص ٤٨ (الحسناوي).

(٢) شوقي السكري، الأديب، ع ٣، ١٩٧٠، ص ٥٤ (الحسناوي).

عبدالله الطنطاوي^(١) (مع رؤاد الشعر الحر) ومثل المقالتين اللتين كتبهما الأستاذ يحيى العلمي، إحداهما (ابن باكثير)^(٢).

عروض مسرحياته ورواياته:

معظم رواياته عُرض على الشاشة البيضاء، مثل: (سلامة)،
(وا إسلاماه)، كما أخرجت له على مسرح دار الأوبرا مسرحية (الحاكم
بأمر الله)، ومسرحية (مسمار جحا)^(٣).



(١) الآداب، ع ٩٤، ١٩٦٩، ص ٢٠ (الحسناوي).

(٢) المسرح، العدد الممتاز، تموز ١٩٦٦ ص ١٥٠، في هذا المقال يشير الكاتب إلى مقاله السابق الذي نشره في المجلة المذكورة قبل عام (الحسناوي).

(٣) قام الدكتور محمد أبو بكر حميد بجمع تراث باكثير من دواوين ورسائل ومسرحيات وأعمال أدبية لم تنشر قبل، وسيصدر في أربعة عشر مجلداً، وستقوم وزارة التربية اليمنية بنشره قريباً (مجد مكي).



الشاعر محمد وحيد الدين العالي الحيدر آبادي^(١)

(١٢٦٨ - ١٣٢٢ هـ)

للدكتور محمد عبدالستار خان الحيدر آبادي
أستاذ الأدب العربي بالجامعة العثمانية بحيدر آباد

الدولة الآصفية:

مولانا العالي من أئمة الثمرات التي انشأ عنها فردوسنا المفقود (الدولة الآصفية)، فهو من أعلام الدين والشعر والأدب والطب والحكمة. ومن المعروف أن الدولة الآصفية كانت ضمنت للناس رخاء وأمناً ما سمع الزمان بمثله، ووطدت ملكاً على أساس متين ساعده على هذا عقل راجح، ودهاء واسع، ووطنية مخلصه، ورجولة كاملة مع بأس شديد وصفح جميل وهمة بعيدة عن ملوكها ورؤسائها، فرفعوا للعلم والأدب صرحاً باذخاً فأغدقوا العطايا على العلماء والأدباء، والحكماء والفضلاء، وأوسعوا لهم المجالس، وفتحوا لهم الخزائن.

أصله ونشأته وشبابه:

هو محمد وحيد الدين العالي ابن الكاتب محمد كلان، ولد بحارة مغلبورة، وهي حارة قديمة من العاصمة. حكى أن والده رأى قبل ولادته

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الحادية عشرة: (١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م).

بأيام رؤيا أنه اشترى من السوق سمكاً، وخرج من بطن سمكة ياقوت فاستعبر ولياً من أولياء البلد، فعبر أنه يولد له ابن يحصل له الباع الطويل في علوم العربية وآدابها. ولما تولد سماه ذلك الشيخ بوحيد الدين. ومن الأسف أن والده الكريم توفي في صباه.

طلبه العلم وشيوخه:

قد أجمع المؤرخون على أن الناس في الدولة الآصفية كانوا في بحبوحة من عيش رغد، ورخاء دائم، ونعيم مقيم، وعلوم زاخرة، وحياة فكرية خضبة في تنبع كتب الأدب واللغة والمشتغلين بها، وضمنت لهم حضارتهم الزاهرة ألواناً من الترف واللذائذ ما نظن أننا نتمتع بمثلها في عهدنا هذا. ولا أطيل في هذا لأن حياة مولانا العالي كلها خير شاهد مثل وسنأتيك على جليتها.

في مثل هذه الحضارة السابعة، نشأ أديبنا العالي، ونهل منها وعلم، وهذا هو السر في نبوغه وتكيف عبقريته.

انصرف الأديب إلى الطلب، وأقبل على دراسة العلوم المقررة في عصره من المنقول، والمعقول، والطب خاصة حتى أربى فيها على الغاية.

قرأ الأدب على العلامة آغا شوستري، وأخذ الطب والمعقول من مولانا منصور علي خان الطبيب المراد آبادي. وله شيوخ كثيرون غيرهما، وحرى به أن يستكثر من الشيوخ والطلب، ويُجهد في ذلك همته العالية حتى يقتعد الذروة بين الأدباء إذ ذاك حين كانت مدينتنا تغص بالفحول من الأدباء والعلماء.

لم ينعم الأديب العالي بعد نشأته بطمأنينة الاستقرار في بلده، وقديماً كانت تضيق البلاد بالعباقر فرحل إلى بلاد الهند، وأخذ من علمائها، ورحلته إلى مختلف أنحاء الهند سببت تقوية قريحته، وازدياد معرفته بحضارة المشرق وعلومه وعلمائه.

أدبه وشعره:

عبقريّة مولانا العالم تحتاج إلى كتاب لإظهار أدبه البليغ العميق يستجلي فيه فكره العالي. على كلّ حال أريد أن أرسم لحضرة الأديب أعصارهم فنعايشهم ونخالطهم، ونشعر بما شعروا، ونُحلق في الآفاق التي خلقوا صورة قريبة من الكمال بقدر وسعي في الكلمة موجزة فيما يأتي.

مولانا محمد وحيد الدين العالي من الأدباء الموهوبين الذين يتركون لنا مرآة واضحة عن نفوسهم ومجتمعهم، وينقلوننا بسحر بيانهم وقوة روحهم إلى عالمهم، فكان - رحمه الله رحمة واسعة - عالماً متمكناً في الدين، فصيحاً بليغاً، شاعراً كبيراً، صاحب أدب واجتماع وتاريخ وأخبار، فقد نهل الشعر العربي وعُلّ، وشرب كأسه حتى الثمالة إلى أن صار من المنفردين في عصره بالإيغال فيه والغوص على أسرارهِ.

ديوانه «الجواهر الزاهرة»:

ليس لدينا من شعر مولانا العالي إلا قصائد مدحية تشهد بعبقريته في الشعر والآداب. (الجواهر الزاهرة في مدح النبي وآله الطاهرة) مجموع نفيس، يتألف من المدائح التي أنشأها الشاعر في مدح النبي الكريم وآله وأصحابه. فقد طبع هذا المجموع في دائرة المعارف العثمانية للمرة الأولى سنة ١٣١٦ من الهجرة. قال يُقرّظ هذه القصائد الغراء سناد الملك أديب الدولة العلامة السيد علي الشوستري شيخه في الأدب والشعر:

لله درّ وحيد الدين من قِطن	ما لاح لي مثله من ساكني الدكن
رأيتَه ناطقاً بالشعر معترباً	ومِضْقَعاً بالدراري ألسن اللسن
طوبى له بارعاً في العلم مُنْخَرطاً	في سلك مدّاح صفو الله ذي المنن

القصيدة الأولى:

(الجواهر الزاهرة) يشتمل على أربعة قصائد. ففي القصيدة الأولى خمسة وخمسون بيتاً أولها:

هل من يُبْلَغ من أهوى وأعشقه
هل من يجيء بأنباء الأحبة من
هل من ينبئ وَجدي مَنْ شغفتُ به
هل من يقوم ويسري بي إلى بلد
عني تحية شوق حين يرمقه
أرض لها أرج يذكو فأنشقه
حُباً سَطَا بفؤادي كاد يزهره
ثوى به واستناخت فيه أينقه

إذا تأملنا في هذه الأبيات، وجدنا عواطف الحب والود والحنين والشوق إلى سيد الكونين ﷺ، فساق رحمه الله ما ساق من الأبيات على هذا المنوال إلى أن شَرَعَ في مدحه ﷺ، فقال:

محمد سيّد الدارين ليس له
كالورد زهرته والمسك نكهته
خير الثّيبين لا تُحصى فضائله
طوق الرسالة تاج الرسل خاتمهم
وفي آخر هذه القصيدة يقول:

وفي الهند ناء أطال الشوق ليلته
وإنه لأخو وَجْد أقاربه
قد جاء عندك يهمني عينه خزاناً
فانظر إليّ بالطفاف تُزحزح عن
ويستكين لأحزان تؤرقه
مثل العقارب تؤذيه وتقلقه
حتى غدت عَبْرَات الشوق تخنقه
صدري بلباب أحزان تُضيّقه

القصيدة الثانية:

وأما القصيدة الثانية من (الجواهر الزاهرة) فأولها:

إذا شَدُّوا رحالهم وراحوا
فيا لهفي لصخب فارقوني
إذا أقوت منازلهم وأمست
وقفت بها ويجري من جفوني
ولما زاد وجدي زدت رحلي
بدا في القلب حزن لا يزاح
فكم بيني وبينهم انتزاح
طلولاً قد تعفّتها الرياح
دمّ قان على نحري مفاح
إليهم حيث حلّوا واستراحوا

انظر إلى نُدرة المطلع وجودته، وكيف شَبَّبَ بصحبه الذين فارقوه مع أنه يحبهم حباً جماً. ولقد أجاد فيما أتى ببيان حاله حين شدوا رحالهم.

وانظر كيف يتخلَّص إلى مدح النبي الكريم ﷺ والأرض المقدسة التي شَرَفها الله سبحانه وتعالى بأن جعل فيها ضريحاً له ﷺ إلى أن تقوم الساعة:

فلما جئْتُ طيبة طُبْتُ نفساً	بها وحوى على نفس مراح
مقام مثل دار الخُلْد فيه	رياضٌ للصدور بها انشراح
وفي أنهارها من تحت يجري	نمير الماء سَلَسَالُ قُراح
وفيه الرتبة العُلِّيا وفيه	الكرامة والشجاعة والسماح
ومَنْ هو سيِّدٌ للرسَل فضلاً	وفي يوم النُّشور لهم جناح
وخير الناس طُراً من قريش	هم، أهل العُلَى عَرَبٌ صحاح
كريم جوده يحكي الغوادي	إذا ما القوم أهلكها الشياح
وما أشقى رجالاً أنكروه	ألا ثلت عروشهم وطاحوا

هكذا تراه يسوق بيتاً بعد بيت في مدح النبي ﷺ إلى أن ختم هذه القصيدة الغراء المباركة بهذه الأبيات:

رسول الله يحمي كلَّ مرء	أصابته من الدهر الرُّماح
فعطفاً يا رسول الله عطفاً	عليَّ برحمة فيها نجاح
عليك وآلِكَ الشُّرفاء فضلاً	سلام الله ما انبَلَج الصِّباح

القصيدة الثالثة:

وأما القصيدة الثالثة من (الجواهر الزاهرة) القصيدة الغراء التالية، تخميس قصيدة الفرزدق الشهيرة التي أنشدها أمام هشام بن عبد الملك يمدح الإمام سيدنا زين العابدين علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم وأرضاهم عنا. والحق أن قصيدة الفرزدق هذه هي المكرمة المباركة التي يرجو بها الجنة.

وقصة إنشاد الفرزدق القصيدة أنَّ هشام بن عبد الملك لما حج، طاف بالبيت، وسعى أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر لكثرة الزحام. فجلس على كرسي ينظر إلى الناس، وكان معه معشر من أعيان الشام وأمرائها. فبينما هو كذلك إذ أقبل الإمام زين العابدين رضي الله عنه، وكان أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم أرجاً، فطاف رضي الله عنه بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم الحجر. فقال رجل من أهل الشام: من هذا؟ فقال هشام: لا أعرفه. قال ذلك مخافة أن يرغب فيه أهل الشام. وكان الفرزدق الشاعر حاضراً هناك، فقال: أنا أعرفه. فقال الشامي: مَنْ هو يا أبا فراس؟! فأنشد الفرزدق ولله دُرَّةٌ وجزاء الله عنا وعن أهل البيت وعن المسلمين أحسن الجزاء:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا الثقي الثقي الطاهر العلم

فقصيدة الفرزدق هذه مشتملة على تسعة وعشرين بيتاً، وعلى هذه القصيدة المباركة أسس شاعرنا العالي مديحه فرداً كاملاً من أهل بيت النبي الكريم ﷺ في تسع وعشرين قطعة أنيقة عالية مباركة أعلى الله مقامه في عليين، وألحقنا به.

واليك أبياتاً من هذه القصيدة المباركة التي تنكشف بها عبقريته في فن الشعر:

هذا الذي لا تنال الشمس شهرته وليس ينكره من شام غرته
هذا الذي تلثم الأفلاك عفوته هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن من هو هاد سيد الأمم فاق الخلائق من عرب ومن عجم
هذا ابن من هو أهل الفضل والكرم هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا الثقي الثقي الطاهر العلم

مَنْ جدُّه مصطفى كالبحر همته والغيث رحمته والليث سطوته

ناليت بأعلائه الأفلاك دوحته مشتقة من رسول الله نبعته
طابت مغارسه والخيم والشيم

ومنها:

خير البرية قد طابت عناصره غر المناقب لا تخفى مفاخره
زاكي الأرومة لا تُحصى مآثره سهل الخليفة لا تخشى بوادره
يزينه اثنان حسن الخلق والشيم
وانه قمر في وجهه وضح وفي الزمان به نور الهدى يضح
سمُح يفيض لنا من كفه منح حمال أثقال أقوام إذا فدحوا
حلو الشمائل يحلو عنده نعم

وهكذا تراه يأتي بيت بعد بيت في مدح الإمام سيدنا زين العابدين
إلى أن ختم هذه القصيدة العالية هكذا:

أنا بحر ز كرام سادة عظمت فلا تضج بأرزاء إذا دهمت
هم الليوث إذا نار الوغى اضطربت هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت
والأسد أسد الشرى والبأس محتدم

فاضت هباتهم في الناس كالديم حتى بها اشتهروا في العرب والعجم
خير الكرام إليهم منتهى الكرم لا يستطيع جواد بعد جودهم
ولا يُدانِيهم قوم وإن كرموا

قوم بذكرهم الأقوال تنتظم لم يخل مبتدأ عنه ومُختتم
باق ثناؤهم ما يسطر القلم مُقدّم بعد ذكر الله ذكرهم
في كل بَدْء ومختوم به الكلِم

قصيدته في أحوال المسلمين في عصره:

وأذكر الآن القصيدة التي أنشدها مولانا العالي؛ إذ استشهد مولانا
الطاف حسين الحالي (من طليعة الأدباء والشعراء في اللغة الأردوية في

الهند)، يذكر فيها أحوال المسلمين في عصره على روي قصيدة صالح بن شريف الرندي وقافيتها كما أورَدَ صالح بن شريف في قصيدته سقوط المسلمين في الأندلس. فأجاب مولانا العالي عن سؤال الحالي وارتاح فيما اقتضاه ببديع شعره وجودة قريحته. وإليك أبيات من قصيدة الرندي لتقتدر قصيدة مولانا العالي حق القدر:

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسان
فجائع الدهر أنواع منوعة	وللزمان مسرّات وأحزان

ومنها:

تبكي الحنيفة البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الألف هيمان
على ديار من الإسلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما	فيهنّ إلا نواقيس وصُلبان

ومنها:

أعندكم نبأ من أهل أندلس	فقد سَرَى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث صناديد الرجال وهم	قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم	وأنتم يا عباد الله إخوان

وهذا مقطعها:

لمثل هذا يذوبُ القلب من كَمَد إن كان في القلب إسلام وإيمان

ومن البعيد أن يقرأ أحد هذه الأبيات وتجمد عينه، بل يبكي بكاءً مرأً حزناً على ما أتت على المسلمين من الكوارث والنوائب. فكذلك إذا أمعنت النظر في نونية مولانا العالي تجد فيها عبقريته وقدرته الكاملة على اللغة العربية وشعرها، تجد أنها بحر زاخر من الشعر العالي، والأسلوب الجاهلي الساحر الجذاب، لا سيما إذ تراه يُصوِّر الأحوال والوقائع بأسلوب عذب دقيق يدلُّ على براعته الرائعة، وقريحته المطاوعة.

حُسْن الاستهلال وجمال التخلُّص:

انظر كيف يستهلُّ قصيدة كأكثر شعراء الجاهلية بذكرى الأعبة البائنين
بيكي وبيكي ويتشوق ويشكو حيث يقول:

هل من سبيل إلى وَضِل الألى بانوا بيني وبينهم بيدٌ وقيعان
أو للزمان رجوع بالوصال إذا كانت له كالرَّحى في الدور أحيان
أو الدموع رقوء وهي جارية تدمي شؤون إراقتها وأجفان
أنى خمود لنار في الغرام بها ما في الجوانح والأحشاء لهبان

من خصائص الشعر الجاهلي: أن الشاعر يستهل القصيدة بذكر
الأطلال والديار والحنين إلى المحبوب والتحشُّر على فراقه، ثم يخرج من
نسيب إلى مدح أو غيره، ثم يتمادى فيما خرج إليه ويسمى هذا تخلُّصاً،
فكذلك مولانا العالي تخلَّص في قصيدة من النسيب إلى موضوعه، وأجاد
فيه حق الإجادة كما قال ابن رشيق القيرواني في العمدة: (وأولى الشعر بأن
يسمى تخلُّصاً ما تخلَّص فيه الشاعر من معنى إلى معنى، ثم عاد إلى
الأول، وأخذ في غيره، ثم رجع إلى ما كان فيه). فإليك ما يقول:

وفتية عدلونى حين هنيج لي نوح الطيور بكاء فيه أشجان
تقول ما لك تبكي في اشتياقهم لكل طير لها في الأيك ألحان
فقلت: وَيُحْكَم مهلاً لأنى بي حزن تُسْفِره كالنار أحزان
لما مضوا طفقت تعفو ديارهم كأنها مصحف تمحوه أزمان

ثم يذكر عظمة المسلمين السالفة:

أين الألى أدركوا بالسَّعي من رُتب ما لا يُسَامته بدر وكيوان
أين الألى مَلَكُوا شرقاً كما مَلَكُوا غرباً وسادوا الورى حتى لهم دانوا
أين الألى طلعت شهب العلوم بهم حتى استنارت بها في الأرض بلدان
أين الألى رتقوا فتق الورى وحموا ديناً به نسخت في الناس أديان
أين الألى نور الأرجا سراجهم وزال عنها بهم كفر وطغيان

ثم يذكر سقوط المسلمين في العصر الحاضر:

خلف أضاعوا هدى أسلافهم ونسوا ما قد أتاهاهم به للضبط قرآن
فلا لثقبهم رأب لأنهم كل امرئ منهم في الحق سهوان
إن حدثوا كذبوا إن خاصموا فجروا وإن هم ائتمنوا أف لهم خانوا
إن الزمان بنا خلّت نوازله ي موج موجاً له كالبحر طغيان

هكذا ساق بيتاً بعد بيت يُصوّر فيه أحوال المسلمين إلى أن ختم هذه القصيدة بمدح النبي الكريم وآله الأطهار لأنه يقول:

وكل قول من الأقوال لم يك في مدحه فهو قول فيه نقصان
وإليك ختام هذه القصيدة:

نفسي فداء رسول كان قدوتهم من أوضح الحق فيهم وهو عريان
ما أورق العود مخضراً وما سَجعت حمامة الأيك يوري شوقها البان
صلّى على المصطفى والآل كلهم ربّي الذي هو ذو الإكرام مئان

هذا ورأيت أن مولانا العالي شاعر فحل مطبوع موهوب، والأدب هبته الأصلية، وإنه على كل حال في الطليعة من بلغاء الدولة الآصفية شعراً وأدباً.

رثاؤه لمصطفى كامل:

وأخيراً أذكر فيما يأتي أبياتاً من رثائه للشيخ مصطفى كامل باشا المصري، والرثاء نوع من المدح يضاف إليه شيء من التحسّر والتلهف والتفجّع ليعلم أنه مدح لميت، وأفضله ما جمع بين هذين الأمرين: جمال الأسلوب، وجلال المعنى، ودقة الخيال، واستعظام المصيبة.

فمرثية مولانا العالي طافحة بالألم المبرح، مغمورة بالحزن، وأسلوبها أسلوب الفحول؛ ديباجة منفحة، ومعان نبيلة جلية، وألفاظ جزلة، وهذا هو الرثاء الجيد. وإليك بعض الأبيات منها:

لقد حلَّ رُزءٌ بالبريَّة كارث
نأى مصطفى عن أهل مصر بموته
وإن تفقد القوم الأجانب واحداً
ولكننا بالعكس من حيث لا نرى
فمهما يغيب عنا كريمٌ فلا يقيم
تهوُّنُ الرزايا بعده والحوادثُ
فمن بعده للعزُّ والمجد وارث
تجد من له في الفضل ثان وثالث
بدليل فقيد حين أرداه حادث
كريم لأسمى قدره متوارث

ويختم مرثيته هكذا:

فمن بعده في مصر يحمي الأنام من
ومن بعده في اللمم يفرغ جهده
ومن مثله يهوى المهاوي جاهداً
له عند خلاق البريَّة نعمة
سقى ربنا المولى بأمطار عفوه
بحور شرور مَوْجُهَا متلاطث
إذا انتشرت للمفسدين المشاعث
لرفع الألى هم للعهود نواكث
وأجر إلى يوم الجزا فيه ماكث
مدى الدهر قبراً جسمه فيه لاث

ليس شعر مولانا العالي الذي يستوفي إحدى نواحيه من هذه الأوراق،
لأنه أديب عالمي سبق عصره قروناً، وإني لأرجو - إن شاء الله تعالى - أن
أتيح لنفسي فرصة أخرى فأتكلم عن شعره خاصَّة إذا تيسَّر لي جمع ما تفرَّق
من شعره.

بيت فضيلة وشرف:

البيت الذي درج فيه مولانا العالي بيت فضيلة وشرف، فلا عجب إذا
نشأ كريم الخلق، جَمَّ المزايا، طيب النفس.

ذكر فضيلة الأستاذ الدكتور عبدالحق رحمه الله (رئيس القسم العربي
بالجامعة العثمانية سابقاً) أنه كان من عاداته الكريمة التقدُّم في السلام على
تلميذه أو غيره، وإن كان أصغر منه سناً.

كان يلبس لباس العلماء العاملين - العمامة - أو القلنسوة الرومية فوق
رأسه، ولا يزال يضع المنديل على كتفه. كان طبيباً حاذقاً يجمال المرضى،
ويعالج الغرباء مجاناً.

اقترحت الدولة الآصفية أن يلتحق بالجامعة العثمانية ليكون أستاذ القسم العربي بكلية الآداب، ولكن الإدارة الطبية لم ترض بأن تفارقه.

اشتغاله بتصحيح أمهات الكتب:

وكان رحمه الله مع ذلك يشتغل بتصحيح أمهات الكتب التي كانت تطبع وتنشر في تلك الأيام بدائرة المعارف العثمانية إلى أن مات رحمه الله.

وفاته:

استقرت النوى بهذا الأديب الجليل، والطبيب الحاذق الكبير - بعد أن خدم الشعر والأدب والعلوم والمعاهد - التاسع عشر من شهر شعبان المعظم سنة ١٣٢٢ من الهجرة بعارضة القولنج، ودفن بتكية مغل فقير - مقبرة قديمة مشهورة بالقرب من حارة علي آباد بجنوب العاصمة - وكان عمره إذ ذاك أربعاً وخمسين عاماً، رحمه الله وجزاه عن العلم والدين أحسن الجزاء ونفع بعلومه القريب والبعيد.





الشيخ عبد الوهاب الحافظ الملقب بـ (دبس وزيت) (١)

(١٣١١ - ١٣٨٩ هـ)

(١٨٩٢ - ١٩٦٩ م)



من أعلام الفقه وأشراف الأمة:

لقد شيعت دمشق منذ أيام علماً من
أعلام الفقه، وواحداً من أشراف الأمة حملة
الكتاب الكريم، كان أمة في رجل جمع
أشتات العلوم، وأخذ بأطراف الفضائل في
جميع الفنون.

ولقد كان أحد العلماء الأجواد، الذين نذروا أنفسهم لخدمة الإسلام،
والذود عن شريعة هذه الأمة، فلم يدخر وسعاً، ولم يملك طاقة إلا بذلها
لإعلاء كلمة الله تعالى في الأرض، ثم خرج من هذه الدنيا صفر اليدين من
حطامها لا مال، ولا جاه، ولا منصب ولا سلطان... ولكن صيت حسن،
وذكر كريم، وأياد بيض، وعلم يتفجع به.

لقد انضم الفقيد الغالي إلى القافلة من الأعلام الذين خسرتهم الأمة،

(١) حضارة الإسلام، العدد السابع، السنة العاشرة: (١٣٨٩ - ١٩٦٩). وتنظر ترجمته في
«تاريخ علماء دمشق» ٨٢٩/٢ - ٨٤١ لابن أخيه الأستاذ الفاضل محمد مطيع الحافظ.

وكأنني بالأيام السود التي أخبر عنها الصادق المصدوق عليه السلام قد حل مواعدها،
وآن أوانها. فقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله تبارك وتعالى لا يقبض
العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا
لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا
وأضلوا»^(١).

أسرته:

ولد الشيخ رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة اثنتين وتسعين وثمانين مئة
وآلف للميلاد، الموافق لسنة إحدى عشرة وثلاثمائة وألف للهجرة، في
دمشق، في أحد أحيائها القديمة وهي حي العقبة، من أب كريم هو الشيخ
عبدالرحيم بن عبدالله - عبدالقادر بن عبدالوهاب دبس وزيت الذي ينتهي
نسبه إلى العلامة العارف بالله تعالى الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله تعالى
عنه. وقد اشتهرت أسرته بألقب الحافظ لأن معظم أفرادها من الحفظة الكرام.

طلبه للعلم وشيوخه:

سار الشيخ رحمة الله تعالى عليه، على سنة آبائه وأجداده، فتتلمذ أولاً
على يدي والده المرحوم الشيخ عبدالرحيم، الذي أقرأه القرآن، وقاد على
تعهده ورعايته، حتى أتقن حفظه ولما يبلغ بعد سن الحلم. ثم أعاد قراءته
على الشيخ المرحوم محمد سليم الحلواني، شيخ قراء دمشق في ذلك
الحين.

كما أغرم بطلب العلم منذ نعومة أظفاره، فاتصل رحمه الله تعالى،
بكبار علماء عصره، وتلقى على أيديهم. فاتصل أولاً بالشيخ المرحوم
محمود ياسين، وقرأ عليه الفقه الشافعي وعلوم العربية. ثم تعرّف على مفتي
الديار الشامية المرحوم محمد عطاء الكسم الذي توسّم فيه بوادر الذكاء
والنجابة، فأقرأه على الفور حاشية (ابن عابدين) من باب الإجازة. ولما
أكملها أعاد عليه قراءتها كاملة مرتين.

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبدالله بن عمرو.

ولقد كانت هذه المرحلة من أخصب مراحل حياته رحمه الله تعالى، وأعمقها تأثيراً. فقد لازمه فقيدنا ما يقرب من ثلاثين عاماً ملازمة حقيقية، لا تعرف الفتور أو الانقطاع، فكان يحضر دروسه العامة والخاصة، ولم يتخلف عنها كل هذه الفترة الطويلة إلا ليلة زفافه.

وقد تلقى على يدي شيخه الكسم جميع أنواع العلوم، من فقه، وحديث، وتفسير، ولغة، وبلاغة، وعروض، ومنطق وغير ذلك. وكان خير تلميذ لخير أستاذ، كما كان أثيراً عند الشيخ، بارزاً عنده، محبباً إليه، يقربه ويفخر به، وكلّفه بالتدريس، وإقراء الناس نيابة عنه في مسجد «يلبغا».

نشره للعلم ودروسه:

وقد توجه أثناء طلبه للعلم إلى نشره بين الخاصة والعامة، فكان على ضعف جسمه، وانحراف صحته، لا يتأخر عن إعطاء الدروس في بيته ومسجده حتى آخر لحظة من حياته.

كان رحمه الله تعالى لا يستطيع المشي أكثر من خطوات لضعف جسمه، ومع ذلك فإنه كان يكابد ويُعاني مشقة الوصول إلى المسجد لإلقاء الدروس على طلابه مبتغياً وجه الله تعالى.

كان رضي الله تعالى عنه لا ينقطع عن إعطاء الدروس صيفاً ولا شتاءً، رغم أن البرد كان يؤثر عليه أكثر من تأثيره على الطفل الرضيع، ومع ذلك كان لا يتأخر عن درس، ويأتي إلى الدرس وصدره يخفق من التعب، كان رحمه الله تعالى مُدَقِّقاً باحثاً، يُنَقِّب في بطون الكتب ليتحقق من المسائل المعروضة عليه من شتى الأقطار الإسلامية.

أخلاقه:

كان - رحمه الله تعالى - زاهداً في الدنيا، مُعرضاً عن زخارفها وبهارجها، ومناصبها، وزينتها، عُرضت عليه وظائف كثيرة من كل من دمشق وبيروت وغيرهما من العواصم الإسلامية فأبأها، وعُرضت عليه أمانة

الفتوى في زمن الشيخ محمد الأسطواني، فرغب عنها، كما عُرضت عليه إمامة مسجد دمشق العظيم وغيرها من المناصب فأبأها. كان يكره مقابلة ذوي السلطان، ومصانعتهم ومداهنتهم.

عُرف - رحمه الله تعالى - بورعه الشديد في تحرّي الحلال في كل ما تقع عليه يده، حتى إنه أحب أن يشتري كفنه في حياته من ماله الحر الخالص الذي لا تشوبه شائبة.

كما عُرف بمحبته الشديدة للرسول الكريم ﷺ، وتقفي آثاره، واتّباع سنّته، ومواظبته على زيارة قبره المعظم، وزيارة بيت الله الحرام كل عام، ولكنه قبل وفاته بثلاث سنوات أقعدته العلة عن هذه الغاية، فكتب إلى شيخ المدينة المنورة الشيخ إبراهيم الختني رحمه الله لينوب عنه في قضاء هذه الفريضة.

الدروس الدورية التي كان يقوم بها الشيخ:

وقد أحبّ الشيخ رحمه الله تعالى أن ينقطع للعلم، وللعلم وحده، فقبل بوظيفة التدريس في مساجد دمشق، وبخاصّة المسجد الأموي الذي درّس فيه قرابة ثلاثين عاماً، ومسجد التوبة الذي ألقى فيه معظم دروسه الخاصة، وفي مدارس جمعية الغزاة للعلوم الشرعية، وكان يلقي في اليوم ما يزيد على عشرة دروس، بين فقه، وأصول، وتصوّف، ونحو، وتجويد، وحديث، وغير ذلك، وقد أحاط به تلامذته من أهل الحي ومن خارجه، ولازموا دروسه الخاصّة ملازمة دائبة، فأفادوا من الشيخ رحمه الله تعالى، ونهلوا من معينه، حتى غدا منهم الفقيه، والمفتي، والخطيب، والإمام، لا في سورية فحسب، بل في بقية الأقطار الإسلامية كتركيا حيث أصبح فيها تلامذته منهم خطباء، ومدرسين، ومفتين.

رحمَ الله تعالى الشيخ، لقد كان أباً للفقراء والمساكين، بل أباً للجميع، تُحلُّ عنده المشكلات وتُسوّى بآرائه الخصومات.

تلك هي قَبَسَات من حياة هذا العلامة الكبير سيدنا الشيخ عبدالوهاب

دبس وزيت شيخ قراء دمشق، الذي توفاه الله تعالى بعد حياة حافلة نذرهما لخدمة هذا الدين، وإعلاء شأن هذه العقيدة، من أجل أن تسود في الأرض شريعة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

لقد ترك رحمه الله تعالى بوفاته فراغاً كبيراً في فقه الحنفية، وعلوم القرآن وتجويده، نرجو من المولى الكريم أن يُخرج من هذه الأمة المسلمة مَنْ يسدّ هذا الفراغ، ويحمل هذه الرسالة بأمانة وإخلاص كما أداها عليه رحمة الله تعالى.

وفاته:

وقد اختاره الله تعالى ضيف جنابه، ونزّل رحابه بعد ظهر يوم الأربعاء العاشر من رمضان الذي هو من شهور سنة تسع وثمانين وثلاثمائة وألف، الموافق للتاسع عشر من تشرين الثاني سنة تسع وستين وتسعمائة وألف. تغمّد الله الفقيد برحمته، وأسكنه فسيح جنته، وجزاه عن هذه الأمة كل خير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.





الشيخ محمد بن إبراهيم^(١)
عبد الرحيم وعبد

(١٣١١ - ١٣٨٩ هـ) (١٨٩٣ - ١٩٦٩ م)

الدكتور عبد الرحمن رافة الباشا^(٢)

إن مصاب الأمة بفقد العالم من علمائها مصاب جلل، وذلك لما يحدث من تلك الثلمة المخيفة في طريق المسلمين. ولقد هزتنا وفاة العالم العامل الشيخ محمد بن آل الشيخ إبراهيم هزة زاد من ألمها تأخر وصول النبأ، مما جعلنا نقصر في أداء شيء من حق الرجل، وإن كنا قد لا نبلغ بعض ما له من حق.

ولقد كان حسناً ما قام به لفيف من العلماء والكتاب - شكر الله لهم وأجزل ثوبتهم - فيما نشروا من مقالات وكلمات في العدد الخاص من جريدة «الدعوة» تناولت الكثير مما يجب تناوله من حياة الفقيه رحمه الله، ونحن إذ نقدم لقرائنا مقالاً منها للأخ الدكتور عبد الرحمن رافة الباشا رمز وفاء للعلم وأهله، نسأل المولى سبحانه وتعالى أن يعوض المسلمين بالشيخ الأجل خير العوض، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثامن، السنة العاشرة: (١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م). وقد جمع الأخ الكريم البحاث المسند المؤرخ الشابة الشيخ محمد بن عبد الله آل رشيد ما كتب عن الشيخ محمد بن إبراهيم من مقالات وكلمات في كتاب صدرت طبعة الثانية ١٤٢٠ في مكتبة الإمام الشافعي بالرياض، ولأستاذنا العلامة الشيخ عبدالفتاح ترجمة إضافية لمفتي المملكة في كتابه «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر».

(٢) ولد عام ١٩٢٠ في بلدة أريحا شمال سورية، وتلقى دراسته الابتدائية فيها، ثم تخرج في المدرسة الخسروية بحلب، ونال شهادة العالمية من كلية أصول الدين بالأزهر، وشهادة الليسانس في الأدب العربي من كلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم درجتي الماجستير والدكتوراه من الجامعة نفسها. اشتغل بالتدريس والتأليف، وانتقل للتدريس في جامعة محمد بن سعود بالرياض. وأسهم بإنشاء رابطة الأدب الإسلامي. توفي رحمه الله في يوم الجمعة ١٨/٧/١٩٨٦ في مدينة إستانبول بتركيا، ودفن بمقبرة الفاتح.

رحم الله فقيد الإسلام والمسلمين - محمد بن إبراهيم - فقد كان رجل علم وعمل.

لقد اجتمع له ما تفرق في كثير من الناس، والتقى في شخصه ما لو وزع على قبيل من الرجال لجعل كلاً منهم رجلاً.

أعباء جسام:

ألقيت على كاهله أعباء جسام تنوء بها العصابة من أولي القوة فنهض بها بحزم المؤمن، وصبر المجاهد، وروية الحكيم.

بذل للمهام التي أنيطت به نفسه، فدانت له، ومنحها وعيه، فجرت على عينه، وأولاهما نصحه، فسارت رشيدة سديدة لا تنحرف ولا تنحاز.

حكّم في أعماله شرع الله، فكان له في ذلك عاصم من الخطأ، واسترشد في سيرته بنهج الصدر الأول، فاستقامت له وبه الأمور، واستشعر مسؤوليته أمام الله فزاد عن شرعه أكرم الذود، ونافع عن دينه أصدق المنافحة.

العلم وتربية الأجيال:

أيقن أن العلم هو الوسيلة القويمة لتربية الأجيال، وإعداد الرجال، فعلم بنفسه من صدر شبابه إلى حين وفاته، وعلم بغيره، فعمل على افتتاح المعاهد والكلليات، ورعى شؤون تعليم البنات، واستقدم لذلك الأكفاء الثقات، فأفاض على أبناء أمته الخير والبر والنور، فما من امرئ ذي ثقافة في هذا البلد إلا وهو شيخه، أو شيخ شيخه، أو حسنة من حسناته، أو وصل إليه أثر من آثاره بطريق أو بآخر.

اهتمامه بشؤون القضاء:

أدرك بفطنته أن العدل روح المجتمعات وأساس الملك فأولى شؤون

القضاء عيناً ساهرة لا تغفل، وقلباً يقظاً لا يهمل، وعقلاً نيراً لا يخدع حتى اطمأن الناس إلى حقوقهم، واستراحوا إلى عدل قضائهم.

كريم شمائله:

لقد استطاع الفقيد العظيم أن يكون رجل علم وعمل لما كان يتمتع به من جليل الصفات، وما يتحلى به من كريم الشمائل.

تبيينه وتثبته:

ولعل من أعظم مزاياه أنه لم يكن - أدناً - فقد كانت تلتقي عنده الشكايات، وتكثر في ساحته السعابات، فكان يتبين ويتثبت، ويتحرى، ويترىث حتى لا يصيب أحداً بجهالة، وهذه فريدة من فرائد الرجال.

لا ينتقم لنفسه:

وكان لا ينتقم لنفسه، فلکم بالله بعض الناس بجهالة أو بغير جهالة، فنسبوا إليه ما لم يفعل، ورموه بما ليس فيه فربما غضب، وربما تأثر، ولكنه ما خطر له مرة أن يثار لذاته أو ينتقم لنفسه، وإنما كان يدفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينه وبينه عداوة كأنه ولي حميم.

معرفة أقدار الناس:

وكان يعرف الناس أقدارهم وينزلهم في منازلهم، فلا يرفع من لا يستأهل أن يرفع مهما كانت الملابسات، ولا يضع من لا يستحق أن يوضع مهما كانت المؤثرات، فأدرك بذلك كل الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

تواضعه الجَمّ:

وقد كان متواضعاً جَمّ التواضع، لم يزهه منصب، ولم تفتنه دنيا، ولم يغيره سلطان، وتلك أكبر مزايا الرجال.

هذه بعض السمائل التي جعلت من الفقيد العظيم - محمد بن إبراهيم -
رجل علم وعمل، ويسرت له أن ينهض بما نهض به من جليل الأعباء.
أجزل الله مثوبة الفقيد العظيم وأكرم مثواه كفاء ما قدم بين يدي ربه
وأتمه وألهم أسرته الكريمة الصبر وعوضها الأجر.





(١٣١٠ - ١٣٩٠ هـ)

(١٨٩٣ - ١٩٧٠ م)

بقلم: محمد سعيد الفيومي

رَجَمَ اللَّهُ أَسَاتِذَنَا الْفَاضِلَ الْحَبِيبَ أَبَا يَاسِينَ، وَرَضِيَ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

سَلَامٌ عَلَى رُوحِهِ الرُّضِيَّةِ الطَّاهِرَةِ الْعَذْبَةِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

عن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «ليس من أمتي من لم يَجُلْ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه» رواه أحمد بسند صحيح، والطبراني والحاكم في معناه^(٢).

وإنّ أدنى الحق عليّ أن أذكر بعض الشيء عن هذا السيّد الفاضل، الذي كان أُمَّةً في رجل، جَمَعَ أَشْتَاتَ الْعِلْمِ وَالْفَضَائِلِ، وَنَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا، أَنْ يَجْعَلَهُ فِي عِدَادِ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمْ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ

(١) حضارة الإسلام، العددان: السادس والسابع، السنة الحادية عشرة: (١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م).

(٢) أخرجه أحمد (٦٧٣٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٦٣) من حديث عبدالله بن عمرو، والحديث صحيح، تنظر شواهد في التعليق على «المسند» ١١: ٣٤٥.

الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٥﴾... ﴿[الفرقان: ٦٣، ٦٤].

فرحمك الله يا فقيد الإسلام والمسلمين، يا من ودعنا وداع الأحباب،
وسنلتقي إن شاء الله لقاء الأحباب المُتَحَابِّين في الله مع سيدنا وحبينا
محمد ﷺ.

اسمه ولقبه:

لقد عرف فضيلة الأستاذ الشيخ محمد صالح بن أحمد بن الحاج
عبدالقادر العقاد في أوساط العلماء بلقب (الشافعي الصغير).

وكانت نشأته في بيت عُرف بالتقوى والصلاح والتجارة والصناعة
والبذل والخير... وكان في نفسه أثر جدته لآبيه التي كانت تقوم الليل إلا
قليلاً. فنشأ في ذلك الفردوس الصغير من البيت المؤمن الرفيع بتهذيبه
وأخلاقه، وكان من ذلك خُلُق الأستاذ طبعاً أكثر منه تطبعاً.

دراسته وشيوخه:

ابتدأ العلم في مدرسة الجُفْمُقيّة (المعروف بناؤها الأثري شمالي
الجامع الأموي)، وبقي فيها حتى الصف الخامس، حيث بلغ العاشرة من
العمر، وأخذ خلالها في حفظ كتاب الله عز وجل غيباً، وتطلع فؤاده إلى
اكتساب الفقه، فترك متابعة دروسه في هذه المدرسة، وبدأ يتلقى الفقه
الشافعي على يد فضيلة الأستاذ الشيخ عيد السفرجلاني (مدير تلك المدرسة
نفسها) فرعاه رعاية الأب لابنه، وأقبل عليه بمثل إقبال الفتى الصالح على
ربه، وتدرّج هو في طلب العلم الشرعي، وانقطع له في شبابه، فكان
يستيقظ باكراً، ويصلي الفجر، ثم يخرج إلى ربوة دمشق - وكانت في ذلك
الحين ظاهرة الهدوء، رائعة الجمال الطبيعي، خالية من البنيان - وكان
يصطحب معه زاده من الكتب، وبعض الطعام، وكان طعاماً خفيفاً غالباً
قطعة خبز وجبن، فإذا انقضى النهار عاد إلى منزله.

وقد استمر على هذا الحال قرابة عامين، وقد أخبرني أن تلك المرحلة كانت من أخصب مراحل حياته وأعمقها.

وقد نال رحمه الله من فضائل العلم والخلق حظاً موفوراً على أيدي كبار الأساتذة في دمشق وفضائلها الأعلام الذين نذكر منهم:

- الفقيه الشيخ عبدالوهاب الشركة، والفرضي الكبير الشيخ مصطفى القباني، والمحدث الكبير والفقيه الجليل الشيخ عبدالمحسن الأسطواني (القاضي الشرعي الممتاز المتقاعد)، فقد استقبله تلميذاً رغم بلوغ الشيخ يومئذ المئة من العمر، وكان علماً من الأعلام، مشهوراً برجاحة عقله وقوة ذاكرته مع متانة صحته ونشاطه، وخضه بدرس خاص لما عرف فيه من النبوغ والفطنة والإخلاص والعمل بما علم.

ثقة أساتذته به:

لقد دأب منذ نشأته الصالحة على التعليم والمطالعة والبحث الدقيق، يتبين ويتثبت ويتحرى حتى أصبح موضع ثقة أساتذته، والمُحِبِّ إليهم والمفتخرين به، وأخذوا يوجهون إليه الكثير من مسائل الاستفتاء التي ترد عليهم من كل مكان.

اشتغاله بالصناعة والتجارة:

وكان شأنه في ذلك مع ما كان عليه شغلاً في الصناعة والتجارة، وقد مارس هذا الأمر نزولاً عند رغبة والده برأ به وطاعة لأمره، وقد عمل معه في معمل جده لنسج غزل الحرير الاصطناعي (الصايات)، ولما اتسع أفقه العلمي وشعوره بالثقة اشتد، نظم دروسه العامة والخاصة حتى ملكت عليه معظم وقته.

انصرافه إلى العلم:

وكان منها ما يزاحم عليه عمله حين يحضر إليه من طلاب العلم ليقرر بعض الدروس في داخل المعمل أيضاً، واستمر على ذلك حتى رأى أن

العمل بالتجارة لا يخلو من الوقوع في الشبهات والربا، فأوقف العمل وصفى الشركة، وانصرف بكليته لخدمة العلم من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر دون أن يقطعها حتى ولا ليلة زفافه أو زفاف أحد من أبنائه الثلاثة الوحيدين: (ياسين، وعبدالعزیز، وعبدالقادر).

دروسه العامة والخاصة:

وكانت دروسه العامة تقتصر غالباً على الفقه بمختلف مراحل ومستوياته وأبوابه، أما الخاصة منها فكان يلقي مع الفقه وعلوم الآلات دروساً في القرآن الكريم وتفسيره، والحديث الشريف ومصطلحه.

وكان مع سعته في علم التوحيد وتعليمه بمستوياته كافة، يرى أن للعقل البشري حداً لا يتعداه يقتضي التسليم والتفويض بما ثبت في الكتاب والسنة فلا يخوض في المتشابهات والغيبات بعيداً عن الوقوع فيما لا يعلم، مقتصرأ على تنزيه المولى الكريم جل سبحانه عن أن يشبه شيئاً أو يشبهه شيء، ويرد قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْآثَرُ وَأَهُم مِّمَّنْ هَدَىٰ ٱللَّهُ ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولم تكن تلك الدروس للبحث وللبحث وحده، بل كانت روحه السامية الزكية الطاهرة الطيبة تؤثر في طلابه تأثير الروح في الجسد، شاحداً همهم محملاً إياهم تبعاتهم تجاه هذا الدين الحنيف، لافتاً انتباههم إلى أن طالب العلم يجب أن يكون كالنحلة تمتص رحيق أفضل الأزهار لأجود الثمار، دون أن تقتصر على زهرة واحدة لتسلك منه ذلك الشراب الذي فيه شفاء للأبدان، وكذلك شأن شفاء الأرواح فإنه يستوجب التوسع بالعلم من مختلف مناهله وأزاهيره.

لباسه:

وكان يرتدي الثياب اللطيفة بما فيها العباءة الرقيقة وما عهدته أنه ارتدى الصوف ولا الغليظ من الثياب في أشد أيام البرد، أما في الصيف: فكان يلبس حلة بيضاء ناصعة.

طعامه:

أما طعامه فكان يتناول قليله دون أن يصل بحال إلى الشبع، وجبة في الصباح وثانية في المساء عقب صلاة العشاء، أما في فترة الظهر: فقد يتناول قطعة كعك أو نحوها.

وأذكر له حديثاً ذكره في منزل الأخ الفاضل الحافظ الجامع السيد محمد سكر^(١) (منذ حوالي ١٥ عاماً)، وخلال درس فقه من بعد عصر يوم الجمعة فإنه حين قدم الشاي كالعادة (وسئل عن إمكانية أخذ نصيب منه) - خلافاً لعادته - وافق يومئذ، ولكن على نصف كأس، فعجبنا لموافقته هذه، ولو أنها على نصف كأس، وسأله أحد الحضور: عن سبب قبوله لذلك على خلاف عده؟ فقال: إنني أثقلت اليوم بالطعام، فقد قدّمت إليّ دراقة، وأشار بأصابعه الثلاث إلى حجمها، فرأى أن ذلك مما يقتضي (لمخالفة عادة حسمه) أن يشرب لها هذا القدر من الشاي مَعُونَةً على الهضم.

كثرة عبادته:

لقد كان لطيف الجسم، معتدل القامة، طبيعيّ الابتسامة، كثير العبادة والذكر، والصلاة على رسول الله ﷺ، يستيقظ قبل الصبح بأكثر من ساعتين ويقل من النهار دقائق معدودة فقط.

بيعه وشراؤه:

وكان يعيش عيشة القناعة والرضا، حياة لا إسراف فيها ولا تبذير، يبتاع حاجاته بنفسه.

أما بيعه وشراؤه: فكان مَدَارهما على خُلُق المسلم المُتَّصِف بلسان

(١) توفي فجر الأربعاء ١٢ شعبان ١٤٢٩، الموافق ٢٠٠٨/٨/١٣م عن تسعة وثمانين عاماً. ونشرت ترجمته في موقع «الإسلام في سورية»، وسترّد ترجمته في كتاب التراجم التالي لهذا الكتاب بعون الله عزّ وجل.

النبوة بأنه: «سَمَحَ إذا باع، سَمَحَ إذا اشترى، سَمَحَ إذا اقتضى»^(١)، فكان لذلك يبدأ بالسؤال عن السعر ولا يماكس فيه، فإذا رغب بالشراء طلب المقدار الذي يريد شراءه، ثم يسأل ثانية البائع: كم تريد؟ فيدفع له، وهذه الصورة من أروع وأسمى أنواع الشراء وأفضلها، علماً بأنه كان لا يبتاع من أصحاب المعاصي أو ممن يبيع المحرمات أو ما دونها، ولا يصرف المال من عندهم (كبائعي الدخان ومعلبات اللحوم غير السمك).

أما كسبه: فكان من مال التجارة، أما بعد تركه إياها: فأصبح من إيجارات محلاته دون أن يتناول من مال الحكومة أو الأوقاف أي شيء.

كراهته تقبيل يده وفتواه في استحبابها لزهد صاحبها أو صلاحه:

وكان متيناً، قويّ البنية مع لطافته في جسمه، وإذا ما حاول أحد تقبيل يده، ولو من خاضعة طلابه وجد من قوته العُجاب، حيث إنه كان يكره ذلك قائلاً: (أنا شقفة أيش) هذا التواضع الذي كان خُلُقاً أصيلاً في نفسه كما يقول: (شو أنا لسيد الخلق؟! فهل كان الصحابة رضوان الله عليهم يقبلون يده الشريفة)؟!^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٦)، وابن ماجه (٢٢٠٣)، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى».

(٢) نعم كانوا يقبلونها، وينظر: حكم تقبيل اليد، لفضيلة العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، وأنه جائز مشروع على وجه السر والتكريم لأهله، وفيه ردٌّ على من استدل بكراهته ﷺ لتقبيل يده الشريفة بأن قال: «هذا إنما تفعله الأعاجم بملوكها». وأنه حديث ضعيف جداً أو موضوع، وفيه نكارة ظاهرة من جهة متنه، وهو ماقض لما صَحَّ عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قَبِلَ يده الشريفة وأطرافه الكريمة، كما هو مذكور في السنة الصحيحة، وقد نشرت فتوى الشيخ عبدالفتاح في مجلة «حضارة الإسلام»، ثم نُشرت في موقع رابطة العلماء السوريين بإشرافي. ولفضيلة العلامة الشيخ صالح العقاد المترجم له، فتوى في حكم تقبيل اليد نشرت في العدد السابع من السنة الثالثة من «حضارة الإسلام» (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م)، ص ٨٠٣ هذا نصها وجوابها: =

موقفه من خصومه:

لقد كان يدفع بالتي أحسن، وما كان له أن يغضب لغير الله، وهو في ذلك لا يرهب في الله أحداً، ولا تأخذه لومة لائم، وكم كان خير قدوة في مقابلة أولئك الحاسدين الذين أرادوا أن ينالوا منه بجهالة وسفاهة، وكان يكثر في مثل هذه الأحوال الدعاء لخصمه بقوله: (اللهم اهده، اللهم أصلحه).

سماحة نفسه:

وكان من آخر ما حَدَّثَ له قبل وفاته بأيام رحمه الله أنه كان ذاهباً من منزله إلى الجامع لصلاة العصر في يوم الجمعة، وفي ذلك اليوم القائط اندفع نحوه بسرعة وعنف شاب يركب دراجة فصدم الشيخ الجليل الفاضل، وأصيب برضوض مختلفة، وشُجَّ شجاً دامياً، ولما حاول البعض التحقيق في الحادث قال بنفس وضية كريمة: (هل كان هذا الشاب يتعمد ذلك، سامحه الله).

كراهته الجدل:

وكان رحمه الله أشد ما يكره الجدل ولو كان محقاً... هذا بينما كان في البحث يفصل الرأي ويبحث المسألة من أوجهها المختلفة.

= وردنا سؤال حول حكم تقبيل اليد وآداب ذلك وحكم الانحناء له؟ فأجاب فضيلة الأستاذ الشيخ صالح العقاد:

«إن تقبيل يد الإنسان إن كان ذلك لزهده وصلاحه أو علمه ودينه ونحو ذلك، فهو ليس بمكروه، بل مستحب. وأما إن كان لغير ذلك كدنيا وغنى أو شوكة وجاه فإن ذلك مكروه أشد الكراهة كما قال النووي في كتابه «الأذكار».

دليل الاستحباب ما روي في سنن أبي داود عن زارع رضي الله عنه - وكان في وفد عبد القيس - قال: فجعلنا نتبادر من رواحلتنا، فُتَقَبِّلُ يد النبي ﷺ ورجله».

ولكن يكره الانحناء إذا وصل إلى حد أدنى الركوع لنهي الرسول ﷺ عن ذلك - فيما يرويه الترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه - قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقي أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا. كما أنه لا يشرع وضع اليد على الجبهة كما يفعله بعض الناس لشبه ذلك بالسجود الذي لا يجوز لغير الله تعالى». انتهى.

شدة تواضعه وحنوه على الضعفاء:

وكان شديد التواضع، يحنو على الضعفاء، ويقضي مصالحهم بيد مبسطة، كما كان رحمه الله ينزل الناس منازلهم، ويعرف لهم حقهم. فهو رجل الوفاء والحب والتواضع.

احترامه للعلماء العاملين:

وكان كثير الاحترام للعلماء كافة وللعاملين منهم خاصة.

وأذكر على سبيل المثال من ذلك: أن فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبدالكريم الرفاعي حفظه الله ومدّ في أجله ونفعه، طَلَبَ مني ذات يوم أن أسأل الشيخ عن مسألة فقهية تتعلق بالمسكرات فأجابه برسالة استهلّها بقوله: (سيدي فضيلة الأستاذ...)، وهكذا كان خلقه الكريم أبداً.

وكان من أحبّ العلماء المعاصرين إليه: (أبو حنيفة الصغير) فضيلة الأستاذ الحافظ الفقيه الشيخ عبدالوهاب دبس وزيت تغمّده الله بالرحمة والغفران، فكان حُباً عجبياً، وقد كان لوفاته في نفس أستاذنا أعماق الحزن والأسى رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته.

منزلته عند الناس:

وأما منزلته عند الناس: فقد اطمأنّ الناس لصواب حكمه وأمانته في الفتوى والرأي، فأصبح موضع ثقتهم ومؤتمن أماناتهم، ومحكماً في خلافاتهم العامة منها والخاصة، مُحكماً في أعماله كلها شرع الله القويم، متمسكاً بحبل الله المتين، فينتهي بذلك إلى خروج الأطراف المتنازعة راضية مسرورة متسامحة بعد أن كانت مُتنافرة مُتخاصمة، كل ذلك كان بما حباه الله من الحكمة والفتنة، قال الله عزّ وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

حلُّ المشكلات وتسويته الخصومات:

لقد كانت تُحلُّ عنده المشكلات، وتُسَوَّى بآرائه الخصومات، وقد زهد بالمناصب حين جاءته طائفة، فقد دُعي رضي الله عنه أكثر من مرة لمنصب الإفتاء العام فرغب عنه.

كريم شمائله:

ومن الحق والإنصاف أن نقول: بأنه كان رجل علم وعمل لما كان يتمتع من جليل الصفات ويتحلَّى به من كريم الشمائل والأخلاق، فعندما يراك يستقبلك ببشاشة عذبة صادقة تدخل إلى القلب وتمكِّن من النفس فتنفذ إلى الروح بهذا الإيناس واللفظ النادرَيْن، وإلى جانب ذلك كان عفيف القلب واليد واللسان. وحال المسلمين شُغله الشاغل، وهمُّه المقيم والمقعد، يتحرَّق على مصابهم ونكباتهم وأشدُّ ما كان يؤلمه ويتحرَّق عليه هو مستقبل أبناء هذه الأمة.

وكان تغمَّده الله بالرحمة، يحمل على كاهله ما تنوء به العصابة أولو القوة، فينهض بها بقوة الإيمان وصبر المجاهدين الأبرار وروية الحكماء، مُسترشداً بسيرة المصطفى ﷺ، مستنيراً بمنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، ولم يُزخزخه عن طريقه هذا جور جائر ولا غطرسة سلطان أو ظالم.

محاربته البدع:

لقد اشتهر رحمه الله بمحاربته للبدع والضلالات بشتى أنواعها، وكان حريصاً كلَّ الحرص على إحياء سُنن رسول الله ﷺ المأثورة، ملتزماً بكتاب الله عزَّ وجل وسنة الرسول الكريم ﷺ، واحترام آراء جميع الأئمة.

لقد كان يُؤثر ذلك كله على الانزلاق وراء البدع، ولو صوَّرها الناس بصور العبادات والقربات، واشتهرت بينهم وانتشرت في مجتمعاتهم التي هي من مخادعة الشيطان، الموصلة إلى الوقوع في حبائله.

وفاته رحمه الله تعالى:

لقد التحق بالرفيق الأعلى مع غروب شمس يوم الثلاثاء الواقع في ١٦ جمادى الآخرة ١٣٩٠هـ، الموافق ١٨ آب ١٩٧٠م.

تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته، وجزاءه الله عن المسلمين خير الجزاء.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُسَاءَ جَهَالًا، فَسُئِلُوا، فَأُفْتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(١).

تلك هي قبسات في كلمات موجزات عن فقيد الأمة الإسلامية، جمعنا الله به تحت لواء سيد المرسلين وإمام المتقين، وألحقنا به في الصالحين غير فاتنين ولا مفتونين، ولا خزايا ولا نادمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولا نقول إلا ما يرضي الله عز وجل: إِنَّ الْقَلْبَ لِيَحْزَنُ، وَإِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْمَعُ... وإنا لله وإنا إليه راجعون.



(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).



الشيخ صالح العقاد^(١)

للأستاذ محمد الصباغ

بقيّة السلف الصالح:

كان الله لدمشق... فبين الفترة والفترة يختطف منها كريم، ويُنزِع من رجالاتها صالحون، وتحلّ بساحتها كارثة إثر كارثة...

ولقد اخترمت يد المنون في الأسبوع الماضي صالحاً جليلاً من أبنائها، وعالماً عظيماً من أجلّ علمائها، وعبدًا ورعاً كان مفخرتها، فَعَرَى دمشق الخالدة من الحزن ما زاد في أساها... لك الله أيتها المدينة وأنت توذّعين رجلاً من بقيّة السلف الصالح... وأنت توذّعين رجل الجرأة والاستقامة... رجل الزهد والترفع... لك الله يا دمشق، وأنت توذّعين فقيداً وأستاذنا الشيخ صالح العقاد رحمه الله.

إنّ الرزء في فقد الأستاذ الجليل والعلامة الشيخ صالح العقاد ليس لدمشق بلد هذا العالم... ولكنه يتعداها إلى العلم عامة وإلى الفقه الإسلامي بصورة خاصة... بل إنه ليتجاوز مدينة دمشق والعلم إلى المعاني الكريمة الرائعة التي كانت متمثلة فيه، من الزهد الذي يعيد إلى أذهاننا صورة الزاهدين الصادقين من أسلافنا، والورع الذي يصعب على إنسان هذا العصر

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة الحادية عشرة: (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

أن يحياه، والجرأة التي تدفع بصاحبها إلى قول الحق لا يخشى فيه لومة لائم.

لم تكن الدنيا عنده إلا قنطرة يعبر عليها إلى الآخرة... كانت بيديه ولم تكن في قلبه... وكان مستغنياً بالله عن الدولة والأوقاف والناس أجمعين.

توفاه الله يوم الأربعاء في ١٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٩٠هـ، الموافق لـ ١٩ من آب سنة ١٩٧٠م فقال الناس: توفي الشافعي الصغير.

لكنه قد كان كبيراً حقاً... كبيراً في نفسه وشخصه... كبيراً في علمه... كبيراً في خلقه... كبيراً في دينه.

أشهد أن الكتابة عن هذا الرجل - مهما بذل الكاتب في تجويدها - تهضم حقه، ولا تقوى على تصويره على حقيقته، وهذا ما أشعر به وأنا أحاول أن أقوم بواجب الوفاء نحو أستاذي الذي أمضيت بضع عشرة سنة لا أذر حلقة في صيف ولا شتاء.

إن الجوانب التي يمكن أن يتحدث عنها في حياة الفقيه الكريم متعددة وسأقتصر على أهمها:

الفقيه الشافعي الكبير:

كان الفقيه علامة عصره في فقه الشافعية... فلقد كان يستحضر مسائل الفقه استحضاراً عجيباً، حتى كأن فقه المذهب بين عينيه، ولم يكن - غفر الله له - مُقتصراً على حفظ هذه المسائل فقط، وإنما كان يُحسن تطبيقها على وقائع العصر، فقد كان بسبب عمله في التجارة يُدرك القضايا المالية الجديدة المُعقدة التي يضطر إليها الاقتصادي المعاصر، وكان يستطيع أن يذكر لكل قضية الحكم الذي يناسبها معتمداً على ما يعلم من آراء الفقهاء، كان يُحسن ذلك على وجه قلماً يستطيع أحد أن يُجاره فيه من فقهاء عصره.

وكان - تغمّده الله بواسع رحمته - يحرص على ذكر الدليل من الكتاب والسنة للحكم الفقهي، ولا يخلو درس من دروسه من استعراض الأدلة، وله ملاحظات في ذلك هي ثمرة اطلاعه الواسع العميق.

قضى هذا العمر المديد المبارك بالعلم والتعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكلّ عن ذلك ولا يملّ، ولا يصدّه عن ذلك تعب ولا شغل، هذا مع ذهن صاف جوال، وحافظة واعية، وقدرة على استيعاب المسألة وفهمها، وتحليل العبارة العويصة، ومعرفة لمطآن المسائل في المراجع.

صدعه بالحق:

كان - غفر الله له - أمة وحده من بين العلماء الذين أدركناهم، إذ كان العلماء^(١) في العصور المتأخرة خاضعين لسلطان العامة يُسايرونهم، ويُسوِّغون لهم أحوالهم التي ورثوها عن آبائهم، ويتهاونون في كثير من الأمور التي ألفوها، ذلك أنّ الوعاظ من الدجالين قد ركّزوا في أذهان العامة على تناول الأجيال خرافات الصقوها بالدين وهي ليست منه، وهي تحقق في معظم الأحيان مصالح لبعض الأشخاص القائمين بها.

وكانت على مرّ الأجيال المتقدّمة تقوم طاقات ضخمة في وجه هذا الانحراف من أمثال الإمام أحمد والشافعي وابن تيمية والعز بن عبد السلام، غير أن هذه المنارات المضيئة قد قلّت في العصور المتأخرة، وأضحى العلماء تبعاً للعامة، وكأنّ مهمة العالم أصبحت التماس المعاذير للعامة، وإيجاد المخرج والدليل لفساد الناس، وساعد على توطيد ذلك الرغبة في التأويل الذي لا حدّ له هرباً من التضليل على حدّ قولهم: (التأويل خير من التضليل). ومن هنا كان نفر من العلماء يخشون العامة أشدّ الخشية، ويُسايرونهم أكبر المسايرة، والصالح منهم يسكت، أما الذين يؤثرون المكانة

(١) الأولى أن يقول: بعض العلماء، أو كثير من العلماء، ولا يعنم الحكم عليهم كلهم.

فإنهم يذهبون مذاهب متعددة في تخريج ما ألف العامة وتوارثوه. أما فقيدنا الكبير فلقد كان ضدّاعاً بالحق لا يبالي أرضي العامة أم سخطوا، جريئاً في قول ما يعتقد أنه الحق، لا يُسايروهم ولا يخشاهم، ولا يحرص على رضاهم.

فمن ذلك: امتناعه عن حضور أي حفلة مولد منذ عرفته، ويقول للذين يعتبرون عليه: إنّ فيما تقومون به من المخالفات ما لا يسرّ رسول الله ﷺ، ولو أنكم استشرتموني لكان لي معكم شأن.

ومن ذلك: قضاؤه على عديد من البدع في عدد من المساجد، وكانت مملوءة بالبدع، وقد تحمّل من أجل ذلك الكثير، فما ثأه سَفَهُ السفهاء ولا حسد الحاسدين عن تحقيق ما يعتقد.

كان رحمه الله يُنفذ ما يعتقد مهما كان في سبيل ذلك من مصاعب ومن تضحيات.

كسبه وتجارته:

وكان رحمه الله يكتسب المال عن طريق التجارة، وكان له دكان في النورية (سوق الخياطين)، ولكن هذا العمل لم يكن ليصرفه عن طلب العلم والتعبّد، بل كان عوناً له على طاعة الله.

ورعه وزهده:

ومما يعدّ مثلاً رائعاً من أمثلة الورع: ما صنعه الرجل إبان الحرب العالمية الثانية، عندما أصبحت أسعار البضاعة التي كان يعمل بها كسعر البورصة، إذ أصبح الإنسان العادي يشتغل بشراء الغزل وبيعه، وبلغت أرباح الغزل في تلك الفترة مبلغاً خيالياً، فاعتبر عمله حينذاك، وأخذ تلك الأرباح شبهة لا ترتاح لها نفسه، ولا يطمئن لها قلبه، فترك الدكان وبيع ما فيها، واشترى لنفسه عقارات ليؤجرها ويجعل ريعها دخلاً له، ينفق منه.

وكان - أسكنه الله فسيح جنّاته - يحرص على أن لا يأكل إلا من

الحلال بقدر ما يستطيع، ولذلك فإنه لم يكن ليرضى أن يطعم عند إنسان يرى شبهة في ماله.

امتناعه من قبول وظيفة الإفتاء:

ومما يتصل بورعه وزهده أنه أبى أشد الإباء وظيفة الإفتاء - إفتاء الشافعية - وقد عُرضت عليه أكثر من مرة، فاعتذر بإصرار، ولما ألحوا في الطلب كان موقفه الرفض بكل تصميم. هذا والناس يتقاتلون على أقل من ذلك بكثير.

اعتذاره عن الذهاب إلى الحكام:

كما أنه كان يعتذر عن الذهاب إلى الحكام، ولقد دُعي من قبل أحد رؤساء الجمهورية مرات عديدة، ولكنه كان يعتذر عن إجابة كل ذلك الدعوات.

لقد كان يقول: بُشِّ العالم بباب الحاكم، وَنِعَمَ الحاكم بباب العالم.

كراهته الاستدانة:

كانت حياته في بيته - غفر الله له - حياة بسيطة. زرته مرة فوجدت جدران البيت غير مطلية، ولما سألته عن ذلك؟ قال: لقد عرض عليّ فلان وفلان. فقلت لهم: إِنَّ هُمُ الدَّيْنُ ثَقِيلٌ، ولئن استدنت من أحد ولم أوفه فإنَّ صورته تماثل لي في الليل، وأخشى أن أموت وذمَّتني مشغولة لأحد من الناس.

مشاركته في الحياة العامة:

كان الرجل يعيش عصره، لا يبتغي من وراء المشاركة الحية التي كان يمارسها في الحياة العامة ثمناً ولا مصلحة. وقد عرفنا ممن ينتسب للعلم فثنين من الناس:

- فئة تشارك في الحياة العامة، ولكنها تقبض الثمن، وتساوم عليه مالاً أو جاهاً أو مصلحة.

- وفئة أخرى، تفرّ فلا تشارك الناس في حياتهم، وكأنما هي في واد والناس في واد آخر.

أما فقيدنا فكان ينصح الأمة، ويبين لها ما تسلكه في المواقف الحرجة، والأزمات المُستَحكمة. وكان يدرك أدق الأمور التي تخفى على كثير من الشباب في ذلك.

استمراره في العمل:

ومن أبرز مزاياه: الاستمرار في العمل الذي يبدأ به، فهناك الكثير من دعاة الخير ينطلقون في مشروعات عديدة دون أن يدرسوا إمكانية استمرارها، ولا يلبثون طويلاً حتى تنتهي هذه المشاريع وتتوقف، وينقطع بذلك الخير الذي كانت تُحقِّقه، وقد يكون توقفها مؤذياً إذ يدخل اليأس على الناشئة المبتدئين، ويزلزل الثقة بمعاني الحق عنه عدد من الناس.

كان فقيدنا الغالي - أحسن الله إليه - إذا عُرض عليه مشروع فلا يوافق عليه إلا إذا توفّرت له العوامل المُقنعة له بقدرته على الاستمرار.

دروسه:

وحياته مُترعة بالخير والنفع والتعليم، فهو لا ينتهي من درس حتى يستقبل مستفتين، ولا يودّع هؤلاء حتى يبدأ درساً جديداً، بهمة عليه لا تعرف الكلل وعزيمة لا تفتر على مدى الأيام.

ظلّ قرابة خمسين سنة على طريقة جادة في الدرس والتدريس، يفتح يومه بدرس قبل الشمس، ثم يأتي درس الضحى في بيته، ثم درس الظهر في (النورية)، وكذا درس العصر في غرفته المتواضعة التي يرقى إليها الطلبة في جامع نور الدين الشهيد.

ويُصلّي المغرب في الصالحية في جامع الشيخ محيي الدين، ثم يجلس لقراءة القرآن وتدريس العلم حتى العشاء الآخرة. أما يوم الجمعة ففيه درس بعد العصر عام.

تلاميذه من التجار والشباب:

لقد كان لهذا النهج الذي لا يقوى عليه إلا أولو العزيمة من الرجال نتائج مشكورة، فقد تخرج في هذه الحلقات علماء من التجار، وفيهم الشباب الذين لا يُعرفون.

لقد محض هذا الرجل نفسه لتبليغ دين الله، لا يبتغي من وراء ذلك ثناء الناس ولا جزاءهم، وإنما يبتغي ثواب الله ومرضاته، وأرجو أن يكون قد بلغها وافية.

اللهم اغفر له ذنوبه، وأَعْل في جنّاتك درجاته، وبارك له في حسناته، واجزه عن دينك خير الجزاء، وأسكنه المردوس، وألهم آله وأحبابه الصبر، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.





بقلم الأستاذ: محمد أنور الجندي



تحت هذا العنوان كتب الأستاذ أنور الجندي في عدد جمادى الأولى لهذه السنة من مجلة «الوعي الإسلامي» عن الفقيه العظيم يقول:

عميد كلية الزيتونة:

في يوم ١٣ صفر ١٣٩٠ (٢٠ أبريل ١٩٧٠)

ودّع الحياة عالم من كبار علماء المسلمين هو المرحوم الأستاذ الفاضل ابن عاشور، فقيه تونس، وعميد كلية الزيتونة، وعضو المجامع اللغوية في القاهرة ودمشق مات عن واحد وستين عاماً^(٢)، أعظم ما يكون تألق فكر، وحيوية عقل، وصحة بدن.

رحلاته العلمية ومحاضراته:

وقد عُرف في السنوات الأخيرة برحلاته في سبيل الثقافة العربية والفكر

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الحادية عشرة: (١٣٩٠ - ١٩٧٠).

(٢) ولد عام ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٩ م في مدينة تونس (الجندي).

الإسلامي إلى عديد من الأقطار، واشتهرت عنه محاضراته البارعة وأحاديثه الذكيّة باللغة الفرنسية، مُتحدثاً عن الإسلام، عارضاً للفوارق والروابط بين الفقه الإسلامي والشرائع الغربية، كاشفاً عن عظمة الإسلام، وتلك كانت أبرز خصائصه التي عرفت بها.

وقد استمعت إليه المرة بعد المرة حين يتحدث في هذا المجال فيبرز الفقهاء ورجال القانون جميعاً، ويقدم للعقل الإنساني تلك الحقائق سائغة مبسطة، وتلك كانت هوايته المُحبّبة، فقد حاضر في جامعات استانبول، وجامعة عليكرة في الهند، وخبّ الألباب بقدرة أستاذ معمم يلبس ذلك الزي الإسلامي المغربي المعروف، وهو يعتلي المنابر ويهزّ النفوس، هذا مع فرط براعته وبلاغته وإيمانه بدينه وأمه.

والده العلامة الطاهر ابن عاشور:

وقد كشف لي في حديث خاص أجريته معه في العام الماضي ليكون نواةً لدراسة عنه كواحد من جيل الروّاد في الفكر الإسلامي الحديث عن مصدر هذه الخاصيّة، وقال: إنّ والده العلامة الكبير الطاهر بن عاشور إمام المالكية في تونس وعلامتها منذ أوائل القرن، والرجل الذي التقى بالأستاذ محمد عبده في زيارته الأخيرة لتونس عام ١٩٠٤ قبل وفاته بعام، وقطب الدراسة السلفية التي كانت مجلة «المنار» التي أصدرها الشيخ رشيد مناراً لها وللمغرب كله، قال: إنّ والده أطال الله بقاءه^(١). وهو ما يزال حياً، وله مؤلفات عديدة يتجدّد صدورها في هذه الأيام هو الذي أرشده إلى هذا الطريق، ودفعه إلى أن يتزوّد بالثقافتين الإسلامية العربية والفرنسية الغربية.

دراسته وشيوخه:

يقول: بدأت الدراسة في مطالع الصُّبا في البيت، فحفظت القرآن والمتون القديمة، ثم دخلت الزيتونة، وهنالك درست إلى أن تخرّجت

(١) توفي عام ١٣٩٣هـ عن سبعة وتسعين عاماً رحمه الله تعالى.

بالشهادة الثانوية المسمّاة (التطويع) عام ١٩٢٨ م - ١٣٤٧ هـ.

ثم واصلت الدراسة العليا في الزيتونة (الشريعة وأصول الدين واللغة) وعلى الشيخ محمد بن يوسف درست التفسير وصحيح البخاري، وعلى الوالد درسنا التفسير والموطأ والمطول للفتازاني وديوان الحماسة.

وعلى الشيخ أبي الحسن النجار درسنا علم الكلام (المقاصد للفتازاني)، وعلى الشيخ محمد بن القاضي درسنا أصول الفقه (شرح المحلّي على جمع الجوامع).

وكان والدي قد خطّط لي نظاماً يتضمّن تعليم اللغة الفرنسية بأساتذة خاصّين، ولم أنتسب إلى مدرسة أو إلى معهد فرنسي.

تخرّجه في كلية الآداب في جامعة الجزائر:

ثم انتسبت إلى كلية الآداب في جامعة الجزائر لاستكمال دراستي في اللغة الفرنسية، وكانت الطريقة المتبعة بعد الدراسة العليا أن يتقدّم الطلبة لمباريات ومناظرات للدخول في سلك الأستاذيّة وهي مراتب، والانتقال من كلّ رتبة إلى ما فوقها إنما يتمّ بمناظرة، وقد اجتزت المناظرات على التعاقب حتى أحرزت الدرجة الأولى عام ١٩٣٥.

تدريسه في جامعة الزيتونة والمدرسة الصادقيّة:

وقد عملتُ مدرّساً في جامعة الزيتونة، وفي المدرسة الصادقيّة منذ عام ١٩٣٢ وأنا مستمر في التدريس، وظللت أواصل التدريس حتى وليت عمادة الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين عام ١٩٦١^(١).

(١) وقد ظلّ الفقيد محتفظاً بهذا المنصب حتى تُوفي (الجندي).

مشاركاته في مجال الثقافة الإسلامية والعربية:

ويمكن القول إن علامتنا قد واصل الاشتراك في مجال الثقافة الإسلامية والعربية منذ العقد الثالث، وتوالى أبحاثه في المجالات التونسية ورحلاته في الأقطار العربية والإسلامية، وكانت مفاهيمه واضحة عميقة الدلالة على غيرته وإيمانه وإخلاصه.

فقد كان حريصاً على أن يحمل لواء الدعوة إلى الإسلام والعربية في كل مكان، وأن يكون مدافعاً عن الفكر الإسلامي والتاريخ واللغة في وجه خصومها شاجباً لأهوائهم داحضاً لشبهاتهم.

أداؤه العربي والفرنسي واطلاعه على الفكر الإسلامي والغربي:

وقد آتاه الله القدرة من ناحيتين: من ناحية الأداء العربي البليغ والفرنسي الطليق، ومن ناحية اطلاعه الواسع على الفكر الإسلامي والفكر الغربي على السواء.

ولقد ردّدت مثل هذا المعنى على مسمعه عند لقائي المطوّل معه في صباح الجمعة ١٩٦٩/٢/٦م في فندق (شبرد) بالقاهرة، ونحن نستعرض أعماله وتاريخه، فقال لي:

«إنما هي ثقافة إسلامية واحدة وليست ثقافتين، فهي تقوم على عامل التكوّن الإسلامي الصّرف، فأنا أنظر إلى ما أقرأ بالفرنسية من ناحية المطلب الإسلامي وحده، وأنا أرى أمامي عقليْن مختلفين عقل عربي وعقل أوروبي، وأنا ما طلبت معرفة من المعارف الفرنسية إلا بدافع إسلامي، فأنا أحسّ في قرارة نفسي أن شخصيتي آتية من سعد الدين التفتازاني والسبكي حين تناقش أو تقرأ ما يكتب عن الإسلام باللغة الفرنسية».

وفهمت من ذلك أنه يريد ألا يقال عنه: أنه مثقف ثقافة غربية بمعنى أنه يؤمن بما وراء هذه الثقافة من قيم على النحو الذي يقال حين نذكر بعض الذين تعلموا في فرنسا أو زاولوا عرض آثار الفكر الغربي عندنا.

دروسه ومحاضراته ومؤلفاته:

وقد كانت حياة العلامة الفاضل ابن عاشور خضبة مليئة بالعمل والدرس والمحاضرة بين منابر المعاهد الإسلامية في تونس وليبيا والجزائر والمغرب، وفي مجمع البحوث الإسلامية، ومجمع اللغة العربية، وبين الكلية الزيتونية في تونس، وكلية الحقوق بها حتى كانت محاضراته تبلغ خمس عشرة ساعة في الأسبوع، وهو في هذا العمل يرتجل ولا يكتب، وقد واثته ذاكرته الخصبة، وأسعفته عقليته الحافظة بالنصوص والمصادر على نحو بارع، وقد كان يرى ذلك مصدراً من مصادر قصوره في التأليف وتحرير المحاضرات والدرس على النحو الذي يلجأ إليه الأساتذة بكتابة ما يلقون في ساحات الدرس، وإنما كان يكتفي بأن يكتب خطوطاً عامة لما يتناوله، ولذلك فقد كانت محاضراته المطبوعة في مصر عن الحركة الفكرية في تونس من الأعمال التي تحققت تحت تأثير الضرورة، وإن كان له إلى ذلك مؤلفات أخرى منها:

١ - أركان النهضة الأدبية في تونس.

٢ - أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي.

٣ - كتاب التفسير ورجاله.

إلى جانب دراسات أخرى قيّمة التأليف كأبحاثه في مجمع القاهرة ومجمع دمشق اللغويين ومجمع البحوث الإسلامية.

وكان قد نشر فصولاً منشورة في مجلة «الثريا» التونسية عن مشاهير التونسيين في القرن الرابع عشر، وله أيضاً بعض الأبحاث في مجلتي الفكر والمجلة الزيتونية.

مشاركاته في المؤتمرات الإسلامية والعربية:

كما شارك في عديد من المؤتمرات الإسلامية والعربية في مختلف بلاد الإسلام والعالم العربي كمؤتمرات الحقوقيين والمحامين العرب في دمشق وبغداد، ورابطة العالم الإسلامي في مكة، والمجلس التأسيسي في باكستان،

وجامعة استانبول في تركيا فضلاً عن زيارته لأوروبا بدولها المختلفة، وخاصة فرنسا وسويسرا وإيطاليا، وذلك إلى شغفه بالحج والعمرة فقد أداهما عشر مرات.

كما شارك في الاحتفال بمهرجان ابن خلدون في القاهرة، وحضر إزاحة الستار عن تمثال ابن خلدون المقام في مدينة الأوقاف بالدقي.

ميادين ثلاثة:

وقد استخلصت من مراجعة آثاره وكتاباته أنه قد أضاف إضافات بناءً في ميادين ثلاثة هي: التشريع الإسلامي، واللغة العربية، والتاريخ الإسلامي.

وقد سألته في ذلك فقال: إنَّ هناك رابطة عضوية بين التشريع الإسلامي واللغة، فاللغة العربية أداة ضرورية لفهم التشريع الإسلامي، وتعمُّق روح الإسلام يكاد يكون ضرورة ماسّة لتذوق اللغة العربية وآدابها.

ونحن نحتاج للنظر في تاريخ الإسلام لاستجلاء ماضينا، وحتى نتصوّر ما علينا من واجبات نحو الماضي وما تربطنا به من مقومات، لا نستطيع أن نخرج عنها وخروجنا عنها معناه أننا نخرج عن أنفسنا. فضلاً عن حاجتنا الماسّة إلى التعرّف على رواد نهضتنا العربية الإسلامية الأولين حتى نكون على بصيرة من الغاية التي نحن سائرون إليها الآن، لأننا في الحقيقة لسنا إلا مواصلين السير على خطط النهضة التي خطّطها هؤلاء الرواد، ولكن الطريق قد يثبهم أمامنا أحياناً، فيكون من الضروري لنا أن نتعرّف دائماً طريقنا الصحيح، وروابطنا بقادتنا الأولين والمبادئ التي قامت عليها النهضة أصلاً.

وطن الارتكاز ووطن الامتداد:

ويؤمن العلامة الفاضل بن عاشور أن العالم العربي يضمُّ شرقيين يطلق

على المشرق منه وطن (الارتكاز)، ويطلق على المغرب منه (وطن الامتداد).

ويرى أنَّ الخط الجامع بين النقطتين هو النيل، فمن الضفة الشرقية للنيل يبدأ المشرق، ومن الضفة الغربية يبدأ المغرب.

وقد سألته عن ذلك التمييز الواضح لدراسات المقارنة في اللغة والفلسفة والفقه، وذلك الطابع الذي يطبعها فقال:

يختلف المغرب عن المشرق من حيث ائتلاف العناصر، ومن حيث أن أول عهده بالعروبة يبدأ منذ أول عهده بالإسلام بخلاف ما في المشرق، حيث له روابطه بالعروبة منذ أمد بعيد قبل الإسلام، ويختلف أيضاً من حيث متاخمة المغرب للعالم الغربي الأوروبي، ومن حيث متاخمة المشرق للعالم الإيراني والهندي، من هنا تكوَّنت في المغرب عناصر طبعت الفكر وطبعت الأدب، وجعلته مع ما يتلاقى فيه من العنصر العربي الذي هو وطن (الارتكاز) يمتاز بظواهر خاصة، هي نتيجة تلك الخاصيات التي اتصلت بتكوين الفكر والشعور ولم تتصل بالعالم الشرقي.

ظاهرة تطلع المغرب إلى المشرق:

كما أشار إلى ظاهرة تطلع المغرب إلى المشرق على امتداد التاريخ، وكيف أنَّ الرحلات الإسلامية كلها قد بدأت من المغرب إلى المشرق وليس العكس، فقال: إنَّ المغاربة كانوا يتطلعون دائماً إلى الشرق، حيث بيت الله الحرام في مكة، وحيث قبلة المسلمين، وملتقى وحدتهم الروحية والفكرية.

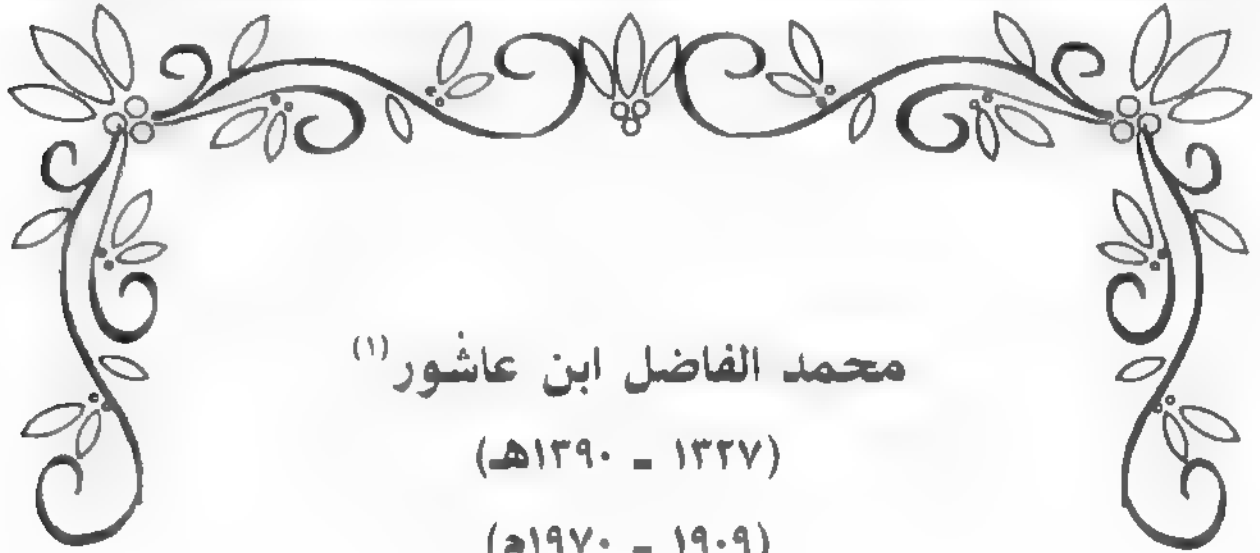
حصيلة ضخمة من العلم والثقافة:

وبعد فإنَّ آثار العلامة الفاضل ابن عاشور كثيرة وجديرة بالمراجعة والعرض لما تحويه من مفاهيم وآراء هي خلاصة تجربة عالم عريق أتاح له دراسته وثقافته واتصالاته بعوالم المشرق والمغرب حصيلة ضخمة من العلم والثقافة.

هذا بالإضافة إلى شخصيته الجذابة وروحه المرحّة وخلقّه الرفيع وذكائه الحي. وبالجملة فهو أحد رواد الفكر الإسلامي العربي المعاصر الذين تركوا تراثاً ضخماً على طريق حركة اليقظة.

«رحمه الله رحمة واسعة وأجزل مثوبته».





محمد الفاضل ابن عاشور^(١)

(١٣٢٧ - ١٣٩٠ هـ)

(١٩٠٩ - ١٩٧٠ م)

للأستاذ: محمد الدسوقي



العالم الفقيه اللغوي الأديب المؤرخ:

١ - فقد الفكر الإسلامي المعاصر بموت الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور عالماً جليلاً، وفقيهاً مجتهداً، وباحثاً لغوياً ضليعاً، وأديباً متمكناً مطبوعاً، ومؤرخاً دقيقاً، ولا غرو فهو فرع من دوحة كانت منذ عدة قرون - وما تزال - مثابة العلم والعلماء في تونس.

وقد عرفت الففيد معرفة لقاء قبل وفاته بنحو عامير، وقدم إليّ مساعدات علمية هامة، كان من بينها أنه أرسل إليّ على نفقته الخاصة مصوراً الكتاب لا يوجد إلا في دار الكتب الوطنية التونسية.

واليوم يفرص واجب التلمذة والتقدير لعلمائنا المخلصين أن أكتب هذه الكلمة السريعة عن هذا العالم الفاضل تحية وفاء له، واعترافاً بفضلته،

(١) مجلة الأزهر، العدد الخامس، السنة الثانية والأربعون: (١٣٩٠ - ١٩٧٠).

وتسجيلاً لبعض حياته، وأهم آرائه، راجياً أن أوفق مستقبلاً في تقديم دراسة وافية عنه إن شاء الله.

بيت العلم والأدب:

٢ - نشأ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور كما أومأت آنفاً في بيت علم وأدب، ويعد والده الطاهر بن عاشور - متعه الله بالصحة والعافية - من أبرز دعائم النهضة الحديثة في المغرب العربي، فقد جاهد الاحتلال الأجنبي، وعمل على دفع الغزو الثقافي الذي كان يريد لبلاد المغرب أن تصبح قطعة من بلاد المستعمر، فتنسى تاريخها وتتحدث بغير لغتها، وتتخلى شيئاً فشيئاً عن عقيدتها وتراثها، لقد قبض الله لهذا الجزء من الوطن الإسلامي - الذي تعرض لسياسة استعمارية حاكمة - رجالاً مخلصين كافحوا سياسة المستعمر الخبيثة، وأنقذوا الثقافة الإسلامية وعروبة اللسان المغربي من كيد المحتل الغاصب، وكان والد فقيدنا العالم في طليعة هؤلاء الرجال الذين حملوا الراية وتقدموا الصفوف في إيمان راسخ وجهاد دائم، فحقق الله على أيديهم الخير الكثير.

دراسته:

في هذا البيت الذي رعى الفكر الإسلامي ولغة الكتاب العزيز وعرف الأبطال والمجاهدين والعلماء والأدباء، ولد الفقيد الكريم في سنة ١٣٢٧هـ وتلقى دروسه الأولى على يد والده حتى أجاد العربية وألمّ بعلوم الدين، ثم أقبل على تعلم اللغة الفرنسية، وبعد أن أتقنها أكمل دراسة العلوم الشرعية والعربية في جامع الزيتونة الأعظم، وكان مثلاً للجد والتحصيل والعكوف على الدراسة والتعلم، فضلاً عن الرعاية التي أسبغها عليه والده والتوجيه الذي كان يتعهده به، فتخرج في هذه الجامعة العريقة ذات التاريخ المشهور في خدمة الإسلام وتراثه الفكري والحضاري، وهو في نحو الحادية والعشرين من عمره.

تدريسه في جامع الزيتونة:

٣ - وعُيِّن عقيب تخرجه مدرساً معاوناً في جامع الزيتونة مما يدل على أنه كان قد وصل بعد إتمام دراسته في هذا الجامع إلى درجة من العلم أهّله لأن يتولى التدريس في الزيتونة وهو ما زال في شرح الشباب، وكأنه بهذا يعيد إلى الأذهان ما كان من كثير من فقهاءنا الأعلام الذين كانوا يجلسون مجلس الأستاذ وهم في سنّ العشرين أو بعدها بقليل، ولبت مدرساً في الزيتونة وبخاصّة في القسم العالي قرابة عشرين عاماً، ألقى فيها كثيراً من المحاضرات في التوحيد والتفسير والأدب واللغة.

رئاسته للجمعية الخلدونية:

وفي سنة ١٣٦٥هـ انتخب رئيساً للجمعية الخلدونية، وهي جمعية تهتم بالدراسات الإسلامية والأدبية في تونس، ثم أنشأ معهد البحوث الإسلامية، للتعريف بالعالم الإسلامي وقيمه الفكرية والحضارية ومشكلاته المعاصرة وما يجب على المسلمين أن يقوموا به لكي يعيدوا لهذا العالم سابق مجده وعزته، وقد ألقى في هذا المعهد أكثر من مائتي محاضرة ألفت الضوء على كثير من شؤون المسلمين وقضاياهم في الماضي والحاضر.

مفتي الديار التونسية ووظائفه الأخرى:

ولنشاطه الجرم وعلمه الغزير وآرائه الناضجة عين مفتياً للديار التونسية في سنة ١٣٧٣هـ، وظل في هذا المنصب إلى أن توفي يوم الثلاثاء ١٥ من صفر سنة ١٣٩٠هـ.

وفضلاً عن قيامه بالإفتاء كان أستاذاً للتشريع بكلية الحقوق، كما عُيِّن قاضياً للقضاء، ورئيساً للمحكمة العليا الشرعية، رئيساً لمحكمة النقض والإبرام.

معرفة بمخطوطات الخزائن التونسية:

٤ - وهو مع هذا عارك في مجالات علمية مختلفة، منها أنه تعاون مع مجموعة من الباحثين في التعريف بمخطوطات الخزائن الزيتونية، ولا ريب أن دوره في هذا المجال كان دور الرائد الخبير، فقد نشأ في بيت يضم مكتبة ضخمة جل ما فيها مخطوط، وقضى أيام طلب العلم بين جدران هذه المكتبة، وحمله شغفه بالبحث على التنقيب فيما حوته هذه المكتبة من كنور علمية مخطوطة وغير مخطوطة، ولذا كان وثيق الصلة بالتراث العربي الخطي منذ حياته العلمية الباكرة، وكان يعرف عن هذا التراث ما لا يعرفه بعض المهتمين به والمتفرغين له.

مشاركته في مؤتمرات المجامع العلمية:

ومنها أنه مثل تونس في مؤتمرات المجامع العلمية، مثل مؤتمر المستشرقين بباريس سنة ١٣٦٨هـ، ومؤتمر الثقافة الإسلامية بتونس سنة ١٣٦٩هـ، ومؤتمر العلوم التاريخية بباريس سنة ١٣٧٠هـ، ومؤتمر المحامين من العرب بدمشق سنة ١٣٧٧هـ، ومؤتمر الأدباء العرب بالكويت سنة ١٣٧٨هـ.

عضويته في مجمع البحوث ومجمع اللغة العربية:

ومنذ إنشاء مجمع البحوث الإسلامية في سنة ١٣٨١هـ وهو عضو به، كما اختير في نفس السنة عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة. وكان له في كل المؤتمرات التي شارك فيها - وهي عديدة ومتنوعة - دور إيجابي وأثر واضح عن طريق أبحاثه المبتكرة ومناقشاته الممتعة وتعليقاته المفيدة.

بحثه في المصطلح الفقهي في المذهب المالكي:

٥ - ومن أبحاثه المبتكرة التي تبرز تعمقه في الدراسات الفقهية، ذلك البحث الذي ألقاه في مؤتمر المجمع اللغوي في الدورة الرابعة والثلاثين

تحت عنوان: «المصطلح الفقهي في المذهب المالكي»، وقد استهله بالإشارة إلى أن المصطلحات التي تزخر بها كتب الحقوق والعلوم القانونية قد اعتمدت من المصطلح الفقهي المشترك المشاع بين المذاهب الفقهية، وإن كان المذهب المالكي أقوى إمداداً وأوسع أثراً من غيره في هذا المجال.

ثم قدم بعد هذا في عبارة طليئة تجنح إلى الإيجاز تطور نشأة المصطلح الفقهي في المذاهب كلها مع بيان مناط الفرق بين مذهب ومذهب، وفصل القول بعض التفصيل في المذهب المالكي، وما انفرد المصطلح فيه بخصائص جعلت فقهاء القانون يرجعون إليه ويعترفون منه أكثر من سواه.

وجاءت خاتمة البحث تأكيداً لتلك النظرية^(١) التي تذهب إلى أن الفقه القانوني الأوروبي متأثر بالفقه الإسلامي وإن تلك المصطلحات الفقهية الأوروبية تمتد بجذورها الأصلية إلى هذا الفقه وبخاصة الفقه المالكي.

واتفقت كلمة المؤتمرين^(٢) على أن هذا البحث عمل علمي فريد في باب، وأن صاحبه قد تعمق فيه إلى أبعد أغواره فأحسن غاية الإحسان.

بحثه عن الاجتهاد في ماضيه وحاضره:

٦ - وفي المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية كانت قضية الاجتهاد من القضايا التي نالت قسطاً كبيراً من اهتمام المجمع وأعضائه، وكان لعالمنا الراحل مشاركة في هذه القضية يبحث عن الاجتهاد في ماضيه وحاضره بدأه بقوله: «جاء الدين الإسلامي يكشف للناس - في جلاء - حقيقة وجودهم فينبههم من الغفلة التي كثيراً ما استولت عليهم، إذ توهموا وجود الإنسان مقصوراً على مظهره المادي: يبتدئ بالميلاد وينتهي بالوفاة، فدعاهم الدين إلى الإفاقة من تلك الغفلة ومعرفة وجودهم على وجهها

(١) انظر: التشريع الإسلامي وأثره في التشريع الأوروبي، للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى (دسوقي).

(٢) انظر: مجموعة البحوث والمحاضرات للدورة الرابعة والثلاثين، ص ٩٣ (دسوقي).

الكامل، بإدراك المبدأ والمعاد والإقلاع عن الأوهام والأباطيل التي حجبَت تلك الحقيقة عنهم^(١).

ثم عرض - في إيجاز واف - للاجتهاد في أدواره المختلفة منذ عهد الرسول ﷺ إلى يومنا الحاضر، وتساءل بعد هذا: هل انقطع الاجتهاد؟ أو استمر مطرداً؟

فإذا كان قد انقطع، فماذا نعني بتجديده، وإلام نهدف من ذلك؟ وإن كان لم ينقطع فما الذي نشكوه من أمرنا اليوم، وما هو السبيل إلى علاج ما نشكوه؟

وقد رأى أن انعزال الدين عن الحياة العملية، واندفاع تيار الحياة العامة بالأمة الإسلامية في مجرى الهوى الذي ما جاء الدين إلا ليخرج بالمكلفين عن داعيته، هو السبب في تخلف الاجتهاد في هذا العصر، والطريق الأقوم للعودة بالاجتهاد إلى سابق مجده وقوته وازدهاره، هو تبصير الباحثين بأن الاجتهاد حركة عقلية في أحكام الدين المشروعة لصالح الأمة، وأن هذه الحركة، لن تثمر ثمرتها المرجوة منها إلا باجتهاد جماعي منظم.

والواقع أن الإسلام يواجه اليوم موجة عارمة من الكيد السياسي والعلمي، وأن على المسلمين أن يجاهدوا ويجتهدوا ليدفعوا عن دينهم وأنفسهم ما يدبر لهم من المكر السيئ، وكان بحث الفقيد الجليل صرخة قوية تهيب بعلماء المسلمين أن يتلاقوا ويجتهدوا ليؤكدوا للبشرية قاطبة أن هذا الدين صالح قولاً وعملاً لكل زمان وكل مكان.

دراساته النحويّة واللغويّة:

٧ - هذا طرف من آراء الشيخ الفاضل في ميدان الدراسات الفقهية، وأما آراؤه في مجال الدراسات النحوية واللغوية فهي تتسم كذلك بطابع الاستقلال والعمق والأصالة والاجتهاد، ومن ذلك مثلاً أن كتب دراسة عن

(١) انظر: كتاب المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية، ص ٥١ (دسوقي).

تحرير أفعال التفضيل من قياس نحوي فاسد، وقد أثبت في هذه الدراسة - ولا سبيل هنا لتفصيل ما عرض له - أن النحاة ضيقوا على أنفسهم وعلى لغتهم حين التزموا قياساً لأفعال التفضيل لا يطرد مع ما نطقت به العرب، وأن علينا أن نتحرر مما التزموا، ونتوسع فيما ضيقوا، ولا يفرض علينا هذا التطور الحضاري بقدر ما يفرضه السماع اللغوي.

وهذه الدراسة النقدية الجادة قدمها الفقيه إلى مؤتمر المجمع اللغوي بالقاهرة في دورته^(١) الثلاثين، وأثارت بين الأعضاء جدلاً امتد إلى المجمع العلمي العراقي^(٢) بيد أنه الذي لا خلاف عليه أنها فتحت آفاقاً جديدة لتحرير النحو العربي من الشوائب التي شابته.

مؤلفاته الأدبية والعلمية:

٨ - وللفقيه فضلاً عن دراساته التي قدمها في المؤتمرات العلمية أو أبحاثه التي نشرها في مختلف المجالات - وهي كلها كثيرة ومتنوعة - مؤلفات أدبية وعلمية وقومية، منها: الحركة الفكرية والأدبية بتونس، والتفسير ورجاله^(٣) وهو كتاب - على وجازته - يعرض لنشأة التفسير وأهم أعلامه وخصائص كل مفسر مع الاهتمام بالشهاب الألوسي وتفسيره، ودعوة الإصلاح الديني على يد جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده، وتفسير المنار.

وسيطرت مأساة فلسطين على وجدان الشيخ الفاضل، فألف عنها كتاباً دحض فيه مزاعم الصهيونية الحاكمة، وكشف عن سياستها الخبيثة وأطماعها التوسعية ودعا في إخلاص إلى توحيد القوة لردع هذا العدو الذي يخطط ويعمل من أجل القضاء على الوجود العربي كله.

(١) انظر: مجموعة البحوث والمحاضرات في دورة المجمع الثلاثين، ص ٥٧ (دسوقي).
(٢) انظر: مجموعة البحوث والمحاضرات للمجمع العلمي العراقي، مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين، ص ٩٣ (دسوقي).
(٣) نشر هذا الكتاب مجمع البحوث الإسلامية في سلسلة بحوثه الشهرية (دسوقي).

وقال في كلمته التي ألقاها في مؤتمر المجمع اللغوي الأخير: «وإذا كانت صلات القربى إنما تقوى وتتوثق، ومعاني الود إنما تزكو وتتأكد عندما تعظم الملمات وتستشري الأزمات فإن أحق الأيام بأن تعرف فيه العربية أبناءها ويتعرفوا عليها، وأن تنعطف إليهم ويتعاطفوا عليها، لهذه الأيام المدلهمة التي جاء العدوان الحربي فيها يظهر الغزو الثقافي، وامتدت فيها إلى العربية أيد أثيمة: هذه تعبت في أوطانها، وتلك تضيق على أنفاسها، وأخرى تبث فيها الفتن الروحية والفكرية».

٩ - وبعد فإن الشيخ الفاضل ابن عاشور كان مفكراً جليلاً واسع الثقافة، أصيل المعرفة، فهو فقيه مجتهد، يحترم عقله، وأديب مطبوع يؤثر اللفظ الجزل والكلمة الرصينة، ولغوي تدل آراؤه الحصيفة على أنه كان إماماً في اللغة كما كان إماماً في الفقه والأدب، وكان فوق ذلك تقياً ورعاً صالحاً خشع لله بجوارحه وفكره. وأخلص له في جهاده، وعاش حياته كلها يدافع عن دين الله ولغة الكتاب العزيز والتراث الإسلامي العريق حتى لقي ربه راضياً مرضياً.

رحمه الله، وجزاه كفاء ما قدم لدينه ولغته وأمته خير الجزاء.





بقلم: سعيد السيد

وَدَّعَتْ دَمَشَقُ مِنْذُ أَيَّامٍ عَالِماً آخَرَ مِنْ عِلْمَائِهَا، وَزَاهِداً مِنْ زُهَّادِهَا: هُوَ الْأُسْتَاذُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ السَّيِّدِ الَّذِي ظَلَّ طِيلَةَ حَيَاتِهِ بَعِيداً عَنِ الشَّهْرَةِ وَالْمَنَاصِبِ، عَامِلاً فِي صِمْتٍ لِرَبِّهِ وَدَعْوَتِهِ وَلِطُلَّابِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَجِدُونَ فِيهِ الْأُسُوةَ الْحَسَنَةَ وَالْقُدُوةَ الصَّالِحَةَ.

اتصاله بالشيخ علي الدقر:

هبط الشيخ محمد من قرية «الديرخبية» قرب بلدة الكسوة إلى الغرب منها سنة ١٣١٨ شاباً معدوداً من شباب القرية يبحث عن «أرض» جديدة معطاة في شخص الداعية الزاهد الشيخ علي الدقر عليه رحمة الله، بعد أن خَلَفَ أَرْضَ قَرِيَّتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَنْتَظِرُ سَوَاعِدَهُ الْفَتِيَّةَ، وَلَكِنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَدْرَكَ أَنَّ شَبَابَ الْقَرْيَةِ وَشُيُوخَهَا بِحَاجَةٍ إِلَى كَلِمَةِ الْإِيمَانِ وَدَعْوَةِ الْحَقِّ تَنْفَرِجُ عَنْ شَفَاهِهِ. وَتَسَامَعُ بِالشَّيْخِ عَلِيِّ الدَّقْرِ وَدَعْوَتِهِ الْمُبَارَكَةِ فِي دَمَشَقٍ، فَسَعَى إِلَيْهِ

(١) حضارة الإسلام، الأعداد الثامن والتاسع والعاشر، السنة الحادية عشرة: (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

متواضعاً تائقة نفسه ينشد الخير، ويطلب العلم ولما يمض على زواجه في قريته عام أو بعض عام..

موسم الحصاد:

.. وبعد سنوات من الغربة والوحدة... والجوع في كثير من الأوقات بدأ موسم الحصاد في حياة الشيخ الراحل. فقد تفتحت نفسه على نور المعرفة والعلم بعد أن كان شباب القرية قد «حصدوا» مواسم كثيرة من الحب والغلال ذهبت كما يذهب كل متاع الأرض. وبقي إيمان الشيخ وعلمه ثابتاً في صدره كما يبقى الدين والعمل الصالح، وبقي فيه كتاب الله تعالى الذي حفظه الشيخ وما زال يتعهده بالرعاية والعناية - ومتون كثيرة في النحو والفقه وعلوم أخرى - ملازماً له حتى وُوري في التراب. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

معرفته الحقّة بالإسلام:

وانطلق الشيخ من المعرفة الحقّة بالإسلام التي استقرت في صدره، وصدّقها جوارحه وأعماله، فاستطاع أن يتجاوز في كثير من المواقف البيئية التي كتب له أن يعمل فيها. فلم يكن فهمه للإسلام في حدود أناس قرييين ومصالح موقوتة، ولم يكن الدين عنده - رحمه الله - حلة يرتديها يفيد منها في المناسبات والمواقف. ولكنه تجاوز هذه الظواهر التي وقف عندها كثير ممن كان إلى جانبه، ولكن لم يكن لهم صفاء نفسه وعميق إيمانه... تجاوزها إلى الشعور بشعور المسلمين ومشكلات العالم الإسلامي وما يعتلج فيه من حركات ودعوات إصلاحية مباركة... فكان يديم القراءة والمطالعة في أحوال المسلمين في العالم... ويصور لمن حوله طريق النجاة في وحدة العاملين للإسلام، ووحدة الفهم لأركان هذا الدين.

سلوكه في حياته:

وكان سلوكه في حياته مثلاً يُحتذى، كما يشهد بذلك إخوانه وطلابه والقريبون منه.

لقد كان - رحمه الله - نعم العابد الورع الزاهد... الصابر... صبر على المرض ونوباته الشديدة التي كانت تهز أركان صدره الصغير الضعيف...

ولكن الإيمان الذي كان مستقراً في أعماق هذا الصدر.. كان يهزأ بهذه النوبات التي كانت تترك من حول الشيخ يحبس أنفاسه خشية وإشفاقاً وألماً عليه... ولطالما كان الكثيرون ممن حوله يتذكرون - كلما رأوه - الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود.. فقد كان هزال جسم الشيخ في أواخر سني حياته يذكر به... ولكن الذي كان يذكر به كذلك: قوة في الحق فُطر عليها الشيخ وترتب عليها، فكان لا يخشى في الله لومة لائم..

محنته وسجنه:

وكان يقول الحق ولو على نفسه... ولقد تحمّل في سبيل ذلك العنت والمشقة، فرجّ به في السجن أيام الاحتلال والاستعمار، وأعيد فيه مرة أخرى في أيام من خلفهم الاستعمار والاحتلال.. ودخل السجن هذه المرة وعلى شفته ابتسامة عريضة ساخرة تحمل في طياتها من الألم والحزن على أحوال هذه الأمة الشيء الكثير..

صبره وعزيمته:

ألح عليه أولاده الشباب بترك العمل والخلود إلى الراحة، ولكنه رحمه الله كان يأبى بعزيمة الشباب وعفة المؤمنين الزاهدين. على الرغم من مرضه (الذي زادت صحبته له على أربعين سنة) صَبَرَ صَبْرَ أولي العزم. فالعزيمة والقوة في إيمانه وكأنّ المرض لم يعرف إليه سبيلاً. رحمك الله مُجَاهِداً وعالماً ورعاً.. وطريقنا الذي عبّدت يدعو لك بالرحمة. طريقنا هذا الذي سيكون درب الكثيرين بعون الله يودعك أبا محمود، ويحمل لك الشهادة بصدق الالتزام والثبات على العهد، وقول الحق أمام خالق الوجود.. فتم أبا محمود قرير العين، ونرجو الله الثبات على نفس الطريق لنحشر وإياك تحت لواء سيد المرسلين مع الشهداء والصالحين.. رحمك الله أبا محمود فقد كانت وصيتك لأولادك: أئبرأ إلى الله منكم في كل عمل يخالف الإسلام..

فلك من الله الرحمة، ومنا الدعاء والعهد. والسلام عليك ورحمة الله

وبركاته.

ولكن الإيمان الذي كان مستقراً في أعماق هذا الصدر.. كان يهزأ بهذه النوبات التي كانت تترك من حول الشيخ يحبس أنفاسه خشية وإشفاقاً وألماً عليه... ولطالما كان الكثيرون ممن حوله يتذكرون - كلما رأوه - الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود.. فقد كان هزال جسم الشيخ في أواخر سني حياته يذكر به... ولكن الذي كان يذكر به كذلك: قوة في الحق فُطِرَ عليها الشيخ وترتب عليها، فكان لا يخشى في الله لومة لائم..

محنته وسجنه:

وكان يقول الحق ولو على نفسه... ولقد تحمّل في سبيل ذلك العنت والمشقة، فزج به في السجن أيام الاحتلال والاستعمار، وأعيد فيه مرة أخرى في أيام مَرُ خلفهم الاستعمار والاحتلال.. ودخل السجن هذه المرة وعلى شفته ابتسامة عريضة ساخرة تحمل في طياتها من الألم والحزن على أحوال هذه الأمة الشيء الكثير..

صبره وعزيمته:

ألح عليه أولاده الشباب بترك العمل والخلود إلى الراحة، ولكنه رحمه الله كان يأبى بعزيمة الشباب وعفة المؤمنين الزاهدين. على الرغم من مرضه (الذي زادت صحبته له على أربعين سنة) صَبَرَ صَبْرَ أولي العزم. فالعزيمة والقوة في إيمانه وكأنّ المرض لم يعرف إليه سبيلاً. رحمك الله مُجَاهِداً وعالماً ورعاً.. وطريقنا الذي عبّدت يدعو لك بالرحمة. طريقنا هذا الذي سيكون درب الكثيرين بعون الله يودعك أبا محمود، ويحمل لك الشهادة بصدق الالتزام والثبات على العهد، وقول الحق أمام خالق الوجود.. فتم أبا محمود قرير العين، ونرجو الله الثبات على نفس الطريق لنحشر وإياك تحت لواء سيد المرسلين مع الشهداء والصالحين.. رحمك الله أبا محمود فقد كانت وصيتك لأولادك: أبرأ إلى الله منكم في كل عمل يخالف الإسلام..

فلك من الله الرحمة، ومنا الدعاء والعهد. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

القاضي محمد أديب الأهدلي^(١)

(١٣١٢ - ١٣٩٢هـ)

(١٨٩٤ - ١٩٧٢م)

رحمه الله تعالى



بقلم: محمد صالح

ارتحل إلى جوار ربّه العالم العامل القاضي محمد أهدلي اليماني في ربيع الآخر ١٣٩٢هـ الموافق لـ ٢٧ أيار ١٩٧٢م، عن عمر يناهز ٧٨ عاماً، حافل بالأعمال الجليلة والجهاد المتواصل في سبيل الله.

اسمه وكنيته ولقبه ونسبه:

هو: محمد أديب بن عزّي بن حسن بن القادري بن عمر بن القاسم بن محمد بن الطاهر بن محمد الثاني، وهو سليل علي الأهدلي الكبير الذي يتّصل نسبه بالحسين بن علي رضي الله عنهما، ومنه جاءت كنيته الأهدلي ويدعى أبا سعد أو أبا الأهدلي.

أما أمه: فهي خديجة بنت الحاج لطوف بن نجيب البصمجي من حلب.

(١) حضارة الإسلام، العددان الثالث والرابع، السنة الثالثة عشرة: (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

موطنه الأصلي ومسكنه الجديد:

موطنه الأصلي هو اليمن، حيث هاجر أحد أجداده، وهو محمد بن سليمان، الذي يعود بنسبه إلى جعفر الصادق، من العراق إلى المراوغة بوادي سهام من أعمال الحديدة في اليمن، فولد له عمر، ثم ولد لعمر علي الأهدي الذي تفرّعت منه أغصان الأسرة الأهلية.

وقد انتقل أحد فروع الأسرة، وهو محمد السادس إلى قرية الشغر القديم التابعة لقضاء جسر الشغور سنة ١٨٤٧م، حيث استقر به المطاف هناك، وعندما توفي عام ١٨٧٨م، قدم ابن أخيه محمد عزّي (والد القاضي المرحوم) في عام ١٨٨٠م، من اليمن إلى الشغر بصفته الوريث الشرعي الوحيد لعمّه، لأنه مات بدون عقب، وقد خلف له زاوية ومكتبة، فأقام في الشغر، ثم عُيّن مفتياً لقضاء جسر الشغور حتى وفاته قبيل عام ١٩١٨م، حيث خلفه ابنه (المترجم له) في عمله.

موجز عن تاريخ حياته العلميّة والعملية:

ولد المرحوم عام ١٣١٢هـ الموافق لـ ١٨٩٤م، في قرية الشغر القديم، وفيها ختم القرآن وجوّده وتعلّم الكتابة، ثم انتقل إلى المدرسة الرشيدية في قُضبة الجسر، فتلقّن جوهر الدين وقويم الأخلاق فيها، ثم انصرف لطلب العلم الديني حسب رغبة والده فرحل إلى أربحا وإدلب واللاذقية وحلب، وأخيراً إلى مصر حيث دخل جامعة الأزهر وحظي بعناية المرحوم مصطفى صادق الرافعي، وبعد قضاء ٤ سنوات في الأزهر الشريف عاد ليعيّن في مدرسة ذكور الجسر الابتدائية.

وعند إعلان النفير العام، انخرط في سلك الجندية متطوّعاً لشعوره بوجوب الجهاد، فانتسب إلى رھط البرق (التلغراف)، ثم تحول إلى قلم الفرقة ٢٣، وعندما علم بوفاة والده، عاد إلى الجسر ليؤدي امتحان مشيخة التكية، ثم ليعين بعدها مأموراً للزراعة، ثم كاتباً ثانياً للأعشار، وبقي في عمله هذا حتى نهاية الحرب العظمى، حيث انتخب في عام ١٩١٨م، مفتياً

لقضاء جسر الشغور مكان والده مُضافاً إلى ذلك وكالة القاضي ورياسة البداية.

وفي أيار ١٩٢٥م، أنفذته حكومة الانتداب إلى حلب حيث أُجبر على الإقامة منفياً فيها حوالي ١٩ شهراً، ثم عين في كانون الأول ١٩٢٦م، مفتياً لجرابلس، ثم أضيفت إلى الإفتاء وظيفة التدريس لقضاء جرابلس.

وفي تموز ١٩٢٨م، عُيّن قاضياً شرعياً لقضائي أعزاز وكرد ضاغ درجة رابعة، ثم تحوّل قاضياً لقضائي جرابلس ومنبج عام ١٩٣١م، ونقل في عام ١٩٣٢م، قاضياً بقضائي الباب ومنبج.

وفي عام ١٩٣٣م، عُيّن حاكماً لصلح قضاء حارم، فقاضياً شرعياً لمدينة حلب، حيث ترقى فيها للصف الثاني.

وفي عام ١٩٣٨م، استلم مديرية أوقاف حلب، وفي ١٩٣٩م، نقل قاضياً شرعياً لحمص درجة ثانية، ثم رقي إلى الدرجة الأولى، وبقي في منصبه هناك حتى ١٩٤٨م، حيث نقل إلى اللاذقية، وهناك أُحيل على التقاعد عام ١٩٤٩م.

وقد عمل كاتباً للعدل فيما بين ١٩٥١ - ١٩٥٩م، ثم عمل محامياً فيما بين ١٩٥٩ - ١٩٦٦م، حيث تفرّغ بعد ذلك للعناية بتربية وتوجيه أولاده إلى أن فارق الحياة وهو في دمشق، فنقل إلى الشغور حيث دفن هناك، وكانت حصيلة تربيته وتوجيهه أولاده بالإضافة إلى مئات الشباب الذين تولاهم بالتوجيه والرعاية في كل من الجسر وحلب ودمشق وحمص واللاذقية، ولم يكن نصيبهم من عنايته بأقل من نصيب أولاده.

أضواء على شخصيته:

من هذا العرض السريع لمراحل حياته نصل إلى دالتين هامتين:

١ - نشاطه الدائب، وسعيه المتواصل، وحبّه للعمل، وتفانيه فيه.

٢ - مناوآته للظالمين، ومُعاداته للانتهازيين، ووقوفه في وجه حركات التتريك، ومناضلته للفرنسيين، مما جرّ عليه نقمة الحكومة الفرنسية وعملائها

أيضاً، فعملوا على نقله من مكان لآخر، وتعريض للإهانة والنفي والسجن وللحكم بالإعدام أيضاً، دون أن يقل ذلك من عزمه، أو يُوهن من قوته، أو يغير مواقفه.

ويؤيد ما ذهبنا إليه مواقفه الحازمة من الأمور الجسيمة التي تعرض لها. نذكر منها:

مناضلته ضد الاستعمار:

عندما عُيِّن في منصب الإفتاء في جسر الشغور، قام بتشكيل فرقة مسلحة تضم ٨ آلاف رجل لمناهضة سياسة التتريك، التي فادتها جماعة «الدونمة»: يهود سالونيك.

وعندما دخلت فرنسا إلى سورية، قاد الثوار السوريين في منطقة الجسر، وتعاون مع إبراهيم هنانو، والشيخ صالح العلي، وثوار جبل صهيون ضد المستعمرين الفرنسيين.

كل ذلك مما سبب نقمة الحكومة الفرنسية وعمالئها عليه، فاعتقل عام ١٩٢٥م، باختطافه من جامع الجسر ونقله إلى السجن، ثم حُكم عليه بالإعدام، وكاد الحكم ينفذ لولا ثورة أهالي الجسر واعتقالهم للمستشار الفرنسي، حيث افتدوا به زعيمهم الأهدلي؛ وهذه الحادثة كافية للدلالة على مدى حب الشعب له وتعلق قلوبهم به، وبالمقابل تدل على تفاني الشيخ المرحوم وإخلاصه وتضحيته في سبيل مصلحة أمته.

وبالإضافة إلى نفيه إلى حلب - كما ذكرنا سابقاً - فإنه قد حُجز في دمشق أيام الانتداب الفرنسي مدة ٧ أيام حيث استُجوب كالمجرمين.

ولكن كل هذه المحاولات لم تفلّ من صلابة الرجل المؤمن، ولم تعرف شخصيته انفصاماً بين الفكر والسلوك، فاستمرّ في كل النشاطات السلبية والإيجابية ضد فرنسا المستعمرة.

إصلاحاته الدينية والاجتماعية:

لقد كان رحمه الله حرباً على التخلف والتسلط، ولم تلتن عريكته أبداً مما أدى إلى اتهامه بالخروج والمروق من الدين.

وعندما عُيِّن مديراً لأوقاف حلب نهض بالمشاريع الآتية:

١ - قام بإصلاح ديني واسع سار فيه حثيثاً بقوة العقيدة وحرارة الإيمان مما عرضه لمحاولة الاغتيال من جانب أعداء الدين والإنسانية الذين يرون في الإصلاح دمارهم.

٢ - قام بإصلاحات إدارية جمّة كانتقاء المؤذن الصالح، والإمام الورع، والخطيب البليغ، بالإضافة إلى سهره على أموال الأوقاف وكفّ الأيدي الأثيمة عن سرقتها، وأشهر إصلاحاته في هذا في المجال إلغاؤه راتب تكيته في الشجر قبل أن يلغي راتب أية تكية أخرى، وإنزال راتبه المعيّن له في المرسوم الجمهوري من ٤٠ ليرة دينارية إلى ٣٠ ليرة رغبة في التوفير.

٣ - حاول إنشاء جامعة دينية تُضاهي جامعة الأزهر والجامعات الإسلامية الأخرى رغم ضعف إمكانيات أوقاف حلب عهدئذ.

٤ - قام بنشاط صحفي واسع خاصّة في حمص واللاذقية، فدبجت براعته المقالات المختلفة من سياسية واجتماعية وأدبية ودينية، مما كان له أكبر الأثر في نفوس الجماهير، وما يزال الجمهور يُردّد هذه المقالات الجريئة التي تنصّ على حرب التخلف والاستعمار والصهيونية وتنادي بالإصلاح الديني.

هذا بالإضافة إلى نشاطه في عمله حيث تَقَلَّب بين التدريس والإفتاء والقضاء فترة طويلة، تقدم للإسلام والمسلمين خدمات جليلة، ناهيك عن الشباب الذين أحاطهم برعايته في مختلف المناطق.

آراء علماء عصره وفضائله فيه:

لقد كان رحمه الله بحق شخصية إسلامية فذة، تذكّرنا بالسلف الصالح علماء وعملاً، تقوى وورعاً، حزمًا وعزمًا، وقد شهد له بهذه الخصال وبغيرها من خلال النبيلة، العديد من العلماء ورجالات عصره، وخاصة في معرض حديثهم عن أحد مؤلفاته: (القول الأعديل في تراجم بني الأهدل) وهاكم بعض هذه المقالات في تقرّظ المؤلف رحمه الله.

من حمص يتحدّث المرحوم الدكتور مصطفى السباعي رضوان الله عليه بقوله: (الأستاذ الأهدي من علماء هذه الأمة الذين امتلأت قلوبهم بالحمية لله والغضب لكرامة الإسلام والمسلمين، وهو من الرجال القلائل الذين يتحرّقون شوقاً إلى إصلاح المجتمع الإسلامي، فإذا آتاهم الله السلطة، ومكنهم في الحكم، اندفعوا في تنفيذ برنامجهم الإصلاحي اندفاعاً قوياً، لا يبالون بما ينالهم في سبيل ذلك من عنّت وإيذاء وضرر في الأموال والأرواح، ومواقف الأستاذ الأهدي في الإصلاح مشهورة معلومة آخرها موقفه من الأوقاف الإسلامية حين تولى شؤونها في حلب، ودعوته إلى مشروع الكلية الإسلامية).

ومن حلب يقول فيه المحامي عبدالقادر السبسي: (عرفت الشهباء الأستاذ محمد الأهدي قاضياً شرعياً، نزيهاً مكيناً، وعرفته مديراً لأوقافها حازماً أميناً).

ومن حمص أيضاً يقول الأستاذ وصفي الجندي، زميل المرحوم في الجندية: (الجندية تلك هي التي عرّفتني المؤلف حفظه الله، وعرفتني ما تضم تلك الشخصية النبيلة في أطواء الصدر من أخلاقه الفاضلة، والثقة بالنفس، والصبر على الأذى واحتمال المكاره...).

ويتابع وصفي الجندي حديثه قائلاً: (قال لي يوماً أركان حرب فرقتنا: لقد أشدّيت إلينا يداً لا تنسى باختيارك السيد محمد الأهدي للقلم... لم يمض على وجوده سوى بضعة أيام حتى أصبح مضرب المثل بين عموم أفراد الفرقة على اختلاف مراكزهم فيها: عفة وأمانة واستقامة وأخلاقاً

وديناً... إنساني برحابة صدره وكريم سجايه وعظيم أخلاقه).

كلُّ هذه الخصائص من عنفوان الشباب، وحزم الرجال، ورزانة الشيوخ تجتمع معاً لتكوّن الشخصية الفريدة، شخصية المرحوم القاضي الأهدلي عليه رضوان الله، وهذا ما دفع الشاعر رفيق الفاخوري ليقول:

طَوَّقَ الأهدليُّ حمصَ بِيَمْنَاهُ	وأحيا بفضلِه الآمالا
أي دار أرادها ما تهادت؟	أي صَقْع قد زاره ما اختالا؟
منطق ساحر، فإن حَزَبَ الأمر	تخلَّى عن طَبْعِه واستحالا
وخلالَ تَخَالِها هيكَل الصَّدق	تجلَّى أو روضة محلالا
وقضاء يُذني الضعيف ويُضني	من تجافى عن الصُّراط ومالا
واجتهاد يستلهم الحقَّ صِرْفاً	ليس يلقي إلى الأباطيل بالاً

حقاً لقد كان الأهدلي شخصية فريدة في عصره، مَنْ سمع به أحبه، ومَنْ رآه ازداد حباً له، في سلوكه يتجلّى إيمانه، وفي زهده يتجلّى ورعه وتقواه.

وقبل نهاية المطاف يجدر بنا أن نُلَمَّ بشيء من مؤلفاته التي بقيت ذكرى جميلة تُحيي في نفوسنا تلك الروح الطاهرة التي كانت مشعلاً من مشاعل الإسلام أدت واجبها إلى آخر مدد من وقودها.

مؤلفاته:

١ - القول الأعدل في تراجم بني الأهدل: في ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط.

٢ - رسائل صغيرة، مثل:

أ - أحسن الرد على من جَعَلَ جدَّه القرد.

ب - العمامة الخضراء.

ج - مؤامرة على الإسلام.

بالإضافة إلى المقالات العديدة والمتنوعة في صحف حمص واللاذقية.

وأخيراً لا بدّ لنا من الوقوف موقف الإعجاب والإكبار من هذه الشخصية الإسلامية الفذة التي جمعت إلى جانب رفعة النسب وشرفه، دماثة الخلق، وقوة الإيمان، وحب الجهاد في سبيل الله. والهدف من عرض بعض ملامح هذه الشخصية، هو أن تكون لنا قدوة صالحة، ونبراساً في طريق الخير وذكرى للمؤمنين.

رحمك الله يا أبا الأهدي.. لقد كنت بشهادة معاصريك قاضياً نزيهاً، وعالماً عاملاً، ومسلماً مجاهداً حتى الرمق الأخير، حتى إنك لتتحرق ألماً على وضع المسلمين المُزري، وعبارتك الأخيرة التي لفظتها مع أنفاسك الأخيرة تدل بوضوح على رغبتك الجامحة في الإصلاح رغم قوة الجاهلية وعنادها، فإن كنت قد رحلت فقد بقيت عبارتك في مسمع الدهر تدل عليك وتذكرنا بك وتدفعنا للاقتداء بك، هذه العبارة هي قولك: (إنني شهيد الألم).

فرحمك الله رحمة واسعة، وأسكنك فسيح جناته، وجمعنا بك في ظلال رضوانه.



أبا الأهدلي^(١)

للشاعر محمد الحسناوي

وجوزيت بالخلد باباً فباباً
نعمت ثواباً، وطبئت مآباً

أبا «الأهدلي» سئيت الشحابة
مع الأنبياء، مع الشهداء

و«جسر الشغور» قرى وهضاباً
إذا الظلمات ألقت ججاباً
وعن «قينقاع» فطاشوا صواباً
على لغة الضاد أشهر ناباً
ولكنها الذين ضم كتاباً
من «القاف» و«الثون» ساع شراباً
تدق الرقاب، وتخلو الجراباً
إذا ما غزين وثبن خضاباً

أبا الأهدلي بكثك «الشغور»
وقالو: فقدنا الفتى الألمعي
إذا خديع الثرك عن «خيبر»
إذا ما «أتاتورك» نسل اليهود
وما لغة الضاد حرف وضرف
سقانا «أبو الأهدلي» رحيقاً
وأقرأنا «سوراً» في اليهود
وما هي إلا انتفاضة أسد

عن الأمس، فالأمس أضحي سراباً

أبا الأهدلي ألا ذكريات

(١) هذه قصيدة كتبها أستاذنا الأديب الكبير الشاعر محمد الحسناوي رحمه الله تعالى، وقدمها لي مكتوبة بخطه، ورغب بنشرها في هذا الكتاب.

وَعَالِبَتْ بِحَرِّ الْهُمُومِ غِلَابَا
وَلَا جَنَّبَتْكَ الْهُمُومُ طَلَابَا
مِنْ الزَّحْفِ. ضَلَّ الْفِرَارُ وَعَابَا
نَهْ طُفَّتْ بِلَادَا، وَجُزَّتْ شِعَابَا
نَضُّوتْ حِرَابَا، وَصُغْتُ شِهَابَا
عَدِمْنَا الْوَفَاءَ إِذَا وَالشُّبَابَا
لَكَ «جِسْرُ الشُّغُورِ» قَلَاعَا وَغَايَا
وَفِي الْخَافِقِينَ كَسُونُ الْيَبَابَا
رَضِعْنَاهُ حَسُوءَا، فَأَمْسَى قِبَابَا
لِثُبْدِلَ تُرْكَا بِتُرْكٍ، فَخَابَا
وَمَا لِسِوَاهُ نُذِلَ الرِّقَابَا
وَنَحْنُ الْأَعَزُّ هُدَى وَانْتِسَابَا
هَلُمُّوا بَنِي «الْجِسْرِ» فَالْمَوْتُ طَابَا
لَمَمْتُكَ الضُّلُوعُ، لِيَتَلَقَى الْعَذَابَا
رَ خُطْفَاً وَسَاقُوكَ فَرْدَا مَهَابَا
رِ، وَالنَّهْرُ يَغْلِي خَصَى وَحَبَابَا
وَقُلْنَا: دَمٌ بِدَمٍ إِنْ أَرَدْتُمْ جِسَابَا

وَرُؤِيتَ سَكْباً مِنَ اللَّهِ صَابَا
فَمَا اَزْدَدْتَ إِلَّا إِبَاءً وَذَابَا
أَلَا خَسِئْتُ أَذُوبُ وَذُنَابِي
وَأَصْلَيْتَهُمْ عَزَمَكَ الْمُسْتَجَابَا
كَ «طَه» وَكَانَتْ عَلَيْهِمْ ثِيَابَا
كَأَنَّ الْعِمَامَةَ تُخْفِي الذُّنَابَا
كَأَنَّ الْمَنَابِرَ يُضِيرُ الْعُبَابَا

غَدَاةً ارْتَشَقْتَ الْعُلُومَ صَبِيَا
فَمَا أَوْرَثَتْكَ الْعُلُومُ اغْتِرَابَا
عَضَدْتَ الْخَنَاجِرَ أَلَا فِرَارُ
فَمِنْ «شُغْرِكَ» الْوَعْرِ حَتَّى الْكِنَا
وَمَنْ تَبَعَهُ الشَّرْعُ - يَا لِّلْمَعِينِ -
أَتَذْهَبُ فِي الذَّاهِبِينَ أَبَا الْأَهْدَلِي
يَمِينَا لَتَتَّبِعَنَّ بِمَوْتِ
فَهَذِي أَيَادِيكَ فِي الضِّقَّتَيْنِ
وَهَذِي رِسَالَتُكَ الْيَوْمَ تُسْغِ
أَتَذْكُرُ لَمَّا دَعَاكَ «هَنَانُو»
فَقُلْتَ: لِرَبِّ السَّمَاءِ سَجْدُنَا
أُنْبَدِلُ مُسْتَعْمِراً بِدَخِيلِ
وَلَمَّا ابْتَلَاكَ «الْفِرَنْسِيْسُ» قُلْتَ:
فَمَا خَذَلْتُكَ الْجُمُوعُ، وَلَا أَسَدُ
غَدَاةً خُطِفْتَ مِنَ الْمَسْجِدِ الطُّهَرِ
لَكِي يَقْتُلُوكَ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ
كَمَا خُطِفُوكَ خُطَفْنَا الرَّئِيسِ

أَبَا الْأَهْدَلِي، سَمَوْتُ مَقَامَا
نَفُوكَ إِلَى «حَلَبٍ» وَقُرَاهَا
وَهَاجُوا عَلَيْكَ مَسَاعِيرَهُمْ
فَالْقُمَّتَهُمْ حَجَرًا لَا تَخِيبُ
وَطَهَّرَتْ مِنْهُمْ مَنَابِرَ جَدُّ
وَقَالُوا: عَدُوُّ الْعِمَامَةِ هَذَا
كَأَنَّ الْمَنَابِرَ جُكِّرَ، وَمَكَّرَ

كَفَفَتْ عَنِ السَّلْبِ وَالنُّهْبِ قَوْمًا
فَمَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَعَهْدِ
رِمَانِ الْعَدُوِّ بِكُلِّ سِلَاحٍ
فَمَنْ يَطْلُبُ الْمَوْتَ غَيْرَ الْأَلَى
وَمَنْ يَنْصُرُ اللَّهَ وَالْقِبْلَتَيْنِ
لِتُشْبِعَ جَوْعَى، وَتَبْنِي خَرَابًا
أَعَزَّ مَنْ الثَّيَرَيْنِ جَنَابًا
وَخَيْرُ سِلَاحٍ هَدَى اللَّهَ ذَابًا
شَرُوا اللَّهَ أَنْفُسَهُم وَالرُّغَابَا
إِذَا نَصَرَ الْقَاعِدُونَ تُرَابًا

* * *

أَبَا الْأَهْدَلِيِّ سُقِيَتِ السَّحَابَا
مَعَ الْأَنْبِيَاءِ، مَعَ الشُّهَدَاءِ
وَجُوزِيَتْ بِالْخُلْدِ بَابًا فَبَابَا
نَعِمَتْ ثَوَابَا، وَطَبَّتْ مَأْبَا





الدكتور عبدالكريم عثمان^(١)

(١٣٤٧ - ١٣٩٢هـ)

(١٩٢٩ - ١٩٧٢م)

للدكتور محمد أديب صالح

في ريعان الشباب وأوج القوة ونُضرة الحياة:

قضى الأستاذ الدكتور عبدالكريم عثمان - رحمه الله - وهو الأخ الغالي في ريعان الشباب... ولم يودّع بابتسامته الحلوة الراضية أهله الأقربين، وأطفاله الصغار وكفى... ولكنه ودّع الكثير الكثير من قلوب أحبته التي حملت له طوال حياته أكرم معاني المودة والأخوة والتقدير...

قضى (أبو علاء) وذلك أوسع من الألقاب والعناوين، وهو في أوج القوة، ونُضرة الحياة على طريق الدعوة إلى الله، وتبصير المسلمين بدينهم، ودعوتهم إلى تبين أمورهم، لإدراك ما يُحيط بالجيل الناشئ من مكايد ومؤامرات... وإحاطة العاملين في حقل المعرفة والدعوة، بطبيعة المعركة

(١) حضارة الإسلام، العددان الخامس والسادس، السنة الثالثة عشرة: (١٣٩٢هـ -

التي يخوضها الفكر الإسلامي في وقت تنوعت فيه أسلحة العدو، وتلونت ساحات هجومه على الإسلام وحضارته وذويه.

ومن هنا، ومن خلال هذا التصور، تبدو الفاجعة الأليمة ب وفاة الأخ عبدالكريم رحمه الله . . فله ما أخذ، والله ما أعطى، وإنا لله وإنا إليه راجعون . . وهو المسؤول سبحانه أن يعوّضنا بفقده خير العوض، إنه المعطي والآخذ . . . وهو المحمود على كل حال.

وَمَنْ أَجْدَرُ مِنَ الْمُؤْمِنِ بِأَنْ يَذْكُرَ عِنْدَ فَقْدِ وَاحِدٍ مِنْ أَحِبَّتِهِ الَّذِينَ لَهُمْ فِي النَّفْسِ مَا لَهُمْ، قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ...﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله جلّت قدرته: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يُرِدُّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدُّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَخَّرْنَا الشَّكْرَيْنَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

والكلام في هذه الآية وارد في معرض الحديث عن محمد عليه الصلاة والسلام، والأسوة بما حصل للأنبياء السابقين صلوات الله عليهم أجمعين.

ألا وإن كلمات تقال على عجل ليست - يعلم الله - كفاء الأخ عبدالكريم، ولكنها اللفتة السريعة التي أرجو أن يقدرني الله إلى ما هو أوفى منها، بحيث يطمئن القلب إلى أن شيئاً من حقّ الأخ الأعز، داعية وعالماً وأخاً، قد وُضع في نصابه إن شاء الله تعالى.

تقدير الرواد:

ويوم تكون الأمة على الطريق البئساء كما أراد الله، مولية وجهها شطر القيم، تقدر رؤاها على هذه الطريق . . ويقدر ما تكون اهتمامات هذه الأمة في أن تجد من يقول الكلمة، ويرسم المنهج أو يسهم فيه، في سبيل تحقيق الغاية المثلى، تشعر بفراغ يحصل عند فقدان واحد من رجالها . . خصوصاً في زمان يعزّ فيه الرجال . . وعند ذلك يتجاوز الأمر حدود العواطف ليدخل

في حدود الحكم العقلي، وكل ما يمت إلى ما تنشده الأمة بسبب، إذ يصبح مقياس القُرب والبُعد بالنسبة للراحل مُختلفاً عن المقياس التي اعتادها الناس.

الداعية المؤمن:

وأشهد.. لقد علمت - في صحبتي المديدة المتقطعة للفقيد رحمه الله - الكثير من المعاني التي هي من سمات الداعية المؤمن الذي ينشد الحقيقة، ويسعى في مرضاة الله عز وجل...

ولقد كانت آخر فترة طويلة قضيناها معاً عام ١٣٨٢هـ، في القاهرة، وكان منها شهر رمضان المبارك بما يحمل من الخير والخُصب، ونفحات القرآن والرحمة والمغفرة.. فلم أَر فيه - أكرمه الله بمغفرته - إلا النفس الهنية الراضية، والتعالي على مُحقرات الأمور، والحرص على صُحبته كتاب الله تعالى قراءةً وتديراً.

اهتمامه بواجب الدعوة والعطاء:

وكان - إلى سلوكه الذي يسعى جاهداً أن يكون متوائماً مع الإسلام - لا ينسى دعوته التي يرى فيها شريان الحياة ونبض القلب. وكان لها دائماً من اهتمامه نصيب كبير والحمد لله، يتمثل ذلك في نظرات فاحصة، حرص على سلامة القدوة، والتزود الدائم بما يكون فيه القدرة على العطاء عندما يدعو واجب الدعوة والعطاء.

مجال العلم:

وفي مجال العلم.. كان فقيداً مثال الجِدِّ والسَّهر والدَّأب في تواضع جم، وتلمس لأبواب الإفادة، ونكرانٍ للذات.

والذي يلفت النظر - وهذا قليل في الناس - أنه في سبيل استكمال ما كان يشعر بأنه فاتته من قبل كخلفية واجبة لدراسته عن الغزالي والقاضي عبدالجبار... كان لا يني يسأل ويستشير ويناقش ليصل إلى الحقيقة، عارفاً

لكل أخ قدره، تاركاً في المسألة المطروحة لصاحب الاختصاص أن يقول كلمة الفصل.. وكثيراً ما كان يحصل هذا.. حتى في قراءة عبارة أو كلمة في مخطوطة، حيث يتوقف على ذلك فهم قضية من القضايا، أو تجلية أمر من الأمور.

مؤلفاته:

وبين يدي الآن - وأنا في طريقي إلى السفر ومغادرة الدار - مجموعة من كتب أبي علاء رحمه الله، فيها: «سيرة الغزالي»، وهو بحث أعدّه لمؤتمر المجلس الأعلى للآداب والفنون منذ أكثر من عشر سنوات، و«الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي» - بوجه خاص - وهو رسالة الماجستير، و«ترجمة القاضي عبد الجبار الهمداني»، و«تثبيت دلائل النبوة» الذي حقّقه وهو للقاضي عبد الجبار رحمه الله، و«نظرية التكليف آراء القاضي عبد الجبار الكلامية» وهي رسالة الدكتوراة، و«الثقافة الإسلامية»^(١) وهو محاضرة ألقاها في الرياض.

التطلع إلى الحقيقة والسعي وراء المعرفة:

و«معالم الثقافة الإسلامية»، و«نظام الإسلام السياسي» مما ألقاه على طلابه في جامعة الرياض، أقول: بين يدي هذه المجموعة من آثاره، ولست بسبيل دراستها أو دراسة واحد منها الآن في هذه العجالة.. فلذلك وقت آخر.. ولكن الذي أودّ إثباته، أن خطأ ينتظم آثاره جميعاً، سواء منها ما كان باكورة عمل كما في «سيرة الغزالي» أو ما كان ورقة امتحان كما في رسالتي الماجستير والدكتوراه، أو ما كان نتاج تدريس أو محاضرة عامة، أو بحث.. ذلك الخط هو التطلع إلى الحقيقة، والسعي وراء المعرفة، والحرص على أن يكون فيما يعمل مرضاة لله عزّ وجل..

(١) وترى الحديث عن الكتاب في مكان آخر من المجلة في دراسة أعدها الأستاذ محمد منلاً غزيل أكرمه الله (محمد أديب)، وتجدّه بعد هذه المقالة (مجد).

صحيح أنك قد لا توافق عبدالكريم أجزل الله مثوبته، في كل ما يقول، أو قد ترى أن أمراً من الأمور كان يعوزه التضج أكثر مما فعل، أو مخطوطاً ربما احتاج إلى خدمة أكثر.. ولكن.. أين لا تجد عنده ما هو كذلك، وأي امرئ يتعرض لخدمة دعوة الإسلام عن طريق المعرفة والتوجيه بلسانه وقلمه، ثم لا تبصر فيما يقدم، آثار المعركة الضارية التي يخوضها العاملون ضد الهجمة الشرسة من أعداء الإسلام.. علماً بأن إنتاج الأخ عبدالكريم رحمه الله هو من الوفرة بحيث ينظر إليه نظرة معينة عند التقويم والنقد.

الإخلاص وصفاء النفس:

وإنك واجد - فيما وراء ذلك كله - أن إطاراً عاماً من الإخلاص والمعرفة، وصفاء النفس، كان يلف سلوك عبدالكريم في حقل الدعوة والبحث العلمي.. وحسبه بذلك زلفى إلى الله، وطريقاً إلى مرضاته سبحانه.

ولكم يتعثر القلم، وتضطرب النفس، ويَجِبُ القلب.. عند تذكر الحادث الجلل، حيث اللوعة تلف الكلمة، والأسى يُجلل ما يكون من خواطر وذكريات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

دعوة لليقظة والتنبه:

ولكن.. ولكن لوعة القلب لا تطفئها دمة تُرسل، ولا كلمة يقال والكبد المقروحة بفقدان الرجال لا تجعلها صفحة من الرثاء كبداً ليست بذات قروح، غير أنه الرضا عن الله عز وجل، والطمأنينة لقضائه وقدره، والإفادة من صوت النذير أن أخاك إذا ارتحل فأعد نفسك لمثلها وكأن قد... والعاقل كل العاقل من يرى في ارتحال أخ قريب حبيب مجيباً نداء القدر، دعوة لليقظة والتنبه، وتحذيراً من الغفلة والاستهتار والاستكانة لحب الدنيا والعافية، ونذيراً من نذر الأجل المحتوم أن ما قضاه الله كائن، ولا حيلة في ذلك ولا شفاعة... ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

يَسْقِدُونَ ﴿ [الأعراف: ٣٤] ، والساعة هنا أقصر ما يمكن أن يتصور من الزمن .

لوعة القلب.. ومعالم الرضا:

أذكر يا أبا علاء حرقتك على الدعوة وأهلها منذ تلك الأيام البعيدة، وأذكر صفاء نفسك، وأذكر ابتسامتك المشرقة علامة الطمأنينة والرضا.. وأذكر ما كان بيننا من التشاكي ألماً على واقع المسلمين، وكيف يمكن أن تبرز إرادة التغيير صورة حية في العمل والتطبيق.. وأذكر ما كنت تحرص عليه من تدريب النفس على أن يحب المرء الله ويبغض الله.. أذكر ذلك كله، فتأخذني اللوعة، ويستخفني الحادث الجلل.. ثم أعود إلى معاني الإيمان أستذكرها، وإلى معالم الرضا أمرُّ بها على القلب رويداً رويداً.. فأشعر ببرد الطمأنينة، وأن ما عند الله خير لعبد الكريم وأبقى، وأن ما أعدّه الله لعباده الأبرار من النعيم المقيم، لا يقاس بما في هذه الدنيا الفانية الزائلة من عناء ونصب، ومصائب يذوب لهولها القلب من كمد.. وتكاد تذهب نفس المؤمن لشدتها حشرات.

فأنعم أيها الأخ الغالي بكرم الله وعطائه.. فللذين أحسنوا الحُسنى وزيادة، ومن أراد الآخرة، وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكوراً. وأرجو أن تكون في عداد من قال الله فيهم: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِرُ نَاصِرُهُ﴾ [٢٢] إِلَى رَبِّهَا نَاطِرُهُ ﴿ [٢٣] ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

رحم الله أبا علاء رحمة واسعة، وعوّضنا بفقده خير العوض، وكان لأهله وولده من بعده، وكتب له ثواب المجاهدين الأبرار، وأسكنه الفردوس الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.. والحمد لله على كل حال.

حياة الفقيه في سطور

- ولد فقيدنا رحمه الله في مدينة حماة عام ١٩٢٩م، لأب مشهود له بالورع والتقوى.
- حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٤١م، ثم التحق بثانوية ابن رشد ليتابع تحصيله.
- تقرر إيفاده في بعثة إلى جامعة القاهرة عام ١٩٤٧م، لينال الشهادة العالية في الفلسفة وعلم الاجتماع، فنال درجة الامتياز طوال السنوات الأربع، ومارس الكتابة أثناء الدراسة في عدة مقالات عن التأمينات الاجتماعية في الإسلام نُشرت في جريدة المنار الدمشقية.
- عمل رحمه الله مدرساً في مدينة دير الزور، فخلف فيها من الآثار ما لا يُنسى، ثم عمل في مدينتي حلب وحماة، فكان نِعَمَ المدرس الداعية بعلمه وسلوكه.
- أوفدته وزارة التربية إلى جامعة القاهرة عام ١٩٦٠م، ضمن مجموعة من المتفوقين للحصول على شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية، وقد حصل عليها بعد خمس سنوات بمرتبة امتياز.
- نشر عدداً من المقالات في عدة مجلات منها: «حضارة الإسلام».
- عمل مدرساً للثقافة الإسلامية في جامعة الرياض، وكان هذا العمل أخصب أيام حياته وأغناها.
- كانت وفاته في مدينة حماة عصر الأربعاء ٢١ رجب الخير ١٣٩٢هـ، بعد مرض لم يُمهله طويلاً، عن ثلاثة وأربعين عاماً، رحمه الله وغفر له وأكرم مثواه.





وداعاً... يا عبدالكريم^(١)

بقلم: محمد غزيل

شجون وذكريات:

بلغني النعي فأثار شجوناً وذكريات... فمئذ أكثر من عشر سنين كان لقائي بعبدالكريم عثمان - رحمه الله رحمة واسعة -.

ثم مضى بنا تيار الحياة بإذن الله الحي القيوم... وتابعت بعض ما كتب عبدالكريم، وقرأت له باهتمام ما كتبه حول الكتاب المترجم بعنوان: (دراسات إسلامية)، لعدد من المستشرقين في عدد من أعداد السنة السادسة من (حضارتنا)... وقرأت له هذا الصيف كتابه عن (سيرة الغزالي)، ولكن محاضراته اللطيفة التي ألقاها في مدرج جامعة الرياض بعنوان (الثقافة الإسلامية: خصائصها - تاريخها - مستقبلها) استأثرت مني باهتمام أكبر وأشرت إليها في محاضرتي عن (المسألة الحضارية وبعدها الثقافي) بالمركز الثقافي العربي بمنبج...

وأرى اليوم أن من الوفاء الأخوي أن أخطّ حولها هذا التعريف والتلخيص على عجل إسهاماً في ذكرى أخينا الكريم عبدالكريم رحمه الله...

(١) حضارة الإسلام، العددان الخامس والسادس، السنة الثالثة عشرة: (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

جاء في مقدّمة الرسالة:

(فالأمة الإسلامية) التي يشكّل فيها العرب واسطة العقد تستيقظ بعد أمِدٍ من السبات العميق... ولئن كان واجب التفكير في هذه الأزمة والسعي للانتقال بها من مرحلة الضياع والتفكك إلى نقطة الحركة مفروضاً على كل مسلم؛ فإنّ على المفكرين أصحاب الرأي والثقافة بين المسلمين واجباً مضاعفاً... وإن أهم ما يقاس به الفرد أو المجتمع أو الحضارة هو مقدار ما يتضمّنه كلّ منها من قيم روحية وعقلية وخلقية... وأول الطريق للوصول إلى تحقيق هذا الهدف هو في التعرف على ثقافة الأمة الإسلامية ونظرتها الأصلية إلى الكون والإنسان والوجود، والثقافة هي التي تعطي الأمة طابعها الأصيل المميز...).

مفهوم الثقافة والحضارة والمدنية:

ثم يتحدث عن مفهوم الثقافة والحضارة والمدنية، فيرى أن الثقافة، تعني لغة: الحذق والفهم، وتقابل المدنية من الناحية المعنوية، كما أن الحضارة تعني حياة الحضر، ونمط الحياة المستقرة، وهي المحصلة الشاملة للمدنية والثقافة في مجموع أنماطها المادية والمعنوية ذلك لأن (المدنية) تمثل الجانب المادي والمظهري للحياة... ويأتي بعد ذلك الكلام على خصائص الثقافة الإسلامية ثم تاريخها ومستقبلها...

خصائص الثقافة الإسلامية:

أما الخصائص فأبرزها الربانية: لأن الوحي الإلهي هو المصدر الرئيسي للثقافة الإسلامية ممثلاً في كتاب الله وستة نبيه عليه الصلاة والسلام... وبما أن الثقافة الإسلامية ربانية النزعة فهي ثقافة عميقة غائبة تجمع بين المقاصد والوسائل، فهي بحق ثقافة (الإيمان والعلم) ويؤيد الكاتب رأيه بمقاطع من كتابات سيد قطب رحمه الله ومالك بن نبي... أما الخصيصة الثانية، فهي الإنسانية... وذلك نابع من عالمية الرسالة ومجافاتها للتعصب والعنصرية... رابطتها الوثقى هي العقيدة... وفي ظل التوحيد الخالص تلتقي شعوب المسلمين أمة واحدة تستقي من دينها الحق والقوة والحرية... كما تستمد العدل والخير الشامل...

وصفتها الثالثة هي الشمول ومعه التوازن لأن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام أو بعبارة أخرى هو منهج حياة يشمل التصور الاعتقادي والنظم الواقعية. أخلاقية وسياسية واجتماعية واقتصادية ودولية... والثقافة الإسلامية إيجابية لأن مبادئ الإسلام قوة بناء وحركة دافعة إلى النمو المطرد...

ولا يفوت الأستاذ المرحوم أن يورد لهذه المعاني من آيات القرآن الحكيم ما يعزز الرأي ويدل على أن الثقافة الإسلامية بسطت أمام العقل آفاقاً رحاباً... مترامية الأطراف...

وبعد ذلك يتحدث عن الواقع التاريخي، وعن آثار الحضارة والثقافة الإسلامية في المجالات المتعددة: مجال القيم الخالدة والمثل العليا، ثم مجال العلاقات الاجتماعية حيث التكافل الإنساني والدولة الفاضلة، ويؤكد ما أعطته الحضارة الإسلامية للمسلمين وللعرب خاصة من شخصية فكرية متميزة لا غربية ولا شرقية!...

ويذكر أنه لم يكتمل القرن الرابع الهجري حتى كانت الشعوب الإسلامية أغنى الشعوب علماً وفكراً وثقافة وكفاية... ويعتبر المنهج العلمي التجريبي الذي تدين له الحضارة الغربية أحد منجزات ثقافتنا...

وبعد أن يسرد قدراً مما استطاعت الثقافة الإسلامية أن تغني به الإنسانية في ميدان الفكر والتقدم العلمي في الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب وغير ذلك من الآداب والعلوم والفنون يتمنى لو حافظ المسلمون على أصالة التوجيه الإسلامي ولم يستغرقوا في جدل فلسفي أو نقاشي عقيم!...

تحديات الثقافة الإسلامية:

ويأتي بعد ذلك حديث التحديات التي جابهت الثقافة الإسلامية قديماً وحديثاً، فيذكر أنها جابهت تحديات خطيرة مع بداية العصر العباسي بتأثير الاحتكاك الحضاري والتمازج الثقافي... ومن ذلك حملات الزندقة والإلحاد والشعبوية والتشكيك بعقيدة التوحيد... فنشأ علم الكلام... ووقع الانحراف... فقامت الدعوة للعودة بالفكر الإسلامي إلى صفائه ونقاؤه

وتميزه بسلوك طريقة السلف من الصحابة والتابعين بإحسان، وكان للأئمة ابن حنبل والغزالي وتقي الدين ابن تيمية أثرهم الكبير في إعادة الأمور إلى نصابها... جزاهم الله خيراً...

وأما التحدي الآخر الخطير، فقد جاء مع الغزو الفكري اليوناني إثر اتساع الترجمة، وكانت الثقافة اليونانية نظرية بحتة ودنيوية لا تركز إلى أساس ديني من وحي وتنزيل وتطغى عليها نظرة حسية مادية... حيوانية!... ولئن كانت تلك التحديات وما أثارته من أفكار وردود فعل قد أدت دورها التاريخي، واستنفدت أغراضها إلى حد كبير فيحسن بالمفكر المسلم المعاصر أن يستقبل التحديات الجديدة ويكافحها بما يكافئها من وسائل وأساليب!... وقد صدق الأفغاني: (متى تكافأت القوى فإن العدل قادم).

تحديات الحضارة الحديثة وثقافتها:

وجاء بعد ذلك الحديث عن تحديات الحضارة الحديثة وثقافتها... وإن الغزو الغربي هو أعظم تحدٍ؛ وقد اتخذ شكلين: الغزو المسلم الاستغلالي، والغزو الفكري العقائدي الحضاري، فعانت المجتمعات الإسلامية من المعاناة بسبب هذا الطوفان ومضاعفاته ولا سيما بسبب ما عرفته أوروبا من نزاع تاريخي بين رجال الكنيسة ورجال العلم والعرفان... ودهمت مجتمعاتنا مع الغزو أمواج التحلل والجمود والنسبية الأخلاقية! وبذل جهد واسع تبشيري استشرافي لطمس معالم الطريق الإسلامي وتشويه ذلك التراث الأصيل... وكان من غرض المستشرقين إضعاف القيم الإسلامية وإثبات تفوق الغرب!... وخسؤوا رغم أنهم قد نجحوا في تحقيق كثير من أهدافهم... وأحدثوا في نفوس المسلمين ما يشبه اليأس من مستقبل الإسلام، وقد ساعدتهم على ذلك أتباع ذليلون وعملاء مقنعون!... في ظروف من الضعف السياسي والتخلف المادي... والعلمي!...

موقف الثقافة الإسلامية من تحديات الغرب:

وأجاد الدكتور عبدالكريم إجابة بارعة موفقة في القسم الثاني من المحاضرة حين تحدث عن موقف الثقافة الإسلامية من تحديات الغرب... وميز عدة اتجاهات:

- ١ - موقف سلبي مُتَحَجِّر جامد... يُمَثِّل أصحابه قوة مولية مدبرة!
- ٢ - دعوة عمياء إلى التغريب والتبعية...
- ٣ - محاولة تطويرية للتوفيق بتقريب مبادئ الإسلام من مُثُل الغرب!
- ٤ - احتفاظ بالأصالة ومحاولة لإعادة تماسك الجماعة الإسلامية مع الإفادة من منجزات المدنية...

ولعلَّ الاتجاه التوفيقي التلفيقي ينتهي بالمسلمين إلى الفرقة؛ لأن كل إقليم سيذهب في مسلكه التطويري مذهباً يخالف غيره ومع توالي الأيام سوف نجد في عالمنا الإسلامي ثقافات متنافرة!... ولا سبيل لمغالبة تلك المكاييد من الثقة بالنفس ومن تحقيق الذات... في توازن حكيم بين حاجات النفس والجسد، والفرد والجماعة، وليظل المسلم قيادياً ريادياً طليعياً يحمل رسالة خالدة وعقيدة صامدة!

الحركات الإصلاحية الحديثة:

ويشير المحاضر إلى عدد من الحركات الإصلاحية الحديثة في أرجاء عالمنا المعاصر منها: ندوة العلماء، والجماعة الإسلامية، ودار الإسلام، والحركة النورية، ثم الحركة الوهابية، والسنوسية، وجمعية العلماء المسلمين بالجزائر، ويشيد بأفكار الدكتور محمد إقبال شاعر الإسلام في القارة الهندية، حيث يتطَّع إلى عالم جديد (لأن العالم القديم الذي حوَّله الغربيون والشرقيون مكاناً للمقاومة بالأمن والكرامة يلفظ أنفاسه...).

مستقبل الثقافة الإسلامية:

وفي الحديث عن مستقبل الثقافة الإسلامية، وهو الفصل الأخير من فصول هذه الرسالة الغنية القيمة... أودُّ أن أؤكد ما كتبه ذات يوم من عام ١٩٥٦ إلى أستاذنا صاحب (نحو مجتمع إسلامي) قائلاً:
(ما زلنا نعتقد معك بقوة: أن المستقبل في أرض الإسلام للإسلام... فصبراً...).

اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى... كما أسألك الصبر والنصر... إنك نعم المولى ونعم النصير...



الشيخ نعيم النعيمي^(١)

في ذمة الله

(١٣٢٧ - ١٣٩٣هـ)

(١٩٠٩ - ١٩٧٣م)



تمهيد:

هذه بعض العناصر الرئيسية من حياة المرحوم الشيخ نعيم النعيمي،

- (١) مجلة (الأصالة) الجزائرية، العدد (١٦) السنة الثالثة: (١٣٩٣هـ) وجاء في مقدمة الترجمة: فُجعت الجزائر في عالم من جلة علمائها الأبرار الأستاذ الجليل نعيم النعيمي رحمه الله. فقد اختير إلى الرفيق الأعلى يوم ١٦ جمادى الأولى ١٣٩٣هـ - ١٧ يونيو ١٩٧٣م - بعد مرض عضال أنهكت أوصابه منذ ما يزيد على ثلاث سنوات. وكان الفقيد - رحمه الله - مثال العصامية في تكوين نفسه، والتضحية في خدمة أمته ووطنه ودينه، والإخلاص في عمله.
- انخرط في سلك العلماء منذ سنة ١٩٤٦م، وأستاذًا بمعهد ابن باديس منذ تأسيسه ١٩٤٧م، وشارك في الثورة منذ سنواتها الأولى. ثم كان من كبار مسؤولي الشؤون الدينية في حكومة الجمهورية باعتباره من كبار موظفي وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية. وقد شُيعت جنازته إلى مقره الأخير بمقبرة قسنطينة في محفل رهيب، حضره الكاتب العام لوزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، ووالي قسنطينة، والمحافظ الوطني للحزب، ورئيس المجلس البلدي الشعبي، ومن =

كتبتها كمحاولة للتعريف بهذه الشخصية التي تمثل نموذجاً لجيل من الرجال الذين كان لهم الفضل في بعث شخصية الجزائر العربية الإسلامية، وشقوا طريقهم رغم العقبات التي لا تحصى فحفظوا للوطن مميزات القومية ورفعوا شأنه عالياً في الميدان الثقافي.

لقد اعتمدت في إيراد هذه المعلومات على كتابات الفقيه ومذكراته، وكذلك على أحاديثه بحكم علاقتي العائلية به، كما أكملت بعض الثغرات قدر المستطاع بالحديث مع أخويه الباقيين على قيد الحياة وبعض المسنين من الأقارب. وقد تحرّيت - ما استطعت إلى ذلك سبيلاً - في إيراد الصحيح من الوقائع ونبتذ كل ما شككت في صحته. وأرجو أن أكون بذلك قد ساهمت ولو بجهد ضئيل في خدمة الحقيقة والتاريخ. وذلك هدفي الأول.

اسمه وعائلته:

إنَّ الاسم الحقيقي الكامل للفقيه هو النعيمي بن أحمد بن علي. وقد سُمِّي باسم جده الخامس أو السادس في سلسلة النسب أي «النعيمي» الذي تنسب إليه العائلة. وقد ظلَّ يدعى بهذا الاسم في إطار الأسرة، إلى أن اختصر إلى «نعيم» بالتصغير، وهو اسم وارد بكثرة في كتب التاريخ ولا شك أن هذا الاختصار أتى من تردده على ألسنة أصدقائه من المثقفين ثم أصبح علماً عليه بعد ذلك. ولا أدري متى حدث هذا بالضبط.

وعشيرة آل النعيمي التي تنتسب إليها العائلة هي إحدى عشائر عرش أولاد حركات من قبيلة أولاد زكري التي تقطن حول واحتني أولاد جلال وسيدي خالد من واحات الزيبان الغربية في دائرة بسكرة المعروفة.

= ناب عن قائد الناحية العسكرية الخامسة، وكل ممثلي السلطة المدنية والعسكرية والشعبية وطائفة من العلماء الجلة من مختلف أنحاء الوطن.

وأبنته الشيخ محمد خير الدين الرئيس الثاني لجمعية العلماء، والشيخ أحمد حماني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والشيخ الطاهر سعدي مدير ثانوية ابن باديس. رحمه الله ورضي عنه.

ويسر مجلة (الأصالة) أن تقدّم دراسة قيمة عن حياة الشيخ النعيمي بقلم ابن أخيه الأستاذ بلقاسم النعيمي، مدير ثانوية شبحاني بشير بخنشلة، والمختص في التاريخ.

ولادته:

وُلد نعيم النعيمي في صيف سنة ١٩٠٩، ولا يعلم يوم ميلاده على وجه التحديد، لأن مسقط رأسه كان ضمن منطقة الحكم العسكري في عهد الاستعمار، حيث لا يوجد سجل مدني ولا إحصاء للسكان، حتى إن الضرائب كانت تؤخذ عن طريق الالتزام فيدفع القائد أو شيخ العرش مبلغاً معلوماً للخزينة، ويأخذ من المواطنين ما يشاء، ولم تشرع السلطة في تسجيل المواليد إلا في سنة ١٩٤٠، ولذلك فإن مواليد هذه المنطقة قبل التاريخ المذكور لا يمكن معرفة تاريخ ولادتهم إلا عن طريق القرائن.

والده:

كان والده فلاحاً بسيطاً يملك قطعاً أرضية في بادية سيدي خالد التي يملكها عرش أولاد حركات ملكية مشاعة (عروشية)، وله قطيع صغير من الأغنام وبضعة جمال. وكان رغم بساطته وأميته ورعاً متديناً شديد الأمانة لا يعرف الكذب قط، وكان في نفس الوقت من الإخوان؛ أي: من أتباع زاوية الشيخ المختار التي كان مقرها في أولاد جلال، وهي إحدى زوايا الطريقة الرحمانية التي تكثر في واحات الزيبان.

إخوته:

كان النعيمي هو سابع إخوته في الترتيب، وهو أيضاً ما قبل الأخير منهم، وعلى يد أخيه الرابع الجنيدي^(١) مد الله في عمره بدأ خطوته الأولى في التعلم، وهي حفظ القرآن الكريم.

حفظه للقرآن:

كان الجنيدي يتم حفظ القرآن وحده، وإلى جانبه أخوه الصغير يكتب على لوحته السور القصار من القرآن حسب الطريقة المتبعة، وذلك حسب تقديراتي حوالي سنة ١٩١٥، ثم انتقل بعد أن سار شوطاً في حفظ القرآن

(١) هو الآن موظف متقاعد يقيم في العاصمة (بلقاسم).

إلى خاله الذي كان يزاوّل تحفيظ القرآن للصغار فأتّم حفظه هناك. وبدأ عليه منذ الطفولة قوة الحافظة فكان سريع الاستيعاب للأجزاء التي يكلف بها، رغم أنه لا يبذل جهداً كبيراً في هذا السبيل. وقد اشتهر بهذه الخاصية منذ ذلك الوقت المبكر.

انتسابه إلى زاوية الشيخ المختار:

ها هو الآن قد أتمّ حفظ القرآن وعمره لا يتجاوز عشر سنوات. فماذا يفعل طفل مثله في هذه البيئة الفقيرة المتخلفة؟ كان يمكن أن يكون مصيره مثل مصير كل أقرانه فيعود إلى بيت أهله ليعيش حياة فارغة من كل محتوى سوى مساعدة أهله في طلب الرزق المحدود، لكن صغر سنه الذي لا يسمح له بمزاولة أي عمل، وتفتح مواهبه المبكر، وعلاقة والده وأخيه الأكبر بشيخ الزاوية قد جعل مصيره يتّجه اتجاهاً آخر كان له الأثر الأكبر في مجرى حياته كلها. وهكذا انتسب إلى زاوية الشيخ المختار كطالب علم حوالى سنة ١٩١٩ وقد سبقه إليها أخوه الخامس علي أطال الله بقاءه.

وقد أسست هذه الزاوية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد الشيخ المختار البخليفي كفرع من فروع الطريقة الرحمانية المشهورة، وسرعان ما أصبحت معهداً يقصده طلاب القرآن والعلوم الدينية واللسانية من مختلف واحات الزيبان وإقليم جنوب التيطرى. وكانت مثل غيرها من الزوايا تعتمد على ما تتلقّاه من تبرّعات السكان الذين يأخذون ميثاق الطريقة عن شيخها، وتؤدي الطلبة مسكناً ومطعماً مقابل مبلغ رمزي يدفعه كل طالب.

ويبدو أن هذه الزاوية قد ازدهرت في أوائل القرن العشرين على يد شيخها الثاني محمد الصغير وابنه عبدالحميد، وارتفع عدد طلبتها إلى بضع مئات بما فيهم طلبة العلم وتلاميذ القرآن.

كان الطالب بعد أن يتّم حفظ القرآن الكريم داخل الزاوية أو خارجها يسمح له بمزاولة الدراسة بعد موافقة شيخ الزاوية. وكانت هذه ميزة لا تتاح إلا للنجباء من حفظة القرآن والذين لأوليائهم علاقة وطيدة بالشيخ.

وكانت مناهج الدراسة تشتمل بالدرجة الأولى على العلوم الدينية

وخاصة الفقه المالكي، ثم العلوم اللغوية وخاصة النحو. وحين يتقدم الطلبة في هاتين المادتين يتاح لهم متابعة بعض الدروس في المواد الأخرى التي كانت تُعتبر ثانوية مثل التفسير والأصول والبلاغة والعروض وقليل من المنطق والفلك القديم.

شيوخه في الزاوية:

كان أهم المدرسين حينذاك في الزاوية المذكورة هما: الشيخ العابد السماتي، والد المصلح المناضل محمد بن العابد الجلالي رحمه الله، ثم الشيخ مصطفى بن قويدر. وقد كان فقيدنا حتى أواخر أيامه يتحدث عنهما بكثير من الإجلال والتعظيم ويعترف لهما بالفضل الجزيل. وكان يصفهما بغزارة المعرفة والتمكن البالغ من المعارف الدينية واللغوية، مع الورع الشديد والتعب الدائم، والتعفف عن المنافع المادية. وكانا متلازمين لا يكادان يفترقان، ويحبان بعضهما حباً جماً. ورغم وجودهما في بيئة ظرفية ومجتمع متخلف، فقد كانا على اتصال بالحركة التجديدية في الشرق عن طريق الصحف والكتب. وكانا يقرضان الشعر حسب الطريقة التقليدية في المناسبات. وقرأت للشيخ العابد بعض القصائد في موضوعات صوفية تتعلق بالتضرع إلى الله عز وجل ومدح الرسول الكريم. وهي مقياس ذلك العهد يمكن اعتبارها من الشعر الجيد الرقيق.

مكث العقيد في الزاوية نحو أربع سنوات ملازماً للشيخين المذكورين حتى استوعب ما لديهما. وكان ما درسه في هذه الفترة هو كل زاده من التعليم المنظم، وأساس حصيلته الثقافية، وهو أساس متين من الوجهة التقليدية، أتاح له التمكن البالغ من المعلومات الأساسية في ميدان الثقافة الدينية واللغوية. وتفتحت موهبته الشعرية في هذه الفترة ولو أنه لم يتعهد بها بالصقل والتمرين، ولم يحتفظ من إنتاج هذه الفترة بشيء يذكر. والظاهر أن هذه الموهبة قد اتجهت اتجاهات تقليدياً، حيث نظم في هذه الفترة كتاب النحو المشهور «قطر النداء وبلّ الصدا» لابن هشام.

سفره إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة:

وتفتحت شهيته إلى المعرفة، وأصبح شديد الشوق إلى اغتراف المزيد

منها، وحين لم يعد يجد في الزاوية ما يشفي غليله توجه إلى تونس حوالى عام ١٩٢٤ قصد الانخراط في جامع الزيتونة، وقد خاض هذه المغامرة دون علم أهله، ولم يتزوّد من عندهم بشيء.

وفي تونس نزل ضيفاً على ابن بلده الشيخ عبدالرحمن غريب مدّ الله في عمره، وكان يقاربه في العمر، وسبقه إلى هناك. ولكن مقامه في تونس لم يطل. ولم يتمكّن من الانتظام في الدراسة بسبب العُسر المادي، وعاد إلى مسقط رأسه بعد غيبة دامت نحو ستة أشهر.

الرحلة الطويلة:

في سنة ١٩٢٦ فارق مسقط رأسه، وشرع في سياحة طويلة داخل البلاد استغرقت اثنتي عشرة سنة لم يكتب أسرته أثناءها إلا مرات معدودة. وكان حين فارق أهله يافعاً نصف متعلّم ولم يَرَوْه ثانية إلا بعد أن نصح عوده، وأصبح عالماً يُشار إليه بالبنان، فماذا كان يفعل طول هذه المدة؟

إن أخبار هذه المرحلة من حياته قليلة يشوبها الغموض، ولم أستطع جمعها إلا من خلال الأحاديث العابرة فيما بعد. ويمكن تلخيصها فيما يلي: حين بارح مسقط رأسه اتجه نحو الغرب، وتجوّل في أقاليم وسط الجزائر وغربها. ومن المؤكد أنه أقام فترات مختلفة في أرياف ومدن الجلفة والأغواط وشلالة وسوقر وتيارت ومعسكر ومستغانم وغليزان وعمى موسى والأصنام.

اتصاله برجال العلم واطلاعه الواسع على الكتب:

وكانت جهوده مركّزة حول نقطتين أساسيتين هما: الاتصال برجال العلم بمختلف اتجاهاتهم، وكان عددهم كبيراً في هذه المناطق، مثل القضاة ومشايخ الطرق والمدرسين والمفتين، ثم الاطلاع على الكتب المخطوطة والمطبوعة في خزائن الخواص، ومكتبات المساجد والزوايا، والتهام محتوياتها بشهية غريبة، وتلك خاصية لازمتها حتى آخر أيامه.

ومن الممكن القول بأن الكتب أصبحت المصدر الرئيسي لمعارفه، وساعدته حافظته الخارقة على استيعاب محتوياتها بسرعة غريبة ودقة فائقة.

تصوفه:

وقد حكى عن نفسه أنه مارس التجربة الصوفية في مدة ما من هذه المرحلة، فانقطع عن الناس أياماً، وأخذ يصوم ويكثر من التهجد والعبادة. ولأمر ما أقلع عن هذه التجربة ولم يعد إليها بعد ذلك. ويبدو أن تأثير الدعوة السلفية هو الذي ثناه عن السير في هذا الاتجاه.

مطالعة الصحف والمجلات الإسلامية:

ولما كان يقرأ كل ما يقع بين يديه فقد أغرم بمطالعة الصحف التي كانت تصدر في ذلك العهد. وقد شاهدت بين الكتب التي جمعها في تلك الفترة أعداداً من مجلة «المنار» و«الإسلام» و«الفتح» و«الزهراء» و«الرسالة» المصرية. و«الشهاب» القديم، و«الشهاب» و«الإصلاح» و«البصائر» الجزائريات. وعن طريق الصحف أطلع على أفكار الحركة الإصلاحية واعتنقها عن إيمان واعتقاد.

اشتراكه في جمعية العلماء المسلمين:

وحين تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣١ اشترك في اجتماعها التأسيسي كعضو عامل وتعرف على رئيسها الشيخ عبد الحميد بن بادريس، وأصبح من دعائها في ناحية الغرب الجزائري.

في ميدان الإصلاح والتعليم:

عاد إلى مسقط رأسه سنة ١٩٣٦ لفترة قصيرة تزوج خلالها، ثم رجع إلى مقر عمله، وكان في مدينة (الأصنام)، حيث أسست مدرسة حرة، كان هو معلمها، كما كان داعية جمعية العلماء هناك، ومحاضراً في نادي الإصلاح، وحين نشبت الحرب العالمية الثانية، وأوقفت السلطة الاستعمارية نشاط الجمعية، ونفت زعماءها، اضطر للعودة إلى مسقط رأسه للمرة الأخيرة، واستقر به المقام في مدينة (طولقة) التي أصبح خطيباً في مسجدها الحر وكون بها مدرسة حرة أيضاً بعد التغيير النسبي في موقف السلطة على عهد حكومة فيشي سنة ١٩٤٠.

نفيه من (طولقة) وإقامته في (بسكرة) وتأسيسه معهداً تعليمياً:

وفي سنة ١٩٤٣، وبعد احتلال قوات الحلفاء للجزائر، نفته السلطات المحلية من (طولقة)، واضطر إلى تجميد نشاطه لمدة سنة استقر بعدها في (بسكرة) نحواً من ثلاث سنوات كَوْن فيها معهداً للتعليم كان صورة مُصَغَّرة من معهد الجامع الأخضر الذي أسَّسه المرحوم عبد الحميد بن باديس، وكان يقوم بتعليم الطلبة، يساعده بعض المعلمين المتطوعين، وفي نفس الوقت يؤمن لهم وسائل العيش من مأكّل ومسكن بمساعدة بعض الفضلاء من سكان المدينة.

وقد تجمّع في معهد (بسكرة) مجموعة طيّبة ينتمي جلها إلى جبال أوراس والزيان، وأكمل الكثير منهم دراسته بتونس، وانضم الباقون إلى معهد ابن باديس.

استقراره في قسنطينة وتدريسه في معهد ابن باديس:

وحين فتح معهد ابن باديس أبوابه سنة ١٩٤٧، اختارت إدارته الشيخ النعيمي مدرساً به فاستقرّ به المقام نهائياً في (قسنطينة).

وقد تخصّص في تدريس المواد اللسانية والدينية، وحين تدعو الضرورة كان يدرس مختلف المواد الأخرى حتى الحساب رغم أنّ معلوماته فيه كانت نتيجة لجهده الشخصي فقط. وقد تميّز بالتفاني في أداء الواجب والرغبة الشديدة في إفادة تلاميذه، وتوسيع معارفهم، والحدب عليهم والإضغاء إلى مشكلاتهم، مما أكسبه محبة تلاميذه وتقديرهم، ولا يزال الكثير منهم يعترف له بالجميل بعد أن أصبحوا معلمين وأساتذة في الثانويات والجامعات وأطباء ومهندسين وحقوقيين وصحافيين ودبلوماسيين.

وكان في نفس الوقت عضواً نشيطاً من أعضاء جمعية العلماء. وكان لا يتردّد في القيام بكل المهام التي تكلفه بها، مثل دروس الوعظ والإرشاد، والتجول في أنحاء الوطن لنشر الدعوة، وجمع التبرعات المادية لصالح المعهد ومؤسسات الجمعية الأخرى.

حضوره المؤتمر الثقافي الإسلامي بتونس:

وفي سنة ١٩٤٩ شارك في وفد الجمعية الذي حضر المؤتمر الثقافي

الإسلامي المنعقد بتونس، وهو أول مؤتمر يحضره خارج الجزائر.

بين صفوف المجاهدين:

كان الشيخ النعيمي دائماً على صلة طيبة بالشباب الوطني، وكثير منهم كان يحضر دروسه وينتفع بمحاضراته، وتعرّف أثناء إقامته ببسكرة على الشهيد العربي بن مهيدي الذي استمع إلى بعض دروسه، وظلّ محافظاً على هذه الصّلات إلى حين اندلعت الثورة التحريرية في سنة ١٩٥٤، فارتقى بين أحضانها بكل حماس، وارتبط بقيادة الولاية الأولى، وكان صديقاً لقائدها الأول الشهيد مصطفى بن بولعيد، وكانت واسطة الاتصال بعض تلامذته القدماء الذين التحقوا بجيش التحرير. ولم تلبث أن حامت الشبهات حوله فنفي من قسنطينة، واستقرّ به المقام في مستط رأسه بسيدي خالد. وهناك واصل نشاطه الثوري، حيث أسهم في تنظيم العناصر الثورية وربطها بجبهة التحرير، وكشف الغموض الذي كان سائداً هناك، وقدم بنفوذه الواسع مساعدة قيمة للشهيد أحمد بن عبدالرزاق (سي الحواس) الذي كان بصدد تنظيم الولاية السادسة حينذاك.

ونتيجة لذلك حكم عليه بالإعدام من طرف أتباع الخائن ابن الوئيس. الذي كان يتمتع بنفوذ واسع في منطقة الصحراء مستغلاً سذاجة السكان. فاضطر حينئذ للانتقال إلى (المسيلة)، وهناك حامت الشبهات حوله من جديد، واعتقل رهن التحقيق في محتشد هناك، ولم ينج من الموت أو السجن المؤبد إلا بمساعدة بعض معارفه من رجال الدرك في تلك الناحية.

التحاقه بجيش التحرير:

كان لا مفرّ له من اتخاذ قرار حاسم بين أمرين: إما البقاء حيث يزاول النشاط السري، ومن ثم يتعرّض للقمع الاستعماري الأكيد، أو يلتحق بجيش التحرير للانتظام بين صفوفه، وقد اختار الحل الأخير رغم عدم استعداد بدنه لذلك. وهكذا اختفى من (المسيلة) في أواخر سنة ١٩٥٧ بعد أن أرسل عائلته إلى قسنطينة، ومكث أسبوعاً مختفياً في بيت أحد المناضلين بسطيف إلى أن اتخذت الإجراءات لصعوده إلى جبال الحضنة في الولاية الأولى، وقد بقي نحو ستة أشهر متنقلاً بين مناطق الولاية، وشهد بعض المعارك، وأصيب في

إحداها بجروح بليغة في كتفه ورجله. وأخيراً قرّر المسؤولون إرساله إلى تونس حيث تنتصب القواعد الخارجية لجيش التحرير وجبهة التحرير.

سفره إلى تونس للعلاج وإسناد مهمة المسامرات إليه:

وصل إلى تونس في ربيع سنة ١٩٥٨، وقضى فترة في المستشفى حيث عالج جروحه وشفى منها، ثم وضع نفسه تحت تصرّف المسؤولين في الجبهة، فأسندوا إليه مهمة تتناسب تماماً مع إمكانياته وتكوينه، وهي مهمة المسامرات كما كانت تدعى حينذاك.

وكان الغرض من هذه المسامرات هو الاتصال بالجزائريين المقيمين في تونس أو اللاجئين إليها قصد توعيتهم سياسياً، وغرس مبادئ الجبهة في أفكارهم، وبثّ الأمل والحماس في نفوسهم لقضية التحرير، وكذلك جلب اهتمام الرأي العام التونسي للقضية.

كانت المسامرات تعقد أحياناً بصورة علنية، وتتخذ شكل المهرجانات الشعبية، وتحضرها السلطة التونسية، كما كانت تعقد في نطاق الجزائريين خاصة في بعض الأحيان.

مواضيع مسامراته العلمية والدعوية:

كانت مواضيع المسامرات محدّدة مسبقاً، وتتناول غالباً أحداث الساعة، وبعض العناصر السياسيّة والتربوية والتاريخية. وقد اعتاد على تسجيل تقرير مختصر في مفكرته عقب كل مسامرة. ومن المواضيع التي كان يطرقها والتي وجدتها مكتوبة بخطه، كيف تنتصر على العدو - القيام بالواجب - الاستعمار يلفظ أنفاسه - الثورة الجزائرية ووحدة المغرب العربي - واجبنا أمام مشكل الساعة.

جولاته في القطر التونسي:

ويبدو أنه قد ارتاح إلى هذه المهمة، لأنها تعيده من جديد إلى حياة السفر والتجوال التي عشقها منذ الصغر. فكان يجوب القطر التونسي باستمرار، حيث كلف بمهام في جميع أجزائه، وقد استغلّ هذه الجولات في التعرّف على

العلماء والمثقفين عموماً، والاطلاع على الكتب وجمع النادر منها كعادته. وهكذا أصبح بيته الصغير في تونس العتيقة عبارة عن خزانة كتب مكدسة، كما أصبح ملتقى لزملائه من أساتذة المعهد الذين التجأ بعضهم إلى تونس أيضاً. واستغل أوقات فراغه في التنقيب على الكتب التي تحتوي عليها مكتبات تونس وخاصة العبدلية والعطارين. كما انصرف إلى التعلم من جديد وتلمذ على أكابر علماء الزيتونة وخاصة في مادتي القراءات والحديث.

تلقيه علم القراءات وروايته للحديث:

وفي هذا الصدد ختم القرآن عدة مرات بالقراءات السبع على المختصين، وحصل على إجازاتهم في هذا الفن، كما اتصل بعلماء الحديث، وقرأ عليهم كتب الصحاح وروى عنهم مروياتهم من الحديث، وحصل على إجازاتهم الخطية أيضاً.

سفره إلى الحج:

وحين لاحت تباشير النصر بتقدّم المفاوضات بين الجبهة والحكومة الفرنسية، تآقت نفسه إلى تأدية فريضة الحج، فقام بها سنة ١٩٦١، واغتتم هذه الفرصة النادرة لاكتساب المزيد من المعرفة، فطاف بمعظم بلاد الشرق العربي متصلاً برجال العلم متقباً عن الكتب النادرة محققاً لبعض المسائل المبهمة.

زيارته لعدد من البلاد وإقامته بحمص:

وزيادة عن الديار المقدسة، فقد زار كلاً من دمشق وحمص وبيروت والقدس والقاهرة. ومكث شهراً كاملاً في حمص ختم فيه القرآن من جديد على أيدي القراء المعروفين^(١)، وروى بعض الأحاديث عن المحدثين ونال إجازاتٍ خطية منهم.

(١) قرأ على العلامة الشيخ عبدالعزيز عيون السود، كما سيأتي في ترجمته في هذا الكتاب، كما أجاز برواية الحديث الشيخ عبدالعزيز، والشيخ عبدالغفار الدروبي، والشيخ وصفي المسدي، وغيرهم من علماء حمص.

إشرافه على مفتشية الأوقاف في (قسنطينة):

في أول حكومة جزائرية بعد الاستقلال، تشكلت وزارة للأوقاف لأول مرة، وقد كلف من طرفها بالإشراف على مفتشية الأوقاف في (قسنطينة) التي كانت تشمل ولايتي قسنطينة وسطيف. ورغم الصعوبات التي تعترض دائماً مصلحة في طور التكوين فقد انهمك بكل حماس في تنظيم شؤون منطقتة بروح العالم الديني حامل لواء الإسلام. غير أن أئمن وقت كان هو الذي يصرفه في إشباع هوايته المفضلة، وهي جمع الكتب والاطلاع عليها. ولهذا الغرض كان دائم التجوال لا يستريح أسبوعاً بأكمله في بيته حتى أصبح ذلك عادة ملازمة له، وربما كان هذا من أهم الأسباب التي عجّلت في تدهور صحته.

حضوره المؤتمر الإسلامي في تونس:

وفي سنة ١٩٦٣ مثل الجزائر في المؤتمر الإسلامي التي دعت إليه تونس لبحث مسألة بدايات الشهور القمرية. وقُدّم فيه بحثاً قيماً مدعماً بالأدلة العلمية التي تدعم وجهة نظره في ضرورة الاعتماد على الرؤية.

رئاسته لجنة الفتوى في المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر:

وحين تشكّل المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر أصبح من ضمن أعضائه وأسندت إليه رئاسة لجنة الفتوى.

وقد اختير أيضاً كعضو في مجمع البحوث الإسلامية، ومثل الجزائر أيضاً في مؤتمره المنعقد سنة ١٩٦٨.

وآخر مؤتمر حضره ضمن الوفد الجزائري هو المؤتمر الإسلامي الدولي الذي انعقد بماليزيا في شهر أفريل سنة ١٩٦٩. وقُدّم أمامه بحثاً آخر في موضوع الصوم وعيد الفطر.

مرضه ووفاته:

وقد شعر بضعف بصره بعد عودته مباشرة من ماليزيا، وكان قبل ذلك يشكو من غشاوة تمرّ أمام عينيه من حين لآخر. وقد انصرف إلى علاج عينيه دون جدوى، حيث ضعفتا تدريجياً إلى أن كفّتا تماماً بعد قليل. وقد تأثر كثيراً لفقده الوسيلة الوحيدة لإشباع نهمه الذي لا ينقطع إلى المطالعة،

واكتشف الأطباء عن طريق الصدفة حين إجراء بعض التحاليل أنه مصاب بداء السكر منذ زمن طويل دون أن يفتن لذلك. ولم يكن يبدي عناية كافية بصحته أبداً، وكان مصاباً أيضاً بارتفاع ضغط الدم.

وفي ٢٢ أبريل سنة ١٩٧٠، زاره الدكتور أحمد طالب، وأثناء الحديث أغمي عليه فجأة وانقطع عن الكلام وشلّ نصفه الأيمن فوراً، وحين نُقل إلى المستشفى تبين أنه أصيب بنزيف داخلي في الدماغ. وهكذا أصبح قعيداً طريح الفراش. ولم يُجدِ العلاج في فرنسا ومختلف مستشفيات الجزائر.

وفي ليلة ١٧ جوان ١٩٧٣ على الساعة الواحدة إلا خمس دقائق فاضت روحه وصعدت إلى الرفيق الأعلى. ودُفن مأسوفاً عليه من زملائه وتلامذته ومعارفه في مختلف أنحاء البلاد في مقبرة (قسنطينة)، وترك ستاً من البنين والبنات، وأكبر أولاده يدرس البترول في معهد (بومرداس)، وأصغرهم في المرحلة الأخيرة من التعليم الثانوي.

الجانب العلمي:

يمكن القول أن الشيخ النعيمي كان عبارة عن خزانة معلومات متنقلة، يعرف عنه هذه الميزة كل من جالسه من المثقفين بمختلف مستوياتهم واختصاصاتهم؛ ومن عاداته أنه كان حين يحضر مجلساً يجلب انتباه الحاضرين دون قصد لطلاوة حديثه وسلاسته وتنوع عناصره وغزارة مادته.

لقد ساعدته - كما أشرت سابقاً - ذاكرته القويّة، وانكبابه الدائم على المطالعة على أن يختزن مقداراً هائلاً من المعلومات التي يطلع عليها.

وقد كان أصحاب المكاتب هم أهم زبائنه، فكان دائم الطواف عليهم للحصول على كل جديد من الكتب التي لا يختار منها نوعاً محدداً. فكان يقتني كتب الأدب والشعر والتاريخ والفقه والحديث والتفسير إلى جانب كتب السياسة والعلوم.

وكنت تجد في غرفة جلوسه نماذج من جميع هذه الأنواع مبعثرة هنا وهناك إذ لم يكن التنظيم من مميزاته الشخصية. إلا أن هناك مواضيع معينة وجّه لها اهتماماً خاصاً حتى يمكن القول أنه أصبح مصدراً يرجع إليه فيها.

العلوم التي اهتم بها:

ومن هذه المواد: الفقه والنحو والقرآن والحديث ومتن اللغة. كما أن مطالعته الواسعة قد أفادته في الإحاطة بالتاريخ الإسلامي. وجولاته العريضة في الوطن الجزائري جعلته مرجعاً موثقاً به في المعالم الأثرية ومواطن القبائل العربية والأمازيغية وأنسابها.

وممّا يذكر في هذا المجال: أن بعثة تُمثّل زعماء إحدى الطوائف الشيعية في الهند زارت الجزائر للوقوف على أماكن انتشار الدعوة الشيعية والمعالم التي أقام بها الداعية أبو عبدالله اليمني وال خليفة عبيدالله المهدي، فصحبها وأراها بدقة كبيرة جميع الأماكن المذكورة في نواحي ميلة وسطيف.

درايته الواسعة بالأدب العربي:

ومن جهة أخرى، فقد كان ذا دراية واسعة بالأدب العربي قديمه وحديثه ورواته لا يشقُّ له غبار للشعر العربي وأيام العرب وأمثالها. كما يعتبر اعتباره ناقدًا أدبيًا من الطراز القديم بفضل العبارة الجَزلة ذات الألفاظ الرنانة والتركيب المتين مع الإيجاز، وكان شديد الإعجاب بالجاحظ في القدماء والإبراهيمي في المحدثين.

موهبة الشعرية:

وقد تفتّحت لديه منذ الصغر موهبة شعرية لو تعهّدها الصقل والمران لأمكن أن يصبح من الشعراء المعدودين. ولكنه انصرف عن الشعر إلى الدراسات فلم يكن ينظمه إلا غفو الخاطر، وفي المناسبات فيأتي بالبيتين أو البضعة أبيات كانت غالباً من بحر الرَّجَز، وكان حين يشاء ينظم القصائد الطوال في هذا البحر حتى قال عنه المرحوم الإبراهيمي: إنه ثاني اثنين في الجزائر بالنسبة لهذا النوع من الشعر، أما الأول فقد عنى به نفسه، وكان رجّازاً لا يشقُّ له غبار.

ويمتاز شعر الشيخ النعيمي شأن شعر أمثاله بمتانة اللغة وحُسن السبك مع مُيل إلى اللفظ القديم، وسأورد هنا نموذجين من شعره، فقال وقد زار (خراطة) فلم يجد استجابة لدى سكانها لمهمته الإصلاحية، وقد سلك في قافيتها لزوم ما لا يلزم:

«يا غربة الدين بخراطة وإن يكن منظرها بغري

الظلم والجبن بها أطفأ
ما من فتى أرشدته لهدى
يوليك إعراضه حذار أذى
لم تُجدِ ذا الحيلة حيلته
لمع سنا أوجهها الغر
إلا طوى الثوب على الغر
يفغر فاه أيما فغر
فكيف بالأبله والغر

قال يداعب أحد أصدقائه وقد تزوج:

«الخطيبُ الحَبْرُ مرَّ قبل لقا
ها هو اليوم خبت جذوته
عرسه هاج هياج الجمل
إذ بليل نال أقصى الأمل
أبدل الكتب وصحباً أوفيا
بلمى ظبي رقيق الغزل»

في ميدان النشر:

أما في ميدان النشر، فقد كان قليل الكتابة، وقرأت له مقالين في جريدة (البصائر) أحدهما: بمناسبة أحد الأعداد الخاصة، والآخر: في تأبين صديقه الشيخ الزيّاني.

ونثره كشعره متين السبك، متوسط الطلاوة، يصبح سلساً عذباً حين يتناول المواضيع التي تثير انفعاله. ويصبح موجزاً دقيق العبارة حين يتناول المواضيع العلمية... وكنموذج على نثره الأدبي أورد هذه الفقرة يصف فيها البحر حين سفره للحج في المرة الأولى:

وصف سفره للحج:

«ترأت لنا جبال مالطة، ونحن قبل مشاهدتها لم نر إلا زرقة القبة الزرقاء تحيط بزرقة البحر من جميع الجوانب، فيتألف من مجموعها منظر عجيب. ولو أن إنساناً عاش في هذا الجو منذ نعومة أظفاره لما شعر بأن هناك عالماً آخر فيه أرض يابسة يخالف لونها وطبيعتها طبيعة البحر تماماً».

ضياح إنتاجه العلمي:

ومن المؤسف أنه لم يسجل إلا القليل من حصيلته الثقافية وإنتاجه

الفكري. فرغم كثرة ما نظم من قصائد ومقطوعات وأراجيز فإنه لم يهتم جدياً بجمعها، ولا حتى تسجيلها في مذكراته، ولم تسمح ظروف حياته المضطربة من تخليد علمه الغزير عن طريق التدوين أو التأليف أو التحقيق، وكان يتمنى في السنوات الأخيرة أن ينظم تسجيل مذكراته الشخصية، وينصرف إلى تحقيق بعض المخطوطات النادرة التي حصل عليها، ولكن المرض فاجأه قبل تحقيق هذه الأمنية، ثم عاجلته المنية بعد ذلك، فاختمني إلى الأبد معين غزير من المعارف حُرمت منه الثقافة في الجزائر.

من آثاره العلمية:

ويمكن بكثير من الجهد في التنقيب والترتيب أن يصنف ما هو مسجل من هذا التراث فيما يلي:

- ١ - نظم قطر النداء وبلّ الصدا.
- ٢ - مقطوعات شعرية وقصائد مبعثرة بين أوراقه ودفاته.
- ٣ - محاضرات حول تاريخ المعركة الإصلاحية في العالم الإسلامي وفي الجزائر، ودروس في التفسير ألقاها على طلبة كلية الآداب بجامعة قسنطينة.
- ٤ - الأبحاث التي قدّمها إلى المؤتمرات الإسلامية التي حضرها.
- ٥ - مقتطفات وتعليقات مسجلة بخط يده على هوامش الكتب المطبوعة أو المخطوطة أو في دفاتر المذكرات. وتتناول مواضيع متنوعة تشمل الأخبار والأدب والتاريخ والحديث والفقه، وتصحيح بعض القضايا العلمية. وغير ذلك...

هذه - فيما أعلم - هي أهم العناصر التي تكوّن إنتاجه الثقافي. ومن الواضح أنه مثل أكثر زملائه ومعاصريه لم تسمح له ظروف الحياة والكفاح من الاشتغال بالتأليف رغم المواهب المتعددة التي توفّرت لديه، فظلّ طول حياته دارساً غير منتج.

ولإبراز القيمة الحقيقية لإنتاجه الثقافي وتقديره تقديراً عادلاً ينبغي إجراء دراسة وافية ومعقّمة.

ولا شك أنّ مثل هذه الدراسة سوف تضيف لبنة جديدة إلى تراث الجزائر الثقافي التليد.

رجال فقدناهم



الحب لله

إن لله عبادة قطعوا علائق الشهوات ، وأسرجوا مراكب الجدة
 بصدق العزمات وامتطوا جساد الأمل ، واتجهوا إلى الله
 على وجل ، وتزودوا إليه بهمس العمل ، مع اخلاص النية
 وتوكلوا إليه بصفاء القلب وصدق الطوية ، فمروا بالخضرة
 الفاتنة مسحين ، وبالحطب اللاهب مستعيزين ، ولم يعصبوا
 بالعقبات ، ولم يلقفتوا إلى المغريات ، قد صانوا وجوههم
 عن الابتذال ، وطرأوا فدامهم من الأوهال ، استعانوا
 بالله على مشقة الطريق فذل لهم صغابه ، وعلى بعد المدى فلم
 لهم رحابه ، فلما اجتازوا الصعاب ، سألوا الله ففتح
 لهم بابه ، فلما دخلوه استضافوه فقر بهم ورفع دوحهم
 حجابهم ، فلما استطابوا المقام بعد طول السرى قالوا :
 « الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتسبوا
 من الجنة حيث نشاء ففهم أجر العالمين » أولئك
 أحبنا الله ، صدقوه لعمد فصدقهم الوعد ، ومحضوه
 أحب ففهمهم القرب .

مصطفى سباعي

إحياء فقيدنا هجر

ترجم نشر في مجلة «عضارة الإسلام» مع إضافات

محمدا ورتبها وقدم لها وعلته عليها

محمد مكي



الجزء الثاني



دار ابن حزم

حَالِفَتَنَا هِمَمٌ

(٢)

رَحَالُفُتْنَا هَمَزُ

تراجم نشر في مجلة «حضارة الإسلام» مع إضافات

جمعها ورتبها وقدم لها وعلو عليها

مكي

الجزء الثاني

دار ابن حزم

الشيخ عبد الكريم الرفاعي (١)

(١٣٢٢ - ١٣٩٣ هـ)

(١٩٠٤ - ١٩٧٣ م)



صورة وخاطرة

للاكتور عدنان زرزور

سكن الروح الضادق الأمل... وانطوت صفحة من صفحات الصبر
مصابره وراء حصنه ظهور من ثرى دمشق.

نقى العالم المعلم المربي الشيخ عبد الكريم الرفاعي رحمه الله رحمة
برسعه... وإلهه عن دية وعملاده حبر الحراء.

(١) حصارة الاسلام، العدد الثاني، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م).

الدعاة والمصلحون هم الذين يصنعون التاريخ:

وأجيال الدعاة هم جنود القادة المخلصين في الوقائع الفاصلة،
والساحات التي عرفت شرف الشهادة... وكرامة النصر والانتصاف.

الإصلاح الذي تصدّى له الإمام الغزالي هو الذي أنتج الجيل الذي
حارب به القائد المظفر المسلم صلاح الدين...

ما كان لحجة الإسلام أن يغرق في خلوته وسيوف الصليبيين تلمع في
سماء الشام...

أثر الحماسة الروحية:

لقد آلى الغزالي على نفسه - على طريقته الخاصة - أن ينفخ في الأمة
تلك الحماسة الروحية التي دخلت بها التاريخ... والتي لا تبقى في إطاره
بدونها... ولا تعود إليه، وقد خرجت منه، إلا بوقود تلك الحماسة ولهيبها
وشررها ودخانها...

بدون الحماسة الروحية لا تاريخ...

وبدون الحماسة الروحية لا حضارة...

وبدون الحماسة الروحية لا نصر على الأعداء...

إن الانتصار لا يصنع في فراغ...

إن النصر لا تصنعه أمة لا ينتصر أفرادها على أنفسهم... ولا يرتفعون
إلى أعلى من حاجات الجسد!! بكل ما في هذه الحاجات من عوامل
اللبسوق بالأرض، والتهافت على الشهوات، والتكالب على أسباب المتع
والحياة...

تاريخنا الحقيقي الذي نفخر به:

ما هو تاريخنا الحقيقي الذي كتب بعضه ولم يكتب كله بعد؟! بأي
صفحاته نفخر؟ وعلى هامش أيها نعيش؟!...

كل ما يقوله هنا، إن تاريخنا الحقيقي هو تاريخ الخلفاء الدعاة، لا الولاة الطامحين... وتاريخ الملوك المصلحين لا السلاطين المالكين... إنه تاريخ الحسن البصري لا تاريخ الحجاج، وسيرة الإمام أحمد قبل تاريخ المأمون... وتاريخ أبي حنيفة لا حياة أبي نواس... وعبقريّة العراقي لا تاريخ المستنصر أو المستظهر!!... إنه تاريخ العرب بن عبد السلام وابن تيمية والأفغاني والحسني وابن باديس... وسائر هؤلاء الفر الميامين.

وأستاذنا الراحل الشيخ عبدالكريم - رحمه الله - الذي اقتنى سيرة هؤلاء، وضعة لواء بعضهم... جزء من تاريخ هذه الأمة في عاصمة الحلبة الزاهد عمر بن عبدالعزيز.



في حلقة الشيخ علي الدقر:

نزل الفتى الشاب على حلقة الداعية الشيخ علي الدقر... مخلص النية، صافي النفس، مطمئن السريرة، صادق العزم على طلب العلم... وطلب الهداية، لقد كانت الخطوة الأولى التي خطاها طائعاً مختاراً نحو حلقة الشيخ في مسجده الجامع المعروف، لا ينبغي بذلك إلا الله والدار الآخرة... دليلاً على إرادة التغيير الكامنة في نفسه، ودليلاً على قدرته على التغيير في واقع الناس، وحياة الأمة التي أقض مضجعها الاستعمار الفرنسي وثقافته الأوروبية الماقصة للإسلام، المحاربة لعقيدته وشريعته وأخلاقه... وصدق الله العظيم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد ١١].

رسالة الشيخ بدر الدين الحسني في الإصلاح والنهضة العلمية:

النحن المقيد بحلقة الشيخ علي الدقر، وقد تلورت فيها - في نهاية المطاف - حساسه العلامة المحدث شيخ الديار الشامية الشيخ بدر الدين الحسني، ورسالته في الإصلاح والنهضة التعليمية.

هذه الرسالة التي عثرت عن رفص الأمة للتبشير والاستعمار، في تلك

المرحلة من مراحل الغزو الثقافي والعسكري لبلاد المسلمين . وسوف يكتب عن فضل هذه الدعوة في تثبيت أركان الأمة ، وفي إمدادها في ساحات القتال الحقيقية بين رجال الثورة السورية والاستعمار الفرنسي . . حتى عُدَّ الشيخ بدر الدين بحقَّ أب الثورة السورية (الروحي) كما وصفه بعض المؤرخين .

وبكتفي هنا بالقول : إنَّ دعوة الشيخ بدر الدين والشيخ علي الدقر رحمهما الله حلقة من حلقات التربية والإصلاح في هذا الجزء من العالم الإسلامي . . في دمشق وبلاد الشام ، وحلقة من حلقات الجهاد ومقاومة الاستعمار في هذا النُصْر الكبير . . . وتحت ظل هذا الشعار - شعار الجهاد في سبيل الله - ولدت الثورات وتجذدت . . . وتحت أعين أولئك الدعاة السريين أصرمت ببرايقها ، واشتعل أوارها . . . وفي الإمام عبدالحميد بن بادس ، والشيخ الشير الإبراهيمي أقرب الشواهد وأوضح الأمثال .



من أعلام الدعوة والهداية والإرشاد:

التحق الأستاذ الفقيه رحمه الله بحلقة الشيخ علي الدقر ، واختلف إلى الدروس والحلقات التي كانت تعقد لمختلف الفنون والعلوم الإسلامية : العربية منها والشرعية ، وعاش رحمه الله لا يكر فضل من تلقى عنه في هذه الحلقات ، ولعلَّ ذاكرته كانت أشدَّ تعلقاً بالثقافة والتربية العملية وما تحتاج إليه من العقيدة وأصول الدين . . لأنَّ القدر كان يُعْده - يرحمه الله - جندياً من جنود التغيير ، وعلماً من أعلام الدعوة والهداية والإرشاد .

تدريسه الفقه الشافعي والتوحيد وأصول الفقه:

ثم بدأ الرحلة حيث انتهى به المطاف : مُعلِّماً مربياً مرشداً ، باع نفسه لله والدعوة الإسلام . . . لم تقعد به همّة ، ولا خارت له عزيمة ، ولا غرته دسا ، ولا أغراه منصب أو رئاسة أو جاه . . . كان دائم الرضا والابتسام ، وكان يعلم ما يفعل ، ويعلم ما يريد . . .

عرفته مد بضع وعشرين سنة مدرساً في معهد العلوم الشرعية للجمعية الغزاء بدمشق، تلقاني وزملائي في أولى سنوات المرحلة الإعدادية؛ يُعلّمنا الفقه الشافعي... فكان والله أباً ومربياً ومعلماً، ثم درسنا عليه في سنوات أخرى التوحيد وأصول الفقه، فكان يُعلّم بروحه وحاله كما يعلم بلسانه ومقاله... بل لعله كان يوحى بما يريد دون أن يقوله أو ينطق به...

استحضاره العجيب لأخبار الصحابة:

كان عجيب الاستحضار لأخبار الصحابة وقصص الأبطال، وكان عجيب النفاذ منها وتأثيرها، وربما صور الامتحان لبعضنا أن يعيق الأستاذ عن الخصي في الدروس المقررة والمنهاج الموضوع، مشيراً علينا بشيء من الصائح والوعظ. ولا يدبث الشيخ أن يردّنا إلى الدرس بعد نقلة سريعة إلى النصح المؤثر الباقي في كثير من الأحيان... لله ما أصدق تلك الروح، وما أبلغ ضمّتها، وأشدّ تأثيرها.

المسجد مهد الدعوة وملاذها:

وتمضي السنون، وينقطع الشيخ رحمه الله عن المعهد الذي خلا من صوت الشيخ علي الدقر، واصفرّ من روح دعوته. انقطع رحمه الله ليكرّس جهده ليلاً ونهاراً على الدعوة والإعداد في المسجد، مهد الدعوة الحقيقي وملاذها الأخير...

لم يُشر إلى نفسه بالبنان، ولم يدل على مكانه باللسان، بل كان في دعوته صامناً صادقاً، ملأت ساحة الإسلام الكبرى، ودعوته رائدة، نفسه المؤمنة، فلا سبيل عنده إلى القول حيث يتسع سبيل العمل، ولا إلى الخلاف حيث يسع الناس الوفاق والوثام...

إخلاص الجندي وحماسة القائد:

لم يختلف صوته حين أصبح صوتاً عنه يوم كان صدى... أقام على سيف العقول، وتهذيب النفوس، وإيقاظ الضمائر... بإخلاص الجندي،

وحماسة القائد.. وصدق المؤمن الذي اختاره الله تعالى مربياً وداعية في جميع المواقف والأحوال...



الحُبُّ: أساس دعوته إلى الإسلام:

الزمن يمضي.. والنفس الفاضلة تُوقَّر بالتقوى، وتثقل بالمعرفة، وتُشَّع لمعالي الأمور، وتجلَّ عن سفاسفها. وأسمعه مرة، وقد تشرفت بـلقائه بعد أعوام طوال!! يتحدث عن أساس دعوته الناس إلى الإسلام، فيقول: إنه الحب؟ نعم، ولا طمع وراء ذلك بدنياً أو وظيفة أو جاه...

كانت كلماته رحمه الله قليلة جامعة، وكانت نديَّة رَقَاقَة تعكس صفحة نفسه الصافية، وروحه الطيِّبة الطهور. وعلى الرغم من شعوري بكثافة بعض الأرواح من حولي فقد كانت كلمات أستاذنا الداعية الجليل تخترق جميع الحُجُب لتصل حية مؤثرة..

سرُّ نجاحه: الصدق والرفق:

وساءلت نفسي عن هذا التأثير: ما سببه؟ وعن ذلك الحب الذي تحدث عنه الشيخ رحمه الله، والنجاح الذي أصابه مربياً وداعياً إلى الله، فوجدت تفسير ذلك في كلمتين اثنتين أخذ بهما نفسه من هدي النبي ﷺ، هما: الصدق والرفق.

معاني الصدق عند الشيخ:

كان رحمه الله صادقاً بكلِّ معاني الصدق.. كان صادقاً في إيمانه، صادقاً في عزمته، صادقاً في طلب الفضيلة والإصلاح.

إشاره إلى ما عند الله صدق، وتواضعه وعدم رغبته في الظهور والامتياز صدق، والتزامه بما كان يدعو إليه ويحث عليه صدق.. ولهذا ربَّى الناس بسلوكه وأفعاله قبل أن يُربِّيهم بأقواله وأوامره - وذلك أعلى أنواع

التربية - وقد علم مَنْ حوله أنه لم يكن يأمر، بل كان يشير إلى محدثه وقد أخذ بيده ووضعه معه على طريق الإسلام.. أن هذا هو الطريق..

أي معنى من معاني الصدق لم يأخذ به المربي العالم الفاضل الشيخ عبدالكريم رحمه الله وأرضاه؟ وأيَّ عَرَضٍ زائل أو مفرقٍ وقف عنده، أو أشار إليه... فضلاً عن أن يقاتل دونه أو يملأ عليه نفسه فعل بعض الأعداء والمُؤْهين...

إنَّ عدم التفات الشيخ لمعاني الخلاف والشقاق.. صدق، وإدراكه لواقع الناس وحقيقة المجتمع وطبيعة الدعوة التي يجب أن تلف جميع أبناء الإسلام.. صدق..

رَفُقُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ:

أما الرفق الذي تأسَى فيه بسيرة خير العباد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والذي أشارت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: «ما خَيْرَ رَسُولٍ اللهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بين أمرين إلا اختار أيسرهما»^(١)، فقد كان من أهم ميزات الفقيه الراحل رحمه الله حتى لكأن الرفق عنده هبة من هبات الخلق والتكوين...

كان رحمه الله طَلَقَ الوجه، لَيِّنَ الجانب، خافضَ الجناح، دَمَتِ الأخلاق، لم يكن فظاً ولا جافياً، ولا ينطق بسوء، ولا يَتَّبِعُ عورات الناس، ولا يَتَجَسَّسُ على عيوبهم، فأسر بذلك القلوب، وألف بين الأرواح.. «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» [الأحراب: ٢١]، يقول الله تعالى: «وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْفَلَبِ لَإَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ» [آل عمران: ١٥٩].

لقد سبق شيخنا الجليل في هذا المقام، وفي هذا الخُلُق الرفيع حيث تخلف الكثيرون...

إنَّ أرواحنا يا سيدي ليس لها شفافية روحك، ولا رهافة حسك

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

ووجدانك، ولكن صورتك المائلة في أذهاننا، والتي سترها عدأ إن شاء الله إن لم نقو على استشفافها من اليوم أنك إن شاء الله من أقرب الناس مجلساً من رسول الله ﷺ، ألم يقل رسول الله ﷺ: «إِنْ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً، الْمُوْطُؤُونَ أَكْنَافاً، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ»^(١). وما عَزَفَك الناس في الدنيا إلا من هؤلاء...



صور ومناسبات يرتبط بعضها ببعض:

في الحياة صور ومناسبات يرتبط بعضها ببعض، منها ما يفكر فيه المرء، ومنها ما يسبق إلى ذهنه بدون سابق أمر مقصود...

كنت إذا مررت على اسم الإمام أحمد بن حنبل أو سمعت به تمثل لي أستاذنا الجليل الشيخ عبدالكريم، وتمثلت معه عالماً عابداً آخر - مذ الله في عمره - ليس بعيد الطول والسُمْتُ عن الفقيد الراحل رحمه الله...

وفي يوم الرحيل المشهود تذكرت ذلك الربط والمناسبة البعيدة، فإذا بها قريبة عجيبة!! ألم يقل الإمام أحمد في كلمته المشهورة: «بيننا وبينكم الجنائز...»! وهذه جنازة الشيخ الجليل تذكر بجنازة الإمام أحمد التي شهدتها عشرات الألوف، بل مئات الألوف، وبكى من وراءهم لفقده - يرحمه الله - مَنْ لَا يُحْصِيهِمُ الْعَدَا!

ما أشبه الليلة بالبارحة! بل ما أشبه مطلع حياتك يا سيدي بخاتمتها...

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» ٣٥٦: ٤ (٤٤٢٢) عن أبي سعيد الخدري. وقال الهيثمي في «المجمع» ٥٨: ١ - رواه الطبراني في الأوسط وقال له يرويه عن محمد بن عيسى إلا يعقوب عن عباد القلرمي. ولم أر من ذكره. وأخرجه أيضاً الطبراني في «الصغير» ٣٦٢: ١ (٦٠٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٦ ٢٣٢ (٧٩٨٣) وأخرجه ابن أبي الدنيا في «دم العبي» ص ١٦٨ (١١٧)، وفي «الصمت» ١٥٤: ١ (٢٥٣)، والطبراني في «الأوسط» ٣٥٠: ٧ (٧٦٩٧)، وفي «الصغير» ٨٩: ٢ (٨٣٥) وقال الهيثمي ٢١: ٨: فيه صالح بن بشير المري، وهو ضعيف.

هبطت على حلقة الشيخ علي الدقر رحمه الله، لتعيد مع إخوانك ورفاقك للبلد لونه المسلم وثقافته العربية والإسلامية في وجه الاستعمار البغيض، هذه الروح الصامته الصادقة دعت الناس في حياتك فلبت، ورفرفت على رؤوسهم يوم وداعك فخشعت، خشعت في ذلك اليوم المشهود، وأسراب من الطيور البيضاء ترتفع بروحك المؤمن العظيم إلى فراديس الجنان. رحمة الله عليك وسلامه ورضوانه إلى يوم اللقاء.



بشائر ربيع الشام ونسائمه:

ثم يتلقى جسدك الطاهر، مع بشائر ربيع الشام ونسائمه وأريجيه، جدت متواضع إلى جانب شيوخ صالحين، وعلماء عاملين، وإلى جانب أخيك الحبيب أبي حسان، يا للجراح تنكأ الجراح، أبو حسان، لكأني بابتسامته العذبة تتلقاك بها روحه، وأمارات البشر والترحاب ترتسم على مَحْيَاه، وروحك الرضية الأنيسة تعانق روحه في صمتٍ أبدي بعيد.

يا سيدي العالم العامل الراحل، بثّه أشواقنا وأحزاننا، وآلامنا ودموعنا، وادعوا الله لنا أن يُهييء لنا من أمرنا رشداً، وأن يثبتنا بقوله الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة حتى نلقاه وهو راضٍ عنا...

رضي الله عنك يا سيدي وأرضاك... وأعلى مقامك في عليين.





للأستاذ الشيخ عبدالغني الدقر

منهج الشيخ علي الدقر في تربية تلاميذه:

يرحمُ الله الوالد، كان في تعليمه وتسليكه مثلاً رائعاً، كان يبذل أعظم جهده في أن يجعل من طالب العلم الشرعي القدوة الصالحة في علمه ودينه وخلقه.

وما كان - يرحمه الله - يعتقد الخير في طالب العلم يملأ دماغه ويهمل قلبه، تهدر أشداه بالتعاليم والتعاليم، وليّ اللسان بالإغراب والمراء والمطاوله.

كما لم يكن يركن لطالب العلم يتخذ من علمه وسيلةً لدنيا يُصيبها، أو وظيفة ينالها، أو جاهٍ يسعى إليه.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣ - ١٩٧٣م).

التربية الصوفية الصالحة:

وكان سعيه كله أن يتعهد طلابه - مع العلم - بالتربية الصوفية الصافية التي تُركي النفس، وتطهر القلب، وتجعل من طالب العلم داعية للدين، مخلعاً. مضحياً في سبيله بكل متعه وشهواته. بل بكل ما في الدنيا، فكل ما فيها عرض زائل.

والتربية الصوفية إذا قصد بها تهذيب النفوس وتطهيرها من الآفات، وإشغال القلب بالعمل والطاعة والذكر، وتصحيح المعاملة على السنة - كما كان يفعل السلف الصالح - هي التربية المنتجة المفيدة التي تصنع العجائب، وإلا فهي تفلسف فارغ.

هذه سبيله - يرحمه الله - في تربية طلابه: علم وعمل وإخلاص.

وهكذا كان بالفعل كثير من تلاميذه الذين أضحوا في حياته علماء يتمتع بعلمهم ويهتدى بهديهم.

وكان منهم: العالم العامل المرابي الشيخ عبدالكريم الرفاعي.

كان أول أمره فتى مريضاً عاجزاً، ليس فيه من أمارات الحياة إلا تردّد النفس، حين أتى به أول مرة إلى مجلسه بقصد التبرك والاستشفاء.

وكان مجلسه هذا مجلس وعظ وإرشاد، وكان إقبال الناس عليه وانتفاعهم به، وما فيه من الخير والصفاء، منقطع النظير في تلك السنين حتى ما يزال هذا الأثر العظيم يتردد ذكره على لسان من أدركوه. وكان هذا الأثر مبهجاً للمؤمنين غائظاً للمنحرفين.

وأذن الله لهذا الفتى بالشفاء، وكأن الله ما وهبه الصحة غير المتوقعة إلا لينذرنا في خدمة دينه علماً وإرشاداً.

إقبال الفتى على العلم:

وأقبل الفتى على العلم، وانتظم في حلقاته يقرأ على المُقدّمين من تلاميذ الشيخ.

وهكذا كانت السنن في التعلّم والتعليم في نظام الشيخ . يُقرئ الشيخ المُتقدِّمين من الطلبة، ويُقرئ المُتقدِّمون من أتى بعدهم.

المنهج العلمي في التلقّي:

وسقّى الله عهداً كان الطلبة يجلسون فيها بين يدي شيوخهم، يقرؤون تحقيّقاً وتدقيقاً في العلم الواحد كتباً من أولها إلى آخرها، يبدؤون بالأقل والأسهل، وينتهون بالأكبر والأعمق، ولا يقبلون على الدرس إلا بعد مراجعة ما قرؤوا بامعان وتدقيق الدرس المقبل، وهذا كان يحمل أساتذتهم على ألا يتركوا شاردة ولا واردة ممّا يتعلق بدرسهم إلا استوعبوها واستحضروها.

وعلى هذه الطريقة بدأ المرحوم الشيخ عبدالكريم يطلب العلم، وما برح يجدّ ويتقدّم حتى صار من الطلبة المُقدِّمين والأساتذة الذين لهم أن يحضروا الدروس الخاصة للشيخ، وممّن له حلقة، بل حلقات يعلم فيها إخواناً مُحدثين ممّن أتى بعده.

حضوره عند الشيخ بدر الدين الحسني:

وانطلق على هذه الحال يتعلّم ويُعلّم، بل يتعلّم وهو يعلم حتى أتقن علوماً كثيرة تتعلق بالشرعية المطهرة، وفي خلال هذه الفترة أذن الشيخ للطلبة المُقدِّمين أن يحضروا للمحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني دروسه الخاصة، وكان فيهم الشيخ عبدالكريم، وما إن رآه المحدث الأكبر حتى كانت له به فُرصة، ثم خصّه بدروس كثيرة كان معظمها في الفلسفة والمنطق والتوحيد، واستمرّ على ذلك عنده نحواً من عشر سنين.

من أركان الدعوة والعلم والإرشاد:

وكان الشيخ عبدالكريم تغمّده الله بالرحمة - في نحو عشرين سنة - واحداً من كبار أركان التدريس والدعوة والعلم والإرشاد في جميع أعمال

شيخهم، ومن هؤلاء مَنْ سبقه إلى رحمة الله مثل: الفقيه الشافعي القليل النظير الشيخ أحمد المقداد البصري^(١)، والعالم العامل الواعظ الشيخ عبدالرحمن الزعبي الطيبي^(٢)، وبارك الله في عمر من بقي منهم.

هذا عَرَضٌ موجز لما عرفت من أطوار حياة الفقيه الأستاذ الرفاعي في ظلّ شيخه وعُمدته العلامة والذي الشيخ محمد علي الدقر.

دينه واستقامته وحُسن سَفَقته:

أما ما عرفته من دينه واستقامته وحُسن سمته أكبر من ذلك كله.

فقد كان عالماً متعبداً متواضعاً، سَمَحَ النفس، نقي القلب، يَأْلَف ويؤْلَف.

ولا تجده غاضباً إلا إذا انتهكت حُرمة من حُرَمَات الدين أو شَذَّ أحدٌ ممَّن يعرف عن طريق المتقين.

وفاؤه لشيخه الكبير علي الدقر:

ومن كريم أخلاقه: وفاؤه الكبير لشيخه الذي كان سبب حياته الروحية والعلمية.

والوفاء أقل ما يستطيع فعله الرجل النبيل الذي يُجازي الإحسان بالإقرار به، شعوراً منه بالعجز عن وفاء الإحسان بإحسان مثله.

فما نسي الشيخ عبدالكريم شيخه يوماً واحداً كل حياته بعد وفاة شيخه، وكثيراً ما كان يردّد بين إخوانه وطلابه ما يراه له من الفضل الأكبر

(١) المولود سنة ١٣٢٢، والمتوفى سنة ١٣٨٣. تنظر ترجمته في «تاريخ علماء دمشق» ٥٧٠: ٥٧٣.

(٢) المولود سنة ١٣٢٠، والمتوفى سنة ١٣٨٩. تنظر ترجمته في «تاريخ علماء دمشق» ٨٢٢: ٨٢٨. وتقدمت ترجمته المختصرة في هذا الكتاب ص ٣٦٩.

عليه، كما يردّد كلامه ومواعظه وعقيدته وشيئاً من سيرته.

بل كان حياته كلها يُحِبُّ ما يُحِبُّ وَمَنْ يُحِبُّ، ويكره ما يكره وَمَنْ يكره.

بل كان وفياً لأبنائه من بعده لا ينقطع عن زيارتهم، يصحبه بعض إخوانه ما دام مُعافى صحيحاً.

عنايته بتربية الشباب وتعليمهم:

وأرجى أعماله وأكبرها مثوبة عند ربه - إن شاء الله - ما نهض به وحده، من حُضْع الدس - وخصوصاً منهم الشباب - وتعليمهم والعناية بدينهم، وتسليكم طريق المؤمنين الصادقين.

وما تقرب إلى الله أحدُ بشيءٍ أحبَّ إليه من نفع عباده بتعليمهم دينهم، وتحليقتهم بأخلاق القرآن، وتأديبهم بأداب النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، لا شيء إلا ابتغاء مرضاة الله.

ثمرات دعوته وتعليمه:

وقد أثمر - والحمد لله - ما قام به من تعليم الناس وتثقيفهم وهدايتهم بفضل إخلاصه وطيب دخليته وخسن نيته. فقد رأينا من تلاميذه الخطباء الذين يتكلمون بروح من الإخلاص والتقوى والغيرة لا يغرهم عن ذلك مال ولا جاه، ورأينا منهم الكثير من حفظة القرآن، كما رأينا منهم طلاب علم فيهم دين وتقوى وتواضع.

وأما بعد، فما أحرانا أن نستوحي دائماً قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ونردّد معها قوله تعالى: ﴿مَا عِدَّكُمْ يَفْعَلْ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِأَقْرَبُ وَلَنْ تُخْلِفَهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

ثروة ضخمة:

لقد نذر فقيدنا العالم المربي الشيخ عبدالكريم نفسه لدين الله، فأنفق معظم عمره في ذلك، تعلّم ثم علّم وخلف ثروة ضخمة، ليست من مال ولا حكم، ولا جاه ولا ثروة فارغة، ولا تعمق فيما لا طائل تحته.

ولكنها ثروة من العمل المنتج المفيد الذي يمكث في الأرض، وسيبقى هذا العمل مفيداً منتجاً إن أحسن خلفاؤه أبناؤه وتلاميذه رعايته وتنميته بذلك الرّوح السامي المخلص الذي يترفع عن مآرب الحياة الدنيا.

رحم الله العالم المربي الشيخ عبدالكريم رحمة واسعة، وأجزل له الأجر، ووصل له المثوبة، فقد ترك من بعده علماً ينتفع به، وولداً صالحاً يدعو له.





الأستاذ عمر الحكيم
رَحِمَهُ اللهُ^(١)

(١٣٣٥ - ١٣٩٣ هـ)

(١٩١٦ - ١٩٧٣ م)

للدكتور عدنان نمر زور

رثاء الرجال في وقت يعزُّ فيه الرجال:

ما أفسى أن يكتب المرء في رثاء الرجال في وقت يعزُّ فيه الرجال!.

بالأمس فُجِعَتْ حلقات التربية والإصلاح والإعداد الروحي بوفاة الأستاذ العالم المُربِّي الداعية الشيخ عبدالكريم الرفاعي رحمه الله، واليوم تفجع الجامعة ودور العلم بوفاة العالم الجغرافي الموسوعي الكبير الأستاذ عمر الحكيم رحمه الله.

لقد ذهب الأستاذ الحكيم - ابن السابعة والخمسين - في السابع عشر من ربيع الثاني، وذهب معه ولده الأكبر خالد، ضحية حادث مفجع على الطريق بين مكة وجدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رحم الله الفقيد الشهيد، وألهم الأم والزوجة والولد وسائر الأهل

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م).

جميل التأسي والصبر والعزاء والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ما أقسى أن يكتب المرء في رثاء الرجال، وقد كُتب لجيله أن يشهد هؤلاء الرجال، وأن يستمع إليهم، ويأخذ عنهم. وموتهم - وبخاصة وهم في أوج عطائهم وقمة تجاربهم - يحمله في كل يوم أمانة، ويلقي على كاهله تبعة ومسؤولية.

المسؤوليات الجسام التي نهض بها جيل الأستاذ عمر الحكيم:

المسؤوليات التي نهض بها جيل أستاذنا العلامة الفاضل عمر الحكيم مسؤوليات جسام..

وقد كان أستاذنا رحمه الله مثال هذا الجيل الذي عاش ظروف الصراع بين الحضارة الأوروبية المسيحية والحضارة العربية الإسلامية، وخرج من هذا الصراع أشد تمسكاً بحضارة الإسلام ونبي الإسلام، وأشد إدراكاً لطبيعة الحضارة الغربية - بشقيها - و«أوروبيتها» التي تنبع من بيئتها وظروفها المحلية الخاصة البعيدة عن الشعوب العربية والعالم الإسلامي، حتى كانت مادية انشطارية من وجه، غير إنسانية من وجه آخر، كما خرج الأستاذ الحكيم - رحمه الله - من هذا الصراع أشد وعياً للدسائس والمؤامرات التي كانت تدبرها شعوب هذه الحضارة الاستعمارية لشعوب العالم الإسلامي بوجه خاص، ولسائر الشعوب في العالم بوجه عام.

الجيل الطليعي الاستقلالي:

كان الأستاذ الحكيم رحمه الله مثال الجيل الطليعي الاستقلالي المثقف، فلم يكن عبداً من عبيد حضارة الغرب، ولا بوقاً من أبواقها، ولا مقلداً من مقاليد مؤيديها ومقلديها، وبخاصة ممن تلقوا علومهم ومعارفهم في المعاهد الأوروبية والجامعات الأجنبية!

التحاقه بالكلية الحربية الفرنسية ثم المعهد الجغرافي:

كان قد ناهز العشرين من عمره عندما التحق بالكلية الحربية الفرنسية

في باريس في بعثة خاصة، وكان أول عهده بالدنيا إبان الحرب العالمية الأولى، ولكن ظروف هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية قد عطل الدراسة في الكلية الحربية المذكورة، فالتحق بالمعهد الجغرافي التابع لجامعة الصربوز في باريس.

ملاحقته من الاستعمار الفرنسي:

ثم كان لاشتغاله هناك بالحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي أثره في ملاحقته وخروجه إلى ألمانيا، ثم إلى الجزائر، قبل أن يتمكن من العودة إلى سورية ليتولى تدريس الجغرافية الطبيعية في المدارس الثانوية، ثم في كلية الآداب بجامعة سورية.

وقد أفاد في كل ذلك - ومن تمكنه الدقيق ببعض اللغات الأجنبية، وإدامته النظر في الكتب والمراجع والنشرات والدوريات - سعة اطلاع، ودقة ملاحظة، ساعده على ذلك أيضاً ما عُرف به من قوة الذهن، وقدرة فائقة على اختزان المعلومات والأرقام والوقائع، واستحضارها والإفادة منها في الوقت المناسب.

إيقاظ الشعور بالامتنياز والتفوق على الحضارة الغربية:

كانت ثقافته موسوعيّة بكل معنى الكلمة، وكانت إفادته من هذه الثقافة، ومن حصيلة تجاربه الواسعة، عميقة ودقيقة أيضاً. ويكفيه أن يفيد من التاريخ - كمؤرخ وعالم - القدرة على التوقع، وعلى قراءة أحداث الغد، ثم تصحّ نظره في كثير من الأحداث والوقائع.

وقبل أن أورد له - يرحمه الله - بعض القضايا التي سيذكرها له التاريخ، أحب أن أذكر صورته في نفوسنا، نحن معشر طلابه في كلية الشريعة في خريف عام ١٩٥٦م، والغرسات الفاسدة التي اقتلعها يومذاك من خيالنا وشعورنا.

لقد كانت الساعات الأولى من مادة «حاضر العالم الإسلامي» معرضاً

خِضْباً لتاريخ الحضارة الأوروبية، وحياة الغرب في القرون الوسطى، وميداناً واسعاً لأنانية واقعها اليوم، وكذب قاداتها، وفساد سياسيتها وزعمائها، وقيام أمرها على روح الاستعلاء على الشعوب، والحروب الاستعمارية التي تكذب كل دعوى «لسانية» بالأمن والسلام.

لقد كنا في ذلك اليوم بأمس الحاجة إلى الشعور بالامتياز والتفوق في تاريخنا وحضارتنا ولغتنا وديننا على الغرب والشرق، بعد تلك الرحلة في مناهج التعليم الثانوي الشرعي والعام على حدٍّ سواء، والتي كدنا أن نسقط معها - كلٌّ من وجه - في الشعور بالتبعية لحضارة القوم وتاريخهم ومفهومهم عن الحياة.

ويعلم الله أن أستاذنا عمر الحكيم هو الذي تولى إيقاظ هذا الشعور بمعلوماته الواسعة، وحساسيته الصادقة، وطريقته الخاصة في عرض المعاني وتصويرها والتعقيب عليها.

تناوله القضايا بشجاعة ورجولة وتفصيل:

وأذكر هنا: أنه وأستاذنا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة - مَدَّ الله في عمره^(١) - الذي لقيناه في مصر، فيهما شيء من طبيعة الأسد في الهجوم على القضايا وتناولها بشجاعة ورجولة وعُمق وتفصيل وتفصيل... وقد كان لهذه الطبيعة فيما يبدو أثر بارز في تفرُّده بكثير من الآراء، وسبقه إليها، حتى لكانها الروض الأنف، والأرض العذراء.

تأكيده على التصوف الإسلامي النقي:

وقد كان من تَمَّة هذا العمل والشعور حرصه الواضح في أغلب محاضراته - رحمه الله - على محاربة التصوف الأعجمي البعيد عن روح الشريعة، وعن روح الإسلام الحق، وتأكيده على أن التصوف الإسلامي هو «تصوف» الحسن البصري وأمثاله من العلماء الصالحين العاملين، فكان يلاحق في نفوس بعض

(١) توفي سنة ١٣٩٤، وستأتي كلمة تلميذه الدكتور عدنان زرزور عنه ص ٦٥٤.

الطلائع، وروح النماوت، ويحارب فيهم الحروج على الناس بمظاهر لا تلائم
هدف الدعوة، وروح الداعية والعصر، ويحاول بناء شخصياتهم بالمكنر والقوة
ومريد من الفسادة والاطلاع، وليس عجيباً بعد - على سمي ابن الخطاب أن
يكون فيه مشابه منه في كراهية النماوت والسكون والخنوع، "رحم الله عمر كان
إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع".

اهتمامه بالقضايا العربية والإسلامية:

أما التاريخ ودور العلم ومعاهد التدريس، فستذكر للأستاذ الحكيم
رحمه الله أموراً أساسية كثيرة يتصل معظمها بالتاريخ القريب للقضايا العربية
والإسلامية، وبحاضر هذه القضايا ومستقبلها البعيد. وأكتفي هنا من هذه
الأمور بالنقاط الثلاث الآتية، قبل أن أورد فقرة من محاضرة ألقاها الأستاذ
الفتيد في مطلع عام ١٩٧٢م، عن مستقبل البلاد الإسلامية:

فهمه العميق لقضية الدولة العثمانية:

١ - سوف نحفظ لأستاذنا الراحل رحمه الله فهمه العميق والحقيقي
لقضية الدولة العثمانية، وتألب الدول الأوروبية عليها مجتمعات، والدور
الذي قام به يهود الدونمة في تفويض أركان الخلافة، وتوليد المبادئ
والشعارات المفرقة، كسياسة التريك، وما تبع ذلك من ردود فعل وعواقب
سيئة على ما كانت تعاني منه الدولة العثمانية في مطلع هذا القرن من أسباب
التخلف والجمود، ثم ملاحقته لهذا الدور في أجزاء كثيرة من العالم
الإسلامي، كل ذلك بالأرقام والوقائع والأماكن والأعلام، مع رسم صورة
أخرى لما كان سيؤول إليه أمر العرب والمسلمين لو أن مشكلة "الرجل
المريض" - كما سماها الأوروبيون، وكما نترجم عنهم ونأخذ بتعابيرهم
وهجته نظرهم - لم يخطط لها اليهود الماكرون تحت عناوين زاهية
وشعارات بزاقة.

تحليله الدقيق للقضية الفلسطينية:

٢ - رآه في القضية الفلسطينية، وتحليله لبواعثها وأهدافها في النفس

الأوروبية الحاقدة، كما يدل على ذلك موقف دولة الانتداب بريطانيا - بعد أن تمزقت أوصال الدولة العثمانية - والدول التي سارعت إلى الاعتراف بإسرائيل في الشرق والغرب!

السبيل الوحيد لإزالة الدولة اليهودية:

وكان يكرّر في محاضراته - وأماله - قبل ثمانية عشر عاماً أو تزيد أن الحرب الشاملة هي السبيل الوحيد لإزالة الدولة اليهودية واسترجاع فلسطين، وأن هذه الحرب يجب أن يعتمد فيها العرب والمسلمون على أنفسهم أولاً وآخراً، وكان شديد الحذر والتخوف من المصائب التي يمكن أن يلحقها اليهود بالعرب والمسلمين في ديارهم والتي ستحول دون هذه الحرب وذلك الاعتماد.

وعنده أن تحكّم اليهود بالكتل العالمية المتصارعة ليس من قبيل الاستنتاج أو الخيال، «بل هو حقيقة واقعة تشهد عليها الأسماء اليهودية التي تهيمن على المنظمات والمؤسسات الحكومية الأمريكية»، كما يشهد على هذا القول واقع كثير من الدول الأخرى، وتصريحات مشهورة لمندوبيها في أروقة الأمم المتحدة، وبخاصة في المناسبات الهامة، وهذه التصريحات والأقوال محفوظة مدونة، وتُذاع عادةً بجميع اللغات الحية عدا اللغة العربية كي لا يفيق العالم العربي من سباته العميق!

تركيزه الذكي المبكر على إفريقية السوداء:

٣ - تركيزه الذكي والمبكر على إفريقية السوداء، وعلى مستقبل الإسلام والثقافة العربية في القارة الإفريقية. ففي حين أرانا مصرع الاستعمار الفرنسي في الجزائر، وانتصار الثورة الجزائرية قبل استقلال الجزائر بسنوات، وأرانا مع ذلك نهاية الاستعمار القريب في القارة الإفريقية بعد سقوط أهم وأقوى معقل استعماري في القارة - ومن هنا كان التشبُّث الاستعماري بالجزائر ووقوف حلف الأطلسي كله إلى جانب فرنسا - فإنه كان يرى أن مستقبل القارة الإفريقية للإسلام، وأن الإسلام فيها أقوى من أي مبدأ أو نظام آخر. وقد كان متبعاً لأعمال التبشير في هذه القارة، وللجهود التي يبذلها

المبشرون بين يدي الاستعمار أو شياً لا كانه، والمعادن والشعاب التي يطلقونها في سبيل هدفهم البعيد؛ وكانت عند الأساد الحكيم الفداء على تجاوز السطوح إلى الأعماق، وتجاوز الضد إلى الحقائق، منذ أول عهده بالدراسة في ديار الغرب إلى آخر يوم في حياته يرحمه الله.

وقضية الثقافة الإسلامية في هذه القارة - كما كان يراها - قضية دبية حضارية من وجه، وقضية عربية قومية من وجه آخر؛ لأن الإسلام هو الوجه الذي يمكن للعرب أن يطلوا من خلاله على هذه القارة، ويكسبوه إلى الصف العربي، وإلى معسكر الثقافة العربية الإسلامية في عالم تتورعه معسكرات ثقافية معدودة.

إن العرب في منطقة الثقافة العربية الإسلامية من العالم - وهي السعة التي تضم خارطة العالم الإسلامي - هم القادة والسادة، وإطلائهم على إفريقية أو سواها، لا يمكن أن تكون تحت ألوية غريبة المنشأ والهدف، لأنها إطلالة التابع لا المتبوع فحسب، وهي لهذا غير قادرة على الوقوف، فضلاً عن «التعريب» والصمود، بل لأن الإسلام كذلك هو دين هذه القارة في الغد القريب، كما ثبتت الدراسات والإحصائيات.



مستقبل البلاد الإسلامية:

أما حديث الأستاذ الفقيه رحمه الله عن مستقبل البلاد الإسلامية، الذي ضمته محاضرة هامة ألفاها في كانون الثاني عام ١٩٧٢م، فقد قال فيه: إن ذلك قد يبدو للوهلة الأولى ضرباً من الرجم بالعيب، ولكننا إذا حصرنا الجواب ضمن حدود العناصر المعلومة جيداً عن العالم الإسلامي، وعن أوضاع العالم بوجه عام، وتطوره الحالي، فيمكننا الاطمئنان إلى الجواب الذي يتركز في جميع الأحوال على القضايا التالية:

ثم أورد خلاصة رأيه - رحمه الله - في الناحية العقائدية، والناحية الجغرافية، وبعض النواحي الأخرى. ونكتفي هنا ببيان رأيه الدقيق الشامل في الناحية الجغرافية.

الناحية الجغرافية للعالم الإسلامي:

قال رحمه الله: «وأما من الناحية الجغرافية فالعالم الحالي يتزايد سكانه بسرعة، وجميع الحر، في عام السكر حسب القوايس المقدونة لتزايد السكان من أكثر العلماء أن عدد سكان الأرض سيقرب في العام ٢٠٠٠م، من ضعف عددهم الحالي! وفي هذه الأحوال فإن الأقوات على سطح الأرض لن تكفي البشرية الكثيرة. هذا مع العلم أن العالم الإسلامي حالياً - رغم انعدام تشجيع الحكومات في البلاد الإسلامية لزيادة النسل - هذا العالم الإسلامي هو صاحب أكثر تزايد في السكان. ولئن كان المسلمون يؤلفون حالياً سدس سكان الأرض، فإنهم سيؤلفون عام ٢٠٠٠م، حسب تزايد المسلمين الحالي خمس سكان الأرض، وفي هذا وحده زيادة في أهمية العالم الإسلامي في عصر غير المسلمين.

ولقد توصلت أمريكا الشمالية والجنوبية وأوروبا إلى زراعة جميع مناطقها القابلة للزراعة، وإنتاج أكثر ما يمكن إنتاجه من الأقوات النباتية والحيوانية بفضل العلم والتقنيات الحديثة، مع ذلك فالعالم الحالي تجتاحه المجاعات، ويموت حالياً حسب إحصاءات هيئة الأمم يموت سنوياً أكثر من عشر ملايين إنسان جوعاً. فكيف بحال العالم بعد ثلاثين عاماً حين يزيد عدد البشرية ثلاثة مليارات نسمة؟!

وقبل الاسترسال في الجواب يجب إخراج أوروبا والصين والهند واليابان من إمكانية تغذية البشر بفائض من الأقوات، لأن أقوات هذه الدول لا تكفي حالياً شعوبها! كما يجب إخراج أستراليا وسيبيريا من إمكانية إفادة البشرية بالأقوات، لأن أستراليا قارة شديدة الجفاف صحراوية في أكثر بقاعها، ولأن سيبيريا شديدة البرد وتربتها تتجلد أكثر أيام السنة.

تقديم الأقوات النباتية للبشرية:

وعلى هذا لن يفيد البشرية في تقديم الأقوات إلا البلاد الحارة ذات الأمطار الوفيرة، أو ذات المياه الجوفية الكثيرة، وذات المساحات الواسعة واسكان القليلين. وهذه البلاد هي البلاد الإسلامية: فالقسم الغربي من آسيا لا

يزال غير مستثمر للزراعة، بل يكاد يكون مهملًا من الناحية الزراعية بسبب انصراف السكان إلى موارد أخرى كالتجارة والصناعة؛ فسهل العراق الرسوبي، وسهول إيران وأفغانستان والباكستان الغربية، وسهول الفرات والجزيرة والبادية في سورية كلها مهملة، وهي صالحة لإعطاء ثلاثة محاصيل سنوياً. وهذه المناطق وحدها قادرة على تقديم أقوات نباتية تكفي ألف مليون نسمة.

أهمية الزراعة في الجزيرة العربية:

وأما الجزيرة العربية فالزراعة فيها حالياً شبه منعدمة لانصراف السكان إلى ما هو أجدى في نظرهم، ولكن إمكانية هذه الجزيرة الزراعية عظيمة جداً. لا سيما حين نقرأ أرقاماً عن كميات الماء العذب التي تحفل بها الجزيرة هذه؛ فعيون الماء في منطقة الإحساء تقذف سنوياً إلى البحر أكثر من (٤٠٠) مليون متر مكعب من الماء! كما دلت الدراسات التي جرت في الصحاري العربية أن تحت هذه الصحاري وعلى عمق غير كبير - ١٠٠ م - توجد جيوب مائية واسعة هي أشبه ببحار لا تنضب عملياً، ولو استخرج منها لكفى لإرواء هذه الصحاري مئات السنين. كما أن سهل عسير وتهامة غير مستعملين حالياً للزراعة رغم جودة جميع الشروط الزراعية وتوافرها في هذين السهلين. وسوف يضطر سكان الجزيرة إلى زراعة هذه المناطق كلها زراعة حثيثة وثلاث مرات سنوياً بدافع ارتفاع أسعار الأقوات حينما يتضاعف عدد البشرية، وتصبح الأقوات غاية البشرية الأولى بعد أن تكون أكثر بلدان العالم قد صنعت وزاد إنتاجها الصناعي عن حاجة سكانها، وحاجة بقية العالم إلى هذا الإنتاج الصناعي.

مستقبل الصحراء في إفريقية:

أما في إفريقية فالمستقبل العظيم هو للصحراء، وللشركي، وللدول الإسلامية الواقعة على خليج غينيا؛ فالصحراء الكبرى ليست كما ذكرنا ذات ذكر تعديني عظيم فحسب، بل هي تسبح - حسب قول الجيولوجيين - على بحر من الماء العذب غير قابل عملياً للنضوب،

وعلى عمق يتراوح بين (١٠٠٠ و ١٢٠٠م)، هذا إذا لم يرد سكان الصحراء الغربية الإفادة من فيضانات نهر النيجر التي تذهب حالياً هدرأ في منطقة عطفة النيجر أو إلى البحر.

أما البلاد الإسلامية الواقعة على خليج غينيا والسودان الشرقي وتشاد، فلم يزرع حتى الآن سوى عشر أراضيتها رغم جودة كل الشروط الزراعية، وكثرة الأمطار المدارية فيها، وستغدو هذه البلاد المنتج الأول للحوم والزيوت النباتية التي تحل تدريجياً محل الدهون الحيوانية.

تصدّر العالم الإسلامي المكانة الأولى في الاقتصاد العالمي:

وهكذا يتضح لنا أن تغذية البشرية ستعتمد في المقام الأول على العالم الإسلامي، وبذلك فالعالم الإسلامي سيحتل المكانة الأولى في الاقتصاد العالمي، لا سيما وأن المحاصيل الزراعية سترتفع أسعارها لزيادة الطلب عليها، بينما تقل أسعار المنتجات الصناعية لكثرتها (بعد أن تكون أكثر بلدان العالم قد تصنّعت)، وكثرة عرضها في الأسواق.

الثروات التعدينية والبتروليّة والزراعيّة في القارة الإفريقية:

وبلاحظ حالياً أن الثروات التعدينية في أوروبا تكاد تُنضب، وكذلك فالقسم الأكبر من الثروات التعدينية والبترولية في القارة الأمريكية هي في طريق النضوب، بينما لا تزال البلاد الإسلامية، وخاصة قارة إفريقيا، وهي قارة تكاد تكون قارة إسلامية بحتة في قسمها الأكبر الممتد شمال خط الاستواء، والتي تضم (١٩٠) مليون مسلم من أصل (٢٦٠) مليون نسمة. إن هذه القارة هي قارة المستقبل، وتتكشف فيها حالياً ثروات هائلة تعدينية وبترولية وزراعية؛ وهذا ما دعا إلى تكالب الكتل الكبيرة على هذه القارة.

وكذلك فالجزيرة العربية ستكون ذات مكانة أولى في تزويد صناعات العالم بالخامات الثمينة، كالنحاس والنيكل والكروم والمنغنيز وغيرها من الخامات، عدا عن الحديد والبترو.

أثر العنصر البشري في البلاد الإسلامية:

وأخيراً، فإن البلاد الإسلامية هي التي ستكون البلاد ذات الكفاءات السكانية الشابة الفتية القادرة على تنفيذ المشاريع الحسنة في العالم. وإعمار سطح الأرض، وإثارتها واستغلاله والسيطره عليه. ذلك لأن العنصر البشري يظل ذا قيمة كبيرة مهما تحسنت الآلات والوسائل. فالعمل الذي يقوم به البشر تعجز غالباً أية آلة عن القيام به. ولأن شعوب أوروبا - بما في ذلك الشعب الروسي والأوكراسي - منظر الإحصاءات الصادرة عن هيئة الأمم أن نسبة الشيوخ فيها تزداد، ونسبة الشباب فيها تقل، وأن تزايد هذه الشعوب في نقص مستمر، وإلها تُصاب بعقم لا تزال أسبابه خفية! بينما الشعوب الإسلامية في تزايد مُتزايد، وأن نسبة الشباب فيها آخذة بالزيادة، وإذا استمرت هذه الحال قرناً واحداً فإن المسلمين يؤلفون ثلث البشرية حسب التناج التي يُعطها قانون هذه الزيادة، بينما الشعب الأمريكي والشعب الأوروبي قد توقفنا منذ الآن عن التزايد المستمر.

ومن المتوقع أن تكون الزيادة الكبرى في عدد المسلمين مفتاحاً إلى الكثير من مشاكلهم الحالية، ولإيقاف التآمر عليهم من قبل الأعداء الثلاثة.

نظرته إلى المستقبل:

هذا ما كتبه أستاذنا الفقيه قبل بضعة عشر شهراً، ولم يدع فيه روح النظر إلى المستقبل من وراء الحدود والحدود. وتمتاز آراؤه على الدوام، مع ذلك، بالوضوح والقوة، والصراحة والشجاعة، بل إنه رحمه الله لم يعرف طريقاً إلى المواربة أو المُداهنة حتى في تلك الآراء والأفكار التي كان يقدر غربتها عن أفهام من حوله وطريقتهم في التفكير، حتى ليخيل لجليسه في بعض الأحيان أنه أمام رجل فرد بقراءته، واهتماماته، وسعة اطلاعه، وقوة دماغه، وآرائه الجريئة الحرة.

صفحة ابتدأت بالغربة وانتهت بالشهادة:

عاش في أوروبا غرباً يوم أخذ من (علوم) القوم، ولم يحصع (لثقافتهم) كما فعل كثير ممن حوله من أبناء العروبة والإسلام، وحرص إلى الجزائر طريداً، وشارك في أعمال التحرير والمقاومة محمداً، وعاد إلى الجامعة ومعاهد التعليم مدرساً لا ينقطع عن القراءة حتى لكأنه راحب كتب منقطع، ودائرة معارف خاصّة. ثم ضمّه في آخر الرحلة قبر منقطع عن الأهل والوطن الصغير في مكة البلد الحرام، فأثّر ختام أليق من ختام الشهادة، يطوي هذه الصفحة التي ابتدأت بالغربة لتنتهي بالشهادة.

إنّ الرجال الذين يسقون العصور غرباء، والغرباء يعيشون عادة حياة الشهداء، والشهادة هي أليق ختام لحياة الرجال الشجعان.

رحم الله فقيدنا العلامة الكبير، وأسكنه ونجّله الشهيد الشاب مسيح جناته.



مؤمن قوي الإيمان:

ما عرف الناس (الأستاذ حكيم) إلا مؤمناً قوي الإيمان، مسلماً صدق الإسلام، في صلاته خشوع، وفي دعائه استعراق، وفي قلبه حبّ لصاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام.

ذكريات رحلة جامعية:

ماذا أذكر من ذكريات أحاديثه وماذا أدع، رحمه الله وأعني مقامه. إن صوته الجهوري الأجر ما يزال يرنّ في أذني، وحركات وجهه ويديه المعبرتين ترتسم أمام ناظري، وهو يحدثنا حديثاً مُسهباً دافعاً في رحلة جامعية في عام ١٩٥٦م.

ما أعجب أن أذكر من حديثه في ذلك اليوم كلامه عن مكة والمدنية. وعن طبائع أهل كل من المدينتين كما تبسطها كتب الأدب والتاريخ، ماذا كان يعدّ له القدر في طريق مكة بعد سنوات طوال، يرحمه الله.

بعض هذه الأقايصيص والأخبار، وقد وقفت عليها فيما بعد، سأعود إلى قراءتها في كتب الأدب، وفي القلب حرقه، وفي النفس آسى ولوعة.

في الطريق إلى المدينة المنورة:

وفي تلك الرحلة نفسها - يشهد الله - حدثنا عن زيارته للمدينة المنورة مع طلاب كلية الشريعة في أول رحلة تقوم بها الكلية إلى الأراضي المقدسة، وكيف أن القبة الخضراء وفناء المسجد - في الطريق إلى مشى النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه - تُحرّكان في النفس كوامن الحب وتاريخ الذكريات، وأنّ لهما عند مَنْ حُرِم المعرفة الحقّة بذلك المقام الكريم معنى أسراً يفرض الهيبة والاحترام والإجلال.

صوّر لنا (الأستاذ حكيم) في الحالة الأولى جاره على مقعد الطائرة الأستاذ السباعي - رحمهما الله - وكيف سقط من مكانه، وأصيب بما يشبه الغيبوبة، والطائرة تُحلّق بهم في سماء المدينة المنورة، وأن الذي ظمأنهم عليه - وسكب عبراتهم - بقايا كلمات مضطربة على شفّته علموا منها أنه لمح القبة الخضراء، يسطع نورها في ضوء الشمس.

كما صوّر لنا في الحالة الثانية حوادث رآها في فناء المسجد من أدس دلفوا إليه، وكأنهم يستعرضون الجند، فما خطوا خطوات حتى أكبوا على الأرض يلتمسون منها أو من جيوبهم ما يمسحون به عن الأرض الغبار!! كان الصوت الأجش المُحبّب يزداد تهذجاً وتأثراً وندى بعيداً.

وكانت الروح المُحبّة لرسول الله ﷺ تسكن إلى حديثه، وتعكس رسالته على صفحة النفس النقية، صادقة صافية.

ثم يأذن الله تعالى لهذه الروح أن تنطلق من عقالها في مكة البلد الحرام، لتُحشر يوم القيامة - إن شاء الله - مع النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين، وخسّن أولئك رفيقاً.

رَجِمَ الله أستاذنا العلامة الراحل، وجَزَّاه عن العلم والدين والمعرفة، وعن المسلمين الذين كانت تقض مضجعه مشكلاتهم، وتأمّر العالم عليهم، أفضل الجزاء. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



الشهيد العالم عمر الحكيم رحمه الله

(١٢٣٥ - ١٣٩٣ هـ)

(١٩١٦ - ١٩٧٣ م)

للاستاذ شفيق ببرودي

شخصية قوية وجاذبية عظيمة:

عرفت الفقيد الشهيد عمر الحكيم عام ١٩٥٣ م. يوم كنت طالباً في جامعة دمشق في كلية الآداب - قسم الجغرافية. وكان الفقيد - رحمه الله - رجلاً مسيح حياً - يتمتع بشخصية قوية، كما يمتد حديثه عصبياً. وكان متواضعاً بسيطاً في حياته، اجتماعياً في سلوكه، وكان حد المرح عصبياً. ولكنه كان هادئاً متوثراً عندما يتكلم في العلم.

وكان رحمه الله شجاعاً لا يهاب في الحق لومة لائم، دحرج أسحور لإيمانه العميق بمبدأ الحرية.

مبادئه في الحياة:

ولم يسأله أحد عن مبادئه وفلسفته في الحياة. وكان يردد مراراً

وتكراراً على تلاميذه: «إن نهضة الأمة العربية والعالم الإسلامي مرتبطة بالتمسك بالإسلام وبتطبيق العلم المعاصر».

دعوته إلى العلم التجريبي المعاصر:

لقد كان رحمه الله داعية إلى العلم التجريبي المعاصر لأنه يستطيع أن يقضي على جميع مظاهر التخلف في العالم العربي والإسلامي.

الإسلام روح المقاومة والثورة في العالم:

كما كان يؤمن أن الإسلام يستطيع أن يوجد روح المقاومة والثورة في العالم العربي والإسلامي، ويرفد الشعوب الإسلامية بحركة مستمرة، دائمة، وبإشعاع فكري ساطع.

تلازم العروبة والإسلام:

وكان يؤمن - رحمه الله - أن العروبة والإسلام شيان متلازمان لا يمكن أن ينفصلا أبداً وكان عندما يحاضر يذكر مراراً وتكراراً أن مدلول كلمة العرب مرادفة للإسلام.

استقامته في سلوكه:

ولقد كان الفقيد مستقيماً في سلوكه لم يعرف الانتهازية، ولقد ميزت على سوريا أحداث مختلفة لو أراد أن يستغلها لوصل إلى أرفع المناصب السياسية.

تلاميذه الكثيرون:

ولقد ساهم في تخريج ألوف الطلاب الجامعيين في سوريا والأردن والسعودية، وهؤلاء الخريجون - وأنا واحد منهم - هم الشعلة الدائمة التي تركها الفقيد للعالم الإسلامي، وسوف تستمر هذه الشعلة في أداء دورها في تجديد الشعب حتى يَرِثَ الله الأرض ومن عليها.

دوره في النهضة الثقافية المعاصرة:

أما عن دور الفقيه في النهضة الثقافية المعاصرة، فسأقوم بعرضها الآن بصورة مختصرة.

فقد كان الفقيه الشهيد يكتب ويتكلم في دروسه ومحاضراته الجامعية باللغة العربية الفصحى، وكان ضليعاً باللغة والأدب العربي، وكان يتمتع بثقافة عالمية عالية جداً تشمل مختلف العلوم الطبيعية والإنسانية.

وكان على اطلاع واسع بالتاريخ الإسلامي، وفي الدراسات الجغرافية عن الشمال الإفريقي، وعن أفريقيا السوداء كما كان على اطلاع واسع بحاضر العالم الإسلامي كله، وكان على اطلاع بالتاريخ العسكري العربي. وقام بتدريسه في الكلية العسكرية السورية في حمص في منتصف القرن العشرين.

تعمُّقه في علم أشكال الأرض:

وكان - رحمه الله - قطباً فريداً من أقطاب الدراسات الجغرافية الطبيعية في العالم العربي اليوم، وكان متعمقاً في «علم أشكال الأرض»، وأعتقد أنه عالم لا مثيل له في ميدان هذا العلم في كل الجامعات العربية المعاصرة، وقام بتدريس مادة الجغرافية الطبيعية في جامعة دمشق ١٩٥١ - ١٩٦٩م، كما قام بتدريسها في جامعة عمان، وفي جامعة مكة «كلية التربية» ١٩٦٩ - ١٩٧٣م.

ترجمته كتاب «الجغرافية الطبيعية»:

وقد ترجم عن اللغة الفرنسية كتاب «الجغرافية الطبيعية» للعلامة الفرنسي «دومارتون»، الذي كان أكبر عالم جغرافي في العالم في النصف الأول من القرن العشرين. وهذه الترجمة مطبوعة بالآلة الكاتبة، ويعتبر هذا الكتاب من المراجع الرئيسة في العالم اليوم لمادة «علم أشكال الأرض».

كتابه «المدخل إلى علم الجغرافية»:

كما ألف المرحوم الشهيد كتاباً أسماه «المدخل إلى علم الجغرافية» وهو كتاب فريد من نوعه في اللغة العربية عن تضاريس الأرض وأشكالها، واعتمد المؤلف في تأليفه على المراجع الألمانية والفرنسية، ويدرس هذا الكتاب في جامعة دمشق وعمان ومكة.

مؤلفاته التاريخية:

أما عن مؤلفاته التاريخية، فهي لا زالت محاضرات مكتوبة بالآلة الكاتبة وخاصة ما يتعلق بحاضر العالم الإسلامي، تلك المحاضرات التي أُلقيت في كلية الشريعة بجامعة دمشق.

ترجمته كتاب «الإسلام في إفريقية السوداء»:

وترجم أيضاً كتاب «الإسلام في إفريقية السوداء» الذي ألفه رئيس الاستخبارات الفرنسية فيليب فونداسي ولم يذكر المرحوم اسمه ك مترجم على الكتاب، لأنه كان يؤمن بالعمل بعيداً عن الدعاية والضوضاء، ويلقي الكتاب ضوءاً عن السياسة الفرنسية في إفريقية، وعن دور الإسلام العظيم في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وعن الجهود الفرنسية لإيقاف زحف الإسلام في القارة السوداء؛ لأن مصير القارة الإفريقية مرتبط اليوم بالصراع بين الإسلام الذي يزحف من الشمال الإفريقي وبين المسيحية التي تزحف من الجنوب.

الاستعمار الفرنسي في الشمال الإفريقي:

وكتب المرحوم عدّة مقالات عن الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، وقد حلّل المرحوم فلسفة السياسة الفرنسية في المغرب وجهودها المستمرة لطمس معالم العروبة والإسلام في الشمال الإفريقي، وحلّل الثورات المستمرة في المغرب حتى رأى بأنّ عينيه (وهو المغربي الأصل) انهيار الاستعمار الفرنسي إلى الأبد في الشمال الإفريقي.

مذكرات والده خالد الحكيم:

ويعتقد بأن مذكرات والده المرحوم خالد الحكيم هي في حوزته، وكانت تلك المذكرات التي كتبها والده خالد الحكيم يوم كان مستشاراً للسياسة الدولية عند المرحوم عبدالعزيز آل سعود في الفترة الواقعة بين ١٩٢٠ - ١٩٤٦م، ويوجد في المذكرات خفايا مجهولة عن المملكة العربية السعودية، وأيضاً خفايا الصراع الإنكليزي - الأميركي من أجل السيطرة على بترول السعودية، وخفايا الاستراتيجية الأميركية من أجل استنزاف بترول جزيرة العرب، وقد عرضت على المرحوم خالد الحكيم مجلة التايم الأمريكية ١٩٤٦م أن يبيعها تلك المذكرات بمئات الألوف من الدولارات، ولكن رفض ذلك، ثم توفي خالد الحكيم فجأة رغم أنه كان يتمتع بصحة جيدة وبطاقة لا تعرف الملل والتعب والكلل.

انتسابه إلى الكلية العسكرية ودراسته في المعهد الجغرافي:

أما عن مؤلفاته العسكرية، فقد انتسب إلى الكلية العسكرية الفرنسية ١٩٣٧ - ١٩٣٩م، بعد حصوله على شهادة البكالوريا السورية، وقُبل في تلك الكلية بواسطة المملكة العربية السعودية على أن يعود ضابطاً مدرباً في الجيش العربي السعودي. ولكن اشتعال الحرب العالمية الثانية أدى إلى إغلاق الكلية العسكرية الفرنسية، فانتسب عند ذلك إلى جامعة الصوربون في باريس، وحصل على الشهادات العلمية في مادة الجغرافية من المعهد الجغرافي الفرنسي.

اشتغاله بالحركة الوطنية:

وقد اشتغل بالحركة الوطنية عن طريق الحاج أمين الحسيني، وبعض الشخصيات العربية الأخرى، ثم حكمت عليه المحاكم الفرنسية بالإعدام، فترك فرنسا وذهب إلى المغرب (إلى بلاد أجداده)، ثم جاء إلى سوريا بعد الاستقلال ١٩٤٧م، وعُيّن مدرّساً في حمص، ثم نقل إلى دمشق، ثم أصبح مدرّساً في جامعة دمشق، كلية الآداب، وقد حاضر في الكلية العسكرية في

حمص عن التاريخ العسكري العربي، وعن طرق القتال عند العرب في المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام.

تنوع ثقافته:

لقد كان المرحوم الشهيد عالماً عظيماً من علماء الأمة في القرن العشرين، وكان - رحمه الله - في أوج النشاط والقوة والعمل، وكان على اطلاع مستمر ودائم بالثقافة العالمية لأنه يُجيد اللغة الفرنسية والألمانية والعربية، وكان يدرّس يومياً ويطلع يومياً عدّة ساعات في مادة اختصاصه، وكان على اطلاع جيد بالرياضيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجية، وكان عالماً جغرافياً بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى، وخاصّة في ميدان «علم أشكال الأرض».

رحم الله الفقيد الذي استشهد، ونحن في أمسّ الحاجة إليه وإلى جهوده العلمية، لقد مات الشهيد قبل أن يؤدّي دوره العلمي والتربوي كاملاً في المجتمع.

وفاته في حادث سيارة في طريقه إلى مكة المكرمة:

وكان الشهيد على أبواب التقاعد، حيث بقي له من الخدمة ثلاث سنوات، وكان يريد التفرّغ للعلم والثقافة، ويريد المساهمة في تجديد حياة الأمة الثقافية، ولكن القدر أبى ذلك، وفُجعت الأمة به شهيداً خالداً على طريق الشهداء، وخسر العالم الإسلامي، واستشهد في الأرض المباركة «مكة المكرمة»، ودُفن فيها، وعاد إلى الأرض التي أحبّها ودرسها، وسلامٌ عليه يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حياً.



عبدالله التل

سيف من سيوف الإسلام أغمدته أمته^(١)

(١٢٢٧ - ١٣٩٣ هـ)

(١٩١٨ - ١٩٧٣ م)



للاستاذ ماجد عرسان الكبيراني

الرجولة المؤمنة والعبقريّة الفذة:

بالأمس ودعت القافلة المؤمنة جندياً من جنودها، ومجهداً عرفته مختلف الميادين، ذلك هو القائد المجاهد عبدالله التل.

ويشهد الله أن الخبر سون على أعصابي ثقيلاً مرهقاً، وجئت ذميرعي وشرّد خاطري لاستعيد صورته في جميع موافقه ولقاءاتي معه. وما كان ذلك جرعاً من أمر الله ولا اعتراضاً على حكمه فجميعنا لله، وجميعنا إليه رجع. ولكن لأن قصة أبي المنتصر هي قصة الرجولة المؤمنة، والعبقريّة الفذة التي نشأ طريقها مؤمنة بربها واثقة من نفسها حتى إذا أخذت مكانها في ميدان الحياة اصطدمت بسباق العصر وتناقضاته، واختلاط الزائف والأصيل في نفوس أممه. ومصت تعاني من ذلك كله وتكابده حتى تنفذ قواها، وتفرغ من طاقتها.

(١) حصار الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م).

شمائل الرجولة الأصيلة:

لقد نزل عبدالله التل إلى ميدان الحياة، وتكلّ صوته من شمائل الرجولة الأصيلة في صدره رجل ينطق بها ويعبر عن أسى معانيها. فرجل يجسد إيمان المؤمن وصفاءه، ورجل يرفع نواء الشجاعة بأقوى ما تكون شجاعة. ورجل يرفع علم الإباء والأئمة، ورجل يفتح لكل الناس بابه، كريماً من غير ذل، وفياً من غير ضمع، ورجل وافر الحكمة بعيد النظرة في أمور السياسة والاجتماع، يدرك المواقف ويعيه الرجال، ورجل يقدر العلم ويعشقه كمد بعشق السيف، حتى لقد ضمّت مكتبته الآلاف من المجلدات العربية والأجنبية.

في ميدان الجندية والقيادة:

كانت فاتحة حياته الاتجاه لميدان الجندية، فبرز يمثل الحنكة العسكرية والمهارة القتالية، الأمر الذي مكّنه من الوصول إلى صف القيادة في مدة قصيرة جداً، وهو لم يزل في عنفوان الشباب، ولقد شهد له في ذلك من لم يحبوه ومن فشلوا في الثيل من أنفته وإبائه، فلقد كتب الكولونيل ماروث ركن الحركات الإنكليزية في تقريره بتاريخ ١٣/٣/١٩٤٨م: "لقد أنهى الرئيس عبدالله التل دورة لمدة ثلاثة شهور في قيادة الفرقة الأولى للمشاة، وبرهن على اهتمامه بالعمل المنوط به، إنه لخليق أن يكون أندر ضابط أركان في الجيش العربي".

جهاده في حرب عام ١٩٤٨:

وحين بدأت مكائد الانتداب لتسليم فلسطين لليهود عام ١٩٤٨م، لم ينتظر لتصدر الأوامر للاشتراك في الجهاد، وإنما أخذ يذود عن حمى الأهلين، ويتعاون معهم، حتى إذا اشتعلت أوار الحرب ودخلتها الجيوش رسمياً كان أبرز القادة على ساحاتها وهو ما زال في الثلاثين من عمره. وحين جمع الصهاينة قواهم جاعلين بيت المقدس وحمى الأقصى من أولى

أهدافهم، تقدم اليهود المعركة هناك، وندب العامة وبيع الجثث في التراب.

اتهام اليهود له بالتطرف والإرهاب:

ولقد سطر جهاده الأفلام، حتى أفلام العامة نفسه، فمخاضه في حياته - هامشكيف - في عددها الصادر بتاريخ ٢٧ ٤ ١٩٤٩م - أن عدده التل من المعروفين بالتطرف والنعش الأعمى، وهو السب الأول في كل اضطراب، وهو إلى جانب نعشه فإنه من دعاة استنفاذ الحرب ضد إسرائيل في اللحظة المناسبة". ودايان نفسه لم يستطع أن يكتم مراره في حبه أمام أبي المستصر، فدونها في كتاب أصدره باللعبة الإكليرية عام ١٩٧٠م قرأته بنفسه ولا يحصرني الآن اسمه، ووصفه بالنعش الإرهابي المنعش لقتل اليهود.

إنها النفسية اليهودية الملوثة المعقدة حين نتحدث عن نمرج منها في التراب لا تجد سبيلاً إلا أن تصمّم بتهم الإرهاب والتطرف.

أخلاقه الإسلامية في الحروب:

ومن يستطلع سلوك الرجل إبان المعارك المذكورة يرى كيف كان - رحمه الله - يتأسى - عن وعي وشغف - سلوك قادة المسلمين من الرعيل الأول، شجاعة وخلقاً ورحمة للإنسانية، تنعالي على الحصومات، وبمسك بعبان النفس. فهي الوقت الذي تراه سيماً فضلاً على أعناق اليهود المقاتلين، وناراً تصبّ عليهم في حمة القبال، تراه إنساناً رحيم القلب، عالي الهمة في معاملة الأسرى والشيوخ والنساء والأطفال، فعند أسر المقاتلين اليهود من القور بالقدس القديمة، ولم يحدوا ماصاً من الأسلام، استرط قائد الحامية المحاصره اسحاب المقاتلين وغيرهم، وفي عبدالله الل الاسلامهم دون قيد أو شرط، وحينما رصح اليهود لشروطه سمح للشيوخ والنساء والأطفال اللحاق بدوهم، وأمر حنوده بتقديم الماء والطعام لهم، ويحمل العجزة والمرضى منهم.

ويقول رحمه الله: كنت، وأنا أرى جنودنا يحملون العجزة والمرضى والأطفال على الأكتاف، ويقدمون لهم الماء والغذاء، أتذكر سلوك السلف من المسلمين الفاتحين، وأتيقن أن هذه الأمة ستظل تتمثل أرواحهم وأخلاقهم الإنسانية الرائعة.

تبصيره الأمة بأبعاد الخطر اليهودي:

وشاءت الأقدار أن تعزل رجل السيف من ميدان الجهاد العسكري، فأنبَرى رجل القلم وهو يرى سلبية الأمة، وقد أغمتها الاهتمامات الفردية والقبلية والإقليمية والطبقية عن الإحاطة بأبعاد الخطر اليهودي وحقيقته، ومضى يُبصِّرُها بـ «خطر اليهودية العالمية»، ويعرفها بـ «جذور البلاء» اليهودي الذي أفسد العالم كله، وسخر طاقات الشرق والغرب لمآربه وشروره. وأطلقها - أبو المنتصر - صَنِحات واعية ليحذر الأمة من سموم «الأفعى اليهودية»، وقد اقتحمت «معاقل الإسلام» لتُجهز على المقومات الإسلامية بفضائلها وقيمها ومبادئها، وأصبح الباحث المتخصص في الكشف عن مخاطر اليهودية العالمية في الماضي والحاضر والمستقبل.

ولقد صدرت أبحاثه هذه في وقت مبكر كانت الأمة خلاله - حتى غالبية المثقفين منها - تحسب الصدام مع اليهود كأنه مشاجرة بين عشرينين في قرية نائية يمكن حسمها بالحجارة والعصي.

مقال الدكتورة بنت الشاطي عن كتابه «خطر اليهودية العالمية»:

وأذكر عندما صدر كتابه «خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية» أن الدكتورة بنت الشاطي كتبت مقالاً في صحيفة الأهرام نوهت بالكتاب وصاحبه، وكانت خلاصة مقالها: إن القائد الذي برز في مجابهة الصهيونية في الميدان العسكري يبرز اليوم ليحتل مركز القيادة في مجابهتها في الميدان الفكري. وأذكر أن الصحف القاهرية كتبت تقول: أنه تم توزيع ٢٤ ألف نسخة خلال أسبوع واحد. وحين كتب رسالته للدكتورة كان موضوعها حول طبيعة الصهيونية وأخطارها.

بيته منتدى الوافدين:

ونه تكن الكلمة المكتوبة وسيلته الوحيدة في الاتصال بالناس، وإنما جعل بيته في القاهرة - يومذاك - منتدى للوافدين لجامعاتها ومعاهدها، ووجد فيه الوافدون الأهل الذي يرعى ظروفهم العلمية والفكرية والمالية والأخلاقية، ولقد عاد الكثير إلى بلده وهم مدينون له مادياً، ولربما ما رآه منهم من لم يُسدّد ما عليه.

لقد كان الرجل يُضحّي بماله ووقته في سبيل إيصال أفكاره ومشاعره نديشة وللاخوة والزملاء، وأصبح الحديث عن مخاطر الصهيونية حديثه في جميع مجالسه، لا يتحدث بتجارة ولا منصب ولا عَرَض من أعراض الدنيا، وإنه يهودية وأخضره على مستقبل الإسلام ومقدساته، وعلى وجود الأمة ذاتها، يحدث حديثاً ممزوجاً بالألم، معصوراً من الكبد.

أثر نكبة ١٩٦٧:

ولكن ذلك كله لم يكن ليشفي غليله، فلقد كان بفطرته مُسْعِر حرب نو كان معه رجال!! وكل من رآه بعد محنة ١٩٦٧م، كان يعرف أن الرجل الذي قيّده أمته إنما كان حنينه إلى الجهاد يقتله أولاً بأول. كانت كل غارة يهودية على أي من الجبهات «الشرقية» أو «الغربية» أو «الشمالية» تفعل بجسمه فعل الأدوية الهالكة، ولقد تزايد المرض، وكادت تكون منيته منذ عام ١٩٦٧م نفسه، لولا أن كان له أيام من حياة.

دخلت عليه بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧م، وإذا به طريح الفراش وما من سبب للمرض إلا شدة الصدمة، ووجدت عنده نفراً من وجهاء الضفة الغربية الذين عرفوه سيفاً يذود عن حماهم، وعن أعراضهم في ربي القدس ورام الله والخليل، جاؤوا يعودونه في مرضه فانقلبوا من أسباب المرض إذ مضوا يبتئونه اعتداءات سلطات الاحتلال ومضايقاتها لهم في «القطاع» و«الضفة»، وعلى «الجسر»، ذلك أنهم تعودوا أن يبتئوه اعتداءات فرق (الهاجانا) و(شتيرن) يوم كان يعسكر على جبال القدس، فيسارع ليدمر

المستعمرات التي تنطلق منها الاعتداءات، ولكنه هذه المرة لا معسكراً ولا جنداً حتى ولا جسداً صحيحاً، فلقد صدق فيه قول المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

ولقد آمن - رحمه الله - أنَّ الجند القادر على التصدي لليهودية العالمية هو الجند الذي يتربى في مدرسة الإسلام، فأصبح داعياً من دعائه، والتحم بأهله وشبابه، وشاركهم آمالهم وتطلعاتهم العامة.

في ميدان الدعوة:

وكان في ميدان الدعوة عظيماً سَمًا فوق الشهوات والصدقات والمصالح الشخصية. وتلك مزنة تتطلب تضحية وشجاعة وإقداماً. ما أظن قد فاز بها إلا القليل القليل من الناس، وذلك بالارتفاع عن زخارف الدنيا، والسمو فوق شهواتها. والصبر على آلامها، وعبدالله التل كان واحداً من هذه القلة التي دفعت ثمن الرجولة بأعلى ما يكون الثمن.

والى جانب هذه الأنماط من الرجال التي عمرت صدره كان رجلاً يتمثل روحانية الإسلام وأخلاقه، يأنف من المتعاليين، ويتواضع - حتى لا يصبح شيئاً - مع الضعفاء والمساكين.

تواضعه للفقراء والمساكين:

جلست مع أحد الأخوة في أعقاب وفاته نتذاكر شمائل الرجل وأخلاقه. فحدثني الأخ المذكور، فقال: جاء - رحمه الله - ذات يوم إلى الوزارة يفتاده آذن من أذنة المكاتب ليتوسط له بمصلحة بسيطة لدى موظف بسيط، فاستكثرت ذلك عليه، واستعظمته، وقلت له: يا أبا المنتصر، إنها مسألة بسيطة لو بعثت أحد أبنائك أو اتصلت تلفونياً بالموظف المذكور لاغتنمها فرصة ليلبي طلبك ويقضي للآذن حاجته! ضحك رحمه الله وقال: يا أخي أنت تعرف أن المساكين من أمثال هذا الآذن قد فقدوا الإحساس

بقيمتهم لكثرة ما استخف المتعالون بهم، وحين نصحبهم بأنفسنا هذه المسافة لأمر بسيطة، فإننا نبني نفوسهم ونعيد إليهم الثقة بإنسانيتهم.

أَنفَقْتَهُ وَتَرَفُّعَهُ عَنِ الْمَرَاتِبِ وَالْمَنَاصِبِ:

ولن يستغرب الخبراء بالفضائل الإنسانية حين يكتشفون أن هذا التواضع قد اقترن بأنفة منعت عبدالله التل - بعد أن عاد لوطنه - أن يطلب لنفسه مراتب الجاه التي تستمها من كانوا أقل منه، خاصة وقد كان أقرب الناس إليه دماً ولحماً من المتصرفين بهذه المراتب، وكان يملك أن يجيبه لما يريد. ولكنها الرجولة المتكاملة حين تكون شمائلها أصيلة وفطرية، فإن كمالها يقتضي تناسقها بالأشكال التي استعرضناها، فالأنفة قرين التواضع، والتسامح قرين الشجاعة، والحلم قرين العقل، والغيرة قرين العفة، والإنصاف والموضوعية قرينا الإيمان، والعدل قرين الحكمة، كما أن الضغار والمذلة قرينا التكبر، والحق قرين الجبن، والطيش قرين السفاهة، والجشع قرين الخيانة، وعبادة النفس قرين النفاق، والديانة قرين العهر والمجون. وهكذا في كل صفات الإنسان الصالح منها والفاسد.

في ذمة الله أبا المنتصر! فلقد كُنتَ سَيْفًا من سيوف الإسلام، عجز العدو عن كسرِكَ، فأغمدتكَ أمتك وهي في أشد الحاجة لأمثالك.

ورجاؤنا حين يبعث الله البَشَرَ أن تكون في كتيبة خالد وأبي عبيدة وصلاح الدين.

وعزاؤنا أن الأجيال حين تقرأ تاريخ الجيل المعاصر فستجد أنك الوحيد الذي هزم دايان بين حَمَلَةِ الأوسمة على الصدر، والرُتَبِ على الأكتاف.



في ذكرى المرحوم عبد القادر السبسي^(١)

(١٣٠٤ - ١٣٩٣ هـ)

(١٨٨٦ - ١٩٧٣ م)

للقاضي الأستاذ عبد الوهاب التونسي
يقول ابن دريد في مقصورته
الشهيرة:

والناس ألف منهم كواحد
وَوَاحِدٌ كالألف إن أمر غنى
والمرحوم الأستاذ السبسي
من الأشخاص الذين ينطبق
عليهم الوصف الوارد في
الشرطة الثانية من هذا البيت.



نشأته وشيوخه:

لقد كان رحمه الله أمة وحده، فقد نشأ عصامياً من أسرة متدينة، ومال

(١) حصار الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م).

منذ صغره إلى طلب العلم، حيث جالس كبار العلماء، أمثال الأستاذ الشيخ محمد الزرقا، والشيخ راجي مكناس، والشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ محمد نجيب سراج الدين، وغيرهم من كبار العلماء.

في مهنة المحاماة:

مال منذ صغره إلى مهنة المحاماة مع طلبه العلم، وكان أن نجح في الفحص الذي قَدَّمه في منتصف العقد الثالث من هذا القرن، وأصبح محامياً منذ ذلك التاريخ حتى أحيل إلى التقاعد منذ سنوات قليلة.

تدريسه في المدرسة الفاروقية:

كانت أول معرفتي به حينما كنت طالباً في المدرسة الفاروقية عام ١٩٢٨م، وكان أستاذاً لنا في مادة الحقوق، حيث شرح لنا المواد الكلية من المجلة، وجزءاً من أحكام البيوع.

زمالتي له ومشاركتي له في مهنة المحاماة:

ثم انقطعت الصلة بيننا حتى تخرجت في كلية الحقوق ١٩٣٦م، وهناك عادت صفة الزمالة بيننا.

وفي عام ١٩٣٨م، أصبحنا شركاء في المهنة في مكتب واحد، وبقينا معاً حتى تاريخ تعييني في القضاء في آخر عام ١٩٤١م، حيث انفصلت عنه، ولكن الصلة بيننا لم تنقطع حتى آخر حياته رحمه الله.

المحامي الفقيه العامل:

كان الأستاذ السبسي محامياً لامعاً من جهة، وفقيهاً عالمياً من جهة ثانية، وعاملاً كبيراً في الحقل الاجتماعي من جهة ثالثة، وسأورد بصورة موجزة سدة عن هذه النواحي الثلاث للوقوف على نبوغه ونشاطه في كل حقل من هذه الحقول.

١ - عمله في المحاماة:

كان المرحوم السبسي من أقدر المحامين والمعهم. وبصورة خاصة في القضايا المدنية والشرعية، وزُغِمَ اطلاعه الواسع على القوانين الحرائية غير أنه لم يكثر من الدخول في الدعاوى الجزائية.

استظهاره مواد القوانين عن ظهر قلب:

كان في مهنته قديراً، ويستظهر سائر القوانين المعمول بها غيباً، فلقد كان ذا حافظة من أقوى الحافظات، وذاكرة من أقوى الذاكرات، يحتفظ مواد القانون عن ظهر قلب، وكان مُطَّلِعاً على الاجتهادات العثمانية، حيث استفاد من تلك الاجتهادات استفادة كبيرة في مهنته.

في دائرة الأوقاف الإسلامية:

ولقد كان محامياً لدائرة الأوقاف الإسلامية مدة طويلة من الزمن، ثم أُعفي منها في فترة من الفترات، ولكن دائرة الأوقاف حينما لاحظت لحوق الضرر بقضاياها بعد إعفائه من الوكالة أعادت الأستاذ المرحوم إلى وكالة الأوقاف ثانية، وبقي فيها حتى أُعفي منها فيما بعد.

في محكمة البداية المدنية:

ومن الطريف أن نذكر حادثة وقعت له أثناء ممارسته المحاماة، وكنت شريكاً معه، فقدمت باسمه دفاعاً إلى محكمة البداية المدنية، وكان رئيس المحكمة حينئذ من القضاة المشهود لهم بالعدل والاستقامة، ويظهر أن الرئيس لم يُدَقِّق دفاع الأستاذ السبسي تدقيقاً كاملاً، فأصدر قراراً إعدادياً ضده في تلك الدعاوى دون أن يكون الأستاذ حاضراً، ولما أبلغته القرار غضب من هذا التصرف غضباً شديداً؛ لأنه يعلم أن الحق والقانون بجانبه، وأقسم أن لا يدخل محكمة البداية بعد الآن، وصار يكتب اللوائح المتعلقة بدعاوى هذه المحكمة بنفسه، وأنا أقدمها عنه.

ويظهر أن رئيس المحكمة حينما عاود تدقيق القضية لاحظ أن الحق بجانب الأستاذ السبسي، كما لاحظ أن الأستاذ انقطع عن حضور جلسات

المحكمة، فسألني الرئيس عن سبب عدم حضوره الأستاذ إلى المحكمة فاعتذرت له بكثرة أشغاله، فطلب الرئيس مني أن أدافع بالحضور إلى المحكمة في الجلسة القادمة، وأنه مذل المدعي الإمدادي السابق من الدعوى، ووافق رأي الأستاذ السبسي، ثم قال الخادم المشهود الذي نادى تصدر عن قاضٍ صراحه: (إن الرجوع إلى الحق خيرٌ من التماذي في الباطل)، وأصرَّ عليّ بلزوم حضوره إلى الجلسة القادمة.

ولما أخبرت المرحوم بذلك قال لي بأنه أقسم بمسا عدم الدخول إلى المحكمة، فماذا يفعل تجاه اليس؟ فقلت له: إنه من السهل الحشد من اليمين والدخول إلى المحكمة بناءً على رغبة الرئيس، وقد كنت من نصرة فعلاً، وعاد إلى المحكمة، وكانت النتيجة ربحه للدعوى.

استعانة المحامين برأيه، واستشارة القضاة له:

وكان كثير من المحامين يستعينون برأيه، ويساعدهم في كثير من اللوائح، كما أنَّ عديداً من القضاة كانوا يستشيرونه في بعض الأحكام القانونية نظراً لغزارة علمه وخبرته الطويلة في المحاماة، وقد تدرَّب عنده عدد كبير من المحامين منهم من أصبح أستاذاً في الجامعة، ومنهم من أصبح قاضياً قديراً، ومنهم من أصبح محامياً لامعاً، فلقد كان رحمه الله يبذل معلوماته الواسعة إلى متدربيهِ وسائليه، ولا يبخل عليهم بشيءٍ من تلك المعلومات.

٢ - صفاته العلمية وقوة حافظته:

كان - رحمه الله - عالماً فقيهاً كثير المطالعة، لا يترك فرصة تمرُّ عليه إلا وهو يطالع في كتاب علميٍّ أو مرجع حقوقي، أو سفرٍ فقهي، ولقد اقننى مكتبة عظيمة حوت مختلف أنواع العلوم، وكان إذا أراد أن يبحث في موضوع حقوقي أو علمي لا يترك مصدراً إلا ويطلع عليه لزيادة التوثق في الوقوف على الحقيقة العلمية، لذلك كانت معلوماته ومذاكراته مع غيره في النواحي العلمية ورسائله التي ألفها مبنية على حقائق علمية قلما تقبل الجدل، وبعيدة عن الخطأ غالباً، وكان لا ينشر رسالة إلا ويعرضها على

غيره لبيان ملاحظاته عليها حتى تكون بعيدة عن الأخطاء.

مقالاته الكثيرة ورسائله المطبوعة:

لقد ألف الأستاذ المرحوم ما يزيد على مئة مقالة في مختلف المواضيع الثقافية، منها ما كان موضوعه علمياً محضاً، ومنها ما كان رداً على بعض الآراء الفقهية الصادرة عن المراجع العلمية أو غيرها، وسنأتي على بعض ردوده في هذه المقالة بصورة مختصرة.

كان يطبع رسائله ومقالاته ويوزعها مجاناً، وله رسائل صغيرة مطبوعة في بعض المواضيع الإسلامية أو تفسير القرآن الكريم، وله تعليقات قيمة على كثير من القوانين الحديثة والآراء الحقوقية التي تصدر عن كبار فقهاء القانون، وبيان النقص فيها وضرورة تعديلها.

اطلاعه على المذاهب الفقهية:

كان - رحمه الله - مُطلعاً على أكثر المذاهب الإسلامية، ومقارناً بينها، فإذا رأى حكماً قانونياً لم يؤخذ من المذهب الحنفي، فإنه كان يرجعه إلى مصدره من المذاهب الأخرى كالمالكي والشافعي والحنبلي، وغيرهم من أئمة المذاهب.

انطباق قانون التجارة السوري على المذهب المالكي:

وقد حقق رحمه الله في قانون التجارة السوري المستمد من القانون الفرنسي، فرأى أنَّ أحكامه منطبقة في الأكثر على المذهب المالكي، ويعود السبب في ذلك إلى أنَّ القانون المدني الفرنسي بما فيه قانون التجارة وُضع في أيام حكم نابليون بونابرت في فرنسا، وقد استعان هذا الإمبراطور حينما أراد وضع هذا القانون ببعض العلماء المغاربة، وكان هؤلاء العلماء من أتباع المذهب المالكي، لذلك كان قانون التجارة الفرنسي مُشابهاً في كثير من أحكامه للمذهب المالكي.

ومن المؤسف أن نستورد قوانيننا من المصادر الأجنبية، وننسبها إليهم،

ونأنف أن نستمد تلك القوانين من الشريعة الإسلامية التي تعدُّ بحق أكمل الشرائع العالمية في سائر عصور التاريخ.

حافظته القوية:

كان رحمه الله إلى جانب علمه ذا حافظه قوية، قلّ نظيره بين أقرانه في العصر الحاضر، فكان يحفظ سائر القوانين مادة مادة، ولا يحتاج إلى الرجوع إليها إلا في حالات نادرة.

نادرتان عن قوة حافظته:

وهنا أروي نادرتين عن قوة حافظته التي شهد له بها كبار العلماء والحقوقيين.

النادرة الأولى: كان الأستاذ العلامة مصطفى الزرقا، المعروف بعلمه وإطلاعه على الأمور الشرعية والقانونية شريكاً للأستاذ السبسي في المحاماة، ثم عُيِّن أستاذاً في كلية الحقوق في دمشق، ولم ينقطع عن ترؤده إليه واستشاراته في كثير من المسائل القانونية والشرعية، وحينما كنت شريكاً مع المرحوم في المحاماة حضر الأستاذ الزرقا إلى المكتب، ورغب من الأستاذ السبسي أن يفتش له عن نصّ وارد في كتاب الفقه لابن عابدين، باعتبار أنّ أوقات الأستاذ الزرقا لا تساعد على التفتيش عن هذا النص، فما كان من الأستاذ السبسي إلا أن قال له فوراً، وبدون مراجعة: إن هذا النص موجود في شرح المادة - ١٢٩ - من مجلة الأحكام العدلية لسليم باز، وطلب المرحوم من كاتبه حينئذ أن يحضر له الشرح المذكور، وفتح على المادة الآتية الذكر، فرأى الأستاذ الزرقا النص بعينه موجوداً في شرح المادة المذكورة، فتعجب الأستاذ الزرقا من قوة حافظته الأستاذ السبسي، خاصة وأن مثل هذا النص قد لا يمرّ على المحامي أكثر من مرة واحدة في حياته، ومع ذلك فقد تذكر مكان وجوده بهذه السرعة.

النادرة الثانية: وقد جرت معه في محكمة البداية الناضرة في القضايا التجارية، حيث أصدرت المحكمة حكماً في إحدى القضايا، وأرادت لأستاذ إلى المادة التي تعتبر مستند هذا الحكم، وبحث رئيس المحكمة

وأعضاءها في قانون التجارة للوقوف على رقم المادة المطلوبة فلم يجدوه، وأعادوا النظر في القانون مراراً فلم يعثروا على رقم تلك المادة، فما كان من رئيس المحكمة إلا أن قال لأذنه: ناد لنا الأستاذ السبسي، وحينما حضر الأستاذ، سأله الرئيس عن رقم المادة المطلوبة، فأجاب على الفور بالرقم المطلوب، وفتش رئيس المحكمة عن تلك المادة فراها صحيحة، وهي المادة المطلوبة، فقال رئيس المحكمة لأعضائه: إن الأستاذ السبسي هو بحق قاموس الحقوق.

وهناك حوادث كثيرة تدلُّ على قوة حافظته يضيق المقام عن ذكرها.

ردوده العلمية:

لقد كان للمرحوم جولات علمية ردَّ فيها على عدد من علماء القانون أو المواضيع العلمية التي صدرت من مختلف الهيئات والأشخاص ذوي الصفة العلمية، وكان ينشر ردوده في «مجلة القانون» التي تصدرها وزارة العدل السورية أحياناً، أو في مجلة «حضارة الإسلام» التي تصدر في دمشق، فقد ردَّ على بعض آراء المرحوم الأستاذ عبدالرزاق السنهوري، وردَّ على عدد من المستشرقين والمستشرقات، وكان يرى أن معظم المستشرقين رغم غزارة علمهم واطلاعهم على تاريخ الحضارة الإسلامية، فإنهم كانوا يدشون في مؤلفاتهم كثيراً من السموم التي ينفثونها في كتبهم، فيتأثر بها مَنْ لم يطلع على التاريخ الإسلامي ويعتقدها حقائق مُسلماً بها، فكان فريق من هؤلاء المُطَّلعين على آراء المستشرقين يحملون أفكاراً خاطئة عن الحضارة الإسلامية والتشريع الإسلامي، رغم أنهم مسلمون، لذلك كان يتصدى للرد على أولئك المستشرقين.

ملاحظاته على الموسوعة الفقهية:

أصدرت الموسوعة الفقهية - التي كانت تصدر في الكويت - موضوعين في جزئين، هما: الأشربة والأطعمة، وقد درسهما الأستاذ المرحوم دراسة فقهية واسعة، ودوّن بعض الملاحظات على ما جاء في محتوياتهما، وربما كانت ملاحظاته أقوى الملاحظات التي واجهت هذين الموضوعين، ومهما

نار من حذل ورد بين الأستاذ السبسي وهينة الموسوعة، إلا ان لرد الذي أصدره الأستاذ السبسي كان رداً ينثم عن اطلاق واسع في العدو الفقهي، وتحقيق كبير في مختلف المذاهب الإسلامية، وبعد أن نشر الملاحظات الأولى عن موضوع الأشربة، عاد ونشر ملاحظات ثاية عن نفس الموضوع. أما عن موضوع الأطعمة، فقد نشر ملاحظاته عليه مرة واحدة، لأنه يرى - رحمه الله - أن موضوع الأطعمة كان أكثر تدقيقاً وتحققاً من موضوع الأشربة.

ولقد نشرت هذه الردود في مجلة "حضارة الإسلام" في حينها^(١).

ملاحظاته على تفسير العلامة جمال الدين القاسمي:

كان المرحوم العلامة جمال الدين القاسمي ألف كتابه الكبير محسن التأويل^(٢) في تفسير القرآن العظيم، وكان للأستاذ القاسمي رأي غير مستند إلى نقل شرعي، وفيه تأويل لا ينسجم مع صراحة القرآن، لذلك كتب مقالة أبدى فيها ملاحظاته على ذلك التأويل الغريب^(٣).

ملاحظاته على كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب):

سبق أن قلنا: إن المستشرقين الذين يكتبون عن الحضارة الإسلامية يوردون كثيراً من الحقائق الصحيحة، ولكنهم يوردون في خلال مؤلفاتهم بعض الشبهات التي قد تبدو لمن يجهل التاريخ الإسلامي صحيحة، ويظعنون بذلك في صميم الشرع الإسلامي، ومن ذلك ما ورد في كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) للمستشركة (زيغريد هونكه) حيث قارنت مؤلفته بين بلاغة اللغة العربية في الجاهلية وبلاغتها في الإسلام. وأن اللغة العربية اكتسبت بلاغة بعد مجيء محمد ﷺ. وقالت في كتابها: (انظر كيف استطاع نثر محمد الذي أتى مبشراً فسيطر على ذاك الإنسان الشاعر، وتقصد

(١) وقد ناقشها شيخنا الرزقا في ملاحظاته، وستصدر قريباً - بحول الله تعالى - في كتاب

"مقالات ومحاضرات العلامة الشيخ مصطفى الرزقا" بعمايتي

(٢) . قد نشرت مجلة "حضارة الإسلام" هذه الملاحظات في أحد أعدادها السبعة (المنحة)

به الشاعر الشنفرى الجاهلي - ودخل إلى أعماقه)، واستشهدت على ذلك بسورة التكوير، معبرة بذلك أن القرآن كان من نثر محمد عليه الصلاة والسلام وقارنته مع ذلك الشاعر الجاهلي.

ولقد عثب المرحوم في ملاحظاته على مُعزّي الكتاب السيدين فاروق بيضون، وكمال دسوقي اللذين لم يُبدِيا أية ملاحظة على هذه الجملة، لذلك كتب رحمه الله مقالاً جليلاً رداً على هذه العبارة، وبين فيه أن القرآن العظيم هو من كلام الله تعالى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن من يزعم بأن القرآن من نثر محمد عليه السلام إما أن يكون جاهلاً أو حاقداً أو عدواً للإسلام، وقد نُشرت هذه المقالة في مجلة «حضارة الإسلام» في حينها.

٣ - مشاركته في خدمة المجتمع وأعماله الدعوية:

لقد شارك المرحوم في سائر الحوادث الاجتماعية التي جرت في البلاد أيام الاحتلال الفرنسي وبعده، فلقد كان منذ نشأته عضواً في الكتلة الوطنية التي قاومت الاستعمار، وكان عضواً في لجنة الدفاع عن حقوق مياه حلب، وكان عضواً في مؤتمر الأوقاف العام الذي عُقد في حلب عام ١٩٣٢م، للمحافظة على الأوقاف الإسلامية، وكان أبرز أعماله عضويته في نادي (دار الأرقم) الذي أسس في حلب عام ١٩٣٧م، ثم أصبح رئيساً له، وكان للنادي أعمال بارزة يعرفها كل من أطلع على سير أعمال النادي في جميع مراحلها. كان - رحمه الله - يشارك في كل عمل اجتماعي، سواء كان خيرياً أو اجتماعياً عاماً، وكان يؤخذ برأيه في أكثر الأمور الطارئة نظراً لسعة مداركه، ورجاحة عقله، واتزانه في جميع أعماله.

أخلاقه العالية:

وكان لا يجيب على سؤال إلا إذا تحقق من الجواب الصحيح، ويحيط به من جميع جوانبه.

وكان - رحمه الله - ذا أخلاق عالية، وتدين شديد، وكان متواضعاً إلى آخر حدود التواضع.

وكان فكها يملأ المجالس فكاهة وظرفاً، ويحفظ من الشواهد ما لا يحفظه أحد مثله، وكلما كان مجتمعاً مع جماعة يتداولون الحديث يوقف الحديث فجأة، ويقول لهم: لقد تذكرت نكتة تناسب الموضوع، ثم يروي لهم النكتة، وقد تتعدد النكات التي تناسب موضوع الحديث.

نكاته اللطيفة:

ومن نكاته اللطيفة: أنه قعد يوماً في إحدى حدائق حلب يتناول طعام الإفطار، وكان يبرئ الخادم الذي يحضر له الطعام، وبعد أن انتهى من طعامه أراد أن يداعب الخادم، وكان شاباً غير متزوج، فقال له: (الله يبعث لك عروسة من لوني). فلما نظر الخادم إلى وجه المرحوم - وكان أسمر اللون - تبسم، وقال له: (لو آتني مثل هذه العروس لذبحتها).

ومن نكاته اللطيفة أيضاً: أنه كان ينتظر دوره في إحدى المحاكمات، ويظهر أن الحاكم لم ينبه إلى وجوده، فصار ينظر في دعاوى المحامين الذين قدموا بعده، ولا ينظر في دعواه، عندئذ التفت المرحوم إلى رئيس المحكمة، وقال له: (يظهر أن شكلي الجميل أعجبك يا سيادة الرئيس، لذلك أخرتني عندك لكي تخيل علي). فضحك رئيس المحكمة من هذه النكتة، ونظر في دعواه.

رؤه على قانون الطوائف:

وكان من أهم البيانات التي أصدرها المرحوم: بيانه في الرد على قانون الطوائف الذي أصدره المفوض السامي الفرنسي في عام ١٩٣٦م، ونحن نذكر نبذة عن صدور هذا القانون والرد عليه.

قانون الطوائف:

صدر هذا القانون بتاريخ ١٣/٣/١٩٣٦م، برقم ٦٠ (ل.ر) ونشر في العدد (١٦) من الجريدة الرسمية الصادرة بتاريخ ١٤ أيار ١٩٣٦م، ولكنه لم يذع على الناس، ويطلع عليه الجمهور إلا حين قدوم الوفد السوري المفاوض في أيلول ١٩٣٦م، ولم يجلب انتباه الناس في حينه، لأن الشعب كان منهمكاً في الاحتفالات بقدوم الوفد السوري المفاوض، ثم انشغل

بالاستجابات السياسية، وكان السبب إليه في عام ١٩٣٧م، حيث اطلع عليه الشعب، وبيّن له ما يخفيه وراءه من طعن في الشريعة الإسلامية، فقد نص هذا القانون في مادته الحادية عشرة على أن (كل من أدرك سن الرشد، وكان منسجماً بقواه العقلية يمكنه أن يترك أو يعتنق طائفة ذات نظام شخصي معترف بها). ونصّت مادته الثانية عشر على (أن الأولاد القاصرين يتبعون حالة والديهم إذا انفصل الزوجان عن طائفتهم، وإلا فيتبعون حالة والدهم إذا انفصل واحد منهم فقط، ويتبعون حالة الحي منهما إذا كان أحدهما ميتاً، أو يتبعون حالة من يكونون في عهده، ويقوم تجاههم بالسلطة الأبوية عندما يكون الوالدان في حالة هجر أو طلاق).

ويستنتج من هاتين المادتين: أنّ المسلم يمكنه أن يُبدّل دينه إلى دين آخر، ويكون لهذا التبديل أثر قانوني، حيث يُسجّل في السجل المدني. كما يستنتج أن الولد الصغير يمكن أن يسجل على دين أمه إذا كانت غير مسلمة ولو كان أبوه مسلماً وتوفي قبل أمه.

وهاتان الحالتان تخالفان النظام العام في البلاد الإسلامية، حيث لا تجوز ردة المسلم، ويتبع الولد دين أبيه المسلم مهما اختلف دين أمه، وكان أول من تضدّى للرد على هذا النظام مؤسسة دار الأرقم، الذي كان الأستاذ السبسي رئيساً لها في ذلك الحين، فوضع بالاتفاق مع إدارة الدار رداً علمياً على هذا القانون كان له صده الكبير لدى الدولة المنتدبة، وتنبّه الشعب المسلم في كل من سورية ولبنان إلى خطر هذا النظام، ممّا حمل الدولة المنتدبة على إيقاف العمل بهذا القانون بالنسبة للمسلمين في عام ١٩٣٨م، برقم (٥٣)، وبقي سارياً بحق باقي الطوائف، وقد صاغ الرد القوي الأستاذ المرحوم السبسي بأسلوبه الحقوقي المتين، ممّا جعله أقوى الردود على القانون المذكور.

وفي الحقيقة، لقد فقدت حلب - كما فقد العالم الإسلامي - بوفاة الأستاذ السبسي حقوقاً قديراً، وعالماً نحرياً، وعالماً اجتماعياً كبيراً، وقد أحدثت وفاته فراغاً قلّ أن يُوجد من يشغله، فرحمه الله رحمة واسعة، وعوّض الأمة والبلاد عنه خير عوض، وفي ذمة الله والتاريخ تلك الروح الطيبة الطاهرة.

الأستاذ عبدالقادر السبسي رحمه الله^(١)



للأستاذ محمد فؤاد قسطلبي

قال تعالى : ﴿وَعَسَىٰ أَرْحَمُهُمُ الَّذِيك يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُمْ وَإِذَا حَدَّثَهُمْ تَحْمِلُون
قَالُوا سَلَامًا ۖ﴾ (١٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۖ (١٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ
عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ (١٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ (١٦) ﴿إِنَّمَا
فِي سَجَنَةِ : ﴿أُولَئِكَ يَخْرُجُ الْغُرَّةَ سَاءَ مَكَرًا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا نَعْمَةً ۖ سَمِ
(١٧) حَلَلِيكَ فِيهَا حَتَّىٰ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ﴾ (٧٦) ﴿الْمَدِينَةُ ٦٣-١٧٦﴾

(١) حصاره الاسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة الرابعة عند : (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م).

نحن نكرم في ذكرى الأربعين على وفاة عبد من عداد أرحم من حبيب
بنوا شرف هذه العبودية، التي تصون لها لأعداء وتبهر بغير نفوس،
ويبدل في سبيلها كل عاب وعيس.

من بقايا السلف الصالح:

وسأرسم لكم صورة صادقة للأستاذ لرحل مأخوذة من أقواله وأفعاله:
فلقد كان الأستاذ عبد القادر السبسي، ضيق لله ثراه، من بقاء السلف
الصالح. قولاً وعملاً. وكان شديد الخشية من تعالى، وإنما يخشى الله
من عباده العلماء، كما كان شديد الحياء من الله تعالى ومن الناس. والحياء
شعبة من الإيمان.

وكان حسن التوكل على الله، وقوي اليقين بالله حتى أنه كان يردد
دائماً قول الشاعر:

وإذا العنية لاحظت عيونها نعم فالمخضر كلُّهُ آمن
وكان هيناً ليناً، يألف ويؤلف، دمث الأخلاق، حاضر البديهة والنكتة
الأدبية.

وكان يجتهد دائماً في تطبيق أحكام الشرع الحنيف في مجالات حياته،
تطبيق موقن، مطمئن النفس والضمير إلى أنها هي السبيل الأول لنجاة هذه
الأمّة أفراداً ومجموعات في الحياتين، وعارف أن لا إصلاح ولا نهوض
للمسلمين إلا باتباع أحكام دينهم.

في دار الأرقم:

لقد صحبنا الأستاذ الراحل، تغمدّه الله برحمته، في رحلة طويلة في
هذه الحياة، بدأت في عام ١٩٣٦م، في دار الأرقم، وكان رئيسنا فيها
وموجهنا، ولقد كانت هذه الدار في حينها، حصناً حصيناً صمد في مواجهة
الاستعمار الأجنبي، ومخططات غزوه المادي والفكري، وحفظ للوطن
العربي شبابه من الانحلال والفساد والضياع، والتأثر بسموم الاستعمار.

كما كانت هذه الدار درعاً منياً ترتد عنه سهام لأحسي عاصب. وكان لها الأثر الكبير في الجهاد الوطني آنذاك. تُوحيته في عام ١٩٤٥م. حينما هبّت البلاد بأشرها، تُطارِد المحتل العاصب، الذي حصد أحد بنصف أنفاسه الأخيرة في بلادنا، استشرى وأضاع صوابه، فجمعت سرى شوحيه الراحل الكريم وإخوانه، كافة طبقات الشعب وضرائقه في جبهة واحدة. قرعت الاستعمار، وضّمدت أمام شراسة الأيام الأخيرة من حياته. وصارت الشعب وساعده على تخطي تلك الأيام العصيبة. وقدمت المعونة المادية والمعنوية لشعبنا الذي صمد حتى تم النصر بعون الله. وخرج نستعمر من بلادنا مذبذباً مدحوراً.

العملُ الجادُ الحثيث في الدعوة إلى الله:

وامتدت رحلتنا معه - رحمه الله - بعد ذلك إلى آفاق واسعة رحبة من العمل الجاد الحثيث، في سبيل نشر كلمة الله وإعلانيها في لأرض. وفي سبيل النهوض بهذه الأمة الصابرة من الوهدة المخيفة التي هزت فيها، وفي سبيل الأخذ بيدها والنهوض بها ثانية نحو الميعاد الأخير. الذي ارتوى منه قادة الإسلام ومجاهدوه، منذ أن بزغ نوره. بظهور الدعوة المحمدية، فعمّ الأكوان، وشمل البرايا، وأخرج للبشرية خير أمة أخرجت للناس تقودها في مراقي العز، ومعارج الفلاح، في نطق لأمر - معروف. والنهي عن المنكر، الذي جلا غياهب الفسوق والعصيان. ونشأ قلوب الشر وغسلها برحيق الدعوة المحمدية، فإذا الدنوب إسلام. وإذا نسب سلام، وإذا البشر يرتفعون بدعوة محمد ﷺ، إلى ذرى عالية من الرقي والعلاء.

من أساطين القانون والشرعية:

ولقد كان - متعه الله بالنعيم - من أساطين القانون والشرعية. فهو حجة في الأحكام الشرعية، كما هو حجة في الأحكام القانونية وتحريريتها. وكانت آراؤه واجتهاداته، ماراً يهتدى به، كما كان رحل لقصد. يحدون

في علمه وفضله، وسعة اطلاعه وصدقه في مرافعاته ودفوعه، خير ضمان يطمئنهم ويساعدهم على إحقاق الحق وإقامة العدل.

طلابه من القضاة والمحامين:

ولقد تدرّب على يديه، طيلة عمله في المحاماة، كثير من القضاة والمحامين، وقد كانوا كلهم من خيار الناس، وأظهرهم ضميراً ووجداناً، لأنهم لا يكتسبون لديه العلم والمعرفة فقط، بل كان يفيض عليهم من تقاه، وصلاحه، وورعه، ما يجعلهم باتباعهم نهجه، من الرعيل الأول الذي يمكن أن يُوجّه هذه الأمة نحو المجد والسؤدد.

في ميادين الدفاع عن الشريعة:

ولما رأى الراحل الكريم، أنزل الله على جدته شآبيب رحمته، أن العمر قد تطاول به، وأنه آن أن يخلد إلى الراحة من وعثاء العمل، الذي قضى فيه معظم أيام حياته، تقاعد عنه، ولكنه لم يخلد إلى الراحة والكسل كما يفعل أكثر المتقاعدين، وإنما جُنّد نفسه في ميادين الدفاع عن الشريعة الإسلامية الغراء، وحمل راية الجهاد ضد كل مَنْ تُسَوّل له نفسه أن ينال من الشريعة المطهرة أي منال، فلم يدع مُستشرقاً ماكراً يكيد للإسلام، إلا وانتصب للردّ عليه، ولم يترك مبتدعاً أو متفihقاً خبيثاً، يريد أن يدسّ السم في الدسم، إلا وسقه رأيه، وأظهر خُبث نواياه.

كما أنه لم يأل جهداً في شرح وتفسير كثير من الأفكار والأحكام الإسلامية، خدمةً للدين، وقياماً بواجب الدعوة إلى الله، اختاره الله إلى جواره، فلبى مؤلاه راضياً مرضياً.

فَسَلَامٌ عليه في المجاهدين الصّابرين، في زمان شغل فيه الناس بالمال واللذة والمتاع، عن كلِّ ما عداه، وتخلّوا عن الآخرة، وتفرغوا للعنينا.

رحم الله تعالى فقيدنا الغالي الأستاذ عبدالقادر السبسي، وأجزل مثوبته

له، وحشرنا وإياه مع النبيين والصديقين، والشهداء والمجاهدين والصالحين،
وحسن أولئك رفيقاً. ونختتم بالدعاء له ضارعين لله تعالى:

يا من وسعت العالمين رحمة وشملتهم بالحوود والإحسان
اغفر لعبدك يا رحيم ذنوبه وأنله من كرم فسيح حسان

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.





للأستاذ انس بن عبد القادر السبسي

حفل نقابة المحامين التابيني:

لقد مضى أربعون يوماً على وفاة والدي المغفور له عبد القادر السبسي، ورحلت أسائل نفسي: لماذا أقامت نقابة المحامين هذا الحفل التابيني الكبير له؟

أتقديراً لعلمه، وقد كان من العلم في المكان المرموق.

أم تقديراً لدينه، وقد كان من عباد الله المخلصين.

أم تعظيماً لحاج ناله من الدنيا، وقد كان له الجاه الذي يعبطه عليه الكثيرون من أهل الدنيا.

نعم، كان رحمه الله يجمع كل هذه الخصال الحميدة وكثيراً غيرها. انس من حمي أن أمدح والدي، فهذا من الآخرى، لأنني مهما قلت ومحدث فلن أفه حقه.

(١) حصاه الإسلام، العددان الثامن والعاشر، السنة الرابعة عشرة (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م)

ولادته ونشأته وطلبه العلم:

كانت ولادته عام ١٨٨٦م، من أسرة عريقة، ينتهي نسبها إلى سيد المرسلين محمد ﷺ، نشأ في كنف أبوين رحيمين أحسنا تربيته، وكانا يريدانه حافظاً للقرآن الكريم، ورجلاً لامعاً في حياته العامة، فحقّق الله إرادتهما.



جانب من الحفل الذي أقامته نقابة المحامين بحلب

بمناسبة وفاة المحامي الأستاذ عبدالقادر السبسي رحمه الله

ختم الفران الكريم وهو ابن سبع سنين وحفظه غيباً، ثم مال إلى طلب العلم على يد كبار علماء حلب، أمثال الشيخ محمد الزرقا، والشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ محمد نجيب سراج الدين، وغيرهم من كبار العلماء. وهو لم ينتسب إلى كلية الحقوق، وإنما مارس مهنة المحاماة بطريق التمرين، حيث قَدِمَ فحصاً في منتصف العقد الثالث من هذا القرن، ونجح فيه، وأصبح بعدها محامياً لامعاً يُشار إليه بالبنان.

اشتغاله بالمحاماة:

بدأ مهنته عام ١٩٢٦م، حتى أحال نفسه إلى التقاعد عام ١٩٦٠م، وكان يقول: إنَّ مبدئي في مهنة المحاماة تتلخص بالاستقامة وخوف الله في السرِّ والعانية.

لم يكن والدي محامياً فقط، بل كان فقيهاً عالماً، وعاملاً كبيراً في الحقل الاجتماعي في شتى الميادين.

ففي مجال المحاماة كان لا يدع اجتهداً قانونياً صادراً عن السلطة القانونية إلا ويتألفه ويُسجله لديه، حتى أضحي حجة في ذلك.

وكان من ألمع المحامين في القضايا المدنية والشرعية، ذا اطلاع في القضايا الجزائية، غير أنه لم يكن راغباً بالإكثار من الدخول بالدعاوى الجزائية.

وكان في مهنته قديراً وفستظهيراً لسانر القوانين المعمول بها، فكان يكتب القانون بكامله ليسهل عليه حفظه، حافظاً مجلة الأحكام العدلية عن ظهر قلب بكافة موادها، وكان يستطيع بسهولة تلاوتها غيباً من أول مادة فيها حتى آخر مادة، من الألف إلى الياء، وكانت تُسعفه ذاكرته القوية بأن يتلوها من الياء إلى الألف.

وكثيراً ما كانت تأتيه الاستشارات القانونية والفقهية من مختلف أقطار العالم العربي بالإضافة إلى تركيا وألمانيا وسائر أقطار العالم.

روح الدعابة الصافية:

وكانت روح الدعابة الصافية تمتلك محيلته، وأذكر من دعاباته أبي أرسلت إليه من ألمانيا حينما كنت أدرس فيها أستغنيه في حوار أكل لحم الحمير، فأرسل إلي ردأ فيه بحث شرعي وافر، ثم ختم هذا البحث محاطاً بإيادي: يا ولدي! كل مثلما نأكل نحن كي نستطيع أن نفهم بعضنا بعد عودتك.

صلات كبار علماء العصر به:

وكان كبار علماء الأمصار وأفذاذهم المعاصرون يأثرون داره، وينزلون في ضيافته، كأمثال أبي الأعلى المودودي من الباكستان، وأبي الحسن الندوي من الهند، والعالم محمد أبي زهرة من مصر، والدكتور مصطفى السباعي رحمه الله.

منتدى دار الأرقم:

كان من الرواد الأوائل الذين أسس دار الأرقم عام ١٩٣٧م، فكانت الندوات العلمية تُعقد في ذلك المنتدى، فيعج بالطلبة والمثقفين من كل صنف ولون، يستمعون إلى تلك المناظرات، وينهلون من الكتب التي ملأت خزائن المنتدى، وكم خرّجت تلك الندوة من رجال أفذاذ كانوا قادة المكر وقادة العلم في هذا البلد الأمين.

جمعية تعليم الأميين:

كما انصرف رحمه الله إلى تأسيس جمعية تعليم الأميين مع لفيف من إخوانه عملاً بقول الرسول ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ وَعَلَّمَ»^(١).

(١) لم يرد بهذا اللفظ، وإنما ورد بلفظ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ». رواه أحمد (١. ٥٨، ٦٩)، والبخاري (٥٠٣٧)، وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٩٠٧)، وابن ماجة (٢١١)، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

دراسة مشروع قانون الأحوال الشخصية:

وفي عام ١٩٦٩م، قرّر مجلس نقابة المحامين بحلب تأليف لجنة برئاسة والذي لدراسة مشروع قانون الأحوال الشخصية، وكانت تعقد أسبوعياً في منزله.

أعماله الاجتماعية:

أما صفته كعامل اجتماعي فذلك أمر مشهور ومعروف عنه:

- كان عضواً في لجنة الدفاع عن حقوق مياه قناة حلب.

- وفي عام ١٩٣٢م، كان عضواً في مؤتمر الأوقاف العام الذي عُقد في حلب أيام الفرنسيين للمحافظة على الأوقاف الإسلامية، وحينما ذهب الوفد السوري إلى فرنسا للمفاوضة لعقد معاهدة لإعطاء البلاد استقلالها، وعودة الوفد بعد ذلك، أصدر الفرنسيون قانون الطوائف ذي الرقم ٦٠ (ل.ر)، وفي نصوص هذا القانون تجنّب على المسلمين، وخروج عن مبادئ الإسلام.

رسالته في الردّ على قانون الطوائف:

وقد ألّف المرحوم والذي - باعتباره رئيساً لدار الأرقم - رسالة في الردّ على قانون الطوائف، وأحدثت الرسالة هذه ضجة في جميع الأوساط الرسمية والشعبية، ممّا حمل الفرنسيين على إيقاف العمل بقانون الطوائف بالنسبة للمسلمين، وبقي معمولاً به بالنسبة لبقية الطوائف في البلاد.

المحامون الذين تمرّنوا عنده:

تمرّن عنده عدد كثير من المحامين، كان أولهم الأستاذ شوقي الزيات، وآخرهم الأستاذ عبدالعزيز الشماع، ومن بينهم الدكتور معروف الدواليبي، والأستاذ مصطفى الزرقا، وقاضي الشرع الأول الأستاذ عبدالوهاب التونجي،

والأستاذ المحامي سليم عقيل، والأستاذ هزاد فسطاطي، والأستاذ محمد سيرجية، وغيرهم كثيرون.

الداعية المصلح:

وحسبي أن أقول لكم: إذا ما ذكرتم عبدالقادر السبسي، فاذكروا الداعية المصلح، الذي قضى نحيبه في طلب العلم، ومن أحل العلم. وقد سئل الرسول الكريم ﷺ: أي جلسائنا خير يا رسول الله؟ فقال: "من ذكركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقته، وذكركم بالآخرة عمله"^(١).

ردوده على المستشرقين والحاقدين:

وقد كتب في موضوعات شتى، وأولى عناية خاصة الموضوعات التي فيها ردّ على الشكوك والتّهم التي يثيرها المستشرقون والمستغربون والحاقدون على الإسلام، ومنها مقالة: (الدر المكنون ردّاً على قائّة الملعون)، وتفنيد لأباطيل المفرضين الذين تناولوا بعض العلماء الأعلام، كالإمام البخاري رضي الله عنه، بالنقد والغمز والتجريح، ردّاً على مقال نشرته مجلة العربي عدد (٧٠): "لا تفتروا على الإمام البخاري، كل ما في صحيح البخاري صحيح". ومن إنتاجه العلمي: الرد العلمي الصريح على الموسوعة الفقهية، وكثير من المقالات نشرت في مجلة حضارة الإسلام، نشرّاً للثقافة وتعميماً للفائدة.

وقد ألف كتباً عدة، منها كتابه عن "الأحوال الشخصية"، وكتابه عن "الزواج والرق في الإسلام"، و"فقه الإسلام".

كان الجهاد بالقلم واللسان في سبيل إعلاء كلمة الله دينه، إنه لم يترك راية الجهاد إلا ليد الموت التي لا تقهر.

(١) أخرجه أبو يعلى (٢٤٣٧)، وعبد بن حميد (٦٣١)، من حديث ابن عباس. وقال الوصيري في "إنحاف الخيرة" ٦: ١٢٧: إسناده رواه ثقات.

كان يحمل راية الإسلام والوطنية والكرامة بقلبه لا يده. بروحه لا بأنامله.

وفاته رحمه الله تعالى:

وكان طبيعياً لجسد يسرف في إحراق وقوده أن ينطفئ أخيراً. وهكذا وقع القدر، ونزل به الداء العضال، فالانطفاء. وحسبي قول الشاعر
بكى عليك الحسام والقلم وانفجع العلمُ فيك والعمد
مضى الذي كان للأنام أباً فالיום كل الأنام قد يتمر
سوف نسير على الخطّة التي خطها لنا، لننال رضاه وهو في جنة
الرضوان، نواصل الشّير على الدرب الذي مشى فيه.

دعاء ورجاء:

اللهم ارحم والدنا.

اللهم إنه وديعتنا عندك.

اللهم إنه جاهد فيك حقّ الجهاد، وصبر على ابتلائك أكرم الصبر،
رضي بقضائك وقدرك دون اعتراض، وجعل حياته لك، ومات راجياً
ثوابك، وكان شديد الثقة فيك، وقد كانت كلمته الأخيرة في الدنيا: يا الله.

اللهم يا رب أحسن قبوله، وحقّق رجاءه وأمله.

اللهم اغفر له وارحمه، وأكرم نُزله، وأدخله الجنة.

اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده.

اللهم قد رويانا في السند الصحيح عن نبيك المصطفى ﷺ: «إِنَّ الْعَرَّ
مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(١) فاحشره إليك مع صفوة خلقك، واجمعنا به في مُستقرّ

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤١) من حديث عبدالله بن مسعود.

رحمتك مع السبر والصدور والشهد، والصلح والبر، ومشي أولئك رقيقاً.

وصيته لأبنائه:

وقد كانت وصيته لأولاده متمثلة بقول الشاعر:

يناشدنا الله ألا نمرقوا	وتوبوا رجالاً لا نسروا الأعادي
فروحي من هذا السقم مظلة	نشارفكم عني وإن كنت بالبا
ولا تحربوها بالخلاف فإسي	أخاف عليكم في الخلاف الدواهي
أجل أيها الداعي نبي الحبر إسا	على العهد ما دمننا فتم وأنت هانيا
بقاؤك محفوظ وضيمك مائل	وصونك مسموع وإن كنت نانيا

فسأل الذي فجع سموتك، وابتلانا بفقدك، أن يجعل سبيل الحير
سبيلك، ودليل نرسد دنيتك، وأن يوسع لك في قسرك، ويغفر لك يوم
حشرك، وأنت أهل لخسر الشاء وطيب البقاء.

لقد عشت حميداً مودوداً، ومث سعيداً مفقوداً، رحمة الله عليك،
وتحية لك من قلوب مفجوعة لدهالك، ومسح الله على قلوبنا بالصبر
الجميل، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أخيراً، لا يسعي باسم آل الفقيد إلا أن أقدم جزيل شكري وامتناني
لكل من شاركنا بحضور هذا الحفل التأبيني لوالدي المرحوم، كما أخص
نقابة المحامين لمساهمتها في إحياء هذا الحفل، سائلاً المولى عز وجل أن
لا يفجعكم بعزيز، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الأستاذ المحامي عبدالقادر السبسي^(١)
رحمه الله

الحفل التأبيني في مقر نادي المحامين بحلب:

كتب إلينا الأخ الفاضل مندوب المجلة بحلب يقول:

مساء الأربعاء الموافق ١٩٧٣/٨/٢٩، أقيم حفل تأبيني في مقر نادي نقابة المحامين بحلب، بمناسبة ذكرى مرور أربعين يوماً على وفاة الفقيد الغالي العالم العامل والمحامي الفاضل الشيخ عبدالقادر السبسي رحمه الله عليه.

اجتمع شمل المدعوين في باحة النادي التي تظللها الأشجار السامقة، وتحمل طرفها بركة واسعة، وتشرف عليها عمارات أهل الحي (السبيل) من نواحيها، وتتألاً المصابيح الكهربائية في أركانها جميعاً. وفي تمام الساعة السادسة افتتح عريف الحفل الأستاذ عبدالقادر الحيدري، افتتح الكلام بالاستماع إلى أي من الذكر الحكيم.

كلمة المحامي طريف كيالي رئيس نادي المحامين:

وبعد الإنصات بخشوع إلى تلاوة ما تيسر من كتاب الله عز وجل،

(١) حضارة الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

تقدم إلى الكلام المحامي الأستاذ طريف كيالي رئيس نادي نقابة المحامين، فرحب بالمدعوين - وكانوا حشداً ضخماً - ثم انتقل إلى الكلام على مزاي المرحوم السبسي الكثيرة، ووقف عند مزية هامة، ألا وهي: توفيقه البارز بين الدين والعلم، أي: الاستنباط من دين الإسلام الحنيف ما يلبي حاجات عصرنا المندفع بسرعة إلى العلوم والصناعة والتقنية، وكان توفيق المرحوم السبسي بغير زيغ ولا وهن، مما جذد شباب الإسلام العظيم. وبعث الثقة في النفوس، وأثبت بالقول وبالفعل أن الإسلام دين الحق وما سواه باطل.

كلمة الأستاذ إحسان كيالي رئيس فرع نقابة المحامين بحلب:

ولمّا فرغ رئيس النادي من ثنائه، انتدب إلى الكلام الأستاذ إحسان كيالي رئيس فرع نقابة المحامين بحلب، فأعلن أسفه على خروج جنازة المرحوم في غيبتهم لمّا كانوا في مؤتمر حقوقي خارج المحافظة، ثم تناول بالإشارة والإكبار دور الفقيه السبسي في بناء صرح نقابة المحامين، علماً ومسلماً، مما جعلها مفخرة بين أمثالها في المحافظات والبلاد الأخرى. كما أفاض في الحديث عن تبخر المرحوم في المسائل القانونية، وعن حفظه - رحمه الله - لمجلة الأحكام العدلية كلها عن ظهر قلب، وعن موقفه الشجاع لما كان وكيلاً لحقوق الأوقاف الإسلامية برغم قلة راتبها. ولم ينس أن يكبر فيه تواضعه الجرم وروحه المرححة. على أن أهم شيء فيه (نضاله العلمي الإسلامي): مطالعة وكتابة واستمراراً عليه قبل التقاعد وبعده، لا سيما رده المشهور على عبدالرزاق السنهوري: حول النهضة العلمية في ضوء القانون الغربي - في مجلة القانون - معتبراً الفقه الإسلامي كنز الشريعة الفراء.

ثم أخذ بتعداد مؤلفاته الكثيرة، ونوّه بشكل خاص بمؤلفه الضخم «شرح قانون الأحوال الشخصية»، وأعلن عن نية النقابة على طبعه ونشره على نفقة النقابة الخاصة تقديراً لجهوده الواسعة، ومن أهم جهوده العلمية: تخريج جيل عريض من القضاة والمحامين في مكتبه، فقد عمل منذ ١٩١٩ محامياً، وأصبح ١٩٢٥ أستاذاً، وفي ١٩٥٩/١/٣ أحال نفسه على التقاعد حيث لم ينقطع فضله المدرار.

كلمة القاضي فؤاد القسطلبي:

ثم أعطي الكلام للقاضي فؤاد القسطلبي، الذي ألقى كلمة (الغضب)، فافتتح كلمته بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَذْيَانِ هَوًى... وَمُقَامًا﴾، واعتبر المرحوم السبسي من بقية السلف الصالح الفقه في هذا الزمن الذي فسد أهلوه، وأفاض في كلمته عن دور المرحوم في جمعية (دار الأرقم) التي أسهم في تأسيسها ١٩٣٦، وقاد جهادها الوطني في العهد الفرنسي البائد حتى ١٩٤٥، يوحد الصفوف، ويربّي الناشئة، ويقترح الاستعمار، ويدعو إلى الله سرّاً وعلانية باللسان وبالبنان، حتى أصبح من أعلام هذه الأمة يشار إليه ويؤخذ رأيه ويزار في عرينه ويضرب بسيفه^(١).

كلمة المحامي أسامة الصابوني:

وكانت الكلمة التالية للمحامين، وقد ألقاها المحامي الأستاذ أسامة الصابوني، امتازت كلمته بالبلاغة الساحرة وبالتأثير الواضح، لا سيما حديثه عن غرور الجيل الجديد الذي كان يستهين بالجيل القديم وبرجائه، فبذا بالسبسي العبقرى يدهش الجيل الجديد بعلمه وكرمه وشجاعته وتواضعه وذكائه، ويجعل أقصى مطامح الجيل الجديد أن ينظر فقط إلى بعض منزلة الجيل القديم. فمثلاً استطاع السبسي - هذا الرجل الضئيل الحجم في الجسد - أن يؤسس جمعية (دار الأرقم) في حلب مقابل (النادي الكاثوليكي)، ليقود الأجيال الجديدة في معركة الانتقال من عصور الانحطاط إلى العصر الحديث، فيجنبهم الانبهار والضياع، ويعزز فيهم الثقة بأنفسهم وبأمتهم وبشريعتهم الغراء، ويتخذهم أبناءه لأنه رزق الأولاد على كبر، فنهاره يقضيه في تربية شباب (دار الأرقم)، وليله في المطالعة والكتابة.

ويروي المحامي أسامة الصابوني حادثة له مع المرحوم السبسي حين استشاره بمسألة عن (الحقوق الذرية) فقال له: إنها قضية شائكة. دعنا ندرسها في جلسة مطولة في منزله، ولما اجتمع شملهما ثانية، أخذ السبسي

(١) تقدمت كلمة القاضي فؤاد القسطلبي ص ٥٩٥ - ٥٩٩.

يعطي ويعطي من علمه ونفسه ما أذهل المحامي الصابوني، وأدهشه علماً وفهماً.

وفي الختام أحب المحامي الصابوني أن يرث الجميل بما يشه الأجر، فإذا بالسبسي يرفض بكل إباء وكرم، لأنّ عطاءه أسمى من أن يقدر بشكر أو أجر، فأين نحن؟ وأين جيلنا؟ وأين واقعنا الأسود المتكالب على اللهو والغش والخيانة من ذلك الرجل العظيم؟!

رحمك الله يا أبا أنس رحمة واسعة، وألهمنا عنك الصبر والسلوان، وعلمنا كما علمك العطاء ولذة العطاء من النفس قبل الطمع بما في أيدي الناس.

كلمة أسرة الفقيد للمهندس أنس السبسي:

أما مسك الختام فكان كلمة أسرة الفقيد، ألقاها ابن المرحوم السبسي المهندس أنس السبسي، فأشار إلى أن نسب والده ينتهي إلى بيت الرسول عليه السلام، وأنه ولد عام ١٨٨٦ لأبوين صالحين أراداه حافظاً للقرآن ورجلاً بارزاً في الحياة العامة، فكان كما أراداه. فقد ختم القرآن ابن سبع سنوات، وطلب العلم على كبار العلماء، مثل: الشيخ محمد الزرقا، ومحمد سعيد الإدليبي، ومحمد نجيب سراج الدين، كما مارس المحاماة منذ منتصف العقد الثالث من هذا القرن حتى تقاعد.

وكانت مبادئه في الحياة: الاستقامة وخوف الله تعالى. وإذا كان لا يليق بالابن أن يمدح أباه فإن الناس شهودٌ للمرحوم بأنه فقيه عالم عامل في الحقل الاجتماعي، حتى صار حُجَّةً.

وكان - عليه رحمة الله - يستلم القضايا المدنية والشرعية ولا يرغب بالقضايا الجزائية، وإن كان ضليعاً فيها كذلك. وكان حافظاً مجلّة (الأحكام العدلية) من ألفها إلى يائها بلا تلوّك، وكانت تأتيه الاستشارات القانونية والقضائية من مختلف البلدان^(١).

(١) تقدّمت كلمة الأستاذ أنس بن عبدالقادر السبسي ص ٦٠٠ - ٦٠٧.

الداعية المجاهد الأستاذ خالد الرفاعي رَحِمَهُ اللهُ (١)

(١٣٥١ - ١٤٩٣هـ)

(١٩٣٣ - ١٩٧٣م)

للأستاذ عمر عبيد حسنة

قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا
مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ
وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٣)
[الأحزاب: ٢٣].

رحمك الله يا أخي أبا أيمن، يا
أخا الطريق الطويل، يا رفيق السفر
والحضر، والشدة والرخاء، فقد كنت



نزهة النفس، ومتعة القلب، وغذاء الروح.

رحمك الله وأكرم مثواك وأعلى مقامك في الآخرين، وجزاك عنا خير
الجزاء، وجمعنا بك في دار الخلد تحت لواء سيد المرسلين.

(١) حضارة الإسلام، العددان: الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

لقد صدقت الله فيما عاهدت عليه، وكان عهد الله أساس حياتك ومحور سلوكك في جميع المجالات.

أديت الأمانة، ونصحت لهذه الأمة التائهة، عشت آلامها ومشكلاتها، وكنت لها الدواء، وأنت في أشد حالات مرضك، كنت تتحسس مواطن الداء، وتشارك في وصف الدواء وبيان الطريق.

اهتمامه بالعمل الإسلامي رغم اشتداد وطأة المرض عليه:

ولا زلت أذكر حينما رغبت مع بعض الأحبة زيارتك أثناء اشتداد وطأة المرض عليك، ورأينا أن لا نتعرض لذكر المرض وحديثه، وأن يكون حديثنا معك ممّا اعتدنا أن نتكلم فيه من الأمور، لعدم إشعارك بشيء من حالتك المرضية، وإذ بنا نفاجاً بإيمانك الكبير بقدر الله وقضائه، وأنت الحريص - كما كنت دائماً - على عدم إشغالنا بقضايا المرض الخاصة، وأن مشاكل العمل الإسلامي، والدعوة إلى الله وديمومة التفكير بوسائلها هي الشغل الشاغل والأمر العظيم الذي تهون دونه قضايا المرض وسائر الأمور الشخصية الأخرى. ولا زلت أذكر أيضاً كيف كنت تستفيد من فترات الصحو البسيطة التي تمرّ ضمن ساعات آلامك الشديدة لتتابع الحديث والتفكير فيما نذرت نفسك من أجله، الدعوة إلى الله وتخليص الناس من أضرار الجاهلية.

لقد أذكرتني - يا أخي - بحامل راية المسلمين في غزوة مؤتة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ما سقطت الراية التي يرفعها حتى سقطت كلتا يديه.

شكره وصبره:

لقد كنت معلماً وقدوة في حالة الصحة وحالة المرض، تعلّمنا منك الكثير الكثير، عشنا المعاني الإسلامية، بشكل عملي، ورأيناها واقعاً حياً بعد أن كادت تنتهي في حياة كثير من الناس لبعدهم عنها وعدم تمثيلهم لها.

لقد كنت الواقع المقروء لقول الرسول ﷺ: «عَجَباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم^(١).

كنت معلماً صبر المسلم، وما يحتسبه من أجر عند الله في كل الحالات، متمثلاً قول أستاذنا الراحل السباعي رحمه الله^(٢):

وما لهفتي للبرء لهفة طامع حريص على الدنيا من الموت يهلع
رضيت من الرحمن أجر طوية على فعل خير نفعه لا يضيع
فإن يؤتني برءاً نهضت لفعله وإلا فقد رضيت نفسي بما الله صانع

المرض درس كبير:

كان مرضك درساً كبيراً لنا، وتربيةً لنفوسنا، رأينا فيه كيف يمرض المسلم ويصبر المسلم؛ رأينا فيه بكاء الطبيب، وحُرقة الأخ، ولوعة الأم، ووفاء الزوجة، المؤمنة الصابرة، وابتسامة المريض؛ رأينا فيه عجز الإنسان، وضعف الإنسان، رأينا فيه العبد المخلوق، وحاجته الشديدة إلى الله الخالق.

سفره إلى ألمانيا للعلاج:

طلب إليك إخوانك ومُحبُّوك السفر إلى ألمانيا للعلاج ممَّا أَلَمَّ بك من مرض عضال، كان أَلَمُّهم له أشد من أَلَمِّك منه، وما كنت بالذي يرزُّ لهم طلباً طيلة حياتك، في صحتك ومرضك، في ليلك ونهارك، وكانت إرادة الله أن تذهب إلى هناك إلى ألمانيا لتقرَّ عينك، فترى أنَّ المعاني الإسلامية التي دعوت لها وجاهدت من أجل تحقيقها، هي هناك حقيقة واقعة تعيش على الأرض في دنيا الناس، وليست نظرية فلسفية وتأمُّلات يعيشها الإنسان مع عقله بعيداً عن مجتمعه. ذهبت إلى هناك لتقرَّ عينك، ولتكون الصورة الأخيرة

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

(٢) الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله توفي في جمادى الأولى ١٣٨٤هـ، الموافق ٣٠ تشرين الأول ١٩٦٤م.

التي تفارق الدنيا عليها هي صورة تمثل المعاني الإسلامية، والأخوة الإسلامية حيّة متحركة، فالمسلمون مهما تباعدت ديارهم، واختلفت ألوانهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

مبعث سعادته وطمأنينته:

رحمك الله يا أبا أيمن! لقد كنت معلماً داعياً إلى الله، حتى وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة. كان أطباؤك من غير المسلمين، وهم الذين يعالجون آلاف المرضى، يحارون من أمرك ومن مبعث سعادتك واطمئنانك بالرغم من أنك تعلم ما ألم بك من مرض، فذهبوا يسألون عن عقيدتك ونوع إيمانك الذي يُضفي عليه هذه السعادة وهذا الاطمئنان!! عجبوا من هذه الظاهرة التي لم تصادفهم في حياتهم الطبية!!

المسلم الداعية في كلِّ الأوقات:

رحمك الله يا أخي! لقد كنت المسلم الداعية في كلِّ الأوقات. وكنت تعتقد أن عثرات الدعاة إنما تبدأ من داخل نفوسهم، وذلك بعدم وضوح تصوّرهم للفكرة التي يدعون الناس إليها وعدم ثقتهم بها، وخضوعهم في مقاييسهم وتصوراتهم لضغوط الجاهلية وثقافتها من حولهم، وإنه لا بد لنجاح الداعية إلى الله في هذا العصر من التصوّر الكامل للفكرة التي يدعو إليها، وهذا لا يتولّد إلا بالتلاوة المتأمّلة لكتاب الله، والدراسة الهادفة لسيرة رسول الله ﷺ وصحابته الكرام. وأن دليل صدق التصوّر للفكرة والثقة بها أن يكون الداعية إلى الله من ورائها بسلوكه وحياته كلها. فالدعوة للإسلام كما تراها حياة كاملة بكل آفاقها.

الدعوة للإسلام ليست حرفة يأكل بها أصحابها، ويعيشون عليها لا لها، وليست ثوباً له مواصفات خاصّة يُلبس في المناسبات ويُخلع في المناسبات، ويوضع في غرف الاستقبال ليلبس للزائرين بعيداً عن جو الأسرة وعلاقات الأسرة وتربية الأسرة، وليست حصّة زمنية محدّدة تلقى على الطلاب في الدرس، ثم يكون وراءها ما يكون من الحَيَدة عن الحياة

الإسلامية، والمشاركة بكل ما يتعامل به الناس ويعيش له الناس، وليست الدعوة إلى الله في نظرك شعارات، وعناوين يطرحها محترفون أذكباء، أدركوا رواجها وتوفر المناخ المناسب لها، وظنوا أنهم قادرون على استغلالها وتحقيق المكاسب عن طريقها، تلك المكاسب التي لا تختلف عن مكاسب أهل الدنيا في وسائلها وعناوينها، لقد كنت تقابل هذه الأشكال من الدعوة بالابتسامة المشفقة.

أمله الكبير بالمستقبل لهذا الدين:

رحمك الله يا أخي! لقد كان الأمل الكبير بأن المستقبل لهذا الدين، يملأ قلبك، وكان أملك بنصر الله لدعوته وعباده المتقين أكبر من واقع الناس، وكانت معالم عالم الغيب أقوى في نفسك وأشد تأثيراً في سلوكك من عالم الشهادة الذي تراه وتحسه.

آلف مألوف:

كنت مثالياً في حياتك وشؤونك، واقعياً في دعوتك، كنت الترجمة الحية لحديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: «المؤمن يألف، ويؤلف»^(١) ولعل ذلك من أبرز صفاتك التي ما اقتصر على معرفتها إخوانك من الأقربين، بل كل من رآك وزاملك في عمل أو رافقك في سفر أو جالسك على طعام، وكان هذا مفتاحك الذي لا يخطئ إلى قلوب الآخرين، وكم كانت صفاتك وخفة ظلك تُعيدنا وتذكّرنا بمجالس أستاذنا الجلال رحمه الله^(٢).

(١) رواه أحمد (٥: ٣٣٥) عن سهل بن سعد مرفوعاً بلفظ: «المؤمن يألف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»، ورجاله ثقات غير مصعب بن ثابت، فإنه لين الحديث، ولا يضر فإن له شاهداً من حديث أبي هريرة رواه أحمد وابنه عبدالله (٢: ٤٠٠) بسند صحيح على شرط مسلم. وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٨: ٨٧) و(١٠: ٢٧٣) لأحمد والبزار وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) الأستاذ محمد خير الجلال، مدرس التربية الإسلامية بدمشق، توفي عام ١٣٨٥هـ الموافق ١٩٦٥م رحمه الله، وتقدمت ترجمته ص ٣٤٤ - ٣٤٦.

كنت بعيداً عن الحقد والكراهية، تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، مُحْتَسِباً ثوابك عند الله تعالى، كيف لا وأنت المؤمن الذي لا يجتمع في قلبه حقد وإيمان.

زهده في متاع الحياة الدنيا:

عِشْتَ حياتك زاهداً في متاع الدنيا الفاني، كانت حياتك حياة المُودَّعين، ما أثقلت الدنيا كاهلك، ولا أقعدتك عن أداء رسالتك، ولم يكن لها من قلبك أي نصيب، كنت تنعي على الدنيا وأهل الدنيا، ولا آنسى - كما لا ينسى كل من عرفك - لفتاتك اللطيفة وإشاراتك الخفية التي تحذر فيها من الانشداد إلى الدنيا والركون إليها، فالمترفون عاجزون بطبيعة وضعهم وحياتهم عن تحمُّل أعباء الدعوة، والقدرة على التضحية في سبيلها، وكم كنت تكرر: إن هؤلاء كل همَّهم قطاف الثمرة، والبعد كل البعد عن تقديم التضحية والعناية بتربية الشجرة «فليس الغنى عن كثرة الغرض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١) صدق رسول الله.

شجاعته وسرعة عودته إلى الحق:

عِشْتَ كريماً شجاعاً لا تخشى في الله لومة لائم، وقافاً عند حدود الله، سريع العودة إلى الحق، فشجاعتك في العودة إلى الحق ليست بأقل من شجاعتك بالدفاع عنه والثبات عليه، مؤثراً ما عند الله، مُخلصاً لله في عملك، متمتعاً بصفاء نادر ليس من بضاعة هذه الأيام.

التربية بالقدوة:

لقد كانت وسيلتك في الدعوة إلى الله: التربية بالقدوة والأسوة، بعد أن كثُر الكلام وقُلَّ العمل، علَّمت الناس بحياتك الإسلام، لم تضع مؤلفاً في التربية ووسائلها - وأشهد الله أنك أهلٌ لذلك - فالمؤلفات تملأ المكتبة

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١)، والترمذي (٢٣٧٣)، وابن ماجه (٤١٣٧) من حديث أبي هريرة.

الإسلامية، ولكن أوجدت الإنسان المسلم النموذج. وما هذا الجيل من الطلاب والشباب والنساء الذي يعمل في مختلف جوانب الحياة، والذي يشعر كل واحد منهم أنه مَدِينٌ لك بمعرفة الطريق الحق، ساهمت في بناء نفسه ونظافة سلوكه إلا شاهد صدق عند رب العالمين، والرسول ﷺ يقول: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(١).

وبعد: رحمك الله يا أخي خالد، ما كنتُ أظنُّ أنني سأفتقد إحدى ساعدي بهذه السرعة، وما أظن أن ساعدي الضعيفة الأخرى قادرة على وفاء بعض حقك، وعزائي في ذلك أن كلَّ من عرفك يحمل في نفسه وسلوكه الترجمة الأمينة والعملية لحياتك.

فلقد كنتُ في حياتك معلماً حقوق الأخوة حارساً لها، وكانت وفاتك امتحاناً لوجودها. فلئن تركتنا ونحن أشد ما نكون حاجة إليك نعاني من آلام اليتيم التي تتزايد مع الأيام، وعند النكبات والملمات، فعزائنا أنك عشت مجاهداً، وقضيت شهيداً، فألى اللقاء في جنات الخلد دار المتقين إن شاء الله، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الصَّالحون، ثم الأُمثَل فالأُمثَل»^(٢) صدق رسول الله ﷺ.

(١) رواه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦)، وأبو داود في العلم (٣٦٦١) من حديث سهل بن سعد مرفوعاً بلفظ: «فوالله لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبي وقاص قال: قل: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأُمثَل فالأُمثَل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً، اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة» وقال: حسن صحيح. وأخرجه أحمد (٦: ٣٦٩) عن فاطمة بنت اليمان، أخت حذيفة، قالت: أتينا رسول الله ﷺ نعوذه في نسوة، فإذا سقاء مُعلَق يقطر ماؤه عليه من شدة ما يجد من حرِّ الحُمى، قلت: يا رسول الله، لو دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فقال: «أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». وسنده حسن، وعزاه الحافظ في «الإصابة» للنسائي وقال: سنده قوي.

حياة الفقيه في سطور

- ولد رحمه الله في (المزة) من أحياء دمشق عام ١٩٣٣م، ونشأ فيها.
- حصل على الثانوية الشرعية عام ١٩٥٤م، من مدرسة الكلية الشرعية بدمشق، كما حصل على شهادة الدراسة الثانوية الرسمية بنفس العام.
- انتسب إلى جامعة دمشق، كلية الشريعة، عام ١٩٥٤م، وحصل على إجازة في الشريعة عام ١٩٥٨م، كما حصل على إجازة في الحقوق ١٩٥٩م.
- عُيِّن مدرساً للتربية الإسلامية في محافظة درعا ١٩٥٨م، ثم انتقل بعدها إلى ثانوية التل، ثم مدرساً في ثانويات دمشق، وكان آخرها ثانوية فايز منصور.
- توفي رحمه الله صباح الخميس ١٥ رمضان المبارك ١٣٩٣هـ، الموافق ١١ تشرين الأول عام ١٩٧٣م، في ألمانيا.



مالك بن نبي .. الفيلسوف اللائق^(١)

(١٣٢٣ - ١٣٩٢ هـ)
(١٩٠٥ - ١٩٧٣ م)

للأستاذ عمر مسقاوي

منذ بداية هذا الشهر نقلت وكالات
الأنباء وفاة المفكر الفيلسوف الجزائري
مالك بن نبي.

لقد مُني العالم الإسلامي بنهاية
فيلسوفنا كما بدأ به.



فبالرغم من أن مُفكرنا قد رُصدَ فكره لدراسة العالم الإسلامي من
الوجهة الاجتماعية، فقد نشأت هنالك غربة بينه وبين المجري
الفكري الذي طغى على تصورات الأجيال الإسلامية في عالمها
الحديث.

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م).
وللدكتور عبدالله بن حمد الغويسي أستاذ الثقافة الإسلامية في كلية الشريعة بجامعة
الإمام محمد بن سعود، دراسة بعنوان: «مالك بن نبي: حياته وفكره»، صدرت الطبعة
الأولى سنة ١٤١٥ في ٧٣٧ صفحة.

قضية المجتمع الإسلامي المعاصر:

فالأستاذ مالك بن نبي لم يكن مُجرّد عالم أو أديب أو متعمّق في تراث ينقله إلى جيل يليه. كان الأستاذ مالك فوق ذلك كله، إذ جذبتَه القضية إلى حلّبتها.

ذلك أنه ما كان لابن نبي أن يتّجه إلى العمل الفكري ككاتب لولا قضية المجتمع الإسلامي المعاصر.

فهو مهندس تخرج في الثلاثينات. وكان قد تقلّب في معاهد العلم قبل ذلك منذ ولادته في الجزائر عام ١٩٠٥م. وقد سطر في كتابيه الأولين من «يوميات شاهد القرن» مراحل الطفولة ومراتع الدراسة في الجزائر وباريس، فأتاح للقارئ أن يستمع إليه كشاهد يرقب الحياة من خلال فكره، ويعطينا صورة كافية عن عملية التأثير النفسي لمجتمع متخلف يتّصل بالحضارة في صورة طالب يدرس الثقافة الغربية، أو عامل يتبلّغ في أرضها الكفاف، أو سياسي يلعب دوراً في مستقبل البلاد.

من صفحة الأرقام إلى صفحة الفكر:

فقد أتاحت له نشأته في الجزائر أن يشهد يوميات الاستعمار تحمل حصيلة مئة عام قبله أو يزيد. وكان ذلك نقطة اتصال هامة كوّنت في فكر الأستاذ مالك تجربة، نقلت قلمه من صفحة الأرقام كمهندس إلى صفحة الفكر، يتعرّض لمشكلات الحضارة بدلاً من مشكلات الإنتاج الحضاري.

بناء الإنسان:

لقد وجد نفسه أمام ترتيب ضروري لرسالته في المجتمع، فلا بدّ أولاً من بناء الإنسان قبل بناء الآلة، حتى لا نضع العربّة قبل الحصان، فنقع في استحالة الوصول إلى الهدف.

في «يوميات شاهد القرن» يرسم الأستاذ مالك لقارئ فكره: جزائريّ، طبعته أصالة الشعب، فمازجت روحه وعقله، فإذا القلم يشدّه إلى منابعه الأولى، صاحب رسالة في المجتمع.

تلك ملامح تقرأها في كل صفحة من صفحات يومياته، ترسخ المعرفة أقدامه في أرضه كماء يسقي الجذور، فقد تميز الأستاذ مالك بن نبي عن سائر المتصلين بالثقافة الغربية، يحتويها كأداة للتفكير، بينما هذه الثقافة أغرقت في محتواها الآخرين، فأفقدتهم قدرة التحديد الصحيح للمشكلات.

مقارنة بين طه حسين وابن نبي:

وإنه لتوافق يدعونا إلى المقارنة، إذ يغيب عن مسرح الحياة الدكتور طه حسين والأستاذ ابن نبي في آن واحد.

كتاب الدكتور طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر»، أو الكتب الأخرى المتصلة بالأدب أو بالإسلام، كانت حصيلة وصفية شبيهة لا تقدم حقيقة الإنسان المتخلف الذي قيده التخلف عن أية مبادرة فاعلة.

أما الأستاذ ابن نبي فقد دخل باريس جزائرياً مسلماً، يبحث لأُمته عن طريق إلى الحضارة، وهو في مهمته هذه لم يفقد مقياس الأشياء، فاستطاع السيطرة عليها كمراقب يفهم المقدمات والنتائج.

فالأستاذ مالك يضع فكره في إطار مشكلة تتطلب الحل، إذ الفرد المسلم مشكلة في عالمنا المعاصر، إنه متخلف، والقضية الملحة أن نضعه في مجرى التقدم.

وهذا التقدم لا يمكن أن يتحقق من خلال التكديس في الإنتاج الحضاري والفكري، بل من خلال البناء الذي يضع المسلم على مقود التاريخ.

والمشكلة من هذا الجانب تتجاوز الانتماء الفكري. فكما أن التخلف بادٍ في مبادرات المسلم، هو أيضاً واقع الرجل الآخر الذي يبحث عن نهضته خارج تراثه.

فالمجتمع الإسلامي في سائر ما يحتويه من اتجاهات ما يزال في عالم الأشياء.

من هنا يأخذ الأستاذ مالك مبادرة جديدة في ترسيخ القواعد. فالقضية تتطلب تجديدًا ديناميكيًا متحركًا للنهضة.

ومن هناك أتت مؤلفاته جميعها تحت عنوان: «مشكلات الحضارة».

ولسوف نضع القارئ أمام نموذج من أفكاره اقتطفناه من كتابه: «فكرة كمنولث إسلامي».

الفكرة في المجتمع الإسلامي:

إنَّ أمام تنفيذ المشروع - الذي سلف الإشارة إلى خطوطه العامة - بعض المصاعب التي تقوم في مجالين اثنين:

أ - فهي تُعزى إلى التطور التاريخي للعالم الإسلامي، أعني: إلى منشآته.

ب - كما أنها من ناحية أخرى ناتجة عن تطوره النفسي، أعني: عن أفكاره.

ويكفي فيما يتعلّق بالنقطة الأولى أن نذكر بما سلف من أن كثيراً من الأشياء المتفسخة في العالم الإسلامي قد تلاشت بالموت.

وأن الكثير من الأشياء الضرورية لمّا تُولد بعد. والذي يترتب على هذا أن المنشآت في هذا العالم: إما أن تكون قد أصبحت لاغية، وإما أنها لما تتكيف بعد مع أوضاع العالم الإسلامي الراهنة.

فمصر هي البلد الإسلامي الوحيد - فيما أعرف - التي تهتمُّ بإنجاز منشآت جديدة ضرورية لحياتها الداخلية ولا اتصالها بالخارج. أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية فإن الأشياء فيما تبدو أكثر تعقيداً وذات أهمية أكثر جسامة معاً.

عالم الأشياء وعالم الأفكار:

فنحن إذا قمنا فيما سبق بالمقارنة بين تطور اليابان وتطور الشعوب الإسلامية منذ قرن من الزمان، قلنا: إن هذه الشعوب قد دخلت "عالم الأشياء"، وأنها لما تدخل بعد في "عالم الأفكار" كلية. كما ذكرنا أيضاً - مستعيرين للغة "علم نفس الطفل" -: إن هذه المرحلة تمثل الطور "الما قبل اجتماعي" الذي يكتشف فيه الطفل عالم الأشياء، وإن كان لا يزال على جهل "بعالم الأفكار".

ويمكننا أن "نسقط" هذا الاعتبار على المظاهر المختلفة للحياة الإسلامية لنستخلص منها النتيجة المطابقة لها.

فنحن لو "أسقطنا" ذلك الاعتبار مثلاً على التطور الاقتصادي للعالم الإسلامي، منذ قرن من الزمان، نلاحظ أن هذا التطور باكتماله في اتجاه "الأشياء" قد أنتج - ويلزم أن ينتج - "إعوازا" زاد من حاجات هذا العالم، من غير أن يزيد في وسائله. وإذا ما أسقطناه على التطور الفكري، فهمنا السبب في أن هذا التطور، عندما يتحوّل لدى المثقف المسلم إلى شكل من أشكال المادية، يكون قد اتّجه نحو الشكل المحدّد "بالأشياء" لا نحو الشكل المحدّد "بالأفكار".

وكذلك الأمر فيما لو أسقطناه على التطور الاجتماعي بصفة عامة فإننا نفهم أن هذا التطور يتجه صوب ذلك الشكل من أشكال الحضارة الذي أدعوه «بالحضارة الشيئية».

ويمكننا أن نسقط ذلك الاعتبار أيضاً على الاتجاه الجمالي أو السياسي، ونستخلص نتائج بالغة الأهمية. إلا أننا نريد إسقاطه بطريقة أخص، على التصميم المفاهيمي، أعني على حياة الأفكار ذاتها ومدى فعاليتها في العالم الإسلامي.

فالمؤكد أن الالتقاء لم يتم بعد بالنسبة إلينا بين عالم الأفكار وعالم الأشياء، ومن جرّاء هذا ظلت الفكرة معزولة ومحايّدة، وكأنها العزلى من سلاحها بفقدانها فعاليتها.

وإذا ما أراد القارئ تكوين فكرة شخصية في هذا الصدد فليقم بتجربة صغيرة يرضخ فيها محيطه لمعيار موائمه. فقد كررت أنا نفسي تجربتي في كل الصور بالجزائر منذ ربع قرن، وإنني لأستطيع تأليف كتاب كامل في هذا الموضوع، ولكنني أفضل أن يقوم القارئ بتجربته الشخصية بنفسه..

حاولوا في أي مناقشة أن تُوجَّهوا موضوع النقاش بطريقة منهجية حول «الأفكار»، ولتختاروا على سبيل المثال: موضوع المذاهب الاقتصادية أو أي موضوع نفساني. فإنه لا معدى لكم عن الالتقاء في محيطكم بثلاثة أصناف: الذين يلزمون الصمت تأدياً، والذين يتحكمون ملقين فيما بينهم بنظرات ذكية وكأنهم يقولون من ورائها: يا للمخرف...، وصنف ثالث - وهم أكثر القوم خلوص نية -: يتشاءون من السامة، ثم ينصرفون عنكم إلى الاهتمام بأشياء أكثر جدية كمشكلة «الشوال» مثلاً...

وحتى هذا المدى، فإنكم لا تزالون بعيدين عن مشاهدة كل المزعجات التي يمكن أن تُحقّق «بأفكاركم»، إلا أنكم على أية حال قد قمتم في هذه الأثناء بملاحظة هامة، تمثل في إدراككم لمدى ما عليه الفكرة في المجتمع الإسلامي من لا فعالية وكأنها العزلى من سلاحها.

إنّ «عالم الأفكار» هو الذي يدعم «عالم الأشياء»، العالم الذي لا يقف على قدميه بدون العالم الأول، ولا يمكن أن يقف على قدميه بنفسه إذا ما أطاحت به النوائب.

والمؤكد أنّ عصرنا، من جراء العامل الفني الذي يُعجّل من خطو كل الاطرادات، هو العصر الأخصب والأحفل بالتجارب الاجتماعية البناءة.

قيام ألمانيا بنهضتها خلال عشر سنوات:

فقد رأينا كيف قامت ألمانيا - وهي المُستنزفة والمُنهكة جداً سنة ١٩٤٥م - بنهوض معجز خلال عشر سنوات. وقد سلف لي أن فسّرت في دراسة أخرى هذا النهوض: بالإنسان والتراب والوقت، العناصر التي تفسر،

كل عملية اجتماعية. ولكننا إذ ندفع هنا بالتحليل إلى أقصى حدوده، من غير أدنى تغيير في المعادلة:

إنسان + تراب + وقت = حضارة.

يمكننا، بل يتعين علينا أن نقول: إنَّ الإنسان هو الذي يحدّد في النهاية القيمة الاجتماعية لهذه المعادلة، لأن التراب والوقت لا يقومان - إذا اقتصر عليهما فحسب - بأيّ تحويل اجتماعي.

ونحن إذا ما تساءلنا إذن: بأيّ شيء أنهض «الإنسان» الألمانيّ وضعيّة بلاده أثناء هذا العقد المنصرم من الزمان؟ نكون ملزمين بالجواب عن سؤالنا هذا بطريقة واحدة لا غير، وهي أن أفكاره، وأفكاره فحسب، هي التي أتاحت له أن يحقق ذلك النهوض.

وهذا أمر حقيقي - وحقيقي بصورة لا مجال للريب فيها - سيما وأن حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥م، قد خرجت عملياً «عالم الأشياء» في ألمانيا: بمصانعه، وآلاته، ومناجمه، وبنوكه، ومختبراته، فكل هذه «الأشياء» كانت قد دمرت وأتلفت.

وإذن فقد كانت ألمانيا - على وجه الدقة وبطريقة تكاد تكون رياضية - لا تملك سنة ١٩٤٥م، أي مجموعة من «الأشياء»، ولكن مجموعة من «أفكار» فحسب وهي قد كونت من جديد، وابتدأت من هذا «الرأسمال» المفاهيمي كل حياتها الاجتماعية، واحتلت مجدداً مكانتها السياسيّة في العالم.

إنّ تجربتها بالنسبة إلينا لا تقدر بثمن، فهي تتيح لنا أن نستخلص بطريقة علمية، أن قيمة مجتمع معين في فترة ما من تاريخه، لا يعبر عنها بمجموعة «الأشياء» في هذا المجتمع، ولكن بمجموعة «أفكاره».

وإذن فما هي قيمة مجتمعنا الآن؟.. مهما يكن من أمر، فإن شيئاً واحداً هو المؤكد: وهو أنّ «أساسنا» المفاهيمي ضعيف للغاية، و«عالم أشيائنا» لا يركز على أساس متين. مضافاً إلى ذلك أنه حتى الأشياء الموجودة في هذا العالم، كنا قد «اشتريناها» من مجتمعات تملك «أفكاراً».



للأستاذ: محمد منلا غزّيل

رسالة قلبية في وداع مالك بن نبي:

يا أيتها الروح المؤمنة: هذه رسالة قلبية في وداع أخ كريم كبير،
شاءت الأقدار - بإذن ربها - أن تجمعنا وتؤلف بيننا على صراط الحق في
عروة وثقى وحبل متين.

ولقد عرفت أخي وأستاذي مالكا - رحمه الله رحمة واسعة - أول ما
عرفته من خلال كتابه: (مستقبل الإسلام) في أواخر الخمسينات، فوجدت
نفسه أمام ذكاء باهر وألمعية فذة ونفسية مباركة طيبة تفيض بعبير مخلص
نقّاذ، وتابعتُ فصول الكتاب عبر مسيرة واعية صوب النهضة واليقظة
والانبعاث، في محاولة لجعل (وجهة العالم الإسلامي) - وهذا عنوان الكتاب
نفسه في ترجمة القاهرة وطبعته التي تمت بإشراف المؤلف سنة ١٩٥٩م،
على ما أذكر حيث كان أستاذنا الراحل لاجئاً سياسياً منذ ١٩٥٦م - وجهة
مُسَدَّدة الخطى، راسخة الأقدام..

وقد ظلّ هذا الكتاب في نظري أجود ما خلفه مالك بن نبي، وأحسب

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة الرابعة عشرة: (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).

أن دراسته دراسة جادة عميقة كفيلة بأن تظل صورة المؤلف في نفوس الشباب الإسلامي محاطة بإطار الوقار وهالة الإعجاب والتقدير، إلى جانب ما يُجتنى من فائدة وخير عميم!...

وما زلت أذكر حديثاً من إذاعة العدو الصهيوني ذات ليلة، راح كاتبه يحترّف فكرة أساسية تتّصل بالموقف الواعي والصلب من قضيتنا المصرية في فلسطين، ووقوفنا في وجه الاستعمار وقفة بأسلة، وكان التحريف يرمي إلى إرجاف وتشويش في نطاق الصراع الفكري على نحو ما عرّفنا به الراحل.

لِقَائِي بِالْأَسْتَاذِ مَالِكِ بْنِ نَبِيِّ:

وفي ذات يوم من أواخر ١٩٥٩م، علّمنا في الجامعة أن مالكا قد قدم إلى دمشق، فيمّمنا صوب فندق قناة السويس بالمرجة - وأحسب أنه هو المكان الذي زاره فيه المرحوم الدكتور مصطفى السباعي كما يبدو من برقية العزاء التي أرسلها مالك مدير التعليم العالي بوزارة الثقافة الجزائرية يومذاك - وتعرّفنا في ملامح المفكر وقسماته إلى أسارير الصادق ونظرات العبقري - ومعدرة عن مثل هذه التركيزية النابعة من فيض الشعور النابض بالوفاء وبالمودة - وما زلت أذكر كيف ضرب لنا مثلاً حول ما يريده للمسلمين من فعالية وانطلاق من خلال عنوان: (الإسلام والطاقات المعطّلة)، وهو كتاب جديد للأستاذ محمد الغزالي، وكان العنوان في نظر المفكر الراحل ذا دلالة كبيرة على ضرورة اعتناق تلك القوى الكامنة والطاقات المُكبّلة من قيودها وأغلالها، ووعي العالم الإسلامي بواقعه لتجاوزه إلى مستقبل أفضل.

أثره في بنيان الوعي الإسلامي المعاصر:

يا أيتها الروح المؤمنة: ما زلت أذكر لقاءات لنا خِصبة في رحاب دمشق - وقاها الله شرّ العدو - وقد انثالت إلى خاطري ذكرياتها إثر سماعي نبأ الرحيل زرافات ووحداناً، ولعل الأيام تسمح بأن أفصّل القول فيها يوماً - إن شاء الله - متجاوزاً بعض ما فيها من آثار الضعف البشري، والخطأ الإنساني، إلى اللباب والصفوة، وما زال اقتناعي بأن مالك بن نبي يسدّ في

بنيان الوعي الإسلامي المعاصر ثغرة وأي ثغرة! على بعض ما في آرائه أحياناً من شوائب أو رواسب.

تقبله النقد والنصح:

ولقد كتبت إليه يوماً بعد قراءة (آفاقه الجزائرية) ناقداً وناصحاً، فتقبل النقد برحابة صدر - على ما فهمت من رسالته - ولكنني وجدت في كتابه: (المسلم في عالم الاقتصاد)، وهو آخر ما قرأته له قبل كتابه الأخير (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي)، وفي هذا الأخير أيضاً، بعض الآراء والاجتهادات التي نخالفه فيها مخالفة الأخ لأخيه، وليس هذا مقام مناقشة وحوار، ولكل مقام مقال.

بين سيد ومالك بن نبي:

حدثني أخ عزيز التقى بمالك أيام وجوده بالقاهرة - خلال سبع خصاب - بأن من أجود انطباعاته أثناء لقاءاته حرص الأستاذ الراحل على قراءة صفحات من كتاب الأستاذ سيد قطب (في ظلال القرآن) مع التعاطف والتجاوب، بل قل مع الائتلاف الروحي، والأرواح جنود مجنّدة....

وكم كنت أود لو ظلت هذه الأحوال الخيرة هي السائدة في مواقف الرجلين على ما بينهما من تباين في بعض الآراء والتقدير، وأحسب أن جلال الموت ورضوان الله للعالمين العاملين المخلصين، وموعد الله في جنة عرضها السموات والأرض سوف تنزع من الصدور كل غل، إخواناً على سرر متقابلين بإذن الله، وليفهم عني إخوتي القراء ما أرمي إليه - على أساس من ثقتي بإخلاص الرجلين وعلمهما - من رضى البنيان وحشد الأجناد.

وختاماً يا أيتها الروح المؤمنة:

لئن كان من قدر الله سبحانه وتعالى (قدر الله وما شاء فعل) أن تجمعني بتجربة الأستاذ مالك الشخصية ظروف معاناة قاسية، وأحسست معه

برهافة وتوتر صدق ما تعنيه المطاردة، ومحاولة الحصار النفسي والتطويق العصبي - بأموال أمريكا واليهود على حد إدراك الأستاذ مالك يومذاك ١٩٦٠م - ١٩٦١م، فليس لي إلا أن أكرر القول: قدر الله وما شاء فعل - بيد أن الذي أتوخاه في ختام هذه اللمحات هو أن أركز على أن شعار مالك في نهاية كتابه الذي صدر في سلسلة الثقافة الإسلامية في شباط ١٩٦٠م، بالقاهرة حيث قال:

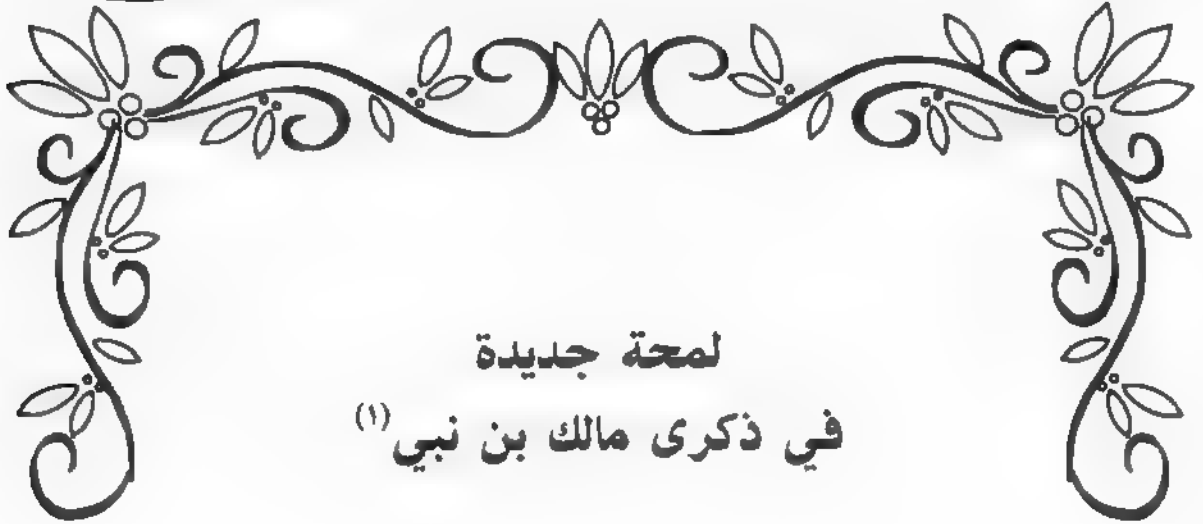
(... ولكن الإسلام هو القوة التي لا تُحَطَّم).

فَلْتُنَبِّتْ في مواقع الدعوة والعمل مؤمنين واثقين صابرين.

وسلاماً سلاماً يا أرواح الشهداء والصالحين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





لمحة جديدة في ذكرى مالك بن نبي^(١)

للأستاذ: محمد منلا غزيل

التفريق بين صفة (المسلم) و(الإسلامي):

١ - مرّت الذكرى الأولى لرحيل المفكر الإسلامي مالك بن نبي - رحمه الله وغفر له - وأنا عاكف على سلسلة كتبه ومجموعة تراثه في (مشكلات الحضارة) أقرأها قراءة جديدة، متجاوزاً سلبياتها وما في بعض الآراء من شطط القول... إلى إيجابياتها وفوائدها الجمّة الغزيرة، ولئن بدا لبعض الباحثين أن يفرّق بين صفة (المسلم) و(الإسلامي) في بيان ما كان عليه مفكرنا الجزائري، فوصف بأنه كاتب مسلم لا كاتب إسلامي، فلا يفوتني أن أؤكد التلازم والتكامل في مدلول هاتين الصفتين ما دام الإيمان بالإسلام والعمل لرفع رايته وإعلاء شأن أهله هو القاعدة والأساس.

ولقد كان مالك مسلماً واعياً مخلصاً، تهزّه حالة أمته المسلمة وشعوبها، فيبذل قصارى الجهد ليكون لها دورها القيادي في حياة الناس: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

(١) حضارة الإسلام، العدد التاسع، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

٢ - ولقد كتبتُ إلى أخ كريم أعرف فيه غيرته على الإسلام وأهله، كما أعرف فيه إعجابه بمجمل فكر مالك أن يُسهم معي - على نحو ما - في أداء واجب مشترك حيال ذكرى مالك، وذلك بأن يطرح عليّ من الأسئلة ما يراه منطلقاً لتبيان بعض الجوانب الخُصبة من تراث ذلك الكاتب الكبير، وأن يخبرني عن تاريخ وفاته، فكان مما وصلني منه هذه السطور:

ولادته ووفاته:

«أما جواب هذا الأخير، فقد عثرت عليه منذ يومين في مجلة الثقافة الجزائرية في مقال عن مالك، فقد جاء فيه: إنه ولد مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي في فاتح جاني في سنة ١٩٠٥، الموافق ٦ ذي القعدة ١٣٢٣هـ، وتوفي يوم الأربعاء في ٤ شوال، الموافق للحادي والثلاثين من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ الساعة الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة بمنزله، ومما يؤسف له أن مجلة الثقافة الليبية التي خضها بآخر ما كتب حول (دعائم الثقافة) قد أغفلت تماماً أي إشارة، إلى وفاته رحمه الله، وغفر له! فقد كان يُحسن الظن بمن يكون حسن الظن فيهم ورطة!

إحياء ذكرى مالك بن نبي ودوره في النهضة الإسلامية المعاصرة:

٣ - ولئن كان الغرض من نشر هذه العجالة، إنما هو لون من الوفاء بإحياء ذكرى أستاذ لنا وأخ كريم، يصنّفه الراصدون المختصّون في تتبع النهضة الإسلامية مع سيد قطب ومصطفى السباعي ومحمد يوسف موسى، ومع محمد البهي ومحمد الغزالي كما قرأت في كتاب عن المجتمع المصري المعاصر. وما أجدر مالك بأن نخصّه بإشارة - هي في هذا الموضع جهد المقل - ويُرجى أن تكون دراستي المجملة حول (مالك على طريق الحضارة الإسلامية)، التي تصدر عن دار القلم قريباً إن شاء الله لوناً آخر من ألوان الوفاء والتقدير لمن أخذ بنصائح مُحبّيه من إثارة الصفة الإسلامية على تلك الصفات الأفريقية - الآسيوية مثلاً، كما يبدو من الفصل الذي أعاد نشره في

(المسلم في عالم الاقتصاد) بعد التعديل المناسب... فضلاً عن ذلك (التنبية) الذي كتبه على غلاف كل حلقة من سلسلة: (مشكلات الحضارة) في طبعة دار الفكر البيروتية، وكأنه يعتذر فيه عن هفوات وذلك في قوله: «إن الأفكار العامة التي تتعلق بواقع مجتمع ما قد تستغل ملاسبات هذا المجتمع في مرحلة معينة من تطوره لا لحاجة نظرية غالباً، وإنما لضروريات عملية تفرضها الطريق!..»

وقد يذكر صاحبها، في تلك المرحلة، أسماء شخصيات أو أماكن معينة، ولكن الطريق لا يقف عند هذا الشخص أو في هذا المكان... إنه لطريق طويل... طريق الحضارة الإسلامية...».

٤ - وأخص من تلك الرسالة الجوابية على رغبتني في طرح أسئلة مركزة حول فكر مالك هذا السؤال... وأسأل الله تعالى أن يهنيئ لنا أسباب تلك الدراسة الموعودة، وأن يفتح لنا سبل المعرفة والبيان:

أما السؤال الثاني فهو: كيف أننا لا نرى (حسب مواردنا) تاريخ الأشياء ونراها كأنها وجدت كما هي، ولا نرى نموها أو حسب التعبير القرآني: (بدء خلقها) الوارد في قوله التالي: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...﴾.

ويتصل بهذا الموضوع: انصرافنا عن أعمال بنائية، زهداً فيها لعجزنا عن فهم أثرها وتعلقنا بقضايا نسَميها (كبرى)... ويسمّيها الأستاذ مالك (البولتيكا) كما ورد في كتاب «وجهة العالم الإسلامي»؟!...

ويختتم الأخ الكريم رسالته قائلاً في مودة وحسن ظن: وإذا كنت تعيش مع كتبه مجدداً الآن فإن ما يتفتق عنه ذهنك أثناء ذلك سيكون له وهج بإذن الله، ونحن ننتظر هذه الدراسة وأمثالها إن شاء الله تعالى اهـ.

٥ - وأود في ختام هذه اللوحة الجديدة: أن يلتبس الأخ القارئ معاذير لما قد يراه من نزعة شخصية ذاتية في الكتابة، ذلك أننا من الجيل الذي تأثر بعبارات مالك واصطلاحاته، وبأثر من دروس تجربته الشخصية التي رأى في ضوئها جوانب بارزة من حقائق الصراع الفكري، ومعالج من أساليبه وفكره الخفي.

إطفاء ضوء النهار على الشعوب المستيقظة:

٦ - عندما أطلع الأستاذ الراحل في أبان سنة ١٩٦٣ على ما صدرت به مختارات من مجموعة (الصباح القريب) في ديوان اللؤلؤ المكنون من كتابه «شروط النهضة»، وهو قوله:

«يُزَيِّن الوهم للمستعمرين احتيالهم؛ إذ يحاولون إطفاء نور النهار على الشعوب المستيقظة، ويدقّون ساعات الليل عند غرة الفجر، وفي منتصف النهار، لترجع تلك الشعوب إلى العبودية والنوم.. ولكن مهما سمعنا تلك الدقّات الخادعة تلح في إيهامنا بأنه الليل فلن نعود إلى النوم.. لقد أصبحنا والحمد لله، ولا رجعة إلى الظلام، مهما حاول الاستعمار.. إنه النهار.. النهار..».

قال - عليه رحمة الله -: أما والله إنّ مثل هذا الاختيار ليفقد الاستعمار رُشدَه وصوابه!

الصّراع العالمي بسبب الخلاف بين المذاهب والنّظم:

٧ - استوقفني في كتاب عنوان (أفكار معاصرة) هذا الرأي الذي يزكّي تصوّر مالك، فرأيت أن أشير إليه:

(ألسنا نجد أنّ الصراع العالمي الضّاري الذي نُعاصره الآن يحتدم أكثر ما يحتدم بسبب الخلاف بين المذاهب والنظريات والنّظم، أي: بسبب الخلاف بين الحلول المقترحة لمشاكل الحضارة الحديثة والعلاقات الإنسانية المتغيرة).

وكم يسرّني أن أتلقّى ممّن يودّ الإسهام في الحوار حول أفكار الأستاذ مالك ما قد يزيد جوانب المسألة وضوحاً، كما يعبر عن فعالية محمودّة لبناء شبكة من العلاقات الاجتماعية كانت تستأثر باهتمام مفكرنا حتى خصّها بكتاب كامل هو (ميلاد مجتمع).. وحبذا لو دفعت هذه اللمحة إخوتنا القراء إلى قراءة كتاب واحد - على الأقل - من كتب مالك، في جوّ من المودة والاحترام، واليقظة الممحصّة، الناقدة. والسلام.



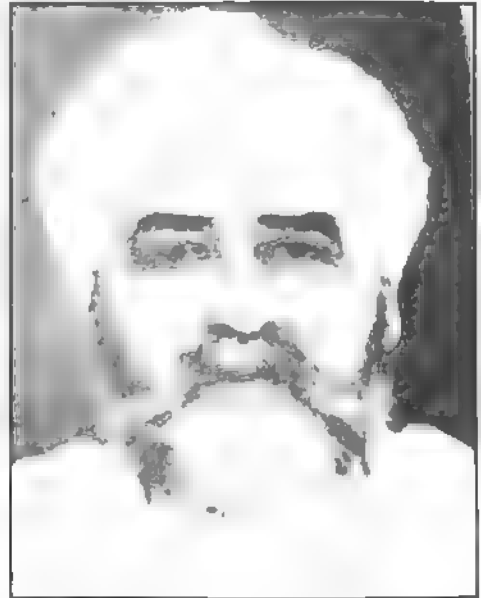
السيد محمد المكي الكتّاني في ذمّة الله^(١)

(١٣١٢ - ١٣٩٣هـ)

(١٨٩٤ - ١٩٧٣م)

للأستاذ: عمر بهاء الدين الأميري

«ذكر الله وَوَقَرَهُ، وعمل لإعلاء كلمته،
فَرَفَعَ اللّهُ قَدْرَهُ، وأشاع ذكره، وكساه ثوباً
من الوقار...».



حفل تأبين كبير في الرباط:

دَعَتْ رابطة علماء المغرب إلى إقامة حفل تأبين كبير على مسرح محمد الخامس في الرباط في ٢٢/محرم/١٣٩٤هـ، بمناسبة مرور أربعين يوماً على انتقال الأستاذ المجاهد السيد محمد المكي الكتّاني رحمه الله. وقد كان الحفل حاشداً حضره عدد كبير من العلماء والسفراء العرب، وعلى رأسهم سفير المملكة العربية السعودية، وسورية، ومصر، وحضره محافظ الرباط، وأساتذة جامعيون، ونخبة من كرام المثقفين والمهتمين بالقضايا الإسلامية. وتداول الكلام فيه صفوة من العلماء ورجال الفكر والأدب، وعلى رأسهم محمد الطنجي الأمين العام المساعد لرابطة العلماء، وكان في طليعة المتكلمين الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، وهذه كلمته:

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م). وتنظر ترجمته في «الدليل المشير» لأنبي بكر الحشني بتحقيقي، و«تاريخ علماء دمشق» (٢: ٩٠٩ - ٩١٣).

شباب محمد ﷺ:

«عائذٌ قبلَ شهور من باريس، لم يجاوز العشرين، أقام منطلقاً للدعوة الإسلامية مع صفوة من الغيارى على الإسلام، مضوا - على قدر فهمهم وعزمهم - يعملون لإعلاء كلمة الله، عُرفوا «بشباب محمد ﷺ»».

مؤتمر علماء بلاد الشام:

كان ذلك عام ١٣٥٧ للهجرة - ١٩٣٧ ميلادية، وفي هذه الحقبة بالذات عقد علماء بلاد الشام مؤتمراً عاماً ضخماً لنصرة فلسطين، ولتخطيط وجهة السير في العمل الإسلامي خلال السنوات القادمة، دُعيت لتمثيل دار الأرقم فيه، وكان من أعضائه الأعلام الذين سبقوا إلى جوار الله: رئيسه الشيخ محمد طاهر الأناسي، والأساتذة الأجلاء: القضاة، والمبارك، والطباع، والدقر، والميداني، والغلاييني، والأسطواني، والشطي، والكتاني وسواهم، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

ألفة الأرواح المتعارفة:

في هذا المؤتمر كان لقائي الأول بفقيدنا الغالي الأستاذ السيد محمد المكي الكتّاني رحمه الله وأكرم مثواه. وقد كان من أركان المؤتمر المرموقين... وسرعان ما توطدت بيننا - على فارق السن - ألفة الأرواح المتعارفة، وبدأت لنا حياة طويلة، حافلة بأحداث أمتنا الجسام، لا أذكر أننا كنا في دقيقة من دقائقها على غير انسجام.

كان لا يَفُتّر عن الإسهام في كل عمل إسلامي عام، دون أن يقطعه ذلك عن صفاء صوفيته^(١).

(١) قال العلامة المحقق الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في ترجمة العالم المعثر الجليل الشيخ محمد بن يوسف الكافي المتوفى بدمشق سنة ١٣٨٠ في كتابه «العلماء العزّاب» ص ٢٦٨ بعد ذكر حادثة طريفة كانت بين الشيخ الكافي والسيد مكي الكتّاني: «كان شيخنا السيد الشريف الجليل الشيخ مكي الكتّاني رحمه الله تعالى في دمشق: =

زياراتي وصحبتني له:

زرتة وذاكرته كثيراً على انفراد، كما كانت لي مشاركة في عديد من مجالسه، متسامراً أو متشاوراً مع خاصته، ومستقبلاً لقاصديه وزائريه الأماثل، وكان يدعوني إلى مجالسه باستمرار ما وجدت في دمشق، ويزورني كلما زار حلب... وصحبته في سفر وتزاملنا في مؤتمرات إسلامية، وقدم القاهرة لائذاً بدينه، وأنا فيها، فكثرت تلاقينا، وكانت لنا هناك زيارات مشتركة لبعض كبار رجال العروبة والإسلام، وخلال رحلاته الأخيرة إلى المغرب، جلسنا عدة جلسات، بعضها على انفراد، وبعضها مع أصدقاء، ومنها ساعات طويلة تاريخية كنا فيها بدعوة العالم المسلم الغيور الشيخ مختار السوسي لوحدنا رحمهما الله.

آخر لقاء:

... وأما آخر لقاء بيننا فكان خلال رحلته القصيرة الأخيرة إلى الرباط، حيث حضرت عدداً من أحفال تكريمه، كما كان بيننا لقاء خاص سعدت فيه بتجواه، وبادلته بثه وشكواه.

أثرُ نعيه:

... وفجأة وأنا أنصتُ إلى الإذاعة، قبل أربعين يوماً، سمعت نعيه الأليم، فشعرت - والله يشهد - أن قريباً حبيباً قد ابتُزَّ مني، وأنَّ شطراً من ذاتي، وصفحات حياتي قد طواه الردى، وهو شعور ينتابني كلما فُجعت بأخٍ غالٍ حميم، فدعوتُ الله الحيَّ ربَّ العالمين، أن يرفع مقامه لديه، ويجمعنا في فردوسه الأعلى، تحت لواء سيد المرسلين.

= مجمع المصانل، ومُلتنقى الأفكار والأماثل، ومؤنل العلماء في السوانب، ومقصد الفصلاء في ذرء المصانب، ربحانة الشام وعلمائها، ومرجع الناس في بلاياها وضرانها، ولما غاب بذرة لم يَبزُغ بعده هلال!!

أيها الأخوة الأعزة:

لو رحت أتحدّث عن وقائع الأيام، التي سرّدت عليكم منها بعض رؤوس أقلام، لطال بي القول، ولأخذت وقت السادة الأخوة الأجلة الذين سيتداولون الكلام، ويتناولون جوانب البحث إشادةً بالفقيد الكبير، ووفاء لحقه، فاسمحوا لي أن أمعن في الإيجاز، وأستغني - بفطانتكم ومشاعركم - بالإشارة عن العبارة، وحسبي بالنسبة للراحل المكرم خفقات القلب التي يعلمها الرب.

تكريم العلم والعمل والجهاد:

أشكر أولاً رابطة العلماء المؤقّرة، على تنظيم هذا الحفل الوفي، الذي هو في حقيقته تكريم للمعلم والعمل والجهاد، في شخص مَنْ كان له من كل ذلك الحظ الوافر، فقيدنا وأستاذنا الجليل رحمه الله.

وإني لأشكرها ثانية، لأنها أكرمتني ودعتني للإسهام فيه، فبرّت عاطفتي الصّادقة نحوه، وأتاحت لي أن أشهد للتاريخ شهادة الحق، ولو بمزيد من الاختصار عمّا عرفته من مزاياه وسجاياه، خلال عشرة سبعة وثلاثين عاماً:

مزاياه وسجاياه:

قليل الكلام، رُخْب الابتسام، لا يكاد يعبس إلا إذا رأى منكراً، خاشع العبادة، كريم الوفادة، بطيء الخطا إلى المُغتربين المستكبرين، مُسارعٌ إلى صلة الأرحام وبرّ المساكين.

هو مع سلامة فطرته، وإشراق طيبوبته عميق التفكير، يسأل ويستشير، ويرجع عن عزمه - وهو الثّبت في مواقفه - إذا استبان له حجة صائبة، ولو ممّن هو دونه في العمر والقدر، يُكرم ولا يتكلّف، يصبر ولا يتأفّف، وهو دائماً على يقين، أنّ الخير فيما يختاره الله.

يذكر الله في قلبه ولسانه، ويستحضره، ويستغفره في جنانه، ويخرج بذلك من سلطان نفسه إلى سلطانه، وبهذا ألبسه الله جل جلاله ثوباً من الوقار، وأشاع بين الناس ذكره، ورفع قدره، تغمدته سبحانه برحمته الواسعة، وجعله في جواره العظيم الرحيم أنبه ذكراً، وأرفع قدراً».

حفل أمانته وتحقيق رسالته:

أما أنتم يا أسرته الكريمة، ويا أبناء الأعراء البررة، فلکم الأجر والصبر، وإننا في فقدہ سواء، ولعلکم علی یقین، إنه ليس أرضى لروحه وهو في جوار ربه، من أن تكونوا امتداد جهاده، وأن تسيروا سيرته، وتحملوا شعلته، جعلكم الله وإيانا وسائر المؤمنين، من جند الحق المنصور به، وأثبت منكم ومنا للإسلام الخالد، من يحمل أمانته، ويحقق رسالته.

تأبين الهضيبي ومالك بن نبي:

أيها الحفل الكريم: قبل خمسة أيام بالضبط، أقامت جمعية الثقافة الإسلامية في تطوان، حملاً حاشداً، تأبيناً لفقيدي الإسلام الكبيرين: المجاهد الكبير الأستاذ حسن الهضيبي، والأستاذ مالك بن نبي، وكان مما قلت في ختام كلمتي فيه:

«يا شباب الدعوة الإسلامية الغراء...»

لقد انتزعت يد المنون، في الشهور الأخيرة، من أسرة الجهاد الإسلامي المجيد، عدداً من كرام وكبار العاملين والعلماء المخلصين، من يستحق كل منهم أن يقام له حفل تأبين:

وفاة عدد من كبار العلماء العاملين المخلصين:

... المجاهد الأستاذ الهضيبي، المحامي عبدالقادر السبسي، أبو الخير زين العابدين، المجاهد سيفه ولسانه مع كل أسرته، المهاجر من لواء إسكندرون يوم إلحاقه في ظل نظام أتاتورك العلماني، عبدالله التل... القائد والمجاهد والباحث الكبير، مالك بن نبي... مدرسة الفكر الإسلامي

المشرق، معروف الحضري، المختار بن محمود، المكي الكتاني رئيس رابطة العلماء في سورية..

وأزيد أنه قد بلغني البارحة انتقال الأستاذ محمد الأمين الشنقيطي العلامة الفقيه الجليل، وقد سبقهم في الأعوام السالفة عدد كبير من العلماء والدعاة العاملين، بينهم صفوة من الشهداء الأجلاء الحنفاء، ابتلاهم الله واجتباهم.

قوافل العلماء العاملين:

إنهم أمة، وأية أمة؟! أمة الجهاد الصامد الصاعد، علماً وعملاً، لتكون كلمة الله هي العليا... وقد تركوا فراغاً كبيراً وحيزاً هاماً شاغراً، يحتاج منا كافة، ومنكم يا شباب الإسلام بخاصة، إلى مضاعفة الجهد، والإمعان في العمل، وصرف الوقت بالكد والجهد، لتتلاحق في درب الله جل وعلا، قوافل العلماء العاملين، والعارفين الساعين، وليستمر الجهاد أبداً وسرمداً، جهاداً صاعداً، حتى تكون كلمة الله جل جلاله هي العليا، ونعود خير أمة أخرجت للناس.

مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ رَبَّ مُحَمَّدٍ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

أُمَّةُ الْإِسْلَامِ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ مُسْتَخْلَفِينَ
غَيْرِنَا، وَاضْلَلْنَا، حَتَّى نَبْقَى نَائِمِينَ
هَجْرَةً مِنْ وَهْدَةِ الضَّعْفِ وَمِنْ كُلِّ مَشِيئَةٍ
هَجْرَةً نَغْدُو بِهَا حَقًّا وَصِدْقًا مُؤْمِنِينَ
هَجْرَةً مِنْ «أَيْدِيُولُوجِيَّاتِ» قَوْمِ خَائِبِينَ
قَادَهُمْ عِلْمُهُمُ الظَّاهِرُ لِلْجَهْلِ الدَّفِينِ
فَهُمْ يَحْيَوْنَ، لَكِنْ، فِي شَقَاءٍ سَادِرِينَ
مَا الَّذِي يَنْفَعُهُمْ غَزْوُ الْفَضَاءِ بِسُفِينِ

وَهُمْ فِي أَرْضِهِمْ صَرَعَىٰ بَغْزُوا «الهيرويين»
 وَبَهَتْكَ الْخَمْرُ وَالْعَهْرُ، وَفَتْكَ الْمَجْرَمِينَ
 سَلَبُوا الْإِنْسَانَ فَخَوَاهُ وَسَادُوا غَاشِمِينَ
 سَيَطَرُوا، لَكِنِّهَا سَيَطْرَةُ الْبَغْيِ لَحِينِ
 أُمَّةِ الْإِسْلَامِ؛ حَبَلَ اللَّهُ مَمْدُودَ مَتِينِ
 وَالنَّجَاةِ الْحَقِّ فِي الدَّارَيْنِ لِلْمُسْتَمْسِكِينَ
 جَاهِدِي وَالتَّمْسِي فِي السَّعْيِ نَهَجَ الْفَائِزِينَ
 جَنَّةِ الرِّضْوَانِ فِي ظِلِّ سَيُوفِ الْفَاتِحِينَ
 فَاحْشِدِي الطَّاقَاتِ، وَاشْعِي بِقَنَآةٍ لَا تَلِينِ
 وَثَقِي بِاللَّهِ وَعَدُّ اللَّهِ حَثْمٌ لَا يَمِينِ
 نَصْرُهُ آتٍ وَلَوْ طَالَتْ طَرِيقُ الْكَادِحِينَ
 يَا إِلَهَ الْكَوْنِ، رَبَّانِ الدُّنْيَا الْيَوْمَ أَفِينِ
 لَا يُرَاعِي الرُّوحَ، وَالْإِنْسَانَ دُونَ الرُّوحِ طِينِ
 هَالِكٌ يَمْكُرُ كِي يَجْعَلُنَا فِي الْهَالِكِينَ
 يَا إِلَهَ الْكَوْنِ، قَلَّدَ أَمْرَهُ لِلْمُسْلِمِينَ
 زَكَّاهُمْ، أَنْقَذَهُ، أَشْعَدَ خَلْقَهُ بِالْمُفْلِحِينَ
 بِكَ نَدْعُوكَ وَنَرْجُوكَ رَجَاءَ الصَّاغِرِينَ
 أَنْجِزِ الْوَعْدَ بِدَارًا، إِنَّهُ حَقُّ الْيَقِينِ
 بِرَسُولِ اللَّهِ، بِالْقُرْآنِ، بِالنُّورِ الْمَعِينِ
 كُنْ لَنَا نَبِيعُ عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ
 وَأَقِمْنَا وَأَدِمْنَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ



الأستاذ إبراهيم أبا زيد رحمه الله

شاب... ولكن؟! (١)

(١٣٦٣ - ١٣٩٤ هـ)

(١٩٤٤ - ١٩٧٤ م)

للأستاذ محمود مفلح (٢)

قال تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ صدق الله العظيم [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

لست كاتباً فذاً فيعرفك الكثير يا إبراهيم، ولست شاعراً طار ذكره فملاً الدنيا، وشغل الناس، لست هذا ولا ذاك.. ولكنك غير هذا وذاك؟!!

شاب لم يتجاوز الثلاثين:

أنت شاب لم تُثقل السنون، فلم تتجاوز الثلاثين ربيعاً، وأنت على

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م).

(٢) الشاعر والأديب الفلسطيني ولد عام ١٩٤٣ ببلدة (سمخ) على ضفاف طبرية، هاجر مع أسرته إلى سورية، واستقر في درعا، وتخرج في كلية اللغة العربية من جامعة دمشق سنة ١٩٦٧، وله عدد من المقالات والقصائد والقصص، وهو عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

وجه التحديد من مواليد ١٩٤٤، عرفت الله فأمنت به إيماناً كان مضرب المثل في الوعي والثبات، وأبصرت درب الهدى فسلكته منهج حياة، وقنطرة نجاة، راضياً به مطمئناً إلى فجره القريب - بإذن الله - ولكنك دفعت لقاء ذلك كله الثمن، ولم يكن الثمن الذي دفعت يسيراً!.. بقيت سائراً على الدرب الذي اخترت لا يخيفتك برق في سماء، ولا يغرنك سراب في صحراء، ما التوى بك الطريق، ولا زاغ بك البصر، وما التفت مرة إلى الوراء، وما سمعتك تلفظت بكلمة «لو»!!.. لست سوى شاب متواضع من مدينة متواضعة تقع في الجنوب السوري تسمى «درعا»، تسمى هواءها، وشربت من مائها، ودرجت في مرابعها، شأنك شأن غيرك من الفتيان وحين اشتد بك العود، وشببت عن الطوق، كان لك شأن آخر! وهم آخر! وشوق آخر!!

دراسة الأدب العربي وتخرجه في جامعة دمشق:

نعم كان لك نهجك الذي اخترت، ونعم النهج والله، ونعم الاختيار، درست الأدب العربي وتخرجت في جامعة دمشق لتمتلك المفتاح الذي ييسر لك بواسطته فهم المعجزة الخالدة - القرآن - والاطلاع على كنوز التراث وغير ذلك مما تتوق إليه نفسك من ينابيع المعرفة والخير.

لا أدري من أي جانب من جوانب حياتك أبدأ - وكلها - عليم الله - غنية وطيبة، هل أسرد هذه الواقعة؟!

وفاؤه بالوعد:

حين استأجرت بيتاً في أحد أحياء دمشق، ودفعت أجرة عامين كاملين - دون ضغط أو إكراه - وتعهدت لصاحبه أن تُخلي البيت متى احتاجه، ولم تكذ تستنفد نصف المبلغ الذي أسلفت حتى ألّمت بصاحبه الحاجة إليه! وعلمت بذلك ولم تنتظر حتى يأتبك، بل أنت الذي جئت، وقلت: «إن بيتك جاهز يا أخي في أي وقت تشاء»، وفعلاً أخليت البيت! فعلت هذا وأنت في أمس الحاجة إليه، لأنك كنت عازماً على الزواج بعد أيام! وقاطن دمشق يدرك مشقة العثور على بيت جديد، دفعت المبلغ جملة وأخذته

تقسيطاً، كل ذلك وأنت راض وقلبك كبير، وكنت في ذلك مثلاً قل نظيره، ونموذجاً متفرداً في حُسن المعاملة وصدق القول، لأنك وعدت ووفيت، وما أقل الذين يُوفون إذا وعدوا في هذه الأيام!! وهذا ما دفع أحد الجيران إلى أن يقول تلك العبارة التي ما زالت تطن في أذني: «يا جماعة والله لكأن هذا الشاب يعيش في عهد الصحابة!».

سفره في طلب العلم الشرعي:

كنت تسافر مسافة مئة كيلو متر كل أسبوع لحضور درس في العلم الشرعي، على حين يسافر الشباب في مثل سنك للتمرغ في أوحال الشهوة ومستنقع الرذيلة وحماة الإثم!! أنت قرأت - يا للشوق - قول الرسول الكريم: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١) وأدركته وعضضت عليه بالنواجذ، وغيرك قرأ ما قرأ، فضل وأضل، وما عناه قول الرسول ﷺ في صدر ولا ورد...

ما رأيك في غدوة أو رَوْحة إلا بيمينك كتاب اشتريته أو (استعرت)، وكنت أقرأ عنوان الكتاب فأعجب!! ما أشد شوقك إلى معرفة دينك! وما أغزر مطالعاتك في الفكر الإسلامي، وعَجَباً يا إبراهيم كيف لم ترتو؟ وهل يرتوي الظمآن من الماء النмир في صحراء ملتهبة؟؟ بل: «قل نار جهنم أشد حراً».

صمته البليغ:

لا أدري لماذا كنت تكثر من الصمت ولا تحبُّ الجدال، وتنفر من الخوض في أمور حياتية كثيرة يهجم عليها الناس، إلا إذا كان الكلام دفاعاً عن عقيدة أو رداً على اتهام، لكن المتأمل في هذا الصمت يكشف سره، يعرف أنك وَعَيْتَ قول الرسول ﷺ: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»؟!^(٢) فأثرت الصمت، واللَّهُ يعلم أنه صمت

(١) أخرجه البخاري (٧١)، مسلم (١٠٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ بن جبل. وقال الترمذي: حسن صحيح.

بليغ! صمت أفصح من كلام الفصحاء، وضجيج الأدعياء.
ولن أنسى عبارة قالها أحد أترابك: والله كنا نتحرّج من اللغو في
حضرة إبراهيم.
سبحان الله كأنه شيخ وقور ينتقدنا ويؤجّهنّا.

الثبات على الحق والجرأة فيه:

كلّ هذا ليس بشيء إزاء صفتين اثنتين برزت فيهما أو برزتا فيك بروزاً
لا يخفى إلا على أحد اثنين: مكابر أو حاقد.
الأولى - الثبات على الحق والجرأة فيه: ويطول الحديث عن هذه
الصفة فيك، لقد ثبتّ على الحق، وثبتّ جريئاً.
كنت جريئاً في كل المواقف لا تتزحزح في كل الأحوال، في الصّحو
والمطر، وفي الإقامة والسفر، وفي النعماء والبلواء، دافعت عن عقيدتك
بحُجَّتِكَ القارعة ودعوتك إلى الله بالكلمة الطيبة المباركة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا
مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾...، ولوّيت
بهذه الحُجَّة أعناق كثير من المعاندين والمكابرين، وخير دفاع عن الحق هذا
السلوك القدوة الذي كان يتمثل كل شأن من شؤون حياتك، وهذا ما كان
واضحاً في نظر البعيد قبل القريب «والفضل ما شهدت به الأعداء»... لقد
تحمّلت الكثير من أجل هذا السلوك القدوة ولم يستطع غيرك أن يتحمّل من
هذا الكثير... القليل!!.

كنت أعلم أنك قضيت - بمشيئة الله - معوزاً إلى المادّة، ولكنك كنت
غنياً في إيمانك وسجاياك غنى تغبط عليه يا إبراهيم! ما سألت أحداً إلا الله
- ويا لنعم المسؤول، وما طلبت حاجة إلا منه سبحانه وتعالى. ولسان
حالك يقول: «ومن طلب البحر استقلّ السواقيا»... كنت هادئاً كالبحر
لكنك عميق مثله، أما إذا غضبت لله - ولا تجاوز فيما أقول - فقد كنت
جاداً كالسيف أو أشدّ مضاء.

تواضعه الجَمّ:

الثانية - هي التواضع، التواضع الجَمّ القائم على الوعي بحقيقة قول

رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»^(١).

كنت يا إبراهيم متواضعاً في كل شيء، وفي حديثك ومسلكتك ونمط حياتك، لا ادعاء، ولا امتلاء، ولا غرور، حققت خير ما يطمع إنسان عاقل في تحقيقه: العبودية لله. علّمت الكثير من الأدعياء التواضع، وفجرت في كثير من القلوب القاسية ينابيع الحق والهدى، وعلّمتهم معنى الخضوع لله والامثال لأمره: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس»^(٢).

بكاك الكثير والكثير ممن ألفتك وعرفك يا إبراهيم، وفقدوا حين رحيلك - وما قدر الله فعل - أخاً لا كالأخوان، ونموذجاً فريداً من الشباب المؤمن القادر على القبض على الجمر في هذا الزمان الظالم! إنك عززت على الناس جميعاً فأوقدت وفاتك في قلوبهم ضرماً وأججت ناراً!

الروضة التي زرعتها، وتعبت عليها وسقيتها بالعرق والندى تبكيك يا إبراهيم، وتعاهدك على النمو والنمو والنمو حتى تؤتي أكلها بإذن ربها...

لست كاتباً فذاً فيعرفك الناس، ولكنك شاب تسلحت بخير ما تسلح به إنسان من عقيدة واضحة وضوح الشمس، وفكر ثاقب كنت تقذف به على الباطل، فإذا به زاهق، ومنطق لا اعوجاج فيه ولا اضطراب، هذب الإسلام وأغناه، وحسبنا أنك في قلوبنا خالد ما لاح نجم في سماء، وما حنت على غصن ورقاء سيرة وذكرى ومنهجاً.

فسلام عليك يوم ولدت، ويوم مت، ويوم تبعث حياً.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» ٣١٥: ١ (٩٣٠) عن أبي رافع رضي الله عنه. وقال الهيثمي في «المجمع» ٣٣٤: ٥: رواه الطبراني عن يزيد عن أبي زياد مولى ابن عباس، ذكره المزي في الرواة عن أبي رافع، وذكره ابن حبان في الثقات. وأخرجه الحاكم في «المستدرک» ٦٩٠: ٣ (٦٥٣٧).



أبرز رجال الفقه الإسلامي المعاصرين^(١)

للدكتور وهبة الزحيلي

أ - لمحات عن شخصيته:

- إنه علمٌ من أعلام الإسلام المعاصرين في علوم الشريعة، ولا سيما الفقه والأصول والتفسير والتوحيد أو علم الكلام والفلسفة الإسلامية.
- تخرّج على يديه آلاف من الطلاب الجامعيين، وعشرات من حَمَلَةِ الدكتوراه في الشريعة والقانون.
- فقيه النفس، يُحرّر ويُقرّر، ويضوّب ويخطّي، ويؤيّد ويؤصّل، ثاقب النظر، حادّ الذهن، صائب الفكرة، بليغ القول.
- أديبٌ كاتبٌ، وخطيبٌ لامعٌ، ومحاضرٌ من الطراز الرفيع.
- ذو حافظّة قويّة، وذاكرة واسعة، وأفق علمي متعدّد الجوانب يستطيع الإملاء والارتجال ساعات.

(١) مجلة الفكر الإسلامي اللبنانية، العدد الثالث من السنة الخامسة: (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

- حاضر البديهة، سريع النكتة، قوي الشخصية، جذاب النفس، ظريف الحديث.

- واسع الاطلاع على معظم مصادر الثروة الإسلامية العلمية، جيد المقارنة بين الفقه الإسلامي والقوانين الوضعية والثقافة الحديثة.

- اشترك في عدّة مؤتمرات وندوات عالمية، فكان من عليّة القوم، وسادة الحضور.

- معتدل النظرة إلى المذاهب الإسلامية، لأنه دقيق النظر عميق الفكر، يعرف مواهب الرجال، ويُقدّر كفاءة العظماء من العلماء، ويمنحهم ما يستحقونه من إكبار وإجلال.

- يستطيع الاجتهاد وإبداء الرأي الثاقب في مُستحدثات الأمور والقضايا المعاصرة والمشكلات الاقتصادية، بدون خروج عن المعقول أو تطاول على الأصول، أو شذوذ عن الجماعة.

- جَمَعَ بين القديم والحديث في تقدير وَجْهِ المصالح، فكان معتدل الفتوى، يكره الرأي الغريب، ويُحاربُ الخروج عن النصوص أو قواعد الشريعة وأحكام فقهها الأصيل.

- شديد الغيرة والحماسة على حُرُمات الدين وأخلاق الإسلام وقيم الرجال ومصلحة الوطن، مما جعله جريئاً في الحق، شديد اللهجة، عنيف اللوم على الخصوم الذين يخالفون منطق الإسلام.

- تربو مؤلفاته وأبحاثه عن الثلاثين، وتنتشر مقالاته وكتبه في أنحاء العالم الإسلامي.

- استطاع ترجمة الثروة الفقهية القديمة إلى اللغة السائدة الجديدة بتنظيم بديع وأسلوب ممتع واستقصاء شامل.

ب - خصائص كتبه وأهميتها:

إنّ كتب ومؤلفات الأستاذ أبي زهرة عن «الملكية ونظرية العقد»،

و«أصول الفقه»، و«الأحوال الشخصية»، و«الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي»، و«محاضرات في النصرانية»، و«العلاقات الدولية في الإسلام»، أو «نظرية الحرب»، و«المجتمع الإنساني في ظل الإسلام»، و«الوحدة الإسلامية» تُعتبر في قَمَّة الإنتاج العلمي الرصين، لما فيها من تجديد، ومناقشات، وآراء حرة وفوائد جلّى، وصور ممتعة عن الحياة الإسلامية ومتطلباتها، وطرق معالجة الفقهاء المسلمين لمشاكلها، مع بيان نواحي السُّبق التي سبق فيها المفكرون المسلمون غيرهم من زعماء الفقه القانوني الحديث.

مجموعته التاريخية عن أئمة المذاهب:

وكذلك مجموعته التاريخية النفيسة عن أئمة المذاهب الإسلامية: (أبو حنيفة، الشافعي، مالك، ابن حنبل، ابن حزم، الإمام زيد، الإمام الصادق، ابن تيمية، ابن قيم الجوزية)^(١) تُعتبر حلقة ذهبية ودرّة ثمينة لكل مسلم، أجادَ فيها الكلام عن حياة كلِّ إمام وعصره وآرائه وفقهه، وضمّنها كلها تحليلاً مُقْتَضِياً عن الفرق الإسلامية التي كان المجتهد يعيش بينها، وأبان أصول كل إمام في استنباطه أحكام الشرع، وأبدى وحدة الانسجام والترابط والاتساق الفكري والعملية فيما بينها، وأظهر بكل إنصاف وأمانة وبُعْد عن التعصّب المذهبي جوانب عظمة كل إمام وإحرازه قُصْب السُّبق في بعض الميادين الفكرية. وأكمل كل كتاب عن الإمام بدراسة جيدة عن كل مذهب، ونموه وانتشاره، وطبقاته، وأسباب خلوده.

فكان كل كتاب عن إمام المذهب صورة حيّة لشخصيته، ودراسة رائعة لآثاره، وبياناً جلياً عن معالم فكره ومذهبه. هذا بالإضافة إلى أن الأستاذ أبا زهرة كان مثال المدافع عن كل نقد قد يُوجّه إلى أحد هؤلاء الأئمة، وكان أيضاً دقيق الملاحظ لما يدور في ذهن المجتهد، أو تقرير الأصل الذي يصدر عنه في طائفة من الأحكام المذهبية الجزئية، من ذلك قوله: «كان

(١) لا يُعرف للشيخ رحمه الله أنه أفرد كتاباً عن ابن القيم.

أبو حنيفة رجلاً يُقدّر الحرية في غيره كما يُريدها لنفسه، ولذلك كان في فقهه حريصاً كل الحرص على أن يحترم إرادة الإنسان في تصرفاته ما دام عاقلاً، فرأيناه يجعل للبالغه العاقلة تمام الولاية في أمر رواجها، ولم يجعل لوليها عليها من سلطان، وانفرد من بين الأئمة الأربعة بذلك، ووحداء يجمع الخنجر على السفينة وذو الغفلة، وعلى المدين، ثم وجدناه يجمع كل قيد على ما يملك الإنسان إلا القيود الدينية النفسية، ثم وجدناه في سبيل هذه الإرادة يمنع الوقف. وهكذا تراه يشجع إلى ترك إرادة الإنسان حرة ليس للقضاء شأن معها إلا عند الاعتداء على غيره.

دفاعه عن شريعة الإسلام:

وفي غير كتب الأئمة للأستاذ أبي زهرة دفاعٌ مجيدٌ عن أحكام الإسلام وشرعته الخالدة وفلسفته وأصوله عن الحياة والكون والسياسة والاقتصاد والعلاقات المدنية والدولية وعلاقة المسلمين بغيرهم من المعاهدين أثناء السلم والحرب، وعلاقة الحاكم بالمحكومين، مع التركيز على إيضاح مبادئ الأخلاق الدولية في الإسلام ولا سيما الفضيلة والكرامة الإنسانية والعدالة والمساواة التامة بين أبناء البشر.

تجديده في عرض الأحكام:

ويلحظ القارئ لكتب الأستاذ أبي زهرة: فهماً أصيلاً ودقيقاً وجديداً للنصوص الشرعية وأحكام الفقه، مُفترناً بأسلوب كتابي شائق في التعبير عن المعاني التي يُريد تأصيلها وتطبيقها على الحاجيات والمفاهيم الحديثة دون مصادمة لأصول الإسلام ومقاصد الشريعة.

فمن تجديده في المنطق والأسلوب قوله مثلاً في كتاب "المجتمع الإنساني في ظل الإسلام": "إن سمة الإسلام العدالة، وهي ميزان الاجتماع في الإسلام، وهي التي يقوم بها بناء الجماعة، وكل تنسيق اجتماعي لا يقوم على العدالة منهار مهما تكن قوة التنظيم فيه. والعدالة ذات شعبتين ابتداءً: الشعبة الأولى: العدالة النفسية بأن يُقدّر كل إنسان لنفسه من الحقوق

بمقدار ما يقدره لغيره على ألا يزيد على الناس في حق، وقد يفرض على نفسه الزيادة في الواجب. والشعبة الثانية من العدالة: هي التي تنظمها الدولة، وهي أقسام ثلاثة: عدالة قانونية، وعدالة اجتماعية، وعدالة دولية» ثم يفيض في شرح كل قسم منها.

ويقول عن تصوير فريضة الجهاد: «إن حرب الإسلام دفاع، وإن الدفاع قد يلبس لبوس الهجوم».

خصائص أخرى في كتب «أبو زهرة»:

وهناك خصائص أخرى كثيرة لكتابات الأستاذ أبي زهرة منها:

١ - أنه طويل النفس في معالجته القضايا، يُشَقِّق المسألة على وجوه متعددة، ويقلب فيها وجوه النظر المختلفة داعماً الرأي بدليله من القرآن والسنة النبوية أو الأصول الإسلامية، وقارناً الفكرة الإسلامية بأعدلها عند علماء الفلسفة والاجتماع والمنطق.

٢ - قد تتردّد المعاني في فقرة من الفقرات في قوالب متعددة من الألفاظ لكنها ظريفة مألوفة لتقرب البعيد، ولكي تصلح للخاصة ومتوسطي الثقافة.

٣ - أنه في كتاباته متأثر بطريقة الشاطبي وابن تيمية وابن القيم والعز ابن عبدالسلام ومدرسة محمد عبده، حيث تربط القضايا الجزئية بأصول الشريعة العامة ومبادئها الكلية ومراميها الحقيقية وروحها السائدة.

دعوته إلى الوحدة الجامعة:

- له آراء حكيمة وجكم جليلة في أوضاع المسلمين الحالية، فهو يقول مثلاً في بحث صغير عن «الوحدة الإسلامية»: «إن الوحدة التي نبتغيها لا تمرُّ سلطان ذي سلطان يقوم بالحق والعدل في المسلمين، ولا شكل

الحكم في الأقاليم الإسلامية، فلكل إقليم أسلوب حكمه ما دام يؤدي إلى إقامة الحق والعدل فيه، ويحقق المعاني الإسلامية السامية، وإنما معنى الجامعة الإسلامية: أن نعتبر أنفسنا مهما تناءت الديار مرتبطة بروابط وثيقة تمتد جذورها في أعماق أنفسنا، وهي أحكام الإسلام وشعائره، وعبادته وعقائده، إذ هو دين الوحدة الجامعة الشاملة، كما هو دين التوحيد الخالص من كل شرك أياً كان نوعه... وأياً كان مظهره»، ويردف ذلك بقوله: «يتحقق معنى الوحدة في ثلاثة أمور جامعة:

أولها - أن تتحد مشاعرنا جميعاً في الإحساس بأننا إخوة بحكم الإسلام، وأن الأخوة الإسلامية فوق الجنسية والعنصرية.

ثانيها - وحدة ثقافية ولغوية واجتماعية تجمع بين المشاعر والأحاسيس.

ثالثها - ألا يكون من إقليم إسلامي حرب على إقليم آخر أياً ما كانت أساليب هذه الحرب، سواء أكانت بالاقتصاد أو كانت بالسيف».

تنديده بالهدامين:

ولا يتوانى الأستاذ الكبير في التنديد بموقف الهدامين لدين الله، فهو يقول مثلاً في كتابه «المذاهب الإسلامية» عن البهائية: «وهي الآن ترفع رأسها، ولا بد من قطعها، أو عودته إلى شيكاغو موطن دعايته».

أطال الله في عمر أستاذنا العلامة الجليل محمد أبو زهرة^(١) بعد أن أكمل العقد السابع من حياته المليئة تفانياً بالقيام بالواجب والدفاع عن الإسلام وأهله، فهو صوت الحق الهادر، وعالم الإسلام الفذ.



(١) كتب الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي هذه المقالة في حياة شيخه العلامة محمد أبو زهرة. وقد توفي الشيخ ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

ومضات من حياة (أبو زهرة)

- ١ - تخرج في مدرسة القضاء الشرعي .
- ٢ - قضى حياته مُدرّساً في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، ثم صار وكيلاً للكلية .
- ٣ - درّس الفقه في كُليتي الشريعة وأصول الدين بالأزهر .
- ٤ - اشتهر بمواقفه العنيفة في وجه ما يعتقده ضاراً بالمسلمين .
- ٥ - كان له موقفه الصّامد في أمور وطنية كثيرة كال دستور وتحديد النسل .
- ٦ - آخر كتبه صدوراً: القرآن الكريم، المعجزة الكبرى .





الأستاذ العلامة الشيخ

محمد أبو زهرة

رَحِمَهُ اللَّهُ (١)

(١٣١٦ - ١٣٩٤ هـ)



بقلم: الدكتور عدنان زرزور

نعى العلامة الشيخ أبو زهرة بين التصديق والشك:

نَعَتْ أنباء القاهرة في الشهر الماضي فضيلة الأستاذ الشيخ أبي زهرة عن ثمانية وسبعين عاماً قضاها أستاذاً الراحل - عليه رحمة الله ورضوانه - في التأليف والتدريس والجهاد والمصابرة، والعمل الدائب لخير الإسلام والمسلمين.

وقد حملني نبأ وفاته إلى أيام سعدت فيها بقاء الشيخ والإفادة منه والتردد عليه، وإلى آرائه التي سمعتها منه، ومواقفه التي شهدته فيها - علم الله - أسداً يذود عن حياض الإسلام ودعائه، ويتردد فيها صوته قوياً مُجَلِّجاً يوم خانت كثيراً من الناس الحناجر، وهَلَعَتْ منهم القلوب، وماتت الضمائر!..

(١) مجلة حضارة الإسلام، العدد الثالث من السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م).

التطواف في صفحات التاريخ:

لشد ما آلمني أن يصل نبأ وفاته إلى سمعي على مراحل! بين مُصدّق للخبر ومُتأكد منه، وبين شك فيه مُتردّد في مصدر سماعه، ولا يتأكد الخبر حتى يكون ذهني قد طوّف بصفحات التاريخ، تاريخنا نحن الذي اعتاد فيه مؤرّخونا أن يؤرّخوا لكل سنة بعينها، ويوردوا أهم ما حدث في تلك السنة. ألم يعتادوا أن يذكروا طرفاً من التاريخ السياسي وأنباء الملوك والمعارك، ثم يضمّوا إليها أنباء الكوارث والزلازل وأهم أحداث الطبيعة، وأخيراً يختتمون حديثهم عن «العلماء» الذين لقوا وُجّة ربّهم في تلك السنة، مع ذكر طرف من سيرتهم وأخبارهم.

وعى المؤرّخين:

صَحُوتُ على خير وفاة أستاذنا رحمه الله، والعالم من حولنا اليوم قد صغرت وسائل الإعلام حتى صار كالبلد الواحد، لأذكر مؤرّخيننا القدامى رحمهم الله، بوعيتهم الشامل، وحسّهم في قراءة صورة المجتمع والعوامل الأساسية التي تؤثر في مجراه، ولأذكر أنّ عالمنا الصغير لم تتسع صحفه وإذاعاته - في بلاد العروبة والإسلام - لما تتسع له في العادة من أنباء وفاة الساسة والفنانين وسائر «الممثلين» من أبناء الشرق والغرب، البعيد والقريب.

الأموات لا يكسبون من هذا الإعلان ولا يخسرون، ولكننا نحن الذين نخسر احترامنا لأنفسنا حين لا نأبه ولا نبكي للذين تركوا لنا من ورائهم ما يحيون به هذه النفوس! وفقيدنا الجليل الكبير أبو زهرة رحمه الله واحد من هؤلاء.

خواطر وذكريات عن (أبو زهرة):

ليست هذه كلمة في أبي زهرة «العالم» المؤلف، ولا في «منهجه» في التأليف والكتابة والتدريس، ولا في أبي زهرة رجل مصر في بعض الأيام، فلذلك موضع آخر غير هذا الموضع، وقد حدّثني مرة أن من جملة ما شغله في ذلك اليوم الذي رأيته فيه بعد مغيب شمسهِ: الكتابة إلى طالب أو باحث

مسلم - وإن كان غير عربي فيما أذكر - كان يعدُّ رسالة «دكتوراه» في إحدى الجامعات عن الشيخ أبي زهرة نفسه، أو بحسب تعبيره هو رحمه الله: «موضوعها أنا»، وكان قد كتب إليه يستوضحه ويسأله عن بعض النقاط فيما يتَّصل بحياته ومنهجه ورأيه في بعض المشكلات... ويومها انتظر جوابي عن هذه «الظاهرة» في إعداد الرسائل الجامعية والكتابة عن مناهج المؤلفين، فاكتميتُ بالإشارة إلى أن هذا يتيح للباحث فرصة «التأكد» من صحَّة الفهم، وجواز نسبة بعض الفهوم والتفسيرات إلى الرجل موضوع البحث. تحدّثت عن الجانب الإيجابي في هذه القضية، وأخفيتُ في نفسي ملاحظات سلبية أخرى، ولكن الذي بقي ماثلاً في ذهني طيلة تلك الأمسية: الموت! وكنت أتفرَّس في عيني الشيخ وكأنهما عينا عقاب هرم أو أسد أسير، تشعان بالذكاء والحيويَّة والعزم حتى حين بدأ النعاس يدبُّ في أجفانه على أشعة النور المبهر! ثم أقول في نفسي: مدَّ الله في عمر هذا الرجل حتى يرى آمالاً أخرى له قد تحقَّقت، وحتى يزيد المكتبة الإسلامية من عطائه الثمين.

محاولة قراءة شخصية (أبو زهرة):

ليست هذه الكلمة - إذن - في علم أبي زهرة ومعارفه، لأنَّ هذا يكتب فيه وسيكتب فيه - على نحو علمي - الشيء الكثير، ولكنها أقرب ما تكون إلى الخواطر والذكريات، وإلى محاولة «قراءة» شخصيَّة هذا العالم الفذ، والوقوف على مفتاح هذه الشخصية التي يفسِّر لنا ما وراء المواقف والآراء، وإن كان هذا لا يعطينا من الإشارة إلى كتبه ومكانته العلمية، وبعض ما كان يعتزُّ به من مؤلفاته وآرائه، كما سمعت ذلك منه رحمه الله.

لمحات من حياته:

ولد الأستاذ أبو زهرة سنة ١٣١٦، وحصل على «عالمية القضاء الشرعي مع درجة أستاذ» سنة ١٣٤٣، كما حصل على معادلة «دار العلوم»، واشتغل بالتدريس في هذه الدار وفي كلية أصول الدين بالأزهر، ثم في كلية

الحقوق بجامعة القاهرة - التي كانت تُدعى بجامعة فؤاد الأول - ولم ينقطع خلال ذلك عن المحاضرات والندوات العامة، وكان بعد إحالته على المعاش يحاضر في بعض المعاهد الخاصّة، وبخاصّة معهد الدراسات الإسلامية الذي أسّسه مع الدكتور العربي رحمه الله وبعض رجالات مصر، وكان يحاضر فيه بدون أجر، هذا إلى جانب اشتراكه في بعض لجان المجلس الأعلى للعلوم والآداب والفنون ولجان أخرى كثيرة كان فيها فارس الميدان حتى عُذَّ بمزاياه التي سنشير إلى بعضها فيما بعد من أكبر رجالات المؤتمرات والندوات في مصر والعالم الإسلامي.

إشرافه على عشرات رسائل الماجستير والدكتوراه:

وتكفينا الإشارة إلى عشرات رسائل «الماجستير والدكتوراه» التي أشرف على إعدادها أو ترأس لجان مناقشتها في الفقه والقانون والتفسير والحديث وعلم الكلام وسائر فروع الثقافة العربية الإسلامية، في كليات الآداب والحقوق والشرعية وأصول الدين في جامعة القاهرة وعين شمس والأزهر والإسكندرية وغيرها من الجامعات العربية.

أثر مدرسة القضاء الشرعي:

ويمكن القول إن الأثر الأكبر في شخصية أبي زهرة العلمية وشغفه الذي لا حدّ له بالمعرفة والمطالعة والتأليف يعود إلى مدرسة القضاء الشرعي التي أنشأتها الحكومة المصرية أصلاً لما رغبت في إصلاح القضاء الشرعي ولم تستطع أن تعوّل في ذلك على علماء الأزهر - كما قال الشيخ المراغي رحمه الله - كما نشأت من قبل مدرسة دار العلوم أيام علي مبارك باشا لما أرادت أن تأخذ من الأزهر علماء للتعليم - أو مدرّسين - فلم تجد بُغيّتها في الأزهر في ذلك الحين لأن طريقته في التعليم يومذاك لم تكن تلائم حالة الشراء، كما ذكر ذلك الشيخ المراغي أيضاً.

عاطف بك بركات:

ويبدو أن مدرسة القضاء الشرعي هذه كانت شامخة في مناهجها وأساليبها، وفي شخصية «ناظرها» العالم المربي عاطف بك بركات الذي كان يثني عليه خريجو هذه المدرسة العليا، وقد بكاه أحمد أمين - خريج هذه المدرسة - طويلاً عندما توفي رحمه الله سنة ١٩٢٤، أي بُعيد تخرج أبي زهرة من هذه المدرسة بنحو سنتين، وكان عاطف بركات بعد أن أقصي عن هذه المدرسة قد تفرغ للسياسة وانضمَّ إلى «الوفد»، وعُيِّن وكيلاً لوزارة المعارف، وربما كان أبو زهرة رحمه الله لم يتلمذ عليه - وإن كنت قد سمعته يُثني عليه ويذكره بخير -^(١) إلا أن الجوَّ الذي تركه في المدرسة والطابع الذي طبعها به بقي ملازماً لها، علماً وسياسة كذلك. ولعلَّ تأثر أبي زهرة بالوفد وإعجابه الشديد بسعد زغلول يعودُ من بعض وجوهه إلى هذا المعهد الذي كان يعد صنّعة من صناعات سعد، وعملاً من أعماله الجليلة، وكان عاطف بركات نفسه من أقرباء سعد، ومن أقرب المقربين إليه.



كتبه في فروع الثقافة الإسلامية:

شَغف أستاذنا رحمه الله بالدرس والتأليف، وخَلَّف للمكتبة العربية الإسلامية أكثر من أربعين كتاباً في فروع الثقافة الإسلامية. وبخاصّة الفقه والقانون. نذكر له في الكلام والأديان: «تاريخ الجدل في الإسلام»، «محاضرات في النصرانية»، «مقارنات الأديان»، «المذاهب الإسلامية» في السياسة والعقائد.

(١) قال رحمه الله تعالى في تقديمه لكتاب «المصلحة في التشريع الإسلامي» لتلميذه مصطفى زيد: «تذكرت أستاذ الأستاذة عاطفاً العبقرى الذي لم يفرّ فرية في التربية أحد. تذكرت فيه ذلك العقل الحرّ المتطلع، والروح المشرق، والنفس الفياضة، والقلب الكبير، والهمة العالمية، والإرادة الحارمة، والحق القوي، والمَنزَع العلمي»

وله في الاجتماع ونظام الإسلام: «تنظيم الإسلام للمجتمع»،
«العلاقات الدولية في الإسلام»، «المجتمع الإنساني في ظل الإسلام»،
«الوحدة الإسلامية».

ومن كتبه في الفقه والقانون: «أصول الفقه»، «الجريمة والعقوبة في
الفقه الإسلامي»، «الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية»، «الأحوال
الشخصية»، «شرح قانون الوصية»، و«محاضرات في عقد الزواج وآثاره»،
و«الميراث عند الجعفرية»، وفي «مصادر الفقه الإسلامي»، وفي «تاريخ
المذاهب الفقهية» وفي «الأوقاف». وبعض هذه الكتب يقع في أكثر من
مجلد، وغيرها كثير، عدا عن سلسلته الذهبية القيمة عن الأئمة المجتهدين
وعصرهم وآرائهم وفقههم، كتب رحمه الله عن «الشافعي، ومالك، وأحمد،
وأبي حنيفة، وابن تيمية، والإمام زيد، وابن حزم، والإمام الصادق...»
وخص كل واحد من هؤلاء الأئمة بكتاب كبير.

وكان رحمه الله ينشر تفسيراً للقرآن يعده تباعاً لمجلة «لواء الإسلام»
المصرية، وقد جاوز فيه نصف القرآن الكريم^(١)، وقد أودع تفسيره هذا كثيراً
من معارفه ومعارف العصر العائنة، وبخاصة في المسائل الاجتماعية
والسياسية وأصول الديانات، وكان ينظر فيه إلى تفسير الزمخشري، وينحو
فيه نحو السيد الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد عبده رحمهما الله، مع رعاية
اختلاف العصر، واختلاف النظرة إلى نظام الإسلام والحضارة الغربية.

وقد ودّعه - رحمه الله - في داره بضاحية الزيتون بالقاهرة قبل خمس
سنوات، وقد بدأ بوضع كتاب في سيرة المصطفى ﷺ، والراجح أن يكون
قد فرغ من وضعه منذ أميد ليس بالقصير^(٢).

مقالاته وبحوثه:

هذا... عدا مئات المقالات التي كان يمدُّ بها كثيراً من المجالات
الإسلامية في مصر وخارج مصر، والأبحاث التي كان يعدها للمؤتمرات

(١) انتهى فيه إلى الآية ٧٣ من سورة النمل. وطبع قريباً في عشر مجلدات.

(٢) طبع في حياته، وصدر عن دار الفكر العربي.

والمجامع العلمية كبحثه القيم في «القضاء الإداري في الإسلام» - الذي نشرته هذه المجلة في عامها الأول - وبحثه في «ولاية المظالم في الإسلام» وغيرهما كثير.

شدة اعتزازه بكتابه عن الإمام الشافعي:

ولا بد لنا هنا من الإشارة العابرة إلى أنه كان شديد الاعتزاز، من سلسلته الفقهية السابقة، بكتابه عن الإمام الشافعي، الذي أعطاه حقه من التمحيص والتحري والتدقيق: وسبب ذلك - كما حدثني مرة رحمه الله -: أنه وضع هذا الكتاب وهو على عتبة الترقّي إلى درجة أستاذ مساعد في كلية الحقوق، وكانت المنافسة بينه وبين سلفه الشيخ علي الخفيف - خريج مدرسة القضاء الشرعي أيضاً - على أشدها، وإن كان أستاذنا رحمه الله يختار لهذه «المنافسة» اسماً آخر بطبيعة الحال، فكان كتابه الذي جاء فاتحة تلك السلسلة مثلاً يُحتذى ويُشار إليه.

كلامه عن عصر كل مجتهد:

وأمر آخر يتصل بهذه السلسلة، وهو أن المؤلف - رحمه الله - يرى أن هذا النهج في الكتابة عن أعلام الاجتهاد في الإسلام لم يُسبق إليه، وبخاصة كلامه عن «عصر» كل مجتهد، ولم يُبد مرة اعتراضه على ما بدّر مني من رأي حول «القدر» الذي يكتب عادة عن «عصر» مؤلف أو إمام موضوع دراسة وبحث، وهو: القدر الذي يلقي ضوءاً على حياة المؤلف ويمهد لفهم آرائه واجتهاداته فيما اشتهر فيه... ويضعه - من ثم - في موضعه بين من شاركوه في هذا المجال... وإن كان من غير اللازم أن يكون شيخنا رحمه الله قد التزم في كتبه هذا القدر.

محاضرات في النصرانية:

أما كتابه الذي لم يكن يُخفي اعتزازه به حتى في بعض المجالس العامة، والذي كان يحب أن يلقي وَجْهَ ربه وأنه هو الذي كتب هذا الكتاب، فهو «محاضرات في النصرانية»، ومن أطلع على هذا الكتاب علم

ما كان يقول الشيخ رحمه الله . . . وقد وجدته إن شاء الله بين يدي عليم خبير .



عميد الفقهاء ومجتهد العصر:

مات عميدُ الفقهاء، ومجتهد العصر، فبماذا أصفه؟ ومن أين أبدأ الكلام على شخصيته المُحيية المُتعددة الجوانب؟!

كان أبو زهرة أشبه الناس بالإمام الغزالي رحمه الله: بلاغة قول، وإخلاص حديث، وغازاة عبارة، وقوة حجة . . . فهل كان أبو زهرة غزالي العصر؟!

غزالي العصر:

كان في قوّة دماغه واعتزازه بعلمه كالإمام الغزالي رحمه الله، ولكن شيئاً من طبيعة «الأسد» كان يبدو في تناوله لمنهاج المعرفة ومسائل العلم . . . كان يتناولها بقوة ويقضي فيها برجولة وسرعة. فهل كان ذلك على حساب «الثقة» والتعمّق في الفهم والتحليل؟ ما أظن ذلك . . . ولكن الذي لا شك فيه - فيما يبدو - أنّ عبارته في التعبير عن معنى من المعاني أو فكرة من الأفكار قد تطول بعض الشيء، وربما صاحبها قليل من التكرار والدوران وبالألفاظ جَزلة فخمة، ولكنه كان يصل إلى ما يريد من أداء المعاني الدقيقة والآراء الاجتهادية المعقدة.

الكلمة عند الأستاذ أبي زهرة:

ويمكننا القول: إنّ «الجملة» أو «الكلمة» عند أستاذنا الكبير رحمه الله أداة يقع عليها «طبعه» وفحولته فخمة جَزلة، وتقع عليها «إرادته» وثقافته بسرعة للتعبير عن المعنى الذي يُريد طال الكلام أو قصر، ويبدو الكلام طويلاً حيث يجب في مثل موضوعه الدقة والاحتراز.

الكلمة عند الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا:

وإذا جاز لنا أن نتخذ من «الكلمة» معياراً نقيس به اختلاف مَنْ تتلمذنا عليهم من رجال الفقه والتشريع - على اختلافهم في الإصابة من قضايا الأمة والمجتمع - فالكلمة عند أستاذنا الجليل الشيخ مصطفى الزرقا - حفظه الله - «حدٌّ» من حدود المنطق، وقَيْدٌ أو احتراس من قيود المعاهدات والمواثيق!.. يبحث عنها الأستاذ الزرقا بدأب، ويختارها بعناية، ويضعها في موضعها الذي خلقت له غير نافرة ولا قلقة.

الكلمة عند الأستاذ السباعي:

وهي عند أستاذنا الداعية المجاهد مصطفى السباعي رحمه الله «كائنٌ عضويٌّ» ينبض بالحياة، ويضجُّ بحركة الروح والأعضاء!.. تمسُّ قلب القارئ، وتحرِّك فيه كوامن الفكر والأدب والشعور، ولذلك فهي أقوى ما تكون وأفعل ما تكون حين يُعبرُ بها عن «فلسفة» النظام، لا عن نظام الفقه، وعن حكمة الإرث لا عن الأنصاف والأرباع والأسداس، وعن قواعد الإسلام في بناء الأسرة وموضوع المرأة لا عن الأهلية والوصية وتوزيع التركات.

قدرة الأستاذ أبي زهرة على الخطابة في الفقه والقانون:

وإذا كانت الكلمة عند أستاذنا العلامة الشيخ أبي زهرة ما قدّمت، فإنّ ذلك يفسّر قدرته الفائقة على أن «يخطب» في «الفقه» والقانون، وأن يرد اعتراضات المعترض في الندوات والمحاضرات ومناقشات الرسائل الجامعية، وأن يكون في مقدّمة رجال المحافل العلمية العالمية، يساعده في ذلك ذاكرة قوية، وبديهة حاضرة، وإطلاع واسع، وقدرة عجيبة على التوليد والابتكار، وصوت قويٌّ مُجَلِّجٌ ينطلق من أعماق القلب والعقل جميعاً، إلى جانب ما عُرف عنه - رحمه الله - من روح محبّة، ونفس مَرّحة، وطبع أصيل يسعفه بالإشارة الموحية، و«القفشة» الحاضرة!

وربما كانت حصيلة كتابات أستاذنا رحمه الله في مجال فقه الدعوة

قليلة، أو دون من فرغوا أنفسهم لهذا الحقل، وأتوا فيه بالروائع والدقائق، ولكن يبقى أسلوب الشيخ أبي زهرة - بفحولته وجزالته وصدق صاحبه - يُصوّر للقارئ أن وراءه الشيء الكثير.



مفتاح شخصيته: الكرامة والعزة:

أما عزة الرجل وكرامته وصلابته في الحق فلم أجد لها مثيلاً فيمن عرفت من مشايخ مصر، وفيمن رأيت من علمائها، بل لعل مفتاح شخصيته الفذة يكمن في «الكرامة» أو الرفض! رفض أن يبيع آخرته بديناره، ورفض أن يسبقه أحد أو يتقدم عليه، ورفض أن يهزم في حوار أو جدال، ورفض أن يقول للظالم: يا عادل، بل رفض أن يسكت عن الظلم، ورفض أن يأخذ على محاضراته العامة الكثيرة أجراً من المال، بل رفض الاعتذار عن إلقاء محاضرة وهو في غاية التعب والإرهاق، وقد شهدت ذلك بنفسي أكثر من مرة، وبخاصة مع طلاب كلية الهندسة وكلية التجارة بجامعة عين شمس، وكان طلاب هاتين الكليتين يحبونه حباً جماً، ولا يتركون مناسبة إلا ويقومون بدعوته لإلقاء محاضرة عندهم، ولم يكن يتخلف، ولم يكن بجنب عن أن يقول كلمة الحق.

بل رفض الشيخ رحمه الله أن «يكون» شيخاً للأزهر، وليس في مصر رجل أحق منه بهذا المنصب!!... أقول: رفض، ولا أعني أن المنصب عُرض عليه فأبى، بل أعني ما هو أبعد دلالة في شخصيته على مبدأ الرفض: لقد أبى أن يضع نفسه بحيث يرى ويدعى!

ولم يكن أبو زهرة يجهل شروط هذه الرؤية في تلك الأيام، ولكن نفسه - شهد الله - كانت تشمئز من مجرد تصوّر هذه الشروط وسماعها، فضلاً عن قبولها والسعي إليها!

كرامة ليست فوقها كرامة، وعزة ليس وراءها عزة، ورفض مطلق لإعطاء الدنية في أيّ مجال من مجالات الأخذ والعطاء.

فحولة في القول، ورجولة في العمل، وبطولة في المواقف، وكرامة وسبق في جميع شؤون الحياة. هذه هي شخصية فقيه الإسلام والمسلمين أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة كما عرفته وعرفه تلامذته ومُحبّوه، رحمه الله وجزاه عن دينه وعباده أفضل الجزاء.

حبُّه لسعد زغلول وتأثره به:

هذه النفس المنطوية على العبقرية والبطولة كانت تُحبُّ الأبطال، وقد انطبع في نفسه وهو غلامٌ حَدَثَ يجري وراء عربة سعد زغلول ويسعى إلى النظر إليه، ثم وهو شاب يستمع إليه بكلّ جوارحه وهو يخطب - وكان من الخطباء القلائل في تاريخ مصر الحديث - انطبع في نفسه صورة هذا الزعيم فأحبه وتأثر به، وبقي على ذلك - لما جُبلت عليه نفسه من الصلابة والوفاء - حتى آخر يوم في حياته، وممّا أكد ذلك في نفسه الصور التي كانت تجري على مسرح الحياة في مصر في تلك الأيام، وكان لا يمل من تذكر صورة سعد يوم أطلق عليه النار في محطة باب الحديد، وكيف تحامل الرجل على نفسه ودمه ينزف ليصعد على منبر الخطابة لحظات يقول فيها: يعزّ عليّ أن أرى منبر الخطابة ولا أخطب! وميدان الكلام ولا أتكلّم، ثم يعلن العفو عن خصمه الذي لم يرد في نفسه لمصر إلا الخير!..

ثم يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله: أين هذا من حديث العجل؟ وممّا يكمل صورة نفس الشيخ - رحمه الله - في هذا الجانب تريثه - وربما تردّده - في رفع بعض الناس إلى هذا المقام في نفسه، حتى يأتي أمر يعطيه «رؤية» جديدة ما كان له أن يقف على أبعادها لولا ذلك الأمر «الجوهري» الطارئ.

دخلت عليه مرة وقد ضيق عليه، وحُجر على كتابه القيم «محاضرات في النصرانية» فهالني أمر الكتاب الذي مضى على وضعه بين أيدي الطلاب والباحثين أكثر من خمسة عشر عاماً - في ذلك الوقت - فقال: نعم... النصراني الأوروبيون يترجمون هذا الكتاب إلى أكثر من لغة ويدرسونه

ويناقشونه، ومُتَنَصِّرَتنا يفعلون ما سمعت، هل تظُنُّنا في دار حرب؟! ما أظُنُّ الأمر يا بني إلا كذلك، وما أخال صاحبكم إلا واحداً من كرام الشُّهداء عند الله، إنه ولدنا فلان رحمه الله، وكان شريطاً مُمتدبثاً فيه أستاذنا الجليل رحمه الله كثيراً من الصور والمواقف.

ذكريات وصور:

الذكريات عن أستاذنا الراحل تملأ الذاكرة، والصُّور تزحم الخيال، وهذه مُجرَّد كلمة ندخل بها إلى ساحة نفسه الرَّخبة، وعقله الواسع، ومواهبه الخصبة المتنوعة، ولسوف يكتب عن الرجل رحمه الله - فوق الدراسات العلمية الجامعية - عن أبي زهرة «المربِّي، والداعية، والأب، والصديق، والسياسي، والأديب، والخطيب» الخ.. ونرجو أن نسهم في هذا المجال في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى.

عزمه على وضع كتاب في السيرة:

في أوائل عام ١٩٦٩، وفي جلسة ممتدة في بيته الهادئ الرزين، حدَّثني عن عزمه على وضع كتاب في السيرة النبوية الكريمة، وعرض لِطَرَفٍ من مخطَّط الموضوع في ذهنه، والقضايا «الجديدة» التي لا بدَّ من إثارتها بين يدي كتابة السيرة، أو في التعقيب على بعض المواقف، وشعرتُ أنه يحبُّ أن أشارك في الحديث، فأشرتُ إلى أن تلك القضايا قد كتب فيها «العقاد» في كتابه «مطلع النور»، وفي بعض كتبه الأخرى، كما كتب في بعض المواقف الأخرى كُتَّاب آخرون، فقال: إنه سيطلع على هذه الكتب قبل أن يبدأ بالكتابة، وأذكر أنني وقفت عند بعض النقاط التي جدَّ فيها من القول ما لا بدَّ لأبي زهرة بالذات من مناقشته والردُّ عليه، كالحديث عن حياة النبي الروحية ونحو ذلك، وأشرتُ إلى من تولَّى كِبَر هذه الأمور من الكتاب والمترجمين.

من عالم التَّبعات والحقوق إلى عالم السُّؤال والملكوت:

وكانت جلسة ممتدة عهد إليَّ الشيخ في نهايتها بإحضار هذه الكتب، وكلَّ كتاب أقدر ضرورته أو أن الشيخ لم يطلع عليه!! ولم يكن التقدير في اليوم التالي سهلاً، ولكنه جاء بحمد الله صحيحاً، وحضرت صلاة العشاء، ففاجأني - رحمه الله - بحرصه على أن يعطيني ثمن ما اشتريت له قبل أن تُؤدِّي الصلاة، وقال بعد أن نادى على خادمه ليُحضر المبلغ: «أحسن بكره يموت الشيخ أبو زهرة، فتدعى للصلاة عليه، فتقول: لا... إنَّ لي في ذمَّته مالاً لم يدفعه بعد!!»، وضحك ضحكته المشهورة بعد أن نقلني من عالم التَّبعات والحقوق... إلى عالم السُّؤال والملكوت!... وتصوَّرت الخسارة والخطب اللذين سيحلان من غيابه عن الساحة، ثم غاب رحمه الله ولم أكن في مصر ليكون لي ثواب الصلاة عليه وتشيعه. ولكنني هنا مع سائر تلامذته ومُحبِّيه ندعو له كلما قرأنا كتاباً من كتبه، وذكرنا موقفاً من مواقفه، أو ذكرتنا الأيام والخطوب بالشجرة التي كان يقف عليها في دنيا الإسلام والمسلمين.

عمل ودأب وجهاد حتى آخر دقيقة:

وبعد، فهذه لمحة عن حياة الفقيه الجليل رحمه الله... الذي أخذ من دنياه الكثير، وأعطاهما الكثير. جاء خبرُ نعيه وجمهورٌ غفير ينتظر حضوره في القاهرة لإلقاء محاضرة عامَّة كان قد أعلن عنها في وقت سابق.

عملٌ ودأب وجهاد حتى آخر دقيقة، ووقف الجمهور يتقبَّل في الشيخ العزاء بعد أن تحوَّل اجتماعهم إلى مأتم وعزاء.

آخر كلماته المكتوبة:

أما آخر كلماته المكتوبة فهي: «وأحسبُ في حياتي كلَّها أن الله كان معي مع كثرة الذين يرومون بي السُّوء، وما خيَّب الله لي أملاً ولا رجاء. وكنت أضطهد في العهود السابقة، فكلما اشتدَّ الكرب عليَّ جاءني الفرج من حيث لا أحتسب».

«وإني أقول نصيحتي لأبنائي الذين أنعم الله علي بأنهم تخرجوا على يدي: كونوا يا بني مع الحق دائماً، وأخلصوا لله دائماً، ولا تمالقوا أحداً في حق، ولا تكونوا على ضعيف أبداً».

وتلك هي علامة الإيمان والقبول إن شاء الله، على القنطرة التي وصلت في آخر أيامه عالم الغيب بعالم الشهادة.



في صفحات التاريخ:

سيكتب المؤرخ: في العاشر من رمضان سنة ثلاث وتسعين وتسعمئة وألف، اقتحم جنود مصر قناة السويس، وسقطت تحت أقدامهم تحصينات العدو، وحناجرهم تُردّد بصوت واحد: الله أكبر. ثم دخل عام أربع وتسعين وفيه تمّ تحرير مدن القناة، وردّ العدو إلى داخل سيناء، وفيه توفي الفقيه العلامة الشيخ محمد أبو زهرة وقد مُجيت من نفسه بعض الأحزان. وكان رحمه الله عالماً فاضلاً مُصنّفاً كبير النفس، عالي الهمة، صادعاً بالحق، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لم يُعط الدنيّة من دينه ولا من علمه وكرامته. وقد حزن الناس لموته حزناً شديداً، ورثاه غير واحد من الخلق داخل مصر وخارجها، رحمه الله رحمة واسعة، وعوّض المسلمين خيراً، وإنا لله وإليه راجعون.

نعم، وإنا لله وإليه راجعون، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله.





ارتباط اسمه بقضية فلسطين:

منذ مطلع هذا القرن وحتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، واسمه مرتبط بقضية أمتنا المقدسة قضية فلسطين، والتي واجه من أجلها إمبراطورية بريطانيا العظمى^(٢) والصهيونية العالمية، واستمر في مواجهته لهذه القوى والقوى الأخرى التي دخلت ميدان الصراع إلى جانب الصهيونية حتى لقي وَجْهَ ربه، ونرجو أن يكون راضياً مرضياً...

المعركة مع اليهود جهاد مقدس:

كان يرى أنَّ المعركة مع الأعداء هي جهاد مُقدَّس، واستمرَّ على هذا الرأي حتى ووري التراب لم تغيَّره المحن والمصائب والأحداث، ولم يضيره

(١) حضارة الإسلام، العدد السادس، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

(٢) مات عدو الصهيونية والإمبراطورية البريطانية... بهذه الكلمات صدرت التايمز البريطانية مقالها الذي عقبته به على وفاة الحاج محمد أمين الحسيني!!.

تغير الأحباب والأصحاب، وبقي رحمه الله ثابتاً على ما آمن به، عاملاً بكل ما أوتي من جهد وقوة، مستخدماً كل الوسائل المتاحة له من كتابة وخطابة وعقد مؤتمرات وقيام بجولات لتكتيل القوى من أجل تحرير المغتصب من أرضنا وإعادة ديارنا المقدسة إلى وطننا الكبير...

تحذيره من خطر الحل السلمي:

لم تفتنه الشعارات التي غرّت الكثير، وجعلتهم ينحرفون عن الدرب السوي المستقيم، ولم تؤثر في عزمته الخطوب والرزايا، لم يتزحزح ولم ينحرف أو يقبل المساومة، بل استمرّ حتى آخر لحظة في حياته مُندراً ومنبهاً أمته بخطر الحل السلمي - أو ما يطلق عليه بالسلمي - دالاً أمته على الطريق الصحيح، وأن ما أخذ بالقوة لا يُستردّ إلا بالقوة...

لم يهب اليهود أحداً كما هابوه، ولم يكرهوا أحداً كما كرهوه، ولم يحاربوا أحداً كما حاربوه - حتى أنهم رفضوا السماح لجثمانه بالدخول إلى بيت المقدس ليدفن حسب وصيته - ولم يحاولوا تشويه تاريخ زعيم عربي كما حاولوا تشويه تاريخه المديد الحافل بمختلف الوسائل والأساليب..

محاربة اليهود له:

لقد سقط كثيرون عن قصد أو غير قصد في شرك يهود، وحاربوا أمين الحسيني، وبحربه حاربوا فكرة الجهاد الإسلامي والرؤية الدينية التي يجب أن تواجه بها إسرائيل، وكانت حربه نقطة تحوّل في القضية المقدسة عن مسارها الصحيح، لقد حارب اليهود السلطان عبدالحميد وأسقطوه بواسطة يهود الدونمة من الاتحاديين، وحاربوا أمين الحسيني ليعزلوه عن القضية، ويكون بذلك القضاء على فكرة الجهاد المقدس.

لقد عاش الحاج أمين قضية فلسطين وقضايا العرب والمسلمين، عاش بها، وعاش لها، ولم ينقطع في مختلف ظروفه عن الجهاد حتى وافاه الأجل المحتوم...

جهاد الحاج محمد أمين الحسيني:

لقد جاهد الحاج أمين شاباً وكهلاً وشيخاً ينوء بأعباء السنين... جاهد

والجهاد فريضة إسلامية، جاهد والجهاد عناء وخطر وتشريد واعتقال... جاهد وهو نجمٌ متألق في بُؤرة الأضواء المحلية والعالمية، وجاهد والأضواء موجّهة إلى سواه وهو قابع في الظل.

جاهد وهو محور الأحداث، وجاهد وهو في أيامه الأخيرة.

كان - رحمه الله - يقوم بواجبه باستمرار، ويعمل غاية وسعه باستمرار، ويتلقى النوازل والضربات الخاصة والعامة كالجبل الأشم، ويمضي في طريقه بهدوء وابتسام وتصميم وبإيمان راسخ بالله عزّ وجل...

وللحاج أمين - رحمه الله - في جهاده الطويل آراء ومواقف قد تختلف معه في بعضها، ولكنه كان رغم ذلك كله، ومع ذلك كله رجلاً كبيراً وزعيماً عظيماً قلّ أن يجود الزمان بمثله في إخلاصه وغيرته وجهده وتضحيته وثباته واستمراره في الكفاح وشخصيته الفذة القليلة المثال...

ولقد أدّى لدينه وأمه وبلاده إلى آخر لحظة من حياته كل ما استطاعه من خدمات... تغمّده الله بالرحمة والرضوان، وعوّض المسلمين أحسن العوض. وإنا لله وإنا إليه راجعون.



الفقيد في سطور

○ ولد في القدس عام ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م، وتلقّى تعليمه الأولي والثانوي في القدس، ثم التحق بالجامع الأزهر بمصر، وبتدار الدعوة والإرشاد التي أسسها المرحوم محمد رشيد رضا، وكان يحضر خلال ذلك الدروس والمحاضرات في كلية الآداب بالجامعة المصرية.

○ عاد إلى القدس عام ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م، وكان يقيم فيها عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، فالتحق بالفرقة ٤٦ في ولاية أزمير، واستمر يخدم في الجيش العثماني ضابطاً حتى انتهت الحرب.

○ عاد بعدها إلى فلسطين، وقام بإنشاء الجمعيات والنوادي الثقافية

والاجتماعية والسياسية، وقاد الحركة الوطنية الفلسطينية من أجل مقاومة الانتداب البريطاني ووعده بلفور.

○ في عام ١٩٢٠م، وفي موسم النبي موسى عليه السلام أعطى أول درس للطامعين ليعلموا أن فلسطين لن تكون لليهود منازل وقصوراً، بل تكون لهم أجداناً وقبوراً، وخرج من فلسطين بعد أن حكم بالسجن عشر سنين بالأشغال الشاقة هارباً إلى سورية.

○ عاد إلى فلسطين عام ١٩٢١م، بعد إلغاء الحكم السابق، وتولى منصب الإفتاء في القدس الشريف عام ١٩٢٢م، خلفاً لشقيقه المرحوم محمد كامل الحسيني، ثم انتخب رئيساً للمجلس الشرعي الإسلامي الأعلى.

○ قام بإصلاح إدارة الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية الإسلامية ونظّمها، وسعى إلى صيانة أراضي فلسطين، ومنع انتقالها إلى اليهود، وقاد الحركة الوطنية الفلسطينية، وعقد المؤتمرات الإسلامية، وأرسل الوفود الكثيرة إلى الخارج من أجل الحفاظ على فلسطين.

○ قام بوضع مشروع المسجد الأقصى وصيانتته وأشرف على تنفيذه، واحتفل بتمام العمل عام ١٩٢٩م، وقام بإنشاء الكلية الإسلامية بجوار الحرم، وانتدب إليها خيرة المدرسين والمربين لتخريج جيل من الشباب المستقيم تخريجاً صحيحاً.

○ لم يسمح لبلفور بزيارة الحرم الشريف عام ١٩٢٥م، على الرغم من طلب المندوب السامي صموئيل منه السماح، وأمر الحرس بإغلاق الأبواب وعدم فتحها ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة، وجاء بلفور والمندوب السامي واضطراً إلى العودة من حيث أتيا...

○ نجح في إخراج قضية فلسطين إلى نطاق العالمين العربي والإسلامي، ودعا عام ١٩٢١م إلى عقد المؤتمر الإسلامي العام في القدس، وتنازل بعدها المؤتمرات العربية والإسلامية من أجل فلسطين، وكان رحمه الله العصب المحرك لهذه المؤتمرات...

○ تمكّن من إفشال المؤتمر التبشيري العالمي الذي عُقد في القدس عام ١٩٢٧م، على الرغم من طلب المندوب السامي البريطاني (بلومر) منه أن يتدخل لتسكين البلاد، فما كان منه رحمه الله إلا أن أجاب بقوله: أيعقد مثل هذا المؤتمر في جبل الطور، ونريد أن يبقى المسلمين هادئين؟ فكان أن أُخرج المؤتمر جميعاً من البلاد...

○ ذهب ضمن الوفد الفلسطيني عام ١٩٣٠م، الذهاب إلى لندن في أعقاب ثورة البراق الشريف عام ١٩٢٩م، لمفاوضة الحكومة البريطانية حول قضية فلسطين ومطلب الشعب الفلسطيني.

○ وفي عام ١٩٣٤م، ترأس وفداً لإصلاح ذات البين بين السعودية واليمن.

○ وفي عام ١٩٣٦م، اندلعت الثورة الفلسطينية الكبرى، وانتخب الحاج أمين الحسيني رئيساً للجنة العربية العليا بإجماع الأحزاب الفلسطينية، وعندما تجددت الثورة عام ١٩٣٧م، أرادت حكومة الانتداب إلقاء القبض عليه فالتجأ إلى المسجد الأقصى. واعتصم فيه أربعة أشهر، ثم خرج خفية من فلسطين، وسافر في زورق إلى لبنان، ولم يعد بعدها إلى بلده، وعاش حتى لقي وجه ربه شريداً غريباً عن وطنه..

○ غادر لبنان إلى بغداد بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م، بعد ضغط حكومة الانتداب البريطاني على فرنسا لتسليمها الحاج أمين، واشترك في ثورة العراق التي اندلعت عام ١٩٤١م - ثورة رشيد عالي الكيلاني - وبعد فشلها التجأ مع قادة الثورة إلى إيران حيث بدأت ملاحقته بعد دخول القوات البريطانية والروسية إليها، فانتقل إلى أوروبا بعد أن رفضت تركيا قبوله لاجئاً سياسياً فيها، وبعد أن وضعت بريطانيا ٢٠ ألف جنيه أسترليني ثمناً لرأسه.

○ اعتقلته السلطات الفرنسية إثر خروجه من ألمانيا بعد انهيارها، لكنه نجح في صيف عام ١٩٤٦م، في مغادرة فرنسا سراً إلى مصر.

○ طالبت المنظمات الصهيونية والاستعمارية وسعت لتقديم سماحته

إلى محكمة (نورمبرغ) بتهمة كونه مجرم حرب بخجة أنه حرض السلطات النازية في ألمانيا خلال الحرب على إبادة اليهود.

وقد فشلت مساعي الصهيونية والاستعمار ضده بسبب استنكار زعماء المسلمين والرأي العام العربي والإسلامي لهذه المساعي.

● وفي عام ١٩٤٧م، قام بتشكيل فرق الجهاد المقدس بقيادة الشهيد عبدالقادر الحسيني، وكان يرى عدم دخول الجيوش العربية الحرب ضد اليهود في فلسطين مطالباً بإمداد سكانها فقط بما يحتاجونه من مال وعتاد.

● ومنذ نكبة عام ١٩٤٨م، وهو يتابع رحمه الله في الظل القضية الفلسطينية وتطوراتها يمثل الاهتمام الذي كان يتابعها به يوم كان في الموقع الأول للمسؤولية.

● كان آخر مؤتمر حضره مؤتمر القمة الإسلامي المنعقد في لاهور.

● توفي رحمه الله في مشفى الجامعة الأمريكية يوم الخميس ٤ تموز ١٩٧٤م، إثر إصابته بنوبة قلبية كان قد أصيب بمثلها إثر هزيمة العرب عام ١٩٦٧م.

● نعته قيادة الثورة الفلسطينية في بيان وزعته وكالة الأنباء الفلسطينية بقولها: تنعي قيادة الثورة الفلسطينية وجماهير الشعب الفلسطيني الزعيم الفلسطيني الكبير الحاج محمد أمين الحسيني الذي وافته المنية بعد عمر قضاه وهو يناضل نضالاً مستمراً ومريراً من أجل الشعب الفلسطيني والأمة العربية...



نبذة من آرائه وأقواله

● رَفُضُ تقسيم فلسطين كان وما يزال مسألة حق وعدل، ومنطق وكرامة، وليس في اعتقادي من مبرر قط لقبول التقسيم ولا للسكوت عنه وتناسيه وتجاهله، واختلاق المبررات له بأنه أصبح أمراً واقعاً، وأن الأمم

المتحدة أقرته وأن الدول الكبرى أمثال روسيا وأمريكا وإنكلترا وافقت عليه!

إنّ هذه كلها أباطيل ومخادعات لتضليل الفلسطينيين وتضليل العرب والمسلمين الذين اعتبروا التقسيم طعنة نجلاء وجهت إليهم.. فلماذا يراد بنا أن نخضع للظلم ونقرّه ونعترف بالأمر الواقع، ولماذا نلّام إذا رفضناه وتوجّه إلينا تهمة التصلب والتشدد؟

إنّ شعباً حياً ومجاهداً كالشعب الفلسطيني لا يجوز له أن يخضع ويقبل بالأمر الواقع الذي فرضته القوة الغاشمة والمطامع الأجنبية.. واعتقادي أنّ المظلوم الذي ينام على الظلم ولا يقاومه بكل قوة وتصميم، يكن أحق باللوم من الظالم نفسه؛ لأنّ الخضوع للظلم تأييد للظالمين وتشجيع لهم على الاستمرار في الظلم والتمادي فيه..

● إعادة قضية فلسطين إلى الفلسطينيين فإنهم أحقّ بها، وأهلها أحذب عليها، وأولى بالذود عنها والاستماتة في سبيلها. ولقد أثبتت التجارب أن هذه القضية كانت وهي في أيدي أهلها مضونة عزيزة الجانب إلى أن استطاعت المؤامرات الاستعمارية أن تنتزعها منهم بالتأثير على بعض الحكومات العربية فحرمتهم بذلك من الاشتراك الوافي في الحرب كما أبعدتهم عن ميدان السياسة.. فينبغي إعادة هذه القضية إلى أيدي أهلها المؤمنين المخلصين المصممين ليعيدوا إليها حيويتها ونشاطها...

● أما تدويل القدس فلا يختلف كثيراً عن تهويدها، لأنّ الأمرين يؤدّيان إلى انتزاعها من أيدي أهلها، ويهددان مصير الشعب الفلسطيني، لأن موقع القدس وسط سلسلة الجبال التي تتوسط فلسطين يُخولها ميزة عسكرية لا يستهان بها تستطيع بواسطتها السيطرة على سائر الضفة الغربية...

وإني لأدعو العرب إلى رفض التدويل استناداً إلى الأمور التالية:

١ - لقد أثبت العرب والمسلمون خلال أربعة عشر قرناً قدرتهم ونزاهتهم في المحافظة على الأماكن المقدسة وتأمينهم لحرية العبادة في هذه الأماكن.

٢ - إنَّ المقدسات القائمة فعلاً في مدينة القدس هي مقدسات إسلامية ومسيحية، وإن عدم وجود أي خلاف عليها بين المسلمين والمسيحيين ينفي الحاجة إلى تدويلها، أما ما يدّعيه اليهود من حق لهم في حائط البراق الشريف - حائط المبكى - فإنما هو أكذوبة ضخمة مفتراة على الحق والتاريخ، وقد ثبت ذلك بوثائق وبراهين تاريخية وأثرية كان آخرها التقرير الذي وضعته لجنة البراق الدولية التي تشكلت بقرار من عصبة الأمم ١٩٣٠م، وقد نصَّ القرار على ما يلي: للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق العيني فيه لكونه جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف..

٣ - إنَّ القدس جزء لا يتجزأ من فلسطين، وفلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي، فلا يجوز للعرب والمسلمين التفريط في القدس أو التنازل عن أي جزء منها، ولا يجوز أن يقام في القدس أي نظام دولي غريب عن فلسطين والشعب الفلسطيني.

٤ - إنَّ المسجد الأقصى القبلة الأولى للمسلمين، ومسرى الرسول ﷺ ومنه معراج، وهو صلة الوصل بين فلسطين والعالمين العربي والإسلامي، ولا شك أن فكرة التدويل هي فكرة يهودية استعمارية لقطع هذه الصلة الأزلية.

○ ولا شك في أنَّ الأعداء يقصدون من مشروعهم - مشروع الدولة الفلسطينية - بلوغ الأهداف التالية:

١ - انتزاع اعتراف من الشعب الفلسطيني بوجودهم ودولتهم القائمة على أساس الغصب والعدوان وتنازله عن أكثر من ثمانين بالمائة من أرض فلسطين.

٢ - امتصاص نقمة الشعب الفلسطيني خاصة والعرب والمسلمين عامة وصرفهم نهائياً عن الجهاد في سبيل استعادة فلسطين.

٣ - شقَّ الشعب الفلسطيني إلى معارض للمشروع ومؤيد له، وإيقاع

الفتنة بين أفرادها وجماعاته، وإيغار صدور العرب والمسلمين على الفلسطينيين.

٤ - أن تصبح هذه الدويلة جسراً يصل بين اليهود والأقطار العربية لاستغلالها اقتصادياً وسياسياً في سبيل تنفيذ مخططاتهم ومؤامراتهم.

وصفوة القول: أن الحلَّ الصحيح لقضية فلسطين هو إعادتها إلى طابعها العربي الأصيل، وعندئذ يصبح من حقَّ الفلسطينيين إقامة دولتهم وفقاً لحقِّهم المشروع في تقرير مصيرهم.

● أن الحل المنشود للقضية الفلسطينية لا يتحقق بالتنازلات والمناقصات والتفريط في الحقوق الوطنية تفريطاً يقضي على كل أمل للشعب الفلسطيني في الحياة الكريمة. وليس في مجال القضية الفلسطينية أي مكان لتعايش سلمي مع أعدائنا الذين نعلم حق العلم أنهم لا يريدون تعايشاً^(١) مع أحد، ولكنهم يريدون التوسع على حساب أمتنا وسلامتنا، ومستقبل أجيالنا والمضي في سلب كل شيء معتقدين أن بلادنا كلها هي لهم، بل إن العالم كله لهم! وهذا الاعتقاد اليهودي ثابت، وقد عرفه كل من درس تاريخ اليهود وكتبهم، وعرف ماضيهم وحاضرهم. إن الإسرائيليين مُصمِّمون على إبادة إبادتنا واغتصاب كل ما نملك، ولكنهم يخادعوننا لكسب الوقت الذي يستطيعون فيه تنفيذ مخططاتهم الرهيبة.



(١) «إنه لن يكون سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل ما لم نحرر وطننا بأجمعه، حتى ولو وقعنا معاهدة صلح»، مناحيم بيغن.

«إن إسرائيل الكبرى الممتدة من العراق إلى السويس هي الدولة القوية التي تستطيع تأمين السلام والاستقرار في الشرق الأوسط»، أريه ألتمان (الحضارة).



علال الفاسي^(١)
كان الإسلام سيماءه وانتماءه
(١٣٢٦ - ١٣٩٤هـ)
(١٩٠٨ - ١٩٧٤م)



بقلم: عمر بهاء الدين الأميري

علال الفاسي عَلمٌ عملاق، حجمه في الزمان أكبر من السنوات التي عاشها، وحجمه في المكان أكبر من الأرض التي وُجِدَ فيها..

حجم علال الفاسي في الزمان:

فحجمه في الزمان أكبر من السنوات التي عاشها؛ لأنه عاصر أحداثاً جساماً بدلت خارطة العالم، وغيّرت وجهة التاريخ، وقد كابد الجهاد خلالها بطاقة هائلة، قلّ أن يتوفّر عليها ويجود ببذلها إنسان فرد، إلا إذا كان عالماً عملاقاً، وتاريخه في ذلك سِفَر كبير من مجلدات، يبدأ بجمعية طلابية سرّية سياسية، ويمرّ بالسجون والمنافي، ويتنقل بين المغرب والمشرق، ويلمع في المجلس النيابي، ويصل إلى وزارة الدولة للشؤون الإسلامية، ويستمر في رئاسة حزب الاستقلال

(١) المجلة العربية، العدد الأول من السنة الثانية: (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

- الذي كان كثيراً ما يستفيد من منابره للدعوة إلى الإسلام ونُصرة قضاياه، والمُنادة باتخاذ دستور هذه الأمة، عقيدةً وشريعةً وسلوكاً - وقد كان من الأركان الأولى لدار الحديث الحسنية، فدعم فكرة إنشائها، ونافع عن رسوخها وتقدمها، وأسهم في توجيهها وتدريسها والإشراف على رسائل طلابها حتى إذا تقاعد عن عمله في كلية الحقوق لبث محتفظاً بكرسيه فيها حريصاً عليه إلى آخر دقيقة من حياته. ولا عجب في هذا فإن مدرسته الأولى التي استمر إشعاعها بواكب حياته هي «المدرسة القرآنية» تَعَلُّماً وتعليمًا...

صُورٌ وَعَبَرَاتُ:

أغوص في أعماق ذاكرتي بحثاً عن تعارفنا الشخصي الأول، ثم مراحل المتابعة، فتضيع بي ذاكرتي المتعبة في روى غامضة، كأنها من صور تاريخ بعيد بعيد...

غاص من ذاكرتي عهد الصُّبا
والشباب الغض إلا غبرات
قطّعت النسيان عمري مزرعا
فكأنني عشت عمري فترات
وأنمحي من خلدي جل الذي
خضته في جلدي من غمرات
فلكم قصّ عليّ الصُّحب من
طرف الأخبار عني شذرات
وأنا أسمعها مبتسماً
وبقلبي من أساء جمرات
بقيت لي من حياتي صور
عبر حيناً وحيناً عبرات...!

لقاءات ومشاركات:

كانت لنا لقاءات كثيرة، ومشاركة في مؤسسات ومؤتمرات وندوات ومناسبات عدّة، فكم التقينا في القاهرة وبغداد والقدس ومكة والرباط وفاس وسواها... التقينا على المعاني والعواطف والجهود المشتركة لقضايانا، قضايا أوطاننا وأوطان العروبة والإسلام.

في مؤتمر القدس:

ومن أبرز المؤتمرات التي كنا فيها معاً: مؤتمر القدس عام ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م، مع نخبة كبيرة من رجال العلم الإسلامي، منهم الشهيدان سيد قطب، ونواب مجتبي صفوى، واللواء صالح حرب الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين، رحمهم الله.

مؤتمر مكة الذي انبثقت عنه رابطة العالم الإسلامي:

وأما أكبرها فمؤتمر مكة عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٤م، الذي انبثقت عنه رابطة العالم الإسلامي، واختتمه العاهل السعودي الشهيد فيصل بن عبدالعزيز، بخطاب جامع، وجاوب عليه باسم المؤتمرين الشهيد المجاهد البطل الحاج أحمد وبللو، رحمهما الله، وشاركت فيه وفودٌ كثيرة ذات شأن من أعلام الأمة الإسلامية، واتخذت قرارات وتوصيات على جانب كبير من الأهمية، كان أكثرها إيجابية العمل على عقد مؤتمر قمة إسلامي عام، يكون انطلاقة أولى لإقامة شكلٍ ما من لَمّ الشمل الجامع لولاية أمر المسلمين وشعوبهم، فضلاً عن تنسيق جهود الدول والحكومات منذ الآن في مواجهة التحديات المذهبية والمواقف الدولية والمخططات العدوانية التي يتعرّض لها العالم الإسلامي، وفي نُصرة قضاياها وحركات الجهاد والتحرير فيه، وكان الأستاذ علاّل رئيساً للجنة الشؤون الإسلامية وتقرير المصير، وكان نائبه الأستاذ عبدالله كنون، وكنتُ مقرر اللجنة، فلمست مدى غيرته وإخلاصه واهتمامه البالغ بأمر الإسلام والمسلمين في كل بقاع الأرض.

في مجال العمل الإسلامي العام:

أما في مجال العمل الإسلامي العام، فأشهد أنني ما ذكرت له موضوعاً إلا وجدته بالغ الاهتمام به، ولا اقترحت عليه دعماً أو نصرة إلا وجدته مستجيباً، وقد كانت له في ذلك مبادراته اليقظة التي تتجلى فيها أصالة تفاعله مع الإسلام وقضياه، وعمق تضامنه مع المؤمنين المجاهدين الذين يتعرّضون للأذى والعذاب والتنكيل في سبيل الله. وقد عرف ذلك عنه القاضي والداني.

موقفه من قضية الشهيد سيد قطب وإخوانه:

ومن هذا المنطلق الأصيل النبيل، أسجل له بمزيد من الإكبار والتقدير موقفه من قضية الشهيد سيد قطب وإخوانه من قبل ومن بعد، فقد كان ثابتاً متيناً يواجه الأعاصير والزعازع في نصرته الحق ودفاعه عن الدعوة إلى دين الله، ومطالبته بإنصافهم، وتقديمه الصف مع صفوة من رجال المغرب البررة في الاحتجاج على الظلم الفادح الذي كان ينزل بهم، حتى إذا أكرم الله سيد قطب وبعض إخوانه بالشهادة، كان أول الداعين إلى إقامة صلاة الغائب على أرواحهم الطاهرة في سائر مساجد المغرب المؤمن، وكان أول العاملين على تمجيد شهادة سيد قطب، وضدّرت «العَلَم» بعدد خاص وفيها مقال قيم مسهب للرئيس علال عن شهيد الإيمان صاحب «في ظلال القرآن»، كما كتب عنه مقالاً في العدد الخاص بالشهيد من مجلة «الإيمان»، التي يصدرها الأستاذ الكبير المجاهد أبو بكر القادري.

ولما حانت الذكرى الأولى لاستشهاد سيد قطب، كان علال الوفي المؤمن أول العاملين على إقامة حفل تأبيني كبير له في مركز حزب الاستقلال في فاس، افتتحه بنفسه في ظروف كان لا يجرؤ فيها سواه على أكثر من النقد المحصور في نطاق ضيق، والتفجّع والدعاء بأن يكشف الله عن الأمة الإسلامية هذا البلاء! وقد عمل على إصدار طبعة مغربية من بعض كتب سيد قطب الهامة، وما ذلك لمجرد الصداقة الوثيقة التي كانت بين المجاهدين الكبيرين، بل هو في الدرجة الأولى لاتفاقهما في العقيدة وارتباط

سيد قطب في نفس علال بالإسلام، الذي يؤمنان به ديناً حضارياً فذاً، لا للأمة الإسلامية فحسب بل للإنسانية جمعاء. وهذه العقيدة الإسلامية الحية الحركية في الرئيس علال قد ظهرت ملامحها بشكل أو بآخر في كل آثاره وأفكاره وأعماله العامة بل في توقعاته المستقبلية.

الرجل الموسوعة:

تضييق صفحات هذه الكلمة عن مُجرّد سرد لقاءاتنا وذكرياتنا في المشرق والمغرب، فكيف بي إذا رحت أسترسل في الحديث عن صفحاتها ومجالاتها، ولا أدري هل سيُشع ما بقي لي من العمر للعودة إلى وثائقي ومفكراتي لكتابة مذكراتي، في قلب ما أنا فيه من تشّت ومشاغل وأعباء لا ينتهي وليدها، لو أتيح لي ذلك لكان لعالل الفاسي «الرجل الموسوعة» مجلّد خاص بينها.

حججه في المكان:

ذاك تصوير مقتضب لحجج الفقيه الجليل الغالي في الزمان، ونبذة عن لمحات من ذكرياتي معه، أما حججه في المكان فكما سبق لي أن قلت: إنه متّسع رُحْب وإن كان لا يصل إلى حججه في الزمان.. فمن الأندلس حيث نَبَت أصله إلى فاس حيث استقرّ أهله.. إلى قرى الأطلس التي سُجن فيها.. وبلدان المغرب التي تنقلت خلالها خطى جهاده.. إلى الغابون حيث قضى تسع سنوات من التّألم والتعلم لم ينقطع خلالها عن التفكير والتّحجير.

رحلة دائبة على دروب المجد والجهاد:

واستمرّ علال الفاسي في ثبات قليل النّظير على الجهاد في المغرب والمشرق - حيث نقل ساحة دعوته وعمله لأُمته - إلى مصر لا يفتّر ولا بكل.. حتى عاد إلى المغرب المستقل الذي كان من أكبر دعائم استقلاله ويستمر في المغرب ولا يستقر، من مؤتمر إلى مؤتمر، ومن ندوة إلى

أخرى، ويزور في كل عام مرة على الأغلب مكة المكرمة، ويشهد اجتماعات المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وقد بقي هكذا في رحلة دائبة على دروب المجد والجهاد حتى لقي وجه ربه في "بوخارست"، وفلسطين آخر كلمة يفوه بها...

الإسلامية الحيّة الحركيّة:

لقد كان علال ابن الإسلام قبل أن يكون أي شيء آخر، ثم كان، بعد ذلك ومع ذلك، للمغرب والعروبة والإسلام والإنسانية... وإنّ كل الذين عايشوه أو درسوه سيعرفونه بسيماثه وانتمائه إلى الإسلام، وإن كانوا ممّن يعرفون معالم الحق، وإنّ هذه «الإسلامية» الحيّة الحركيّة كانت تظهر عليه بشكل أو بآخر، وتأخذ لديه المقام الأول في الاعتناق والاعتزاز، رغم شدة تعلقه بوطنه وتشدّده في الحرص على كل شبر من الأرض فيه.

وإننا لنجد من كتبوا عنه من الغربيين قد أبرزوا هذه الصفة فيه أيضاً، بل منهم من علّلها وردّ إليها عواطفه الأخرى وطنية وإنسانية... يقول جاك بيرك: «إنّ عللاً الفاسي لا يدافع عن الشخصية المغربية، ولكنه يدافع عن الهويّة الإسلامية، وهو يعتقد أن الإسلام وحده هو القادر على أن يحمي بلاده من سلاح أوروبا على الدين»...

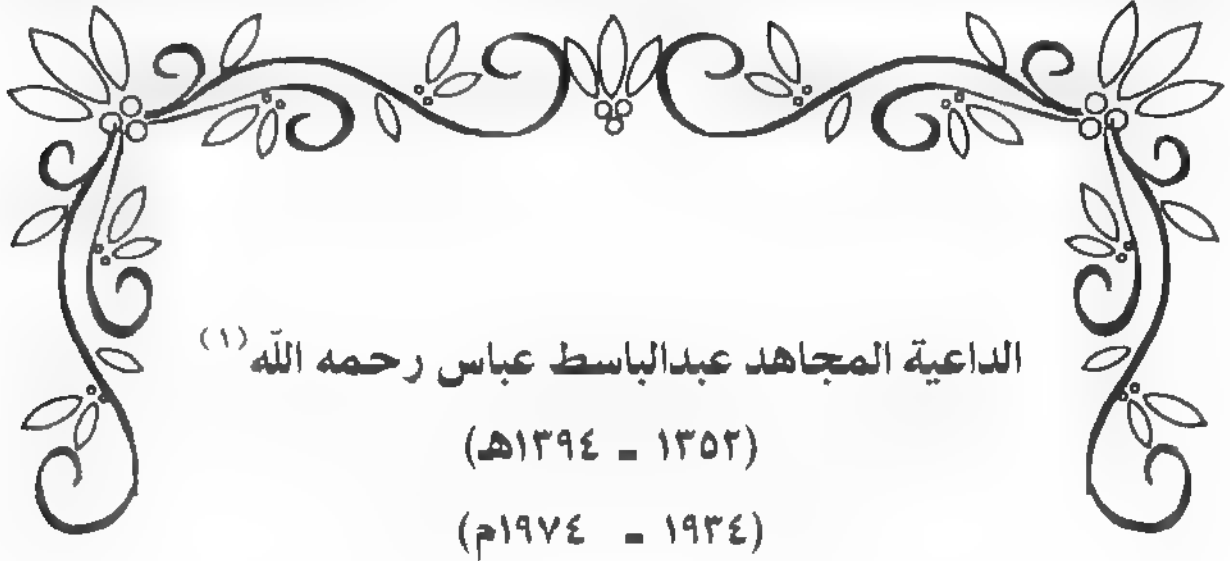
نموذج من سلسلة الرجال في هذه الأمة:

وبعد... فهذا سطر من «كتاب علال»، يرمز تلميحاً إلى خطوط من شخصيّة الفدّة، ويلمّ إماماً عابراً ببعض جوانب نشاطه الإسلامي الواسع. وإذا كان لا يفني إلا ينزّر يسير من الوفاء للودّ الذي بيننا والتقدير الذي أحمله له والتعريف ببعض مزاياه وسجاياه... فإنني أجعله مع «سطور» أخرى كتبت فيه وسنظل تكتب عاماً إثر عام، لا لتجزيه ما يستحق، فأمر ذلك موكل إلى الله جل جلاله وأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وهو اليوم في جزره الأمين، ولكن لتبقى نموذجاً لسلسلة «الرجال» في هذه الأمة الإسلامية المعطاء، ومثالاً للأجيال من المواطنين والأبناء، ولتكون بخاصّة - حافظاً

لنشباب المؤمن الغياري من طلابه، ولا سيما من خريجي دار الحديث عسى أن ينهّدوا نهده ويجدّوا جده، ويكونوا استمراره بعده، فمن أولى منهم بالإشادة به، والانتفاع منه، ومن أجدر منهم بحمل الأمانة وأداء الرسالة في هذا البلد المؤمن العريق الغريق اليوم بالمذاهب الوافدة والدعوات الضارة الضالة، حتى ليكاد أن يعود فيه الإسلام غريباً، وهم أسرة العقيدة النهادية، وورثة الصفوة الواعية الداعية.

وإننا لنترجو أن يكونوا في هذا المعترك امتداداً لجهاد وقدح الزناد، نوراً لا ناراً، وسعيّاً لا شعاراً، ولذلك فإن الذي نلح عليه ونريده له من جوانب شخصية فقيدنا الكبير علال الفاسي، أحسن الله إليه، هو التعمق في العلم والفهم، والمضاء في العمل بلا كلل، والنهوض بأعباء الإسلام المقدّسة، لا يشيهم عن ذلك ثقل الأعباء وتكاثر الأعداء، ولتكن هممهم أكبر من همومهم، وأرواحهم أغلب من جسومهم، وعليهم أن يوطّدوا في نفوسهم جذور اليقين بأنّ النصر لنا، وأنّ الله معنا، وأنّ العاقبة للمتقين!





للاستاذ مصطفى البيراوي

عَظَم خسارة الدعاة:

فُجِعَت بلدة الباب - التابعة لمدينة حلب - بوفاة الأخ الداعية المجاهد عبدالباسط عباس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

لقد رحل فقيدنا الغالي، وانضمَّ إلى القافلة المؤمنة من الأعلام الذين خسرتهم الأمة، ما أعظم خسارة الدعاة على الأمة في وقت عزَّ فيه الدعاة إلى الله:

لَعَمْرُكَ مَا الرِّزْيَةُ فَقَدْ مَالٌ وَلَا فَرَسٌ يَمُوتُ وَلَا بَعِيرُ
وَلَكِنَّ الرِّزْيَةَ فَقَدْ حُرَّ يَمُوتُ لِمَوْتِهِ خَلْقٌ كَثِيرُ

لَهَفَ نَفْسِي عَلَيْكَ أَيُّهَا الْحَبِيبُ الرَّاحِلُ! مَا الَّذِي أَعْجَلَكَ عَنَّا وَأَنْتَ فِي رِيعَانِ الشَّبَابِ وَنَضْرَةِ الْحَيَاةِ وَبَدَأَ الْعَطَاءُ؟!

(١) حضارة الإسلام، العدد التاسع، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

أهكذا تركتنا يا أبا أنس في أول الطريق الصعب وفي حلقة الظلمة.
إن إخوانك في حاجة إلى حكمتك وسداد رأيك، وإلى قلبك الكبير، وإن
دعوتك في حاجة إلى تجردك وعملك.

سيدكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

جنازته المشهودة:

رحمك الله يا أبا أنس لقد كان مأتك مآتم البلدة كلها، فهذه الجموع
المؤمنة التي حملت نعشك على راحات الأيدي في موكب مهيب إلى دار
الخلود، لتشهد لك عند الله تعالى أنك أدت الأمانة، وبلغت رسالة نبيك
محمد ﷺ، ولسان حالها يُردّد: اللهم ارض عنه فإننا عنه قد رضينا.

مناقبه وأخلاقه:

رحمك الله - يا أبا الإسلام - افتقدك ريف الباب ومنبح طبيباً تداوي
القلوب قبل أن تداوي الأجسام، مستقيماً في عملك، دؤوباً على أداء
واجبك، لا تعرف الكلل ولا الملل كأنك خلقت للعمل وحده.

عرفك الناس عفيف اليد واللسان، طاهر الذيل والسريرة، كبير القلب،
مسلياً بخلقك وعقيدتك وسلوكك، متواضعاً مشرق الوجه فكهاً تحب
الدعابة.

يا أبا أنس!

افتقدك التقى والورع والهدى، افتقدك المحراب والصف الأول في
المسجد.

وافتقدت حلقات تجويد القرآن، يا مَنْ حفظت الذكر ترتيلاً وفهماً
وتجويداً.

افتقدك إخوانك الذين كنت تحمل همومهم، وتشاطرهم أفراحهم،
ونحفظ حقهم في السفر والحضر.

يا أبا أنس!

بيكيك الفلاحون في ريف الباب ومنبج، حيث فقدوا القلب الكبير،
وفقدوا الاستقامة والنزاهة والتواضع والزهد...

رحمك الله يا أبا أنس لقد كنت - بعون الله - من الذين قال الله تعالى
فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

منهجه في الدعوة:

سيذكر الجميع حماسك للدعوة، وحرصك على تدريب النفس أن
يحب المرء لله ويغض لله.

يا أبا أنس^(١)!

ستبقى حُجَّة على أولئك الذين يرهبون حُمْل الراية، ويميلون إلى
السلامة والعافية، وإلى متاع الدنيا الزائل.

لقد عشت ملتزماً شرع الله، وقافاً على الحق، وكانت وسيلتك في
الدعوة إلى الله التربية بالقدوة والأسوة، أحييت سنن رسول الله في نفسك
وفي أهلك يا أبا أنس!

نم قرير العين في جوار رب كريم، واطمئن بأن لواء دعوة الإسلام
سيبقى مرفوعاً بأيدي الفتية والأشبال الذين غذيتهم بالإسلام وتعهّدتهم بالربي
والسقى حتى اشتد ساعدهم وصلب عودهم.

اللهم اغفر له، وأكرم نزله، وأدخله الجنة، وعوّضنا بفقده خير
العوض، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده. ولا نقول إلا ما يرضي
ربنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



(١) ابنه أنس هو أستاذ إدارة الأعمال المشارك في جامعة الحديدة، من مواليد ١٩٦٢.

حياة الفقيد في سطور

- ولد الفقيد رحمه الله في بلدة الباب عام ١٩٣٤م، لأب مشهور له بالعلم والورع والتقوى.
- نشأ ميّالاً بطبيعته إلى التدبُّن منذ نعومة أظفاره.
- حصل على الثانوية البيطرية والثانوية العامة وليسانس في الحقوق، وكان نجاحه بتفوق في كافة مراحل دراسته مما لفت الأنظار لما يتمتع به من الذكاء والنباهة والنشاط الدائب.
- عمل طبيباً بيطرياً في بلدة الباب وريفها منذ عام ١٩٥٧م، فغرف بين الناس بالاستقامة والسمعة الحسنة إلى جانب المهارة في الخبرة في مهنته.
- شارك في كافّة النشاطات الاجتماعية والخيريّة التي قامت في منطقة الباب، وكان يؤخذ رأيه لرجاحة عقله واتزانه في جميع أعماله.
- خدم في الجيش ضابطاً، واشترك في عدّة دورات تدريبية، وكان فيها الأول لما يتمتع من روح جهادية ولياقة جسمانية.
- أكبّ - رحمه الله - على العلم والثقافة الإسلامية، وأيقن أن العلم هو الوسيلة القويمة لتربية الأجيال وإعداد الشباب، فتعلّم وعلم ونبغ في الفقه، وعلم تجويد القرآن الكريم.
- توفي رحمه الله في ليلة الاثنين ٢١ رمضان المبارك ١٣٩٤هـ، الموافق ٧ تشرين الأول ١٩٧٤م، بعد أدائه صلاة العشاء والتراويح، وكان آخر كلماته قالها لأخيه وهو يستشير في قضية: (حكم شرع الله في قضيتك). غفر الله له وأدخله فسيح جناته.





في وداع عبدالباسط عباس^(١)

بقلم: محمد ملاً غزيل

ولتمنح الأفق قذحاً لمحة القَبَسِ
شرارة البرق بالبشرى لملتمس
أعلامنا فوق طودٍ راسخ الأسر
بيضاء ما زاغ عنها غير ملتبر
نعم السبيل.. ونعمت قوة الحرس
ويمحقون ضلال الغاشم الشرس
شوق الشهادة يحدو وارث الفرس
من رحمة الله للأبرار واقتبس
رمز انطلاق بوجه البغي والدنس
يفدون قرآنهم في فتية حمس
وارحمه وارحمهم.. إرحم «أبا أنس»

فلتغمر النفس رَوْحاً نفحة القدس
ولتنطلق بالمعاني الغرّ.. مُلهمة
إنا على العهد يا أيام شامخة
تلکم سبيل الهدى تمتد واضحة
كنا جنوداً لها بالحق نحرسها
يحررون بحد السيف أرضهم
ما ودعوا فارساً إلا تملكهم
أنعم أخا الحق بالرضوان مرتقبا
قد كنت عنوان أخلاق مهذبة
لإخوة آمنوا بالعدل واحتشدوا
يا رب لا تفتنن فتیان رايتنا

٢٥ رمضان ١٣٩٤هـ

١١ - ١٠ - ١٩٧٤م

(١) حضارة الإسلام، العدد التاسع، السنة الخامسة عشرة: (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).



الأستاذ جلال حسون^(١)

(١٣٤٨ - ١٣٩٥هـ)

(١٩٣٠ - ١٩٧٥م)

بقلم: إبراهيم عاصي^(٢)

الداعية الصادق الصابر:

كان عصراً حزيناً وكثيراً، ذلك العصر الذي شيعت فيه بلدة (أريحا) في شمالي سورية، ابنها الداعية الصادق الصابر الأخ الأستاذ جلال حسون.. إنه عصر يوم السبت التاسع من شهر ربيع الأول سنة ١٣٩٥هـ، الموافق للثاني والعشرين من آذار سنة ١٩٧٥م.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة السادسة عشرة: (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

(٢) الأديب الموهوب القاص إبراهيم عاصي، ولد في مدينة جسر الشغور بسورية عام ١٩٣٥ لأسوين رقيقي الحال طيني النفس، وكان زيجانة أوييه في الوفاء بحقهما ورعايتهما، وتفوق في دراسته وتخرج في دار المعلمين الابتدائية وبال الشهادة الثانوية، والتحق بكلية الآداب، وأنجز خلال سنوات قليلة سنة كتب أدبية، معظمها قصص مقيمة، وهي (سلة الرمان - حادثة في شارع الحرية - ولهان والمتغربون - همسة في أدن حواء - للأرواح فقط - جلسة مفتوحة مع مالك بن نبي)، واعتقل سنة ١٩٧٩ وطال سجنه ونيف على ثلاثين عاماً، وخسرته دوحة الأدب العربي، رحمه الله تعالى، وأجزل ثوابه.

توفي رحمه الله في مدينة لندن، حيث كان يتعاطى العلاج من مرض عضال ألم به، وسكن في جسمه لمدة ناهزت خمس سنين.

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد الفقيد في بلدة أريحا أوائل الثلاثينات، وبها نشأ وحصل تعليمه الابتدائي. ثم انتقل إلى مدينة حلب، حيث تابع تعليمه المتوسط والثانوي في دار المعلمين الابتدائية.

تخرج في دار المعلمين سنة ١٩٥٤م، وعمل معلماً في بلدته فترة من الزمن، تابع خلالها دراسته العليا في كلية الحقوق من جامعة دمشق.

ممارسته المحاماة:

ولما أن تخرج في كلية الحقوق ترك التعليم، وأخذ يمارس المحاماة إلى أن كانت سنة ١٩٦٧م، عندها غادر سورية إلى المملكة العربية السعودية بصحبة أسرته، حيث تعاقد للعمل مستشاراً قانونياً في وزارة الدفاع هناك. وبقي هذا عمله إلى أن وافاه الأجل المحتوم في آخر سفره من سفراته العلاجية الكثيرة إلى مدينة لندن.

رابطة أخوة في الله قوية متينة:

كان أول تعرفي على الأخ الفقيد، في بداية دراستنا في دار المعلمين في حلب، ثم تطورت العلاقة من صلة زمالة عادية، إلى صلة أخوة في الله، أخذت تنمو وتزكو مع الأيام، ولم تزدها الزمالة الجامعية - على اختلاف الاختصاص - والزيارات الودية الكثيرة - لقرب بلدنا وتوابع قلوبنا - لم تزدها إلا قوة ومتانة، وامتداد جذور وثبات أصل.

ذلك ممّا مكّنني من معرفة أخي الفقيد معرفة لا يدانيها فيها إلا القلة من أحبائه وإخوانه وأصفيائه. وذلك مما يسمح لي أن أتحدث عنه حديث العارفين، وأبكيه بكاء الثاكليين، وأتفجّع عليه تفجّع مَنْ قصّمته المصيبة، وحطّم جناحه الهول العظيم...

شاب عصامي:

رحمك الله - يا أخي جلال - شاباً عصامياً، نهض شامخاً على قدميه يحمل في قلبه نور العقيدة، وفي يده مصباح العلم، وفي لسانه كلمة الحق والصدق، وهو ابن ذلك الأب الأمي الصابر المحتسب الذي كتب عليه أن يحصل لقمته من الصخر، يكسره وينحته وبينه..

ورحمك الله - يا أخي جلال - فتى شب ونشأ في طاعة الله ورضوانه، يدعو له ويجاهد في سبيله، لا يخاف ولا يخشى سواه، وقد كنت واحداً ممن أقر لهم - أمام الله - بالفضل علي، إذ صَحَّحُوا إِلَيَّ مساري يوم كنت يافعاً أقف متردداً على مفترق الطريق..

المعلم المربي:

ورحمك الله، معلماً مربيّاً، نشأ تلامذته وأطفاله على حب الله ورسوله، وحب الحق والفضيلة، وحب العلم والعرفان..

المحامي المدافع عن المظلومين:

ورحمك الله محامياً، يدافع عن الشرفاء بشرف، وعن المظلومين بأمانة وحرقة، يعرض عن الباطل والمبطلين، ويتسامى على الصغائر والصغار من شأنه، الذين كانوا يكيدون له داخل مهنته إقماً غيرَةً وحسداً، وإقماً غلظة وكثافة إحساس!!

صبره على البلوى:

ورحمك الله مريضاً، صبرت على البلوى خمس سنين بطولها، تعاني من مرض متنقل فتاك. واجهته بأعصاب باردة كاليقين، وإيمان راسخ كالجبال، ونفس مطمئنة اطمئنان الناسك الساجد في محراب الله.

وإني لأعترف بأنني كنت أتضائل بإيماني جنب إيمانك، وكنت أتصاغر بنفسي لدى عظم نفسك كلما زرتك في جيئاتك الأخيرة التي ترددت فيها

إلى أرض الوطن.. وما ذلك إلا لأنني كنت أجدني أمام إنسان يواجه الموت البطيء الذي يدب في كيانه دبيب السَّم، ويواجه الألم الفظيع الذي يهدد الجبال الراسية، بكل رباطة جأش ورضاً بقضاء الله وثقة بقدره.

حَمْلُهُ مسؤولية الدعوة:

رحمك الله - يا أبا محمد - من رجل ظلَّ يحمل مسؤولية دعوته ودينه حتى آخر نفس من حياته، وقد ابتلي فيها ومن أجلها وسُجن غير مرة، فما حادَّ عن الطريق المستقيم، وما التوى له عُنق، وما انكسر له حد، وما طُوّطى له رأس..

ورحمك الله من داعية كان حادَّ الذهن، سليمَ المحاكمة سديدها، حاضرَ الجواب، دقيقَ المنطق، طيبَ النفس، سليمَ الطويّة، سمحاً عطوفاً على إخوانه... هذا ما عهدته فيك ولا أُرَكِّي على الله أحداً.

اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتننا بعده، واغفر لنا وله واحشرنا وإياه في الصالحين والشهداء والصّديقين..

اللهم أخلفنا منه أخاً برأ، ومجاهداً صادقاً، وداعية مخلصاً نيراً.

اللهم وأسكن زوْغ أهله وزوجه وأولاده وإخوانه وذويه، وألهمنا وإياهم الصبر والعزاء، يا رحمن الدنيا والآخرة، يا الله.





الأخ الحبيب محمد علي الدعاس^(١) في ذمة الله

بقلم: الشيخ عبدالنافع الرفاعي

وفاة أستاذ عالم داعية:

لقد مُنيت مدينة ابن الوليد في مساء الجمعة ٢٧ شوال ١٣٩٥ هـ، الموافق ١٣ تشرين الأول ١٩٧٥ م، بفقد أستاذ من أساتذتها، وعالم من علمائها، هو الداعية الأستاذ محمد علي دعاس.

يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ مَحْزُونُونَ﴾ (٦٦) الَّذِينَ آمَنُوا يَتَّيَنَّا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ [الرُحُوف: ٦٨ - ٧٣].

إن القلب ليتقطر حزناً وحسرة ولوعة على فقيد الدعوة إلى الله الأستاذ محمد علي دعاس رحمه الله. في العين غبرات، وفي النفس زفرات، وفي القلوب رضا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لقد مات الأخ محمد علي دعاس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا

(١) حصار الإسلام، العددان التاسع والعاشر، السنة السادسة عشرة. (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م).

يَاذِنِ اللَّهُ ﴿آل عمران: ١٤٥﴾، فله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل.

غاب الكوكب الساطع، وأفل النجم الحبيب، وخفت الصوت
الجهوري العالي بالحق والدعوة إلى الله.

لقد مات محمد علي دعاس، وإن في الديار حنيناً، وفي الصدور
أنيناً، وفي العيون عبرات، ولكل أجل كتاب ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ
مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

القائد العالم:

إن القائد يُبكي إن فقد بين القادة. فكيف لا يُبكي وقد ندر القادة؟!
والعالم يُبكي إذا خلا مكانه، فكيف لا يُبكي إذا كان فريداً بين أقرانه؟!
فالحزن عليك يا أبا أحمد حزن من فقد الأخ الصادق والصديق المخلص،
وطالب العلم المُجدِّ، والعالم العامل بعلمه، والأستاذ المرَبِّي، ولا يعني
ذلك يأساً ولا قنوطاً، فإنَّ نفس المؤمن لا تعرف اليأس والقنوط ﴿إِنَّهُ لَا
يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وإنما هي الأمور تُقدَّر
بقدرها فلا ينكر حق الفقيد الغالي، ولا ييأس من فضل الله وكرمه، ولا
حَوْل ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

من جنود الإسلام:

رحمك الله أختاً عزيزاً، وصديقاً حبيباً، وأثابك الله وأعلى في الجنان
مقامك، لقد كنتَ جندياً من جنود الإسلام، ومجاهداً بكل معاني الجهاد.
وإنَّ ما بيننا من محبة في الله لم تنقطع بهذا الفراق حين سبقتنى للقاء
ربك، ومن أخوة وثقها الإيمان والحب في الله، والالتقاء تحت راية
الإسلام. وإن لقاءنا غداً إن شاء الله تعالى تحت ظل العرش، وعلى حوض
رسول الله ﷺ.

عرفتك منذ زمن بعيد: الأخ الوفي المخلص لله ولدعوة الإسلام،
وإني لا أنسى - ما حبيت - أنني أول ما عرفتكَ قال أخ لي: (هل لك
بمعرفة ملك من الملائكة...) فكانت تلك المعرفة الطيبة. ولم يُبالغ إذ قال

ذلك، وأنت أهل لهذا الوصف، ورأيت منك ورأى إخوتك وأصدقائك جميعاً كل طيب وصدق وإخلاص ووفاء.

حياته مع الناس:

أما حياتك مع الناس فإنني أحمد الله تعالى أن كنت من خيرة الناس سيرة، عُرِفْتَ بالطيب وصدق المعاملة. لقد كنت ابناً باراً بوالديك، وأخاً مخلصاً مع إخوانك، وزوجاً وفيّاً مع أهلِكَ، وأباً باراً حميماً مع أبنائك، واصلاً لرحمك، متحملاً أعباءهم هذا بشهادة والدك وأقربائك وأصدقائك.

حميته وشجاعته:

لقد عَرَفْنَا فِيكَ نخوة وحمية وشجاعة فما اسْتُضْرِخت في عمل الخير إلا وكنت في المُقَدِّمة، وما اتُّدبِت لمعروف إلا ولبَّيته. لم تقف في وجهك المَحَن، ولم تُؤَثِّرْ فِيكَ المصائب المتوالية، وانتقلت من مجال الوظيفة والتدريس إلى مجال العامل المجاهد. فرحمك الله يا أبا أحمد، رحمك الله، وأعظم في الجنة منزلك.

الاشتراك في المصيبة بفقده:

وأنتم يا آل الفقيد وقرابته وبني عشيرته وإخوته.. لستم أنتم الذين فقدتموه فحسب، ولستم في المصيبة به وحدكم تبكون وتألمون، وليس ابنه وحده هو الذي أصيب باليتم من بعده، وإنما أصيب به المسلمون.. نحن الشباب المؤمن في دنيا الإسلام، نحن الذين فقدناه، فإلينا قَدَّمُوا العزاء، وما انتظروا البكاء، وفي قلوبنا فتشوا عن اللوعة والألم، ولنا فاسألوا الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

رحمك الله أبا أحمد في المجاهدين الصادقين، وحُشِرْكَ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، والسلام عليك حياً وميتاً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الشيخ

أحمد عزالدين البيانوني^(١)

(١٣٢٩ - ١٣٩٥ هـ)

(١٩١٣ - ١٩٧٥ م)



بقلم: الأستاذ عبدالله علوان

لقد فُجِعَتْ حلب الشهباء في الشهر الماضي^(٢) بفقد عالم جليل من علمائها، وموت داعية كبير من دعائها.. إنه فضيلة الشيخ المربي أحمد عز الدين البيانوني طيب الله ثراه، وأسكنه فسيح جناته، وغمره بفيض رحمته ورضوانه. ولا يسعني في هذه المناسبة الأليمة إلا أن أتكلم عن بعض مآثره ومزاياه عسى أن أوفيه بعض حقّه، وأعرّف من لا يعرف بعضاً من فضائله ومكارمه.. ليعلم القريب والبعيد مَنْ هو فقيدنا الراحل؟

امتاز رحمه الله بثلاث مزايا رئيسة قلّما توجد في عالم شرعي في هذا الزمان:

المزية الأولى: الحرص التام على التزام السنّة والتطبيق.

المزية الثانية: الدقّة المتناهية في الإعداد والتكوين.

المزية الثالثة: المُجَاهَرَة بالحق أينما كان.

(١) حضارة الإسلام، العددان التاسع والعاشر، السنة السادسة عشرة: (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م).

(٢) ضحى يوم الجمعة الموافق ١٧ من ذي الحجة ١٣٩٥ هـ، الموافق ١٩ من كانون الأول ١٩٧٥ م.

المزية الأولى: الحرص التام على التزام السنة والتطبيق:

أما الحرص التام على التزام السنة والتطبيق: فكان حلقاً من احلاقه رحمه الله، فكان يأخذ نفسه وأهله وأولاده بأوامر الشريعة، والعمل بأحكامها اعتقاداً منه أن الموعظة لا تترك أثرها في النفوس، ولا تعمل عملها في القلوب إذا لم يكن الواعظ الناصح للإسلام مطبقاً، ولما يدعو إليه متحققاً!!.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَسُوا أَلْكَتَبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[البقرة: ٤٤].

بل يصدق عليه قول القائل:

يا أيها الرجل المعلن غيري هلا لنفسك كان ذا التعاليم
لا تله عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وكان رحمه الله لا يفتأ ولا يكل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصحاح الخاصة المسلمين وعامتهم حيثما كان، وأينما جلس.. بل كان شديد الملاحظة بكل من يلتقي بهم، ويجتمع معهم، فإذا رأى تساهلاً في سنة أرشد إليها، وإذا أبصر مقترفاً لمنكر نهاه عنه، وإذا وجد مُصرّاً على معصية هجره لله، ولو كان أقرب الناس إليه.

وأما أخذه بعزائم الأمور، وفضائل السنن والنوافل، فكان عادة من عاداته، حتى قيل عنه - لفرط اهتمامه بالنافلة -: إنه من بقايا السلف الصالح.

أما الحجاب الإسلامي الذي أقام عليه أهله وبناته ونساء من يلوذون به من فحبه وتلاميذه، فكان له سمته البارزة، وصفته المتميزة، مبالغة بالستر، وزيادة بالورع، وتطلعاً إلى الكمال.

هذا غيض من فيض مما كان يحرص الفقيه على التزامه، ودعوة الناس إليه، ونصحهم له، وتذكيرهم به..

المزية الثانية: الدقة المتناهية في الإعداد والتكوين:

أما الدقة المتناهية في الإعداد والتكوين، فكان فيها مضرب المثل، بل كان - رحمه الله - يرفض رفضاً باتاً أنصاف الحلول، ومرحلة التطبيق في إعداد الفرد المسلم وتهيئته لعضوية جماعة المسلمين إيماناً منه أنه إسلام أو لا إسلام!..

فإن التزم الإسلام، فمعنى هذا أنه استسلم لكل الأوامر والنواهي والنظم والأحكام... دون أن يجد في نفسه غضاظة ولا حرجاً... مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

أما إذا التزم البعض وترك البعض، فأقل ما يقال عنه: أنه فاسق خارج عن طاعة الله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥].

لهذا كله كانت شروطه على من يلتزم طريقته، ويدخل في جماعته قاسية وشديدة، فلا يقبل أي إنسان قصر في سنة، أو تغاضي عن أي حق من حقوق الله، أو تواجد في مواطن التهم، أو تغاطى المنهي أو المكروه...

وللحق والحقيقة أقول: إن الذين أعددهم ورباهم فقيدنا الراحل كانوا وما زالوا شامات بين الناس في تقواهم ومظهرهم ومعاملتهم... ويرجع الفضل كله لمن كان سبباً في إعدادهم وتكوينهم رحمه الله وأعلى منزلته.

المزية الثالثة: المجاهرة بالحق أينما كان:

أما المجاهرة بالحق أينما كان، فكان - رحمه الله - راسخاً كالجبل في إيمانه وثباته... بل كان يرفض كل مساومة أو تهديد أو إغراء في سبيل إعلاء كلمة الله والمجاهرة بالحق. ولو أراد الميل إلى الدنيا والجنوح إلى متاعها الفاني وعرضها الزائل... لجاءته الدنيا بأصفرها وأحمرها وجاهها ومناصبها... ولكان في مركز اجتماعي مرموق عند من يشترون الضمائر،

وَيُقَرَّبُونَ الْأَشْخَاصَ.. ولكن أثر رحمه الله الآخرة على الدنيا، وفضل رضى الله على المنصب والجاه، وأعطى لمن بعده القدوة الصالحة في صلابة الحق، ومنازعة الباطل، والثبات على المبدأ.. بينما الكثير ممن ينتسبون إلى العلم قد انزلقوا أمام بريق المادة، وفتنة الجاه، وباعوا ضمائرهم لمن اتَّخَذُوهم أرباباً وأولياء.. وحسبهم غضب الله ولعنة التاريخ والأجيال إلى يوم يبعثون.

موقف بطولي عظيم:

وما زلت أذكر للفقيد - رحمه الله - موقفه البطولي العظيم لما وقف في يوم من الأيام مُحتَجاً على اعتقال عالم مجاهد فاضل^(١) أُوذِيَ في الله، فما كان من ذوي الأمر - وقتئذ - إلا أن سرحوه من جميع وظائفه، واستقبل هذا التَّسريح بابتسامة ورضا، وما وسعه إلا أن قال: «الحمد لله على كل حال، إني أعلم أنَّ الله هو المميت وهو الرازق، ولن تموت نفس حتى تستكمل أجلها ورزقها»، وصبر على هذا البلاء سنوات رحمه الله وأجزل مثوبته.

ولو أحصينا مواقفه الجريئة لرأيناها عديدة وعديدة، والذين عرفوه من زملائه وتلاميذه حدَّثوا عنها الكثير والكثير..

تلکم أشهر المزايا التي اختصَّ بها الفقيد الراحل رحمه الله، وهي - لا شك - مزايا كريمة، وصفات جليلة.. لو وُجدت في الدعاة إلى الله وأهل العلم اليوم لرأينا الأمة الإسلامية في نصر مُؤزَّر، وعزٍّ دائم، وقوة منيعة..

حاجة العلماء والدعاة إلى التحقُّق بتلك المزايا الكريمة:

فما أجدر العلماء والدعاة إلى الله أن ينهجوا نهج الفقيد، وأن يكونوا على الجادة علماً وعملاً، لتحيا لهم دعوتهم، ويتحقق الإصلاح الفردي

(١) هو فضيلة العلامة المحدث الداعية المرئي الشيخ عبدالفتاح أبو عدة رحمه الله تعالى.

والاجتماعي على أيديهم، وترتفع راية الإسلام في سماء العزة الإسلامية عالية بفضل جهادهم وتضحياتهم.. وما ذلك على الله بعزيز.

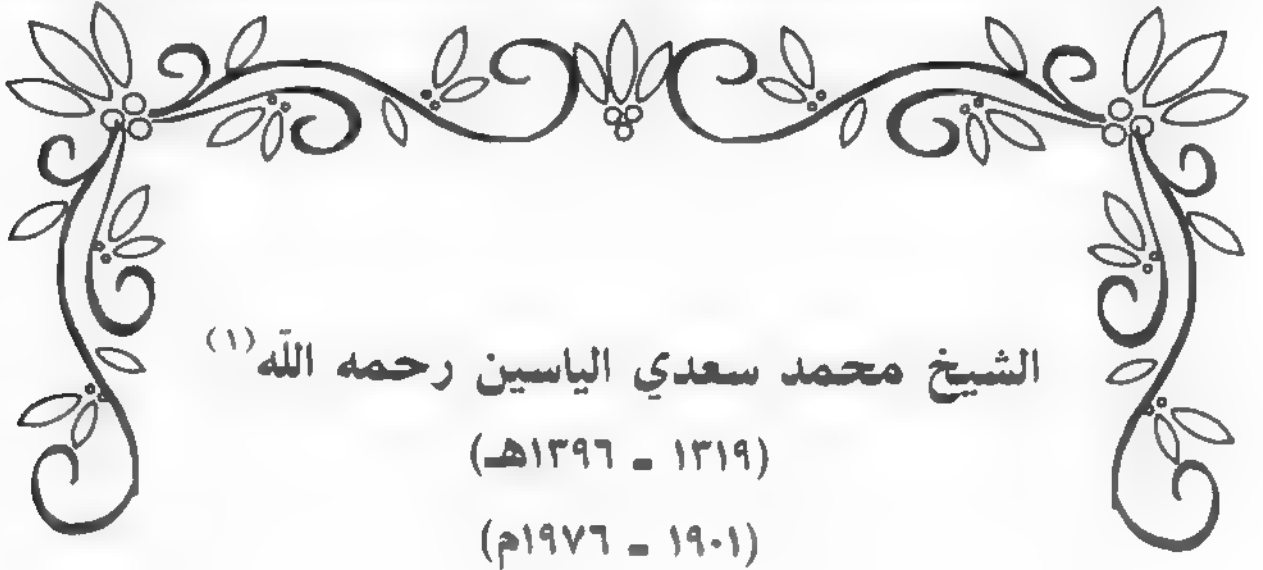
رحمك الله يا أبا علي، وأكثر في العلماء من أمثالك، لقد نصحت فأحسن، ودعوت فوقيت، وصدعت فأثرت، وربيت فأنتجت..

فسلام عليك يوم وُلدت، ويوم فارقت، ويوم تُبعث حياً مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين^(١).



صورة للشيخ أحمد البيانوني في شبابه

(١) للاح الكريم الدكتور الشيخ عبدالمجيد البيانوني، ختن الشيخ أحمد البيانوني، دراسة وافية عن عمه، صدرت في سلسلة: «علماء ومفكرون معاصرون» سنة ١٤٢٧ بعنوان: «أحمد عمر الدين البيانوني الداعية المربي» في ١٨٠ صفحة. فمن رغب الاستزادة في أخبار الشيخ، والتعريف بمؤلفاته فليرجع إليها، كما أن للأخ الشيخ عبدالمجيد دراسة أخرى بعنوان «أساليب تربوية ومفاهيم دعوية من حياة الشيخ أحمد عمر الدين البيانوني».



الشيخ محمد سعدي الياسين رحمه الله^(١)

(١٣١٩ - ١٣٩٦هـ)

(١٩٠١ - ١٩٧٦م)

للاستاذ الشيخ مُسَلِّم الغنيمي

معرفة المترجم في جميع مراحل حياته:

نعت إحدى الإذاعات العربية صبيحة يوم الخميس ١٥ ربيع الآخر سنة ١٣٩٦هـ، العالم الجليل، والعلامة النبيل الأستاذ الشيخ محمد سعدي الياسين، وكان الثَّغْيُ عند مَنْ لا يعرف الفقيد نبأً عابراً، أما من عرفه عن كُثْب، فكان وقع النبأ عليه كالصاعقة المدمِّرة، لقد هزَّ النبأ الكيان، وعقد اللسان، وهذَّ الأركان، وأشدَّ ما يكون النبأ هولاً عند من عرفه فتى وشاباً وكهلاً وشيخاً.

أسلوبه في التربية:

لقد عرفته منذ أكثر من نصف قرن، وذلك عام ١٩٢٢م، وكنت قبل الأزم شيخاً سنة كاملة، لم أحصل بها على شذرة من العلم، بل اطلعت

(١) حصار الإسلام، العدد الثالث، السنة السابعة عشرة (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م). ويطر.

«تاريخ علماء دمشق» (٣: ٣٨١ - ٣٨٧) وللمترجم صورة في «الأعلام».

على أمور شاذة، كَوُنت في نفسي عقدة من المتمشّخين، وما أن تعرّفت على الفقيد المرحوم، حتى شعرت أنني كنت في غياهب الظلمات، ظلمة السماكة، والركاكة، والغلاظة والفظاظة، لأنني لمست في الفقيد الغالي ما كنت أبتغيه من سهولة في تقرير الدرس، وبَسْط الموضوع، وشرحه بلغة سهلة، وتعبير لطيف، وأمثلة وإيضاح، وحُسن بيان، أضف إلى ذلك ما كان يتمتع به من روح مرحة، ودعابة بريئة، وكان يُشعر طلابه بأنه أخ لهم لكنه أكبرهم سناً، لا يفرض احترامه على تلاميذه فرضاً، ولا بتبجيله وتكريمه وتعظيمه، وكان هذا الأسلوب في التربية يجعل التقدير والاحترام نابعاً من النفس، صادراً من القلب، لا زيف فيه ولا رياء، ولا مداهنة ولا نفاق.

مكارم الأخلاق:

ولئن صَدَرَ الحب والاحترام والتقدير من قلوب مريديه وتلامذته ومعارفه، فلأنه كان يتحلّى بكلّ ما يجب على المسلم أن يتحلّى به من مكارم الأخلاق، فقد كان رحمه الله، أبيض النفس عفيفاً شريفاً شجاعاً كريماً، صُلْباً في دينه، مستقيماً، عطوفاً رحيماً، صادق الوعد، محافظاً على الود، سريع الفهم، غزير العلم، جَهْوَري الصوت، رقيق النغمة، إذا رأيته على المنبر يخطب - وكان خطيب مسجد أبي بكر في بيروت - تقول: إنه منذر جيش يقول: صَبَّحكم مَسْأَكُم، بفصاحة لسان وبلاغة وبيان.

لا يملُ جليسه مجالسته، وحُسن مؤانسته، لطيف النكتة، حاضر البديهة يروي الأشعار، ويشرد الأخبار، يقلّد اللهجات، حتى لكأنك تشعر عندما يتكلم بلهجة، سواء كانت بدوية بكل أشكالها أو حضرية بتعدد ألوانها، كأنه من أهلها.

لا تظن - يا أخي الحبيب - أنني أبالغ في وصفه؛ لأنَّ حُبّه سكن فؤادي منذ نعومة أظفاري، بل يشهد لذلك كل مَنْ خالطه وعاشره، وما أكثرهم، وهم لا يزالون على قيد الحياة.

أسرة كريمة:

وهذا ليس غريباً على من نشأ من أسرة كريمة عريقة الحسب، زكية النسب. (آل ياسين) إحدى أسر دمشق، ومن خيرة عائلات الميدان الذين توارثوا مكارم الأخلاق كابراً عن كابر، ولئن سَرَى الخلق الكريم في دمه بالوراثة، لقد بَزَّ قومه بجَدِّه واجتهاده، حتى أصبح علامةً يشار إليه بالبنان، وقلَّ نظيره بين العلماء، لأنه يطبق ما يستحسن من علم وفهم وخلق قويم على نفسه أولاً، ثم يأخذ به إخوانه ومريديه ثانياً، فكان رحمه الله مرشداً بفعله قبل قوله.

تربيته جيلاً يفهم حقيقة الإسلام ويلتزم بتعاليمه:

رأى ما عليه المسلمون، والعلماء الجامدون - علماء الرسوم - فأحَبَّ أن يكوّن جيلاً يفهم حقيقة الإسلام، ويلتزم بتعاليم كاملة، لعلمه أنَّ ما أصاب المسلمين من تأخر عن ركب الحضارة الإنسانية كان بجهلهم سيرة السلف بعامة، وسيرة الدعوة التي جاء بها منقذ الإنسانية - المتدهورة في حضيض الشهوات والأهواء - فكان يعمل على رفع مستواها، ويصعد بها إلى سماء العزّة والكرامة، ويخرجها من ظلمات الجهل والجاهلية إلى نور الإسلام، ويحرّرها من عبادة الطاغوت بكل أشكاله، طاغوت الشيطان وطاغوت الإنسان؛ ويقودها إلى فردوس السعادة، عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

سلوك طريق السلف الصالح:

كان يرى رحمه الله أنَّ أقصر طريق لما يهدف إليه، وهو الخروج من ظلمات تخبط فيها العالم الإسلامي بضعة قرون، هو الطريق المستقيم الذي سلكه السلف الصالح، وكان مما حفظناه منه ورويناه عنه: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فكان سلفيَّ العقيدة، يتحرّى ما كان عليه السلف في عقيدتهم وعبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، ينهج نهجهم ويسيرُ على قدمهم، لا يُؤثر قول أحد على ما صَحَّ من قول رسول الله ﷺ أو ما

كان عليه أصحابه الكرام، يُؤيد كل ما يعمل به أو يدعو إليه بالدليل القاطع من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

خطّاط شاعر:

كان رحمه الله مرهف الحسّ، ذوّاقاً، مرحاً، وهبه الله صوتاً جميلاً عذباً، كانت له أنامل لطيفة إذا امتطّاها اليراع سال من شبّاته الأري الشاري، والسّم الزعاف بخط جميل منوّع، كالرقعي والثلث والفارسي والديواني الخ، أخذ ذلك عن صديقه المرحوم الأستاذ بدوي الديراني أشهر خطّاطي زمانه. كان يُحسن نظم الشعر، إذا نظم يعبر عن خلجات قلبه، وأعماق أحاسيسه، له رهافة حس الشاعر وجرأته.

مسرحية تاريخية في مدرسة المقاصد الخيرية:

وهذه حادثة طريفة جرت له في بيروت زمن الاستعمار الفرنسي، وكان رحمه الله وقتئذ معلماً في مدارس المقاصد الخيرية.

أرادت إدارة المدرسة أن تقيم حفلاً تبين فيه أمجاد العرب وحضارتهم وما كانوا فيه من عزّ شامخ ومجد رفيع، وكان الناس آنذاك لا يزالون مفتونين بـ (الدعاوى الإقليمية) العرب لعروبتهم، والأكراد لكرديتهم و... و... وكلّ حزب بما لديهم فرحون، وله يعملون، وكان من آثار هذه الدعوة التي حطمت صرح الإسلام الشامخ العتيد ما يعانيه - اليوم - المسلمون من تمزيق أوصال، وشتات أمر، كانت هذه الدعوة أخطر قبلة ألقاها الاستعمار على الإسلام حتى خرجوا من دينهم، واتخذوا الإقليمية لهم ديناً، والمذاهب المستوردة مذهباً.

موقف هارون الرشيد من ملك الروم:

قلت: عهدت إدارة المدرسة لفقيدنا العظيم بأن يُعدّ تمثيلية تكشف النقاب عما كان للعرب من حضارة ومجد وعزّ، فاختر من التاريخ ما حدث لهارون الرشيد مع بيفور ملك الروم عندما استلم زمام الملك - من سلفه - وكانت امرأة تدفع لهارون الرشيد مبلغاً من المال بموجب معاهدة صلح بينها

وبين الرشيد، فكتب بيفور إلى هارون الرشيد: «من بيفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك المسلمين: أما بعد: إن من كانت قبلي امرأة ضعيفة، وكانت تدفع لك أتاوة سنوية، فاحسب ما أخذت منها، ثم أعدده إلينا»؛ فأجابه هارون الرشيد: «من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى (كلب) الروم بيفور، الجواب ما تراه لا ما تقرأه».

ثم جهّز جيشاً وغزا بلاد الروم، فحدث أن نزل الجيش بمكان قريب من جيش الروم، فذهب غلام من جيش المسلمين مع عبد له يحتطب، فمَرَّتْ مَفْرَزة من جيش الروم، وأسرت الغلام والعبد، ثم أخذوا يهددونهما ويسألونهما عن جيش المسلمين وعددهم وعدتهم...، فقال الغلام: والله لولا خوفي من هذا العبد أن يشي بي إلى قومي لأخبرتكم بما تريدون، فقام أحد أفراد العدو وضرب عُقَّ العبد، ثم قال للغلام: هيه ما عندك يا شاطر، فقال الغلام: الآن اطمأنت، كنت أخشى أن يبوح العبد بما تريدون، فقلت ما قلت لتقتلوه، أما الآن ولم يبق غيري فلا يمكن أن تفرحوا مني بكلمة تتعلق بجيش المسلمين.

وبينما هم في الحوار مع الغلام كانت مفرزة من جيش المسلمين تبحث عن الغلام، فلمّا التقت المفزتان، ركنت مفرزة الروم إلى الفرار وولّت الأدبار تاركة الغلام، ولمّا سألوه عن العبد أخبرهم بما كان، قالوا له: لِمَ لَمْ تُخْبِرْهُمْ بما يريدون خوفاً على نفسك من الهلاك؟ قال الغلام: الموت لا بدّ منه سواء أأخبرتهم أم لم أخبرهم، وكيف أشي بكم وأخون الله ورسوله والمؤمنين، فالعرب قومي وحب العرب إيماني.

العرب قومي وحبّ العرب إيماني	لا فرق ما بين قحطان وعدنان
العرب قوم أبي بكر وصاحبه	ورَهْط حَيْدَرَة ثم ابن عفان
يا أُمَّةَ فَرَّ كَسَرَى من فيالقها	وغادر العرش يبكي حُسن إيوان
قف سائل الكون عنهم أرضه وسما	واستنَّبِ الخلق من إنس ومن جان
أهل سمعتم بمثل العرب في كرم	وفي وفاء وجود ثم إحسان
إن غالبوا غلبوا أو قاتلوا انتصروا	أو ناظروا فلجوا عرفان عرفان

كلب الروم:

فلما عُرض النص على إدارة المدرسة أعجبت به، ولكن رغبت إليه أن يستبدل كلمة (كلب الروم) بـ (ملك الروم) لأن الظروف الحاضرة لا تسمح بذلك، فالمستعمر أحمق، ولربما حدث لنا إشكال بسبب هذه الكلمة؛ فحاول إقناع إدارة المدرسة بأن هذا نصٌ تاريخي لا يمكن تغييره، فلم تقنع وأصرّت على رأيها، فوافق على ذلك، وقد أضمر في نفسه سراً، وكان الذي يمثل دور هارون الرشيد أحد أخوته، فلما خلا به قال له: عند تمثيل البروفات لا بأس أن تقول: ملك الروم. ولكن - والله ثم والله - عند تمثيل الرواية يوم الحفل إن لم تقل: كلب الروم، لأعذبك عذاباً شديداً، أنت قل: كلب الروم، والعُهدُ عليّ لا عليك.

فلما كان يوم الاحتفال، وقد حضر نائب المندوب السامي، وأعضاء البعثة الفرنسية، وكبار الهيئات السياسيّة والدبلوماسية، ورئيس وزراء لبنان، وكان يومئذ - رياض الصلح رحمه الله - والوزراء وأعيان بيروت، ورفعت الستارة، ومُثلت الرواية أروع تمثيل، ثم جاء دور هارون الرشيد للردّ على بيفور، قال هارون الرشيد لكتابه: اكتب: من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى كلب الروم بيفور، الجواب ما تراه لا ما تقرؤه.

وما أن انتهى جواب هارون الرشيد، حتى رجّت القاعة بالتصفيق ممّا أرغم الرجال الأجانب من الفرنسيين وغيرهم على التصفيق. وكان هذا المشهد محور التمثيلية.

جرأة إيمانية:

وفي اليوم التالي استدعاه رئيس الوزراء، وهنّأه على هذا الإخراج الجيد، والجرأة النادرة، ويومئذ توثقت عُرى الصداقة بينهما، وقد نشرت صحف لبنان خبر هذا الاحتفال بالخط العريض، وعلقت على ما تحلّت به شخصية هارون الرشيد من جرأة منقطعة النظير.

أرأيت - يا أخي الكريم - هذه الجرأة الإيمانية في مثل هذا الموقف بهذا البلد.

كلب الروم:

فلما عُرض النص على إدارة المدرسة أعجبت به، ولكن رغبت إليه أن يستبدل كلمة (كلب الروم) بـ (ملك الروم) لأن الظروف الحاضرة لا تسمح بذلك، فالمستعمر أحمق، ولربما حدث لنا إشكال بسبب هذه الكلمة؛ فحاول إقناع إدارة المدرسة بأن هذا نصٌ تاريخي لا يمكن تغييره، فلم تقنع وأصرّت على رأيها، فوافق على ذلك، وقد أضمر في نفسه سراً، وكان الذي يمثل دور هارون الرشيد أحد أخوته، فلما خلا به قال له: عند تمثيل البروفات لا بأس أن تقول: ملك الروم. ولكن - والله ثم والله - عند تمثيل الرواية يوم الحفل إن لم تقل: كلب الروم، لأعذبك عذاباً شديداً. أنت قل: كلب الروم، والعُهدَةُ عليّ لا عليك.

فلما كان يوم الاحتفال، وقد حضر نائب المندوب السامي، وأعضاء البعثة الفرنسية، وكبار الهيئات السياسيّة والدبلوماسية، ورئيس وزراء لبنان، وكان يومئذ - رياض الصلح رحمه الله - والوزراء وأعيان بيروت، ورفعت الستارة، ومُثلت الرواية أروع تمثيل، ثم جاء دور هارون الرشيد للمرّد على بيفور، قال هارون الرشيد لكتابه: اكتب: من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى كلب الروم بيفور، الجواب ما تراه لا ما تقرؤه.

وما أن انتهى جواب هارون الرشيد، حتى رجّت القاعة بالتصفيق ممّا أرغم الرجال الأجانب من الفرنسيين وغيرهم على التصفيق. وكان هذا المشهد محور التمثيلية.

جرأة إيمانية:

وفي اليوم التالي استدعاه رئيس الوزراء، وهنأه على هذا الإخراج الجيد، والجرأة النادرة، ويومئذ توثقت عُرى الصداقة بينهما، وقد نشرت صحف لبنان خبر هذا الاحتفال بالخط العريض، وعُلقت على ما تحلّت به شخصية هارون الرشيد من جرأة منقطعة النظير.

آريت - يا أخي الكريم - هذه الجرأة الإيمانية في مثل هذا الموقف بهذا البلد.

عنايته بالشباب المؤمن وأثره في توجيههم:

لم يقتصر على دروسه في كلية المقاصد فحسب، بل كان يجمع حوله نخبة من الشباب المؤمن، ويكون منهم حلقات يعلمهم القرآن والحديث والتفسير والفقه وأصوله ومصطلح الحديث والأدب وفنونه.

كان يحرص على أن يكون التوجيه الصالح منذ البداية، لأن من شب على شيء شاب عليه. وهذا ما لمستته بنفسي لأنه بدأ بتوجيهي وأنا غرض الإهاب قبل المراهقة وسنّ الشباب.

اعتراف بالفضل لأهله:

ولا تزال تعليماته وتوجيهاته ممزوجة بدمي ولحمي - وقد شارفت على السبعين - فما كان لدي من خصال حميدة وأخلاق رشيدة، فالفضل يعود إليه، فأنا حسنة من حسناته، وما أكثرها في المسلمين، وقد تعهد هذه البذور الطيبة التي زرعها في نفسي الفقيد الغالي، أستاذنا الكبير علامة الشام الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار فسقاها من معين خلقه الكريم، ورواها من علمه الغزير، حتى أصبحت كما أنا عليه الآن، فما بي من خير وفضل وعلم، فالفضل يعود إليهما، وما سوى ذلك من نقص وعيب فمني ومن الشيطان.

رحم الله أستاذي الكريم الشيخ محمد سعدي الياسين رحمة لا تنقطع ما دام المسلمون ينتفعون بعلمه وتآليفه، وألهم ولديه وآله السكينة والسلوان، وبني - والله - من الحُرقة على هذه الفرقة ما قاله الشاعر:

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى تأذنا بذهاب
لم يبلغ المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

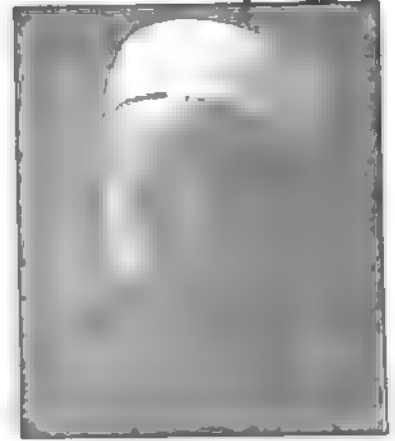
وأفضل ما يقوله المصابون: إنا لله وإنا إليه راجعون.



الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله^(١)

(١٣١١ - ١٣٩٦هـ)

(١٨٩٤ - ١٩٧٦م)



للشيخ مُسَلِّم الغنيمي

نعي العلامة محمد بهجة البيطار:

نعت رابطة العالم الإسلامي، ورابطة علماء دمشق، ومجمع اللغة العربية بدمشق، فقيه الإسلام والمسلمين بل والإنسانية كلها علامة الشام الشيخ الجليل: محمد بهجة البيطار الذي استأثر الله به ضحوة يوم السبت الواقع ٣٠ جمادى الأولى سنة ١٣٩٦هـ، الموافق ٢٩ أيار سنة ١٩٧٦م.

تشييعه وجنازته:

وشُيع من داره في الميدان، وصُلي عليه في مسجد كريم الدين - الشهير بـ (الدقاق) - والذي أمضى فيه ستين عاماً من عمره إماماً وخطيباً ومدرّساً وداعياً إلى الله، وكان هدفه تغمّده الله برحمته إيقاظ المسلمين من سباتهم، شارحاً لهم واقعهم المؤلم المظلم، وشاداً لهم إلى الطريق السوي، وذلك بالسير على طريق رسول الله ﷺ، منقذ الإنسانية، حاثاً لهم على

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة السابعة عشرة (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

العمل بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، قولاً وعملاً.

كانت الجنازة تسير الهوينى محمولة على أعناق الرجال بمهابة وجلال، وكنت أردد بيتاً من قصيدة قلت في رثاء عبدالحميد الكاتب:

لَيْتَ شَعْرِي هَلْ دَرَى حَامِلُوهُ مَا عَلَى الثُّعْشِ مِنْ وَفَاءٍ وَجُودِ

صد وإعراض ومُحَارَبَة ثم إقبال ومحبة واعتزاز:

وعدت بالذاكرة خمسين سنة، يوم كان يختار لنا أستاذي الأول الشيخ محمد سعدي الياسين رحمه الله من الشعر أرقاه، ومن النثر أغلاه، وكان الشيخ محمد سعدي وقتذاك يتلمذ على فقيه الإنسانية الشيخ محمد بهجة البيطار، وكيف حاور أوليائي أن يفصلوني عن الأستاذ الشيخ سعدي لأنه يتردد على الشيخ محمد بهجة، فأنا بقراءتي على أستاذ يتردد على الشيخ محمد بهجة أسىء إلى سمعة عائلتي (آل الغنيمي)، وكيف أصبح الحال اليوم من أن مَنْ تتلمذ عليه يعد ذلك مفخرة واعتزازاً، فقد تتلمذ عليه الملوك والأمراء والرؤساء والوزراء والدكاترة وأساتذة الجامعات، ولم يكن هذا الفارق العظيم بين الماضي المظلم المُتدَثِّرُ برداء العلم، والحاضر المشرق بنور العلم والعرفان إلا بسبب جهاده ونضاله وصبره على أذى المغرضين والحاسدين من المتمشixin الجهلة، وسار بالدعوة إلى الله على المنهاج الذي رسمه رب العالمين لسيد المرسلين ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾. فكانت النتيجة واحدة، صد وإعراض ومُحَارَبَة في أول الأمر، ثم دخول الناس في دين الله أفواجا.

كثرة مُشَيِّعِيهِ:

شيَّعه الوزراء والعلماء والأغنياء والفقراء، شيَّعوه بقلوبهم لا بالسير وراء نعشه، شيَّعه الوزراء اعترافاً بفضله وتبليه وترفعه عن طمع المتستترين بأثواب العلماء، وشيَّعه العلماء لأنه لم يُزاحم أحداً منهم على وظيفته، وشيَّعه الأغنياء لزهده عما في أيديهم، وشيَّعه الفقراء لأن جُلَّ مُرْتَبِهِ كان

لهم، ومن حقهم، كان ينفق سراً وعلانية، علانية ليكون قدوة للموسرين، وسراً إرضاء لرب العالمين، شيعه ممثلون عن الجمعيات الإسلامية، ورابطة العلماء، وأعضاء مجمع اللغة العربية، وجمهور غفير من سائر أنحاء دمشق.

تعداد مآثره وذكر مناقبه:

وما أن توارى الجبل الأشم والبحر الخضم، في لحده حتى علا جدار المقبرة الخطباء يمثلون الهيئات التي ينتسبون إليها، فخطيب يمثل العلماء، وخطيب يمثل أساتذة الجامعة، وآخر يمثل الجمعيات الدينية، وغيره يمثل الجمعيات الخيرية، وسواه يمثل القراء، يعددون مآثره ويذكرون مناقبه، ولكنهم جميعاً لم يذكروا سوى شذرة من سيرته، وخليج من بحر فضله، لأنهم عرفوا شيئاً وغابت عنهم أشياء.

ولئن فاتني شرف الاعتراف بفضله أسوة بالخطباء لمرضي وشدة حزني، فلي أسوة بأنجاله الكرام الدكتور يسار، والأساتذة عاصم وعبدالعزیز، أرجو أن لا يفوتني تسجيل بعض مآثره ومفاخره ممّا لمستّه منه، وشاهدته طيلة خمسين عاماً لزمته فيها ممّا لم يطلع عليه أحد غيري.

شهد له الخطباء، وبعضهم ممّن كان يناوئه في حياته أنه اجتمعت فيه من خصال الخير والخلق الحسن ما يندر بعضه لدى الكثير من العظماء، وسأذكر بعضها بغير تخير، ولكن ممّا يفيض به خاطر على جري القلم.

زهده في المال ومحافظة على الصداقة:

حضر لدمشق من الحجاز ١٩٣١م، بطلب من وزير المعارف الأستاذ محمد كرد علي لتعيينه معلماً في مدارس دمشق، فاستأذن الملك عبدالعزیز بن سعود رحمه الله لزيارة دمشق فأذن له، ولما حضر كانت الحكومة الفرنسية أقلت الوزارة، وحل محل الأستاذ كرد علي غيره فلم يتحقق الأمل بتعيينه فظل بلا عمل شهوراً، وكان صرف ما لديه من مال بشراء داره جانب جامع الزيتونة بالاشتراك مع حرمه، وكنت آنذاك معلماً عند المسيو (موريس) في المهاجرين، وكان صديقاً لأستاذنا الفقيد، فاتّفقا على أن يستبدلا هذه المدرسة الابتدائية بمدرسة ثانوية بمعاونة الأستاذ المرحوم عز الدين علم الدين التنوخي عضو المجمع العلمي، والأستاذ

تيسير ظبيان رئيس تحرير جريدة الشرق الأردنية الآن، وكان الجميع يعوزهم المال لتأسيس هذه المدرسة، فكان من الأستاذ (موريس) المقاعد والطاويل والكراسي والسبورات، واتفق الثلاثة، الأستاذ الفقيد، والأستاذ عز الدين، والأستاذ تيسير على أن يدفع كل واحد منهم خمس عشرة ليرة عثمانية ذهباً، وكانت هي العملة المتداولة آنذاك - رحمهما الله - ويدفع المبلغ كله الأستاذ الفقيد على أن يقطع بعضه مُشَاهَرَةً.

ثم استأجروا داراً في جادة (شورى)، ونقلوا لها المقاعد والأثاث، وكان في المدرسة الابتدائية في المهاجرين مئة وستون طالباً وطالبة في مدرستين متجاورتين منفصلتين، ولما انتقلنا إلى المدرسة الجديدة في جادة (شورى) لم يحضر سوى بضعة عشر طالباً وأربع طالبات، وفي أقل من شهر مات المشروع وتعين الأستاذ عز الدين في المعارف، وسافر الأستاذ تيسير إلى الأردن، وعاد شيخنا رحمه الله إلى داره، وعاد الأستاذ (موريس) إلى مدرسته الأولى التي هي داره، وبعد سنة كنت أسست مدرسة خاصة، سألته رحمه الله: ما فعل الله بالدرهم التي أقرضتها للأستاذ عز الدين والأستاذ تيسير؟ قال: يا بني المشروع أجهض ولما يتم، فإذا خسرت المال هل أخسر صديق العمر الأستاذ عز الدين وتلميذ الصبا الأستاذ تيسير، فهذا أخي وهذا ابني، فهل تظنُّ يا بني أنَّ خسارة الأصدقاء تُعَوِّضُ بمال الدنيا، المال يا بني وسيلة لا غاية، ثم رفع يديه وقال: اللهم اشهد أنني سامحتهما، اللهم اجعل المال بين أيدينا ولا تجعله في قلوبنا.

حرصه على الدرس وأسلوبه في عتاب طلابه:

كنت وابن عمِّه الشيخ نعيم نقرأ عليه «معيار العلم» لحُجَّة الإسلام الغزالي بعد صلاة الفجر في جامع الدقاق، ووافق في يوم من أيام الشتاء أن تأخر الشيخ نعيم عن صلاة الفجر في الجامع، وحضر الشيخ رحمه الله فوجد الغرفة مغلقة، فخطر له أن يحضر لمسجدي في الساحة، فلما وصل وجد بعض المصلين تحت الرواق، ولما سألهم عني، قالوا: لم يخرج اليوم لصلاة الفجر، فعاد إلى منزله والمطر يهطل، ثم قبيل شروق الشمس،

ذهبتُ مسرعاً فوجدت الشيخ نعيم قد حضر توأ، فانتظرنا حتى طلعت الشمس، ولما لم يحضر الشيخ قلنا: لنذهب إليه في الدار لنريه كيف أننا نحرص على الدرس، ولما وصلنا إلى منزله خرج إلينا هاشاً باشاً مُرحباً، فدخلنا باعتزاز نتباهى بحرصنا على الدرس، فلما استقر بنا المقام اعتذر عن تأخر الوقت، ورغب إلينا أن نستبدل الدرس بفطور، فوافقنا على أن لا يتكرر مثل هذا الإهمال، ولما حضر الطعام اعتذر بأنه تناول فطوره مع العائلة، فجلسنا نأكل وحدنا، فقال رحمه الله: لا بدّ مع الطعام أن يكون كلام، فلكم الطعام هنيئاً مريئاً وعليّ الكلام تسليّةً لكما ولفتح الشهية.

قصة محمد الخضر حسين مع الطلبة المتأخرين عن حضور مجالس العلم:

ثم قال: كنا نقرأ على المرحوم السيد الخضر حسين التونسي (المستصفى) للغزالي وصحيح مسلم، وكان منزله جانب الجامع في باب السريعة، فإذا فرغ من صلاة الفجر، ورأى بعض الطلاب جلس للدرس، وإن لم يرَ أحداً دخل منزله ولم يخرج، فوافق أن حضرت مرة أنا والشيخ حامد التقي والشيخ مصطفى الحلاق، فوجدناه قد ذهب لداره، فقلنا: نطرق عليه الباب ونعتذر عن تأخرنا، فطرقنا عليه الباب، فأطلّ من غرفة فوق الباب، فلما رآنا قال: انتظروا، ثم دخل فظننا أنه نزل يفتح الباب، فلم نشعر إلا وسطل من الماء البارد يَنْصَبُ علينا من النافذة التي أطلّ منها، وقال: هذا جزاء من يتأخر عن الدرس، فذهبنا مخجولين والماء يقطر من جبيننا، ثم ابتسم، فظننا أنه يتسم لمنظره والماء يقطر منه.

ثم استطرد قائلاً: أنا اليوم ذهبت باكراً إلى الجامع، فوجدت الغرفة مغلقة. ثم ذهبت لعند الشيخ مسلم فأخبرني بعض من في المسجد أنه لم يخرج اليوم لصلاة الفجر، فعدت إلى المنزل والماء يقطر مني، فهذا عذري لعدم أكلتي معكما، ثم سكت، وقد أغضى حياءً لهذا العتاب الخفيف والتوجيه اللطيف، فقلت بعد أن جفّ حلقي وبست اللقمة في فمي: لئن كان الأستاذ السيد الخضر حسين ألقى عليكم سطلاً من الماء البارد، فقد سكبت علينا

بعتابك هذا حُلة، لا من الماء الساخن، بل من القطران المغلي، ونحن - والله - نستحق الصفع بالقبقاب، لا تعريضاً بمثل هذا العتاب.

موقفه ممّن يناوئه ويعاديه:

هناك شيخ نُصّب من نفسه للرد على السلفية والسلفيين برسائل تحوي الكثير من الذمّ والقدح ونَبَذ الألقاب، زاره هذا الشيخ مرة ومعه رسائل من هذا النمط، وقَدَّمها إليه بكل بساطة، فتقبَّلها شاكراً مُثْنياً، ودفع له بعض المال مُؤازرةً لأنه يُوزّعها مجاناً، ثم أكرمه بطعام وشراب، وخرج معه واستأجر له سيارة ودفع له أجرتها، وأوصى السائق أن يوصله للمكان الذي يريد.

وكان يزوره بعض الشيوخ ممّن يخالفونه في رأيه (السلفية)، فإذا خرج من منزله ورآه بعض الناس، يقول متعجباً: ماذا تفعل هنا؟ أَلست كنت تذهم بالأمس، يجيب الشيخ: كنت عنده أهديه سواء السبيل، وحوادث من هذا النمط أكثر من أن نذكر.

رفقه بالموعظة وحُسن أسلوبه فيها:

أقامت الحكومة السورية حفلاً بالجامعة السورية بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني - رحمه الله - وكان يوم ذاك ابنه الشيخ تاج الدين رئيساً للحكومة السورية، وحضر الحفل العلماء والوزراء ورئيس الوزراء، ورئيس الجمهورية، وعددٌ من سفراء الدول العربية والإسلامية، وممثلون عن الطوائف المسيحية، وكان فقيداً الغالي أحد الخطباء فلما علا المنبر أخذ يُعَدِّد مناقب الشيخ بدر الدين ومزاياه وعلمه وفضله وجرأته بالدعوة إلى الله والنصيحة في دين الله، كانت هيئة الحكومة مع المدعوين خلف الخطيب على المسرح، وفجأة التفت الشيخ رحمه الله نحو هيئة الحكومة، وقال: كان شيخنا الشيخ بدر الدين رحمه الله إذا حضر حفلاً مثل هذا وقليلاً ما كان يحضر، أو زاره رئيس أو كبير مسؤول يقول لهم بكل جرأة وفصاحة:

أيها الرؤساء، أيها الوزراء والأمراء، أيها الأغنياء: أنتم خلفاء الله^(١)

(١) في هذا التعبير نظر لا يخفى.

في أرضه على عباده، ووكلاء عنه في ماله، فانظروا ماذا تقولون في خلافتكم، وماذا تتصرفون فيما وكلتم به، فإن أحسنتم في خلافتكم وأديتم الأمانة فيما أوتمنتم عليه فنظرتم إلى الكبير نظرتمكم إلى الآباء، وإلى الصغير نظرتمكم إلى الأبناء، وعاملتم الفقراء بالإحسان وأداء الحقوق، وعدلتم في الرعية، وقسمتم بالسوية، ولم تجعلوا رقاب العباد لكم مطية إلى أغراضكم الدنيئة، جعلكم مع عباده الأبرار في جنات تجري من تحتها الأنهار، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وإن انحرفتم عن الطريق السوي واثمتم بأمير الشيطان القوي، ومن مناصبكم مطايا لشهواتكم وأغراضكم، أدخلكم ناراً وقودها الناس والحجارة في يوم شديد، يوم يقال لجهنم: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد... واسترس في نصائح تفوق الدر والجوهر، عند من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم عاد إلى وصفه الأول، والتفت نحو الجمهور، وقال: هكذا كان شيخنا الشيخ بدر الدين يقول تغمّده الله برحمته وأدخله فسيح جنته.

ذكريات خمسين سنة:

وأخيراً لا يسعني في هذه العجالة أن أذكر ذكريات خمسين سنة قضيتها في ملازمته، ورؤيت من علمه، ورأيت من جلّمه وكرمه وأدبه ولطفه وعطفه وزهده وصلابة دينه وأصالة خلقه ورقة قلبه وحنانه ومحاسبة نفسه ومؤانسته وبشاشة وجهه وطلاقة لسانه وفصاحته وبيانه، إلى آخر الجدول من مكارم الأخلاق، فقد تجسّدت فيه مكارم الأخلاق حتى كانت روحاً وخلقاً أكثر منها جسداً وخلقاً.

ولكن أملنا كبير في أن يقيم المجمع اللغوي العربي بدمشق الذي كان عضواً فيه حفلة تأبين، فهو أجدر من سواه بمثل هذا التكريم، ولعله أقدم عضو فيه منذ تأسيسه.

موجز عن حياته العلمية والعملية

- ١ - ولد بدمشق ثاني يوم من رمضان عام ١٣١١هـ.
- ٢ - كانت دراسته الابتدائية في المدرسة الريحانية، والثانوية في الكاملية، واللغة الفرنسية في العازارية، وأجادها على يد المسيو موريس.
- ٣ - تلقى علومه العربية والدينية والعقلية على والده الشيخ بهاء، وعلى عالمي الشام: جده الشيخ عبدالرزاق البيطار، والشيخ جمال القاسمي. وعلى المحدث الشيخ بدر الدين الحسني، وعلى العلامة الجليل الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر، وهو خاتمة شيوخه، وله في ذلك أبيات:

يا سائلي عن درس ربِّ الفضل مولانا الإمام
ابن الحسين التونسي محمد الخضر الهمام
سَلِّ عنه مستصفي الأصول لليث معترك الزحام
أعني الغزالي الحكيم رئيس أعلام الكلام
وكذاك في فنِّ الخلاف بداية البعالي المقام
أعني ابن رشد مَنْ غدا بطل الفلاسفة العظام
وكذلك المغني إلى شيخ النحاة ابن الهشام
وكذا صحيح أبي حسين مسلم خُبْر الأنام
وكذا كتاب أبي يزيد بن المبرد في الختام

وظائفه وأعماله:

- ١ - انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٣٤٠هـ.
- ٢ - انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي في بغداد عام ١٩٥٤م.
- ٣ - علّم في مدارس دمشق الخاصة والرسمية الثانوية، وفي الحجاز مديراً للمعهد العلمي السعودي، وعضواً بمحكمة مكة الشرعية الكبرى،

ونائباً لرئيس هيئة المراقبة القضائية، ومفتشاً للعلوم الدينية، ومدرساً للتوحيد والتربية العلمية.

٤ - خدم في القضاء تطوعاً، ثم عاد لدمشق سنة ١٣٥٠هـ، فوجد أعماله مؤرّعة، وفقد من أعوام التقاعد أكثر من عشر سنين.

٥ - دعتة جمعية المقاصد في بيروت للتدريس في كليتي البنين والبنات، وانتدبته وزارة معارف الشام لتدريس علوم الدين في تجهيز البنات بدمشق، فجمع بين بيروت ودمشق في أسبوع واحد يغادر دمشق أصيل يوم الجمعة إلى بيروت ثم يعود مساء الثلاثاء من كل أسبوع.

٦ - عُيّن مدرساً للعلوم الدينية في تجهيز دمشق للبنين والبنات.

٧ - ومدرساً للتفسير والحديث في كلية الآداب ومدرساً في كلية الشريعة.

٨ - عاد للحجاز ١٣٦٣هـ، وأسس دار التوحيد بالطائف، وأعدّها لتخريج القضاة والمفتين والدعاة إلى سبيل الله.

٩ - وآخر ما قرأنا عليه في جامع الدقاق «الموافقات» للشاطبي، وكان من مراجعنا الأمدي والمستصفي.

وحسبُه ما قال فيه بعض طلابه الأدباء:

وما أستاذنا البيطار إلا	وحيد الشام في علم الكتاب
فيشرح حين يشرح كل صدر	بمعنى من معانيه العذاب
ويبعث همّة الآساد فينا	كأن الشيخ في شَرخ الشباب

أهم رحلاته إلى البلاد العربية والأجنبية:

١ - كانت أولى رحلاته: عام ١٣٣٨هـ، إلى الحجاز ونجد، للدعوة إلى عقد اتفاق عام بين أمراء الجزيرة وأئمتها الكرام، وكلفه بهذه المهمة الملك فيصل بن الحسين.

- ٢ - الرحلة الثانية: إلى الحجاز بدعوة من المغفور له الملك عبدالعزيز بن سعود لإنشاء معهد ديني في الطائف.
- ٣ - الرحلة الثالثة: إلى مصر، لحضور مؤتمر مواصلة العمل الإسلامي المسيحي لإحلال السلام.
- ٤ - الرحلة الرابعة: إلى روسيا بدعوة من مجمع العلوم الروسي.
- ٥ - الرحلة الخامسة: إلى الولايات المتحدة بدعوة من أصدقاء الشرق الأوسط لتقريب وجهات النظر بين الأمتين الإسلامية والمسيحية.
- ٦ - الرحلة السادسة: إلى باكستان والهند بدعوة من رئيس جامعة بنجاب، وكان رئيساً للوفد السوري.

مؤلفاته وما أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه:

بلغت مؤلفاته وما حققه وخرّج أحاديثه خمسة عشر كتاباً، نذكر بعضها: نقد عين الميزان، نظرة في النفحة الزكية، الثقافتان، إكمال تفسير سورة يوسف للسيد محمد رشيد رضا، تخريج أحاديث قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث لشيخه القاسمي، نشر مسائل الإمام أحمد وتلميذه الإمام أبي داود السجستاني، تخريج أحاديث البخلاء للجاحظ، كتاب المعاملات في الإسلام، تحقيق كتاب الموفي في النحو الكوفي، شرح كتاب أسرار العربية لأبي البركات الأنباري، حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، الإسلام والصحابة الكرام.

فرحم الله فقيد الأمة الإسلامية والإنسانية علامة الشام أستاذنا الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار، وأجاد على جدته فيض الرحمة والغفران، وألهم آله وذويه ومريديه ومحبيه الصبر والسلوان.





العلامة المصلح محمد بهجة البيطار (١)

للقاضي سعدي أبو حبيب

العلامة الكبير محمد بهجة البيطار الذي فقدناه، واحد من نجوم الهدى والخير، نبع نور، وفكر، وإرشاد إلى السبيل السوي.

وَصَفُّ الْبَيْطَارِ لِحَالِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عَصْرِهِ:

ولد رحمه الله تعالى عام ١٣١١هـ - ١٨٩٤م، في عصر كانت فيه الأمة تحت ظلّ الخلافة العثمانية، وحين بلغ سن الشباب وصف حال أمته، فقال:

«ألا ترى أنا لما كنا صالحين لاستعمار الأرض (عمارتها) أيام كان الإسلام في حضارته ونضارته، كيف امتدّت سلطتنا، وعلت كلمتنا، وقوي نفوذنا، وخضع العالم لقوة سلطاننا.

ولمّا انحرفنا عن جادة الصراط السوي، كيف انقلب الحال، وساء المآل، وقام أناس من بيننا أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يزعمون أنهم مصلحون، ويشهد الله أنهم مفسدون، وأنهم فيما زعموه من الإصلاح لكاذبون: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١)

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة السابعة عشرة: (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

آلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، نبذوا كتاب الله وراءهم ظهرياً، أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً، لا صلاة، ولا صيام، ولا حلال، ولا حرام، قصرُوا همتهم على دراسة الكتب الغربية، ونسوا ما لسلفنا من العلوم العربية، وهم الضاربون بأوفر سهم في كل فن وعلم. عشقوا الغرب، وأولعوا بلغته، وضُبعُوا بصبغته، ففسدت أخلاقهم، وساءت آدابهم، وصار التفرنج لهم عادة، وذكر أوروبا لهم عبادة. وليت هؤلاء الخفاف العقول قلّدوا الأوروبيين بالشيء النافع، والعمل الرافع، ولكنهم يقلّدونهم بالأزياء، واستحسان تبرج النساء، وإذا نشر الواحد منهم مقالة في صحيفة، توقم نفسه أنه صار بها المفرد العلم، الذي يشار إليه بالقلم.

إن الزراذير لما قام قائمها توهمت أنها صارت شواهيها

يَسْتَسْمِنُ نَفْسَهُ، بِتَخِيلِ الْعِلْمِ وَهُوَ ذُو وَرَمٍ، نَارُ هِمَّتِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ خَامِدَةٌ عَنِ الضَّرْمِ. أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ اللَّهُ بِيَدِهِمْ، وَلَا يَنْصَرِمُ عَلَى عَدُوهِمْ مَا لَمْ يُقْلَعُوا عَنْ غِيَّتِهِمْ، وَيَرْجِعُوا إِلَى رُشْدِهِمْ، وَيُنَبِّئُوا إِلَى رَبِّهِمْ، وَيَأْخُذُوا بِهَدْيِ نَبِيِّهِمْ، وَيَسْلُكُوا سَبِيلَ السَّلَفِ الصَّالِحِ. وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْقَائِلَ: لَنْ يَصْلَحَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوْلَاهَا.

فَمَنْ آيَنَ لَأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ أَنْ يُصْلِحُوا غَيْرَهُمْ، وَهُمْ لَيْسُوا صَالِحِينَ بَأَنْفُسِهِمْ فَضْلاً عَنْ إِصْلَاحِ غَيْرِهِمْ، وَفَاقْدُ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ. وَمَنْ آيَنَ لَهُؤُلَاءِ الْأَحْدَاثِ الْأَغْرَارِ أَنْ يَرِثُوا الْأَرْضَ وَالْدِيَارَ، وَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِبَاحَةِ الْمُنْكَرَاتِ، وَانْتِهَاكِ الْمَحْرَمَاتِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ - وهؤلاء بينهم وبين الأعمال الصالحات كما بين الأرض والسموات فلم يكونوا موعودين أَنْ يُسْتَخْلَفُوا فِي الْأَرْضِ - ﴿كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المور: ٥٥].

بل بذلوا من بعد أمنهم خوفاً، ومن بعد عزهم ذلاً، ومن بعد قوتهم

ضعفًا. وقد صال - وا أسفا - عليهم أعداؤهم، فأراقوا منهم الدماء، وأزهقوا نفوس الأبرياء، وهتكوا أعراض النساء، وأهلكوا الحرث والنسل، والأوطان والأهل، ولم يغادروا فظيعة إلا فعلوها، ولا شنيعة إلا ارتكبوها..

نعم صَالَ علينا الأغيار، فَجَاسُوا خلال الديار. أَتَوْا أرضنا فنقصوها من أطرافها، وأحاطوا بها من أكتافها، وكادوا أن يذهبوا بالقلب لا سمح الله... يا أسفي على الإسلام والمسلمين، ويا لهفي على البلاد التي افتتحت بدم الأجداد الفاتحين كيف آل أمرها إلى السقوط بأيدي الكافرين^(١).

أسطر ذوات عدد، أرجو - أيها الحبيب - أن تقرأها مرة، ومرة، وأن تتدبّر حروفها وفواصلها، لأنها عرض دقيق للواقع المرّ في مطالع هذا القرن، في إطار يحمل من المجد الغابر عبقه، ومن العزّ التليد لونه، لتزيد الصورة وضوحاً وجلالة.

رسم الفقيد الكبير صورة أمته، وهو لم يدرك العشرين بعد، فدلّ على غُمق فكره، وإدراكه لما آل إليه الحال. فأَيّ نوع من الشباب كان؟.. وأي جهد سيبدل للإصلاح؟.. على قدر أهل العزم تأتي العزائم...

دعائم الإصلاح عند الشيخ البيطار:

لقد أقام أستاذنا الجليل بناء الإصلاح على الدعائم الآتية:

١ - الدين:

هو الركيزة الأمّ في إصلاح الفرد والأمة عند أستاذنا الجليل، لأنّ في أحكامه سعادة الدنيا والآخرة.

ولأنّ ديناً أخذ بيد العرب من الجاهلية الجهلاء، والضلالة العمياء، فجعل منهم سادة الأمم نوراً، وخلقاً، وعلماً، وقوة، لقادر من جديد على

(١) نقد عين الميزان - ص ٣١ - ٣٣ (سعدى).

إنقاذهم من واقعهم المؤلم، وعيشهم النكد في وحل التخلف، ورفعهم إلى سدة الرقي والمدنية... وما أشبه الليلة بالبارحة.

دعا أستاذنا العلامة إلى العقيدة على مذهب السلف، اقتداءً بشيخ الإسلام ابن تيمية، وحث على العبادة، والتمسك بها، لأنها ترمي إلى إذكاء فكرة محاسبة النفس، ومراقبة الرب جل جلاله، وتُنمّي الروح، وفي ذلك الخير، كل الخير، للفرد وللأمة.

قال في وصف الصائم: «فالصائم الذي يغلب عقله شهوته، ولا يخون دينه بالأكل نهاراً، سراً أو علانية، لا يمكن أن يخون وطنه، أو يخدع في أمره، فيبيعه بثمن بخس من غير أهله»^(١).

وعلى ذات الوتر الهادف يتحدث عن بقية العبادات.

ولا يمكن للأمة أن تفهم الغاية السامية للعبادات إلا إذا قام العلماء بتنوير أفكار الناس، وتهذيبهم، وترسيخ العقيدة الصحيحة، وتفهمهم أحكام الحلال والحرام، وأسرار التشريع، و«بأن الشريعة أبر بالإنسان، وأرفق به من أبيه وأمه، وأن جميع ما شرعه الله للناس فهو لخير مجتمعهم الإنساني ولدفع الشرور والغوائل عنهم...»^(٢).

واجب فقهاء الأمة:

وهو يريد من العالم أن يكون قدوةً سالحة، عاملاً بما يقول، مخلصاً في دعوته إلى سبيل ربّه، منفتح الفكر ضمن حدود الشريعة، وأحكامها..

ففي رسالة كريمة وجّهها إليّ نقراً هذه الجملة: «ولا شك أن واجب فقهاء الأمة مواجهة الحقائق، وبيان الأحكام في جميع ما استحدثت من المخترعات إلى اليوم على قاعدة جلب المصالح للأمة، ودرء المفاسد عنها. أي أن تكون فتاوى العلماء الواقفين على أسرار التشريع، وكُنه الزمن،

(١) كلمات وأحاديث، ص ٢٧ - ٢٩ (سعدي).

(٢) كلمات وأحاديث، ص ١٩ (سعدي).

وحاجة الأمة هادية إلى حفظ وحدتها، وتنمية ثروتها، وحماية حوزتها، ودفع عوادي الشر عنها، مع إثبات أن ذلك هو الذي يقتضيه هدي الإسلام، وترشد إليه آيات القرآن، وأن المسلمين هم أولى بالمسابقة والسبق في هذا المضمار...»^(١).

٢ - المحبة:

إن الأمة لا يمكن أن تشق طريقها في هذا الكون إلا إذا كانت المحبة تلف نفوس أبنائها، فتسمو بهم فوق كل خلاف. وإذا خلت من هذه المحبة أمة من الأمم، فإنها إلى التمزق لا بد صائرة... ولقد آمن أستاذنا الجليل بذلك ودعا إليه.

٣ - العلم:

كان العلامة جمال الدين الأفغاني يرى أن إصلاح الأمة لا يكون إلا على يد «سلطان مستبد عادل».

وكان يجوب العالم الإسلامي باحثاً عن رقعة من الأرض الإسلامية يطبق فيها تلك النظرة، ولكن دون جدوى.

وكان الإمام محمد عبده، صفيّ الأفغاني وخليله، يؤمن بنظرية أستاذه، ولكنه بعد أن ذاق مرارة النفي والتشريد، أعرض عن تلك النظرة، وضرب صفحاً عن العمل السياسي، وصار همه الأول هو العلم، لأنه طريق النهضة بهذه الأمة، ولا طريق سواه.

عزوفه عن السياسة والأحداث العظام التي مرّت بها الأمة:

وأخذ هذه النظرية عنه تلميذه، وصديقه الإمام السيد محمد رشيد رضا، وعنه أخذ شيخنا الكبير ذلك، وظلّ يدعو إلى هذه النظرية عمره.

(١) رسالة مؤرخة في ٢٩ محرم الحرام سنة ١٣٨٧ الموافق ١٩٦٧/٥/١ (سعدى).

وقد بلغ من إيمانه بها، أنه لم يُبَدِّ يوماً رأياً في السياسة. ولو في مجالسه الخاصة، مع أنه عاش أحداثاً عظاماً مرّت بها الأمة.

ونحن نعجب لذلك، ونسأل: لم اتخذ أستاذنا الجليل هذه النظرة، وعزف عن رأي ابن تيمية في السياسة والإصلاح؟! ولم لم يتأثر بشيخه الكبير الإمام محمد الخضر الحسين التونسي الذي كان مشعل جهاد في سبيل تحرير تونس الحبيبة؟!

لعل ذلك، في رأينا، يعود إلى طبعه الهادئ، وخُلِّقه الهين اللين.

دعوته إلى العلوم الدينية والعصرية:

دَعَا شيخنا الجليل إلى العلوم الدينية، وليس هذا بدعاً من الأمر، ودعا إلى العلوم العصرية التي هي أسس الحضارة والمدنية..

وكان يستدل على ذلك بالقرآن الكريم، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا..﴾ [البقرة: ٢٩]: «هذا خطاب عام لأمة القرآن يدعوهم، ويوجّه نظرهم إلى ما أودع تعالى في جوف هذه الأرض من الكنوز، والمعادن، ويرشدهم إلى الاستفادة منها، والانتفاع بما بثّ فيها من الخواص والقوى، ويثبت أن جميع ما استحدثته أمم الغرب من المكتشفات، والمخترعات، هو ممّا أرشد إليه الإسلام، وسبقت إلى العمل به الأمة العربية في عصورها الذهبية. فردّه ردّاً لنصوص القرآن، وتعطيل لأحكامه، وتجريد لهذه الأمة من كلّ ما يُعزّز قوتها، وينمي ثروتها، ويدفع عوادي الشر عنها، وأي جناية على هذه الأمة أكبر من هذه الجناية..»^(١).

وما دام الغرب قد تقدّم الأمة العربية في دنيا الحضارة، فما على

(١) كلمات وأحاديث، ص ٥١ (سعدى).

شبابنا من ضير إذا سافروا إلى هناك لتعلم الفنون، والصناعات، التي تتوقف عليها حياة البلاد ورفيها...»^(١).

وعد ذلك السفر هجرةً محمودةً شرعاً...^(٢).

حجته على تعليم المرأة:

وهو في دعوته هذه لا يخص الرجل وحده، بل يحث على تعليم المرأة «ما تحتاج إليه من العلوم، والمعارف، وتدبير المنزل، وإسعاد الزوج، وتربية الأولاد...»^(٣).

وهو يصرُّ على أن تبقى للمرأة شخصيتها، وآدابها الإسلامية الرفيعة، وشرفها، وإباؤها...

رده على من زعم أن حجاب المرأة وتعليمها لا يجتمعان:

وهو يعجب لفئة من رجال الفكر في أوائل هذا القرن، ترى أن حجاب المرأة، وتعليمها، لا يجتمعان.

قال في الردِّ على هؤلاء: «كيف استطاعت الراهبات المُبشرات في القرن العشرين أن يُحافظن على حجابهنَّ، وآدابهنَّ، وأن لا يرى أحدٌ منهم غير وجوههنَّ، وأكفهنَّ، وأن يَكُنَّ فوق نساء المتفرنجين علماء، ومعرفة بحال العصر، وبأيديهنَّ تدار المؤسسات الدينية، والمعاهد العلمية، والمستشفيات الخيرية العمومية في الشرق والغرب...؟ فهل تكون المرأة المسلمة، المتعلمة أقل حظاً منهنَّ في حجابها وآدابها...»^(٤).

(١) كلمات وأحاديث، ص ٨٥ (سعدي).

(٢) لا نحلو هذه الدعوة إلى الانتعاش للعرب من أخطار، ولا يصح اعتبارها محررة محمودة.

(٣) المرجع السابق، ص ٦ (سعدي).

(٤) المرجع السابق ص ٤٧ (سعدي).

قال ذلك في أوائل الثلاثينات من هذا القرن في وقت كان إقبال الرجال على العلم قليلاً. فكيف إقبال النساء...؟

اهتمامه بالمعلمين:

وهو في دعوته إلى العلم، ينظر إلى المعلمين نظرة احترام وإكبار، لأنهم يبذرون العلم والمدنية في عقول براعم الأمة، لتثمر بعد حين خيراً، وعطاء، وهو يدرك ما في هذه المهنة الكريمة من مشقة وصبر.

ففي محاضرة ألقاها على مدرج جامعة دمشق في أوائل سنة ١٩٣٦م، خاطب المعلمين قائلاً: "وأنتم معشر المعلمين عليكم أن تطالبوا أنفسكم بالصبر على ما أنتم بسبيله من تربية النشء، وتعليمه إن كنتم في عملكم هذا ورثة الأنبياء...". وطلب في ختام محاضراته من وزير المعارف، وكان بين الحضور، أن يعمل على تحقيق أمرين:

- ١ - تأسيس منتدى للمعلمين، يجمع شملهم، ليدرسوا فيه شؤون التعليم، والنهضة الفكرية في البلاد، ويكونوا بعيدين عن المقاهي، والملاهي التي لا يستفيدون منها، ولا تستفيد البلاد، إلا إضاعة الوقت والمال.
- ٢ - الاهتمام بإيجاد أفلام أخلاقية، علمية، تُعرض على المعلمين، والطلاب بدلاً من ارتيادهم دور السينما التي تُعرض فيها روايات لا تتفق مع الأخلاق في شيء...

دعوة خير لأساتذتنا الميامين، فهل في ناديم ما كان يرغب شيخهم الذي سَلَخَ حياته، وهو يَعْلَم، ويعْلَم...؟

وهو في دعوته إلى العلم يصرُّ بعزم على أن يكون الدين هو الأساس الفكري الذي تقوم عليه التربية والتعليم، وأن تكون الأخلاق الفاضلة حية عامرة في ضمير الأمة، أساتذة، وطلاباً، على وجه الخصوص، لأنَّ جيلاً متعلماً بلا خلق، ولا دين، لا خير فيه، ولا تخني أمته على يديه إلا الصاب والعلقم.

٤ - العمل:

كان فقيدنا الجليل يحث الناس على العمل المقرون بالأخلاق... وكان يستدل على ذلك بما ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْتَرَى الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وكان يعتبر هذه الآية الكريمة باعثة على النهضة والرفقي والثروة...

القوة والأمانة صفتان مترابطتان:

فالقوي هو ابنُ العمل، أي عمل كان العارف به، المتقن له... والأمين هو المحافظ على الشرف، والأمانة، والاستقامة في العمل... فلا يغش، ولا يسرق، ولا يخون، ولا يخلف وعداً، ولا ينكث عهداً... وهما صفتان متلاحمتان، فإتقان العمل - إذا كان مُجرّداً عن الأخلاق - لا خَيْرَ فيه، وذو الخلق إذا لم يكن متقناً للعمل لا يمكن أن ينهض على زنده بناء، ولا تقوم صناعة... وضدَّ شيخنا الكبير فيما قال... فهل يلتزم عمالنا، عماد نهضتنا، بإتقان العمل وقواعد الأخلاق...؟

وبعد: هذه جولة في الخطوط الفكرية الكبرى التي قامت عليها نظرية الإصلاح عند أستاذنا الجليل الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله تعالى...

كلمة العلامة الإبراهيمي في وصف البيطار:

وقد قال العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله في وصفه:

«الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار علّم من أعلام الإسلام، وإمام من أئمة السلفية الحقيقية، دقيق الفهم لأسرار الكتاب والسنة، واسع الاطلاع على آراء المفسرين والمحدثين، سديد البحث في تلك الآراء، أصولي النزعة في الموازنة والترجيح بينها، ثم إن له - بعد - رأيه الخاص، يوافق ما يوافق عن دليل، ويخالف ما يخالف إلى صواب.

والأستاذ البيطار مجموعة فضائل . ما شئت أن تراه في عالم مسلم من خلق فاضل إلا رأيته فيه، مجاوز للحدود المذهبية والإقليمية، يزن هذه المذاهب الشائعة بآثارها في الأمة، لا بأقدار الأئمة، ويعطي لكل ما يستحق، جريء على قوله الحق في العلميات، ولكن الجرأة منه بلطفها الوقار، والوقار فيه تزيّن الجرأة، فيأتي من ذلك مزاج خلقي لطيف، متساوي الأجزاء، ملتحم الخلايا، قل أن تجده من علمائنا المعدودين .

والأستاذ البيطار مفكر عميق التفكير، وخصوصاً في أحوال المسلمين بعلمهم، وأدوائهم، طب بعلاجهم ودوائهم . . يعتمد في تحصيله وتربيته على طودين شامخين من أطواد العلم والعمل: أحدهما الإمام عبدالرزاق البيطار، والثاني الإمام المحدث جمال الدين القاسمي، عنهما أخذ، وفي كنفهما نشأ، وعلى يدهما تخرّج، فجاء عالماً من ذلك الطراز الذي نقرؤه في التراجم . . .»^(١).

وصدق فيما قال . . .

ومنّ كالبشير الإبراهيمي معرفةً بالرجال؟ عليه وعلى علمائنا الرحمة، والرضوان .



(١) كلمات وأحاديث، ص ٩٩ - ١٠٠ (سعدي).



الشيخ محمد سعيد المسعود: مفتي الباب^(١)

(١٣٢٦ - ١٣٩٧هـ)

(١٩٠٨ - ١٩٧٦م)



للأستاذ: حسن عبدالحميد

منزلة العلماء:

يقول الإمام ابن القيم: العلماء بمنزلة النجوم في السماء، يهتدي بهم الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أ فرض من طاعة الأمهات والآباء بنصر كتاب الله قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وأولو الأمر هم العلماء كما قال المفسرون.

١ - شُيِّعت مدينة الباب في الأسبوع الأول من شهر المحرم^(٢) غلماً من أعلام الفقه الإسلامي، ورائداً من رواد العمل الإسلامي.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة الثامنة عشرة. (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م)

(٢) توفي يوم الأربعاء الثامن من المحرم ١٣٩٧، وكان مولده في ٥ ربيع الأول ١٣٢٦ الموافق ١ نيسان ١٩٠٨ كما في كتاب: «الربانيون الثلاثة» للشيخ محمد زكريا المسعود ص ٣٥٨.

دراسته في المدرسة الخسروية:

٢ - درس على يدي كبار العلماء في المدرسة الخسروية بحلب، وكان ترتيبه الأول دوماً. من أساتذته: الشيخ راغب الطباخ، والشيخ أسعد العبجي، والشيخ فيض الله الأيوبي، والشيخ أحمد الزرقا، والشيخ عيسى البيانوني، والشيخ أحمد الشّماع رحمهم الله جميعاً. وكان زميله في الدراسة الشيخ محمد الحامد رحمه الله، وتتلّمذ في مدينة الباب على الشيخ مصطفى أبي زلام رحمه الله تعالى.

دروسه ونشره العلم:

٣ - شَمّر عن ساعديه لنشر العلم فَوَزَّ تخرّجه، فكانت دروسه إلى يوم وفاته موزّعة على مساجد البلدة يُدرّس في اليوم أربعة دروس في الفقه والحديث والنحو.

إحياءه رسالة المسجد:

٤ - كان كثير الإعجاب بالشيخ عبدالكريم الرفاعي رحمه الله في جعل المسجد ميداناً للحلقات العلمية في مختلف الفنون. وقد افتتح - رحمه الله - في الصيف الماضي دورة شرعية للطلاب ظلّ يدرّس فيها الفقه الإسلامي بهمة ونشاط بالرغم من بلوغه سن السبعين.

تشجيعه طلاب العلم:

٥ - أبرز ما فيه - رحمه الله - حبه لتشجيع طلاب العلم بالنصح، بالمال، بالثناء عليهم في كلّ مجلس، في حضوره لدروسهم وهو أستاذ لهم.

في دار الأرقم:

٦ - كان رحمه الله من الرّوّاد الأوائل في دار الأرقم، مدرسة شباب محمد ﷺ في العصر الحديث، وكثيراً ما حدّث عن زمّالته وإعجابه بالشيخ المجاهد مصطفى السباعي رحمه الله، وأنه رفيق درب له.

وكان - رحمه الله - الأب العطوف لتلاميذ السباعي وأتباع الدعوة الإسلامية الحديثة في الباب.

نشاطه الاجتماعي:

٧ - وكان رحمه الله ذا نشاط اجتماعي بارز:

- أ - فهو عضو في (جمعية البر والأخلاق الإسلامية).
- ب - وعضو في (جمعية النهضة الإسلامية) في الباب، وله في تأييدها والثناء على رجالها جهاد مبرور.
- ج - وهو رئيس لجمعية رفع المستوى الصحي في البلدة.
- د - كان في زيارته المتوالية للريف يفتح المساجد الجديدة، أو يفضّ المنازعات ويعمل للنصح، أو يحيي ذكرى مولد النبي عليه السلام، وكثيراً ما حدثني أنه يركب الحصان يدعو إلى الله من قرية إلى قرية.

حُبُّه للشباب المسلم:

- ٨ - كان رحمه الله يُحبُّ الشباب المسلم من كلِّ قلبه، ويتواضع لهم، ويرى فيهم أمل الإسلام المشرق.
- كان يقيم لهم المسابقات الدينية في السيرة والفقه، ويقدم لهم الهدايا والجوائز القيمة.
- كان يحضر أعراس الشباب المسلم، ويمشي خلف العرس حتى يوصله إلى بيته بين التكبير والتهليل سائلاً سنة حسنة في البلدة بجعل الأعراس مهرجاناً إسلامياً، يخطب فيها الخطباء، وينشد فيها الشعراء.
- كان يحرص على سلامة عقيدتهم، ولو كانوا في أول الأمر ذوي مظهر غير إسلامي.
- أسعد لحظاته عندما يرى شاباً أطلق لحيته في هذا الخضم الهائج بالفتن والشهوات.

- تنبّه ونبّه لما يُراد بالصغار من إضلال وإفساد، ولطالما صرخ بأعلى صوته في حفلات المولد: «أيها الآباء انتزعوا أولادكم من أيدي الملحدين قبل أن تخسروهم إلى الأبد».

جمعه بين العلم والسلوك:

٩ - جَمَعَ الفقيه بين علوم الشريعة والطريقة الصوفية، لكنه لم يتعصّب لمذهبه الحنفي ولا لطريقته النقشبندية. كانت أمنيته أن يتعاون رجال العلم والطرق، وأن يتّحد كل العاملين للإسلام. وكثيراً ما نادى شباب الإسلام: لا تختلفوا فالعدو يتربص بكم جميعاً.

- كان يتمتّع بسعة أفق: قلّ أن تُوجد في غيره، ورخابة صدر ندر وجودها إلا فيه.

سَعْيُهُ فِي بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ:

١٠ - كان رحمه الله مُغرماً ببناء المساجد الحديثة وإصلاح القديم منها من جيبه الخاص ومن تبرّعات الناس، يقوم بنفسه على جمعها، وكان حريصاً أن يرتفع شعار الإسلام (المآذن) عالياً في السماء.

إنَّ أغلب مساجد البلدة ستذكره يوم الدين أنه قام بتشييدها، وآخر مآثره: إصلاح الجامع الكبير وترميمه، وكان في أواخر عمره قد ألقي ثقله ببناء مسجد جديد، وكان يحدثني أنه سيجعل فيه ملعباً رياضياً للشباب ومسبّحاً إسلامياً للطلاب... إنه فهمٌ عظيم للمسجد ورسالته.

كرمه البالغ:

١١ - ومن أبرز خصاله رحمه الله: الكرم البالغ، والحديث عن كرمه سارت به الركبان، لا تدخل عليه إلا والسّماط ممدود، ولا يأتي للبلدة غريب إلا ويأخذ طريقه إلى بيته، ولا يرى غريب إلا ويدلّه الناس على بيت المفتي، ولا يأتي موظف للبلدة إلا ويجب أن يذوق طعام المفتي.

- دعاة الإسلام من كل بلد هم ضيوفه وأحابيه.
- مساعداته المالية لطلاب العلم الفقراء لا تنقطع.
- كثيراً ما يطرق عليه الباب فقراء فلا يرذهم إلا طيبة نفوسهم. وما وقف في السوق يشتري حاجة إلا وقف إلى جانبه فقراء حاجتهم في قلوبهم، فيدركها على الفور، ويطلب من البائع أن يزن لهم فاكهة أو خضرة أو لحماً، وكثيراً ما يستدين من البائع ليعطي لهم نقداً.

اهتمامه بدعوة النساء:

- ١٢ - اهتمامه بالعنصر النسائي جدير بالنظر، فقد كان يعمل على إقامة دروس لهم، ويشجع على حضورهن حفلات المولد، ويطلب مني أن أقيم للطالبات مسابقات في السيرة والحديث، ويبعث بناته وزوجاته إلى حلقات العلم، ويبعث بمسجلة تسجل كل ما دار في درس النساء.

اطلاعه على المجلات والكتب الإسلامية المعاصرة:

- ١٣ - وكان - رحمه الله - بالرغم من أنه يعيش بين الحواشي الفقهية لا تفوته مجلة إسلامية معاصرة، ولا كتاب إسلامي حديث حتى يدركه بالفهم والنقد.

منهجه في الفتوى:

- ١٤ - أما في الفقه الحنفي، فهو من الأعلام البارزين في هذا القطر، وخسارته لن تعوض إلا أن يشاء الله.
- كان مرناً في الفتوى يحب التيسير على الناس، ويسعى للصلح بين المتخاصمين.

موقفه من خصومه:

- ١٥ - كان - رحمه الله - لا يقع في خصومه، ويثني عليهم إذا سمع

تحريجهم له، ويضع نضب عينيه حديثاً يرّده: «صل من قطعك، واغف عمن ظلمك، وأحسن إلى من أساء إليك»^(١).

١٦ - لما أدركت الوفاة الإمام ابن عقيل واحتضر بكى الناس، فقال: لقد وقّعت عن الله خمسين سنة فدعوني أهناً بلقائه.

ولقد وقّع شيخنا الشيخ سعيد المسعود عن المولى خمسة وثلاثين عاماً. وآن له أن يفرح بلقاء الله.

أبا محمد:

سلامٌ عليك، سلام على تلك المجالس التي كنت أقضيها معك بين الحواشي والملتون.

سلامٌ على تلك الساعات الغالية كنت فيها معك هنا وهناك في مجلس علم أو ذكر أو في حفل مولد.

سلامٌ على ذكريات الأمر في الليالي الخالدة، أسألك عن الفقه عبر الهاتف فلا تملّ الإجابة التي قد تطول ساعات.

سلامٌ عليك أبا محمد.

طالما رأيتك تمشي في السوق قبيل عيد الفطر، وفي «البازار» قبيل عيد الأضحى. لسان حالك يقول: هل من سائل؟ هل من مُستفت؟

سلامٌ عليك: ما ملّت قدمك من الوقوف ساعات مع شيخ يسأل، أو

(١) أخرجه البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «صل من قطعك، واغف عمن ظلمك» وأخرج ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لن ينال عبد صريح الإيمان حتى يصل من قطعه، ويفقر لمن شتمه، ويحسن إلى من أساء إليه». وأخرج أحمد والطبراني عن معاذ بن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الفضائل: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن شتمك».

عجوز تستفتي، ولم تتناقل من طرز الباب الدائم، ولا من رنين الهاتف المتواصل سؤالاً عن حكم الشرع في مسألة.

سلام عليك: جاءك الموت بعد ربع ساعة من آخر فتوى أفتيت فهنئاً لك الشهادة لقد جاءك وأنت تعلم وتعلمه.

والى اللقاء أبا محمد إن شاء الله في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر مع الأحبة محمد ﷺ وصحبه.

أيها الأخوة: أمّنوا مع ابن الجوزي:

اللهم لا تُعذب يداً دلت عليك.

ولا رجلاً مسّت إلى طاعتك.

ولا لساناً ذبّ عن سنة نبيك.

خبر وملاحظة:

أقيم في يوم الجمعة ٢٩ صفر ١٣٩٧هـ، احتفال كبير عن روح فقيه الإسلام الشيخ محمد سعيد المسعود في مدينة الباب في جامعها الكبير، حضرته وفود من أنحاء سوريا، وتكلّم فيه علماء وشعراء ومنشدين في مقدمتهم الشيخ أديب حسون، والشيخ محمد علي المراد، والشيخ كامل بدر، والشيخ بكري الرجب، والشاعر محمد منلا غزيل، ذكروا مآثر الفقيه، وحثوا الناس على الالتفاف حول العلماء.





للأستاذ محسن خرابة^(٢)

الفقيد في سطور:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد قائد
 المجاهدين وإمام المتقين وعلى آله وصحبه وكل من سار على نهجه، ودعا
 بدعوته، وجاهد في سبيل شريعته إلى يوم الدين.

أما بعد: أيها الأخوة لا بدّ لي قبل أن أتحدّث لكم عن بعض
 الخواطر التي أملتّها عليّ روابط الأخوة ودوافع الوفاء والإخلاص للفقيد
 رحمه الله من أن أقدم لكم الفقيد في سطور.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثالث، السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م).

(٢) من تلاميذ العلامة أحمد راتب النفاخ، ومحقق كتاب «المسائل البصريّات» لأبي علي
 الفارسي، وهي رسالته الماجستير في جامعة دمشق، واشترك مع مروان العطية في
 تحقيق «فضائل القرآن» لأبي عبيد، و«حمال القراء» لعلم الدين السخاوي، وصدر سنة
 ١٤١٨ عن دار المأمون للتراث.

ولادته ونشأته:

ولد الفقيه رحمه الله عام ١٩٤٦م، في قرية الشدادي على نهر الخابور قرب مدينة دير الزور، حيث كان والده يعمل مزارعاً فيها، وكان أهله يخرجون إليها من دير الزور باستمرار.

تعلم في مدارس دير الزور الابتدائية والثانوية، وكان من الأوائل في دراسته دائماً لأن الله أنعم عليه بعقل نفاذ وذكاء نادر.

كان نور الإيمان والهدى يشع في وجهه منذ نعومة أظفاره، فقد لازم الصلاة وهو في الصف الثاني الابتدائي ولم ينقطع عنها إلى أن لقي وجه ربه الكريم.

تعلق قلبه بالمساجد:

كان رحمه الله من الذين تعلقت قلوبهم بالمساجد، وارتبطت أرواحهم بها منذ صغره، وحدث مرة أنه كان ذاهباً إلى صلاة الفجر في المسجد، فقطع حذاؤه، فحمله تحت إبطه وأكمل طريقه إلى المسجد حافياً خشية أن تفوته صلاة الفجر جماعة لو عاد ليستبدل الحذاء.

تحسسه قضايا المسلمين:

عندما بلغ سن الخامسة عشرة بدأ يتحسس قضايا المسلمين، وما يعانون من ضعف وتخاذل، وما يلاقيه أهل الإسلام من مكاييد ومؤامرات لإقصائه عن ساحة الحياة.

كان في هذه السن القدوة الحسنة والأسوة المثلى العلمية والدينية لأفراد عائلته جميعاً.

دراسته في كلية الطب:

بعد أن نال الشهادة الثانوية بتفوق، دخل كلية الطب في جامعة دمشق عام ١٩٦٣م، وكان من الأوائل المتفوقين خلال مسيرته العلمية، وكان كثيراً

ما ينال المكافآت المالية بسبب هذا التفوق، وكان أول شيء اشتراه هو كتابه المحبَّب (في ظلال القرآن)، وكان فكره العلمي ووعيه الإسلامي وتصوّره الإسلامي الصافي وإيمانه يزداد باطراد خلال دراسته في كلية الطب، وكان من هذا الباب قدوة لزملائه.

تخرّج يحمل لقب الدكتوراه بتقدير جيد جداً عام ١٩٧٠ - ١٩٧١ م.

متابعته الاختصاص في طب الأطفال:

عمل طبيباً عاماً في منطقة (الميادين) ما يقرب من شهرين، ثم يثم وجهه شطر الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر عام ١٩٧١ م، لينهل من معين العلم هناك، وليتابع دراسة الاختصاص في طب الأطفال. وهناك في أمريكا كان شعلة من النشاط والعمل الدائب للإسلام، فكان يسافر لحضور المؤتمرات الإسلامية، ويكتب ويحاضر ويخطب في قضية الإسلام. كان سكرتيراً لمنظمة الأطباء المسلمين في الولايات المتحدة وكندا.

بعد بضع سنوات من العمل والعلم نال شهادة البورد في طب الأطفال عام ١٩٧٦ م، وعُيّن مباشرة أستاذاً لتدريس طب الأطفال في جامعة اللينوى قرب شيكاغو بعد أن أبدى ضرورياً من التفوق العلمي حتى على الأمريكيين أنفسهم.

وفاته بحادث سيارة:

وفي ١٦ شباط عام ١٩٧٧ م، خرج من بيته في الساعة الثامنة والرّبع صباحاً، وفي الساعة التاسعة والنصف في رابعة النهار قُتل بسيارته بحادث قيل: إنه صدم قطاراً في هذه الساعة الواضحة من النهار بعد ساعة وربع من خروجه من بيته مع أن مسافة الطريق من بيته إلى مكان الحادث لا تستغرق أكثر من عشر دقائق.

نقل جثمانه إلى بلده دير الزور:

نقل جثمانه الطاهر من شيكاغو إلى بلده دير الزور، حيث دُفن في دير

الزور وهو في عمر الورد وريعان الشباب، وقد خُلف وراءه ولدين وبناتاً رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

أخي تيسير: إنَّ العين لتدمع، وإنَّ القلب ليخشع، وإنا على فراقك يا أبا عمر لمحزونون، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا لله وإليه راجعون.

أخي الحبيب تيسير: ما كان يدور في خُلدي، ولم يخطر على بالي في يوم من الأيام أنني سأمسك بقلم الرأش لأخط كليمات في نعيك، وأحمل يراعتي المضطربة لأتحدث عنك وأرثيك، ولكن القدر إذا حلَّ والقضاء إذا نزل فما للقلوب المفجوعة الثكلى إلا التسليم المطلق والرضا الكامل بما يقدر الله ويفعل. ولكن أيُّ بيان - مهما عظم - قادر على أن يوفيك حقَّ أيها المجاهد، وأي كلام وأي قلم يقوى على أن ينطق بما يعتمل في الصدور ويختلج في القلوب، وشهد الله أن الخبر المحموم الفاجع حينما قرع آذاننا كادت قلوبنا أن تنفلق، وأفئدتنا أن تتمزق، وكأنَّ صاعقة نزلت عليها من السماء، وكاد صوابنا أن يطير من هول الصدمة وكبر الكارثة وفداحة الفاجعة لولا تمسُّكنا بحبل الله المتين واستعصامنا بإيماننا.

وفجأة تففز إلى أذهاننا أنَّ الصهيونية الآثمة والصليبية الحاقدة لم يقرَّ لهما قرار، ولم يرتح لهما ضمير إلا إذا ذاق تيسير وأحبابه ومن هم على طريقه الموت الزؤام لأنه لم يكن شوكة في عيونهما فحسب، وإنما كان سهماً مدمياً في قلوبهما.

أخي الحبيب أبا عمر: لا أدري عن أيِّ شيء أتحدث من حياتك؟! أعن طفولتك البريئة؟ أم عن شبابك المؤمن الصلب؟

نفسٌ تَوَّاقة:

لا زلت أذكر تلك الأيام التي قضيناها معاً في الثانوية والجامعة، حيث كنت تحمل بين جنبيك نفساً تَوَّاقة، وروحاً عالية لا تعرف إلا معاني الجد حتى في أوقات الراحة.

لا زالت تلك الأيام التي كنا نذهب فيها إلى نهر الفرات مع بعض

الأحباب لقضاء المتعة والراحة، ماثلة أمام عيني، وكنت دائماً تتأبط كتابك الحبيب «في ظلال القرآن»، وبعد قضاء فترة وجيزة سرعان ما كان صوتك المؤمن النّدي ينادي إخوته: أن تعالوا واسمعوا صوت السماء، أيها الأحباب فكانت نفسك لا ترتاح وروحك لا تطمئن إلا في ظلال الظلال.

لا زلتُ أذكر العهد الذي قطعته على نفسك مع بعض أحبابك وطبقته زماناً طويلاً إلى أن ذهبت إلى أمريكا، وهو قضاء فترة ما بين المغرب والعشاء بحفظ القرآن الكريم.

دعاؤه بالشهادة في سبيل الله:

لا زال دعاؤك الخالد الذي كنت دائماً تردده صادقاً يرثى في أذني وفي أذن الزمان: «اللهم ارزقنا الشهادة في سبيل دينك وإعلاء كلمتك»، ونسأل الله الكريم أن يكون هذا الدعاء قد استجيب، وهذا السؤال قد تحقّق وأن تكون في سلسلة الشهداء الأبرار الخالدين.

أخي الغالي تيسير: لم تبقَ عينٌ من العيون المؤمنة إلا أسبلت عليك الدموع قائلة:

تبكيك يا فلذة الأكباد أعيننا دماً يسيل على الخدين مدرارا
خلّفت بعدك أكباداً مقرّحة تبقى على الحزن آماداً وأدهارا

ولم يبق قلب ينبض بذكر الله إلا ذاق لوعة الحرقه، واكتوى بنار المصيبة، لم يبق فم إلا انطلق يلهج بذكرك الطيب ويتحدث عن خالك الكريمة، ويروي أخبارك العذبة حتى أولئك الناس الذين يخالفونك في الرأي والفكر، لم يبق مجلس من مجالس البلد إلا نعاك وخزّن عليك بكل حرقه وأسى.

لقد بكيناك يا أخي، بكينا فيك الكرم والوفاء والإخلاص والصدق والإيمان والتقوى والورع والعمل الدائب والتفكير الواعي والشجاعة في الحق...

إن كل هذه المعاني التي يكاد الإنسان المسلم في هذا الزمان يكون أحوج إليها من الماء والطعام بكيانها فيك، ويحق لنا أن نقول فيك:

وَكثُرًا لَا يُحَدِّدُ بِالْحِسَابِ	بموتك قد فقدنا اليوم عزاً
وَعِلْماً فَيُضْهِ غِرَ السَّحَابِ	فقدنا اليوم شمساً قد أضاءت
وَلِباً دُونَهُ لِبَ اللَّبَابِ	وفهماً ثاقباً ومدى بعيداً
وَعَقْلاً دُونَهُ ثَقْلَ الْهَضَابِ	وصدراً واسعاً وتقى وفضلاً
مَنْعِياً سَاحَهُ فِي كُلِّ غَابِ	لقد خسرت بك الأشبال ليثاً
تَطَاطَى تَحْتَهُ شَمُّ الرُّوَابِ	لقد خسرت بك الأحلام طوداً

قافلة الشهداء:

أخي المجاهد: لم تكن أول شهيد أريق دمه في سبيل الله، فقافلة الشهداء لا تزال تجود بالأرواح والأنفس رخيصةً في سبيل الله، وإننا نعاهدك يا أخي، نعاهد روحك الطيبة الطاهرة أننا على دربك سائرون، وبنهجك عاملون، فلتقر عينك في جنان الله، ولتعلم أن دمائك الزكية التي أريقَت هناك ستبقى تشع نوراً لنا ولدربنا الطويل فتُكسِبُنَا مزيداً من الثبات على الطريق.

أثره في ديار الغربية:

أخي: لقد كنت معلماً في الطريق، تهدي السائرين في دروب الحياة وبخاصة في ديار الغربية، لقد كنت الظلال الدافئة التي يرتاح إليها أحبابك في أمريكا. لقد كنت نبزاً يضيء الطريق للغافلين، لقد كنت مجاهداً بحق برفع شعار الإيمان في ديار الكفر ولواء النور في بلد الظلام. ولئن حاولت النفوس المظلمة والأرواح المنتنة أن تقضي على هذه المعالم، وأن تطفئ هذا النور، خست وخابت، لأن هذه الشعلة من النور تستمد نورها من نور رب الكون، وإن الله متم نوره ولو كره الكافرون المجرمون الظالمون.

يا صاحب القلب الكبير، يا صاحب العقل المنير، وأنت الأستاذ في

الجامعة، الدكتور المختص في طب الأطفال، كنت دائماً تذهب إلى مدارس أطفال المسلمين الخاصة في شيكاغو وغيرها، لتعلمهم مبادئ القراءة والكتابة العربية، حفاظاً على دينهم ولغتهم فمن يفعل ذلك إلا أولئك الأبطال الذين يتحسسون قضايا أمتهم ومصيرها صباح مساء، وكنت واحداً منهم.

لا أدري مرة ثانية عن أي شيء أتحدث؟ وماذا أقول؟ القلم عاجز، وإنَّ البيان قاصرٌ عن الوفاء بحقك.

ترفعه عن متاع الدنيا:

لقد غادرت يا أخي هذه الدنيا الفانية الزائلة التي لا يتعلق بها إلا ذوو النفوس الصغيرة المهزومة، وكنت فوقها وفوق متاعها الزائل وزخارفها الفانية، وكم كنا نتمنى أن تعود إلى بلدك لتلقن أولئك الناس الذين أعمتهم المادة، وارتكسوا في حمايتها في هذا المجتمع المادي المسعور، أنَّ السعادة ليست في جمع المال، ولا في الانكباب على الدنيا، والتعلق بها، ولكن السعادة في التقوى الحقيقية والاستعلاء على زخارف الدنيا كما يقول الشاعر:

وَلَسْتُ أَرَى السُّعَادَةَ جُمْعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقَى هُوَ الشَّعِيدُ

لقد رحلت - يا أخي - عن هذه الدنيا وأنت مرفوع الرأس عالي الجبين، لم تطأطئ رأسك إلا للواحد القهار، ولم تخن جبهتك إلا للعزیز الغفار، لقد مت موت الفرسان الشجعان الأشاوس الذين لم يعرفوا معاني الذلة والهوان والضغار، التي يزرع الناس في نيرها، والذين تخرجوا في مدرسة البطولة والفروسية مدرسة محمد ﷺ، وبحق لقد تخرجت في مدرسة محمد ﷺ، أذكرتني حياتك وزهدك بالجيل الأول الذي تربى في مدرسة محمد ﷺ. لقد كنت شعلة من الإيمان الراسخ، ونبراساً من التقوى الصادقة، وطاقه هائلة من الحركة والعمل، ومثلاً أعلى في حب الآخرين ونكران الذات.

أي كلام بعد هذا الكلام يا أخي. والله إنها لفاجعة كبيرة، ولكن الذي

يُخَفَّفُ مِنْ هَوْلِهَا وَعَظَمِهَا هُوَ اعْتِقَادُنَا بِأَنَّكَ شَهِيدٌ مِنَ الشَّهَدَاءِ، وَبِقِينِنَا بِأَنَّ جَنَّةَ اللَّهِ الْوَاسِعَةَ سَتَكُونُ مَأْوَاكَ مَعَ مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالشَّهَدَاءِ وَمَعَ شَاعِرِكَ الْحَبِيبِ الَّذِي قَالَ:

أَخِي إِنْ نَمُتْ نَلْقَ أَجْبَابَنَا وَجِئْنَا رَبِّي أَعْدَتْ لَنَا
وَأَطْيَارَهَا زَفَرَفَتْ حَوْلَنَا فَطُوبَى لَنَا فِي دِيَارِ الْخُلُودِ

طُوبَى لَكَ يَا أَخِي وَحُسْنُ مَأْبٍ، وَإِلَى الْخُلُودِ فِي قُلُوبِنَا وَفِي أَرْوَاحِنَا
وَفِي جَنَّاتِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

لَنْ تَمُوتَ يَا أَخِي تَسِيرٌ، صَحِيحٌ أَنَّ جَسَدَكَ الطَّاهِرَ فَارَقَ الدُّنْيَا وَرَحَلَ
عَنَّا، وَلَكِنْ رُوحَكَ الزَّكِيَّةَ الَّتِي تَحْمِلُ كُلَّ مَعَانِي الْإِبَاءِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ
سَوْفَ تَبْقَى خَالِدَةً فِي قُلُوبِنَا خُلُودَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

إِنَّ الدَّمْعَ السَّخِيَّةَ الَّتِي ذَرَفْنَاهَا عَلَيْكَ سَتَكْتُبُ اسْمَكَ فِي أَفْئِدَتِنَا،
وَسَتَرْسُمُ صُورَتَكَ فِي قُلُوبِنَا، وَسَتُخَلِّدُ ذِكْرَكَ فِي أَرْوَاحِنَا.

وَأَنْتُمْ يَا آلَ الْفَقِيدِ وَأَخُوته لَسْتُمْ وَحْدَكُمْ فِي الْمَصِيبَةِ، وَلَسْتُمْ وَحْدَكُمْ
الَّذِينَ فَقَدْتُمْ أَبَا عَمْرٍ، وَإِنَّمَا فَقَدَهُ كُلُّ مُسْلِمٍ وَكُلُّ مُؤْمِنٍ.

وختاماً أخي الحبيب: نَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ أَنْ يُكْرِمَ مَثْوَاكَ، وَأَنْ يَرْحَمَكَ
رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَأَنْ يَجْعَلَكَ فِي أَعَالِي الْجَنَّةِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَحُسْنُ أَوْلَئِكَ رَفِيقاً، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَكْرِمَنَا بِأَنْ نَسِيرَ عَلَى
طَرِيقِكَ طَرِيقَ الشَّهَدَاءِ وَالْأَتْقِيَاءِ وَالْعَامِلِينَ.

فَللَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ، نَصْبِرُ وَنَحْتَسِبُ،
وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.



الشيخ أحمد الدقر رحمه الله تعالى^(١)

(١٣٢٥ - ١٣٩٧هـ)

(١٩٠٧ - ١٩٧٧م)

للأستاذ: عبدالغني الدقر



أخي في ضلال أبي:

يرحم الله أخي أنفق نحواً من خمسين سنة
هي زهرة عمره في سبيل الله، ونُصرة دينه، وفي
سبيل ما لا يشك أنه الحق.

مرشد بلاد الشام الشيخ علي الدقر:

كان إمامه وقُدوته ومعلمه أبوه وشيخه مرشد بلاد الشام العالم الجليل
الشيخ علي الدقر، الذي دخل إرشاده وعلمه وإخلاصه وغيرته كل دار في
دمشق، بل كل قلب إلا من ران الضلال أو الكفر أو الانحراف أو الحسد
على قلبه.

كان سلطانه على أفئدة الناس بالله ولدين الله لا يوازيه سلطان، مهما

(١) حصار الإسلام، العدد الرابع، السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م)، وينظر:

"تاريخ علماء دمشق" (٩٢٦/٢ - ٩٣١).

يبلغ من القدرة والنفوذ، وسر ذلك: أنه - رضي الله عنه - لم يعيش حياته كلها لذرة من دنياه، سواء أكانت مالا أم جاهاً أم نفوذاً، وإنما كانت حياته وقفاً على الدعوة إلى الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٢٣]، والانتصار لدينه، والغيرة الثائرة أن يقتحم الكفر والاستعمار وذيول الاستعمار ديار المسلمين وعقولهم ونفوسهم فيسرق دينهم ومروءتهم وشهامتهم وعزتهم. وما زال لذلك يصرخ وينادي ويبشر وينذر حتى أسكته الموت حميداً، مرفوع العمل الصالح إلى الله إن شاء الله، ولكنه وإن مات جسده فما برح يحيا بعلمه وروحه وإرشاده في نفوس كثيرة من تلاميذه، وتلاميذ تلاميذه ومن بعدهم حتى يأتي أمر الله، فكل هؤلاء لن ينسوه عالماً مرشداً مقداماً غيوراً لم تطل شمس عصره على مثله، كلا لن ينسوه، بل يذكروه في كل مناسبة وفاء واقتداء، ومضرب مثل للزهد والتقوى والإخلاص والتضحية والبذل، والفناء في الله والدعوة إليه.

موضع الشيخ أحمد الدقر من جهاد أبيه وإرشاده:

وما كنت أريد هنا أن أكتب عن والدي، فما يكفي للتحديث عنه بضعة أسطر في مقال ولا بضع مقالات، فحياته تستوعب أكثر من ذلك بكثير، وإنما أكتب هذا القليل لأضع أخي المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد في موضعه من جهاد أبيه وإرشاده وعمله، فلقد أدرك فجر نهضة أبيه، بل رافقها يوم لم يكن من حوله إلا أقل من ثلاثين رجلاً من إخوانه الدمشقيين يُعلمهم النحو والفقه وبعض علوم الدين والعربية الأخرى، ويحرص على إرشادهم ليقروا إلى العلم والعمل، وكان أخي - رحمه الله - أحدهم.

بروز مظاهر التدئين بين الناس:

إلى أن تفجرت دعوة أبيه الشيخ الكبير فملأت الآفاق، وأقبل الناس عليها إقبالاً لم يُعرف مثله لأحد ممن عاصره، فبرزت مظاهر التدئين بين الناس، فتوج الشباب والشيوخ رؤوسهم بالعمائم، واحتجب النساء بالأزدر البيض، وامتلات المساجد بالمصلين. حتى شغل المستعمر حينذاك أن في البلاد حدثاً لم يكن يعهده، فارتاع لذلك، وحرص على لقاء الشيخ الكبير

ليسأله عن هذا الحدث الخطير الذي ظهر فجأة: هل من ورائه شيء يراد؟ فأجاب المرشد الكبير: إنا لندعو إلى دين الله، ونحث الناس على الالتزام بأوامره فروضاً وسنناً، واستجاب كثير من الناس - والحمد لله - لهذه الدعوة، والذي ترون من مظاهر الاستجابة. واكتفى المستعمر من الشيخ الكبير بهذا.

العدو الأول والأمضى للمستعمر:

ولو أراد أن يعرف حقيقة ما ينادي به الشيخ الكبير، ومبلغ تأثيره لأدرك أنه العدو الأول والأمضى للمستعمر، ذلك أنه لا يجتمع في قلب رجل واحد دين حق راسخ مع أي لون من ألوان الاستعمار مادياً كان أو معنوياً أو فكرياً، خصوصاً والقاعدة الفقهية تقول: إذا اقتحم عدو بلداً مسلماً، وجب وجوباً عينياً على الكبير والصغير والرجل والمرأة أن ينهضوا جميعاً لرد الغزو الاستعماري الكافر والمرتد.

دعوة الشيخ علي الدقر للجهاد وتحذيره من أعداء الدين والوطن:

ولقد كانت الكثرة من المؤمنين يتسابقون ويتزاحمون ليجدوا مكاناً - ولو بقدر مفحص قطاة - في المسجد الذي كان الشيخ الكبير يعظ فيه ليسمعوا منه كلاماً يهز قلوبهم، بل يهز وجودهم، كلاماً يتفجر من قلب ملتهب بحرارة الإيمان، والصدق، والغيرة، والإخلاص، ثم ما يزال بالناس يحذّره ويُنذره ويحضّهم على الجهاد حتى يخرجوا من المسجد، ويتمنى أحدهم لو قاتل وحده، وكثير من الحضور حفظ منه قولاً حتى صار مأثوراً، وهو قوله في المستعمرين أعداء الوطن والدين: «إن السراق دخلوا دياركم، يريدون أن يسرقوا دينكم وأموالكم وأعراضكم فاستيقظوا وتنبهوا واحذروا»، وحفظوا منه قولاً آخر وهو قوله: «إن هذه المدارس مصانع الكفر» يريد بذلك المدارس التي كانت صنعة الكفار المستعمرين، فقد كانت تشكك الناس في دينهم وأخلاق أسلافهم.

أثر دروس الشيخ علي الدقر:

ولقد نتج عن دروس الشيخ الكبير الوالد ثلاث نتائج، كل واحدة منها

كان لها الأثر الكبير في بناء مجد الأمة: الجهاد في سبيل الله، ونشر العلم الشرعي، وفتح مدارس لأبناء المسلمين، وكلها كان لأخي المرحوم السهم الأوفر بعد أبيه في تنظيمها وتهيتها.

الجهاد في سبيل الله:

أما الأولى: وهي الجهاد فمن حقّ والدي الشيخ الكبير على التاريخ أن يذكره أحد القليلين الذين أعدوا لتفجير الثورة السورية، وذلك أنه - يرحمه الله - كان يوقد في النفوس باسم الدين الحماس ويُغريهم بالشهادة، حتى اجتمع منهم ثلة ممن عُرفوا بالبسالة والإقدام والرغبة في الجهاد على أخي المرحوم ليقروا عليهم كتاب «فتوح الشام» للواقدي الذي امتلأ بالحديث عن بطولات الصحابة رضوان الله عليهم، وخصوصاً سيف الله خالد بن الوليد، وكانت قراءة هذا الكتاب في إحدى المدارس القديمة التي كانت بإدارة الشيخ الكبير والدي، وهي (مدرسة العداس)، وكانت خلف القصر العدلي في الزاوية الغربية الجنوبية، واستؤصلت في تنظيم الشارع، وعهدي بهذه المدرسة بعد قليل من ذلك، ملئت سلاحاً، ثم بعد فترة ملئت بطلبة العلم الذين أصبحوا بعد ذلك علماء تقرأ بهم عين الشريعة، منهم: الفقيه الكبير الشيخ أحمد البصروي، والعالم التقي الفقيه الشيخ عبدالكريم الرفاعي، والعالم المرشد الشيخ عبدالرحمن الطيبي، رحمهم الله تعالى وغيرهم والحمد لله كثير.

صحبته العلامة بدر الدين الحسني في رحلته إلى بلاد الشام للحث على الجهاد:

ثم إن والدي الشيخ الكبير وبعض العلماء قام بصحبة شيخه حافظ عصره وعلامة زمنه الشيخ محمد بدر الدين الحسني برحلة إلى بلاد الشام. وكان والدي اللسان الناطق المؤثر في هذه الرحلة، وكان يهتبل كل فرصة ليحث فيها على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله.

اندلاع ثورة سنة ١٩٢٥:

وبعد نحو شهرين عادوا وخرجت دمشق بشبابها وشيبتها ونسائها وأطفالها لاستقبالهم، ما لبثوا بعد أوبتهم إلا قليلاً حتى اندلعت الثورة سنة ١٩٢٥م، وكان أولئك نفر الذين كانوا يجتمعوا لسمعوا كتاب «فتوح الشام» من أخي عليه رحمة الله من أوائل من خرج للجهاد في سبيل الله، وكلّ منهم كان قائداً لجماعات من الثوار، وخرج على أثرهم كثير من تلاميذ الشيخ الكبير والدي، خرجوا لله والاستشهاد في سبيله لا طمعاً في دنيا، ولا شهوة في زعامة أو رياسة، ولا رغبة في أن تُسمّى الشوارع بأسمائهم، ولا في أن يعلن عنهم في الكتب والصحف، بل خرجوا تلبية لأمر الله، فممنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

نَشْرُ العلم الشرعي:

وأما الثانية من النتائج الثلاث: فقد نظر والدي الشيخ الكبير عليه رحمة الله، فرأى أن البلاد كادت تخلو من العلماء، العلماء العاملين الذين يحرصون على عقائد الناس وأخلاقهم ودينهم، ففتح الباب للراغبين في طلب العلم على طريقته، مع قلة الاستعداد وضيق الأماكن.

إرسال الطلبة المرشدين إلى قرى دمشق ووصاياهم:

ولم يكتف الشيخ الكبير بالواردين عليه، بل كان يرسل في كل رمضان من إخوانه مَنْ يُرشد الناس في القرى والأرياف من دمشق وحوران والجولان والأردن والبقاع، ويُزوّدهم بوصاياهم، ومن أهم وصاياهم لهم: أن يزهدوا فيما عند الناس فلا يقبلوا عطاء أحد، وأن يصبروا على إعراض الناس عنهم، وأن يصدقوا مع الله في أقوالهم وأفعالهم، ولما رأى منهم الناس ذلك حتى أقبلوا عليهم إقبالاً ما كانوا ينتظرون بعضه، فإذا أنتموا ما أرسلوا من أجله عادوا مُضطحين معهم العشرات من الراغبين حتى قلّ بلد ذهب الطلبة المرشدون إليه لم يأت منه مَنْ يطلب العلم، حتى بلغوا أكثر من سبعمائة طالب كلهم على طريقة شيخهم: علم وعمل، والغريب أن

أحدهم لا يكاد يبلغ في طلب العلم فترة ستة أشهر حتى يجد أن عنده ما يعظ به الناس وما يؤثر به عليهم.

فتح المدارس لأبناء المسلمين:

وأما الثالثة فقد كان الشيخ الكبير يحسّ زمن الانتداب أن أطفالنا في خطر من جهة تربيتهم وأخلاق أمتهم ودينهم، فرأى أن يفتح مدارس للبنين والبنات تُعنى بتعليم كتاب الله، والاهتمام بالدين تدریساً وتسليكاً، مع باقي العلوم التي تشارك فيها المدارس الأخرى.

ظهور الجمعية الغراء:

ولهذه النتائج ظهرت الجمعية الغراء من علية الناس الموثوقين في دينهم وأمانتهم لِتُعینَ والدي الشيخ الكبير فيما نهض به من تعليم الكبار الوافدين: الشريعة والعربية ومهمة الإرشاد، ومن تعليم الصغار في مدارس ابتدائية.

ولهذه الجمعية التي خدمت أعراض شيخها المرشد الكبير، تاريخ حافل نأتي منه هنا بهذا العرض بأقل من القليل.

وكل من تخرّج في المعهد الشرعي - ويعدون بالآلاف - ومن تخرّج في المدارس الابتدائية لا يزالون - والحمد لله - يحافظون على ذلك الروح الذي بثّه فيهم مُدرّسُوهم ومعلموهم الذين تلقّوا إرشاد الشيخ وتعليمه وتوجيهه مباشرة. بل إن تلاميذ المتخرجين يسير معظمهم على هذا المنهج وهو تحقيق الإسلام روحاً ومعنى وشرعاً، لا الاكتفاء بالنسبة إليه، وما الحديث عن الجمعية الغراء في جميع فروع نشاطها إلا الحديث عن عَلمين كبيرين مقدمين هما: الأستاذ المرحوم أخي الشيخ أحمد الدقر، والأستاذ المرحوم الشيخ عبدالحميد الطباع^(١)؛ فهما حَمَلا أمانة الشيخ الكبير بجَدِّ وإخلاص وتفانٍ صَغُرَ لقاءها عمل كل عامل.

(١) هو العالم الفاضل الشيخ عبدالحميد الطباع، المولود سنة ١٣١٦، والمتوفى سنة ١٣٧٢ عن ست وخمسين سنة. وهو أخو الشيخ مراد الطباع، وابن خالة والدته الشيخ علي الطنطاوي كما أفادني بذلك شيخنا العلامة علي الطنطاوي.

اهتمام الشيخ علي الدقر بابنه أحمد:

ولست بسبيل الحديث عن ثانيهما المرحوم الأستاذ الطباع، ولكني في معرض الحديث عن الأول منهما أخي الأستاذ الدقر، فقد اهتم به والده فتعهده بتربيته وعنايته، فكان صحيح العقيدة، صحيح العقل، صحيح النفس، جيد الرأي، محافظاً على تراث أبيه، خادماً لمصلحة المسلمين.

وكان دون العشرين من العمر حين أضحي غُضد أبيه، حمل أعباءه كلها بمعونة أخيه وزميله الشيخ عبدالحميد الطباع، وأبقيا للشيخ الكبير مهمة التوجيه والإرشاد والقطع بالأمر له وجهات نظر متعددة.

أثر الشيخ أحمد الدقر في الجمعية الغراء ومعهدا الشرعي:

وما إن أنشئت الجمعية الغراء حتى كان من أوائل أعضائها، بل كان بالحق قريناً للقروم من الرجال بعقله ورأيه وهو دونهم بالسن، ثم كان بعد ذلك المنفذ الفعلي لقرارات الجمعية وأعمالها، وحمل جميع مسؤوليات المعهد الشرعي بتنظيم الطلبة في دراساتهم وأساتيذهم ونظمهم في مبيتهم وفي طعامهم وشرابهم، وحرص كل الحرص على المحافظة على أخلاقهم ودينهم وعلمهم ومطالعاتهم، ولقد حفظ رحمه الله جميع وصايا أبيه ورغباته وعمل بها وطبقها على الطلبة في المظهر والمخبر.

وأتجه مع ذلك إلى تنظيم المدارس الابتدائية التابعة للجمعية، فكانت بحق من خيرة المدارس تحفظ للصغير دينه، وتعلمه القرآن، ولا تقصر به في جميع العلوم الأخرى.

وهذا يستدعي كل ما عنده من جهد و طاقة، ويستدعي أعواناً كثيرين ومع ذلك قام به وحده.

ولا يعرف أحد من مرجع لكل مشكل في جميع أعمال الجمعية الداخلية غيره، أما الأعمال الخارجية فليس لها أحد غيره أيضاً بعد وفاة زميله وأحد خاصّة أبيه المرحوم الأستاذ الشيخ عبدالحميد.

وهذا البناء الشامخ الذي بناه الشيخ الكبير، وبذل ابنه المرحوم الشيخ

أحمد في سبيل بقائه ونموه أكثر من أربعين سنة، هذا البناء الضخم هدمه بجرّة قلم من لا يخاف الله، ومن لا يأبه بمصلحة المسلمين، ولا يبالي بلعنة التاريخ.

وبعد فالحديث عن أخي المرحوم الأستاذ الشيخ أحمد حديث عن جميع أعمال الجمعية الغراء، وهذا لا تحصره كلمات في موضوع، بل ذلك محتاج إلى مقالات إن لم نقل إلى كتب، وعسى أن يسمح الزمن فنكتب دور كل أحد ونضعه مكانه من غير إسراف ولا تقصير حتى بعض الجنود المجهولين الذين لهم الأثر الكبير في تطوير المعهد وتقدمه.

صفاته الذاتية:

أما صفات أخي الذاتية: فقد كان - رحمه الله - مُصُوناً دِيناً، طيب السريرة، ذكياً عاقلاً، ذا رأي وفهم، كان إذا خرب الناس أمرٌ يتعلق بدينهم أو وطنهم، كان من أوائل من يطلب لمداولة الرأي معه، وكثيراً ما أخذ برأيه، وكان يكره الوقوف بأبواب الرؤساء والوزراء إلا إذا اقتضت المصلحة ذلك، وإذا اضطر لذلك فلا يداري ولا يُماري ولا يُداجي، بل يقول ما يرى صريحاً من غير لف ودوران.

وكان يؤخذ عليه الصلابة واليبوسة فيما يقتنع أنه الحق، وهذا ممّا يشرفه، وليأخذ عليه من شاء ما شاء ما دام يصرُّ على ما يعتقد وما يقنع به.

مَرَضُهُ وصبره ورضاه:

ولقد أقعده المرض في الفراش نحواً من اثنتي عشرة سنة، فكان غايةً في الصبر، غايةً في الرضا عن الله، لا يفتُر لسانه عن الحمد لله تعالى. وهكذا وافاه أجله مؤمناً صادقاً، قدّم أمامه من جليل الأعمال لله، ما يجعله - إن شاء الله - رفيق والده في عليين في ضُخبة الأنبياء والعلماء والعاملين المخلصين، وخَسَنَ أولئك رفيقاً.



الدكتور محمد أمين المصري^(١)

(١٣٣٣ - ١٤٢٩ هـ)

(١٩١٤ - ١٩٧٧ م)

اعدها واختارها مَجْد مَكِّي

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد الدكتور المصري - رحمه الله تعالى - في دمشق، وبعد إنهاء دراسته الثانوية عمل في سلك التدريس، ونشأ مع فتية من جيله على حب الإسلام ومطالعة كتبه.

وقد أثر فيه كتاب «إحياء علوم الدين» كثيراً حتى آخر حياته، وكان يتميز بإرادة صلبة، جعلته يُطبق كثيراً ممّا يمرّ معه في «الإحياء» للغزالي، مهما كان هذا الذي يُطبقه.

دراسته وشيوخه:

وقد ساهم - رحمه الله تعالى - في الندوات العلمية إسهاماً جيداً، وكان يحضر دروس عالم الشام الشيخ محمد بدر الدين الحسني، ودروس الشيخ أبي الخير الميداني وغيرهما.

(١) نشرت بتاريخ: ٢٤/٠٦/٢٠٠٨ م، في موقع: (الإسلام في سورية)

حصل على الشهادة الجامعية في الأزهر بعد عام ١٩٤١م، ومن ثم حصل على تخصص التدريس، ثم عمل مدرساً في ثانويات دمشق.

وكان له صلة طيبة بالدعوة الإسلامية في مصر، كما كان حريصاً على حضور محاضرات الأستاذ «حسن البنا» - رحمه الله تعالى - والعلامة محمد الخضر حسين.

عنايته بتدبر سورة الأنفال:

وكان يركّز في دروسه ومحاضراته على سورة الأنفال وتفسيرها، يريد من وراء الأنفال أن يذكر بذكر، والقلّة المؤمنة، القلة التي تُنقذ الموقف... وألقى محاضرات عديدة في مسجد المرباط بحي المهاجرين بدمشق، وفي مسجد الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة حتى ظنّ الظّانون أنه لا يحسن غير سورة الأنفال، وكان يمازح من يعرفه ويقول: «أنا لا أعرف إلا تفسير سورة الأنفال!».

اهتمامه بالتربية:

وكان تواقاً إلى تخريج دعاة ومجاهدين، لا موظفين وأصحاب شهادات، فكان كثير الاهتمام بعلوم التربية، يرى أن المشكلة الأساسية والأولى هي: كيف نربي؟ هل نربي الأطفال والشباب على الخوف وحب الوظيفة أم على الجهاد؟ ويذكر دائماً السيدة عفرات التي قدّمت للإسلام سبعة من أولادها الشباب، استشهدوا في المعارك الأولى في الإسلام.

تعيينه ملحقاً ثقافياً للسفارة السورية بباكستان:

وفي عام ١٩٥١م، عُيّن ملحقاً ثقافياً للسفارة السورية في باكستان، وبقي هناك خمس سنوات، وقد اضطلع خلال هذه الفترة بجهود طيبة في نشر اللغة العربية لغير أهلها، وتعرّف على علماء باكستان، لاسيما المحدثين منهم، كما توثقت صلته بالشيخ أبي الأعلى المودودي.

حصوله على شهادة الدكتوراه من بريطانيا:

وفي عام ١٩٥٦م، سافر إلى بريطانيا للتحضير لرسالة الدكتوراه، وحصل عليها عام ١٩٥٩م، كان موضوعها «معايير النقد عند المحدثين»، ورجع مدرساً في كلية الشريعة في جامعة دمشق.

ومما يذكر هنا أن المستشرقين أبوا أن يكون موضوع دراسته نقد «المستشرق شاخت» فاختار موضوعاً في الحديث. وكان له - رحمه الله تعالى - أثناء رحلته لأوروبا وقفات لا تنسى مع المستشرقين، وعندما ترأس قسم الدراسات العليا في كلية الشريعة بمكة المكرمة، كان يُحذّر من ابتعاث أبناء المسلمين إلى ديار الغرب.

إقامته في السعودية وتأسيسه قسم الدراسات العليا في مكة المكرمة:

وفي عام ١٩٦٥م. سافر إلى السعودية للتدريس في جامعة الملك عبدالعزيز - كلية الشريعة - في مكة المكرمة، وقد شارك في تأسيس قسم الدراسات العليا فيها.

وقبل وفاته بثلاث سنوات، انتقل إلى الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، رئيساً للدراسات العليا فيها، وكان له دورٌ في وضع مناهجها.

دروسه في التفسير والسيرة:

ولم ينقطع عن دروسه ومحاضراته، وكلها في التفسير والسيرة النبوية، وكانت دروسه في التفسير تدور حول سورة الأنفال أو سورة آل عمران للحديث عن غزوة بدر أو غزوة أحد.

وكان الموضوع الرئيس الذي تدور حوله دروس الشيخ وفكره هو التربية، والتربية الجهادية خاصة، وكان يكثّر من الحديث عن غزوات الرسول ﷺ وسيرة أصحابه رضي الله عنهم.

أبرز كتبه ومؤلفاته:

١ - الطرق الخاصة للتربية الإسلامية.

- ٢ - من هدي سورة الأنفال، دار الأرقم بالكويت ١٤٠٠هـ.
- ٣ - لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها، بيروت دار الفكر، ١٣٩٨هـ، ط ٤.
- ٤ - المسؤولية، طبعة (٢)، الكويت، دار الأرقم، ١٤٠٠هـ.
- ٥ - المجتمع الإسلامي: وجهة التعليم في العالم الإسلامي، ط ٤، الكويت، دار الأرقم ١٤٠٦هـ.
- ٦ - وله أيضاً: محاضرات في فقه السيرة، ومحاضرات في العقيدة لم تطبع حتى الآن.

وفاته:

توفي في سويسرا في شهر رمضان ١٣٩٧هـ على إثر عملية جراحية في أحد مستشفياتها، ونقل جثمانه إلى مكة المكرمة، حيث دفن فيها، رحمه الله تعالى رحمة واسعة^(١).



(١) علماء الشام في القرن العشرين وجهودهم في إيقاظ الأمة، للأستاذ محمد حامد الناصر، ص ١٩٣ - ١٩٩.

الشيخ زين العابدين الحسين التونسي^(١)

(١٣٠٦ - ١٣٩٧هـ)

(١٨٨٨ - ١٩٧٧م)

بقلم ابنه: المحامي علي الرضا التونسي



سلام الله ورحمته عليك ورضوانه:

ما أسعده من يوم ولدت فيه تحت سماء تونس وفوق أديمها الأخضر، وما أجّلها من ساعة مباركة ميمونة من عام ١٨٨٨م من تلك الساعات الخالدة التي يتفضّل بها الله جلّ جلاله على خلقه برجال مختارين من بطون أمهات طاهرات صالحات.

أسرة علم وعمل:

سلام عليك يوم نشأت في أسرة علم وعمل، والدك الزاهد العالم الشيخ حسين بن علي بن عمر، وجدك المنعم ذاك الذي ما برح المئات من أبناء الجزائر كل عام ومنذ أكثر من مئة وخمسين عاماً وحتى يومنا هذا، يتخرجون من دار القرآن التي شيدها في (طولقة) حفظة لكتاب الله العظيم، وشباباً نشؤوا في طاعة الله.

(١) حصارة الإسلام، العددان ٩ - ١٠ من السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

ووالدتك العابدة الناسكة السيدة حليلة بنت العلامة مصطفى بن عزّوز، وفي حجرها الطاهر، ربا جسمك على العبادة، وأشرقَت نفسك على الدنيا بعد أن تشربت حلاوة الإيمان. لقد لقنتك تلك الأم البارة - وما أحوج المسلمين لأمهات تقيات - القراءة والكتابة مع لبانها، وكانت قدوتك في الخلق الكريم، والطبع السمع، والأدب الجم.

وشقيقك الأكبر العلامة محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر الذي عرفه العالمان شرقه وغربه حجة الإسلام. فكان لك أخاً وصديقاً وأستاذاً، وخالك العلامة الأجل محمد المكي بن عزوز الفقيه والمحدث والأديب، وشقيقك الأصغر العلامة اللغوي محمد المكي بن الحسين.

دوحة فيّاضة، رُيّت في أحضان أمهات فاضلات، وبين أخوة علماء وأدباء، وأحوال أفذاذ فقهاء.

في جامع الزيتونة:

وأقبلت إلى جامع الزيتونة لطلب العلم، وهو أكبر معهد إسلامي في تونس، فأخذت عن أساتذته الأجلاء روائع كتب التفسير والحديث والسيرة والفقه والأدب.

وما إن بلغت شأوك، حتى كان التضييق والإرهاب قد بلغ أشده على أخيك الإمام محمد الخضر لنضاله عن الهدى وكفاحه ضد الباطل، فصَدَرَ الحكم عليه بالإعدام لدعوته للتحرير ضد المستعمر، فخرجت أسرتك فراراً بدينها مهاجرة في سبيل الله لتبحث عن بلد مطمئن آخر، وهل غير دمشق المدينة المسلمة المؤمنة الصّامدة من مهبط للأفئدة ودار للفضيلة ودعوة إلى الحق؟

خروجه مع أسرته مهاجراً في سبيل الله إلى دمشق:

انتقلت أسرتك بكل علمها وفضلها عام ١٣٣٠هـ، الموافق لعام ١٩١٢م من تونس إلى دمشق، فنزلت أهلاً ووطأت سهلاً. وكانت الروضة

التي بدأت فيها رحلة الإخلاص في العمل لله، ومن هذه المدينة الماجدة انطلقت - يا سيدي - في درب الهداية الإسلامية والتربية الخلقية.

بدأت جهادك الطويل الشاق من موقعين عظيمين - المسجد والمدرسة - وأشرفت على أبناء دمشق من خلالهما، لأنك كنت ترى صلاح الأمة مرتبطاً بهاتين القلعتين الشامختين فإذا ثلماً فقل على الأمة السلام.

نشره العلم في مساجد دمشق:

عرفك مسجد بني أمية عالماً، وجامع سيدي صهيب مدرساً، وجامع منجك موجهاً، وجامع الخانكية مربياً فاضلاً. وطيلة سبعين سنة كاملة أعطيت دمشق كل ما لديك من آداب نبوية وأخلاق السلف الصالح.

جهاده العلمي في مدارس دمشق:

ومدارس دمشق بمراحلها الابتدائية والثانوية ودور المعلمين، وعلى مرّ خمسين عاماً، سَقَيْتُهَا من جُهدك وتوجيهك وإرشادك فأثمرت العديد من الوزراء الشرفاء، والقادة الحكماء، والرجال كبار النفوس من أبناء الأمة.

التوجيه والوعظ والإرشاد:

ودور دمشق في أحيائها القديمة والحديثة، فتحت لك ذراعيها طيلة أيام الأسبوع للتوجيه والوعظ والإرشاد: فكانت ليلة الشباب المثقف، وليلة تجار المدينة، وليلة أبناء الريف، وليلة الأميين البسطاء، وليلة الدعاء والصلوات، فكانت توفي كل جماعة حقّها بما يلائم مستواها ومشربها، فجعلت الأيام أحب إليهم من أهلهم والدنيا وما فيها.

تأليفه «المعجم المدرسي» و«المعجم في النحو والصرف»:

وفي أوقات كنت تقتنصها اقتناصاً، انصرفت إلى وضع (المعجم المدرسي) طيلة خمس سنوات. فأسعدت اللغة العربية وخدمتها الخدمة

الجلّى، وكان المعين للطالب والأديب والمعلم. ثم قدمت (المعجم في النحو والصرف) فأزلت به الجفاء بين الطالب وقواعد اللغة، وحببتها له حباً جمّاً، وما كانت خدمتك للغة إلا لأنها لغة القرآن.

مؤلفاته الكثيرة:

زوّدت المكتبة الإسلامية بالعديد من كتب التوجيه السديد، فها هو كتاب (دروس الوعظ والإرشاد)، وكتاب (الدين والقرآن)، وكتاب (القرآن القانون الإلهي)، ثم (المعجم في القرآن)، و(آداب المؤمن)، و(الأربعون الميدانية). كما زوّدت المكتبة المدرسية بما ينفع الناشئة مثل كتاب (الطرف)، و(المفردات والمحادثة)، و(الإملاء).

والسلام على أحلاقك مع أهلِكَ وجيرانك ومعارفك، ولن أوفيك حقك في هذه الكلمة، وإنما لقاءنا في كتاب سيرتك - إن شاء الله - لأنك والدي. بل لأنني أتمنى لكل إنسان مسلم أن يكون مثلك إنساناً مسلماً، لتكون العزة للإسلام.

رثاء الأستاذ علي الرضا التونسي لأبيه:

والى روحك الزكية أرفع هذه الأبيات:

لَسْتُ أَبْكِيكَ وَلَا الدَّمْعُ هَمِّي	إنما أذرف من عيني الدما
ليس في الصُّدر فؤاد إنما	ألم يعصر مني الألما
ليس في الأذان وقر إنما	بعد همس (الزين) عافت نغما
كنت بالأمس على أقدامه	ألثم النور وأفدي القدمما
أتملى طلعة ريانة	أشرققت هدياً وكانت بلسما
فأتى داعي الردى في لحظة	- راعني هولاً - وهزّ المعصما
وكانَ الشيخ إذ رافقه	قد رأى روضته فابتسما
جفت العبرة لما أعلنوا	نبأ أضرم قلبي ضرما
صرخة محمومة أخفيتها	ثم أطبقت على المرّ الفما

إن فوق النعش شمساً علماً
هل رأيت مثل صفاه شيماً
ينشر الخير ويرعى الحكماً
وسناً الإيمان يمحو الظلماً
بأريج (الزين) طابت نسماً
فاتى المعجم يهدي العجماً
وانتضى نحو الضلال القلماً
قد رباً فيها عزيزاً ونماً
فهو ابن المصطفى قد عظم

* * *

فاجعلوها إن تشاؤوا سلماً
جل هذا الشيخ حتى عظماً
وانشروا من زفراتي غمماً
صافح النجم سمواً وسماً
لنيتها تسع قرون حلماً

* * *

خشية الله وأن نرعى الجمى
عزة الإسلام حتى ارتسماً
يُخزي من كان به معتصماً
أنه حيّ يضيأه القمماً

رائد النعش ترفق يا فتى
فاسأل الشام وسلّ مئيدانها
كم بنى صرحاً لعلم شاهقا
شرف العرفان والعلم به
كم نواد عطرت ساحتها
لغة القرآن كم قدسها
عانق القرآن من غدوته
دوحة طاهرة فيأحة
قبس من جذه عظمه

يا سقاء القبر هاكم مهجتي
واهبطوا في اللحد هزناً إنه
واجعلوا بعض جفوني مرقداً
قد تولى عن عيوني علم
ومضت تسعون عاماً خلماً

إيه يا زين لقد علمتنا
ولقد لقننا من صغر
وعلمنا منك أن الله لا
هذه آثاره تذكرنا





الشيخ محمد يوسف البُنوري

وجهوده العلمية^(١)

(١٣٢٦ - ١٣٩٧هـ)

(١٩٠٨ - ١٩٧٧م)

للاستاذ الدكتور: عبدالعزيز عزّت عبد الجليل

نسبته وبيئته:

هو محمد يوسف بن محمد بن زكريا البُنوري.

والبُنوري نسبة إلى بلدة - «بُنور» - قرية من قرى «البنجاب الشرقي» من ولاية (بتّالة) من ولايات الهند.

ولُقّب كذلك بالبشاوري، نسبة إلى مدينة «بشاور» عاصمة الحدود الشمالية الغربية في «باكستان» المتاخمة للحدود مع «أفغانستان»، وتقع على مسافة ثلاثة عشر ميلاً من ممر «خير» المعروف في التاريخ.

ومما هو معروف أنّ للبيئة أثرها في تكوين الفرد، فقد نشأ الشيخ محمد يوسف البُنوري في أسرة علمية حملت لواء العلم، وورثته الأبناء والأحفاد.

(١) مجلة الأزهر، العدد ٤، السنة الرابعة والستون: (١٤١٢هـ - ١٩٩١م).

طلبه للعلم:

حفظ العلامة البُنوري القرآن الكريم في صغره، وتلثى مبادئ العلوم على أبيه وخاله، ثم رحل مع أبيه إلى «أفغانستان»، وبعد العودة إلى «بشاور» تلقى دروسه على أشهر العلماء هناك في ذلك الوقت، ثم رحل إلى مدينة «جلال آباد» في أفغانستان، وانتقل بعد ذلك إلى «الهند»، والتحق بمدرسة دار العلوم ديونيد التي لقبت «بقرطبة الهند»، و«أزهر آسيا».

وبعد ذلك توجه إلى - «دابهيل» - من أعمال «بومباي» محط كبار العلماء، ومؤثليهم، ولا يخفى على أي مهتم بالدراسات الإسلامية دور رجال «الجامعة الإسلامية» في «دابهيل» وشهرتهم في علوم الشريعة، وكانت رحلته فيما بعد إلى «كشمير»، ولم يمكث بها طويلاً.

مناصبه العلمية:

كان الشيخ البُنوري شخصية علمية بارزة، وقد تبوأ مناصب عديدة أذكر منها الآتي:

- (١) رئيساً لجمعية العلماء في إقليم «بشاور».
 - (٢) رئيساً لجمعية علماء الهند في «كجرات».
 - (٣) عُيِّن عضواً بارزاً في المجمع العربي «بدمشق».
 - (٤) عُيِّن كذلك عضواً في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.
 - (٥) اختير عضواً بجامعة كراتشي في لجنة انتخاب المدرسين بكلية الدراسات الإسلامية والعربية.
- وغير ذلك من المناصب التي بلغت أكثر من ستة عشر منصباً علمياً.

ثناء العلامة الشيخ عبدالفتاح على شيخه البُنوري:

قال عنه الأستاذ المحدث عبدالفتاح أبو غدة: «كان - رحمه الله - كنز العلوم والفضائل لكل مستفيد وسائل، وكان رأيه ثاقباً، وفكره مصباحاً

وَضَاءٌ، يَنِيرُ السَّبِيلَ لِلسَّالِكِينَ وَالْمُسْتَهْدِينَ. أَمَّا غَزِيرُ عِلْمِهِ وَمَكْنُونُ حِفْظِهِ، فَهُوَ الْبَحْرُ الْعَذْبُ النَّمِيرُ، وَالْكُوْثَرُ الصَّافِي الْمُرُودُ، وَهُوَ الَّذِي كَانَتْ تَزْدَانُ بِهِ صُدُورُ مَجَالِسِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ وَالْقُلُوبِ، وَلَقَدْ كَانَ لِي - وَاللَّهِ - الرُّوْحُ وَالْبَلَسَمُ وَالْمَنْهَلُ الْعَذْبُ الَّذِي لَا يَشْبَعُ مِنْهُ النَّاهِلُونَ، وَلَا يَظْفَرُ بِمِثْلِهِ الطَّالِبُونَ. يَوْسُفُ هَذَا الْعَصْرِ! فِي عِلْمِهِ وَدِينِهِ وَجِهَادِهِ وَجُهْدِهِ وَكِفَاحِهِ فِي وَجْهِ كُلِّ عَادٍ وَمُغِيرٍ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ^(١).

المُحَدَّثُ الْمَفْسَّرُ:

كَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُحَدِّثًا، وَكَانَ فِي مَنْهَجِهِ يَهْتَمُّ بِالسَّنَدِ وَالرِّجَالِ، وَالدَّقَّةِ فِي الرِّوَايَةِ وَالْبَحْثِ وَالتَّأْمُّلِ، وَكَانَ صَاحِبَ بَاعٍ طَوِيلٍ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَتَدْرِيسِهِ.

كَمَا كَانَ الشَّيْخُ الْبُنُورِيُّ مُفَسِّرًا، وَكَانَتْ لَهُ مَوَاقِفٌ مِنَ السَّيْرِ سَيِّدُ أَحْمَدَ خَانَ سَبَبِ التَّفْسِيرِ الَّذِي أَلْفَهُ، وَكَذَلِكَ مَعَ مَوْلَانَا أَبُو الْكَلَامِ آزَادُ، وَرَدُّ عَلَى كِتَابِهِ - «تَرْجَمَانُ الْبَيَانِ» فِي كِتَابِهِ - «يَتِيْمَةُ الْبَيَانِ فِي عِلْمِ الْقُرْآنِ»، كَمَا انْتَقَدَ أَبَا الْأَعْلَى الْمُوْدُودِيَّ فِيمَا كَتَبَهُ فِي تَفْسِيرِهِ «تَفْهِيْمُ الْقُرْآنِ».

العالم الفقيه:

وَالْبُنُورِيُّ كَذَلِكَ كَانَ فَقِيهًا لَهُ اِهْتِمَامٌ بِالْعِلْمِ الْفَقْهِ وَأَصُولِهِ، وَقَدْ وَصَفَهُ مَنْ تَرَجَّمَ لَهُ بِالْفَقِيهِ، وَكَانَ حَنْفِي الْمَذْهَبِ، يَفْتِي بِهِ، وَيُرْجِّحُهُ عَلَى غَيْرِهِ دُونَ تَعْصُبٍ.

(١) وَقَالَ شَيْخُنَا الْعَلَّامَةُ عَبْدُالْفَتْاحِ أَبُو غَدَّةٍ فِي إِهْدَانِهِ لِكِتَابِ «مَبَادِي فِي عُلُومِ الْحَدِيثِ» - مَقْدَمَةً فَتَحَ الْمَلْهَمُ - لِشَيْبَرِ أَحْمَدَ الْعُثْمَانِي: إِلَى رُوحِ شَيْخُنَا الْعَلَّامَةِ الْمُحَدِّثِ الضَّابِطِ الْمُتَّقِنِ النَّبِيلِ، الْفَقِيهِ الْمُحَقِّقِ الدَّرَاكَةِ الْبَارِعِ الْأَصِيلِ، الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِحَالِهِ وَمَقَالِهِ، وَسُلُوكِهِ وَأَعْمَالِهِ، الشَّيْخِ مُحَمَّدِ يَوْسُفَ الْبُنُورِيِّ، مُؤَسِّسِ (جَامِعَةِ الْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ) فِي مَدِينَةِ كِرَاتَشِي، أَعْلَى اللَّهِ مَقَامَهُ لَدَيْهِ، وَأَكْرَمَ جَائِزَةً وَفَادَتَهُ عَلَيْهِ، آمِينَ.

الأديب الشاعر:

وكان البُوري أديباً وشاعراً، وله آثار في الأدب العربي، وأذكر هنا نموذجاً من قصائده في مدح النبي ﷺ:

كأنَّ نجوماً أوْمَضَتْ في الغياهب عيون الأفاعي أو رؤوس العقارب
إذا ما أتتني أزمة مُدْلهمة تحيطُ بنفسي من جميع الجوانب
تطلَّبت هل من ناصر أو مساعد ألودُّ به من خوف سوء العواقب
فلستُ أرى إلا الحبيب محمداً رسول إله الخلق جمّ المناصب

وغير ذلك من القصائد في مختلف أغراض الشعر العربي.

مؤلفاته:

وللشيخ البُوري مؤلفات عديدة في مختلف العلوم الدينية والأدبية.

ومن ذلك في علم الحديث الشريف الآتي:

- مقدمة «فيض الباري» وتحقيقه.

- تحقيق «نصب الراية» للزيلعي^(١).

- مقدّمة «أوجز المسالك في موطأ مالك».

- مقدّمة «لامع الدراري على جامع البخاري».

- مقدّمة «بذل المجهود في حل أبي داود».

- مقدّمة «السنة ومكانتها في التشريع»^(٢).

- ترتيب وتبويب مع إخراج وتصحيح «العرف الشّذي شرح

الترمذي»^(٣).

(١) لم يحقق الأستاذ البوري فيض الباري ولا نصب الراية، وإتّما قدّم لهما.

(٢) هذه المقدمة والثلاثة التي قبلها لا نعرف أن الشيخ قدّم لها.

(٣) وهو مجموع أمالي شبحه محمد أنور شاه الكشميري في تدرسه لسنن الترمذي.

- التعليق على «سنن أبي داود»، لا زال مخطوطاً.
- تحقيق وتخريج لـ «معاني الآثار» للطحاوي^(١).
- «لب اللباب في تخريج ما يقول الترمذي: وفي الباب»^(٢) - وغير ذلك كثير وكثير أتركه خوف الإطالة.

آثاره في الفقه:

- «الفتاوى» على مدى سنوات طويلة.
- «بغية الأريب في أحكام القبلة والمحاريب».
- «مقدمة للسعاية في كشف ما في شرح الوقاية».
- «مقدمة في عقد الجيد في أدلة الاجتهاد والتقليد».
- «الأسماع إلى خصائص حجة الوداع».

وله في العقائد:

- موقف الأمة الإسلامية.
- مقدمة عقيدة الإسلام، وعدة مقدمات أخرى.

دوره في الدعوة الإسلامية:

وللشيخ البُوري دورٌ هام في بناء المراكز الإسلامية والمساجد وإيفاد المبعوثين إلى جهات مختلفة لنشر الدعوة الإسلامية خاصة في «أفريقيا» و«أوروبا» و«أمريكا».

(١) لا يعرف أن الشيخ رحمه الله تعالى حقق وخرّج «معاني الآثار».

(٢) ابتداء العمل به، ولم يكمله.

ومن أبرز خدماته: مواجهته للقاديانية بالكلمة والتحريك المضاد والمباشر، ودوره الفعال في حركة - ختم النبوة - حتى انتخب بالإجماع رئيساً لمجلس ختم النبوة الأولى.

تأسيس جامعة العلوم الإسلامية بكراتشي:

وقد أسس - عليه رحمة الله - «جامعة العلوم الإسلامية» - بمدينة «كراتشي» في الثالث من شهر المحرم سنة ١٣٧٤هـ = ١٩٥٣م، وتعد الآن من المفخر الإسلامية في باكستان لما تتمتع به من سمعة علمية وثقة المجتمع الباكستاني فيها، وكانت قبل ذلك تسمى المدرسة العربية الإسلامية أسسها بعد تقسيم الهند وباكستان.

وفاته وراثؤه:

وكانت وفاته - رحمه الله - في الثالث عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٧٧م، وقد وافته المنية وهو يتهاً للسفر إلى القاهرة لحضور مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية.

ومما قيل في رثائه:

رضينا بالقضاء من القدير	إله الخلق علام خبير
بموت الشيخ يوسف بن بنور	نظيف البشارة الصافي الضمير
خوى علماً ورشداً ثم تقوى	قنوعاً في المعيشة باليسير
وما أحد يضاهيه بوصف	ولا يذنوه في علم عزيز

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء^(١).



(١) ألحقت ترجمة صافية محررة للبُنوري، سداً لجوانب الضعف في هذه الترجمة، وتعريفاً بمكانة العلامة الشيخ يوسف البُنوري رحمه الله تعالى.



المحدث الأديب السيد
محمد يوسف البنوري الحسيني^(١)

اختيار وإعداد: مجد مكّي

سلالة دوحة مباركة:

هو محمد يوسف بن السيد محمد زكريا بن المير مزمل شاه بن المير أحمد شاه البُنُوري الحسيني، يتصل نسبه بسيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما^(٢).

مولده:

ولد في ٦ ربيع الآخر ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م يوم الخميس وقت السحر.

(١) هذه الترجمة مستلة من كتاب «دراسة حديثة فقهية عن معارف السنن شرح سنن الترمذي»، بقلم الأخ الكريم الدكتور محمد يحيى بلال منيار، ص ٦٩ - ٨٧. وقد جعل ترجمته في خمسة مطالب: الأول: في سيرته ومسيرته، والثاني: في التعريف بمدرسته (المدرسة العربية الإسلامية)، والثالث: في موقفه التاريخي الخالد في القضاء على القاديانية، والرابع: حمال البيان واللغة عند البنوري، والخامس: علّم من الأعلام. وقد اقتصرنا على المطلب الأول.

(٢) مجلة «بيات» ص ٩ و ١٠٥ ونفحة العنبر ص ٢٦٧. و(بُنُور) هي قرية من قرى بنجاب الهند بالقرب من مدينة (سَرْهِنْد). ونضبط (بُنُور) بالتخفيف كـ(صُبُور) أو بالتشديد كـ(التنُور)، لكن السائر على الألسنة اليوم كما يقول الشُوري، هو التخفيف. نفحة العنبر ص ٢٦٨ وبغية الأريب للبُنُوري ص ١٨ (يحيى).

أسرته الراشدة:

كان أبوه الشيخ محمد زكريا البُوري عالماً جيداً، طبيباً حاذقاً، صالحاً زاهداً، يجيد تعبير الرؤى، وكان أيضاً يكتب العربية الجيدة. وله مؤلفات مختصرة في موضوعات (الروح) و(المعجزات) و(الرؤى). توفي سنة ١٣٩٥هـ رحمه الله تعالى^(١).

وكان جدّه المير أحمد شاه رحمه الله تعالى رجلاً وحيهاً في غاية الصلاح والاستقامة. ومما يؤثّر عنه أنه أنشأ منطقة سكنية، لا يسمح بالسكنى فيها إلا لمن كان محافظاً على الصلاة!^(٢).

نشأته العلمية ومراحل دراسته المختلفة:

قرأ القرآن الكريم على والده وخاله، وتلقّى التعليم الأولي في مسقط رأسه بشاور، ثم في كابل عاصمة أفغانستان.

ثم ارتحل سنة ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م إلى (المدرسة الإسلامية الديوبندية) التي تقع بمدينة (ديوبند) شمال دهلي بمئة ميل، فدرّس فيها باقي العلوم من سنة ١٣٤٥ إلى سنة ١٣٤٧.

ثم ارتحل منها سنة ١٣٤٧ - ١٩٢٩ إلى (مدرسة تعليم الدين) بقرية (دابهيل) في منطقة كُجرات فأكمل فيها دراسته التخصصية في الحديث الشريف وعلومه المعروفة في مدارس الهند بمرحلة (دورة الحديث الشريف)^(٣)، ونجح فيها بتفوق ممتاز جداً.

(١) «بينات» ص ٨٧ و ٢٤، وإتمام الأعلام لنزار أباظة ورياض المالح ص ٢٣٦ (يحيى).

(٢) «بينات» ص ٢٤ (يحيى).

(٣) وهي دورة لدراسة الكتب الحديثية الستة، والموطأ، وشرح معاني الآثار، دراسة مكثفة في عام واحد، ينتخرج الطالب على إثرها حائراً على شهادة تقارب أو تعادل شهادة (البكالوريوس) أو (الليسانس) في أيامنا (يحيى).

وكان أبرز شيوخ هذه المدرسة الذين تأثر بهم البُنوري وتخرج عليهم في الحديث الشريف وعلومه، اثنان:

أحدهما: محقق العصر الشيخ شبير أحمد العثماني شارح صحيح مسلم بكتابه الفخم: «فتح الملهم شرح صحيح مسلم».

والآخر: إمام العصر المحدث الكبير العَلَم الشهير الشيخ محمد أنور شاه الكشميري. وهو يعدُّ عمدة البُنوري في التخريج والتكوين العلمي، فقد أخذت شخصيته بمجامع قلب البُنوري لأنه رأى فيه ما ملأ عينه من الفحولة العلمية والضلالة والتمتانة وامتلاك نواصي العلوم والفنون كافة، فألقى إليه بمقاليد نفسه، وأحبه بقلبه وقالبه، ولازمه ملازمة الظل للشاخص مدة سنة كاملة لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ولا سفراً ولا حضراً، وشاقه مشاقمة تامة حتى كان يُعدُّ من أخص تلامذته مع كونه أقل واحد وآخر واحد مصاحبة له واستفادة منه.

نشاطه المتنوع بعد التخرج:

ثم من سنة ١٣٤٨ - ١٣٥٢هـ - ١٩٣٠ - ١٩٣٤م بقي في وطنه بشاور يؤدي النشاط التدريسي، إلى جانب بعض الاشتراكات الاجتماعية والسياسية.

ثم اختارته مدرسة دابهيل سنة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٤م مدرّساً بها، وأيضاً عضواً في إدارتها التأليفية التي تسمّى بـ «المجلس العلمي»، وأسند إليه حينئذ خدمة كتاب «العرف الشّذي على جامع الترمذي» وهي مجموع أمالي شيخه الكشميري في تدريسه لسنن الترمذي، فكلّف البُنوري بتخريج نصوص هذا الكتاب وتوثيقها وضبطها وتحريرها، وكانت مهمة علمية صعبة جداً، لكن حسن كفاءة البُنوري في هذا العمل، أثمر له بعد ذلك إنتاج كتابه الفخم الحافل «معارف السنن».

ومن أهم أحداث هذه الفترة: ابتعاث «المجلس العلمي» له إلى بلاد مصر، لطبع كتابي «نصب الراية» للزيلعي، و«فيض الباري على صحيح

البخاري». وكانت رحلة ممتعة طويلة استغرقت مدة سنة وزيادة^(١).

وبعد عودته من هذه الرحلة، أُسند إليه منصب (مُشيخة الحديث الشريف) بمدرسة دابهيل، وهو أعلى منصب بمدارس الهند، فبقي مُتصدراً بها إلى حين هجرته إلى باكستان عام ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م^(٢).

أبرز مشايخ العصر الذين أجازوه في الحديث الشريف:

التقى البُنوري في رحلاته بمشايخ كبار فاستجاز منهم في الحديث الشريف، ومن أعيانهم: الشيخ محمد زاهد الكوثري، والشيخ خليل الخالدي المقدسي، والمحدث الشيخ عمر بن حمدان المحرسي المالكي المغربي، والشيخ محمد بن حبيب الله ابن مايأبي الجكني الشنقيطي أستاذ كلية أصول الدين بمصر، وقد التقى بهؤلاء جميعاً في مصر سنة ١٣٥٧ في أثناء رحلته إليها. واستجاز من المحدثّة المعمرة العالمة أمة الله بنت الشاه عبدالغني الدهلوي في المدينة المنورة.

النشاط التدريسي والتلامذة:

قام البُنوري بالتدريس مدة أربعين سنة منذ تخرجه إلى أواخر حياته، دَرَسَ فيها مختلف الفنون، ولكن كان يرتاح وينشرح جداً لتدريس مادتي تفسير القرآن الكريم وعلومه، والحديث الشريف وعلومه. وكان ذا ذوق منفرد في معرفة لطائف التفسير واستنباط نكات القرآن الكريم. وأما الحديث، فقد شهد له العارفون من كبار معاصرين بأنه يُعدُّ من جهابذته المحققين المبرزين في عصره.

(١) ذكر الدكتور يحيى تفاصيلها في المبحث الثاني من التعريف بالبُنوري، بعنوان: صلة البُنوري بمصر ص ٨٩ - ٩٨.

(٢) بنظر: العناfid الغالية من الأسانيد العالية، لمجيزنا العلامة الفقيه المحدث محمد عاشق إلهي البرني ص ٨١ (مجد).

وتخرج عليه في هذه المدة الطويلة جُمع كثير من الطلبة، وجميعهم من أهل الهند والباكستان. وإليك بعضاً منهم ممن اشتهرت أسماؤهم في الأوساط العلمية والعربية:

الدكتور محمد حبيب الله مختار رحمه الله تعالى، نال العالمية من جامعة البنوري بكراتشي، وهو ختن الشيخ البنوري. وقد استشهد قريباً وهو شاب، مغتالاً بالأيدي الأثيمة في باكستان، رحمه الله تعالى.

الدكتور محمد أحمد قمر، نال العالمية (الدكتوراه) من جامعة كراتشي بباكستان^(١). وهو شقيق الدكتور محمد حبيب الله مختار السابق.

الدكتور عبدالقيوم عبد رب النبي، نال العالمية (الدكتوراه) من جامعة الأزهر أيضاً، بأطروحته «تحقيق القسم الأخير من سنن الدارمي»^(٢).

الدكتور عبدالرزاق سكندر، نال العالمية (الدكتوراه) من جامعة الأزهر، بأطروحته «فقه عبدالله بن مسعود» بإشراف فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة. وهو مدير جامعة البنوري حالياً.

أبرز الشخصيات التي استجازت من البنوري في الحديث وعلومه:

المُحدث الشيخ حسن المشاط المكي، والعالم الجليل الشيخ عبدالفتاح أبو غدة الحلبي، والشيخ عبدالعزيز عيون السود الحمصي، والشيخ إبراهيم خُتني بالمدينة المنورة، والشيخ سليمان بن عبدالرحمن الصنيع، رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمكة المكرمة، والدكتور مصطفى السباعي الدمشقي.

(١) وهو مقيم بمكة المكرمة، وكان باحثاً برابطة العالم الإسلامي إلى عهد قريب. وهو ختن شيخنا العلامة المحدث محمد عبدالرشيد النعماني رحمه الله.

(٢) وهو مقيم أيضاً بمكة المكرمة، وكان باحثاً بمركز البحوث والدراسات لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ثم انتقل قريباً إلى مكتبة الحرم المكي الشريف.

تصانيفه:

«بغية الأريب في أحكام القبلة والمحاريب». طبع في مصر سنة ١٣٥٧ في ١٨٣ صفحة. ألفه للردّ على ما أثاره الملحد عنايت الله خان المشرقي من بلبلة حول صحّة اتجاه محاريب مساجد الهند، وقد وقى البُوري البحث فيه من جميع المناحي مع صعوبة الموضوع، مما جعل كبار علماء عصره يعترفون له بالإجادة فيه. وقد قرّظه له بمصر الشيخ الكوثري.

«نفحة العنبر في حياة الشيخ الأنور»، في سيرة شيخه محمد أنور شاه الكشميري. طبع بباكستان سنة ١٣٨٩هـ في ٣٣٧ صفحة. ومع كونه ألفه في «شُرْخ شبابيه وعنفوان فتوته»، إلا أنه بهزّ كبار شيوخه وأدباء عصره من حيث المادة القيمة، ومن حيث الأسلوب الرفيع المعجب فيه. وما زال الكتاب بطراوته وطلاوته يَجْذِبُ القراء، فما يكاد يبدأ المرء قراءته إلا ويجد نفسه مأخوذاً بمتعة بيانه حتى يأتي على قراءته بكامله.

«بتيمة البيان على مشكلات القرآن»: هي في الأصل مقدمة لكتاب شيخه الكشميري: «مشكلات القرآن»، وقد حوّت مادة حافلة في علوم القرآن الكريم وموضوعات التفسير مع إطلالة على مؤلفات علماء الهند في التفسير، جاءت في نحو ١٣٩ صفحة، وطُبعت مع أصل الكتاب في دهلي سنة ١٩٣٦.

«الأستاذ المودودي ونتائج بحوثه وأفكاره»: انتقد فيه بعض النظريات الخاطئة، التي توجد في فكر المودودي وكتابات، ويجهلها عامة القراء.

«معارف السنن»: شرح لسنن الترمذي في ضوء إفادات الشيخ المحقق الكشميري، وهو تاج مؤلفاته^(١).

«لبّ اللباب في تخريج ما يقول الترمذي (وفي الباب)»: هذا كتاب

(١) وهو الذي اختاره للدراسة الأخ الكريم الشيخ محمد يحيى بلال في رسالة الدكتوراه في الأزهر، وطبع الكتاب في المكتبة المكية سنة ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٦م، وصدر في ٧٧٤ صفحة.

قيم جداً كان البُوري ابتدأ العمل فيه لتخريج الأحاديث التي اشتهرت عند الترمذي بعنوان «وفي الباب عن فلان وفلان»، ولم يكتمل هذا الكتاب، ولو كمل لكان تحفة علمية حديثة نافعة جداً في خدمة سنن الترمذي^(١).

وللبُوري مقدمات قيّمة مائة لبعض الكتب، من أبرزها:

- مقدمة نصب الراية، ط في ٢٠ صفحة.
- مقدمة فيض الباري، ط في ٢٠ صفحة.
- مقدمة مقالات الكوثري، ط في نحو ١٠ صفحات. وهذه المقدمات الثلاثة مشهورة متداولة، وتعتبر من أنفس كتاباته من حيث المادة العلمية ومن أنصعها ديباجة وأسلوباً.
- مقدمة كتابه «معارف السنن» سمّاها: «عوارف المنز». وهي أحفل المقدمات، حيث تُقدّر بنحو ٥٠٠ صفحة، لكنها مجهولة حتى الآن^(٢).

مناصبه وامتيازاته:

- أسندت إليه صدارة المدرسين ومشيخة الحديث الشريف في مدرسة دابهيل سنة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م، وبقي فيها إلى أن هاجر إلى باكستان.
- كان عضواً في «المجلس العلمي» بدابهيل، وهو إدارة للنشر.
- اختير رئيساً لرابطة اتحاد المدارس العربية الإسلامية في باكستان.

(١) ينظر تعريف مفصل عنه مع نماذج من تخريج البُوري فيه، في فصل التخريج في بحث (تخريج أحاديث وفي الباب) من الكتاب المذكور سابقاً، ص ١٩٤ - ٢١٠.

(٢) وقد أشار البُوري إليها بإجمال، في بعض المواضع من معارف السنن وبين قيمتها في احتوائها ترجمة بديعة للإمام الترمذي، مع دراسة تفصيلية عن سس الترمذي. وكانت مسودتها موجودة عند ختته الشيخ محمد حبيب الله مختار الذي استشهد مغتالاً قبل سنوات، رحمه الله تعالى، فلا ندري إلى من انتقلت بعده تلك المسودة، وقد استفسرت عنها الشيخ تقي العثماني، فأشار إلى احتمال فقدانها، مما ثبط همتي بالأمل في العثور عليها. والأمل كبير أن تجد يوماً ما السبيل إليها بإذن الله تعالى (يحيى).

- رُشح لصدارة منصب الإفتاء بمدرسة ديوبند، فلم يقبل.
- اختير أميراً لمجلس تحفظ ختم النبوة في باكستان سنة ١٩٧٤م.
- وفي عهد رئاسته لهذا المجلس، وُفق لإصدار قرار البرلمان الباكستاني باعتبار القاديانية أقلية غير مسلمة في باكستان.
- كان أحد أعضاء مجموع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.
- اختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

وفاته:

«لقد كان البُوري من جنود الله حقاً الذين وقفوا حتى آخر لحظة من حياتهم يذودون عن حمى الإسلام وأرضه ودينه، ويكافحون في كلِّ موقع نزل فيه كفر، أو عمت فيه بدعة، أو ظهر فيه زنديق، لقد ظلَّ رحمه الله تعالى مجاهداً، حتى سقط وهو في ساحة الميدان، حينما توفاه الله وهو يسعى لتحكيم شريعة الله في باكستان»^(١)، حيث أُصيب بنوبة قلبية في أثناء اشتراكه في مؤتمر تحكيم الشريعة في باكستان، توفي على إثرها في ٣ ذي القعدة ١٣٩٧هـ.

وعزته صدور الشخصيات الإسلامية، وعزاه مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر أيضاً.



(١) مفتس من خطاب الشيخ أحمد عبدالعزيز آل مبارك، رئيس القضاة بالإمارات العربية المتحدة، مجلة بينات ص ٧٩٠ - ٧٩١ (بحي).



الأستاذ محمد غسان المراد^(١)

(١٣٦٥ - ١٤٢٩هـ)

(١٩٤٦ - ١٩٧٧م)



للاستاذ: عبدالقادر حداد^(٢)

أيها الغائب الحبيب:

سلامُ الله عليك حيث كنت، فهذه ساعة ذكر وذكري تحملنا إليك،
إلى رُوحك الطيبة اللطيفة بعد مرّ الأيام السريع جاءنا النعي يوم السادس

-
- (١) حضارة الإسلام، العدد الخامس، السنة الثامنة عشرة: (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).
- (٢) من كبار شعراء الدعوة الإسلامية، ولد في مدينة حماة عام ١٩٤٥، وتلقى تعليمه في مدارسها، وحصل على شهادة دار المعلمين، ثم التحق بكلية الآداب في جامعة دمشق، ونال إجازة اللغة العربية وآدابها عام ١٩٦٩، وحصل على دبلوم الدراسات الإسلامية من القاهرة عام ١٩٨٤. عمل معلماً لمادة اللغة العربية في عدد من مدارس حماة، ثم أعيد للتدريس في السعودية، ثم انتقل للعمل في الكويت لدى وزارة الأوقاف، ودرس في مدارس دور القرآن الكريم، حتى وافته المنية في مدينة عمال بالأردن في ٢٠ محرم ١٤٠٩هـ، الموافق ١٩٨٨/٨/٢٥، وله عدد من الآثار الأدبية المطبوعة، منها: من وحي المولد، وبستان الأناشيد للسرّاعم، وملاحم للبطولة الخالدة، وملحمة بدر.

والعشرين من آذار لهذا العام، فدافعناه بالأمل البعيد، ولكن القضاء كان أمضى.

وعلى مثل الجَمْر بات قلب أخيك تلك الليلة، وإنَّ الأذن لتدفع النبأ مستريّة: أصحيح هذا؟ والقلب ليهتف بالعقل: هذا غير معقول. الشباب الناصر، والروح العذبة، والآمال العريضة، كلها تنقضي هكذا؟ وبلا سابق إنذار؟! ولكن ما إن انجلى الشك حتى كان اليقين أبلغ من أن يكذب، فغالبت فيك الأسى وهو أغلب!

ولادته ونشأته العلمية:

يرجع فقيدنا الغالي بتاريخ ميلاده إلى عام ستة وأربعين ميلادية في حماة، والده الفقيه الحنفي المرحوم الشيخ ظافر المراد^(١) من الأسرة المعروفة بالحفاظ على تراث الشريعة بحماة. وقد درس عليه الفقه الحنفي، كما سمع من أستاذنا الشيخ محمد الحامد رحمه الله بعض الدروس المعروفة عنه.

ولكنه جمع إلى ذلك كله، الدراسة في كلية الشريعة بجامعة دمشق وقد تخرج فيها عام واحد وسبعين للميلاد، وقد حضر لدراسة الدبلوم في التربية، ولكنه لم يتمها لأنه سافر إلى السعودية مدرّساً [في مدينة أبها] منذ أول عام ستة وسبعين، وهكذا بقي هناك ما يقرب السنة والنصف حتى وافاه الأجل في [مدينة الرياض في] السادس والعشرين من آذار. وقد دُفن هناك رحمه الله تعالى.

مزايا الفقيد رحمه الله تعالى:

يمتاز الفقيد بروحه الطيبة وتفاؤله العريض وأخوته السامية، هذه الأخلاق الرضية التي تصل به إلى النموذج المثالي للشباب المسلم الواعي في هذه الأيام!

(١) الشيخ محمد ظافر بن الشيخ محمد علي المراد الأول المولود سنة ١٣٠٩ والمتوفى سنة ١٣٨٩ رحمه الله تعالى.

قيمة الفقيد في المثال الكامل - أو الساعي نحو الكمال، المتفائل - والمؤمن دائماً كذلك - بنصر الله، وبصلاح هذه الشريعة لكل زمان ومكان!.

قيّمته في النموذج الصالح لطلاب كلية الشريعة في جامعة دمشق، الدأب والجد والمثابرة مع الدمثة والرقّة واللين لإخوانه، التي هي من صفات المؤمنين أسوة برسولهم عليه الصلاة والسلام: ﴿يَا مُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿فِيمَا رَحَمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

أخي، أيها الراحل الحبيب: أنت في قلبنا جزء من روحنا، مرضت لفقده، لا أقول مرضت بل حزنت... الحزن الذي لا تدفعه طبيعة البشر ولا تقدر عليه، هو في قول معلمنا ﷺ في إبراهيم: «... وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا...

أبيات الشاعر عبدالقادر حداد في رثائه:

ويا أخي: لك عليّ حقٌ كبير، فهل تفي ببعضه هذه الأبيات المتواضعة في رثائك؟ وإني لأعجب من نفسي الساعة: كيف يقول المرء أبياتاً في رثاء نفسه؟؟ لقد كنت مرآة أخيك، وها أنا أرفع أبياتي لتراها في مرآتك، واقل عذري إن قصرت فهذا الموقف ثقيل عليّ يا أخي أبا نافع!..

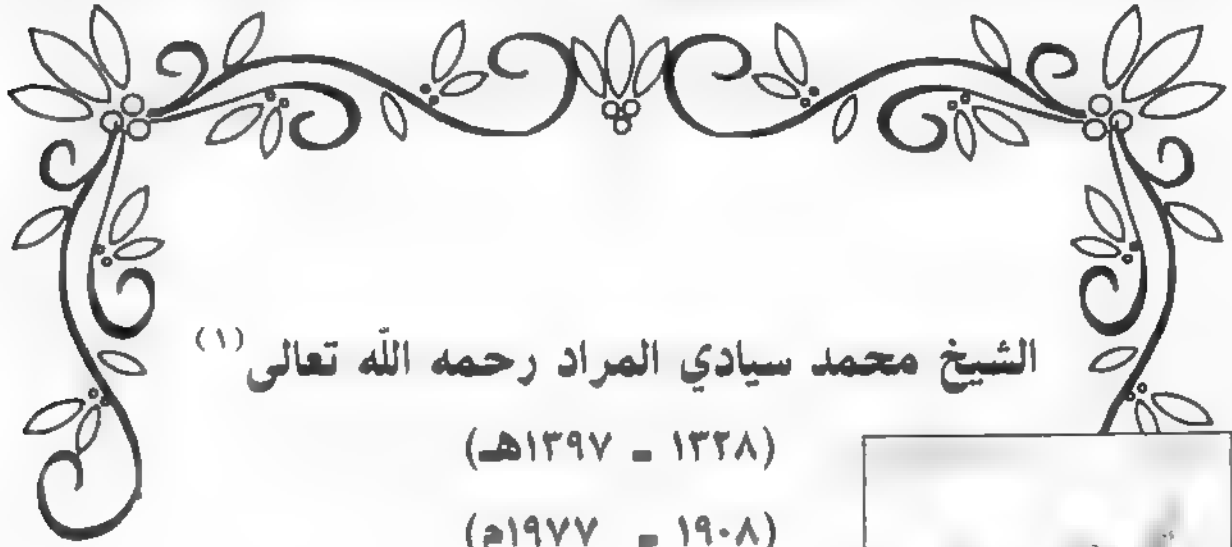
لَيْسَ لِأَمْرِ اللَّهِ مِنْ دَافِعٍ	فَلْيَرْحَمْ اللَّهُ أَبَا نَافِعٍ!!
مَضَتْ بِغَسَّانٍ إِلَى رَبِّهِ	كَفُّ الرَّدَى فِي مَذْهَبِ النَّازِعِ
إِذَا أَطْلُ الْأَجَلِ الْمُتَنَهِي	أَرْدَاكَ أَدْنَى مَلَمَسٍ صَارِعِ
لَنْ يَمْنَعَ الْإِنْسَانُ مِنْ يَوْمِهِ	وَلَوْ ثَوَى فِي حَصْنِهِ الْمَانِعِ!

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

ونغفل - العمر - عن القارع
 تفلت العمر من الهاجع!!؟
 إذا تولته يد «النافع»؟
 أنس المنى، ربحانة الجامع
 يا لطفه في ذوقه الرائع
 لكننا نؤمن بالصانع
 لو أسعفتني فورة النابع!!
 ألم تكن في روضة الرائع؟
 ومجلس الذكر والخاشع
 وبهجة الناظر والسامع
 من ربة الغافل والطامع!!
 تضربنا في لجها الدافع
 والملتقى في رحمة «الواسع»
 طابت بمشوى المصطفى الشافع

ويقرع المقدور أبوابنا
 حتى إذا حانت لنا صحوة
 هل تنفع الأحزان في ذاهب
 يا حُسْنَه في المجمع المرتضى
 يا طيبَه في المجلس المُشْتَهَى
 مصابنا فيك عظيم الشجى!
 أبكيك؟! جفّ الدمع في ناظري
 يبكيك قلبي، يا منى قلبه
 يبكيك في المسجد محرابه
 قد كنت فينا زهرة المنتدى
 هجرت دنياك خفيف الهوى
 وعفتنا في همّها، يا أخي
 سبقتنا في الدرب ما ضَرَرْنَا
 أكرم بمشواك لدى تربة





الشيخ محمد سيادي المراد رحمه الله تعالى^(١)

(١٣٢٨ - ١٤٩٧هـ)

(١٩٠٨ - ١٩٧٧م)



بقلم الشيخ: محمد بشير المراد — مفتي حماة^(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين القائل في كتابه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اختاره مولاه إلى الرفيق الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته وسار على نهجه إلى يوم الدين. وبعد:

المصيبة بفقد العلماء:

فإن فقد الأحياء فاجعة أليمة، وكون الفقيد من العلماء أشدّ ألماً وأبلغ أثراً، إن فقد العلماء كارثة مريرة، وكون الفقيد من الأتقياء أشدّ مرارة وأفدح خسارة، وفقد العلماء ثلثة لا تعوض، وفقد قبيلة أهون على الله من فقد عالم، والله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور العباد، ولكن ينتزعه بقبض العلماء.

(١) حضارة الإسلام، العدد الثاني، السنة التاسعة عشرة: (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

(٢) المولود سنة ١٣٤٠، والمقتول شهيداً بحماة سنة ١٤٠٢ رحمه الله تعالى وهو شقيق المترجم.

والمؤمن لا يستغرب وقوع الموت لأنه المصير المحتوم لكل مخلوق وقد أذعن له البشر كافة مؤمنهم وكافرهم إلا أن المؤمن يأخذ منه العبرة والعظة ويرضى بقضاء الله وقدره.

وقد كان حزننا على الراحل كبيراً، وفاء بحق الأخوة والعلم والتقوى، وافتقاراً للخلال الحميدة والخصال الرفيعة، وانسجاماً مع فطرة النفس البشرية التي تحزن وتسز، وترضى وتسخط، وترغب وترهب، ولكنها تضع كل أمر في موضعه، ولا تقول إلا ما يرضي ربها.

القاضي الفقيه:

نعم لقد كان أخي الشيخ محمد سيادي من العلماء العاملين، والقضاة الشرعيين العادلين الذين يتوخون الحق أينما كان، ويتبعونه أينما دار وسار، فقد كان رحمه الله علماً من أعلام الفقه في العصر الحاضر، ومع أن القضاء شغله طوال حياته إلا أنه كان لا يترك المطالعة والدرس وخصوصاً الفقه الحنفي.

ولما انتقل في آخر مدة وظيفته إلى مديرية التعليم الشرعي بوزارة الأوقاف كان المسؤولون في إدارة الإفتاء العام يكلفونه باستخراج النصوص الشرعية والتحقيق فيها، ويعتمدون عليه ولا يطمئنون إلى الفتوى التي تصدر إلا إذا كان موافقاً عليها، وهذا قبل أن يكلفوا مفتي القنيطرة بإفتاء دمشق.

ولادته ونشأته:

ولا بأس بهذه المناسبة أن أذكر طرفاً عن حياة الراحل وفاء بحق الأخوة فأقول: إن أخي الشيخ محمد سيادي هو ابن الشيخ أحمد بن الشيخ سليم المراد، ولد في حماة عام ١٣٢٨هـ، الموافق لعام ١٩١٠م، ونشأ في بيئة علمية متدينة، فوالده الشيخ أحمد^(١) كان من مشاهير علماء حماة علماً

(١) أحمد بن محمد سليم المراد المولود في حماة سنة ١٢٩٨، والمتوفى سنة ١٣٧٩ رحمه الله تعالى.

وفقها وورعاً وتقوى وزهداً في الدنيا حتى اجتمعت حوله القلوب، وكان إلى جانب ذلك من أهل الصلاح المرشدين، وكان قد أخذ العلم والسلوك عن أخيه وشيخه الشيخ محمد علي المراد^(١) الذي كان عالم زمانه مربّي السالكين وقُدوة العلماء والمتبحّر في كلّ علم وفن، وهذا بدوره كان أخذ العلم وطريق المعرفة والسلوك عن شيخه ووالده الشيخ سليم المراد^(٢) الذي بلغ في العلم درجة رفيعة، والحمد لله.

طلبه العلم:

أعود فأقول: إنّ أخي الشيخ محمد سيادي ابتدأ طلب العلم على والده، وعلى أخيه الشيخ عبدالعزيز^(٣) حينما كان صغيراً، ثم دخل مدرسة (دار العلوم الشرعية) في حماة، وتلقى العلم عن أساتذتها، وكانوا أكابر علماء حماة في ذلك الوقت، وعلى رأسها الشيخ توفيق الصباغ الشيرازي مدير المدرسة، رحمه الله.

في المدرسة الخسروية بحلب:

وبعد أن نال شهادتها ذهب إلى المدرسة الخسروية في حلب، وتلقى العلوم الشرعية المختلفة على شيوخها الأكارم الأكابر، أمثال الشيخ أحمد الكردي مفتي الحنفية، والشيخ أحمد الزرقا، والشيخ عيسى البيانوني، والشيخ أسعد العبجي مفتي الشافعية، والشيخ إبراهيم السلقيني، والشيخ محمد الناشد، والشيخ راغب الطباخ، والشيخ أحمد الشماع، والشيخ فيض الله الأيوبي الكردي، والشيخ عبدالله حماد.

(١) الشيخ محمد علي بن محمد سليم المراد الأول المتوفى في حماة سنة ١٣٤٣ رحمه الله تعالى.

(٢) المتوفى بحماة يوم الإثنين ١٢ سنة ١٣٠٨ رحمه الله تعالى.

(٣) الشيخ عبدالعزيز بن أحمد سليم المراد المولود سنة ١٣٢١ بحماة، والمتوفى سنة ١٣٨٥ بحماة، الموافق ١٩٦٥ رحمه الله تعالى.

دراسته في كلية الشريعة بالأزهر:

وبعد أن نال شهادتهما تيسّر له أمر الذهاب إلى مصر إلى الأزهر الشريف، ودخل كلية الشريعة، ثم تخصص بالقضاء الشرعي على أيدي شيوخها الأفاضل، أمثال الشيخ مأمون الشناوي، والشيخ يوسف السنهوري، والشيخ عيسى منون، والشيخ إبراهيم خمروش، والشيخ محمد الجمل، والشيخ محسن أبو دقيقة، والشيخ محمد السائس، وكان على رأسهم في حينها الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر.

وكان يتردّد على كثير من العلماء أمثال الشيخ يوسف الدجوي، والشيخ مصطفى أبو سيف الحمامي، والشيخ محمد زاهد الكوثري، والشيخ حبيب الله الشنقيطي، وغيرهم من العلماء الأجلاء، وقد كان لي شرف المثل بين أيدي هؤلاء العلماء معه - رحمه الله - في آخر مدّته في مصر.

تعيينه قاضياً في الحسكة وتنقله في المحافظات السورية:

ولما انتهى من مصر، وعاد إلى بلده حماة لم يمكث إلا برهة يسيرة عُيّن بعدها في القضاء الشرعي، وأول بلدة عُيّن بها هي الحسكة، وكان ذلك عام ١٩٤٣م، وبعدها بسنة تقريباً تزوّج بابنة نقيب أشرف اللاذقية الشيخ محاسن الأزهري رحمه الله تعالى.

ثم إن أخي - الراحل - ما زال ينتقل بوظيفته إلى المدن والبلاد حتى طاف أكثر محافظات سورية.

تعيينه مديراً للتعليم الشرعي في سورية:

وانتهى به المطاف في آخر الأمر إلى أن انتقل من وزارة العدل إلى وزارة الأوقاف، وعُيّن مديراً للتعليم الشرعي في سورية.

انتقاله إلى دمشق ووفاته في بلده حماة:

وعلى أثر ذلك انتقل بأسرته إلى دمشق، واستوطن بها إلى أن

توفاه الله تعالى عصر يوم الاثنين ثاني أيام عيد الأضحى أي في الحادي عشر من ذي الحجة ١٣٩٧هـ، الموافق ليوم ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٧م، في بلده حماة، حيث كان في زيارة أهله وإخوانه لأنه اعتاد أن يزورهم في الأعياد والمناسبات.

وفي أول يوم من أيام عيد الأضحى بعد أن صلى العيد إماماً وخطب خطبة العيد في «الجامع الجديد» ذهب وأنا بمعيتي لزيارة ومعايدة الأقارب والأحباب، وكانت كأنها زيارة مودع.

وفي اليوم الثاني أي: في يوم الوفاة ذهب إلى حمص، وزار وودع أصحابه وأحبابه، وعاد إلى حماة، وعند أذان العصر، وبعد دخوله إلى البيت بدقائق فاضت روحه إلى بارئها فجأة بدون سابق إنذار من مرض أو غيره، وهكذا انتهت حياة هذا العالم الجليل في أهون سبب وبدون سبب، مُخَلِّفاً وراءه اللوعة والأسى والحزن.

رحم الله الفقيد رحمةً واسعة، وأسكنه فسيح جنّاته، وجعله من المقرّبين ورثة جنة النعيم.

أنجب المرحوم ستّة من الأولاد: اثنين من الذكور، وأربعاً من الإناث.

علمه وأخلاقه:

كان رحمه الله - كما أسلفت - عالماً جليلاً، وفقياً حنفياً كبيراً بالفروع والأصول، واسع الاطلاع في الحديث والتوحيد والتفسير، وخصوصاً آيات الأحكام إلى غير ذلك من العلوم الشرعية المختلفة.

وكان رحمه الله خطيباً بارعاً ومرشداً، وموجّهاً وداعياً إلى الله بحاله ومقاله.

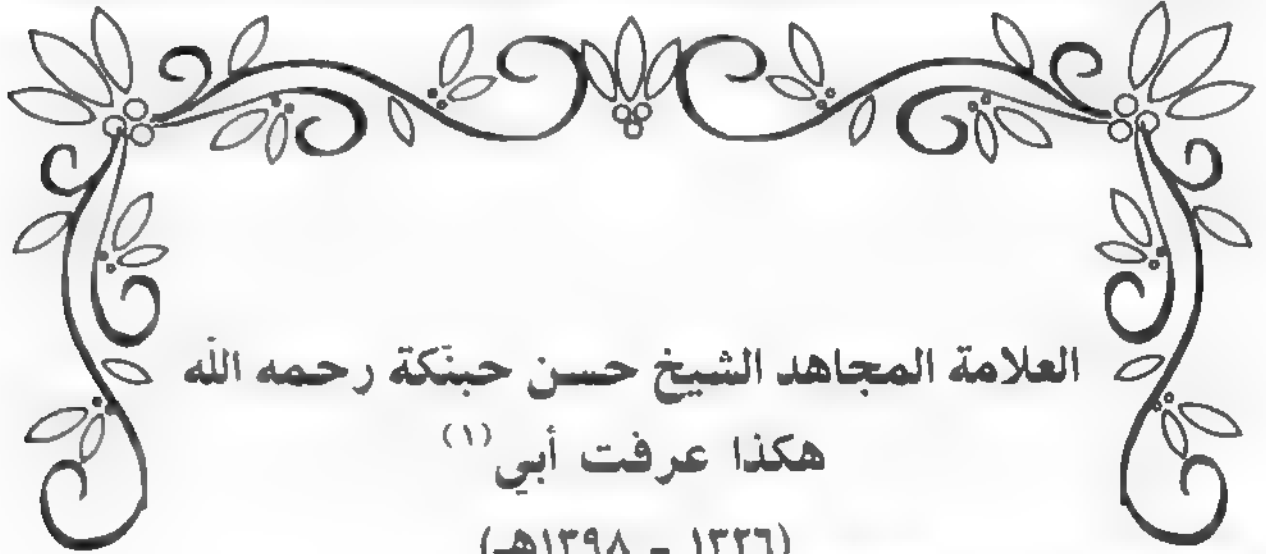
وكان من الذاكرين الله كثيراً، ومن المستغفرين بالأسحار، الحريصين على آداب السلوك والحفاظ على السنة.

وكان - رحمه الله - يمتاز بروح طيبة، ونفس متواضعة، وأخلاق عالية رضية، وأدب جَمٍّ، وكرم وسَخاء مع دماثة ولين جانب.

وكان ضُلباً في الحق، يقرع الحجة بالحجة، يُحبُّ الله ويكرهه الله، سليم الظاهر، طاهر السريرة، يحبُّ أهل الخير والسماحة والصفاء، ويكره أهل المكر والحقد والخبث والالتواء، لسان حاله أبلغ من لسان مقالته، كان صادقاً في حديثه، باراً رحيماً بإخوانه وأولاده وأهل بيته، بعيداً عن التكبر والتجبر، عبداً لله حقاً من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً.

رحمك الله يا شيخ سيادي رحمهً واسعة، وجمعنا بك وبمن سبقك من الصالحين في مستقرِّ رحمته.. والحمد لله رب العالمين.



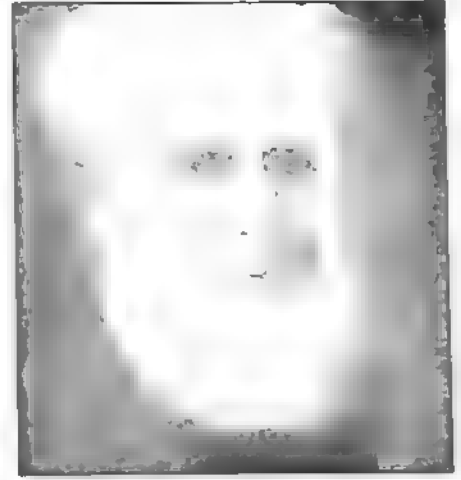


العلامة المجاهد الشيخ حسن حبنكة رحمه الله

هكذا عرفت أبي^(١)

(١٣٢٦ - ١٣٩٨هـ)

(١٩٠٨ - ١٩٧٨م)



للأستاذ عبدالرحمن حسن حبنكة الفيدياني^(٢)

العلامة المرّبي المجاهد الربّاني:

في ليلة الاثنين الرابع عشر من شهر ذي القعدة عام ١٣٩٨ للهجرة الموافق لـ ١٥/١٠/١٩٧٨م، مات أبي العلامة المرّبي المجاهد الربّاني المجاهر بالحق، والداعي إلى الحق على بصيرة الشيخ حسن حبنكة الشهير بالميداني بعد عمر زاد على السبعين عاماً بعامين أو أكثر قضاها في العلم

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة التاسعة عشرة: (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

(٢) لأستاذ العلامة المفسر الشيخ عبدالرحمن حنكة الميداني، المحل الأخر لخصبة الشيخ حسن رحمه الله تعالى كتاب حافل في ترجمة أبيه سفة: «الوالد الداعية المرّبي الشيخ حسن حنكة الميداني. قصة عالم محاهد حكيم شجاع. صدر سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م عن دار القلم بدمشق في ٤٠٦ صفحة.

وشيخنا عبدالرحمن ورث الكثير من علم أبيه، واطّلع بحمّل أخلاقه وسقو نفسه، وهو إلى حاس علمه أديب شاعر، مرهف الحس، وسنرد ترجمته في هذا الكتاب.

والتعليم والجهاد والإصلاح ومختلف أعمال الخير، ومقاومة الطغيان والفساد والإفساد والإلحاد والردة، ومناصحة الحكام والمحكومين في كل مناسبة، غفر الله له ورفعته إلى مقعد صدق عنده مع الثيبين والضديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

الفجعة بموته:

مات أبي ففجعت بموته ملايين قلوب مؤمنة، ونعتة المآذن والمنابر والإذاعات والصحف ووكالات الأنباء، وخلف بموته فراغاً ضخماً جداً شعرت به جماهير الأمة في بلاد الشام (سورية والأردن ولبنان)، وجماهير أخرى في العالم الإسلامي الكبير، وأقامت معظم مساجد العالم الإسلامي صلاة الغائب على روحه، وبكته عشرات الألوف من المؤمنين المحبين له والمُعظمين لحَمَلة العلم الربّاني والمجاهدين في سبيل الله.

تشيع جنازته ودفنه في حُجرة ملحقة بجامع الحسن:

وبالاندفاع الذاتي اكتظّ بمشيّعي جنازته مسجد بني أمية الكبير وشوارع دمشق على امتداد خط سير موكب الجنازة حتى مثوى جسده الذي قضى الله دون سابق تفكير من أهله وذويه، ودون سابق تدبير أن يكون في حُجرة من ملحقات جامع سيدنا الحسن في حيّ الميدان، وهذه الحجرة لم تكن مُخصّصة في المخطّطات مسجداً، وقد تمّ الدفن فيها بضغط من جماهير مُحبيه ومُقدري جهاده.

انتصار الشيخ لقضية الإيمان وعصمته من مكاييد أعدائه:

وجامع سيدنا الحسن هذا آخر جامع كان الشيخ الوالد يُشرف على إنشائه إلى جوار المعهد الديني الكبير الذي سبق أن أنشأه قبل خمس عشرة سنة من وفاته، وامتدّت إليه يد المصادرة والاستيلاء أثر انتصار الشيخ الوالد - عليه الرحمة من الله - لقضية الإيمان بالله تعالى، وإعلانه رفض الأمة الإسلامية في بلاد الشام والعالم الإسلامي أجمع مخطّطات الإلحاد بالله

والردة عن دينه، وإعلانه غضبه وغضب الجماهير المسلمة لله، وقد قدم يومها روحه وكل ما يملك طائعاً مختاراً؛ لئلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، إلا أن الله تعالى قضى يومئذ أن يُسلمه ويعصمه من الناس، فأجرى أحداثاً ألجأت الذين يُدبرون لقتله أن يُفرجوا عنه ويعتذروا منه.

خروجه من السجن ومتابعته جهاده ودعوته:

وخرج من السجن، وعاد إلى عرينه أسداً هضوراً يكافح ويناضل على بصيرة من الله، حتى وافته منيته وهو على فراشه بعد إحدى عشرة سنة من المكيدة المدبرة التي كان قد أراد بها أعداء الإسلام قتله ليتخلصوا من صوته الناطق بالحق، والمُجاهر بالحق، والمدافع عن دين الله.

ولادته وأسرته:

وُلد أبي في دمشق في أواسط العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري الموافق لآخر العقد الأول من القرن العشرين الميلادي، في أسرة من أسر حي الميدان بدمشق، وقد ذكر لنا بعض أهل المعرفة من كبار السن أنها أسرة قادمة إلى دمشق من عرب بادية (حماة)، ومن العرب المعروفين ببني خالد، وقد شاهدنا الصفات والخصائص المؤكدة لهذا الأصل العربي البدوي ظاهرة في جيل جدنا من هذه الأسرة.

نشأته وعصاميته:

نشأ أبي عصامياً في بيئة يقل فيها العلم إلى حدّ النُدرة، إذ كان علماء العلوم الإسلامية قلة في بيئته، وإن كان بعض الموجودين منهم على علم جَم. وكان دارسو العلوم الأخرى شبه مُنعدمين باستثناء طلائع المُتَنَوِّرين الذين أخذوا يدرسون على طريقة الثقافة الأوروبية، وشقُّوا طريق النهضة العلمية الحديثة.

تعلُّق قلبه بالعلم:

وفي هذه البيئة نشأ أبي - عليه رحمة الله - وليس من حوله مؤسسات

تحتضنه وتعطي تطلعاته إلى العلم والعمل ما تصبُو إليه، إلا أن يد العناية الربانية علقت قلبه بمَجْد العلم وبخُب المعرفة إلى حدّ الشغف، وعلقت فكره ونفسه بالتعلم والتعليم والتربية والتقويم إلى حدّ ملء نهاره وليله دائماً عاملاً مجاهداً، مع ما يرافق ذلك من أمر عام بالمعروف ونهي عام عن المنكر، ومشاركة في مختلف أنواع الخيرات والمبرات، وفي دأب منقطع النظر.

تلقية العلم:

أخذ يتلقَّى العلم من علماء زمانه، ويأخذ عن كلِّ واحد منهم العلم الذي هو مختصُّ به، وكان يعقد في الوقت نفسه حلقات تعليم يجمع فيها طلاب العلم، وحلقات توجيه وموعظة يجمعُ فيها طلاب العلم والعامّة، مع الخطابات المنبريّة التي كان يخطبها مُلهباً بها العواطف الإيمانية، ودافعاً بها إلى الاستقامة وطاعة الله، والسَّير على صراط الله المستقيم.

منهجه في دروسه وخطاباته:

وكان من منهجه في دروسه وخطاباته أن يتعرَّض للمشكلات المعاصرة الاجتماعية والدينية والسياسيّة، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصح للجميع دون استثناء، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يُخَابي ولا يُدَاجي في الحقِّ أحداً.

مشاركته في الثورة السورية:

وانطلقت الثورة السورية على الاستعمار الفرنسي، فخرج مع الثوار محارباً دولة الاستعمار، وعندما ضعُفت الثورة واشتدت شوكة المستعمر لجأ مع مَنْ لجأ إلى الأردن، دون أن ينقطع عن العلم والتعليم.

استئناف الجهاد العلمي:

ثم لما هدأت الأوضاع، عاد إلى دمشق ليستأنف فيها جهاده العلمي مُعلِّماً ومُتعلِّماً، يعقد الحلقات لطلابه، ويلتقي بشيوخه جلة علماء الشام

فيأخذ عنهم ويكون بهم برأ، وكان من دَينده أن يأخذ حلقات طلابه إلى شيوخه يعلمهم بطريقة عملية أن يحترموا ويبرؤوا آباءهم وأجدادهم في نسب العلم.

النهضة التعليمية في دمشق:

وقامت النهضة التعليمية في دمشق بتوجيه من مُحدّث الشام الشيخ محمد بدر الدين الحسني وهمة تلميذين من تلاميذه هما: العالم الناصح الصّالح الورع علي الدقر - عليه رحمة الله - والعالم الصّالح الجريء بالحق الشيخ هاشم الخطيب - عليه رحمة الله -.

مع الجمعية الغراء:

وأُسّس الشيخ علي الدقر وإخوان له من طلابه وتلاميذه ومحبيه «الجمعية الغراء» للقيام برسالة التعليم، وتخريج الفقهاء والوعاظ والدعاة، فكان أبي - عليه رحمة الله - أحد الأركان الكبرى لقطاع التعليم في هذه المؤسسة، وتخرّج على يديه فيها جيلٌ من طلاب العلوم الإسلامية، كان لهذه المؤسسة المباركة نفع امتدّ في بلاد الشام وغيرها، وثمرات طيبات شهد بها المخلصون.

انقطاعه لحلقاته الخاصّة في جامع منجك:

وكان لأبي مع ذلك حلقاته الخاصّة التي ما انقطعت في بيته وفي جامع الحي الذي يقع فيه وهو (جامع منجك).

ثم ألجأت الضرورة الاجتماعية أبي أن ينقطع لحلقاته الخاصّة به، ومشايخه راضون عنه، يدعون له بالتوفيق والسّداد، ويُعلّقون عليه آمالاً جساماً.

تأسيسه جمعية التوجيه الإسلامي:

ولما عظم عمله واتسع، أسّس جمعية له باسم «جمعية التوجيه

الإسلامي» أخذت على عاتقها نشر العلوم الإسلامية، وتخريج الدعاة من حَمَلَة الشهادات الشرعية، مع ما تقوم به من أعمال خيرية أخرى.

وكان لهذه الجمعية برئاسة والذي المغفور له نشاط كبير في المهمّات التي جعلتها من أهدافها الأساسية، فأُسِّست معهداً شرعياً في (جامع منجك) باسم «معهد التوجيه الإسلامي» بَنَتْ له في الجامع بناءً مناسباً. ثم قامت ببناء مدرسة كبيرة له فتحوّل طلاب معهد التوجيه الإسلامي إليها، وبقي المكان الأول داراً للقرآن.

طلاب معهد التوجيه الإسلامي:

وقد كان طلاب المعهد قد بلغوا خمسمئة طالب ويزيدون، وهم طلاب داخليون يتعلّمون وتُقَدَّم لهم مطالب حياتهم المعاشية، وتخرّج في هذه المؤسسة التعليمية التي أسَّسها المغفور له أبي متخرّجون كثيرون انتشروا في كثير من أقطار العالم الإسلامي، وكان لهم نفع عظيم، وما يزال علماء كثيرون من حَمَلَة أعلى الشهادات يفتخرون بأنهم قد تخرجوا في مؤسسة الشيخ الوالد - عليه رحمة الله - وبأنهم كانوا من تلاميذه وطلاب حلقاته.

مصادرة الجمعية والمعهد:

واستمرّ الحال كذلك حتى وقعت واقعة مصادرة الجمعية وأملاكها، والمعهد وطلابه، وحُجِرَ أموال الشيخ الخاصّة لما سبق أن أشرت إليه. لكن أبي - رحمة الله عليه - لم ينقطع عن عمله الدائب بعد ذلك فظل ملازماً عمله الذي عاش عليه طوال حياته.

مشاركته في تأسيس رابطة العلماء في سورية:

وفي خِصْم أعماله الاجتماعية الواسعة والمحدودة، شارك في تأسيس رابطة العلماء في سورية، وكان الأمين العام لها، والرجل العامل فيها مع إخوانه الشيخ أبي الخير الميداني، والشيخ محمد مكي الكتّاني، والشيخ

أحمد الدقر وغيرهم، وكان لهذه الرابطة نشاطٌ توجيهي عام شهدته سورية من أقصاها إلى أقصاها.

وأسّس عدّة جمعيات خيرية منها: جمعية أسرة العمل الخيري.
وانتُخب عُضوًّا للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وساهم في أعمال هذه الرابطة.

مناصبته للحكام ومكافحته لأعداء الإسلام:

وفي خِصْمٍ مناصبته للحكام، ومكافحته لأعداء الإسلام، وجراته في الحق ونضاله الحكيم، أذكر النبد التالية:

١ - حرّك الجماهير المسلمة لإلغاء قانون الطوائف الذي وضعته الدولة الاستعمارية الفرنسية ليطبق على المسلمين في سورية ولبنان، ويتضمّن هذا القانون أحكاماً تُخالف أحكام الشريعة الإسلامية فيما يُسمّى بالأحوال الشخصية، وكان من توفيق الله له أن تراجعت الدولة عن قرارها فأوقفته، وتحرّرت البلاد بعد ذلك من الاستعمار الفرنسي المباشر.

٢ - ساهم وحرض على تحرير البلاد من المحتلين المستعمرين، وناصر الوطنيين المخلصين.

٣ - جاهد الإلحاد والمُلحدين والردة والمرتدين، وكان له في هذا مواقف دلّت على بطولته النادرة، وشجاعته العجيبة الدالة على صدق يقينه بالله وثقته به، فما لانت قناته، ولا اضطرب فؤاده ولا ضعفت حُجّته، والحديد والنار من حوله، وهو في أسر خصومه، وقلوب الناس واجفة من وراء الأسوار خوفاً عليه من القتل.

وأنجى الله أبي من أعدائه ومن خصومه، بعد كلّ الشدائد التي تعرّض لها. حتّى وافته منيته كما قضى الله وهو على فراشه، وكنت بعيداً عنه في مكة، مترقباً وصوله يوم الاثنين ١٤ من ذي القعدة ١٣٩٨هـ، ليشارك في أعمال المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، إذا بالهاتف يدق عليّ صباحاً من دمشق، ويُبلّغني ابني محمد حسن أن جدّه قد توفي، وأن عليّ

الحضور فوراً، فيسر الله لي الأمر، ولكن الطائرة تأخرت عن موعدها فلم أصل إلا بعد الدفن وعودة المشيعين.

رثاء الشيخ عبدالرحمن حبنكة لأبيه:

وبينما كنت أنتظر الطائرة ودموعي تنهمر كتبت الرثاء التالي:

وَإِخْرَازَنَا مَاتَ أَبِي	وِغَابَ ذُو الْقَلْبِ الْأَبِي
شَمْساً سَمَتْ فِي أَفْقِهَا	لِغَالِمٍ مُحَبَّبٍ
لِمَقْعَدٍ قُدْسٍ لَدَى	رَبِّ مَلِيكَ طَيْبٍ
شَمْساً طَوَتْ سَمَاءَهَا	بِقُضْبٍ وَكُثْبٍ
بِالْعِلْمِ وَالْجِهَادِ رُكْنٌ	بِ كُلِّ حَقٍّ أَغْلَبِ
غَابَتْ كَمَا غَابَتْ شُمُو	سَ قَبْلَهَا فِي الْحَقِّ
وَخُلِقَتْ فِي أَرْضِنَا	لَيْلًا شَدِيدَ الْغَيْهِ
كَمْ أَشْرَقَتْ كَمْ جَاهَدَتْ	كَمْ طَارَدَتْ مِنْ وَصْبٍ
كَمْ صَارَعَتْ مِنْ ظَالِمٍ	وَلَمْ تَخَفْ مِنْ عَطْبٍ
قَدْ كَادَهَا أَعْدَاؤُهَا	فِي الْعَصْرِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ
لَكِنْ رَبِّي قَدْ أَبِي	مَا مَكَّرُوا مِنْ سَبَبٍ
وَرَدَّ كَيْدَهُمْ إِلَيْنِي	هَيْمٌ بِقَضَاءٍ عَجَبٍ
فَاضْطَدُّوا وَاقْتَتَلُوا	وَبَانَ مَخْضُ الْكَذِبِ
وَعَادَتِ الشُّمُسُ إِلَى	مَكَانِهَا لَمْ تَغِبِ
وَانْقَشَعَتْ غَمَامَةٌ	عَنْ وَجْهِهَا الْمُخْتَجِبِ
حَتَّى أَتَى أَقْوَلُهَا	فِي وَقْتِهَا الْمُخْتَسِبِ
فِي سَاعَةٍ كَمَا أَرَا	ذُو الْقَضَاءِ الْأَغْلَبِ
وَضُمُّهَا أَفْقُ شَمُو	سَ فِي سَمَائِهِ النَّبِي
فِي كَنَفِ الرَّحْمَنِ ذِي الْجُو	دِ الْعَزِيزِ الْأَزْحَبِ

عُذْرُ الْفَتَى الْمُتَّحِبِ
رَأَى بِهِ عَطْفَ الْأَبِ
مُرَبِّياً فِي خَدَبِ
تِ بِغَضَرِ الْهَرْبِ
لِلْمَجْدِ أَوْ لِلتَّشَبُّهِ

* * *

يَا إِخْوَتِي هَذَا أَبِي
وَعُذْرُ كُلِّ مُسْلِمٍ
مُعَلِّماً فِي أدَبٍ
وَيَطْلُ الْإِقْدَامَ لِلْمَوْتِ
لِنَضَرِ دِينِ اللَّهِ لَا

فَاغْفِرْ لِأَبِي
جَوَارِ طَلْعِ الْعَرَبِيِّ

يَا رَبِّ إِنِّي عَبْدُكَ الْمَحْزُونُ
وَارْفَعْ مَقَامَهُ إِلَى





الشيخ حسن حبنكة ظاهرة وتاريخ^(١)

للدكتور عدنان زرزور

- ١ -

من عالم الغيب إلى عالم الشهادة:

ما سمعت مرة نبأ وفاة إنسان، وبخاصة إذا كان عالماً أو قريباً أو شاباً، إلا فكرت بما بعد الموت، أو استحضرت في ذهني ونفسي صورة ما بعد الموت، وذكرت قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كفى بالموت واعظاً».. وتمثل لي عالم الغيب بوصفه حقيقة الحقائق وخاتمة المطاف: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. ولكنني حين سمعت نبأ وفاة فضيلة الأستاذ العلامة المجاهد الشيخ حسن حبنكة وجمت وأطرقت، ورأيتني بعد أن ثبت إلى نفسي أستعرض في ذاكرتي تاريخ الأمة الإسلامية الحديث منذ مطلع هذا القرن الهجري إلى الآن.

كنت أعيد النظر وأتأمل في جزء من ماضي عالم الشهادة، ولا أفكر في عالم الغيب: لقد ردني موت الشيخ رحمه الله إلى الماضي، ولم يحملني على النظر في المستقبل، ثم لازموني هذه الصورة وأنا أسير مع

(١) حضارة الإسلام، العددان ٨ - ٩ من السنة التاسعة عشرة: (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

عشرات ألوف المشيعين واجماً مُطرقاً حزيناً على الرغم من بعض المظاهر الكفيلة بنقل المرء من العالم الذي يعيش فيه إلى عالم آخر من الصور والأفكار، والتي كان من بينها منظر بعض الشيوخ المسنين الذين ربما جاوز بعضهم الثمانين - ولا أقول الستين أو السبعين - وقد حنت حانيات الدهر ظهره، يسير في وسط المشيعين هذه المسافة الطويلة يتكئ على نفسه وصمته وأحزانه.. وكأنه يسعى في واجب عيني يهمله هو وحده ولا يهم أحداً سواه! بل لعل الكثير من هؤلاء الشيوخ أن يعفوا أنفسهم من تشيع أقل مشقة وجهداً لو كان الأمر يتعلق بقريب يتصلون به بروابط الدم والنسب.. ولكنهم - شهد الله - لم يفعلوا ذلك وهم ينتسبون إلى الشيخ المجاهد بوشائج التاريخ، وروابط العقيدة والدين، وواجب احترام العالم العامل بوصفه حاملاً لأمانة هذا الدين وممثلاً له، مدافعاً عنه... هذا الدين الذي أراد هؤلاء الشيوخ وغيرهم من سواد المشيعين أن يقولوا: إننا له ومعه في جميع مراحل الحياة، وفي جميع الظروف! كان شيئاً عَجَباً هذا الاندفاع، وهذا الحب، وهذا الشعور، وهذا التعبير العميق البعيد!

توديع تاريخ حافل:

ولكن سرعان ما خطر لي أن هذه الصور التي أراها في هذا الموكب المهيّب ليست إلا جزءاً من الصورة التي ملكت عليّ شعوري وتفكيري طيلة ذلك اليوم الحزين: إن الأمة تودّع اليوم تاريخاً من تاريخها الحافل لتستقبل على أرض هذا البلد الذي درج فيه الشيخ، وعلى ترابه نشأ وترعرع وتعلم وعلم وجاهد، لتستقبل مرحلة جديدة خالية من هذه الشخصية الكبيرة الفذة! والغد المأمول، والحاضر المنظور، كأس الزاها: كل ذلك بيد الله العلي القدير.

وحين نودع التاريخ، أو نحمل على وداعه بمشيئة الله وقدره الذي لا يُرد، نجد أنفسنا نتأمل فيه ونفكر، وحين نستقبل منه مرحلة جديدة نقف كذلك أمامها نفكر، بل قد نطيل التفكير، أما شخص الفقيد العظيم فهو «دلالة» هذا التاريخ قبل أن يكون رجلاً كبيراً يقطع الرحلة إلى عالم الغيب ليذكرنا بهذا العالم، ولنضرع للفقيد بالرحمة والغفران.

الإحساس بمرارة فقدته:

كانت الدعوات للشيخ بالرحمة والرضوان حارة وغزيرة لأن رحمة الله تعالى هي أساس الفوز والنجاة بين يدي العليم الخبير... ولكنني كنت أقرأ في هذه الدعوات كذلك معنى الرثاء والإشفاق من الغد القريب المجهول وقد خلت الديار من الشيخ المهيب الجليل، ولهذا فإن الإحساس الحقيقي بمرارة فقدته - رحمه الله - كان والجنائز يدلف بها إلى القبر والمؤذن يؤذن للمغرب: الله أكبر... الله أكبر؛ عندها شعرت بالدموع الحارة تنساب من مآقي ومآقي ألوف المشيعين.

حياته للإسلام والمسلمين:

لقد غربت شمس هذا العالم الذي عاش لقضية الإسلام، فغربت الشمس في نفوس أبناء هذا البلد مساء ذلك اليوم لتشرق في اليوم التالي على القضية التي عاش لها الشيخ، والتي قضى في سبيلها... فقد كانت حياته للإسلام والمسلمين، ولم تكن في يوم من الأيام لأهله وذويه. رحمه الله رحمة واسعة، وأعلى مقامه في عليين.

- ٢ -

مراحل التاريخ المعاصر:

مثلت حياة الشيخ المجاهد جميع مراحل التاريخ الحديث أو المعاصر بدءاً من عصر الصدام مع الحضارة والفكر الأوروبي إلى مرحلة ما بعد الاستقلال السياسي، وما تعاني منه شعوب العالم الإسلامي في هذه المرحلة من قهر لأبنائها، ومطاردة لعقيدها ودينها.

ولد الشيخ حسن حبنكة بعيد وفاة الشيخ الإمام محمد عبده رحمه الله. وقد كان الشيخ الإمام علامة بارزة في ذلك الصدام حين استطاع أن يقف في وجه الافتتان بهذه الحضارة وبمنجزاتها المادية... ليقول: لا، إن الإسلام لا يغفل العقل الإنساني، وهو صالح لكل زمان

ومكان... ولكم دينكم ولي دين؛ على ما أخطأ فيه - رحمه الله - من تجاوز في تطبيق هذا المنهج، لم يحمل عليه فيما يبدو سوى موقع الدفاع أو موقف المحامي الذي اتخذه من قضايا الإسلام والمسلمين.

العلماء الأفذاذ الذين تأثر بهم:

وتتلمذ الشيخ حسن حبنكة رحمه الله على رجيل من العلماء الكبار في دمشق في وقت كان الجهل يلف السواد الأعظم من الناس، والعجيب أن هذه النسبة العالية من الجهل والأمية في ذلك الوقت - في أواخر العهد العثماني - كان يقابلها تلك الدرجة العالية من العلم لدى نفر من العلماء الأفذاذ.

عدم استفادة علماء الشام من تجربة الإمام محمد عبده:

وكان للظروف التي مرت فيها بلاد الشام في أوائل هذا القرن الميلادي دورها في عدم استفادة علماء الشام من تجربة الإمام محمد عبده، فضلاً عن تصحيحها أو تجاوزها! بل لعل معظمهم إذا أشار إليها كان يضعها موضع الزراية والريبة بوصفها تمثّل انحرافاً، وتجاوزاً، وجرأة، وفتحاً لأبواب يصعب إغلاقها... كيف لا؟! والجديد الذي تردّد في بلاد الشام لم يكن أكثر من جرأة على الإسلام، بل لعلي لا أبعد إذا قلت: إنّ الحلقات التي قرأ فيها الشيخ حسن رحمه الله، وتتلمذ على أصحابها الأعلام كانت تمثل «الأصالة» أو تمثل فروع العلم الإسلامي على النحو الذي توضع عند العلماء منذ عدة قرون، بعيداً عن أي محاولة أخرى كتلك التي كانت في مصر أو الهند على وجه الخصوص. ولكنها كانت أصالة من نوع فريد لأن تلك الطبقة من العلماء الكبار، الذين أخذ عنهم الشيخ حسن حبنكة وأبناء جيله؛ لم نرها تعاد، ولا ندرى إذا أعيدت في يوم من الأيام هل ستبذل العلم للناس، وتسعى إلى تعليمهم بمثل تلك الهمة والحماسة والتجرّد، والسعي إلى الثواب ومرضاة الله عزّ وجل؟!!

العامل الأول: في التكوين العلمي للشيخ هو الأصالة والإحاطة بفروع العلم:

كانت هذه «الأصالة» هي العامل الأول في التكوين العلمي والعقلي للأستاذ الشيخ حسن حبنكة رحمه الله الذي انطلق في الإحاطة بأركان هذه العلوم الإسلامية بذكاء نادر، وعقل راجح، وهمة عالية... كما يحدثنا أقرانه وزملاؤه، وكما ظهر في عمله العلمي الذي قاده هو فيما بعد.

العامل الثاني: ظروف العمل الوطني والسياسي:

أما العامل الرئيسي الثاني، فهو ظروف العمل الوطني والسياسي الذي خاضه الشيخ رحمه الله في ظروف مبكرة، لعلها كانت بُعيد طلبه للعلم وتردده على حلقات العلماء والشيوخ، وربما كانت مصاحبة له على وجه التقريب، فحمل السلاح وانخرط في سلك الثوار والمجاهدين، وانتقل من مسجد إلى مسجد، ومن حي إلى حي، ومن بلد إلى بلد، وتردد طويلاً بين دمشق وبين قرى غوطتها الواسعة، وهو في كل ذلك يحمل كتابه في يد، ويحمل سلاحه في اليد الأخرى، ويقرأ شخصيات الناس، ويعرف قدراتهم وعوائدهم.

ذاكرته الهائلة ومعرفته العميقة:

ولقد سمعت منه رحمه الله صوراً كثيراً بخطوطها الدقيقة والمعبرة عن الكثيرين من القادة والعلماء وطلاب العلم الذين صحبهم وعمل معهم... تدلُّ على ما كانت تختزنه ذاكرته الهائلة من تاريخ وملاحظات ومعرفة عميقة بالطبائع والأحوال.

وأخشى - بهذه المناسبة - أن نكون قد فقدنا بوفاة الشيخ المجاهد رحمه الله كثيراً من تفاصيل حركة الجهاد ومقاومة الاستعمار الفرنسي في سورية، وأسماء الكثيرين من طلاب العلم الشرعي وغيرهم ممن استشهد في هذه الحركة...

دور العلماء في مقاومة الاستعمار:

وليس يشك مؤرخ، أو باحث منصف بعيد عن الغرض والهوى، أن الوطنية والدينية في جميع أجزاء العالم الإسلامي، لا في هذه الصورة المحدودة أو الصغيرة في دمشق فحسب، كانتا تسيران جنباً إلى جنب، أو أن الجهاد ومقاومة الاستعمار كان واجباً دينياً لا يقبل التهاون أو المساومة أو التأخير.

وعلى الذين يتجاهلون هذه الحقيقة أو يحاولون طمسها وتشويهها أن يعودوا لقراءة تاريخ جهاد المسلمين في الهند، وتاريخ الجهاد الذي قاده الأزهر ودعاة الإسلام في مصر، بل ليقرؤوا تاريخ الثورة الجزائرية الكبرى، وما سبقها في هذا البلد من عشرات الثورات والحركات؛ فضلاً عن غيره من البلاد والأصقاع...

التربية العملية العالية:

ولكن الذي أحب أن أشير إليه هو هذه التربية العملية العالية، أو التربية والإعداد من خلال الواقع التي أتاحت للشيخ المجاهد رحمه الله، والتي سعى هو إليها، والتي لم تتكرر كثيراً في إعداد القادة والشيوخ في هذا البلد العريق.

- ٣ -

الأصالة العلميّة:

ثم يتابع الشيخ رحمه الله ليصبح مرجعاً وموثلاً في كلا الجانبين أو العاملين السابقين^(١) مع اختلاف الظروف والأحوال. مثل رأس الأصالة العلمية في حلقات التدريس التي كان يعقدها في «جامع منجك» في حي الميدان، وفي بيته كذلك. ثم في المعهد العلمي الذي أسّسه في الجامع

(١) وهما: الأصالة في التكوين العلمي، والثاني: ظروف العمل الوطني والسياسي.

المذكور باسم «معهد التوجيه الإسلامي»، والذي كان يضم بين جدرانه طائفة غير قليلة من الطلاب المسلمين غير العرب، وبخاصة الأتراك منهم الذين كان الشيخ رحمه الله - فيما لاحظت - يُوليهم اهتمامه الخاص، ولعل ذلك كان الرد العلمي والعملي جميعاً على العلمانية والتغريب الذي قاده «أتاتورك» في بلادهم.

وربما كانت هذه الأصالة بحاجة إلى شيء من الإضافة والإفادة في بعض التجارب الإسلامية التي تمت في مصر أو الهند - وربما سورية ذاتها - في سبيل مقاومة أفضل لهذه العلمانية التي أريد لها في ذلك الحين أن تعم أجزاء العالم الإسلامي، ولكن شيئاً من ذلك لم يتم على نحو ملائم وفي الوقت المناسب فيما يبدو.

الجهاد والعمل العام:

أما في جانب الجهاد والعمل العام فقد مثل فيه الأستاذ الشيخ رحمه الله رأساً كبيراً في السياسة والاجتماع والاهتمام بشؤون الإسلام والمسلمين.

شارك في تأسيس رابطة العلماء في سورية، وكان الأمين العام لهذه الرابطة، كما أسس بعض الجمعيات الخيرية الاجتماعية. وبقي يخطب الناس في مسجده الجامع يوم الجمعة أكثر من ربع قرن! ويخطئ من يظن أن هذا كان عملاً علمياً أو دينياً - بالمفهوم الغربي لهذه الكلمة - فحسب، بل كان منبره من أكبر الأعمال العلمية الاجتماعية التوجيهية السياسية الوطنية.

خطيب من طراز خاص:

كان الشيخ رحمه الله خطيباً من طراز خاص، أوتي القدرة الفائقة على هذا المزج بأسلوب تربوي تثقيفي رشيق، ولم يُلْهب حماسة المصلين ضد طاغية ظالم أو وضع فاسد، في الخطبة التي يأخذهم فيها بأسباب التربية

والتهذيب، ويقص عليهم فيها من قصص الصحابة وسائر العلماء العاملين حتى تجري منهم المدامع... لم يفعل ذلك مرة أو مرات... بل لعل أكثر خطبه رحمه الله تحمل هذا الطابع الفريد على وجه العموم. وكم قالت دمشق، بل سورية كلمتها على لسان الشيخ رحمه الله من فوق منبره في جامع منجك بحي الميدان. وكم سعى الناس ليسمعوا هذه الكلمة في الحوادث البارزة والخطوب الجسام!.

- ٤ -

بُعده عن الانفعالية وسرعة التأثر والاستهواء:

لقد ترددت على سماع خطبه رحمه الله نحواً من عشر سنوات بدءاً من أوائل الخمسينات إلى ما بعد تخرجي في الجامعة في صيف عام ١٩٦٠م، ولكنني لم أفكر طويلاً في آفاق هذه الشخصية الكبيرة إلا في عام ١٩٥٤م، يوم سعت مبكراً لسماع كلمة البلد على لسان الشيخ في الأسبوع الذي غادر فيه حاكم سورية أديب الشيشكلي البلاد إثر تمرّد أو انقلاب أو تهديد!

كنت أتوقع أن أسمع تشفيماً من الطغيان والديكتاتورية التي كانت تتحكم في البلاد والعباد، كيف لا وقد وقع في حسنا ونحن شبان صغار في سن المراهقة أن ما كانت تعاني منه البلاد في ذلك الحين يمثل قمة التسلط والاستعباد - وكم كنا واهمين أو متفائلين مع الأسف الشديد - وكنت قد سمعت قبل أسابيع، فيما أظن، عن مقابلة الشهيد نواب صفوي لحاكم سورية، وماذا قال له في تلك المقابلة، بل كنت قد وعيت الكثير من خطب الشيخ حسن نفسه رحمه الله في انتقاد الأوضاع، والجهر بكلمة الحق، ولا يزال يتردد في خاطري حتى الآن قوله في مستهل بعضها، وقد تسامع بما عرض على بعض المسارح من سخرية «برجال الدين» أو العلماء وحملة الإسلام... فبدا الشيخ مغضباً، وبدأ بقوله: «أيها الناس إن الوقت جدّ فلا تهزلوا!!» ثم أفاض في حديث

الجد والهزل، مشيراً بأصبع الاتهام إلى من يضئع البلاد والعباد، وكان يومها - رحمه الله رحمة واسعة وجزاه أحسن ما يجزي عباده الصالحين - قمة في البيان والتأثير، وَعَيْتُ هذا وأمثاله وسعيتُ لسماع خطبته في اليوم المذكور، وغصّ المسجد - مع ملحقاته - بالمصلين، ثم فوجئت بالشيخ لا يثمت ولا يفرح! بل يتحدث عن المستقبل بروح لا تخلو من الامتعاض والتشاؤم، حدث الناس عن الأصول والمبادئ، ولم يحدثهم عن الأشخاص والأعلام.

أدركتُ يومها أن من أبرز صفات الشيخ رحمه الله أنه أبعد ما يكون عن الانفعالية وسرعة التأثر والاستهواء - وهي الصفة التي طالما جرّت علينا المشكلات والويلات لدى كثير من الخطباء والنقباء! - وأنه يُؤثر في الحوادث ولا يتأثر بها، وأنه يحاول أن يكون فاعلاً لا متفعلاً.

إغراق العوام في حُبِّهم لا يفتح باب التجاوز عن الثوابت:

ويتردّد في خاطري الآن وأنا أكتب هذه الكلمات: لو أنّ هذا الخلق أو هذا المبدأ أخذ به وعمل عليه جميع العلماء والخطباء كم يكون الأثر محموداً، والنتائج طيبة حسنة! بل لو أخذ به أولئك العوام وأشباههم ممّن عاصروا الشيخ وصحبوه طويلاً، ولكنهم لم يفقهوا عنه إلا القليل، لو أخذوا بهذا المبدأ وعملوا به لما أسأؤوا إلى الشيخ رحمه الله، وأسأؤوا إلى أنفسهم، وخالفوا أمر نبيهم ﷺ حين أصروا على دفن الشيخ ضمن مخطط مسجد سيدنا الحسن البصري رضي الله عنه، وقد قضى الله ورسوله أن تكون المساجد لله عزّ وجلّ وحده! هذا حكم شرعيّ واضح لا مجال فيه للتأويل والتعليل!

ومن زعم أنّ إغراقه في حُبِّ بعض الأشخاص يفتح له باب التجاوز عن بعض الأحكام الشرعية الثابتة المقرّرة، وأن يكون ولاؤه للأشخاص لا للمبادئ، أو للشيخ وليست للإسلام، من زعم ذلك فقد كذب في حبه وفهمه لدينه جميعاً.

حياته تلخيص لتاريخ البلاد المعاصر:

لخصت حياته - رحمه الله - تاريخ البلاد المعاصر، لا بحكم تاريخ ولادته ووفاته، بل بما مثلته هذه الحياة من أدوار التفاعل والتأثير في البيئة والمجتمع، والحياة والناس!

نشأ في ظل الحكم العثماني يافعاً، وجاهد الاستعمار الفرنسي شاباً، ومضى يكافح هذا الاستعمار وسائر أعداء الإسلام كهلاً، واستوى على مقعد القيادة الدينية والسياسية والاجتماعية كهلاً وشيخاً، ووقف في وجه الاستبداد والطغيان، والزندقة والعمالة والإلحاد شيخاً مهيباً جليلاً كبير النفس، عالي المهمة، صلب العود، قوي الشكيمة؛ يجهر بكلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم، ويفيء إليه العلماء وطلاب العلم وعامة الناس كلما حزبهم أمر، أو ألم بهم مكروه؛ فيجدون فيه الملجأ والملاذ؛ يجدون فيه الحكمة المتأنية، والنفس الكبيرة، والأب العطوف، ويجدون فيه قبل ذلك وبعده: عزة المؤمن، وكبرياء المجاهد، الذي باع لله نفسه فلم يعد يخيفه تهديد أو وعيد، رحمه الله وأعلى مقامه.

الاستجابة العفوية للشيخ من الجمهور:

وأحب أن أشير هنا - من باب الاعتبار والإفادة من تجارب الشيخ رحمه الله في ميدان الإصلاح الاجتماعي والعمل العام - أن الاستجابة العفوية التي كان يجدها الشيخ رحمه الله ويلقاها من الجمهور وهو يحضه على الجهاد ضد الفرنسيين، أو يلهب شعورهم الديني ضد قانون الطوائف على سبيل المثال، بقي الشيخ رحمه الله يقدر هذه الحماسة قدرها أو لا يسقطها من حسابه حتى عندما ضعفت أو ذبلت فيما يبدو، أو عندما تغيرت الظروف والأحوال؛ وتغيرت تبعاً لذلك وسائل المكر بالإسلام والمسلمين، ووسائل العدوان عليهم في تربية أولادهم وقيادة أمتهم ومجتمعهم!

الحاجة إلى تطوير الوسائل في العمل والإصلاح:

أقول: بقي الشيخ المجاهد رحمه الله حيث وضع نفسه فارساً صاعداً بكلمة الحق، لا يخشى إلا الله واليوم الآخر، ولكن أثره في الحياة الاجتماعية، وقدرته على المقاومة والتغيير يمكن أن تكون أفضل لو أن وسائله في العمل والإصلاح العام أدخل عليها بعض التطوير والتعديل بحيث تُعنى على سبيل المثال بتدبير مُسبق أو نظام ملحوظ.

وإذا كان مثل هذا يقع على عاتق الأجيال التي ربّأها الشيخ رحمه الله، إلا أن تقاعسهم عن ذلك قلل مدى الاستفادة من آفاق الشيخ الواسعة، ومواهبه المتنوعة، وصوّره في بعض سني حياته أقرب ما يكون إلى زعيم شعبي تاريخي في حيّ مجاهد عريق، وقد علم كل من له صلة به رحمه الله أنه أكبر من ذلك بكثير.

الحجم الحقيقي لدور الشيخ الاجتماعي والسياسي:

ولهذا فإنّ دوره الحقيقي، أو بعبارة أدق: الحجم الحقيقي لدوره الاجتماعي والسياسي كان يعود إلى الظهور حين يبلغ التوتر الاجتماعي أوجّه، وحين تجد الأمة نفسها محمولة على مثل تلك الاستجابة العفوية السابقة أو القديمة، حينذاك كان يعلم الحكام والمحكومون من هو الشيخ المجاهد حسن حبنكة رحمه الله. ولكن هذه المواقف كانت معدودة، وحين جدّ الجد في بعضها، وتعرّضت حياة الشيخ للخطر بعد أن رُجّ به في السجن، ولفّق له من التُّهم ما يتناسب مع الحكم الذي أرادوه به رحمه الله، انتهت استجابة الجمهور السابقة إلى السلبية والقفود والتهاون.

ولكنّ الشيخ الذي لم يتطرق اليأس إلى نفسه في يوم من الأيام كان يبقى على حُسن ظنه بالناس، لأنه إنما كان ينتظر العون والجزاء من الله سبحانه وتعالى، وليس من أحد سواه، ولأنه كان يعامل الناس من موقع الأبوة والقيادة، ومن مقام علو الهمة الذي لا يسمح له بالإحجام والتأخر ولو أفرد وحده في الميدان!.

- ٦ -

صلته واحتكاكه بالعاملين للإسلام:

كان لنبوغ الشيخ المبكر، وتضديه لحمل مسؤولية القيادة والزعامة الدينية الشعبية من بين الكثير من أقرانه وزملائه، أثره في صلته واحتكاكه بسائر القائمين على رأس العمل الإسلامي العام، كل في موقعه، وفي الثغرة التي أقامه الله تعالى عليها من ثغور الإسلام، كان ذلك والشيخ المجاهد رحمه الله في سنّ الكهولة، أو ما بين الأربعين والخامسة والأربعين على وجه التحديد، وكان في ساحة العلماء والشيوخ من هو أكبر منه سنًا. وربما أغزر مادة في بعض فروع العلم ومسائله الكثيرة، ولكن أحداً منهم لم يكن مهيباً ليقوم على الثغرة التي كان يقوم عليها الشيخ حسن رحمه الله، ولا ليؤدي الدور الكبير الذي كان مُنَاطاً به في ذلك الحين؛ بحكم الإعداد والتكوين، وبحكم المواهب والاستعداد، وقد جرّ ذلك على الشيخ رحمه الله شيئاً غير قليل من حسد الزملاء والأقران! كما أنه أوقع الشيخ نفسه - رحمه الله - في خطأ التعامل مع سائر القائمين على العمل الإسلامي العام من موقع الزعامة الشعبية التي تستمها الشيخ بحق، ولكن ما كان له أن يتعامل على أساسها مع سائر العاملين المجاهدين من إخوانه رحمهم الله جميعاً، وجزاهم عن دينه أحسن الجزاء.

الاختلاف في وجهات النظر مع القائمين على العمل الإسلامي:

أذكر بهذه المناسبة طرفاً من حديث طويل سمعته من أستاذنا الشيخ السباعي رحمه الله عن المعركة التي خاضها مع إخوانه في المجلس النيابي التأسيسي حول دين الدولة، وما انتهوا إليه حول هذه المادة من مواد الدستور بعد طول مناقشات ودراسات وزيارات واجتماعات وندوات...!!

يقول الأستاذ السباعي رحمه الله - وكانت عنده شدة في الحق، وحدة في الطبع -: وعندما اجتمعنا إلى الأستاذ الشيخ حسن حينئذ، وجدنا الاجتماع أقرب إلى المحاكمة منه إلى الحوار وتقليب وجوه الرأي... لقد

كره الأستاذ السباعي رحمه الله أن يوضع موضع الريبة والالتهام في موضوع لا يمكن له أن يُقرّط فيه، أو يتهاون، أو يُقصر عن طلب الأفضل والأمثل. ولكن الأمر فيما يبدو أن هذا «الاختلاف» في وجهات النظر كان يصعب الخروج منه في ذلك الحين من طريق «حق» السبق والتقدم الذي أصابه الشيخ حسن في بيئته على سائر الزملاء والأقران. رحم الله الجميع سابقين ومسبقين، ومخطئين ومصيبين، وعوض المسلمين خيراً عن هؤلاء العلماء العاملين الأعلام.

سفينة النجاة في الساحة الإسلامية:

هذا الموقف، وأمثاله، يذكرنا بالعامل الثاني السابق^(١) الذي أشرنا إليه وأثره في شخصية الأستاذ الشيخ حسن رحمه الله؛ فإن تعامله مع تلك الصورة الشعبية الاجتماعية أمر هام وحسن، ولكن تعامله على أساسها - حتى عندما تغيّرت ظروف العمل والمجتمع - أمر يُؤلّد بعض العوائق أو بعض الخلاف في وجهات النظر، ولهذا كان الشيخ المجاهد رحمه الله في صورة العمل الإسلامي العام، وعلى رأسه كذلك، بمقدار تجاوزه للصورة السابقة، أو بمقدار رؤيته للساحة الإسلامية بكل أبعادها ورجالاتها، وهو ما يمكن ملاحظته بسهولة عند الشيخ في سنواته الأخيرة، حتى غدا رحمه الله أقرب ما يكون إلى سفينة النجاة في هذا الجُضمّ الواسع، تتعلّق به القلوب والأنظار، وتلتقي عنده الآراء والأفكار، كلما نزل بالناس - جميع الناس - ظلم، أو لحقهم ضيم أو ألم بهم مكروه، وله من جهاده وترفعه وعفة ذات يده، ومر نفسه التي وهبها لله عزّ وجل، له من كل ذلك ما يشفع له فيما يرجونه عنده، ويأملونه لديه، ولم يكن له - رحمه الله رحمة واسعة - من شرط يشترطه لنفسه، وإنما كان يشترط لدينه، ولكرامة هذا الدين أن تُذل أو تُهان مُمثّلة في شخصه الكريم رحمه الله.

(١) أي: ظروف العمل الوطني والسياسي.

- ٧ -

حرصه على كرامة الدين من أن تُذل أو تُهان:

لا أريد أن أسترسل أكثر من ذلك في الحديث عن هذا العامل، وعن أثره في كثير من المواقف العامة التي كان يتخذها الشيخ رحمه الله، أو في تفسير المواقف السياسيّة المتوازنة التي كان يقفها في بعض القضايا والمسائل. ولكن ممّا لا شك فيه أنه عاش - رحمه الله - لا يخالف قناعاته بوجه من الوجوه، حتى ولو خرج عن مألوف الرأي العام، أو رأي الأوساط الإسلاميّة الأخرى في بعض الأحيان - وبخاصة إذا لاحظنا أثر العاملين السابقين مجتمعين في وقت واحد - مثل موقفه الاجتهادي يوم مسألة صاحب الظلال رحمه الله، ولكن علينا أن نذكر أن ذلك كان يسمح له أن يقول كلمة الحق، وأن يواجه بها الباطل في ظروف أخرى، فتكون الكلمة - كما يقدر الشيخ فيما أظن - مسموعة ومؤثرة. أو بعبارة أخرى: كان يقف الشيخ رحمه الله في بعض الأمور الحاسمة في خط الدفاع الأخير، وما اشترطه لكرامة دينه التي أشرنا إليه قبل قليل إلا حفاظاً على هذا الخط ألا يسقط أو ألا يقتحم بحال!.

بُعده عن المناصب الرسميّة:

وأذكر - بهذه المناسبة - أن الكثيرين من مُحبّي الشيخ وعارفي فضله ومكانته ومواقفه سرّوا لبقائه طيلة حياته بعيداً عن المناصب الرسميّة، السياسيّة أو الدينيّة، وبخاصة عندما بدا أن مثل هذا الأمر قريب المنال أو وشيك الوقوع، لأن الشيخ رحمه الله أكبر عندنا من هذه المناصب - تكبر هي به، ولا يكبر هو بها - ولأن مثل هذا الأمر لو كُتب له الوقوع لكان فيه تضيق لساحة عمل الشيخ، وانتقاص لها من أطرافها، فوق ما كان مُعرّضاً فيها لعوامل الخصومة والصدام! فكان قدراً مقدوراً أن يبقى حيث هو يؤدي رسالة الله وواجب الدعوة إليه، بعيداً عن أيّ عامل من عوامل الضغط والتأثير. حتى أذن الله سبحانه لهذه الروح الكبيرة أن تنطلق من عقالها عشية

حديث له مؤثر عن الرحلة إلى الله، وفي ليلة استعداده للسفر إلى أرض الحجاز! ومن يدري؟ فلعل مواعده مع سيدنا رسول الله ﷺ لم يتخلف. رحمه الله رحمة واسعة، وعوض المسلمين خيراً.

- ٨ -

ظاهرة وتاريخ:

كان «ظاهرة» بعدت بنا الآن عوامل نشأتها وظهورها، وكان «تاريخاً» حافلاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ومن الصعب على المؤرخ لبلاد الشام في القرن العشرين ألا يجد للشيخ حسن حبنكة رحمه الله دوراً أو ذكراً في جميع الحوادث البارزة التي مرت بها البلاد على الصعيد الديني والسياسي والاجتماعي، وغير ذلك من وجوه النشاط الأساسية العامة.

وإننا في الوقت الذي لا نطمع فيه في تكرار هذه الظاهرة مرة أخرى، لا يأساً من رحمة الله فإن ذلك ليس من صفات المؤمنين، ولكن لأن عوامل نشأته وظهوره - علماً وجهاداً وريادة - لا نراها تعاد اليوم مرة أخرى؛ وفي الكون سنن ربانية ليس لها من تبديل ولا تحويل إلا إرادة العزيز العليم - جلّ وعلا - فإننا نطمع ألا ينقطع خط العمل والجهاد على النحو الملائم لطبيعة القائمين بواجب الدعوة والإعداد، ولطبيعة سائر الظروف والملابسات الأخرى في الزمان والمكان. أما قيادة أستاذنا الشيخ حسن رحمه الله وسائر القيادات التاريخية الأخرى، فسوف تبقى على الدوام معالم على الطريق، ومثلاً يهتدي به في حالكات الأيام.

سجاياه النفسية العالية:

أما سجاياه النفسية العالية التي توجت تلك العوامل وتفاعلت معها، وكانت تسير به صُعداً نحو مغارج الكمال يوماً بعد يوم؛ فما أظن إلا أنها معروفة للجميع، ولكن إذا نسي الناس شيئاً فلا ينسون في الشيخ رحمه الله أنه كان دمث الطبع، لين العريكة، لطيف المعشر، حاضر الطرفة والبديهة،

مهيّب الطلعة، مُحبباً إلى النفس، مُحكم الإجابة والتعليق ومجازبة أطراف الحديث، يُقبل على جُلّسائه ويُؤنسهم جميعاً على اختلاف درجاتهم وثقافتهم. وأنه كان قوياً في ذات الله.. يغضبُ للحق، ولكنه يملك نفسه عند الغضب.. وقد يعلم الكثيرون أنه كان من أبرع من يتسم في وجه العاصفة، ولكنه ما يزال بها حتى يهدئها ويكفكف من غلوائها، ثم يبدأ بالتّصح والإرشاد والتوجيه، وَوَضَعَ الأمور في نصابها وفي موضعها؛ يستوي عنده في ذلك - كما لمست ذلك بيدي أكثر من مرة! - عواصف الرجال «والأولاد»! وعواصف المبادئ والأفكار. أما ذكاؤه وألمعيته و«حضوره» فناهيك به!.

رحم الله شيخنا الكبير الراحل، ورضي عنه وأرضاه، وحشره يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وَحَسَنَ أولئك رفيقاً. ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله، وإنا لله وأنا إليه راجعون^(١).



(١) ونشرت مجلة «حضارة الإسلام» في العدد (٨ - ٩) من السنة التاسعة عشرة: شوال - ذو القعدة: (١٣٩٨) مراثية شعرية ونثرية للأستاذ محمد خالد حبيب بعنوان: سلطان العلماء، ومراثية شعرية للأستاذ محمد علي الحريري، وقد نشرهما أستاذنا الشيخ عبدالرحمن الميداني في كتابه عن والده في الفصل السادس: ما قيل فيه ص ٣٦٠ - ٣٦٨.

فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالعزیز عیون السود^(١)

(١٣٣٥ - ١٣٩٩ هـ)

(١٩١٦ - ١٩٧٩ م)



بقلم الأستاذ الشيخ محمد علي مشعل

في صباح السبت ١٣ صفر الخير
 ١٣٩٩ هـ، الموافق ١٣ كانون الثاني ١٩٧٩ م،
 أصيبت حمص مدينة ابن الوليد وسوريا والعالم
 الإسلامي بموت عالم رباني هو الشيخ عبدالعزیز عیون السود عن عمر يناهز
 الستين. قضى هذا العمر في العلم والتعليم، والدرس والتدريس، فهو قدوة
 للعاملين المخلصين، ومنار للأجيال في طريق الحق المبين. والعلماء
 العاملون يحيون بعد موتهم أو استشهداهم بذكرهم ومآثرهم وآثارهم.

ولادته وأسرته ونشأته:

ولد الشيخ عبدالعزیز عیون السود في حمص عام ١٩١٦ م، في أسرة
 عريقة في العلم والفضل، فال عیون السود معروفون بحمص بالتقى والعلم؛
 فجده الشيخ عبدالغني عیون السود من العلماء، وعمه الشيخ عبدالغفار عیون

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة العشر: (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م).

السود شيخ مشايخ حمص المشهورين، وهو عَلم من أعلام الفقه دان له علماء عصره وفقهاء زمانه، وهو عَلم من أعلام تفسير القرآن والحديث، وكتابه «الرياض النُصرة في تفسير سورتي الفاتحة والبقرة» زاد العلماء والوعاظ، وكنز الموجهين والمربين؛ يذكر فيه أصح التفاسير عن علم وفهم ورواية ودراية، ويستشهد بالأحاديث ويُخرجها ويشرحها، ويذكر آراء الفقهاء فيها بعيداً عن التطويل الممل والاختصار المخل.

دراسته في دار العلوم الشرعيّة بـحمص:

وقد تلقى الشيخ عبدالعزيز عيون السود العلم في دار العلوم الشرعية التابعة للأوقاف عن العلماء الفضلاء: الشيخ زاهد أناسي، والشيخ أنيس كلاليب، والشيخ محمد الياسين، والشيخ أحمد صافي، ووالده العالم العظيم الشيخ محمد علي عيون السود، وهو أستاذ أصول الفقه والفقه. وتخرّج الفقيه في دار العلوم الشرعيّة عام ١٩٣٦م. كما تلقى العلوم عن عمّه الشيخ عبدالغفار، والشيخ عبدالقادر الخوجة، والشيخ طاهر الرئيس، والشيخ عبدالجليل مراد، وغيرهم.

حفظه للقرآن وعبادته وعلمه:

أصابه مَرَضٌ قطعه عن الناس فحفظ القرآن الكريم، وكان يطبق العلم بالعمل، وكان يتمثل به الإسلام إيماناً وعبادة ومعاملة وخلقاً وسلوكاً، فأعطاه الله علماً يزيد على المكتسب، ومنحه قلباً نيراً وفيضاً غزيراً، وهذا أمر يجب على طالب العلم أن لا ينساه؛ فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

وكان كثير التلاوة للقرآن وفي الصلاة، وكان يديم التهجد قبل الفجر، ويُحيي ما بين المغرب والعشاء، ويُحيي ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس، ويحرص على تطبيق السنة في عبادته وأكله وشربه ونومه، كل تصرفاته، ويحرص على صلاة الضحى، وكان كثير الصلاة على النبي ﷺ،

و كثير الزیارة للصالحین طمعاً بالحصول علی السعادة عملاً بقوله ﷺ : «هم القوم لا یسقی بهم جلیسهم»^(۱).

وكان یرى النبی ﷺ فی المنام فی أكثر الليالي، وكان وقوراً مُهاباً من رآه لأول وهلة هابه، ومن خالطه عن قرب أحبه.

علوم القراءات:

تلقى علم القراءات السبع بمضمن الشاطبية عن الشيخ سليمان الفارس كوري المصري، ثم حفظ الدرة والطيبة، ونزل إلى دمشق فقرأ علی الشيخ محمد سليم الحلواني شيخ القراء في دمشق وقتئذ، وأخذ عنه القراءات العشر بمضمن الشاطبية والدرة.

وفي الوقت نفسه كان يذهب إلى قرية عربين (قرية قرب دمشق) ليأخذ عن الشيخ عبدالقادر قويدر العربي القراءات العشر بمضمن الطيبة.

ثم رحل إلى الديار الحجازية حاجاً في خدمة والده، وحفظ (الفوائد المعتبرة في القراءات الأربع الزائدة علی العشرة).

وقرأ في مكة المكرمة بعد الحج علی الشيخ أحمد حامد التيجي شيخ القراء في الديار الحجازية القراءات الأربع عشرة بمضمن الشاطبية والدرة والطيبة والفوائد المعتبرة.

ثم استأذن والده للذهاب إلى مصر وتلقى القراءات عن شيخ عموم المقارئ المصرية الشيخ علي محمد الضباع فأذن له ورحل إليه، وقرأ القراءات الأربع عشرة من طريق الشاطبية والدرة والطيبة والفوائد المعتبرة، وتلقى عنه المقدمة في التجويد لابن الجزري، ومنظومتي (عقيلة أتراب القصائد) و(ناظمة الزهر) كلاهما للإمام الشاطبي في علم الرسم والضبط والآي. وقد أجازة كل منهم وهم علماء القراءات في العالم الإسلامي.

(۱) أخرجه مسلم (۲۶۸۹) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وبينه وبين النبي ﷺ ستة وعشرون رجلاً كلٌ منهم مشهور بشيخ قراء زمانه، مشهود له بالتحقيق والتدقيق. وهذا إسناد لا يوجد اليوم في الدنيا أعلى منه ولا أقرب منه إلى النبي ﷺ. وهذا الإسناد مفخرة الأمة الإسلامية والميزة التي فضلها الله بها على سائر الأمم، والخصوصية التي خصها الله بها.

وكان الشيخ رحمه الله تعالى مع ذلك كله عالماً بالتفسير ومحققاً. وله تحقیقات وأبحاث لها شأنها، وله استنباطات خاصة في الفتن والملاحم وعلامات الساعة الصغرى والكبرى عسى أن تنشر في مدينة حمص بعد نشر هذه الإجازات.

وقد أصبح تبحر القراءات في العالم الإسلامي كله دون منازع، وعرف فضله سيوخ القراءات. فاعترفوا له بالسبق روايةً ودرايةً، وبالنطق.

دار الإقراء بحمص:

وافتح دار الإقراء بحمص، وأخذ عنه الكثيرون علوم التجويد ومخارج الحروف والقراءات والرسم والآي، وأجاز بالقراءات السبع عن طريق «الشاطبية» والقراءات الثلاث فوق السبع من طريق «الدرة» الشيخ عبدالغفار الدروبي^(١)، وقد تلقى عنه الشيخ سعيد العبد الله^(٢) شيخ قراء حماة - الذي يقوم على دار الإقراء بحماة الآن في جامع الدلوک - القراءات الثلاث فوق السبع بمضمن الدرة والقراءات السبع بمضمن الشاطبية عن طريقه وأجازه. وقد أجاز المحدث النعيمي الجزائري^(٣) الذي وفد خصيصاً من الجزائر

(١) المولود في حمص سنة ١٣٣٨ الموافق ١٩٢٠، والمتوفى بجدة قبيل صلاة الجمعة ٢٠ محرم ١٤٣٠ عن تسعين عاماً رحمه الله تعالى. وستأتي ترجمته في آخر تراجم هذا الكتاب.
(٢) المولود في حماة سنة ١٣٤١ الموافق ١٩٢٣، والمتوفى بمكة المكرمة بعد ظهر الثلاثاء ٨ رجب ١٤٢٥، الموافق ٢٤ آب ٢٠٠٤ رحمه الله تعالى.

(٣) هو العلامة المحدث الشيخ نعيم النعيمي بن أحمد بن علي المولود سنة ١٣٢٧ هـ الموافق سنة ١٩٠٩، والمتوفى سنة ١٣٩٣ الموافق ١٩٧٣ رحمه الله تعالى. وقد أوردت ترجمته في هذا الكتاب، لو ثبت صلته بعلماء الشام عامة، وعلماء حمص خاصة.

للقرءاءة علی الشیخ عبدالعزیز؁ وتلقی عنه القراءات الأربع عشرة بمضمن الشاطیبة والدرّة والطیبة والفوائد المعتبرة. وقرأ علیه الشیخ محیی الدین الكردي^(۱) ختمهً كاملاً لورش من طریق الأصبهانی من طریق الطیبة وأجازہ. وقرأ علیه آخرون؁ وأجازهم.

علوم الحدیث:

له باعٌ فی علم المصطلح؁ وفی قواعد الجرح والتعذیل؁ وحفظ الكتب الستة والأحادیث المُسلسلات؁ وأجیز من قبل النعیمی الجزائری المُحدث. وعنده عدّة إجازات فی رواية بعض الأحادیث.

علم أصول الفقه والفقه العربیة:

تلقى هذا العلم من منابعه الأصلية بالسند المتّصل بأبي حنیفة النعمان عن عمّه الشیخ عبدالغفار؁ ووالده الشیخ محمد علی؁ وشیخه الشیخ عبدالقادر خوجة؁ وهؤلاء الثلاثة الأجلاء فقهاء بالتلقی؁ فهم فی أعلى مرتبة دراية ورواية؁ وكان الشیخ عبدالعزیز يشبههم إلى حد بعيد حتی فی لباسه والهيئة والأسلوب والخلق والسلوك والتحقیق والتدقیق.

وكان متمكناً يُرجع إليه فی الفتوى وحلّ المعضلات؁ وقد أصبح من أعلى المراجع فی حمص فی هذا الميدان یجله علماء حمص؁ ویُشار إليه بالبنان فی سوريا والعالم الإسلامي كله.

وله اطلاع واسع لا ینکر علی علوم اللغة العربیة؁ ومحفوظاته ثلاثة عشر ألف بیت من الشعر فی العلوم كالشاطیبة والألفية.

علم التوحید:

كان دقیق التعبير عن عقيدة السلف؁ یمیل إلى الأخذ دوماً بطریق

(۱) هو الشیخ المقرئ الصالح؁ المعمر محیی الدین بن حسن الكردي المولود فی دمشق سنة ۱۳۲۹ الموافق ۱۹۱۲؁ والمتوفى بعد مغرب يوم الجمعة ۱۶ شعبان ۱۴۲۹ الموافق ۷ آب ۲۰۰۹ رحمه الله تعالى وأثابه رضاه.

الفطرة عن الكتاب والسنة بعيداً عن التعقيد، ويكره إدخال العامة في أبحاث المتكلمين.

تحفظه في الفتوى:

كان متحفظاً كثيراً، وإذا سأله طالب علم مسألة أرشده إلى مطالعتها في كتاب، وكان قويّ الحجة حاضر البديهة سريع الإجابة في الدليل، حنفي المذهب عليمًا بمذهبه أدلة وأحكاماً، مطلعاً على بقية المذاهب، ويحب الرجوع إلى ذوي الاختصاص.

أخلاقه:

جمع مع العلم التواضع للعلماء والمعلمين، والبساطة في المأكل والمشرب والمجلس، كان حسنَ المعاشرة حسن الصحبة، يهتم بجلسائه ومرافقيه وتلاميذه ويعتني بهم ويحسن رعايتهم.

كان باراً بوالديه وأعمامه مُحترماً موقِّراً، حريصاً على خدمتهم والرفق بهم، وعلى الرغم من مرضه فقد كان يخدمهم بنفسه ممّا يغرس في قلب من يراه بر الوالدين عملياً، وكان يكثر من زيارتهم بعد الممات، ويذكرهم دوماً مع الاحترام والتوقير.

وكان باراً بشيوخه وحسن الخدمة لعلماء عصره، يحرص على رضاهم ويزور من يظهر فيه الصلاح والخير.

وكان قليل المزاح، وإذا مزح لا يقول إلا حقاً. وكان كثير الذكر كثير الصلاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ولا يصلي إلا جماعة. وقد نقل عنه الثقات أنه لم يصل منفرداً ألبتة لا في حضر ولا سفرًا.

حُسن خاتمته:

وفي ليلة وفاته أتمَّ صلاته قبل النوم ونام، إلا أنه أحسَّ من حوله بتعبه، وقام للتهجد كعادته وتوضأ ثم بدأ الصلاة، ومات وهو في الصلاة في الساعة الرابعة قبل الفجر، وهذه منحة عظيمة.

وإنا لنرجو الله سبحانه أن يجمعنا به في مستقر رحمته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين مع العلماء العاملين.

أيها الأخوة المؤمنون في حمص والعالم الإسلامي كله: فقدنا عالماً مرشداً مقرأً فقيهاً محدثاً مربياً، ولنا في النخبة من علماء حمص، وفي النخبة من علماء سورية، وفي النخبة من طلاب العلم، وفي النخبة من تلاميذ الشيخ عبدالعزیز وفي أولاده خير عزاء إن شاء الله تعالى.

والأمل أن تشحذ العزائم من جديد لحمل الراية والسَّير في طريق الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، وأن تبقى دار الإقراء في حمص مركز إشعاع، وأن تفتح في المساجد دور الإقراء ودور العلم في كل مكان من العالم الإسلامي، ويكون ذلك إحياء لذكرى عالمنا الجليل وشيخنا العظيم، وستظل سيرة هذا العالم وعلم هذا العالم شعلة هدى تضيء للأجيال الطريق.

وإذا فقدنا عالماً فسيكون بعده علماء، وإذا غربت شمس طلعت شمس، ولن نجزع لأمر الله، وإنَّ العين لتدمع، وإنَّ القلب ليحزن، ولا نقول ما يغضب الرب.

ولنا في رسول الله ﷺ أكبر عزاء، وقد وقف أبو بكر الصديق الخليفة الأول والمؤمن الأول رضي الله عنه يقول:

«أيها الناس من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، وإن الله قد تقدَّم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعاً فإن الله اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ﷺ، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، ولا يشغلکم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتنکم عن دينه، وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه، ولا تستنظروه فيلحق بكم فيفتنکم».

ولا يجوز - أيها الأخوة المؤمنون في كل مكان - أن تشغلنا مصيبتنا

عن أمر الدين، ويجب أن لا يزيدنا فقد العلماء إلا يقظة لنتدارك الفائت، ونتابع التحصيل، ونغتني الوقت فنستفيد من علماء عصرنا، فالمحروم من حُرْم من خير أهل زمانه، إنَّ في الله خلفاً عن كلِّ أحد، وذِكْراً لكل رغبة، ومجازاً من كل مخافة، فالله أرجو، وبه ثقوا.

إنَّ في الله عزاء عن كلِّ مصيبة، وعَوْضاً عن كلِّ رغبة، فاللَّهُ فأطيعوا وبأمره فاعملوا، وحَسْبنا الله ونعم الوكيل^(١).



(١) ولشيخنا العلامة المحدث المحقق الأستاذ محمد عوامة ترجمة ضافية كتبها عن الشيخ عبدالعزيز عيون السود، وأرسلها لمجلة «الحضارة» بعد وفاته، فاعتذرت المجلة عن نشر ترجمته لأنه سبق لها أن نشرت مقالة الشيخ محمد علي مشعل، وكنت قد تشرفت بزيارة الشيخ عبدالعزيز في منزله بحمص بصحبة شيخنا محمد عوامة مع والدي رحمه الله تعالى، ورأيت الشيخ مرّات في زيارته لحلب، وقد طلبت من شيخنا محمد عوامة تلك الترجمة لأوردها في هذا الكتاب فلم يقف عليها، ولعلَّ الله سبحانه يُيسر العثور عليها، ونشرها، ففيها من الفوائد والتحقيقات ما لا يجده في غيرها كعادة شيخنا فيما يكتب ويحقّق حفظه الله ونفع به.

وإذا كان لا بد من كلمة رثاء أسطرها في يوم وفاته، فلتكن الكلمة في تبيان فضائله، وتعداد مآثره إن أردنا أن نكون أوفياء لهذا الفقيد الغالي، وأن نكون مخلصين في محبته، مقدّرين لفضله...

يمتاز فقيدنا رحمه الله بثلاث مزايا رئيسية:

يمتاز بكونه عالماً.

ويمتاز بكونه متواضعاً.

ويمتاز بكونه مرشداً.

أما كونه عالماً، فقد قضى رحمه الله حياته كلها في العلم والتصنيف، والشعر والمطالعة والتدريس... ويشهد لعلمه وتآليفه وأدبه وشعره تلامذته الذين تخرّجوا على يديه، وقد درسوا عليه العلوم الشرعية، واللغة العربية، وعلم العروض. وتشهد لعلمه وتدريسه «الشعبانية» وعلماءها، والخسروية القديمة والحديثة وأساتذتها، ويشهد لعلمه مَنْ عرفه من إخوانه من أهل العلم والمعرفة، ومن حضر عليه من الخاصة والعامة.

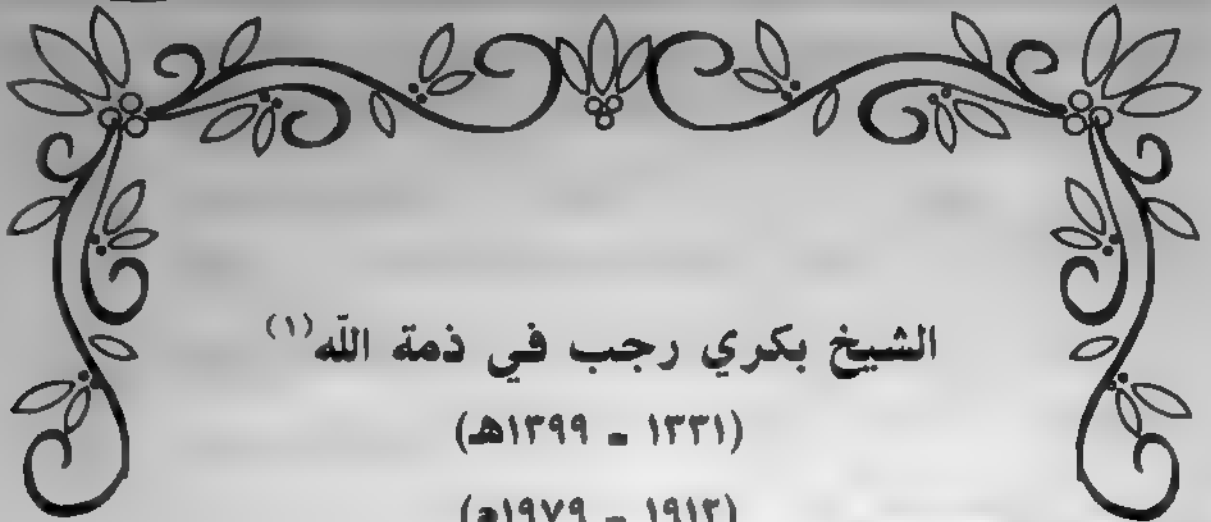
أما كونه متواضعاً، فالقريب والبعيد يعرف عنه هذا الخلق الأصيل، وهذه الصفة المميزة وتواضعه هذا كان شاملاً لجميع مظاهر حياته.

شاملاً لملبسه، فإذا لبس لا يرى عليه آثار التكلف والتنمّق، ومظهر الزهو والخلاء.

وشاملاً لمطعمه، فإذا أكل يأكل ما حَضَرَ، وما عُرِف عنه رحمه الله أنه تَفَنَّنَ في أنواع المأكَل، وأطايِب الطعام.

وشاملاً لمشيته، فإذا مشى مشى على الأرض هَوْنًا، وسار بين الناس في تواضع وخفض جناح.

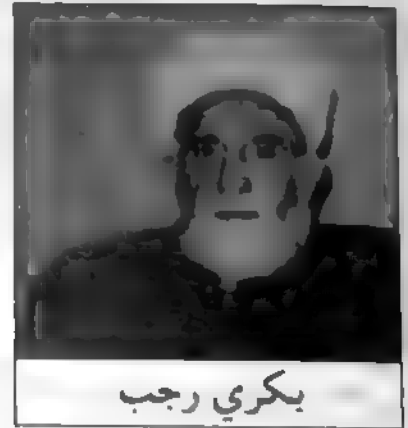
وشاملاً لمن يلقاه من الناس أو من يلتقي بهم، فإذا اجتمع بأحد أو التقى به سلّم عليه، واستنار وجهه ببشاشة حلوة، وإذا سمع أن إنساناً مريض



الشيخ بكري رجب في ذمة الله^(١)

(١٣٣١ - ١٣٩٩ هـ)

(١٩١٢ - ١٩٧٩ م)



بكري رجب

للأستاذ الشيخ عبدالله علوان

منذ شهور فقدت الشام عالمها الفذ، وفقيرها الجريء، ورجلها الشجاع.. فضيلة الشيخ حسن حبنكة تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.

وبالأمس القريب فقدت حمص رجل العلم والفقه والعمل والإخلاص.. فضيلة الشيخ عبدالعزيز عيون السود أعلى الله مقامه وجعل الجنة مأواه.

واليوم تفقد حلب الشهباء عالماً فاضلاً من علمائها، وداعية مخلصاً من دعائها.. هو فضيلة الشيخ بكري رجب رحمه الله الذي توفاه الله سبحانه ضحى يوم الخميس الأول من شهر جمادى الأولى، الموافق ٢٩ آذار ١٩٧٩ م.

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع، السنة العشرون، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م. وتنظر ترجمته في كتاب «علماء من حلب في القرن الرابع عشر» للأستاذ محمد عدنان كاتبي ص ٣٦٦ - ٣٧١.

عاده أو مات شيعة، وإذا دعاه إنسان إلى بيته أجابه، أو قصده في حاجة نَفَسَ كُرْبَتَهُ، وإذا جاءه فقير يطلب شيئاً أعانه، وإذا جاءه إنسان يستفتيه في مسألة أفناه وعَلَّمَهُ، وإذا أراد أحد تلامذته أو محبيه أن يحمل عنه متاعه فيمتنع ويقول له: صاحب الحاجة أحق بحملها!

وهكذا كان التواضع خُلُقاً أصيلاً من أخلاقه، وصفة بارزة من صفاته رحمه الله.

أما كونه مرشداً فالإرشاد في الحقيقة كان ميزة ظاهرة من مزاياه.

كان رحمه الله لا يَفْتُر ولا يَكُل في تبليغ الدعوة الإسلامية، وإرشاد أمة الإسلام إلى الحق والخير أينما كان وحيثما ارتحل.

هذه الظاهرة في تبليغه وإرشاده يعرفها عنه إخوانه العلماء، وتلامذته النجباء، والخاصة والعامة من الناس.

خروجه للدعوة وجولاته المستمرة:

فمن ملامح إرشاده وتبليغه: أنه كان يخصص له يوماً من كل أسبوع يخرج فيه مع زمرة من العلماء الأفاضل إلى القرى القريبة أو البائية. وكان يقوم بالتدريس الوعظي والإرشادي في مساجد حلب بشكل دائم، وأوقات مخصصة، وكان يقوم أيضاً بجولات مستمرة على البيوت في مناسبات الموالد والأفراح والمآتم وعودة الحجيج من الأراضي المقدسة.. ليؤدي في هذا كله رسالة التبليغ والتوجيه، ومهمة التعليم والدعوة.

مجالس وعظه المؤثرة:

وقد أوتي رحمه الله ثقافةً عجيبةً في الوعظ، وقدرةً فائقةً في التأثير، ففي جلسة وعظه وإرشاده يروي لمُحدِّثيه من القصص والشواهد وروائع الشعر والأمثلة التاريخية، ما يلفت النظر، ويشير الانتباه، وفي كثير من الأحيان يبلغ التحزن والتخشع في الحاضرين أقصى مداه، وما ذاك إلا لقوة تأثيره، وجاذبية حديثه، وَصِدْقِ قِالِهِ وحالِهِ، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما

يدل على إخلاصه الصادق، وذكائه النادر، وذاكرته الفريدة، وموهبته العجيبة، وأسلوبه المؤثر البليغ..

رحم الله شيخنا الجليل، وأغدق عليه من سحائب رحمته ورضوانه، ورفع مقامه في الآخرة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

سلامٌ عليك يا أبا عبدالله إلى يوم نلقاك عندما يقوم الناس لرب العالمين.

وألهم أهلك وأولادك وإخوانك العلماء وتلامذتك جميعاً الصبر والسلوان والرضا.. وعوّض الله المسلمين من يقوم مقامك في الدعوة إلى الله، وتبليغ الناس رسالة الإسلام، إنه بالإجابة جدير.

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نقول: إن الله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى فلنصبر جميعاً ولنحتسب، إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله.





الشيخ بكري رجب
(عالم فقيه، شاعر أديب)^(١)
(١٣٢٨ - ١٣٩٩هـ)
(١٩١٠ - ١٩٧٩م)



بقلم: فياض العيسو

نسبه ومولده ونشأته:

هو الشيخ العلامة الفقيه الشاعر الأديب، أبو عبدالله بكري بن عبده بن عمر بن رجب، الحنفي، البابي الحلبي. ولد في مدينة (الباب)، التابعة لمحافظة حلب، بسورية، سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة وألف للهجرة^(٢). وتلقى تعليمه الأولي في أحد كتاتيب بلدته، فأتقن تلاوة القرآن الكريم، وحفظ الكثير منه، كما حفظ بعض المتون في الفقه والعربية، وكثيراً من الشعر العربي في الجاهلية والإسلام، وحضر حلقات بعض شيوخ البلدة، أمثال الشيخ مصطفى أبو زلام.

(١) نشرت بتاريخ: ٢٥/٤/٢٠٠٧ في موقع (الإسلام في سورية) مع إضافات من كتاب الأستاذ عدنان كاتبي.

(٢) أرخ ولادته الأستاذ عدنان كاتبي في كتابه «علماء من حلب» ص ٣٦٧ سنة ١٣٣١هـ الموافق ١٩١٢م.

دراسته وشيوخه:

دخل المدرسة الخسروية، بحلب، وتلقى العلم عن علمائها الأفاضلها وشيوخها الأجلاء، أمثال العلامة الفقيه الكبير الشيخ أحمد الزرقاء، والشيخ العلامة المفسر أحمد الشماخ، والشيخ الصالح الشاعر عيسى البيانوني. دفين البقيع، والشيخ المحدث المؤرخ محمد راغب الطباخ، والشيخ الفقيه الأصولي محمد أسعد العبجي. [وتخرج مع الدفعة السادسة، وذلك صيف سنة ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م].

كما حضر على مفتي مدينة الباب السابق، الشيخ الأديب أحمد النعساني، وحضر كذلك على عالم حلب الكبير ورئيس المدرسين، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني. وسلك على يد العالم الجليل الشيخ المربي الفاضل محمد أبي النصر الحمصي النقشبندي، رحمه الله تعالى. كما درس سنة واحدة في الجامع الأزهر بمصر.

أقرانه وأصدقائه:

وكان من أقرانه وأصدقائه، الشيخ الأديب العلامة اللغوي أحمد القلاش الحلبي، والشيخ العلامة الفقيه محمد السلقيني الحلبي، والشيخ الفقيه مصطفى مزارب الحلبي، والشيخ العلامة محمد نجيب خياطة (فرضي حلب، وشيخ قرائها)، والشيخ محمد السيفي، والشيخ الشاعر محمود الفحام الحموي ثم الحلبي، والشيخ محمد الشامي البابي الحلبي، والشيخ العلامة ناجي أبو صالح، والشيخ محمود الصابوني الحلبي، والشيخ حسن هاشم، والشيخ الفقيه محمد الغشيم، والشيخ محمد المسلاتي.

ومن خارج سورية، العلامة الكبير حكيم الهند سماحة السيد الشيخ الداعية أبو الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله تعالى، والشيخ العلامة المحدث الهندي حبيب الرحمن الأعظمي، والشيخ السيد علوي المالكي المكي، والشيخ السيد الشاعر محمد أمين الكتبي، والسيد الشاعر عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمي الحسيني، والشيخ حسن فدعق المكي، والشيخ

الشاعر أمين الكتبي المكي، والشيخ الشاعر محمد الخطيب الطنطاوي... والسيد نور الشيخ أمين، وغيرهم كثير.

عمله:

درّس العلوم الشرعية والعربية، في المدرسة الخسروية، ومعهد العلوم الشرعية (المدرسة الشعبانية)، والثانوية الشرعية للبنات، والمدرسة السلطانية التي أسسها صديقه الشيخ الشاعر الأديب محمد خير الدين إسبير، كما افتتح الشيخ بكري رجب وصديقه الأثير الشيخ أحمد القلاش، مدرسة دينية في حلب استمرت لمدة عشر سنوات، بالإضافة إلى عمله إماماً وخطيباً لمدة أربعين سنة، في عدة مساجد بحلب، منها جامع هارون دادة، في قاضي عسكر، وجامع الميدان، وكان مدرس محافظة، يعطي دروساً في الجامع الأموي الكبير بحلب، وجامع بنقوسا، ومسجد الصاخور، كما ألقى عدداً من المحاضرات في عدة محافظات، كمدينة دمشق وحمص، في سورية، ومدينة بيروت في لبنان الشقيق. وكان يذهب إلى القرى، داعياً إلى الله تعالى، وكان يوزع المال على الفقراء والمساكين.

صفاته وأخلاقه:

كان الشيخ عالماً، مرشداً، وواعظاً مؤثراً، وعابداً، زاهداً، ومتواضعاً، مخلصاً في عمله، محباً لله تعالى، ولرسوله الكريم ﷺ، محبوباً لدى الناس، وكان كثير الرؤيا الصالحة، ويراه الناس في رؤى صالحة، تبشر بالخير. وكان صبيح الوجه أنه، ذا لحية بيضاء قبضة، يلبس عمامة بيضاء على طربوش أحمر.

أسرته وأولاده:

تزوج امرأتين، ورزقه الله تعالى بتسعة أولاد، ستة منهم بنات، وثلاثة منهم ذكور، أكبرهم، الشيخ عبدالله، وبه يكنى، والذي درس في الخسروية، ثم تخرج في كلية الحقوق، وكلية الآداب بحلب، وعمل في المساجد والمحاكم، ثم ولده رضوان، الذي تخرج في الخسروية أيضاً، ثم اتجه إلى الإنشاد والموسيقى والغناء، وآخرهم الشيخ عبدالباسط، والذي يعمل في مجال الدعوة والإرشاد.

كثرة حجة:

وكان الشيخ كثير الحج، فقد حج ثلاثاً وأربعين حجة، ولما لاه بعض الناس على ذلك ردَّ عليه بقوله:

يروم عذولي صدَّ قلبي عن الجَمَا وأن ألزم القلب المُلَوَّع بالصبر
فقلت له كُفَّ الملام فإنني أرى الصبر عن حبي أمر من الصبر

مؤلفاته وآثاره:

ترك الشيخ العديد من الكتب والمؤلفات، المطبوعة، والمخطوطة، ومن كتبه المطبوعة:

١ - الرسالة الشافية في الشعر والعروض والقافية. ٢ - الدليل إلى مناسك الحج والزيارة. ٣ - المثل العليا في الحب للجناب المحمدي، طبع سنة ١٣٩٣هـ. ٤ - المولد النبوي في الترغيب والترهيب. ٥ - ردود على بعض الفرق، نظماً. ٦ - هداية المريد إلى جوهرة التوحيد، طبع سنة ١٩٦٥م، وهو شرح متوسط لجوهرة التوحيد، في العقيدة الإسلامية.

٧ - شرح قصيدة السفور والصهيونية، للشيخ الشاعر محمد خير الدين أسبير. ٨ - ديوان شعر، بعنوان: ديوان المدائح النبوية والأشعار الحكمية. طبع سنة (١٣٩١هـ - ١٩٧١م). اشتمل على كثير من المدائح النبوية، والثناء، والدفاع عن عز الإسلام ومجد العروبة والأقصى وفلسطين والحجاب الشرعي، والرد على المغرضين الحاقدين.

وأما كتبه المخطوطة، فهي:

١ - الدرر اللمعة في شرح بيان السنة والجماعة. ٢ - الفيض الهامي في الرد على رسالة «أدوار التصوف الإسلامي». ٣ - القول المنيف في الرد على «النقد والتزييف» للشيخ محمد سعيد الجابي الحموي. ٤ - ردود على بعض الفرق، نثراً. ٥ - تقارير على شرح الشيخ خالد الأزهرى.

وفاته:

عاش الشيخ سبعين سنة، قضاها في العلم والتعليم والدعوة والعبادة والوعظ والإرشاد، ثم فارق الحياة مأسوفاً ومحزوناً عليه من الجميع، وذلك في ضحى يوم الخميس ١ جمادى الأولى ١٣٩٩هـ، الموافق ٢٩ آذار ١٩٧٩م، ودُفِنَ في مقبرة كرزة دادة، بحلب رحمه الله تعالى^(١).



(١) مصادر الترجمة: هذه المعلومات مستفادة من: الشيخ العلامة أحمد القلاش، في لقاء معه، في مسجده بباب النصر، بحلب. ومن ولده البار الشيخ عبدالباسط، في اتصال هاتفي معه، بحلب، بتاريخ ١٩٩٩/٧/٧م. ومؤلفات الشيخ المطبوعة، وديوان شعره، الذي طبع في عام (١٩٧١م). ويُنظر أيضاً: مجلة حضارة الإسلام الدمشقية، العدد الرابع، السنة العشرون، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. ومقدمة كتاب: إتحاف المريد بجوهرة التوحيد، لمؤلفه عبدالسلام اللقاني، كتبها تلميذه، الأستاذ الشيخ محمد علي إدلي الحلبي. وتكملة معجم المؤلفين (لعمركم كحالة)، صفحة (١٠١)، للأستاذ الشيخ محمد حبر رمضان يوسف. ومعجم المؤلفين السوريين، صفحة (٥٢)، لمؤلفه الأستاذ عبدالقادر عياش. وتنظر ترجمته أيضاً في كتاب «علماء من حلب في القرن الرابع عشر» للأستاذ عدنان كاتبي ص ٣٦٦ - ٣٧١.

وفاة الأستاذ المودودي رحمه الله^(١)

(١٣٣١ - ١٣٩٩هـ)

(١٩٠٣ - ١٩٧٩م)



أبو الأعلى المودودي

فُجِعَ العالمُ الإسلامي نبأ وفاة سماحة الأستاذ العلامة الداعية المجاهد أبي الأعلى المودودي رحمه الله عن عُمر يناهز الخامسة والسبعين، قضاها في الدعوة والجهاد وتبصير المسلمين - في كل مكان من أنحاء العالم، وبخاصة في شبه القارة الهندية - بشؤون دينهم

ومجتمعهم وثقافتهم الخاصة بهم، ولم تقعد به همة - رحمه الله - عن الكتابة والتأليف واللقاء المحاضرات حتى في أيامه الأخيرة.

تاريخ الدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية:

وقد مثلت حياته الكريمة الخُصبة ولُخِصت تاريخ الإسلام والدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية في العصر الحديث، أو في التاريخ المعاصر، بدءاً من الصِّراع مع الاستعمار البريطاني الذي كان يجثم على

(١) حضارة الإسلام، العددان الثامن والتاسع، السنة العشرون: (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

صدر الهند والكثير من البلاد الإسلامية - حتى كان هذا الاستعمار أشرس ألوان الاستعمار الأوروبي، وأشدّها حقداً على الإسلام والمسلمين، وأكثرها خُبثاً وكيداً لهم في حاضرهم ومستقبلهم كما اتّضح لكلّ ذي عينين في فلسطين وكشمير، وكما حذر منه، ونهض لمقاومته دعاة الإسلام في الهند وفلسطين ومصر والعراق وسائر البلاد الإسلامية الأخرى - وانتهاءً بمقاومة الظلم الاجتماعي والطغيان السياسي، والعمالة الحضارية التي مارسها حكام باكستان وغيرهم في بلاد المسلمين في عصر ما بعد الاستعمار السياسي والعسكري، والذي يُطلق عليه عادة اسم عصر الاستقلال!

ولادته ونشأته وعمله في الصحافة:

ولد الأستاذ المودودي في مدينة أورنج آباد في جنوبي الهند في ٢٥ كانون الأول ١٩٠٣م، والتحق في عام ١٩٢٠م - بعد أن توفي والده - بجريدة «المدينة» التي كانت تصدر في مدينة «بنجور».

ثم تولّى بعد ذلك إدارة تحرير مجلة «تاج» اليومية في مدينة «جبلبور».

وفي العام التالي أصبح رئيس تحرير جريدة «مسلم» الأسبوعية التي كانت تصدر في نيودلهي، ثم رأس تحرير جريدة «الجمعية» اليومية في عام ١٩٢٤م. واستمرّ منذ ذلك التاريخ في كتابة المقالات وإلقاء المحاضرات وتأليف الرسائل.

مجلة «ترجمان القرآن»:

وفي عام ١٩٣٢م، بدأ بإصدار مجلة «ترجمان القرآن» الشهرية التي كانت من أعظم الوسائل في توجيه مُسلمي شبه القارة الهندية، وفي تعبئة شعورهم الديني أمام التحديّ الهندوسي المتزايد، والذي كان يلقي العطف والتشجيع من قبل الاستعمار البريطاني.

مشاركته في إعداد خطة الحكم الإسلامي لدولة باكستان:

حتى إذا اتخذ حزب الرابطة الإسلامية - الذي كان يعبر عن شعور مسلمي شبه القارة الهندية وأمانيتهم في الحياة - قراره التاريخي في آذار

١٩٤٠م، بإنشاء دولة خاصة لهم في الهند باسم باكستان، يحكمون فيها بشريعة الإسلام، كان الأستاذ المودودي رحمه الله عضواً في اللجنة التي كُلِّفَتْ بإعداد خطة الحكم الإسلامي لدولة المستقبل. وكان له رحمه الله رأي في أسس الدولة وشروط المواطنة والرعاية فيها قد بسطه في محاضراته القيمة عام ١٩٣٨م، «منهاج الانقلاب الإسلامي»، ثم صدقت الأحداث والوقائع صحة نظراته العميقة وفكره الثاقب رحمه الله.

دعوة الأستاذ المودودي على صفحات مجلته:

وفي خريف ذلك العام ١٩٤٠م، كانت دعوة الأستاذ المودودي على صفحات مجلته تلك تصل إلى عيون المسلمين في شبه القارة وأسماعهم، يحثهم فيها على تكريس جميع جهودهم وطاقاتهم على الصعيد الفردي والجماعي لفهم الإسلام حق الفهم، وإقامته في نفوسهم ومجتمعه ودولتهم على نحو ما كان في عصر الخلافة الراشدة المجيدة.

تأسيس الجماعة الإسلامية في باكستان:

ثم بلور برنامجه هذا وأخرجه إلى حيز الوجود في مؤتمر عام دعا إليه في عام ١٩٤١م، في مدينة لاهور حيث نشأت «الجماعة الإسلامية» ووضع لها قانونها الخاص، وانتخب الأستاذ المودودي أول رئيس لها.

وقد تعرضت الجماعة للهجوم من القوى البريطانية المسيطرة منذ أول ظهورها، ولم يستطع الإنكليز - والشعور الديني الوطني الجهادي كان عند المسلمين في الهند في ذلك الوقت على أقوى ما يكون - أن يبلغوا من الجماعة ما بلغه الحكم في باكستان بعد التقسيم!

رئاسة الجماعة الإسلامية في باكستان:

هاجر الأستاذ المودودي إلى باكستان بعد تقسيم الهند في آب ١٩٤٧م، وتولى مهام رئاسة الجماعة الإسلامية في البلد الجديد، وفي كانون الثاني ١٩٤٨م، بدأ حملته الواسعة لوضع الشريعة الإسلامية والنظام

الإسلامي موضع التنفيذ، ونشط في الكتابة والخطب والأحاديث الإذاعية، ولكن ما لبث في تشرين الأول من ذلك العام أن أُلقي عليه القبض وزجَّ به وبزملائه في السجن بتهمة معارضة الحكومة وتحريض الجمهور.

ولم يُطلق سراحه إلا في حزيران ١٩٥٠م، بعد حبس دام عشرين شهراً!

مطالبته بتنفيذ الدستور الإسلامي وتأمّر الحكومة العسكرية عليه:

وفي عام ١٩٥٢م، قدم الأستاذ المودودي مطالبه الشهيرة المؤلفة من تسعة بنود لنفاذ الدستور الإسلامي. هذا الدستور أو هذا الإسلام الذي قُسمت الهند على أساسه، وقامت دولة باكستان لتطبيقه، وإعادة بناء الفرد والأمة والدولة على هُداه، ولكن الحكومة العسكرية تأمرت على هذه المساعي، واستغلّت مساعي الأستاذ المودودي - وبخاصّة مساعيه ضد القاديانية - لتحقيق أهدافها، فشجعت عملاءها على إثارة موجات العنف وخلق جو الفوضى، واعتقلت الأستاذ المجاهد - رحمه الله - في عام ١٩٥٣م، بتهمة إثارة العنف.

استبدال حكم الإعدام بالسجن مدى الحياة:

وفي الحادي عشر من شهر أيار - مايو - في هذا العام أصدرت حكمها بإعدام المودودي، وكان هذا الحكم نهاية هذه الأحداث المثيرة، ومقدمة لاضطرابات واحتجاجات واسعة داخل باكستان وخارجها في أرجاء العالم الإسلامي الذي كان قد عرّف الأستاذ رحمه الله عن طريق مؤلفاته ومحاضراته وتاريخ جهاده، فاضطرت الحكومة إلى استبدال حكم الإعدام بالسجن مدى الحياة.

إطلاق سراحه ومساعيه في تحكيم الدستور الإسلامي:

ثم أصدرت المحكمة العليا في ٢٩ نيسان ١٩٥٤م، حكمها بإطلاق سراحه رحمه الله.

وفي شهر آذار من عام ١٩٥٦م، لقيت مساعيه نجاحاً جزئياً، وأعلنت الحكومة دستوراً شبه إسلامي.

سفره إلى الأقطار الإسلامية:

وفي هذا العام سافر إلى بعض الأقطار الإسلامية، وناشد المسلمين من خلال خطبه إلى توحيد صفوفهم، والجمع بين كلمتهم. وبعد عودته من سفره وجّه مطالبه إلى الحكومة بأن تسعى إلى إنشاء كتلة إسلامية.

الحظر على الجماعة الإسلامية:

في ٦ كانون الثاني ١٩٦٤م، عادت الحكومة إلى فرض الحظر على الجماعة الإسلامية، وزجّ بالأستاذ المودودي وأعضاء مجلس الشورى للجماعة في السجن، ثم أطلق سراحه في ٢٥ أيلول بناء على حكم المحكمة العليا.

أداء فريضة الحج وتعريفه بقضية كشمير:

وفي نيسان ١٩٦٦م، سافر الأستاذ المودودي رحمه الله لأداء فريضة الحج، وعرّف العالم الإسلامي مُجدّداً بقضية كشمير فوزّع كتيباً عن هذه المشكلة باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.

في ٤ آذار ١٩٦٩م، أجرى التلفزيون الإيطالي مقابلة شخصية معه حول موضوع «الإسلام في العالم».

استقالته من رئاسة الجماعة الإسلامية وتفرغه للتأليف:

في عام ١٩٧٢م، استقال من رئاسة الجماعة الإسلامية لأنّ حالته الصحية لم تعد تسمح له بمتابعة مهمات هذا المركز، وكُرّس وقته للتأليف، وتابع في تأليف تفسيره للقرآن الكريم الذي كان قد بدأ العمل به في عام ١٩٤٣م، في مجلة «ترجمان القرآن» - تحت عنوان «تفهم القرآن» - حتى تم له إنجازها بحمد الله في حزيران من هذا العام.

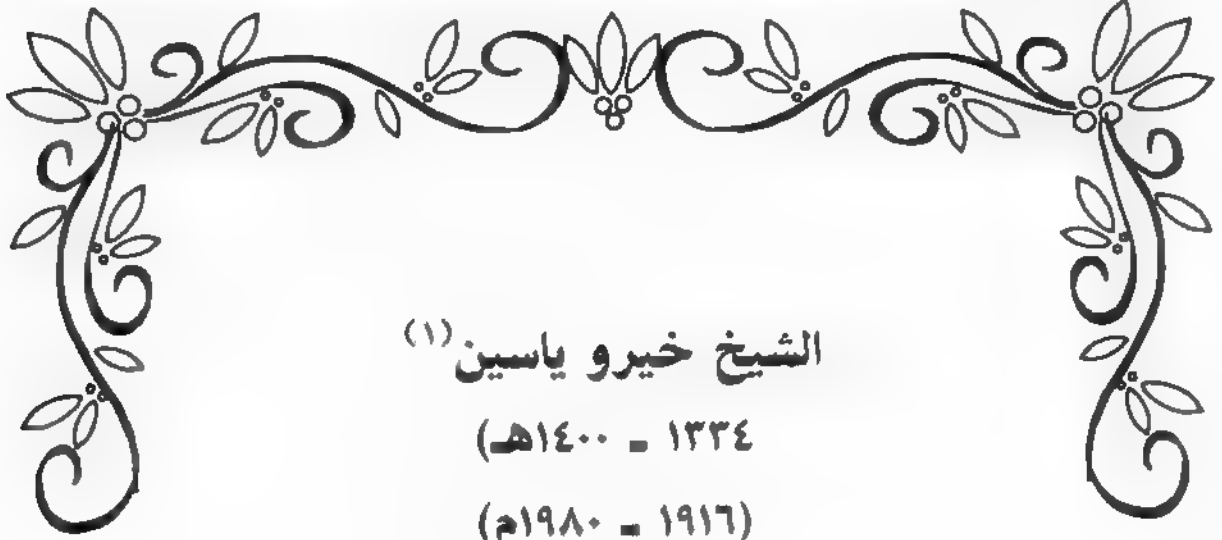
ثم عكف في سنواته الأخيرة - بعد إنهاء التفسير - على التأليف في سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، واستكمل منها مجلدين اثنين تضمنا حياة النبي ﷺ في مكة قبل الهجرة. رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين أفضل ما يجزي عباده الصالحين.

مزاياه الشخصية

هذه خطوط عامة، ومعالـم بارزة في حياة الفقيه العظيم رحمه الله، يقابلها في باب مزاياه الشخصية ذلك العقل القوي الهائل الذي وهبه الله سبحانه، وتلك القوة العجيبة في المنطق والتحليل، والقدرة على التصوير الذهني الدقيق، وعلى المناقشة والجدل والإقناع... إلى جانب ما عُرف عنه خلال حياته الطويلة بجلال الأعمال من الصلابة في الحق، وعدم المهادنة مع الباطل في جميع الظروف والملابسات والأحوال، والجهر بما يرى أنه حق في باب الفقه والاجتهاد، وفي باب السياسة والاقتصاد، وفي جميع أبواب الفكر النظري، والتعامل اليومي، رحمه الله وأعلى مقامه.

ونحن إذ نضع هذه الخطوط العامة بوصفها مقدمات وأرقاماً يحسن الوقوف عليها من قبل جميع الأخوة القراء والدارسين والكاتبين فإننا نأمل أن تصل إلينا طائفة من المقالات تتناول النواحي المختلفة في حياة الأستاذ الفقيه رحمه الله، وفي مؤلفاته ورسائله الكثيرة، وفي منهجه التربوي والإصلاحي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





الشيخ خيرو ياسين^(١)

(١٣٣٤ - ١٤٠٠هـ)

(١٩١٦ - ١٩٨٠م)

للاستاذ محمد عيد البغا^(٢)

مصيبة فقد العلماء:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جَهَالاً فَسَلُّوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» متفق عليه^(٣).

إنَّ فقد الأحاب فاجعة أليمة، ولكن فقد العلماء أشد ألماً وأبلغ أثراً! فهو كارثة مريرة، وفقد العلماء الأتقياء أشد مرارة وأنكى خسارة! وإن فقد

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة الحادية والعشرون: (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م). وينظر: «تاريخ علماء دمشق» (٢: ٩٤٦ - ٩٥٢).

(٢) المولود بدمشق سنة ١٣٤٨هـ = ١٩٣٠م، وتخرج في مدارس التربية، وأصبح مديراً لمدرسة ابتدائية في حي الميدان الوسطاني، ثم أمين سر لجنة المعلمين، وتلمذ على يد الشيخ خيرو ياسين، وحسن حبنكة الميداني، وزين العابدين التونسي، وافتتح مكتبته وسط دمشق سماها: (دار الفتح) ونشر بعض الكتب الإسلامية، وغادر دمشق في بدايات أحداث الثمانينات، وأقام في الأردن، وتوفي في عمان يوم الخميس ١٧ محرم ١٤٣١ رحمه الله تعالى.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه.

الأتقياء نذير سوء في الأمة، ولعل أقل ما يمليه علينا الواجب تجاه عالم جليل، أمضى حياته في خدمة العلم والعمل للإسلام أن نسجل بعض مآثره، رحمه الله لعلها تكون منارة للجيل يهتدي بهديها وينسج على منوالها، ولا بد لنا - قبل الحديث عن صفاته ومآثره وعمله الجاد المثمر في حقل التعليم وما تركه من آثار في هذا المجال - لا بد لنا من نبذة مختصرة عن حياته.

نبذة مختصرة عن حياته:

ولد الشيخ خير ياسين رحمه الله في دمشق عام ١٩١٦م، وتوفي في ١٩ صفر ١٤٠٠هـ، الموافق لـ ٧ كانون الثاني ١٩٨٠م، وتلقى مبادئ العلوم الشرعية في جامع منجك في حيّ الميدان بدمشق الذي كان يشرف عليه الشيخ حسن حبنكة الميداني رحمه الله، وبدأ بحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة على يد القارئ الحافظ الشيخ عز الدين العرقسوسي رحمه الله. والتزم في حلقة مدرسته وتدرّس التفسير حتى وفاته.

تدريسه في معهد التوجيه الإسلامي:

ولقد أحبّ رحمه الله مهنة التعليم تأسيّاً برسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا»^(١)، وَوَهَبَ حياته للعلم الشرعي، فكان أحد مدرّسي معهد التوجيه الإسلامي البارزين. وحياته العامة تكاد تكون محصورة في الإطار العلمي والتعليمي، حيث درّس العلوم الشرعية (القرآن - علوم اللغة العربية - الفقه...) فقد حوّل بيته إلى معهد ومُنْهَلٍ للعلم الشرعي، يبدأ فيه النشاط العلمي منذ الفجر وحتى الظهر، ومن المغرب إلى ما بعد العشاء، يُمسي ويُصبح مع طلابه وكتبه ودروسه، ويعيش غالب وقته لطلاب العلم ولم يكن ليوصد بابه في وجه طالب علم أبداً.

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٩) في المقدمة، والدارمي (٣٤٩)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص. قال الحافظ السخاوي: هذا حديث عريب ضعيف، لضعف راوٍ في سنده، هو (زياد بن أنعم الإفريقي) لسوء حفظه، ولكن للمتن شواهد. انتهى. ومن شواهد الصحة: حديث صحيح مسلم (١٤٧٨) في قصة نخير النبي ﷺ زوجاته الشريفات رضي الله عنهن، وقوله ﷺ لعائشة: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتَباً وَلَا مُتَعْتَباً، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُبْسِراً».

إقامته حلقات تحفيظ القرآن:

وقد تنبّه مُبكراً رحمه الله إلى أهمية حفظ وتحفيظ القرآن الكريم فكانت حلقات تحفيظ القرآن الكريم لطلاب العلم من الجيل الناشئ إذ حفظ على يديه العدد الكثير.

استمراره على التدريس والتعليم في مرضه وشيخوخته:

ولم يترك رحمه الله العلم والتعليم حتى في سني حياته الأخيرة رغم تقدم سنه وفقد بصره، حيث كان يحتمل مرضه وعجزه وكف بصره، ويتابع تعليمه صابراً محتسباً الأجر والثواب، فكان بهذا معلماً وقُدوة في حالة الصحة والمرض، حيث لم ينقطع عن حلقات التدريس والتعليم حتى وافته المنية وانتقل إلى جوار ربه.

تيسيره العلم لطلابه:

ولعلّ من أبرز صفات منهجه التعليمي رحمه الله: رغبته في أن يقدّم العلم لطلابه وتلامذته سهلاً مُيسراً، وبعيداً عن التعقيدات النظرية، وعن الخوض في الجزئيات المتكلفة، وبعيداً عن الأمور الخلافية والجدلية، وبعيداً عن التعصّب لرأي إذا ظهر الدليل الشرعي بخلافه.

تواضعه وزهده:

ولم تكن هذه السجّية من سجايه تُمثّل موقفاً نظرياً فحسب، بل كانت تُمثّل خلقاً أصيلاً فيه كان يعرف ببساطته وتواضعه وزهده في الدنيا ومظاهرها، وبذلك كان رحمه الله دليلاً صادقاً على إسلامه وصورة عملية للأمة بسلوكه، فالإسلام ليس ثوباً له مواصفات خاصة يلبس في المناسبات. فقد عاش حياته زاهداً في متاع الدنيا الفاني مؤثراً ما عند الله عزّ وجل تاركاً هذا المتاع الزائل للاهتين وراءه حيث لم تثقل الدنيا كاهله ولا أقعدته عن أداء رسالة العالم العامل فلم يكن لها من قلبه نصيب.

إلى جانب هذا كله كان رحمه الله لطيف المعشر، دمث الطبع، مُحباً

لإخوانه وطلابه، كريماً سخياً عليهم. كان ترجمة حيّة لحديث رسول الله ﷺ: «المؤمن يألف ويؤلف»^(١).

خدمته لأصحابه في رحلاته الكثيرة إلى الحج:

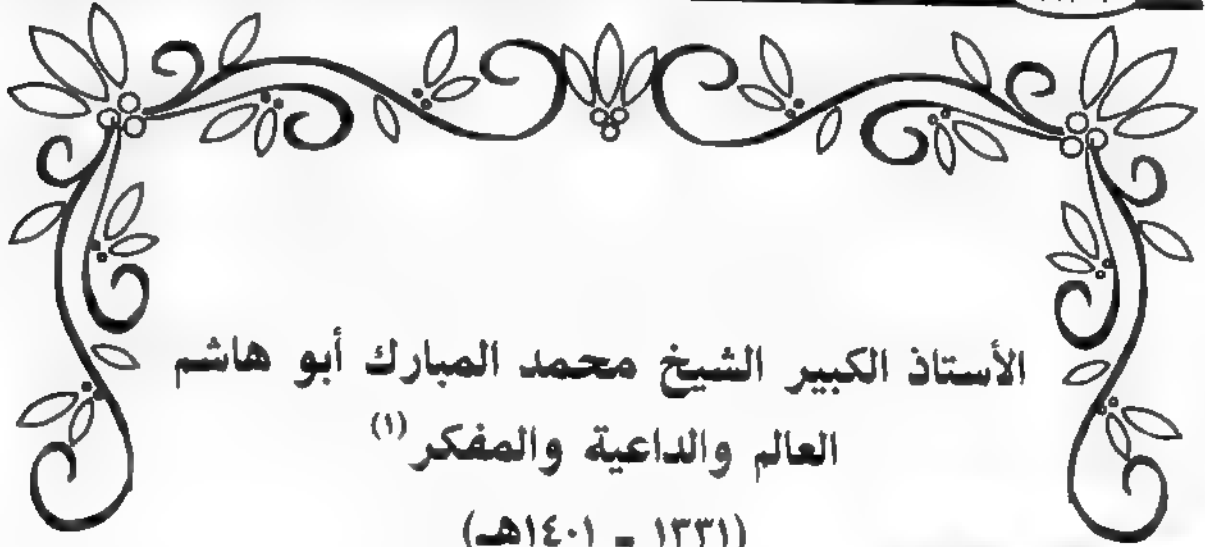
ولعل ذلك من أبرز صفاته التي ما اقتصرت معرفتها على أقرانه وإخوانه وتلامذته الأقربين، بل شملت كل مَنْ عرفه أو رافقه في سفر أو جالسه على طعام، فقد كان رحمه الله المعلم والمرشد والمؤنس والخدام لمن يلازمه في رحلاته الكثيرة وبشكل خاص حجه إلى بيت الله الحرام طيلة ما ينوف عن ربع قرن تقريباً، وبصحبه العدد الكثير من حجاج بيت الله، يعلمهم مناسك الحج ويرشدهم إلى السنة، ويعينهم على وعناء السفر ومشقة الطريق، ويؤنسهم بحديثه العذب الصافي. ليس هذا فحسب بل يكاد يتحمّل - وبكل سرور - كل أعباء تحضير الطعام لهم.

رحم الله الفقيد الكريم وأسكنه جنّات الفردوس، وعوّض الأمة خيراً بالسائرين على دربه المثبعين هدي الله، العالمين المتقين، والله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لله وإليه راجعون^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٩١٩٨)، والحاكم في «المستدرک» ١: ٢٣، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٥٨) من حديث أبي هريرة ولفظه عند أحمد والبيهقي: «المؤمن مؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». ولفظ الحاكم: «إن المؤمن يألف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

وأخرجه أحمد (٢٢٨٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٥٧٤٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨١٢٠) من حديث سهل بن سعد بلفظ: «المؤمن مألّف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» وهذا الحديث والذي قبله حسنّه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) هذه آخر ترجمة نشرت في مجلة «حضارة الإسلام» التي توقفت عن الصدور بعد العدد الثاني من السنة الثانية والعشرين: (ربيع الآخر ١٤٠١هـ، شباط ١٩٨١م)، وألحقت بهذه المجموعة عدّة تراجم كتبها ونشرتها في بعض المناسبات والمجلات تمييزاً للفائدة، ونفعاً للقارئ.



الأستاذ الكبير الشيخ محمد المبارك أبو هاشم
العالم والداعية والمفكر^(١)

(١٣٣١ - ١٤٠١هـ)

(١٩١٣ - ١٩٨١م)



بقلم العلامة الشيخ مصطفى أحمد الزرقا

هو النُّجَل الأكبر لأستاذ الجيل الشيخ عبدالقادر المبارك. كان والده الشيخ عبدالقادر أستاذ الأدب العربي، واللغوي المرجع في دمشق لكل سؤال يتعلق باللغة العربية، وعضواً في المجمع العلمي في دمشق.

في مدرسة عنبر:

١ - أول معرفتي بالأستاذ محمد المبارك كان في مدرسة عنبر الثانوية الرسمية في دمشق في العشرينات من هذا القرن العشرين.

ففي سنة ١٩٢٩ جئت أنا من حلب إلى دمشق للالتحاق بمدرسة عنبر (الثانوية) في الصف الثاني عشر (صف الفلسفة والرياضيات). وكان هو الصف الوحيد فيها للسنة الثانية عشر لسائر المحافظات الأخرى في البلاد السورية. كان محمد المبارك إذ ذاك طالباً في السنة العاشرة من الدراسة الثانوية، وكان متميزاً مرموقاً بين رفاقه.

(١) نُشرت بتاريخ ٢٠/٧/٢٠٠٦م، في موقع (الإسلام في سورية) www.islamsyria.

في كلية الآداب في جامعة السوربون:

٢ - لما أكمل دراسته الثانوية وتخرج فيها، فتحت مسابقة في وزارة المعارف لإيفاد طلاب إلى فرنسا ليدخلوا الجامعة في باريس، ويعودوا أساتذة في الثانويات السورية. فاعتنم محمد المبارك هذه الفرصة، ودخل المسابقة في فرع الأدب العربي، ونجح فيها بتفوق فأوفدته الدولة على حسابها في جملة من أوفدت إلى باريس العاصمة الفرنسية ليدخل كلية الآداب (قسم الأدب العربي) في جامعة السوربون بباريس في منتصف الثلاثينيات، وعاد مجازاً إلى دمشق، في الأدب العربي وفي علم الاجتماع. وتم تعيينه بعد عودته أستاذاً للأدب العربي في المدرسة الثانوية بمدينة حلب.

كان من أبرز أساتذته في باريس: الأستاذان المستشرقان المشهوران؛ مارسيه، وماسينيون، وخلال وجوده في هذه المرحلة من حياته في حلب تزوج زوجته الحلبية من آل البيانوني، وهي أم أولاده أحسن الله عزاءها.

أستاذ الأدب العربي في حلب:

وقد ظل في حلب في وظيفته هذه مدة طويلة، تعرّف خلالها إلى إخوانه العاملين في الحقل الإسلامي، كالأستاذ معروف الدواليبي، وعمر بهاء الأميري، والمحامي عبدالقادر السبسي، وغيرهم.

عودته إلى دمشق ونشاطه في الحقل الإسلامي:

ثم نقل إلى دمشق وتابع فيها مهمته. وتعرّف على بقية إخوانه الذين يتلاءمون معه، ويتعاونون فكرياً وعملياً في الحقل الإسلامي، كالأستاذ نهاد القاسم، والأستاذ عبدالوهاب الأزرق، والأستاذ مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية، والأستاذ عصام العطار.

نجاحه في الانتخابات النيابية:

ثم لما أجريت أول انتخابات نيابية بعد استقلال سورية وخلاصها من

الانتداب والاحتلال الفرنسي خاض الانتخابات النيابية، ونجح فيها هو والأستاذ مصطفى السباعي، فكانا مع بعض النواب الآخرين دعامة الجبهة الإسلامية في مجلس النواب الذي اعتبر مجلساً تأسيسياً لوضع الدستور السوري.

المعركة بين الجبهة الإسلامية وخصومها:

وفي هذه المرحلة اشتدت المعركة بين الجبهة الإسلامية التي كان أبرز قيادتها في المجلس التأسيسي هو والأستاذ مصطفى السباعي حول الموضوع الخطير الذي أثير في المجلس وهو النص في أوائل مشروع الدستور على أن: دين الدولة السورية هو الإسلام، وبين خصوم هذا النص وهم المسيحيون والعلمانيون والشيوعيون. وقد حمى الوطيس بن الفريقين. ثم انتهت المعركة بالنص في المادة الثالثة من المشروع على أن الإسلام مصدر رئيسي للتشريع في سورية. هذه كانت أهم المواقف الصعبة التي واجهها الأستاذان المبارك والسباعي في مجلس النواب، ومن يسانداهم خارج المجلس.

تسلّمه منصب وزارة الأشغال العامة:

٣ - وبعد انتهاء هذه الدورة التشريعية للمجلس ومدتها أربع سنوات ألفت وزارة مؤقتة لأجل انتخابات المجلس النيابي، فأدخل الأستاذ محمد المبارك في هذه الوزارة المؤقتة، وأعطى وزارة الأشغال العامة، فشهدت منه خير وزير منحها كل اهتمامه، وقام على إدارتها خير قيام.

الجبهة الإسلامية في مجلس النواب:

ثم في سنة ١٩٥٤ لما أجريت الانتخابات النيابية لأجل دور تشريعي جديد، دخلها الأستاذ محمد المبارك عن دمشق، ودخلتها أنا عن حلب، ونجحنا كلانا فيها، فألفنا مع بضعة نواب آخرين في مجلس النواب الجبهة الإسلامية.

وقد نجح في هذه الدورة خالد بكداش عن الشيوعيين وعدد وفير من البعثيين، فكانت الجبهة الإسلامية مع من تحالفت معه من الآخرين جداراً استنادياً في وجه خصوم الإسلام من العلمانيين والبعثيين والشيوعيين في المجلس النيابي.

وقد عانينا في هذه المرحلة أنا والأستاذ المبارك، ولأقينا الأهوال من هذه الفئات الثلاث ومؤامراتهم، وكنت وإياه نتعاون ونتناوب المواقف الصعبة في المجلس. ثم انتهى هذا الدور التشريعي عام ١٩٥٨، بالرحلة بين مصر وسورية التي دامت ثلاث سنوات، ثم فشلت وانفطرت، فقد عقدها العسكريون ونقضها العسكريون أنفسهم!!

مزايا الأستاذ محمد المبارك:

٤ - كان - رحمه الله - جَمَّ المواهب الفكرية، واسع الثقافة العصرية إلى جانب ثقافته العميقة، وحسن التحليل للقضايا المعقدة، سريع البديهة، خطيباً كاتباً باحثاً متعمقاً، حسن التمييز بين الأولويات الإسلامية، قوي الحجة في المناقشة والمناظرة، بعيداً عن الشبهات والمواقف المريية، صادق الوطنية في عهد الاستعمار الفرنسي للبلاد، متواضعاً يحب البساطة في حياته ويكره التكلف.

إنه بين إخوانه الذين كان يتعاون معهم على الواجبات الإسلامية والعلمية يعدُّ ثروة لهم يغني عن كثيرين، ولا يقوم مقامه كثيرون.

مادة (نظام الإسلام):

كان أول من فكر من علماء العصر الإسلاميين بوجوب تدريس مادة في الجامعات العربية على المستوى الجامعي لكل الكليات باسم: نظام الإسلام، يعرض فيها الإسلام بمفهومه العام ونظريته الشاملة لله تعالى والكون والإنسان، وينظم حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً في هذه الحياة الدنيا على أساس أنها طريق إلى الآخرة ليوم الحساب، وتوزع المعلومات في كتاب نظام الإسلام على هذه الأركان الثلاثة: الله، والكون، والإنسان.

- ففي البحث عن «الله تعالى» يلخص للطلاب خلاصة من علم التوحيد عن وجود الله وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر بأسلوب جديد.

- وفي البحث عن «الكون» يعرض ما في الكون من آيات ناطقة عن الله ونظام معجز مُحير للعلماء كلما تبَحَّروا فيه، وإنه كله إلى زوال ويبقى وجه الله ذو الجلال والإكرام.

- وفي البحث عن «الإنسان» تبين نظرة الإسلام إلى هذا الإنسان المتميز عن سائر المخلوقات، وما يجب أن يكون عليه البشر في حياتهم الفردية والاجتماعية والاقتصادية، وتعرض هنا خلاصة عن النظام القانوني الذي جاء به الإسلام لتنظيم حياة الإنسان وسلوكه من جميع جوانبها الحقوقية والجنائية والأسرية أفراداً ومجتمعات وفقاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣).

وقد بدأ رحمه الله بوضع كتاب باسم نظام الإسلام تطبيقاً لفكرته، وتولى تدريس هذه المادة في الجامعة الأردنية.

إعادة النظر في علم الاجتماع:

٥ - كذلك كان الأستاذ محمد المبارك رحمه الله أول من فكر بضرورة إعادة النظر في علم الاجتماع الذي يدرس بصورته المستمدة من آراء العلماء والفلاسفة الأجانب الملحدين، ويدرس في الجامعات العربية بوضعه الحالي المعروف الذي يؤدي إلى الإلحاد.

فيرى الأستاذ المبارك ضرورة لكتابة علم اجتماع إسلامي متفق مع مُسَلِّمات الإسلام وثوابته في القرآن والسنة النبوية.

وقد كُلف في آخر حياته في الجامعة الأردنية بتدريس علم الاجتماع الإسلامي على صعيد الجامعة للطلاب من جميع الكليات، وقام بذلك فعلاً في عام واحد أو أكثر، ولكنه لم يبدأ بوضع كتاب كما فعل في موضوع نظام الإسلامي، بل توفاه الله قبل أن يبدأ بتنفيذ فكرته.

مواهب متنوّعة:

٦ - أن الأستاذ محمد المبارك كان يُعَدُّ بمفرده وفي ذاته فريقاً من العلماء والدعاة ذوي المواهب المتنوعة. وقد خسر العالم الإسلامي بوفاته خسارة كبيرة لا أظن أنها تُعوّض في مئة عام.

توليّه عمادة كلية الشريعة في جامعة دمشق:

تولّى عمادة كلية الشريعة في جامعة دمشق بعد وفاة عميدها الأول الأستاذ الدكتور مصطفى حسني السباعي رحمه الله، فأدارها خير إدارة، وخلف الدكتور السباعي خير خلفه.

وقد ترك لنا من مؤلفاته العديدة وكتابات ما يدلُّ على مدى ما كان يتمتع به رحمه الله من فكر متميز، وبصيرة إسلامية نيرة، وأفق واسع.

من شواهد حفظ الله تعالى لكتابه:

حدّثني عن أستاذه المستشرق (ماسينيون) أنه ذكر لمجموعة من طلابه، وفيهم الأستاذ محمد المبارك كانوا في زيارته في بيته بباريس، قال لهم: نحن المستشرقين بذلنا جهوداً كبيرة خلال ثلاثة أجيال في تتبع مخطوطات القرآن الكريم من أقدم ما هو محفوظ في دور الآثار والمكتبات العالمية، حتى الأوراق المفردة المقطوعة من مصاحف قديمة فُقدت، وقارنا كل ذلك بالمصاحف المطبوعة، لكي نعثر على أي اختلاف بين المصاحف من مصحف عثمان إلى مختلف العصور حتى المصاحف في عصرنا، ولو كان اختلافاً في آية أو جملة أو كلمة، فلم نجد أي اختلاف، ما جعلنا نعتقد مستيقنين أن القرآن الذي نطق به محمد باق إلى اليوم كما نطق به لم يتبدل فيه شيء!!

أقول: وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُجِيزَ أَخَانَا الْمُبَارَكَ الَّذِي سَبَقْنَا إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ، عَنْ جِهَادِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، خَيْرَ مَا يُجِيزُ بِهِ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ الْمَقِيمِ، فَإِنَّا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَعِدَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الْإِسْلَامِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ يَبْرُزُ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ الْمُبَارَكَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي طَلِيعَتِهِمْ.





الشيخ محمد صالح الفرفور

مؤسس جمعية الفتح الإسلامي ونهضتها العلمية^(١)

(١٣١٨ - ١٤٠٧هـ)

(١٩٠١ - ١٩٨٦م)

حزّرها واختصرها: مجد مكّي



اسمه ونسبه:

العلامة المرّبي الكبير الشيخ محمد صالح بن عبدالله بن محمد صالح الفرفوري الدمشقي الحنفي، من ذرية بني فُرفُور - بضم الفاءين - الذين كثر فيهم العلماء والأدباء والقضاة والمفتون في القرن الثامن فما بعده.

ولادته ونشأته:

ولد بدمشق سنة (١٣١٨هـ)، الموافق (١٩٠١م)، ونشأ بين أبوين صالحين، دفعه والده في سنّ السادسة إلى المكتب ليتعلّم فيه القرآن والقراءة والكتابة والحساب، وكان شيخه في المكتب هو الشيخ أنيس الطالوي (ت١٣٢٧)، ثم أدخله المدرسة الكاملية، فدخلها وهو ابن ثمانية سنين

(١) نُشرت بتاريخ ٣٠/٥/٢٠٠٧م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.

بتاريخ ١٤ شوال ١٣٢٨، وتخرج في المدرسة سنة ١٣٣٥ بدرجة علي أعلا.

عمله وكسبه الدنيوي:

توفي والد الشيخ صالح، السيد عبدالله (ت ١٣٣٦هـ) وترك ذرية تحتاج إلى مَنْ يعولها ويقوم عليها، فاضطر الشيخ - رحمه الله تعالى - إلى الاكتساب لتلا يمد يده إلى أحد، فعمل بصناعة النجارة في سوق القباقيب الملاصق لدار المسجد الأموي.

وقد تحدث صديقه الأستاذ الكبير علي الطنطاوي عن عمله هذا، فقال في «الذكريات» ١٨٢:٢: «وكان نجاراً بارعاً، يأكل من كسب يده مالاً حلالاً، كما كان شأن كبار الصحابة، وكبار العلماء، وكان يغدو إلى درس الشيخ هاشم الحطيب في المسجد، ثم يؤم دكانه في السوق، يُحسن عمله، وينصح مَنْ يعامله، ويتنعم بالقليل من الحلال، لم يكن غشاشاً ولا طمّاعاً ولا مُدّعياً في صناعته».

صفاته الخُلُقِيَّة والخُلُقِيَّة:

١ - صفاته الخُلُقِيَّة:

كان الشيخ زُبعة من القوم، إلى الطول أقرب، تغلب عليه السمرة، واسع العينين، وفي وجهه سيماء المهابة ونور الصّالحين. اعتَمَّ في شبابه بالعمّة الصفراء، وارتدى الجبة والقنباز، ثم لبس العمّة البيضاء على الطربوش الأحمر قبيل سن الأربعين والتزمها طوال عمره.

٢ - صفاته الخُلُقِيَّة:

كانت أخلاق الشيخ - رحمه الله تعالى - أخلاق الكُمل من الرجال، فقد كان يحبُّ معالي الأمور، ويكره سفاسفها، حكيماً يضع الأمور في مواضعها، يتواضع من غير مذلة، عزيز النفس من غير كبرياء، يصدع بكلمة الحق ولا يخشى فيها أحداً، يغضب لله ولا يغضب لنفسه، كل ذلك مع الحكمة وحسن التصرف وبُعْد النظر.

وكان - رحمه الله تعالى - لين الجانب، كثير الإحسان والتؤدّد إلى الناس، لا سيما تلامذته، يحنو عليهم ويهش لهم، حتى يحسب كلّ طالب منهم أنه أحب إليه من غيره، فإذا ما وجه لأحدهم تأنيباً أو تأديباً فإنما يكون ذلك في سبيل تربيته، ومع ذلك فإنه سرعان ما يسترضيه، فيشعر الطالب بذلك أنه بين يدي أب رؤوف حنون.

ومن أخلاقه - رحمه الله تعالى -: أنه كان كريم النفس، سخيّ اليد، كثير الإنفاق في سبيل الله، في شتى أبواب الخير، لا سيما إطعام الطعام، فكرمه في هذا الباب من أشهر شيء، أما إنفاقه على تلاميذه فحدث عن البحر ولا حرج.

ومن أخلاقه - رحمه الله تعالى -: الوفاء لجيرانه ومعارفه، ولكل من مدّ يد العون في سبيل نهضته، والوفاء لأبناء شيوخه، فكان يقدرهم قدرهم، وينزلهم منازلهم، ويكرمهم غاية الإكرام.

ومنها: أنه كان لا يستخدم أحداً من طلابه في شؤونه الخاصة، فيشتري حوائجه، ويخدم نفسه بيده، وكان كثيراً ما يقول: ليست هذه السنة لتروى على المنابر فحسب بل لنعمل بها، حتى إنه لما مرض ولزم الفراش كان يتحرّج من خدمة أبنائه له.

ومنها: أنه كان أبيّ النفس عفيفها لا يمدّ يده إلى أحد، ولا يذلّ إلا لله، أسّس (جمعية الفتح) وترأسها ثلاثين سنة وما دخل عليه قرشٌ واحد من أموالها، وكان في ذلك ورعاً نزيهاً غاية النزاهة.

ومن مناقبه - رحمه الله تعالى -: الرقة والبكاء من خشية الله، والقلب الحاضر، والمراقبة الدائمة لله عزّ وجلّ، والإخلاص في أقواله وأفعاله، والإكثار من الذكر والعبادة، وتلاوة القرآن، مع فكرٍ دائمٍ واهتمامٍ بشؤون المسلمين، تغمده الله بواسع رحمته.

مزاياه وخصائصه الذاتية:

جمع الشيخ - رحمه الله تعالى - في شخصيته أصنافاً من المكارم،

كالشجاعة والإقدام، والجرأة والصبر، والعزة والإباء، بل كان ذلك يجري منه مجرى الدم في العروق، يعرف ذلك منه كل من عاشره ولازمه.

ومن شجاعته - رحمه الله تعالى -: مشاركته في الثورة السورية ضد الفرنسيين، فقد أبلى فيها بلاءً حسناً، ونَجَّ فيها من الموت مراتٍ عديدة.

وشارك أيضاً في المقاومة الشعبية عام ١٩٥٦م ضدَّ العدوان الثلاثي على مصر مع ثلة من طلابه، حيث تدرَّبوا على السلاح الحديث آنذاك، وشارك في هذا التدريب كثير من علماء دمشق.

وجمع - رحمه الله تعالى - إلى ذلك اهتمامه بممارسة الفتوة بأنواعها، كالفرسية، والرماية، والسباحة، والمصارعة، والصيد، والأخذ بالسيف، وغير ذلك، بل كان يُشجِّع أولاده وتلاميذه على ممارستها ليبني لهم بذلك شخصية متكاملة، تجمع بين العلم والدين والدنيا.

يقول الأستاذ علي الطنطاوي - رحمه الله تعالى - واصفاً فتوة صديقه المترجم: «كان من أرباب الفتوة لاعب سيف، وكانت لعبة السيف والترس مما يفخر به الرجال، وكان البطل فيها يمسك بيديه سيفين وينازل خصمين، وكذلك كان هذا الصديق، وكان يحطُّ على الأرض قاعداً القرفصاء، ثم يثب من قعدته في الهواء، كما يفعل أهل القوقاز».

شيوخه وتحصيله العلمي:

قرأ رحمه الله على أجلة علماء دمشق، في مقدِّمتهم العلامة المحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني (١٢٦٧ - ١٣٥٤هـ)، فقد لازمه ملازمة تامَّة سنوات، قرأ عليه خلالها علوم الحديث والتفسير والفقه والأصول والعقيدة وعلوم العربية وعلوم الفلسفة، وعلوم الفلك والميقات والرياضيات، وغيرها من العلوم الشرعيَّة والعربيَّة والعصريَّة، وانتفع به كثيراً، وقيد عنه كثيراً من الفوائد والإملاءات.

وقرأ على العلامة الفقيه الزاهد الشيخ صالح بن أسعد الحمصي (١٢٨٥ - ١٣٦٢هـ)، وتخرَّج عليه في علوم الفقه الحنفي وأصوله

والتصوف، وانتفع به وبعلومه وزهده، وكان له أكبر الأثر في حياته.
وحضر أيضاً في الفقه الحنفي على مفتي الشام الشيخ محمد عطاء الله
الكسم (١٢٦٠ - ١٣٥٧هـ).

وقرأ علوم الفلك والميقات على مفتي الشراكسة في مرج السلطان
- شرقي دمشق - الشيخ محمد الساعاتي، وبه تخرّج في هذه العلوم.
وقرأ القرآن الكريم على العلامة المقرئ الشيخ محمد سليم الحلواني
شيخ قراء دمشق (١٢٨٥ - ١٣٦٣هـ).

كما حضر دروساً مختلفة عند عدد من علماء الشام، كالشيخ محمد بن
جعفر الكتاني (١٢٧٤ - ١٣٤٥هـ)، والشيخ محمد أمين سويد (١٢٧٣ -
١٣٥٥هـ)، والشيخ عبدالكريم الحمزاوي (ت ١٣٤٦هـ)، والشيخ محمد
نجيب كيوان (١٢٨٧ - ١٣٥٢هـ)، والشيخ محمد هاشم الخطيب (١٣٠٤ -
١٣٧٨هـ)، والشيخ عبدالرزاق الأسطواني (١٢٧٠ - ١٣٦٣هـ)، والشيخ
محمود العطار (١٢٨٤ - ١٣٦٢هـ)، والشيخ محمد شريف اليعقوبي (١٢٨٢ -
١٣٦٢هـ)، وغيرهم.

واشتغل رحمه الله بنفسه فَجَدَّ واجتهد في تحصيل العلوم مطالعة وبحثاً
وتحقيقاً، واعتزل الناس من أجل ذلك اقتداءً بعُزلة شيخه البدر، فقرأ خلال
عزلته الكثير من الكتب العلمية والأدبية، وحفظ من أشعار العرب الشيء
الكثير.

نهضته العلمية وتأسيسه جمعية ومعهد الفتح الإسلامي:

وبعد أن أتمَّ تحصيله على الشيوخ، التفت إلى التعليم والإرشاد،
فدرّس أولاً في الكلية الشرعية في بيروت سنوات، ثم تركها وأسّس في
دمشق نهضة علمية، بدأت في المساجد لا سيما المسجد الأموي ومسجد
فتح في القيمرية، واستمرّت هذه النهضة سنوات، نبغ خلالها عددٌ جَمٌّ من
طلبة العلم، استطاع أن يعتمد عليهم في التأسيس لنهضة علمية كبيرة.

وفي سنة (١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م) أسّس جمعية الفتح الإسلامي مع نُخبة

من كبار تلاميذه، وثلة من ضلحاء التجار، ثم أسس معهد الفتح الإسلامي ليضم طلبة العلم فيعلمهم فيه أصناف العلوم، ويفتحهم في دينهم، ويربّيهم على الصلاح والتقوى، وينفق عليهم من أموال الجمعية ليتفرغوا عن مشاغل الدنيا، ويصرفوا سائر أوقاتهم إلى تحصيل العلوم.

وفي سنة (١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م) أسس معهداً خاصاً بالإناث، ليعلمهن العلوم الشرعية، وهي أول نهضة من نوعها تُقام في دمشق آنذ.

ولا زال هذا المعهد المبارك بفرعيه قائماً مستمراً بفضل الله، يخرج المئات من طلبة العلم والدعاة والداعيات.

نشاطه التعليمي:

وفي سنة (١٣٩١هـ)، الموافق (١٩٧١م)، افتتح الشيخ قسم التخصّص في معهد الفتح الإسلامي، وكان هدفه منه تقوية الطلبة المتخرجين خلال ثلاث سنوات، يتخصّص الطالب في علم من العلوم التي قرأها في المعهد، وجعله ثلاثة فروع: فرع الفقه واوصول، وفرع اللغة العربية وعلومها، وفرع الحديث والتفسير، وقد أثمر هذا القسم ثمرات طيبة مباركة.

وكانت للشيخ رحمه الله نشاطات أخرى في مجال التعليم والإرشاد، فعقد حلقات علمية في بيته تضم تلامذته ومعارفه ومُحبّيه، وعقد حلقات للتجار في حوانيتهم وبيوتهم، كما كان يتردّد على السجون ويعقد فيها الدروس الوعظية يذكر أهلها بالتوبة والإنابة، واهتم أيضاً باللاجئين الفلسطينيين، فأرسل عدداً من طلابه إلى مخيماتهم لتعليمهم وتفقيهم، كما أرسل كثيراً من الطلاب إلى القرى والأرياف وأماكن البدو، لتعليمهم وتفقيهم وفتح المساجد المغلقة.

أهم الكتب التي أقرأها:

أقرأ رحمه الله خلال نهضته الكثير من الكتب العلمية:

فمن كتب التفسير: أقرأ النسفي والبيضاوي والكشاف وغيرها.

ومن كتب الحديث وعلومه: الترغيب والترهيب للمنزري، ومقدمة ابن الصلاح، وتدريب الراوي للسيوطي.

ومن كتب الفقه الحنفي: مراقبي الفلاح للشرنبلالي، والاختيار للموصللي، والهداية للمرغيناني، وحاشية ابن عابدين وبعض رسائله.

ومن كتب الأصول: المنار للنسفي وشروحه، والتوضيح لصدر لشرعية، والمستصفى وشفاء الغليل للغزالي، والفروق للقرافي.

ومن كتب العقيدة: شروح الجوهرة لا سيما الباجوري، وشرح بدء الأمالي لملا علي القاري، والاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

ومن كتب التصرف: الرسالة القشيرية، وإحياء علوم الدين للغزالي، وشروح الحُكَم العطائية ولا سيما شرح ابن عباد.

وأقرأ من كتب العربية: شروح الألفية لا سيما ابن عقيل والأشموني، ومغني اللبيب، وشرح قطر الندي، وشدور الذهب لابن هشام.

ومن كتب البلاغة: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة للجرجاني.

ومن كتب الأدب: الكامل للمبرد، والأمالي لأبي علي القالي، والمثل السائر لابن الأثير.

أشهر تلاميذه:

من أشهر تلاميذه الذين لازموا السادة الأعلام:

الشيخ عبدالرزاق الحلبي (حفظه الله وأطال عمره في عافية وسرور)، والشيخ رمزي البزم - ت(١٤١١هـ)، والشيخ محمد أديب الكلاس (١٤٣٠هـ)، والشيخ إبراهيم اليعقوبي ت(١٤٠٦هـ)، والشيخ صبحي القيسي البغجاتي ت(١٤١٣هـ)، والشيخ شعيب الأرناؤوط (حفظه الله ونفع بتحقيقاته العلمية)، والشيخ عبدالقادر الأرناؤوط ت(١٤٢٦هـ)، والشيخ سهيل الزبيبي،

والشيخ سعيد طناطرة، والشيخ أحمد رمضان، والشيخ نور الدين خزنة كاتب، والشيخ موفق النشوقاتي (١٤٢١هـ)، والشيخ صبحي النمر، والشيخ عبدالفتاح البزم مفتي دمشق، وغيرهم.
ومن تلامذته: أبناؤه الأكارم، لا سيما الدكتور محمد عبداللطيف، والدكتور حسام الدين، والدكتور ولي الدين، والسيدة فاطمة، والسيدة لطفية، وسائر أبناؤه وبناته.

وظائفه الدينية ونشاطاته العلمية:

تولى رحمه الله عدداً من الوظائف الدينية، أبرزها:

- ١ - وظيفة التدريس الديني في مساجد دمشق. ٢ - وظيفة الإمامة في مسجد سنان آغا في المناخلية. ٣ - وظيفة الخطابة في المسجد المذكور عام ١٩٤٤، ثم انتقل منه سنة ١٩٥٩ إلى مسجد السادات أقصاب. ٤ - رئاسة جمعية الفتح الإسلامي منذ تأسيسه لها سنة ١٩٥٦م. ٥ - عضويته في جمعية العلماء بدمشق، ثم في رابطة العلماء، وهو من أعضائها المؤسسين، وقام بالتدريس في كليتها الشرعية (الثانوية الشرعية فيما بعد).

أبرز مؤلفاته:

لم يلتفت الشيخ - رحمه الله تعالى - إلى التأليف إلا متأخراً، لانشغاله بتربية الطلاب، وتأسيس معهد الفتح الإسلامي. فمن أبرز تصانيفه:

- ١ - النسائيات من الأحاديث النبوية الشريفة. طبع بدمشق عدة مرات، آخرها في دار الفرفور سنة ١٤١٨هـ. ٢ - من مشكاة النبوة شرح الأربعين النووية. طبع بدمشق سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٨م، ثم في دار الفرفور سنة ١٤١٨هـ. ٣ - الرسالة النافعة والحجة القاطعة في التوحيد. طبعت بدمشق في دار الفرفور سنة ١٤١٧هـ.

- ٤ - المحدث الأكبر وإمام العصر العلامة الزاهد الشيخ محمد بدر الدين الحسناني كما عرفته. طبع بدمشق سنة ١٤٠٦هـ، ثم أعيدت طباعته ١٤١٨هـ، في دار الفرفور. ٥ - الدر المنثور على الضياء الموفور

في أعيان بني فرفور. الدر المنثور للشيخ محمد جميل الشطي (ت ١٣٧٨هـ). ٦ - سلسلة الخلود: مجموعة مقالات أدبية وقصص تاريخية، في ثلاثة أجزاء: (من نفحات الخلود، من نسيمات الخلود، من رشحات الخلود). طبع الكتاب بدمشق مراراً آخرها سنة ١٤١٨هـ في دار الفرفور.

ومن أبرز تأليفه المخطوطة:

٧ - الإفصاح في شرح الاقتراح للسيوطي في أصول النحو. ٨ - تهذيب نور الإيضاح مع شرحه في الفقه الحنفي. ٩ - شرح جوهرة التوحيد في علم العقائد. ١٠ - تاريخ مسجد الأقباص ومن دفن فيه من الأصحاب. ١١ - ترجمة العلامة الزاهد الشيخ عبدالحكيم الأفغاني. ١٢ - ديوانه الشعري واسمه «آلام وآمال». وغيرها من المؤلفات، وقد كتب رحمه الله مقالات في عدد من المجالات من أبرزها: مجلة التمدن الإسلامي بدمشق.

شعره:

عُنيَ الشيخ رحمه الله بقرض الشعر مُبكراً منذ الخامسة عشر من عمره، لكنه كان آنذاك مبتدئاً في هذا الباب، فلما نمت مواهبه وصقل شعره أتلف الكثير من نظمه القديم.

واعتنى في شعره بأغراض عدّة، من أبرزها: المديح والثناء والحماس والإصلاح وغير ذلك، وقد جمع له ولده الدكتور عبداللطيف أشعاره في ديوان خاص، اسمه: «آلام وآمال» لم يطبع حتى الآن.

من أشهر قصائده:

١ - قصيدة في مدح سيدنا رسول الله ﷺ مطلعها:

أحيانا حُبُّك يا مختار أحيانا وأصبح القلبُ من ذكراك نشوانا

في نيف وأربعين بيتاً، ألقاها في حفل المولد النبوي الذي أقامته جمعيته التمدن الإسلامي سنة ١٣٥٤هـ، ونشرت في مجلتها.

٢ - قصيدة في وصف حادثة الفيل، مطلعها:

يا راعي السود قد خابت أمانيه وراكب الفيل يطوي البيد في تيه
في نحو أربعين بيتاً. ألقاها في حفلة المولد النبوي، في جامع التوبة
سنة ١٣٧٣هـ.

٣ - قصيدة في وصف حال العرب والمسلمين، وما حلّ بهم من
ضعف وهوان، يدعوهم فيها إلى الجِدِّ والعمل والإخلاص، وهي بعنوان:
«همات وأفعال»، مطلعها:

إنَّ الحَيَاةَ لآلَامٌ وَأَمَالٌ وناشِدُ العِزِّ لَا يَعْرِوهُ إِهْمَالٌ

٤ - ومن شعره: القصيدة التي سمّاها (معلّقة أو ملحمة)، مطلعها:

بني العُرب لا تبقوا على الهون باقيا ولا تذروا الآمال صرعى الأمانيا
وهي تشبه سابقتها في موضوعها.

وله في الرثاء قصائد كثيرة، من أبرزها: مرثي الشيخ بدر الدين
الحسني (ت ١٣٥٤هـ)، والشيخ عبدالقادر الخطيب (ت ١٣٥١هـ)، والشيخ
نجيب كيوان (ت ١٣٥٢هـ)، والشيخ محمد هاشم الخطيب (ت ١٣٧٨هـ)،
والشيخ عبدالرحمن الخطيب، والشيخ محمود العطار (ت ١٣٦٢هـ)، والشيخ
حسن حبنكة الميداني (ت ١٣٩٨هـ)، وغيرهم.

وفاته:

عاش الشيخ رحمه الله حياةً مليئةً بالجهاد في سبيل نشر العلم
والفضيلة، إلى أن وافاه الأجل صبيحة يوم الثلاثاء في الخامس من المحرم
سنة (١٤٠٧هـ)، الموافق للتاسع من أيلول سنة (١٩٨٦م)، وصُلِّيَ عليه في
المسجد الأموي، ودفن في مدفن مسجد الشيخ أرسالان الدمشقي، في قبر
قاضي القضاة ولي الدين ابن الفرفور أحد أجداد الأسرة، وأبْنَه عددٌ من
علماء الشام، كالشيخ عبدالرزاق الحلبي، والشيخ محمد كريم راجح،

غيرهما. ورثاه شعراً كلُّ من الشيخ صادق حينكة، والشيخ محمد كريم راجح، والأستاذ أنور الكاوردي. تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه^(١).



(١) هذه الترجمة مقتبسة باختصار شديد من كتاب: «العلامة المرئي الكبير الشيخ محمد صالح الفرفوري: حياته العلمية وبهضته وآثاره» بقلم الأخ الكريم الشيخ عمر بن موفق الشوقاتي. الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، دار الفرفور.

محمد أبو الفرج الخطيب الحسني الخطيب المؤرخ النسابة^(١)

(١٣٣٧ - ١٤٠٧هـ)

(١٩١٩ - ١٩٨٦م)



بقلم: مَجْد مكي

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد في حي القيمريّة بدمشق ليلة الثلاثاء ٨ رجب ١٣٣٧هـ، الموافق ٨ نيسان ١٩١٩م.

(١) نشرت بتاريخ ٣٠/٥/٢٠٠٧م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria. وقلت في مقدمة هذه الترجمة: «هذه الترجمة لعالم من علماء دمشق الأخيار، المؤرخ النسابة، المدرس الخطيب، مدرس دمشق بالإفتاء، وشيخ دار الحديث النورية، خطيب جامع بني أمية، الأستاذ محمد أبو الفرج الخطيب، وقد أكرمني الله بلفائه في غرفته بدار الحديث النورية، بالعصرونية، التي أسسها وأوقفها السلطان نور الدين الشهيد، عندما كنت أدرس في كلية الشريعة بدمشق، وأتردد على تلك المدرسة العظيمة، وآثارها الخالدة، وقد قام فضيلة الشيخ محمد أبو الفرج بكتابة دراسة عن دار الحديث النورية بدمشق، وتاريخها وتراجم شيوخها، واعتنى ابنه النقيب الأخ الكريم العالم المحدث المحقق الأستاذ محمد محير بكتاب والده وأتمه، وأعاد صياغته، وكتب في آخره ترجمة لوالده الكريم فضيلة الشيخ محمد أبو الفرج بن عبدالقادر بن محمد أبو الفرج الخطيب الحسني الشافعي الدمشقي - رحمه الله تعالى - وقد أحبا أن نتحف القراء بهذه الترجمة بعد اختصار يسير لها» انتهى.

والدته السيدة مَسْرَّة بنت الشيخ صالح المنير الحسني سبط الكزبري الحسني.

نشأ في بيت والده، وكان أزيز الرصاص ودوي القنابل ولهب الحرائق سنة ١٩٢٥م، في أثناء الثورة الكبرى من أول ما تفتحت عليه مداركه.

ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره سنة ١٣٥١هـ، انتقل والده خطيب الأموي ومدير الأوقاف الإسلامية إلى رحمة مولاة.

ونشأ - رحمه الله تعالى - في رعاية أمه وأخيه الأكبر نذير.

فأتمّ مراحل الدراسة النظامية في عدة مدارس أهلية وحكومية، وهو إلى جانب هذا يلزم دروس بعض علماء الأسرة، وعلى رأسهم الشيخ محمد هاشم رشيد الخطيب في دروسه الصباحية في الجامع الأموي، وابن عمه الشيخ توفيق بن حسن بن أبي الفرج في مدرسة الخياطين ودار الحديث الثورية، والشيخ محمد سهيل بن عبدالفتاح، كما أنه شارك في كثير من الأنشطة الكشفية والرياضية والثقافية والاجتماعية التي كان يقوم بها آل الخطيب، لما كان المجال مفتوحاً لذلك.

حضوره الحلقات العلمية في جامع بني أمية:

وفي جامع بني أمية العامر - وقتها - بالحلقات العلمية، جلس إلى كثير من مدرسيه، كالشيخ أحمد النويلاتي، والشيخ عبدالقادر الإسكندراني الكيلاني، والشيخ عبدالوهاب الحافظ، والشيخ محمد أحمد دهمان، الذي استمرت صلته العلمية به إلى آخر حياته، وغيرهم.

كما استفاد من الشيخ عبدالحميد القابوني في التجويد والقراءة، والشيخ صالح الحمصي في اللغة والنحو والصرف.

مجالسته طبقة عالية من العلماء:

وجالس على صغر سنه طبقة عالية من العلماء الذين كانوا يزورون والده أو يزورهم، وفي مقدمتهم الشيخ المحدث الأكبر محمد بدر الدين

الحسني، والقاضي الشيخ عبدالمحسن الأسطواني، ومفتي الديار الشامية الشيخ عطا الله الكسم، والشيخ محمد سعيد الباني، والشيخ عبدالجليل الدرا، والشيخ عزيز الخاني.

إضافة إلى هذا كله كانت مطالعته الخاصة في مكتبة والده العامرة رافداً مهماً في مسيرته العلمية.

خطيب جامع بني أمية:

ولما كان قانون توجيه الجهات معمولاً به وقتها، وُجِّهت خطابه جامع بني أمية إليه بعد وفاة والده، على أن يُثبت أهليته عند بلوغه سنّ الرشد وإمكان قيامه بها، وقد ناب عنه في الخطابة نائب أبيه من قبل الشيخ عبدالرحمن رشيد الخطيب.

ومنذ أن بلغ العشرين بدأ بالخطابة في مساجد متفرقة، وكان أكثر ذلك بالمدرسة الثورية الكبرى في الخياطين، فلما آنس من نفسه القدرة على الخطابة، تقدّم إلى مجلس الأوقاف العلمي يطلب فيه تحديد موعد الفحص والمقابلة، فاجتاز امتحاناً عاماً لإثبات كفاءته أمام أعضاء المجلس، وفي مقدمتهم رئيس المجلس قاضي القضاة الشيخ عبدالمحسن الأسطواني، وقاضي دمشق الممتاز الشيخ عزيز الخاني، والقاضي الشرعي الفرضي الشيخ سليم الطيبي، ونقيب السادة الأشراف الشيخ محمد سعيد الحمزاوي.

وصدر قرار المجلس بإثبات أهليته وكفاءته لهذا المنصب بتاريخ ١٣٦٣/١/٢٥هـ.

وفي يوم الجمعة ١٣٦٣/٢/٢٤هـ، ألقى - رحمه الله تعالى - أول خطبة له في الجامع الأموي، وقد صادفت عودة الحجّاج من موسم الحج المنصرف، فتحدّث طويلاً عن الخط الحديدي الحجازي وأهميته.

ولما كانت خطبته الثالثة في ٧ ربيع الثاني ١٣٦٣هـ، كان من بين مستمعيها رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس وزرائه، وكان من جملة

الأمانى التي ذكرها الشيخ في خطبته إقامة جيش يتوطد به استقلال البلاد على أسس الأخلاق القويمة والدين الصحيح.

دراسته في الجامع الأزهر:

وفي أواخر ١٣٦٣ توجّه نظره - رحمه الله تعالى - إلى الجامع الأزهر محطّ أنظار أهل العلم في ذلك الوقت، فسافر إلى مصر، واجتاز امتحان معادلة الشهادة الثانوية الأزهرية، ومن ثم التحق بكلية أصول الدين التي أنهى دراسته فيها، وكان في أثناء دراسته قد انتسب أيضاً إلى كلية الشريعة بالأزهر، وإلى كلية الحقوق الفرنسيّة بالقاهرة إلا أنه لم يُكتب له إتمام دراسته في هاتين الكليتين، إذ غادر مصر مُضطراً إلى دمشق سنة ١٣٦٨.

أساتذته في الأزهر:

وفي مصر عاصمة الثقافة وقتها، التقى - رحمه الله تعالى - بشخصيات كثيرة، وفي مقدمتهم أساتذته في الأزهر: الشيخ عيسى منون، والشيخ أبو زيد شلبي، والشيخ صالح موسى شرف، وله منه إجازة علمية بالمعقولات، والشيخ سليمان دنيا، وغيرهم.

ومن الذين جالسهم: الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر مصطفى عبدالرازق باشا، والشيخ محيي الدين عبدالحميد، والشيخ رشيد الحواصلي، والشيخ محمد الخضر حسين التونسي، وغيرهم من أعلام مصر ووارديها.

وكان له لقاءات دورية مع ابن عم والده صاحب الفتح والزهاء السيد محب الدين الخطيب الكاتب الإسلامي الشهير.

كما أنه اهتمّ بتأسيس اتحاد للطلاب السوريين بمصر سنة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م مع مجموعة من زملائه وكان الأمين العام له.

أعماله العلمية والدعوية:

بعد عودته إلى دمشق لزم الخطابة في الجامع الأموي لا يبرحه،

وخطب آخر خطبة له قبل وفاته بثلاثة أيام - رحمه الله تعالى -، ودرس مدة طويلة في الصفوف الإعدادية والثانوية في بعض مدارس دمشق الخاصة والخيرية، ومنها مدرسة التهذيب والتعليم في المدرسة المجاهدية الجوانية بسوق القلقجية التي كان يدرس فيها ثلة من علماء آل الخطيب، وعلى رأسهم العلامة الشيخ محمد هاشم رشيد الخطيب، ودرس في غيرها من الثانويات إلى جانب حلقات علمية شرعية خاصة كان يعقدها - رحمه الله تعالى - في دار الحديث الثورية، وفي بيته، وفي مسجد البادرانية، وفي بعض الجمعيات الأدبية والخيرية التي كانت مفتوحة للأنشطة الثقافية.

مشاركته في الجمعيات العلمية:

وفي العقد الثامن من القرن الرابع عشر الهجري، كانت دمشق تزخر بالهيئات الإسلامية والجمعيات العلمية التي كان لها أثر في توجيه المجتمع وإعلان لأحكام الإسلام في الأمور المستجدة والأحداث العامة، وكان له - رحمه الله تعالى - إسهام كبير في تلك الجمعيات. فكان عضواً إدارياً في جمعية التمدن الإسلامي، ثم عضواً مؤسساً في مرحلتها الثانية، وعضواً مؤسساً في جماعة أرباب الشعائر الدينية، وهو الذي وضع قانونها الأساسي ونظامها الداخلي سنة ١٣٦٩، وكان أول أمين سر لها، ورأسها الشيخ حسن الشطي - رحمه الله تعالى -، وأمين سر لجمعية العلماء - وكان أصغرهم سناً - فكان محل ثقة رئيسها الشيخ محمد كامل القصاب - رحمه الله تعالى -، كما كان عضواً إدارياً ثم أميناً للسُر في جمعية الهداية الإسلامية، وعضواً مؤسساً وأميناً للسُر في هيئة العلماء ١٣٧٢. وغيرها من الجمعيات التي لم يعمر بعضها أكثر من جلستين أو ثلاث.

مشاركاته في المؤتمرات الإسلامية:

وشارك في مؤتمر الهيئات الإسلامية بالقدس، والمؤتمر الإسلامي المنعقد بدمشق الذين حضرهما كبار الشخصيات الإسلامية آنذاك إلى أن ظهرت نظم ومقررات حالت دون متابعة تلك النشاطات والمسابي.

انتسابه إلى كلية الشريعة ورحلته إلى الحجاز ونجد:

ولما افتتحت كلية الشريعة في جامعة دمشق، كان - رحمه الله تعالى - من أوائل المنتسبين إليها، ثم أثر بعد سنتين الانسحاب منها، وقد شارك في رحلتها إلى الحجاز ونجد، وأدى فريضة الحج بعد ذلك في موسم ١٣٧٧هـ.

ترشّحه للمجلس النيابي وتعيينه مدرساً دينياً:

وفي سنة ١٣٨١هـ = ١٩٦١م، رشّح نفسه في الانتخابات لعضوية الجمعية التأسيسية والمجلس النيابي عن دمشق، وحاز أصواتاً كثيرة، لكن جرى ما ذكره خالد بك العظم في مذكراته، وكان قبل ذلك قد نال وسام الإخلاص من الدرجة الأولى منحه إيّاه رئيس وزراء الجمهورية السورية ١٩٥٨/٢/٢٩م قبيل قيام الوحدة.

ثم عُيّن عام ١٩٦٢م مدرساً دينياً في دائرة الفتوى العامة.

عميد الجامع الأموي:

فلما كان عام ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م تألفت هيئة استشارية عليا لجامع بني أمية، كان أحد أعضائها، ثم سُمّي عميداً لجامع بني أمية، وشغل هذا المنصب طيلة عام ١٣٨٦، من ١٩٦٦/١/١٠ وحتى ١٩٦٧/١/١٥، ولا يُعرف هذا اللقب لغيره - رحمه الله تعالى - منذ أن كان جامع بني أمية إلى اليوم، وقد ألغي هذا المنصب بإقالته - رحمه الله تعالى - منه إثر بعض مواقفه الصّارمة، فقد وضع مخططاً إصلاحياً شاملاً لإعادة المكانة الإسلامية المعهودة للمسجد الجامع الأموي بدمشق، ووقف في وجه حملات التنقيب المُفرّضة في صحن المسجد، كما وقف بقوة في وجه من يحاولون تحويل المسجد إلى متحف أو مقصف، وله مواقف كثيرة شهيرة.

وقد أُقيل من منصبه في العمادة بتاريخ ١٩٦٧/١/١٥م، ثم أوقف عن الخطابة أيضاً إثر ظروف مرت آنذاك. فلما كان عام ١٣٩١هـ = ١٩٧١م عاد إلى الخطابة.

ولما كانت الانتخابات لعضوية مجلس الشعب سنة ١٩٧٣م، رشح نفسه عن مدينة دمشق إذ رأى ذلك من الواجبات آنذاك.

وفي عام ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م دُعي إلى المشاركة في مؤتمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض.

عكوفه على كتب التاريخ والتراجم:

وبعد أن انبلج فجر القرن الخامس عشر الهجري، عكف - رحمه الله تعالى - على كتب التواريخ والتراجم، فَسَرَدَ كتباً كاملة لا يُغادر منها حرفاً، وشرع في أخرى، واعتنى بأنساب الأشراف وغيرهم من أسر دمشق العريقة.

مدير جمعية التمدن الإسلامية وجمعية التهذيب والتعليم:

وفي الوقت نفسه أسندت إليه أمور التمدن الإسلامي جمعيتها ومجلتها بعد مرض الأستاذ الكبير أحمد مظهر العظمة، وسفر ابن عمه الأستاذ محمد بن كمال الخطيب، فمكث - رحمه الله تعالى - مديراً للتمدن الإسلامي إلى أن تُوفي - رحمه الله تعالى -.

كذلك ترأس جمعية التهذيب والتعليم إلى وفاته - رحمه الله تعالى -.

زيارته للحرمين الشريفين ومصر وحضوره موسم الحج:

وفي عام ١٤٠٦هـ تحرّك فيه داعي الشوق إلى الحرمين الشريفين، فشَدَّ إليهما الرحال.

ومرَّ في عودته على مصر، مصر التي سكنها في عنفوان شبابه في الأربعينيات فرآها كيف أمست في الثمانينيات!

وعاد إلى دمشق فلم تمض أشهر حتى دخلت أشهر الحج، فعاوده الشوق والحنين إلى البلد الأمين، فحجَّ موسم ١٤٠٦هـ وزار النبي ﷺ.

وفاته:

لم يلبث بعد عودته من الحج إلا قليلاً حتى وافاه الأجل فجأة مساء الاثنين ٢ صفر ١٤٠٧هـ، الموافق ٦ تشرين الأول ١٩٨٦م، ثم صلى عليه بعد عصر الثلاثاء بالجامع الأموي ولده الأكبر الشيخ أحمد معاذ، ثم أتى فضيلة شيخ القراء الشيخ حسين خطاب - رحمه الله تعالى - بعد انقضاء الصلاة فصلّى عليه ثانية في الجامع الأموي، ثم انطلقت جنازته مُسرعةً إلى الباب الصغير، حيث دفن بجوار طائفة من كبار علماء دمشق في تربة الشيخ القدوة العارف بالله الشيخ إبراهيم الغلاييني - رحمه الله تعالى - .

أخلاقه وسجاياه:

كان متواضعاً أبى النفس رافع الرأس، وكان حُلُوَ المنطق، حَسَنَ اللقاء، حَسَنَ الهدى والسَّمْت، فُطْنًا ليس بالخَبِّ ولا الخَبُّ يخدعه، فما استطاع أحد على تقلُّب الأيام والمفاهيم أن يُكَدِّرَ بياض عَمَّتِه، شهدته الناس على منبر الأموي وسمعوه في عصور شتى وعهود مختلفة، فكان قوله واحداً، ولقد فاقه كثير من أقرانه بالعلم والتعليم والتدريس، لكنه فاق كثيراً منهم بالثبات ووضوح الرؤية.

لم يكن منغلقاً على الكتب والطلاب، بل كان عارفاً بعصره وما يجري فيه، وما يُحاك للمسلمين هنا وهناك، وله مع الحكام مواقف مشهودة.

وكان أماراً بالمعروف نهاءً عن المنكر، يباشر ذلك بنفسه، ولا يخاف في الله أحداً، فقد كان مرّةً يتجوّل بمفرده في بستانه بجمرايا فرأى عند العين جماعةً من الأشرار، وقد وضعوا في جدول الماء زجاجات الخمر، فأهوى عليها بعصاه يكسرها، والقوم في دهشة وذهول لم يَنبَسْ واحد منهم ببنت شفة! .

وكثيراً ما كان ينكر على بعض الناس في مسجد بني أمية ممّن لا يرَاعون حرمة المسجد بنوم غير لائق أو دخان أو تبرُّج أو غير ذلك، وكان

إذا دخل المسجد يوم الجمعة من الباب الذي كان يدخل منه السيّاح الأجانب إلى مشهد عثمان يطلب من الموظف إغلاق الباب.

ولما سمع أن بيت الخطابة تهبّ عليه رياح تريد هدمه مع جملة ما هُدم من ملاصقات الجامع الأموي، كتب إلى وزير الأوقاف كتاباً بتاريخ ١٤٠٤/٤/٧هـ قال في آخره: «واني إذ أتقدّم إليه بهذا الرجاء أضع المسؤولية الفقهية والتاريخية والأثرية والقومية في عنقه واني لمطالبه بها يوم أسأل عنها...» فلم يهدم بيت الخطابة - بحمد الله - وهو باق ما شاء الله.

ولم يكن في حياته العلمية منذ نشأته خاضعاً لأحد من الشيوخ ينظر بنظره، ويسمع بأذنه، ويفكر بعقله، ولم يُربّ أحداً ممّن لازمه أو واطب على دروسه على هذا المنهج.

وقد كان - رحمه الله تعالى - الله صوفياً في أخلاقه وسلوكه، وإن لم يمش في طرق المتصوفة، على أنه قرأ وطالع كثيراً من كتب التصوف حتى نسخ بخطه بعض النوادر منها.

وكان في الفقه مرناً في الفتوى والعمل - والمرونة لا تعني التسبّب أو التّساهل - يعمل بمذهبي الشافعي وأبي حنيفة رحمهما الله، ولم يكن يُحبّ التعمّق والتّقشّر في المسائل، ولا يرتضي الظاهرية في التفكير والفهم والعمل.

حُبّه للحديث النبويّ الشريف وإجازاته:

وكان ميّالاً إلى الحديث الشريف، وهو أكثر ما كان يقرؤه في دروسه، ويبدو أنه لم يكن يتتبع الإجازات والأسانيد، لو تتبّعها لحصل أسانيد عالية نادرة على أنه قد حصل على إجازات ثمينة هي:

١ - إجازة الشيخ محمد صالح بن أحمد بن عبدالرحمن الخطيب الحسني بخطه بعموم مروياته مؤرخة ٦ شعبان ١٣٦٣، ثم أجازته ثانية بثبته «موجز الدرر الغالية» سنة ١٣٩٠هـ.

٢ - إجازة الشيخ محمد علي ظبيان مؤرخة بـ ٣ جمادى الأولى ١٣٧٧هـ.

٣ - إجازة الشيخ محمد أحمد دهمان مؤرخة بـ ١٣٨٤هـ، وعمدته في الرواية: الشيخ محمد أمين السفرجلاني.

٤ - إجازة نقيب السادة الأشراف السيد الشريف الشيخ محمد سعيد الحمزاوي - رحمه الله تعالى - بخطه الجميل مؤرخة بـ ١٣٨٩/٧/١١هـ.

٥ - إجازة الشيخ محمد سامي الملا الكيالي القاضي الشرعي المتقاعد بحلب وملحقاتها العشر مؤرخة بـ ١٤٠٢/٤/١٧هـ.

٦ - إجازة شفهية من الشيخ رفيق السباعي عن المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني عندما زاره الشيخ أبو الفرج - رحمه الله تعالى - بمعية بعض الفضلاء بعد صلاة الجمعة ١٤٠٢/٧/٢١هـ.

٧ - إجازة الشيخ أحمد القاسمي مدير الأوقاف الإسلامية - رحمه الله تعالى - مؤرخة بـ ١٤٠٣/١٢/١هـ.

٨ - أما الإجازة المهمة وهي شهادة علمية وإذن بالتعليم، وليست من قبيل إجازة الرواية، فهي إجازة أستاذ التوحيد والمنطق بكلية أصول الدين الأستاذ الشيخ صالح موسى شرف إذ أجاز الشيخ أبا الفرج بتدريس التوحيد والمنطق بعد أن تلقى عنه هذين الفنين في منزله بانتظام عامين كاملين. وهي مؤرخة بـ ١٣٦٦/٧/٢٧هـ.

تأليفه:

للشيخ أبي الفرج مؤلفات كثيرة، لكنه لم يكن ممن يعكف على تأليف كتاب حتى يتمه، وإنما ينتقل إلى غيره، ولذلك لم يتم أكثر مؤلفاته، وترك جذاذات كثيرة تصلح لتكون تأليفاً، وكلما مرَّ معه شيء له تعلق بها أودعه فيها. وهذا ثبت بأهم مصنفاته حسب الموضوعات التي ألف فيها.

أولاً: الجامع الأموي:

- ١ - الخطابة والخطباء في جامع بني أمية خلال أربعة عشر قرناً، في طبقات خطباء الأموي من الفتح الإسلامي حتى الآن. ٢ - عمادة جامع بني أمية ومن تولى نظارة الجامع. ٣ - مدرسون تحت قبة النسر. ٤ - جامع بني أمية الكبير: المسجد الجامع بدمشق.

ثانياً: آل البيت السادة الأشراف، وهو في ثمانية أقسام:

- ١ - في معرفة النسب وفضله وضرورة الحفاظ عليه، وفضل آل البيت وخصائصهم. ٢ - نقابة الأشراف في الشام ونقباؤها: فيه تراجم ما يقرب من ٥٦ نقيباً. ٣ - السيد النقيب محمد سعيد الحمزاوي. ٤ - أشراف الشام. ٥ - أشراف الحجاز، وهو كتاب ضخم حافل. ٦ - أشراف العراق. ٧ - أشراف المغرب ومصر واليمن. ٨ - ذرية الشيخ عبدالقادر الجيلاني.

ثالثاً: الأنساب:

- ١ - أسر دمشقية تتابعت أنسابها: يريد بها الأسر الحسينية أو الحسينية المنسوبة إلى آل بيت النبي ﷺ. ٢ - أسر دمشقية تتابعت أجيالها: يريد بها الأسر العريقة التي لها انتساب إلى أحد الصحابة أو المتقدمين، أو لها في دمشق عراقة تمتد زمناً طويلاً. ٣ - أسر تي آل الخطيب الحسني، وتراجم أعلام من نبهائها. ٤ - سلاسل أسر تاريخية وتراجم أعلام منها.

رابعاً: الخطب والكلمات:

- ١ - من على المنبر تحت قبة النسر: وهو ديوان خطبه الأمويّات، من أول خطبة خطبها في الأموي إلى آخر خطبة ١٣٦٣هـ - ١٤٠٧م، يأتي في خمس مجلدات. ٢ - من على المنبر: يتضمّن خطبه وكلماته - رحمه الله تعالى - في مناسبات شتى في غير جامع بني أمية. ٣ - الخطابة علم وفن وسجية. ٤ - فن الخطابة وأهليّة الخطيب. ٥ - في مجرى الحياة في مواضع أدبية إنشائية.

خامساً: كتب شتّى:

١ - دار السنة دار الحديث النورية بدمشق، اعتنى به إتماماً وصياغةً ابنه العالم الفاضل المُحدّث المؤرّخ المحقّق الشيخ محمد مُجير الخطيب الحسني وفقه الله، وطبع بدار البشائر بدمشق، وصدرت الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م في ٣٦٧ صفحة. ٢ - المدرسة الأمينيّة. ٣ - أعلام في ذمّة الله: عبدالقادر الخطيب، محب الدين الخطيب.

ولعلّ الله سبحانه وتعالى يُيسّر لابنه العالم النجيب المحقّق الأستاذ مجير الخطيب - حفظه الله ورعاه - القيام بإتمام أعمال والده العلمية ونشرها.

أولاده:

أما أولاده - رحمه الله تعالى - فهم: أحمد معاذ العالم الداعية الموهوب، المشرف على موقع (دربنا)، والعالم الفقيه الخطيب الشيخ محمود عبدالقادر، والعالم المُحدّث المحقّق الأستاذ محمد مجير، ولهم أخت تُضارِعُهم في طلب العلم وفي التعليم، حفظهم الله تعالى ورعاهم، وأولاهم وتولّاهم ونفع بهم.





الشيخ عبدالله علوان
العالم الداعية المربي
(١٣٤٧ - ١٤٠٨هـ)
(١٩٢٨ - ١٩٨٧م)

بقلم تلميذه: مَجْد مكي



ولادته ونشأته:

ولد رحمه الله تعالى في حيّ قاضي
عسكر بمدينة حلب سنة ١٣٤٧هـ =
١٩٢٨م في أسرة متدينة معروفة بالتقى
والصلاح، وتربى في ظل والده الصالح
الشيخ سعيد علوان - رحمه الله - وكان
بعض الناس في حلب وغيرها يقصدون
الشيخ سعيداً طلباً للتداوي بالأعشاب،
وكان لسانه لا يفتّر عن ذكر الله وقراءة
القرآن، وكان يدعو ربه أن يجعل من
أبنائه العالم الحكيم والطبيب المسلم،
وقد أجاب الله دعاءه.

في الثانوية الشرعية (الخسروية):

عندما أنهى دراسته الابتدائية، وجهه والده عام ١٩٤٣م إلى دراسة العلم الشرعي في الثانوية الشرعية، وكانت تعرف في ذلك الوقت بـ(الخسروية) نسبة إلى بانيها خسرو باشا، وكان يقوم بالتدريس في تلك المدرسة علماء كبار وأساتذة أكفأ وهبوا حياتهم للعلم وأخلصوا في عملهم، ومنهم: محمد راغب الطباخ، أحمد الشماع، محمد سعيد الإدليبي، عيسى البيانوني، عبدالرحمن زين العابدين، ناجي أبو صالح، نجيب خياطة، عبدالله حمّاد، رحمهم الله جميعاً.

وقد تأثر بأستاذه العلامة المحدث المؤرخ الشيخ محمد راغب الطباخ، كما تأثر بعد ذلك بالدكتور الشيخ مصطفى السباعي - رحمه الله - وكان يتخذه نموذجاً وقُدوة.

عُرف بين زملائه بالجرأة في الحق والشجاعة في مواجهة الأحداث. كما عرف بالخطابة والقلم المعبر عن أحاسيس المسلمين، وكان بيته في حلب منتدى ومجمعاً لأصدقائه ولأساتذته، وكان الكرم يشمل الجميع من والد الفقيد - رحمه الله -.

دراسته في الأزهر:

بعد أن حصل على شهادة الثانوية الشرعية في سنة ١٩٤٩م، وبتوجيه من والده سافر إلى مصر لاستكمال تحصيله في علوم الشريعة الإسلامية في الأزهر، ونال شهادة كلية أصول الدين سنة ١٩٥٢م، ثم حصل على شهادة تخصص التدريس، وهي تُعادل الماجستير سنة ١٩٥٤، كان له في مصر نشاط إسلامي واسع وزيارات مُتبادلة مع كبار رجال الدعوة الإسلامية. وعندما اشتدّ البلاء بالإسلاميين في مصر سنة ١٩٥٤، ووقعت المحنة أصابه الأذى، فاعتقل، وكان قد بقي له عدّة مواد حتى يُؤدّيها ويتخرج في الجامعة، فكان يُؤتى به إلى الاختبار مقيّد اليدين، وحين انتهت الاختبارات اقتيد إلى الطائرة لنقله إلى وطنه، ولم تسمح له حكومة مصر حينذاك أن يكمل دراسته العليا ويحصل على شهادة الدكتوراه.

وقد حصل الشيخ - رحمه الله - على شهادة الدكتوراه بعد مدة طويلة من جامعة السند في باكستان، وكان موضع رسالته: (فقه الدعوة والداعية)، وهو بعلمه ومؤلفاته أرفع من هذا اللقب بكثير.

عمله في مجال التدريس والدعوة:

عمل الشيخ عبدالله منذ عام ١٩٥٤م مُدرّساً لمادة التربية الإسلامية في ثانويات حلب، فكان خيرَ مُربٍّ للأجيال، غرس في طلابه حُبَّ الإسلام والعمل على نُصرة شريعة الله في الأرض، وكان لمادة التربية الإسلامية في سورية حصّة واحدة في الأسبوع، وكان طلبة الشهادات لا يُختَبِرون فيها، فسعى مع إخوان له على جعل حصتين في الأسبوع لمادة التربية الإسلامية، وإدخال تلك المادة في امتحانات الشهادات في سورية.

وفي تلك الفترة انتشرت بين صفوف الطلبة الأفكار العلمانية والدعوات الإلحادية، فتصدّى مع إخوانه العلماء لمُروّجي هذه الأفكار الهدامة التي تُشوّه معالم الدين، وكانت له مواقف مشهودة عرفها طلابه في تلك الأيام.

وكان - رحمه الله - مُربياً ومعلّماً وواعظاً في المدرسة، وكان يقوم بدور كبير في بيوت الله، لا يعرف الملل، ولا يشكو الكلل، بل كان يُجهد نفسه بالعمل مع شعورٍ بالرضا والسعادة، ولم يتخلّف أو يعتذر عن أي دعوة توجّه له لإلقاء كلمة في مناسبة إسلامية أو حفلة خاصّة.

دروسه في جامع عمر بن عبدالعزيز وأبرز تلاميذه:

وكان للشيخ دروسه الدورية في مسجد (عمر بن عبدالعزيز)، درّس فيه الفقه والسيرة، وقد علّم الكثير من الشباب الخطابة وإلقاء الدروس، وكان يجلس أمامهم مُضغياً وموجّهاً ليستقيم لهم البيان، فتربّى في هذه المدرسة عدد كبير من الشباب، بعضهم قضى نحبه أيام المحنة، ومنهم من ينتظر. ومن أبرز تلاميذه: الداعية الملهم الخطيب المصقع الشهيد السعيد الشيخ موفق سيرجية رحمه الله تعالى، والأستاذ الشيخ أحمد فيصل، والأستاذ عبدالجبار الزيدي، والشيخ مَجْد مكي.

صلاته مع علماء سورية:

كان الشيخ على صلة طيبة وثيقة مع جُلّ علماء سورية، وكان يتنقل من مدينة إلى أخرى داعياً إلى توحيد كلمة العلماء، وتماسك بنيانهم أمام الأعاصير التي تعصف بالمسلمين.

هجرته وإقامته بالسعودية وتدريسه بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة:

وحين اشتدت المحنة في أوائل الثمانينيات، خرج من مدينة حلب سنة (١٤٠٠هـ = ١٩٧٩م) مهاجراً بدينه، وأقام عدة أشهر في الأردن، ثم توجه إلى السعودية، وتابع عمله العلمي والتربوي والدعوي بمشاركته في العديد من المحاضرات والمخيمات الطلابية، وكذلك مقالاته العديدة في المجالات الإسلامية، ودروسه التربوية في إذاعة القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية، مع عمله أستاذاً في قسم الدراسات الإسلامية في جامعة الملك عبدالعزيز في جدة، منذ ١٤٠١هـ إلى أن لقي ربه سنة ١٤٠٨.

أخلاقه وصفاته:

عُرف رحمه الله تعالى بالكرم، فكان بيته موئلاً لخلّائه ولطلابه وللمحبين، يجدون عنده ما يسرهم من ابتسامة مشرقة إلى كلمة هادفة، إلى موعظة وعبرة، يتخلل ذلك كرم الضيافة.

وكان دائب السعي إلى توثيق روابط الصداقة ووشائج المحبة مع إخوانه ومُحبّيه، فكان يسارع إلى زيارتهم ومشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم، وإذا طُلب منه المساعدة في أمر ما فإنه لا يعتذر، بل يسارع إلى المساعدة ويُعدُّ هذا الموضوع موضوعاً شخصياً له، ويبذل كل جهده حتى ينجزه.

وكان متواضعاً في نفسه، دعواً حاضراً للنكته، حسن المعاملة مع الناس، يحبُّ الخير والنصح للمسلمين.

مؤلفاته:

ترك الشيخ عدداً وفيراً من الآثار العلمية والدعوية والتربوية منها:

- ١ - التكافل الاجتماعي في الإسلام. ٢ - تعدد الزوجات في الإسلام. ٣ - صلاح الدين الأيوبي. ٤ - تربية الأولاد في ازسلام في مجلدين. ٥ - فقه الدعوة ومدرسة الدعاة في مجلدين. ٦ - قصة الهداية في مجلدين أيضاً. وقد أصدر من كتابيه الأخيرين العديد من الرسائل المفردة.
- ٧ - إلى كل أب غيور يؤمن بالله. ٨ - آداب الخطبة والزفاف. ٩ - الإسلام والجنس. ١٠ - الإسلام والقضية الفلسطينية. ١١ - إلى ورثة الأنبياء والدعاة إلى الله. ١٢ - تعدد الزوجات في الإسلام. ١٣ - حتى يعلم الشباب. ١٤ - الشباب المسلم في مواجهة التحديات. ١٥ - دور الشباب في حمل رسالة الإسلام. ١٦ - حكم الإسلام في وسائل الإعلام. ١٧ - حين يجد المؤمن حلاوة الإيمان. ١٨ - شبهات وردود حول العقيدة الربانية وأصل الإنسان. ١٩ - معالم الحضارة الإسلامية وأثرها في النهضة الأوروبية.

وغيرها من المؤلفات النافعة بالإضافة إلى المحاضرات والمقالات التي كان ينشرها في المجالات الإسلامية.

مرضه:

صارع شيخنا المرض قرابة ثلاث سنوات، فقد أصيب بمرض عضال في الدم إثر عودته من باكستان، وسافر إلى بريطانيا ليتّم العلاج، ففعل، ولكن بدون جدوى.

ومع حالته الصحيّة الحرجة أبى مُحَبّو الشيخ في بريطانيا إلا أن يستمعوا إلى محاضرة للشيخ، في مخيم صيفي، فلم يتأخر عن الاستجابة، وكان عنوان المحاضرة: (الشباب المسلم في مواجهة التحديات)، وصدرت فيما بعد في كتاب حافل واسع.

ورجع الشيخ إلى جُدة، فبدأت تظهر عليه الأمراض المتلاحقة حتى

ذبل عوده وتضاءل جسمه، وكان دائم التردد على العيادات الطبية طالباً المشورة والعلاج، ولكن نفسه لم تهئن ولم تضعف، بل بقي عالي المهمة متوثب العزيمة محافظاً على مهماته الدعوية، يقوم بمسؤوليته الاجتماعية، لا يعتذر عن قبول أية مناسبة يُدعى إليها، وحين يُطلب منه التحدث كان يتكلم وينفعل وينسى حالته المرضية التي لا تسمح له بإرهاق نفسه.

وأثناء المدة التي قضاها الشيخ - رحمه الله - راقداً في المستشفى، كان يخلع ثوب المستشفى، ويلبس ثيابه ويذهب إلى الجامعة لإلقاء المحاضرات، ثم يعود مرة أخرى إلى المستشفى ليتلقى العلاج من الأطباء، ويجوار سريرته ترتفع مجموعات من الكتب، فهو يجد السعادة في التأليف والنصح فيما ينفع الأمة ويرفع من شأنها.

وكان يضع (المخدة) أمامه، ويكتب فصولاً من كتاب سلسلة «مدرسة الدعاة» الذي كان قد بدأه قبل مرضه رغم نصائح الأطباء والمحبين بالابتعاد عن القراءة والكتابة، والإخلاد إلى الراحة، لكن نفسه الطموحة وهمة العالية تأبى أن تُلقي القلم من يدها مهما اشتدت وطأة الألم.

وفاته:

وكانت وفاته في الساعة التاسعة والنصف صباح يوم السبت الخامس من شهر محرم عام ١٤٠٨هـ، الموافق ٢٩ من آب / ١٩٨٧م في جدة بمستشفى جامعة الملك عبدالعزيز، وقد شُيع جثمانه يوم الأحد في السادس من محرم الموافق الثلاثين من آب، ونُقل من جدة إلى مكة، وصُلي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة العصر، ودُفن في مقبرة المعلاة، وشُيع الفقيد عددٌ كبير من العلماء والدعاة والإخوة والشباب والطلاب، كما ألقى بعض أربة الفقيد الكلمات المعبرة عن حبهم ومصابهم في فقيدهم العالم المربي الداعية رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه.



عمر بهاء الدين الأميري..

إلى رحمة الله^(١)

(١٣٣٧ - ١٤١٣هـ)

(١٩١٨ - ١٩٩٢م)



بقلم: الأستاذ باسل رفاعي

فقيه الأدب الإنساني والفكر الإسلامي:

بين غربة الروح وغربة المَوطن والديار، أمضى فقيه الأدب الإنساني والفكر الإسلامي عمر بهاء الدين الأميري سنّي حياته التي جاوزت الخمسة والسبعين مجاهداً ومكابداً ومُعْتَى، قبل أن يرحل عن ديار مساء الست الماضي إلى لقاء الله البر الرحيم.

ولادته وأسرته ودراسته:

وُلد الأميري عام ١٩١٥^(٢) في أسرة من كرائم الأسر بمدينة حلب السورية، فوالده محمد بهاء الدين نائب المدينة في «مجلس المبعوثان العثماني»، ووالدته ابنة رئيس محكمة الاستئناف فيها..

(١) جريدة الاتحاد الإماراتية (الملحق الديني) ١٩٩٢/٥١.

(٢) كتب الأستاذ باسل رفاعي بحثاً دقيقاً بعنوان: «الأميري ورحلة البحث عن شهادة الميلاد» ورجح أن يكون تاريخ ميلاده هو عام ١٩١٨م.

وبعدما أتمّ دراسته الثانوية، ارتحل إلى العاصمة الفرنسية ليدرس الأدب وفقه اللغة بجامعة «السوربون»، ثم عاد إلى موطنه ليدرس الحقوق كما تمنى له والده، وليتجه بعد تخرجه إلى تدريس علوم الاجتماع والنفوس والأخلاق والحضارة في جامعتي حلب ودمشق علاوة على عمله في المحاماة.

إسهامه في انطلاق العمل الإسلامي المعاصر:

وقد أسهم - رحمه الله - في انطلاق العمل الإسلامي المعاصر في سورية، وكان من الأعضاء المؤسسين لجماعة الإخوان المسلمين فيها، كما شارك في الدفاع عن القدس مع جيش الإنقاذ خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وقد مثّل بلاده سفيراً في دولة باكستان عام ١٩٥٠، وفي السعودية عام ١٩٥٤.

وفي عام ١٩٦٦ دُعي إلى المغرب، وعُيّن أستاذاً لكرسي الإسلام والتيارات المعاصرة بدار الحديث الحسنية بالرباط، كما دُرّس بجامعة الملك محمد الخامس بفاس، واستمرت إقامته هناك منفياً عن بلاده حتى أواخر أيامه، عاكفاً على الكتابة ونظم الشعر. . ينافح عن دين الله، وينفعل بقضايا أمته، ويُرفرف بروحه شوقاً لحضرة مولاه وهياماً بمُضْطَفّاه صلوات الله وسلامه عليه.

شاعر الإنسانية المؤمنة:

والأميري شاعر مفطور منذ بواكير عمره، بدأ نظم الشعر وهو في التاسعة، وعلى مدى هذا العمر المبارك طبع له أكثر من ثلاثين أثراً في الشعر والفكر والنثر، وتُرجم عدد منها إلى لغات عديدة، كما ألقت في دراسة شعره وأدبه أطروحات جامعية عدة، وقد اهتم في عطاءه بقضايا الثقافة والدعوة الإسلامية، وبالمعاني الوطنية، وبالمشاعر الإنسانية حتى لُقّب بشاعر الإنسانية المؤمنة.

ومن أشهر دواوينه المطبوعة: «مع الله»، و«أب»، و«أمي»، و«من وحي فلسطين»، و«حجارة من سجيل»، و«نجاوى محمدية»..

ومن أبرز مؤلفاته: «الإسلام وأزمة الحضارة المعاصرة»، و«الإسلام في المعترك الحضاري»، و«في الفقه الحضاري»^(١).

كتب الأميري رحمه الله بريشة الروح شعره، وخطَّ بمداد القلب ورعشات الفؤاد أحاسيسه وبَوحه، من رياض الحب الإلهي اغترف، وفي رحاب الجمال المبدع حطَّ وارتحل، وعند كل معنى من معاني النبض الإنساني توقَّف فأنشد، وبرغم اعتلال صحته أواخر سني حياته وتباطؤ دفع القلب لديه، واجتماع المحن والأدواء عليه إلا أنه لم يكف عن العطاء وعن الإبداع، حتى قضى نحبهُ^(٢) كما قدر الله وقضى، وصدى أبياته لا ينفك يتردد، وهو يقول:

إذا كف قلبه عن وجيب	ظلَّ حياً بباقيات عطائه
وإذا غيض في غيابة رَمْسٍ	طاول النجم روحه في علائه
فدعوني في الله أبذل نفسي	وأداوي قلبي به.. بشفائه
والذي في الإله.. في النور يفنى	يتجلَّى بقاءه في فنائه



(١) للأخ الكريم الباحثة الطَّلعة الأستاذ باسل رفاعي دراسة واسعة عن الأستاذ الأميري وتعريف بآثاره، ستصدر بعون الله تعالى قريباً.

(٢) انتقل أستاذنا الأميري إلى رحمة الله تعالى مساء السبت ٢٨/٣/١٤١٣هـ، الموافق ١٩٩٢/٩/٢٥، إثر عارض صحيٍّ لازمه في الأشهر الأخيرة، وأدخله أواخر أيامه حالة من الغيبوبة شبه التامة، حيث قضى نحبهُ في أحد مستشفيات الرياض. ونُقل جثمانه الطاهر إلى المدينة المنورة، ودُفن بالبقيع قريباً من قبر الإمام مالك بن أنس، وقد حضر تشييعه طائفة من أهل العلم، كان في مقدمتهم أستاذنا الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالى.

لمحات من حياة العلامة الشيخ
عبدالفتاح أبو غدة^(١) رحمه الله تعالى

(١٣٣٦ - ١٤١٧هـ)

(١٩١٧ - ١٩٩٧م)



بقلم تلميذه: مُجد مكي

هو العلامة المُحدث الفقيه الأصولي الأديب
الشيخ عبدالفتاح بن محمد بن بشير أبو غدة.

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد - رحمه الله تعالى - في مدينة حلب بسورية سنة ١٣٣٦هـ - ١٩١٧م،
ودرس في المدرسة العربية الإسلامية الخاصة الدراسة الابتدائية، ودرس في
المدرسة الخسروية التي أنشأها خسرو باشا - رحمه الله تعالى - بحلب، والتي
سُميت فيما بعد: الثانوية الشرعية، من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٤٢.

أبرز أساتذته في الثانوية الشرعية:

وكان من أبرز أساتذته فيها المشايخ: الشيخ محمد راغب الطباخ،

(١) مجلة الأزهر، العدد الأول من السنة السبعين: (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

وعيسى البيانوني، وإبراهيم السلقيني الجدّ، رحمهم الله تعالى، إلى جانب الشيخ محمد السلقيني^(١) والشيخ مصطفى الزرقا^(٢) مدّ الله تعالى في عمرهما بالعافية والسلامة، كما لازم الأستاذ الفقيه الحنفي المتقن الشيخ محمد الرشيد - رحمه الله تعالى - تلميذ العلامة الفقيه الكبير الشيخ محمد الزرقا، وابنه الفقيه الجليل الشيخ أحمد الزرقا والد الشيخ مصطفى الزرقا.

انتسابه إلى كلية الشريعة في الجامع الأزهر وأبرز شيوخه فيها:

ثم دخل كلية الشريعة في الجامع الأزهر بمصر في عام ١٩٤٤م، ومن أبرز من درّس له فيها المشايخ: الشيخ محمود خليفة، وعبدالرحيم الفرغلي، وعبدالرحيم الكشكي، ومحمد الخضر حسين التونسي، وعبدالحليم محمود، ومحمود شلتوت، وقد تولى ثلاثهم مشيخة الأزهر فيما بعد.

دراسته خارج الأزهر بمصر وأبرز شيوخه:

ودرس خارج الأزهر على الشيخ عبدالله بن الصديق الغماري، وحضر محاضرات الأساتذة عبدالوهاب خلاف، ومحمد أبو زهرة، وعبدالوهاب حمودة - رحمهم الله تعالى -، وكانت له تلمذة خاصة لشيخ الإسلام مصطفى صبري، ولوكيل شيخ الإسلام الشيخ محمد زاهد الكوثري - رحمهما الله تعالى -، لازمهما لمدة ست سنوات ملازمة تامة.

وتخرج في عام ١٩٤٨ حائزاً على الشهادة العالية من كلية الشريعة، ثم درس في "تخصص أصول التدريس" في كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر - أيضاً - لمدة سنتين، وتخرج سنة ١٩٥٠م.

تدريسه في ثانويات حلب وتأليفه كتباً منهجية دراسية:

وبعد عودته لسورية عمل مدرساً بوزارة المعارف لعام ١٩٥١م، ودرس

(١) توفي يوم الأربعاء ٢ صفر ١٤٢٢ الموافق ٢٥/٤/٢٠١٠م.

(٢) توفي يوم السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠ الموافق ٣ يوليو ١٩٩٩م.

لمدة إحدى عشرة سنة في ثانويات حلب مادة التربية الإسلامية كما درّس العلوم الشرعية المختلفة في المدرسة الشعبانية والثانوية الشرعية التي تخرج فيها، وألّف خلالها ستة كتب دراسية للمرحلة الثانوية بالاشتراك مع الأستاذ الشيخ أحمد عز الدين البيانوني - رحمه الله تعالى -.

انتخابه في المجلس النيابي وانتدابه للتدريس في كلية الشريعة بدمشق:

ثم انتُخب عضواً في المجلس النيابي بسورية في سنة ١٩٦٢ للمدة التي سمحت الظروف السياسيّة فيها ببقاء المجلس النيابي، ثم انتدب للتدريس في كلية الشريعة بجامعة دمشق، فدرس فيها لمدة ثلاث سنين: الفقه الحنفي وأصول الفقه والفقه المقارن بين المذاهب، ثم قام بعدها بإدارة (موسوعة الفقه الإسلامي) في كلية الشريعة بدمشق لنحو سنتين قام خلالها بإتمام وإنجاز كتاب (معجم فقه المحلي لابن حزم)، وكان قد سبقه إلى العمل فيه بعض الزملاء، فأتمّه وأنهى خدمته، وطبعته جامعة دمشق في ضمن مطبوعاتها في مجلدين كبيرين.

رحلته إلى الهند وباكستان وكثرة شيوخه:

ورحل لمدة نحو ثلاثة أشهر رحلة علميّة شخصيّة خاصّة إلى الهند وباكستان سنة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م والتقى بأجلّة الشيوخ والعلماء في تلك الديار من أمثال المشايخ: الشيخ محمد شفيع مفتي باكستان، والمفتي عتيق الرحمن كبير علماء دهلي بالهند، وأبو الوفاء الأفغاني رئيس دائرة المعارف النعمانية، رحمهم الله تعالى، ويبلغ عدد شيوخه الذين لقيهم وأخذ عنهم واستجاز منهم أكثر من مئة وخمسين شيخاً.

انتقاله إلى السعودية وتدريسه في جامعة الإمام محمد بن سعود:

وفي سنة ١٣٨٥ تعاقد مع كلية الشريعة بالرياض التي غدت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لاحقاً، ودرّس فيها وفي المعهد العالي للقضاء، ثم درّس نحو عشر سنوات في الدراسات العليا في كلية أصول

الدين من الجامعة نفسها للحديث الشريف وعلومه، وكان عضواً في المجلس العلمي فيها، وبقي يعمل مع جامعة الإمام مدة ثلاث وعشرين سنة إلى عام ١٤٠٨، ولقي فيها من إدارة الجامعة ومنسوبيها كل تكريم وتقدير.

تعاقدته مع جامعة الملك سعود بالرياض:

ثم تعاقد مع جامعة الملك سعود بالرياض فدرّس علوم الحديث في كلية التربية لمدة سنتين لطلاب السنة الأخيرة من الكلية وفي الدراسات العليا، ثم تقاعد عن التدريس في ١٤١١.

مشاركته في وضع مناهج دراسية:

وشارك في وضع مناهج وخطط دراسية في سورية، ثم في مناهج المعهد العالي للقضاء، وكلية الشريعة في جامعة الإمام الإسلامية.

انتدائه أستاذاً زائراً لعدد من الجامعات:

وانتدب أستاذاً زائراً للتدريس في جامعة أم درمان الإسلامية في السودان لعام ١٣٩٦، وأستاذاً زائراً لليمن عام ١٣٩٨، وأستاذاً زائراً عام ١٣٩٩ لجامعة ندوة العلماء في «الكنو» بالهند التي يرأسها سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي.

وانتفع بعلمه الآلاف من التلاميذ وطلبة العلم في حلب وجامعات دمشق والرياض والهند وباكستان والسودان واليمن وغيرها.

مشاركاته في عدد من المؤتمرات والندوات:

وشارك في مؤتمرات وندوات كثيرة جداً في سورية والعراق واليمن وقطر والمغرب والسودان والهند وباكستان وتركيا وأندونيسيا وأفغانستان وطشقند وسمرقند، وفي أوروبا وأمريكا وكندا وغيرها.

خدماته العلمية وعضويته في عدد من المجامع العلمية:

وله من الخدمات العلمية والآثار المطبوعة ما بين محققات ومؤلفات

أكثر من ٧٠ كتاباً في الحديث والمصطلح والرجال والفقه والأخلاق والتاريخ.

هذا، والأستاذ أبو غدة - رحمه الله تعالى - إلى جانب هذه الآثار التي خدمها تأليفاً وتحقيقاً وطبعاً وإخراجاً: عضو في المجمع العراقي في بغداد، وعضو في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، ونال جائزة سلطان بروناي لخدمة الحديث النبوي الشريف في عام ١٤١٥هـ، وكان أول من منح الجائزة.

مرضه ووفاته:

أجهدَ الشيخ - رحمه الله تعالى - نفسه في نشر العلم وتحقيق الكتب النادرة، حتى ضُغِفَ بصره، وأجريت له عملية جراحية في مستشفى العيون التخصصي بالرياض في شعبان ١٤١٧هـ ضعفت صحته على إثرها، ونُقل إلى مستشفى الملك فيصل التخصصي في أواخر رمضان، وتوفي سحر ليلة الأحد التاسع من شوال سنة ١٤١٧هـ، وصلى عليه جَمْعٌ حاشد من طلابه ومحبيه في مسجد الراجحي بالرياض بعد صلاة الظهر يوم الاثنين العاشر من شوال، ثم نُقل إلى المدينة المنورة بطائرة خاصة أرسلها سمو الأمير سلطان بن عبدالعزيز جزاه الله خيراً، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة العشاء في المسجد النبوي الشريف، وشيَّعه مئات المحبين الذين توافدوا إلى المسجد النبوي الشريف من شتى أنحاء المملكة، ودُفن في البقيع بجوار سيدنا رسول الله ﷺ الذي أمضى عمره في خدمة سنته، وبجواره أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - الذين أحبهم ونشر فضائلهم.

وبموت فضيلة الشيخ تنطوي صفحة مضيئة مشرقة من صفحات العلم التي تُذكر بعلماء السلف في علوِّ الهمة والحرص على الزمن، والصبر على طلب العلم وتحصيله.

رحمه الله رحمةً واسعة، وعوِّض المسلمين خيراً، وجمعنا به في مستقرِّ رحمته.

العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة^(١)
 قلّ نظيره في علمه وأدبه
 (١٢٣٦ - ١٤١٧هـ)

(١٩١٧ - ١٩٩٧م)

- ١ -

بقلم تلميذه: حسن قاطرجي



لمحات من علمه وأدبه:

بادئ ذي بدء أعْتذر من الله - جلّ جلاله -
 عن الحديث أو الكتابة عن سيدي الشيخ
 رحمه الله، وما أصدق كلمة الإمام الحُجّة البحر
 أحد القُرّاء السبعة أبي عمرو بن العلاء البُصري
 - مع أنه من التابعين - : «ما نحن فيمن كان قُبُلنا
 إلا كَبَقُل في أصول نخل طِوال» والتي سمعتها
 من الشيخ رحمه الله أكثر من مرة في سياق

المقارنة بين العلماء في العصور المتأخرة وبين علماء السلف الصالح. وأنا
 أحقّ بها وأجدر في مقامي من سيدي الشيخ تغمّده الله برضوانه وأنزل عليه
 شأبيب رحمته.

(١) نشرت بتاريخ: ٢٠٠٧/١/١٩م، في موقع: (الإسلام في سورية)
www.islamsyria.com، ونُشرت من قبل في مجلة «منبر الداعيات» البيروتية.

أولاً: أكتب بعض ما أعرفه عن شيخنا رحمه الله وفي النفس حسرةً جامحة على جسارة الخسارة التي أَلَمَّتْ بالعلم وبالعالم الإسلامي وليس ذلك من باب التوقف في قبول قضاء الله تعالى، معاذ الله، ولكنه أولاً للشعور الطبيعي عند فقد الأعزاء. وثانياً: لأن خسارته ليست خسارة شخصية ولكنها خسارة عامة سرعان ما يحتاج الخاطر بحلولها ظلال نبوءات الرسول ﷺ: «... حتى إذا لم يبقَ عالمٌ اتخذ الناس رؤساءً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»، و«بين يدي الساعة سنون خداعة... يتكلم فيها الرؤيضة: النافه يتكلم في أمر العامة».

إنني أستطيع أن أقول من خلال صلتني المباشرة بالشيخ والتلمذة عليه ومرافقتي له وصحبتني لشخصه الكريم طيلة ثلاث سنوات أثناء دراستي في كلية أصول الدين - قسم السنة وعلومها، بالرياض - فضلاً عن صلة المراسلة والتعلق بكتبه منذ ما يزيد على (١٥) سنة، أستطيع أن أقول: لئن كان الشيخ رحمه الله يشاركه غيره من أهل العلم والدعاة في بعض الخصال بل ربما تميّز عنه بعضهم ببعض الجوانب العلمية أو الدعوية أو القيادية أو السياسية إلا أن سيدي الشيخ في تقديري قل نظيره في تعلقه بالعلم واحترافه في تحصيله والحرص على إتقان تحقيقه وفي حرصه على الأوقات بل اللحظات لئلا تضيع في غير العلم، كما أنه رحمه الله قل نظيره في أدبه حتى إن المعاشر له ليتعلم من أدبه تماماً كما يتعلم من علمه. وفي هذين الجانبين سألهم كلامي عنه رحمه الله عليه مع الحاجة الملحة إلى ترجمة شاملة لحياته، واستعراض عام لمراحل سيرته، ودراسة تقويمية معمقة للجوانب الأخرى من نشاطه في المجالات الدعوية والاجتماعية والسياسية، مما يتطلب تضافر جهود عدد من عارفه وإخوانه وأقاربه وتلامذته. وسيظل هذا الجهد أمانة ثقيلة في أعناقهم لا يُعفيهم منها إلا أداؤها.

شواهد تفوّقه في العلم:

كثرة شيوخه:

ومما يشهد لقوة تعلقه بالعلم وتفوّقه في تحصيله كثرة شيوخه الذين تلقى عنهم فقد بلغوا (١٨٠) شيخ على ما أحصاه الأخ الشيخ محمد الرشيد

النَّجْدِي - أحد خواص تلاميذ الشيخ - في كتابه «إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبدالفتاح»، علماً أنهم يتوزعون على مساحة جغرافية مترامية الأطراف من بلاد الشام إلى مصر إلى الحجاز واليمن والهند وباكستان والمغرب، وهذا نادر جداً في عصرنا.

كثرة الكتب التي خدمها:

كما أنه يشهد لذلك كثرة الكتب التي خلفها - ما بين تحقيق وتأليف - فقد بلغت حوالي ٧٠ كتاباً من العلم المصنّف المُحقّق الموثّق وليست مجرد كتب إنشاء، وحتى في رسائله الصغيرة مثل «السنة النبوية وبيان مدلولها الشرعي» أو «منهج السلف في السؤال عن العلم وفي تعلّم ما يقع وما لا يقع» أو في مقدماته لكتب غيره مثل مقدمته الحافلة لكتاب «التعليق الممجّد» أو مقدمته لكتاب «شرح القواعد الفقهية» لا يأتي إلا بالمتع النافع مع التحقيق والتدقيق والإتقان. ولا يخفى على المتتبع لكتبه أنه خصّ عدداً غير قليل منها في موضوعات العلم وتراجم العلماء مما يترجم أصدق ترجمة أحاسينه نحو العلم وشدة تعلقه به وحرّفته على تحصيله، وهي:

- ١ - «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»،
- ٢ - و«العلماء العُزّاب الذين آثروا العلم على الزواج»، ٣ - و«قيمة الزمن عند العلماء» والذي ذكر في مقدمته أنه حصيلة (٢٠) سنة من المطالعة والتجميع والانتخاب وأصله كلمة لمدة عشر دقائق ضمن محاضرة مشتركة دعت إليها كلية الشريعة بالرياض!!، ٤ - و«منهج السلف في السؤال عن العلم»، ٥ - و«الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم»، ٦ - و«تراجم ستّة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري».

حرصه على اقتناء الكتب ومعرفته الواسعة بمخطوطها ومطبوعها:

ويلمس كلّ من يعاشر الشيخ أن له حُرقة نادرة قلما نجدها عند كثير من العلماء فضلاً عن طلبه العلم على اقتناء الكتب ممّا جعله أحد المراجع المهمة في العالم الإسلامي في معرفة الكتب مخطوطها ومطبوعها، ولقد

رافقته في بعض الزيارات إلى بعض المعارض وعاينت بنفسي نهمة على اقتناء الكتب حتى ولو كانت عنده إذا اختلفت طبعاتها.

والجدير ذكره أنه يحرص على اقتناء الكتب في مختلف فروع الثقافة الإسلامية والعامة، ومن يقرأ في مقدمة كتابه «صفحات من صبر العلماء» كلامه عن عجائب المخلوقات والكتب المؤلفة في ذلك والأخبار التي التقطها من مصادر شتى يدهش لهذا التنوع والغزارة والتتبع عنده رحمه الله ونفع بعلمه. كما أن له قصة من أطرف القصص وأغربها وأدّلها على ولعه بكتب العلم مع كتاب «فتح باب العناية» سجّلها في مقدمة تحقيقه للجزء الأول منه كما سجّلها الدكتور السباعي رحمه الله في الجزء الثاني من كتابه «القلائد من فرائد الفوائد» جديرٌ بكل طالب علم أن يقرأ خبرها لعلها تكون مہمازاً له.

مكتبته الضخمة:

وبهذه الحرقة وهذه الثهمة تكونت للشيخ مكتبة ضخمة قل أن يملك مثلها أفراد، وقد ذكر أحد أعرف تلاميذه به فضيلة شيخنا الأستاذ محمد عوّامة - فيما كتبه عن الجانب العلمي في حياة الشيخ رحمه الله وأرسله إلي مشكوراً - أن إذاعة الرياض أجرت معه رحمه الله قبل نحو عشرين سنة مقابلة، سئل فيها عن مكتبته فصّح بعد إلحاح أنها تضم عشرين ألف مجلد!! . هذا في ذلك الوقت فكم يُقدّر حجمها الآن؟!

حرصه على تحقيق مسائل العلم وإتقان البحث:

وممّا يتصل بحب الشيخ للعلم وتفوّقه في تحصيله حرصه على تحقيق مسائله وإتقان البحث فيها والتدقيق في تجليتها وضبطها مما يُهمله كثير من العلماء في عصرنا - للأسف الشديد - ثم لا تقف ظاهرة الإهمال هذه عند حدّ التهاون في ضبط الكلمة وتحقيق معناها، بل تتعدّاه إلى التهاون في الفتاوى وتحقيق الحكم الشرعي فيقع الناس في الخبط وتكثر الفوضى في العلم. أما سيدي الشيخ رحمه الله فيكتب صفحات طويلة مثلاً - وهي عندي بخط يده الجميل المنسّق المرتّب - في الفرق بين الوهم والوهم، وكذلك

كتب صفحات طويلة في كتابه «الإسناد من الدين» من ص ٥١ إلى ص ٧٤ من أجل تتبع التحريف الذي وقع في كلمة واحدة فقط من عبارة للإمام عبدالله بن المبارك في فضل الإسناد، ونجد هذا النفس في الاستقصاء والتتبع فيما كتبه ابتداءً في تعليقه ثم أخرجه في رسالة حول مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل.

تحسسه لأمانة العلم:

ولقد شهدت هذه الحادثة الدالة على علو همته وتحسسه لأمانة العلم، وهي أنه رحمه الله أثناء حضورنا عليه قراءة كتاب «شرح ألفية العراقي» غاب مرتين متتاليتين بسبب السفر ثم حضر في المرة الثالثة فأخبرنا رحمه الله - وهو مَنْ هو في علم المصطلح - أنه حضر الدرس قبل مجيئه إلينا للمرة الثالثة!! وما كان للشيخ رحمه الله تعالى - في ظني - لِيَتَأْتِيَ له ذلك كله لولا توفيق الله الذي هو مفتاح الخير كله ثم حرصه البالغ على استثمار الوقت، وهو ما يُفسر نبوغه وتفوقه وكثرة إنتاجه، مع الأخذ بالاعتبار مشاغل الشيخ الدعوية ومسؤولياته التنظيمية في العمل الإسلامي مما لا نجده عند السواد الأعظم من المشتغلين بالعلم حيث يعتزلون العمل الدعوي ويتخففون من حمل هموم المسلمين للأسف الشديد، بل لقد كان رحمه الله صارماً في استثمار وقته صرامة وصية الشاعر:

كُنْ صارماً كالوقت فالمثْتُ في (عسى) وإياك (علاً) فهي أخطر علة

استفادته من وقته:

وحياته رحمه الله ترجمة صادقة لما كتبه في كتابه النافع الماتع: «قيمة الزمن عنده العلماء» الذي يجدر بكل عالم وطالب علم أن ينكب على قراءته والتمعن فيه مرة بعد مرة، كما يجدر بكل مسلم اقتناؤه وقراءته ليتعرف على سر عظمة الحضارة الإسلامية وليفهم لُغز تفوق علماء السلف وفضلهم على الخلف.

والشيخ في مجال استفادته من وقته في الانكباب على العلم نادرٌ عَجَاب، فما دخلت عليه مرة إلا كان موضوع الجلسة (العلم) قراءة أو

مناقشة أو مذاكرة، وكثيراً ما كنت أدخل إلى غرفته والكتب التي يشتغل بها مفتوحة مفروشة مملوءة بها الغرفة.

ولقد حدثني الأخ المحامي الطبيب الدكتور فؤاد العريس أنه قبل سنوات وكان لا يزال يتخضص في الطب في باريس جاء الشيخ رحمه الله إليها للمعالجة في عيونه وكان معه أستاذه العلامة الفقيه الشيخ مصطفى الزرقاء، فكان الأخ يرافق الشيخ أحياناً إلى المركز الطبي وفي السيارة يُخرج الشيخ كتاباً ويسلمه إياه ويطلب منه أن يقرأ له بسبب ضعف بصره، بل أعجب من ذلك أنه أثناء معاينته للجهاز الذي كان يبحث عنه لاقتنائه - وكان من مزاياه أنه تُدخل فيه الورقة فيُكَبَّر حروف كلماتها أضعافاً مضاعفة - كان رحمه الله ينتهز الفرصة كلما واثت فيُخرج الكتاب ويدخله في الجهاز ويستفيد ولو من لحظات للقراءة فيه.

مزايا علمه:

المزية الأولى: سَعته وتنوعه، ولقد جاء في ثانيا كلامي ما يدل عليها.
المزية الثانية: حرصه على التحقيق والإتقان فيه، ولقد ذكرت العديد من الأمثلة على ذلك.

لاسيما تفوقه في علم مصطلح الحديث وتجديده، فلقد كان للشيخ رحمه الله اهتمام خاص بهذا العلم ذلل صعابه وخاض في عويص مسائله وحل معضلاته، وما تهيب من تحقيق أصعب المسائل فيه.

ولقد عشت حوالي شهر مع آخر كتاب حققه الشيخ رحمه الله في هذا العلم ونشره العام الماضي وهو من أوسع كتب المصطلح وهو كتاب «ظفر الأمانى» للإمام اللكنوي، وقبله كتاب العلامة طاهر الجزائري «توجيه النظر إلى أصول الأثر» حيث كلفني الشيخ بقراءتهما قبل دفعهما للطباعة فأتى الشيخ فيهما بكل ظريف طريف وضمنهما تحقيقات مائة رائعة مُدهشة تشهد لرسوخه في هذا العلم وإتقانه له. ومما يدل على ذلك أيضاً أنه حقق (١٢) كتاباً من كتب هذا العلم و(١٢) رسالة، كما أَلَف هو في بعض مباحثه كتاب «لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث» بالإضافة إلى أربع رسائل متنوعة في علوم الحديث.

المزية الرابعة: إنصافه واستفادته من الجميع، فهو غير متعصب إلا لما يراه صواباً، ويحرص على أن يدور مع الحق والدليل حسبما يرى، ولذلك أخذ من شيوخ مُتَعَدِّدي المشارب العلمية. ولكنه مع إنصافه لا يُحابي في دين الله ولكن بأدب جَمٍّ وتواضع مع شيوخه وإخوانه وكالأسد الهصور مع أعداء الدين. فنجده يخالف شيخه العلامة مصطفى الزرقاء في بعض الفتاوى مع أنه شديد الاعتداد به والإعجاب بعقليته، ونجده يخالف شيخه العلامة محمد زاهد الكوثري في جفوته لابن تيمية وابن القيم ويحقق رسالتين للأول وكتاباً للثاني بإعجابٍ بهما وثناء، وترخُّم عليهما مع أنه يخالفهما في عدد من المسائل في الأصول والفروع، ولا تخفى منزلة الكوثري رحمه الله عنده وأثره فيه. وحدثني مراراً عن بعض تساهلات العلامة الفقيه القرضاوي في فتاواه، وأنه في أحد المؤتمرات ردَّ عليه علناً في مسألة مصافحة المرأة حيث يُجيزها القرضاوي مع أنهما من مدرسة فكرية وحركية واحدة. كما نجد أنه في سياق إشادته بشيخه العلامة المحدث أحمد شاهر في مقدمة تحقيقه لكتاب «تصحيح الكتب وصنع الفهارس» يبيِّن في التعليقة أنَّ شيخه بجانب للصواب في كتابه «نظام الطلاق في الإسلام».

وفي المقابل يكتب بلغة صارمة ضدَّ مفسدي الدين وأعدائه فيتحدث - مثلاً - في كتابه «المحات» عن المُتَمَلِّقين للحكام بالباطل في كل عصر ومِصر، وأنهم مرض وخيم في جسم الأمة وبلاء عظيم في حياتها وقال فيهم: فاقدو الذمة، في دينهم رِقَّةٌ وضَعْف، يحبون دنياهم ويؤثرونها على دينهم... ويقدمون لهم - بحسب ذمتهم - من النصوص الشرعية ما يؤيدهم فيما هم عليه من ظلم أو لَهو أو بطالة أو فساد.

وفي ثنایا ترجمته الحافلة الواسعة لعبقري الزمان والمدافع عن الإسلام في وجه الكمالية العلمانية: سعيد النُّوزسي، وذلك في كتابه «العُزَاب» رمى رحمه الله سهامَه الحادة صوب صدر الطَّاغوت آتاتورك - كما وصفه - والكماليين والعلمانيين. فجزاه الله عن أدبه وإنصافه خيراً وعَوَّضه عن غيِّره وكفاحه من ثواب المجاهدين دُخْراً.



العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة قلّ نظيره في علمه وأدبه

- ٢ -

بعد الكلام عن علم شيخنا - رحمه الله وأثابه رضاه - أتحدث في هذا المقال عن أدبه الجَمّ الذي يستذكر به جليسه سيرة وأخلاق الصالحين من السلف الكرام رضي الله تعالى عنهم.

وأنا لا أتحدث عن مستوى من الأدب الذي لا بد أن يتوفر في العلماء والدعاة، وإنما أتحدث عن مستوى مُتفوّقٍ فريدٍ قلّ نظيره بين علماء عصرنا - فيما أعلم ولا أزكّي على الله أحداً - إلى الحدّ الذي يأسر به الشيخ رحمة الله عليه جليسه ويأخذ بمجامع إعجابه فينتقل إلى عالم آخر لا نعهده حتى في مجالس كثير من العلماء فضلاً عن مجالس مشايخ السوء الذين لا هم لهم إلا النفاق والتزلف ولا حديث لهم إلا في المناصب والمكاسب.

وينطبق على سيدي الشيخ رحمه الله ما كتبه هو في إحدى تعليقاته الحافلة المغذية المُحفّزة على «رسالة المسترشدين» للإمام المحاسبي - ص ١٠٢ من الطبعة الثامنة - حيث يقول: «ورؤية الرجل الصالح القدوة إنما تذكر بالله، لما يرى عليه من النور والإشراق، والأنس والطمأنينة، والمحبة والسكينة، في سمته وهيئته وخشعته، في نطقه وصمته وإطراقه وحركته وسكونه وكل شؤونه، فلا ينظره ناظر إلا كان نظره إليه مُذكّراً له بالله، وكانت صورته مُوجّهة له للإقبال على الله، أولئك الذين إذا رؤوا ذكر الله».

وكلُّ مَنْ رأى الشيخ رحمة الله عليه يعرف أنه مَهيبُ الطلعة، ناهضُ القامة، مُنَوَّرُ الوجه، كَسَاهُ الشَّيْبُ إشراقاً ووقاراً، وانعكس اشتغاله بذكر الله وإجلاله وتعظيمه على وجهه صفاءً واستبشاراً، ولا أبالغ إذا قلت: إنه رحمه الله تُذَكَّرُ بالله رؤيته ويُنْهَضُ بجلисه حاله ومقاله.

اعتناؤه التام بالأدب تعليمًا وتطبيقًا:

ولقد تأتى للشيخ رحمه الله ذلك من اعتناؤه التام بالأدب حتى لكأن (الأدب) يتقاطر منه، وليس هذا الكلام من قبيل المبالغات والمجازفات فلست - بفضل الله تعالى - ممن يحب المبالغات في حق الشيوخ ولا ممن يقدسونهم، بل أذكر ذلك وأرى أن هذه النظرة من قبل بعض طلاب العلم وتلاميذ الشيوخ انحراف عن سنن التربية الإسلامية، ومؤشر للتخلف وللجمود والانهازمية، يستغلها تجار المشيخة أبشع استغلال في تعظيم ذواتهم أو الانحراف بتلاميذهم في الولاء للباطل وتمجيد الطواغيت.

واعتناؤه التام بالأدب يظهر فيما بثه في كتبه العديدة من الإشادة بأدب السلف وسرد حكايات أدبهم، ومن يلحظ هذا الجانب من اهتمام الشيخ رحمه الله يشهد لبراعته ومهارته في انتقاء روائع أخبار أدب العلماء والصالحين.

فالشيخ رحمه الله كتب رسالة مائة ممتعة بعنوان (من أدب الإسلام) ضمَّنْها جملة من الآداب، وقال في أوائلها: «وهذه الآداب المذكورة هنا من لباب الشريعة ومقاصدها، فليس معنى تسميتها (آداباً) أنها على طَرَف الحياة والسلوك يُخَيَّر الإنسانُ في فعلها وتركها، أو الأولى فعلها. قال الإمام القرافي في كتابه «الفروق» وهو يتحدث عن موقع الأدب من العمل وبيان أنه مقدَّم في الرتبة عليه: واعلم أن قليل الأدب خير من كثير من العمل، ولذلك قال رُويم - العالم الصالح - لابنه: يا بُنَيَّ اجعلْ عملك ملحاً وأدبك دقيقاً. أي: استكثر من الأدب حتى تكون نسبته في الكثرة نسبة الدقيق إلى الملح في العجين».

فأين هذا مما عليه أهل الأهواء المنافقون الذين ينسُبون أنفسهم إلى العلم ويتظاهرون بالحرص على نشر العلم الضروري!! وهم محرومون من بهاء العبادة وبركة الالتزام بالسُّنة وفقه (الولاء والبراء) ولا أدب عندهم مع العلماء، بل دأبهم التناول عليهم وتكفير أهل السابقة منهم في ميدان الجهاد وقول الحق وجرأة المناداة بتحكيم الشريعة الإسلامية.

وكذلك له - رحمه الله - كنوز منثورة من حكايات الأدب الرفيع والخلق النبيل عن الصالحين والعلماء الربانيين تطفح بها تعليقاته على «رسالة المسترشدين» للإمام المُرَبِّي الحارث المحاسبي، بالإضافة إلى اعتناؤه بنشر قصيدة (عنوان الحكَم) لأبي الفتح البُستي وهي من عُرَر القصائد في الآداب والأخلاق والنصائح الحكيمة الغالية. هذا كله من حيث الاعتناء بالتعليم، أما التطبيق فيظهر في شخصية الشيخ في مختلف جوانبها:

١ - أدبه مع الله تعالى:

في كثرة ذكره له سبحانه وتعالى، حتى إنني أتذكر الآن أثناء كتابتي هذه السطور تلك الأوقات المباركة التي كنتُ أقضيها معه أثناء اصطحابه رحمه الله تعالى في بعض الأحيان بسيارتي من (الدُّخنة) إلى مكان الدرس في (العُلَيَّا) في الرياض أثناء حضوري عليه قراءة: (ترجمة الإمام مسلم) من سِير أعلام النُّبلاء للإمام الذهبي، ثم (مقدمة صحيح مسلم)، ثم (مقدمة ابن الصلاح)، ثم (شرح ألفية العراقي)، فكان - رحمه الله وأغدق عليه رضوانه - إذا لم نتباحث بالعلم يلهج لسانه بالأذكار ولا يَفُتِّر عن الثناء على الله وتعظيمه. وتعبيراً عن حرصه على الأدب عند ذكر الله تعالى كتب تعليقة طويلة على «رسالة المسترشدين» - ابتداءً من الصفحة ١١٢ من الطبعة الثامنة - حول أدب ذكر الله والتحذير من بدع الذكر والتي منها بدعة أولئك الذين «يذكرون اسم الله سبحانه، في أولِ دَوْرانِ حلقاتهم بلفظ هادئ، مفهوم ثم يسرعون بالذكر والخلع والوثب حتى لا يُفْهَم عنهم ما يقولون! فما هي إلا أصوات تنخفض وترتفع، وأنفاس مبهورة تشتد وتندفع وترتفع، وأنفاس

مبهورة تشتد وتندفع، وهمهمة تتردد، وحركات تتجدد، ويعذون ذلك ذكراً لله! فإننا لله - من قلة الأدب مع الله - وإنا إليه راجعون» كما قال بالحرف رحمه الله تعالى.

بالإضافة إلى بكائه إذا ذُكر بالله أو غيره على حُرُمات الله أو إذا سمع كلمات مدح وثناء. والذي يعرف الشيخ رحمه الله تعالى لا يستغرب وصفي له بأنه (بكاء سريع الدمعة)، وفي ذاكرتي العديد من الذكريات ولكن أقصر هنا على قصتين:

الأولى: عندما حضرت شريط فيديو تكريمه الذي حصل في (اثنيتية) السري الحجازي عبدالمقصود خوجة بتاريخ ١٤/١١/١٤١٤ في جدة استمعت إلى قصيدة لشاعر المدينة المنورة - الحلبي الأصل - محمد ضياء الدين الصابوني يُعَدِّد فيها مزايا الشيخ ويُثني عليه وعلى مقامه العلمي الرفيع حتى شبهه بالإمام أبي حنيفة، فما كان من الشيخ رحمه الله إلا أن انفعل وغضب وأبدى بعد إلقاء القصيدة عدم رضاه عن هذا التشبيه وأنه دون ذلك بكثير واغرورقت عيناه بالدمع. لا مستهما النار إن شاء الله، اللهم آمين.

والثانية: ما قرأته في الحوار الذي أجرته مجلة المجتمع معه قبل وفاته - طيب الله ثراه وجعل الجنة مُتَقَلِّبُهُ وَمَثْوَاه - ثم نُشِرَتْهُ في ٢٥ شوال/ ١٤١٧هـ، العدد ١٢٤٠، حيث نقل محاوره كلامه رحمه الله عن أحد الحُكَّام الصالحين وهو الملك نور الدين الذي كان يُدني العلماء من مجلسه كل يوم ويُقرأ الحديث فيه، ولَمَّا حُوصِرَتْ مدينة (دمياط) من قِبَل الفرنج وكان في مجلسه صديقُه العالم المحدث عمر بن بدر الموصلي رحمه الله، فقرأ عليه الحديث المسلسل بالتبسم - أي: كل من رواه من الرواة تبسم فصار مُسَلْسَلاً بالتبسم - وطلب هذا العالم من الملك أن يتبسم حتى يستمر تسلسل التبسم في الحديث. قال له الملك: لا أتبسم! فسأله: لماذا؟ قال: كيف أتبسم و(دمياط) مُحَاصِرَةٌ من الفرنج؟!!

هنا قال محاوره الصحفي: تأثر الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله

بموقف الرواية وسال دمه!! فسبحان الله! ما أندر هؤلاء العلماء الصالحين الغياري على دين الله! وما أفدح خسارتهم! أما موتى القلوب وعبيد المناصب الذين لا يَنبُض منهم عِزٌّ غَيْرَةٌ على دين الله فما أحرأهم بالاستيقاظ من غفلتهم. وأما أنت يا سيدي الشيخ فطِبْ مُقاماً في مثواك المبارك قرير العين.

تحريه الشديد في العبارات التي تقال في جَنب الله:

ومن شواهد أدبه مع الله: تحريه الشديد في العبارات التي تُقال في جَنب الله عزَّ وعلا، حتى كتب مقالة مشهورة منشورة في مجلة الأمة القطرية بعنوان (تعبيرات خاطئة في جنب الله) تتبَّع فيها بعض الأخطاء الشائعة في كتابات بعض العلماء والكتاب ممَّا لا يليق بالله تعالى، كما أنَّ له فتوى مشهورة - ألحقها بكتاب رسالة المسترشدين - في عدم مشروعية قول الذاكر: «الحمد لله حمداً يُوافي نِعَمه ويُكافي مزيده» لأنه لم يثبت نقلاً ولا يصح معنى إذ ليس أحد من الناس يكون حَمْدُهُ بالغاً نِعَم الله عليه ولا مكافئاً لمزيد فضله إليه.

تنبيهه إلى كلمات لا يجوز أن تقال في حقِّ الله تعالى أو رسوله ﷺ:

وبالمناسبة ونصيحة للقراء والقارئات أنبئه إلى أنه لا يجوز قول: العصمة لله، وإنما نقول: الكمال لله، أما العصمة فهي للأنبياء، ولا يجوز قول: عدد كمال لله، كما أفتى بذلك عدد من كبار محققي العلماء، وكذلك لا يجوز قول: أعشق الله أو رسول الله، علماً أن (العشق) لم يرد في القرآن ولا في كتب الحديث الستة ولا في مسند الإمام أحمد إلا في موضع واحد فيه في حقِّ العابد الذي عشق امرأة.

٢ - أدبه مع العلماء:

والشيخ مؤدَّب غاية الأدب مع العلماء، وعلى رأسهم سيّد العلماء سيدنا محمد ﷺ، ثم أصحابه السادة العلماء، ثم علماء السلف رضي الله عنهم، وما أروع ما كتبه وقرره في رفعة مقام النَّبِيِّ ﷺ وشرف منزلته

وعدالة صحابته وتأثرهم بتربيته في تعليقه على «رسالة المسترشدين» - ص ١٨ و ١٩ - وأسهب فيه في كتابه «لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث» - من ص ٣٣ إلى ص ٥٥ من طبعة دار البشائر الإسلامية الرابعة الجديدة -، فليقرأ فإنه من العلم النافع والتحقيق النادر.

ويقول رحمه الله في تعليقه اكتساب الصحابة الكرام الصلاح والأدب والتقوى من جزاء ضحبة النبي ﷺ: «إذا رأى أحدنا في هذه الأزمنة المتأخرة عالماً صالحاً تقياً صارت رؤيته له - ولو لحظة أو دقائق معدودة - غذاء يتطعمه يتمطق بطعمه طول حياته، ويدفعه إلى الخير والطاعة كلما ذكره، فكيف برؤية سيد الخلق والأنبياء والمرسلين ﷺ فداءه أبي وأمي. وإنما أطلت بعض الشيء في بيان فضل (الضحبة الشريفة) لأن هذا الموضوع - بتكدر العقول والقلوب بالأفكار الضالة - صار ضامراً في أذهان بعض الناس اليوم فافتضى مني الإطالة» انتهى كلامه رحمه الله. وكتابه الطريف «الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم» مرآة صافية لأدبه العالي الرفيع مع جناب سيدنا رسول الله ﷺ.

أدبه مع السلف الصالح وغیره عليهم:

ومن شواهد أدبه مع السلف الصالح وغیره عليهم: أنه لما خشي أن يظن القارئ ممّا أورده من أخبار العلماء الفحول في سعة علمهم وكثرة مؤلفاتهم في كتابه «قيمة الزمن عند العلماء» أنهم أعلم من السلف، كتب أكثر من صفحتين - ابتداءً من ص ٩٠ من الطبعة الخامسة - في بيان أفضلية السلف وأعلميتهم.

أدبه مع شيوخه:

أما أدبه مع شيوخه فعجب عجاب، إذ لا يذكرهم إلا مع الترحم عليهم والدعاء لهم مطبقاً وصية الإمام الفقيه العابد العلامة أبي محمد رزق الله التميمي الحنبلي المتوفى عام ٤٨٨ هـ حيث يقول: (يَقْبَحُ بكم أن تستفيدوا منا، ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا).

أدبه مع شيخه مصطفى الزرقاء:

فمثلاً من دقائق أدبه مع شيوخه ما حدثني به الأخ الأثير، الداعية الطبيب، الدكتور فؤاد العريس من أن الشيخ رحمه الله عندما جاء إلى باريس طلباً للعلاج - كما في القصة التي نقلتها عنه حفظه الله - كان بصحبة شيخه العلامة فقيه العصر مصطفى الزرقاء، وكانا ينزلان في أحد فنادق باريس، فكان يزورهما الأخ في غرفتهما فيرى من أدب الشيخ رحمه الله ولطفه مع شيخه وخدمته له ما يُدهش!! ومن ذلك أنه كان يسابق شيخه للإتيان بنعليه ووصفهما قُرب سريره مع أنه كان في سنّ يقارب الخامسة والسبعين.

ولا يُسرِعَنَّ إلى ذهن القارئ أن الشيخ الزرقاء من أولئك مُمتَهِنِي المشيخة الذين يستذلّون تلاميذهم في خدمتهم أو مدّ يدهم لتقبيلها ولو قبل قدوم أحدهم بُعد أمتار أو مدّ رجلَيْهم لخلع الحذاء أو إلباس الجُورْبَيْن... ولا سيّدي الشيخ من أولئك السُّدَج المُخَدَّرِينَ... كل ما هنالك: أدب من التلميذ بمبادرة منه للإكرام والوفاء بالجميل مع تحفُّظ العالم وامتناعه وخَجَله. بل أقول: إن شيخنا - يَشْهَدُ اللَّهُ - كان إذا ما أقدم أَحَدُنَا بعد غياب طويل عنه ليقبل يده - علماً أنه بالنسبة لنا كالجَدّ - جذبها ممتنعاً بشدّة.

تقبيله يد أهل العلم والفضل والصلاح:

ومن شواهد أدبه أيضاً: أنه كان يُقبل بلهفة لتقبيل يد من يعرف فيهم العلم والفضل والصلاح كما رأيت بعينيّ في إحدى المرات - على ما أذكر - في مشهد من أروع مشاهد الأدب والتواضع إقباله بشَعْف عندما قابل في أحد ممرات كلية أصول الدين شيخنا العلامة الصالح المنور عضو جماعة كبار العلماء في مصر الشيخ محمد عبدالوهاب البُخَيْرِي ليقبل يده، رحمة الله عليهما ونور مرقَدَيْهما.

غُرر الفوائد وروائع الحكايات في مقدمة «رسالة المسترشدين»:

ولشدّة اهتمام الشيخ رحمه الله بضرورة الاعتناء بالأدب مع الشيوخ

كتب صفحات طويلة في تقدمته الثانية لرسالة المسترشدين، فيها غرر من الفوائد وروائع من الحكايات والفوائد، فلتقرأ فإنها من الغنائم. ولكن أذكر من هذه الروائع واحدة مما انتقاه الشيخ رحمه الله تعالى وهي قصة الإمام الجليل إمام أهل السنة أحمد بن حنبل عندما كان متكئاً من مرض ولما ذكر إبراهيم بن طهمان - أحد العلماء الصالحاء - استوى جالساً وقال: (لا ينبغي أن يُذكر الصالحون ونحن متكئون).

٣ - متفرقات من أدبه المدهش:

وبما أن صفحات أدب الشيخ رحمه الله هي سجل حياته كلها لا يتسع المقام لسردها جميعها، فضلاً عن أن ما أعرفه نقطة من بحر ما يعرفه عنه عارفوه ممن أطالوا صحبته، وعلى رأسهم تلميذه الأجل شيخنا العلامة محمد عوامة الذي تمتد صلته به واستفادته منه حوالي أربعين سنة، وأخي الغالي الأثير العالم الداعية الشيخ مجد مكي، والأخ الشيخ محمد الرشيد، بالإضافة إلى سائر عارفيه وخاصة أهله، مما يستحق أن يُجمع لإحياء خلق (الأدب) المفقود في حياة أكثر المسلمين اليوم.

فما أكثر العقوق حتى مع الآباء والأمهات! وما أبشع الخيانات حتى مع الأصدقاء والأقرباء! وما أوسع انتشار الكذب حتى في صفوف المتصدين للدعوة! وما أسهل على كثير من المتدينين وأصحاب العمائم التفريط حتى بأمانة الكلمة وأمانة الموعد وأمانة المال فضلاً عن أمانة نشر العلم وإقامة الدين والدعوة إلى الله! فإلى الله المشتكى وأعوذ بالله من الخور بعد الكور، ومن الخيانة بعد الاستقامة، ومن الخذلان بعد السداد.

وإذا كان ما لا يدرك كله لا يترك قلبه فإنني أختم الكلام عن أدبه الجَمّ بهذه الأخبار المدهشات:

حرصه على زيارة الدكتور محمد حميد الله وشكره على صنيعه القديم:

القصة الثالثة التي حدثنيها الأخ الطبيب فؤاد العريس، وهي أنه أثناء صحبته للشيخ رحمه الله في باريس طلب شيخنا معرفة مكان إقامة الدكتور

العلامة محمد حميد الله الهندي الذي يعرف عنه أنه مقيم في باريس وبعد لأي ومشقة وطول سؤال اهتدى الشيخ رحمه الله ومن معه من الشباب إلى منزل هذا العالم الهندي الذي يؤثر العزلة ويقيم مع كتبه للبحث العلمي في منزل متواضع جداً على سطح مبنى قديم رقم ٦ في شارع لوكسمور في باريس، فصعدوا إليه فإذا به يعيش حياة زهد وتقشف يشغل وقته في العلم والعبادة، ولوحظ أن الدكتور حميد الله سمعه ضعيف جداً ومن جهته الشيخ رحمه الله يعاني من ضعف بصره، فصارا يتخاطبان بصعوبة ويستعين الشيخ بالإشارة، وإذا بالأخ يدرك أن الشيخ رحمه الله ما تكبد هذه المشقات وألح على السؤال عن مكان إقامة هذا العالم الهندي إلا ليشكره على خدمة أسداها إليه قبل أكثر من عشر سنوات تتعلق بإحدى المخطوطات. ولما لم يكن الأخ الدكتور ضابطاً لتفاصيل الموضوع إذ مضى على الحادثة أكثر من ست سنوات وأنا عالق في ذهني أن الشيخ رحمه الله سجل هذه الخدمة في أحد كتبه رجعت إلى عددٍ منها أقلب صفحاتها حتى عثرتُ على الخبر في مقدمته لكتاب «الموقظة» للإمام الذهبي رحمه الله حيث يقول عن نسخة الكتاب الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس ما يلي: (وكنْتُ رجوتُ من الصديق المفضل العلامة الدكتور محمد حميد الله، المقيم في باريس حفظه الله تعالى ورعاه، أن يتكرم فيصورها لي، فوجد أمر التصوير يتأخر قليلاً، ففضل بنسخها لي بقلمه وخطه ثم قابلها بالأصل، وأثبت عليها ما على حواشي الأصل من تعليقات وبعث بها إليّ مشكوراً متكرماً في ١٨ ذي الحجة ١٣٩٩، فله أجزل الشكر والثناء والتقدير على هذه المساعدة العلمية الكريمة). هذا ما كتبه في مقدمة الكتاب مؤرخاً في ٢٣ من شوال ١٤٠٤ هـ. ومشتماً على الشكر، ومع ذلك وبعد حوالي اثنتي عشرة سنة ينتهز فرصة وجوده في باريس ويلج على مقابلة الدكتور حميد الله ولو تكبد المشاق وعلى كبر سنه وانشغاله بالعلاج، فقط ليُسدي له الشكر. الله أكبر ما أندر هذا الوفاء! وما أعز هذه الأخلاق! وما أقسى قلوب كثير منا بطغيان حب الدنيا والجاه وغلبة الحسد عليها حتى من أناس نعيش معهم سنوات طويلة ونظنهم من المُقربين ومن أخصّ المُحبين فإذا بالحقيقة تتكشف

ويفتضح فيهم خُلُق التعامل بوجهين، وتكشف الأيام عن انطواء قلوبهم على داء الحسد المُقيت فلا يراعون ليس فقط وُد لحظة - كما يفترض الإمام الشافعي في أخلاق الأحرار - بل وُد سنوات ورفقة عمر في العلم أو في طريق الدعوة. فإلى الله المشتكى.

زيارته للأخ حسن قاطرجي في بيته وتواضعه ولطفه:

قصة أخرى تدلّ على تواضعه وهضم نفسه. فقد دعوته مرة إلى الطعام في منزلي في الرياض في السكن الجامعي للمتزوجين في (الدخنة) وهو الحي الذي كان يسكن هو فيه أيضاً، فدق الباب بمنتهى اللطف وسألت أهلي: من؟ فإذا صوت الشيخ الرقيق: عبدالفتاح. هكذا وحسب، من دون ألقاب ولا فخفخات. فأسرعتُ إلى الباب وفتحتُه فدهشت أنه وحده لا خادم ولا مرافق وهو من هو في علمه ومكانته القيادية في العمل الإسلامي!!

نفرته من التوسُّع بالألقاب:

ومقابل هذا الأدب الجَم والتواضع الرائع كم يستاء أحدنا عندما يشاهد في أوساط طلاب العلم المبتدئين وبعض المُعَمِّمين الذين هم في العلم لا في العير ولا في التفير كما يُقال: إسرَاعهم في لبس زيّ المشيخة الرسمي (الجُبّة والطربوش الأحمر تلفه العِمامة) ثم إذا عرّفك أحدهم عن نفسه على الهاتف أو فيما يكتب إليك فلا بد من أن يذكر (الشيخ) فلان!! بل أحياناً (فضيلة الشيخ) فلان، وإنني لتتملكني الدهشة من أدب الشيخ رحمه الله وتواضعه أنه طوال سنوات تعرّفي عليه وفي كل رسائله إليّ ومكالماته الهاتفية لم أسمع منه ولم يكتب إليّ ولا مرة (الشيخ عبدالفتاح).

بل لما كتب إليه شيخه العلامة العالم الصالح أحد أئمة العصر مفتي مصر سابقاً - أيام كان يتولى منصب الإفتاء فيها الأئمة العلماء الصّالحون!! - فضيلة الشيخ حسنّين مخلوف تقرّظاً لخدمته رسالة المسترشدين وافتتحه بقوله: (إلى أخي وصديقي الأستاذ العلامة المحقق الشيخ عبدالفتاح أبي غدة

أدام الله توفيقه)، فإذا بسيدي الشيخ رحمه الله يعلّق أسفل الصفحة: (قال عبدالفتاح: هذا من تواضع شيخنا وسُمُو أخلاقه العالية الرفيعة فإنني منه بمنزلة الوليد من الجدّ المجيد...) فرَحّمات الله عليه ما أروع أدبه!!

ذوقه الرفيع وحسّه الرقيق:

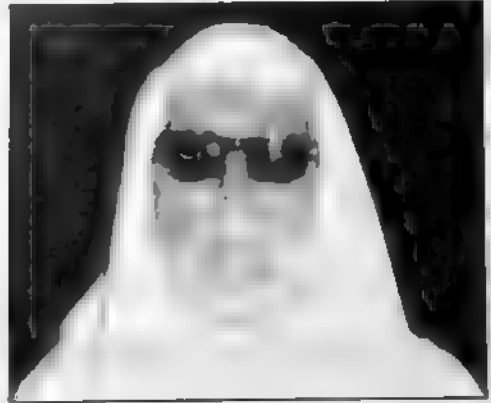
وبعد، فهذا غيض من فيض أدب الشيخ، ولا أدري إن كنت نجحت في التعريف بجزر من أدبه الرفيع، وفي تمكين القراء والقارئات الذين لم يتشرّفوا بصحبة الشيخ رحمه الله من تخيل طيف من هذه الشخصية العظيمة في جانبها العلمي وجانبها الأدبي، وإن كان لا يزال عندي كلام كثير في جانب مهم من أدب الشيخ رحمه الله وهو ذوقه الرفيع وحسّه الرقيق الرفيق في النظافة والضيافة، وفي الترتيب واختيار الألوان وتناسق الأشياء، وفي عنايته الفنية والجمالية بكتبه، وفي اهتمامه بالكتاب وأدبه معه مما لا أعرفه إلا عند شيخ آخر من شيوخ رحمة الله: شيخ القراء في لبنان العلامة حسن دمشقية، وفي ملبسه وأناقته من دون اختيال ولا بطر، وفي مخاطباته ورسائله، ممّا لا يسع العارف بذلك كلّهُ إلا أن يعترف أنه فضل الله وتوفيقه، وآية من آيات عظمة دينه الذي يطبع الصادق المخلص فيه بهذا الطابع النموذجي الفريد الذي يرفع الرأس ويظهر عظمة الإسلام، ويكشف سرّ دخول الناس في تاريخنا المجيد أفواجا في دين الله.

فَاللّهُمَّ أعِظْمْ لشيخنا ثوابه، ولا تحرمنا أجره، ولا تفتنّا بعده، واخْلُقْنا مثله، إِنَّكَ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ آمِينَ^(١).



(١) يُنظر في ركن العلماء في موقع (الإسلام في سورية): نماذج من رسائل العلماء وأدبهم العلمي، فيه ست رسائل من الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، لبعض شيوخه، جمعها ورتبها وقَدّم لها كاتب هذه الكلمات وجامع هذه التراجم، العبد الفقير مجد مكّي.

الشيخ عبدالرحمن الصوفي
في ذمة الله^(١)
(١٣٤٤ - ١٤١٩هـ)
(١٩٢٦ - ١٩٩٨م)



بقلم الدكتور: نبيل الطويل

اختار الله إلى جواره منذ أيام أخاً كريماً، وصديقاً عزيزاً، وخلاً وفياً، وناصحاً صادقاً، وموجهاً مخلصاً، هو المهندس الزراعي الأستاذ المرّبي عبدالرحمن الصوفي. ومثل الكثيرين من أحبّاء الله فقد قضى عبدالرحمن في الديار المقدّسة، بنوبة قلبية حادة بعيداً عن مسقط رأسه وملعب فتوته ودار شبابه.

كان عبدالرحمن حتى آخر يوم من عمره في هذه الدنيا الفانية مثلاً ومثالاً للمؤمنين الصالحين والعاملين المخلصين والأتقياء الأخفاء، وكانت الأخلاق الرفيعة والنفس الرضيّة والتواضع الجَمّ تُزيّن ذكاه واجتهاده على مقاعد الدرس وفي الحياة العملية.

(١) مجلة الأمان اللبنانية، العدد ٣٣٩، كانون الثاني ١٩٩٩.

في الدراسة الابتدائية والمدرسة الرسمية:

ترافقنا في المدرسة الابتدائية لجمعية المساعي الخيرية الإسلامية باللاذقية، وتعلمنا - سوياً - على أيادي معلمينا الأوائل كالشيخ جميل حجار، والشيخ وجيه محمودي رحمهما الله رحمة واسعة، ثم انتقلنا في أواخر الثلاثينيات إلى المدرسة الرسمية، حيث تلقينا الشهادة الابتدائية، ثم درسنا هناك على أيدي الراحلين الأساتذة: محمد علي نتيقة، وحالد فاروسي، وخالد كيال، وعازار شرشر، والأب أنطون ديب، وغيرهم.

في ثانوية التجهيز الرسمية وتفوقه وابتعاثه:

وافترقنا في الدراسة المتوسطة أربع سنوات لتلتقي سوياً في ثانوية التجهيز الرسمية، وكان «أبو محمد» رحمه الله وأجزل ثوابه الأول في الصف دائماً، كذلك كان الأول على دورته في سائر القطر السوري في امتحان شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا الموحدة)، فابتعث إلى مصر، حيث درس الزراعة في جامعة القاهرة - جامعة الملك فؤاد آنذاك - على نفقة الدولة، ونال شهادة الهندسة الزراعية بامتياز.

كنت أحاول دائماً اللحاق به في مستوى الدراسة، وأسعى جاهداً أن أكون على شاكلته في السلوك في المدرسة وخارجها، فلقد بقي أبو محمد المؤمن الذي «يألف ويؤلف» كما روي عن الرسول الكريم ﷺ^(١).

في أيام الانتداب الفرنسي:

تزامننا في الصفوف الابتدائية والثانوية، وترافقنا في فترات الاستجمام في الرياضة: سباحة ورحلات، وتعرضنا مع رفاق آخرين مرتين في عام ١٩٤٥ (آنذاك) - لوابل من رصاص جنود الانتداب الفرنسي، الذين قتلوا في

(١) أخرج أحمد (٩١٩٨)، والحاكم في «المستدرک» ٢٣: ١، والبيهقي ٢٣٦: ١ من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «المؤمن مؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» والحديث حسن.

بلدنا الصغيرة في يوم واحد أكثر من خمسة عشر شهيداً من المدنيين الذين وافق مرورهم في شوارع المدينة، حين فتح الجنود المرتزقة نيران بنادقهم ورشاشاتهم بصورة عشوائية... هكذا ودّع (الانتداب) الفرنسي شعبنا في الوطن الحبيب قبل أن يجلو مُرغماً بعسكره عام ١٩٤٦.

تأثير الأستاذ محمد المبارك:

كنّا ثلاثة طلاب: أبو محمد، وأنا، وزميل ثالث - اختار بعد ذلك طريقاً آخر - عندما رَحَبْنَا بزيارة مفتش اللغة العربية (الأستاذ محمد المبارك) في نفس العام، وكان قادماً من دمشق، واستمعنا لأخباره وآرائه وتوجيهاته التي أثّرت مستقبلاً في خط سيرنا الفكري، محاولين أن نُصَدِّق بالعمل ما وُقِرَ في قلوبنا طالما أننا آمنّا بالله ربّاً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، مُتَّبِعِينَ التوجيه القرآني للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال - دائماً - بالتي هي أحسن، بعيداً عن التعصب الأعمى، والشعارات الفارغة، والشتائم والعنف الذي ذاق منه كثير من الشباب المسالم الأمرين في فترات تاريخية مضطربة مائجة بالصراع الفكري.

خلقه الرفيع وهمته العالية:

كان أبو محمد - رحمه الله - محط الإعجاب والتقدير والاحترام من كل من عرفه، مُوجَّهاً مسؤولاً متّصفاً في عمله - دائماً - بالصبر والأناة والحكمة والنضوج، وكان له في قلبي دائماً فيض الحب والمودة، والشوق... بخاصّة بعد أن اغتربنا كل واحد في بلد.

شهادة لله عزّ وجل:

وشهادة لله - في شهر القرآن - أنني لم أعرف مسلماً في بلدي أفضل منه في الخلق الرفيع والهمة العالية، ولعلّ اختياره للسكن مدى حياته في مسقط رأسه على رابية عالية (الطابيات) يستشرف منها مدينته الوادعة، جاء بصورة عفوية انعكاساً لهذا الخلق الرفيع، مُبتعداً بنفسه عن الدنايا والصغائر،

وعن سفاسف الأمور والقيـل، والقال والمُمَاحكات والمناورات والأهواء الشخصية والمصالح الفردية، معتزلاً - برضاه - الأجواء الصاخبة المريضة.

في ميادين الخير والبر:

ولقد أثر في مغتربه، بعد التقاعد عن العمل الرسمي في الزراعة، التطوع للعمل في ميادين الخير والبر وتقديم النصيحة والمشورة في مجال اختصاصه.

الشاعر الملتزم:

وركّز على هوايته الأدبية في قرض الشعر الملتزم، فكانت له منظومات ومقطوعات شعرية فيها نفحات الإيمان ولمحات التصوف، الإيجابي الفاعل لا السلبي المُجذب.

ولقد أتحنفني في السنوات القليلة الماضية ببعض من أشعاره مع رسائله، كما أنه نشر القليل منها في الدوريات الشهرية الصادرة حيث يقيم.

افتقاد الأخ النصوح:

ورغم إيماني العميق بأن لكل أجل كتاباً، فإذا جاء أحدنا لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، وأنا راضٍ تماماً بقضاء الله وقدره.. إلا أن عيني تبـلـل دموعاً كلما ذكرت رحيل أبي محمد عن دنيانا الفانية، فلقد افتقدت برحيله الأخ النصوح الذي كنتُ أسأله دائماً الرأي والمشورة في أعمالي العلمية، بل وفي حياتي الشخصية - جزاه الله الخير كله - ولم يكن يبخل بها علي. وإني - والله - لفراق أبي محمد لمحزون، مع الكثيرين من أحبائه.

اللهم اجمعنا وإياه في عليين، مع الشهداء والصديقين.

وأتوجه إلى السيدة الفاضلة أم محمد، وإلى ابنه العزيز محمد يحيى وإلى بناته الكريمات وأهله جميعاً بالدعاء، طالباً من العليّ القدير أن يُصبرهم في هذا المُصاب الجَلَل.. ويا أهل الفقيد عظم الله أجركم جميعاً.. وإنا لله وإنا إليه راجعون.



الشيخ عبدالرحمن الصوفي
«رائد من رواد العمل الإسلامي في سورية»
أحب لقاء الله فأحب لقاءه

بقلم الدكتور عبداللطيف الهاشمي

﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَبَةً ۖ قَدْ خَلِيَ فِي عِندِي ۖ ۝٢٩ وَأَدْخِلِي جَنِّي ۖ﴾ ۝٣٠

ودعنا بالأمس رجلاً من رجال الدعوة، ورائداً من رواد العمل الإسلامي في سورية؛ إنه الأستاذ المرابي الشيخ عبدالرحمن الصوفي رحمه الله تعالى وأدخله فسيح جناته، وأعلى مقامه في عليين.

ولادته وأسرته وتأسيسه أول عمل طلابي إسلامي في الساحل السوري:

ولد الفقيد في مدينة اللاذقية في سورية عام ١٩٢٦م، لأسرة متوسطة الحال، لها نسب مكتوب متصل بآل البيت، ورزّع منذ نعومة أظفاره حبّ الإسلام والدعوة الإسلامية. وتصدّى مع مجموعة من زملائه في مدرسة التجهيز الثانوية في اللاذقية للأفكار العلمانية الوافدة، ثم قام وبتوجيه من الأستاذ محمد المبارك - رحمه الله تعالى - الذي كان موجّهاً للغة العربية، بتأسيس أول عمل طلابي إسلامي في الساحل السوري.

تَفُوقُه في جميع مراحل دراسته:

تَلَقَّى الأستاذ عبدالرحمن تعليمه في اللاذقية، وكان متفوقاً في جميع مراحلهِ... وَحَصَلَ على الترتيب الأول في سورية من بين المتقدمين لشهادة الدراسة الثانوية عام ١٩٤٦م، ونال بعثة من الحكومة السورية لدراسة الهندسة الزراعية في الخارج، وَخُيِّر بين الابتعاث إلى مصر أو إلى بلجيكا، فاختار مصر لرغبته الشديدة في التعرف على الشيخ حسن البنا الذي طالما سمع عنه، ولرغبته في دراسة العلوم الشرعية إلى جانب دراسة العلوم الزراعية.

دراسته بمصر وحصوله على شهادة الهندسة الزراعية:

حصل على (البكالوريوس) في الهندسة الزراعية من جامعة فؤاد الأول في القاهرة عام ١٩٥٠، بمرتبة الشرف الأولى، ثم عمل رائداً في المجال الزراعي في اللاذقية، وعلى مستوى سورية حتى عام ١٩٧٠م عندما انتدبه وزارة الزراعة ليعمل محاضراً في كلية الزراعة.

مشاركته في عدة مؤتمرات علمية وإنهاء خدماته بقرار تعسفي:

حضر عدة مؤتمرات علمية في الدول الأوروبية، ومثّل سورية في عدد من الوفود الزراعية العلمية. ثم أنهيت خدماته بشكل تعسفي من جميع وظائف الدولة عام ١٩٧٩م، بموجب قرار غير قابل للاستئناف، وذلك في إطار حملة لإخراج الإسلاميين من الجامعات، عُرفت بمذبحة التعليم الجامعي في حينها.

في أحضان الدعوة الإسلامية:

تربّى الفقيد في أحضان الدعوة الإسلامية، ولقي أثناء دراسته في مصر الإمام الشهيد حسن البنا - رحمه الله تعالى -، وتلمذ على يديه، وشارك معه في مجموعة من الكتابات الليلية. وقد أحبه حباً جماً، وبقي على دربه إلى أن لقي الله عزّ وجلّ.

تأسيس العمل الإسلامي في الساحل السوري:

ولقد كان لفقيدنا الراحل - رحمه الله - شرف المشاركة في تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في سورية بقيادة الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله تعالى -، وكان عضواً في هيئتها التأسيسية لسنوات عدة، كما أسهم بشكل فعّال في تأسيس العمل الإسلامي في الساحل السوري. وقد اعتُقل وسُجن عدّة مرات بسبب اتّجاهه الإسلامي إلى أن خرج مهاجراً من بلده إلى بريطانيا ثم إلى السعودية.

أخلاقه وسماته:

كان رحمه الله تعالى متواضعاً، حُلُوَ المعشر ذا خلق رفيع، يفرح لأفراح المسلمين ويألم لآلامهم، وكان يمضي كثيراً من وقته في التفكير بهموم الدعوة ومشكلات المسلمين، وكان صاحب همّة عالية وذوق رفيع وأدب جم.

حفظه القرآن الكريم ونظمه الشعر:

اتّم حفظ القرآن الكريم بعد أن بلغ الستين من عمره المبارك، وكان يخفي هذا الأمر عن أقرب الناس إليه، حتى إنه لم يكن يعلم بذلك إلا زوجته وإحدى بناته. كما أنه بدأ ينظم الشعر بعد أن بلغ الستين كذلك، وبلغ ما نظمته قرابة ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر، كلها في خدمة الإسلام والدعوة الإسلامية، صدر منها من سلسلة نفحات الإيمان ديوانه الأول (ابتهالات وتأمّلات)، وبدأ بطباعة ديوانه الثاني، لكن الأجل كان أسبق...

زيارته ليلة وفاته:

ولقد أكرمني الله تعالى بزيارة الفقيد - رحمه الله - ليلة وفاته (في مستشفى الدكتور بخش) في جدة مع بعض الأحباب فرأيتَه باسمًا مُتهللاً، في أنْضُر وجهه وأحسن حاله، وشدّ على يدي عندما سلّمت عليه كما كانت عادته عندما يُسلّم على إخوانه، وأخذ يحدثنا - وابنه المهندس محمد

الصوفي، وصهره الدكتور محمد وليد جالسان - وكان مما قال: إني لأعجب من هؤلاء الذين يخشون الموت ويخافونه. إن فراق الأحباب مؤلم حقاً، ولكن السنا مقبلين على لقاء أصحاب آخرين سبقونا واشتقنا إليهم. ثم إن هؤلاء الذين سنفارقهم إنما هم على الدرب وسيلحقون بنا. إني مستبشر بلقاء الله... أشعر والله الحمد والمئة أنني قد أدت الأمانة على أحسن وجه، وقد أكرمني الله بأولاد وأحفاد نشؤوا في طاعة الله سبحانه... فماذا أريد بعد ذلك؟!

شعره قبل الرحيل:

ثم أخرج ورقة وأعطاهها للدكتور محمد وليد، وقال له: اقرأ على الإخوان هذه الأبيات التي كتبتها قبل قليل، فقرأ علينا:

يا مرحباً بلقاء ربّي	به منتهى أشواق صَبّ
به ملتقى الأحباب ألقى	أنداء رحمن يُلبّي
كل المرام فلا لغوب	نحيا الخلود بظل حبّ
يا ربّ فاقبلني نزيلاً	في ودك الحائي المُحبّ
أنت الكريم جليل فضل	فاغفر إلهي كلّ ذنبي
قد كنت دوماً فيك أسعى	فاجعل عطاك حميمَ قُرب

لقد أحبّ لقاء الله، فأحبّ الله لقاءه... ودعناه في الساعة الحادية عشرة مساءً وهو في أحسن حال، وفي فجر اليوم التالي؛ الخميس الرابع عشر من شعبان ١٤١٩ هـ الموافق ١٩٩٨/١٢/٣ م كان موعد الأجل المحتوم، إذ صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها، وتوقّف القلب الذي طالما خفق بحب الله ورسوله والمؤمنين.

رحم الله فقيدنا الغالي الأستاذ عبدالرحمن الصوفي رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته، وألهم ذويهِ جميعاً الصبر والسلوان، وعوض المسلمين والدعاة في سورية خيراً، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



علي الطنطاوي
من حُماة الإسلام^(١)
(١٣٢٧ - ١٤٢٠هـ)
(١٩٠٩ - ١٩٩٩م)

بقلم: مَجْد مكي

إنَّه - لا رَيْبَ - أخذ حُماة الإسلام في هذا العصر.
حياته خَلَقَاتٌ مُتَّصِلَات، من الدِّفاع عن الدِّين، والكفاح ضدَّ
المستعمرين، وخدمة لغة القرآن.
عليُّ الطنطاوي، عالمٌ، وأديبٌ، وفقيهٌ، وقاضٍ، وخطيبٌ، ومُحدِّثٌ،
وثائرٌ على الظلم والظالمين، والفساد والمفسدين، والاستعمار والمستعمرين.
علي الطنطاوي، عبقريةٌ فذة، وموهبةٌ نادرة... إنه نسيجٌ وحده بين
الأعلام، والمفكرين والأدباء.
وَهَبَ حياته ولسانه وقلمه للدِّفاع عن الإسلام.
كَتَبَ مئات المقالات، وألَّفَ عشرات الكتب، وألقى ألوف الأحاديث
والمحاضرات.

(١) نشرت في جريدة المدينة بعد وفاة الشيخ بيومين في يوم الأحد ٦ من ربيع الأول
١٤٢٠هـ.

يقول رحمه الله: «والمطبوعُ مما كتبتُ يزيد على ثلاثة عشر ألف صفحة، وإنَّ لي أكثر من خمسين كتاباً ما بين رسالة صغيرة وكتاب كبير، وإنِّي أحاضر في النوادي من سنة (١٣٤٥هـ)، وأتحدث في الإذاعات بلا انقطاع من يوم أنشئت محطة الشرق الأدنى في يافا، قبل الحرب الثانية... ولطالما وقفتُ مواقف كانت حديث الناس، وكانت حادثة الساعة، وكنت فيها ملء الأسماع والأمصار، وكان اسمي فيها على كلِّ لسان... ولكن ذلك كله مضى، وسيمضي العمر، ويذهب الجاه والمال، كما ذهب الشباب، وينسى الناس كل ما عملت، ولا يبقى إلا الذي يحمله معه العبدُ إلى آخرته، وهذا الذي يبقى وكل ما سواه إلى زوال»^(١).

لقد أسلمَ روحه إلى بارئها، بعد أن حمل الراية سنواتٍ طوال، وأدى أمانة العلم والأدب والدين، وبلغها بصدق وإخلاص، فتوارى عن ساحة الكفاح، بعد حروب متواصلة مع أعداء الدين والخلق والفضيلة...

حياته في سطور

أبصر العلامة الشيخ علي الطنطاوي النور بدمشق في عام ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م، والده هو الشيخ مصطفى بن أحمد، وكان مدير «المدرسة التجارية» كما كان أمين الفتوى بدمشق.

تلقى أول دروسه في أحد كتاتيب دمشق، وانتقل إلى إحدى المدارس الابتدائية، ثم غادرها إلى المدرسة الأهلية، التي كان يُديرها المربي الشيخ عيد السفرجلاني... ومرة أخرى غادرها إلى المدرسة السلطانية، وكانت المدرسة الرسمية، وانتقل بعد ذلك إلى مكتب عُثْبَر، حيث أكمل دراسته الثانوية منه، ودخل بعد ذلك كلية الحقوق، وفاز بإجازاتها.

(١) المقدمات، ص ٣٥٨ - ٣٥٩، الطبعة الأولى.

مارس الأستاذ الطنطاوي التدريس في مختلف مراحلها في مدارس ومعاهد وجامعات دمشق، وبغداد، وبيروت، والرياض، ومكة المكرمة.

وعمل في القضاء، فكان قاضي دمشق الممتاز، ورئيس المحكمة الكبرى، ومُستشاراً في محكمة النقض خلال الوحدة مع مصر.

شارك في وضع قانون الأحوال الشخصية، وهو القانون الوحيد الكامل في البلاد العربية، وكذلك وضع قانون الإفتاء، وأوجد مجلس الإفتاء الأعلى، ووضع مناهج الدروس الدينية والعربية لمدارس وزارة الأوقاف.

وشارك في إنشاء الجمعيات الإسلامية، وأقدمها كانت «جمعية الهداية الإسلامية» عام ١٣٥٠هـ. والأستاذ الطنطاوي من أوائل مَنْ عَمِلَ في حَقْلِ الدعوة الإسلامية^(١).

الطنطاويُّ الأديب والصحافي:

تعلّق الطنطاوي بالقلم مُنْذُ حَدَاثَتِهِ، ورأى فيه المُتَنَفِّسَ للإعراب عن مَشَاعِرِهِ وأحاسيسِهِ، ونشر آرائه وأفكاره. فعمل في جريدة «فتى العرب» عند أستاذه معروف الأرناؤوط في عام ١٩٣٠م لمدة خمسة شهور، وحين دبّ الخلاف بينهما، أثار الطنطاوي العمل في «جريدة ألف باء» لصاحبها شيخ الصحافة السورية يومذاك يوسف العيسى، وكانت من أوسع الصحف انتشاراً غير أنّ موقفها الوطني كان معتدلاً أيام الانتداب الفرنسي، فأثر الأستاذ الطنطاوي نقل نشاطه الصحافي إلى جريدة «الأيام» التي كانت تقوّد مع جريدة «القبس» حركة النضال الوطني ضدّ فرنسا بحماسة واندفاع، فوجد الأستاذ الطنطاوي المجال زخياً على صفحات «الأيام» ليكتب ويهاجم الانتداب.

(١) تنظر مقالته: «حصاد ربع قرن في حقل الدعوة الإسلامية في الشام» في مجلة

«المسلمون»، العدد الثاني، من السنة الثالثة، ١٣٧٨هـ.

يقول الأستاذ الطنطاوي: «ولقد بلغ ما طُبع من كلامي أكثر من عشرة آلاف صفحة، لو نخلتها نخلًا، ما وجدت فيها بحمد الله سطرًا فيه تزلف للظالمين، ولا سطرًا فيه إضرار على العربية، ولا سطرًا فيه خروج عن الإسلام... ولقد كنت أكتب في الصحف أيام الفرنسيين، فكنت أقول ما لا يجرؤ على أكثر منه قائل من الوطنيين، وليست هذه دعوى بلا دليل، بل هي حقيقة دليلها موجود في صحف تلك الأيام، في «فتى العرب»، و«المقتبس»، و«ألف باء»، و«الأيام»، و«اليوم»، و«النصر»، و«الناقد»، و«الجزيرة»^(١).

ثم أصدر الأستاذ الطنطاوي مجلة شهرية باسم «البعث» في عام ١٩٣١م، وهي أول مجلة إسلامية تصدر في سورية، فصّدت منها أعداد ثم احتجبت.

وسافر إلى مصر تلبيةً لدعوة خاله الأستاذ محب الدين الخطيب، فعمل في «مجلة الزهراء» ومجلة «الفتح» وأسهم في تحريرهما.

ولم تشغله الصحافة عن قيامه بمهنة التدريس، ولا عن عمله في سلك القضاء بعد ذلك.

إقامته في مكة المكرمة وبرامجه الإذاعية والتلفزيونية:

وفي عام ١٩٦٣م تبدلت الأحوال، وتغيّرت الوجوه، وانطوت عهد، فآثر الشيخ الطنطاوي الإقامة في مكة المكرمة، وفي السعودية تفتحت له أبواب جديدة للنشاط الإسلامي، فأخذ يُقدّم في الإذاعة برنامجاً يومياً «مسائل ومشكلات»، وبرنامجاً تلفزيونياً أسبوعياً بعنوان «نور وهداية». وقوبلت تلك البرامج بتقدير واستحسان وإقبال مُنقطع النّظير من مختلف الطبقات في المملكة وما جاورها من دول الخليج، فأتجهت إليه الأنظار

(١) المقدمات، ص ٣٨٨ - ٣٨٩، الطبعة الأولى.

والأسماع، وبات الناس ينتظرون موعد تلك الحلقات، ويتمنى كل واحد منهم أن تطول فترة حديثه لما يجدون فيه من مُتعة نفسية وفكرية.

واستمرت هذه البرامج الإذاعية والتلفزيونية أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وفي شهر رمضان كان يقدم برنامج التلفزيوني اليومي «على مائدة الإفطار». ولم يكن الأستاذ الطنطاوي يكتب أحاديثه، وإنما يضع رؤوس أقلام، ويستجمع أفكاره، ويرتجلها ارتجالاً، فلا يتلغثم أو يتعثر، ولا يخطئ أو يلحن في عبارة أو لفظة، وينتقل بالمشاهدين والسامعين من موضوع إلى موضوع، في حقول المعرفة، في التفسير والفقه والحديث واللغة والأدب والتاريخ، فكان من أنجح المتحدثين وآثرهم في قلوب الناس في مختلف مستوياتهم وتنوع ثقافتهم.

مؤلفات الطنطاوي وآثاره:

يعدُّ الأستاذ الطنطاوي من أكثر أدباء العربية غزارةً في الإنتاج، وسخاءً في العطاء، فهو يَمْتَلِك زاداً فكرياً ثراً، وقلماً مطواعاً يتدفق كالسَّيل المُنْهَمِر بعبارة رائعة، وأسلوب رائق متميز...

ويصفُ الطنطاوي قلمه فيقول: «قَلَمٌ إِنْ شِئْتَ لَأَنْ فِي يَدِي، حَتَّى لِيَخْشَنَ مَعَهُ الْحَرِيرُ، وَإِنْ شِئْتَ صَلَبٌ حَتَّى يَلِينِ إِلَى جَنْبِهِ الْحَدِيدُ، إِنْ أُرْدَتَهُ هَدِيَّةٌ نَبَتْ مِنْ شَقِّهِ الزَّهْرُ، وَقَطَرَ مِنْهُ الْعَطَرُ، وَإِنْ أُرْدَتَهُ رِزْيَةٌ حَطَمْتُ بِهِ الصَّخْرَ، وَأَحْرَقْتُ الْحَجَرَ، قَلَمٌ كَانَ عَذْباً عِنْدَ قَوْمٍ، وَعَذَاباً لِقَوْمٍ آخَرِينَ»^(١).

موهبة النادرة وأسلوبه الفريد:

يقول الأستاذ عبدالغني العطري في كتابه «عقريات من بلادي»: «كَتَبَ الطنطاوي المقالة، والقصة، والمسرحية، وأبدع فيها إلى أقصى حدود الإبداع، فقد أوتي صاحبنا موهبة نادرة، وأسلوباً فريداً، وقدرة لا حدود لها على تطويع الكلمات والألفاظ لخدمة أغراضه. وكان يحلم في بعث الأدب

العربي القديم والتراث الإسلامي. ولو قُدِّرَ للأستاذ الطنطاوي أن ينصرف بجهده للأدب وحده، لأمكنه أن يكون الأديب العربي الأول، فقد أُوتي الطنطاوي ذاكرة قوية تشبه آلة التسجيل، تحفظ كل ما يمرُّ عليها... وأنعم الله عليه بأسلوب أخلى من السكر، ووهبه جاذبية في الحديث والإلقاء، لا أحسب أن أحداً من الأدباء والمفكرين يملكها^(١).

«والطنطاوي الكاتب الموهوب الذي لا يُجارى، وكلُّ ما يقوله ويكتبه هو السهل الممتنع، تنظر إليه فتراه بين يديك لا يتعاصى شيء منه عليك، فهو في معانيه أقرب إليك من شعاع الشمس، فإذا ما حاولت أن تحاكي أسلوبه وتنسج ما نسج، كنت كمن يريد أن يمسك شعاع الشمس، فما أبعد ما أقربه، وهذا هو السهل الممتنع»^(٢).

جاوزت كتبه الخمسين، ولديه أصول أحد عشر كتاباً لا تحتاج إلا على عمل قليل لتقدّم إلى المطبعة^(٣).

رسائل في سبيل الإصلاح:

وأوّل ما صدر له: «رسائل في سبيل الإصلاح»، يقول الشيخ رحمه الله: «لقد كانت هذه الرسائل بداية كتبي المطبوعة، أصدرت الأجزاء الأربعة سنة ١٣٤٨هـ، ولم يجاوز عمري إحدى وعشرين سنة، خرجت الرسائل الأربع الأولى كما تخرج القذائف من فم المدفع، لها دويٌّ، ومن حولها شررٌ ولهبٌ، فأيقظت في دمشق النيام، وقرأها الناس وهم بين راضٍ عنها، وساخطٍ عليها، ومادحٍ لكاتبها، وقادحٍ فيه...»^(٤).

(١) عبقریات من بلادي، ص ٢٨٧.

(٢) بين يدي المقدمات، لكاتب هذه السطور ص ٥ من الطبعة الأولى.

(٣) مقدمة تعريف عام بدين الإسلام، ص ١١.

(٤) المقدمات، ص ٤٠٦ من الطبعة الأولى.

رسائل سيف الإسلام والهيثميات:

وأصدر بعدها سلسلة رسائل «سيف الإسلام» سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م)، وكتاب «الهيثميات»، وكان يُكنى بأبي الهيثم. وقد جمع في هذا الكتاب عدداً من مقالاته وأبحاثه وهو في مطلع شبابه، وأهدى كتابه إلى أديب العربيّة مصطفى المنفلوطي، ووصفه بأنه «سيد كتاب العصر» وكان مُعجِباً به أشدّ الإعجاب، إلى أن أُتيح له أن يقرأ للرافعي والزيات.

وأصدر بعده كتابه «أبو بكر الصديق» ١٣٥٣هـ، ثم «عمر بن الخطاب» انتدبه لتأليفهما الأستاذ المُحقّق المؤرّخ أحمد عُبيد صاحب المكتبة العربية بدمشق، ثم عمّد إلى كتابه عن «عمر» فأعاد جمعه وتحقيقه وتهذيبه، وألحق به فضلاً عن عبدالله بن عمر كتبه أخوه ناجي، وصدر باسم «أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر» سنة ١٣٧٩هـ.

أسماء كتبه وتاريخ صدورها:

ثم توالى صدور كتبه، وأشير باختصار إلى أسمائها وتاريخ صدورها: «رجال من التاريخ» صدرت الطبعة السابعة مع مقدّماتها سنة ١٤٠٥هـ، و«قَصَصُ من التاريخ» صدرت الطبعة الخامسة مع مقدّماتها عن دار المنارة سنة ١٤١٥هـ، و«حكايات من التاريخ» سبعة أجزاء، و«أعلام التاريخ» خمسة أجزاء، و«الجامع الأموي في دمشق» صدرت الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ، والثانية ١٤٠٩هـ، و«في سبيل الإصلاح» صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٧٨هـ، والطبعة الثانية سنة ١٤٠٨هـ (١٩٨٧م)، و«هتاف المجد» صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٧٩هـ، والطبعة الثانية سنة ١٤١١هـ (١٩٩٠م)، و«بغداد: مشاهدات وذكريات» صدرت الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م)، والطبعة الثانية سنة ١٤١٠هـ، و«صور من الشرق في أندونيسيا» صدرت الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م)، والثانية سنة ١٤١٢هـ (١٩٩٢م)، و«من حديث النفس» صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م)، و«قصص من الحياة» صدرت الطبعة الرابعة سنة ١٤١١هـ (١٩٩٠م)، و«مقالات في كلمات» صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م)، و«فكر ومباحث»

١٩٦٠م، و«فصول إسلامية» ١٩٦٠م، و«مع الناس» ١٩٦٠م، و«من نفحات الحرم»، و«صور وخواطر»، و«تعريف عام بدين الإسلام»، وهو من أثر كتبه لديه، يقول في مقدمة طبعة دار الوفاء بالمنصورة: «فأنا أكتبُ وأنشرُ من ستين سنة، لا أحصي المقالات التي كتبتها، ولا الجرائد والمجلات التي نشرتُ ما كتبتُ منها، ولي نحو من خمسين كتاباً، ولكني أرجو من الله بهذا الكتاب ما لا أرجوه من كل ما كتبتُ»^(١)، وقد طُبِعَ أكثر من عشرين طبعة.

وحقق كتاب «صَندُ الخاطر» لابن الجوزي، بالاشتراك مع أخيه ناجي رحمهما الله تعالى.

ذكريات علي الطنطاوي:

وأصدر «ذكرياته» في ثمانية أجزاء، روى فيها جميع مراحل حياته، بدءاً من الطفولة الفقيرة المعذبة، إلى مراحل الدراسة والجهاد الوطني أيام الفرنسيين، ثم ممارسة التعليم، والعمل الصحفي، ثم رحلاته إلى مصر والعراق ولبنان، وجولاته ولقاءاته ومشاهداته وتجاربه...

الفتاوى والمقدمات:

و«الفتاوى» ممّا نشره في جريدة الشرق الأوسط، جمعها ورتبها حفيده الأستاذ مجاهد ديرانية، و«المقدمات» التي قمتُ بجمعها وترتيبها، ويبلغ مجموعها ستاً وعشرين مقدّمة كتبها الشيخ رحمه الله لعددٍ من المؤلفين في أزمنة مختلفة، ثم ضَمَمْتُ إليها مقدّماته التي كتبها لكتبه بعد مرور زمن طويل على إعادة طباعتها، فضممتُ من مُقَدِّمات كتبه سبع عشرة مقدمة، فتَمَّ المجموع أربعين. وكان هذا الكتاب آخر ما صَدَرَ للشيخ مطبوعاً من آثاره، وصَدَرَت الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ عن دار المنارة بجدة^(٢).

(١) المقدمات، ص ٣٦٣، من الطبعة الأولى.

(٢) وستصدر الطبعة الثانية قريباً بعون الله تعالى.

تراث الشيخ المكتوب والمسموع والمرئي:

وأما مقالاته وأوراقه فلا تُحصى كثرة، ولا يستطيع جمعها شخص بمفرده، ومع ذلك فقد وفقني الله سبحانه لجمع الكثير من عيون مقالاته الرائعة وبحوثه الممتعة من عددٍ من المجلات والدوريات، وأسأل الله سبحانه أنه يُوفّق لنشرها، ولا بدّ من تضافر الجهود لجمع تراث الشيخ والتعريف به.

وأما أحاديثه الإذاعيّة والتلفزيونيّة، فقد قامت مؤسسة (سنّا) الإعلاميّة بجدة بانتقاء مجموعة من أحاديثه، وصدرت بعنوان «دينٌ ودنيا» وصدر منها ثلاثون شريطاً، وذلك بجهد الأخ الكريم الأستاذ عبدالله زنجير الذي كان مُقرباً لدى الشيخ، وأثيراً عنده، جزاه الله كلّ خير.

وبعد؛ فالحديثُ عن أستاذنا الطنطاوي طويلٌ ومُمتد، ومُتعددٌ ومُشعب، وشائقٌ ومُمتع، وما كنتُ أحسب أن تمتدّ الكلمة إلى هذا الحد، ولكن جرى القلم، فمجال القول متّسع، ولدى الكثير من تلاميذ الشيخ وعارفيه ومُحبّيه ما يتّسع للكلام عن الشيخ رحمه الله تعالى، وأجزل ثوابه، ورفع درجته، وعوّض الله المسلمين خيراً.

الأربعاء ٥ ربيع الأول ١٤٢٠هـ



علي الطنطاوي... ومجالسه المباركة

(١٣٢٧ - ١٤٢٠هـ)

(١٩٠٩ - ١٩٩٩م)

بقلم تلميذه: مجد مكي

ذكريات ولقاءات:

عندما أمسكت بالقلم لأكتب عن الأستاذ الطنطاوي، تتابعت الذكريات، وساعات اللقاءات التي امتدت عبر عقد الزمان. وعن أي شيء أكتب... وكيف أبدأ الكتابة؟



موسوعة معارف متنوعة:

فالطنطاوي تاريخ حافل، وديوان كامل، وموسوعة معارف متنوعة الجوانب، ومتعددة المواهب.

فهل أكتب عن تاريخ حياته: طفلاً نابغاً، وشاباً يافعاً، ومعلماً ناجحاً، وصحافياً لامعاً، وداعيةً موفقاً، وقاضياً عادلاً، ومحامياً عن

الإسلام منافحاً، ومتكلماً موهوباً، وكاتباً بليغاً، وشيخاً وقوراً، أقعدته السنين، وعركته تجارب الحياة.

الطنطاوي المربي:

أم أكتب عن الطنطاوي (المربي)، وأستعرض آراءه التربوية، وكلماته وتوجيهاته، ولفاته ونظراته، وتجاربه في تربية الأبناء، والاهتمام بالجيل، والعناية بالأسرة.

الطنطاوي المعلم:

أم أكتب عن الطنطاوي (المعلم)، فأبين مواقفه في تعليم الأجيال، وأذكر آراءه في المناهج الدراسية، وطرق التعليم، وأساليب التأليف...

الطنطاوي الداعية:

أم أكتب عن الطنطاوي (الداعية)، فأذكر منهجه في الدعوة إلى الله، وتجاربه ونصائحه، ومشاركته في حقل الدعوة الإسلامية بقلمه ولسانه، وأثره في الصحة الإسلامية.

الطنطاوي الفقيه:

أم أكتب عن الطنطاوي (الفقيه)، عن فهمه لمقاصد الشريعة، ومنهجه في الفتوى، وأثره في تقرير الفقه، وتيسيره لعموم الناس... ومعالجته للكثير من القضايا الجديدة، والمشكلات المعقدة بنظراته البعيدة، وأفقه الواسع.

الطنطاوي الأديب:

أم أكتب عن الطنطاوي (الأديب)، عن أسلوب المتميز، وموهبته النادرة، وصلواته وجولاته في دفاعه عن العربية، ومعاركه الأدبية في الصحف والمجلات.

الطنطاوي الإعلامي:

أم أكتب عن الطنطاوي (المتحدث) اللبق، و(الإعلامي) الناجح، عن عفويته المحببة، ونفسيته القريبة، ولهجته الحبيبة، وبديهيته العجيبة، ومعلوماته المتنوعة، وموسوعيته المدهشة.

فعن أي جانب من هذه الجوانب أكتب، وماذا أدع؟

هو البحر من أي النواحي أتيتَه فَلَجَّتْهُ المعروف والجودُ ساحله
إنَّ الكتابة عن أي جانب من هذه الجوانب، يستوعب الصفحات
الكثيرة، وعندي مجالٌ للقول، ومُتَّسعٌ للكلام.

وتجتمع في قارورة العطر روضة وتوضع في كأس الرحيق كروم

صحبتني للشيخ - رحمه الله - :

لقد صحبتُ الشيخ ولازمته خلال السنوات العشر الأخيرة من عمره، فكان يوم الأربعاء من كل أسبوع هو اليوم المُخصَّص لي، وما قَدِمَ إلى جُدة زائرٌ من أهل العلم والفضل ممَّن يعرف الشيخ إلا وسعى لزيارته، وتشرَّفت بصحبة الكثير منهم إلى مجلسه الحافل.

صحبة عدد من الأعلام في مجلسه:

فقد كان الشيخ في السنوات الأخيرة من عمره المبارك، يحب الاجتماع بالناس، ويجد متعة وأنساً بمحادثتهم ولقائهم، ويحرص على طول مكثهم، وتكرر زيارتهم... بعدما كان في أكثر عمره منطوياً على نفسه، يحبُّ العزلة، ويؤثر الانفراد...

وخلال تلك الزيارات المتكررة استمعت لأطايب كلامه، وجَنَيْتُ من وافر ثماره، وناضج آرائه، وسعدت بصحبة الكثير من الأعلام والعلماء في مجلسه، وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أستاذنا العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، والأستاذ اللغوي سعيد الأفغاني رحمهما الله تعالى،

والسيد أبو الحسن الندوي، والشيخ مصطفى الزرقا، والدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور محمد رجب البيومي، والدكتور محمد الحبيب بن الخوجة، والدكتور معروف الدواليبي، والدكتور إبراهيم سلقيني، والدكتور محمد أبو الفتح البيانوني، والشيخ محمد عوامة، والشيخ عبدالله التليدي، والدكتور عبدالسلام هراس، والأستاذ هاني الطابع، والمحامي علي الرضا الحسيني، و... وغيرهم كثير ممن لا يغيب ذكرهم عني، فكانت مجالس علم وأدب، وجُلُم ووقار، وفكاهة محببة، تسمع فيها من عيون الشعر، وروائع الأدب، ولطائف العلم.

مجمعٌ علميٌّ وندوةٌ أدبية:

لقد كان بيت الشيخ في جدة مجمعاً علمياً، وندوة أدبية ممتدة خلال الأسبوع، في السنوات العشر الأخيرة، فمن بعد صلاة العشاء إلى قرب منتصف الليل، ندوة متجددة، ومواهب متعددة، ووجوه جديدة من مختلف الاختصاصات وتنوع الاتجاهات.

يحضر مجلسه كبار العلماء والأدباء ممن أشرت لذكر بعضهم، ويحضره كذلك مجموعة من العلماء والأدباء الشباب، أذكر منهم: الأستاذ محمد السرّار من المغرب، ونظام يعقوبي من البحرين، ومحمد بن ناصر العجمي، ومحمد العوضي من الكويت، وحسن قاطرجي، ورمزي دمشقية من بيروت، ورائد سنهوري الشاعر المبدع من جدة، ومحمد عبدالله الرشيد من الرياض، الذي كان صلة الوصل بين الشيخ ودمشق، ينقل إليه أخبار من بقي من علمائها، ويحدثه عن تاريخه الحافل، وذكرياته الجميلة، ويأتي في مقدمة هؤلاء: الأخ الكريم عبدالله زنجير، الذي كان من أثرهم لديه، وأكثرهم برأ ووفاء، فكان للشيخ كالولد البار في رعايته وبره، وكان الشيخ له كالوالد في حنوه وعطفه...

ولم يقتصر مجلس الشيخ على طبقة العلماء الكبار والشباب منهم، بل غمر بواسع كرمه، وكريم عطائه، العامة الذين أحبوه وطعموا من «مائدة إفطاره»، واقتبسوا من «نور هدايته»، واستفادوا من حلول «المسائل والمشكلات»...

فكان يحضر مجلسه هؤلاء فيأنسون ويستفيدون، بل إن مجلسه العامر شمل حتى طبقة الصغار من الأبناء الذين كانوا يجلسون مع آبائهم بسكينة ووقار، فيتلقون درساً عملياً في الأدب والذوق، وتنطبع في مخيلتهم صورة الشيخ المهيب في تواضعه وسكينته، وتنالهم بركة دعواته الصالحة، وهم يقبلون يده الطاهرة، ويحيط هذا المجلس برعايتهم وحفاوتهم أصهارُ الشيخ وأحفاده، وفي مقدمتهم: الأستاذ زياد الطباع - سبط الشيخ علي الدقر -، والأستاذ نادر حتاحت - صاحب دار المنارة - وأحفاده، وفي مقدمتهم الإخوة الكرام: عمرو حتاحت، ومجاهد، ومؤمن، ومعتصم، ومعتز ديرانية، وطارق طباع، وغيرهم من أحفاد الشيخ وأقربائه، جزاهم الله كل خير على برّهم ووفائهم.

ذاكرةُ ثرةٍ وتاريخٍ شاهد:

وكنت في مجلسي معه، أستحضر له مشاهد من ذكرياته، وعبارات من روائع كلامه، وأستثير ما في ذاكرته الثرة الغنية من تاريخ شاهده، ورجال صحبهم، وأعلام تعرّف عليهم.

وكنت أطلعه على ما يصدر من كتب جديدة، فيحرص على اقتنائها، ويوصي بشرائها، وتجذب بجانبه مجموعات من الكتب والمجلات التي تُهدى إليه، فتحيط الكتب به، وتتضاعف وتزداد حتى تأخذ سبيلها إلى مكتبته.

وعلى الرغم من إعراض الشيخ عن الكتابة، وضعف يده عن الإمساك بالقلم... إلا أنه كان يقرأ ويطلع، ويناقش وبحاكم بعقليته الكبيرة، وذنه الوقاد.

وكم كنا نعجب ممّا تستحضره تلك الذاكرة العجيبة من ذكريات ومشاهد، وعلوم ومعارف، فكان يسرد علينا من روائع الشعر والأدب والحكم ودقائق المسائل... ما نجد أنفسنا عاجزين عن مجاراته، أو الجري في ميدانه.

وكم كان الخلاف يدور حول مسألة من المسائل، وقضية من القضايا،

يراعي فيها أدب الخلاف والحوار، فيجد الحاضرون الرأي السديد، والجواب المقنع عند الشيخ رحمه الله تعالى.

وإذا استشكلنا معنى كلمة أو غريب لفظ بادرنا بسؤاله، فنجد الجواب حاضراً على لسانه، وقد يردنا إلى بعض المراجع، ويعلمنا أن نتثبت من الحكم والمسألة، ويُؤدنا على الرجوع إلى «القاموس» الذي كان على يمينه لا يفارق مجلسه.

وفي أواخر أيامه توقف الشيخ عن الفتوى وامتنع عنها، خوفاً وتورعاً، وكان يشير على من سألته بالرجوع إلى الأستاذ مصطفى الزرقا - أمتع الله بحياته - ويشني كثيراً على علمه وفقهه... وربما ردَّ السائل المستعجل إلى مكتبته لمعرفة الحكم الفقهي الذي يسأل عنه.

لقد كنت خلال هذه المجالس أحرص على انتقاء أطيب الكلام، وقراءة بعض النواذر التي أستخرجها من بطون الكتب والدوريات... وكنت أحضر له الكثير من مقالاته المنسية مما كتبه في بواكير شبابه في «الفتح»، و«الزهراء»، و«الرسالة»، و«الأزهر»، و«المسلمون»، و«حضارة الإسلام»، و«الوعي الإسلامي»، و«هدي الإسلام»، و«مجلة الحج»، و«رابطة العالم الإسلامي»، فيجد متعة في قراءتها، ويبيدي سروره وإعجابه بوقوفي عليها، ويشني عليَّ بصفات أنا دونها.

وأستعرض معه أسماء الكثير من الأعلام الذين أحببهم وصحبهم، وأذكره بمواقفهم، وأحضر له الكثير من آثارهم... فيجد ما يُسليه في غربته، ويؤنسه في وحدته، ويعيده إلى ما مضى من سالف أيامه.

وأقرأ عليه بعض ما كتب عنه... من ثناء ومدح... وإعجاب وإنصاف... قرأت له ما كتبه الدكتور محمد رجب البيومي في «النهضة الإسلامية»، وما كتبه الشاعر الأديب عبدالله بلخير في «ذكرياته»، وما كتبه الأستاذ عبدالغني العطري في «عقريات وأعلام»... فكانت عيناه تدمع فرحاً وسروراً... لأنه لم يضع جهده وجهاده، ولم ينس الناس أثره وأعماله... ويدعو الله سبحانه أن يتقبل منه، ويتجاوز عنه، ويُحسن خاتمته.

هموم المسلمين وقضايا الأمة:

لقد كان الشيخ يعيش هموم المسلمين، وقضايا الأمة، فما زرتَه يوماً لأخبره بما يقع للمسلمين من أحداث، وما يحلّ بهذه الأمة من نكبات، إلا وكان الشيخ على دراية تامة، ومعرفة دقيقة بها، على الرغم من ضعف الشيخوخة التي أقعدته في بيته خلال سنوات عمره الأخيرة إلا أنه كان يعيش مع المسلمين في آلامهم وآمالهم، وأفراحهم وأتراحهم، وعُسرهم ويُسرهم، فهو معهم ومنهم ولهم.

وكانت أكبر أمنياته قوله: «وأسأل الله سبحانه كما سترني في شبابي أن يسترني في شيخوختي، وكما أحسن إليّ في دنيائي أن يُحسن إليّ في آخرتي، وأن يختم لي بالحُسنى، وأن يتوفّقني مسلماً، ويلحقني بالصالحين، وأن يريني قبل موتي ظفر المسلمين وعودتهم إلى دينهم عودة كاملة صحيحة سالمة من كل عيب»^(١).

مدرسة علمية حافلة:

الشيخ الطنطاوي مدرسة عملية حافلة، مدّ الله في عمره حتى تجاوز التسعين فأصبح منفرداً بين الناس في علمه وعمره وطبقته، لم يبق من أقرانه الذين صحبهم وصحبوه، وعرفهم وعرفوه، وأحبهم وأحبوه، إلا الاثنين والثلاثة بعد أن كانوا عشرات... وهؤلاء بعيدون عنه... يسأل عنهم، ويسمع أخبارهم... فكان يحس بالغربة، ولطالما أنشد قول الطغرائي:

هذا جزاء امرئ أقرانه دَرَجوا من قبله فتمنّى فُسْحَةً الأجل

ولم يكن الشيخ ممّن يتمنّى فُسْحَةً الأجل بعد أن فقد أعزّ أصحابه، ولكنه فضل الله عزّ وجلّ الذي أطال عمره ووفقه لحسن العمل.

(١) مقدمات علي الطنطاوي، ص ١٨.

وَهْنُ الشَّيْخُوخَةِ:

وشعر في أواخر عمره بثقل الأيام، ووهن الشيخوخة، فكان يردّد قول الشاعر:

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب
كَذَّبْتُكَ نَفْسُكَ لَيْسَ ثَوْبٌ جَدِيدٌ كَالدَّرِيسِ مِنَ الثِّيَابِ

ولكن الروح التي كانت تتخلّل ذلك الجسد، كانت روحاً وثابة، والنفس التي تسكن ذلك الجسم كانت نفساً متطلّعة أبيّة، تتطلع إلى رضوان الله وجنته، وتشوّق إلى لقائه ودار كرامته.

من حُماة الإسلام:

لقد حمل الشيخ الراية بعزم وصدق وإخلاص... وترك بصماته في حياة الناس... ونافح عن الإسلام، ودافع عن حرّماته أمام المفسدين، وقاوم الظلم والظالمين، وترك وراءه تراثاً ضخماً، وعلماً نافعاً، وأدباً ثراً... ولم يكن يريد من ذلك كله إلا الأجر والثواب والجزاء من الله سبحانه، الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

يقول الشيخ رحمه الله تعالى: «وأنا أخطب وأكتب من أكثر من ستين سنة، فإنّ خلصت لله نيتي في العشر منه، بل في معشاره، فكتب في صحيفة حسناتي فقد أفلحت وأنجحت، وإن اقتصر حظي فيه غداً على حفلات تأبين تقام، وخطب تلقى، ومقالات تكتب، فيا ضيعة المسعَى، إن ذلك كله يبقى - هناك - والله مالي إلا رجاء عفو الله، وأني مؤمن لا أشرك بالله أحداً من الناس، ولا شيئاً من الأشياء، والأمل بدعاء الصالحين من المسلمين.

اللهم إن تسألني: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ قلت: غرّني أنك وصفت نفسك بالكريم، لقد غرّني يا ربي كرمك، والكريم لا يردّ من وقف ببابه نادماً مستغفراً راجياً».

فما أصدقها من كلمات، وما أخلصها من دعوات...

إنَّ الشيخ الطنطاوي غنيٌّ بآثاره ومآثره عن كتابة مقالات في تأبينه، وصياغة أشعار في رثائه، ولقد كان يُؤثر الصمت، والبُعد عن الأضواء في أواخر أيامه، بعد أن كان ملء السمع والأبصار، وكان يرجو ثواب الله ومغفرته، ودعوات الصالحين من عباده، وهذا كل ما يرجوه ويتمناه: «والثواب هو وحده الذي يبقى على حين يفنى الإعجاب، وتذهب الأموال، ويعود إلى التراب ما خرج من التراب، وَلَدَعْوَة واحدة لي بعد موتي من قارئ حاضر القلب مع الله، أجدى عليَّ من مئة مقالة في رثائي، ومئة حفلة في تأبيني، لأن هذه الدعوة لي أنا، والمقالات والحفلات لكتابها وخطبائها، وليس لي فيها شيء، اللهمَّ إني أستغفرك وأتوب إليك، وأسألك حسن الخاتمة، والوفاة على الإيمان».

اللهمَّ اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، اللهمَّ ارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وأفسح له في قبره، ونور له فيه.

«اللهمَّ أؤجرنا في مصيبتنا، وأخلف لنا خيراً منها، ولا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده».

جدة ٩ ربيع الأول ١٤٢٠هـ





الشيخ مصطفى الزرقا
أستاذ جيل وإمام عصر^(١)

(١٣٢٤ - ١٤٢٠هـ)

(١٩٠٧ - ١٩٩٩م)



بقلم: تلميذه الدكتور الفقيه
الشيخ أحمد الحجي الكردي

روى البخاري عن إسماعيل بن أبي أويس قال: حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ هِشَامٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جَهَالاً فَسُئِلُوا فَأَمَتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَفُضِّلُوا وَأُضِلُّوا».

لقد ارتحل عنا عالمٌ جليلٌ، وجهبذٌ مُحَقِّقٌ، وفقهٌ مُتَعَمِّقٌ، هو العلامة المغفور له بإذن الله تعالى الشيخ مصطفى أحمد الزرقاء، وقد خسر العالم الإسلامي بوفاته إماماً من أئمة الفقه في هذا العصر، فقد كان رحمه الله تعالى لسان الفقه الإسلامي في عامة المجامع والندوات والمؤتمرات الفقهية التي عُقدت في العالم الإسلامي، بل العالم عامة في هذا القرن، وما أظن

(١) نشرت بتاريخ ٢٢/٦/٢٠٠٦م، في موقع: (الإسلام في سورية)

أن كثيراً منها فاته، وقد كان فيها جميعاً العنصر الفاعل، والمحدث المفوّه، والمحقق المتعمّق، والباحث الثّبت، كما كان رحمه الله تعالى أستاذاً من أساتذة الفقه الأوّل في هذا القرن، وتخرّج به أجيالٌ هم الآن أساتذة الجيل في كثير من الجامعات الإسلامية، أما مؤلفاته - على قلتها من حيث الحجم - فقليل نظيرها بين الكتابات الفقهية المحدثّة، وذلك لما تميّز به فكره الفقهي من دقة الاستنباط، واستيعاب الأصول والقواعد والعلل التي تضبط الأحكام الشرعية، ولما تميّز به قلمه من أسلوب عربي فصيح محكم، خالٍ من الحشو والركاكة، فلا تكاد تجد كلمة واحدة يمكن أن تغني عنها كلمة أخرى في كتبه التي صاغ بها أفكاره، ونسج منها نظرياته، وبخاصة سلسلته: (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد).

اطلاعه على العلوم القانونية واضطّاعه بتدريسها:

ومما تميّز به الفقيه الراحل اطلاعه على العلوم القانونية، واضطّاعه بتدريسها في عدد من الجامعات العربية والإسلامية، والتأليف فيها، حتى عُدّ المرجع المتقدّم فيها، مما مكّنه من المقارنة بينها وبين نظائرها في الفقه الإسلامي، وإظهار رجحان الأحكام الفقهية وتمييزها عليها، بالأدلة العلمية الناهضة، وهو ما لم يتوفّر لأكثر فقهاء العصر.

دراسة أكثر كتبه وتدريسها:

وقد أكرمني الله تعالى بدراسة أكثر كتبه عليه في جامعة دمشق، ثم القيام بتدريس أكثرها مكانة في جامعتي دمشق وحلب، بعد رحيله عن سورية إلى المملكة الأردنية الهاشمية للتدريس في جامعاتها، ثم إلى المملكة العربية السعودية للاستفادة من خبرته النادرة ومشورته الصائبة التي كانت محلّ الاعتبار والرضا في المؤسسات العلمية كافة في المملكة العربية السعودية بمجامعها المختلفة، وفي غيرها من البلدان الإسلامية شرقاً وغرباً.

وقد شارك رحمه الله تعالى في وضع العديد من مشاريع القوانين في البلدان العربية، كما ساهم في شرح وتنقيح بعض منها، من ذلك: قانون الأحوال الشخصية السوري، والقانون المدني الأردني...

اللجنة الأولى في صرح الموسوعة الفقهية:

كما وضع رحمه الله اللجنة الأولى في صرح الموسوعة الفقهية في دولة الكويت عام ١٩٦٧م، ومشى فيها خطوات ثابتة هامة كانت العمدة في استمرار هذه الموسوعة إلى يومنا هذا بحمد الله تعالى، وتوفيقه، على يد نخبة من أبناء الكويت الأمناء والعديد من الفقهاء المتخصصين.

منهجه في الفقه والفتوى:

كما كان رحمه الله تعالى مصدراً هاماً للفتوى في العالم الإسلامي، وقد صدر عنه فتاوى كثيرة في حياته كانت مميزة وذات طابع اجتهادي خاص، فهو رحمه الله تعالى وإن كان حنفي المذهب، إلا أن فتاواه لم تكن تقف عند حدود هذا المذهب، ولكن تعدته إلى المذاهب الثلاثة الأخرى: المالكي والشافعي والحنبلي، وربما جَنَحَ إلى ترجيح آراء ابن تيمية في بعض المسائل، أو اتجه اتجاهها خاصاً متفرداً في بعض الأحكام - وبخاصة المُستجدة منها - إلى ما يراه راجحاً ومُحققاً للمصلحة، وربما وافق في توجيهه هذا أكثر الفقهاء أو بعضهم، وربما خالفهم فيه جميعاً غير آبه بخلافهم، مثل إباحته التأمين ضد الأخطار، والتأمين على الحياة، لدى شركات التأمين التجارية، فقد عُرِضَ هذا الموضوع على مجمع الفقه الإسلامي، فأتجه جميع أعضائه فيه إلى المنع، لما فيه من الغرر، وتفرد الشيخ الزرقاء دونهم بإباحته، لما رآه من المصلحة، وقياساً له على عقد الموالاة وغيره، وهذه الميزة في الشيخ يعدها البعض من ميزاته الإيجابية، لما بلغه رحمه الله تعالى من العلم، وما وصل إليه من القدرة على التحليل والاستنتاج، ويعدها آخرون من سلبياته التي تجرأ فيها على مخالفة الأكثرية، والخروج على الجماعة.

وهو في نظري مأجور فيها إن شاء الله تعالى مصيباً كان أو مخطئاً، لأنه عالم ومحقق بذل جهده كاملاً، فثبت أجره على الله تعالى، لقول النبي ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» متفق عليه.

فنسأل الله تعالى لفقيها وفقيدا الغالي الرحمة والرضوان، والمقام العالي في جنّات الخلد، مع النبيّين والصّديقين والشهداء والصّالحين، وأن يعوض الله تعالى العالم الإسلامي بخسارته فيه خيراً، وأن يثيب الفقيد الغالي عما قدم للمسلمين عامة وللّفقه الإسلامي خاصة من علوم ومعرفة جنّات عرضها السماوات والأرض، وأن يرزق أهله وذويه وطلابه ومحبيه كافّة الصبر والسلوان، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

توفي الشيخ رحمه الله تعالى في مدينة الرياض عصر يوم السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠، الموافق ٣ تموز ١٩٩٩م.

طَرَفٌ من أخباره الأُسْرِيَّةِ رحمه الله تعالى:

ولد رحمه الله بمدينة حلب عام ١٣٢٢ في بيئة إسلامية وأسرة علمية، فوالده العلامة الفقيه الشيخ أحمد الزرقاء صاحب كتاب «شرح القواعد الفقهية» المتوفى عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م)، وهو أحد من ترجم له الشيخ العلامة عبدالفتاح أبو غدة تلميذه رحمه الله عليهما في كتابه «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري». وجدّه هو علامة حلب الفقيه العُمدة المحقق الشيخ محمد الزرقاء المتوفى عام ١٣٤٣هـ.

يطلق الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله على سلسلة العلم هذه: الشيخ مصطفى - الشيخ أحمد - الشيخ محمد: سلسلة الذهب.

وتتابع الاهتمام بالعلم في هذه الأسرة العلمية لدى ابن الشيخ مصطفى الثاني: الدكتور أنس، فهو من العلماء في الاقتصاد الإسلامي.

والدته هي السيدة زينب بنت الحاج محمد جَلَب، وكانت امرأته صالحة، ولما حملت به رأت في الرؤيا رسول الله ﷺ يُبشّرها بأنها حامل بذكر وأوصاها بتسميته مصطفى.

جاءه من زوجته الأولى (وظفاء الأميري) أولاده: نوفل وهو أكبرهم - وأنس - ورُفيدة، وتوفيت - رحمها الله - عام ١٩٤٢؛ ثم تزوج من (فخرية

طاهر الذيل) وجاءه منها: مازن وعامر، وتوفيت - رحمها الله - عام ١٩٨٣، وحزن عليها حزناً شديداً ورثاها بقصيدة من عيون قصائد الرثاء.

كما تُوفي في حياته ولده الطبيب مازن، ثم ولده الأكبر المهندس نوفل الذي قال فيه إثر وفاته:

كان التيُّم للصغار بفقدهم آباءهم، فإذا الأمور تُبدَّل
فاليوم فقدك يا بني أضاعني وأراك قد يَتَمَتَّني يا نوفل

آثاره العلمية - رحمه الله تعالى :-

١ - سلسلة (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) وصدر منها: المجلدان الأول والثاني بعنوان: «المدخل الفقهي العام»، والمجلد الثالث بعنوان: «المدخل إلى النظرية العامة للالتزامات في الفقه الإسلامي»، الذي نال به جائزة الملك فيصل العالمية في عام ١٩٨٤، والمجلد الرابع بعنوان: «عقد البيع». ٢ - شرح القانون المدني الأردني في ثلاث مجلدات. ٣ - أحكام الوقف (جزء لطيف). ٤ - في الحديث النبوي. ٥ - العقل والفقه في فهم الحديث النبوي. ٦ - الاستصلاح والمصالح المرسلّة. ٧ - الفعل الضار والضمان فيه. ٨ - نظام التأمين والرأي الشرعي فيه. ٩ - الفقه الإسلامي ومدارسه. ١٠ - عظمة محمد ﷺ مجمع العظمت البشرية. ١١ - عقد الاستصناع وأثره في نشاط البنوك الإسلامية. ١٢ - صياغة شرعية لنظرية التعسف في استعمال الحق.

وقدّم لكتاب (مشروع قانون الأحوال الشخصية الموحد) الذي كان أحد أعضاء اللجنة التي قامت بصياغته، كما قدّم لكتاب والده النفيس (شرح القواعد الفقهية)، ولكتاب تلميذه العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة (صفحات من صبر العلماء).

وجُمِعَ شعره في كتاب بعنوان (قوس قزح)، لتنوّع مواضيع قصائده كتنوّع ألوان قوس قزح، كما جمعت فتاواه المتفرقة في كتاب ضخّم بعنوان

(فتاوى مصطفى الزرقاء) صدر حديثاً مع ترجمة حافلة للشيخ - رحمه الله - بقلم جامع الفتاوى: الشيخ مَجْد مكي.

نماذج من فتاوى الشيخ مصطفى الزرقاء - رحمه الله :-

مشكلة في الحجاب لدى أجنبيات يعتنقن الإسلام؟

سُئِلَ الشيخ رحمه الله من مسلمين مغتربين في أمريكا ما يلي: عدد من النساء اعتنقن الإسلام عن قناعة ورضا، غير أن موضوع الحجاب ظل صعباً عليهنّ الالتزام به، سواء بسبب الاقتناع - خاصة وهُنَّ يرين من بين المسلمات العربيات وغيرهن من لا يتحجبن - أو الصعوبة التي تواجههن إذا أردن إكمال حياتهن موظفات وعاملات كما تقضي ضرورة الحياة هناك. والسؤال: هل الأفضل أن يتأخر إعلان هؤلاء إسلامهن مع استمرارهن في مرحلة الدراسة والبحث حتى يشرح الله صدورهن للتحجب؟ أو ينبغي أن يرخص لهن ويرحّب بهن على ما هُنَّ عليه من قناعات؟

فأجاب رحمه الله بما يلي:

«إنّ من اعتنقن الإسلام من النساء الأجنبيات عن قناعة ورضا، ويصعب عليهنّ الالتزام بالحجاب - ستر ما يجب ستره من بدن المرأة - لا نستطيع تغيير حكم الإسلامي الشرعي لأجلهن وإباحة السفور والحسور لهن، لأن هذا التناقض عندئذ في حكم الإسلام بين الإباحة والمنع.

ولكن إذا سفرن وخسرن يجب أن يكون هذا على اعتقاد أن هذا حرام في الإسلام، أما اعتقاد أنه حلال لا يحرمه الإسلام فهذا ينافي الإسلام.

ففرق كبير في النظر الإسلامي بين العاصي لأوامر الله عزّ وجلّ مع اعتقاد الحرمة وبين المستبّيح، فالمستبّيح للمحرّم القطعي كافر. وذلك كمن يشرب الخمر عاصياً فهو مسلم ومن يراها مباحة فهو كافر.

وعلى هذا يكون ممارسة السفور والحسور من هؤلاء المسلميات

الجديدات دون اعتقادهن للإباحة - بل بانتظار أن تقوى إرادتهن وعزيمتهن - أولى من بقائهن على الكفر، والله أعلم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء» اللهم اجعلنا منهم.

وبهذه المناسبة أقول: يجب إفهام هؤلاء النسوة أن احتمالهن لهذا الحجاب اليسير وإن كان فيه بعض المشقة عليهن: فيه لهن ثواب إضافي عند الله أكثر ثواباً لمن تعيش في بيئة إسلامية.

العيوب التي يجب ذكرها للخاطب:
وكتب إليه رحمه الله أحد الأشخاص سائلاً:

هل يجب على والد المخطوبة أن يذكر للخاطب جميع العيوب الخلقية والخلقية، فمنها العيوب التي لا تؤثر في دوام الحياة الزوجية مثل بعض الأمراض المستعصية غير المعدية أو التي يلزمها علاج طويل؟ وفي حال أن الخاطب لم يسأل فهل يلزمه المبادرة بذكر هذه العيوب، علماً أن بعض العيوب لا تظهر للخاطب عندما يرى خطيبته ولا لأهلها؟

فكتب رحمه الله إلى السائل مجيباً:

«العيوب التي يجب ذكرها للخاطب هي الأمراض المعدية، أو التي تُزعج الحياة الزوجية كالصرع، أو العيوب الجنسية كالزرق، هذا ما يبدو لي، والله أعلم».

موقف الإسلام من تحديد النسل:

وجاءه رحمه الله السؤال التالي:

يكثر اليوم الكلام والحديث عن ضرورة اتخاذ تدابير عامة في البلاد لتحديد النسل، فما موقف الإسلام من هذه الدعوة في البلاد الإسلامية؟

فأجاب طيب الله ثراه:

«ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تزوجوا الودود الولود فإني مكثر

بكم الأمم»، ورُوِيَ أيضاً بإسناد غير قوي - ولكن تعضده مؤيدات من الأدلة - أنه عليه الصلاة والسلام قال: «تناكحوا تكثروا، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة».

وفي هذه دلالة على أن تحديد النسل بأي وسيلة من الوسائل لا يجوز في ظل الإسلام بأن يكون هدفاً عاماً في الدولة تهدف إليه، وتخطط له، وتحمل عليه الناس بتدابير عامة. فلا يزال ولن يزال العدد البشري في كل أمة من أهم مقاييس شأنها في الأنظار الدولية، وقابليات قدرتها وقوتها.

ولكن لا يوجد مانع شرعي في الإسلام من اتخاذ تدابير شخصية - أي في نطاق شخصي غير عام - من كل فرد بحسب ظروفه الخاصة وقدرته المالية، بتحديد نسله بطرق مَنع الحمل دون طرق الإجهاض التي فيها عدوان على جنين متكوّن إلا في حالات الضرورات التي تصل إلى درجة إباحة المحظورات كضرورة إنقاذ حياة الأم التي توقف الإنقاذ على إسقاط حملها.

هذا ما تدلّ عليه النصوص الشرعية وعموماتها وكلام الفقهاء. وهو الموقف الذي استقرّ عليه رأي علماء الشريعة الإسلامية المعاصرين في عدّة مناسبات وحلقات اجتماعية: كمهرجان الغزالي بجامعة دمشق سنة ١٩٦١، ومؤتمر تنظيم الوالدية في الرباط عاصمة المملكة المغربية سنة ١٩٧١، وفي كليهما اشترك فقهاء العصر على مستوى البلاد العربية والإسلامية، وقرروا هذا الموقف. كما قرّره أيضاً العلامة المحقق الداعية الإسلامي الشيخ أبو الأعلى المودودي في كتابه القيم عن الدعوة إلى تحديد النسل وموقف الإسلام منها.

حكم مشاركة غير المسلم أو من في ماله ربا:

وجاءه رحمه الله السؤال التالي:

١ - هل تباح مشاركة أحد من هؤلاء في عمل تجاري: ١ - النصراني؟

٢ - المرتد عن الإسلام بإنكار معلوم من الدين بالضرورة؟ ٣ - الذي في ماله ربا أو في ماله رشوة أو مال مغصوب؟

فكان جوابه رحمه الله :

- ١ - تجوز مشاركة النصراني بالتجارة.
 - ٢ - المرتد عن الإسلام لا تجوز معاملته.
 - ٣ - الذي في ماله ربا أو حرام آخر تُكره معاملته ومشاركته.
- هذه الفتاوى من كتاب «فتاوى مصطفى الزرقا» التي قام على جمعها وترتيبها تلميذه الشيخ مَجد مكي وفقه الله ورعاه، طبعة دار القلم - دمشق، عام ١٤٢٠، الصفحات: ٢٦٦ - ٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٦ - ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٥٦٠.





الشيخ مصطفى الزرقا الفقيه النابغة^(١)

بقلم تلميذه: مجد مكي

بين الشيخين الزرقا والطنطاوي:

تتابعت المصائب، وتالت الأحزان في فقد علماء الأمة، فما كدنا نفيق بالأمس القريب من ألم الوداع وحزن الفراق لشيخنا العلامة الأديب الأستاذ علي الطنطاوي حتى حلت بنا نكبة أخرى بوفاة الأستاذ الجليل والفقيه الكبير العلامة الشيخ مصطفى الزرقا... رحمه الله تعالى.

وكان بين الشيخين صلة وثيقة وأخوة متينة، ابتدأت بالدراسة في مكتب عنبر، وكلية الحقوق بدمشق، واستمرت بعد تخرجهما في حقول العلم والفقه وميادين التربية والدعوة إلى الله عز وجل.

وكم سمعتُ من أستاذنا الزرقاء من كلمات الشناء والتقدير لصديقه الوفي الحفي الطنطاوي، وهو يعدُّه من أبرز العلماء المعاصرين الذين أعجب بهم.

وما أكثر ما سمعت من أستاذنا الطنطاوي من مشاهد وذكرات مع الأستاذ الزرقا تُنبئ عن كريم أخلاقه، ورفيع سجاياه... وما أكثر ما كان

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٧/١/١٦م، في موقع: (الإسلام في سورية)

يُشيد بعلمه وفقهه، وتفردّه بين أقرانه بدقّة الفهم وسعة الاطلاع، ويدعو الله عزّ وجلّ أن يُطيل عمره، وينفع الأمة بآثاره، وكم كانت فرحته غامرة عندما أهديته كتاب: «فتاوى مصطفى الزرقا»، الذي قمتُ بجمعه وترتيبه.

ومن لطيف ما يذكره الشيخ الطنطاوي عن صديق عمره الزرقا: أنه اختلف معه أيهما أكبر سنّاً من الآخر؟ حتى اعترف له بعد ثلاثين عاماً أنه يكبره بخمس سنوات... ثم يقول بتواضعه المعهود: هو أكبر مني سنّاً وعلماً.

تعزية الزرقا بصديقة الطنطاوي:

ولما علم الأستاذ الزرقا بوفاة الطنطاوي تأثر بفقده، وأرسل بخط يده المرتعشة فاكساً أو فقساً كما عربّه شيخنا الزرقا - من فقس يفقس - مُعزياً بوفاته، قال فيه: «إلى آل فقيد الأمة الإسلامية: الأستاذ علي الطنطاوي رحمه الله: بلغني وفاة الفقيد الفقيه الأديب الكبير العلامة الشيخ علي الطنطاوي، وأنا مريض في الفراش، فأتقدّم بالتعزية لآل الكرام، وللأمة الإسلامية، سائلاً المولى أن يعوّضها وإيانا خيراً، ويجزيه أحسن الثواب. مصطفى أحمد الزرقا».

لقد ودّعنا بوفاة العلامة الزرقا نمطاً فريداً من العلماء، في راحة العقل، وفقه النفس، ودقّة الفهم، والإحاطة بعلوم الشريعة، والمعرفة بواقع العصر.

ساعده على ذلك - بفضل الله وتوفيقه - عدة أسباب: البيئة العلمية الصالحة أولاً، وتلقيه العلم عن كبار علماء الشام ثانياً، ودراسته العصرية ثالثاً، ومباشرته للتدريس والإفادة في وقت مبكر رابعاً، وإسهامه في التحقيق والتأليف خامساً، ومشاركاته الفعّالة في المجامع الفقهية والعلمية سادساً، ونشاطاته الدعوية وجهوده الإصلاحية سابعاً.

البيئة العلمية الصّالحة:

١ - ولد الأستاذ الزرقا بمدينة حلب سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م من أبوين صالحين، ونشأ في بيئة علمية حافزة على الطلب والتحصيل، حيث تربّى

تحت نظر جده العلامة الكبير الشيخ محمد الزرقا - ت ١٣٤٢هـ - وفي رعاية والده الفقيه الضليع الشيخ أحمد الزرقا - المتوفى ليلة الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة ١٣٥٧هـ - رحمهما الله تعالى. فنشأ في ذلك الجو العلمي النابض، وظهرت عليه ملامح النجابة والذكاء منذ طفولته.

تلقيّ العلم على كبار علماء بلده:

٢ - وساعده على ذلك النبوغ أيضاً: تلقيّ العلم على كبار علماء حلب الشهباء، ولا أعرف أحداً من المعاصرين يساويه في طبقة شيوخه الكبار الذين درس عليهم؛ ومن أبرزهم: العلامة الفقيه النحوي الشيخ أحمد المكتبي الشافعي - ت ١٣٤٢هـ - والشيخ محمد الحنفي المتوفى بجدة سنة ١٣٤٢هـ وهو من أعظم شيوخه تأثيراً فيه، بالإضافة إلى والده الفقيه الكبير، وإلى العلامة المؤرخ المحدث الشيخ محمد راغب الطباخ - ت ١٣٧٠هـ - . ومن أساتذته أيضاً: الشيخ أحمد الكردي - ت ١٣٧٣هـ - أمين الفتوى بحلب، والشيخ إبراهيم السلطيني الجد - ت ١٣٦٧هـ - والشيخ عيسى البيانوني - ت ١٣٦٢هـ - والشيخ محمد الناشد - ت ١٣٦٢هـ - . كما حضر في دمشق أثناء دراسته الجامعية دروس العلامة المحدث الكبير الشيخ محمد بدر الدين الحسني ت ١٣٥٤هـ .

دراسته العصريّة:

٣ - ومن عوامل نبوغه وتفوّقه أيضاً: إضافةً إلى بيئته العلمية، وشيوخه الكبار، ودراسته الشرعية العميقة، معرفته باللغة الفرنسية والعلوم العصرية، حيث ألحقه والده وهو دون سنّ العاشرة بمدرسة الفرير، وتلقّى فيها مبادئ اللغة الفرنسية... ثم تابع بجهوده الشخصية دراسته العصرية، فنال شهادة البكالوريا الأولى في شعبة - العلوم والآداب - وحصل على الدرجة الأولى على طلاب سورية جميعهم، ثم توجّه إلى دمشق سنة ١٩٢٩م بمتابعة دراسته العصرية، ونال البكالوريا الثانية في شعبة - الرياضيات والفلسفة - وأحرز الأوّلية أيضاً، والتحق بعد إحرازه البكالوريا الثانية بالجامعة السورية، ودرس في كليتي الحقوق والآداب العليا، وتخرج في الكليتين،

وأحرز الدرجة الأولى، ومن أساتذته في تلك المرحلة: الشيخ عبدالقادر المبارك، وعبدالقادر المغربي، وسليم الجندي، وشاعر الشام شفيق جبري... ولما انتهى من دراسته الجامعية كتب قصيدة بعنوان: "وداع حياة الطلب" في ٣٤ بيتاً، عبر فيها عما قاساه من مشقة الدراسة، افتتحها بقوله:

نِعم ما نولتني من أربي فوداعاً يا حياة الطلب

وتُظهر هذه القصيدة ما تتطلع إليه نفسه الطموح من مستقبل علمي زاهر، وما يتحلى به من همّة عالية، وصبر وعزم لتحقيق ما يصبر إليه، فيقول مخاطباً نفسه:

وأدّرع بالصبر في طول الطريق فهو في درب العُلا خير رفيق
إن مُرّ الصبر يغدو كالرحيق حين تحظى ببلوغ الأرب

تدريسه في عدد من المدارس والجامعات:

٤ - ومن عوامل نبوغه وتفوقه كذلك: مباشرته للتدريس في وقت مبكر، حيث تولى التدريس مكان والده في المدارس التي كان يدرس فيها، في المدرسة الخسروية والشعبانية، كما تولى القيام بالدرس الذي كان لوالده في الجامع الأموي بحلب، وجامع الخير، ولذلك درس الكثير من الطلبة الذين هم أكبر منه سناً، وألحق الأحفاد بالأجداد.

ولم يقتصر نفعه وتأثيره في محيط بلده، بل عمّ نفعه الكثير من البلاد والعباد، فانتقل إلى دمشق للتدريس في كلية الحقوق عام ١٩٤٤م، وبقي فيها أستاذاً للحقوق المدنية والشرعية، حتى بلوغه سن التقاعد في آخر عام ١٩٦٦م، كما درس في كلية الشريعة بدمشق بعد إنشائها سنة ١٩٥٤م، ودرس في معهد الدراسات العربية العالية، التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، ثم درس في كلية الشريعة في الجامعة الأردنية عام ١٩٧١م، وظل بها حتى عام ١٩٨٩م، وتخرج على يديه، وتربى على منهجه العلمي نخبة من كبار العلماء، الذين تبوؤوا أرفع المناصب العلمية، والذين يُكونون له كل محبة وتقدير ووفاء.

تحقيقاته ومؤلفاته:

٥ - ومن عوامل نبوغه وتفوقه أيضاً: إسهامه في التأليف والتحقيق منذ وقت مبكر من عمره، ساعده على ذلك: ثقافته اللغوية والأدبية الراقية، وعلومه الشرعية الواسعة، إضافة إلى تشجيع شيخه العلامة المؤرخ الشيخ: محمد راغب الطباخ... ومن أوائل أعماله العلمية: تحقيقه لكتاب: «المذكر والمؤنث» للفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ، وكتاب: «مختصر الوجوه في اللغة» للخوارزمي، وقد طبعا بحلب سنة ١٣٤٥هـ، وكانت سنه آنذاك ثلاثاً وعشرين سنة.

وعندما عُيّن الشيخ الزرقا أستاذاً لتدريس الحقوق المدنية والشرعية الإسلامية، قام بعرض الفقه بأسلوب عصري جديد، ساعده على ذلك ذخيرته من الدراسة القانونية وبحوثها ومناهجها ونظرياتها، فقرّب الفقه، وحلّ عقده، وأسلس قياده لطلاب الجامعة الذين ليس لديهم خلفية علمية تؤهلهم لاستيعاب قضاياها.

وقد وفّقه الله لإخراج سلسلتين من المؤلفات: أولاهما: السلسلة الفقهية، وعنوانها العام: «الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد»، وقد بلغت أجزاءها أربعة مجلدات: الجزء الأول والثاني: «المدخل الفقهي العام» والجزء الثالث: «المدخل إلى نظرية الالتزام العامة في الفقه الإسلامي»، والجزء الرابع: «العقود المسماة في الفقه الإسلامي: عقد البيع».

وأما السلسلة الثانية: فتتألف من ثلاث مجلدات في: «شرح القانون المدني السوري». وقد حوت هذه السلسلة مقارنات كثيرة بالفقه، وأبرزت بوضوح ما يتميز به الفقه الإسلامي من إحاطة ودقة وشمول.

ومن أواخر ما صدر للشيخ رحمه الله تعالى: «فتاوى مصطفى الزرقا»، التي جمعتها من عدد من الدوريات، وما اجتمع لدى الشيخ من إجابات على أسئلة يُسأل عنها، فقام بترتيبها والعناية بها، وكتابة مبحث عن منهجه في الفتوى، كما قدّم لها الدكتور القرضاوي - حفظه الله - بطلب من فضيلة الشيخ الزرقا مقدمة ممتعة... وقد لقي هذا العمل استحساناً وثناءً من جلة أهل العلم والفضل، والحمد لله على فضله وتوفيقه، وسيتبعه - بعون الله - بحوثه الفقهية، ومقالاته العلمية والأدبية.

مواهبه الأدبية وملكته الشعرية:

ولم تقتصر مؤلفات الشيخ على الجوانب الفقهية والقانونية، بل كانت له مشاركات لغوية وأدبية شعرية، وقد تميز الشيخ بمواهبه الأدبية وملكته الشعرية منذ صغره، وأولع بحفظ طائفة كبيرة من أصله... وقد جمع كثيراً من شعره في ديوانه «قوس قزح» وقدم لكل قصيدة بمقدمة يذكر فيها المناسبة التي قيلت فيها، ولم يطغ الشعر على قريحة الأستاذ الزرقا، ولم يستحوذ على اهتماماته العلمية إلا بمقدار، ذلك أن الفقه الإسلامي، وبحوثه المتشعبة، ومسائله الشائكة، ونوازل المستجدة المعقدة، كان يحتل بؤرة شعوره، ويملاً بياض أيامه وسواد لياليه، كما عبر عن ذلك في قصيدته لصديقه الشاعر إبراهيم العظيم:

أخذ التفقه من فؤادي شعره	نعماً ألدّ لديّ من قَطَرِ الثدى
وأعاضني بثقافة الحقّ الذي	نادى الإله بحكمه وتوعّدا
لا تبغ مني أن أجيب فإنني	مهما جريت وجدتني دون المدا
دم في فضائلك العلا متفرداً	مني الطروب ومنك غريد شدا

مشاركته في المجامع الفقهية والعلمية:

٦ - ومن عوامل نبوغ الشيخ وتفوقه إضافة إلى كل ما ذكرته من أسباب يسرها الله عز وجلّ له ووفقه إليها: مشاركاته الفعّالة في المجامع الفقهية والعلمية، وإدارته لكثير من المشاريع العلمية، فهو من أوائل الذين دعوة إلى إنشاء الموسوعة الفقهية، عندما كان مدرساً في كلية الشريعة، واختار للبدء بهذا المشروع كتاب: «المحلى» لابن حزم، وقد أتم هذا العمل الدقيق الأستاذ الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى، وصدر كتاب: «معجم الفقه الظاهري» مستخلصاً من «المحلى» في مجلدين.

ثم اختارته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت سنة ١٩٦٦ خبيراً للموسوعة الفقهية، وبقي في الكويت خمس سنوات قائماً بهذه المهمة خير قيام، حيث أنجز من مشروع: «الموسوعة الفقهية» - ٥١ موضوعاً

موسوعياً محرراً على المذاهب الفقهية الثمانية -، ومعجماً للفقه الحنبلي يقع في ١١٤٢ صفحة مرتباً ترتيباً هجائياً بإشرافه.

كما اختارته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عضواً في المجمع الفقهي منذ إنشائه عام ١٣٩٨هـ، وقدم للمجمع عدة دراسات فقهية معاصرة.

وله مشاركات علمية أخرى، منها: مشاركته في وضع مشروع قانون الأحوال الشخصية السوري عام ١٣٧٢، ورئاسته لجنة مشروع القانون الموحد للأحوال الشخصية لمصر وسوريا خلال وحدتهما (١٩٥٨ - ١٩٦١) وقد قام الأستاذ الزرقا بنشر هذا المشروع المهم، وقدم له، وصدر عن دار القلم بدمشق.

كما شارك في تأسيس وتطوير مناهج عدد من الجامعات، وشارك في كثير من المؤتمرات.

جائزة الملك فيصل العالمية:

وقد منح الأستاذ مصطفى الزرقا جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٤٠٤، وذلك تقديراً لإسهاماته المميزة في مجال الدراسات الفقهية، ومشاركاته الجادة في المؤتمرات الفقهية والإسلامية.

كثرة أسفاره وتعدد رحلاته:

٧ - ومن عوامل نبوغه: كثرة أسفاره وتعدد رحلاته العلمية في آفاق الأرض، ممّا وسّع مداركه وآفاقه العلمية، وعمّق معرفته بواقع الناس وأحوال العصر، وغرس في نفسه روح الاستقلال الفكري، وهو يصور نفسه الأبية الطموح بهذه الأبيات الجميلة التي أنشدها عند تخرجه من الجامعة:

إيه أصبحت طليقاً طائري	فازم ذا الجو بصقر صاقر
ثم خلّق واكتشف وغامر	ورِدَ الأنهار حُرَّ المَشْرَبِ
عثر طليقاً في رُبى المستقبل	واغتنم كل ربيع مقبل

واحذر الأقفاص لا تستجمل قفصاً يوماً ولو من ذهب
تلك نفسي طائراً صوّزتها وإلى أوج الغلا طيّزتها
وبنور العلم قد نورتها فبدت في أفقه كالكوكب

نشاطاته الدعوية وجهوده الإصلاحية:

٨ - ومن عوامل نبوغه: مشاركته في الدعوة الإسلامية، وتعرفه على أعلامها في كل قطر، وتعاونه مع العاملين للإسلام، وجهوده الإصلاحية في مشروع توحيد المدارس الوقفية ورفع مستوى الدراسة الشرعية، التي قام بها في بواكير شبابه في مدينة حلب مع بعض فضلاء شيوخه... وقد لقي العنت من المناوئين لفكره الإصلاحي، مما أورثه ضيقاً نفسياً شديداً، وصفه بتلك الأبيات المعبرة عما يلقاه المصلحون النابغون من أذى وإرجاف:

نبوغ النابغين إلى اختناق وكل مبرز هدف لطمع
يببئ لديغ بهتان وحققد ويمشي بين حسّاد وضغن
جزاء المصلحين مزيد بغض وإيذاء بألوان التجني
فذا صنم من الأشخاص يمشي وذا صنم من الأحجار مبني

ميادين العمل السياسي:

وامتدت جهوده الإصلاحية والدعوية إلى ميادين العمل السياسي، فانتخب نائباً عن مدينة حلب في المجلس النيابي مرتين، وشكل مع مجموعة من الإسلاميين في مجلس النواب: «الجهة الإسلامية» كما استلم منصب وزارتي العدل والأوقاف مرتين، سنة ١٩٥٦ و ١٩٦١، ولم تشغله أعماله السياسية في النيابة والوزارة عن التدريس الجامعي، وعمله العلمي، بل نمت مواهبه، وزادت من معرفته وأغنته بالتجربة والخبرة.

إثارة العلم والدراسة:

ولم ينقطع الشيخ عن العلم دراسة وتأصيلاً ومتابعة خلال عمره

المديد، وقد أقام منذ سنة ١٤١٠ بالرياض مستشاراً فقهياً في شركة الراجحي، وكان الشيخ يؤثر العمل والوظيفة رغم أعراض الشيخوخة وتوارد الأمراض عليه، التي كان يتغلب عليها بالعلم، ويتسلى عنها بالبحث والدراسة، فكانت تعرض عليه القضايا المالية الشائكة، فيبدي فيها رأيه الحصيف، ويقول فيها قوله الفصل، وكان من أثر الإخوة لديه في تلك المرحلة الذين لازموه واستفادوا من علمه ومنهجه الدكتور علي أحمد الندوي من تلاميذ مولانا العلامة السيد أبي الحسن الندوي حفظه الله ورعاه.

لقاءاتي بالشيخ الزرقا:

وقد تركزت لقاءاتي بالشيخ في حلب وعمان ومكة وجدة والرياض، ولا سيما في المجالس التي كان يزور فيها منزل الأستاذ الباحث محمد بن عبدالله الرشيد، ويجتمع فيها ثلة من أهل الفكر والعلم.

وكانت آخر زيارة له في الرياض يوم الخميس ٢٧ محرم ١٤٢٠هـ بصحبة الأخ الأستاذ سلمان بن عبدالفتاح أبو غدة، وكان حاضرَ الذهن، قويَ الذاكرة، يحلّ قضايا الفقه الشائكة، ومسائله المعقدة، وقد بقي ممثعاً بجوارحه وحواسه ومداركه إلى يوم وفاته، وقد قارب المائة من عمره، وبقي مهتماً بقضايا الفقه ومباحثه، حاملاً لأمانة العلم والدين. وقد حدثني ابنه الفاضل الدكتور: أنس، أنه قبيل وفاته بساعتين، عرضت عليه مسألة علمية تتعلق بالمعاملات المالية، وسُئل عن دليلها، فاستخرج لها من القواعد الفقهية ما يدل عليها... وبقي بعد انصراف المستفتين يضيف إلى الفتوى وينقح فيها حتى وافته المنية بعد أذان صلاة العصر يوم السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠هـ.

رحم الله شيخنا الجليل، وأخلف على الأمة بفقدان أهل العلم وموت أعلامه... لا سيما في هذه المرحلة التي تتابع فيها موت العلماء الأعلام، فقد فقدنا منذ أيام الشيخ مناع القطان، الذي توفي في الرياض يوم الأحد ٥ ربيع الآخر، والعلامة المفسر الفقيه الشيخ محمد عطية سالم الذي توفي في المدينة المنورة يوم الاثنين ٦ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا إليه راجعون.



الشيخ عطية محمد سالم

المفسر الفقيه الواعظ^(١)

(١٣٤٦ - ١٤٢٠هـ = ١٩٢٧ - ١٩٩٩م)

بقلم: مَجْد مكي

المفسر الفقيه المدرّس في المسجد النبوي:



إذا دخلت المسجد النبوي المُطَهَّر من باب الرحمة - بعد صلاة المغرب - ستجد على يسارك في أول التوسعة السعودية حلقةً نورانيةً يتصدرها شيخ مهيب الطلعة، مُنَوَّر الشيبة، جميل الصوت، حسن الأداء، واضح العبارة، تحيط به أعداد كبيرة من طلاب العلم من مختلف المستويات...

وستجد نفسك منساقاً للجلوس مع هذا الجمع المبارك، فتشعر بالسكينة تنزل عليك، والرحمة تغشاك، والملائكة تحفك، وتعود من ذلك الدرس بالفائدة والخير العميم والنفع الكبير.

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٧/١/٦م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com. وكانت نشرت قبل ذلك في مجلة «النور» الكويتية.

إنه مجلس العلامة الشيخ: عطية سالم. الذي فجع المسلمون بوفاته بالمدينة المنورة في يوم الاثنين ٦ ربيع الثاني ١٤٢٠هـ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين عاماً، قضاها في العلم والتأليف والتدريس والإرشاد. ووفاء لهذا العالم الجليل، وتذكيراً للأجيال بما قدّمه من آثار علمية وعملية، أسوق هذه الكلمة الموجزة في التعريف به:

ولادته ونشأته وقدمه إلى المدينة المنورة:

هو العلامة المفسر المحدث الفقيه الواعظ الشيخ عطية محمد سالم، ولد سنة ١٣٤٦هـ بمديرية الشرقية بمصر، وابتدأ دراسته بكتاتيب القرية، وانتقل بعدها إلى المدرسة الأولية، وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات، ثم قدم إلى المدينة المنورة في الثامنة عشرة من عمره عام ١٣٦٤هـ.

دراسته في المسجد النبوي وأشهر شيوخه:

وبدأ دراسته في المسجد النبوي الشريف على عدد من علماء المدينة المنورة، ومنهم:

الشيخ عبدالرحمن الإفريقي، والشيخ محمد التركي، والشيخ محمد علي الحركان، والشيخ عمار الجزائري، رحمهم الله جميعاً.

كما حضر بعض دروس شيخه العلامة: محمد الأمين الشنقيطي في التفسير أول قدومه إلى المدينة المنورة.

انتسابه إلى المعهد العلمي في الرياض وتخرجه في كليتي اللغة العربية والشريعة:

ولما فتحت المعاهد العلمية، والكليات الشرعية عام ١٣٧٠هـ، انتقل إلى الرياض، فدرس الثانوية الثانية، ثم المعهد العالي، ثم في كليتي اللغة العربية والشريعة، وتخرج فيهما معاً، وكانت الدراسة آنذاك في أعلى المستويات إذ استقدم للمعاهد والكليات، كبار علماء الأزهر بالإضافة إلى كبار علماء المملكة، وهناك توطدت صلته بفضيلة الشيخ: عبدالرزاق عفيفي.

صلته بشيخه محمد الأمين الشنقيطي:

وأما أكثر شيوخه تأثيراً به، وأوثقهم صلة واستفادة وبراً ووفاء، فهو العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، فقد لازمه في الحضر والسفر لمدة عشرين سنة، واستمرت تلك الصلة من يوم قدوم شيخه سنة ١٣٧١هـ إلى آخر حياته ١٣٩٣هـ رحمهما الله تعالى. وامتنَّ الله عليه بصحبة شيخه الأمين في الرياض والمدينة، وفي رحلات الحج أربع سنوات متتالية، وفي الرحلة إلى إفريقيا، حيث زار بصحبته عشرة أقطار بدءاً بالسودان، وانتهاءً بموريتانيا، واستمرت تلك الرحلة ثلاثة أشهر، وكانت علاقته بشيخه علاقة ولد مع والد، وكان شيخه يحيطه بال العناية والرعاية.

أعماله ووظائفه:

كُلف بالتدريس قبل التخرج، فدرس في معهد الإحساء العلمي لمدة أربع سنوات، وبعد التخرج انتقل للتدريس في معهد الرياض، ثم انتقل للتدريس في الجامعة الإسلامية عند افتتاحها عام ١٣٨١هـ باستدعاء من مفتي المملكة الشيخ محمد بن إبراهيم، وكان في جملة المشاركين مع الشيخ عبدالرزاق عفيفي، ومثاع القطان، ومحمد العبودي، في وضع البرامج ورسم المناهج، برئاسة فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز، وأسندت إليه شؤون التعليم فدرس الفقه والأصول.

ثم انتقل بعد ذلك إلى القضاء بتكليف من مفتي المملكة أيضاً، وابتدأ تعيينه بمرتبة قاض، ولم ينقطع أثناء عمله في القضاء عن التدريس في المسجد النبوي، وتدرج في مراتب القضاء حتى وصل إلى مرتبة «قاضي تميز» حيث أحيل للتقاعد في ١٤١٤/٧/١هـ.

تدريسه بالمسجد النبوي:

ابتدأ التدريس في المسجد النبوي الشريف في وقت مبكر، بعد أن تمَّ وضع كرسي بجهاز باسم الجامعة الإسلامية، كان يتناوب عليه كل من فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبدالعزيز بن باز، نائب

رئيس الجامعة آنذاك. ولظروف الشيخ محمد الأمين الصحية، وكثرة أعمال الشيخ عبدالعزيز كان يقوم بإلقاء الدروس بدلاً عنهما.

ولما تولّى التدريس بشكل مباشر، شرح كتاب: «الموطأ» للإمام مالك، وسُجِّل في نحو ٧٠٠ شريط. ثم شرح الأربعين النووية، وسُجِّل في ٧٠ شريطاً، وفُسِّر سورة الحجرات، وأوائل سورة البقرة، وشرح البيقونية في المصطلح، والورقات في الأصول، والرحبية في الفرائض، وشرح كتاب: «بلوغ المرام في أدلة الأحكام» للحافظ ابن حجر، وسُجِّلَت جميع دروسه في أشرطة تتجاوز ١٠٠٠ شريط...

دروسه اليومية في شهر رمضان:

وكان يعقد في شهر رمضان دروساً يومية بعد صلاة العصر في أحكام الصوم، وبعض الغزوات، كما يُلقى دروساً يومية في مواسم الحج في أحكام المناسك. وجميع هذه الدروس مسجلة على أشرطة كاسيت بالمكتبة الصوتية في المسجد النبوي الشريف.

كما شارك في وسائل الإعلام، منذ إنشاء إذاعة: «نداء الإسلام»، وفي عدد من البرامج التلفزيونية، وكتب في عدد من الصحف والمجلات، وحضر الكثير من المؤتمرات.

مؤلفاته:

من أبرز مؤلفاته وأهمها:

- ١ - «تتمة أضواء البيان» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، من أول سورة الحشر إلى آخر سورة الناس.
- ٢ - «ترتيب التمهيد» لابن عبدالبر، رتبّه على أبواب الفقه بدلاً من الأسانيد في اثني عشر مجلداً.
- ٣ - «موسوعة الدماء»، (وهو كتاب يشتمل على تركيب الدم وعناصره وأحكامه وتعاطيه بالنقل وإخراجه بالحجامة، ودماء النساء، ودماء الأنساك، ودماء الجنائيات).

٤ - «عمل أهل المدينة في موطأ مالك».

٥ - «السؤال والجواب في كتاب الله»، وأصله حلقات بالإذاعة، ثم جُمعت وطُبعت.

٦ - «وصايا الرسول ﷺ»، وأصله أيضاً حلقات بالإذاعة، وجمعت وطُبعت.

٧ - «في ظلال عرش الرحمن». شرح فيه حديث: «سبعة يظلهم الله...».

٨ - «آيات الهداية والاستقامة» في جزئين.

٩ - «موقف الأمة من اختلاف الأئمة».

١٠ - ومجموعة الرسائل المدينة، وقد تجاوزت أربع عشرة رسالة، منها: رسالة التراويح أكثر من ألف عام في المسجد النبوي، زكاة الحلي، مع الرسول ﷺ في رمضان، مع الرسول ﷺ في حجة الوداع، معالم على طريق الهجرة، الإسراء والمعراج، سجود التلاوة، مع المرضى.

ومن كتبه المُهَيَّاة للطباعة:

«أعيان علماء الحرمين في عصر الصحابة إلى اليوم»، اختار فيه بعض مشاهير العلماء ممَّن كان لهم نشاط تعليمي في كل فترة زمنية في كل من مكة والمدينة، وتوسَّع في تراجم علماء القرنين الثالث والرابع عشر، وكتاب: «موسوعة المسجد النبوي» ويشتمل على الجانب العمراني، والتعبدي، والعلمي، إلى غير ذلك من الأعمال العلمية.

ويتميّز الشيخ بسعة الأفق، ومراعاة أدب الخلاف، وحُسن الظن بالمسلمين، والسعي إلى جمع كلمة العاملين للإسلام، والتعاون معهم في خدمة الدين.

وبوفاته أفل نجم من نجوم المدينة المنورة، وانطوت صفحة تذكُر

بالعلماء السابقين، ولا يسعنا إلا أن نتمثل بما قاله الإمام البخاري عندما بلغه وفاة شيخه الدارمي:

إِنْ تَعِشْ تُفْجَعْ بِالْأَحِبَّةِ كُلِّهِمْ وَذَهَابَ نَفْسِكَ لَا أَبَا لَكَ أَفْجَعُ

وقد شهدنا خلال هذه السنة ١٤٢٠هـ موت كوكبة من أعلام الإسلام، وليس لنا إلا أن نقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» اللهم أجِرنا في مصائبنا واخلفنا خيراً منهم.



أبو الحسن الندوي
داعية عالمي من الطراز الرفيع^(١)
(١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ)
(١٩١٤ - ١٩٩٩م)

بقلم: حسن قاطرجي

في مثل هذا اليوم (١٢/٣١/١٩٩٩) قبل ٨ سنوات، فقد العالم الإسلامي شخصية كبيرة من علمائه ودُعائه، وشاهداً من أصدق الشهود في القرن العشرين على أحداثه وتطوراته والخيوط الدقيقة الخفية التي تكمن وراء تدهوره وضعفه وتشردمه واستلاب استقلاله وهويته.



وداعية من أعظم دعائه الربانيين ومفكره العميقين: إنه الإمام العلامة المفكر الإسلامي والداعية الرباني أبو الحسن عليّ الحسني الندوي رحمه الله وأغدق عليه شآبيب محبته ورضوانه، ورحمته وغفرانه.

اللقاء بالندوي بصحبة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة:

التقيت بالشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله مرة واحدة في حياتي بصحبة شيخنا العبد الصالح العلامة المحقق عبدالفتاح أبو غدة - رحمه الله

(١) مجلة: منبر الداعيات: الاثنين ٢٢ ذو الحجة ١٤٢٨هـ، الموافق ١٢/٣١/٢٠٠٧م.

عليهما ورضي عنهما - عندما اصطحبني معه إلى مكان نزوله في الرياض حيث قضى أياماً وذلك في شعبان من عام ١٤٠٥هـ.

وقد استمتعتُ بحديثهما وامتثلتُ إعجاباً بأدبهما مع بعضهما وتواضعهما، ورأيتُ في سَمَتِ هذا الداعية الربّاني وهديه وفيما يحمل من هموم وما يَفِيضُ به حديثه من علم: ما كنتُ رسمتهُ في مخيلتي عنه وقد سبق مني قبل هذا اللقاء الاستزادة من تتبع أخباره عن طريق الأخ في الله الفقيه الأصولي أحد تَبَغَةِ تلاميذه الدكتور علي الندوي، ومما كَوْنَتُهُ من الاطلاع على عدد من كتبه النافعة العميقة، أتذكر منها الآن: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، «المسلمون وقضية فلسطين»، «ربانية لا رهبانية»، كتابه الممتع: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، «روائع من أدب الدعوة»، «إلى الإسلام من جديد»، وكتابهُ المُنْهَضُ المُلْهَبُ «إذا هبَّتْ ريح الإيمان» في سيرة الإمام الشهيد أحمد بن عرفان.

ندوة العلماء:

والشيخ الندوي ينتسب كغيره من النُذُويين إلى ندوة العلماء في لكهنؤ بالهند، وهي جامعة شرعية مجيدة مضى على إنشائها أكثر من (١٠٠) عام، وخرّجت مئات العلماء الفحول والدعاة الربانيين.

نسبه وأسرته:

وهو حَسَنِي النِّسَب، عربيُّ الأصل، كريمُ المَحْتَد، هاجرَ جَدُّ أسرته الأعلى (قطب الدين محمد المدني) في القرن السادس الهجري من المشرق الغربي إلى الهند على إثر هجوم المغول والتتار عليه. وبرز من أعلام هذه الأسرة ربانيون كبار ومجاهدون عظام منهم الإمام المجاهد الشهيد أحمد بن عرفان (المتوفى عام ١٢٤٦هـ) مؤسس دولة إسلامية في القرن الثالث عشر في شمال الهند.

ولادته ووالداه:

وُلد الشيخ أبو الحسن عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) في قرية «تَكِيَّة» بمديرية راني بريلي بالهند، وأبوه (الشيخ عبدالحَيّ) عالم كبير ومؤرِّخ مجيد له أعظم

وأوسع موسوعة في تراجم علماء وأعيان الهند سماها (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) وقد طُبعت عدة مرات في الهند في ثمانية مجلدات، ثم طُبعت قبل وفاة (الشيخ أبي الحسن) في بيروت عام ١٩٩٩ في ثلاثة مجلدات، وقدمه لها وسمّاها «الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام».

أما والدته فهي امرأة صالحة كان لها تأثير روحي وعاطفي وتربوي على ولدها، وكانت تحفظ القرآن واسمها «خير»، ولها كتابات وشعر، ولطالما كان يتحدث الشيخ أبو الحسن رحمه الله عن أخبار لافته لها عن شأنها في العبادة والابتغال إلى الله والأذكار والأدعية.

وللشيخ رحمه الله كتاب بالأردو - لغة مسلمي الهند - في سيرتها وأخبارها اسمه (ذِكْرُ خير).

توفي والده عام ١٣٤١هـ وعمره تسع سنوات، وبقي في عناية أمه وكفالة وتربية أخيه لأبيه المربي الطبيب الدكتور عبدالعلي رئيس ندوة العلماء^(١)، وهو من أشد الناس تأثيراً في تربيته.

تدريسه وتأليفه:

تخرج الشيخ رحمه الله بدار العلوم - ندوة العلماء -، وبدأ بالتدريس وعمره (٢٠) سنة، وكان عمره عندما أَلَف أول كتاب بالأردو، وهو في سيرة السيد الشهيد أحمد بن عرفان (٢٤) سنة.

تخصّص الشيخ رحمه الله بعدد من العلوم الشرعية على رأسها: التفسير والحديث والأدب العربي، ويُعتبر من الدعاة المرموقين بل من أبرز القيادات الإسلامية والمفكرين الإسلاميين في النصف الثاني من القرن العشرين، وله اطلاع واسع على التاريخ. وكان يُتقن ثلاث لغات: العربية والأوردية والإنكليزية، ويعرف الفارسية معرفة جيدة.

وظائفه ومناصبه العلمية:

وقد شَغَلَ وظائف ومناصب علمية عديدة تدل على علو همته وعظيم

(١) تنظر ترجمته المتقدمة في هذا الكتاب، بقلم أخيه الأستاذ أبي الحسن الندوي.

الثقة به رحمه الله: فقد رأس ندوة العلماء عام ١٩٦١، وكان عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وعضواً في المجلس الأعلى العالمي للمساجد، وعضواً في المجلس الفقهي بمكة المكرمة، وعضواً في المجلس الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن، وعضواً في المجلس التنفيذي بمعهد ديونيد بالهند.

تأسيسه ورئاسته لعدد من المراكز والمجامع العلمية:

وقد أسس ورأس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بأكسفورد، وفرغ له أحد طلاب العلم النابغين الناشطين والباحثين المتميزين: أخي في الله الدكتور محمد أكرم بن تجمّل حسين الندوي، والمجمع العلمي الإسلامي التابع لندوة العلماء بالهند، ومجلس المشاورة الإسلامية بالهند الذي يضم الزعامات والقيادات الإسلامية لمتابعة قضايا المسلمين فيها، ومجلس الأحوال الشخصية العالمية لمسلمي الهند الذي كان له دور كبير في المحافظة على هوية مسلمي الهند، ورابطة الأدب الإسلامي العالمية.

رحلاته الدعوية:

لقد شغل قلب الشيخ رحمه الله هذا الدين العظيم فملاً عليه فكره ومشاعره ووجدانه، فصارت قضاياهم وهموم المسلمين شغله الشاغل وهمّه الأكبر ممّا دفعه للقيام برحلات عديدة إلى بلاد المسلمين ناصحاً وداعياً وقائداً ومحاضراً، وقد سجّل أخبارها في عدد من كتبه، مثل: (مذكرات سائح في الشرق العربي)، (من نهر كابل إلى نهر اليرموك)، (أسبوعان في المغرب الأقصى)، (في مسيرة الحياة)، وهو كتابه في سيرة حياته ومدوّنة حافلة تشتمل على أخباره وأفكاره وتجاربه طبع منها ٣ أجزاء وبقي رابع مخطوطاً إلى الآن، كما سافر مرات إلى بلاد الغرب يلتقي بالجاليات الإسلامية وينصحها ويرفع من معنوياتها ويربطها بهويتها الإسلامية ويقدم حلولاً لمشكلاتها ويتشاور مع قادتها، وله كتاب (أحاديث صريحة في أمريكا)، فضلاً عما سجّله في كتابه (في مسيرة الحياة).

مواهبه المتعددة:

والشيخ رحمه الله متعدد المواهب عظيم المناقب، ولكن يتميز أنه مفكر إسلامي من الطراز الرفيع، وداعية موهوب متحرّق، وربّاني ذو قدم راسخة وذوق أصيل يُنّي في السلوك إلى الله، وهذا نادر في عصرنا فيمن كان له اهتمامات الشيخ الندوي وبعض من نشاطاته ومناصبه.

المفكر الإسلامي:

١ - أمّا إنّه مفكر إسلامي، فتشهد لذلك كتبه المتميّزة بالتحليل الدقيق والفكر العميق والثقافة الواسعة والمنهجية المترابطة والمنطق السديد، منها: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) الذي قدّم له مقدّمة مهمة تعرّف بقيمته وأهميته شهيد الدعاة الأستاذ الكبير المفكر الإسلامي سيد قطب رحمه الله، (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية)، (بين الدين والمدنية)، (الأركان الأربعة في الإسلام) . . . وسواها.

الداعية الموهوب:

٢ - وأمّا إنّه داعية موهوب، فيشهد لذلك واقعُه وتجاربُه، وكتاباتُه واهتماماته، فقد كان يحمل في قلبه الكبير هموم الإسلام والمسلمين، ورحم الله من قال:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

وكان رحمه الله يملك حُرقة الداعية وتذوق المُجرب الخبير، ويُجيد فنّ الدعوة بتفوّق، وسيرة حياته وكُتبه الدعوية تؤكد ذلك، ولذا أثر فكره الدعوي في الصحوة الإسلامية المعاصرة، ونهل من كتبه جيلُ الدعاة في القرن العشرين.

صفات الداعية القائد:

ولقد اجتمع فيه صفات الداعية القائد: العلم، والحُرقة، والخُلُق، وفنّ الدعوة. فالشيخ رحمه الله عنده نصيبٌ وافٍ من العلم الشرعي والفقه العميق للكتاب والسنة مع اطلاع واسع على الثقافة العالمية، وفي قلبه حُرقة عارمة

جعلت أكبر همّه قضية الإسلام ونشر دعوته، حتى صار محور نشاطه وهدف رحلاته «إيقاظ الشعور الديني في المسلمين، وإعادة الثقة إلى نفوسهم بمركزهم ومبدئهم وغايتهم في الحياة ورسالتهم للعالم البشري، وتهيئة النفوس لحمل هذه الرسالة وتبوء مركز القيادة والإمامة للعالم الحائر النائر، وتجديف سفينة الحياة، الضائعة بين الملاحين العابثين والركاب النائمين»، كما في تقديمه لكتابه: (إلى الإسلام من جديد)، والمتتبع لأخباره والقارئ لكتبه والعارف بشخصه يعرف قدر ما كان عليه من الخلق والإتقان لفنون الدعوة والإقناع بالإسلام والتأثير بالمدعوين والارتقاء بحال من يُربّيهم: علماً وفكراً وسلوكاً وخبرة.

العالم الربّاني:

٣ - وأما إنه ربّاني فقد اتفق على وصفه بذلك كل من عرفه أو كتب عنه، وصدق من قال: (أَلَسَنَةُ الْخُلُقِ أَقْلَامُ الْحَقِّ)، وفي هذا فإلّ حسنٌ بحق هذا الداعية الربّاني لأن الرسول ﷺ يقول: «أنتم شهداء الله في الأرض» متفق عليه. وهو لم يقتصر على مجرد الاهتمام بجانب (الربّانية) في الإسلام وتركيزه عليه وإبرازه في سير المصلحين والمجدّدين؛ بل اتصف به وتوجّهت عنايته إليه فظهر في سمته ودلّه، ومنطقه وهديّه، وحاله ومقاله، وسلوكه وأخلاقه، فله نصيب إن شاء الله من تطبيق أمر الله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نِعْمَ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾.

وفاته وحسن خاتمته:

وأخيراً أقول: توفي الشيخ وتوقّف قلبه العامر المبارك ولَفَظَ آخر أنفاسه الطاهرة ضحى يوم الجمعة في ١٩٩٩/١٢/٣١ والمصحف بين يديه، يقرأ فيه سورة الكهف، فوقعت وفاته في يوم مبارك (يوم الجمعة للوفاة فيه فضلٌ وبشارة)، من شهر مبارك (حيث صادفت وفاته العشر الأواخر من شهر رمضان فقد توفي في ٢٣ رمضان)، على حالة مباركة (وهو يقرأ في كتاب الله). رحمه الله، وأعلى منزلته في عليين، وتقبّله في عباده الصّالحين، وحمعنا وإياه وسائر إخواننا وأخواتنا وأحبابنا ومشايخنا في جنّات النعيم بضجة سيد المرسلين وأفضل الخلق أجمعين، اللهم آمين.

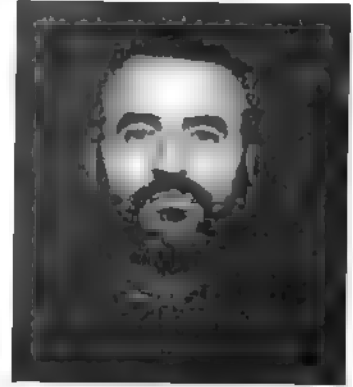


محمد مجاهد شعبان^(١)

العالم الداعية المجاهد

(١٣٦٨ - ١٤٢١هـ)

(١٩٤٩ - ٢٠٠٠م)



بقلم زوجته: عائشة بنت عمر خياطة

ولادته ونشأته ودراسته:

هو الأستاذ العالم الداعية، الأديب الخطيب، الشيخ محمد مجاهد بن محمود شعبان الشافعي الحلبي، ولد سنة ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م، من أسرة متدينة، ونشأ في بيئة صالحة، بعناية والده الحاج محمود، ودرس في الثانوية الشرعية بحلب، ثم تخرج في كلية الشريعة بدمشق سنة ١٣٩٤هـ، وفي أثناء دراسته، كان يدرس في أرياف حلب، فينتقل من قرية إلى قرية، يخطب الجمعة ويدعو إلى الله عز وجل.

أعماله ووظائفه:

ثم شغل إدارة الأيتام بحلب مدة طويلة حتى وفاته، وأثناء ذلك درس في ثانويات حلب الخاصة، وفي «الثانوية الشرعية»، وكانت له خطبة الجمعة

(١) نشرت هذه الترجمة بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٤م، في موقع: (الإسلام في سورية)

في جامع «التقوى» في حيّ الأنصاري، وعدة دروس في جوامع حلب عامة، وله دروس خاصّة بطلبة العلم في منزله.

وكما قيل عنه: عُرف معلماً وداعياً ومرشداً أكثر من أن يُعرف كاتباً ومؤلفاً، ومع ذلك فقد كانت له مقالات وشذرات هنا وهناك، وكانت له محاضرات هنا وهناك متى سنحت الفرصة، ولذلك لم تكن آثاره كثيرة...

أعماله العلميّة:

بادر - قبيل وفاته - إلى طبع كتاب: «المنهج السديد في شرح جوهر التوحيد» للعلامة الشيخ محمد الحنيفي (١٢٩٢ - ١٣٤٢) بعد اعتناؤه به، وقام الأستاذ الفاضل مجد مكي وفقه الله بمراجعته وتصحيحه، وصدرت الطبعة الأولى ببيروت عن دار ابن حزم سنة (١٤٢٤ - ٢٠٠٣). كذلك اعتنى بشرح «المنظومة البيقونية» للشيخ أحمد الترماني، وأعدّها لإرسالها للطبع، وأنهى كذلك رسالته الماجستير في موضوع: «معاول الهدم الحديثة في اللغة العربية»، وكان قد أعدّها لمناقشتها في كلية «الإمام الأوزاعي» في بيروت، ولم يبقَ لها إلا المناقشة الأخيرة حين قضى أجله - رحمه الله تعالى -.

وقد بدأ بالاعتناء بكتاب: «الإفصاح عن معاني الضّحاح»، وأنهى حوالي نصفه، ولكن إرادة الله شاءت أن يختاره إلى جواره، وهو في قمة نشاطه، وأوج عطائه، وفي أحسن أحواله، وأفضل أوضاعه.

حرصه على مشافهة العلماء والتلقّي عنهم:

كان اسمه «مجاهداً»، وكان مجاهداً بحق، كان - رحمه الله تعالى - داعياً نشطاً عالماً عاملاً مخلصاً فقيهاً، طالباً للعلم، لا يعرف كلاً ولا ملأً في ذلك، كان مُحباً للحكمة، حريصاً على مشافهة العلماء والتلقّي من أفواههم، متأثراً بأحوالهم، لازم الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله ملازمة شديدة في أيامه الأخيرة في سورية، وصحبه في رحلات ونزهات طويلة، يستفيد منه، ويقرأ عليه.

ولازم الشيخ عبدالرحمن زين العابدين رحمه الله، في حياته كلها، وخاصة في مرضه الأخير ملازمة الولد لأبيه.

صبره على طلب العلم وتنوع معارفه:

كان صابراً على البحث والتنقيب في بطون الكتب، يُؤثره على الطعام والراحة، وكان يحرص على الفائدة العلمية من أي مصدر جاءت، ومن أي جهة كانت. ولا يُعنى فقط بالعلوم الشرعية التي كانت اختصاص دراسته، بل عرف عنه اهتمامه بالصناعات والميكانيكا وبالناحية العلمية عند العرب قديماً، متأسيماً بذلك بشيخه الشيخ عبدالرحمن زين العابدين رحمه الله، وقد تعلّم منه الكثير في ذلك، وعُرف عنه أيضاً اهتمامه باللغة العربية اهتماماً يفوق الوصف، وخاصة علوم الصرف والبلاغة والنحو والاشتقاق، متأسيماً بشيخه أيضاً.

كذلك قرأ شيئاً من كتاب «الكامل» للمبرّد على الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله، وله حواشٍ كثيرة على نسخته من كلام الشيخ رحمه الله، وكان له تذوّق خاص بالشعر، ويحفظ قصائد مُطوّلة بأكملها، وخاصة الشعر القديم الذي يُعدُّ حُجّة في اللغة، واهتمّ بعلم الفلك وأخذ شيئاً منه من الشيخ «عبدالرحمن» رحمه الله، ومن عمّه والدي الدكتور «عمر خياطة» رحمه الله، واقتنى من كتب هذا العلم الحديث والقديم، حتى المخطوط.

وله مكتبة ضخمة في منزله تضم كتباً في كافة العلوم الشرعية خاصة والعلوم العربية والعلمية.

كان غاية في الحفظ والاستحضار، ومعرفته بالرجال نادرة، وخاصة علم الرجال، ومصطلح الحديث، وله اهتمام بالوقائع والحوادث الهامة في تاريخ الإسلام القديم والحديث، ومعرفته برجاله فذة غريبة.

أخلاقه وصفاته:

كان حسن الخلق مع الناس جميعاً، ومع أهله خاصة، كان رؤوفاً

رحيماً بهم، متسامحاً حليماً لطيفاً عفواً وفيّاً، مرح النفس دائماً، عفيف النفس رضيها، شاكراً لأنعم الله، حيّاً، يخشى الله فيما بينه وبين نفسه خشية تقي ورع.

كان يعد طلب العلم عبادته الأولى ليل نهار، لا ينام الليل إلا قليلاً، وهو يبحث وينقب ويطلع، وكان حريصاً على الإجازة وطلبها، يطلب الإجازة ممن يتعرّف ويجلس معهم، ولو لساعة من الزمن.

شيوخه وأساتذته:

من أكبر مشايخه وأكثرهم ملازمة له وانتفاعاً به: الشيخ عبدالرحمن زين العابدين، ثم الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، وكانت له صحبة طويلة في دمشق مع الشيخ عبدالغني الدقر رحمه الله.

ومن مشايخه في «الثانوية الشرعية»: الشيخ أحمد القلاش، والشيخ محمد زين العابدين جذبة، والشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد السلقيني حفظ الله من بقي منهم، والشيخ أبو الخير زين العابدين، والشيخ محمد السلقيني، والشيخ عبدالله سراج الدين، والشيخ محمد نجيب خياطة، والشيخ بكري رجب، والشيخ عبدالوهاب سكر، وغيرهم كثير رحمهم الله جميعاً.

كذلك من أساتذته في كلية الشريعة: محمد فوزي فيض الله، وهبة الزحيلي، نور الدين عتر، محمد أديب الصالح... وغيرهم كثير حفظهم الله.

إجازاته العلمية:

وإجازاته كثيرة، له إجازة من عمه الدكتور عمر خياطة، الذي أجازته إجازة عامة عن شيخه الشيخ محمد راغب الطباخ، بكافة مروياته وأثباته.

ومن علماء الموصل: الشيخ إبراهيم المشهداني، والشيخ عبدالفتاح الجومرد، وغيرهم.

وله إجازة من الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله بمؤلفاته ومروياته، وأجازه بثبته عن شيخه العلامة الإمام محمد زاهد الكوثري، رحمهم الله تعالى، وله إجازات أخرى عديدة.

وله إجازة من العلامة الأصولي الفقيه الشيخ أحمد فهمي أبو سنة، أستاذ الشيخ عبدالفتاح؛ إذ لقيه بيته بمكة المكرمة أثناء حجه بصحبة الأخ الشيخ مجد مكي، وأخذ منه إجازة على طرف كتاب كان معه.

وممن استجاز له بناءً على طلبه الشيخ محمد بن عبدالله آل رشيد من عدد من علماء الحجاز والأحساء واليمن منهم: الشيخ الحبيب محمد بن أحمد الشاطري، والشيخ عبدالرحمن بن أبي بكر بن عبدالله الملا الأحسائي، رحمهما الله تعالى، والشيخ عبدالقادر بن عبدالله شرف الدين الحسيني الصنعاني، وعبدالله بن عباس المؤيد اليمني، وحمود بن عباس المؤيد، وأحمد بن محمد زبارة مفتي اليمن، وأحمد بن علي الأنسي الصنعاني، ومحمد بن إسماعيل العمراني الصنعاني، وعبدالله المحفدي الصنعاني، ومحمد بن محمد بن منصور الحسيني.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى في حادث سيارة أثناء عودته من مصيف جبل الأربعين القريب من حلب فجر يوم السبت ١٩ من جمادى الآخرة ١٤٢١هـ، الموافق ١٩ آب ٢٠٠٠م. عن ثلاث وخمسين عاماً، رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين وعن العلم وعن الأيتام والأهل والأولاد خير الجزاء. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والحمد لله رب العالمين.





الأثار العلمية والأدبية للأستاذ

محمد مجاهد شعبان^(١)

بقلم: عبدالرحمن الحاج إبراهيم

لم يعرف الشيخ مجاهد بالكتابة والتأليف بقدر ما عرف بالتعليم والدعوة، وتتوزع نتاجاته وآثاره العلمية والأدبية على حقول عدة:

أولاً - الدراسات والبحوث:

١ - «معاول الهدم الحديثة في اللغة العربية الفصحى»، وهو الدراسة التي تعتبر أهم إنجاز علمي خلفه، كانت معدة لنيل درجة الماجستير في كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت، ولم يكتب الله له مناقشتها. وتتجاوز صفحاتها ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير. وتتكوّن من خمسة فصول:

الفصل الأول: يتناول اللغة العربية الأم واللهجات في العصر الحديث.

(١) هذا بحث مفصّل كتبه الأستاذ عبدالرحمن الحاج إبراهيم، تقدّم خلاصة عنه بمناسبة ترجمة الأستاذ الفاضل الشيخ: محمد مجاهد شعبان رحمه الله تعالى. ونشرت هذه الدراسة بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٤م على موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com

الفصل الثاني: صلة اللغة العربية بالإسلام والتراث الإسلامي.

الفصل الثالث: الأعداء التقليديون للغة: دعاة العامية.

الفصل الرابع: الأعداء الجدد: الحداثيون. درس فيه تاريخ الدعوة إلى التغريب ووسائلها، والتمرد على اللغة العربية، وعبث الشعر الحر، وقضية الشعر الجاهلي.

الفصل الخامس: دور الأمة وواجباتها في المحافظة على لغتها والنهوض بها.

٢ - «نحو فقه إسلامي مُيسَّر»: وهو بحث تمهيدي للماجستير بإشراف الدكتور: كامل موسى، قال في مقدمته: «منذ أمد بعيد وأنا أهتم بدراسة علم الفقه... كنت يومها ألاحظ مدى صعوبة العبارة الفقهية، وكثرة الاستطرادات الخارجة عن الموضوع كلية، وكنت أسأل نفسي: أليس من الممكن تيسير هذا العلم إلى ما هو أسهل عبارةً، وتهذيبه وحذف ما ليس فيه، وأن يكون هذا العلمُ بلغةٍ تنزل إلى فهم أكبر مساحةً لفهم الأمة؟!»

وتناول في البحث جهود العلماء في تيسير الفقه، ثم درس الشيخ مبدأ التبسيط الفقهي، وتوصل إلى خمسة عشر شرطاً مقترحاً لإنجازه، ثم ختم بحثه بقوله: «إنَّ ما وضعته من شروط التبسيط ما هي إلا قواعد أراها من وجهة نظري مهمة، يستعين بها من رغب في كتابة فقهٍ ميسر في ألفاظه وأسلوبه لتعليم هذا العلم ليشمل أكبر مساحة من تعداد المسلمين».

٣ - «عناية المسلمين باليتيم قديماً وحديثاً في شمال سورية»: يهدف هذا البحث الذي كتبه سنة ١٩٩٣م، إلى تقديم رؤية عن تجربة دار الأيتام الإسلامية في حلب وغيرها من مدن الشمال السوري، لبيان أهمية الدور الذي قامت به ولا تزال في خدمة المجتمع المسلم، وهذا البحث هو بحث تمهيدي آخر للماجستير بإشراف الدكتور: إبراهيم كمال أدهم.

٤ - «الرخصة»: بحث أصولي نشر في مجلة منار الإسلام الإماراتية عام ١٩٩٨م.

٥ - «تاريخ التفسير»: مشروع دراسة كتبها أيام تدرسه في الثانوية الشرعية في الثمانينات في القرن الماضي.

ثانياً - رسائل نادرة:

١ - رسالة عن الشيخ عبدالرحمن زين العابدين رحمه الله تعالى، وهو أستاذه وله معه صحبة طويلة، جمع في هذه الرسالة أقوال الشيخ وآراءه وأورد الكثير من ذكرياته معه كما قدّم له بترجمة نادرة لشيخه.

قال في مقدمته: معرفتي بالشيخ منذ سنة ١٩٦٣م، وقد درسنا مادة الفقه الشافعي، واللغة العربية، ثم توطدت المعرفة أكثر بعد سنة ١٩٦٨م، حتى وفاة الشيخ سنة ١٩٩٢م.

٢ - رسالة عن الشيخ عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى، نحا فيها منحى الرسالة السابقة، وختمها بذكرياته مع الشيخ في زيارته الأخيرة لحلب.

هاتان الرسالتان نادرتان، وعدم نشرهما وتعرضهما للضياع خسارة حقيقية للتاريخ العلمي لمدينة حلب.

ثالثاً - كتب لم تكتمل:

أ - أحاديث مشتهرة على ألسنة الناس اليوم. جمعها ولم يكتب له إكمالها.

ب - تحقيق لرسالة إسماعيل كلنبوي في آداب البحث. حقق قسماً من الرسالة ولم يتمها.

رابعاً - في مجال التحقيق:

أ - تحقيق كتاب «المنهج السديد في شرح جوهر التوحيد» للشيخ: محمد الحنيفي الحلبي، وقد صدر الكتاب بعد وفاة محققه، عن دار ابن حزم عام ١٤٢٤هـ، في ٢٤٧ صفحة.

ب - تحقيق كتاب «شرح المنظومة البيقونية» للعلامة الشيخ: أحمد الترماني، قدم له بدراسة عن شروح البيقونية القديمة والحديثة كما أورد ترجمة واسعة للشيخ الترماني. ونرجو أن يصدر هذا الكتاب في وقت قريب بعون الله تعالى.

خامساً - المقالات والمحاضرات:

١ - فلتكن نظرتنا إلى كيف أولاً، بيّن فيها أن العدد ليس دليلاً على الصحة، ونشرت في مجلة «نهج الإسلام»، في العدد ٣٠ من السنة الثامنة (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م).

٢ - ترجمة الدكتور الشيخ عمر خياطة بمناسبة وفاته عام ١٩٨٨م. وهي غير منشورة.

٣ - القرافي صاحب الفروق والدمى المتحركة، نشر هذا المقال في مجلة «نهج الإسلام» في العدد ٣٤، من السنة التاسعة (١٩٨٩م = ١٤٠٩هـ).

٤ - الزمخشري مفسراً، مقال مطبوع على الآلة الكاتبة، يتحدث فيه عن جهود الزمخشري في مجال التفسير.

٥ - مولد الرسول ﷺ مولد للعقل من جديد. نشر في مجلة «نهج الإسلام» في العدد ٤١ من السنة الحادية عشرة (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م).

٦ - الإسلام وبناء الشخصية الحضارية. نشر في مجلة «نهج الإسلام» في العدد ٤٤ من السنة الثانية عشرة (١٤١١هـ = ١٩٩١م).

٧ - ملامح الشخصية الحضارية في الإسلام. ذكر فيه ملامح الشخصية الإسلامية التي يراها تتمثل في الطموح والتطلع نحو الأفضل، والعزة والإلفة والمحبة، والثبات، والتكامل، نشر في مجلة «منار الإسلام» الإماراتية عام ١٩٩٧م.

- ٨ - قل آمنت بالله ثم استقم... نشر في مجلة "نهج الإسلام" في العدد ٥٣ من السنة الرابعة عشر (١٤١٤هـ = ١٩٩٣م).
- ٩ - كيف وظف الإسلام الشعر. محاضرة أقيمت في نادي التمثيل العربي في حلب، عام ١٩٩٦م.
- ١٠ - مشكلات سلوكية للطفل. محاضرة أقيمت في دار الأيتام بحلب، تحدث فيها عن بعض المشكلات السلوكية ودوافعها وأسبابها، وقدم حلولاً لمعالجتها من وجهة نظر إسلامية.
- ١١ - الإمام مسلم. محاضرة أقيمت عن الإمام مسلم في الثانوية الشرعية بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاته، وهي غير منشورة.
- ١٢ - بشائر النور. مقال يتحدث فيه عن ولادة النبي ﷺ والمبشرات به في الكتب السماوية.
- ١٣ - الرحمة المهداة. وهي آخر ما كتب قبل وفاته بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف.
- كما كتب الشيخ مجاهد عشرات المواد العلمية، في «الموسوعة الإسلامية الميسرة» الصادرة عن دار صحارى مشاركة مع دار فُصِّلَتْ بحلب.
- أخيراً: فإنما ما قدمته هو أهم ما خلفه الشيخ من آثار علمية وأدبية، ونأمل أن يقوم أبناؤه ومحبه بنشرها وفاءً لجهد وجهاده.



الشيخ عبدالله سراج الدين
العلامة الربّاني المربّي^(١)
(١٣٤٣ - ١٤٢٢هـ)
(١٩٢٤ - ٢٠٠٢م)



بقلم تلميذه المحنّ المحقّق الشيخ: محمد عوّامة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه
ومَن والاه. أما بعد:

العالم العامل الربّاني:

فإنّ من سُنّة الله عزّ وجلّ في عباده المسلمين أن يُكرمهم على الدوام
بعلماء عاملين، همّهم في هذه الحياة أن يملؤوها بالخير لأنفسهم، وللأمة
من ورائهم، وكان منهم شيخنا العلامة الربّاني الشيخ عبدالله سراج الدين
الذي أكرمني الله بصحبته خمسين عاماً.

ولادته ونشأته العلمية:

وُلد الشيخ الأجلّ عام ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م بمدينة حلب، ووالده
العلامة الحُجّة الشيخ محمد نجيب سراج الدين، ودخل طلب العلم وهو في

(١) نشرت بتاريخ ١٢/١٢/٢٠٠٦م، في موقع: (الإسلام في سورية)

الثالثة عشرة من عمره، بعد أن حفظ القرآن الكريم.

توجُّهه إلى حفظ الحديث الشريف:

وفي أثناء ذلك كان توجُّهه إلى حفظ الحديث الشريف، وبعد أن ترك الدراسة الرسمية توجُّه بكلّيته إلى ذلك، فحفظ كتاب: «تيسير الوصول» بألفاظه ورواياته واختلاف رواياته، وكانت له مذاكرة يومية له، كما يذاكر حفظه للقرآن الكريم، واستمرَّ به توجُّهه لحفظ السُّنة الشريفة إلى أواخر عمره المبارك.

تأسيسه جمعية التعليم الشرعي:

وفي صيف ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م أُلغيت المدرسة الشعبانية التي كانت تابعة لوزارة الأوقاف، وكانت تُخرِّج الأئمة والخطباء والوعاظ الدينيين، فقام الشيخ بأعباء ذلك، فأُسِّس «جمعية التعليم الشرعي» التي انبثق عنها: مدرسة التعليم الشرعي، وفيها: المرحلة الإعدادية والثانوية، ثم المرحلة الجامعية المرتبطة بالجامعة الأزهرية، ثم انبثق عنها عام ١٣٨٦هـ = ١٩٦٧م معهد حفظ القرآن الكريم بقراءاته العشر.

وقد تخرَّج في هذه المراحل التعليمية الثلاثة مئات من طلاب العلم احتلوا مراكزهم المناسبة في محارب حلب وقراها ومنابرها، وفي كثير من مدن السعودية ودول الخليج، فأحيا الله به العلم والعمل في مدينة حلب، كما أحيا الله تعالى به حفظ القرآن العظيم وقراءاته، بعد أن كان هذا الأمر ميّناً حتى بين طلاب العلم.

دروسه العامّة في مساجد حلب:

وكانت دروسه في مساجد حلب الكبرى، دروس علم وتوجيه وترقية وتزكية مُدعّمة بالكتاب والسُّنة، وهدى السلف الصالح، وكانت في مستواها العلمي تعدل المستوى الجامعي العريق، الذي يحضره طلابه بروح متعشّقة للعلم والهدى السلفي الصالح، متمثلاً في شخص أستاذها ومربيها.

إنتاجه العلميّ الواسع:

ولم يقف عطاء الشيخ - رحمه الله - عند تأسيس الجمعية وفروعها،

ولا عند الدروس العامة التي كان يحضرها الآلاف - لا سيما في المرحلة الأخيرة - بل شارك في الإنتاج العلمي الواسع، فقد انتقل الشيخ إلى رحمة الله تعالى عن نحو ثلاثين مؤلفاً جُلِّها في شرح أركان الإسلام: الصلاة، والصيام، والحج، وفي التفسير الموضوعي: «هدي القرآن إلى الحجة والبرهان»، و«هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكير في الأكوان»، وفي تفسير جملة من سور القرآن الكريم: الفاتحة، الحجرات، الملك، ق، الكوثر، الدهر... كل سورة في مجلد... وله: «تلاوة القرآن المجيد»، و«التقرب إلى الله تعالى»، و«سيدنا محمد رسول الله ﷺ»: شمائله الحميدة، خصاله المجيدة»، و«صعود الأقوال ورفع الأعمال» في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾. وله شرح منهجي مدرسي مبسّط على المنظومة البيقونية في ٢٢٥ صفحة. وله غير ذلك من الكتب التي يحرص المسلم على العمل بها، والتربية الإسلامية الصالحة.

شاهدا العدل من الكتاب والسنة:

وكان يحكي عن والده رحمه الله - وهو لسان حاله أيضاً - أنه كان يقول لأصحابه في مجالسه الخاصة مع العلماء: لا تقبلوا مني شيئاً إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة. وكان هو كذلك فما كنا نسمع منه شيئاً إلا ويأتينا على ما يقول بشاهدين عذلين من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وذلك في دقائق العلم والتوحيد.

منهجه في دروسه العامة:

وكان يحكي عن والده - وهو لسان حاله أيضاً - أنه كان يقول: درسي درس عام لا درس عوام. يريد أن مختلف الطبقات التي تحضر دروسه تستفيد، منها: العامي، والشاب المثقف، وطالب العلم، بل العالم، والطبيب، والتاجر، والمحامي، وما إلى ذلك.

منحة إلهية وقدوة محمدية:

والحديث عن سيدي الشيخ لا يكفيه صفحات، وهو أجل من أن

أكتب عنه، لكنني أقول: لقد كان الشيخ منحة إلهية لأهل زمانه، وقدوة محمدية لهم إذا اذلهمت الخطوب.

وفاته ودفنه:

توفي رحمه الله تعالى مساء يوم الاثنين ٢٠ ذي الحجة في مدينة حلب، وشيّع في موكب كبير، ودفن يوم الثلاثاء ٢١ ذي الحجة ١٤٢٢ في المقبرة التي داخل المدرسة الشعبانية رحمه الله تعالى، وتغمده برضوانه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه: محمد محمد عوامة

١٤٢٢/١٢/٢٥

مجالسه التفسيرية لبعض الآيات القرآنية:

وقد وصف فضيلة الشيخ محمد عوامة مجالس الشيخ عبدالله سراج الدين في العلم والوعظ والتذكير، فقال في مقدمة تحقيقه لكتاب «مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾» لابن ناصر الدين الدمشقي، ص ٩:

«أما هذه المجالس: فإن المصنّف رحمه الله اختار هذه الآية الجامعة لكلّيات الإيمان، واختياره لها أذكرني أول ما رأيت مخطوطة الكتاب بالمجالس العامة بالإيمان، والعلم والروح، من مجالس شيخنا العلامة القدوة الربّاني المتكلم المفسّر المحدث سيدي الشيخ عبدالله سراج الدين حفظه الله تعالى بخير وعافية، مجالسه حول هذه الآية في الجامع الكبير بمحلة بانقوسا بحلب، بعد عصر كل يوم جمعة، والتي دامت سنوات، وهو يتكلم فيها عن مواقف النبي ﷺ الثلاثة: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

ولمّا تذكّرت هذه المجالس برؤية مخطوطة الكتاب، بادرت إلى تصوير نسخة عنها وتقديمها هدية إليه، والآن أتقدّم بإهداء خدمتي للكتاب إلى سماحته راجياً قبولها ورضاه.

ثم إنه انتقل بعد تلك المجالس إلى الكلام عن قوله تعالى: ﴿الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾. وقد استغرق في ذلك سنوات أيضاً، وهو يتكلم عن كون سيدنا رسول الله ﷺ بيّنة الله العظمى وحجته على خلقه، ومبيناً عن الله عز وجل شرعه ودينه. وهذه المجالس وتلك جميعها محفوظة لديه، لا تحتاج طباعتها إلا إلى تنقيح يسير.

وكان كل من يحضر تلك المجالس - من العلماء وغيرهم - يشهد أنها مجالس تنقل صاحبها إلى رُوح وريحان من رُوح الجنة وريحانها والحمد لله رب العالمين.

ومع هذا فإن شيخنا - أطال الله في عمره - لا يرى أن ما يتكلم به يصلح أن يسمى تفسيراً لكتاب الله عز وجل، فشان تفسير كتاب الله أجلّ عنده من هذا، كما هو واضح من كتبه التي طبعها وتكلم فيها عن سورة الفاتحة، والحجرات، وق، وغيرها مما يتلوها، فإنه سمي كلاً منها: حول تفسير سورة كذا، وما رضي أن يسمي كتابه: تفسير سورة كذا. انتهى.

إهداء الشيخ محمد عوامة تحقيق كتاب «القول البديع» لشيخه السراج:

وقد أهدى إليه تحقيق كتاب «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» للسخاوي الذي صدر بعد وفاة شيخه بقليل بهذه الكلمات:

«إلى روح مُحيي الدين والعلم، الناطق ببراهين الكتاب والسنة. من أنار القلوب والعقول وجمعها على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ، العلامة الربّاني المربّي الشيخ عبدالله آل سراج الدين.

توفي إلى رحمة الله تعالى عشاء الاثنين ٢٠ من ذي الحجة من عام ١٤٢٢هـ».

من تلميذه: محمد عوامة



الشيخ عبدالله سراج الدين^(١)

بقلم: بكري شيخ امين

دور العلماء في الأمة:

العلماء هم مصابيح الأمة وأنوارها وهداؤها في كل الأزمنة والأمكنة، يُنبِرون دروبَ حياتها، فيفتحون القلوب المغلقة، ويُجَلِّلون الغشاوة عن العيون المتعبة، وينقلونها من دياجير الجهل إلى أنوار العلم، ويُخرجون الناس من الظلمات إلى النور.

وأخصّ بالذكر منهم علماء الشريعة، وفقهاء الدين، فبالشريعة يكون الإنسان إنساناً شريفاً، والمواطن مواطناً حقاً، وفي ضوء الشريعة يعرف الحق فيشبعه، ويعرف الباطل فيجتنبه... يعرف ما يهوي به إلى الجحيم، وما يرقى به إلى أعالي الفردوس والنعيم.

وعلماء الشريعة وحدّهم الذين يأخذون بأيدي الناس إلى طريق الهدى والصواب والحق والنور، لأنهم ورثة الأنبياء، وحملة الرسالة والأمانة، وهم دائماً في عيون الناس المثل الأعلى الذي به يقتدون.

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٧م، في موقع: (الإسلام في سورية)

عالم من بلدي:

أريد أن أصل بهذه الكلمات إلى عالم من بلدي، يحمل تلك المزايا، ويتصف بتلك الصفات، اسمه عبدالله بن محمد نجيب سراج الدين الحسيني. لو رأيته تذكرت رسول الله ﷺ، وقاراً وجمالاً وجلالاً وسكينة وتواضعاً وبشاشة ورقة، وأحلى ما يتصوره الإنسان في كمال وجمال في عبد من عباد الله.

اقتداؤه برسول الله ﷺ:

فالرجل متمثل برسول الله ﷺ تمثلاً إن لم نقل: كاملاً فهو قريب من الكمال، من فُرّق شَعْرُهُ إلى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ، في مظهره، وفي حديثه، وفي حركاته، وسكناته، وفي تبسمه، وفي أخلاقه، وفي كل ما يتصل بحياته الإنسانية من صغيرة أو كبيرة.

عالم عامل:

الرائع في هذا النور المحمدي الذي سكن في مدينة حلب الشهباء من أرض سورية أنه ليس عالماً فقط، وإنما هو عالم عامل، وحتى نلّم بسيرته تفصيلاً نذكر النقاط التالية:

ولادته ونشأته العلمية:

ولد الشيخ عبدالله سراج الدين الحسيني بمدينة حلب سنة ١٣٤٢ للهجرة النبوية والموافقة لسنة ١٩٢٣ للميلاد من أب كان نجم حلب في أيامه هو الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني الحنفي، فأدخل ابنه عبدالله جامع سليمان القريب من حي قاضي عسكر بحلب... فتعلم تلاوة القرآن الكريم والكتابة، ثم انتسب إلى مدرسة دار الفلاح - السلطانية... فتدرج في صفوفها، وجوّد القرآن الكريم على القارئ الشيخ عثمان قنديل الطنطاوي المصري، وأخذ شيئاً من فقه العبادات والنحو، وأشعار العرب، وخطبهم التي كان مفروضاً على الطلبة يومذاك أن يحفظوها، كما أخذ علوم الرياضيات عن الشيخ محمد خير إسبر.

في مكتب الشيخ عبدالوهاب المصري ثم المدرسة الخسروية:

ثم انتسب إلى مكتب الشيخ عبدالوهاب المصري الحلبي، فبدأ بحفظ القرآن الكريم وتجويده عليه، واستمر سنتين كاملتين حتى حفظ كتاب الله كله عن ظهر قلب، ثم انتقل إلى المدرسة الخسروية متدرجاً في صفوفها.

عنايته بالحديث النبوي والعلوم الشرعية:

وحُبِّ إليه الحديث النبوي، وأولع بقراءته، فحفظ قسماً كبيراً من صحيح البخاري، ثم عرج على العلوم الدينية الأخرى من فقه وأصول وتفسير وفرائض وتوحيد ومصطلح وسيرة، وأتبعها بعلوم العربية من نحو وصرف وعروض وبلاغة، فكان فيها المبرز والمتقن.

ثم استقرَّ به الحال في غرفة والده الشيخ محمد نجيب في المدرسة الشعبانية مجاوراً للشيخ ياسين سريو الذي كان يُعَدُّ من أجَلِّ شيوخه رحمه الله تعالى، كما لازم دروس الفقه في المدرسة الإسماعيلية عند الشيخ أحمد عساف الحُجِّي الكردي.

وظائفه:

عُيِّن مدرساً في جامع (أبو درجين)، ثم دُعي للتدريس في معهد العلوم الشرعية في المدرسة الشعبانية، وكلّف بتدريس التفسير والحديث والفقه الحنفي ومصطلح الحديث.

تدريسه في المدرسة الخسروية:

كذلك استدعي إلى المدرسة الخسروية، فدرّس فيها المصطلح، وألف كتاباً في هذا الموضوع، فطبعت المدرسة، ووزعته على طلابها، ناب خلال ذلك في التدريس عن والده الشيخ محمد نجيب سراج الدين في جامع الحموي، ثم أبدل بجامع أبو دَرَحَيْن درسَ المحافظة في الجامع الأموي الكبير.

في المدرسة الشعبانية:

وشاء الله تعالى أن ينتقل من جامع الحموي، ويركز جهود في المدرسة الشعبانية، وراح يستقبل طلاب العلوم الشرعية، حتى إذا تخرج أحدهم من الشعبانية تلقفته جامعة الأزهر الشريف في أرض الكنانة، وأدخلته في كليتها.

إجازاته العلمية:

يضاف إلى هذا كله اتّصالُ عالمنا الشيخ عبدالله بعلماء العالم الإسلامي، ومحادثتهم، ونيل الإجازات الرفيعة منهم بخط أيديهم.

حكيمته العلميّة والتربويّة والدعويّة:

آمنَ الرجلُ بحكمة رائعة خلاصتها: لا يكفي أن يكون المرء عالماً، ومبرزاً في علوم الأولين والآخرين، ثم ينطوي على نفسه، فلا يستفيد منه أحد... إنما شأنُ العالم أن يكون عاملاً بعلمه، موزعاً معارفه عبر الجهات كلها، ينشر الخيرَ يَمَنَةً وَيَسْرَةً، آناء الليل وأطراف النهار، ثم يكون له أتباعٌ يتمثلون بشخصه وتعاليمه، ويقتدون به، ويغدو كلّ منهم فلكاً جديداً تدور حوله نجوم وكواكب وأقمار... وهكذا.

ومع هذا كلّه، لا يكفي أن يلقي العالمُ دروسه على أتباعه ومريديه وتلامذته، ثم ينصرف وينصرفون، وينتهي كلّ شيء بانتهاء حياته أو حياتهم، إنما ينبغي أن يترك العالمُ بعده أثراً مسجّلة مكتوبة، يقرأها الناس أيام حياته وبعد موته. ويطلع عليها من هو قادر على أن يصل إلى الشيخ ويراه، ومن هو غير قادر على أن يصل إليه أو يراه.

دروسه ومصنّفاته:

لقد آمن أن نفع التصانيف أكثر من نفع المشافهة، فهو يُشافهُ خلال حياته عدداً محدوداً من الناس، ولكنه بتصانيفه ومؤلفاته المطبوعة يشافهُ عدداً لا يُحصى، ما خلّقوا بعد... ودليل هذا انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين

كما يستفيدون من مشايخهم المعاصرين، وأن العالم الحق ينبغي أن يعكف على التأليف إن وُفق إلى التأليف المفيد، فإنه ليس كل من ألف أفاد ونفع، وليس المقصود جمع شيء كيفما كان، وإنما هي أسرار وأنوار يُطلع الله تعالى عليها من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها، فيجمع ما تفرق، ويرتب ما تشتت، ويشرح ما يحتاج إلى شرح، ويحل كل غامض أو معقد...

لقد دأب شيخنا في حياته على إلقاء الدروس في المدارس المختلفة كالشعبانية والخسروية وفي جوامع عدّة كالجامع الكبير وجامع الحموي وجامع بنقوسا وجامع سليمان، ومع تلك الدروس الملقاة راح يسجل دروسه بتصانيف وكتب، زاد عددها على عشرين كتاباً مطبوعاً، نذكر منها:

- ١ - كتاب سيدنا محمد ﷺ . ٢ - التقرب إلى الله تعالى . ٣ - الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها . ٤ - الدعاء . ٥ - صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال . ٦ - شهادة أن لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله ﷺ . ٧ - الصلاة في الإسلام . ٨ - الصلاة على النبي . ٩ - تلاوة القرآن المجيد . ١٠ - هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان . ١١ - هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكير في الأكوان . ١٢ - حول تفسير سورة الفاتحة . ١٣ - حول تفسير سورة الحجرات . ١٤ - حول تفسير سورة ق . ١٥ - حول تفسير سورة الكوثر . ١٦ - حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين . ١٧ - شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث^(١).

(١) وقد عرض الأستاذ الدكتور بكري الشيخ أمين لكتاب «حول تفسير سورة الفاتحة» في عدة صفحات، وبعد أن استعرض لمحات مما جاء في تفسيره للسورة قال: فإن قراءة هذا الكتاب جعلتني أؤمن بما صرح به سيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وفخر الدين الرازي - رحمه الله - من أن شرح سورة الفاتحة وحدها يملأ مئات الصحف والمجلدات، فالسورة فيها الحياة بكل دقائقها، وفيها الآخرة بكل جزئياتها، ولا تتأني معرفة ذلك إلا لمن فتح الله تعالى عليه.

أعود إلى الحديث عن شيخنا الكبير عبدالله سراج الدين لأقول: إن جميع كتبه من هذا القبيل، فهو لا يتناول موضوعاً إلا أشبعه بحثاً وتفصيلاً حتى لا يترك لمستزيد حاجة إلى زيادة.

إقبال الناس على كتبه:

الطريف في هذه المؤلفات أن الناس في مدينة حلب - هذه المدينة المباركة - يقبلون على اقتنائها، ويتهادونها... وتنتقل هذه الكتب شراء وإهداء إلى معظم بيوت الناس في بلاد الشام، ومن بلاد الشام تنداح إلى مختلف أصقاع العالم شرقاً وغرباً. وتسهر المطابع على إعادة نشرها وتوزيعها مرة بعد مرة، وتقول: هل من مزيد؟

دروسه في جامع بنقوسا بعد عصر الجمعة:

وإن أنس لا أنسى شارع بنقوسا في مدينة حلب، ففي هذا الشارع جامع كبير يتسع لآلاف المصلين، وكان شيخنا يلقي فيه درساً على الناس بعد عصر كل يوم جمعة...

في ذلك الوقت لا يمكن لسيارة أن تمر بهذا الشارع من كثرة الزحام أو المجالسين المنصتين على الأرصفة وأرض الشوارع، يستمعون إلى درس هذا الرجل الكبير...

والرائع في تلك السيارات أن أبوابها تخرس أو تشل، فلا تسمع لها ضجة أو بوقاً أو صوتاً، وشرطة المدينة تقف في مختلف الجهات تحوّل مسير السيارات إلى هنا وهناك، حفظاً على حياة هؤلاء الذين يجلسون في الشوارع، هذا يبكي، وهذا يستغفر، وهذا يطرق برأسه، وهذا يفتح يديه إلى السماء.

وتستمر هذه الحلقة إلى مغيب الشمس، ثم ينفرج الطريق ليمر موكب الشيخ المهيّب، ويضطف الناس على جانبي الطريق، صفين متقابلين واضعين أيديهم على صدورهم، مثبتين أعينهم على شيخهم الحبيب، داعين الله أن يحفظه ويمدّ في عمره، والسعيد من اقترب منه، أو لمس يده، أو استنشق من عير أنفاسه وعبقها.

عزلته عن الناس:

وتمرُّ الأيام، وتتوالى الأمراض على الشيخ، ثم يعجز عن الخروج من داره، ويعتزل الناس إلا من أسعده الحظ بلقائه لحظات خاطفات، ويتقاطر الناس إلى بيته يسألون عن صحته، ويودون أن لو استطاعوا فداءه بأرواحهم، ويحملون ما يحمل ويعاني ليبقى سليماً معافى، يرون فيه صورة حبيبهم الأعظم صلوات الله تعالى عليه. ولكن هيهات هيات، فلا راد لقضاء الله، وليت الأمانى بالتمنى.

الدمعة الحرى:

وبزغت شمس العشرين من ذي الحجة عام ١٤٢٢ للهجرة والموافق للرابع من شهر آذار سنة ٢٠٠٢ للميلاد على مدينة حلب، فإذا هي شمس كثيبة صفراء، وشاع في المدينة نبأ زلزل، يقطع القلب هلعاً، والنفوس جزعاً، لقد مات حبيب الأمة وعالمها وسراجها وكوكبها الدري...

في موكب الوداع:

لقد مات الشيخ عبدالله سراج الدين، وراح الناس يجهشون بالبكاء، ويسيلون جموعاً إلى موكب وداعه، ودموعهم مسفوحة، وعيونهم زائغة، وحسرتهم تقطع القلوب، وتسري في المدينة كلها كلمة: رحل الحب والحبيب...

رحل الإنسان الذي كنا نراه فكأننا نرى رسول الله ﷺ، ودفن في المدرسة الشعبانية التي أحبها وأمضى فيها زهرة حياته، وبقي الناس يومها لا يشتهون طعاماً أو شراباً، ولا بيعاً أو شراءً، وبقيت حلب تنثُّ من يتمها ولا تزال.





عبدالغني الدقر
النحوي الفقيه والمؤرخ الأديب^(١)
(١٣٣٥ - ١٤٢٣هـ)
(١٩١٧ - ٢٠٠٢م)

اختصرها وحزرها: مَجْد مكي

مولده ونشأته:

ولد عبدالغني بن محمد علي بن عبدالغني الدقر سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، في حي زقاق البرغل باب الجابية من أحياء دمشق، لأبوين فاضلين، فوالده العالم الفاضل الشيخ محمد علي صاحب نهضة علمية في بلاد الشام، ووالدته السيدة الجليلة بدرية المرادي، توفيت وهي ابنة ثمانية وعشرين سنة، وعمر صغيرها عبدالغني حينئذ سنتان ونصف، فنشأ الطفل يتيم الأم ينقصه الحنان، فكان أبوه يعوضه شيئاً منه باصطحابه معه إلى حلقات كبار العلماء.

أرسل الوالد صغيره إلى معلمة القرآن الكريم للصغار، فقرأ عندها القرآن كاملاً، وتلا من سورة الناس إلى سورة الضحى.

(١) نشرت بتاريخ ٢٩/٥/٢٠٠٨م، في موقع: (الإسلام في سورية)

ثم ألحقه والده بالكتاب، وهو ابن خمس سنين، فقرأ فيه ختمة كاملة نظراً على الشيخ المقرئ عز الدين العرقسوسي، وأقيم له حفل الختم ولم يتجاوز عمره سبع سنين.

في المدرسة التجارية:

ألحقه والده بعد ذلك بالمدرسة التجارية بدمشق لصاحبها الشيخ محمود العقاد رحمه الله، ولما لوحظ نبوغه قيد في الصف الرابع مباشرة فدرس في هذه المدرسة من الصف الرابع إلى الصف التاسع، وتخرج فيها سنة ١٩٢٨م وعمره اثنا عشر عاماً، ولم تكن تلك المدرسة تمنح شهادات لخريجها، ولم يحصل بعدها الشيخ على شهادة قط. ثم ترك الدراسة مدة من الزمن، اتجه فيها إلى ممارسة هوايته في الصيد وركوب الخيل والسباحة في مزارع أسرته في المزة ودارياً.

عكوفه على قراءة كتب المنفلوطي:

وما لبث حبه للعربية أن أعاده إلى نطاق العلم، فقد أهداه صديقه وأستاذه الشيخ منير الفقير كتاب (في سبيل التاج) للمنفلوطي، فقرأه كله في مجلس واحد وأعجب به، وطلب على إثر ذلك من صديقه أن يوفر له كتب المنفلوطي كاملة، وعكف على قراءتها، واستخرج الألفاظ الغريبة منها، ورتبها هجائياً، واستخرج معانيها من القاموس المحيط، وحفظها عن ظهر قلب، فكان ذلك ثروة لغوية له، وعمره لم يتجاوز الرابعة عشرة.

مطالعة كتب الأقدمين:

اتجه بعد ذلك لمطالعة كتب الأقدمين، وقراءة الأدب الأصيل فقرأ للجاحظ، والمبرّد، والقالبي.

دروسه في جامع السنانية بدمشق:

وعاد الشيخ إلى خلق العلم طالباً ومدرساً، إذ عقد له والده مجلساً لإلقاء النحو في جامع السنانية بدمشق، فبدأ مع الطلبة بمتن الأجرومية، ثم

شرحها للأزهري، ثم انتقل إلى (قطر الندي) لابن هشام، ثم إلى (شذور الذهب)، ثم إلى (شرح ابن عقيل على الألفية)، وانتهى من تدريسه وعمره سبعة عشر عاماً!!!

دروسه في مسجد العدّاس:

ثم حوّل درسه بعد ذلك إلى (مسجد العدّاس) بدمشق، حيث تسلّم غرفة فيه ووضع فيها مكتبته، وبقي فيها قرابة خمس وعشرين سنة.

نبوغه المبكر:

ظهر نبوغ الشيخ مبكراً، إذ قيّد في الصف الرابع مباشرة أول ما ألحق بالمدرسة التجارية، وقد كان عمره يوم أن خصّص له والده حلقة إقراء التّحوي نحو خمسة عشر عاماً.

كما دُعي إلى زيارة مصر من قبل رئيسها آنذاك، ضمن وفد يمثل علماء الشام عام ١٩٥٦م وعمره أربعون سنة.

وكان الرئيس شكري القوتلي الذي حكم سورية في الخمسينيات، يناديه طالباً منه تصحيحاً لغوياً، أو استشارة في ذلك، على حداثة سنّه ووجود أعلام في العربية في عصره.

ثناء الشيخ الطنطاوي عليه:

وعنه كتب الشيخ علي الطنطاوي في مذكراته ٣٠١/٨ فقال: «... كذلك يُحيي الله بالرجل الواحد بلداً ميتاً في الأدب والعلم، وربّ رجل واحد يكون على يده نهضة شعب... فعليكم بالبقية الباقية من أقطاب الأدب. أطلقوا أيديهم في مناهج العربية وكتبها، ولا تجعلوا الشّهادات وحدها هي الميزان، فإنّ كثيراً ممّن أعرف اليوم معرفة بالأدب العربي الحقّ، ممّن درس كتبه الكبرى؛ لم يكونوا يحملون شهادة، وإن كان يقعد بين أيديهم يتلقّى عنهم حملة الشّهادات من أساتذة الجامعات، ومن هؤلاء: محمود شاكر في مصر، وعبدالغني الدّقر في الشام».

وكان الشيخ عبدالوهاب دبس وزيت فقيه دمشق ومقرئها يقول: إذا

أردت أن تتقن القرآن اذهب إلى الشيخ عبدالغني ثم تعال إليّ.

شيوخه:

قرأ الشيخ عبدالغني الدقر رحمه الله تعالى العلوم الشرعية والعربية على كبار علماء عصره؛ فقرأ التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه الشافعي وأصوله، والنحو والأدب والمنطق.

أما العلماء الذين قرأ عليهم فهم:

الشيخ بدر الدين الحسني (ت ١٣٥٤)، الشيخ محمد أمين سويد (ت ١٣٥٥)، والده الشيخ علي الدقر (ت ١٣٦٢)، الشيخ محمود العطار (ت ١٣٦٢)، الشيخ عبدالرحمن الخطيب (ت ١٣٦٧هـ)، الشيخ عبدالقادر المغربي (ت ١٣٧٥)، الشيخ محمد هاشم الخطيب (ت ١٣٧٨)، الشيخ واصف الخطيب، الأستاذ عز الدين التَّنُوخي (ت ١٣٨٦)، الشيخ عبدالوهاب دبس وزيت الشهير بالحافظ (ت ١٣٨٩)، الشيخ حسن حبنكة الميداني (ت ١٣٩٨)، والشيخ أبو اليسر عابدين (ت ١٤٠١)، رحم الله الجميع.

مطالعه مع أقرانه:

كان للشيخ الدقر مع أقرانه مدارس، ومذاكرات، من ذلك مدارسته مع الشيخ عبدالكريم الرفاعي رحمه الله لكتابي (المحلّي) و(الإحكام) لابن حزم رحمه الله.

كما كان له مجلس مع الشيخ علي الطنطاوي والأستاذ سعيد الأفغاني رحمهما الله، بعد صلاة الجمعة، يقرؤون فيه كتاب (الرّسالة) للإمام الشافعي رحمه الله.

كما تدارس العربية مع الشيخ يوسف بن صادق عرار، قرأ معاً كتاب (المُزهر في علوم اللغة) للسيوطي.

وتدارس مع الشيخ نايف العباس علم البيان.

مطالعه ومكتبته:

كان الشيخ مولياً القراءة النصيب الأوفر من حياته، فهو يقرأ من بعد

صلاة الفجر حتى صلاة المغرب، وقد جَرَدَ بنفسه عدداً من المطوَّلات في التفسير والفقه، والحديث، واللغة، والأدب، مثل: (مغني المحتاج) للشربيني، و(نهاية المحتاج) للرملي، و(مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية)، و(المحلّي) و(الإحكام في أصول الأحكام)، و(الفصل في الملل والأهواء والنحل) لابن حزم، و(فتح الباري) لابن حجر، و(شرح صحيح مسلم) للنووي، و(تاريخ الطبري)، و(الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني، وكتب الأدب المشهورة جميعها.

وتضمُّ مكتبته المرتبة على الفنون؛ أصناف المعرفة الإسلامية والعربية جميعها؛ من تفسير، وحديث، وفقه، ولغة، وأدب، وتاريخ، وتراجم، وغير ذلك.

تعقباته واستدراكاته وتصحيحاته:

وقد فرضت عليه مطالعته الكثيرة أن يكون رجلاً نقّاداً، فهو إما متعقّب، أو مستدرك، أو مصحّح، كما يقول عن نفسه: «لا أستسلم لكتاب، ولا رأي».

آراؤه في دراسة العلوم الشرعيّة:

للشيخ آراء واتجاهات في علم الكلام والفقه والحديث واللغة، وأذكر هنا بعض اتجاهاته في العلوم المختلفة التي تنمُّ عن شخصيته العلمية:

- في علم الكلام: يميل إلى رأي السلف، ويحبُّ عقيدة الإمام أحمد وورعه وزهده.

- في علم المنطق: يذهب مذهب الغزالي بأن الفلاسفة كفروا في ثلاثة أشياء: قدم العالم، وأن الله يبعث الأرواح دون الأجساد، ولا يعلم الجزئيات.

- في علم الفقه: يميل إلى الأخذ بالدليل الصحيح، ويتنبَّعه، ولو كان مخالفاً لمذهبه الشافعي، ويرى أن طالب العلم المتمكّن يسوغ له الأخذ بالدليل، غير أنه لم يخرج عن مذهب الشافعي إلا في مسألة واحدة في الطلاق الثلاث في مجلس واحد، غير أنه كان لا يفتي بذلك.

- في علم الحديث: لا يرى الأخذ بالحديث الضعيف مطلقاً، ولا حتى في فضائل الأعمال، ومتى ثبت الحديث لديه يعمل بما فيه.
ويرى أن البدع يجب محاربتها، وهي سنة السلف الصالح والعلماء العاملين.

- وفي التاريخ: قرأ التاريخ الإسلامي، ودرس كتب الشيخ الخضري.
- وفي اللغة: له تعقبات على (القاموس المحيط)، في نحو من ثمانمئة صحيفة، ويعدُّ الجوهريَّ صاحب (الصحاح) من أدقِّ اللغويين، ويقاربه ابن منظور في (لسان العرب).
ويأخذ على علماء الشام عدم عنايتهم باللغة والحديث.

مروياته:

للشيخ مرويات وإجازات من عددٍ من شيوخه، وهي:
سماعه من الشيخ المُحدِّث بدر الدِّين الحسنِي بعض الأحاديث المسلسلة، وقد أجازَه إجازةً عامَّة. وأجازَه العلامة الشيخ محمد أمين سويد إجازةً عامَّةً بسائر مروياته. كما أجازَه العلامة الشيخ محمود العطار إجازةً عامَّةً بسائر مروياته. وأجازَه العلامة المقرئ الفقيه الشيخ عبدالوهاب دبس وزيت إجازتين: إجازة خاصة بالقرآن الكريم، وإجازة عامَّة بسائر مروياته. وأجازَه العلامة الشيخ حسن حبنكة الميداني إجازةً عامَّةً بسائر مروياته. كما أجازَه الشيخ أبو اليسر عابدين إجازةً عامَّةً بسائر مروياته.

الوظائف التي تولّاها، والأعمال التي شغلها:

تولَّى الشيخ عدداً من الوظائف، وشغل عدداً من الأعمال، وهي:
١ - مدرِّس بإدارة الإفتاء العام من عام ١٩٤٦م حتى وفاته. ٢ - درِّس في ثانوية السَّعادة الأدب العربيَّ لطلاب الشَّهادة الثَّانوية. ٣ - مدرِّس بالمعهد الشرعي بجامع تنكز للعلوم العربية. ٤ - أستاذ العلوم العربية في كثير من الثَّانويات. ٥ - عهد له والده بحلقة يدرس فيها النُّحو في جامع

السنانية . ٦ - رئيس مجلس إدارة الجمعية الغراء . ٧ - رأس تحرير مجلة (المرأة) لصاحبته نديمة المنقاري وزوجها عطا الصابوني وكتب فيها عدة مقالات، أودعها في كتابه «لمحات من الكتاب والنوبة والحكمة» . . .

رحلاته:

لم يُعن الشيخ بالرحلة، ولم يُكثر منها، إلا أنه زار تركية سياحةً، والمملكة العربية السعودية، ولبنان، والأردن، ومصر، وحجَّ حجَّتين: الأولى: مع زوجه سنة ١٩٧٠م، والثانية: بدعوة من الملك فهد بن عبدالعزيز سنة ١٩٧٨م.

جليته:

كان رحمه الله ربة، ممتلئ الجسم، أبيض البشرة، له لحيّة خفيفة، عيناه زرقاوان، يلبس البرّة، ويعتم على طربوشه من الأغباني، متواضعاً، بهيّ الطلعة، لا تفارق الابتسامة محياه.

وفاته:

توفي الشيخ عبدالغني مساء يوم الخميس الخامس عشر من شوال عام ١٤٢٣هـ، الموافق التاسع عشر من كانون الأول سنة ٢٠٠٢م، وصلي عليه في جامع الحمد بعد صلاة الجمعة من اليوم التالي، ودفن في مقبرة الباب الصغير عن خمس وثمانين عاماً قضاها في طلب العلم وبذله لطلابه، رحمه الله وأجزل له المثوبة.

تعريف بمؤلفاته:

اعتنى الشيخ عبدالغني الدقر بالكتابة والتأليف، فصنّف وحقق وكتب المحاضرات والمقالات، وفهرس المخطوطات، أما أهم آثاره وعمله فيها فهي على النحو التالي:

أ - في مجال العلوم والدراسات الإسلامية:

- ١ - مختصر تفسير الخازن لعلاء الدين البغدادي، اختصار وتهذيب، صدرت الطبعة الأولى ١٤٢٥ عن دار اليمامة بدمشق، واعتنى بمراجعتها وترقيمه وإعداده للطباعة من أول التفسير إلى سورة الكهف: مَجْد مكي. ٢ - قواعد الأحكام في قواعد الأنام للعز بن عبد السلام، تحقيق، صدرت الطبعة الأولى ١٤١٢ عن دار الطباع بدمشق. ٣ - محاضرات في الدين والتاريخ والاجتماع، تأليف، وهو أول كتاب أصدره الشيخ سنة ١٣٧٢. ٤ - لمحات من الكتاب والنبوة والحكمة، تأليف، صدرت الطبعة الأولى ١٤٠٦ في ٣٠٣ صفحة عن دار اليمامة بدمشق. ٥ - فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، الفقه الشافعي، فهرسة، صدر عن المجمع العلمي بدمشق ١٣٨٣ في ٣٥٥ صفحة. ٦ - صحيح الأدعية والأذكار، تأليف، صدرت الطبعة الأولى ١٣٩٧ عن دار القلم بدمشق. ٧ - صحيح الآثار في الأدعية والأذكار، تصنيف، أضاف إلى الكتاب السابق مختصراً في أحكام الحج للمفرد على المذهب الشافعي. ٨ - قصّة إبليس والرّاهب، قصة قصيرة استوحاها من بعض التفاسير صدرت الطبعة الثانية سنة ١٤٠٧. ٩ - الدّعوة من القرآن وإلى القرآن، رسالة في أساليب الدعوة وصفات الداعية، صدرت سنة ١٤٠٧ عن دار الهجرة.

ب - في مجال العلوم العربية:

- ١ - شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاري، ترتيب وتعليق وشرح الشواهد، صدر عن دار العربية في ٦٥٤ صفحة. ٢ - معجم النّحو، تصنيف طبع في المكتبة العربية عام ١٣٩٥. ٣ - معجم القواعد العربية في النّحو والتّصريف وذيل الإملاء، تصنيف، طبع في دار القلم، وصدرت الطبعة الثانية سنة ١٤٢٢. ٤ - تحرير ألفاظ التّنبية أو لغة الفقه للنووي، تحقيق وتعليق طبع بدار القلم سنة ١٤٠٨.

ج - في مجال التاريخ والتراجم:

- ١ - الإمام مالك بن أنس، تأليف، طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (٢٣) وصدرت الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ. ٢ - الإمام الشافعي،

فقيه السُّنة الأكبر، تأليف، طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (٢) وصدرت الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ. ٣ - أحمد بن حنبل، إمام أهل السُّنة طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (١٧) وصدرت الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ. ٤ - سفيان بن عيينة شيخ شيوخ مَكَّة في عصره، تأليف طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (٣٧) وصدرت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ. ٥ - الإمام سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث، تأليف طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (٥٢) وصدرت الطبعة الأولى ١٤١٥هـ. ٦ - الإمام النووي شيخ الإسلام والمسلمين، وعمدة الفقهاء والمحدثين، وصفوة الأولياء والصالحين، طبع بدار القلم ضمن سلسلة أعلام المسلمين برقم (١٠) وصدرت الطبعة الأولى ١٤١٥هـ. ٧ - تاريخ مدينة دمشق حماها الله وذكر فضلها وتسمية من حلَّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها، لابن عساكر، تحقيق الجزء السابع، وقد احتوى على ٢٢٣ ترجمة، وطبع في مجمع اللغة العربية عام ١٤٠٥هـ.

د - المقالات:

شارك الشيخ في الكتابة في الصُّحف والمجلات، فكتب مقالات وبحوثاً كثيرة في صحيفة (الأيام)، و(المرأة) السُّوريتين، وفي (الرُّسالة) القاهرية، وكتب في مجلَّة (حضارة الإسلام)، و(مجلَّة مجمع اللغة العربية) بدمشق.

تميّز الشيخ عبدالغني عن علماء الشام بعلمه بالعربية، وعنايته بأدلة الأحكام. ورغم نشأته في بيئة علمية رفيعة القدر، فإن أخلاقه وتعفّفه منعه أن يكون مستغلاً لها، فلا يطلب بها مالاً، أو جاهاً أو منصباً، بل فضل أن يكون الكتاب جليسه وأنيسه، والعلم مطلبه ومراده، فلا عجب أن تراه عازفاً عن رسوم المشايخ بعيداً عن أضواء براءة يسعى غيره إليها^(١).

(١) مختصر من كتاب (عبدالغني الذّقر، النُّحوي الفقيه والمؤرّخ الأديب)، تأليف: إياد خالد الطباع، وهو الكتاب رقم (٢٢) في سلسلة: (علماء ومفكرون معاصرون، لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم) التي تصدرها دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.



هذه رحلتي وهذا عطائي...

سيرة حياته بقلمه

اسمي أحمد فهمي أبو سنة، وُلدت في محافظة الجيزة مركز الصف سنة ١٩٠٩م، حفظت القرآن الكريم على يد جدي الشيخ محمود خليفة أبو سنة رحمه الله، وتلقيت عليه من القرآن الكريم بعض الكتب الصغيرة في علمي التجويد والنحو، وكان للكتاتيب على أيامنا دور بارز في نشر كتاب الله تعالى.



في رحاب الأزهر الشريف:

ولما تجاوزت السنة ١١ من عمري التحقت بالأزهر سنة ١٩٢١ وقطعت مرحلتيه الابتدائية والثانوية في القاهرة، وتلقيت فيهما العلم على يد

(١) نشرت بتاريخ ١٧/١/٢٠٠٧م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com

وأصل المقالة نشرها الأستاذ ناصر وهدان في مجلة (الأزهر).

كثير من كبار علماء الأزهر في ذلك الوقت، مثل الشيخ يوسف حجازي في الفقه، والشيخ عبدالرؤوف الرفاعي في النحو، والشيخ محمد المدلل، وغيرهم الكثير.

وأذكر أنه قد ألغيت الدراسة الأزهرية وأنا في السنة الأولى من القسم الابتدائي؛ بسبب قيام المظاهرات ضد الاحتلال الإنجليزي، واشترك طلاب الأزهر فيها، وبطبيعة الحال لم يحصلوا علماً فتعطلت الدراسة وألغيت الامتحانات، ثم عادت الدراسة مرة أخرى في العام التالي ١٩٢٢/١٩٢٣.

وأذكر من زملائي في تلك الفترة على سبيل المثال الدكتور حسن عون الأستاذ بجامعة القاهرة قسم الدراسات العربية والحاصل على الدكتوراه من فرنسا، والأستاذ محمود الأزرق الذي عمل بالقضاء الشرعي بعد ذلك، والشيخ شغبون، وغيرهم الكثير.

أما عن نظام الدراسة في هذين القسمين فقد كانت مُحِبَّة للجميع، وكنت مع دراستي أحب الاطلاع على الكتب، ولا سيما كتب الفقه والأدب.

تطوير منهج الأزهر:

ومع بداية التعليم الثانوي سنة ١٩٢٦/١٩٢٧م نشأ على عهدنا منهج في الأزهر متطور جمع فيه بين علوم الأزهر المتعارفة القائمة على المتون والشروح وبين العلوم الحديثة كالطبيعة والكيمياء والرياضيات والجغرافية والتاريخ، فكان الطالب يدرس دراسة مزدوجة في عهد مشيخة الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي، ثم أدركنا مشيخة الشيخ محمد مصطفى المراغي الأولى سنة ١٩٢٨، ثم مشيخة الشيخ الأحمدي الظواهري سنة ١٩٢٩، وكان ذلك في آخر القسم الثانوي.

في التعليم العالي:

ثم انتقلنا إلى السنة الأولى من القسم العالي في سنة ١٩٣١، وهي ذات الدراسة على النظام القديم حضرناها في الجامع الأزهر على يد كثير من العلماء أمثال الشيخ أحمد عبدالسلام في الفقه، والشيخ حامد جاد في التفسير، وغيرهما.

التحاقه بكلية الآداب بجامعة القاهرة:

وفي هذا الوقت بدأت كلية الآداب بجامعة القاهرة تفتح أبوابها لطلاب الأزهر ودار العلوم، وكنت من الذين تأقت أنفسهم للتعرف على التعليم الجامعي، فجمعت بين النظامين الأزهري والجامعي، وكنت أتلقي العلم هنا وهناك، ساعدني في ذلك تشجيع الأساتذة لي في كلية الآداب الذين درست على أيديهم أمثال الدكتور أمين الخولي في الحديث، والدكتور أحمد أمين في قاعة البحث، والدكتور إبراهيم مصطفى في النحو، والدكتور أحمد الشايب في الأدب.

وكان ذلك على عهد طه حسين الذي فتح باب الالتحاق بكلية الآداب، وشجّع عليه الطلاب وبخاصة طلاب الأزهر ودار العلوم.

عودته للأزهر وتفرغه للدراسة الشرعية:

وما هي إلا شهور معدودة وقد أوشك العام الدراسي على الانتهاء وعلم والدي رحمه الله، وكان من أقران أساتذتي في كلية الآداب، برغبتي في المضي في التعليم الجامعي على حساب دراستي في الأزهر، فأقنعني وأقنع أساتذتي - لمعرفته بهم باعتبار أن أغلبهم من دار العلوم أو القضاء الشرعي - بعودتي للأزهر والتفرغ للدراسة الشرعية فيه وحده، فأكرمني الله بسبب بُعد نظر والدي رحمه الله.

افتتاح الكليات الأزهرية النظامية:

وبعد نجاحي في السنة الأولى من القسم العالي وبداية السنة الثانية منه، افتتحت الكليات الأزهرية النظامية، وهي الشريعة وأصول الدين واللغة العربية في عهد مشيخة الشيخ محمد الأحمد الظواهري.

التحاقه بكلية الشريعة:

وبعد اطلاعي على مناهج الكليات الثلاث السابقة، اخترت الالتحاق بكلية الشريعة، فكان الطالب الذي أمضى سنة بالقسم العالي من أمثالي

يلتحق بالسنة الثانية بكلية الشريعة مباشرة، بخلاف الطلاب الحاصلين على الثانوية الأزهرية فإنهم عند التحاقهم بالكلية يدخلون السنة الأولى كطلاب جدد على الدراسة الجامعية.

ولذلك كانت الدراسة بالنسبة لنا شاقة، فقد وزع علينا منهج الكلية على مدى ثلاث سنوات بدلاً من أربع.

أساتذته في هذه المرحلة:

أما عن أساتذتي في هذه المرحلة فهم على سبيل المثال: الشيخ حسن اليومي، والشيخ يوسف المرصفي، والشيخ محمد عبدالفتاح العناني، أولئك الذين درسوا لي علم الأصول، والشيخ محمد عرفة في التفسير، والشيخ عبدالرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر بعد ذلك.

نظام الإصلاح بالأزهر:

وأذكر أنني قطعت سنوات الكلية ببجد وحزم حتى تخرجت ونلت الشهادة العليا منها، والحق يقال: إن الذي وضع نظام الإصلاح بالأزهر وإنشاء الكليات هو الشيخ المراغي، ولكن الذي نفذ هذا الإصلاح هو الشيخ الأحمد الطواهري، ثم عاد الشيخ المراغي في سنة ١٩٣٦م وواصل إصلاحه للأزهر وتخرج في عهده أول فوج من طلاب الدراسات العليا قسم الأساتذة.

أول دكتوراه في الأزهر:

وفي سنة ١٩٣٥ التحقت بالدراسات العليا بالكلية، وكانت مدتها طويلة وبلا مكافآت تشجيعية في هذه المدة، فلما جاء الشيخ المراغي قرّر منح طلاب هذا القسم مكافآت أعانتهم على الاستمرار فيه.

وفي سنة ١٩٤٠ نجحت في الدراسات العليا، وحصلت على الشهادة العالمية من درجة أستاذ دكتوراه كمتخصص في الفقه والأصول وتاريخ التشريع، وكان نظام التخصص على عهدنا قسmin:

(أ) القسم الأول:

- ١ - تخصص للحصول على العالمية مع إجازة التدريس، وكانت مدته ستين يعمل بها صاحبها مدرساً في المعاهد الأزهرية.
- ٢ - تخصص للحصول على العالمية مع إجازة القضاء بعدها، وصاحبها يكون قاضياً في المحاكم الشرعية.

(ب) أما القسم الثاني من التخصص فهو تخصص المادة للحصول على العالمية من درجة أستاذ، وكانت مدته ست سنوات متواصلة ينتقى طلابه من الأوائل؛ ليعملوا فور تخرجهم ونجاحهم مدرسين في الكلية نفسها.

وكان موضوع رسالتي «العرف في رأي الفقهاء والأصوليين»، وأذكر أنها كانت أول رسالة قُدمت على هذا النظام الجديد، فقد كنت أول من نُوقش في القسم على النظام الجديد للحصول على الدكتوراه، وهذه الأولوية هي أولوية زمانية بمعنى كوني الأول في القسم الذي نُوقشت رسالته؛ لأن اسمي يبدأ بالهمزة والهمزة أول حروف العربية.

كان معي في الدراسات العليا من الزملاء: الشيخ محمد أبو النور زهير، الشيخ أحمد ندا، والشيخ طه العربي، والشيخ سيد جهلان.

نظام امتحان العالمية:

وكان نظام امتحان العالمية من درجة أستاذ «الدكتوراه» يتكوّن من مرحلتين، على الطالب أن يجتازها بنجاح، وكانت المرحلة الأولى عبارة عن:

- ١ - إلقاء محاضرة عامة. ٢ - مناقشة في مسألة علمية؛ يسمى الامتحان فيها بالامتحان في التعيين. ٣ - امتحان تحريري.

لجنة تقويم المحاضرة العامة وامتحان التعيين:

وكانت اللجنة المؤلفة لتقييم المحاضرة والتعيين مؤلفة من سبعة

أشخاص برئاسة الشيخ المراغي، وعضوية الشيخ عبدالمجيد سليم مفتي مصر، والشيخ إبراهيم الجبالي، والشيخ أحمد أبو النصر، والشيخ محمد عبدالفتاح العناني، والشيخ عيسى مثنون، والشيخ محمود أبو دقيقة رحمهم الله جميعاً.

مناقشة رسالة الدكتوراه:

فإذا اجتاز الطالب هذا الامتحان بنجاح يتأهب بعد ذلك للمرحلة الثانية، وهي إعداد رسالته تمهيداً لمناقشتها وتقييمها بعد كتابتها عن طريق لجنة أخرى، وهي اللجنة الخماسية، وكانت مؤلفة من الشيخ المراغي رئيساً وعضوية الشيخ عبدالمجيد سليم، والشيخ الفقيه الحقوقي أحمد إبراهيم، والشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر بعد ذلك، والشيخ يوسف المرصفي، وكانت رسالتي للدكتوراه أول مناقشة علنية في ظل نظام الشيخ المراغي الذي ظل معمولاً به حتى ١٩٦١، وقد دعا الشيخ المراغي إلى هذا الامتحان كبار الشخصيات وعلية القوم من أمثال لطفي السيد باشا وغيره.

أما عن مكان مناقشة الرسالة فهو نفس مبنى كلية الشريعة القديم قبل إنشاء المبنى الجديد بالدراسة وهذا المبنى القديم في الأصل كان مدرسة للقضاء الشرعي قبل إلغائها وقيام كلية الشريعة مكانها، وهذا المبنى يعرف الآن بمعهد البرموني الأزهري.

وقد اكتظ المبنى بالحاضرين من الضيوف والطلاب يوم المناقشة، واستحال تنظيم الجلسة حتى خشي المنظّمون لها من تصدّع المبنى، فقال الشيخ المراغي رحمه الله بالحرف الواحد كما رأيت في مجلة «الاثنين والدنيا»: لولا أن يقال عن مشيخة الأزهر إنها لم تستطع ضبط النظام في امتحان عُقد لأحد أبنائها لفضّ هذا الاجتماع. وانتهت المناقشة بحصولي على لقب العالمية من درجة أستاذ في الفقه وأصوله وتاريخ التشريع، وللعلم ظل هذا اللقب معمولاً به في الأزهر لمدة ثلاثين عاماً حتى تغيّر إلى لقب الدكتوراه، والذي ظهر في عام ١٩٦٥م.

التدريس بالجامعات العربية:

وفي سنة ١٩٤١ عُيِّنَ مدرساً في كلية الشريعة فأستاذاً مساعداً فأستاذاً، وظللت بها حتى سنة ١٩٧٤، وهو سنّ الإحالة للمعاش غير أنه ابتداء من سنة ١٩٦٠ كثرت إعاراتي إلى الجامعات العربية، مثل دمشق سنة ٦٠ - ١٩٦١، وجامعة ليبيا بكلية الحقوق سنة ١٩٦٢، وجامعة بغداد سنة ١٩٦٧، وأخيراً جامعة الملك بن عبدالعزيز أم القرى الآن سنة ١٩٧٢، وما زلت بها أستاذاً للدراسات الشرعية حتى الآن، وأحضر لمصر في الإجازات الصيفية.

عنايته بالدراسات الشرعية المختلفة:

ومنذ تخرجي وعلى مدى ٥٠ عاماً تقريباً، وأنا معنيّ بالدراسات الشرعية المختلفة بما في ذلك تخصّصي في الفقه وأصوله وتاريخ التشريع، مثل السياسة التشريعية، والاقتصاد الإسلامي، ومقاصد الشريعة، ومصطلح الحديث، والتفسير، وأخيراً التصوف الذي اضطررت إلى تدريسه في الجامعة الليبية بسبب تغيب أستاذ المادة الدكتور عمر الشيباني، وكان ذلك أثناء فترة تدريسي بالجامعة الليبية.

عضو مجمع البحوث الإسلامية:

وفي مشيخة الشيخ بيصار، وبالتحديد في سنة ١٩٨٠م عُيِّنَ عضواً في مجمع البحوث الإسلامية أثناء إعارتي لجامعة أم القرى بمكة، وبرغم إعاراتي لكثير من الجامعات العربية فقد حضرت العديد من جلسات المجمع، خاصة ما ينعقد منها في الإجازات الصيفية.

مظاهر التكريم:

ومن مظاهر التكريم التي حظيت بها طوال فترة حياتي أنني حصلت على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى في العيد الألفي للأزهر الشريف سنة ١٩٨٣.

عضو مجمع الفقه التابع لرابطة العالم الإسلامي:

وفي نفس الوقت عُينت عضواً بمجمع الفقه التابع لرابطة العالم الإسلامي، حيث نجيب عن الفتاوى التي تعرض علينا في مؤتمرات مجمع الرابطة في صورة قرارات.

أهمية المجامع العلمية:

وهذه المجامع مثل مجمع البحوث ومجامع الفقه الإسلامي الأخرى يجب أن تظل قائمة، وأن يعظم نشاطها في بيان شرع الله وإصدار الفتاوى العلمية الصحيحة فيما يحتاج إليه الناس وفيما يختلف فيه الكاتبون في الصحف، فإن الناس لا يطمثون إلا إلى أمثال المجامع وعلى رأسها مجمع البحوث في الأزهر حتى نمنع أي مُفتت على الشريعة بغير علم، وبذكر أحكام في الصحف ما أنزل الله بها من سلطان، وها نحن الآن نسمع في الربا أفكاراً غريبة ينسبها الناشرون إلى الشريعة بتعليلات واهية ولا تستند إلى الحق في شيء، والذي ينبغي أن يسأل فيه أهل الذكر، وهم القائمون بهذه المجامع حتى يطمئن الناس على دينهم ومعاملاتهم.

نشاطه في مجمع البحوث الإسلامية:

أما عن نشاطي في مجمع البحوث الإسلامية فأذكر أنه في مرة استفتاني المجمع وأنا بالسعودية في حكم شهادات الاستثمار فقلت بحرمة المجموعة (أ، ب) منها معللاً ذلك بالأدلة والأحكام في حينها أما المجموعة (ج) منها فذكرت رأيي وهو أن فيها شبهة ربا؛ لأنها ليست نوعاً من المضاربة، فالذي يدفع للبنك ليس من أجل المساهمة في مشاريع الدولة، وإنما من أجل الكسب، فالدافع إنما يدفع انتظاراً ليوم السحب فإن ظهر اسمه بين الفائزين نال الجائزة وإلا فلا، فهذا المال الذي يأخذ وقت السحب عند فوزه يأخذه مقابل ماذا؟! ولهذا ليست شهادات استثمار المجموعة (ج) ربا صريحاً. وإنما فيها شبهة الربا بناء على ذلك.

موقفه من التأمين التجاري:

وفي مؤتمر الاقتصاد الإسلامي بمكة المكرمة المنعقد سنة ١٩٧٦ عرضت علينا مسألة التأمين التجاري على الحياة فرفضناه كما رفضناه في الستينيات؛ لأنه باطل لما فيه من ربا وغرر وقمار، وإن كنا قد أجرينا بديلاً عنه التأمين التعاوني القائم على إيداع مجموعة من الأفراد مقداراً معيناً من المال لخدمة الأعضاء من علاج وإعانة، وما إلى ذلك من أنشطة للأعضاء بشرط أن ما يتبقى في الصندوق عند نهاية العام لا يرد ويجوز أن يستثمر عن طريق المضاربة والشركات ذات الربح الحلال، ثم يوزع الربح على المودعين كل بمقدار نسبة مساهمته في المشروع.

مؤلفات وبحوث:

ومن أهم المؤلفات والبحوث التي نُشرت لي:

- ١ - كتاب «العرف في رأي الفقهاء والأصوليين»، وهي رسالتي للدكتوراه.
- ٢ - كتاب الوسيط في أصول الفقه.
- ٣ - كتاب نظرية الحق في الفقه الإسلامي.
- ٤ - بحث حقوق المرأة السياسية في الإسلام.

ولديّ كتب تحت الطبع من أهمها:

- ٥ - نظرية العقد في الفقه الإسلامي.
- ٦ - عقد الزواج.
- ٧ - مقاصد الشريعة.
- ٨ - الاقتصاد الإسلامي.
- ٩ - محاضرات في أصول الفقه.
- ١٠ - نظرية العقد، ونظرية الملك، ونظرية الضمان.

محاضراته عن «حقوق المرأة في الإسلام»:

- ١١ - فضلاً عن إلقاء المحاضرات وحضور الندوات المختلفة في الفقه والاقتصاد الإسلامي منها محاضرة ألقيتها في جمعية الشبان المسلمين في سنة ١٩٥٥/١٩٥٦م بعنوان «حقوق المرأة في الإسلام»، وكانت رداً على دعاوى القائلين وقتها بأحقية المرأة في الحكم والقضاء، ولكن ما وصلت إليه من البحث والاطلاع بيّن لي أن المرأة لا تصلح للولايات العامة مثل

الخلافة كرئيس أعلى للدولة أو القضاء كقاضية، وإن كانت تصلح للولايات الخاصة وعلى أثر ذلك استفتي الأزهر.

مقالاته في المجالات:

١٢ - تحرير بحوث ومقالات بمجلة الأزهر ومجلة رابطة العالم الإسلامي، ومن بينها على سبيل المثال بحث في «الإشهار في العقود»، وآخر باسم «حماية الفقه الإسلامي».

أحاديثه الإذاعية:

١٣ - أحاديث إذاعية بغرض التعريف بالإسلام على هيئة فتوى فقهية بدأت في إذاعة بغداد أثناء إعارتي لجامعة بغداد سنة ١٩٦٨.

منهجه في البحث:

أما عن منهجي في بحوثي وكتبي فيقوم على الأدلة الشرعية الصحيحة من كتاب الله تعالى القرآن الكريم وسنة الرسول المصطفى ﷺ وإجماع علماء المسلمين والقياس والمصالح المرسلة وأن يدون الفقه بأسلوب القواعد والنظريات.

جبهة علماء الأزهر والشيخ أبو زهرة:

أما معرفتي بالشيخ أبي زهرة، فقد تعرفت عليه حينما دعاني للاشتراك معه في إصدار موسوعة السنة، وكان ذلك في الخمسينيات حوالي سنة ١٩٥٧/٥٦م، ثم تقابلنا معاً بعد ذلك في جبهة علماء الأزهر، وهي هيئة من كبار علماء الشريعة بمصر عددهم ما بين عشرين إلى ثلاثين عالماً، وقد تكونت بغرض الدفاع عن الدين وما يصدر عن العامة من الشبه والانحرافات التي تنشر أو تفعل اعتداء على الشريعة، وكان مقر هذه الهيئة أحد المساجد الموجودة بشارع نوبار بالقاهرة.

والواقع أن الشيخ أبا زهرة كانت ميزته التي تبرزه عن أقرانه هي كثرة

مؤلفاته، فما من موضوع يمتُّ إلى الشريعة ويشغل الناس إلا وكتب فيه كتاباً مثل كتاب «العلاقات الدولية في الإسلام» و«التكافل الاجتماعي في الإسلام»، وكتب في الأعلام من الفقهاء وغير ذلك.

والحق أنَّ كتاباته جيدة وبخاصة الكتب التي درسها في الجامعة مثل كتبه عن الأئمة الأعلام، فالشيخ أبو زهرة ما قصَّر في حياته، فقد صرف أيامه في الدفاع عن الشريعة. وأذكر قوله لي: «مِمَّا مَنَّ الله علي: أنني كنت خاملاً فرفعني طلب العلم» رحمه الله تلك كانت عبارته. وكان وهو يستقل القطار لإلقاء المحاضرات في جامعة الإسكندرية وغيرها من الجامعات يقطع وقته في الاطلاع؛ لذا أثرى المكتبة الإسلامية.

أضف على هذا شجاعته في الحق فكان لا يخاف فيه لومة لائم، فقد اعترض على الربا، ورفض التأمين التجاري على الحياة وأعلن رأيه صراحة وكنا في مؤتمر الفقه الإسلامي الذي انعقد في دمشق إبان الوحدة بين مصر وسوريا، وقد حضرت المؤتمر مندوباً عن الأزهر، وحضر الشيخ أبو زهرة مندوباً عن الجامعة المصرية، وكان مقرر المؤتمر الشيخ علي الخفيف، وأراد الشيخ الخفيف والدكتور مصطفى الزرقا جواز إباحة التأمين على الحياة فاعترضت مع الشيخ أبي زهرة على ذلك معتمدين على بيان الأدلة الشرعية في ذلك فرفض المؤتمر إجازته.

إشرافه على عدد كبير من الرسائل الجامعية:

بدأت التدريس في الدراسات العليا في الستينيات، وبخاصة لطلاب الجزء الأول منها، وهو الدراسة المنهجية للفقه وأصوله من الناحية النظرية تمهيداً لإعداد الطالب للجزء الثاني والأخير وهو تحضير الرسالة ومناقشتها، ثم شاركت وأشرفت على كثير من الرسائل العلمية أذكر منها رسالة بعنوان «الرخصة والعزيمة»، وكانت في آخر الستينيات، وأخرى بعنوان: «طرق القضاء» سنة ١٩٧٤، ورسالة «فقه عمر»، و«مقاصد الشريعة»، و«دلالة السكوت» لطالبة سعودية، و«رفع الحرج» سنة ١٩٨٦، و«نظرية الخطأ»، و«تطور النقود في الإسلام»، و«السياسة المالية في الاقتصاد الإسلامي»،

وأخرى حول «العمل في الإسلام». وهناك رسائل أخرى للدكتوراه قيد المناقشة منها «الحقوق المقدمة عند التزاحم» للطالبة السعودية شادية الكحكي، و«الأجل في عقد البيع» للطالب التركي عبدالله أوزجان، و«الآثار الإسلامية للوقف» للطالب الكويتي عبدالله السميّط.

مواقف وذكريات لا تنسى:

من الذكريات التي لا تنسى: مشاهد الحج لبيت الله الحرام، وكانت بالنسبة لي في سنة ١٩٤٩، كنت وقتها مدرّساً في كلية الشريعة بالقاهرة وذهبت مع بعثة الأزهر للسعودية لأداء مناسك الحج لأول مرة، ولا أستطيع أن أصف أو أعلل مدى فرحي وسروري وبهجتي وقتها.

الموقف الثاني يوم تعييني مدرّساً في كلية الشريعة التي مكّنتني فيها الله سبحانه وتعالى أن أفضي على طلابي بكلّ ما حذقت من العلم وما منحني الله من مواهب تساعد على ذلك، فما بخلت على طلابي بشيء أشعر أنه ينفعهم.

أمنيته الخاصّة والعامة:

وعن أعزّ أمنية لي وليس لي في الحياة بعدها حاجة هي إخراج كتيبي التي كتبتها وهي قيد الطبع الآن، أما أمنيّتي العامة هي أن يعود الأزهر إلى عهده الأول من إنهاضه للعلوم الإسلامية وترقية الناحيتين الدينية والعلمية في أذهان طلابه؛ حتى يكونوا مؤهلين لنشر دعوة الإسلام في الداخل والخارج.





أحمد فهمي أبو سنة بين العلم والحياة... سيرة موجزة لعالم^(١)

بقلم: وفاء سعداوي

فَقْدُ الْأَعْلَامِ:

هل كُتِبَ علينا ألا يغادرنا سرّاً ومن دون كلمة وداع إلا من كانوا يستحقون منا كل احتفاء وتكريم، وأن تلهج الألسنة بذكرهم تقديراً ووفاء؟ وهل صار الرحيل في صمت وتعتيم هو دأب الأعلام والعلماء فصاروا إذا غابوا لم يُفْتَقَدُوا بعد أن حضروا ولم يُذَكَّرُوا؟! أخشى أن تكون الإجابة نعم، وبكل أسف!

رحيل العلامة الأصولي:

فقد مضى ما يقرب من الشهر ولم نقرأ أو نسمع نبأ رحيل العلامة الأزهري وشيخ الأصوليين الدكتور أحمد فهمي أبو سنة أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر الشريف وأم القرى الذي وافاه الأجل ليلة السبت (٢٣ رجب ١٤٢٤ هـ = ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٣ م)، والذي كان آخر حبة في عقد من

(١) نشرت بتاريخ ١٤/١/٢٠٠٣ م، في موقع: (الإسلام في سورية)

العلماء المُجَدِّدين العاملين من أبناء جيله (ولد ١٩٠٩م)، فقد أمضى حياته كلها عالماً ومعلماً فنفع الله به كثيراً، وتخرجت عليه أجيال خملت لواء العلم والدعوة في بلده مصر وفي الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام والمغرب العربي وتركيا وكثير من أنحاء العالم الإسلامي.

كتابه «العرف والعادة»:

ولا يذكر شيخنا العلامة رحمه الله إلا ويذكر معه كتابه العظيم وهو أول كتبه «العرف والعادة في رأي الفقهاء والأصوليين» الذي وضعه قبل أكثر من ٦٠ عاماً، وحصل به على أول دكتوراه من الأزهر الشريف (نوقشت في ٢٠ - ١ - ١٩٤١)، وهي شهادة العالمية من درجة أستاذ والتي أصبح لقبها الدكتوراه بدءاً من عام ١٩٦١، فقد كان رائداً في بابهِ ومرجعاً لكل ما كتب عن العرف والعادة في الفقه فيما بعد.

الوسيط في أصول الفقه:

وإذا كان ذلك الكتاب قد أدخل إلى باب تنزيل الأصول على الجزئيات فإن كتابه «الوسيط في أصول الفقه» يسهم في تقريب تلك الأصول ذاتها، فقد لمس الشيخ الجليل الصعوبة التي يجدها كثير من طلبة العلم الشرعي في فهم كتب التراث الأصولي لدقّة عباراتها وصرامة منهجها من جهة، وللضعف العام الذي لحق الطالب لظروف وملابسات كثيرة لا مجال للخوض فيها هنا، من جهة أخرى. فأراد الشيخ أن يقرب عبارة أصل من أصول كتب السادة الأحناف وهو «كتاب التوضيح في حلّ غوامض التنقيح» للشيخ الإمام صدر الشريعة «الحفيد» ت٧٤٧هـ الذي وضّح به كتابه «التنقيح» الذي نقح فيه أصول فخر الإسلام البزدوي، فاختار الشيخ أبو سنّة القسم الثاني منه، وكان يقوم بتدريسه لطلبته بالسنة الثانية بكلية الشريعة عام ١٩٥٥ فقرب صعبه وأوضح مشكله، واستدرك وزاد عليه وخالفه ووافقه؛ فجاءت عبارته سهلة واضحة ومبينة، وساعده على ذلك أنه كان رحمه الله يجمع منذ حداثته بين علوم الشريعة وعلوم الأدب واللغة فأفاد وأجاد، فجاء كتابه

وسيطاً بين الطلبة وبين علم باذخ حجبت أكثرهم منه صوارف العجز عن مواصلته وتفهمه.

ولأن طبعة هذا الكتاب الوسيط في أصول الحنفية الأولى كانت قد صدرت قبل ٤٥ عاماً ونفدت منذ زمن طويل فقد أعاد تلميذه د. محمد سالم أبو عاصي الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر إخراجه على صورته الأولى ليماً مكاناً شاغراً في الدراسات الأصولية، وبيل غلة أهل العلم وتشوقهم إلى مطالعته.

أهمية تيسير علوم الدين:

وقد كان للشيخ أبو سنة رؤية في إصلاح الأزهر، من ركائزها: أهمية تيسير علوم الدين للطلاب. وذلك بإعادة كتابتها بأسلوب جامع بين السهولة والتهديب والتحقيق العلمي الكامل مع المحافظة على التراث الأول. وبهذه الروح كتب شيخنا بحوثه في أصول الفقه مقرباً البعيد من أساليب الأوائل ومصنفياً الرحيق من شهد الأكابر؛ لتكون لبنة من بناء النهضة الحديثة بالأزهر الشريف الذي وضع أساسها الشيخ مصطفى المراغي والشيخ الأحمد الطواهري.

صلته بكتب الإمام ابن الهمام:

وقد عرف عن الشيخ الجليل أبو سنة ولعه بكل ما يتعلق بالأصول علماً وثقافة ومعايشة، حتى إنه من فرط حبه وإجلاله للإمام الفحل علم الأصوليين الكمال ابن همام، كان يعدّه صديقاً شخصياً له فكان لا يذكره إلا ويقول: صديقي ابن الهمام، وكان عظيم الاهتمام بكتابيه «المسايرة» في العقائد و«التحرير» في الأصول، فنراه في هذه المحاضرات يتأثر بطريقة «صديقه» الكمال في كتابة الأصول.

جمعه في كتابته الأصولية بين طريقتي الحنفية والشافعية:

ورغم أنه كان حنفي المذهب أباً عن جد معتزاً بذلك فإنه في كتابته الأصولية كان يجمع بين طريقة كل من الأحناف والجمهور، ويرجح ما يراه

راجحاً في ميزان التحقيق من غير نظر إلى موافقته أو مخالفته مذهبه، فقد كان معروفاً بحبه للبحث والنظر، وتقليب وجوه الرأي، ورفضه التقليد والاتباع غير المستبصر لأقوال السابقين.

وهذا المنهج الذي سلكه شيخنا في كتبه ومحاضراته حصل له بعد زمن طويل قضاء في ممارسة علوم الشريعة واللغة، فقد كان والده قاضياً شرعياً ببلدته الصف وشاعراً ورئيساً للبعثة التي كان تخرج من مصر بأمر السلطان حسين كامل لمساعدة المجاهدين في ليبيا بقيادة الملك إدريس السنوسي.

في دمشق الفيحاء:

ومن الفترات التي كان الشيخ الجليل يعتزُّ بها في حياته: عام قضاءه في دمشق الفيحاء ١٩٦٠ - ١٩٦١ أثناء الوحدة بين مصر وسوريا؛ إذ كان يعتبرها أخصب سنوات حياته بركة في الوقت والجهد والنشاط، فقد درس فيها لطلاب كلية الشريعة بجامعة دمشق أصول الفقه بصفة أساسية وبعض المواد الأخرى الفرعية، ولاقى من تواصلهم ما بعث في نفسه الرغبة في المزيد من التجويد والإبداع فيما يلقيه عليهم، وقابل الطلبة ذلك بالحرص على كل ما يتلقونه من أستاذهم فعملوا على تجميع محاضراته وتنسيقها وكتبوها على الآلة الكاتبة وقابلوها على الشيخ الذي أعاد تحريرها وألف بينها على الوجه الذي نراه في كتابه: «دراسات أصولية - محاضرات في أصول الفقه».

مكتبته الحافلة:

وكان للشيخ مكتبة تحتل دوراً بأكمله من منزله العامر بضاحية حلوان بالقاهرة على مساحة ١٦٠م تغطي حوائطها الآلاف من أمهات الكتب في الفقه والأصول والقانون والتفسير والحديث واللغة بفروعها من نحو وبلاغة وصرف وشعر وغيرها والاقتصاد والتاريخ الإسلامي القديم والحديث والمذاهب والاتجاهات الفكرية وغيرها من العلوم والمعارف التي وضعها بين

يدي تلاميذه ينهلون منها ما يشاؤون من المعرفة وقتما شاؤوا، وكان يستقبل تلامذته طوال اليوم في مكتبته الخاصة المنفصلة عن منزله حتى يرفع عنهم حرج الزيارة والمكوث طويلاً، بل كان يقوم رحمه الله على خدمتهم وضيافتهم بنفسه، خاصة الوافدين من خارج البلاد حتى بعد اعتلال صحته.

زهده في المناصب:

وقد عُرف عن الشيخ أبو سنة زهده في المناصب وحرصه على الاقتصار على مهام العالم والمربي فحسب، فرفض كل المناصب التي عُرضت عليه بما فيها المناصب الإدارية بالجامعة الأزهرية حتى إنه لم يقبل بعمادة كلية الشريعة، بل منصب وزير الأوقاف.

تفرغه للتعليم وتخريج الأجيال من طلاب العلم:

وتفرغ رحمه الله لتعليم الطلاب والباحثين فتخرجت على يديه أجيال كثيرة من شتى البلاد العربية والإسلامية بعضهم تولى أكبر المناصب العلمية في بلده. ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ صالح مرزوق، الأمين العام للمجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي بمكة، والشيخ صالح بن عبدالله بن حميد إمام وخطيب المسجد الحرام، ود. عبدالله السميّط عضو مجلس الشورى الكويتي.

طلابه الأتراك:

وكان له في تركيا أيضاً عدد من التلامذة، من أشهرهم: محمد أمين سراج القطب البارز بحزب السعادة الإسلامي بتركيا. والداعية المربي والعالم العامل د. عبدالله أوزجان أستاذ الشريعة بجامعة سكاريا بتركيا، وكان من آخر تلامذته الذين كان يشرف على رسائلهم العلمية قبل وفاته «يشار أحمد شريف» ممثل الإفتاء اليوناني في الخارج.

عطفه على تلاميذه:

وقد كان لتلاميذه الوالد العطوف الذي فتح لهم أبواب صدره وبيته

ومكتبته التي تحوي مخطوطات نادرة عرض عليه مبالغ باهظة لشرائها إلا أنه فضل أن يستفيد بها طلبة العلم مجاناً وزودهم بتوجيهاته القيمة غير مقتصر على وقت من ليل أو نهار حتى لو لم تكن ظروفه الصحية تسمح بذلك، فقد كانوا يملون وهو لا يمل، وكانت لقاءاته معهم حلقات علمية مثمرة وعبادة وقودة، ولا ينسى تلاميذه مواقفه وصلاته الإنسانية التي تستمر بهم حتى بعد انتهاء إشرافه على رسائلهم.

صلته ببلدته وأعماله وآثاره:

ولم يكن ينسى أهل بلدته الريفية (الصف)، بل كانت له بصماته في كل مكان، فقد كان حريصاً على نشر الوعي الديني ومحاربة البدع من خلال دروسه وخطبه، فألغى مولد جده الشيخ أحمد أبو سنّة الذي اعتاد أهل البلدة إحياءه، وفي المعهد الديني الذي أنشأه تلقى ثلاثة أرباع شباب البلدة تعليمهم الأزهري، وفي مدرسته لتحفيظ القرآن الكريم يدرس سنوياً ٨٠٠ طالب من الأطفال والرجال والنساء يحمل منهم القرآن الكريم كل عام ١٣ تقريباً، وتجرى بينهم مسابقات حفظ القرآن الكريم التي توزع جوائزها في حفل إحياء ليلة القدر كل رمضان بمنزله بالبلدة، بالإضافة إلى المقابر الشرعية، والمستوصف الطبي، والوحدة الزراعية، ومبنى البريد، والمدرسة الابتدائية، وغيرها من المؤسسات التي أنشأها.

رابطة آل أبو سنة:

وقد كانت له تجربة فريدة في رعاية عائلته الكبيرة الممتدة فحرصاً على تضامنها أسس «رابطة آل أبو سنة»، ووضع لائحة تحدد أهدافها، وهي تحقيق التواصل بين أفرادها ونبذ الخلاف وتذليل المصاعب أمام أفرادها لممارسة العمل العام، وحدد اجتماعاً دورياً يوم الأربعاء الأول من كل شهر، وشكل لجاناً مثل لجنة الصلح بين المتخاصمين، ولجنة الموارد لتوزيع الميراث حسب أحكام الشريعة لتحقيق هذه الأهداف ضمت عمدة العائلة الأكثر تعليماً ونشاطاً في خدمة الأسرة، وعُيّن مسجلاً لمحاضرات

الاجتماعات ورئيساً للرابطة ينوب عنه، ومسؤولاً مالياً يتولى الإنفاق في المساعدات وأمين الصندوق.

تعليمه وتربيته لأسرته:

ورغم مسؤولياته العلمية والدعوية فإنه تحمّل تبعته تجاه أسرته وفي بيته، فكان خير معلم ومُربٍّ للأولاد، له عظيم الأثر في حياتهم؛ إذ بثّ فيهم روح الفضيلة والدين وحب العلم، ولم يحرمهم من أشعاره فخصهم بقصائده خاصّة في المناسبات كأيام ميلادهم ونجاحهم وزواجهم، حتى إنه خَصَّ إحدى بناته بخمس عشرة قصيدة.

مساعدة زوجته له:

وساعده في ذلك زوجته التي كانت خير معين له في رحلته العلمية والدعوية، فكانت العين التي يقرأ بها ويرى بها الحياة؛ إذ كان رحمه الله قد تعرض لحادث في طفولته تسبّب في ضعف بصره إلى أن فقده عندما تقدّم به العمر، فكانت رحمها الله تكتب بخط يدها كل ما يريد الشيخ تسجيله من تأليف كتب وبحوث ومحاضرات وفتاوى ودروس وخطب الجمعة والعيدين وتقرأ به، وتكتب تعليقاته على الهوامش، ثم تسجّل ما كتبه على شرائط كاسيت ليحمله الشيخ أينما يشاء ويسمعه، كما كانت تساعد على استقبال طلبة العلم وضيافتهم.

رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له العطاء.





الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني
العلامة المفكر المفسر^(١)

(١٣٤٥ - ١٤٢٥هـ)

(١٩٢٧ - ٢٠٠٧م)

بقلم تلميذه: مجد مكي

انتقل إلى رحمة الله تعالى ليلة الأربعاء ٢٥ من جمادى الآخرة



١٤٢٥هـ، الموافق ١١ آب ٢٠٠٤م فضيلة العلامة المفكر المفسر الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني رحمه الله تعالى عن عمر يناهز الثمانين عاماً بعد مرض عضال ألم به منذ سنوات، لم يقعه عن إنتاجه العلمي الوفير الغزير، ولا عن تألفه الفكري المتميز المنير.

ولادته ونشأته:

ولد الشيخ رحمه الله تعالى في عام

(١) نشرت بتاريخ ١٢/١٢/٢٠٠٦م، في موقع: (الإسلام في سورية)

١٣٤٥ الموافق لعام ١٩٢٧ في حي عريق من أحياء مدينة دمشق، وهو حي الميدان الذي يتميز بالمحافظة على التقاليد العربية الأصيلة، ويعرف الكثير من رجاله بالشجاعة، والنخوة والسخاء والكرم.

ووالده هو العالم الربّاني المُربيّ المجاهد الشيخ حسن حبنكة الميداني رحمه الله تعالى، وترجع أصول أسرة الشيخ إلى عرب بني خالد الذين تمتد منازلهم إلى بادية حماة من أرض الشام.

وقد نشأ الشيخ في بيت دين وعلم ودعوة وتربية، وترعرع في أكناف والده، يحوطه بعنايته ورعايته، ويُعَدُّه ليكون خليفة له في العلم والدعوة.

معهد التوجيه الإسلامي مؤسسة علمية جامعة:

تلقى الشيخ دراسته في معهد التوجيه الإسلامي على المنهج العلمي الأصيل مع التربية العملية، حيث كان والده الشيخ حسن يكلف طلابه بإعداد الدروس وإلقاء الخطب في المساجد مما كان له أعظم الأثر في تمكّنهم من الخطابة والوعظ والتعليم، وفي تكوين شخصياتهم العلمية والدعوية...

وبدأ الشيخ عبدالرحمن يُعَلِّم منذ كان عمره خمس عشرة سنة في معهد والده.

متابعة الدراسة والتحصيل:

ولما تخرّج في المعهد سنة ١٣٦٧هـ (١٩٤٧م) أسند إليه تدريس مواد مختلفة فيه، منها علوم الفقه، والأصول، والتوحيد، والمنطق، والبلاغة حتى سنة ١٣٧٠، إذ انتسب إلى كلية الشريعة في الأزهر الشريف، حتى حاز على الشهادة العالية (ليسانس في الشريعة)، من الكلية المذكورة، ثم حاز على شهادة العالمية مع إجازة في التدريس، (ماجستير في التربية وعلم النفس).

تدريسه في ثانويات دمشق، وتسلمه مديرية التعليم الشرعي:

وبعد تخرجه في الأزهر الشريف صار أستاذاً في ثانويات دمشق الشرعية والعامّة، إضافة إلى التدريس في معهد أبيه. وتسلم مديرية التعليم الشرعي التابعة لوزارة الأوقاف، وكان في إدارته حكيماً رشيداً، يعمل بهمة وصمت، ومن أهم ما أنجزه في إبان إدارته: تأسيس عدد من المدارس الشرعية في بعض المحافظات السورية، منها: ثانوية شرعية للإناث بدمشق وأخرى بحلب.

إقامته في المملكة العربية السعودية، وتدريسه الجامعي:

في سنة (١٣٨٧هـ) (١٩٦٧م) انتقل إلى العمل في المملكة العربية السعودية، وعمل أستاذاً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض لمدة سنتين، ثم انتقل عمله إلى مكة المكرمة، فعمل أستاذاً في جامعة أم القرى زهاء ثلاثين عاماً. وقد أسند إليه في هذه الجامعة تعليم مواد مختلفة، دينية ودعوية، ولما بلغ من عمره المبارك سبعين عاماً أعفي من عمله الرسمي في الجامعة، واختير عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وعضواً في مجلس هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية.

نشاطاته العلمية والدعوية والإعلامية:

وكان له الكثير من المشاركات في المؤتمرات والندوات، منها: مؤتمر التعليم الإسلامي، ومؤتمر الاقتصاد الإسلامي، اللذان عُقدا في مكة المكرمة، ومؤتمر الأدب الإسلامي الذي عُقد في «الكهنو» الهند، ومؤتمر الدعوة والدعاة الذي عقد في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم. وله مشاركات كثيرة في إلقاء المحاضرات العامة، والأمسيات، والندوات العلمية، ضمن الأنشطة الثقافية داخل جامعة أم القرى وخارجها.

وله إسهامات تلفازية وإذاعية، وقد استمر في تقديم أحاديث إذاعية يومية أو أسبوعية ما يزيد على ٣٠ عاماً.

إنتاجه العلمي:

كان الشيخ رحمه الله شديد الحرص على وقته، فلا يكاد يرى إلا قارئاً أو كاتباً، أو محاضراً أو مناقشاً، وكان ذا دأب وجَلَد على العلم المتواصل، وكان موسوعي الثقافة، واسع الاطلاع.

تميّز نتاجه العلمي بالغزارة مع العمق والشمول، وقد جمع في كتاباته بين القديم والحديث، وبين التخصص الشرعي الدقيق والعلوم الدنيوية العصرية.

من نتاجه المطبوع:

أولاً - سلسلة في طريق الإسلام، منها:

- ١ - العقيدة الإسلامية وأُسُسُها. ٢ - الأخلاق الإسلامية وأُسُسُها.
- ٣ - الحضارة الإسلامية وأُسُسُها ووسائلها. ٤ - الأُمَّة الربانية الواحدة.
- ٥ - فقه الدعوة إلى الله، وفقه النصيح والإرشاد.

ثانياً - دراسات قرآنية، منها:

- ١ - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ. ٢ - معارج التفكير ودقائق التدبر. ٣ - أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع.

ثالثاً - سلسلة أعداء الإسلام، منها:

- ١ - مكاييد يهودية عبر التاريخ. ٢ - صراع مع الملاحدة حتى العظم.
- ٣ - أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير، الاستشراق، الاستعمار). ٤ - الكيد الأحمر (دراسة واعية للشيوعية). ٥ - غزو في الصميم. ٦ - كواشف زُيُوف في المذاهب الفكرية المعاصرة. ٧ - ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ.

رابعاً - سلسلة من أدب الدعوة الإسلامية، منها:

- ١ - مبادئ في الأدب والدعوة. ٢ - البلاغة العربية (أُسُسُها وعلومها

وصور من تطبيقاتها). ٣ - ديوان ترنيمات إسلامية (شعر). ٤ - ديوان آمنت بالله (شعر).

خامساً - كتب متنوعة:

١ - ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة. ٢ - بصائر للمسلم المعاصر. ٣ - الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني (قصة عالم مجاهد حكيم شجاع).

ولزوجته الداعية المربية عائدة راغب الجراح الأستاذة بجامعة أم القرى سابقاً - رحمها الله تعالى - كتاب: عبدالرحمن حبنكة الميداني العالم المفكر المفسر (زوجي كما عرفته)، صدر عن دار القلم بدمشق، ضمن سلسلة: علماء ومفكرون معاصرون، لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم.

ومن أهم آثاره العلمية النافعة:

تفسيره التدبري النافع الذي طبع منه خمسة عشر مجلداً، إذ أنه أتجه في آخر عمره، بعد ممارسة طويلة، وتجربة ثرة، وخبرة عميقة، وصلة مستمرة بكتاب الله عز وجل إلى كتابه تفسير تدبري وفق المنهج الذي رسمه في كتابه: «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»، وقد انتهى - بفضل الله - من تفسير السور المكية بكاملها، والتي تمثل ثلثي التفسير، وشرع في تفسير سورة البقرة، وهي أول ما نزل في المدينة، ولم يتوان - رحمه الله وأثابه رضاه - عن تدبره لكتاب الله تعالى، حتى وافاه الأجل المحتوم^(١).

مدرسة علمية متميزة:

والشيخ - رحمه الله تعالى - يُعد بحق مدرسة علمية متميزة قائمة بذاتها... في عطائها وإنتاجها، وابتكارها واستنباطها، وتحليلها وربطها...

(١) أصدرت دراسة تعريفية موجزة بكتابه (معارج التفكير) نُشرت في دار القلم، عام

وقد وفقه الله سبحانه إلى ذلك الإنتاج العلمي الغزير، بما حباه الله من ذكاء وبصيرة نفاذة، وأفق واسع، وأساس علمي متين، وتمكن من علوم كثيرة، كعلم المنطق، والأصول، واللغة، والفقه... مع إخلاص عميق، وصلة قوية بالله عز وجل، واعتماد عليه سبحانه، واستشعار لفقره وحاجته الدائمة إلى عطائه عز وجل وعونه...

وكم كان يُردد ويقول ويؤكد: أنه ليس عنده شيء، وأن كل ما يكتبه هو من فيض عطاء الله عليه ومَدَدِهِ وتوفيقه.

وكان يؤكد في لقاءاته مع إخوانه وأبنائه من طلبة العلم على ضرورة التزام منهج الوسطية، والبعد عن الغلو والشطط في كل صورته وأشكاله... ويحذر من التبعية العمياء، والتعصب والانغلاق، ويدعو إلى دوام التفكير والتأمل والتبصر ومراجعة الأمور والنظر في عواقبها...

كما كان يرسخ في نفوس طلابه معاني الإخلاص والصدق، وابتغاء رضا الله سبحانه، وإيثار الدار الآخرة... ويحذر من حظوظ النفس وشهواتها وتزييناتها...

زهده في المناصب:

وكان من أشد الناس زهداً في المناصب، وقد عرض عليه أن يكون مفتياً للجمهورية السورية، وأغري بهذا المنصب، ففرّ منه، واضطر أن يقيم بعيداً عن موطنه خمسة وعشرين عاماً، لم يزره خلال هذه المدة الطويلة إلا في الأشهر القليلة التي عاد فيها إلى دمشق قبيل وفاته... وسمعتة يقول: لقد حاول بعضهم إلزامي باستلام منصب المفتي العام، لكنني فررت منه، وأكرمني الله بالإقامة بمكة المكرمة، والتفرغ لكتابة التفسير، وهذا من فضل الله عليّ، ولو قبلت ذلك المنصب لكنت مطية ذلولاً، وعبداً مطواعاً ولركبت سيارة فخمة سوداء تنتهي بي إلى غضب الله تعالى، فأثرت الباقي على الفاني، والعلم النافع على الزغل والزيف.

كما كان يبتعد عن الشهرة والأضواء... ويكره النفاق والتملق، وهو خبير بدخائل المنافقين، ومسالك أعداء الإسلام...

بُعده عن الشهرة وحب العاجلة:

ومن مظاهر نفرتة عن الشهرة وحب العاجلة، أنه لم يتطلع إلى جائزة تقديرية من أي جهة علمية، وهو جدير بها، وأهل لها، بما قدم من دراسات قرآنية مبتكرة، وكتب فكرية عميقة... ولا يرضى أن ترشحه بعض الجهات لهذه الجوائز، ويعد ذلك منقصاً للأمر الذي ادخره الله سبحانه لعباده الصادقين المخلصين.

وقد رغب إليه بعض الوجهاء أن يكرمه في حفل كبير، يدعى إليه كبار العلماء والأدباء والمفكرين، يتناولون فيه عطاءه الفكري والدعوي والتربوي... ويشيدون بجهوده... ويمدحه بعضهم بقصائده فأبى وامتنع رغم الإلحاح الشديد... خوفاً من شوائب الرياء... وحب الثناء... والتفاخر.

حبه المناقشة والحوار العلمي:

ومن أخلاق الشيخ العلمية: حب المناقشة والحوار العلمي، وسعة الصدر والتحمل لأسئلة السائلين، وكم من مرة اتصلتُ به بالهاتف في بيته بمكة المكرمة، أسأله عن قضية علمية أستشكلها، أو استغلق عليَّ فهمها، أو عن رأي قد أخالفه فيه في بعض كتبه... فكان يُسرُّ جداً بتلك المناقشات، ويتسع صدره لها، ويُبدي وجهة نظره التي ذهب إليها ورجحها...

كما كان يفرح بكل فائدة علمية جديدة أو تصويب... وقد قمت بقراءة تفسيره الأخير، واستعرضتُ جميع كتبه النافعة... وبيّنت له بعض الأخطاء المطبعية النادرة... وكتبت له بعض الآراء والأقوال التي ذهب إليها في كتبه السابقة، ممّا يخالف ما ذهب إليه ورجّحه في تفسيره التدبري الأخير... فذهب إلى ترجيح ما ذهب إليه في تفسيره، الذي وصل فيه إلى

ترجيحاته بعد دراسة متأنية لكل سورة، وسُبر لكل كلمة قرآنية... ووعد بأن ينبه إلى ذكر ما خالف اجتهاده وترجيحه في كتبه السابقة لتفسيره، وشكرني على ما قمت به، ودعا لي بكل خير.

وقدّمت إليه مرة كتاب: «غريب القرآن» للعلامة عبدالحميد الفراهي الهندي، وأطلعته على ما كتب حول كلمة «آلاء» ممّا يخالف ما ذهب إليه جمهور المفسرين بقصر معناها على النعم... .

وقد ذهب الشيخ إلى ما ذهب إليه جمهور المفسرين عند تفسيره لسورة النجم الآية: ٥٥: ﴿فَيَايَا آلاءَ رَبِّكَ تَعْمَارُ﴾ وتفسيره لسورة الأعراف: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الآية: ٦٩، فأعجب الشيخ بما ذهب إليه الفراهي، وأيده من شواهد شعرية تفيد أن معنى «آلاء» هي: الفعال العجيبة والصفات العظيمة... ووعد بأن يذكر هذا المعنى عند تفسيره لسورة الرحمن، وهي من التنزيل المدني... .

تعرفني عليه وصلتي به:

لقد حظيت بالتعرف على فضيلة الشيخ منذ قدومي إلى مكة المكرمة سنة ١٤١٠، وحضرت بعض دروسه ومحاضراته في الجامعة، وقرأت أكثر كتبه، وانتفعت بها انتفاعاً كبيراً، ثم كثرت زياراتي له، واتصالي به، بعد تفرغه من عمله الجامعي، وتوجّهه لتفسيره التدبري... . فكنت أزوره في كل أسبوع بمنزله بمكة المكرمة... . وقد زرته بصحبة الكثير من العلماء وطلبة العلم، ومنهم على سبيل المثال: الشيخ محمد عوامة، والشيخ عبدالله التليدي، والدكتور أنس الزرقا، والشيخ محمد نبيه سالم، والأستاذ محمد علي دولة، والأخ الشيخ حسن قاطرجي، والدكتور قاسم سعد، والأستاذ محمد الحسنائي، ورمزي دمشقية، ومحمد بن ناصر العجمي، ونظام يعقوبي، ومحمد بن عبدالله الرشيد... وغيرهم كثير.

وكنا نلقى منه كل حفاوة وتكريم، ونستفيد من توجيهاته التربوية، وفوائده العلمية.

عودته إلى دمشق:

وبعد عودته إلى دمشق استمرت صلتني به... وكتبت دراسة تعريفية موجزة عن تفسيره التدبري، وقد أرسلت له تلك الدراسة لاطلاعه عليها قبل طباعتها، فاستحسنها، واتصل بي من دمشق يشكرني عليها. وكنت أتصل به إلى دمشق أطمئن عن صحته وعطائه... فأجده مستبشراً متفائلاً فرحاً.

إتمامه تفسير السور المكية:

وقد ذكر لي في آخر مكالمة هاتفية عن انتهائه من تفسير السور المكية، حيث أتم بعد عودته إلى دمشق، تفسير السور المكية التالية: المعارج (٧٩)، والنبأ (٨٠)، والنازعات (٨١)، والانفطار (٨٢)، والانشقاق (٨٣)، والروم (٨٤)، والعنكبوت (٨٥)، والمطففين (٨٦)، وحدثني عن اللمحات التدبرية التي استنبطها من سورة العنكبوت التي كانت تعدُّ المسلمين للهجرة إلى مكة المكرمة، وأفاض في حديثه عما يفتح الله عز وجل عليه من حسن تدبر لكتابه العظيم، وما وهبه من همّة وعزم ونشاط على متابعة الكتابة فيه وكنت أدعو الله سبحانه له بتمام العافية والتوفيق لإتمام تدبره لكتاب الله سبحانه.

ولكن حال الأجل دون تحقيق الأمل... ولئن لم يتم الشيخ تفسيره، فقد قدم بما كتب ثروة علمية ضخمة، وزاداً تدبرياً وفيراً... ورسم منهجاً فريداً لتذوق كلام الله وحسن تدبره...

وإن فيما كتب من كتب أخرى كثيرة تدور حول كتاب الله، لا سيما «ظاهرة النفاق» في مجلديه، حيث فسر قسماً مهماً من السور المدنية، وكذلك كتبه الأخرى: «فقه الدعوة إلى الله»، و«الأخلاق الإسلامية»، و«ابتلاء الإرادة»، و«أمثال القرآن» وفيها من المباحث القرآنية والفوائد التفسيرية الكثير الطيب المبارك.

جنازته:

شُيِّعت جنازة الشيخ عصر يوم الأربعاء، وكانت جنازة حافلة مشهودة، خرج فيها آلاف المشيعين من العلماء والكبراء والعامة، تملؤهم الحسرة وتمضُّهم الأحزان، وصَلِّيَ عليه في جامع الأمير مَنْجَك، في حي الميدان وأبْنَهُ عقب الصلاة شيخ قراء الشام فضيلة الشيخ محمد كَرِيم راجح، وألقى ولده الدكتور وائل قصيدة في رثائه، ثم وُوري في مثواه الأخير من دار الدنيا بمقبرة الجورة في حي الميدان.

رحم الله شيخنا الجليل، رحمة واسعة، ونفع بعلمه الغزير، وتراثه القرآني الوفير، أخلف في الأمة أمثاله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون...

كتبه: مَعْجِد مكي

الخميس ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٢٥





الشيخ الدكتور ناجي عجم^(١)

(١٣٦٠ - ١٤٢٧هـ)

(١٩٤٢ - ٢٠٠٦م)

بقلم: محمد مكي



اسمه وولادته:

هو العالم الفاضل الداعية الفقيه الشيخ الأصولي
الفرّضي الأستاذ الجامعي الدكتور ناجي بن محمد
شفيق عجم. من مواليد مدينة حلب بسورية عام
١٣٦٠هـ = ١٩٤٢م.

دراسته:

درس في مدارس حلب وفي الثانوية الشرعية، ثم حصل على الثانوية
العلمية من ثانوية المأمون عام ١٩٦٢، والتحق بكلية الشريعة بجامعة دمشق،
وحصل على الشهادة العالية (الليسانس) عام ١٩٦٦م. ثم انتقل للعمل
بجامعات المملكة العربية السعودية، وخلالها كان يتعلّم ويتربى على
شيوخه.

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٨/٤/٩م، في موقع: (الإسلام في سورية)

شيوخه:

في حلب: الشيخ عبدالله سراج الدين، والشيخ عبدالفتاح أبو غدة، والشيخ محمد إبراهيم السلقيني، والشيخ محمد الملاح، والشيخ أبو الخير زين العابدين، والشيخ عبدالرحمن زين العابدين، والشيخ محمد فوزي فيض الله.

وفي دمشق: الشيخ محمد ملا رمضان، والشيخ حسن حبنكة، والشيخ محمد سعيد البرهاني، والشيخ عبدالوهاب دبس زيت، والشيخ مصطفى أحمد الزرقا، والشيخ وهبة الزحيلي، والشيخ محمد سعيد رمضان البوطي. وفي السعودية: الشيخ عبدالله بن حميد، والشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ محمد زكريا البخاري، والشيخ عباس علوي المالكي، والشيخ وهبي سليمان الغاوجي، والشيخ محمد سعد المراد، والشيخ وصفي المسدي، والشيخ عبدالغفار الدروبي، والشيخ محمد علي المراد.

وفي مصر: الشيخ مصطفى عبدالخالق، والشيخ عبدالغني عبدالخالق، والشيخ محمد أبو النور زهير، والشيخ بدر متولي عبدالباسط، والشيخ أحمد فهمي أبو سئة، والشيخ مصطفى مجاهد، والشيخ أنيس عبادة، والشيخ محمد جاد الرب رمضان.

مؤهلاته العلمية:

حصل على الدكتوراه من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر بالقاهرة ١٩٧٧م بمرتبة الشرف الأولى. وأمضى أكثر من خمس وعشرين سنة في تدريس مواد الأصول والفقه الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وجامعة الملك عبدالعزيز كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الدراسات الإسلامية بجدة.

أبرز أعماله العلمية:

- ١ - أشرف وناقش عدداً من رسائل الماجستير والدكتوراه بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وغيرها. ٢ - تولى رئاسة قسم الدراسات الإسلامية

بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة. كما كان مرشداً في القسم نحو خمس عشرة سنة. ٣ - ترأس لجنة مناهج الدراسات العليا بالقسم. ٤ - إمام وخطيب مسجد الجامعة لأكثر من عشر سنين، كما خطب في كثير من مساجد جدة. ٥ - عضو خبير بمجمع الفقه الإسلامي الدولي، وشارك في دوراته لأكثر من عشر سنين. ٦ - عضو في لجنة التخطيط التابعة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي. ٧ - عضو في الموسوعة الفقهية الاقتصادية في مجمع الفقه الإسلامي الدولي. ٨ - شارك في عدة ندوات فقهية اقتصادية. ٩ - عضو في لجان تحكيم ترقية الأساتذة المساعدين. ١٠ - عضو في لجان تحكيم لبيان صلاحية طباعة كتب علمية.

مؤلفاته ومقالاته:

١ - حروف المعاني وأثرها في علمي الأصول والفقه (رسالة الدكتوراه). ٢ - عموم البلوى وأثرها في تغيير الأحكام. ٣ - نظام العمل والعمال في الإسلام. ٤ - فقه الموارث وقسمة التركات في الإسلام. ٥ - أثر تغير قيمة العملة على الحقوق والالتزامات. ٦ - أحكام الشرط الجزائي في العقود. ٧ - الفقه الإسلامي الميسر مع تطبيقاته المعاصرة على المذاهب الأربعة (مشروع فقهي مدعم من جامعة الملك عبدالعزيز ولم يتمه).

أعماله ومؤلفاته فيما يخص الأوقاف الإسلامية:

١ - كُلف بكتابة بحث عن الأوقاف (الأحباس) للدورة الثالثة عشرة للمجمع الفقهي التي عقدت في الكويت. ٢ - مستشار شرعي للأوقاف ونظم الاستثمار في مركز فقيه للأبحاث والتطوير. ٣ - محكم في أبحاث وقفية من المعهد الإسلامي للتدريب والبحوث التابع للبنك الإسلامي للتنمية. ٤ - ورقة عمل مقدمة إلى مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي بجامعة الملك عبدالعزيز في فقه أنواع الأوقاف وطرق الاستثمار. ٥ - خبير في صياغة الصكوك الوقفية وتفسيرها في المحاكم الشرعية.

أخلاقه وصفاته:

بذل الشيخ ناجي عجم - رحمه الله تعالى - حياته في الدعوة والعلم، فكان نموذجاً للعالم المعلم، والمربي الموجه، والفقيه الأصولي المتمكن.

كان رحمه الله في غاية التواضع والسماحة والرفق، والأدب الجَم مع المحب والمخالف، ولم يبخل على أي طالب جاءه للمشاورة أو الدراسة على يديه في علم الفقه وأصوله، وسعى العشرات من طلاب الدراسات العليا ليتشرفوا بإشرافه على رسائلهم ومن توجيهه لهم، وخدم الشيخ ناجي رحمه الله طلاب مدينة جدة في جامعة الملك عبدالعزيز من خلال التعليم الأكاديمي الطويل، والدروس العامة والخاصة في منزله، وقد قرأ مع مجموعة من إخوانه الفضلاء كتاب «اللباب» في الفقه الحنفي كما درس مجموعات من إخوانه وأحابيه علم الفرائض الذي تخصص فيه وأتقن حل عويص مسائله.

وكانت آراؤه واجتهاداته وفتاواه الفقهية محل اهتمام واحتفاء، بل ثقة وقبول.

وللشيخ رحمه الله هيبة ووقاره وسَمته وأخلاقه وابتسامته التي يأسر بها كل زائر.

مرضه ووفاته:

عانى الشيخ من مرض عُضال ألم به، ومكث فترات طويلة في المصحات يتلقى العلاج إلى أن تماثل للشفاء، وما إن شعر بتحسن في صحته، حتى طلب من أهله أن يأخذوه إلى المدينة المنورة، لزيارة المسجد النبوي الشريف، والسلام على الرسول ﷺ، وفي مساء يوم الجمعة ١٥ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ، الموافق ١٣ مايو ٢٠٠٦ وافته المنية رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

وهكذا طويت صفحة من صفحات العلماء، وذبلت وردة فوّاحة في رياض الصالحين، وانتقل إلى جوار أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.



الشيخ الدكتور مصطفى سعيد الخن
العالم المربي الأصولي الفقيه اللغوي^(١)

(١٣٤١ - ١٤٢٨هـ)

(١٩٢٢ - ٢٠٠٨م)

اختصرها وحزرها: مجد مكي

اسمه ونسبه ونشأته:



هو مصطفى بن سعيد بن محمود الخن، الشافعي، الميداني، الدمشقي، من أسرة دمشقية عريقة، كان لها منذ عهود العمادة والمرجعية في الميدان كله. كان والده (مختار حي الميدان الفوقاني)، ثم انتقلت المختارية بعد أبيه إلى أخيه محمد خير.

نشأ مصطفى الخن في كنف والده مع إخوته وأخواته - في جوٍّ أسري يسوده الصفاء والهيبة والاحترام، ولمَّا

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٨/٢/٢م، في موقع: (الإسلام في سورية)

بلغ الثامنة من العمر؛ ألحقه والده بالكتاب، ثم ألحقه بعد ذلك بمدرسة الجمعية الخراء الابتدائية، فلازمها سنة كاملة، انتقل بعدها إلى المدرسة الرسمية التي كانت تدعى (أنموذج الميدان).

تعرّفه على الشيخ حسن حبنكة الميداني:

وفي صيف (١٣٥٠هـ - ١٩٣١م)؛ اكتشف الشيخ الخطاط محمد زرزور - والد الدكتور عدنان زرزور - علائم التجابة والأهليّة عند مصطفى الخن، الذي كان أحد التلاميذ المنتسبين إلى مكتبه لتعلّم القرآن والخط والحساب؛ ومسك الدفاتر (الدوبيا)؛ فاستأذن والده أن يصطحبه معه إلى دروس الشيخ حسن حبنكة في جامع منجك، فسمح الوالد ولم يمانع.

وكان الشيخ الدّاعية حسن حبنكة - رحمه الله تعالى - قد أسّس في المسجد مدرسة متكاملة، تشتمل على تعليم الشّباب المنقطعين لطلب العلم صباحاً، من بعد صلاة الفجر حتى صلاة الظهر، وتعليم الكبار - من التّجار وأصحاب الحرف - بعد صلاة العشاء.

دراسته بالقسم المسائي ثمّ النهاري في جامع منجك:

التحق التلميذ مصطفى الخن أوّل الأمر بالقسم المسائي، وأعجب فيه شيخه حسين خطاب؛ لِمَا لمس عنده من مخايل الحفظ والذكاء، ونقل إعجابه إلى الشيخ حسن، فأوصى به خيراً.

ولم تمضِ مئة حتى حُبّب إلى التلميذ النّجيب طلب العلم، فقرّر الانتقال إلى القسم النّهاري، وكانت تلك خطوة جريئة موفّقة، تخالف ما تعارف عليه الناس من الإشفاق على طالب العلم، وأنه محكوم عليه أن يعيش حياة العوز والكفاف.

أول طالب علم ينبغ في (آل الخن):

أقيمت على إثرها حفلة في بيت الأسرة احتفاءً بأوّل طالب علم ينبغ في (آل الخن)، وألبس الطّالب مصطفى العمامة بدلاً من الطّربوش، وقد لفّها له

الشيخ حسين خطاب رحمه الله تعالى، وألقى الطالب المعمم (مصطفى) كلمة بهذه المناسبة، وشهد هذا اليوم تحولاً ظاهراً في اهتمام أفراد الأسرة بأول طالب علم ينبغ من (آل الخن) وأعلن الأب رعايته التامة له.

سيرته العلمية:

شبَّ مصطفى الخن في جامع منجك، وغدا طالباً مُجِدِّداً نشيطاً، متعلِّماً في الصُّباح، ومعلِّماً في المساء، وشاء الله - سبحانه - للحلقات النَّهارية أن تصبح نواة لمعهد (التَّوجيه الإسلامي)، وانتقل الأستاذ مصطفى للتدريس في المدرسة النَّاشئة التابعة للمعهد.

صناعة الشخصية العلمية للشيخ مصطفى الخن:

وقد أسهم الجمع بين مهمَّتي التعلُّم والتَّعليم في صنع الشَّخصية العلميَّة للشيخ مصطفى الخن، وكان لتوجيه الشيخ حسن حبنكة الأبويِّ التَّربويِّ؛ أثرٌ كبيرٌ في التَّناعم والتَّآلف والتَّكامل بين المهمَّتين.

قال صديقه في طلب العلم الشيخ عبدالرحمن الميداني في كتابه عن والده ص ١٢٢ وهو يذكر أعيان الدفعة الثانية من الذين انتظموا في حلقات الشيخ حسن حبنكة رحمه الله تعالى: «التحق الشيخ مصطفى الخن بمدرسة الوالد الإمام منذ أوائل فتوته، ولازم المدرسة ليلاً ونهاراً شاباً ذكياً أليماً، فيه أمارات النبوغ وسرعة التقدم.

وخطى في طلب العلم خطوات سريعة كان فيها من المتفوقين، حضر أول ما حضر على رجال الرعيل الأول (الشيخ صادق حبنكة، والشيخ حسين خطاب، ونعيم شقير، وخيرو ياسين).

ثم اندمج في حلقة هذا الرعيل يتلقى معهم على الوالد... وبرز بين أقرانه بعد ذلك علماً وتعليماً، وصار له نهم شديد في مطالعة كتب الأدب، وتصيُّد النوادر، والعيون الأدبية الشعرية والنثرية، وحفظها وروايتها بإتقان وجاذبية» اهـ.

العلماء الربانيون الذين زارهم وجلس إلى دروسهم:

وكان الشيخ العلامة الرباني حسن حبنكة يرشد طلابه النابهين، أن يزوروا العلماء الكبار، وأن يجلسوا إلى دروسهم، فكان الشيخ مصطفى يحرص على ذلك كل الحرص، ومن العلماء الربانيين الذين زارهم، والتقى بهم، أثر على نفسه:

١ - الشيخ علي بن عبدالغني الدقر (١٣٦٢ - ١٩٤٣): وهو شيخ شيوخ معهد العلوم الشرعية، ورئيس الجمعية الغراء ومؤسسها، عالم رباني، جمع بين التعليم الشرعي، والتربية الروحية، وأوجد مدرسة تحتذى في التخلق بأخلاق الإسلام، وكان الشيخ مصطفى يزوره في مسجده (جامع السادات)، ويحضر بعض دروسه.

٢ - الشيخ محمد أمين سويد (١٣٥٠ - ١٩٣١): وهو عالم مشارك، وأصولي بارع، ومن كبار علماء دمشق، طلب العلم في الأزهر، وعمل مدرساً في معهد الحقوق، وفي مواقع علمية عديدة، وقد التقى به الشيخ مصطفى وجلس إليه؛ عندما كان الشيخ محمد يتردد إلى جامع منجك.

٣ - الشيخ إبراهيم بن محمد خير الغلاييني (١٣٧٧ - ١٩٥٨): وهو عالم عابد، له في نفوس الناس مهابة ومحبة، ولي قضاء وادي العجم، وإمامة وخطابة جامع مدينة (قطنا)، وكان الشيخ مصطفى يزوره دائماً، وربما قضى عنده سحابة اليوم.

٤ - الشيخ أبو الحسن علي الحسن الندوي (١٤٢١ - ٢٠٠٠): العالم المعروف، والمؤلف المبدع، والخطيب المفوه، والعضو في العديد من الجامعات اللغوية العربية، وقد لقيه الشيخ مصطفى في القاهرة حين كان طالباً في الأزهر أول مرة، والتقاء في دمشق، في جامعها، ثم في بيت الشيخ حسن حبنكة، وكانت الأخيرة.

العلوم التي برع فيها ودرّسها:

وقد شارك الشيخ مصطفى - في أثناء تدريسه في (معهد التوجيه

الإسلامي) - في مختلف العلوم الشرعية، ولكنه تخصص في النهاية، وتميّز بعلم أصول الفقه، وبعلم العربية.

السفر إلى مصر (الإجازة في الشريعة من الأزهر):

وفي مطلع عام (١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م)؛ وصل الشيخ مصطفى إلى القاهرة، بغية الانتساب للأزهر، ومن ثمّ الحصول على شهادة الإجازة التي تؤهله للتدريس في المدارس الحكومية السورية، وأجري للشيخ اختبار القبول، وقبل في السنة الثالثة من كلية الشريعة، فأمضى مدة الدراسة المقررة - سنتان - قبل أن يستحق شهادة الإجازة بتقدير ممتاز.

شيوخه في مصر:

وقد تعرّف الشيخ أثناء دراسته تلك إلى علماء أفذاذ في الأصول واللغة، وعلى رأسهم العلامة الشيخ عيسى مئون، والدكتور الأصولي عبدالله موسى، والدكتور مصطفى عبدالخالق، وأخوه الدكتور عبدالغني عبدالخالق، وأفاد منهم كثيراً في تخصّصه، كما تزوّد بثقافة إسلامية عالمية، ومنهجية واضحة الطريق والهدف، ومسلك تربوي رصين الفكرة والتطبيق.

العمل في وزارة التربية مدرساً:

عاد الشيخ بعدها إلى دمشق؛ ليعمل مدرساً لمادة التربية الإسلامية، في منطقة الباب من محافظة حلب، وبقي هناك سنتين دراسيتين، وعُيّن في دمشق مدرساً في دار المعلمين، مع إسهامه الفعّال في مجالات المناهج الدراسية، والكتب المدرسية، ولجان الامتحانات، وبقي فيها حتى حصوله على شهادة الدكتوراه.

التدريس في جامعة دمشق:

وفي أثناء ذلك؛ اشتغل بالتدريس في كلية الشريعة بجامعة دمشق محاضراً، بين عامي (١٣٧٥هـ - ١٣٨٢هـ)، (١٩٥٥م - ١٩٦٢م).

الإعارة إلى السعودية وصحبته لعدد من العلماء:

وأُعير للتدريس في إدارة (الكليات والمعاهد) في الرياض التي أصبحت تعرف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ودرس النحو واللغة العربية في كلية الشريعة، وكلية اللغة العربية، بين عامي (١٣٨٢هـ - ١٣٨٦هـ)، (١٩٦٢م - ١٩٦٦م). وقد صادف سفره مع تعاقد عدد من الأساتذة والعلماء. وقد أضاف اجتماعه بهم في (الرياض) ولمدة أربع سنوات أنساً وتبادلاً في المعلومات والخبرات، ومن هؤلاء العلماء الأفاضل: الشيخ علي الطنطاوي، والشيخ عبدالفتاح أبو غدة، والأستاذ عمر عودة الخطيب، والدكتور محمد علي الهاشمي، والدكتور عبدالقدوس أبو صالح.

حصوله على شهادة (الدكتوراه):

ولمّا أصدر الأزهر قراراً يقضي بالسّماح لخريجي الكليات الأزهرية الذين أمضوا في التدريس الجامعي أكثر من خمس سنوات أن يتقدّموا بتسجيل رسالة الدكتوراه مباشرة؛ أسرع الشَّيخ مصطفى وسجّل موضوع (أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء) بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى عبدالخالق، ونال شهادة الدكتوراه عام (١٣٩١هـ = ١٩٧١م) مع مرتبة الشرف الأولى.

ولا شك أنه - رحمه الله تعالى - كان فوق هذه الشهادة علماً ومكانة، ولكنها أعانته على التدريس في عدد من الجامعات.

التعيين في جامعة دمشق:

عُيّن بعدها مدرّساً ورئيساً لقسم العقائد والأديان في كلية الشريعة، بالإضافة إلى تعيينه مدرّساً في كلية التربية بجامعة دمشق، (التربية الإسلامية وطرق تدريسها) وبقي في الجامعة حتى سنة (١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م)، وأسهم إذ ذاك في تأليف الكتاب الجامعي؛ فأصدر ثلاثة كتب مهمّة، لا تزال تُدرّس في كلية الشريعة إلى اليوم، وهي: التفسير العام، وفقه المعاملات، ومبادئ العقيدة الإسلامية.

التعاقد مع السعودية:

وبعد إحالته إلى التقاعد عام (١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م)؛ سافر الشيخ إلى المملكة العربية السعودية للمرة الثانية عام (١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م)، فعمل مدرّساً في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأبها، ثم عُيّن أستاذاً في كلية التربية للبنات، وعضواً في المجلس العلمي لجامعة الإمام بالرياض، وبقي حتى عام (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م)، وأشرف في هذه المدة على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه.

قال العلامة الشيخ عبدالرحمن حبنكة في كتابه: «الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة» ص ١٢٣: والدكتور الشيخ مصطفى سعيد الخن معروف في أوساط الجامعيين بالمعيتة، وبراعته في شرح المسائل العلمية، وحل المشكلات المعضلات، ومعروف بذوقه الأدبي الرفيع ورهافة حسه في النقد، ورغبته في العطاء العلمي.

لكنه عزوف - فيما أعلم - عن المشاركة في الأعمال الاجتماعية العامة، فتمودجه الفطري أستاذ معلم، وباحث متتبع، وله جاذبيته وتأثيره في تكوين حلقات طلاب علم، لا في استقطاب جماهير، وهو علم من أعلام العلم في دمشق نفاع معطاء» اهـ.

العودة إلى دمشق:

وعاد الحنين بالشيخ إلى دمشق مُجدّداً؛ ليصبح بيته مقصد طلاب العلم والمحبين.

تدريسه في قسم الدراسات العليا في مجمع أبي النور وقسم التخصص في معهد الفتح:

ومنذ بداية العام الدراسي (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)؛ وافق الشيخ على التدريس في قسم الدراسات العليا، التابع لجامعة أم درمان، ومركزه مجمع أبي النور التعليمي في دمشق، وعلى رئاسة كلية الشريعة بقسم التخصص، التابع لمعهد الفتح الإسلامي، وتدريس مادة أصول الفقه لطلاب السنوات

الثلاث في الكلية. وقد أشرف الشيخ وناقش عدداً وفيراً من الرسائل الجامعية في الدراسات العليا، في دمشق ولبنان.

غرفته الخاصة في جامع الدقاق:

وجديرٌ بالذكر أنَّ للشيخ مصطفى غرفةً خاصةً في جامع الدقاق (في الميدان الفوقاني)، شهدت تاريخاً حافلاً بنشاطٍ علميٍّ غزيرٍ، وتحتوي الغرفة على مكتبةٍ زاخرةٍ بأهمّات الكتب. وممن سجّل حضوراً بين جناباتها الأستاذ أحمد راتب النفاخ، الأستاذ أحمد عرابي الخن، الشيخ خير العلي، الأستاذ سعيد الطنطاوي، الأستاذ سهيل البري، الأستاذ علي الشربجي، الأستاذ صالح الأخرس، الشيخ عبدالعزيز الرفاعي، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الأستاذ محمود المارديني، والدكتور موفق دعبول.

تعريف بمؤلفاته:

بدأ الشيخ مصطفى الخن الكتابة في وقتٍ مبكرٍ من مسيرته العلمية، فكان تحصيله العلمي تأليفاً، وتأليفه تحصيلاً علمياً. وكان يكتب لنفسه أولاً، ومما كتبه: «شرح الشواهد النحوية المختصر»، و«شرح الشواهد النحوية الكبير» وهذان الكتابان من جملة ما ضاع من أوراق الشيخ رحمه الله تعالى. ثمّ ساهم في تأليف الكتب المدرسية، وأعدّ الأمايلي الجامعية، واتّجه إلى التّأليف العام والتّحقيق، وكان صدره يتّسع للمشاركة مع غيره، تأليفاً وتحقيقاً.

المؤلفات الخاصة:

١ - أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء. وهو بحث قدّم لنيل شهادة الدكتوراه في أصول الفقه من الأزهر عام (١٣٩١هـ = ١٩٧١م). ونال بكتابه الشهادة بدرجة الامتياز مع درجة الشرف الأولى. وقد طبعته مؤسسة الرسالة، عام (١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م)، وصدرت منه أكثر من سبع طبعات.

وقد حظي الكتاب بإعجاب أهل العلم من المتخصصين في الفقه الإسلامي، ثم صار كتاباً مقررأ لهذه المادة يرجع إليه كثير من كبار أساتذة الدراسات العليا.

٢ - عبدالله بن عباس: خبر الأمة وترجمان القرآن. صدرت الطبعة الأولى عام (١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م) عن دار القلم بدمشق.

٣ - دراسة تاريخية للفقه، وأصوله، والاتجاهات التي ظهرت فيهما. صدرت الطبعة الأولى عام (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م).

٤ - الحسن بن يسار البصري: الحكيم الواعظ والزاهد العالم. صدرت الطبعة الأولى عام (١٤١٦هـ = ١٩٩٥م) عن دار القلم بدمشق.

٥ - الأدلة التشريعية، وموقف الفقهاء من الاحتجاج بها. صدرت الطبعة الأولى عام (١٤١٧هـ = ١٩٩٧م) عن مؤسسة الرسالة بدمشق.

٦ - أبحاث حول أصول الفقه الإسلامي (تاريخ وتطوره). صدرت الطبعة الأولى عام (١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م) عن دار الكلم الطيب بدمشق.

٧ - الكافي الوافي في أصول الفقه الإسلامي. صدرت الطبعة الأولى عام (١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م) عن مؤسسة الرسالة، ويحتوي هذا الكتاب على معظم موضوعات علم أصول الفقه التي كانت تدرس للسنوات الثلاث من كلية الشريعة قسم التخصص التابع لمعهد الفتح الإسلامي.

المؤلفات المشتركة:

١ - (نزهة المتقين شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين)، وقد شارك بالتأليف: الدكتور مصطفى البغا، والأستاذ محيي الدين مستو، والأستاذ علي الشربجي، والأستاذ محمد أمين لطفي. في مجلدين، وصدرت الطبعة الأولى عام (١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م) عن مؤسسة الرسالة، وقد طبع أكثر من خمسة وثلاثين طبعة.

٢ - (الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي)، وقد شارك بالتأليف: الدكتور مصطفى البغا، والأستاذ علي الشربجي. ويقع في ثلاثة مجلدات، وصدرت طبعته الأولى عن دار القلم عام ١٤١٤هـ.

٣ - (العقيدة الإسلامية): أركانها - حقائقها - مفسداتها، وقد شارك بالتأليف: الأستاذ محيي الدين مستو. وصدرت طبعته الأولى عام (١٤١٧هـ) عن دار الكلم الطيب بدمشق.

٤ - (الإيضاح في علوم الحديث والاصطلاح)، وقد شارك بالتأليف: الدكتور بديع اللحام. وصدرت الطبعة الأولى عام (١٤١٩هـ) عن دار الكلم الطيب بدمشق.

التَّحْقِيقَاتُ الْخَاصَّةُ:

١ - (المنهل الراوي من تقريب النواوي). صدر عن دار الملاح بدمشق في ٣١٤ صفحة.

٢ - (تسهيل الحصول على قواعد الأصول)، للعلامة محمد أمين سويد المتوفى سنة ١٣٥٥هـ. وصدرت الطبعة الأولى عام (١٤١٢هـ) عن دار القلم بدمشق.

التَّحْقِيقَاتُ الْمَشْتَرَكَةُ:

١ - (حُسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة)، لجامعه محمد صديق القنوجي البخاري المتوفى سنة ١٣٠٧هـ. بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو. صدرت الطبعة الأولى عام (١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م) عن مؤسسة الرسالة.

٢ - (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول)، للإمام الشوكاني. بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو.

٣ - (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، للبيضاوي. بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو، وبديع اللحام.

٤ - (المنهاج القويم في مسائل التَّعليم)، لابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٣٤هـ. بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو، والأستاذ علي الشربجي. وفي هذه الطبعة إعواز كبير، وقد صدر الكتاب بعد ذلك محققاً مُصحَّحاً عن دار المنهاج بجدة.

وفاته وحُسن خاتمته:

توفي أثناء صلاة الجمعة ٢٤ محرم ١٤٢٩هـ الموافق ١ شباط ٢٠٠٨م في جامع سيدنا الحسن رضي الله عنه في الميدان، وكان الشيخ كريم راجح يقرأ في كتاب «رياض الصالحين» ويشرح حديث أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم، فقال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» رواه مسلم^(١).

ثم توقف الشيخ عند كلمة «مسجدها» وقال: أرى أن تُقرأ بفتح الجيم لا بكسرها، وتردّد في ذلك، ثم قال: ليت أستاذنا الخن يضبطها لنا.

ومن عادة الدكتور مصطفى الخن، المواظبة على حضور خطبة الجمعة عند الشيخ كريم، وكان يجلس على كرسي (أول المسجد يمين الداخل إليه) وبعد أربع دقائق تقريباً من كلمة الشيخ كريم تلك؛ شهق شهقة فالتفت بعض المصلّين، وإذا بالشيخ أنس ابن الدكتور مصطفى يدلك له صدره. وبعد قليل مدّده على الأرض.

كل ذلك والشيخ كريم مسترسل في خطبته، إلى أن أرسلوا إليه أحد الإخوة ليخبره، فلما صعد الأخ المنبر، وأخبر الشيخ كان وقع الخبر كالصاعقة. فقال له الشيخ: الآن؟ في المسجد؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

(١) رواه مسلم (٢٧٢٦) في كتاب الذكر والدعاء.

وصار يتمتم بكلمات (عالم البلد عالم الأمة مات في المسجد...) وأنهى الخطبة، وطلب من الناس أن يمكثوا في أماكنهم وأن لا يزدحموا على الدكتور الخن. ثم صلى الشيخ كريم وهو يبكي، وبعد السلام أسرع ليرى صديقه وأستاذه وحبيه الخن.

لقد أسلم روحه لبارئها بعد ثمانية وثمانين سنة أمضاها في طلب العلم والتعليم والتأليف والنصح للمسلمين.

ثم قال الشيخ كريم راجح لإخوانه: «هذا العالم الذي لم يتلوّث لا بحاكم ولا بغني».

إنا لله وإنا إليه راجعون وصلي عليه مساء الجمعة في جامع الحسن بالميدان - رحمه الله تعالى - وأثابه رضاه^(١).



(١) المراجع:

١ - كتاب (مصطفى سعيد الخن، العالم المُربي، وشيخ علم أصول الفقه في بلاد الشام)، تأليف: د. محيي الدين مستو، وهو الكتاب رقم (٨) في سلسلة: (علماء ومفكرون معاصرون، لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم)، التي تصدرها دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢ - كتاب (الوالد الداعية المُربي الشيخ حسن حبنكة الميداني) بقلم ولده عبدالرحمن حبنكة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

الشيخ محمد الحجار العابد الزاهد^(١)

(١٣٣٨ - ١٤٢٨هـ)

(١٩٢٠ - ٢٠٠٧م)



بقلم تلميذه ومحبه: مَجْد مكي

هو العالم العامل، العابد الزاهد، الولي
الصالح الشيخ محمد بن محمود الحجار.

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد رحمه الله تعالى في مدينة حلب الشهباء في حي ساحة بزة سنة ١٩٢٠م، ونشأ في رعاية والده الصالح محمود، ووالدته الصالحة السيدة فاطمة السبسي، ودرس في (المدرسة الخسروية)، ثم انتقل في عام ١٩٤٨م، لمتابعة دراسته في (المدرسة الشعبانية) في معهد العلوم الشرعية، وأتم دراسته فيه، وكان معه في مراحل دراسته: الشيخ عبدالقادر عيسى، وأحمد شعبان، ومحمد طاووس، وقد جمع هؤلاء في دراستهم بين الدراسة الشرعية القديمة والجديدة.

المعهد الشرعي في المدرسة الشعبانية:

وقد أنشئ هذا المعهد الشرعي في عهد مدير الأوقاف الأستاذ نعمان سخيطة، إذ قرّر أن يجمع طلاب المدارس الشرعية المتفرقة (البهائية، والسيافية، والقرناصية، والإسماعيلية)، في هذا المعهد، وقسم الشيخ عطا

الصابوني مدير المعهد الشرعي في (الشعبانية) الطلاب، حسب إمكانياتهم على ثلاثة أقسام: قسم في الدرس العام في قبلية المسجد، يحضره مَنْ تجاوز السن، ولم يعد يصلح للانتظام في الصفوف، وكان يدرسهم الشيخ علي العالم الكيالي، والفئة الثانية تم قبولها في الصف الأول، وبقية الطلاب وزُعوا على الصف الثاني، والثالث، وكانت الدراسة سبع سنوات، وقُبِل الشيخ محمد الحجار في الصف الثالث.

مدير المعهد الشرعي الشيخ: عبدالله سلطان:

ثم استلم إدارة المعهد الشرعي الشيخ: عبدالله سلطان رحمه الله، ونقم عليه بعض الطلاب بإلزامهم بالانتماء إلى بعض المشايخ، وكان يضغط على الطلاب الذين لا ينطوون تحت لوائه، وعاقب عدداً من الطلاب، وأوقف ستة وعشرين منهم: الشيخ محمد في سجن باب النصر، فخرج الطلاب بمظاهرة تندد بسجن الطلاب، وأرسلوا برقية للشيشكلي: «طلاب العلم الشرعي يقادون بعمائمهم إلى السجون...» فأطلق سراحهم مع رد الاعتبار والاعتذار.

شيوخه:

ومن أبرز شيوخه الذين لازمهم وانتفع بهم: الشيخ أبو النصر خلف الحمصي، وأخذ منه الطريقة النقشبندية، والشيخ عيسى البيانوني، والشيخ إبراهيم السلقيني (الجد)، والشيخ محمد نجيب سراج الدين، والشيخ أحمد الشماع، والشيخ محمد سعيد الإدلي، والشيخ إبراهيم الغلاييني مفتي قطنا، ولازمه ملازمة تامة في قطنا أكثر من أربعين يوماً. وقد شرف بخدمة هؤلاء المشايخ الكبار، وكان يحلق رؤوسهم ويؤزّن لهم لحاهم.

وممّن أجازته ببعض مروياته شيخه العلامة عيسى البيانوني جد زوجته، ويروي عنه الحديث المسلسل بيوم عاشوراء، وقد ذكر هذا الحديث في كتابه «من قصص التنزيل» ص ٢٥٧ عند كلامه عن فضل صوم يوم عاشوراء في قصة موسى عليه السلام: «أقول: هذا الحديث من الأحاديث المسلسلة سندها، وقد أخذته عن شياخي الشيخ عيسى البيانوني، وكان أستاذنا في الثانوية الشرعية، فقال لنا رحمه الله تعالى: «لكم عندي جائزة، ولكن بشرط

أن تأتوا صائمين فجئنا، وسَرَدَ لنا سلسلة الحديث، وأجازنا به».

إمامته وخطابته في جامع الزكي بحلب وطلابه الذين قرؤوا عليه وصحبوه:

استلم الشيخ الإمامة والخطابة في جامع الزكي بحي باب النصر، وبقي إماماً وخطيباً أكثر من ثلاثين سنة.

وممَّن قرأ عليه في جامع الزكي فضيلة الشيخ محمود ميرة، قرأ عليه في الفقه الشافعي، مع الشيخ عمر عطار، ومحمد ربيع عطار، ومصطفى الإعزازي، وكذلك قرأ عليه ولازمه فترة الدكتور الشيخ عبدالستار أبو غدة، وقرأ عليه أيضاً عديله الشيخ حامد غريب، والدكتور الشيخ زهير ناصر، النحو في ألفية ابن مالك، والعهود المحمدية، وممَّن صحبه في حلب وانتفع بصلاحه وسمته: الأستاذ إسماعيل حقي ناشد، والأستاذ: عاطف بن محمد أسعد البيانوني.

صحبه للشيخ البيانوني ومصاهرته:

وصحب الأستاذ الحجار فضيلة الشيخ أحمد عز الدين البيانوني، واستفاد من منهجه في العلم والدعوة، وكان يخضه بالحب والرعاية، ويوليه عناية فائقة، ويذهب إلى زيارته في سرايا إسماعيل باشا، وزوجه ابنته التقية الصالحة (بشرى) التي كانت من الداعيات المربيات المدرسات، وكانت بغم الزوجة لزوجها، تُعينه على طاعة الله عز وجل، وتربية الأولاد، وكان الشيخ شديد الوفاء لها، دائم اللهج بذكرها، وتوفيت قبله بتسع سنوات، ودفنت ببقيع الغرق في المدينة المنورة، وكان الشيخ يزور البقيع في كل يوم بعد صلاة العصر في المسجد النبوي، ويخص قبرها بزيارته. كما كان يزور الكثير من إخوانه وأصحابه وأساتذته في البقيع، ومنهم الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، وكان شديد الحب له، وثيق الصلة به، عظيم التقدير له.

أولاده:

وله منها ثمانية من الأولاد: خمسة من الذكور، وهم: صفوح من مواليد ١٩٤٩، ورضوان من مواليد ١٩٥٠، وأسامة ١٩٥٤، ويمان ١٩٦٤، وصهيب ١٩٧١، وله من البنات ثلاثة: أسماء، وميمونة، ورضوى.

محنته وهجرته إلى المدينة المنورة:

امتحن الشيخ في الأحداث التي وقعت في سورية في بداية الثمانينيات من القرن الماضي، وابتلي باستشهاد ابنه صفوح في عام ١٩٨٠، كما فقد الشيخ اثنين من أبنائه: أسامة الذي كان يعمل مدرساً وخطيباً، ويمان الذي كان طالباً في المرحلة الثانوية، حيث غرّر به أحد المسؤولين في أجهزة الأمن بتقديمهما للمساءلة وإعادتهما إليه، فوثق بقول ذلك المسؤول، لما جُبل عليه الشيخ من الصدق والوضوح وتحسين الظن، وقدمهما إليه ليعودا في اليوم نفسه، كما أكد له ذلك المسؤول!! واختفى أثرهما منذ سنة ١٩٨٠، مع الآلاف من المفقودين!!

وكان الشيخ مثلاً رائعاً في الصبر والاحتساب، والوفاء والأمل.

هاجر إلى المدينة المنورة مجاوراً، منذ سنة ١٤٠٠هـ، إلى أن توفاه الله تعالى في سنة ١٤٢٨هـ، كما امتحن في المدينة المنورة بإيذاء بعض الجهلة المتعصبين، ومحاولة إبعاده عن المدينة المنورة مع ثلّة من العلماء الفضلاء، فزاده الله عزّ وجلّ رضاءً وسكينة وطمأنينة، وعزاً ومنزلة ورفعة في قلوب الصالحين من أهل المدينة المنورة.

ملازمته للمسجد النبوي:

كان شديد الحرص على صلاة الجماعة في المسجد النبوي، والقراءة والعلم والتعليم. وكان بحق حمامة المسجد النبوي، وما من أحد من أصحاب الشيخ وعارفيه، زار المسجد النبوي إلا ورآه في مجلسه المعروف عند باب السلام بعد صلاة الفجر، أو عند باب الرحمة بعد صلاة الظهر، أو عند أول التوسعة السعودية بعد باب الرحمة من بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء.

لم ينقطع رحمه الله عن المسجد النبوي في يوم من الأيام، حتى في شدة الزحام، في شهر رمضان، وأشهر الحج، فكان يحضر إلى المسجد عند الأذان الأول، ويبقى إلى صلاة الضحى، ثم يعود بعد استراحة قصيرة في منزله إلى المسجد قبل صلاة الظهر، ويأتي إلى الروضة المطهرة كل

يوم، ويستمر في صلاته وعبادته فيها إلى ما بعد صلاة الظهر، ثم يمكث في المسجد إلى ما بعد صلاة العشاء.

وكان يخرج ماشياً إلى مسجد قباء كل يوم سبت، ولم ينقطع عن هذه السنة إلا بعد كسر حوضه قبيل ثلاث سنوات من وفاته.

حرصه على صلاة الجماعة:

ومن حرصه على صلاة الجماعة في المسجد النبوي أنه كان إذا أراد السفر إلى مكة المكرمة للعمرة لا يخرج من المدينة إلا بعد صلاة العشاء، كي لا يضع صلاة الجماعة في المسجد النبوي، ويصل إلى مكة عند الأذان الأول للفجر، ويصلي الفجر في المسجد الحرام، ويكثر من الطواف بعد العمرة، ولا يقل طوافه عن عشرة أسابيع.

منهجه في العبادة:

وكان آية في العبادة، يذكر بالسلف الصالح، لا يفرغ من صلاة وصيام وذكر وتلاوة قرآن، وقراءة وإقراء.

من منهجه في العبادة: المداومة على اثنتي عشرة ركعة في صلاة الضحى، وعلى اثنتي عشرة ركعة بعد صلاة المغرب، وصلاة التسابيح، وقيام الليل، وصيام الدهر دون إفطار إلا في الأيام الخمسة التي لا يحل صومها، وهي: يوم الفطر ويوم النحر، وأيام التشريق الثلاثة.

وكان يراجع مؤلفاته ويصححها في الحرم الشريف، وله دروس متنوعة في الفقه الشافعي والعربية والتفسير بعد صلاة الفجر والعصر والمغرب من كل يوم.

شجاعته وجهره بالحق:

ومع انقطاع الشيخ للعبادة وانهماكه بالذكر والمحافظة على سائر النوافل، والتزام الأدب، والتواضع الشديد، وإيثار السكوت والعزلة، فإنه كان رياضياً يعنى بصحته وجسده، ويمارس رياضة المشي، ويقل الطعام، وكان سباحاً ماهراً، ورامياً حاذقاً، كما كان يجهر بالحق، ويدعو إلى الجهاد، وفي أوائل الثمانينيات كان مع هيئة علماء حلب في معالجة الأحداث التي تابعت، وصدع بكلمة الحق، من فوق منبره في جامع الزكي.

الدعوة إلى الجهاد والاستعداد:

ومن أقواله في الدعوة إلى الجهاد والاستعداد والتضحية والاستبسال... في خطبته عن الجندية في كتابه «صوت المنبر» ٩٠/١، التي افتتحها بقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]، ثم تكلم حول معنى هذه الآية، وعن حكم الإسلام في الجندية، وأورد نماذج من جهاد السلف، ووحددة الصف، وبيّن مراده بهذه الدعوة، ثم قال: «ولكنني أريد أن أنبه إخواني المسلمين: عرباً وعجماً، وأن أحضهم على الجندية، وأدعوهم إليها، ليكونوا على أهبة وحذر من العدو، وأن أبين: بأن الإسلام - لا كما يزعم البعض - دين عبادة وزهادة، دين عزوف عن الحياة، وقمع في البيوت والزوايا فحسب، لا علاقة له بأمر السياسة، ولا حق له بإدارة دفة الحكم، فينبغي فصل الدين عن الدولة».

وقال في خطبته عن غزوة بدر ١٩٨/١: «يجب علينا أن نؤمن بأن الجهاد فريضة مُحْتَمَّة، أوجبها الله علينا بالعبادة التي أوجب بها الصوم، فكما قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾»، قال في السورة نفسها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ...﴾»، وأن نؤمن أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، لا يبطله جور جائر ولا حكم حاكم».

ويقول في خطبته عن الجهاد الأكبر ٣٧١/١: «إن الحرب آتية لا ريب فيها، فإذا لم تأت الحرب إلينا، فيجب أن نسعى إليها، لأن لنا رسالة لا بد وأن تؤديها، ولنا أخوة في العروبة والإسلام، لا بد أن نحطم من أغلالها، ونحمي تربتها، ولنا بلاد في مشارق الأرض ومغاربها، لا بد أن نطهرها من رجس المستعمرين، وأيدي الغاصبين... ولنعلم حق العلم، بأن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، فمن لم يَغْزُ، ولم يحدث نفسه بالغزو، ومات مات ميتة جاهلية...».

ويقول في خطبته «لمحات عن البسالة والبواسل» ٥٠٨/١ - ٥١٤، بعد أن استعرض صوراً رائعة من بواسل الإيمان في غزوة أحد والأحزاب: «بهذه الروح يجب أن نتسلح - معشر الشباب - وبهذه الروح يجب أن نعمل ونجاهد... هذا هو الإسلام في جيوشه وقوته، في كفاحه وجهاده، هذا

هو الإسلام - أيها الشباب - منه استمد الأولون الروح الحية، وكانوا في انطلاقهم وجهادهم كالعاصفة، وفي ثباتهم وصبرهم كالرواسي».

اهتمامه بقضية فلسطين:

كما اهتم في خطبه بقضية فلسطين. ومن ذلك قوله ٩٩/١: «لقد وضع رسول الله ﷺ أمانةً في أعناق المسلمين، ولا سيما القائمين على الحكم، أن يحتفظوا بهذه الأرض المقدسة، وأن لا تسمح للغزاة المستبدين، بانتزاع شبر من أرضها ما دما أحياء، وأن ندافع عنها بكل ما نملك من قوة، وأن نعتبر الدفاع عنها واجباً يحتمه الدين، ويوجبه الإسلام، وتؤكدُه العقيدة، لا مفرَّ عنها ولا محيص».

ويقول في خطبة غزوة بدر ١٩٨/١: «تمرَّ علينا هذه الذكرى: والأرض المقدَّسة، ما زالت موطن نعال الصهاينة من بني إسرائيل، الذين قتلوا الأنبياء بغير حق، وغضب الله عليهم ولعنهم، والمسلمون غارقون إلى أذقانهم بالترهات والأوهام والأباطيل... تمر علينا الذكرى والمسلمون على كثرة ملاينهم، مفككو العرى، ممزقو الروابط، مختلفو الصفوف، كلُّ يسعى في محق أخيه وإبادته، والحرب طحون قائمة بينهم على قدم وساق، كلُّ يستمدُّ قوته من الشرق أو الغرب...».

تحذيره من الردة:

كما حذَّر من الردة وبيَّن أحكامها ٣٩٦/١ - ٤٠٧، في موضوع استوعب فيه أنواع الردة، وجمع أطرافه، وأحسن اختصاره، من مطوَّلات كتب الفقه.

تحذيره من الحزبيات المُشَتَّة للأمة:

كما تحدث عن سبب انحطاط المسلمين ٥٠٤/١، في خطبته عن الحالة الحاضرة وأثرها في الناس، وحذَّر من أخطار الحزبيات المُشَتَّة للأمة ٥٠٥/١، وممَّا قال في ذلك: «كثرة الأحزاب والشَّيع دليل واضح وبرهان ساطع على تفرقة الأمة، وتخاذلها وانحطاطها... وإنَّ التفرُّق والتحزب والتشيع كلُّ ذلك عده القرآن نوعاً من أنواع العذاب، يضرب الله به على أمةٍ سخط عليها وغضب...».

تحذيره من الدعوات الضالة الوافدة:

كما حذّر من الدعوات الضالة الوافدة، فحذّر من الشيوعية وغيرها من المذاهب الهدّامة التي تدّعي رحمة الفقير أو العطف على العامل ٥٠٦/١... كما حذّر من الدعوة إلى القومية، أو الوطنية، أو الاشتراكية، أو الشعبية، وقال عن هذه الدعوات ٥٠٦/١: «إنها وليدة أفكار سخيّة، لم تع الإسلام ولم تفهمه، ولم تُحط بسموّ ما جاء به من الأحكام»...

واستمع إلى دوتي كلماته - وهو المخبت الخاشع - وجلّجلة صوته في خطبته: «ردة ولا أبا بكر لها»، بعد أن تحدّث عن الشيوعية التي وضعت الناس في جحيم أحمر، وجعلت أبناءها يعيشون عيشة الأنعام... وعن الرأسمالية التي هي أسوأ وأشر، يبطش القوي بالضعيف، ويقضي الغني على الفقير، فانطلق الناس كالحيوانات الضارية، والذئاب الشاردة...

فبيّن السبيل الواحد الذي جاء في كتاب الله، وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام... ثم حذّر من الردة التي اكتسحت العالم الإسلامي، وغزت المجتمع المسلم...

وقال أيضاً ١٠٩/٢: «الإسلام لا يعرف محاكم التفتيش ولا التعنيف، ولا يعرف الاضطهاد، بل ولا يعرف المحاكم العرفية، التي أقامها عملاء الاستعمار للمحافظة على مناصبهم، فبنوا القلاع والشدود، وجعلوا الحواجز والحصون فيما بينهم وبين شعوبهم، كي لا يسمعون أنين المظلومين، ولا عويل المنكوبين!!».

تحذيره من انحراف الحكام والقيادات:

وتحدّث عن مسؤولية الحاكم وانحراف القيادة في خطبته عن القيادات الرشيدة، وما جنته هذه القيادات على الأمة ١١٧/٢: «إن الحرمان الذي لاقتة الأمة العربية، منذ أن انحرفت القيادات العربية عن مراكزها، منذ أن انحصرت هذه القيادات في الرؤوس المترفة، والأجسام الخائرة، إن الحرمان والكبت والظلم والعسف الذي لاقتة الأمة العربية من هذه القيادات المنحرفة، أضعف الروح المعنوية في كل فرد من أفراد الأمة، وجرى اليأس في عروقه ودمه، من أن يتقدم شبراً إلى الأمام...».

كما تحدث عن الأوضاع الأخلاقية للأمة ١٣٠/٢: من تفكك مكشوف، وتحلل خلقي، واندثار العدل، وانتشار الظلم...

تحذيره من دسائس الأعداء وإثارة عوامل الفرقة:

وحذر من دسائس الأعداء، وتآلبهم على المسلمين، وإحداث عوامل الفرقة والتشتت، فيقول في خطبته: «وحدة الصف» ٢/٢١٣: «نرى أعداء الإسلام ساعين بجِدٍّ ونشاط على إزالة المسلمين من الوجود بتسليط بعضهم على بعض، وهو جائم على صدورهم، آخذ بقامتهم، حتى لا تقوم لدينهم قائمة، ولا يبقى لهم باقية...» وبعد أن استعرض موقف الأعداء من المسلمين وما أصابهم من تقتيل وتعذيب... قال: «تنبّهوا إلى ما يراد بكم، وبدينكم من خطر!! واذكروا دائماً أن الغرب وأعوانه لكم بالمرصاد، وأنهم يتربّصون بكم الدوائر، فوحدوا جهودكم، وكونوا يداً واحداً على من عاداكم...»

وإياكم أن يدخل الأعداء في صفوفكم، ويفرق بين طوائفكم، وحسبكم ما وصلتم إليه من مهانة، وما لحق بكم من عار واضمحلال.

وحذار ثم حذار من انشقاق الصف، وإيقاع الخلاف في أمور جزئيات تافهة، ومسائل فرعية أشد تافهة، فهي لا تعطل واجباً، ولا تبيح حراماً، وإياكم من صرف الجهد لما اختلف فيه الأئمة التي ليست من أصول الدين، فإن العدو ينتظر مثل هذا الخلاف ليدخل قلب المسلمين، فيفرّق جمعهم، ويمزّق شملهم، ويطأ بقدمه أرضهم، ويحتقر مقدّساتهم، ويستولي على بلادهم...».

منهجه الإصلاحية والدعوية:

ومن قرأ كتابه «الصحوة القريبة» وجد فيه صدق اللهجة، ومخضّ النصح، وقوة العاطفة، كما وجد فيه معالم من منهجه الإصلاحية والدعوية، فقد حذر من كثير من المفاسد والمنكرات المنتشرة في المجتمع.

تحذيره من البدع والمنكرات:

مثل منكرات المآتم ومنكرات السماع من المذيع ١/١٧٣، وتكلم عن حال قُرّاء هذا العصر ١/١٧٢.

كما حذر من بعض البدع الشائعة، كتحذيره من بدعة الاستخارة بالنوم، فقال في كتابه «الإسلام وأركانه الأربعة» ص ١٥٢:

«استخارة المنام ليست بواردة، ولا يجوز الاعتماد على المنامات، لأنه يغلب فيها التخليط، وحديث النفس. نعم؛ يستأنس بالمنام لا غير. وما يفعله بعض العوام ولا سيما النساء منهم، يقولون لبعض الأشياخ: بيئت لي استخارة ليس بصحيح، فيجب تعليمهم وتذكيرهم وإرشادهم للسنة الصحيحة التي ليس عليها غبار، وقد نبهت على هذا في فتح العلام أثناء تعليقي عليه، فعد إليه».

دعوته لترك الإكثار من حج النافلة:

ومن ذلك دعوته: لترك الإكثار من الحج لتعطى الفرصة لمن أراد أن يؤدي الحج لأول مرة، لما تُسببه - كما قال في كتابه «الصحوة القريبة» ١/ ٢١٢- الكثرة الكثيرة، من أزمات خطيرة: حسيّة ومعنويّة، دينية وأخلاقية، أزمات في السكن، وفي السعي، وفي رمي الجمار، وفي الصلاة والطواف، أزمات في المطاهر والمياه، في الفئة القليلة التي أرادت أن تؤدي فريضة الحج لأول مرة، وإذا بها قد اندلع أمامها هذا الحشد الكبير فجعلها في مضيق! فلم يستطع الحاج أن ينهض بما وجب عليه من أداء الفرائض فضلاً عن النوافل... ولهذا أقدم بكلمتي هذه لأهل الوعي من المسلمين - غير العاطفيين - أن ينتبهوا وينبّهوا غيرهم لهذا، بإعطاء المجال لهؤلاء السذج الأغرار، ليتمكنوا من أداء المناسك، ويُعوّضوا عن حَجِّهم بعمرة، رحمةً بإخوانهم، أو يجعلوا الحج في كل خمس سنوات تخفيفاً لهذا الضغط الشديد...». وينظر كلامه حول الازدحام عند الحجر الأسود في كتابه «الإسلام وأركانه الأربعة» ص ٥٩٣ تحت عنوان: النداء العميق، وكلامه حول منكرات الحج، في كتابه السابق أيضاً ص ٥٧٠ - ٥٧٢.

عنايته بشأن الأسرة والمرأة:

كما حذر في كتابه «الصحوة القريبة» من المغالاة في المهر ١/ ٢٩٣، ومن إحجام الشباب عن الزواج ١/ ٢٩٤، كما حذر من انحراف بعض

الرجال في معاملة نساءهم، وسلوكهم داخل البيت ٦٤/٢، وقال ناصحاً الأزواج بعدم التحكم والبغي على نساكن، وقال ٧٣/٢: «فقد تكون المرأة عجيبة صالحة للصالح، والاستقامة، وإطاعة الزوج، ولكن سوء المعاملة، أو شدة المؤاخذة، تدفعها إلى الشطط والعناد... إن المرأة ليست عند الرجل أثاثاً يُقتنى، أو متاعاً يُباع ويشترى!!! ولكنها إنسانة لها حقوقها، وحرمتها، وحرمتها، بحكم الإسلام، وحكم القرآن».

وحذر كذلك من الرشوة وبيّن أخطارها وآثارها ٣٥٧/١.

مؤلفاته وتحقيقاته:

توجه الشيخ للكتابة والتأليف وهو في مدينة حلب، وهذه قائمة بأسماء مؤلفات الشيخ:

- ١ - سمر المؤمنين في المواعظ والحكم والقصص. ٢ - الصحوة القربية بإذن الله. وهو مجموعة خطب توجيهية نافعة. ٣ - الحب الخالد. ٤ - الإسلام وأركانه الأربعة. ٥ - من قصص التنزيل. ٦ - النصيحة الموجزة.

وأما الكتب التي نشرها، فقد غني ببعض كتب الإمامين الغزالي والنووي، وكان يهتم في نشر تلك الكتب بالتعليقات المفيدة للقارئ، دون اهتمام بالمقابلة على أصول خطية أو تخريج للأحاديث أو توثيق للنقول.

وهذه قائمة بأسماء الكتب التي غني بنشرها وشرحها:

- ١ - فتاوى الإمام النووي. ٢ - التبيان في آداب حملة القرآن للنووي.
- ٣ - بستان العارفين للنووي. ٤ - شرح المقاصد النووية. ٥ - بداية الهداية للغزالي. ٦ - فتح العلام في فقه الشافعية للجرداني.

تلاميذه في المدينة المنورة:

ومن تلاميذه الذين صحبوه ولازموا، واستفادوا من علمه وصلاحه: فتح بن محمد عبدالله أبو الفتح البيانوني، وجذاع الصويلح، مدير إذاعة القرآن الكريم في الكويت، وعلي الحريري من نوى في حوران، وعمر

الكاف، ومحمود عبدالغني اليماني، وعبدالسلام بن محمد سعيد رمضان البوطي، ويوسف مرعشلي، وعبدالرحمن حجار، وعبدالمعين عزوب، وغسان وتد، وتامر نجار، وسامح عطار، زوج حفيدة الشيخ.

وكان لي شرف الحضور عليه، وتقبيل يديه، وطلب الدعاء منه، في كل زيارة للمدينة المنورة، مع أولادي: أحمد وموفق، وقد أكرمني بإجازته العلمية عن شيوخه الذين أجازوه رحمهم الله تعالى.

وفاته:

مكث الشيخ في المدينة المنورة قرابة ثلث قرن مستقيماً على منهج ثابت في العبادة والعلم، معافى في بدنه، مُمتعاً بحواسه، آمناً في سربه، راضياً مطمئناً. وفي يوم الأربعاء ٥ محرم ١٤٢٨هـ حضر إلى المسجد صحيحاً معافى، وصلى الصلوات الخمس فيه، وبعد صلاة العشاء من ليلة الخميس ذهب إلى بيته ليتناول طعام إفطاره، وأخلد إلى النوم في تمام الساعة العاشرة، وتأخر في الاستيقاظ عن مواعده المعروف للتهجد والسحور، والاستعداد للذهاب إلى الحرم في موعد الأذان الأول، فدخل عليه ابنه الكبير رضوان، ليطمئن عنه ويوقظه لتهجده وسحوره، فرآه في نومته التي تركه عليها، أول الليل، وقد توفاه الله الوفاة الكبرى، وأسلم الروح لبارئها، ليلة الخميس في حدود الساعة الواحدة ليلاً.

وقد صُلي عليه في المسجد النبوي بعد صلاة الظهر من يوم الخميس ٦ محرم ١٤٢٨هـ، وشيَّعه المئات من مُحبيه وتلامذته، ودفن في مقبرة البقيع بالمدينة المنورة.

تحقيق أمنيته:

وقد قال رحمه الله تعالى في رسالة: «علّمني يا قوم كيف أحج» ص ٥٩٦: «والموت في المدينة، لا يناله إلا السعيد، لأنه يستوجب شفاعته رسول الله الحبيب، وقد أكرم الله زوجتي بهذه الكرامة، وأسأل الله تعالى أن يَخُصَّنِي بها كما خَصَّها: «اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك، والموت في

بلد نبيك». ثم قال رحمه الله تعالى: «وأضيف إلى هذا قائلاً وراجياً: اللهم لا تقبضني إليك إلا وأنا صائم ساجد في بلد نبيك، اللهم لا تحجبني بذنوبي عن بلد رسولك صلوات الله وسلامه عليه. والله درُّ القائل:

يا نزولاً بها هنيئاً فقد فزتم بها في حياتكم والممات
من جنان إلى جنان فأنتم في كلا الحالتين في جنات
ما غبطنا الملوكة ولكن غبطنا كم على نيل أحسن الحالات»

انتهى.



الشيخ محمد الحجار بعد هجرته إلى المدينة المنورة

الشاعر الإسلامي الأديب المفسّر

محمد الحسناوي^(١)

(١٣٥٧ - ١٤٢٨ هـ)

(١٩٣٨ - ٢٠٠٧ م)



بقلم: مُجَد مكي

تنعى رابطة علماء سورية إلى الأمة الإسلامية وفاة الأستاذ المرّبي الداعية، المفسّر المتذوق لبلاغة القرآن وإعجازه، الأستاذ محمد الحسناوي الذي تُوفي في عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية، صباح هذا اليوم ١٤ صفر ١٤٢٨ هـ، الموافق ٤ آذار ٢٠٠٧ م، في تمام الساعة العاشرة صباحاً، عن عمر يناهز السبعين عاماً، وقد أنهى حياته الحافلة بالدعوة، والجهاد، بالانكباب على كتاب الله عزّ وجلّ في عدّة دراسات، كان آخرها دراسة بلاغية لأربعة سور من القرآن الكريم، وهي: الإسراء، والكهف، ومريم، وطه.

ولادته ونشأته ودراسته:

ولد الأستاذ الحسناوي في مدينة جسر الشغور عام ١٩٣٨ م، وهي

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٤ م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com

وكنت أول من رثى الأستاذ بعدما بلغني نبأ وفاته رحمه الله تعالى.

مدينة تقع على نهر العاصي في منتصف الطريق بين حلب واللاذقية، وتخرج في كلية الآداب بجامعة دمشق عام ١٩٦١م. ونال شهادة الماجستير في موضوع «الفاصلة في القرآن» عام ١٩٧٢م.

أعماله العلميّة:

عمل مديراً لتحرير مجلة «حضارة الإسلام» لمدة عام ١٩٦١. كما عمل مدرساً للغة العربية في محافظة حلب ثمانية عشر عاماً من عام ١٩٦٢ - ١٩٨٠م. إلى أن اضطر إلى مغادرة القطر السوري بملابسات تتعلق بأوضاع البلاد العامة.

كتب في عدد من المجلات الأدبية والإسلامية المعروفة، وفي دراسته للفاصلة في القرآن وهي - كلمة آخر الآية كقافية الشعر وسجعة النثر - اكتشف أثراً مهماً للموسيقى القرآنية.

وشارك في عدد من المؤتمرات الأدبية، ونال عدداً من الجوائز في أدب الأطفال والقصة الإسلامية.

من دواوين شعره المنشورة: عودة الغائب، في غيابة الحب، ملحمة النور. وفي الدراسات الأدبية: في الأدب والأدب الإسلامي، وفي الأدب والحضارة، صفحات في الفكر والأدب. وفي التاريخ: ذكرياتي عن السباعي.

كلمته حول تفسير «المعين»:

وقد أرسلت إليه كتابي «المعين على تدبر الكتاب المبين» فكتب كلمة حوله، لعلها آخر ما كتبه رحمه الله تعالى، نقتطف منها ما يلي:

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من اهتدى بهداه إلى يوم الدين. وبعد... فقد رغب إليّ من لا تُردُّ رغبته، الأخ الشيخ مَجْد مكي، أن أكتب له مقدمة لتفسيره (المعين على تدبر الكتاب المبين)، لظنه الحسن بي.

وأسأل الله تعالى أن يجعلني عند حُسن ظنه، لأن بضاعتي محدودة بعلوم اللغة العربية وبشيء يسير من علوم القرآن الكريم.

لقد سرتني أيما سرور أن يسد أحد الكتاب المعاصرين ثغرة في تأليف كتاب تفسير، يجمع بين السهولة والإيجاز والدقة في الفهم والتعبير، ويلائم أهل هذا العصر في الوقت نفسه.

من يطالع (المقدمة) التي حرَّرها المؤلف يجد ما يُطمئنه، ما وضع المؤلف نفسه من صُوى ومعالٍ، عمل على تحقيقها في هذا التفسير: من استشعار عظمة هذا العمل وخطورته، والإفادة من جهود الجهابذة السابقين المعتمدين، والعناية بالجانب (التدبري) من نص القرآن، ضمن (أربع عشرة قاعدة) ألزم نفسه الأخذ بها. إحداها: (ملاحظة العمق القرآني)، والقرآن الكريم (حمًا لأوجه)، و(كتاب لا تنقضي عجائبه)، وفيه من (معنى المعنى) أو (اللوازم الفكرية، والكنائيات البعيدة)، و(ظاهرة التضمين) ما بلغ حد الإعجاز، لذلك يتفاوت الناس، بما فيهم العلماء الأفذاذ، في مقدار فهمه وتذوق حلاوته، كما يتفاوتون في القدرة على التعبير عمًا فهموه وأحسوا به من كلمات هذا الكتاب المُحكم وآياته وسوره.

كنت أقول في نفسي، وما زلت: لقد حصل لي من علوم العربية والأدب والقرآن مثل ما حصل للمرحوم سيد قطب، فلماذا يقصر فهمي عن فهمه له، كما يقصر تعبيري عن تعبيره؟ هل هي (الذائقة الفنية) التي تمتع بها؟ أم ماذا؟ فيجيب سيد قطب عن إدراك النصوص القرآنية: (إنما تُدرك أولاً وقبل كل شيء بالحياة في جوّها التاريخي الحركي، وفي واقعيتها الإيجابية، وتعاملها مع الواقع الحي... إنما هي استعداد النفس برصيد المشاعر والمُذركات والتجارب تشابه المشاعر والمُذركات والتجارب التي صاحبت نزوله، وصاحبت حياة الجماعة وهي تتلقاه في خِصَم المعترك... معترك الجهاد، جهاد النفس وجهاد الناس... جو مكة... جو المدينة... جو (بدر) و(الخندي) و(الحديبية)... في هذا الجو الذي تنزلت فيه آيات القرآن حية نابضة واقعية... كان للكلمات وللعبارات دلالاتها

وإحياءاتها... وفي مثل هذا الجو الذي يصاحب محاولة استئناف الحياة الإسلامية من جديد، يفتح القرآن كنوزه للقلوب، ويمنح أسرارها، ويُسِّع عطرها، ويكون فيه هدى ونور) (انظر: خصائص التصور الإسلامي، ص ٧ و ٨) وأين نحن من ذلك؟

لما عرضت جهد أخي الشيخ مجد على هذا المعيار، وجدته قد أفلح في تحقيق الكثير مما ألزم نفسه به، لكنه بالقياس إلى معيار سيد قطب - كما أجد نفسي - بحاجة إلى مزيد من الجهد والصقل والعيش في (جو القرآن). إنَّ صاحب تفسير (المعين)، الذي أدمن الدراسة في كتب التراث، ولا سيما كتب الفقه، من متون وشروح، وشروح الشروح والمختصرات، انطبع أسلوبه بأسلوب كُتَّابها، والمعلوم أن أسلوب العلماء أولئك، وشعر العلماء دون الأساليب الرفيعة حين تفتقد الماء والرونق، نستثني منهم أسلوب الإمام الشافعي، والغزالي، وابن خلدون، وابن تيمية، وابن القيم، وابن الجوزي، وأمثالهم.

وحدة الآية وعلاقتها بما قبلها وما بعدها:

وبالمناسبة أوصي نفسي والمعنيين بدراسة القرآن الكريم وتفسيره بالتفطن إلى (معادلة) دقيقة تجمع بين وحدة الآية أو استقلالها من جهة، وبين علاقتها بما قبلها أو بعدها من الآيات من جهة ثانية، علاقة استكمال أو تكامل أو تقابل أو تعليق أو ختام.

دلالة التعقيب في آخر الآية:

فتفسير الآية يحتاج أولاً إلى إدراك العلاقة الواشجة بين أجزائها، ولا سيما علاقة كلمة الفاصلة التي هي ركن مهم فيها، وقد كشف العلماء عن أربعة أنواع من هذه العلاقة: (التمكين - الإيغال - التصدير - التوشيح)، ومثل ذلك: علاقة التعليق أو التعقيب في آخر الآية.

نضرب على ذلك مثلاً من سورة الروم، حيث يتردّد تعقيب في ختام الآيات (٢١ - ٢٤) بصيغة واحدة مع تباين في كلمات الفاصلة:

﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١)، ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢)، ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٣).

هذا التباين في كلمات الفاصلة (يتفكرون - للعالمين - يسمعون - يعقلون) ذو صلة بمضمون الآية أو بالقرينة التي تشغل الشطر الأول من الآية، ويشغل التعليق الشطر الثاني منها؟ فالله تعالى خلق الأزواج والأنفس، وجعل المودة والرحمة بينهم ممّا يدعو إلى تفكر المتفكرين، لما في ذلك من آيات عميقة لا يدركها إلا أصحاب العقول والألباب، أما تنوع الألسن واللغات وسمات الوجوه والأقوام والجماعات (البيض - السمر - الحمر - الصفر - السود) فيستدعي علم العالمين. ومن كرم الله وفضله الدال على قدرته: معجزة إنزال الماء من السماء، من خلال البرق والرعد المخيف المطمع في وقت واحد، الباعث للحياة في الأرض الموات، يروي البشر والشجر والدواب، وفي ذلك ما فيه من علامات وإشارات لأصحاب العقول الراجحة للاهتمام إليه سبحانه وإلى عظيم قدرته وخلقه. وأخيراً إن نظام النوم في الليل للراحة واليقظة في النهار للعمل في طلب الرزق... يدعو أصحاب العقول للتأمل والتفطن إلى الأسرار والنعم التي تترتب على هذا النظام.

وهكذا جمعت التعليقات الأربعة بين التناظر في الصيغة والتباين في الدلالة، مع ارتباط كل منها بآيتها ارتباطاً وثيقاً. وهذه بعض ملامح الجمال والإعجاز^(١).

الاهتمام بأسلوب الالتفات في القرآن:

مما نوصي به المعنيين: الاهتمام بأسلوب الالتفات في القرآن الذي هو التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: (التكلم والخطاب والغيبة) مع أن الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أولاً دون التحول عنها.

(١) وقد أظهرت في تفسيري «المعين» دلالة التعقيب في آخر هذه الآيات التي أشار إليها الأستاذ الحسناوي رحمه الله تعالى، وفي سائر التفسير بفضل الله وعونه.

وهو فن من فنون القول يلقَّب بشجاعة العربية، وأحد نواحي الإعجاز في حيويته وروعة تنقله وفي تأثيره في الإعراض والإقبال أو المفاجأة أو الاستحضار، كما هو أحد الأساليب التي تدرج تحت مسمى الخروج عن الظاهر، لغرض فني أو ديني أو للأمرين معاً، وما أكثر ذلك وما أروع!!

جوانب التوفيق في تفسير (المعين):

أما جوانب التوفيق في هذا السُّفر الجليل فكثيرة، نُمثِّل لها بالوحدات التي يستنبطها المؤلف من سياق الآيات، بإبرازها متسلسلة رقمياً، مما (يعين) على تدبرها، ثم العمل بها بعد التدبر. ففي سورة (الإسراء) يستنبط ثلاث وظائف كبرى للقرآن الكريم:

(الوظيفة الأولى: يدلُّ ويرشد إلى الطريقة التي هي الأقرب إلى الاعتدال الكامل في كلِّ سلوك بشريّ.

والوظيفة الثانية: يُبشِّر القرآن المؤمنين إيماناً صحيحاً صادقاً، الذين يعملون الصالحات، بأنَّ لهم أجراً كبيراً ينالونه في الجنة.

والوظيفة الثالثة: ينذر الذين لا يؤمنون بالآخرة بأننا هيئنا لهم عذاباً مؤلماً في النار).

كما يستنبط ثلاث عشرة وصية تكليفية، بقضاء مُبرَم، مُوجَّهة إلى رسول الله ﷺ ولكلِّ فرد من أمته، أولها: (لا تعبدوا إلا الله)، وآخرها: (اجتناب مشية البطر والتكبر والخيلاء في الأرض). ومثل ذلك استنباطه عدد الخوارق الستة، التي طالب بها مشركو قريش لينقادوا للإيمان بالرسول محمد ﷺ، وهي من باب التعنت والتعجيز.

أهنئ أخي الشيخ مَجْد مكي على إنجازه هذا السفر النافع، وعلى رحابة صدره في تقبُّل النقد والسعي الدائب للصقل والتجويد، وأسأل المولى تعالى أن يتقبَّل عمله، وأن يجزيه خير ما يجزي به العاملين في خدمة كتابه

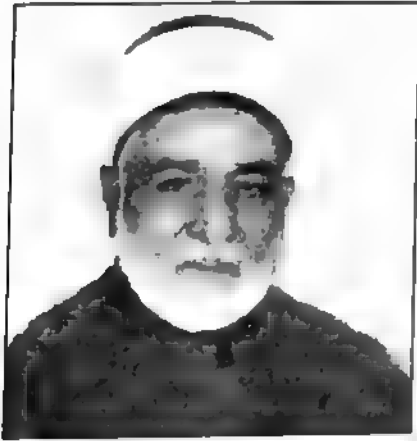
العظيم، إنه نعم السميع ونعم المجيب. والحمد لله رب العالمين^(١). انتهى.

مرضه ووفاته:

استمرَّ الأستاذ الحسناوي على عطائه رغم معاناته من الفشل الكلوي الذي نزل به منذ ثلاث سنوات، وكان آخر لقاء معه في زيارته لمكة المكرمة في شهر رمضان الفائت ١٤٢٧هـ. ونقدّم العزاء بوفاته لأسرته الكريمة، ولجميع إخوانه ومحبيه وتلاميذه، ونسأل الله عزَّ وجلَّ أن يُعوِّض المسلمين خيراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) عرضتُ أكثر ما جاء في رسالته، وأعرضتُ عن بعض، وقد أجبتُه برسالة تفصيلية، وناقشته عن بعض الاعتراضات التي ذكرها رحمه الله تعالى، ولعلِّي أنشر الرسالتين المتبادلتين في مناسبة أخرى، بعون الله عزَّ وجلَّ.



بقلم: مَجْد مكي

ولادته:

ولد فضيلة الشيخ صادق ابن مرزوق بن عرابي بن غنيم حبنكة الميداني حوالي سنة ١٣٣٨ هـ، ١٩١٨ م، في حي الميدان، وهو من أحياء دمشق العريقة، وهو حي معروف ببطولات رجاله وسخائهم ونخوتهم، ومحافظتهم على العادات العربية الكريمة.

ووالدته: خديجة المصري امرأة سالحة من قرية الكسوة جنوب دمشق، وقد توفيت سنة ١٣٥١ بعد عودتها من الحج.

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٧/١١/٦ م، في موقع: (الإسلام في سورية)

زواجه ونشأته:

وقد تزوّج قريبة له فلم تنجب له، ثم مرضت وتوفيت، وظلّ وفياً لها ومحافظةً على ذكراها عدة سنين، ثم رأت شقيقته رهرية في الرؤيا تطلب منها تزويجه، فتزوّج أخرى من بيت الخطيب في حي الميدان، فأنجب منها ذكوراً وإناثاً، وقد اشتغل طوال عمره في التعلم والتعليم مع ممارسة بعض أعمال الكسب.

وهو شقيق الشيخ حسن حبنكة الميداني، وقد درس على أخيه العلوم العربية والإسلامية، وكان عضده ووزيره في مؤسساته التي أنشأها والمعلم الأول في مدرسته الشرعية.

صفاته ومواهبه:

وعُرف ببرّه وإخلاصه، وحكمته ورشدّه وحُسن رأيه وتدبيره، وقد أسند إليه الشيخ حسن إدارة معهد التوجيه الإسلامي لثقته بحصافة عقله وحسن إدارته.

وقد أعطاه الله موهبة شعرية وأدبية رفيعة، ولكنه لم يستغلها في إنتاج كبير، لانشغاله لإدارة مشروع المدرسة، والعلم والتعليم، وبعض أعمال الكسب، للإنفاق على أسرته.

نماذج من أدبه:

كتب رسالة جوابية إلى ابن أخيه العالم المفسر الشيخ: عبدالرحمن حبنكة الميداني يقول فيها:

«سبق الشوق كتابي فأتاني بالجواب
فجلا عني غيوماً ساقها طول الغياب»

وكتب إليه أيضاً:

صبرت عن اللقاء فكنت جليداً وما أرسلت - معترفاً - كتابا
ولما استنفدت طاقات صبري بعثت إليك ألتمس الجوابا

دراسته ومطالعاته ودروسه:

اهتم في دراسته ومطالعاته باللغة العربية والتخصص في فنونها وإتقانها. فكان في حلقات شقيقه الشيخ حسن المرجع اللغوي ضبطاً وفهماً، وله أيضاً بصيرة دقيقة في النحو والإعراب، وشرح كبريات كتب العلم، وفهم عويص عبارات المتون والشروح، وله فهم دقيق في العلوم العقلية، مع ما وهبه الله تعالى من ذكاء لمّاح ونكتة حاضرة مبتكرة ذكية، تثير ضحك الحزين.

وله - رحمه الله تعالى - خطب ودروس رصينة المضامين الفكرية، يعتمد فيها على التحليل والمنطق العقلي المقنع، والروابط الفكرية الطبيعية المنطقية، ويبرز في آدائه الضبط اللغوي، واستعمال المفردات اللغوية الدقيقة في دلالتها على المعاني المرادة.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى بعد فجر يوم الثلاثاء ٢٦ شوال ١٤٢٨هـ، الموافق ٢٠٠٧/١١/٦م، وصلي عليه بعد صلاة الظهر في جامع الشيخ حسن، ودفن في مقبرة الجورة في حي الميدان^(١).



(١) المرجع: كتاب الشيخ: حسن حبنكة الميداني، قصة عالم مجاهد، بقلم ولده: عبدالرحمن حبنكة الميداني.



الشيخ أحمد قلاش
عالم عامل فقيه نحوي^(١)
(١٣٢٨ - ١٤٢٩ هـ) (١٩١٠ - ٢٠٠٩ م)



إعداد تلميذه: مجد مكي

هو العالم العامل، الفقيه، النحوي، الداعية
المُرَبِّي المَعْمَر الشيخ أحمد بن عبدالقادر قلاش
الشافعي الحلبي.

ولادته ونشأته:

ولد ونشأ في كنف أسرة محافظة تُحِبُّ العلم وتحترم العلماء، فوالد
صاحب الترجمة رجل متواضع كان يعمل نَسَاجاً على النول العربي، ووالدته
سيدة فاضلة من آل قبر المشهورة نسبتهم إلى السيد عبدالقادر الجيلاني.

وتعلم القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره على يد الشيخ مصطفى
عاشور، في مكتب جامع (علم الشرق) في حي (المشاطية)، ثم انتقل إلى
المدرسة الابتدائية، ودرس بعض صفوفها، وفي هذه المرحلة تنبه والده إلى

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٨/٧/١٢ م، في موقع: (الإسلام في سورية)

فطنة ولده وذكائه، فقرر إرساله إلى المدارس الشرعية ليطلب العلم الشرعي.

تلقّيه العلوم الشرعية:

وبدأ يتلقّى العلوم الشرعية والعربية في المدرسة العثمانية، على يد شيخه الشيخ محمد الناشد (ت ١٣٦٥). وحفظ ألفية ابن مالك وعمره ١٣ سنة بالإضافة إلى بعض المنظومات الأخرى.

ثم انتقل إلى المدرسة الشعبانية، وتابع فيها تلقّي العلم على يد شيوخه الشيخ طاهر الكيالي، والشيخ أحمد التيجي، والشيخ إبراهيم الدرغزاني، وحفظ في هذه المرحلة الكثير من المتون، والقصائد الطويلة، ثم عاد إلى المدرسة العثمانية، ليلتقي فيها شيخه الشيخ محمد الحنيفي (ت ١٣٤٢)، ويأخذ عنه علم التوحيد، وقد قرأ عليه متن الباجوري، ثم أعاد قراءة النحو مرة ثانية على شيخه الشيخ محمد الناشد، قرأ عليه في النحو: شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك، وفي البلاغة: «التلخيص للقزويني». والفقه الشافعي على شيخه الشيخ محمد سعيد الإدلبي (ت ١٣٧٠). وقرأ عليه متن التحرير في الفقه الشافعي.

ثم تحوّل إلى المدرسة الإسماعيلية، وبدأ فيها حفظ القرآن الكريم، فحفظ ثمانية أجزاء، ثم انتسب إلى المدرسة الخسروية (الثانوية الشرعية) فأخذ الحديث النبوي الشريف والسيرة العطرة وتاريخ الإسلام على يد شيخه محدث حلب ومؤرخها الشيخ محمد راغب الطباخ (ت ١٣٧٠). ودرس عليه في الحديث: مختصر الزبيدي للبخاري، مع شرح الشرقاوي عليه، ومقدمة ابن الصلاح، وفي التاريخ: نور اليقين، وإتمام الوفاء. ودرس الفقه الشافعي على شيخه الشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ عمر الماريتيني، حيث قرأ عليه كتاب: (الإقناع في شرح متن أبي شجاع). للشربيني، كما درس على العالم الأصولي المدقق الشيخ محمد أسعد العبجي (ت ١٣٩٣)، وقرأ عليه: «غاية الوصول شرح لب الأصول».

وأخذ علوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها، على شيخه الشيخ أحمد الكردي مفتي حلب (ت ١٣٧٣).

وأخذ علم الفرائض على شيخه الشيخ عبدالله المعطي (ت ١٣٥٣)، وعلم المنطق والتوحيد على شيخه الشيخ فيض الله الكردي.

هذا بالإضافة إلى ما حصل المترحم له من العلوم الكونية كالحساب والجغرافية والعلوم الطبيعية وغيرها.

حصوله على الدرجة الأولى في المدرسة الخسروية:

وفي عام ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩م تخرج الشيخ في المدرسة الخسروية حائزاً على الدرجة الأولى بمرتبة نابغ ممتاز تخرج مع الشيخ في القافلة الرابعة من خريجي الثانوية الشرعية، كل من المشايخ الآتية أسماؤهم حسب ترتيب نجاحهم: أحمد قلاش، برهان الدين الداغستاني، محمد الناصر، سعيد المسعود، محمد سلقيني، مصطفى مزارب، محمد خليلو التادفي، مصطفى المارعي، همام النعساني، عبدالرحمن حوت، عبدالله الأسود، محمد نور البلاط، عبدالله سلطان، عمر محو، حسن الحموي.

وقد التقى في هذه المرحلة الشيخ محمد أبا النصر خلف الحمصي (ت ١٣٦٨)، وصحبه وأخذ عنه الطريقة النقشبندية، ورافقه في بعض جولاته على المدن والقرى.

في ميادين العمل والدعوة والتربية:

ثم انطلق إلى ميادين العمل والتربية، والدعوة إلى الله، ونشر العلم، فعمل إماماً وخطيباً في عدد من مساجد حلب، وأنشأ بالاشتراك مع أخيه الشيخ بكري رجب (ت ١٣٩٩)، مكتباً لتعليم الطلاب القرآن الكريم، ما لبث هذا المكتب أن غدا مدرسة علمية مباركة، أطلق عليها الشيخ اسم: المدرسة الرضائية، وقد شاركهم في التعليم فيها الشيخ محمد أديب حسون (ت ١٤٢٩).

وقام بالتدريس في المدرسة الشعبانية في سنة (١٩٤٩) إلى سنة (١٩٥٩)، في الفترة التي كانت المدرسة تابعة للأوقاف، ودرس في تلك الفترة الفقه وأحكام البيع على المذهب الشافعي.

وعندما جدد افتتاح المدرسة الشعبانية بإشراف العلامة الشيخ عبدالله سراج الدين، انتدب الشيخ أحمد ليدرس فيها علوم اللغة العربية، نحوها وصرفها وبلاغتها. واستمر في التدريس فيها أكثر من ثلاثين عاماً.

كما كانت له جولات على القرى المحيطة بحلب كل يوم اثنين بصحبة بعض إخوانه من العلماء يجمعون أهل القرية في المسجد، فيعظونهم، ويعلمونهم أمر دينهم ودنياهم، وكان يشاركه في هذه الجولات صديقه الشيخ بكري رجب، والشيخ مصطفى مزراب، والشيخ محمد الغشيم (ت ١٣٩٨)، والشيخ عادل حمصي، والشيخ عبدالمجيد قطان، وغيرهم.

وربما قصد بعض المقاهي في مدينة حلب ووقف بمكان الحكواتي ليعظ الناس ويعلمهم، وقد تعرض لكثير من المضايقات حتى منع.

وكانت له دروس في اللغة العربية والفقه الشافعي والتفسير في المدرسة الخسروية، وكان ينتقل بين هذه المدارس، يلقي دروسه هنا وهناك، دون كلل أو ملل، إذ كان يجد متعته في نشر العلم، وإفادة الطلاب، وقد تخرج على يديه عدد كبير من طلاب العلم خلال أكثر من سبعين سنة أمضاها في نشر العلم، والدعوة إلى الله.

هجرته إلى المدينة المنورة:

وفي عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨١م، أثر الشيخ مجاورة النبي عليه الصلاة والسلام، فهاجر إلى المدينة المنورة، وعمل أستاذاً في الجامعة الإسلامية فيها، أكثر من سنتين، واختير خلالها عضواً في مجلس البحث العلمي في الجامعة المذكورة، وعندما أحيل إلى التقاعد نظراً لكبر سنّه، أثر البقاء في المدينة المنورة للمجاورة والعبادة.

وكان إذا حضر إلى مدينة حلب، أسرع إليه طلابه، فله معهم في كل يوم مجالس علم، يقرأ لهم فيها الحديث النبوي الشريف، والنحو في جامع (قسطل الحرمي)، وجامع (قنبر) وجامع (سكر) في حي الكلاسة.

حبه للمطالعة:

كان الشيخ - رحمه الله تعالى - محباً للمطالعة، شغوفاً بقراءة الكتب،

يمضي الساعات الطويلة في القراءة الواعية، واضعاً ملاحظاته وحواشيه وآراءه وتعليقاته على حواشي الكتب التي يقرأها. وقد وقف مكتبته النادرة على ثانوية إعزاز الشرعية، ويقوم بعض الأساتذة بتصوير تعليقاته على حواشي الكتب التي قرأها.

وتميّز - رحمه الله تعالى - بتدقيقه النادر في فهم العبارات والوقوف عندها وربطها ببعضها فلا تمر عبارة إلا يقف عندها، ويكشف غطاءها، ويفتح مقفلها ويوضح معناها. وقلما يمرُّ عليه كتاب من القدامى أو غيرهم - مع كثرة مطالعته - إلا وله عليه انتقادات لطيفة، وملاحظات مفيدة. وقد استفاد هذا المنهج النقدي الدقيق من أستاذه العلامة الشيخ محمد سعيد الإدلبي.

أسلوبه في التعليم:

وهو صاحب أسلوب مميّز في التعليم، يقف بطلابه عند كل عبارة يدقق في ألفاظها ومعانيها، وما ترمي إليه، يوضح ذلك بذوقه العلمي الرفيع وأسلوبه النقدي المتّزن البعيد عن التعالي، أو النيل من غيره، إذ الهدف عنده هو الوصول إلى الحقيقة العلمية، فحيثما وجدها التقطها، وهو لا يجد حرجاً إن راجعه أحد في مسألة علمية، وبأن له صواب رأيه، أخذ به مباشرة ووضح ذلك لطلابه، مع تقديم الشكر لمن راجعه والثناء عليه.

كما امتاز بمقدرة فائقة على تقريب المعاني وتيسير العلم، بحيث يدخله إلى عقل الطالب من غير مانع أو حاجب، مع استعماله لوسائل التعليم وحسن التمثيل وجمال العرض.

وكان كثير التشجيع لطلابه - ولا سيما الصغار منهم - يرفع همهم ويحضهم على الاستزادة من العلم ويثني على الطالب الذكي منهم، ويبدل المكافآت المادية لهم.

كتبه ورسائله:

ولقد رأى الشيخ من تأليف الرسائل التوجيهية، والقصص التربوية

والكتب العلمية، طريقاً آخر لنشر العلم، والدعوة إلى الله، فكان له جملة من الرسائل والكتب، نذكر منها:

أ - الكتب العلمية:

- ١ - تيسير البلاغة. أبرز فيه البلاغة في ثوب جديد يناسب هذا العصر.
- ٢ - أحكام البيع على المذهب الشافعي، مع الأدلة والعبارة الواضحة.
- ٣ - من كنوز الإسلام.
- ٤ - من ذخائر الإسلام.
- ٥ - من بدائع الحكم.
- ٦ - في ظلال الجنة.
- ٧ - تفسير جزء عم.

ب - الرسائل التوجيهية:

- ١ - كيف تكون مسلماً؟
- ٢ - الصلاة الخاشعة.
- ٣ - صوموا تصحوا.
- ٤ - كيف تحج؟
- ٥ - أنفع الدروس في تهذيب النفوس.
- ٦ - سلم الأطفال لبلوغ الكمال.
- ٧ - أزهار في تربية الصغار.
- ٨ - عجائب من الأخلاق الإسلامية.
- ٩ - محمد رسول الجهاد.
- ١٠ - حي على الجهاد.
- ١١ - طريق النصر.

ج - القصص التربوية للأطفال والكبار:

- ١ - القصص النبوي الصحيح.
- ٢ - معجزة الإسراء والمعراج.
- ٣ - أنبياء العرب.
- ٤ - عيسى ابن مريم.
- ٥ - يوسف الصديق.
- ٦ - نوح عليه السلام.
- ٧ - جنة آدم.

كما قام بتصحيح بعض الكتب والإشراف على طباعتها، ومنها: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»، «للعجلوني»، وكتاب: «إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء» لمحمد الخصري. كما ضبط «متن البناء» و«متن المقصود» في علم الصرف.

وكان بعض الأدباء والشعراء يعرضون نتائجهم عليه قبل طبعه وإخراجه، ليقوم بتصحيحه، وإبداء ملاحظاته عليه.

أخلاقه وصفاته:

كان الشيخ - رحمه الله تعالى - عظيم النفس، عالي الهمة، ذكياً لمّاحاً، رفيع الأخلاق، يتواضع لمن يعلمه، أو يتعلم منه، محباً لطلابه، رؤوفاً بهم.

وقد أوتي مع ذلك روحاً مرحة، وظلاً خفيفاً، ودعابة مُحِبَّة، ونكتة حاضرة، ويظهر أثر ذلك كله في دروسه، فلا ترى فيها أثراً للسامة أو الملل مهما طالت.

صفاته الخلقية:



أسمر اللون، منور الوجه والشيبة، ضعيف الجسم، اضطربت خطاه لما كبر في السن، وقد أدركه طلابه شاباً قوي الجسم يسير وكأنه ينحط من جبل، وينتقل بين المدارس والصفوف بهمة ونشاط، مرتدياً جبته الطويلة، مزيناً رأسه بعمامة بيضاء فوق (طربوش أحمر).

مرضه ووفاته:

وما زال الشيخ مقيماً في المدينة المنورة، مجاوراً الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام، مُستمراً على عطائه العلمي، حتى كُسر حوضه، ولزم الفراش، وكان يتردّد عليه طلاب العلم، وهو حاضر البديهة، ولا يخلو مجلسه - حتى في أيام مرضه - من الفوائد العلمية، والنكات اللغوية، ويتعرف على زائريه، ويطلب القراءة عليه في كتاب من كتب العلم، حتى اشتدّ به المرض قبيل وفاته بشهر. وتوفي عصر يوم السبت ١٠ رجب ١٤٢٩، وصُلّي عليه في المسجد النبوي بعد صلاة فجر يوم الأحد ١١ رجب ١٤٢٩، وووري في البقيع بجوار الرسول ﷺ، وصحابه الأكرمين والعلماء العاملين والشهداء والصالحين، وانطوت بموته صفحة من صفحات العلم الناصع، وتاريخه العبق الشذي، نسأل الله سبحانه أن يتغمّد فقيد العلم بواسع رحمته وسوابغ إحسانه، وأن يخلف على المسلمين خيراً، وأن يعوّضهم عن فقد علمائهم وصلاحائهم إنه أكرم مسؤول وخير مأمول^(١).

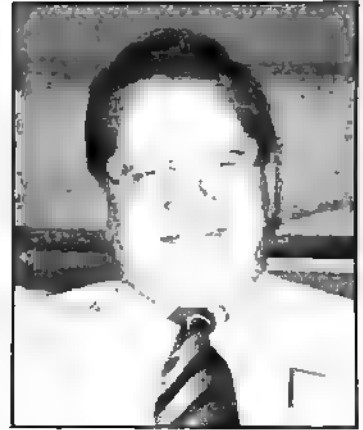
(١) المصادر: علماء من حلب في القرن الرابع عشر للأستاذ: محمد عدنان كاتب.

ومقدمة تيسير البلاغة للأستاذ صفوان داودي.



العالم البَحَّاثَةُ الداعية المفكّر هاني الطايح^(١)

(١٣٥٥ - ١٤٣٠هـ) (١٩٣٦ - ٢٠٠٩م)



بقلم: مَجد مكي

انتقل إلى رحمة الله تعالى في صباح يوم الثلاثاء ١٧/١/١٤٣٠ الأخ الكريم الداعية المُربّي الأستاذ هاني الطايح (أبو ربيع)، وهو من خيرة من عرفت من الدعاة الأوفياء والمفكرين الأدباء.

لمحات من حياته:

والأستاذ أبو ربيع من مواليد اللاذقية ١٩ تموز ١٩٣٦م، درس اللغة العربية في جامعة دمشق، وتلمذ على كبار العلماء فيها وتعرف على الدكتور مصطفى السباعي، وأصبح من أقرب تلاميذه إليه، وكان له دور في إدارة مجلة «حضارة الإسلام». انتقل في أواخر الستينات الميلادية إلى دولة قطر فكان أحد رجالاتها المساهمين في نهضتها التعليمية من خلال اشتراكه في وضع المناهج الدراسية.

(١) نشرت بتاريخ ١٨/١/٢٠٠٩م، في موقع: (الإسلام في سورية)

صلتي به:

وتعود صلتي به منذ أكثر من عشر سنوات في أول لقاء لي به في منزل الدكتور عبداللطيف الهاشمي، وكان حديثه عن ذكرياته بأستاذه السباعي - رحمه الله تعالى - .

وأعجبت بوفرة المعلومات، ودقة التحليل، وروعة الأسلوب... وأسّرني بحسن إلقاءه وجميل مودته وكريم صلته.

لقاءات في جدة وشدة حبه للكتب:

وتتابعت لقاءاتي به في زياراته المستمرة لجدة، وتوثقت صلتي به، وكان دائم السؤال لكل جديد في عالم الكتب، ولا أعرف مثيلاً له في حبه للكتاب، وحرصه على اقتنائه ومطالعة، ومتابعته المستمرة للثقافة بكل أفنانها ومختلف ألوانها.

إقامته في قطر وصلاته العلمية والدعوية:

أقام في قطر منذ أكثر من خمسة وأربعين سنة، وتربطه صلات وثيقة مع كبار الدعاة في العالم الإسلامي، فهو من خواص أصحاب الأستاذ السباعي، وقد أمد الدكتور عدنان زرزور، بأضابير مهمة عند قيامه بكتابته الواسعة عن الشيخ السباعي، وذكره في مقدمة كتابه عن الأستاذ السباعي، وأثنى على جهده وما بذله له من معلومات ووثائق.

وللأستاذ - رحمه الله تعالى - صلات وثيقة مع الأستاذ الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، والشاعر عمر بهاء الأميري رحمهما الله تعالى، والدكتور الشيخ يوسف القرضاوي، والأستاذ المربي الداعية الفاضل عادل كنعان، والشيخ العالم الداعية مصطفى الصيرفي، وعشرات من كبار العلماء الأثبات والدعاة الثقات، وذكريات عطرة عنهم، تأسر المستمع إليه فلا يكاد يمل من حديثه وفوائده.

زيارتي له في بيته بقطر:

وزرته منذ أكثر من عام في بيته العامر في (الدوحة) عند حضوري لمؤتمر شيخنا القرضاوي في ٦/٢٩ - ١٤٢٨/٧/٢ هـ، الموافق ١٤ - ٢٠٠٧/٧/١٦ م، وذهشت من مكتبته الواسعة التي تكتظُّ بها جدران بيته الواسع... ولديه ملفات ضخمة تتضمن الكثير من مشاريعه العلمية والتربوية والدعوية واللغوية.

آخر لقاء:

وكان آخر لقاء لي به في شعبان من السنة الفاتئة ١٤٢٩، إذ حضر لشهود عقد ابنة ابنته وصهره الأخ الكريم الأستاذ مصطفى صباغ، وألقى كلمة رائعة جميلة، وتكررت زيارتنا له مع إخواننا الذين يتصل بهم، حيث كان يجد أنسه وسعادته مع أصفياه وأصدقائه في جدة من أمثال: الأخ الدكتور عبداللطيف هاشمي، والأخ الشاعر سليم عبدالقادر، والأخ الأديب عبدالله زنجير، والأخ الإعلامي الأستاذ سداد عقاد... واجتمعنا في أمسية شعرية رائعة في بيت الأخ المفضل الكريم الأستاذ وليد الزعيم، وحضرها مجموعة من الشعراء منهم: الأستاذ أحمد البراء الأميري، والدكتور محمد نجيب مراد، والدكتور محمد وليد، والأستاذ سليم عبدالقادر، شارك فيها بتعليقاته الرائعة ونقدهاته الأدبية العميقة.

كنوز علمية وأدبية:

ألحَّ الإخوة عليه بتسجيل ذكرياته، وتدوين تاريخ الدعوة، وإخراج ما لديه من كنوز علمية، وكان يعد... ولكن لم يخرج شيئاً من تلك الآثار المكنوزة في صدره ومكتبته... ولعل الله يُقيِّض من أبنائه؛ الأخوين الكريمين: ربيع ومرهف، أو من إخوانه: صبحي^(١) وعثمان، أو من أصهاره من يحقق هذا الأمل المُرتجى، ويستفيد من مكتبته الضخمة، وأرشيفه

(١) توفي رحمه الله تعالى في ١٩ رمضان سنة ١٤٣٠، إثر جلطة دماغية مفاجئة، ودفن في جدة.

الواسع، نسأل الله سبحانه أن يتغمّد الفقيد الكريم بواسع رحمته، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

كلمة الدكتور القرضاوي في رثائه:

وقد صلى عليه فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي، وعقب مواراة جثمانه الطاهر ألقى كلمة عدّد فيها مناقبه قال فيها:

«علمتُ اليوم بالخبر، وكنت أتمنى أن أعوده، فقد كان بالمستشفى، لكنني لم أكن أعلم، وقد جئت مؤخراً من سفر... إنَّ من حقِّ المسلم على المسلم أن يعودّه إذا مرض، فما بالك إذا كان هذا صديقاً عزيزاً وأخاً حبيباً؟ عرفناه سنين طويلة مؤدياً لواجبه نحو أسرته، ونحو عمله، ونحو إخوانه، ونحو دينه ورسالته، لم يفرط في شيء... وتابع قائلاً:

كان أبو ربيع أحد الرجال الذين يتميّزون بالعقل والفكر والقراءة والثقافة، فقد كان يقرأ كثيراً ويطالع كثيراً، وكنت أقول له: أود أن تكتب، وأحسبه كتب ولم ينشر، وأنصح أبناءه بأن يكلفوا بعض الشباب للبحث في مكتبته ونشره...

وذكر أنه كثيراً ما كان يستعير كتباً من مكتبة أبو ربيع، مشيراً إلى أنه:

كان رجلاً مثقفاً، بل من خيار المثقفين، فالثقافة وحدها لا تغني، فكم من مثقفين باعوا ضمائرهم وأقلامهم، أما أبو ربيع فقد كان مثقفاً ملتزماً وصاحب رسالة في هذه الدنيا يعيش بها ويموت بها، ويضحّي من أجلها، وهي رسالة الإسلام... وكان طاهر السريرة حسن السيرة، وقد أحبه كل من عرفه، فإذا ازداد معرفة به ازداد حباً له، وهذا دليل من دلائل حب الله... «السنة الخلق أقلام الحق».

واختتم القرضاوي كلمته بقوله: «لقد اختطف الموت منا رجلاً، والرجال قليل في هذا الوقت، الذي تُعاني فيه الأمة ما تعاني من حرب وحشية على غزاة المرابطة المجاهدة، ودعا للمجاهدين دعاءً مؤثراً».

رثاء الأخ الشاعر الأستاذ سليم زنجير:

وكتب الأخ الشاعر الأستاذ سليم عبدالقادر كلمة رقيقة في رثائه قال فيها:

«رقت الروح عائدةً إلى بارئها... لقد انتهت الرحلة... ورحل الأستاذ الأديب المفكر المربي الداعية هاني محمد طابع من دار الفناء إلى عالم الخلود...»

رحل الأستاذ هاني (أبو ربيع) غريب الديار، وكان دائم الحنين إلى مراتع الصبا في اللاذقية، ولكنه حنين الكريم الأبّي المؤمن، الذي يأبى أن يحني رأسه لغير ربه... رحل موفور الكرامة راضياً بقضاء ربه، فخره أهل الأرض وربحه أهل السماء... وكأن أبا تمام كان يعنيه بقوله:

مضى طاهر الأنفاس، لم تَبَقْ روضة غداة ثوى إلا اشتهد أنها قبر
رحمك الله يا أبا ربيع، وأعلى مقامك في الخالدين» اهـ.

كتبه مجد مكي

قبيل ظهر الثلاثاء

١٧/١/١٤٣٠هـ





وداعاً... أبا ربيع^(١)

بقلم: د. عدنان زرزور

ألخ عليّ وأنا أقرأ اليوم خبر نعيك بعين دامعة: ما قاله شوقي في رثاء حافظ إبراهيم:

قد كنتُ أؤثر أن تقولَ رثائي

وما كان يقوله أول ملوك الإسلام معاوية رضي الله عنه إذا نعي إليه أحد أقرانه: (أنا والله من زرع قد استحصد)، أي: حان وقت حصاده!

من صفات أبي ربيع:

يا أبا ربيع، عرفتكَ في ربيع العمر ونحن لم نتجاوز الخامسة والعشرين، وصحبتك حتى بلغنا خريف العمر، فما عرفتكَ والله إلا أخاً صادقاً ودوداً، صاحب حماسة متّقدة في الدعوة إلى الله، والدفاع عن الإسلام والمسلمين، وصاحب عاطفة جيّاشة تفيض بالأنس كما تفيض بالدمع، وصاحب قلم أديب بليغ، تهزّه البلاغة والبيان، ويخشع لإعجاز القرآن...

(١) نشرت بتاريخ ٢١/١/٢٠٠٩م، في موقع: (الإسلام في سورية)

أثره في مناهج اللغة والأدب:

ولسوف يذكر لك الإخوة في قطر وفي أصقاع العروبة والإسلام، ما تركته من أثر لا يمحي في مناهج اللغة والأدب وغيرها في مراحل التعليم الأساسي، ولقد قلت ذات يوم وأنا أطلع كتب النحو والأدب التي وضعت مناهجها وشاركت في تأليفها: لو كان الأمر بيدي لعمّمت هذه الكتب والمناهج في سائر بلدان الوطن العربي والعالم الإسلامي، ولو تمّ هذا، مع سائر المناهج القطرية في ذلك الحين، وبخاصّة كتب ومناهج التاريخ، إذن لكان الجيل الذي خرج على الحياة العامة أحسن حالاً من هذا الذي نراه اليوم بكثير...

إدارته تحرير جريدة (اللواء) الدمشقية:

ذكريات ربيع العمر التي مضى عليها خمسة وأربعون عاماً أو تزيد، لا تمحي أبرد الدهر، يوم عرفتكم في جريدة (اللواء) الدمشقية، مديراً للتحرير، وكنت أتردّد على الجريدة، بحكم إشرافي على صفحة الجامعة، ولبعض المراجعات، وكنا نبقي حتى ساعة متأخرة من الليل، وفي كثير من الأحيان كنا نغادر الجريدة مع أذان الفجر، وقد طلبت مني وزينت لي في إحدى الأمسيات أن أقوم بكتابة افتتاحية الجريدة، نظراً لسفر رئيس التحرير، ففعلت، وقد حملت هذه الافتتاحية - الأولى - عنوان (الإسلام أولاً). وكانت الرؤية الفكرية أو العقائدية تبرز في كل المقالات السياسيّة في ذلك الحين بحكم توجّهات تلك المرحلة من تاريخ العرب والمسلمين الحديث. أو على الأقل: لم تكن هذه الرؤية بعيدة عن المقالات والتحليلات السياسيّة؛ وأدركت في تلك الأمسية مدى عنايتكم بالكتب ومواكبكم المبكرة لحركة التأليف حين قلت لي بعد أن قرأت تلك الافتتاحية المطوّلة: كأنك ترد على ساطع الحصري في كتابه (العروبة أولاً) فقلت لك: إنه لا علم لي بهذا الكتاب، وكنت لم أقرأ للحصري غير كتابيه: (ما هي القومية)، و(محاضرات في نشوء الفكرة القومية).

ثم توالى الكتابات أو (الافتتاحيات)، وكنت أدع لك في الغالب أن

تضع أو تقترح عناوينها، وأذكر من تلك العناوين الآن، هذا العنوان: (دور الأنظمة المتهاكمة في الغزو العقائدي)، وقد أثنى على هذه المقالة، وسائر المقالات أو الافتتاحيات الأخرى، أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا - وكانت تكتب باسم الجريدة، ولا يذكر فيها اسم الكاتب - مشيراً إلى أن مقالات الجريدة أضحت تحمل طابعاً مميزاً منذ بعض الوقت، وشعرت بأن شيخنا الزرقا عليه رحمة الله كأنه أصيب بشيء من الإحباط حين قال له أحد الحضور - وكان ذلك في منزل أستاذنا السباعي رحمه الله - إن كاتب هذه الافتتاحيات فلان، وكنت حاضراً؛ فلم أجد سبيلاً للخروج من بعض هذا المأزق - إن صحَّ التعبير - إلا أن أقول، وقد خصَّ الأستاذ الزرقا الافتتاحية التي تحمل العنوان المشار إليه بالمدح والثناء! ولكن هذا العنوان من اقتراح أخي وزميلي الأستاذ هاني طابع، مدير تحرير الجريدة.

أثره في التربية والتعليم في قطر:

ثم انقطعُ للدراسة في سائر عقد الستينيات في مصر، وعدت في عام ١٩٦٩ لأجد أخي هاني وقد ذهب للتعليم في دولة قطر، ثم اتصل ما بيننا حين عملت في جامعة قطر نحواً من خمسة عشر عاماً حتى عام ٢٠٠٠م ولن ينسى أحدُ أثره في التربية والتعليم في المجتمع القطري، ومجالسه التي كانت تفيض بالبشر، وبالمتابعات الثقافية والدعوية الواسعة والمتشعبة، وقلما لقيته مرة في أحد بيتينا أو أحد بيوت الإخوة الآخرين، إلا وقد حمل إلينا كتاباً، أو صور له مقالة أو صفحات فيها الجديد، أو الذي يقدر أهمية الاطلاع عليه، لقد كانت شخصيته الأنيسة المُحبِّبة تحب الخير وإشاعة المعرفة عند الآخرين.

حياته لدينه ودعوته:

ولا ريب في أن أبا ربيع عاش لدعوته ودينه ومجتمعه فوق ما عاش لنفسه أو لأسرته، وكانت تخنقه العبرات أمام أنباء الكوارث التي تنزل بالمسلمين في كل مكان، أو أمام موقف الله تعالى يقفه واحد من الدعاة

والمصلحين في بقاع الأرض، يدافع فيه عن دين أو نفس أو عرض، وقد كتب الله تعالى له أن يقدم عليه في هذه الأيام، أيام مواكب الشهداء في غزة وفلسطين، رحمهم الله، ورحم أبا ربيع، وجعلهم جميعاً في عليين.

إمدادي بالمصادر عن الأستاذ مصطفى السباعي:

لن أنسى في قطر يوم حمل إليّ في بيتي الكتب والرسائل والمصوّرات التي كان قد جمعها عن شيخنا وإمام الدعوة الإسلامية في بلاد الشام: مصطفى السباعي... عندما علم بعزمي على الكتابة عن الشيخ رحمه الله... فقلت له: إن من يجمع هذا أحق بالكتابة عن الأستاذ السباعي، فقال: لا... اكتب أنت، وإذا جدّت الحاجة لديك إلى مصادر أخرى فربما كانت عندي... وقد حصل ذلك بالنسبة لبعض أعداد مجلة (الفتح) التي كان يصدرها في مصر السيد محب الدين الخطيب، فأتصلت به عن طريق الهاتف ليعطيني بعض المعلومات عن أعداد بعينها أو بأرقامها، ولما لاحظ أن هذا تكرر مرتين؛ ما كان منه إلا أن حمل أعداد المجلة كلها - نحواً من عشرين مجلداً - وجاء بها بسيارته إلى بيتي... فأتاح لي فرصة مراجعة جميع الأعداد، جزاه الله عني وعن شيخنا الأستاذ السباعي، وعن العلم والدين، أفضل ما يجزي عباده الصالحين.

مكتبته الضخمة:

لقد كانت عناوين مكتبته تزيد على عشرين ألف عنوان فيما أقدر، مع ملاحظة أن العنوان الواحد قد تربو أعداد مجلداته على العشرين أو الثلاثين... وأعتقد أن وفاء قطر له - رحمه الله - وهي البلد التي فطرت على الوفاء أن تقوم بعض الجهات الحكومية بشراء هذه المكتبة النفيسة، وتجعلها مكتبة عامة يرتادها الطلبة والعلماء والباحثون، على أن تحمل اسم الفقيد الراحل...

رحم الله الأخ العزيز الغالي... الداعية المُربّي، والأديب الناقد، والعالم الباحث هاني طابع، وكتب له ثواب المجاهدين الصابرين، وعوّض أهله والمسلمين خيراً، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

العالم الصالح المقرئ الشيخ

عبدالغفار الدروبي^(١)

(١٣٣٨ - ١٤٣٠ هـ = ١٩٢٠ - ٢٠٠٩ م)



بقلم: مجد مكي

انتقل قبيل ظهر أمس الجمعة ٢٠ محرم ١٤٣٠ هـ العالم الصالح القارئ المتقن الفقيه الواعظ المُرَبِّي الفاضل الشيخ عبدالغفار الدروبي عن عمر ناهز التسعين عاماً، أمضاها في خدمة العلم والدين وتعليم القرآن الكريم. وقد صلى فضيلة الشيخ صلاة الفجر إماماً في مسجده بجدة الذي يؤم فيه، وقنت في الصلاة، وأطال الدعاء لأهل غزّة المحاصرين. وبعد أن أفطر الشيخ واغتسل ليستعدّ لصلاة الجمعة وافاه أجله المحتوم في تمام الساعة العاشرة، وهو على أحسن حال وإقبال على الطاعة.

ومن علامات حُسن الختام: وفاته في يوم الجمعة، بعد صلاة الفجر جماعة، للحديث الذي رواه مسلم: «من صلى الصُّبح في جماعة فهو في

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٨ م، في موقع: (الإسلام في سورية)

ذمة الله»^(١)، و«مَنْ مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وَقِيَ فتنَةُ القبر»^(٢).

تشيع جنازته:

وقد عُسلَ الشيخ - رحمه الله تعالى - في مغسلة جامع اللامي بجدة، واجتمع ثلة من أحبابه وتلاميذه، وألقوا على مُحَيَّاه الطاهر نظرة الوداع، ونُقل إلى مكة المكرمة، ووصل جثمانه الطاهر إلى المسجد الحرام بعد صلاة العصر، وكنت من جملة مشيعيه، من جدة إلى مكة، بصحبة الأخ الوفي الحفي الأستاذ عبدالرحمن حجار وفقه الله.

وقد اجتمع حول نعشه محبوه، وصُلِّي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة المغرب، وحُمِل على الأكتاف إلى مقبرة المعلاة. وكان من العلماء الحاضرين والمحبين المشيعين: الشيخ ممدوح جنيد، والشيخ محمد علي الصابوني، والشيخ أبو النور قره علي، والدكتور منير الغضبان، والدكتور عبدالمهيمن طحان، والشيخ محمد ياسر المسدي، والشيخ عبدالنافع الرفاعي، والدكتور محمد بشير حداد، والقارئ الشيخ هيثم حبال، والقارئ الشيخ يحيى بلال، والقارئ الشيخ موسى بلال، والدكتور طاهر نور ولي، والدكتور الفقيه علي أحمد الندوي، ومن أحبابه وخواص تلاميذه: الأستاذ حسام السباعي، والدكتور عباس زغنون، والدكتور حسان شمسي باشا، والمهندس الأستاذ منيب رجوب، والدكتور نسيب رجوب، وأبناء فضيلة الشيخ عبدالعزيز عيون السود، وأبناء فضيلة الشيخ وصفي المسدي، وعدد كبير من فضلاء مكة وجدة نعتذر عن عدم استيفائنا لأسمائهم الكريمة، فما كان حضورهم ليذكروا وإنما كان لينالوا الأجر بتشيع شيخهم، ويُعلنوا عن حبهم وولائهم لعالم تقى ورع أفنى عمره في طاعة الله، وتعليم القرآن ونشر العلم وخدمة تلاميذه ومحبيه.

وقد صُلِّي على الشيخ - رحمه الله - في مدينة حمص ظهر اليوم السبت صلاة الغائب في مسجده، وأمَّ المصلِّين نجله فضيلة الشيخ المقرئ فيصل الدروبي، وأقيم عزاء الشيخ في مكتبة جامع النوري الكبير بحمص.

(١) رواه مسلم (٦٥٧) في كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٦٦٤٦) وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف.

لمحات من حياته:

والشيخ - رحمه الله تعالى - من مواليد حمص ١٣٣٨هـ = ١٩٢٠م ودرس فيها، وحفظ القرآن الكريم في الكتاب على يد الشيخ مصطفى الحصني، وتعلم الكتابة والحساب على الشيخ أحمد الترك، ثم التحق بالمدرسة العلمية الوقفية فدرس فيها على العلامة زاهد الأتاسي الفقه الحنفي والعلوم الاجتماعية، والشيخ محمد الياسين بسمار، والشيخ أنيس الكلايب، وأخذ عن الشيخ أحمد صافي، والشيخ سليم صافي، وأخذ أيضاً عن والده الشيخ عبدالفتاح الدروبي، درس عليه القراءات العشر، وعن الشيخ عبدالعزيز عيون السود، قرأ عليه القراءات العشر من طريقي الشاطبية والدرة، ودرس على العلامة عبدالقادر الخوجة الفقه والحديث والتفسير، وأخذ الفقه الشافعي عن العلامة طاهر الرئيس الحمصي.

عُيِّن إماماً في المساجد بقرى حمص، ومدرساً للعلوم الدينية في المعهد العربي الإسلامي بحمص، ثم في المعهد العلمي الشرعي، وكان إماماً لمسجد (جورة الشياح)، وقد تميَّز مسجد الشيخ (جامع الدعوة) في مدينة حمص بمنطقة جورة الشياح الذي كان خطيبه وإمامه، بأنه كان منبراً لدعوته وعلمه وتخرج طلابه، وما من أحد من أهل حمص الذين عاصروا الشيخ إلا ويذكر كم كان لهذا المسجد من دور كبير في النهضة الإسلامية وقتما كان برعاية شيخنا رحمه الله، وبفضل الله تمَّ تجديد بنائه وتوسعته لتتضاعف مساحته حوالي ٣ مرات بعدما أصبح لا يتسع للمصلين في الصلوات العادية فضلاً عن صلاة الجمعة، ويعرف الآن بـ(جامع الشيخ عبدالفتاح الدروبي).

إقامته بمكة المكرمة وتدريسه بجامعة أم القرى:

انتقل إلى مكة المكرمة عام ١٤٠١هـ من الهجرة، ووفق يدرس القرآن والقراءات العشر بجامعة أم القرى حتى عام ١٤١٨. ومن الذين أخذوا عليه القراءات: محمد بن عبدالله الشنقيطي، ويحيى عبدالرزاق غوثاني، وهيثم الحبال، وراضي إسماعيل، وعبدالدايم المغربي، وعبدالرحيم المغربي،

وحفيده عبدالغفار الدروبي، وعلي السنوسي، وأحمد باتياه، وسعيد عبدالدائم، ويحيى بلال الهندي، وغانم المعصراني الحمصي.

أخلاقه وسماته:

كان الشيخ نموذجاً يقتدى به في الورع والزهد والصمت والرضا عن الله عزَّ وجلَّ والتوكل عليه والصبر على البلاء والمحن. وكان مجلسه مجلس وقار وخشوع يعلم الأدب والتواضع وعفة القول وسلامة الصدر.

قال تلميذه الحفي الوفي بشيوخه الأخ الأستاذ حسام السباعي:

«رحمك الله يا شيخنا، يا قدوتنا، يا أستاذنا، يا معلِّمنا، رحمك الله رحمة واسعة، فقد نزلت بضيافة الله وتلقَّتك ملائكة الله، فقد قلت لي ليلة وفاتك ونحن عائدون إلى منزلِك بابتسامتك المشرقة: «إنني أنتظر لقاء الله». وليس غريباً على أمثالِك من أهل الصفاء والمعرفة أن يقول مثل هذه الكلمة عندما يستشعر بقرب اللقاء. فقد كان لك ما انتظرت، وفتحت لك السماء أبوابها لاستقبال روحك الطاهرة بعد أقل من عشر ساعات من قولك لي هذه الجملة.

فقد كان لقاء الله في يوم الجمعة بعد أن اغتسلت، وصليت، وقرأت تنتظر الصلاة، هذا اللقاء الذي تنتظره بكل شوق وحب واستعداد تام، فهنيئاً لك يا سيدي ما قدمت لهذا اللقاء، هنيئاً لك بلقاء الأعبة محمد وصحبه.

هذا العالم الرباني الجليل الذي اتصف بصفات السلف الصالح رضوان الله عليهم.

إنه الشيخ عبدالغفار بن عبدالفتاح الدروبي، المرئي الزاهد، الفقيه المحدث، القارئ المقرئ، النخوي الشاعر، المجاهد الصابر، الأب الرحيم، الزوج العطوف، صاحب الفضائل والشمائل التي تندرج أن تجتمع برجل واحد.

تجلت بشخصيته أسمى معاني الصبر والثبات على المبدأ في زمن

الفتن والمحن وتبدل الثوابت، رأيت في شخصيته معاني التوكل والإيمان العميق الذي يزداد تألقاً يوماً بعد يوم، عالماً متواضعاً بكل معاني التواضع.

تجلت شخصيته بمعاني الزهد الحقيقي، والرضا القلبي، والوقار، والحياء، والصمت والملاحظة، فقد كان قرآناً ناطقاً متحركاً، يهيمن القرآن الكريم بأخلاقه ومعانيه السامية على كل حركات الشيخ وسكناته. من رآه من بعيد هابه، ومن رآه من قريب أحبه، ومن جالسه وعاشه عشقه، لما يرى فيه الناظر والجالس من صفات الهيبة والوقار والكمال والجلال.

كلامه مسك وعنبر، نظراته مختلفة عن باقي البشر، صمته يذكر بصفة سيد البشر، حنانه وعطفه على كل البشر، الصغير والكبير، والقريب والبعيد، الزوجة والابن والأحفاد، يشهد بذلك كل من عرف وعاش الشيخ عبد الغفار.

رحمك الله يا سيدي يا أبا فيصل رحمةً واسعة، وعوض الله الأمة الإسلامية من أمثالك ليكونوا كما كنت، ونسأل الله الذي أكرمنا بصحبته في هذه الدنيا أن يحشرنا معك يوم القيامة تحت لواء النبي المصطفى ﷺ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين» انتهى.

رحم الله الشيخ رحمةً واسعة، وجزاه خيراً عما قدم من علم نافع وعمل صالح مبرور، وعوض المسلمين خيراً عن فقد علمائهم وصلحائهم الذين قلّ نظيرهم في عصرنا هذا.



وفي الليلة الظلماء يفقد البدر الشيخ عبدالغفار الدروبي^(١)

بقلم: ياسر مسدي



في صبيحة خير يوم طلعت فيه الشمس، يوم الجمعة الموافق التاسع عشر من شهر الله المحرم ١٤٣٠هـ، اغتسل الشيخ عبدالغفار وتوضأ

(١) نشرت بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢١م، في موقع: (الإسلام في سورية) www.islamsyria.com.

وجاء في مقدمة الترجمة كلمة المشرف الشيخ مجد مكي التالية:

أقيم ليلة أمس الثلاثاء ١٤٣٠/١/٢٤، الموافق ٢٠٠٩/١/٢٠ في منزل الشيخ الوجيه الفاضل يوسف بشناق اجتماع عامر لقراءة ختمة على روح فضيلة الشيخ عبدالغفار الدروبي، وقد حضره عدد كبير من العلماء وتلاميذ الشيخ ومحبيه، وقد تليت عدة ختمات على روحه، وألقى حفيده الشيخ عبدالغفار بن فيصل كلمة عن جده ومآثره، ثم ألقى الأستاذ الشيخ جمال سيروان كلمة رائعة عن فضل العلماء وأثر الشيخ وفضله، ثم تكلم الشيخ أبو النور قره علي كلمة خطابية مؤثرة عن منهج الشيخ وأهمية متابعة المنهج وتوارثه.

ثم ألقى فضيلة الشيخ ممدوح جنيد كلمة مختصرة عن صلته بالشيخ وأخلاقه الرفيعة العالية. ثم ختم المجلس بالدعاء، والعشاء، وقد تكرم الأخ الدكتور ياسر مسدي بكتابة هذه الكلمة في رثاء الشيخ أحبينا أن نقدمها للقراء الكرام.

وصلّى ما كتب الله له من صلاة الضحى، وجلس ينتظر الذهاب إلى صلاة الجمعة وهو على أحسن حال من الطهر والذكر وتلاوة القرآن، والصلاة على رسول الله ﷺ. وإذا بهذه الروح الطيبة المباركة تُلبّي أمر ربها في موعدها المحتوم، تخرج من الجسد الطيّب حميدةً مبشرةً - بإذن الله تعالى - برّوح وريحان وربّ غير غضبان، ويسري هذا الخبر خلال لحظات إلى أهله وإخوانه وطلابه ومحبيه فيعزّي الجميع بعضهم بعضاً لأن المصاب يفقد العالم مصاب الجميع، وخاصّة في زمن قلّ فيه العلماء الربانيون الزاهدون في الدنيا الراغبون بما عند الله من نعيم مقيم.

المصاب يفقد العلماء:

إنّ المصاب يفقد العلماء مُصابٌ كبير، وخاصّة في هذه الأيام العvisية التي يعيشها المسلمون، ورحم الله الإمام علي رضي الله عنه إذ يقول: «إذا مات العالم تُلِمَ في الإسلام ثلّة لا يسدّها إلا خلف منه»^(١)، كما أثر عن الحسن البصري - رحمه الله تعالى - قوله: «يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء»^(٢) كما روي مرفوعاً عن أبي الدرداء وأنس، ولعل الحسن سمع منه.

نعم العلماء هم المشاعل يضيئون الطريق للناس، ويُعرفونهم السنة من البدعة. نعم العلماء العاملون المخلصون هم القادة، وهم الهداة، وهم الأدلة على الخير تُقْتَفَى آثارهم وترمق أفعالهم.

ثُلّة مباركة من علماء حمص:

ولقد منّ الله عليّ أن عشتُ فترة من الزمن أستظل بظلّ الثلة المباركة من علماء حمص في المعهد العلمي الشرعي، إذ كنت مشرفاً على الطلاب في المعهد، حيث كان والدي - رحمه الله تعالى - مديراً للمعهد يشاركه في التدريس السادة العلماء أمثال: الشيخ وصفي المسدي حفظه الله ورعاه،

(١) أورده الغزالي في الإحياء، وعزاه العراقي إلى الخطيب في «تاريخه».

(٢) تقدم تخريجه ص ٥١.

والشيخ عبدالغفار الدروبي، والشيخ أحمد الكعكة، والشيخ محمد جندل الرفاعي رحمهم الله رحمة واسعة، هذا بالإضافة إلى بقية العلماء الآخرين من خارج المعهد أمثال الشيخ: أبو السعود عبدالسلام، والشيخ محمود جنيد، والشيخ عبدالعزيز عيون السود، رحمهم الله جميعاً، وكذلك الشيخ محمد علي مشعل حفظه الله تعالى، والحديث عن خصال ومآثر كل واحد ممن ذكرت يحتاج إلى سجلات يضيق الوقت عن تسجيلها الآن، ولكن لا بد لي من أن أسجل في هذه العجالة - وقد طلب إليّ الأخ الشيخ مجد جزاه الله خيراً أن أكتب كلمة رثاء وتعريف بشيخنا الشيخ عبدالغفار الدروبي رحمه الله تعالى - رغم أنني لست ممن لازم الشيخ فترة طويلة غير أنني لم أنقطع عن الصلة به سواء في حمص أم في أرض المهجر.

بقية السلف الصالح:

كنت - منذ نعومة أظفاري - إذا نظرت إلى الشيخ شعرت بأني أمام عالم رباني من بقية السلف الصالح، يعلمك بلسان حاله قبل أن يعلمك بلسان مقاله، أتمثل في سَمْتِه ونظراته قول الرسول الكريم ﷺ عندما سئل: أيُّ جلسائنا خير؟ فقال: «مَنْ ذَكَّرَكُم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقَه، وذَكَّرَكُم بالآخرة عمله»^(١).

وفي هذا المقام يقول ابن الجوزي - رحمه الله تعالى - في كتابه «صيد الخاطر»: كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه لاقتباس علمه، وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته.

في مسجد الدعوة:

لقد عرفت الشيخ - رحمه الله تعالى - إماماً ومدرساً ومربياً وداعيةً في مسجد جُورة الشَّيَاح (الذي أطلق عليه فيما بعد مسجد الدعوة) نظراً للجهود الدعوية المباركة التي كانت تقام فيه، وخطيباً للجمعة في مسجد علاء الدين الحسامي.

(١) رواه عبد بن حميد (٦٣١) وأبو يعلى (٢٤٣٧) في مسنديهما وتقدم تخريجه ص ٦٠٥.

كانت دروسه متواصلة بعد الفجر وبعد العصر وبعد المغرب، بالإضافة إلى الدروس المتنقلة بعد العشاء.

عنايته بالشباب:

لقد كان الشيخ - رحمه الله تعالى - يعطي الشباب الناشئ من وقته، من علمه، من أخلاقه، من أسلوبه الدعوي الفذ، يرعاهم كما ترعى الأم الحنون أولادها.

في المعهد الشرعي:

هذا بالإضافة إلى تدريسه في المعهد الشرعي ما يقارب من عشرين سنة، حيث كان يفرض شخصيته على الطلاب، من خلال الهيئة التي حباه الله بها، وما عُرف عنه - رحمه الله تعالى - أنه ضرب طالباً أو وبخه بكلمات نابية، بل إنَّ مما أذكر في هذا المجال أنه ضرب طالباً مرة ضرباً خفيفاً، ولما ذهب إلى بيته أخذ يحاسب نفسه، وشعر - رحمه الله تعالى - كأنه اقترف ذنباً، فما كان منه إلا أن جاء إلى القسم الداخلي للطلاب، وسأل عن الطالب، وطلب منه العفو والسماح.

الجانب الدعوي والتربوي:

لقد غلب على الشيخ اهتمامه بالجانب الدعوي والتربوي رغم أنه المقرئ المتقن والفقيه الحاذق، وبالإضافة إلى اهتمام الشيخ بالدعوة في مدينة حمص، فقد كان يهتم بالدعوة في القرى اهتماماً كبيراً، حيث إن الدعوة في القرى في تلك الأيام كانت ضعيفة جداً. ولقد كان الشيخ في هذا الجانب يواصل مشوار والده العالم الزاهد الورع الشيخ عبدالفتاح الدروبي الذي لم يكتفِ بالدعوة في قرى حمص، فقد كان لقرى شمال لبنان (منطقة الضنية)، نصيب من ذلك، وله ولوالده رحمهما الله بصمات في الدعوة والتربية هناك.

وكثيراً ما كان الشيخ يأخذ طلابه معه إلى القرى يوماً في الأسبوع أو الشهر على حسب البرنامج، وفي هذه الرحلات الدعوية كان الشيخ يدرّب طلابه على آداب السفر، وآداب الصحبة والخشونة في المعيشة، حيث كانوا ينزلون في مسجد القرية التي يذهبون إليها كما كان يدرّبهم على أصول الدعوة والصبر على طريقها الطويل.

العالم المعلم والصابر المحتسب:

لقد أمضى الشيخ - رحمه الله تعالى - حياته تعلّماً وتعليماً لأصول الدين، وقراءة وإقراء للقرآن الكريم، صابراً على كلّ ما اعترض طريقه من مشاق وآلام. كان يعيش آلام أمته ففي أحداث ١٩٨٠ التي حدثت في سوريا فقد الشيخ كثيراً من طلابه واثنين من أبنائه وأحد أصهاره فصبر واحتسب، وكان مثلاً للصبر والرّضا، رغم أن الشيخ لم يكن يحب المجابهة مع الحكام، ولكنه كان يوجّه طلابه إلى الحكمة والاعتدال بهدوء فلا يشتد مع من خالف رأيه، بل يأخذه بالجلّم والرويّة، ويلتمس له عذراً.

وأقول شهادة ألقى الله تعالى بها بأن الشيخ - رحمه الله تعالى - لم تفتنه الدنيا ولم تُغيّر من حاله، فإذا نظرت إلى وجهه تشعر أنه يحمل هموم المسلمين وآلامهم، ويتابع أخبارهم، ويتابع طلابه وأحبابه، وينصّحهم ويوجههم، ففي يوم وفاته صلى الصبح إماماً بالمسجد وقتت بالمصلين، ودعا لأهل غزة أن يفرج كربتهم. نعم هكذا ينبغي أن يكون أهل العلم. يعيشون مع الناس يحملون همومهم وآلامهم، ويتفقدون أحوالهم لأن مسؤولية العالم كبيرة جداً.

ويكفي أن نفهم مهمّة العالم بقول الرسول ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» ومهما كتبت عن شيخنا فلن أوفّي نزرأً يسيراً من حقه، وقد آثرت الحديث عن الجانب الدعوي والتربوي في حياة الشيخ لأترك المجال لطلابيه، ومحبيه، أن يستوعبوا بقية الجوانب الأخرى.

اللهم اؤجرنا في مصيبتنا بفقدنا للشيخ وعوضنا خيراً منها، وبارك في عقبه وتلامذته، واجعلهم خير خلف لخير سلف، وارحم الشيخ واجعله في عليين مع النبيين والشهداء والصالحين، واحشرنا يا ربي في زمرتهم، إنك سميع مجيب.



العالم الصالح الزاهد عبد الغفار الدروبي رحمه الله





الفهرس الإجمالي

الموضوع	الصفحة
تقديم الكتاب	٥
كلمات حول مجلة «حضارة الإسلام»	٩
ركن «رجل فقدناه»	٣٥
إذا مات العالم	٤٩
شيخنا العظيم محمد بدر الدين الحسني محدث الديار الشامية، بقلم: محمد المبارك	٥٣
الشيخ عز الدين القسام إمام الشهداء، بقلم التحرير	٧٩
عبد الحميد بن باديس، بقلم: حمزة بوكوشة	٨٨
الشيخ قاسم القيسي، بقلم: محمود شيث خطاب	١٠١
الشيخ عبدالقادر المغربي، بقلم: عدنان الخطيب	١١٣
محمد الخضر حسين في جهاده، بقلم: سعدي أبو جيب	١٣٠
أنيس الملوحي، بقلم: نهاد القاسم	١٤٠
هاشم الأتاسي، بقلم: مصطفى السباعي	١٤٧
الشيخ أبو الخير الميداني، بقلم: عمر عودة الخطيب	١٥٣
الدكتور عبدالعلي الحسني، بقلم: أبو الحسن الندوي	١٥٨
الشيخ حسني السباعي، بقلم ابنه: مصطفى السباعي	١٦٨
الشيخ عبدالقادر الزائي پوري، بقلم: سعيد الأعظمي الندوي	١٧٥
مولانا حفظ الرحمن السيوهاروي، بقلم: رئيس أحمد	١٧٨

- ١٨٣ مولانا محمد حفظ الرحمن، بقلم: عبدالمنعم النمر
- ١٨٩ الشيخ أحمد الحارون، بقلم: مصطفى السباعي
- ١٩٧ محمد فؤاد الألوسي، بقلم: عبدالعزيز البدري
- ٢٠٧ الأمير محمد عبدالكريم الخطابي، بقلم: عدنان زرزور
- ٢١٨ الأستاذ محمد الحموي تعريف بالفقيد بقلم: عبدالرحمن الميداني
- ٢١٩ رثاء المرحوم الأستاذ محمد الحموي، للشاعر ضياء الدين صابوني
- ٢٢١ الأستاذ الشيخ محمد معدل، بقلم: أحمد علي زخور
- ٢٢٣ الشيخ عبدالمحسن الأسطواني، بقلم: مصطفى السباعي
- ٢٣٠ الشيخ عبدالحميد الحجازي، بقلم التحرير
- ٢٣١ نجيب باقي، بقلم التحرير
- ٢٣٥ الشيخ إبراهيم أحمد المظاهري، بقلم: أبي الحسن الندوي
- ٢٤٠ عباس محمود العقاد، بقلم: محمد بسام الأسطواني
- ٢٤٦ عباس محمود العقاد، بقلم: محمد المبارك
- ٢٥٢ انطباعات عن العقاد، بقلم: عبدالرزاق محيي الدين
- ٢٥٤ مؤلفات العقاد
- ٢٥٧ الدكتور عبدالحليم نجار، بقلم: مازن المبارك
- ٢٦١ مصطفى السباعي تاريخ دعوة في حياة رجل، بقلم: محمد بسام الأسطواني
- ٢٩٥ خصائص في حياة السباعي، بقلم: محمد سعيد رمضان البوطي
- ٣٠٣ الشيخ محمد حريري، بقلم: عبدالله علوان
- ٣٠٦ في ذكرى وفاة الشيخ الإبراهيمي، بقلم: محمد المبارك
- ٣١٣ محمد البشير الإبراهيمي، بقلم: عمر الحكيم
- ٣٢٠ محمد البشير الإبراهيمي، بقلم: عبدالرحمن الغريب
- ٣٣٢ من عظمة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بقلم: محمد الطاهر فضلاء
- ٣٤٤ الأستاذ المرتبي محمد خير الجلاّد، بقلم: محمد أديب الصالح
- ٣٤٨ صالح زركان فقيد كلية الشريعة، بقلم: محمد المبارك
- ٣٥٢ في ذكراك يا صالح، بقلم: خالد الرفاعي
- ٣٥٤ الشيخ يونس عبدالغني، بقلم: عبدالله الطنطاوي

- ٣٦٠ الشيخ محمد نجيب خياطة، بقلم: محمد أبو اليمن خياطة
- ٣٦٦ الأستاذ مصطفى الأعسر رحمه الله، بقلم التحرير
- ٣٦٩ عبدالرحمن الزعبي «الطبيبي»، بقلم: محمد بهجت البيطار
- ٣٧١ مع الرجل العظيم الداعية الرباني الشيخ محمد الحامد، بقلم التحرير
- ٣٧٥ حين تعرف الأمة رجالها، بقلم: محمد أديب الصالح
- ٣٨٢ أخي كما عرفته، بقلم: عبدالغني الحامد
- ٣٩٠ حماة... وعالمها الزاحل، بقلم: محمد سعيد رمضان البوطي
- ٤٠٢ ضيف الحضارة: فضيلة الشيخ محمد الحامد
- ٤١٦ الشيخ محمد إبراهيم الختني، تقديم: محمد أديب الصالح
- ٤١٧ الفقيه الصالح محمد إبراهيم الختني، بقلم: وهبي سليمان الغاوجي
- ٤٢٢ العلامة الشيخ محمد إبراهيم الختني المدني، بقلم: محمد سعيد دفتر دار ..
- ٤٢٧ الشيخ عبدالله هارون، بقلم: علي الخطيب
- ٤٣٠ الإمام عبدالله هارون، بقلم ابنه: محمد عبدالله هارون
- ٤٣٣ محب الدين الخطيب كما عرفته، بقلم: أبي الوفا المراغي
- ٤٣٩ علي أحمد باكثير، بقلم: محمد الحسناوي
- ٤٤٧ محمد وحيد الدين العالي الحيدر آبادي، بقلم: محمد عبدالستار خان
- ٤٥٩ الشيخ عبدالوهاب الحافظ الملقب بـ(دبس وزيت)، بقلم التحرير
- ٤٦٤ الشيخ محمد بن إبراهيم رجل علم وعمل، بقلم: عبدالرحمن رأفت الباشا
- ٤٦٨ الشيخ صالح العقاد رجل فقدته الأمة الإسلامية، بقلم: محمد سعيد الفيومي
- ٤٧٨ الشيخ صالح العقاد رحمه الله، بقلم: محمد الصباغ
- ٤٨٥ محمد الفاضل ابن عاشور، بقلم: محمد أنور الجندي
- ٤٩٣ محمد الفاضل ابن عاشور، بقلم: محمد الدسوقي
- ٥٠١ الشيخ محمد السيد رحمه الله، بقلم: سعيد السيد
- ٥٠٤ القاضي محمد أديب الأهدلي، بقلم: محمد صالح
- ٥١٢ أبا الأهدلي، قصيدة بقلم الشاعر: محمد الحسناوي
- ٥١٥ الدكتور عبدالكريم عثمان، بقلم: محمد أديب الصالح
- ٥٢٢ وداعاً يا عبدالكريم، بقلم: محمد منلا غزيل

- ٥٢٧ الشيخ نعيم النعيمي الجزائري، بقلم: بلقاسم النعيمي
- ٥٤٣ الشيخ عبدالكريم الرفاعي، بقلم: عدنان زرزور
- ٥٥٢ العالم العامل الشيخ عبدالكريم الرفاعي، بقلم: عبدالغني الدقر
- ٥٥٨ الأستاذ عمر الحكيم رحمه الله، بقلم: عدنان زرزور
- ٥٧١ الشهيد العالم عمر الحكيم رحمه الله، بقلم: شفيق يبرودي
- ٥٧٧ عبدالله التل، بقلم: ماجد الكيلاني
- ٥٨٤ الأستاذ عبدالقادر السبسي رحمه الله، بقلم: عبدالوهاب التونجي
- ٥٩٥ المحامي عبدالقادر السبسي رحمه الله، بقلم: محمد فؤاد قسطلبي
- ٦٠٠ الأستاذ عبدالقادر السبسي رحمه الله، بقلم: أنس السبسي
- ٦٠٨ حفل تأبين الأستاذ عبدالقادر السبسي
- ٦١٢ الأستاذ خالد الزفاعي، بقلم: عمر عبيد حسنة
- ٦٢٠ مالك بن نبي... الفيلسوف الرائد، بقلم: عمر مسقاوي
- ٦٢٧ لمحات في وداع مالك بن نبي، بقلم: محمد منلا غزيل
- ٦٣١ لمحة جديدة في ذكرى مالك بن نبي، بقلم: محمد منلا غزيل
- ٦٣٥ السيد محمد المكي الكتاني، بقلم: عمر بهاء الأميري
- ٦٤٢ الأستاذ إبراهيم أبازيد، بقلم: محمود مفلح
- ٦٤٧ الشيخ محمد أبو زهرة، بقلم: وهبة الزحيلي
- ٦٥٤ العلامة محمد أبو زهرة، بقلم: عدنان زرزور
- ٦٦٨ الحاج محمد أمين الحسيني، بقلم: التحرير
- ٦٧٧ علال الفاسي، بقلم: عمر بهاء الدين الأميري
- ٦٨٤ الأستاذ عبدالباسط عباس، بقلم: مصطفى البيراوي
- ٦٨٨ في وداع عبدالباسط عباس، قصيدة للشاعر: محمد منلا غزيل
- ٦٨٩ الأستاذ جلال حسون، بقلم: إبراهيم عاصي
- ٦٩٣ الأخ الحبيب محمد علي الدعاس، بقلم: عبدالنافع الرفاعي
- ٦٩٦ الشيخ أحمد عز الدين البيانوني، بقلم: عبدالله علوان
- ٧٠١ الشيخ محمد سعدي الياسين رحمه الله، بقلم: مسلم الغنيمي
- ٧٠٨ الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله، بقلم: مسلم الغنيمي

- ٧١٨ العلامة المصلح محمد بهجة البيطار، بقلم: سعدي أبو جيب
- ٧٢٨ الشيخ محمد سعيد المسعود: مفتي الباب، بقلم: حسن عبدالحميد
- ٧٣٥ الدكتور تيسير رمضان الحصاد، بقلم: محسن خرابة
- ٧٤٣ الشيخ أحمد الدقر، بقلم: عبدالغني الدقر
- ٧٥١ الدكتور محمد أمين المصري، بقلم: مجد مكي
- ٧٥٥ الشيخ زين العابدين التونسي، بقلم: علي الرضا التونسي
- ٧٦٠ الشيخ محمد يوسف البنوري، بقلم: عبدالعزيز عبدالجليل
- ٧٦٦ السيد محمد يوسف البنوري، بقلم: مجد مكي
- ٧٧٤ الأستاذ محمد غسان المراد، بقلم: عبدالقادر حداد
- ٧٧٨ الشيخ محمد سيادي المراد رحمه الله تعالى، بقلم: محمد بشير المراد
- ٧٨٤ العلامة المجاهد الشيخ حسن حبنكة رحمه الله، بقلم: عبدالرحمن حبنكة
- ٧٩٣ الشيخ حسن حبنكة: ظاهرة وتاريخ، بقلم: عدنان زرزور
- ٨٠٩ الشيخ عبدالعزيز عيون السود، بقلم: محمد علي مشعل
- ٨١٧ الشيخ بكري رجب، بقلم: عبدالله علوان
- ٨٢١ الشيخ بكري رجب، بقلم: فياض عيسو
- ٨٢٦ وفاة الأستاذ المودودي رحمه الله، بقلم: التحرير
- ٨٣٢ الشيخ خير ياسين، بقلم: محمد عيد البغا
- ٨٣٦ الأستاذ محمد المبارك، بقلم: مصطفى الزرقا
- ٨٤٣ الشيخ محمد صالح الفرفور، بقلم: مجد مكي
- ٨٥٤ الشيخ محمد أبو الفرج الخطيب، بقلم: مجد مكي
- ٨٦٦ الشيخ عبدالله علوان، بقلم: مجد مكي
- ٨٧٢ الشاعر عمر بهاء الدين الأميري، بقلم: باسل رفاعي
- ٨٧٥ لمحات من حياة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، بقلم: مجد مكي
- العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، قل نظيره في علمه وأدبه، بقلم: حسن قاطرجي
- ٨٨٠ قاطرجي
- ٨٩٨ الشيخ عبدالرحمن الصوفي، بقلم: نبيل طويل
- الشيخ عبدالرحمن الصوفي، رائد من رواد العمل الإسلامي في سورية،

- ٩٠٢ بقلم: عبداللطيف الهاشمي
- ٩٠٦ بقلم: مجد مكي
- ٩١٥ بقلم: مجد مكي
- ٩٢٤ بقلم: أحمد الحجي الكردي
- ٩٣٣ بقلم: مجد مكي
- ٩٤٢ بقلم: مجد مكي
- ٩٤٨ بقلم: حسن قاطرجي
- ٩٥٤ بقلم: عائشة خياطة
- ٩٥٩ بقلم: عبدالرحمن الحاج
- ٩٦٤ بقلم: محمد عوامة
- ٩٦٩ بقلم: بكري الشيخ أمين
- ٩٧٦ بقلم: مجد مكي
- ٩٨٥ بقلم: سيرة حياته بقلمه
- ٩٩٧ بقلم: وفاء سعداوي
- ١٠٠٤ بقلم: مجد مكي
- ١٠١٤ بقلم: مجد مكي
- ١٠١٨ بقلم: مجد مكي
- ١٠٣٠ بقلم: مجد مكي
- ١٠٤٣ بقلم: مجد مكي
- ١٠٥٠ بقلم: مجد مكي
- ١٠٥٣ بقلم: مجد مكي
- ١٠٦٠ بقلم: مجد مكي
- ١٠٦٥ بقلم: عدنان زرزور
- ١٠٦٩ بقلم: مجد مكي
- ١٠٧٤ بقلم: محمد ياسر مسدي



الفهرس التفصيلي

الموضوع	الصفحة
تقديم كتاب «رجال فقدناهم»	٥
عملي في هذا الكتاب	٦
كلمات حول مجلة «حضارة الإسلام»	٩
مجلة «حضارة الإسلام» ودور مؤسسها في الصحافة الإسلامية	٩
المجلة في عامها الجديد	١١
تسمية المجلة «حضارة الإسلام» بدلاً من «المسلمون»	١٣
مهمة المجلة الرئيسية	١٣
نحن وكلمة الحق في عامنا الجديد	١٥
دعوة الحق وظيفه كل مسلم	١٥
الجهاد بالكلمة الصادقة	١٦
الدفاع عن قضايا العالم الإسلامي الكبير	١٧
من أبواب المجلة	١٨
في ميدان الأخبار	١٩
كلمة مدير تحرير المجلة في ختام السنة الرابعة	١٩
كلمتنا مع ختام السنة الرابعة	٢٠
من أهداف المجلة	٢٠
عرض الفكرة الإسلامية	٢١

٢١ معالجة مشكلات العالم الإسلامي
٢٢ «من وقائع الحضارة الإسلامية» و«من وقائع الحضارة الغربية»
٢٣ مزايا الحضارة الإسلامية ومساوئ الحضارة الغربية
٢٤ الجانب العلمي من الحضارة الغربية
٢٤ قيمة الحضارة الإسلامية
٢٥ الحضارة الغربية في جانبها الاجتماعي والأخلاقي
٢٦ كلمة مدير تحرير المجلة في أول العام الخامس
٢٦ تحية العام الجديد
٢٧ أبواب جديدة متنوعة
٢٧ مع العلماء الأولياء
٢٨ قالوا في الحضارة الإسلامية، وقالوا في الحضارة الغربية
٢٩ نجاح الحضارة الإسلامية
٢٩ ضيف الحضارة
٢٩ صوت الصحافة في الشرق والغرب
٣٠ الدكتور محمد أديب الصالح رئيس تحرير المجلة
٣٠ عهد ووفاء
٣١ أعلام الأمة المنار الهادي
٣٢ كلمة مدير تحرير المجلة في ختام السنة الخامسة
٣٢ أخي القارئ الكريم
٣٣ الأمانة الغالية
٣٣ كلمة المجلة في بداية السنة الثامنة عشرة
٣٣ أخي القارئ الكريم
٣٥ ركن «رجل فقدناه»
٣٥ عناية الأستاذ السباعي بهذا الركن من المجلة
٣٥ تراجم علماء سورية
٣٨ المترجمون أكثر من مرة
٣٨ ترجمة الدكتور مصطفى السباعي

٣٨	ترجمة العلامة الشيخ محمد الحامد
٣٩	التراجم التي أضفتها إلى الكتاب
٤٣	تتمة تراجم «حضارة الإسلام»
٤٣	أسماء التراجم الذين اخترت إضافتهم إلى هذا الكتاب
٤٦	صدي تراجم «حضارة الإسلام»
٤٩	إذا مات العالم: بقلم الدكتور محمد أديب الصالح
	شيخنا العظيم محمد بدر الحَسَنِي محدث الديار الشامية الأكبر الأستاذ
٥٣	محمد المبارك
٥٥	ثقافته العلميّة
٥٥	محافظته على نظام عمله وترتيب أوقاته
٥٥	اختلاؤه عن الناس في بداية طلبه للعلم
٥٦	ولوعه بجمع الكتب واقتنائها
٥٦	تدريسه للعلوم الرياضية
٥٧	طريقته في تدريس العلوم الرياضية
٥٨	مرونته العلمية وسعة إدراكه وجودة تحقيقه
٥٨	نفائس الكتب المخطوطة والمطبوعة في العلوم الرياضية
٥٩	طريقة تدريسه
٥٩	درسه الخاص في دار الحديث
٦٠	درسه في مسجد بني أمية تحت قبة النُسر
٦١	قوة ذاكرته
٦١	تفرّسه في وجوه الحاضرين
٦١	دروسه في داره بعد صلاة المغرب
٦٢	سبب إعراضه عن الإجابة على بعض الأسئلة
٦٣	جوابه عن حكم نشر الدعاية الإسلامية في البلاد الأوروبية
٦٣	جوابه عن حكم تعلم اللغات الأجنبية
٦٤	طبائعه وأوضاعه الخاصّة
٦٤	صورة من صور العهد الماضي

٦٥	شيخنا العظيم محدث الديار الشامية الأكبر - ٢ - الأستاذ محمد المبارك
٦٥	ابتداء صلة الأستاذ المبارك بالشيخ
٦٦	دروسه الخاصّة
٦٦	الكتب التي كان يُدرّسها في حلقاته الخاصّة
٦٧	ينابيع الثقافة الإسلامية
٦٧	سلوك الشيخ وحياته الخاصّة
٦٧	عبادته
٦٨	غرفته في دار الحديث
٦٨	مطالعاته ودروسه
٦٨	درسه العام في داره الواسعة
٦٩	امتناعه عن الكلام ولقاء الناس بعد صلاة العشاء
٦٩	زيارات الشيخ
٧٠	لباسه
٧١	تحرّره من عادات الناس اليومية
٧١	سعة رزقه وصدقاته
٧٢	هيئته العظيمة
٧٣	تواضعه والتزامه للسنّة وموقفه من تقبيل اليد والقيام
٧٣	كراهته لقيام الناس له
٧٤	تباسطه في الكلام مع بسطاء الناس
٧٤	طريقته الإصلاحية ونظرته الاجتماعية
٧٥	حادثة عجيبة
٧٥	دعوته إلى تعلّم الثقافة الحديثة
٧٦	موقفه من الحكام
٧٦	تحريضه على الجهاد وصلته برجال الثورة
٧٧	مشاركة تلاميذه في الحركة الوطنية
٧٧	رفعة مكانته في أعين الناس
٧٨	منزلته العظيمة

٧٩	الشيخ عز الدين القسّام إمام الشهداء وفخر المجاهدين بقلم التحرير ...
٧٩	قداسة فلسطين تستهوي القسام
٨٠	مولده ونشأته
٨١	مدرس وإمام ومأذون شرعي
٨١	جامع الاستقلال في حيفا مدرسة للوطنية
٨٢	الثورة على ظلم الانتداب البريطاني
٨٢	ثورات الشعب الفلسطيني
٨٤	حركة القسام السريّة
٨٤	استنكار السياسة البريطانية المتواطئة
٨٤	القسّام يخرج إلى الجهاد
٨٥	رفاق القسام الأوائل
٨٥	استشهاد الشيخ القسام وبعض رفاقه
٨٦	دفن الشهيد في حيفا
٨٦	أثر ثورة القسام
٨٦	استشهاد القسام في التقرير السنوي البريطاني
	رواد الإصلاح الإسلامي الحديث عبدالحميد بن باديس بقلم: حمزة
٨٨	بوكوشة
٨٨	ولادته ونشأته
٨٩	تعلّمه
٨٩	هجرته في طلب العلم
٨٩	سفره إلى الشرق
٨٩	مباشرته للتدريس
٩٠	اشتغاله بالصحافة
٩٠	محاولة اغتياله
٩٠	مكانة الشهاب
٩١	عبدالحميد ونادي الترقّي
٩٢	عبدالحميد رئيس جمعية العلماء

- ٩٣ طريقته في الاحتجاج على الحكومة
- ٩٤ عبدالحميد بن باديس والمؤتمر الإسلامي
- ٩٧ وفد المؤتمر إلى باريس
- ٩٧ شبح الحرب الأخيرة، وأثره في نفس عبدالحميد
- ٩٩ تفكيره في الثورة
- ٩٩ طريقته في العمل
- ١٠٠ صموده وثباته إلى أن مات
- ١٠١ الشيخ قاسم القيسي بقلم: محمود شيث خطاب
- ١٠١ ١ - مولده ونشأته ودراسته وشيوخه
- ١٠٣ ٢ - مناصبه
- ١٠٤ ٣ - تحصيله العلوم
- ١٠٦ ٤ - نثره وشعره
- ١٠٧ ٥ - مؤلفاته ورسائله وتعليقاته
- ١١٠ ٦ - وفاته وتشيع جثمانه
- ١١٣ الشيخ عبدالقادر المغربي بقلم: عدنان الخطيب
- ١١٣ كلمة مجلة «حضارة الإسلام»
- ١١٤ تأسيس المجمع العلمي العربي
- ١١٤ صفات المغربي الخلقة والخلقة
- ١١٥ لغة الشيخ
- ١١٥ نزوله دمشق وحبها لها
- ١١٥ ولادته ونشأته
- ١١٦ اتصاله بالأفغاني ومحمد عبده
- ١١٦ انتقاله إلى مصر وعمله في الصحافة
- عودته إلى دمشق وعمله في تحرير جريدة (الشرق) وعضويته في
- ١١٧ المجمع
- ١١٧ محاضرة المغربي عن وليمة ابن واسانة في قرية جمرايا
- ١١٨ امتلاك عبدالقادر الخطيب قطعة أرض في «جمرايا»

- ١١٩ إحياء الأستاذ عبدالقادر الخطيب ذكرى وليمة ابن واسانة
- ١٢٠ جولة الأستاذ عدنان الخطيب مع العلامة المغربي في قرية جمرايا
- ١٢١ استعمال المغربي في مقالاته الصحفية للمعرب والدخيل
- ١٢١ كتاب: «الاشتقاق والتعريب»
- ١٢٢ مشاركته في ترجمة بعض المصطلحات
- ١٢٣ الوعي اللغوي في الأمة العربية
- ١٢٤ دعوته إلى إنشاء مجمع لغوي
- ١٢٤ صعوبة التمييز بين المولد والعامي
- ١٢٥ تحقق أمنيته بتأسيس المجمعين اللغويين في دمشق والقاهرة
- ١٢٦ الاشتقاق من أسماء الأعيان
- ١٢٦ تفسير «جزء تبارك»
- ١٢٦ نموذج من تفسيره
- ١٢٨ مقال للمغربي في جريدة المؤيد بعنوان: «الإصلاح العملي»
- ١٢٨ أهم الأسس الإصلاحية التي دعا إليها
- ١٢٨ وفاته وآثاره
- ١٢٩ مكان الشيخ سيظل شاعراً
- ١٣٠ مع العلامة محمد الخضر حسين في جهاده بقلم: سعدي أبو جيب
- ١٣٠ صفوة الصفوة من أهل العلم
- ١٣١ مولده ونشأته
- ١٣٢ في الزيتونة
- ١٣٢ الرحيل
- ١٣٣ فهل يسكن الثائر المجاهد، ويستكين؟
- ١٣٤ في دمشق
- ١٣٥ في مصر
- ١٣٥ اختياره شيخاً للأزهر
- ١٣٧ تأسيس جمعية الشبان المسلمين والهداية الإسلامي
- ١٣٨ نقض كتاب «في الشعر الجاهلي»

١٣٨ نقض كتاب «الإسلام وأصول الحكم»
١٣٩ وبعد
١٤٠ أنيس الملوحي بقلم: نهاد القاسم
١٤٠ كلمة مجلة الحضارة
١٤١ كلمة الأستاذ نهاد القاسم وزير العدل
١٤١ رجولة مبكرة
١٤١ في القضاء
١٤٢ طرفان متنازعان
١٤٣ عضويته في المحكمة العليا
١٤٤ السنة الخلق أقلام الحق
١٤٦ الفقيه في سطور
١٤٧ هاشم الأتاسي بقلم: مصطفى السباعي
١٤٨ كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي
١٤٨ رئاسته الجمعية التأسيسية ثم رئاسة الجمهورية
١٤٨ رئاسته الثانية للجمهورية السورية
١٤٩ أخلاقه وشمائله
١٤٩ التزامه حدود الدستور
١٥٠ مثلٌ حيّ لما يرجوه الشعب في قائده
١٥١ حياة الفقيه العظيم في سطور
١٥٣ الشيخ أبو الخير الميداني بقلم: عمر عودة الخطيب
١٥٤ ولادته ونشأته
١٥٤ متابعة دراسته في استانبول
١٥٥ دراسته وتحصيله
١٥٥ دروسه في جامع التوبة وزاوية الآجري
١٥٥ الصورة الصادقة للمسلم الزاهد
١٥٦ المرشد الصادق
١٥٦ دار الشيخ

الدكتور السيد عبدالعلي الحسني مدير ندوة العلماء بقلم: أبو الحسن

١٥٨	الفدوي
١٥٨	ولادته ونشأته
١٥٩	التحاقه بدار العلوم «ديوبند»
١٥٩	دراسته الطب العربي القديم
١٦٠	دراسته اللغة الإنجليزية والعلوم العصرية
١٦٠	إدارته لندوة العلماء
١٦١	ممارسته حرفة الطب
١٦١	أخلاقه وسجاياه
١٦١	مرضه ووفاته
١٦٢	مثال نادر للمصلحين
١٦٣	صلته بالشيخ حسين أحمد المدني
١٦٤	صلته بالشيخ محمد زكريا الكاندهلوي
١٦٤	تعلقه بالحجاز وشدة تعظيمه للنبي ﷺ وأصحابه وأهل بيته
١٦٤	حبه للعرب
١٦٥	اطلاعه على شؤون العالم الإسلامي
١٦٥	عنايته بالحديث النبوي الشريف
١٦٦	عنايته باللغة العربية ونشرها وتعليمها
١٦٦	أثره في أخيه السيد أبي الحسن
١٦٦	أثر مجالسه الرزينة وتوجيهاته الحكيمة
١٦٨	حسني السباعي بقلم ابنه: مصطفى السباعي
١٦٩	سليل بيت علمي
١٦٩	قوة شكيمة ومساندته للحركات الوطنية
١٧٠	تعاونه مع المجاهدين في الثورة السورية بحمص
١٧٠	امتناعه عن حضور صلاة عيد الفطر تضامناً مع الثوار
١٧١	محبه للخير وإسهامه في تأسيس الجمعيات الخيرية
١٧٢	محبه لدعوة الإصلاح

١٧٢ منهجه في محاربة بدعة (خميس المشايخ)
١٧٣ موقفه من مشاركة ابنه في الجهاد في فلسطين
١٧٥ عبدالقادر الرائي يوري بقلم: سعيد الأعظمي الندوي
١٧٥ فاجعتان عظيمتان
١٧٦ زاويته العامرة
١٧٨ وفاة مولانا حفظ الرحمن السيوهاروي بقلم: رئيس أحمد
١٧٨ مجاهد سياسي
١٧٩ كفاحه السياسي
١٧٩ دفاعه عن حقوق المسلمين
١٧٩ مطالبته بجعل لغة (أردو) إحدى لغات الهند الأساسية
١٨٠ جهاده ضد الإنكليز
١٨١ تأثيره السياسي
١٨١ تأسيسه ندوة المصنفين بالهند
١٨١ شخصية جامعة
١٨٢ ولادته ووفاته
١٨٢ مرضه وسفره للتداوي
	من زعماء المسلمين بالهند مولانا محمد حفظ الرحمن، بقلم: عبدالمنعم
١٨٣ النمر
١٨٤ ولادته ودراسته وجهاده
١٨٤ السكرتير العام لجمعية علماء الهند
١٨٤ حرصه على بقاء المسلمين في الهند
١٨٥ عضويته في البرلمان المركزي
١٨٥ معركة التجديد في مناهج دار العلوم
١٨٦ حماسه لمصالح المسلمين وقضاياهم
١٨٧ قضاء مصالح الناس
١٨٧ مؤلفاته باللغة الأوردية وإتقانه للغة الإنجليزية
١٨٧ مرضه ووفاته وجنازته

١٨٩ الشيخ أحمد الحارون بقلم: مصطفى السباعي
١٩١ آفات ثلاث أفسدت صفاء التصوف
١٩٢ تخلف المجتمع الإسلامي عن ركب الحضارة
١٩٣ المرشدون الهداة
١٩٣ العارف بالله فقيد الإسلام أحمد الحارون
١٩٣ نشأته الأمية وعمله بقطع الحجارة
١٩٤ منار المهتدين
١٩٤ تواضعه وزهده وسخاؤه
١٩٤ فهمه الصحيح للإسلام
١٩٥ عطاؤه الروحي والعلمي
١٩٦ المثل الصادق لروح الإسلام
١٩٧ محمد فؤاد الألويسي بقلم: عبدالعزيز البدري
١٩٧ العلماء العاملون
١٩٩ وفاة عالمين في يوم واحد ببغداد
١٩٩ حياة الشيخ الألويسي العلمية
٢٠٠ شيوخه
٢٠٠ توليه الإمامة والخطابة والتدريس
٢٠١ شغفه بالتدريس
٢٠١ برّه بتلاميذه
٢٠١ علمه الواسع وفهمه العميق
٢٠١ تتلمذ الشيخ البدري عليه خمسة عشر عاماً
٢٠٢ زهده وجرأته في الحق
٢٠٢ آراؤه السياسية الناضجة
٢٠٣ طريقته في الوعظ
٢٠٣ تصوّفه النقي
٢٠٤ أمله بنصر الإسلام
٢٠٤ نبأ نعيه وتشيع جنازته

٢٠٤	المصيبة بموت العالم العامل
٢٠٦	الأمير محمد عبدالكريم الخطابي بقلم: عدنان زرزور
٢٠٧	حال المسلمين عقب وفاة النبي ﷺ وحالهم في مطلع هذا القرن
٢٠٧	تسلم الحضارة الغربية زمام الركب البشري
٢٠٨	من ثمار الحضارة الغربية
٢٠٨	اقتسام العالم الإسلامي
٢٠٩	بزوغ سيف الأمير الخطابي
٢٠٩	العالم الإسلامي مزرعة الغرب
٢١٠	ولادة الأمير محمد عبدالكريم ونشأته ودراسته
٢١٠	وظيفته وقبض الإسبان عليه
٢١٠	حواره مع رئيس المجلس العسكري
٢١١	محاولة هروبه من السجن
٢١١	محاولة الضغط على والده
٢١٢	معارك أهل الريف والإسبان
٢١٢	استرداد المجاهدين لمركز (أبسران)
٢١٢	إبادة الجيش الكبير
٢١٣	عناية الأمير بالريف
٢١٣	معارك لاهبة متلاحقة
٢١٣	اتفاق القوتين الفرنسية والإسبانية على محاربته
٢١٤	هجوم الفرنسيين
٢١٥	سقوط المقاومة في (البرانس) واعتقال الأمير
٢١٥	نفيه إلى جزيرة (رينيون) واعتكافه على العلم والعبادة
٢١٦	إطلاق سراح بطل الريف
٢١٦	اللجوء إلى مصر والإقامة فيها
٢١٦	شهادة عضو مجلس العموم البريطاني
٢١٦	صدى الصوت الذي أطلقه الأمير محمد عبدالكريم
٢١٨	الأستاذ محمد الحقوي، بقلم: عبدالرحمن الميداني

- ٢١٩ رثاء الأستاذ محمد الحموي، للشاعر ضياء الدين الصابوني
- ٢٢١ الأستاذ الشيخ محمد معدل بقلم: أحمد علي زخور
- سماحة العلامة الشيخ عبدالمحسن الأسطواني شيخ المُعَمَّرين في بلاد
- ٢٢٣ الشام بقلم: مصطفى السباعي
- ٢٢٣ ولادته وأسرته
- ٢٢٥ وظائفه العلمية والسياسية
- ٢٢٥ القاضي الشرعي ورئيس محكمة التمييز الشرعية
- ٢٢٥ إحالته إلى التقاعد وعكوفه على المطالعة ومجالس العلم
- ٢٢٦ مجلس الشيوخ
- ٢٢٦ درسه في جامع السلطان بإستانبول
- ٢٢٨ نكته ودعابته
- ٢٢٩ مناجاة من قصيدة للفقيد نظمها في أيامه الأخيرة
- ٢٣٠ الشيخ عبدالحميد حجازي، بقلم (التحرير)
- ٢٣١ نجيب باقي بقلم التحرير
- ٢٣٢ ولادته وأسرته ونشأته
- ٢٣٢ وظائفه وإنشائه المدرسة الفاروقية
- ٢٣٢ تأسيسه دار الأيتام الإسلامية بحلب
- ٢٣٣ تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية
- ٢٣٣ تأسيس المعهد العربي الإسلامي
- ٢٣٣ رئيس اتحاد الجمعيات الخيرية بحلب
- ٢٣٤ في ميادين الجهاد
- ٢٣٤ في ميادين الاقتصاد
- ٢٣٥ الشيخ إبراهيم أحمد المظاهري بقلم: أبي الحسن الندوي
- ٢٣٥ عالم بورما والزعيم الإسلامي
- ٢٣٦ أبرز ملامحه ومزاياه
- ٢٣٧ رئيس جمعية العلماء في بورما
- ٢٣٧ اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام ونشرها في غير المسلمين

٢٣٧ تأييده للجماعات الإسلامية والمشاريع الخيرية
٢٣٨ قصّة إسلامه
٢٣٨ رفع قضيتّه إلى المحكمة
٢٣٩ دراسته في مظاهر العلوم
٢٣٩ وفاته وتشيع جنازته
٢٤٠ عباس محمود العقاد بقلم: محمد بسام الأسطواني
٢٤١ رثاء طه حسين للعقاد
٢٤١ رثاء أمين نخلة للعقاد
٢٤٢ كلمة ميخائيل نعيمة عن العقاد
٢٤٢ العقاد فرض نفسه على الناس بقوة فكره وغزارة علمه
٢٤٢ تراجع العقاد أمام الرافعي
٢٤٣ تصدّي العقاد لمفتريات أعداء الإسلام
٢٤٣ دراسات العقاد الإسلامية
٢٤٤ فترة النضج الفكري والأدبي
٢٤٤ ضرباته القاتلة لأعداء اللغة العربية
٢٤٤ مرآهقو الأدب والتفكير
٢٤٥ آثار العقاد دائرة معارف غنية
	عباس محمود العقاد رائد من رواد الفكر العربي والإسلامي بقلم: محمد المبارك
٢٤٦ من أعلام الفكر والأدب
٢٤٦ أشهر كُتّاب العربية
٢٤٦ أثر المنفلوطي والرافعي وطه حسين في أبناء الجيل المثقف
٢٤٧ أثر العقاد في الجيل المثقف
٢٤٨ دراسة العقاد لابن الرومي نموذج للتحليل الأدبي
٢٤٨ الكشف عن تاريخ العرب وحضارة الإسلام
٢٤٩ كشفه عن حقائق الإسلام
٢٤٩ كتبه المتتابعة في ميدان الثقافة الإسلامية

٢٥٠ دفاعه عن العربية الفصحى وتراثها
٢٥٠ مراحل حياة العقاد الفكرية والأدبية
٢٥١ عَلمٌ شامخٌ من أعلام هذا العصر
٢٥٢ انطباعات عن العقاد بقلم: عبدالرزاق محيي الدين
٢٥٢ تنوع فنون المعرفة
٢٥٢ صناعة التأليف
٢٥٣ التزامه بالرأي وإصراره عليه
٢٥٣ الحرية الفردية في التفكير والعمل
٢٥٣ إيمانه العميق المدرك
٢٥٣ شعر العقاد
٢٥٤ مؤلفات العقاد
٢٥٧ الدكتور عبدالحليم النجار بقلم: مازن المبارك
٢٥٧ رئيس المركز الإسلامي بواشنطن
٢٥٧ مرضه ووفاته
٢٥٨ في ميادين العمل العلمي والإسلامي
٢٥٨ عمله في كتاب «المحتسب» لابن جنّي
٢٥٨ رسوخه في علوم العربية
٢٥٨ جمعه بين الثقافتين الإسلامية العربية والغربية الحديثة
٢٥٩ خلقه الكريم
٢٥٩ مختاراته المترجمة
٢٥٩ ترجمته كتاب بروكلمان «تاريخ آداب اللغة العربية» وتعقيبه عليه
	مصطفى السباعي تاريخ دعوة في حياة رجل بقلم: محمد بسام
٢٦١ الأسطواني
٢٦١ ولادته ونشأته
٢٦٢ طلبه العلم
٢٦٣ متابعة دراسته الشرعية بمصر
٢٦٤ مباشرته التدريس والوظائف التي شغلها

٢٦٥	تدريسه في كلية الحقوق بجامعة دمشق
٢٦٥	تأسيسه كلية الشريعة وتسلمه عمادتها
٢٦٦	إنشاء موسوعة الفقه الإسلامي
٢٦٦	عنايته بمناهج كلية الشريعة
٢٦٦	درسه الأسبوعي «قاعة البحث»
٢٦٧	هيمته العالية وعزيمته الماضية
٢٦٧	مناصبه السياسية وثقة الأمة به وتكريمها له
٢٦٨	إثاره العمل الشعبي على المناصب
٢٦٨	بداية الكفاح والانطلاق في العمل العام
٢٦٩	مقاومة مدارس التبشير الأجنبية
٢٦٩	إعلانه الحرب على الاستعمار
٢٧٠	متابعة كفاحه الوطني في مصر
٢٧١	عودته إلى سورية واعتقال الفرنسيين له
٢٧١	كفاحه من أجل القضية الفلسطينية
٢٧٣	قيادته للمقاومة المسلحة ضد الفرنسيين
٢٧٣	البدء بالدعوة وبعث الفكرة الإسلامية
٢٧٥	اتصاله بالإمام الشهيد حسن البنا
٢٧٧	إلى ميدان الجهاد وخط النار
٢٧٩	كفاحه في ميدان الصحافة
٢٨٠	إنشاء جريدة «المنار»
٢٨٠	إنشاء جريدة «الشهاب»
٢٨١	مجلة «حضارة الإسلام»
٢٨٢	من مواقف الرجولة والكرامة
٢٨٣	محاولة اغتياله
٢٨٣	مؤتمرات ورحلات عالمية
٢٨٥	زيارة الجامعات الغربية
٢٨٦	سفره إلى موسكو

٢٨٧	كفاحه في ميادين الخدمة الاجتماعية
٢٨٨	رحلات الحج والعمرة
٢٨٩	مغالبته لآلام المرض الطويل
٢٩٢	فترة مرضه أخصب فترات حياته إنتاجاً
٢٩٢	الصبر الجميل والرضا والتسليم
٢٩٣	وفاته
٢٩٥	خصائص في حياة السباعي، بقلم: محمد سعيد رمضان البوطي
٢٩٥	يا لضعف القلم
٢٩٦	وقع نبأ وفاة السباعي
٢٩٦	السباعي في صراعه مع المرض
٢٩٦	عمل دائب وجهاد مستمر
٢٩٧	حياة السباعي في سبيل الله وحده
٢٩٨	سلامة صدره
٢٩٨	ما أسهل الخلاف في الرأي والغلط في البحث إذا كان القصد مرضاة الله
٢٩٩	شفافه من أوصاب الدنيا
٢٩٩	موت السباعي ترك فراغاً في التوجيه القويم والقيادة الرشيدة
٢٩٩	صفات ثلاثة للسباعي
٢٩٩	العمل الإيجابي الدائب
٣٠٠	كفاءة قيادية رائعة
٣٠٠	لوعة قلبية نائرة
٣٠٢	حالته القلبية مع الله في أيام مرضه
٣٠٣	الشيخ محمد حريري بقلم: عبدالله علوان
٣٠٦	في ذكرى وفاة الشيخ الإبراهيمي، بقلم: محمد المبارك
٣٠٦	جمعية العلماء ومكانها في تاريخ الجزائر الحديث
٣٠٦	دور جمعية العلماء المسلمين في نهضة الجزائر واستقلالها
٣٠٧	تعرف الأستاذ المبارك على جمعية العلماء الجزائرية
٣٠٧	جريدتنا «البصائر» و«الشهاب»

٣٠٧ أثر منشورات جمعية العلماء في المسلمين الجزائريين
٣٠٨ خطط الاستعمار الفرنسي في التنكيل بالجزائريين
٣٠٨ منهج حركة جمعية العلماء الجزائريين
٣٠٩ من أعلام الجمعية
٣٠٩ إحياء الإسلام في عقيدته ولغته
٣٠٩ نشر الوعي الإسلامي عن طريق الشعب والجيل الناشئ
٣١٠ الوعي السياسي الشامل في جمهور الجزائر
٣١١ واجب الوفاء لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومؤسسيها
٣١٢ إحياء ذكرى ابن باديس والإبراهيمي
	محمد البشير الإبراهيمي علم من أعلام العرب في القرن العشرين، بقلم:
٣١٣ عمر الحكيم
٣١٣ زيارة الإبراهيمي للملك سعود
٣١٤ تصوير واقع الثورة الجزائرية
٣١٥ حاجة الثورة إلى إمدادها بكل أنواع المساعدة
٣١٦ انتهاء مقابلة الإبراهيمي ومعاناته آلام المرض والشيخوخة
٣١٧ بين الزاهدين في الحكم والمتطلعين إليه
٣١٧ مهمة البشير الإبراهيمي رئيس رابطة العلماء الجزائريين
٣١٨ من مرحلة المعرفة النظرية إلى مرحلة المعرفة العملية
	من طَور الدعاء والفخر بالثورة إلى طور البذل المادي والعون
٣١٨ السياسي
٣١٩ استجابة الملك سعود لنصرة مجاهدي الجزائر
٣٢٠ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بقلم: عبدالرحمن الغريب
٣٢٠ وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدر
٣٢١ عروبة الشمال الإفريقي
٣٢٣ السياسي البارع
٣٢٥ المعلم المربي
٣٢٥ تنظيم التعليم العربي والإسلامي

٣٢٧	الناصح الصادق
٣٢٧	منيع الشفاء ومبعث البلاء
٣٢٨	أسلحة لا نُحسن استعمالها
٣٢٩	كذب فرنسا على التاريخ وتزويرها للأحداث
٣٢٩	سُبُل المُسلِّطين لدوام السلطة
٣٣١	الإبراهيمي الأديب
٣٣١	شعره وسجعه
٣٣٢	..	من عظمة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بقلم: محمد الطاهر فضلاء
٣٣٢	ما أعظمك وأجملك حياً وميتاً
٣٣٣	أثر فقد العلامة الإبراهيمي
٣٣٤	في صحف النهضة
٣٣٤	طالب وأستاذ
٣٣٥	الشيخان الإبراهيمي وابن باديس
٣٣٦	سر... وحلم
٣٣٦	من عالم الغيب
٣٣٧	يُقَلُّ الأمانة
٣٣٧	تغريب الأمة
٣٣٩	بطل وشعب...
٣٤٠	موت العظماء وخلود ذكركم
٣٤١	العظمة الحقّة
٣٤١ عظيم في حياته وعظيم في موته
٣٤٢	١٩ ماي و١٩ جوان
٣٤٢	مطالب لتجديد ذكرى الإبراهيمي
٣٤٤	الأستاذ المربي محمد خير الجلال، بقلم: محمد أديب الصالح
٣٤٥	الأستاذ المُربي الناجح
٣٤٥	تواضعه وكرامته للظهور
٣٤٦	الأستاذ الجلال في سطور

٣٤٧ كلمة مجلة الحضارة
٣٤٨ كلمة الأستاذ محمد مبارك
٣٤٨ بذرة صالحة طيبة
٣٤٨ إيفاده للدراسات العليا في دار العلوم بالقاهرة
٣٤٩ صلاحه وصبره على طلب العلم
٣٤٩ دراسة نفيسة عن الإمام الرازي وآرائه الكلامية والفلسفية
٣٥٠ الجيل الجديد الذي يحمل رسالة الإسلام
٣٥٢ في ذكراك يا صالح، بقلم: خالد الرفاعي
٣٥٢ ذكرى الفضيلة والرجولة والوعي
٣٥٣ (صالح) الإنسان الذي نبحت عنه
٣٥٤ الشيخ يونس عبدالغني، بقلم: عبدالله الطنطاوي
٣٥٥ ملامح شخصيته المميزة
٣٥٥ جرأته وصدعه بالحق
٣٥٥ شغفه الشديد بالعلم
٣٥٦ سعيه الحثيث في سبيل نشر الإسلام وتطبيق أحكامه
٣٥٧ عزته الإيمانية
٣٥٧ إسهامه في بناء المساجد
٣٥٨ ضمير القرية
٣٥٨ سبب تعلق الناس به
٣٥٩ الحزن على وفاته
٣٦٠ الشيخ محمد نجيب خياطة، بقلم: محمد أبو اليمن خياطة
٣٦٠ اسمه ومولده
٣٦١ طلبه للعلم وأساتذته
٣٦٢ نشره للعلم
٣٦٢ أخذه لعلم القراءات
٣٦٣ إجازاته
٣٦٤ أخلاقه وحياته مع طلابه

٣٦٤ مؤلفاته
٣٦٥ وفاته
٣٦٦ الاستاذ مصطفى الأعسر رحمه الله، بقلم التحرير
٣٦٦ ولادته ونشأته ودراسته وتدريسه
٣٦٦ إخلاصه وجدّه
٣٦٧ خطبه وجرأته
٣٦٧ وفاته وتشيعه
٣٦٧ أسرته
٣٦٨ صفاته وخصائصه
٣٦٩ الشيخ عبدالرحمن الزعبي الطيبي بقلم: محمد بهجت البيطار
٣٧١ مع الرجل العظيم، الداعية الربّاني الشيخ محمد الحامد، بقلم التحرير ..
٣٧٢ يبعث أمةً وحده
٣٧٢ مصاب الأمة ورفع العلم ..
٣٧٣ أحب لقاء الله فأحب لقاءه
	حين تعرف الأمة رجالها. فقيد الإسلام الشيخ محمد الحامد، بقلم: محمد
٣٧٥ أديب الصالح
٣٧٥ واجب الوفاء
٣٧٦ الهدير الإيماني المعبر
٣٧٦ الميراث العلمي
٣٧٧ موضع الثقة في النقل والحُجة في العمل والقدوة
٣٧٧ الزهد في الدنيا
٣٧٧ تعدّد جوانب شخصيته
٣٧٧ جعل علمه زُلفى إلى مرضاة الله وطريقاً إلى الجنة
٣٧٨ الوعي الكبير لطبيعة العمل الإسلامي
٣٧٨ إعداّد صادق
٣٧٩ الشمول في نظرتّه إلى ساحة العمل الإسلامي
٣٧٩ معالم توجيهه وإرشاده

٣٨٠	رائد من رؤاد القافلة المؤمنة
٣٨١	الغايات الكبار والنفوس الكبار
٣٨٢	أخي كما عرفته بقلم: عبدالغني الحامد
٣٨٢	ولادته ونشأته
٣٨٣	أسرته
٣٨٣	مواقفه الجريئة في الدفاع عن الإسلام
٣٨٣	جنازته
٣٨٣	ذكريات عن أخوي: محمد وبدر الدين
٣٨٤	عاطفته وحنؤه وصدقه
٣٨٤	نشأته الصالحة
٣٨٥	في مدرسة دار العلوم الشرعية بحماة
٣٨٥	في المدرسة الخسروية بحلب
٣٨٥	في كلية الشريعة بالأزهر
٣٨٦	إيثاره العودة إلى بلده
٣٨٦	الخطيب المدرّس
٣٨٦	دعوته إلى الجهاد
٣٨٧	في ثانوية ابن رشد
٣٨٧	جهوده في الدعوة إلى الله تعالى
٣٨٧	مؤلفاته وفتاويه
٣٨٨	مرضه
٣٨٨	رضاه عن الله عز وجل
٣٨٨	وفاته
٣٩٠	حماه... وعالمها الراحل، بقلم: محمد سعيد رمضان البوطي
٣٩٠	صورة حماة المتميزة الفريدة
٣٩٠	حديث النواخير الصاعدة الهادرة
٣٩١	مرشد حماة العظيم
٣٩٢	منزل متواضع

٣٩٢	رؤية الشيخ محمد الحامد لأول مرة
٣٩٣	تأثير الشيخ في مدينته
٣٩٣	حديثه من أغوار نفسه المؤرقة المتأمل
٣٩٣	فكر ناقد بصير
٣٩٤	في صفوف الطلاب
٣٩٤	سر انصياع حماة لشيخها العظيم
٣٩٥	التكامل الرائع في حياته الإسلامية
٣٩٦	الشباب الواعي مادة العمل الإسلامي
٣٩٦	بناء صرح الحقيقة الإسلامية
٣٩٧	العالم المسلم الحق
٣٩٨	التخدير من رجلين: خامل ومهيّج
٣٩٨	أثر الحامد المتكامل
٣٩٨	وعى تلاميذه وتكامل حياتهم وأفكارهم
٤٠٠	الفراغ الخطير الذي خلفه الشيخ الحامد
٤٠٠	صورة حماة الحيّة المشرقة
٤٠٢	ضيف الحضارة محمد حامد، التحرير
٤٠٢	قال الأستاذ الحامد
٤٠٣	دراستي وتكويني العلمي
٤٠٣	المدرسة الخسروية الشرعية بحلب
٤٠٣	الأستاذ الشيخ أحمد الزرقا
٤٠٤	شيوخ في المدرسة الخسروية
٤٠٤	الالتحاق بالجامع الأزهر
٤٠٥	الدروس الخاصة والعامة
٤٠٥	إيثار العلم على لذائذ الدنيا
٤٠٥	احترام خلاف الأئمة في الفروع الفقهية
٤٠٦	الشخصيات التي تأثرت بها في العصر الحاضر
٤٠٦	محمد سعيد الجابي وتوفيق الصباغ

٤٠٦ محمد سعيد النعساني
٤٠٦ أحمد المراد
٤٠٧ العارف بالله محمد أبو النصر الحمصي النقشبندي
٤٠٨ الشيخ عيسى البنانوني
٤٠٩ الشيخ إبراهيم الغلاييني
٤١٠ الإمام الشهيد حسن البنا
٤١١ أبرز الأمور التي لها أثر في حياتي
٤١٢ عملي وإنتاجي العلمي
٤١٣ تنشئة الجيل المسلم
٤١٤ طريقة إبلاغ الجمهور حقائق الإسلام
٤١٤ التربية في البيت
٤١٥ سبل الخلاص
٤١٦ الشيخ محمد إبراهيم الختني، بقلم الدكتور: محمد أديب الصالح
	الفقيه الصالح الشيخ محمد إبراهيم الخُتْنِي رحمه الله تعالى، بقلم:
٤١٧ وهبي سليمان الفاوجي الألباني
٤١٨ اسمه وولادته
٤١٨ مؤلفاته
٤١٩ سفره إلى بخارى في طلب العلم
٤١٩ مجيئه إلى الحجاز
٤٢٠ تدريسه في المدينة المنورة
	فضيلة العلامة المحقق الشيخ محمد إبراهيم الفضيلي الختني ثم المدني
٤٢٢ بقلم: محمد سعيد دفتردار
٤٢٢ ولادته ونشأته ودراسته
٤٢٢ رحلته في طلب العلم
٤٢٣ انتهاءه من التحصيل وإجازاته
٤٢٣ متابعته الرحلة في طلب العلم
٤٢٤ رحلته إلى الحج

٤٢٤	دراسته على الشيخ محمد عبدالباقي الأنصاري وتدريسه في مدرسته
٤٢٤	تدريسه في مدرسة العلوم الشرعية
٤٢٤	عمله في مكاتب المدينة المنورة
٤٢٥	اطلاعه على المخطوطات النادرة
٤٢٥	التدريس في المسجد النبوي
٤٢٥	مؤلفاته
٤٢٥	دروسه في بعض المدارس
٤٢٦	رحلاته
٤٢٦	صفاته وأخلاقه وعاداته
٤٢٦	مرضه ووفاته
٤٢٧	الشيخ عبدالله هارون شهيد جنوب إفريقية، بقلم: علي الخطيب
٤٢٨	معارضته السياسيّة للحكومة العنصريّة
٤٢٨	آثار الشيخ الشهيد عبدالله هارون
٤٢٩	صحيفة الشهيد
٤٢٩	جماعة الصدق
٤٣٠	الإمام عبدالله هارون، بقلم ابنه: محمد عبدالله هارون
٤٣٠	ولادته ودراسته
٤٣١	نشاطه العلمي والدعوي
٤٣١	مقاومته الدعوة العنصريّة
٤٣١	مغادرته البلاد
٤٣١	إقامته بمكة المكرمة
٤٣٢	اعتقاله واستشهاده
٤٣٣	محبّ الدين الخطيب.. كما عرفته، بقلم: أبي الوفا المراغي
٤٣٣	تاريخ حافل بالجهاد في ميادين كثيرة
٤٣٤	ثقافته وذكاءه
٤٣٤	تنقلاته واستقراره بمصر
٤٣٤	جهوده في الصحافة والجماعات الإسلامية

٤٣٥	مجلة الفتح
٤٣٥	جولاته القلمية العنيفة
٤٣٥	محب الدين كان كاتباً لا أديباً
٤٣٦	مجلة (الزهراء) ورئاسته تحرير مجلة (الأزهر)
٤٣٦	المطبعة السلفية
٤٣٦	من آثاره العلمية
٤٣٦	سبيل الإصلاح
٤٣٧	جهاده في بعض المعارك
٤٣٧	غلبة اللون التاريخي على بحوثه
٤٣٧	صلابته في الرأي
٤٣٧	حياة محب الدين الاجتماعية
٤٣٩	علي أحمد باكثير، بقلم: محمد الحسناوي
٤٣٩	حياته
٤٤٠	عمله
٤٤٠	رحلاته
٤٤١	طبعه وهواياته
٤٤٢	بواكيره الأدبية
٤٤٢	مواقفه
٤٤٣	آخر ما كتبه
٤٤٤	محاضراته عن دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار
٤٤٥	صدي وفاته
٤٤٥	دارسو أدبه
٤٤٦	عروض مسرحياته ورواياته
	الشاعر محمد وحيد الدين العالي الحيدر آبادي، بقلم: محمد عبدالستار
٤٤٧	خان
٤٤٧	الدولة الآصفية
٤٤٧	أصله ونشأته وشبابه

٤٤٨	طلبه العلم وشيوخه
٤٤٩	أدبه وشعره
٤٤٩	ديوانه «الجواهر الزاهرة»
٤٤٩	القصيد الأولى
٤٥٠	القصيد الثانية
٤٥١	القصيد الثالثة
٤٥٣	قصيدته في أحوال المسلمين في عصره
٤٥٥	حُسن الاستهلال وجمال التخلُّص
٤٥٦	رثاؤه لمصطفى كامل
٤٥٧	بيت فضيلة وشرف
٤٥٨	اشتغاله بتصحيح أمهات الكتب
٤٥٨	وفاته
٤٥٩	الشيخ عبدالوهاب الحافظ الملقب بـ (دبس وزيت)، بقلم التحرير
٤٥٩	من أعلام الفقه وأشراف الأمة
٤٦٠	أسرته
٤٦٠	طلبه للعلم وشيوخه
٤٦١	نشره للعلم ودروسه
٤٦١	أخلاقه
٤٦٢	الدروس الدورية التي كان يقوم بها طلابه
٤٦٣	وفاته
٤٦٤	الشيخ محمد بن إبراهيم رجل علم وعمل، بقلم: عبدالرحمن رأفت الباشا
٤٦٥	أعباء جسام
٤٦٥	العلم وتربية الأجيال
٤٦٥	اهتمامه بشؤون القضاء
٤٦٦	كريم شمائله
٤٦٦	نبئه وتبئته
٤٦٦	لا ينتقم لنفسه

٤٦٦ معرفته أقدار الناس
٤٦٦ تواضعه الجَم
	الشيخ صالح العقاد رجل فقدته الأمة الإسلامية، بقلم: محمد سعيد
٤٦٨ الفيومي
٤٦٩ اسمه ولقبه
٤٦٩ دراسته وشيوخه
٤٧٠ ثقة أساتذته به
٤٧٠ اشتغاله بالصناعة والتجارة
٤٧٠ انصرافه إلى العلم
٤٧١ دروسه العامة والخاصة
٤٧١ لباسه
٤٧٢ طعامه
٤٧٢ كثرة عبادته
٤٧٢ بيعه وشرائه
٤٧٣ كراهته تقبيل يده وفتواه في استحبابها لزهد صاحبها أو صلاحه
٤٧٤ موقفه من خصومه
٤٧٤ سماحة نفسه
٤٧٤ كراهته الجدل
٤٧٥ شدة تواضعه وخنوه على الضعفاء
٤٧٥ احترامه للعلماء العاملين
٤٧٥ منزلته عند الناس
٤٧٦ حلُّ المشكلات وتسويته الخصومات
٤٧٦ كريم شمائله
٤٧٦ محاربته البدع
٤٧٧ وفاته رحمه الله تعالى
٤٧٨ الشيخ صالح العقاد، بقلم: محمد الصباغ
٤٧٨ بقیة السلف الصالح

٤٧٩ الفقيه الشافعي الكبير
٤٨٠ صدعه بالحق
٤٨١ كسبه وتجارته
٤٨١ ورعه وزهده
٤٨٢ امتناعه من قبول وظيفة الإفتاء
٤٨٢ اعتذاره عن الذهاب إلى الحكام
٤٨٢ كراهته الاستدانة
٤٨٢ مشاركته في الحياة العامة
٤٨٣ استمراره في العمل
٤٨٣ دروسه
٤٨٤ تلاميذه من التجار والشباب
٤٨٥ الفقيه اللغوي العلامة الفاضل ابن عاشور، بقلم: محمد أنور الجندي ...
٤٨٥ عميد كلية الزيتونة
٤٨٥ رحلاته العلمية ومحاضراته
٤٨٦ والده العلامة الطاهر بن عاشور
٤٨٦ دراسته وشيوخه
٤٨٧ تخرجه في كلية الآداب في جامعة الجزائر
٤٨٧ تدريسه في جامعة الزيتونة والمدرسة الصادقية
٤٨٨ مشاركاته في مجال الثقافة الإسلامية والعربية
٤٨٨ أدائه العربي والفرنسي وإطلاعه على الفكر الإسلامي والغربي
٤٨٩ دروسه ومحاضراته ومؤلفاته
٤٨٩ مشاركاته في المؤتمرات الإسلامية والعربية
٤٩٠ ميادين ثلاثة
٤٩٠ وطن الارتكاز ووطن الامتداد
٤٩١ ظاهرة تطلع المغرب إلى المشرق
٤٩١ حصيلة ضخمة من العلم والثقافة
٤٩٣ محمد الفاضل ابن عاشور، بقلم: محمد الدسوقي

٤٩٣ العالم الفقيه اللغوي الأديب المؤرخ
٤٩٤ بيت العلم والأدب
٤٩٤ دراسته
٤٩٥ تدريسه في جامع الزيتونة
٤٩٥ رئاسته للجمعية الخلدونية
٤٩٥ مفتي الديار التونسية ووظائفه الأخرى
٤٩٦ معرفته بمخطوطات الخزائن التونسية
٤٩٦ مشاركته في مؤتمرات المجمع العلمية
٤٩٦ عضويته في مجمع البحوث ومجمع اللغة العربية
٤٩٦ بحثه في المصطلح الفقهي في المذهب المالكي
٤٩٧ بحثه عن الاجتهاد في ماضيه وحاضره
٤٩٨ دراساته النحويّة واللغويّة
٤٩٩ مؤلفاته الأدبية والعلمية
٥٠١ الشيخ محمد السيد، بقلم: سعيد السيد
٥٠١ اتصاله بالشيخ علي الدقر
٥٠٢ موسم الحصاد
٥٠٢ معرفته الحقّة بالإسلام
٥٠٢ سلوكه في حياته
٥٠٣ محنته وسجنه
٥٠٣ صبره وعزيمته
٥٠٤ القاضي محمد أديب الأهدي، بقلم: محمد صالح
٥٠٤ اسمه وكنيته ولقبه ونسبه
٥٠٥ موطنه الأصلي ومسكنه الجديد
٥٠٥ موجز عن تاريخ حياته العلميّة والعملية
٥٠٦ أضواء على شخصيته
٥٠٧ مناضلته ضد الاستعمار
٥٠٨ إصلاحاته الدينية والاجتماعية

٥٠٩	آراء علماء عصره وفضلائه فيه
٥١٠	مؤلفاته
٥١٢	أبا الأهدلي: قصيدة للشاعر محمد الحستاوي
٥١٥	الدكتور عبدالكريم عثمان، بقلم: محمد أديب الصالح
٥١٥	في ريعان الشباب وأوج القوة ونُضرة الحياة
٥١٦	تقدير الرواد
٥١٧	الداعية المؤمن
٥١٧	اهتمامه بواجب الدعوة والعطاء
٥١٧	مجال العلم
٥١٨	مؤلفاته
٥١٨	التطلع إلى الحقيقة والسعي وراء المعرفة
٥١٩	الإخلاص وصفاء النفس
٥١٩	دعوة لليقظة والتنبيه
٥٢٠	لوعة القلب .. ومعالم الرضا
٥٢١	حياة الفقيد في سطور
٥٢٢	وداعاً... يا عبدالكريم، بقلم: محمد منلا غزيل
٥٢٢	شجون وذكريات
٥٢٣	مفهوم الثقافة والحضارة والمدنية
٥٢٣	خصائص الثقافة الإسلامية
٥٢٤	تحديات الثقافة الإسلامية
٥٢٥	تحديات الحضارة الحديثة وثقافتها
٥٢٥	موقف الثقافة الإسلامية من تحديات الغرب
٥٢٦	الحركات الإصلاحية الحديثة
٥٢٦	مستقبل الثقافة الإسلامية
٥٢٧	الشيخ نعيم النعيمي في ذمة الله، بقلم: بلقاسم النعيمي
٥٢٧	تمهيد
٥٢٨	اسمه وعائلته

٥٢٩	ولادته
٥٢٩	والده
٥٢٩	إخوته
٥٢٩	حفظه للقرآن
٥٣٠	انتسابه إلى زاوية الشيخ المختار
٥٣١	شيوخه في الزاوية
٥٣١	سفره إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة
٥٣٢	الرحلة الطويلة
٥٣٢	اتصاله برجال العلم واطلاعه الواسع على الكتب
٥٣٣	تصوفه
٥٣٣	مطالعتة الصحف والمجلات الإسلامية
٥٣٣	اشتراكه في جمعية العلماء المسلمين
٥٣٣	في ميدان الإصلاح والتعليم
٥٣٤	نفيه من (طولقة) وإقامته في (بسكرة) وتأسيسه معهداً تعليمياً
٥٣٤	استقراره في قسنطينة وتدريسه في معهد ابن باديس
٥٣٤	حضوره المؤتمر الثقافي الإسلامي بتونس
٥٣٥	بين صفوف المجاهدين
٥٣٥	التحاقه بجيش التحرير
٥٣٦	سفره إلى تونس للعلاج وإسناد مهمة المسامرات إليه
٥٣٦	مواضيع مسامراته العلمية والدعوية
٥٣٦	جولاته في القطر التونسي
٥٣٧	تلقيه علم القراءات وروايته للحديث
٥٣٧	سفره إلى الحج
٥٣٧	زيارته لعدد من البلاد وإقامته بحمص
٥٣٨	إشرافه على مفتشية الأوقاف في قسنطينة
٥٣٨	حضوره المؤتمر الإسلامي في تونس
٥٣٨	رئاسته لجنة الفتوى في المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر

٥٣٨	مرضه ووفاته
٥٣٩	الجانب العلمي
٥٤٠	العلوم التي اهتم بها
٥٤٠	درايته الواسعة بالأدب العربي
٥٤٠	موهبته الشعرية
٥٤١	في ميدان النثر
٥٤١	وصف سفره للحج
٥٤١	ضياح إنتاجه العلمي
٥٤٢	من آثاره العلمية
٥٤٣	الشيخ عبدالكريم الرفاعي، بقلم: عدنان زرزور
٥٤٣	صورة وخاطرة
٥٤٤	الدعاة والمصلحون هم الذين يصنعون التاريخ
٥٤٤	أثر الحماسة الروحية
٥٤٤	تاريخنا الحقيقي الذي نفخر به
٥٤٥	في حلقة الشيخ علي الدقر
٥٤٥	رسالة الشيخ بدر الدين الحسيني في الإصلاح والنهضة العلمية
٥٤٦	من أعلام الدعوة والهداية والإرشاد
٥٤٦	تدريسه الفقه الشافعي والتوحيد وأصول الفقه
٥٤٧	استحضاره العجيب لأخبار الصحابة
٥٤٧	المسجد مهّد الدعوة وملاذها
٥٤٧	إخلاص الجندي وحماسة القائد
٥٤٨	الحب: أساس دعوته إلى الإسلام
٥٤٨	سرّ نجاحه: الصدق والرفق
٥٤٨	معاني الصدق عند الشيخ
٥٤٩	رفقُ الشيخ رحمه الله
٥٥٠	صور ومناسبات يرتبط بعضها ببعض
٥٥١	بشائر ربيع الشام ونسائمه

٥٥٢ العالم العامل الشيخ عبدالكريم الرفاعي، بقلم: عبدالغني الدقر
٥٥٢ منهج الشيخ علي الدقر في تربية تلاميذه
٥٥٣ التربية الصوفية الصالحة
٥٥٣ إقبال الفتى على العلم
٥٥٤ المنهج العلمي في التلقي
٥٥٤ حضوره عند الشيخ بدر الدين الحسيني
٥٥٤ من أركان الدعوة والعلم والإرشاد
٥٥٥ دينه واستقامته وحُسن سَمْتِه
٥٥٥ وفاؤه لشيخه الكبير علي الدقر
٥٥٦ عنايته بتربية الشباب وتعليمهم
٥٥٦ ثمرات دعوته وتعليمه
٥٥٧ ثروة ضخمة
٥٥٨ الأستاذ عمر الحكيم، بقلم: عدنان زرزور
٥٥٨ رثاء الرجال في وقت يعزُّ فيه الرجال
٥٥٩ المسؤوليات الجسام التي نهض بها جيل الأستاذ عمر الحكيم
٥٥٩ الجيل الطليعي الاستقلالي
٥٥٩ التحاقه بالكلية الحربية الفرنسية ثم المعهد الجغرافي
٥٦٠ ملاحقته من الاستعمار الفرنسي
٥٦٠ إيقاظ الشعور بالامتياز والتفوق على الحضارة الغربية
٥٦١ تناوله القضايا بشجاعة ورجولة وتفصيل
٥٦١ تأكيده على التصوف الإسلامي النقي
٥٦٢ اهتمامه بالقضايا العربية والإسلامية
٥٦٢ فهمه العميق لقضية الدولة العثمانية
٥٦٢ تحليله الدقيق للقضية الفلسطينية
٥٦٣ السبيل الوحيد لإزالة الدولة اليهودية
٥٦٣ تركيزه الذكي المبكر على إفريقية السوداء
٥٦٤ مستقبل البلاد الإسلامية

٥٦٥	الناحية الجغرافية للعالم الإسلامي
٥٦٥	تقديم الأقوات النباتية للبشرية
٥٦٦	أهمية الزراعة في الجزيرة العربية
٥٦٦	مستقبل الصحراء في إفريقيا
٥٦٧	نصدر العالم الإسلامي المكانة الأولى في الاقتصاد العالمي
٥٦٧	الثروات المعدنية والبترونية والزراعية في القارة الإفريقية
٥٦٨	أثر العنصر البشري في البلاد الإسلامية
٥٦٨	نظرته إلى المستقبل
٥٦٩	صفحة ابتدأت بالغبرة وانتهت بالشهادة
٥٦٩	مؤمن قوي الإيمان
٥٦٩	ذكريات رحلة جامعية
٥٧٠	في الطريق إلى المدينة المنورة
٥٧١	الشهيد العالم عمر الحكيم، بقلم: شفيق يبرودي
٥٧١	شخصية قوية وجاذبية عظيمة
٥٧١	مبادئه في الحياة
٥٧٢	دعوته إلى العلم التجريبي المعاصر
٥٧٢	الإسلام روح المقاومة والثورة في العالم
٥٧٢	تلازم العروبة والإسلام
٥٧٢	استقامته في سلوكه
٥٧٢	تلاميذه الكثيرون
٥٧٣	دوره في النهضة الثقافية المعاصرة
٥٧٣	تعمقه في علم أشكال الأرض
٥٧٣	ترجمته كتاب «الجغرافية الطبيعية»
٥٧٤	كتابه «المدخل إلى علم الجغرافية»
٥٧٤	مؤلفاته التاريخية
٥٧٤	ترجمته كتاب «الإسلام في إفريقيا السوداء»
٥٧٤	الاستعمار الفرنسي في الشمال الإفريقي

٥٧٥	مذكرات والده خالد الحكيم
٥٧٥	انتسابه إلى الكلية العسكرية ودراسته في المعهد الجغرافي
٥٧٥	اشتغاله بالحركة الوطنية
٥٧٦	تنوع ثقافته
٥٧٦	وفاته في حادث سيارة في طريقه إلى مكة المكرمة
٥٧٧	عبدالله القل سيف من سيوف الإسلام أغمدته أمته، بقلم: ماجد الكيلاني .
٥٧٧	الرجولة المؤمنة والعبرية الفذة
٥٧٨	شمانل الرجولة الأصيلة
٥٧٨	في ميدان الجندية والقيادة
٥٧٨	جهاده في حرب عام ١٩٤٨
٥٧٩	اتهام اليهود بالنظر والإرهاب
٥٧٩	أخلاقه الإسلامية في الحروب
٥٨٠	تبصيره الأمة بأبعاد الخطر اليهودي
٥٨٠	مقال الدكتورة بنت الشاطي عن كتابه «خطر اليهودية العالمية»
٥٨١	بيته منتدى الوافدين
٥٨١	أثر نكبة ١٩٦٧
٥٨٢	في ميدان الدعوة
٥٨٢	تواضعه للفقراء والمساكين
٥٨٣	أنفته وترفعه عن المراتب والمناصب
	في ذكرى المرحوم عبدالقادر السبسي، للقاضي الأستاذ عبدالوهاب
٥٨٤	التونجي
٥٨٤	نشأته وشيوخه
٥٨٥	في مهنة المحاماة
٥٨٥	تدريسه في المدرسة الفاروقية
٥٨٥	زمالتي له ومشاركتي له في مهنة المحاماة
٥٨٥	المحامي الفقيه العامل
٥٨٦	١ - عمله في المحاماة

٥٨٦	استظهاره مواد القوانين عن ظهر قلب
٥٨٦	في دائرة الأوقاف الإسلامية
٥٨٦	في محكمة البداية المدنية
٥٨٧	استعانة المحامين برأيه، واستشارة القضاة له
٥٨٧	٢ - صفاته العلمية وقوة حافظته
٥٨٨	مقالاته الكثيرة ورسائله المطبوعة
٥٨٨	اطلاعه على المذاهب الفقهية
٥٨٨	انطباق قانون التجارة السوري على المذهب المالكي
٥٨٩	حافظته القوية
٥٨٩	نادران عن قوة حافظته
٥٩٠	ردوده العلمية
٥٩٠	ملاحظاته على الموسوعة الفقهية
٥٩١	ملاحظاته على تفسير العلامة جمال الدين القاسمي
٥٩١	ملاحظاته على كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب)
٥٩٢	٣ - مشاركته في خدمة المجتمع وأعماله الدعوية
٥٩٢	أخلاقه العالية
٥٩٣	نكاته اللطيفة
٥٩٣	ردّه على قانون الطوائف
٥٩٣	قانون الطوائف
٥٩٥	الأستاذ عبدالقادر السبسي، بقلم: محمد فؤاد قسطللي
٥٩٦	من بقايا السلف الصالح
٥٩٦	في دار الأرقم
٥٩٧	العمل الجاد الحثيث في الدعوة إلى الله
٥٩٧	من أساطين القانون والشرعة
٥٩٨	طلابه من القضاة والمحامين
٥٩٨	في ميادين الدفاع عن الشرعة
٦٠٠	الأستاذ عبدالقادر السبسي، بقلم ابنه: أنس السبسي

٦٠٠	حفل نقابة المحامين التآيني
٦٠١	ولادته ونشأته وطلبه العلم
٦٠٢	اشتغاله بالمحاماة
٦٠٣	روح الدعاية الصافية
٦٠٣	صلات كبار علماء العصر به
٦٠٣	منتدى دار الأرقم
٦٠٣	جمعية تعليم الأميين
٦٠٤	دراسة مشروع قانون الأحوال الشخصية
٦٠٤	أعماله الاجتماعية
٦٠٤	رسالته في الردّ على قانون الطوائف
٦٠٤	المحامون الذين تمرّنوا عنده
٦٠٥	الداعية المصلح
٦٠٥	ردوده على المستشرقين والحاقدين
٦٠٦	وفاته رحمه الله تعالى
٦٠٦	دعاء ورجاء
٦٠٧	وصيته لأبنائه
٦٠٨	الأستاذ المحامي عبدالقادر السبسي
٦٠٨	الحفل التآيني في مقر نادي المحامين بحلب
٦٠٨	كلمة المحامي طريف كيالي رئيس نادي المحامين
٦٠٩	كلمة الأستاذ إحسان كيالي رئيس فرع نقابة المحامين بحلب
٦١٠	كلمة القاضي فؤاد القسطلبي
٦١٠	كلمة المحامي أسامة الصابوني
٦١١	كلمة أسرة الفقيد للمهندس أنس السبسي
٦١٢	الداعية المجاهد الأستاذ خالد الرفاعي، بقلم: عمر عبيد حسنة
٦١٣	اهتمامه بالعمل الإسلامي رغم اشتداد وطأة المرض عليه
٦١٣	شكره وصبره
٦١٤	المرض درس كبير

٦١٤ سفره إلى ألمانيا للعلاج
٦١٥ مبعث سعادته وطمأنينته
٦١٥ المسلم الداعية في كل الأوقات
٦١٦ أمله الكبير بالمستقبل لهذا الدين
٦١٦ ألف مألوف
٦١٧ زهده في متاع الحياة الدنيا
٦١٧ شجاعته وسرعة عودته إلى الحق
٦١٧ التربية بالقدوة
٦١٩ حياة الفقيد في سطور
٦٢٠ مالك بن نبي.. الفيلسوف الرائد، بقلم: عمر مسقاوي
٦٢١ قضية المجتمع الإسلامي المعاصر
٦٢١ من صفحة الأرقام إلى صفحة الفكر
٦٢١ بناء الإنسان
٦٢٢ مقارنة بين طه حسين وابن نبي
٦٢٣ الفكرة في المجتمع الإسلامي
٦٢٤ عالم الأشياء وعالم الأفكار
٦٢٥ قيام ألمانيا بنهضتها خلال عشر سنوات
٦٢٧ لمحات في وداع مالك بن نبي، بقلم: محمد منلا غزيل
٦٢٧ رسالة قلبية في وداع مالك بن نبي
٦٢٨ لقائي بالأستاذ مالك بن نبي
٦٢٨ أثره في بنيان الوعي الإسلامي المعاصر
٦٢٩ تقبله النقد والنصح
٦٢٩ بين سيد ومالك بن نبي
٦٢٩ وختاماً يا أيتها الروح المؤمنة
٦٣١ لمحة جديدة في ذكرى مالك بن نبي، بقلم: محمد منلا غزيل
٦٣١ التفريق بين صفة (المسلم) و(الإسلامي)
٦٣٢ ولادته ووفاته

- ٦٣٢ إحياء ذكرى مالك بن نبي ودوره في النهضة الإسلامية المعاصرة
- ٦٣٤ إطفاء ضوء النهار على الشعوب المستيقظة
- ٦٣٤ الصراع العالمي بسبب الخلاف بين المذاهب والنظم
- ٦٣٥ السيد محمد المكي الكتاني في ذمة الله، بقلم: عمر بهاء الأميري
- ٦٣٦ شباب محمد ﷺ
- ٦٣٦ مؤتمر علماء بلاد الشام
- ٦٣٦ ألفة الأرواح المتعارفة
- ٦٣٧ زياراتي وصحبتني له
- ٦٣٧ آخر لقاء
- ٦٣٧ أثر نعيه
- ٦٣٨ تكريم العلم والعمل والجهاد
- ٦٣٨ مزاياه وسجاياه
- ٦٣٩ خمل أمانته وتحقيق رسالته
- ٦٣٩ تأبين الهضيبي ومالك بن نبي
- ٦٣٩ وفاة عدد من كبار العلماء العاملين المخلصين
- ٦٤٠ قوافل العلماء العاملين
- ٦٤٢ الأستاذ إبراهيم أبا زيد رحمه الله شاب... ولكن؟! بقلم: محمود مفلح
- ٦٤٢ شاب لم يتجاوز الثلاثين
- ٦٤٣ دراسة الأدب العربي وتخرجه في جامعة دمشق
- ٦٤٣ وفاؤه بالوعد
- ٦٤٤ سفره في طلب العلم الشرعي
- ٦٤٤ صمته البليغ
- ٦٤٥ الثبات على الحق والجرأة فيه
- ٦٤٥ تواضعه الجثم
- الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة أبرز رجال الفقه الإسلامي المعاصرين
- ٦٤٧ للدكتور وهبة الزحيلي
- ٦٤٧ أ - لمحات عن شخصيته

٦٤٨	ب - خصائص كتبه وأهميتها
٦٤٩	مجموعته التاريخية عن أئمة المذاهب
٦٥٠	دفاعه عن شريعة الإسلام
٦٥٠	تجديده في عرض الأحكام
٦٥١	خصائص أخرى في كتب «أبو زهرة»
٦٥١	دعوته إلى الوحدة الجامعة
٦٥٢	تنديده بالهدامين
٦٥٣	ومضات من حياة (أبو زهرة)
٦٥٤	الأستاذ العلامة الشيخ محمد أبو زهرة، بقلم: عدنان زرزور
٦٥٤	نعي العلامة الشيخ أبو زهرة بين التصديق والشك
٦٥٥	التطواف في صفحات التاريخ
٦٥٥	وعى المؤرخين
٦٥٥	خواطر وذكريات عن (أبو زهرة)
٦٥٦	محاولة قراءة شخصية (أبو زهرة)
٦٥٦	لمحات من حياته
٦٥٧	إشرافه على عشرات رسائل الماجستير والدكتوراه
٦٥٧	أثر مدرسة القضاء الشرعي
٦٥٨	عاطف بك بركات
٦٥٨	كتبه في فروع الثقافة الإسلامية
٦٥٩	مقالاته وبحوثه
٦٦٠	شدة اعتزازه بكتابه عن الإمام الشافعي
٦٦٠	كلامه عن عصر كل مجتهد
٦٦٠	محاضرات في النصرانية
٦٦١	عميد الفقهاء ومجتهد العصر
٦٦١	غزالي العصر
٦٦١	الكلمة عند الأستاذ أبي زهرة
٦٦٢	الكلمة عند الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا

٦٦٢ الكلمة عند الأستاذ السباعي
٦٦٢ قدرة الأستاذ أبي زهرة على الخطابة في الفقه والقانون
٦٦٣ مفتاح شخصيته: الكرامة والعزة
٦٦٤ حبه لسعد زغلول وتأثره به
٦٦٥ ذكريات وصور
٦٦٥ عزمه على وضع كتاب في السيرة
٦٦٦ من عالم الثبغات والحقوق إلى عالم السؤال والملكوت
٦٦٦ عمل ودأب وجهاد حتى آخر دقيقة
٦٦٦ آخر كلماته المكتوبة
٦٦٧ في صفحات التاريخ
٦٦٨ الحاج محمد أمين الحسيني، بقلم التحرير
٦٦٨ ارتباط اسمه بقضية فلسطين
٦٦٨ المعركة مع اليهود جهاد مقدس
٦٦٩ تحذيره من خطر الحل السلمي
٦٦٩ محاربة اليهود له
٦٦٩ جهاد الحاج محمد أمين الحسيني
٦٧٠ الفقيه في سطور
٦٧٣ نبذة من آرائه وأقواله
	علال الفاسي كان الإسلام سيماء وانتماء، بقلم: عمر بهاء الدين
٦٧٧ الأميري
٦٧٧ حجم علال الفاسي في الزمان
٦٧٨ صور وعبرات
٦٧٩ لقاءات ومشاركات
٦٧٩ في مؤتمر القدس
٦٧٩ مؤتمر مكة الذي انبثقت عنه رابطة العالم الإسلامي
٦٨٠ في مجال العمل الإسلامي العام
٦٨٠ موقفه من قضية الشهيد سيد قطب وإخوانه

٦٨١	الرجل الموسوعة
٦٨١	حجمه في المكان
٦٨١	رحلة دائبة على دروب المجد والجهاد
٦٨٢	الإسلامية الحية الحركية
٦٨٢	نموذج من سلسلة الرجال في هذه الأمة
٦٨٤	الداعية المجاهد عبدالباسط عباس رحمه الله، بقلم: مصطفى البيراوي ..
٦٨٤	عظم خسارة الدعاة
٦٨٥	جنازته المشهودة
٦٨٥	مناقبه وأخلاقه
٦٨٦	منهجه في الدعوة
٦٨٧	حياة الفقيه في سطور
٦٨٨	في وداع عبدالباسط عباس، قصيدة للشاعر محمد منلا غزيل
٦٨٩	الاستاذ جلال حسون، بقلم: إبراهيم عاصي
٦٨٩	الداعية الصادق الصابر
٦٩٠	ولادته ونشأته ودراسته
٦٩٠	ممارسته المحاماة
٦٩٠	رابطة أخوة في الله قوية متينة
٦٩١	شاب عصامي
٦٩١	المعلم المربي
٦٩١	المحامي المدافع عن المظلومين
٦٩١	صبره على البلوى
٦٩٢	خمله مسؤولية الدعوة
٦٩٣	الأخ الحبيب محمد علي الدعاس، بقلم: عبدالنافع الرفاعي
٦٩٣	وفاة أستاذ عالم داعية
٦٩٤	القائد العالم
٦٩٤	من جنود الإسلام
٦٩٥	حياته مع الناس

٦٩٥	حميته وشجاعته
٦٩٥	الاشتراك في المصيبة بفقده
٦٩٦	الشيخ أحمد عز الدين البينانوني، بقلم: عبدالله علوان
٦٩٧	المزية الأولى: الحرص التام على التزام السنة والتطبيق
٦٩٨	المزية الثانية: الدقة المتناهية في الإعداد والتكوين
٦٩٨	المزية الثالثة: المجاهرة بالحق أينما كان
٦٩٩	موقف بطولي عظيم
٦٩٩	حاجة العلماء والدعاة إلى التحقق بتلك المزايا الكريمة
٧٠١	الشيخ محمد سعدي الياسين، بقلم: مسلم الغنيمي
٧٠١	أسلوبه في التربية
٧٠٢	مكارم الأخلاق
٧٠٣	أسرة كريمة
٧٠٣	تربيته جيلاً يفهم حقيقة الإسلام ويلتزم تعاليمه
٧٠٣	سلوك طريق السلف الصالح
٧٠٤	خطاط شاعر
٧٠٤	مسرحة تاريخية في مدرسة المقاصد الخيرية
٧٠٦	كلب الروم
٧٠٧	عنايته بالشباب المؤمن وأثره في توجيههم
٧٠٨	الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله، بقلم: مسلم الغنيمي
٧٠٨	نعي العلامة محمد بهجة البيطار
٧٠٨	تشييعه وجنازته
٧٠٩	صد وإعراض ومخاربة ثم إقبال ومحبة واعتزاز
٧٠٩	كثرة مشييعه
٧١٠	زهده في المال ومحافظة على الصداقة
٧١١	حرصه على الدرس وأسلوبه في عتاب طلابه
٧١٢	قصة محمد الخضر حسين مع الطلبة المتأخرين عن حضور مجالس العلم
٧١٣	موقفه ممن يناوئه ويعاديه

٧١٣	رفقه بالموعظة وحُسن أسلوبه فيها
٧١٤	ذكريات خمسين سنة
٧١٥	موجز عن حياته العلمية والعملية
٧١٥	وظائفه وأعماله
٧١٦	أهم رحلاته إلى البلاد العربية والأجنبية
٧١٧	مؤلفاته وما أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه
٧١٨	العلامة المصلح محمد بهجة البيطار، بقلم: القاضي سعدي أبو جيب ..
٧١٨	وَصِفُ البيطار لحال الأمة الإسلامية في عصره
٧٢٠	دعائم الإصلاح عند الشيخ البيطار
٧٢٠	١ - الدين
٧٢١	واجب فقهاء الأمة
٧٢٢	٢ - المحبة
٧٢٢	٣ - العلم
٧٢٢	عزوفه عن السياسة والأحداث العظام التي مرّت بها الأمة
٧٢٣	دعوته إلى العلوم الدينية والعصرية
٧٢٤	حثه على تعليم المرأة
٧٢٤	رده على من زعم أن حجاب المرأة وتعليمها لا يجتمعان
٧٢٥	اهتمامه بالمعلمين
٧٢٦	٤ - العمل
٧٢٦	القوة والأمانة صفتان مترابطتان
٧٢٦	كلمة العلامة الإبراهيمي في وصف البيطار
٧٢٨	الشيخ محمد سعيد المسعود: مفتي الباب، بقلم: حسن عبدالحميد
٧٢٨	منزلة العلماء
٧٢٩	سنة في المدرسة الخسروية
٧٢٩	دروسه ونشره العلم
٧٢٩	إحياءه رسالة المسجد
٧٢٩	تشجيعه طلاب العلم

٧٢٩ في دار الأرقم
٧٣٠ نشاطه الاجتماعي
٧٣٠ حُبُّه للشباب المسلم
٧٣١ جمعه بين العلم والسلوك
٧٣١ سَعْيُهُ في بناء المساجد
٧٣١ كرمه البالغ
٧٣٢ اهتمامه بدعوة النساء
٧٣٢ اطلاعه على المجلات والكتب الإسلامية المعاصرة
٧٣٢ منهجه في الفتوى
٧٣٢ موقفه من خصومه
٧٣٤ خبر وملاحظة
٧٣٥ الدكتور تيسير رمضان الحَصَّاد، بقلم: محسن خرابة
٧٣٥ الفقيد في سطور
٧٣٦ ولادته ونشأته
٧٣٦ تعلُّق قلبه بالمساجد
٧٣٦ تَحَسُّسه قضايا المسلمين
٧٣٦ دراسته في كلية الطب
٧٣٧ متابعته الاختصاص في طب الأطفال
٧٣٧ وفاته بحادث سيارة
٧٣٧ نقل جثمانه إلى بلده دير الزور
٧٣٨ نفسٌ تَوَاقَّة
٧٣٩ دعاؤه بالشهادة في سبيل الله
٧٤٠ قافلة الشهداء
٧٤٠ أثره في ديار الغرب
٧٤١ ترفُّعه عن متاع الدنيا
٧٤٣ الشيخ أحمد الدقر، بقلم: عبدالغني الدقر
٧٤٣ مرشد بلاد الشام الشيخ علي الدقر

٧٤٤	مؤضع الشيخ أحمد الدقر من جهاد أييه وإرشاده
٧٤٤	بروز مظاهر التّدئين بين الناس
٧٤٥	العدو الأول والأمضى للمستعمر
٧٤٥	دعوة الشيخ علي الدقر للجهاد وتحذيره من أعداء الدين والوطن
٧٤٥	أثر دروس الشيخ علي الدقر
٧٤٦	الجهاد في سبيل الله
	صُحبته العلامة بدر الدين الحَسَنِي في رحلته إلى بلاد الشام للحث على
٧٤٦	الجهاد
٧٤٧	اندلاع ثورة سنة ١٩٢٥
٧٤٧	نشر العلم الشرعي
٧٤٧	إرسال الطلبة المرشدين إلى قرى دمشق ووصاياهم لهم
٧٤٨	فتح المدارس لأبناء المسلمين
٧٤٨	ظهور الجمعية الغراء
٧٤٩	اهتمام الشيخ علي الدقر بابنه أحمد
٧٤٩	أثر الشيخ أحمد الدقر في الجمعية الغراء ومعهدا الشرعي
٧٥٠	صفاته الذاتية
٧٥٠	مَرَضُهُ وصبره ورضاه
٧٥١	الدكتور محمد أمين المصري، بقلم: مجد مكي
٧٥١	ولادته ونشأته ودراسته
٧٥١	دراسته وشيوخه
٧٥٢	عنايته بتدبر سورة الأنفال
٧٥٢	اهتمامه بالتربية
٧٥٢	تعيينه ملحقاً ثقافياً للسفارة السورية بباكستان
٧٥٣	حصوله على شهادة الدكتوراه من بريطانيا
٧٥٣	إقامته في السعودية وتأسيسه قسم الدراسات العليا في مكة المكرمة
٧٥٣	أبرز كتبه ومؤلفاته
٧٥٤	وفاته

٧٥٥ الشيخ زين العابدين الحسين التونسي، بقلم: علي الرضا التونسي
٧٥٥ أسرة علم وعمل
٧٥٦ في جامع الزيتونة
٧٥٦ خروجه مع أسرته مهاجراً في سبيل الله إلى دمشق
٧٥٧ نشره العلم في مساجد دمشق
٧٥٧ جهاده العلمي في مدارس دمشق
٧٥٧ التوجيه والوعظ والإرشاد
٧٥٧ تأليفه «المعجم المدرسي» و«المعجم في النحو والصرف»
٧٥٨ مؤلفاته الكثيرة
٧٥٨ رثاء الأستاذ علي الرضا التونسي لأبيه
	الشيخ محمد يوسف البنوري وجهوده العلمية، بقلم: عبدالعزيز
٧٦٠ عبدالجليل
٧٦٠ نسبه وبيته
٧٦١ طلبه للعلم
٧٦١ مناصبه العلمية
٧٦١ ثناء العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة على شيخه البنوري
٧٦٢ المحدث المفسر
٧٦٢ العالم الفقيه
٧٦٣ الأديب الشاعر
٧٦٣ مؤلفاته
٧٦٤ دوره في الدعوة الإسلامية
٧٦٥ تأسيس جامعة العلوم الإسلامية بكراتشي
٧٦٥ وفاته وراثته
٧٦٦ المحدث الأديب السيد محمد يوسف البنوري الحسيني، بقلم: مجد مكي
٧٦٦ سلالة دوحة مباركة
٧٦٦ مولده
٧٦٧ أسرته الراشدة

٧٦٧	نشأته العلمية ومراحل دراسته المختلفة
٧٦٨	نشاطه المتنوع بعد التخرج
٧٦٩	أبرز مشايخ العصر الذين أجازوه في الحديث الشريف
٧٦٩	النشاط التدريسي والتلامذة
٧٧٠	أبرز الشخصيات التي استجازت من البثوري في الحديث وعلومه
٧٧١	تصانيفه
٧٧٢	مناصبه وامتيازاته
٧٧٣	وفاته
٧٧٤	الأستاذ محمد غسان المراد، بقلم: عبدالقادر حداد
٧٧٥	ولادته ونشأته العلمية
٧٧٥	مزايا الفقيه رحمه الله تعالى
٧٧٦	أبيات الشاعر عبدالقادر حداد في رثائه
٧٧٨	الشيخ محمد سيادي المراد، بقلم: محمد بشير المراد
٧٧٨	المصيبة بفقد العلماء
٧٧٩	القاضي الفقيه
٧٧٩	ولادته ونشأته
٧٨٠	طلبه العلم
٧٨٠	في المدرسة الخسروية بحلب
٧٨١	دراسته في كلية الشريعة بالأزهر
٧٨١	تعيينه قاضياً في الحسكة وتنقله في المحافظات السورية
٧٨١	تعيينه مديراً للتعليم الشرعي في سورية
٧٨١	انتقاله إلى دمشق ووفاته في بلدة حماة
٧٨٢	علمه وأخلاقه
	العلامة المجاهد الشيخ حسن حبتكة، بقلم: ولده عبدالرحمن حبتكة
٧٨٤	الميداني
٧٨٤	العلامة المربي المجاهد الرباني
٧٨٥	الفجيرة بموته

٧٨٥	تشيع جنازته ودفنه في حُجرة ملحقة بجامع الحسن
٧٨٥	انتصار الشيخ لقضية الإيمان وعصمته من مكاييد أعدائه
٧٨٦	خروجه من السجن ومتابعته جهاده ودعوته
٧٨٦	ولادته وأسرته
٧٨٦	نشأته وعصاميته
٧٨٦	تعلق قلبه بالعلم
٧٨٧	تلقيه العلم
٧٨٧	منهجه في دروسه وخطاباته
٧٨٧	مشاركته في الثورة السورية
٧٨٧	استئناف الجهاد العلمي
٧٨٨	النهضة التعليمية في دمشق
٧٨٨	مع الجمعية الغراء
٧٨٨	انقطاعه لحلقاته الخاصة في جامع منجك
٧٨٨	تأسيسه جمعية التوجيه الإسلامي
٧٨٩	طلاب معهد التوجيه الإسلامي
٧٨٩	مصادرة الجمعية والمعهد
٧٨٩	مشاركته في تأسيس رابطة العلماء في سورية
٧٩٠	مناصبته للحكام ومكافحته لأعداء الإسلام
٧٩١	رثاء الشيخ عبدالرحمن حبنكة لأبيه
٧٩٣	الشيخ حسن حَبْنَكَة ظاهرة وتاريخ، بقلم: عدنان زرزور
٧٩٣	من عالم الغيب إلى عالم الشهادة
٧٩٤	توديع تاريخ حافل
٧٩٥	الإحساس بمرارة فقدته
٧٩٥	حياته للإسلام والمسلمين
٧٩٥	مراحل التاريخ المعاصر
٧٩٦	العلماء الأفذاذ الذين تأثر بهم
٧٩٦	عدم استفادة علماء الشام من تجربة الإمام محمد عبده

العامل الأول: في التكوين العلمي للشيخ هو الأصالة والإحاطة بفروع العلم	٧٩٧
العامل الثاني: ظروف العمل الوطني والسياسي	٧٩٧
ذاكرته الهائلة ومعرفته العميقة	٧٩٧
دور العلماء في مقاومة الاستعمار	٧٩٨
التربية العملية العالية	٧٩٨
الأصالة العلمية	٧٩٨
الجهاد والعمل العام	٧٩٩
خطيب من طراز خاص	٧٩٩
بُعده عن الانفعالية وسرعة التأثر والاستهواء	٨٠٠
إغراق العوام في خُبهم لا يفتح باب التجاوز عن الثوابت	٨٠١
حياته تلخيص لتاريخ البلاد المعاصر	٨٠٢
الاستجابة العفوية للشيخ من الجمهور	٨٠٢
الحاجة إلى تطوير الوسائل في العمل والإصلاح	٨٠٣
الحجم الحقيقي لدور الشيخ الاجتماعي والسياسي	٨٠٣
صلته واحتكاكه بالعاملين للإسلام	٨٠٤
الاختلاف في وجهات النظر مع القائمين على العمل الإسلامي	٨٠٤
سفينة النجاة في الساحة الإسلامية	٨٠٥
حرصه على كرامة الدين من أن تُذل أو تُهان	٨٠٦
بُعده عن المناصب الرسمية	٨٠٦
ظاهرة وتاريخ	٨٠٧
سجاياه النفسية العالية	٨٠٧
فضيلة الأستاذ الشيخ عبدالعزيز عيون السود، بقلم: محمد علي مشعل .	٨٠٩
ولادته وأسرته ونشأته	٨٠٩
دراسته في دار العلوم الشرعية بحمص	٨١٠
حفظه للقرآن وعبادته وعلمه	٨١٠
علوم القراءات	٨١١

٨١٢	دار الإقراء بحمص
٨١٣	علوم الحديث
٨١٣	علم أصول الفقه والفقه والعربية
٨١٣	علم التوحيد
٨١٤	تحفظه في الفتوى
٨١٤	أخلاقه
٨١٤	حُسن خاتمته
٨١٧	الشيخ بكري رجب، بقلم: عبدالله علوان
٨١٩	خروجه للدعوة وجولاته المستمرة
٨١٩	مجالس وعظه المؤثرة
٨٢١	الشيخ بكري رجب (عالم فقيه، شاعر أديب)، بقلم: فياض عيسو
٨٢١	نسبه ومولده ونشأته
٨٢٢	دراسته وشيوخه
٨٢٢	أقرانه وأصدقائه
٨٢٣	عمله
٨٢٣	صفاته وأخلاقه
٨٢٤	مؤلفاته وآثاره
٨٢٤	كتبه المخطوطة
٨٢٥	وفاته
٨٢٦	وفاة الأستاذ المودودي، بقلم التحرير
٨٢٦	تاريخ الدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية
٨٢٧	ولادته ونشأته وعمله في الصحافة
٨٢٧	مجلة «ترجمان القرآن»
٨٢٧	مشاركته في إعداد خطة الحكم الإسلامي لدولة باكستان
٨٢٨	دعوة الأستاذ المودودي على صفحات مجلته
٨٢٨	تأسيس الجماعة الإسلامية في باكستان
٨٢٨	رئاسة الجماعة الإسلامية في باكستان

٨٢٩ مطالبته بتنفيذ الدستور الإسلامي وتآمر الحكومة العسكرية عليه
٨٢٩ استبدال حكم الإعدام بالسجن مدى الحياة
٨٢٩ إطلاق سراحه ومساعدته في تحكيم الدستور الإسلامي
٨٣٠ سفره إلى الأقطار الإسلامية
٨٣٠ الحظر على الجماعة الإسلامية
٨٣٠ أداء فريضة الحج وتعريفه بقضية كشمير
٨٣٠ استقالته من رئاسة الجماعة الإسلامية وتمرغه للتأليف
٨٣١ مزاياه الشخصية
٨٣٢ الشيخ خيرو ياسين، بقلم: محمد عيد البغا
٨٣٢ مصيبة فقد العلماء
٨٣٣ نبذة مختصرة عن حياته
٨٣٣ تدريسه في معهد التوجيه الإسلامي
٨٣٤ إقامته حلقات تحفيظ القرآن
٨٣٤ استمراره على التدريس والتعليم في مرضه وشيخوخته
٨٣٤ تيسيره العلم لطلابه
٨٣٤ تواضعه وزهده
٨٣٥ خدمته لأصحابه في رحلاته الكثيرة إلى الحج
	الأستاذ الكبير الشيخ محمد المبارك أبو هاشم العالم والداعية والمفكر،
٨٣٦ بقلم: مصطفى الزرقا
٨٣٦ في مدرسة عنبر
٨٣٧ في كلية الآداب في جامعة السوربون
٨٣٧ أستاذ الأدب العربي في حلب
٨٣٧ عودته إلى دمشق ونشاطه في الحقل الإسلامي
٨٣٧ نجاحه في الانتخابات النيابية
٨٣٨ المعركة بين الجبهة الإسلامية وخصومها
٨٣٨ تسلمه منصب وزارة الأشغال العامة
٨٣٨ الجبهة الإسلامية في مجلس النواب

٨٣٩ مزايا الأستاذ محمد مبارك
٨٣٩ مادة (نظام الإسلام)
٨٤٠ إعادة النظر في علم الاجتماع
٨٤١ مواهب متنوعة
٨٤١ توليه عمادة كلية الشريعة في جامعة دمشق
٨٤١ من شواهد حفظ الله تعالى لكتابه
	الشيخ محمد صالح الفرفور مؤسس جمعية الفتح الإسلامي ونهضتها العلمية، بقلم: مجد مكي
٨٤٣ اسمه ونسبه
٨٤٣ ولادته ونشأته
٨٤٣ عمله وكسبه الديني
٨٤٤ صفاته الخلقية والخلقية
٨٤٤ مزاياه وخصائصه الذاتية
٨٤٦ شيوخه وتحصيله العلمي
٨٤٧ نهضته العلمية وتأسيسه جمعية ومعهد الفتح الإسلامي
٨٤٨ نشاطه التعليمي
٨٤٨ أهم الكتب التي أقرأها
٨٤٩ أشهر تلاميذه
٨٥٠ وظائفه الدينية ونشاطاته العلمية
٨٥٠ أبرز مؤلفاته
٨٥١ أبرز تأليفه المخطوطة
٨٥١ شعره
٨٥١ من أشهر قصائده
٨٥٢ وفاته
	محمد أبو الفرج الخطيب الحسني الخطيب المؤرخ النسابة، بقلم: مجد مكي
٨٥٤ ولادته ونشأته ودراسته

٨٥٥ حضوره الحلقات العلمية في جامع بني أمية
٨٥٥ مجالسته طبقة عالية من العلماء
٨٥٦ خطيب جامع بني أمية
٨٥٧ دراسته في الجامع الأزهر
٨٥٧ أساتذته في الأزهر
٨٥٧ أعماله العلمية والدعوية
٨٥٨ مشاركته في الجمعيات العلمية
٨٥٨ مشاركاته في المؤتمرات الإسلامية
٨٥٩ انتسابه إلى كلية الشريعة ورحلته إلى الحجاز ونجد
٨٥٩ ترشُّحه للمجلس النيابي وتعيينه مدرساً دينياً
٨٥٩ عميد الجامع الأموي
٨٦٠ عكوفه على كتب التاريخ والتراجم
٨٦٠ مدير جمعية التمدن الإسلامية وجمعية التهذيب والتعليم
٨٦٠ زيارته للحرمين الشريفين ومصر وحضوره موسم الحج
٨٦١ وفاته
٨٦١ أخلاقه وسجاياه
٨٦٢ حُبُّه للحديث النبوي الشريف وإجازاته
٨٦٣ تأليفه
٨٦٤ أولاً: الجامع الأموي
٨٦٤ ثانياً: آل البيت السادة الأشراف، وهو في ثمانية أقسام
٨٦٤ ثالثاً: الأنساب
٨٦٤ رابعاً: الخطب والكلمات
٨٦٥ خامساً: كتب شتى
٨٦٥ أولاده
٨٦٦ الشيخ عبدالله علوان العالم الداعية المربي، بقلم: مجد مكي
٨٦٦ ولادته ونشأته
٨٦٧ في الثانوية الشرعية (الخسروية)

٨٦٧	دراسته في الأزهر
٨٦٨	عمله في مجال التدريس والدعوة
٨٦٨	دروسه في جامع عمر بن عبدالعزيز وأبرز تلاميذه
٨٦٩	صلاته مع علماء سورية
٨٦٩	هجرته وإقامته بالسعودية وتدريسه بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة
٨٦٩	أخلاقه وصفاته
٨٧٠	مؤلفاته
٨٧٠	مرضه
٨٧١	وفاته
٨٧٢	عمر بهاء الدين الأميري.. بقلم: باسل رفاعي
٨٧٢	فقيه الأدب الإنساني والفكر الإسلامي
٨٧٢	ولادته وأسرته ودراسته
٨٧٣	إسهامه في انطلاق العمل الإسلامي المعاصر
٨٧٣	شاعر الإنسانية المؤمنة
٨٧٥	لمحات من حياة العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، بقلم: مجد مكي ...
٨٧٥	ولادته ونشأته ودراسته
٨٧٥	أبرز أساتذته في الثانوية الشرعية
٨٧٦	انتسابه إلى كلية الشريعة في الجامع الأزهر وأبرز شيوخه فيها
٨٧٦	دراسته خارج الأزهر بمصر وأبرز شيوخه
٨٧٦	تدريسه في ثانويات حلب وتأليفه كتباً منهجية دراسية
٨٧٧	انتخابه في المجلس النيابي وانتدابه للتدريس في كلية الشريعة بدمشق ...
٨٧٧	رحلته إلى الهند وباكستان وكثرة شيوخه
٨٧٧	انتقاله إلى السعودية وتدريسه في جامعة الإمام محمد بن سعود
٨٧٨	تعاqude مع جامعة الملك سعود بالرياض
٨٧٨	مشاركته في وضع مناهج دراسية
٨٧٨	انتدابه أستاذاً زائراً لعدد من الجامعات
٨٧٨	مشاركاته في عدد من المؤتمرات والندوات

- ٨٧٨ خدماته العلمية وعضويته في عدد من الجامعات العلمية
- ٨٧٩ مرضه ووفاته
- العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة قلّ نظيره في علمه وأدبه، بقلم: حسن قاطرجي
- ٨٨٠ قاطرجي
- ٨٨٠ لمحات من علمه وأدبه
- ٨٨١ شواهد تفوّقه في العلم
- ٨٨١ كثرة شيوخه
- ٨٨٢ كثرة الكتب التي خدمها
- ٨٨٢ حرصه على اقتناء الكتب ومعرفته الواسعة بمخطوطها ومطبوعها
- ٨٨٣ مكتبته الضخمة
- ٨٨٣ حرصه على تحقيق مسائل العلم وإتقان البحث
- ٨٨٤ تحسّسه لأمانة العلم
- ٨٨٤ استفادته من وقته
- ٨٨٥ مزايا علمه
- ٨٨٧ العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة قلّ نظيره في علمه وأدبه - ٢ -
- ٨٨٨ اعتناؤه التام بالأدب تعليماً وتطبيقاً
- ٨٨٩ ١ - أدبه مع الله تعالى
- ٨٩١ تحرّيه الشديد في العبارات التي تقال في جنب الله
- ٨٩١ تنبيهه إلى كلمات لا يجوز أن تقال في حقّ الله تعالى أو رسوله ﷺ
- ٨٩١ ٢ - أدبه مع العلماء
- ٨٩٢ أدبه مع السلف الصالح وغيرته عليهم
- ٨٩٢ أدبه مع شيوخه
- ٨٩٣ أدبه مع شيخه مصطفى الزرقا
- ٨٩٣ تقبيله يد أهل العلم والفضل والصلاح
- ٨٩٣ غرر الفوائد وروائع الحكايات في مقدمة «رسالة المسترشدين»
- ٨٩٤ ٣ - متفرقات من أدبه المذهش
- ٨٩٤ حرصه على زيارة الدكتور محمد حميد الله وشكره على صنيعه القديم ..

- ٨٩٦ زيارته للأخ حسن قاطرجي في بيته وتواضعه ولطفه
- ٨٩٦ نفرته من التوسّع بالألقاب
- ٨٩٧ ذوقه الرفيع وحسّه الرقيق
- ٨٩٨ الشيخ عبدالرحمن الصوفي، بقلم: نبيل طويل
- ٨٩٩ في الدراسة الابتدائية والمدرسة الرسمية
- ٨٩٩ في ثانوية التجهيز الرسمية وتفوّقه وابتعائه
- ٨٩٩ في أيام الانتداب الفرنسي
- ٩٠٠ تأثير الأستاذ محمد المبارك
- ٩٠٠ خلقه الرفيع وهمته العالية
- ٩٠٠ شهادة لله عزّ وجل
- ٩٠١ في ميادين الخير والبر
- ٩٠١ الشاعر الملتزم
- ٩٠١ افتقاد الأخ النصح
- الشيخ عبدالرحمن الصوفي «رائدٌ من رُواد العمل الإسلامي في سورية»، بقلم: عبداللطيف الهاشمي
- ٩٠٢ ولادته وأسرته وتأسيسه أول عمل طلابي إسلامي في الساحل السوري
- ٩٠٢ تفوّقه في جميع مراحل دراسته
- ٩٠٣ دراسته بمصر وحصوله على شهادة الهندسة الزراعيّة
- ٩٠٣ مشاركته في عدة مؤتمرات علمية وإنهاء خدماته بقرار تعسفي
- ٩٠٣ في أحضان الدعوة الإسلامية
- ٩٠٤ تأسيس العمل الإسلامي في الساحل السوري
- ٩٠٤ أخلاقه وسماته
- ٩٠٤ حفظه القرآن الكريم ونظمه الشعر
- ٩٠٤ زيارته ليلة وفاته
- ٩٠٥ شعره قبل الرحيل
- ٩٠٦ علي الطنطاوي من حُماة الإسلام، بقلم: مجد مكي
- ٩٠٧ حياته في سطور

٩٠٨ الطنطاوي الأديب والصحافي
٩٠٩ إقامته في مكة المكرمة وبرامجه الإذاعية والتلفزيونية
٩١٠ مؤلفات الطنطاوي وآثاره
٩١٠ موهبته النادرة وأسلوبه الفريد
٩١١ رسائل في سبيل الإصلاح
٩١٢ رسائل سيف الإسلام والهيثميات
٩١٢ أسماء كتبه وتاريخ صدورها
٩١٣ ذكريات علي الطنطاوي
٩١٣ الفتاوى والمقدمات
٩١٤ تراث الشيخ المكتوب والمسموع والمرئي
٩١٥ علي الطنطاوي... ومجالسه المباركة، بقلم: مجد مكي
٩١٥ ذكريات ولقاءات
٩١٥ موسوعة معارف متنوعة
٩١٦ الطنطاوي المربي
٩١٦ الطنطاوي المعلم
٩١٦ الطنطاوي الداعية
٩١٦ الطنطاوي الفقيه
٩١٦ الطنطاوي الأديب
٩١٧ الطنطاوي الإعلامي
٩١٧ صحبتي للشيخ - رحمه الله -
٩١٧ صحبة عدد من الأعلام في مجلسه
٩١٨ مجمع علمي وندوة أدبية
٩١٩ ذاكرة ثرة وتاريخ شاهد
٩٢١ هموم المسلمين وقضايا الأمة
٩٢١ مدرسة علمية حافلة
٩٢٢ وهن الشيخوخة
٩٢٢ من حُماة الإسلام

	الشيخ مصطفى الزرقا أستاذ جيل وإمام عصر، بقلم: أحمد الحجي
٩٢٤	الكردى
٩٢٥	اطلاعه على العلوم القانونية واضطلاعه بتدريسها
٩٢٥	دراسة أكثر كتبه وتدريسها
٩٢٦	اللبنة الأولى في صرح الموسوعة الفقهية
٩٢٦	منهجه في الفقه والفتوى
٩٢٧	طَرَفٌ من أخباره الأسريّة رحمه الله تعالى
٩٢٨	آثاره العلمية - رحمه الله تعالى -
٩٢٩	نماذج من فتاوى الشيخ مصطفى الزرقاء - رحمه الله -
٩٢٩	مشكلة في الحجاب لدى أجنبيّات يعتنقن الإسلام؟
٩٣٠	العيوب التي يجب ذكرها للخاطب
٩٣٠	موقف الإسلام من تحديد النسل
٩٣١	حكم مشاركة غير المسلم أو مَنْ في ماله ربا
٩٣٣	الشيخ مصطفى الزرقا الفقيه النابغة، بقلم: مجد مكي
٩٣٣	بين الشيخين الزرقا والطنطاوي
٩٣٤	تعزية الزرقا بصديقة الطنطاوي
٩٣٤	البيئة العلمية الصّالحة
٩٣٥	تلقيّه العلم على كبار علماء بلده
٩٣٥	دراسته العصريّة
٩٣٦	تدريسه في عدد من المدارس والجامعات
٩٣٧	تحقيقاته ومؤلفاته
٩٣٨	مواهبه الأدبية وملكته الشعرية
٩٣٨	مشاركته في المجامع الفقهية والعلمية
٩٣٩	جائزة الملك فيصل العالمية
٩٣٩	كثرة أسفاره وتعدّد رحلاته
٩٤٠	نشاطاته الدعويّة وجهوده الإصلاحية
٩٤٠	في ميادين العمل السياسي

٩٤٠	إيثاره العلم والدراسة
٩٤١	لقاءاتي بالشيخ الزرقا
٩٤٢	الشيخ عطية محمد سالم المفسر الفقيه الواعظ، بقلم: مجد مكي
٩٤٢	المفسر الفقيه المدرس في المسجد النبوي
٩٤٣	ولادته ونشأته وقدمه إلى المدينة المنورة
٩٤٣	دراسته في المسجد النبوي وأشهر شيوخه
	انتسابه إلى المعهد العلمي في الرياض وتخرجه في كليتي اللغة العربية
٩٤٣	والشريعة
٩٤٤	صلته بشيخه محمد الأمين الشنقيطي
٩٤٤	أعماله ووظائفه
٩٤٤	تدريسه بالمسجد النبوي
٩٤٥	دروسه اليومية في شهر رمضان
٩٤٥	مؤلفاته
٩٤٦	كتبه المهيئة للطباعة
٩٤٨	أبو الحسن الندوي داعية عالمي من الطراز الرفيع، بقلم: حسن قاطرجي
٩٤٨	اللقاء بالندوي بصحبة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة
٩٤٩	ندوة العلماء
٩٤٩	نسبه وأسرته
٩٤٩	ولادته ووالداه
٩٥٠	تدريسه وتأليفه
٩٥٠	وظائفه ومناصبه العلمية
٩٥١	تأسيسه ورئاسته لعدد من المراكز والمجامع العلمية
٩٥١	رحلاته الدعوية
٩٥٢	مواهبه المتعددة
٩٥٢	المفكر الإسلامي
٩٥٢	الداعية الموهوب
٩٥٢	صفات الداعية القائد

٩٥٣ العالم الربّاني
٩٥٣ وفاته وحُسن خاتمته
٩٥٤ محمد مجاهد شعبان العالم الداعية المجاهد، بقلم: عائشة خياط
٩٥٤ ولادته ونشأته ودراسته
٩٥٤ أعماله ووظائفه
٩٥٥ أعماله العلمية
٩٥٥ حرصه على مشافهة العلماء والتلقّي عنهم
٩٥٦ صبره على طلب العلم وتنوّع معارفه
٩٥٦ أخلاقه وصفاته
٩٥٧ شيوخه وأساتذته
٩٥٧ إجازاته العلمية
٩٥٨ وفاته
	الآثار العلمية والأدبية للأستاذ محمد مجاهد شعبان، بقلم: عبدالرحمن
٩٥٩ الحاج إبراهيم
٩٥٩ أولاً - الدراسات والبحوث
٩٦١ ثانياً - رسائل نادرة
٩٦١ ثالثاً - كتب لم تكتمل
٩٦١ رابعاً - في مجال التحقيق
٩٦٢ خامساً - المقالات والمحاضرات
٩٦٤ الشيخ عبدالله سراج الدين العلامة الربّاني المرّبّي، بقلم: محمد عوامة .
٩٦٤ العالم العامل الربّاني
٩٦٤ ولادته ونشأته العلمية
٩٦٥ توجّهه إلى حفظ الحديث الشريف
٩٦٥ دروسه العامّة في مساجد حلب
٩٦٥ إنتاجه العلميّ الواسع
٩٦٦ شاهدا العدل من الكتاب والسنة
٩٦٦ منهجه في دروسه العامة

٩٦٦ منحة إلهية وقدوة محمدية
٩٦٧ وفاته ودفنه
٩٦٧ مجالسه التفسيرية لبعض الآيات القرآنية
٩٦٨ إهداء الشيخ محمد عوامه تحقيق كتاب «القول البديع» لشيخه السراج ...
٩٦٩ الشيخ عبدالله سراج الدين، بقلم: بكري الشيخ أمين
٩٦٩ دور العلماء في الأمة
٩٧٠ عالم من بلدي
٩٧٠ اقتداؤه برسول الله ﷺ
٩٧٠ عالم عامل
٩٧٠ ولادته ونشأته العلمية
٩٧١ في مكتب الشيخ عبدالوهاب المصري ثم المدرسة الخسروية
٩٧١ عنايته بالحديث النبوي والعلوم الشرعية
٩٧١ وظائفه
٩٧١ تدريسه في المدرسة الخسروية
٩٧٢ في المدرسة الشعبانية
٩٧٢ إجازاته العلمية
٩٧٢ حكمته العلمية والتربوية والدعوية
٩٧٢ دروسه ومصنفاته
٩٧٤ إقبال الناس على كتبه
٩٧٤ دروسه في جامع بنقوسا بعد عصر الجمعة
٩٧٥ عزله عن الناس
٩٧٥ الدمعة الحرة
٩٧٥ في موكب الوداع
٩٧٦ عبدالغني الدقر النحوي الفقيه والمؤرخ الأديب، بقلم: مجد مكي
٩٧٦ مولده ونشأته
٩٧٧ في المدرسة التجارية
٩٧٧ عكوفه على قراءة كتب المنفلوطي

٩٧٧	مطالعة كتب الأقدمين
٩٧٧	دروسه في جامع السنانية بدمشق
٩٧٨	دروسه في مسجد العداس
٩٧٨	نبوغه المبكر
٩٧٨	ثناء الشيخ الطنطاوي عليه
٩٧٩	شيوخه
٩٧٩	مطالعه مع أقرانه
٩٧٩	مطالعه ومكتبته
٩٨٠	تعقباته واستدراكاته وتصحيحاته
٩٨٠	آراؤه في دراسة العلوم الشرعيّة
٩٨١	مروياته
٩٨١	الوظائف التي تولّاها، والأعمال التي شغلها
٩٨٢	رحلاته
٩٨٢	جلّيته
٩٨٢	وفاته
٩٨٢	تعريف بمؤلّفاتِه
٩٨٣	أ - في مجال العلوم والدراسات الإسلامية
٩٨٣	ب - في مجال العلوم العربية
٩٨٣	ج - في مجال التاريخ والتراجم
٩٨٤	د - المقالات
٩٨٥	الفقيه الكبير أحمد فهمي أبو سنّة، بقلمه
٩٨٥	هذه رحلتي وهذا عطائي
٩٨٥	في رحاب الأزهر الشريف
٩٨٦	تطوير منهج الأزهر
٩٨٦	في التعليم العالي
٩٨٧	التحاقه بكلية الآداب بجامعة القاهرة
٩٨٧	عودته للأزهر وتفرغه للدراسة الشرعية

٩٨٧	افتتاح الكليات الأزهرية النظامية
٩٨٧	التحاقه بكلية الشريعة
٩٨٨	أساتذته في هذه المرحلة
٩٨٨	نظام الإصلاح بالأزهر
٩٨٨	أول دكتوراه في الأزهر
٩٨٩	نظام امتحان العالمية
٩٨٩	لجنة تقويم المحاضرة العامة وامتحان التعيين
٩٩٠	مناقشة رسالة الدكتوراه
٩٩١	التدريس بالجامعات العربية
٩٩١	عنايته بالدراسات الشرعية المختلفة
٩٩١	عضو مجمع البحوث الإسلامية
٩٩١	مظاهر التكريم
٩٩٢	عضو مجمع الفقه التابع لرابطة العالم الإسلامي
٩٩٢	أهمية المجامع العلمية
٩٩٢	نشاطه في مجمع البحوث الإسلامية
٩٩٣	موقفه من التأمين التجاري
٩٩٣	مؤلفات وبحوث
٩٩٣	محاضراته عن «حقوق المرأة في الإسلام»
٩٩٤	مقالاته في المجلات
٩٩٤	أحاديثه الإذاعية
٩٩٤	منهجه في البحث
٩٩٤	جبهة علماء الأزهر والشيخ أبو زهرة
٩٩٥	إشرافه على عدد كبير من الرسائل الجامعية
٩٩٦	مواقف وذكريات لا تنسى
٩٩٦	أمنيته الخاصة والعامة
	أحمد فهمي أبو سنة بين العلم والحياة... سيرة موجزة لعالم، بقلم:
٩٩٧	وفاء سعداوي

الموضوع الصفحة

٩٩٧	فقد الأعلام
٩٩٧	رحيل العلامة الأصولي
٩٩٨	كتابه «العرف والعادة»
٩٩٨	الوسيط في أصول الفقه
٩٩٩	أهمية تيسير علوم الدين
٩٩٩	صلته بكتب الإمام ابن الهمام
٩٩٩	جمعه في كتابته الأصولية بين طريقتي الحنفية والشافعية
١٠٠٠	في دمشق الفيحاء
١٠٠٠	مكتبته الحافلة
١٠٠١	زهده في المناصب
١٠٠١	تفرغه للتعليم وتخريج الأجيال من طلاب العلم
١٠٠١	طلابه الأتراك
١٠٠١	عطفه على تلاميذه
١٠٠٢	صلته ببلدته وأعماله وآثاره
١٠٠٢	رابطة آل أبو سنة
١٠٠٣	تعليمه وتربيته لأسرته
١٠٠٤	الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني العلامة المفكر المفسر، بقلم: مجد مكي
١٠٠٤	ولادته ونشأته
١٠٠٥	معهد التوجيه الإسلامي مؤسسة علمية جامعة
١٠٠٥	متابعة الدراسة والتحصيل
١٠٠٦	تدريسه في ثانويات دمشق، وتسلمه مديرية التعليم الشرعي
١٠٠٦	إقامته في المملكة العربية السعودية، وتدريسه الجامعي
١٠٠٦	نشاطاته العلمية والدعوية والإعلامية
١٠٠٧	إنتاجه العلمي
١٠٠٧	من نتاجه المطبوع
١٠٠٧	أولاً - سلسلة في طريق الإسلام
١٠٠٧	ثانياً - دراسات قرآنية

١٠٠٧	ثالثاً - سلسلة أعداء الإسلام
١٠٠٧	رابعاً - سلسلة من أدب الدعوة الإسلامية
١٠٠٨	خامساً - كتب متنوعة
١٠٠٨	من أهم آثاره العلمية النافعة
١٠٠٨	مدرسة علمية متميزة
١٠٠٩	زهده في المناصب
١٠١٠	بُعده عن الشهرة وحب العاجلة
١٠١٠	حبه المناقشة والحوار العلمي
١٠١١	تعرفني عليه وصلتي به
١٠١٢	عودته إلى دمشق
١٠١٢	إتمامه تفسير السور المكية
١٠١٣	جنازته
١٠١٤	الشيخ الدكتور ناجي عَجَم، بقلم: مجد مكي
١٠١٤	اسمه وولادته
١٠١٤	دراسته
١٠١٥	شيوخه
١٠١٥	مؤهلاته العلمية
١٠١٥	أبرز أعماله العلمية
١٠١٦	مؤلفاته ومقالاته
١٠١٦	أعماله ومؤلفاته فيما يخص الأوقاف الإسلامية
١٠١٧	أخلاقه وصفاته
١٠١٧	مرضه ووفاته
		الشيخ الدكتور مصطفى سعيد الخن العالم المربي الأصولي الفقيه
١٠١٨	اللفوي، بقلم: مجد مكي
١٠١٨	اسمه ونسبه ونشأته
١٠١٩	تعرفه على الشيخ حسن حبنكة الميداني
١٠١٩	دراسته بالقسم المسائي ثم النهاري في جامع منجك

١٠١٩	أول طالب علم ينبغ في (آل الخن)
١٠٢٠	سيرته العلمية
١٠٢٠	صناعة الشخصية العلمية للشيخ مصطفى الخن
١٠٢١	العلماء الربانيون الذين زارهم وجلس إلى دروسهم
١٠٢١	العلوم التي برع فيها ودرّسها
١٠٢٢	السفر إلى مصر (الإجازة في الشريعة من الأزهر)
١٠٢٢	شيوخه في مصر
١٠٢٢	العمل في وزارة التربية مدرساً
١٠٢٢	التدريس في جامعة دمشق
١٠٢٣	الإعارة إلى السعودية وصحبته لعدد من العلماء
١٠٢٣	حصوله على شهادة (الدكتوراه)
١٠٢٣	التعيين في جامعة دمشق
١٠٢٤	التعاقد مع السعودية
١٠٢٤	العودة إلى دمشق
	تدريسه في قسم الدراسات العليا في مجمع أبي النور وقسم التخصص في
١٠٢٤	معهد الفتح
١٠٢٥	غرفته الخاصة في جامع الدفاق
١٠٢٥	تعريف بمؤلفاته
١٠٢٥	المؤلفات الخاصة
١٠٢٦	المؤلفات المشتركة
١٠٢٧	التحقيقات الخاصة
١٠٢٧	التحقيقات المشتركة
١٠٢٨	وفاته وحسن خاتمه
١٠٣٠	الشيخ محمد الحجار العابد الزاهد، بقلم: مجد مكي
١٠٣٠	ولادته ونشأته ودراسته
١٠٣٠	المعهد الشرعي في المدرسة الشعبانية
١٠٣١	مدير المعهد الشرعي الشيخ: عبدالله سلطان

١٠٣١	شيوخه
١٠٣٢	إمامته وخطابته في جامع الزكي بحلب وطلابه الذين قرؤوا عليه وصحبوه
١٠٣٢	صحبه للشيخ البيانوني ومصاهيرته
١٠٣٣	أولاده
١٠٣٣	محتته وهجرته إلى المدينة المنورة
١٠٣٣	ملازمته للمسجد النبوي
١٠٣٤	حرصه على صلاة الجماعة
١٠٣٤	منهجه في العبادة
١٠٣٥	شجاعته وجهره بالحق
١٠٣٥	الدعوة إلى الجهاد والاستعداد
١٠٣٦	اهتمامه بقضية فلسطين
١٠٣٦	تحذيره من الردة
١٠٣٦	تحذيره من الحزبيات المُشَتَّة للأمة
١٠٣٧	تحذيره من الدعوات الضالة الوافدة
١٠٣٨	تحذيره من انحراف الحكام والقيادات
١٠٣٨	تحذيره من دسائس الأعداء وإثارة عوامل الفرقة
١٠٣٩	منهجه الإصلاحية والدعوية
١٠٣٩	دعوته لترك الإكثار من حج النافلة
١٠٣٩	عنايته بشأن الأسرة والمرأة
١٠٤٠	مؤلفاته وتحقيقاته
١٠٤٠	تلاميذه في المدينة المنورة
١٠٤١	وفاته
١٠٤١	تحقيق أمنيته
١٠٤٣	الشاعر الإسلامي الأديب المفسر محمد الحسناوي، بقلم: مجد مكي
١٠٤٣	ولادته ونشأته ودراسته
١٠٤٤	أعماله العلمية
١٠٤٤	كلمته حول تفسير «المعين»

١٠٤٦	وحدة الآية وعلاقتها بما قبلها وما بعدها
١٠٤٦	دلالة التعقيب في آخر الآية
١٠٤٧	الاهتمام بأسلوب الالتفات في القرآن
١٠٤٨	جوانب التوفيق في تفسير (المعين)
١٠٤٩	مرضه ووفاته
١٠٥٠	الشيخ صادق حبيكة الميداني عالم فقدناه، بقلم: مجد مكي
١٠٥٠	ولادته
١٠٥٠	زواجه ونشأته
١٠٥١	صفاته ومواهبه
١٠٥١	نماذج من أدبه
١٠٥٢	دراسته ومطالعاته ودروسه
١٠٥٢	وفاته
١٠٥٣	الشيخ أحمد قلاش عالم عامل فقيه نحوي، بقلم: مجد مكي
١٠٥٣	ولادته ونشأته
١٠٥٤	تلقيه العلوم الشرعية
١٠٥٥	حصوله على الدرجة الأولى في المدرسة الخسروية
١٠٥٥	في ميادين العمل والدعوة والتربية
١٠٥٦	هجرته إلى المدينة المنورة
١٠٥٦	حبه للمطالعة
١٠٥٧	أسلوبه في التعليم
١٠٥٧	كتبه ورسائله
١٠٥٨	أ - الكتب العلمية
١٠٥٨	ب - الرسائل التوجيهية
١٠٥٨	ج - القصص التربوية للأطفال والكبار
١٠٥٨	أخلاقه وصفاته
١٠٥٩	صفاته الخلقية
١٠٥٩	مرضه ووفاته

١٠٦٠	العالم البَحَّاثَة الداعية المفكر هاني الطايح، بقلم: مجد مكي
١٠٦٠	لمحات من حياته
١٠٦١	صلتي به
١٠٦١	لقاءات في جُدة وشدة حبه للكتب
١٠٦١	إقامته في قطر وصلاته العلمية والدعوية
١٠٦٢	زيارتي له في بيته بقطر
١٠٦٢	آخر لقاء
١٠٦٢	كنوز علمية وأدبية
١٠٦٣	كلمة الدكتور القرضاوي في رثائه
١٠٦٤	رثاء الأخ الشاعر الأستاذ سليم زنجير
١٠٦٥	وداعا... أبا ربيع، بقلم: عدنان زرزور
١٠٦٥	من صفات أبي ربيع
١٠٦٦	أثره في مناهج اللغة والأدب
١٠٦٦	إدارته تحرير جريدة (اللواء) الدمشقية
١٠٦٧	أثره في التربية والتعليم في قطر
١٠٦٧	حياته لدينه ودعوته
١٠٦٨	إمدادي بالمصادر عن الأستاذ مصطفى السباعي
١٠٦٨	مكتبته الضخمة
١٠٦٩	العالم الصَّالح المقرئ الشيخ عبدالغفار الدروبي، بقلم: مجد مكي
١٠٧٠	تشيع جنازته
١٠٧١	لمحات من حياته
١٠٧١	إقامته بمكة المكرمة وتدرسه بجامعة أم القرى
١٠٧٢	أخلاقه وسماته
١٠٧٤	الشيخ عبدالغفار الدروبي، بقلم تلميذه: محمد ياسر مسدي
١٠٧٥	المصاب بفقد العلماء
١٠٧٥	ثُلَّة مباركة من علماء حمص
١٠٧٦	بقية السلف الصالح

١٠٧٦ في مسجد الدعوة
١٠٧٧ عنايته بالشباب
١٠٧٧ في المعهد الشرعي
١٠٧٧ الجانب الدعوي والتربوي
١٠٧٨ العالم المعلم والصابر المحتسب
١٠٨١ الفهرس الإجمالي
١٠٨٧ الفهرس التفصيلي



الفهرس الإجمالي

الموضوع	الصفحة
تقديم الكتاب	٥
كلمات حول مجلة "حضارة الإسلام"	٩
ركن "رجل فقدناه"	٣٥
إذا مات العالم	٤٩
شيخنا العظيم محمد بدر الدين الحسني محدث الديار الشامية، بقلم: محمد المبارك	٥٣
الشيخ عز الدين القسام إمام الشهداء، بقلم التحرير	٧٩
عبد الحميد بن باديس، بقلم: حمزة بوكوشة	٨٨
الشيخ قاسم القيسي، بقلم: محمود شيث خطاب	١٠١
الشيخ عبدالقادر المغربي، بقلم: عدنان الخطيب	١١٣
محمد الخضر حسين في جهاده، بقلم: سعدي أبو جيب	١٣٠
أنيس الملوحي، بقلم: نهاد القاسم	١٤٠
هاشم الأتاسي، بقلم: مصطفى السباعي	١٤٧
الشيخ أبو الخير الميداني، بقلم: عمر عودة الخطيب	١٥٣
الدكتور عبدالعلي الحسني، بقلم: أبو الحسن الندوي	١٥٨
الشيخ حسني السباعي، بقلم ابنه: مصطفى السباعي	١٦٨
الشيخ عبدالقادر الرائي پوري، بقلم: سعيد الأعظمي الندوي	١٧٥
مولانا حفظ الرحمن السيوهاروي، بقلم: رئيس أحمد	١٧٨

١٨٣	مولانا محمد حفظ الرحمن، بقلم: عبدالمنعم النمر
١٨٩	الشيخ أحمد الحارون، بقلم: مصطفى السباعي
١٩٧	محمد فؤاد الألوسي، بقلم: عبدالعزيز البدري
٢٠٧	الأمير محمد عبدالكريم الخطابي، بقلم: عدنان زرزور
٢١٨	الأستاذ محمد الحموي تعريف بالفقيد بقلم: عبدالرحمن الميداني
٢١٩	رثاء المرحوم الأستاذ محمد الحموي، للشاعر ضياء الدين صابوني
٢٢١	الأستاذ الشيخ محمد معدل، بقلم: أحمد علي زخور
٢٢٣	الشيخ عبدالمحسن الأسطواني، بقلم: مصطفى السباعي
٢٣٠	الشيخ عبدالحميد الحجازي، بقلم التحرير
٢٣١	نجيب باقي، بقلم التحرير
٢٣٥	الشيخ إبراهيم أحمد المظاهري، بقلم: أبي الحسن الندوي
٢٤٠	عباس محمود العقاد، بقلم: محمد بسام الأسطواني
٢٤٦	عباس محمود العقاد، بقلم: محمد المبارك
٢٥٢	انطباعات عن العقاد، بقلم: عبدالرزاق محيي الدين
٢٥٤	مؤلفات العقاد
٢٥٧	الدكتور عبدالحليم نجار، بقلم: مازن المبارك
٢٦١	مصطفى السباعي تاريخ دعوة في حياة رجل، بقلم: محمد بسام الأسطواني
٢٩٥	خصائص في حياة السباعي، بقلم: محمد سعيد رمضان البوطي
٣٠٣	الشيخ محمد حريري، بقلم: عبدالله علوان
٣٠٦	في ذكرى وفاة الشيخ الإبراهيمي، بقلم: محمد المبارك
٣١٣	محمد البشير الإبراهيمي، بقلم: عمر الحكيم
٣٢٠	محمد البشير الإبراهيمي، بقلم: عبدالرحمن الغريب
٣٣٢	من عظمة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بقلم: محمد الطاهر فضلاء
٣٤٤	الأستاذ المرتبي محمد خير الجلاد، بقلم: محمد أديب الصالح
٣٤٨	صالح زركان فقيد كلية الشريعة، بقلم: محمد المبارك
٣٥٢	في ذكراك يا صالح، بقلم: خالد الرفاعي
٣٥٤	الشيخ يونس عبدالغني، بقلم: عبدالله الطنطاوي

٣٦٠ الشيخ محمد نجيب خياطة، بقلم: محمد أبو اليمن خياطة
٣٦٦ الأستاذ مصطفى الأعسر رحمه الله، بقلم التحرير
٣٦٩ عبدالرحمن الزعبي «الطبيبي»، بقلم: محمد بهجت البيطار
٣٧١ مع الرجل العظيم الداعية الرباني الشيخ محمد الحامد، بقلم التحرير
٣٧٥ حين تعرف الأمة رجالها، بقلم: محمد أديب الصالح
٣٨٢ أخي كما عرفته، بقلم: عبدالغني الحامد
٣٩٠ حماة... وعالمها الزاحل، بقلم: محمد سعيد رمضان البوطي
٤٠٢ ضيف الحضارة: فضيلة الشيخ محمد الحامد
٤١٦ الشيخ محمد إبراهيم الختني، تقديم: محمد أديب الصالح
٤١٧ الفقيه الصالح محمد إبراهيم الختني، بقلم: وهبي سليمان الغاوجي
٤٢٢ العلامة الشيخ محمد إبراهيم الختني المدني، بقلم: محمد سعيد دفتر دار ..
٤٢٧ الشيخ عبدالله هارون، بقلم: علي الخطيب
٤٣٠ الإمام عبدالله هارون، بقلم ابنه: محمد عبدالله هارون
٤٣٣ محب الدين الخطيب كما عرفته، بقلم: أبي الوفا المراغي
٤٣٩ علي أحمد باكثير، بقلم: محمد الحسنائي
٤٤٧ محمد وحيد الدين العالي الحيدر آبادي، بقلم: محمد عبدالستار خان
٤٥٩ الشيخ عبدالوهاب الحافظ الملقب بـ(دبس وزيت)، بقلم التحرير
٤٦٤ الشيخ محمد بن إبراهيم رجل علم وعمل، بقلم: عبدالرحمن رأفت الباشا
٤٦٨ الشيخ صالح العقاد رجل فقدته الأمة الإسلامية، بقلم: محمد سعيد الفيومي
٤٧٨ الشيخ صالح العقاد رحمه الله، بقلم: محمد الصباغ
٤٨٥ محمد الفاضل ابن عاشور، بقلم: محمد أنور الجندي
٤٩٣ محمد الفاضل ابن عاشور، بقلم: محمد الدسوقي
٥٠١ الشيخ محمد السيد رحمه الله، بقلم: سعيد السيد
٥٠٤ القاضي محمد أديب الأهدلي، بقلم: محمد صالح
٥١٢ أبا الأهدلي، قصيدة بقلم الشاعر: محمد الحسنائي
٥١٥ الدكتور عبدالكريم عثمان، بقلم: محمد أديب الصالح
٥٢٢ وداعاً يا عبدالكريم، بقلم: محمد منلا غزيل

٥٢٧ الشيخ نعيم النعيمي الجزائري، بقلم: بلقاسم النعيمي
٥٤٣ الشيخ عبدالكريم الرفاعي، بقلم: عدنان زرزور
٥٥٢ العالم العامل الشيخ عبدالكريم الرفاعي، بقلم: عبدالغني الدقر
٥٥٨ الأستاذ عمر الحكيم رحمه الله، بقلم: عدنان زرزور
٥٧١ الشهيد العالم عمر الحكيم رحمه الله، بقلم: شفيق يبرودي
٥٧٧ عبدالله التل، بقلم: ماجد الكيلاني
٥٨٤ الأستاذ عبدالقادر السبسي رحمه الله، بقلم: عبدالوهاب التونجي
٥٩٥ المحامي عبدالقادر السبسي رحمه الله، بقلم: محمد فؤاد قسطلبي
٦٠٠ الأستاذ عبدالقادر السبسي رحمه الله، بقلم ابنه: أنس السبسي
٦٠٨ حفل تأبين الأستاذ عبدالقادر السبسي
٦١٢ الأستاذ خالد الرفاعي، بقلم: عمر عبيد حسنة
٦٢٠ مالك بن نبي... الفيلسوف الرائد، بقلم: عمر مسقاوي
٦٢٧ لمحات في وداع مالك بن نبي، بقلم: محمد منلا غزيل
٦٣١ لمحة جديدة في ذكرى مالك بن نبي، بقلم: محمد منلا غزيل
٦٣٥ السيد محمد المكي الكتاني، بقلم: عمر بهاء الأميري
٦٤٢ الأستاذ إبراهيم أبازيد، بقلم: محمود مفلح
٦٤٧ الشيخ محمد أبو زهرة، بقلم: وهبة الزحيلي
٦٥٤ العلامة محمد أبو زهرة، بقلم: عدنان زرزور
٦٦٨ الحاج محمد أمين الحسيني، بقلم التحرير
٦٧٧ علال الفاسي، بقلم: عمر بهاء الدين الأميري
٦٨٤ الأستاذ عبدالباسط عباس، بقلم: مصطفى البيراوي
٦٨٨ في وداع عبدالباسط عباس، قصيدة للشاعر: محمد منلا غزيل
٦٨٩ الأستاذ جلال حسون، بقلم: إبراهيم عاصي
٦٩٣ الأخ الحبيب محمد علي الدعاس، بقلم: عبدالنافع الرفاعي
٦٩٦ الشيخ أحمد عز الدين البيانوني، بقلم: عبدالله علوان
٧٠١ الشيخ محمد سعدي الياسين رحمه الله، بقلم: مسلم الغنيمي
٧٠٨ الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله، بقلم: مسلم الغنيمي

٧١٨ العلامة المصلح محمد بهجة البيطار، بقلم: سعدي أبو جيب
٧٢٨ الشيخ محمد سعيد المسعود: مفتي الباب، بقلم: حسن عبدالحميد
٧٣٥ الدكتور تيسير رمضان الحصاد، بقلم: محسن خرابة
٧٤٣ الشيخ أحمد الدقر، بقلم: عبدالغني الدقر
٧٥١ الدكتور محمد أمين المصري، بقلم: مجد مكي
٧٥٥ الشيخ زين العابدين التونسي، بقلم: علي الرضا التونسي
٧٦٠ الشيخ محمد يوسف البنوري، بقلم: عبدالعزيز عبدالجليل
٧٦٦ السيد محمد يوسف البنوري، بقلم: مجد مكي
٧٧٤ الأستاذ محمد غسان المراد، بقلم: عبدالقادر حداد
٧٧٨ الشيخ محمد سيادي المراد رحمه الله تعالى، بقلم: محمد بشير المراد
٧٨٤ العلامة المجاهد الشيخ حسن حبنكة رحمه الله، بقلم: عبدالرحمن حبنكة
٧٩٣ الشيخ حسن حبنكة: ظاهرة وتاريخ، بقلم: عدنان زرزور
٨٠٩ الشيخ عبدالعزيز عيون السود، بقلم: محمد علي مشعل
٨١٧ الشيخ بكري رجب، بقلم: عبدالله علوان
٨٢١ الشيخ بكري رجب، بقلم: فياض عيسو
٨٢٦ وفاة الأستاذ المودودي رحمه الله، بقلم: التحرير
٨٣٢ الشيخ خيرو ياسين، بقلم: محمد عيد البغا
٨٣٦ الأستاذ محمد المبارك، بقلم: مصطفى الزرقا
٨٤٣ الشيخ محمد صالح الفرفور، بقلم: مجد مكي
٨٥٤ الشيخ محمد أبو الفرج الخطيب، بقلم: مجد مكي
٨٦٦ الشيخ عبدالله علوان، بقلم: مجد مكي
٨٧٢ الشاعر عمر بهاء الدين الأميري، بقلم: باسل رفاعي
٨٧٥ لمحات من حياة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، بقلم: مجد مكي
٨٨٠ العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، قلّ نظيره في علمه وأدبه، بقلم: حسن قاطرجي
٨٩٨ الشيخ عبدالرحمن الصوفي، بقلم: نبيل طويل
 الشيخ عبدالرحمن الصوفي، رائد من رواد العمل الإسلامي في سورية،

٩٠٢ بقلم: عبداللطيف الهاشمي
٩٠٦ الشيخ علي الطنطاوي من حماة الإسلام، بقلم: مجد مكي
٩١٥ الشيخ علي الطنطاوي ومجالسه المباركة، بقلم: مجد مكي
٩٢٤ الشيخ مصطفى الزرقا أستاذ جيل وإمام عصر، بقلم: أحمد الحججي الكردي
٩٣٣ الشيخ مصطفى الزرقا الفقيه النابغة، بقلم: مجد مكي
٩٤٢ الشيخ عطية محمد سالم، بقلم: مجد مكي
٩٤٨ أبو الحسن الندوي، داعية عالمي من الطراز الرفيع، بقلم: حسن قاطرجي .
٩٥٤ محمد مجاهد شعبان، العالم الداعية المجاهد، بقلم: عائشة خياطة
٩٥٩ الآثار العلمية والأدبية للشيخ محمد مجاهد شعبان، بقلم: عبدالرحمن الحاج
٩٦٤ الشيخ عبدالله سراج الدين، بقلم: محمد عوامة
٩٦٩ الشيخ عبدالله سراج الدين، بقلم: بكري الشيخ أمين
٩٧٦ عبدالغني الدقر، النحوي الفقيه والمؤرخ الأديب، بقلم: مجد مكي
٩٨٥ الفقيه الكبير أحمد فهمي أبو سُنّة، سيرة حياته بقلمه
٩٩٧ الشيخ أحمد فهمي أبو سنة... سيرة موجزة لعالم، بقلم: وفاء سعداوي .
١٠٠٤ الشيخ عبدالرحمن حبنكة الميداني، بقلم: مجد مكي
١٠١٤ الشيخ الدكتور ناجي عجم، بقلم: مجد مكي
١٠١٨ الشيخ الدكتور مصطفى الخن، بقلم: مجد مكي
١٠٣٠ الشيخ محمد الحجار العابد الزاهد، بقلم: مجد مكي
١٠٤٣ الشاعر الإسلامي محمد الحسناوي، بقلم: مجد مكي
١٠٥٠ الشيخ صادق حبنكة الميداني، بقلم: مجد مكي
١٠٥٣ الشيخ أحمد قلاش، بقلم: مجد مكي
١٠٦٠ الأستاذ هاني الطابع، بقلم: مجد مكي
١٠٦٥ وداعاً أبا ربيع، بقلم: عدنان زرزور
١٠٦٩ الشيخ عبدالغفار الدروبي، بقلم: مجد مكي
١٠٧٤ في وداع الشيخ عبدالغفار الدروبي، بقلم: محمد ياسر مسدي



هذا الكتاب

يضمُّ هذا الكتاب التراجم التي نُشرت في ركن «رجل فقدناه» من مجلة «حضارة الإسلام» الدمشقية التي صدرت خلال عشرين عاماً (١٣٨٠ - ١٤٠٠)، وقَدِّمَ المحقِّق للكتاب بمقدمة وافية تُعرِّف بالمجلة، وتلقي الضوء على أهم موضوعاتها وأبرز كُتَّابها.

وقد استقصى جميع التراجم الواردة في ركن «رجل فقدناه»، التي تزيد على ستين ترجمة، وأضاف إليها عدداً مئناً تقدَّمت وفاتهم عن تاريخ صدور المجلة الذين نُشرت تراجمهم فيها، كما أضاف عدداً وافياً من التراجم في النطاق الزمني لصدور المجلة وبعد توقُّفها حتى سنة ١٤٣٠، تقارب أربعين ترجمة أكثرها بقلم المحقق وتحريره، وعُني بتصحيح الكتاب وترقيمه، ووضع العناوين الجانبية الكثيرة التي تضيء الطريق للقارئ، ونشر الكثير من الفوائد في حواشي الكتاب، وحرص على نشر صور المترجمين الذين نُشرت صورهم في المجلة، وأضاف عدداً من الصور النادرة والخطوط الجميلة، وقد بذل جهده في تقديم الكتاب بأحسن مضمون وأجمل صورة.

فشكر الله للمحقِّق جزاء ما قدَّم من وقت في جمع هذه المادة النادرة، وأحسن إليه كفاء تعريفه بهؤلاء الرجال ونشره لمآثرهم، وإشادته بجهودهم، وجمعه لما تفرَّق من أخبارهم، وأجزل له الأجر والمثوبة لخدماته المتنوعة للكتاب، وتقديمه له بمقدمة وافية وإضافات كثيرة نافعة.

رَجُلٌ فَقِدْنَا أَهْمَهُ



هذا الكتاب

يضمُّ هذا الكتاب التراجم التي نُشرت في ركن «رجل فقدناه» من مجلة «حضارة الإسلام» الدمشقية التي صدرت خلال عشرين عاماً (1380 - 1400)، وقَدَّم المحقق للكتاب بمقدمة وافية تُعرِّف بالمجلة، وتلقي الضوء على أهم موضوعاتها وأبرز كتّابها.

وقد استقصى جميع التراجم الواردة في ركن «رجل فقدناه»، التي تزيد على ستين ترجمة، وأضاف إليها عدداً مُمّن تقدّمت وفاتهم عن تاريخ صدور المجلة الذين نُشرت تراجمهم فيها، كما أضاف عدداً وافياً من التراجم في النطاق الزمني لصدور المجلة وبعد توقُّفها حتى سنة 1430، تقارب أربعين ترجمة أكثرها بقلم المحقق وتحريره، وعُني بتصحيح الكتاب وترقيمه، ووضع العناوين الجانبية الكثيرة التي تضيء الطريق للقارئ، ونشر الكثير من الفوائد في حواشي الكتاب، وحرص على نشر صور المترجمين الذين نُشرت صورهم في المجلة، وأضاف عدداً من الصور النادرة والخطوط الجميلة، وقد بذل جهده في تقديم الكتاب بأحسن مضمون وأجمل صورة.